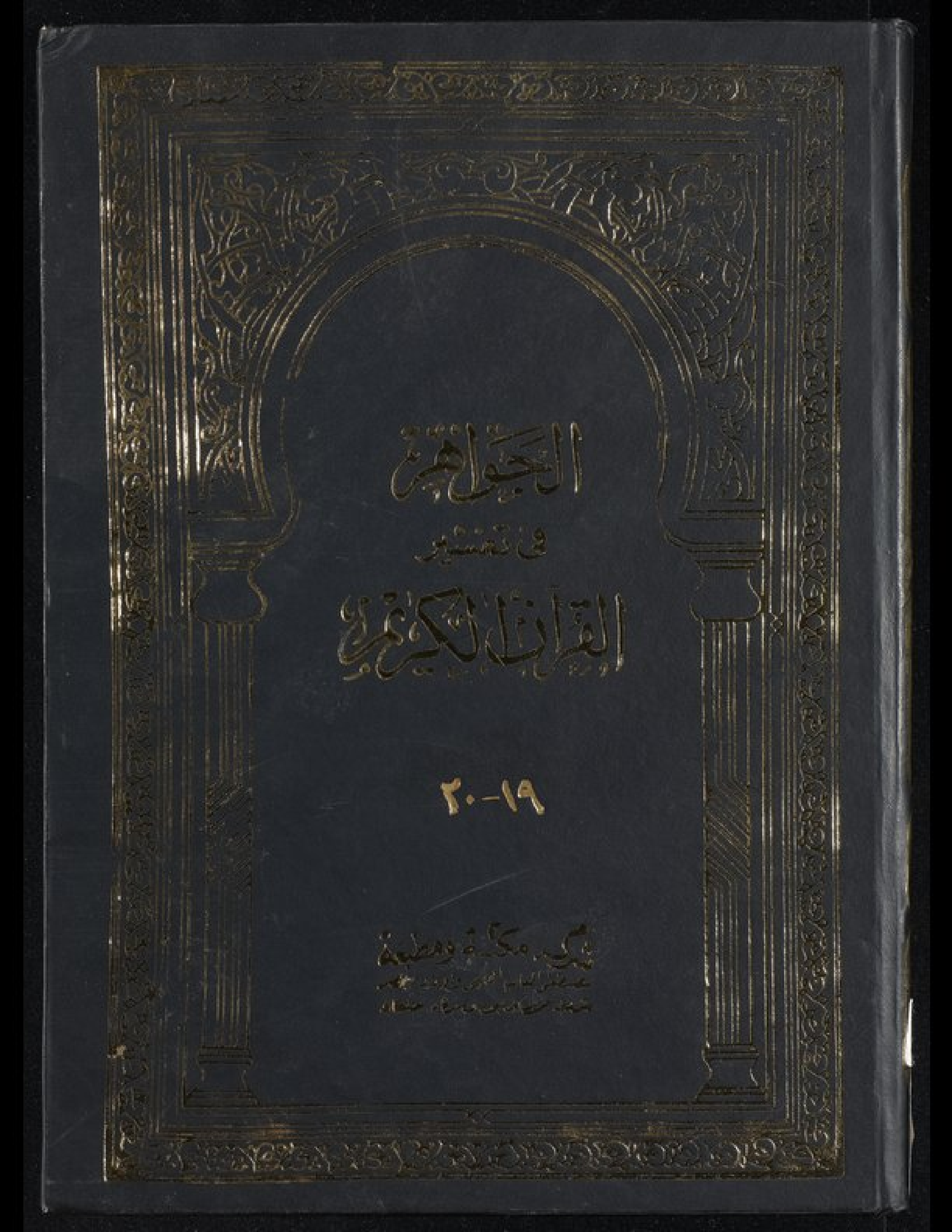

الجواهر
في تفسير
القرآن الكريم
١٩-٢٠
شركة مكتبة ومطبعة

الجواهر

في تفسير القرآن الكريم

المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات

تأليف

الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوى جوهرى

المدرس بالجامعة المصرية ومدرسة دار العلوم سابقا

متع الله المسلمين بحياته آمين

الجزء التاسع عشر

الطبعة الثانية

١٣٥٠ هـ — رقم ١٧١

طبع بمطبعة

مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر

مباشرها محمد أمين عمران



تفسير سورة غافر

(هى مكية)

إلا آيتى - إنّ الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم إن فى صدورهم إلا كبر ماهم ببالغيه فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير * لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكنّ أكثرالناس لايعلمون - فمدنيتان

(آياتها ٨٥ - نزلت بعدالزمر)

يروى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : « إنّ مثل صاحب القرآن كمثل رجل انطلق يرتاد لأهله منزلا فمرّ بأثر غيث فبينما هو يسير فيه ويتعجب منه إذ هبط على روضات دمثات فقال عجبت من الغيث الأوّل فهذا أعجب منه وأعجب ! فقيل له : إن مثل الغيث الأوّل مثل عظم القرآن ، وأن مثل هذه الروضات الدمثات مثل آل حم فى القرآن » وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « لكل شئ لباب ولباب القرآن الحواميم » اه

(هذه السورة أربعة أقسام)

« القسم الأوّل » فى تفسير البسملة

« القسم الثانى » غلب فيها وصف حملة العرش واتصال عالم الملائكة بعالم الانسان إشراقا وتعليما وتنظيما لمناسبة ماقى آخر (سورة الزمر) من أوّل السورة الى قوله - إن الله هوالسميع البصير -

« القسم الثالث » الاعتبار بالأمم الماضية وتخصيص موسى بالذكر عليه السلام وبنى اسرائيل والمؤمن من آل فرعون من قوله - أولم يسيروا فى الأرض - الى قوله - وسبح بحمد ربك بالعشىّ والابكار -

« القسم

« القسم الرابع » غلب فيه النظر فى عجائب الحكمة الإلهية من قوله - إن الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان - الى آخر السورة ، فيرجع معظم أجزائها ومقصودها الى العالم الروحى الأعلى فالأنبياء السابقين فعجائب العالم المحسوس

﴿ القسم الأول فى تفسير البسملة ﴾

لك الحمد اللهم على نعمة العلم والتوفيق ومعرفة بعض العجائب القرآنية والرحمات النورية والبهجات الحكمية والسعادة العقلية والجمال والبهاء والسرور بالابداع ، أريتنا أن بين سورة الزمر والمؤمن المتعاقبتين مناسبة بديعة ، ففى آخر الزمر أن الملائكة حافون من حول العرش ، فهناك ذكر للعرش وملائكة حافون وتسبيح وتحميد ، وههنا فى سورة المؤمن ذكر الملائكة والعرش والتسبيح والتحميد ، وهكذا ذكر العرش مرّة أخرى فيها - رفيع الدرجات ذو العرش - وبين ماذكر فى آخر سورة الزمر وماذكر فى أوائل سورة المؤمن من العرش والملائكة والتسبيح والتحميد جاءت البسملة وفيها اسم الله واسم الرحمن الرحيم . ههنا رحمة جاء ذكرها متخللا ذكر العرش وما معه ، وكما أن الرحمة العامة فى البسملة فى أوّل ﴿ سورة ص ﴾ كان اتجاهها إيقاظا لصفة الاخلاص المذكور معناه فى آخر سورة الصافات وفى أوّل سورة ص هكذا هنا الرحمة العامة فى البسملة متجهة الى إفاضة العلم والحكمة وتعميم الهداية فى نوع الانسان فان أولئك الملائكة الحافين من حول العرش المسبحين بحمد ربهم يستغفرون للذين آمنوا والله الذى أبدع العرش يلق الروح من أمره على من يشاء من عباده ، والرسل بينه وبين الأنبياء هم الملائكة

واعلم أن عروش الملوك لاتقوم إلا على دعامتين : دعامة هى أبهة الملك وعظمته وترجع الى القدرة والجاه ودعامة هى العلم الذى به نظم ذلك الملك ، والمملكة التى لاقوّة فيها ولانظام لها مفككة الأجزاء معطلة واهية ذاهبة ، فكل عرش انما يقوم على القدرة وعلى العلم . والقدرة تكون بالمال وبالرجال . والعلم يقوم بنظام الحياة الطبيعية والحياة السياسية . فله إذن فى أرضنا أربع دعائم . وعرش الله عزّوجل مشروح فى آية الكرسى ومبناه فيها العلم والقدرة . فاذا كان الله سبحانه لاتأخذه سنة ولا نوم وهو يعلم مابين أيديهم وما خلفهم وهم لايحيطون بشئ من علمه الخ فذلك كله راجع للعلم وكونه له مافى السموات ومافى الأرض ولايشفع عنده أحد إلا باذنه فذلك راجع للقدرة . ولقد جاء ذكر العرش فى آخر ﴿ سورة التوبة ﴾ فى آية - فان تولوا فقل حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم - وجاء فى أوّل ﴿ سورة يونس ﴾ - إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر - فالاستواء على العرش بالقدرة وتدبير الأمر بالعلم . وجاء فى أوّل ﴿ سورة هود ﴾ بعدها - وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء - والمقام هناك واضح فى معنى العرش الذى سقنا له الكلام هنا إن كل عرش لايتم إلا بعلم وقدرة . واذا كان العرش فى آخر التوبة وفى أوائل سورة يونس وهود ذكرنا بأن الأمم الاسلامية تولت عروش أمم وقامت بحفظ بلادها . وتلك الأمم هى المذكورة فى سورة يونس وهود . فتكرار العرش هناك فى السور الثلاث وتخلل ذكر الرحمة فى البسملة فى أوائلها قد أعقبه أن ملك المسلمون تلك العروش التى فى أرض مصر المشار اليها بقصة موسى وهرون فيها وأرض الجزيرة ومابين النهرين من بلاد الآشوريين والبابليين . فهذه كلها الآن بلاد اسلامية وهذه البلاد مشار اليها بقصة يونس إذ كان فى نينوى وهى من تلك البلاد . وقد فصلت فى سورة هود قصة نوح . ولقد كانت سفينته هناك عند (جبال ارارات) وهذه فى تلك الناحية التى قام فيها الكرد اليوم . وهم يريدون الخروج من الدولة التركية . وهذه الجبال فى بلاد العراق مما يلى بلاد الترك . ولاجرم أنها بلاد اسلامية الى الآن . وهكذا فصلت قصة عاد وثمود وقصة

ابراهيم ولوط ومدين وموسى . ولاجرم أن هذه البلاد كلها عربية وهى اسلامية اليوم . فلوط ببلاد الشام وهكذا ابراهيم وعاد وثمود فى بلاد حضرموت وما يليها ومدين حوالى بحر القلزم وهو البحر الأحمر من جهات الشرق . فهذه العروش كلها أصبحت عروشا اسلامية . هذا ماتقدم فى سورة التوبة ويونس وهود

وهكذا هنا فان العرش الذى ذكر فى سورة الزمر وفى سورة المؤمن قد ذكرنا بالهداية العامة والملك كما تقدم . ألاترى الى قوله تعالى ـ يسبحون بحمد ربهم و يستغفرون لمن فى الأرض ـ فالملائكة الحافون من حول العرش لهم حالان : تنزيه الله عما لايليق بجماله واستغفارلمن فى الأرض . ومن طلب المغفرة لأحد أحب هدايته والملائكة هم الذين يلهمون الناس الخير وهم الذين يكونون سفراء بين الله و بين أنبيائه فهم ملقنون الوحى للأنبياء وهم ملهمو الخير للمؤمنين . وترى هذا الأمر واضحا فى قوله تعالى ـ ربنا وسعت كل شئ رحمة وعلما ـ فذكر الرحمة وذكر العلم . ثم يقولون ـ فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ـ الخ

وهذه الصفة العلمية هى إحدى الدعامتين اللتين تنقسمان الى قسمين آخرين كما تقدم . وتكون هذه الأربعة الدعائم للعروش والدعامة الأخرى هى القدرة ولقد غلبت هنا فى ذكر الأمم السابقة ـ أولم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا فى الأرض ـ الخ وفصل بعضهم فى خلال قصة موسى إذ قال ـ مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم ـ فهذه القصص مفصلة ومجملة ترجع للقصص التى فى سورة يونس وهود بعد سورة التوبة وكلها ذات عروش والعروش قد أصبحت للمسلمين . ذكر العرش فى التوبة ومابعدها وذكره فى الزمر وسورة المؤمن للاشارة الى ماوصفنا من أن هذه العروش فى تلك البلاد لاتزال الى الآن فى أيدى المسلمين

واعلم أن هذا ان لم نتبعه بنصائح للمسلمين لا يكون العلم به نافعا ، فانه اذا كان ذكر العرش فى هاتين السورتين مشيرا الى ذلك كما أشار فى السور الثلاث السابقة وهى هود ومابعدها من غير عظة تلحقه وعمل يتبع العلم ، بقى المسلمون على ماهم عليه يفرحون بما يفتح عليهم من أسرار القرآن ولكنهم لايحركون ساكنا ويتركون حبل الأمم على غاربها ، ونحن نقول أيها المسلمون : هذه العجائب ومعرفتها ليست تجزينا وحدها فالعلم إن لم يتبعه العمل لم يفد الناس . فاذا سمعت أن الملائكة يسبحون بحمد ربهم و يستغفرون لمن فى الأرض فذلك تذكير لنا أن نبرع فى ﴿ أمرين : الأمر الأول ﴾ المعرفة العامة بالعلوم الطبيعية والرياضية حتى ندرك جمال الله وجلاله فى السموات والأرض بدراسة علوم جميع الأمم حولنا مع اضافة مباحثنا العقلية ، وبذلك وحده ندرك معنى قوله تعالى ـ والملائكة يسبحون بحمد ربهم ـ فكيف يكون التنزيه بلاعلم بالآثار التى أبدعها ، وكيف يكون حمد على نعم نجهل تفصيلها ، فالحمد اللفظى عبادة والحمد الحقيقى علم ولاعلم إلا بالدراسة ومعرفة الحقائق ، والعابد الجاهل قليل المنفعة والعالم هو الذى اتبع الأنبياء وقلد الملائكة المسبحين بحمد ربهم ﴿ الأمر الثانى ﴾ أن نكون نافعين للناس فلاتكون حياتنا وقفا على العلم وحده لأن ثمرة العلم إفاضة الخير على الناس والملائكة الحافون حول العرش كما أنهم يسبحون بحمد ربهم يفيضون الخير على أهل الأرض ، ولاجرم أن لنا ضمائر وعقولا هى محل إفاضة الخير من الملائكة علينا ، فلنقم بالعلم ولنقم بالعمل والعالم كله متشابه متسق ، فليكن العلماء فى الأمم الاسلامية بعدنا متحلين بجمال العلم بهذا الوجود تفصيلا على قدر امكانهم أولا وليكونوا مفيضين على الناس من علومهم ، ويجب أن تكون علومهم شاملة لخيرى الدنيا والآخرة حتى يتم حمدهم والحمد يكون على نعمة ونعمة الدنيا مشاهدة محسوسة . ومن جهل المحسوس جهل المعقول . ومن حمد بلاعلم فحمده رياء وقول لفظى ضئيل . واذا لم يقم العلماء فى الاسلام بهذه الشرائط واستمر المسلمون على نومهم العميق وسلموا أعناقهم وخضعوا للجهلاء ممن لايعقلون بدائع هذه الدنيا وحكم

خالقها الحكيم فان العروش المذكورة فى ﴿ سورة المؤمن ﴾ المفصلة فى سورة يونس وهود التى هى فى أيدى المسلمين تميد و يملكها أمم غيرنا وهذا آخر انذار فى هذا التفسير للمسلمين

الملائكة يسبحون و يعلمون الناس الخير وهم حافون حول العرش هكذا العلماء حافون حول عروش الأمم الاسلامية . اذا هم لم يقوموا بحق العروش من العلم الجم وافاضة العلم على أمم الاسلام . وهذا العلم يليق لاقامة العروش و بقائها فان هذه العروش ساقطة فى أيدى الأمم الأخرى . ولقد سقطت عروش الأندلس التى كانت مفرقة عشرين دولة ولم يكن لهم من الدين مايزعهم والشعراء كان لهم بينهم القدح المعلى وقبل ذلك سقطت بغداد التى كان لها السلطان على هذه العروش المذكورة فى يونس ومابعدها وهى سورة المؤمن

واذا كان عرش الله وهو القائم على كل نفس بما كسبت تحفه الملائكة المسبحون المستغفرون لايفارقونه فكيف يقوم عرش الانسان الضعيف إلا بعلم و بافاضة على الخاضعين للعرش

ومن العجب أن فى ﴿ سورة التوبة ﴾ ذكرا لما يوافق اسمها من أن الله تعالى تاب على النبى ﷺ والمهاجرين والأنصار الخ وتاب على الثلاثة الذين خلفوا الخ فهناك توبة وههنا توبة وغفران للذنوب المذكورين فى قوله تعالى - غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب - ههنا ذكر للعقاب الشديد وذكر للمغفرة وماأنسب هذين بالعرش لأن المستوى على العرش يدبر الأمر ومن يدبر الأمر يعاقب تارة و يغفر أخرى و يتوب على من يشاء وهذا شديد المناسبة بالعرش ولذلك ذكر فى آخر سورة التوبة . فالملك يناسبه ذلك غفران وتوبة تارة وعقوبة تارة أخرى وذلك يكون على مقتضى العلم . والعرش انما ينبنى على العلم وعلى القدرة ومظاهر هذين تسبيح الملائكة وحمدهم واستغفارهم وهم حافون حوله فعلمهم وافاضتهم الخير على الناس مظاهر وآثار لما فوق ذلك من علم الله وقدرته اللتين بآثارهما أقيم العرش . فالله قادر وعليم والملائكة استمدوا منه والمؤمنون لاسيما علماؤهم يستمدون من الملائكة . وفى هذه السورة من المباحث أنواع ،

(١) عجائب الأرض الواسعة ومافيها من حكم وعجائب فى آية - أولم يسيروا فى الأرض - الخ

(٢) والسموات والأرض فى آية - لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس -

(٣) تفصيل النوع الأول فى آية - الله الذى جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء - . وهنا ذكر صورنا وحسنها

(٤) تفصيل النوع الثالث فى آية - هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة - ففى هذا تبيان نمو الانسان حالا بعد حال

(٥) بيان الأنعام التى نركبها والتى نأكلها

(٦) وختم السورة بما يلخص السورة كلها من انه أرانا آياته كلها ومن أن سيرنا فى الأرض يعرفنا عاقبة الأمم الخ

(٧) وفى السورة الالتجاء الى الله - فادعوا الله مخلصين له الدين -

(٨) وفيها ان الله ينصر رسله وتابعيهم - إنا لننصر رسلنا - الخ وفيها - فوقاه الله سيآت مامكروا -

(٩) وفيها تبيان أن الضعفاء يحتجون بأن المستكبرين أضلوهم و يجيبهم المستكبرون و يقع الجميع فى العذاب

(١٠) وذلك لأن المدار على الأنواع السبعة السابقة من النظر بالعقل فى السموات والأرض ، وخلق الانسان والأنعام . فاذا احتج انسان بأن غيره أضله فحجته داحضة لأنه يقال له : أين عقلك إذن ؟ فلك أيها الضعيف عقل كالمستكبر فكيف أتمته ؟ ولماذا لم تسر فى الأرض وتنظر العواقب أفليس من عجب أن يكون الله برحمته أنزل القرآن وعلم المسلمين فيه تربيتين : تربية لاذكر للأسباب

معها غالبا وهي الصلوات وأنواع العبادات وهي التربية العملية ، وتربية علمية وهي المباحث التي تكون بها الهداية ، وهذه هي النظرية كالنظر في الأنفس والآفاق الخ وهذه لايغتفر فيها اهمال العقل ، وبهذه يتحاج المستكبرون والضعفاء ويقع الجميع في العذاب ، ولقد علمت أيها الذكي فيما نقلناه عن (كانت) الألماني في كتاب التربية : « أن التربية العملية أولا تكون بلا ذكر للأسباب فاذا كبر الصبي علم الأسباب » وهنا في القرآن — ولاتقربوا الزنا إنه كان فاحشة — فهذا أمر في نفسه مذموم وهكذا في القتل جاء في سورة المائدة — من قتل نفسا بغير نفس أوفساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا — الخ وجاء في سورة البقرة — ولكم في القصاص حياة يأولى الألباب —

هذه في التربية العملية فهي اشتملت على مالم يذكر معه سبب وعلى ماذكر معه السبب وهذا هو الذي قرّره علماء التربية في عصرنا ، فأما التربية العلمية فلاتصح إلا بالنظر العقلي ولذلك لما تحاج أهل النار لم ينفع الضعفاء الاحتجاج بالذين استكبروا

أيها المسلمون : إن القرآن ملاء حكمة وأنتم التاركون لها ، وهذه الآيات فيها عجائب ولكن الله تعالى حرمها على النائمين الساهين اللاهين الذين لايفكرون ، فكم ذكر الله محاجة الكفار في النار في هذه السورة وفي سورة سبأ وفي سور كثيرة ، كل ذلك ليوقظ شعور المسلمين الذين ناموا نوما عميقا فيفكروا بعقولهم . إني أنذر المسلمين بهذا التفسير . أنذرهم قبل فوات الفرصة . إن هذا الكتاب قد جاء بين عهدين كبيرين : عهد النوم العميق للأمم السابقة وعهد اليقظة للأمم المستقبلة . وسيستقبل المسلمون أيام العلم والعمل بعد أن استدبروا أيام الجهل والكسل والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم . كتب صباح يوم الخميس ٢٥ سبتمبر سنة ١٩٣٠ انتهى القسم الأوّل في تفسير البسملة والحمد لله رب العالمين

﴿ القسم الثاني من السورة ﴾

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

حٰمٓ • تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ • غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَآ إِلٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ • مَا يُجَادِلُ فِي ءَايَاتِ اللهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ • كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ • وَكَذٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ • الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ • رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ

إنك أنت العزيز الحكيم • وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك
هو الفوز العظيم • إن الذين كفروا ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ
تدعون إلى الإيمان فتكفرون • قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا
بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل • ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم وإن
يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلي الكبير • هو الذي يريكم آياته وينزل لكم
من السماء رزقا وما يتذكر إلا من ينيب • فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره
الكافرون • رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده
لينذر يوم التلاق • يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله
الواحد القهار • اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب •
وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع
يطاع • يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور • والله يقضي بالحق والذين يدعون من
دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير •

﴿ التفسير اللفظى ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

(حم) تقدم الكلام على الحروف كلها فى أول ﴿آل عمران﴾ وفى أوائل ﴿العنكبوت﴾ ومابعدها ويختص الكلام على حم هنا بأنها تشير الى حمد سبق فى آخر الزمر وحمد يأتى فى هذه السورة ، والحمدان صادران من الملائكة والمؤمنين كما رأيت فى آخر الزمر وكما سترى هنا عند قوله تعالى — الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا — الخ فرجعت هذه الاشارة العجيبة الى استكمال قوة العلم وافاضته على المتعلمين فان الحمد وتمامه ليس يكون إلا باستكمال قوة العلم ، وكيف يحمد الانسان على نعمة يجهلها ، وكما كانت الم تشير فى العنكبوت ومابعدها الى تحقيق المباحث العنصرية والوقوف على حقائق هكذا هنا يراد بالحاء والميم استكمال قوة العلم فى جميع الفروع إذ لاحمد كاملا إلا بعد علم بالمحمود عليه ولاتعليم يصدق إلا لمن استكمل العلم ، وهذا هوالذى تشير له حم ولذلك أردفها بقوله (تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم) بكل المعلومات ، وحمد العبد تابع لعلمه بما أبدعه الله تعالى والله يحب من تخلق بأخلاقه والعلم منها (غافر الذنب) ساتره (وقابل التوب) أى التوبة (شديد العقاب) فالأول لمن آمن وأطاع والثانى لمن كفر وعصى (ذى الطول) ذى السعة والغنى والفضل والنعم (لا إله إلا هو) فليقبل الانسان بكليته عليه (اليه المصير) فيجازى كلا بما يستحق ، وهذه الصفات جمعت بين الترغيب والترهيب لئلا ييأس الناس من

الرحمة ولا يأمنوا مكر الله ، فلما حقق أمر التنزيل سجل الكفر على المجادلين فيه بالباطل . فقد قيل « إن جدالا فى القرآن كفر » فأما الجدال لايضاح الملتبس فهو مرغوب فيه فقال (ما يجادل فى آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم فى البلاد) فلا يغررك إمهالهم وتقلبهم فى بلاد الشام واليمن بالتجارات المربحة فانهم سيؤخذون قريبا كما أخذ من قبلهم (كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم) والذين تحزبوا على الرسل بعد نوح كعاد وثمود (وهمت كل أمة) من هذه الأمم (برسولهم ليأخذوه) ليقتلوه أو ليأسروه (وجادلوا بالباطل) بما لاحقيقة له (ليدحضوا به الحق) ليزيلوه به (فأخذتهم) بالاهلاك جزاء لهم (فكيف كان عقاب) أى فكيف كان عقابى إياهم ، ألم يكن مستأصلا مهلكا وأنتم تمرون على ديارهم وترون آثارهم وفيه معنى التعجيب (وكذلك حقت كلمة ربك) وعيده وقضاؤه بالعذاب (على الذين كفروا) لكفرهم (أنهم أصحاب النار) بدل من كلمة ربك ، ابتدأ الله السورة بصفات العزة والعلم والقدرة الواسعة ، وبذكر الرحمة والعقاب ، ثم أتبع ذلك بمن استوجبوا العقاب وأعقبهم بذكر من هم على النقيض من حالهم فهما على طرفى نقيض ، كفار فى أسفل دركات الشقاء ، وحملة العرش فى أعلى دركات العز والهناء فقال (الذين يحملون العرش ومن حوله) أى حاملو العرش والحافون حوله وهم الكروبيون أعلى طبقات الملائكة وأولهم وجودا ولامعنى للحمل إلا الحفظ والتدبير وذلك يستلزم قربهم من ربهم ومكانتهم عنده وعلوهم على العالمين . ألا ترى أن كل من كان فى الناس أغزر علما وأحسن تدبيرا يكون أرقى منزلة ، فهؤلاء (يسبحون بحمد ربهم) أى يذكرونه بمجامع الثناء :

(١) من صفات الجلال التى هى عبارة عن التسبيح أى التنزيه عن مقام المحدثين ككونه لاأول له ولا آخر لبقائه وانه مخالف للحوادث فى ذاته وصفاته وأفعاله .

(٢) ومن صفات الاكرام كعلمه وقدرته وارادته وكلامه ، فالاشارة للأول بالتسبيح وللثانى بالتحميد فالصفات الأولى كمال والثانية مشتملة على التكميل كالخلق والرزق والحبة والهداية وما أشبه ذلك

وقوله (ويؤمنون به) انما ذكر للدلالة على اظهار فضيلة الايمان والا فحمل العرش لا يكون إلا بكمال العلم ، ولا كمال للعلم إلا بعد مبدأ الايمان ، وذلك لأن المقام مقام إبراز أمة وابرازها انما يكون أولا بالايمان ثم يتبعه العلم ، فلذلك قصر الكلام على ذلك فقال (ويستغفرون للذين آمنوا) أى يسألون الله المغفرة لهم ومعنى ذلك أنهم يحملونهم على التوبة ويلهمونهم مايوجب المغفرة ، إن هؤلاء الملائكة يمتعون بالقرب من ربهم فهم مدبرون للعالم نظاما جسميا وارشادا علميا ، فالوحى منهم للأنبياء بأمر ربهم ، والالهام منهم لذوى الفطر القابلة للخير ، ولايستمد ... عن إلهام الخير امرؤ من الناس إلا اذا كانت فطرته تصدأ عن القبول منهم فيتولى الشياطين هدا... المؤدى الى الفساد ثم بين الاستغفار المذكور المعبر به عن إلهامهم بما يكون نتيجة له من ... شمول الرحمة الإلهية العامة لهم والمغفرة وادخالهم الجنة مع آبائهم وأزواجهم وذرياتهم اذا صلحوا كصلاحهم ، وهذا البيان هو قوله يقولون (ربنا وسعت كل شئ رحمة وعلما) فان كل حيوان مثلا قد ألهم مابه صلاحه الموافق له وفطر عليه والانسان بعدت طرقه ونحن نجد فى هدايته الى الصراط المستقيم بالالهام والارشاد (فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك) لاستعداد فطرهم لقبول الهداية من الرسول وخلفائه ومن الالهامات التى توجهها اليهم (وقهم عذاب الجحيم) واحفظهم عنه (ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم) إياها (ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم) عطف على هم من أدخلهم (إنك أنت العزيز الحكيم) الملك الذى لايغلب وأنت مع ملكك وعزتك لاتفعل شيأ خاليا عن الحكمة ومن موجب حكمتك أن تدخل معهم من صلح من آبائهم ليتم سرورهم وأن تتم وعدك الذى وعدت (وقهم السيآت) أى المعاصى فى الدنيا (ومن تق السيآت يومئذ فقد رحمته) ومن تقها فى الدنيا فقد رحمته فى الآخرة (وذلك

هو

هو الفوز العظيم) أى النعيم الذى لا ينقطع فى جوار مليك لا تصل العقول الى كنه عظمته

《 فصل فى ذكر نتائج الكفر 》

لما ذكر الله سبحانه وتعالى أحوال الكافرين فى الدنيا ، وبين موجبات الهداية والعناية المبذولة من حملة العرش وصفوف الملائكة بالالهام مع تدبير الملك واهتمامهم بهداية الناس أتبعه بما هو النتيجة اللازمة لذلك وهى ان هؤلاء يندمون حين يوضعون فى الدركات التى هم أولى بها فى جهنم فقال (إن الذين كفروا ينادون) يوم القيامة وهم فى النار وقد مقتوا أنفسهم حين عرضت عليهم سيآتهم وعاينوا العذاب فيقال لهم (لمقت الله) إياكم فى الدنيا والآخرة (أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون الى الايمان فتكفرون * قالوا ربنا أمتنا) إماتتين (اثنتين وأحييتنا اثنتين) أى أمتنا فى الدنيا ثم أحييتنا فى القبر للسؤال ثم أمتنا فى البرزخ وأحييتنا للبعث لأن الانسان عند الموت يخلع هذا الهيكل الجسمى وتبق الروح بالجسم الأثيرى اللطيف المماثل لأجسامنا الأرضية ، فهذا موت وانتقال من حال الى حال مغاير كل المغايرة ، وهناك يرى الانسان العجائب الكامنة فى جسده الروحى ، ويرى صور أعماله السابقة من سيئة بادية العار والشنار ظاهرة القذارة والحقارة فيلحقه منها خزى لا يطاق وعذاب روحى ونار جسمية ملازمة له ملازمة الظل للشبح والهواء للأجسام الأرضية ، ومن حسنة تظهر مونقة بهجة متلألئة بهية تبهج من رآها كالكواكب الدرية تسر الناظرين ، ثم إن هذه الحال البرزخية يحصل فيها انتقال وتغير ، وربما ظهرت حال جديدة للأرواح تتبدل فيها تبدلا عظيما كالتبدل الذى حصل بموت الأجسام فيعتبر موتا ثانيا ثم يبعث الناس فتكون حياة ثانية ، فاذن يكون هناك موتان بين الأول والثانى حياة برزخية وبعد الثانى حياة يوم القيامة ، وعلى ذلك تكون لنا أنواع ثلاثة من الحياة لأن الحياة الدنيا لم تذكر فى هذا المقام وربما كانت تبدلات الانسان فى الحال البرزخية كثيرة جدا لسرعة أحوال الأرواح فنبه على ذلك بذكر أعظم تبدل فيها فسماه موتا والا فالأنفس حية فى الحياة الدنيا وبعد مفارقة الأجساد ويوم القيامة ، وهذه الآية فيها رموز عجيبة سيظهرها المسلمون بقراءة علم الأرواح واستحضارها بعد مفارقتنا هذه الدنيا ورجوعنا الى الحال البرزخية لأنهم اليوم ونحن أحياء ليس عندهم من الوقت ما يتفرغون به لمثل هذه العلوم ، وأمم الغرب اليوم تطاردهم وسيخلصون منها إن شاء الله قريبا وبعد ذلك يقرؤن هذا التفسير وأمثاله قراءة أتم ويشرعون فى المباحث العلمية ويدخلون جنة علمية عالية فى الدنيا ثم يتمتعون بروضات الجنات البرزخية ويلحقوننا إن شاء الله تعالى هناك جيلا بعد جيل

ولما كانت أحوال الأنفس البشرية وتقلباتها فى البرزخ ويوم القيامة تكون قد أملت عليها دروسا عالية قاسية لظهور الحقائق لها تحملهم على الاعتراف وطلب الخروج من النار أعقبه بقولهم (فاعترفنا بذنوبنا فهل الى خروج) من النار (من سبيل) طريق نسلكه فيجابون بأنه لا سبيل الى الخروج (ذلكم) العذاب (بأنه اذا دعى الله وحده كفرتم وان يشرك به) غيره (تؤمنوا) أى تصدقوا ذلك الشرك (فالحكم لله العلى) الذى لا أعلى منه (الكبير) الذى لا أكبر منه (هو الذى يريكم آياته) عجائب مصنوعاته لتكملوا أنفسكم بمعرفتها (وينزل لكم من السماء رزقا) أى المطر لأنه سببه ، فعجائب المصنوعات لأمرين : ترقية العقول ، وتربية الأجسام ، والثانى عام ، والأول خاص وهذا قوله (وما يتذكر) يتفكر فيرقى نفسه بهذه العجائب (إلا من ينيب) يرجع عن الانكار بالاقبال عليها والتفكير فيها ، ولما كان فريق المنيبين هو الذى تتجه العناية لارتقائه فى القرآن والحكمة أردفه بما يناسبه فقال (فادعوا الله مخلصين له الدين) من الشرك الخفى والجلى (ولو كره الكافرون) اخلاصكم وشق عليهم هو (رفيع الدرجات) أى هو مرتفعة درجات كماله فوق المحسوس والمعقول ، وهكذا مراتب مخلوقاته الجسمية رفيعات درجاتها طبقا عن طبق وكذلك الروحية من صفوف النفوس الانسانية والملائكة فهؤلاء جميعا درجات بعضها فوق بعض ارتفاعا الى أن تقف دونه العقول (ذو العرش)

الذى هو أصل العالم فهو فى قبضة قدرته ، وقوله (يلقى الروح من أمره) خبر رابع لقوله ـ هو الذى يريكم ـ يقول الله انه يرينا العجائب وهو مرتفع الدرجات ورافع درجات الخلق والعرش فى قبضته ويلقى الوحى بأمره (على من يشاء من عباده) أى من يختاره للنبوّة (لينذر يوم التلاق) إذ تتلاقى فيه أهل السماء وأهل الأرض والعمال والأعمال (يوم هم بارزون) خارجون من قبورهم وظاهرون لايسترهم شئ وأعمالهم وسرائرهم مكشوفة لايحجبها نفاق ولارياء (لايخفى على الله منهم شئ) من أعمالهم وأحوالهم ، وحينئذ تنطق الحال بهذا السؤال (لمن الملك اليوم) واذن تجيب هى (لله الواحد القهار) فهو وحده قهر الخلق بالموت وبالبعث وبالحشر ، ولاجرم أن إلقاء الوحى بهذه المعانى على الأنبياء انما يكون لرفع درجات النفوس الأرضية ولحوقها بما هو أعلى منها ، فاذا كان الله رفيعا درجات كماله رافعا عالم الكواكب طبقات بعضها فوق بعض كما رأيته فيما مضى فى هذا التفسير ورافع درجات الأرواح والملائكة فانه بهذه النفوس الرفيعة والأرواح الشريفة يهيئ نفوسا أخرى لتلحق بها فيوحى بواسطة الملائكة الى الأنبياء والناس يستمعون الوحى فيرتفعون الى درجات أرقى مما هم عليه ، هـذا هو الذى يقتضيه نظم الآية منسجما عجيبا ، ثم ذكر نتيجته فقال (اليوم تجزى كل نفس بما كسبت) فلايرى المرء إلا ما كوّنه فى نفسه من عقيدة أوعلم أوحال فيرى كل ذلك منقوشا مصوّرا فى جسمه كما يحس الآن فى هذه الحياة بذلك من حسد وعداوة وطمع وشره وكبرياء ، فكل ذلك منغص للانسان فى حياته لاحق به بعد موته بحيث يحس الانسان به ويشعر ويكون سوائل معنوية فى عالم الأثير مختلفة كاختلاف ألوان النبات وروائحه وهكذا أنواع العلم والحكمة والفضائل الخلقية من الكرم والصفح والآداب جميعها ترى لها سوائل أثيرية معنوية أشبه بالسوائل المغناطيسية ترشح من النفس ولاتفارقها كما لايفارقها فى هذه الدنيا من هـذه الصورة الجسمية أشكالها وألوانها وأطوالها ونسبها وقبلتها ، وذلك كله جاء فى علم الأرواح فى العصر الحاضر ، وهذا معنى قوله (لاظلم اليوم) وذلك لأن الله لما كان رفيع الدرجات وقد رفع درجات العوالم الروحية فهاهو ذا سخرها لترفع الأرواح التى هى ضعيفة فى الأرض تعيش مع الحيوان وهى فى نظام كله هرج ومرج الى عالم أرقى من عالم الأجسام ، فاذا ماتت ظهرت بمظهرها الذى وصلت اليه على مقدار طاقتها كما يظهر الطفل بمظهره عند أبويه من النقص والضعف ، فالعذاب الذى يعترى النفوس الانسانية بعد الموت هو من لوازمها وهكذا النعيم ، إن الله تعالى مربى العالمين ورافعهم من أدنى الى أعلى ، وفى أثناء رفعهم يرسب بعضهم وتظهر فضائحه وقبائحه أثناء سفره ويحصل للمجرمين عذاب لايطاق فان الانسان اذا ظهر بعد الموت بمظهر قبيح اشمأزّت منه نفوس أحبابه ورأوه بغير العين التى كانوا يرونه بها وأصبح فى ذلّ لايحتمل واشتعلت النار الجسمية والمعنوية معا ، وقد يرى الأمير أن عبدا من عبيده فضل عليه بأخلاقه التى اكتسبها وطار الى العلا وخلفه مع المخلوقات ، فأى ذل وأى عار وأى مهانة بعد هذا كله ؟ فلاظلم إذن فكما اننا لما خلقنا فى الأرض وكان منا نساء ورجال ، وكان فينا الجميل والقبيح والقصير والطويل والمريض والصحيح ومالايتناهى من الأوصاف والأحوال ، لم نقل إن هـذا الاختلاف ظلم والا لكان معنى ذلك أن الوجود كله خطأ ، هكذا نقول فى أحوال الأرواح بعد الموت فكلّ يكون على شاكلته الروحية الحقيقية ، فكما لا اعتراض فى الاختلاف الجسمى هكذا لااعتراض فى الاختلاف الروحى فيكون قوم فى نعيم وقوم فى جحيم ولااعتراض كما لااعتراض اذا قلنا فى الأرض فراش وابل وحيوانات بريّة وأخرى بحرية وآساد فاتكة وغزلان مأكولة مع ان الانسان لوقيل له : أتموت أم تكون ناموسة أوجرادة ؟ لايرضى إلا بالموت وكذلك الجرادة لاتطلب أن تكون انسانا لأنها تجهله ، فاذا عرفت الجرادة والنملة والحمامة مرتبة الانسان وحرمت منها فهناك الطامة الكبرى والعذاب والذلة والمهانة وهناك تكون نار الخزى ونار العذاب ، فالأرواح الأرضية بعد الموت التى هى ضعيفة ليست كالجراد فى الحياة الدنيا بل هى تحسّ وتعرف المراتب ، وهنا تتجلى نار الخزى

ونارجهنم ، ولكن نارالخزى أشد كما يحس الانسان فى الدنيا بالعار اذا لوثت سمعته وضاع صيته ومجده وشرفه ولكن فى الدنيا يتخلص بالموت ولكن فى عالم الأرواح لايقدر على التخلص من الحياة فيه . وهذا يفهمنا قوله (إن الله سريع الحساب) فيصل كل الى مايستحقه سريعا . ولهذا المعنى الذى قررته لك تفهم قول سيدنا على كرم الله وجهه لما سأله سائل : « كيف يحاسب الله الناس كلهم ؟ قال كما يرزقهم كلهم » وقوله (وأنذرهم يوم الآزفة) القيامة سميت بذلك لازوفها أى قربها (إذ القلوب لدى الحناجر) إذ ترتفع عن عن أماكنها فتلتصق بحلوقهم من الخوف فلاهى تخرج فيموتوا ولاترجع الى مواضعها فيتنفسوا ويتروحوا حال كون أصحاب القلوب (كاظمين) على الغم أو ممسكين بحناجرهم (ما للظالمين من حميم) قريب مشفق (ولاشفيع يطاع) ولاشفيع مشفع (يعلم خائنة الأعين) النظرة الخائنة كالنظرة الثانية الى غير المحرم واستراق النظراليه (وماتخفى الصدور) من الضمائر (والله يقضى بالحق) وقد عرفته فيما مضى فى هذا المقام (والذين يدعون من دونه لايقضون بشئ) تهكم بالأصنام لأنها جماد (إن الله هوالسميع البصير) فيعلم خائنة الأعين وماتخفى الصدور وأما الأصنام فلاسمع لها ولا بصر فكيف تقضى بحق أو باطل ؛ انتهى التفسيراللفظى للقسم الثانى من السورة والحمد لله رب العالمين

﴿ لطائف : فى قوله تعالى حم وفى قوله ـ الذين يحملون العرش ومن حوله ـ الخ وقوله تعالى ـ رفيع الدرجات ذوالعرش يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده ـ ﴾

تبين لك فيما تقدم فى هذا التفسير أن الحروف فى أوائل السور قد جعلت رموزا وعرفت فى كثيرمن السور كيف كانت تشيرالى مقاصد لرقى المسلمين كما ترى فى ﴿ سورة البقرة ﴾ ـ ا ل م ـ للتنبيه على جهاد بنى اسرائيل فى قوله ـ ألم تر الى الملأ ـ الخ ولتوجيه الهمم الى بحث حقائق العجائب الكونية فى قصة الخليل والعزيز كما سبق شرحه مرارا وهكذا فى ﴿ سورة العنكبوت ﴾ فقدرجع رمزها الى البحث فى عجائب العناصر وكيف كان لها نظام كشفه العلامة (مندليف الروسى) وتبعه العلماء وهكذا فى يس وص . فأماهنا فان الأمر أعجب . وكيف لا يكون أعجب ونحن نرى فى آخر ﴿ سورة الزمر ﴾ قول الله تعالى ـ وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم ـ وقد وضعوا مراتب كما جعلت أرواح الناس مراتب فى الدنيا وهم يسبحون ويحمدون ، وقد عرفت أن ذلك كله عبارة عن العلم بالجلال والاكرام ، ولا معنى لمعرفة صفات الاكرام إلا بدراسة العجائب الالهية ﴿ وبعبارة أخرى ﴾ دراسة العلوم التى امتازت بها أوروبا علينا . هذا هوالذى يفهم من التسبيح والحمد ، فأما الملائكة فعلومهم طبعا فوق طاقتنا ، وترى السورة ختمت بقول الملائكة والمؤمنين « الحمد لله رب العالمين » وكيف يحمد المؤمنون ربهم حمدا حقيقيا إلا اذا عرفوا نظام المخلوقات إذ لايحمد المحسن إلا على مقدارماعرف الحامد من آثاره الواصلة اليه والى غيره . هذا هوالذى جاء فى آخر ﴿ سورة الزمر ﴾ ثم قال فى أول ﴿ سورة غافر ﴾ ـ حم ـ حرفان من الحروف الأربعة عشر مشيرا الى الحمد أى حمد المؤمنين وحمد حملة العرش ﴿ وبعبارة أخرى ﴾ مشيرا الى العلوم الطبيعية والفلكية التى هى أقرب الينا نحن فى الأرض . فانظرماذا تم بعد ذلك ؟ أعاد الكرة فى أوائل السورة فذكر حملة العرش وتسبيحهم بحمد ربهم واجتهادهم فى ارتقاء أهل الأرض وحبهم لاسعادهم

انظروتعجب ، فانى سأريك الساعة عجبا عجابا ، بل أريك معجزة القرآن الحقة ؛ وكيف نطق من ألف وثلثمائة سنة بما نقرؤه اليوم فى كتب الفرنجة . أنت اذا كنت من الذين تتبعوا هذا التفسير لاتنكرماسأقوله الآن ، ولكن اذا كان هذا أول نظرك له فانك تقول : إن العالم اليوم أصبح كله راقيا وأنتم أيها المسلمون مخرفون ، إن العالم كله مادى أوله وآخره ، وأنا لم أر ملكا ولاروحا برقيني . فما هذا القول ؟ ومن هم حملة العرش ؟ وأى رموز تقولونها ؟ دعونا دعونا ، وانى أجيبك ناقلا لك عن علماء الشرق وعلماء الغرب فأقول

جاء فى « اخوان الصفاء » أن الأساتذة والآباء والمعلمين اذا ماتوا كان كل عملهم انما هو الارشاد والتعليم لتلاميذهم وأولادهم . وهذا التعليم الالهامى يرقى الروح لعملها والحى المتعلم فهونافع للحى والميت

وقال الفخر الرازى فى سورة النازعات (وسأذكره هناك إن شاء الله) « أليس الابن قد يرى أباه فى المنام فيهديه الى كنز مدفون »

أليس ان جالينوس قال : « كنت مريضا فعجزت عن علاج نفسى فرأيت واحدا فى المنام أرشدنى الى كيفية العلاج »

وقال أيضا : « أليس ان الغزالى قال ان الأرواح الشريفة اذا فارقت أبدانها ثم اتفق أن انسانا شابه الانسان الأول فى الروح والبدن فانه لايبعد أن يحصل للنفس المفارقة تعلق بهذا البدن حتى تصير كالمعاونة للنفس المتعلقة بذلك البدن على أعمال الخير فتسمى تلك المعاونة إلهاما ونظيره فى جانب النفوس الشريرة وسوسة » اه

هذا ما قاله علماؤنا . فاذا أبيت إلا علماء أوروبا فانى أقول لك انهم أغرقوا فى هذا العلم اغراقا ونبغوا فيه وفاقوا الشرقيين لأن الشرق اليوم يظن انه بانكاره هذه العلوم يعد فيلسوفا . أما الاوروبى فهو حر والآراء تقال بلانكير . فلأسمعك ما قاله أكبر علماء الطبيعة فى بلاد الانجليز فى خطبة خطبها فى مجمع العلماء فما قاله : « وليس من العقل أن يقال ان النفس تضمحل اذا تلف الجسد بل سنظل موجودين بعد موتنا وانتهاء أعمارنا القصيرة على هذه الأرض . أقول لك ذلك مستندا الى أدلة علمية . أقول لأنى تحققت أن بعض أصدقائى الذين ماتوا لايزالون موجودين إذ انى قد ناجيتهم . ثم قال : إنى مقتنع بأننا لانضمحل عند الموت وأن الموتى يهتمون بأمر هذا العالم ويساعدوننا ويعرفون أكثر مما نعرف بكثير »

ومن قوله فى نفس الخطبة : « وعندى أن فى الوجود كائنات نسبتنا اليها كنسبة النمل الينا ونحن نتسكع بين أرجلها غير عارفين عنها شيأ » انتهى ماأردته منه . وقد تقدم هذا القول مطولا تارة ومختصرا أخرى لمقاصد مختلفات فى هذا التفسير . وسيأتى نفس هذا القول فى ﴿ سورة النازعات ﴾ عند ذكر قول الامام الرازى أن أرواح الناس تصبح من المدبرات أمرا

أفلست ترى أن مايقوله علماؤنا وما تموج به الجمعيات النفسية فى أوروبا قد أصبح تفسيرا لهذه الآية . انظر كيف يقول العالم الانجليزى : « ان هناك عوالم نسبتنا اليها كنسبة النمل الينا » وقوله « إن الأموات يهتمون بأمر هذا العالم » . ياعجبا : أليس هذا هو عين ماقاله الامام الرازى والغزالى واخوان الصفاء . أليس هذا عينه هو نفس هذه الآية . بل أليس هذا معجزة . وأى معجزة أكبر من هذه ! تموج المجامع النفسية بهذه الفكرة فيقول الناس فى مجالسهم : « ان فوقنا أرواحا تلهمنا وتعلمنا وتهتم بنا ونحن نمل بالنسبة لها »

أليس هذا عينه هو قوله تعالى — الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم — ولقد عرفت أن الأمر راجع للعلم . وقوله — ويستغفرون لمن فى الأرض — فهل لهذا معنى إلا الالهام والتعليم فيعلمون الأنبياء ويعلمون كل واحد منا الآن بالالهام ، واذا كنا أصبحنا جميعا من جهلاء وعلماء مؤمنين بعالم الحيوان الذرى المسمى بالمكروب وانه هو الذى يأتى لنا بالطاعون والحمى والجدرى والحكومات فى الأرض كلها تؤمن وتمتثل لقول الأطباء فى ذلك مع ان تلك الحيوانات لم نرها قط ولكنا آمنا بها مع ان الموت والمرض لايحتاجان الى فاعل يفعلهما ، فان المرض نقص والمادة فى تحول دائم والموت خراب الجسم وخراب الجسم لايحتاج الى فاعل يفعله بحسب النظر الظاهرى ، ولكن العلم اليوم أثبت ذلك . وأن الموت أيام الوباء والأمراض الكثيرة كالحمى والجدرى والحصباء انما يكون بأحياء لانراها تحدث تلك الأمراض الكثيرة المنتشرة . فما أسهل أن تعرف أن الخير والشر تأتى بها عوالم تسمى ملائكة أوأرواحا . فلأرواح العالية لالهام الخير

والأرواح الساقطة للوسوسة . ههنا تجلى الأمر وظهر وعرفنا سر الحاء والميم اللذين جيء بهما بين حمدين : حمد في آخر ﴿ سورة الزمر ﴾ صادر من الملائكة وأرواح المؤمنين . وحمد صادر من الملائكة في ﴿ سورة غافر ﴾ مصحوب بالتسبيح والملائكة يفيضون الخير على المؤمنين . وهذا كما ستراه في ﴿ سورة النبأ ﴾ إذ جاء في آخرها ـ يوم يقوم الروح والملائكة صفا ـ وفسر ابن عباس الروح بأرواح العباد يصطفون كاصطف الملائكة وههنا ظهر معنى الاصطفاف إذ الأرواح تلاميذ الملائكة فأصبح الأمر كله راجعا للعلم والدراسة . فاذا تعلمنا اليوم فهو مقصود الحمد المذكور في السورتين وأصبح التسبيح والتحميد معناهما الارتقاء العلمى والارتقاء العلمى للملائكة وهم يرقون أرواحنا في الدنيا كما نرى الأساتذة يعلمون تلاميذهم والآباء أبناءهم فاذن ارتقاؤنا في الدنيا بالعلوم والملائكة ملهمون . ونحن اذا متنا نكون في تلك العوالم المدبرات أمرا كما فسره الامام الرازى في ﴿ سورة النازعات ﴾ وكما رأيته في كلام فلاسفة الشرق والغرب . هنا يظهر لك مقصود الحاء والميم في هذه السورة . فهما من الحمد والحمد راجع للعلم الذى يلقيه الأعلى الى الأدنى ومبدؤه من الله رفيع الدرجات ذى العرش وهو الذى يرقى الأرواح والأجسام . فترى صفوف الكواكب طبقة بعد طبقة كما ترى صفوف الأرواح صفا بعد صف

(ذكر الأحاديث والآثار الواردة في هذا المقام)

فاذا سمعت ما ورد أن حملة العرش اليوم أربعة فاذا كان يوم القيامة أردفهم الله بأربعة أخر كما قال ـ ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ـ فلتعلم أن ذلك إشارة الى ازدياد عدد الأرواح المرتقية . واذا سمعت قول ابن عباس : « حملة العرش ما بين كعب أحدهم الى أسفل قدميه مسيرة خمسمائة عام » وما روى أن أقدامهم في تخوم الأرضين والأرضون والسموات الى حجزهم فلتعلم أن معناه إحاطتهم علما وتدبيرا بهذه العوالم باذن ربهم . واذا سمعت انهم يقولون : « سبحان ذى العزة والجبروت . سبحان ذى الملك والملكوت سبحان الحى الذى لا يموت . سبوح قدوس رب الملائكة والروح » فاعلم أن هذا اشارة الى علمهم بصفات الجلال وصفات الاكرام التى هى تشمل سائر العلوم والى أنهم مقرون بأن الله رباهم بقولهم «رب الملائكة» وانهم هم مربون الأرواح التى هى أقل منهم بأمر ربهم . واذا سمعت انهم خشوع لا يرفعون طرفهم وهم أشد خوفا من أهل السماء السابعة وهؤلاء أشد خوفا من التى تليها وهكذا فن ذلك على مقدار العلم فان الخشية تتبع العلم ، ومن عرف جيلا وملأ عينه حسنا وجمالا وبهجة وحكمة فانه يدهش منه ويخشاه ، ولا يقنى ذلك لمن يجهل أمره . واذا سمعت انه ﷺ حدث عن ملك أن ما بين شحمة أذنه الى عاتقه مسيرة سبعمائة عام فذلك ان صح لاتساع دائرة علمه وتدبيره للعوالم التى تؤهل أنت اليوم للقيام ببعضها على ما عرفت . واذا سمعت عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده انه قال : « ان ما بين القائمة من قوائم العرش والقائمة الثانية كخفقان الطير المسرع ثلاثين ألف عام فذلك إشارة الى عظمة ملك الله . وهذا أصبح اليوم معروفا في علم الفلك الحديث كما تراه في ﴿ سورة البقرة ﴾ وغيرها . واذا سمعت أن العرش يكسى كل يوم ألف لون من النور لا يستطيع أن ينظر اليه خلق من خلق الله تعالى فهذا ظاهر اليوم لأن ملك الله تجلى اليوم كما في هذا الخبر وظهر على هذا النحو ، وأما ألوان النور فانك لو بحثت لوجدت أن الأنوار لا يحصى عددها بألف ولا بآلاف كل يوم ، ولوانك فكرت في عدد الأنوار التى تسطع على أرضنا من النجوم وان لم ترها لدقة نورها واحتجابه عنا بالشمس نهارا لرأيتها تعد بمئات الملايين وهى تسطع على الأرض وأصحاب الأرصاد يميزونها تمييزا حقيقيا ، وان أردت بالأنوار العلوم فهى أوسع مدى فان تغير العوالم لا يكون إلا بعلوم قامت بنفوس الملائكة والأرواح المدبرات . وقوله لا يستطيع أن ينظر اليه خلق من خلق الله تعالى فهو ظاهر . ان

الشموس التى لانهاية لعددها ظهر اليوم أن أنوار كثير منها أضوأ الشمس بمراتب كثيرة فلا يستطيع الناس أن ينظروا اليها لو كانوا هناك ، ولكن الأقرب للحديث أن تلك الأنوار هى العلوم التى فى نفوس الملائكة وهى محجوبة عمن عداهم ولا يعرفها غيرهم إلا اذا ارتقى الى مراتبهم

ولست أقول لك ان هذه الأحاديث أو الآثار ذكرتها لك على أنها صحيحة أوحسنة أوضعيفة انما المقام مقام ذكر ماقيل بدون نظر الى مقدار صحته لتعلم كيف كان التعبير الذى يعبر به عن عظمة ملك الله ، ومادام المقام مقام مجاز فلا بأس بذكر ذلك كله . واذا سمعت قول وهب بن منبه ان حول العرش سبعين ألف صف من الملائكة صف خلف صف يطوفون بالعرش ، يقبل هؤلاء ويدبر هؤلاء ، ويدبر هؤلاء ، ومن ورائهم سبعون ألف صف قيام ، ومن وراء هؤلاء وهؤلاء مائة ألف صف من الملائكة وذكر انهم يقولون : « سبحانك وبحمدك ما أعظمك وأجلك الخ » وأن كلا منهم يسبح بتسبيح لايسبحه الآخر فان ذلك أصبح معلوما لك لأنهم مراتب وصفوف ودرجات لايعرف منتهاها عبر عنها بذلك العدد . واذا كانت الكواكب بلغت مالايعرف له عدد فكيف يكون عالم الأرواح ؟ فأما التسبيح والتحميد فهو العلم الذى أمرت بدراسة مقدماته فى الدنيا وأشير لذلك بالحاء والميم والحمد فى السورتين وفى سورة فاتحة الكتاب . واذا سمعت قول وهب بن منبه : « إن الله احتجب عن الملائكة الذين حول العرش بسبعين حجابا من نار وسبعين حجابا من ظلمة وسبعين حجابا من نور وسبعين حجابا من درّ أبيض ومثلها من ياقوت أحمر ومثلها من زبرجد أخضر ومثلها من ثلج ومثلها من ماء ومثلها من برد ومالايعلمه إلا الله عزّ وجل » فذلك معناه على سبيل المجاز نقص مراتبهم عن مرتبة ربهم لأنه هو العلىّ الكبير

فانظر كيف كان الأوّلون يضربون للناس الأمثال بعظمة ملك الله تعالى ليوسعوا خيالهم حتى اذا جاءت الحقائق وكشف القناع اتسعت له العقول وأقبلت عليه وقال السامع نعم قد تخيلنا هذا من قبل فى الآثار الواردة عن آبائنا الأوّلين . فالتعبير بأن العرش جوهرة خضراء وأن الأنوار تكسوه ونحو ذلك كله للدلالة على الجمال والبهاء والاشراق والعظمة والعلم والحكمة . ولعلك الآن فهمت قول ابن مسعود : « اذا وقعت فى آل حم وقعت فى روضات الجنة أتأنق فيهن »

أقول : وهل روضات الجنات إلا العلوم ؟ أوليس نفس الحاء والميم هذان الحرفان هما اللذان فتحا هذا الباب كله ، إن حم إشارة الى المحامد ولامحامد بلا علوم ، فالأمة الاسلامية اليوم عليها أن تقوم بدورها فى الحكمة والعلم فقد خبأ الله لها كنوزا فى الأرض ستظهر بأعمال المسلمين ، فليقوموا بدورهم . هذا كله معنى – حم –

﴿ صلاتنا معاشر المسلمين ﴾

لقد علمت أن الملائكة يسبحون ويحمدون وأن معنى ذلك انما هو العلم بالعالم العلوى والسفلى الذى هو داخل فى صفات الاكرام الذى اتصف به الله تعالى . والمسلم فى صلاته عند الركوع يقول « سبحان ربى العظيم » ثم يقول « خشع لك سمعى وبصرى ومخى وعظمى وعصبى وما استقلت به قدمى لله رب العالمين » ومعنى ذلك أن يدرسه ويفقه سرّه . وكذلك فى السجود يقول المسلم « سبحان ربى الأعلى » ثم يقول « سجد وجهى للذى خلقه وصوّره وشقّ سمعه وبصره تبارك الله أحسن الخالقين »

فاذا ظنّ الناس أن تسبيح الملائكة وتحميدهم عبارة عن ألفاظ فليفهموا أن تسبيحنا وتحميدنا ألفاظ لاغير . فاذا أرادوا الجدّ فليعلموا انه جاء فى هذه السورة قول الله تعالى بعد ذكر حملة العرش وتسبيحهم والهامهم للذين آمنوا ودعائهم لهم فالحمد لله العلىّ الكبير . وبين مثار الحمد فقال – هو الذى يريكم آياته وينزل

لكم من السماء رزقا ـ فجعل مدار الحمد ترقية العقول بالعلوم وتدبير الأجسام بالرزق . هذا هو مقصود الحمد ومقصود (حم) ومقصود القرآن

ليعلم المسلمون بعد اليوم أن المسألة جدّ لاهزل فيها . وأن الملائكة تأهلوا لرتبتهم بالعلم . وأن الناس لايسعدون فى دين ولادنيا إلا بالعلم واننا نسبح بحمد الله كما ان الملائكة يسبحون بحمده . ذلك ظاهر فى صلاتنا إذ تبدأ بالتسبيح ونتبعه بذكر النعم التى أنعم بها علينا فى سمعنا و بصرنا الخ . كل ذلك ليعلم المسلم انه ملزم بالعلم والحكمة اللذين يرجعان الى معنى التسبيح والتحميد . هذا هو سرّ الفاتحة التى يتلوها المسلم صباحا ومساء . يقول الحمدلله رب العالمين و يفصل بعض النعم فى الركوع والسجود و يقسمها فى الرفع والاعتدال فيقول « ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء مابينهما وملء ماشئت من شئ بعد » ومعلوم أن العوالم لاتخرج عن هذه . فالفاتحة علم والركوع علم وآل حم علم وتسبيح الملائكة علم وتحميدهم علم وتشبهنا بهم فى ذلك علم

فليفطن المسلمون فقد انقضى دور الهزل وجاء دور الجدّ . وأظهر الله السرّ الذى خبأه . وأبان لعباده عجائب الدنيا بالعلوم والدين بالفهم والالهام . وبهذا تمّ الكلام على القسم الثانى من السورة

﴿ القسم الثالث من السورة ﴾

أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِىٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿ إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَالٍ ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِى أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّى أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِى الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿ وَقَالَ مُوسَى إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّىَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِى يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِى الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿ وَقَالَ الَّذِى ءَامَنَ يَا قَوْمِ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿ مِثْلَ دَأْبِ

قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ * وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ * يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ * وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ * الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ * وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ * وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ * يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ * مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ * وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ * تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ * لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ * فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ * فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ * النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ * وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاؤُا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ * وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ * قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاؤُا الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ * إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ * يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ

سُوءُ الدَّارِ • وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ • فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ •

﴿ التفسير اللفظي ﴾

قال تعالى (أولم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم) أى مآل الذين كذبوا الرسل قبلهم كعاد وثمود (كانوا أشدّ منهم قوّة) قدرة وتمكنا (وآثارا فى الأرض) كالقلاع والمدائن الحصينة (فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق) يمنع العذاب عنهم (ذلك) الأخذ (بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات) بالمعجزات والأحكام الواضحات (فكفروا فأخذهم الله إنه قوىّ) متمكن مما يريده غاية التمكن (شديد العقاب) كل عقاب دون عقابه

﴿ قصص موسى عليه السلام وبنى اسرائيل ﴾

قال تعالى (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا) المعجزات (وسلطان مبين) وحجة ظاهرة (الى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذّاب) يعنون موسى . ذلك تسلية له ﷺ (فلما جاءهم بالحقّ من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم) أى أعيدوا عليهم ما كنتم تفعلونه بهم من قبل كى يصدّوا عن اتباع موسى (وما كيد الكافرين إلا فى ضلال) أى وماصنع فرعون وقومه إلا فى ضياع فان هذا كله لم يمنع موسى من إقامة دينه وخذلان فرعون وجنوده (وقال فرعون ذرونى أقتل موسى) وقد كانوا يكفونه عن قتله تهوينا لأمره ويقولون اذا قتلته ظنّ الناس انك عجزت عن اقامة الحجة . ثم قال (وليدع ربه) إظهارا بعدم المبالاة به مع انه لم يمنعه من قتله إلاشدّة الهول والفزع من ذلك لعلمه انه نبىّ (إنى أخاف أن يبدّل دينكم) أى يغير ما أنتم عليه من عبادتى وعبادة الأصنام (أوأن يظهر فى الأرض الفساد) أى ما يفسد دينا من التحارب والتهارج (وقال موسى) لقومه لما سمع كلامه (إنى عذت بربى وربكم من كل متكبر لايؤمن بيوم الحساب) ذكر اسم الرب اشارة الى التربية وليحضهم على موافقته فى الدعاء لأن انحاء أرواح كثيرة لغرض واحد أقرب للاجابة (وقال رجل مؤمن من آل فرعون) من أقاربه (يكتم إيمانه أتقتلون رجلا) أى أتقصدون قتله (أن يقول) أى لأنه يقول (ربى الله) وحده (وقد جاءكم بالبينات) الكثيرة (من ربكم وان يك كاذبا فعليه كذبه) لايتخطاه (وان يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم) أى فلا أقلّ من أن يصيبكم بعضه (إنّ الله لايهدى من هو مسرف كذاب) ولوكان مسرفا كذابا لخذله الله ولكنه لم يخذله فأعطاه المعجزات والآيات البينات (ياقوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض) غالبين عالين فى أرض مصر (فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا) أى فلاتفسدوا أمركم ولاتتعرّضوا لبأس الله تعالى (قال فرعون ما أريكم إلاما أرى) أى ماأشير عليكم إلا بما استصوبه من قتله (وما أهديكم إلا سبيل الرشاد) وما أعلمكم إلا ماعلمت من الصواب (وقال الذى آمن ياقوم إنى أخاف عليكم) فى تكذيبه (مثل يوم الأحزاب) مثل أيام الأمم الماضية أى وقائعهم كما يقال أيام العرب (مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود) مثل جزاء ما كانوا عليه دائبا أى دائما فكانوا لايفترون عنه (وما الله يريد ظلما للعباد) أى وما الله يريد أن يظلم عباده فيعذبهم بغير ذنب ولايخلى الظالم بغير انتقام لأنه ربهم (وياقوم إنى أخاف عليكم يوم التناد) أى يوم ينادى فيه بعضهم بعضا ويتصايحون (يوم تولون) من الموقف (مدبرين) منصرفين عنه الى النار (ما لكم من الله من عاصم) يعصمكم من عذابه (ومن يضلل الله فماله من هاد * ولقد جاءكم يوسف) ابن يعقوب (من قبل بالبينات) ويخهم بأن يوسف جاءهم بالبينات على التوحيد من قبل موسى فشكوا فى أمره وبقى

شبكهم الى زمن موسى وهذا قوله (فما زلتم فى شك مما جاءكم به حتى اذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا) أى وذلك حكمكم من عند أنفسكم من غير برهان (كذلك يضل الله) أى مثل هذا الاضلال يضل الله كل (من هو مسرف) فى عصيانه (مرتاب) فى دينه (الذين يجادلون) بدل من مسرف لأنه بمعنى كل مسرف (فى آيات الله) فى دفعها وابطالها (بغير سلطان) حجة (أتاهم كبر مقتا) أى عظم ذلك الجدال بغضا (عند الله وعند الذين آمنوا كذلك) هكذا (يطبع الله) يختم (على كل قلب متكبر جبار) عن قبول الحق والهدى (وقال فرعون ياهامان ابن لى صرحا) بناء مكشوفا عاليا من صرح الشئ اذا ظهر (لعلى أبلغ الأسباب) الطرق ثم بينها فقال (أسباب السموات فأطلع الى إله موسى) أراد أن يبنى له رصدا فى موضع عال يرصد منه أحوال الكواكب التى هى أسباب سماوية تدل على الحوادث الأرضية فيرى هل فيها مايدل على ارسال الله إياه ، أوقصد بذلك التمويه على الجهلاء يريهم أن إله السموات الذى يقول به موسى انما هو إله كالآلهة التى هى عبارة عن تماثيل فى مصر يراها الناس الآن بقيت من ذلك الزمان لتضليل عقولهم (وانى لأظنه كاذبا) فى دعوى الرسالة (وكذلك) مثل ذلك التزيين (زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل) سبيل الرشاد وموه على الناس بهذه التمويهات (وماكيد فرعون إلا فى تباب) أى خسار (وقال الذى آمن) أى مؤمن آل فرعون (ياقوم اتبعون أهدكم) بالدلالة (سبيل الرشاد) لأن ماعليه فرعون غى (ياقوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع) تمتع يسير لسرعة زوالها (وان الآخرة هى دار القرار) لخلودها (من عمل سيئة فلايجزى إلا مثلها) عدلا من الله (ومن عمل صالحا من ذكر أوأنثى وهومؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب) بغير تقدير وموازنة بالعمل بل أضعافا مضاعفة (وياقوم مالى أدعوكم الى النجاة وتدعوننى الى النار) كرر النداء إيقاظا لهم من سنة الغفلة ثم أبدل منه قوله (تدعوننى لأكفر بالله وأشرك به ماليس لى به) بربوبيته (علم وأنا أدعوكم الى العزيز الغفار) أى من كملت قدرته وغلبت ولا يكون ذلك إلا بعلم وارادة فهو قادر على التعذيب والغفران (لا) رد لما دعاه اليه قومه (جرم أن ماتدعوننى اليه ليس له دعوة فى الدنيا ولافى الآخرة) جرم فعل بمعنى حق وأن ومابعدها فاعله أى حق ووجب بطلان دعوته أى ان ماتدعوننى اليه ليس له دعوة الى نفسه قط ومن حق المعبود بالحق أن يدعو العباد الى طاعته وما تدعون الى عبادته لايدعو هو الى ذلك ولايدعى الربوبية فكيف تدعوننى الى عبادة مالا يسمع ولايبصر ولاحق له ولايدعو اليه هذا جهالة فلا أتبعها وعطف على فاعل جرم قوله (وأن مردنا الى الله وأن المسرفين) فى الضلالة والطغيان (هم أصحاب النار) ملازموها (فستذكرون) أى فسيذكر بعضكم بعضا عند معاينة العذاب (ما أقول لكم) من النصيحة (وأفوض أمرى الى الله) ليعصمنى من كل سوء (إن الله بصير بالعباد) فيحرسهم ثم فر من بينهم فطلبوه فلم يقدروا وذلك قوله تعالى (فوقاه الله سيآت ما مكروا) شدائد مكرهم (وحاق بآل فرعون) بفرعون وقومه (سوء العذاب) وكأنه قيل ماسوء العذاب فقال هو (النار) ثم استأنف مبينا فقال (يعرضون عليها) وعرضهم عليها إحراقهم بها ، يقال عرض الامام الأسارى على السيف اذا قتلهم وقوله (غدوا وعشيا) أى فى هذين الوقتين يعذبون بالنار وينفس عنهم فيما بين ذلك ويدوم ذلك الى يوم القيامة (ويوم تقوم الساعة) يقال لخزنة جهنم (أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) أى عذاب جهنم ، قال علماؤنا : وهذه الآية دليل على عذاب القبر وقد ظهر ذلك العلم فى المجامع النفسية وأوضحناه مرارا فى هذا التفسير وشرحناه تكرارا وصار هذا القول حقا فى علم الأرواح ، وفى حديث البخارى ومسلم أن رسول الله ﷺ قال : « ان أحدكم اذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشى إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وان كان من أهل النار فمن أهل النار يقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله تعالى اليه يوم القيامة » وهذا المعنى هو الذى أطالت به الأرواح لما سألوها بتفصيل فاقرأه فى كتابى المسمى « الأرواح » ثم قال تعالى (و) اذكر

لقومك يامحمد (إذ يتحاجون) أى يختصمون أى أهل النار (فى النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا) وهذا تفصيل للمخاصمة (إنا كنا لكم تبعا) أتباعا كخدم جمع خادم (فهل أنتم مغنون) دافعون (عنا نصيبا من النار * قال الذين استكبروا إنا كل فيها) أى كلنا فيها لايغنى أحد عن أحد (إن الله قد حكم بين العباد) قضى بينهم فأدخل قوما الجنة وقوما النار (وقال الذين فى النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوما) قدر يوم شيأ (من العذاب * قالوا) ملزمين لهم الحجة (أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات) توبيخا لهم (قالوا بلى قالوا فادعوا) فانا لانجترىء عليه إذ لم يؤذن لنا فى ذلك (ومادعاء الكافرين إلا فى ضلال) ضياع لايجاب والمقصود من مساق هذه القصة أن عادة الله نصر الرسل والمؤمنين فى الدنيا والآخرة ووعده بالنصر حق ، ثم أمر نبيه ﷺ بالصبر وأن يجدّ فى الاستغفار والتسبيح حتى يأتى له نصر الله وهذا قوله (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا) كما مرّ فى هذه القصة (فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد) أى فى الدارين ولا ينقض ذلك بما كان لأعدائهم من الغلبة امتحانا أحيانا لأن المدار على العواقب ، والأشهاد جمع شاهد كالملائكة والأنبياء والمؤمنين (يوم لاينفع الظالمين معذرتهم) بدل من يوم الاول (ولهم اللعنة) البعد من الرحمة (ولهم سوء الدار) جهنم (ولقد آتينا موسى الهدى) مايهدى به فى الدين من المعجزات والصحف والشرائع (وأورثنا بنى اسرائيل الكتاب) التوراة (هدى وذكرى لأولى الألباب * فاصبر) يامحمد على أذاهم (إن وعد الله حقّ) فى اظهار دينك وفى تأييدك وتأييد كل صادق فى دينك كما أيدت موسى ومن صدق من أتباعه (واستغفر لذنبك) أى وأقبل على أمر دينك وتدارك فرطاتك مثل ترك الأولى الذى لايعدّ ذنبا عند غيرك لأن حسنات الأبرار سيآت المقرّبين وتدارك ذلك يكون بالاستغفار ، وهكذا اذا خالجك اهتمام بأمر الأعداء فافزع الى الاستغفار لأن الله تعالى كافيك فى النصر واظهار الأمر وهكذا كل صادق فى وجهته الدينية والمنفعة العامة (وسبح بحمد ربك بالعشىّ والابكار) ودم على التسبيح والتحميد لربك ، وذلك مطابقة لما جاء من تسبيح حملة العرش الذين هم فى الملأ الأعلى . فعلى أهل الأرض أن يحذوا حذوهم والله ينصر رسله القائمين بدعوة الخير الذين يحذون حذو الملأ الأعلى . والى هنا تمّ الكلام على القسم الثالث من السورة وتفسيره اللفظى والحمد لله رب العالمين

﴿ القسم الرابع من السورة ﴾

إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ * لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ * إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ * وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ * اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ * ذَلِكُمُ اللَّهُ

رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ • كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِـَٔايَاتِ
اللَّهِ يَجْحَدُونَ • اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ
صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ • هُوَ
الْحَيُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ • قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ
أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ •
هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا
أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّىٰ مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ
تَعْقِلُونَ • هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ • أَلَمْ تَرَ
إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ • الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ
رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ • إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ • فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ
فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ • ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ • مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا
بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ • ذَٰلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ
تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ • ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا
فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ • فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ
نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ • وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ
وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ
اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ • اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا
وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ • وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى
الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ • وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ فَأَيَّ ءَايَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ • أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ
فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي
الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ • فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا
عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ • فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ

وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ *

﴿ التفسير اللفظى ﴾

قال تعالى (إنّ الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم) سواء أكانوا هم مشركى مكة أم اليهود الذين قالوا : « لست أنت الذى وعدنا بك بل هو المسيح ابن داود يبلغ سلطانه البرّ والبحر وتسير معه الأنهار » أم غيرهم ، فهؤلاء (إن فى صدورهم إلا كبر) أى إلا تكبر عن الحق فلا يتفكرون ولا يتعلمون ، وانما يقولون الملك والنبوّة فينا (ماهم ببالغيه) أى ببالغى مقتضاه من الرئاسة والنبوّة (فاستعذ بالله) أى فالتجئ اليه من كيد من يحسدك ويبغى عليك (إنه هو السميع البصير) بعملك وعملهم (لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس) ذلك لأنهم كانوا يجادلون فى البعث ، فمن قدر على خلق السموات والأرض مع عظمها فهو على خلق الانسان أقدر (ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون) لا يتأملون لغفلتهم (وما يستوى الأعمى والبصير) الغافل والمستبصر (والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسىء) أى والمحسن والمسىء ، فاذن لابد لهم من حال فيها يظهر التفاوت وذلك بعد البعث ، فهاهنا ﴿ برهانان : البرهان الأوّل ﴾ لجواز البعث الثانى لوجوبه اقناعا (قليلا ما تتذكرون) أى تذكرا قليلا تتذكرون (إن الساعة لآتية لا ريب فيها) فى مجيئها لما تقدّم من الدليلين (ولكنّ أكثر الناس لا يؤمنون) لا يصدّقون بها لقصور نظرهم (وقال ربكم ادعونى أستجب لكم) أى اعبدونى أثبكم . وروى انه ﷺ قال وهو على المنبر « الدعاء هو العبادة ثم قرأ — وقال ربكم ادعونى أستجب لكم — » (إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين) صاغرين (الله الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه) لتستريحوا فيه بأن خلقه باردا مظلما ليؤدى الى ضعف الحركات وهدوء الحواس (والنهار مبصرا) يبصر فيه أو به (إن الله لذو فضل على الناس) لا يوازيه فضل (ولكنّ أكثر الناس لا يشكرون) لجهلهم بالنعم واغفالهم مواقعها وجهلهم بالمنعم (ذلكم) الذى اتصف بتلك الصفات (الله ربكم خالق كل شئ لا إله إلا هو فأنى تؤفكون) فكيف ومن أى وجه تصرفون عن عبادته الى عبادة غيره ! (كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون * الله الذى جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء وصوّركم فأحسن صوركم) بأن خلقكم منتصبى القامة ، أعضاؤكم متناسبة ، متهيئين للعلوم ، والصناعات ، واكتساب الكمالات (ورزقكم من الطيبات) النافعات واللذائذ (ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين) وكل ماسواه مربوب مفتقر اليه (هو الحىّ) المتفرد بالحياة (لا إله إلا هو فادعوه) فاعبدوه (مخلصين له الدين) الطاعة من الشرك والرياء (الحمد لله رب العالمين) . ولما طلب الكفار منه عليه الصلاة والسلام عبادة الأوثان نزل (قل إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءنى البينات من ربى) بالوحى والقرآن (وأمرت أن أسلم) أن أستقيم وأنقاد (لرب العالمين * هو الذى خلقكم من تراب) بخلق أبيكم آدم منه أو بخلقكم أنتم من تراب انقلبت عناصره بالتغذية نباتا فحيوانا فكان منهما غذاؤكم ومنه كانت أجسامكم فكان منها نطفة فعلقة فمضغة فتخرجون أطفالا وهذا قوله تعالى (ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلا) أى يخرج كل واحد منكم طفلا ، وقد وضح هذا المقام فى سوابق هذا التفسير (ثم) يبقيكم (لتبلغوا أشدّكم ثم) يبقيكم (لتكونوا شيوخا ومنكم من يتوفى من قبل) من قبل الشيخوخة ، أو من قبل بلوغ الرشد (و) يفعل ذلك (لتبلغوا أجلا مسمى) وهو وقت الموت (ولعلكم تعقلون) ما فى تقلبكم فى تلك الأدوار من العبر والحجج فان أبلغ الحجج ما أحسّ به الانسان من نفسه (هو الذى يحيى ويميت فاذا قضى أمرا) أى أراده (فانما يقول

له كن فيكون) فلا يحتاج فى تكوينه الى عدة أو كلفة (ألم تر الى الذين يجادلون فى آيات الله أنى يصرفون) عن التصديق به ، وانما كرر ذم المجادلة لأنها هى الغالبة على نوع الانسان تكبرا وعنادا وتقليدا وتمسكا بالعادات (الذين كذبوا بالكتاب) بالقرآن (وبما أرسلنا به رسلنا) من سائر الكتب (فسوف يعلمون ✻ إذ الأغلال فى أعناقهم) أى فسوف يعلمون جزاء تكذيبهم وقت ماتكون الأغلال فى أعناقهم واذ للماضى عبر بها عن المستقبل لتيقنه كقوله ـ أتى أمر الله ـ ثم قال (والسلاسل يسحبون) بها (فى الحميم) فى الماء الحار (ثم فى النار يسجرون) يقال سجر التنور اذا ملأه بالوقود ، ومعنى ذلك انهم فى النار فهى محيطة بهم (ثم قيل لهم) أى تقول لهم الخزنة (أين ما كنتم تشركون ✻ من دون الله) يعنى الأصنام (قالوا ضلوا عنا) غابوا عن عيوننا فلا نراهم (بل لم نكن ندعوا من قبل شيأ) أى تبين لنا أنهم لم يكونوا شيأ ، تقول حسبت فلانا شيأ فاذا هو ليس بشئ ، وذلك اذا خبرته فلم تر عنده خيرا (كذلك يضل الله الكافرين) أى كما أضل هؤلاء المجادلين يضل سائر الكافرين الذين علم منهم اختيار الضلالة على الهدى (ذلكم) العذاب الذى نزل بكم (بما كنتم تفرحون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون) أى بسبب ما كنتم تبطرون وما كنتم تختالون (ادخلوا أبواب جهنم) السبعة (خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين) عن الايمان جهنم ، ثم خاطب النبى ﷺ قائلا (فاصبر إن وعد الله حق) بنصرك على الأعداء ، أقول لاجرم أن ذلك النصر يمتد الى كل صادق فى نصر دينه (فاما نرينك بعض الذى نعدهم) من العذاب فى حياتك كالقتل يوم بدر فذاك (أو) أن (نتوفينك) قبل ذلك (فالينا يرجعون) يوم القيامة فننتقم منهم أشد الانتقام (ولقد أرسلنا رسلا من قبلك) الى أممهم (منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك) ولم نذكر لك حال الباقين منهم ، ومامنهم من أحد إلا أعطى آيات ومعجزات وقد جادله قومه وكذبوه فيها وماجرى عليهم يقارب ماجرى عليك كما جاء فى مثل سليمان عليه السلام « ما تحت الشمس من جديد » وكما يقول العلماء « التاريخ يعيد نفسه » وقد صبروا ونصروا فاصبر وستنصر ، يقال ان عدد الأنبياء ١٢٤ ألف نبى والذين ذكرت قصصهم أشخاص معدودة (وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا باذن الله) وهل المعجزات إلا عطايا قسمت بينهم كسائر العطايا والمنح ليس لهم فى هبتها مدخل (فاذا جاء أمر الله) بالعذاب فى الدنيا والآخرة (قضى بالحق) باسعاد المحق واشقاء المبطل (وخسر هنالك المبطلون) المعاندون باقتراح الآيات . ولما كانت الآيات المقترحات ليس لها إلا نتائج ظاهرية كما شرح فى هذا التفسير ، وانما الأمر يرجع الى النظر فى العجائب أردفه بقوله (الله الذى جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون) فان من جنسها مايؤكل كالغنم ، ومنها مايؤكل ويركب وهو الابل (ولكم فيها منافع) كالألبان والجلود والأوبار (ولتبلغوا عليها حاجة فى صدوركم) أى تحمل أثقالكم من بلد الى بلد فى أسفاركم وحاجاتكم (وعليها وعلى الفلك تحملون) أى وعلى الابل فى البر وعلى السفن فى البحر (ويريكم آياته) دلائل قدرته كما قال فى أول السورة ـ هو الذى يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا ـ وسيأتى قريبا لماذا قال هنا ويريكم آياته بعد ذكر الأنعام (فأى آيات الله تنكرون) فتقولون انها ليست من عند الله وهذه هى الدلائل القائمة فى أنواع المخلوقات من الحيوانات ، ثم أردفها بدلائل آثار الأمم الظالمة وكيف كان التكذيب بالآيات الكونية سببا فى خراب الأمم فقال (أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارا فى الأرض) قصورا ومصانع (فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون) أى لم ينفعهم كسبهم (فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا) رضوا (بما عندهم من العلم) كأن يقولوا لن نبعث ولن نعذب وكأن يقولوا نحن نحسن علوم السياسة والزراعة والصناعة والامارة ونظام المدن فهل بعد هذا علم ؟ (وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن) أى وحاق بالكافرين جزاء جهلهم واستهزائهم (فلما رأوا بأسنا) شدة عذابنا (قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين) يعنون الأصنام (فلم يك ينفعهم إيمانهم لما

رأوا

رأوا بأسنا) أى فلم يصح ولم يستقم أن ينفعهم إيمانهم (سنة الله التى قد خلت فى عباده) أى سنّ الله ذلك سنة ماضية فى العباد وهذا مصدر مؤكد (وخسر هنالك) أى وقت رؤيتهم البأس فهو اسم مكان استعير للزمان (الكافرون) انتهى التفسير اللفظى للقسم الرابع من السورة

١ - ﴿ لطيفة فى قوله تعالى .. ويريكم آياته فأى آيات الله تنكرون - ﴾

ذكر الله الأنعام وأعقبها بذكراه يرينا الآيات ، وقد جاء فى أوّل السورة - هو الذى يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا وما يتذكر إلا من ينيب -

تبين فى سور كثيرة فى هذا التفسير أن الرزق والحكمة متلازمان ، أنزل الله الأنعام والزرع لرزقنا الجسمى والعقلى ، كرّر الله ذلك فى القرآن ليبين لنا أن هذه الحياة لم تكن لهوا ولعبا ، اننا مخلوقون فى عالم كله جمال وكمال وحكمة وعلم ، فالويل لمن استمرأ المرعى وغفل عن نظامه ، إن الأمر لجدّ فلينتهز المسلمون الفرصة أيام حياتهم ، وليتناولوا من تلك النعم رزقا وعلما ، ومن لم يوجهوا عنايتهم الى اقتحام الأخطار وتجشم المشاق ودرس هذه العوالم وبحثها لاينالون دنيا بها يمتعون ، ولا آخرة بها يرقون ، فليشمر المسلمون عن ساعد جدّهم - والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين -

ثم ارجع الى هذا المقام فى ﴿ سورة النحل ﴾ تأمّل هناك كيف ذكر الأنعام وانه خلقها لنا لنستدفئ بأصوافها وأوبارها وأشعارها ، وننتفع بلحمها وشحمها ولبنها ، وانها لنا جمال فى غدوّها ورواحها ، وانها تحمل أثقالنا الى بلاد نائية ، وكيف ذكر الخيل والبغال والحمير ، وانها للركوب والزينة ، ثم قال - ويخلق مالاتعلمون - فانظر كيف يقول هناك - ويخلق مالا تعلمون - عقب ماذكر ويقول هنا - ويريكم آياته - ويقول فى ﴿ سورة البقرة ﴾ بعد الكلام على ذبحها - كذلك يحيى الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون -

انظر : لماذا يقول هناك - ويريكم آياته - ويقول فى النحل - ويخلق مالاتعلمون - ويقول هنا - ويريكم آياته - الفعل مضارع فى الجميع ، ولقد علمت الاجابة فى ﴿ سورة البقرة ﴾ أن الأرواح لها وجود وهى تكلم الناس فترجع اليه ، فهذا رمز لما حصل فعلا فى هذا الزمان من مخاطبة الأرواح ، وكذلك مرّ بك فى ﴿ سورة النحل ﴾ كيف كان ذلك إخبارا بما حصل فعلا فى أيامنا من الكهرباء والآلات المحركات بالبخار فان الكهرباء أصبحت تعطى الناس ماتعطيه الأنعام من حرث ونقل فى البرّ والبحر ، فهذا معنى قوله هناك - ويخلق مالاتعلمون - وأشار له هنا بقوله - ويريكم آياته - أى التى بها تنالون مانلتموه من الأنعام النافعة لكم فى حياتكم (انظر هذا المقام واضحا فى سورة النحل وتفطن)

***

لقد تبين لك أن (حم) تشير الى الحمد ، وأن الحمد مرجعه العلم كما شرح فى هذا التفسير مرارا ، وآية ذلك انه قد تكرّر الحمد هنا ، فبينما تراه فى آخر ﴿ سورة الزمر ﴾ اذا هو فى حيز الكلام على حملة العرش يسبحون بحمد ربهم ، ثم فى قوله تعالى آمرا لرسوله ﷺ واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشىّ والابكار . وأخيرا فى الكلام على عجائب الحكمة من جعل الأرض قرارا والسماء بناء وتصويرنا فى أحسن صورة ورزقنا من الطيبات إذ ختم هذا المقال بقوله « الحمد لله رب العالمين »

﴿ تذييل التفسير فى سورة حم غافر ﴾

والكلام فيه على « مقصدين : المقصد الأوّل » فى قوله تعالى - وصوّركم فأحسن صوركم - وقوله تعالى - الذى جعل لكم الأنعام لتركبوا منها - الخ « المقصد الثانى » فى قوله تعالى - النار يعرضون عليها غدوّا وعشيا -

ولنخص الكلام على التنفس فنقول :

﴿ التنفس الرئوى فى الانسان والحيوان ﴾

التنفس انما يكون فى الحيوان برئات هوائية مثل رئة الانسان . والرئة تكون فى الحيوانات الرخوة كهيئة شبكة العنكبوت ، وأرق من ذلك فى الضفادع فهى فيها وعاآن ، وفى الحيات كيس مستطيل فيه خلايا كثيرة ، وفى ذوات الثدى والطيور عضو اسفنجى البناء كالبقر والجاموس ، وللطيور رئة تناسب حالها فى طيرانه

﴿ صفة الرئة العامة ﴾

جسمان اسفنجيان موضوعان فى الصدر ، وظهركل منهما متصل بباطن الأضلاع و يتصلان بالفم بقصبة غضروفية يدخل فيها الهواء ، وهذه القصبة متى وصلت الى الرئة تتحوّل الى شعبتين كل شعبة تدخل رئة تصير شعبا كثيرة منبثة فى الرئة اليمنى والرئة اليسرى ، ويصير كل فرع من الفرعين فى كل رئة من الرئتين منشبها بكيس وهذا الكيس متصل بالهواء الخارجى بأنبوبة صفاقية تخترق الرئة حتى تخرج منها فى أعلى الصدر ، وباجتماع الأنبوبتين تكون القصبة الغضروفية . والدم اذا عاد من أطراف الجسد بواسطة الأوردة يصب فى الأذين الأيمن من القلب ويسير منه الى البطين الأيمن ويخرج من البطين الأيمن المذكور بشريان كبير يقال له الشريان الرئوى وهو يسير الى الرئتين ويتفرّع فيهما كما تتفرّع شعب القصبة فتنتهى الشعب بالأنابيب الهوائية وتنتهى الشرايين بالشبكة الشعرية . فاذا دخل الهواء فى المسالك الهوائية وانتهى الى الخلايا الهوائية أصبح مجاورا للدم فى الأوعية الشعرية . فاذن يمتص الدم الاكسوجين من الهواء وينفث فيه حامض الكربونيك بقوّة حيوية لم تدركها عقول الناس . وحينئذ يدخل الدم فى البطين الأيسر والأذين الأيسر ويتفرّع فى سائر الجسم اه

لعلك تقول نحن الآن فى تفسير القرآن والقرآن سهل . وهذه الألفاظ التى سمعناها الآن لانفهم . فما هو البطين وماهو الأذين وما معنى هذا المقام ؟ أقول لك : إن هذا المقام مقام العجائب والحكمة . انظر الى القلب . انه فيه أربع تجاويف كأنها أربع غرف غرفتان فى أعلى وهما صغيرتان وغرفتان فى أسفل وهما كبيرتان . والصغريان تسمى كل منهما (أذين) أعنى أذن صغيرة تشبيها لها بالأذن . والكبريان يقال لكل منهما بطين أى انها كالبطن والبطن أكبر من الأذن . هكذا هاتان أكبر مما فوقهما

ولعلك تقول قد فهمت . إذن أقول لك ان لنا حنجرة وهى القصبة الهوائية . وهذه القصبة تتفرّع فرعين كل فرع يدخل رئة من الرئتين كما تقدّم . والفروع المتفرّعة من الفرعين تكون منتهية بما يشبه الكيس يدخل الهواء فيه من الفم . وهذا الهواء الآتى من الفم معدّ لتطهير الدم والدم يأتى من أطراف الجسم فى العروق التى يقال لها الأوردة لأن الأوردة تحمل الدم الذى يحتاج الى الاصلاح وهو الدم الوريدى والشرايين تحمل الدم الشريانى أى الذى حصل اصلاحه بالهواء كما سترى . فهذا الدم الذى جاء من طريق الأوردة يصل الى الاذين الأيمن . وهناك فتحة بين الاذين الأيمن والبطين الأيمن تفتح وتقفل والقلب أشبه بالآلة الماصة الكابسة فينزل الدم من الاذين الأيمن الى البطين الأيمن تحته ويخرج من البطين الأيمن فى الشريان الرئوى وهو يمتد الى الرئة ويتفرّع فيها فروعا شعرية دقيقة . وقد علمت مما مرّ أن القصبة الهوائية لها فروع منبثة فيها هواء . فههنا تجاورت الفروع الهوائية الآتية من الفم والفروع الشعرية الآتية من الشريان الممتدّ من البطين الأيمن . وهناك يتلاقى الدم والهواء ويحصل التفاعل بينهما

فانظر كيف جرى الدم وسار فى مسالك فى الجسم ثم جرى الى الاذين الأيمن والبطين والشريان الرئوى

وانتهى الى الهواء الآتى من الخارج . وكيف استمرّ هذا العمل ليلا ونهارا والناس لايعلمون بل ربما يعيش الانسان ويموت وهولايدرى عن هذا ولاعن غيره شيأ ، ومتى طهرالدم سارفى كل من الاذين الأيسر والبطين الأيسر وخرج الى الجسم فى الأورطى وهو يتفرّع الى فرعين فرع يمتدّ الى أعلى الجسم وفرع الى أسفله ويتفرّع فروعا لاتحصى فى سائر الجسد لتغذيته وهكذا ، ومتى اتصلت بالموصلات الجسمية وتغذت بها رجعت عكرة الدم المتحدة بالمادّة الفحمية وهوالكربون الى القلب بطريق الأوردة وهكذا ، وانما أطلت لك فى هذا المقام لأن المدار ليس على كثرة العلم بل المدار على الفهم والتعقل وهذا مقام دقيق يحتاج الى البسط والشرح

الدم جاء من الأغذية الداخلة من الفم الى المرىء الى المعدة الى الامعاء وخلاصته تذهب فى الأوعية الشعرية وتدخل الكبد ويطبخ هناك وتخرج منه الصفراء ويخلص منه السوداء والماء ويتجه كل الى مقرّه فالأولى فى المرة الصفراء والثانية فى الطحال والثالثة تذهب الى الكلية ويبقى الدم فيدخل مع الدم الشريانى فى الدورة ، فهذا الدم الآتى من الغذاء محتاج الى الهواء لتجديد مادّة الحياة فيه فهو للدم أشبه بالماء بالنسبة لظاهر الجسم من حيث ازالة المضار فكما أن الماء نشربه ونتطهر به هكذا الدم يتطهر بالهواء ويأخذ منه مادّة الحياة كلما ضعفت . هذا ما أردت ذكره فى هذا المقام والحمد لله رب العالمين

---

٢ — ﴿المقصد الثانى فى قوله تعالى — النار يعرضون عليها غدوّا وعشيا — ﴾

قد ذكرت لك أن علماءنا رحمهم الله قالوا « إن هذه الآية تدل على عذاب القبر » واذن لابدّ أن أذكر لك شذرات من كتاب الأرواح الذى ألفته لهذا الغرض وانى أحمد الله عزّوجل إذ جعل بينى وبين تفسير القرآن حائلا مدة نحو (١٣) سنة مع انى كنت أدرسه فى مدرسة دار العلوم وكانت الفرصة سانحة لتتميمه فأراد الله أن يسلط رجال السياسة علىّ وأنا فى (دار العلوم) فوشوا بى وقالوا للانجليز انه يعلم تلاميذه الوطنية فنقلت من تعليم طلبة دارالعلوم الذين يفهمون الى تعليم تلاميذ الثانوى اللغة العربية لاغير وانقطع التفسير وبقى ماكتبته محفوظا عندى حتى انتهت الحرب العظمى ودارت الأيام وانتهيت من أعمال الحكومة وفى أثناء هذه السنين اطلعت على علم الأرواح وألفت فيه الكتاب المذكور ، فلولا نعمة الله التى كانت بحسب ظاهرها نقمة وهى تأخير التفسير مع مسيس الحاجة اليه وشغف الطلبة والعارفين به ما أمكن شرح هذا المقام ولا اظهار ما أبرزه الله فى العالم الانسانى من الخبايا الروحية التى تنطق بمصداق القرآن ، فكم لله من نعمة اختبأت فى ظواهر النقم ، فلأشرع فى نقل شذرات من ذلك الكتاب الذى ألفته لهذا المعنى ، فقد جاء فى مقدمة ذلك الكتاب مايأتى :

ألافليعلم المسلمون فى أقطار الأرض أن المحافل الروحية والمجامع النفسية فى البلاد الاوروبية قد نطقت فيها الأرواح على مرآى ومسمع من مجالس شوراهم والملأ من قومهم ومجالس الشيوخ والأعيان فى أمريكا وغيرها كما سترونه مفصلا ومبينا أيما تبيان ، لقد شرحت الأرواح ماشاهدته فى عالم البرزخ من نعيم وبؤس وهناء وعناء وخاطب الأموات الأحياء والآباء الأبناء فأنصت الجمع وكفكف الدمع وجاءت البشرى بالحياة الأخرى وقال الأموات للأقارب والاخوان « وان الدار الآخرة لهى الحيوان » فصدق الله وعده ونصر عبده وأعزّ جنده ، وجاء الحق وزهق الباطل ، وفرح المسؤل وقنع السائل

فهل نقف نحن معاشر المسلمين أمام هذا الحادث صامتين ، إنه لعيب فاضح وخطأ واضح وشين مبين ، نحن أحقّ بهذا العلم من الغربيين ، إن الأمر الجلل يعوزه كتب تؤلف ومجامع تحتشد وعلماء تنتقد ، أنا لست فى كتابى هذا أثبت العالم الروحى فحسب ، فلقد سبقنى اليه من نشروا الفكرة وأذاعوا أمره بين اخوانى المصريين ، انما الذى أدهشنى ماعثرت عليه من المحاورات بين الأرواح الناطقة من عالم الغيب وبين الأحياء فى المجامع العلمية . وكيف كانت آراؤها وتعاليمها تذكرنى كثيرا مما طالعته فى أمهات الكتب الاسلامية وما جاء

عن السادة الصوفية . أليس من واجبي أن أنشر تلك المطابقات العجيبة بين أئمتنا الاسلامية . انه لحرام على أن أغمض العين ولا أنتهز الفرصة فأذكر كل حادثة من حوادث العجائب الروحية بما يطابقها من كلام أئمتنا الاسلامية مبينا الكتاب والصفحة واسم المؤلف

سيعجب المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها اذا جاءهم هذا النبأ الذى عنه يتساءلون من ذا الذى كان يدور بخلده أو يهجس بخاطره أن ماجاء من نعيم القبر وعذابه فى ديننا يعرض اليوم عرضا على المجامع الأوروبية النفسية كمثل الحاكم الالمانى يللون الذى مات وعمره ٧٩ سنه وقد استغاثت روحه من اضطهاد يتيمين له وحققوا فوجدوا ثبوت غدره باليتامى فى دفاتر الحكومة فى تلك الأقطار

أم من ذا الذى يسمع بحادث مدينة ونبرج اذ تجلت روح محاسب ارتكبت الخيانة فطلب أن تساعده أرملته اذ دلها على المكان الذى أخفيت فيه تلك الدفاتر ففعلت ماطلب وخفف عنه بعض مايجد من العذاب المهين

بل من ذا الذى يسمع بحادثة مدينة انجولبم ولا يكون من الموقنين وهى من حوادث لاعداد لها فى المجامع النفسية الروحية . ذلك انه مات غنى بخيل فأحضرت الجمعية روحه فقال هاتوا لى ذهبي ومالى لم أخذتموه فى حديث طويل ستقرؤه مفصلا فى الكتاب

أنا لست فى كتاب الأرواح أسرد الحوادث المنقولة مبهلا ولكنى أجد ذلك يطابق مانص عليه الغزالى وغيره بطريق الكشف وكيف قال ان عذاب القبر على هذا الأسلوب وستراه مفصلا فى الكتاب

من وقف على أسرار دين الاسلام فى أمهات الكتب العلمية عرف ما للذنوب القلبية من الحسد والكبرياء والطمع والجشع من الأثر فى العذاب وان العلاقة متينة ثابتة مؤكدة بينهما عند الممات . وكذلك ليس للمرء من كمال الا بالأعمال العظيمة لبنى الانسان . لماقرأت محادثات الأرواح التى ستراها ألفيتها جاءت مصدقة لما قرأته فى كل كتبهم فأثبت المطابقة فى هذا الكتاب . وفى الحديث : من كتم علما ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة أفلا يجب نشر هذا التفصيل لاخوانى المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ان ذلك يأمر به الدين

نعم لقد بزغ بزوغ الشمس للورى قوله تعالى ـ يوم تجد كل نفس ماعملت من خير محضرا ـ وثبت بالبراهين و بقين الصدق . قوله تعالى ـ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ـ

وجاء فى صفحة ٣٣ منه ومابعدها مايأتى :

قال العلامة زين الدين محمد المدعو عبد الرءوف تاج العارفين ابن زين العابدين الحدادى القاهرى المعروف بالمناوى المولود سنة ٩٥٢ المتوفى بالقاهرة صبح يوم الخميس الثالث والعشرين من صفر الخير سنة ١٠٣١ على قصيدة النفس لابن سينا صفحة ٣٢ ناقلا عن الغزالى مايأتى :

والعالم من محرك الفلك التاسع من الصفحة التى تلى جهة فوق الى التى تلى جهة أقدامنا مملوء جنودا وملائكة ومايعلم جنود ربك الاهو الى أن قال ولا ينبغى أن ينكر منكر ذلك وقد شهد شعاع الشمس ووروده بباطنه حتى ان قرصها يكون بالغرب وشعاعها بالشرق فاهو الأن يغيب خلف جبل فينقطع الشعاع الذى بالشرق بلازمان فلو كان جسما ماانقطع فى عدة سنين واذا أخذت مرآة وعكست بها الشعاع انعكس الى حيث شئت ثم تعطفه لا فى زمان . وجوهر الشعاع بالاضافة الى جوهر النفس كثيف فليس فى العالم موضع الا وهو معمور بما لا يعلمه الا الله ولذلك أمر الشارع بالستر فى الخلوة وعند الجماع والعالم مشحون بالأرواح اهـ

(ثانيا) قال المناوى نفسه فى الكتاب المذكور نقلا عن الغزالى رحمه الله صفحة ٨٠ ماملخصه أنه قال قد ظهر بالمشاهدة ظهورا أوضح من العيان أن أصناف عذاب القبر ثلاثة أقسام فرقة المشتهيات وخزى خجل الفاضحات وحسرة فوت المحبوبات

وها

وهذه أنواع روحانية تتعاقب على المحتالي أن ينتهى الى النار الجسمانية . ففرقة المشتهيات وهو أولها وصورته المستعارة من عالم الحس والتخيل التنين الذى وصفه الشرع وعدد رءوسه وهى بقدر الشهوات ورذائل الصفات الى أن قال . والثانى خزى خجل الفاضحات فاذا تطاول الزمن بعد الموت وقد احترق الفؤاد بفراقه ما تشتهيه النفس من الأهل والأحباب والمال تخبو نار ذلك الفراق بطول الزمن فتبدو إذ ذاك نار الخزى فى القلب عما ارتكبت من الذنوب والآثام و يرى نفسه فى خزى وفضيحة أمام خالقه والعقلاء فاذا طال الزمن ألف الفضيحة ثم تظهر آخر الأمر نار حسرة فوت المحبوبات من الأعمال العظيمة والعلوم اليقينية التى يرى غيره بها ارتقى وذلك آخر ما يلقى من العذاب قبل ما يلج النار فى الآخرة هذا ملخص ما ذكره المناوى نقلا عن الغزالى صفحة ٨٠ و ٨١ ومما قال فيها بالحرف

ولا تظن أن الله يغضب عليك انتقاما ثم تخدع نفسك برجاء العفو فتقول لم يعذبنى ولم تضره معصيتى . إذ يلزم العذاب من المعصية كما يلزم الموت من السم . وهذه الحسرة دائمة لا تزول أبدا انتهى المقصود منه بالحرف الواحد

(ثالثا) : قال فى إخوان الصفاء الجزء الثالث صفحة ٣٦٢

واعلم ان النفوس المتجسدة الخيرة ملائكة بالقوة فلذا فارقت أجسادها كانت ملائكة بالفعل كذلك النفوس المتجسدة الشريرة هى شياطين بالقوة فاذا فارقت أجسادها كانت شياطين بالفعل فهذه النفوس الشيطانية بالفعل توسوس للنفوس الشيطانية بالقوة لتخرجها الى الفعل كما قال تعالى ـ شياطين الانس والجن يوحى بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا ـ فشياطين الانس هى النفوس المتجسدة الشريرة أنست بالأجساد وشياطين الجن هى النفوس الشريرة المفارقة للأجسام المحتجبة عن الأبصار وقال قبل ذلك ما ملخصه . ان هذه النفوس الشريرة لما فارقت الجسد وكانت معلقة بالدنيا وسلبت الحواس وآلات اللذات حزنت وتمنت لو رجعت للذات كرة أخرى فحينئذ تصبح النفس كأنها لاحية ولاميتة كما قال تعالى لا يموت فيها ولا يحيا وتقول . ياليتنا نرد فنعمل غير الذى كنا نعمل . ياليتنى كنت ترابا . هل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا . وقال تعالى ـ ولو ردوا لعادوا لما نهوا وانهم لكاذبون ـ لما ركب فيهم من الأخلاق الشائنة وتبقى تلك النفوس متعلقة بابناء جنسها المتجسدة توسوس لهم وهكذا شأن الغافلين انتهى ملخصا من اخوان الصفاء

ثم جاء فى صحيفة ٣٨ وما بعدها ما يأتى

قال شير محمد عندى سؤال آخر هام لا طاقة لى على كتمه ولا مندوحة لى من فهمه وذلك أنى قرأت أحاديث كثيرة فى أمر عذاب القبر ونعيمه وانها أمور جسمية لا معنوية وكيف يقتنع المسلمون بقولك هذا وكأنى بمن يسمع كلامك يقول هذا كلام فلاسفة خارج عن الدين وما تقول فى قوله ﷺ « المؤمن فى قبره فى روضة خضراء ويرحب له فى قبره سبعون ذراعا و يضىء حتى يكون كالقمر ليلة البدر هل تدرون فيما ذا أنزلت « فان له معيشة ضنكا » قالوا الله ورسوله أعلم قال عذاب الكافر فى قبره يسلط عليه تسعة وتسعون تنينا هل تدرون ما لتنين تسع وتسعون حية لكل حية تسعة رءوس يخدشونه و يلحسونه و ينفخون فى جسمه الى يوم يبعثون

قلت ياشير محمد ان لنا فى الجواب عليه وجوها ثلاثة ذكرها الامام الغزالى فلنسر على منهجه ولننسج على منواله

(الأول) أن تتلقى الحيات والعقارب والتنانين على حالها بلا تأويل وتسلم أنها موجودة وجودا غير ما نعهده . ولنا فى ذلك نظائر . ألم تر أن النبى ﷺ كان ينزل عليه جبريل والناس لا يرونه وهم به مصدقون . لما رأوا من الآثار والعلم والحكمة وقد أجمع رجال الكشف من المسلمين أنهم يشاهدون صورا و يعرفون أمورا يجهلها سواهم وأنت تعلم أن الوسطاء المنومين بالفتح يشاهدون صورا وأشباحا و يخبرون بأمور . والناس حولهم لا يدركون منها شيئا . أفليس الميت أوفر حرية وأكثر انطلاقا وأوسع نطاقا . فلماذا لم يسعك أن تتصورهذا وشبهه

عليك فاستمع لما ألقيه اليك فى

الوجه الثانى . ذلك انا نعتبر بحال النائم فاننا نرى نائمين فى فراش واحد وقد قام أحدهما مذعورا كئيبا وجلا خائفا مما شاهد وقت نومه . وقال الثانى قد كنت فى حديقة غناء مع من أحب وهو مستبشر فرح عالاق من المسرات والنعيم فلنتأمل الميت الذى صار أكثر حرية وأحدّ نظرا من النائم فتكون الحية والتنين والعقرب موجودة بالنسبة له والحاضرون لا يعلمون . فاذا عسر عليك هذا وأبيت أن تقبل فاستمع لما أقول فى

الوجه الثالث . بأن نقول ان الحيات ليست مؤذية بذاتها وان المؤذى هو السم الذى تنفثه من نابها فيدور مع الدم فيكون الألم الشديد بل نفس السم ليس بمؤذ . ألا ترى الى ماحققه الأطباء ان سم الحية ان شرب ولا جرح فى الفم ولا فى مجرى الطعام الى المعدة صار غذاء لا داء قاتلا . وانما يؤذى و يضر الجسم اذا دار مع الدم فى العروق والشرايين . فهنالك الأذى فالحية ليست بمؤذية ولا السم وانما هو الأثر الناجم من السم الملفوظ من الحية فكانت النتيجة أن اللذات والآلام كيفيات قد تصل الى الحس بطريق الأعصاب . والمدار على الأثر لا المؤثر . والآلام قسمان قسم جسمى وقسم روحى . فالجسمى اما من داخل و إما من خارج . والذى من الخارج إما من الحواس الخمس . كالصوت الكريه فى السمع . والمنظر البشع والمحزن أو المخيف فى البصر . والروائح الكريهة فى الشم والمرّ فى الذوق . والذى من داخل هى الأمراض وهى ترجع إلى انحراف المزاج عن اعتدال الطبائع الأربع وهى الصفراء والسوداء والدم والبلغم . ومن هذه تنشأ سائر الأمراض المتكاثرة

أما القسم الروحى فهو راجع الى الغضب والشهوة والجهل وعدم العدل . ولقد تفرع على هذه فروع كثيرة كتفرع رؤس الحيات وعدد التنانين والحيات . فاذا لم يتزن الغضب بالشجاعة والعلم ولم تحفظ الشهوة بالعفة . ولم يوصف العقل بالحكمة . ولم يكن اعتدال بين هذه القوى . كانت الآلام النفسية الموجعة التى تبق فى النفس بعد الموت . وهذا انحراف فى الأخلاق كما أن المرض انحراف فى المزاج . فاذا غلب الدم حدثت الأمراض الناجمة عنه . كما أن الغضب فى الأخلاق يحدث عنه أمثال الاحقاد والضغائن واذا غلبت الشهوة حدثت أمور . كالعشق المنحرف عن الجادة ومتى فارق المحب ما أحبه جزع . وهناك موازنة مابين الآلام الجسمية بقسميها ومابين الآلام النفسية . ولنضرب لك مثلا يوضح المقام فنقول لنتخذ حاسة اللمس مثلا فان الآلام الواصلة الى الجسم منها تكون بالضرب أو بالجرح مثلا . ونقابلها بالآلام الروحية لفقد المحبوب من مال وعقار

فلو أن رجلا قيل له أعطنى عقارك وضياعك وضرب ضربا موجعا فانه لا يترك ماملك ولا يدع ما أحب لما يحس من الألم الناجم من فراق المحبوب وهو مايملكه وهو أشد من الالم الناجم من الضرب المؤلم بطريق اللمس . الا أنه لا يزال يوازن بين الألمين ويتحمل الأمرين و يرضى بتمزيق جلده . حتى اذا أصبح ألم الجسم لا يطاق . وكادت تلتف الساق بالساق . هنالك يرى الألم الناجم من الضرب الجسمى أقوى من ألم فراق المحبوب فيتركه على قاعدة « اذا اجتمعت علتان يتبع الأخف »

(قال الامام الغزالى . والصفات المهلكات تنقلب مؤذيات ومؤلمات فى النفس عند الموت فتكون آلامها كآلام لدغ الحيات من غير وجود حيات وانقلاب الصفة مؤذيا يضاهى انقلاب العشق مؤذيا عند موت المعشوق فانه كان لذيذا فطرأت عليه حال صار اللذيذ بنفسه مؤلما . حتى يرد بالقلب من أنواع العذاب مايتمنى معه أن لم يكن قد تنعم بالعشق والوصال . بل هذا بعينه أحد أنواع عذاب الميت . فانه قد سلط العشق فى الدنيا على نفسه فصار يعشق ماله وعقاره وجاهه وولده وأقاربه ومعارفه ولو أخذ منه جميع ذلك فى حياته من لا يريد استرجاعه . فماذا ترى يكون حاله . أليس يعظم شقاؤه و يشتد عذابه و يقول ياليتنى لم يكن لى مال قط ولا جاه فكنت لا أتأذى بفراقه فالموت عبارة عن مفارقة المحبوبات الدنيوية كلها دفعة واحدة

ماحال من كان له واحد * غيب عنه ذلك الواحد

فما حال من لا يفرح الا بالدنيا فتؤخذ منه وتسلم الى أعدائه ثم يضاف الى ذلك الحسرة على مافاته من نعيم الآخرة انتهى المقصود منه

وجاء فى صحيفة ٤٤ ما يأتى

« المجلس الرابع »

(فى الروح التى أخبرت بموتها وزمنه وفى قلة علم النوع الانسانى ومقارنات شتى)

بين أقوال الأرواح و بين القرآن والحديث الشريف

فلما أن جاء الشيخ شبر محمد والتأم المجلس شرع يطالبنى بما وعدته فى المجلس السابق فقلت حبا وكرامة أما القصة الأولى فهى ماقاله فى الكتاب المذكور فى صفحة ٦٣ ونصه بالحرف الواحد روى المعلم جاردى نقلا عن إحدى الجرائد الروحانية الألمانية الحادث الآتى :

فى اليوم الثالث من شهر آب ١٨٨٢ قعد ثلاثة أشخاص من مدينة . ح . حول طاولة لمكالمتها . فلما استقرت بهم الحال . أخذت المائدة تتحرك اشارة الى رغبتها فى التكلم . فدار بينهم الحديث الآتى :

(س) من الطارق . ج : خياط مقتول

(س) كيف قتلت . ج : مرّ علىّ قطار فداسنى

(س) متى كان ذلك . ج : منذ ثلاث سنين

(س) وأين تم ذلك . ج : فى أونتر بارمن

(س) أى يوم . ج : فى ٢٩ آب سنة ١٨٧٩

(س) ما اسمك . ج : سيجوار ليكو بيسك

(س) أين كان مقرك . ج : فى بارمن

(س) هل والداك فى قيد الحياة . ج : نعم

(س) أكنت معلما أم صانعا . ج : كنت أجير صانع

(س) فى أىّ سنّ قتلت ج : فى السابعة عشرة من عمرى

(س) هل تستحسن أن نبلغ ذلك لوالديك . ج : كلا

(س) لماذا . ج : لأنهما لا يعتقدان الحياة بعد الموت

(س) ربما هذا يقنعهما . ج : لا ينو بحكم من ذلك الا السخرية

(س) كيف تمّ حادث قتلك .

(ج) كنت ذاهبا لزيارة أنسباء لى فى أونتر بارمن واذ كنت ماشيا فى طريق لم ألمح لضعف بصرى قدوم القطار فرّ علىّ وداسنى

(س) بماذا تشتغل الآن . ج : لا أستطيع وصف ذلك .

فعجب الحضور من هذه الرواية وقصدوا أن يتحققوا صحتها فكتب أحدهم فى اليوم الثانى الى مديرية بارمن ليستقصى الخبر فورد اليه الجواب من رئيس الشحنة فى ١٧ آب سنة ١٨٨٢ وهاك نصه : اجابة لطلبكم رقم ٨ الجارى أتشرف باعلامكم أننا على أثر مطالعتنا سجلات المديرية وجدنا أن الصانع الخياط المدعو سيجوار ليكو بيسك وله من العمر سبع عشرة سنة بينما كان مارا فى طريق اونتر بارمن ليلة ٢٦ آب سنة ١٨٧٩ الساعه ١١ والدقيقة ١٤ مر من فوقه قطار السكة الحديديه فهرسه ونسبت تضيته الى تجول القتيل جهلا منه فى طريق القطار . اه

اللطائف العامة لأقسام السورة كلها (١)

﴿ اللطيفة الأولى ﴾

(فى قوله تعالى _ هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة _ الى قوله _ فانما يقول له كن فيكون _ مع قوله _ الله الذى جعل لكم الأنعام _ الى قوله _ فأى آيات الله تنكرون _ مع ملاحظة آية _ خلقكم من نفس واحدة _ التى فى سورة الزمر الى قوله هناك _ فينبئكم بما كنتم تعملون _ وقوله فيها _ خلق السموات والأرض بالحق _ الى _ من الله العزيز الحكيم _)

فههنا خلقنا وخلق أنعامنا ، وانه حكيم ، وانه خلق هذه العوالم بالحق ، وانه يرضى لنا شكر النعمة ولا يرضى لنا كفرها ، ولاجرم أن المجهول لاشكر عليه ، إذن المعلوم هو الذى يكون عليه الشكر ، وعلى قدر جهل الانسان بالنعمة يكون كفرها وعلى مقدار معرفة حقائقها والعمل بها يكون شكرها ، إذن المسلمون اذا جهلوا الأنعام ونحوها فهم كافرون بنعمتها والله لايرضى لنا ذلك الكفر ، وأنت عليم أيها الذكى أن شكر النعمة تقدم تفسيره تكرارا فى هذا التفسير ، ذلك ان شكرها صرفها فيما خلقت له وذلك لا يكون إلا بعد المعرفة فمن عرف نعمة المحسن أحبه وأثنى عليه بلسانه وذلك هو الحمد وأطاعه بتسخير أعضائه كلها له ، إذن هنا قلب عرف فأحب ولسان أثنى وجوارح تسخر فى مصالح المشكور والمشكور هنا هو الله والله غنى ، إذن يجعل الانسان كل مواهبه مسخرة لعباد الله ، هذا هو شكر النعمة الذى أساسه المعرفة ، والمسلمون اليوم فى أقطار الأرض محروم أكثرهم من معرفة هذه العوالم ، والحرمان من المعرفة يبعث على التقصير فى الشكر فوجب على إذن فى هذا المقام أن أصطفى نبذا جلية مفيدة للمسلمين كنموذج لمعرفة علم الحيوان ، ولأخص من غوامض العلم ماتقع أعين الناس عليها وهم عنها غافلون

لما وصلت الى هذا المقام حضر صديق العالم الذى اعتاد محادثتى فى هذا التفسير . فقال : ماذا تريد أن تقول فى علم الحيوان ؟ ألم تكتب عنه مقدارا كبيرا فى ﴿ سورة النحل ﴾ عند آية _ وان لكم فى الأنعام لعبرة _ الخ وفى ﴿ سورة طه ﴾ نبذا جلية مصورة بالصور الشمسية البديعة وهكذا فى آخر ﴿ سورة الحج ﴾ إذ بينت هناك كيف تقسم الحيوانات الى فقرية وغير فقرية ، وجعلت الذبابة المذكورة فى الآية محور التقسيم ناقلا عن العالم الفرنسى الذى كان يحدث تلاميذه فى أمر الذبابة وانها عند عصرها لايرى لها عظم ولادم والحصان عند تهشيمه يرى له دم وعظم ، وهنالك انقسمت المملكة الى هذين القسمين وهكذا . ثم إنك فى ﴿ سورة النور ﴾ أطلت فى هذا المقام ورسمت الصور الحيوانية والنباتية المقسمة على المناطق الأرضية كلها . وهناك إيضاح تام عند قوله تعالى _ والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع _ الخ وهكذا فى ﴿ سورة النمل ﴾ شرحت أحوال النمل شرحا وافيا كما شرحت أحوال الحشرة المسماة بالأرضة وأبنت عجائبها البديعة فى ﴿ سورة سبأ ﴾ عند آية _ مادلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته _ وفى ﴿ سورة الروم ﴾ رسمت صور الحشرات والطيور والثعابين المختلفات الألوان لتبيان أن الألوان التى اتصفت بها هذه الحيوانات كانت سببا فى حفظ ماشا كلها بهذه الألوان من الحيوانات الأخرى التى خلت من سلاح المقاومة والحفظ وهذا كما اتضح فى أول الروم فى آية _ واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين _ واتضح أيضا فى ﴿ سورة المؤمنين ﴾ فى أولها عند قوله تعالى _ وماكنا عن الخلق غافلين _ فهنالك حيوانات كثيرة مرسومة حفظت بما منحت من الهيئات الخاصة

(١) هذه اللطائف لم تسطر إلا عند طبع هذه السورة ولم يكن لها وجود عند التأليف : المؤلف

والألوان

والألوان المناسبة لحالها بخلاف تلك المرسومات فى ﴿ سورة الروم ﴾ فإن منفعة ألوان الحيوان تعدّت الى حفظ غيره لأن مشابهة مالبس له سلاح لماله سلاح من الحشرات ونحوها هى التى أخافت الحيوانات المفترسة لهذه الحشرات ونحوها فصارت محفوظة ، ذلك كله ظاهر وقد تقدم كما تقدم فى ﴿ سورة فاطر ﴾ عجائب أنواع الريش فى مختلف الطيور ونحو ذلك وهكذا تقدم هناك عجائب المعدة والامعاء وأعصاب الحس وأعصاب الحركة وما شابه ذلك كله تقدم موضحا أيما إيضاح كما اتضح أيضا فى ﴿ سورة السجدة ﴾ عند آية ـ الذى أحسن كل شئ خلقه ـ الخ هذا كله تقدم فى هذا التفسير ، فما الذى تريد أن تقوله اليوم فى علم الحيوان ؟ فقلت : أنا أسألك سؤالا فى علم الحيوان . فقال سل . فقلت : ماتقول فى نوع السحالى والبرص والحرباء ، أضارّة هذه أم نافعة ؟ فقال : لا أدرى . فقلت : ما الفرق بين الثعابين السامّة والتى لاسمّ لها حتى تقتل الأوّل ولا تقتل الثانى ، وما الثعبان الذى يحمله الحواة فى بلادنا المصرية ؟ وهل هو سام . فقال : لاأدرى فقلت : هل تعلم حيوانا فى الماء يولد فى مكان بعيد عن وطنه الأصلى بعدا شاسعا جدا وهذا المولود وهو صغير يسافر شهورا وشهورا حتى يرجع الى الوطن الذى خرج منه أصله . فقال : كلا . فهذه ماهى إلا ألغاز فقلت : وهل العلق الذى فى الأرض له منفعة ؟ فقال : لاأدرى . فقلت : أضرر الحدأة أكبر أم نفعها حتى اذا غلب ضرّها قتلناها أونفعها أبقيناها ؟ فقال : لاأدرى . فقلت : فلأجبك على هذه الأسئلة فى هذا المقام حتى اذا جاءت فرصة ذكرت فوائد أخرى وذلك فى ﴿ سبعة فصول ﴾ فى السحالى والبرص والحرباء والثعابين وثعابين السمك والعلق والحدأة . فقال : ولكن يظهر لى أن الكلام وان حسن فقد خرج عن الموضوع . فقلت : إن الله يقول ـ وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج ـ فقد ذكر الأنعام والأنعام نوع من الحيوان إذن فلنبحث فى تقسيم الحيوان حتى نستخرج منه الأنعام . فقال : أما هذا فنعم . فقلت : نظرنا فى كتب المتقدّمين فوجدنا أن « اخوان الصفاء » يقسمه الى ناقص الخلقة وتام الخلقة ، وناقص الخلقة مقدّم فى الوجود على تام الخلقة . ثم قال بعد كلام : واعلم يا أخى أن الحيوان هو جسم متحرّك حساس يغتذى وينمى ويحسّ ويتحرّك حركة مكانية ، وان من الحيوان ماهو أشرف المراتب مما يلى رتبة الانسانية وهو ما كان له الحواس الخمس والتمييز الدقيق وقبول التعليم ومنه ماهو أدون رتبة مما يلى النبات وهو كل حيوان ليس له إلاحاسة واحدة وهى اللمس فحسب كالأصداف ، وما كان كأجناس الديدان كلها التى تتكوّن فى الطين أوفى الماء أوفى الخل أوفى الثلج أوفى لب الثمر أوفى الحب أوفى لبّ النبات والشجر أوفى أجواف الحيوانات الكبار الجثة ، وهذا النوع من الحيوانات أجسامه لحية وبدنه متخلخل وجلده رقيق وهو يمتص المادة بجميع بدنه بالقوّة الجاذبة ، ويحس باللمس وليس له حاسة أخرى لا الذوق ولا الشم ولا السمع ولا البصر غير اللمس حسب . وهو سريع التكوّن وسريع الهلاك والفساد والبلى . ومنها ماهى أتمّ بنية وأكمل صورة وهى كل دودة تتكوّن وتدب على ورق الشجر والنبات ونورها وزهرها لها ذوق ولمس . ومنها ماهى أتمّ وأكمل وهى كل حيوان له لمس وذوق وشم وليس له سمع ولا بصر وهى الحيوانات التى تمشى فى قعر البحار والمياه والمواضع المظلمة ومنها ماهى أتمّ وأكمل وهى كل حيوان من الهوام والحشرات التى تدبّ فى المواضع المظلمة له لمس وذوق وسمع وشم وليس له بصر مثل الخلد . فباللمس قوام جثته وبالذوق يميز الغذاء من غيره وبالشم يعرف مواضع الغذاء والقوت وبالسمع يعرف وطأ المؤذيات له فيحترز قبل الورود والهجوم عليه ولم يجعل له البصر لأنه يعيش فى المواضع المظلمة ولايحتاج الى البصر ولوكان له بصر لكان ذلك وبالا عليه من حفظه من إغماض العين من القذى ضرورة لأن الحكمة الإلهية لم تعط الحيوان عضوا ولاحاسة لايحتاج اليها ولاينتفع بها . ومنها ماهو أتمّ بنية وأكمل صورة وهى مالها خمس حواس كاملة وهى اللمس والذوق والشم والسمع والبصر ثم يتفاضل فى الجودة والرداءة

(فصل) ومن الحيوانات مايتدحرج كدودة الثلج ومنها مايزحف كدودة الصدف ومنها ماينساب كالحية ومنها مايدب كالعقارب ومنها مايعدو كالفار ومنها مايطير كالذباب والبق ومما يدب ويمشى ماله رجلان ومنها ماله أربعة أرجل ومنها ماله ستة أرجل ومنها ماله أكثر كالدحال ومما يطير من الحشرات ماله جناحان ومنها ماله أربعة أجنحة ومنها ماله ستة أرجل وأربعة أجنحة ومشفر ومخاليب وقرون كالجراد ومنها ماله خرطوم كالبق والذباب ومنها ماله مشفر وحمة كالزنابير ومن الهوام والحشرات ماله فكر وروية وتمييز وتدبير وسياسة مثل النمل والنحل يجتمع جماعة منهم ويتعاونون على أمر المعيشة واتخاذ المنازل والبيوت والقرى وجمع الذخائر والقوت للشتاء ويعيش حولا وربما زاد وما كان غير هذين من الهوام والحشرات مثل البق والبراغيث والذباب والجراد وماشاكلها فانها لاتعيش حولا كاملا لانها يهلكها الحر والبرد المفرطان ثم يتكون فى العام القابل مثلها

(فصل) ومن الحيوان ماهو أتم بنية مما ذكرنا وأكمل صوره منها . وهوكل حيوان بدنه مؤلف من أعضاء مختلفة الأشكال وكل عضو مركب من عدة قطعات من العظام وكل قطعة منها مفننة الهيآت من الطول والقصر والدقة والغلظ والاستقامة والاعوجاج ومؤلفة كلها بمفاصل مهندمة التركيب مشدودة الاعصاب والرباطات محشوة الخلل باللحم منسوجة بالعروق محصنة بالجلدة مغطاة بالشعر والوبر والصوف والريش أوالصدف أوالفلوس وفى باطن أجسادها أعضاء رئيسة كالدماغ والرئة والقلب والكبد والطحال والكليتين والمثانة والامعاء والمصارين والأوراد والمعدة والكرش والحوصلة والقانصة وماشاكلها وفى ظاهر البدن أرجل وأيد وأجنحة وذنب ومخاليب ومناقير والحافر والظلف والخف وماشاكلها كل ذلك لمآرب وخصال عدة ومنافع جة لايعلمها الا الذى خلقها وصورها وانشأها وأتمها وأكملها وبلغها الى أقصى غايتها وتمام نهايتها وهذه كلها أوصاف الأنعام والبهائم والسباع والوحوش والطيور والجوارح وبعض حيوان الماء وبعض الهوام كالحيات والأنعام وهوكل ماله ظلف مشقوق والبهائم ما كان لها حافر والسباع ما كان لها أنياب ومخاليب والوحوش ما كان مركبا بين ذلك والطيور ما كان لها أجنحة وريش ومنقار والجوارح ما كان لها أجنحة ومنقارمقوس ومخاليب معقربة وحيوان الماء مايقيم فيه ويعيش والحشرات مايطير وليس له ريش والهوام مايدب على رجلين وأربعة أويزحف أو ينساب على بطنه أويتدحرج على جنبيه

(فصل) ثم اعلم يا أخى أيدك الله وايانا بروح منه بأن الحيوانات الكبيرة الجثة العظيمة البنية التى لها عظام كبار وجلود ثخان وأعصاب غلاظ وعروق واسعة وأعضاء كبيرة مثل الفيل والجمل والجاموس وغيرها تحتاج أن تمكث فى الرحم زمانا طويلا الى أن تولدلعلتين اثنتين احداهما كيما تجتمع فى الرحم تلك المواد التى تحتاج اليها الطبيعة فى تتميم البنية وتكميل الصورة والعلة الأخرى كيما تدور الشمس فى الفلك وتقطع البروج المثلثات المشاكلات الطباع وتحط من هناك قوى روحانيات الكواكب الى عالم الكون والفساد التى تحتاج اليها فى تتميم قوى النفس النامية النباتية وقوى النفس الحيوانية الحاسة ليقبل كل جنس من الكائنات المولدات ماله أن يقبل من تلك القوى كما بينا طرفا من ذلك فى رسالة مسقط النطفة . ثم اعلم يا أخى أيدك الله وايانا بروح منه بأن الحيوانات التامة الخلقة الكبيرة الجثة العظيمة الصورة كلها كونت فى بدء الخلق ذكرا وأنثى من الطين تحت خط الاستواء حيث يكون الليل والنهار هناك متساويين والحر والبرد معتدلين والمواضع المكنفة من تصاريف الرياح موجودة هناك والمواد كثيرة متهيئة لقبول الصورة ولما لم يكن فى الأرض مواضع موجودة بهذه الأوصاف جعلت أرحام امات هذه الحيوانات على هذه الأوصاف من اعتدال الطباع لكيما اذا انتشرت فى الأرض تناسلت وتوالدت حيث كانت وأكثر الناس يتعجبون من كون الحيوانات من الطين ولايتعجبون من كونها فى الرحم من ماء مهين وهى أعجب فى الخلقة وأعظم فى القدرة لأن من الناس من يقدر أن يصور حيوانا من الطين أو من الخشب أو من الحديد أو من النحاس كما هى موجودة مشاهدة فى أيدى الناس من

خلقة الأصنام ولايمكن أحدا أن يصور حيوانا من الماء لأن الماء جسم سيال لاتماسك فيه الصورة فتكون هذه الحيوانات فى الأرحام أو فى البيض من ماء مهين أعجب فى الخلقة وأعظم فى القدرة من كونها فى الطين وأيضا ان أكثر الناس يتعجبون من خلقة الفيل أكثر من خلقة البقة وهى أعجب خلقة وأظرف صورة لأن الفيل مع كبر جثته له أربعة أرجل وخرطوم ونابان خارجان والبقة مع صغر جثتها لها ستة أرجل وخرطوم وأربعة أجنحة وذنب وفم وحلقوم وجوف ومصارين وأمعاء وأعضاء أخر لايدركها البصر وهى مع صغر جثتها مسلطة على الفيل بالأذية ولايقدر عليها ولايمتنع بالتحرز منها . وأيضا فان الصانع البشرى يقدر على أن يصور فيلا من الخشب أومن الحديد أومن غيرها بكماله ولايقدر أحد من الصناع أن يصور بقة لامن الخشب ولامن الحديد بكمالها وأيضا فان كون الانسان من النطفة بدءا ثم فى الرحم جنينا ثم فى المهد ضعيفا ثم فى المكتب صبيا ثم فى تصاريف أمور الدنيا رجلا حكيما أعجب أحوالا وأعظم اقتدارا من كونه يبعث من تراب قبره يوم القيامة وخروج الناس كأنهم جراد منتشر وهكذا أيضا مشاهدة خروج عشرين فروجة من تحت حضن دجاجة واحدة أوثلاثين دراجة من تحت حضن دراجة واحدة ينقض عنها قشور بيضها فى ساعة واحدة وعدوكل واحدة فى طلب الحب وفرارها وهربها من الطالب لها حتى ربما لايقدر عليها أعجب من خروج الناس من قبورهم يوم القيامة فما الذى منع المنكرين من الاقرار بذلك وهم يشاهدون مثل هذه التى أعجب هى منها وأعظم فى القدرة لولا جريان العادة بها اه

هذا ماجاء فى « اخوان الصفاء » أيها الذكى ولاجرم انك رأيت فى هذا المقال تعريف الأنعام بحسب ما كانوا يرونه والفرق بينها و بين السباع والبهائم ، هذا نوع آراء المتقدمين ، ولما كان هذا التفسير لايقنع أذكياء قرائه بآراء طائفة دون أخرى أردت أن أريك تقسيم المتأخرين للحيوان وهنالك نأتى بالفصول السبعة لتعرف أجوبة المسائل المتقدمة ، وهنالك تعرف أننا فى هذه الاجابة الآتية لم نخرج عن مضمون الآية الكريمة فقد صرح فيها بالأنعام ، وما الحيوان إلا أنعام وغير أنعام ، وهذا الذى سنذكره انما هو بعض المقابل لما فى الآية ، وهذا من مقاصد التفسير ، إذن الفصول السبعة الآتية لاتخرج عن مضمون التفسير ، فهاك تقسيم المتأخرين فى زماننا الحاضر :

الحيوانات إما أوّلية أى ذات خلية واحدة . واما غير أوّلية أى كثيرة الخلايا . فذات الخلية الواحدة كحيوان الملاريا الذى لا أعضاء له يتحرك بها فيعيش فى الكرات الدموية الحمراء فى دم الانسان فترتفع حرارته بسبب تكاثر هذا الحيوان بالتناسل وهو يستعين بالناموس فيدخل فيه وهذا ينقله الى انسان آخر فيمرض بهذا المرض . فهذا هوأدنى الحيوان خلق ليكون ضارا بالنوع الانسانى والانسان مكلف بدراسته ليتقيه . فهذه نعمة من حيث انها تحثنا على الدراسة التى بها نعرف مضرة الضار فنتقيه ومنفعة النافع فنصطفيه . فاذا جهلنا فانا لامحالة مصابون بالضار معاقبون بالحرمان من منفعة النافع . انتهى الكلام على الحيوانات الأوّلية ذات الخلية الواحدة

أما الحيوانات ذوات الخلايا فمنها الاسفنج وهو معروف . ومنها حيوان المرجان . وقد تقدم الكلام عليه فى ﴿ سورة النحل ﴾ وسور أخرى . ومنها الحيوانات ذوات الجلد الشوكى كنجم البحر وهذا تقدم فى ﴿ سورة الحج ﴾ رسمه وقنفذ البحر . ومنها الديدان المفرطحة كالدودة الكبدية والبلهارسيا . ومنها الديدان الاسطوانية مثل دودة الانكلستوما . ومنها الدودة الحلقية وهى دودة الأرض والعلق الطبى . ومنها الحيوانات المفصلية مثل الصرصار والذباب المنزلى الخ . ومنها الحيوانات الرخوة كالقواقع وأم الخلول . ومنها الحيوانات الفقرية التى جاءت بعضها هذه الآية . والفقرية منها السمك والضفادع والزواحف والطيور والحيوانات الثدييه

هذا مجمل أنواع الحيوانات . ولاجرم أن الفصول السبعة الآتية بعضها من ذوات الفقرات كثعابين السمك

وكالحدأة . و بعضها من الديدان الحلقية كدودة الأرض . و بعضها من الحيوانات الزاحفة كالسحالى والبرص والحرباء والثعابين . إذن فلنذكر الفصول السبعة على ترتيب ماقدمناه :

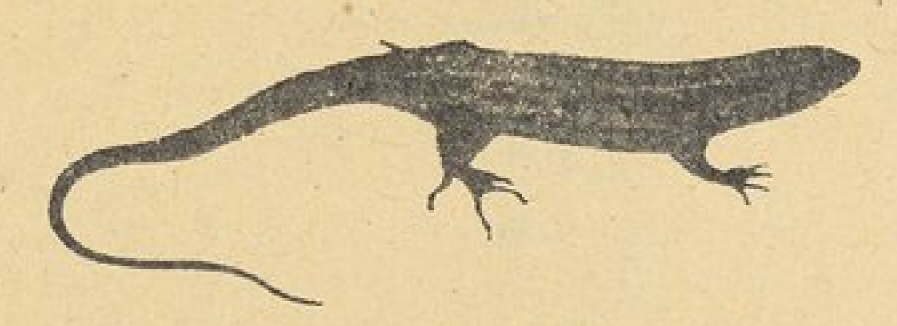
(الفصل الأول فى السحالى)

اعلم أن السحالى من الحيوانات الورلية . وهذه الحيوانات تغطى أجسامها بالحراشيف أوالدرنات . ولها أربعة أطراف تنتهى أصابعها بمخالب حادة . وهذه الحيوانات فى الغالب نشطة وسريعة الحركة وألوانها زاهية و بعضها يماثل لون الوسط الذى يعيش فيه وهذا يساعدها على الاختفاء عن الأنظار . وأذناب هذه الحيوانات طويلة و يلاحظ أنها تتحرك زمنا بعد فصلها عن الحيوان . ولهذه الحيوانات قدرة خاصة على تجديد بعض أعضائها المقطوعة كالأذناب

تعيش الحيوانات الورلية فى المناطق الحارة عادة و يقل وجودها أو ينعدم فى الأقطار الباردة . وتتغذى هذه الحيوانات باللحوم كالحشرات والديدان وغيرها . وتضع بيضا تدفنه فى الرمال حتى يفقس . وتشمل هذه الفصيلة حيوانات كثيرة مختلفة منها الورل والسحالى والأبراص والحرباء

(١) الورل : حيوان كبير الحجم نوعا يغطى جلده بدرنات خشنة . و يصل طول أكبر أنواعه الى متر أو أكثر . و يعيش بعض أنواعه فى الصحارى وعلى شواطئ الأنهار حيث تغوص فى الماء اذا أزعجت

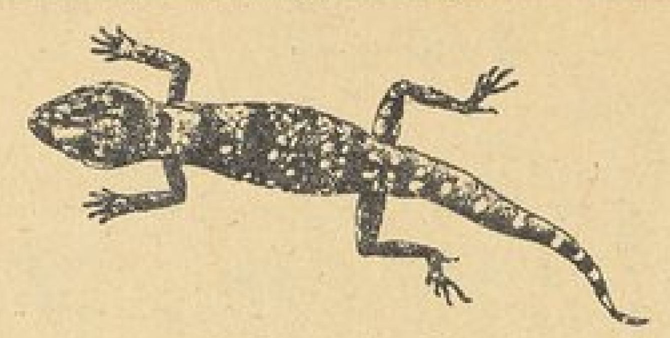
(٢) السحالى : حيوانات كثيرة الأنواع توجد فى جميع جهات القطر فى المزارع وغيرها وتتسلق الأشجار وتتغذى بالحشرات والديدان والحيوانات الصغيرة وجلدها لين فى الغالب وذو ألوان زاهية وتعتبر من الحيوانات النافعة لأنها تتغذى بالحيوانات الضارة (انظر شكل ١)



(شكل ١ — رسم السحلية)

« الفصل الثانى . الأبراص »

(٢) الأبراص : زواحف صغيرة تكثر فى المنازل ، ولها أصابع مفرطحة نوعا منتهية بمخالب ويتكون هذا الجزء المفرطح من أجزاء عضلية مستعرضة بارزة موازية لبعضها تقريبا ، فاذا وضع الحيوان قدمه على سطح أملس انطبق سطح هذه الأجزاء عليه انطباقا تاما ، وذلك بطرد الهواء الموجود بينهما وبذلك يتمكن البرص من تسلق الجدران الناعمة والمشى على الأسطح الملساء كالزجاج ، وتتغذى الأبراص بالحشرات الصغيرة فى المنازل كالصراصير مثلا ، ولذلك يعتبر البرص من الحيوانات النافعة والذكور فى العادة أزهى لونا من الاناث ، وتماثل الأبراص لون الوسط الذى تعيش فيه عادة (انظر شكل ٢ فى الصفحة التالية)



(شكل ٢ — رسم البرص)

﴿ الفصل الثالث . الحرباء ﴾

(٣) الحرباء حيوان غريب الشكل متوسط الحجم يعيش على الأشجار ، وللحرباء رأس هرمى وعلى جانبيه عينان براقتان بارزتان وتتحرك كل منهما بمفردها فى جميع الاتجاهات ، وعنقها قصير وعليه ثنيات جلدية ، ولها ذنب طويل ورفيع يلتف عادة حول أفرع الأشجار التى تقف عليها ، وأصابعها معدة للقبض على أفرع الأشجار . وجلد الحرباء لين و يتغير لونه بسرعة حسب لون الوسط الموجودة فيه الحرباء لتختفى فيه عن الأنظار ، وتصعب رؤيتها حتى من مسافة بسيطة ، ولسانها طويل واسطوانى الشكل و ينتهى بطرف منبسط كالملعقة يفرز مادة لزجة . وتتغذى الحرباء بالذباب وأبى دقيق والصراصير والحشرات الصغيرة إذ عند ما تقرب منها حشرة ينطلق لسانها بسرعة البرق فتلتصق الفريسة بقمته وسرعان مايعود اللسان بها الى الفم . والحرباء حيوان بطىء الحركة كسول يتربص لفريسته زمنا طويلا حتى يتمكن منها . وتوجد الحرباء فى كثير من بقاع الدنيا القديمة وفى كثير من مناطق الصحارى المصرية حيث توجد بعض الحشائش والأشجار (انظر شكل ٣)



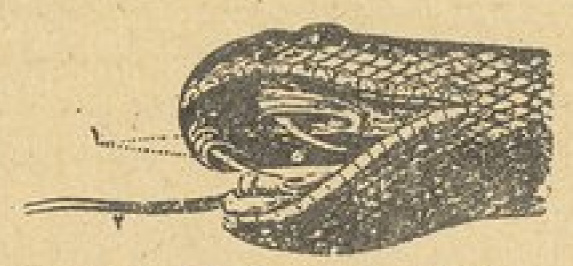
(شكل ٣ — رسم الحرباء)

﴿ الفصل الرابع : الثعابين ﴾

(٤) الثعابين : تميز الثعابين عن الزاحفات الأخرى بطول جسمها وخلوه من الأطراف (توجد الأطراف الخلفية بحالة أثرية تحت الجلد فى البوا والبيتون) ويتناسب شكل الثعابين مع طرق معيشتها حيث تزحف داخل الشقوق والانفاق الضيقة . ويغطى جسمها بطبقة حرشفية . وتغير الثعابين الطبقة الخارجية من جلدها فى فترات منتظمة . وتعيش الثعابين فى جميع بلاد العالم وتكثر على الأخص فى البلاد الحارة فيعيش بعضها فى الغابات ويتسلق الأشجار . ويعيش بعضها على الأرض فى أنفاق خاصة . ويعيش البعض فى الماء . وأغلب الثعابين المائية سام

توجد بجانبى رأس الثعبان عينان ليس لهما جفون متحركة وهذا مايجعل الحيوان كأنه محدق دائماً . ومما يستحق الذكر أن الثعابين لاترى تماما أيام انسلاخها لأن الطبقة الخارجية لقرنية العين تغير أيضاً . وبالجزء الأمامى من الرأس يوجد الفم وله فتحة كبيرة ، وتتمكن الثعابين من ابتلاع حيوانات كبيرة بالنسبة لحجمها ، وذلك راجع لعدم التحام بعض عظام الرأس التى يتصل بها الفك الأسفل ، وبهذا يمكن فتح فمها واسعا بدرجة غير عادية ، ومما يسهل مرور الفريسة الكبيرة الحجم فى القناة الهضمية كون أضلاع الثعابين عائمة أى سائبة من أسفل ولاتتصل بقص متوسط

وللثعابين أسنان حادة متصلة بالفكين ولسان طويل سريع الحركة وذو طرف مشقوق ويستعمل كعضو للمس (انظر شكل ٤)



(شكل ٤ — رسم رأس ثعبان سام)

(١) النابان السميان (٢) اللسان المشقوق

ويميل أكثر الثعابين للرقاد هادئا ولايتحرك إلا من الجوع أو الخوف . وبعضها نهارى يميل للرقاد تحت أشعة الشمس المباشرة . وبعضها ليلى أى انه لايتجول للبحث عن غذائه إلا ليلا . وتتغلب أكثر الثعابين على فريستها بسرعة حركتها وقوة عضلاتها . وقد وصفها بعضهم بقوله : « إن الثعابين تفوق القردة فى مقدرتها على التسلق والأسماك فى مقدرتها على العوم والزبرا فى مقدرتها على الوثب وتفوق على أكبر مصارع وتبطش بالنمر الهائج » وكل هذه الصفات ترجع لقوة مجموعها العضلى

تتغذى الثعابين بالطيور المختلفة وبيضها وفراخها وبالجرذان والسحالى إذ تبتلعها كما هى وتتغذى كذلك بالضفادع والأسماك . وتضع الثعابين بيضا تدفنه فى الرمال وأكوام الأسبخة وفى الأراضى ، وقد ترقد بعض الثعابين على بيضها . ويلد البعض الآخر أحياء كبعض أنواع الحيات . والثعابين إما سامة أو غير سامة وتتميز الأولى بوجود نابين كبيرين حادين بالفك العلوى يعرفان بالنابين السميين

يفرز سم الثعبان من غدتين موجودتين على جانبى القسم الأمامى من الجمجمة بالقرب من عظام الفك العلوى الذى يحمل النابين السميين . ومن المحتمل أن هاتين الغدتين تقابلان الغدتين النكفيتين اللعابيتين متحورتين . وتخرج من كل غدة سمية قناة تمتد الى الناب المقابل لها فتنفتح إما فى قناة مقفلة تمر فى وسطه أو فى قناة

مفتوحة

مفتوحة هى عبارة عن ميزاب بجانبه . وفى كلتى الحالتين يمرّ السم الى الجرح الذى سببه الناب فى جسم الفريسة . ولاتختلف الثعابين السامّة ذات القناة المفتوحة فى شكلها العام عن غير السامّة . أما الثعابين السامّة ذات القناة الداخلية فتكون ذات ذيل قصير ورأس مثلث ولونها زاه قليلا كما فى الحيات

وسم الثعبان سائل رائق مصفر اللون وسريع التأثير اذا حقن تحت الجلد أوفى الدم مباشرة وذلك مايحصل عند مايعضّ الثعبان فريسته . ولايؤثر سم أغلب الثعابين اذا وصل الى القناة الهضمية لأنه يتأثر بالعصارات الهضمية كباقى المواد الزلالية فيتحلل تركيبه ويفقد خواصه السامّة . وتستعمل الثعابين سمها للدفاع عن نفسها وكذلك لتسميم فريستها حتى تتغلب عليها . وسنذكر هنا بعض أنواع سامّة وأخرى غير سامة :

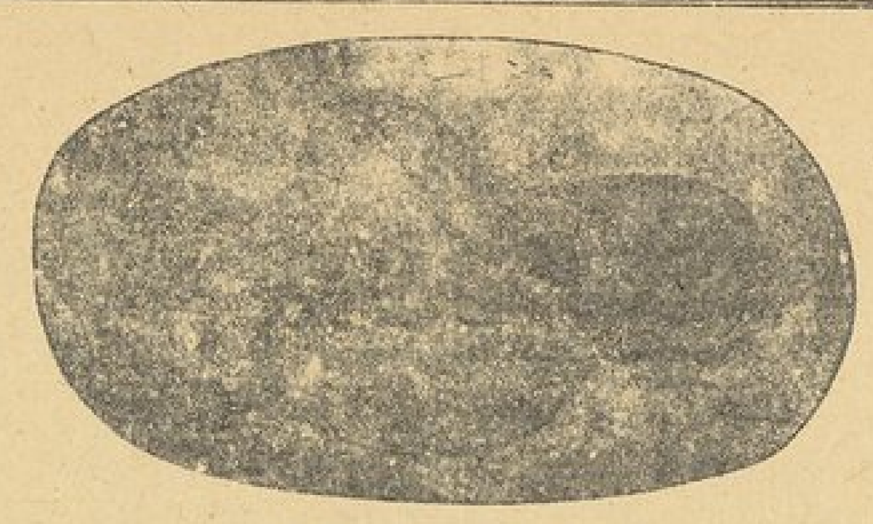
(١) ﴿الثعبان الناشر﴾ واسمه العلمى (ناجاهاجى) . يعرف هذا الثعبان بالكوبرا المصرى وسمى بالناشر تبعا لانبساط رقبته عرضا عند انفعاله ويوجد فى المزارع فى جميع جهات القطر المصرى ولونه العام بنى فى سطحه العلوى وأصفر فى سطحه السفلى ويصل طوله الى متر وثلاثة أرباع المتر ويتغذى بالضفادع والفيران وغيرها وربما بالأسماك لأنه يعبر الترع اذا اضطر لذلك . وتضع الأنثى بيضا يختلف عدده من ١٨ الى ٢٥ بيضه فى حجم بيض الحمام وله قشرة جلدية بيضاء . وسم الثعبان الناشر قتال سريع الفعل ويحدث نوع من الكوبرا فى الهند عددا من الوفيات كل عام (انظر شكل ٥)



(الكوبرا المصرى)

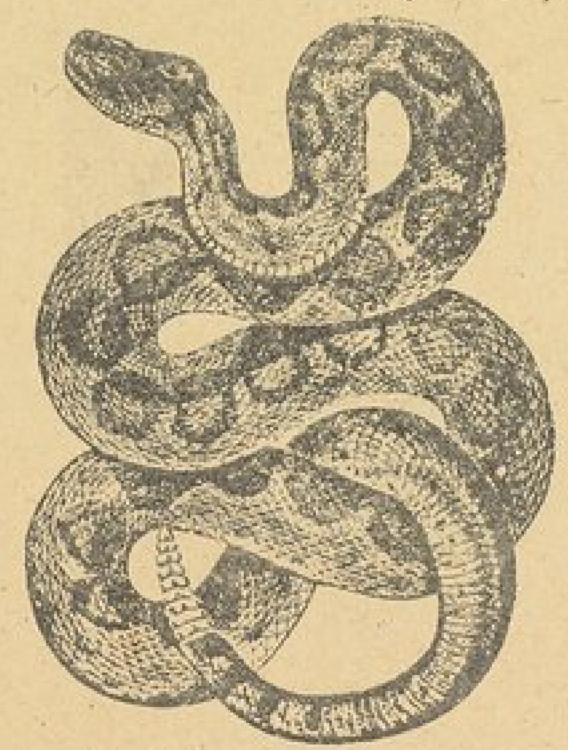
(شكل ٥ — رسم الثعبان الناشر «الكوبرا»)

(٢) ﴿الحية المقرنة﴾ واسمها العلمى (سيراستيس كوزنوتس) وهذا النوع من الثعابين ذوسم قتال للحيوانات الصغيرة ، وليس من المحقق أنه قتال للانسان ، وتعيش الحيات فى الصحارى ولونها مصفر كالرمل وعليها بقع داكنة اللون وتتميز بوجود نتوءين صغيرين كالقرون على رأسها وتتغذى بالفيران والحيوانات القارضة الصغيرة التى تجدها فى تلك المواضع كالجربوع مثلا ، ويبلغ طولها نصف متر أو أكثر قليلا (انظر شكل ٦ فى الصفحة التالية)



(شكل ٦ — رسم الحية المقرنة)

(٣) ﴿ الثعبان ذوالجرس ﴾ واسمه العلمى (كروتالوس أتروكس) يوجد هذا النوع من الثعابين السامة فى أمريكا ويمتاز بذنبه الذى يغطى طرفه بعدد من حراشيف قرنية جافة ومستديرة تحدث رنينا عنداحتكاكها بعضها أثناء سير الحيوان (انظر شكل ٧)



(شكل ٧ — الثعبان ذوالجرس بالحجم الطبيعى)

(٤) ﴿ الثعبان الأرقم ﴾ واسمه العلمى (زامينيس دياديما) . هذا الثعبان غير سام وكثير الانتشار فى جميع القطر ولونه العام فى سطحه العلوى رملى مائل الى الاحمرار وعليه بقع ذات لون بنى ، أما سطحه السفلى فذو لون أصفر ، ويسكن فى الجهات الجافة فيكثر وجوده فى الحفر العميقة بجوار الاهرام وعلى حدود الدلتا القريبة من الصحراء وفى الدلتا نفسها فى المناطق الجافة الخالية من المزروعات ، ويوجد هذا الثعبان دائما مع الحوائط ويبلغ طوله (١٣٠) سنيمترا تقريبا ويتغذى بالفيران والحيوانات القراضة الصغيرة

(٥) ﴿ البثون ﴾ هو أكبر أنواع الثعابين إذ يبلغ طول بعضها تسعة أمتار أو عشرة ، وتوجد فى كثير من المناطق الحارة فى افريقيا وآسيا وهى غير سامة . وتقتل فريستها بكونها تلتف على جسمها وتضغط عليه حتى تموت الفريسة . وتوجد بهذا الثعبان آثار الأرجل الخلفية تحت الجلد كما سبق القول (انظر شكل ٨)



(شكل ٨ – بثون أفريقى يبتلع دجاجة)

﴿ الفصل الخامس فى ثعابين السمك ﴾

الأسماك حيوانات مائية تحورت أجسامها بشكل خاص يساعدها على معيشتها الدائمة فى المياه ولواستثنينا الأسماك المفرطحة كسمك موسى لوجدنا بقية أنواع الأسماك كلها قريبة الشبه بعضها من بعض . فجسمها يشبه القارب ومغطى بقشور متصلة بالجلد من جهة واحدة وسائبة من جهاتها الأخرى . وتغطى القشور بعضها بعضا وكلها فى اتجاه واحد . وهذه القشور من أهمّ مميزات الأسماك كما أن الحراشيف من مميزات الزاحفات والريش من مميزات الطيور . والشعر من مميزات الحيوانات الثديية

من ثعابين السمك نوعان : أحدهما يعيش فى أنهار أوروبا وشمال افريقيا . ويعرف بثعبان السمك الاوروبى الافريقى واسمه العلمى (أنجلا أنجلا) ويعيش الآخر فى أنهار الولايات المتحدة التى تصب فى المحيط الاطلنطى واسمه العلمى (أنجلا كريزيبا)

ويوجد ثعبان السمك بمصر فى النيل والترع الخارجة منه بكميات كبيرة . وهو حيوان اسطوانىّ ذو جلد أملس أى لاقشر عليه ولون ظهره أخضر قاتم وبطنه سنجابىّ وفه فى مقدمة الرأس وبفكيه أسنان حادّة قاطعة . ويتغذى الثعبان من اللحوم أى انه يأكل الحيوانات المائية التى يتمكن من افتراسها كالأسماك الصغيرة والضفادع والديدان وغيرها . ويختلف طول الثعابين من (٥٠) الى (١٠٠) سنتيمترا . فالقصيرة

فى الطول عادة هى التى تعيش بالقرب من مصب النهر وهى الذكور عادة . أما التى تعيش فى أعالى النهر فتكون طويلة وهى الاناث . وهذه الأسماك ليلية أى انها تختفى بالنهار بأن تدفن نفسها فى الطين أو بين الأحجار وتخرج بالليل باحثة عن غذائها (انظر شكل ٩)



(شكل ٩ ـ ثعابين السمك ويشاهد بعضها مدفونا فى الطين)

ولا تتناسل الثعابين أصلا فى الأنهار كبقية الأسماك النهرية ومع ذلك فانه يوجد بها كميات كبيرة لا تقل سنة عن أخرى ، وكذلك فانه توجد بين الكميات التى تصاد أفراد كبيرة وأخرى صغيرة ، ويلاحظ فى الوقت نفسه أن الثعابين الكبيرة تهاجر من النهر الى البحر ، أما الصغيرة فتصعد من البحر الى النهر

ويتم نمو الثعابين عادة بعد مدة تتراوح من أربع سنين الى سبعة ، وفى هذا الوقت يتغير لونها فى السطح العلوى من أخضر الى لون مائل للحمرة ، وفى السطح السفلى من سنجابى الى أبيض فضى ، ويكون ذلك فى فصل الخريف ، وعند ذلك تترك النهر مجتمعة فى عدد كبير متجهة الى مصبه ، وفى المساء عادة تنزل الى البحر فتعوم بنشاط وتبدأ رحلة طويلة فتمر من بوغاز (جبل طارق) الى المحيط الاطلنطى وتعبره الى جزائر برمودة القريبة من شواطئ الولايات المتحدة فتصلها فى الشتاء ، وتقوم ثعابين أنهر أوروبا الغربية بنفس هذه الرحلة

وعند وصول الثعابين الى نهاية رحلتها البحرية الطويلة يكون قد تم نمو أعضائها التناسلية فتضع الاناث بيضها فى الماء وتفرغ كذلك الذكور مادتها المنوية فى الماء أيضا فيتم اخصاب البيض بهذه الطريقة وتضع الأنثى كميات كبيرة من البيض تبلغ المليون أو أكثر

أما مصير الذكور والاناث بعد ذلك فمجهول ، ولكن الأرجح أن مصيرها الموت كما هى العادة عند بعض الحيوانات ، وعند ما يفقس البيض تخرج منه الصغار المعروفة باليرقات فتبدأ سياحتها راجعة فى الطريق التى أتى منه أبواها ، وتتغذى فى طريقها بالحيوانات المائية الدقيقة ، وفى الوقت نفسه تكون هى معرضة

لافتراس كثير من الحيوانات البحرية ، وتستغرق سياحتها فى الرجوع كما يقال سنة ونصفا اوسنتين

ومما يدل على أن قيام الثعابين التامة النمو بهذه السياحة من الأنهار الى المحيط ورجوع برقاتها من المحيط الى الأنهار فعل غريزى هو أن برقات ثعابين السمك الأمريكية لاترجع إلا الى الأنهار الأمريكية التى تربى فيها أبواها ، ولايوجد ثعبان السمك الأمريكى فى أنهار أوروبا ولاأفريقيا وكذلك الحال مع الثعبان الاوروبى الافريقى ، وعند ماتصل البرقات الى مصب النهر يكون ذلك عادة فى أواخر الخريف أوأوائل الشتاء ، ويبلغ طولها فى هذا الوقت تسعة سنتيمترات ، فتصعد النهر ويعيش بعضها بالقرب من مصبه وهذه تكون عادة ذكور المستقبل ؛ أما التى تصعد الى أعالى النهر فتكون أناث المستقبل وهى التى يبلغ طولها عند نهاية نموها مترا تقريبا

أما الباعث لهذا الحيوان على تنقلاته الغريبة من النهر الى المحيط للتوالد ومن المحيط الى النهر للنمو فلايزال غامضا وكل التفسيرات التى كتبت فى هذا الشأن ليست شافية

﴿ الفصل السادس فى دودة الأرض ﴾

اعلم أن الناس يعيشون ويموتون وأمامهم جمال وعلم وحكمة ولايدرون ماهي ، لقد كنا أيام الطفولة نتوجه الى شواطئ البحار مع الأطفال ونبحث عن العلق فى الأرض فنستخرجه ونضعه فى الشص (الصنارة) ونصطاد به السمك ونحن لانعقل ولا آباؤنا ولا اخواننا لم خلق الله هذا العلق ؟ الله أكبر ! فأرانا العلم أن هذا العلق يصل عدده فى الفدان الواحد كما ستراه الى (٥٣) ألف دودة جعلت فى الأرض لتحرثها حرثا غير حرث الانسان . إذن المسلم اذا عاش ومات وهولايعرف عجائب هذه الدنيا فقد كفر نعمة الله ولم يشكرها ومن كفر النعمة حرمها . وهذا سبب ضعف المسلمين . إذن فلأسمعك الكلام على دودة الأرض من كتاب «علم الحيوان» وهذا نصه :

(١) ـ ﴿ دودة الأرض ﴾

توجد ديدان الارض بعدد وافر فى الأراضى مهما كان نوعها غيرأنه يلزم أن تكون رطبة لأن الرطوبة من ضروريات حياتها والجفاف قتال لها . ولذلك يندر وجودها فى الأراضى الرملية والصحارى . ويكثر وجودها فى الأراضى المغطاة بالنباتات والخضراوات إذتقيها حرارة الشمس وذلك كمافى أرض الجنائن عادة

﴿ شكلها الخارجى ﴾

ديدان الأرض اسطوانية الشكل ويبلغ طولها ١٥ سنتيمترا تقريبا وطرفاها رفيعان ولكن الأمامى منهما أرفع من الخلفى وجسمها مقسم بخطوط عرضية الى حلقات يتراوح عددها مابين ١٢٠ و ١٨٠ حلقة ولون الجسم قرنفلى وعليه أشواك صغيرة متجهة الى الخلف لتساعدها على الحركة دائما الى الأمام وهى أربعة أزواج فى كل حلقة زوجان منها فى كل جانب من الجسم . (انظر شكل ١٠)



(شكل ١٠ ـ دودة الأرض بالحجم الحقيق)

تغطى دودة الأرض بجلد لين رطب مخاطى ويشاهد بالسطح العلوى للدودة انتفاخ بسيط واضح فى الديدان

التامة النمو يعرف بالسرج و يمتد من الحلقة الثانية والثلاثين الى السابعة والثلاثين و به غدد تفرز مادة مخاطية لصنع الكيس الذى تضع الدودة فيه بيضها . وتوجد بالجسم عدة فتحات نذكرها بالاختصار فيما يلى

(١) الفم فتحة صغيرة بأسفل الحلقة الأولى

(٢) الاست فتحة بيضية فى الحلقة الأخيرة من الجسم

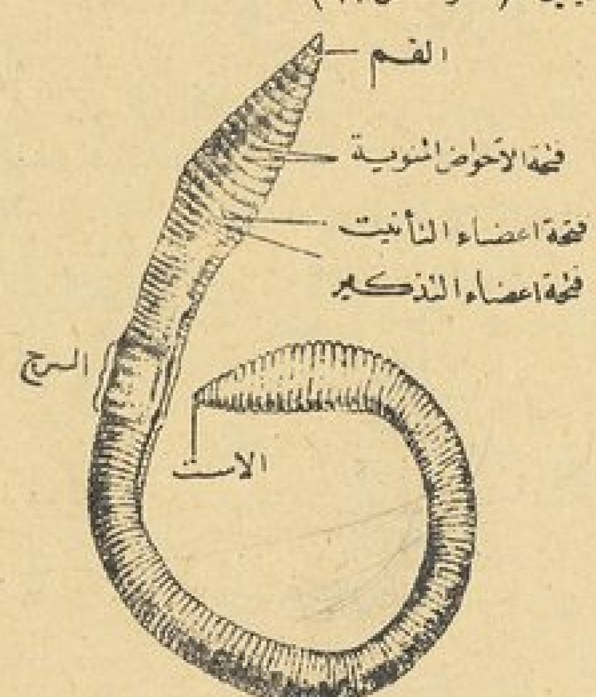
(٣) الفتحات التناسلية أربعة أزواج وهى :ـ

(ا) الوعاآن الناقلان الآتيان من الخصى ينفتحان على جانبى الحلقة الخامسة عشرة

(ب) قناتا المبيض الآتيتان من المبيضين ينفتحان على جانبى الحلقة الرابعة عشرة

(ج) للدودة أربعة أحواض منوية لتخزين السائل المنوى الآتى من فرد آخر ولها أربع فتحات على جانبى الحلقتين العاشرة والحادية عشرة

(٤) على جانبى كل حلقة من جسم الدودة ماعدا الثلاث حلقات الأولى والحلقة الأخيرة فتحتان بوليتان آتيتان من الكليتين . (انظر شكل ١١)



(شكل ١١ ـ دودة الأرض مكبرة)

(عاداتها وغذاؤها)

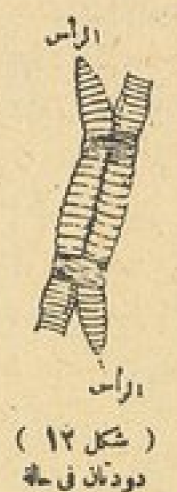
تعيش ديدان الأرض فى الأنفاق التى تعملها فى الأرض . وكيفية ذلك أنها تأكل جزءا من الطين لكى تفسح لنفسها مكانا يساعدها على ذلك دفع جسمها الى الأمام . وتكون هذه الانفاق عمودية عادة . وتبقى الديدان فيها أثناء النهار الا اذا اضطرها المطر الغزير الى مغادرتها وعند ذلك تهجرها مرغمة وتشرع فى عمل غيرها . وتنشط الديدان أثناء الليل إذ تخرج وتتجول على سطح الأرض باحثة عن غذائها أو أليفها . وكثيرا مانرى آثارها على الطرق والجسور المبتلة بحريا فى الصباح . وبالرغم من أن الديدان عديمة الأعين نجدها حساسة للضوء وتتجنبه اذا عرضت له . تخرج الديدان بالليل باحثة عن غذائها وأفضله الأوراق والأزهار المتساقطة إذ عند ماتعثر بها تقبض عليها بفمها وتسحبها الى انفاقها لتتغذى بها . وتتغذى كذلك ببذور النباتات التى تجدها فى التربة والكائنات الأخرى كبعض الجراثيم و بويضات الحشرات والديدان الصغيرة حية كانت أو ميتة .

ونكتفى

وتكتفى الديدان فى الأراضى غير المزرعة بالمادة العضوية التى تستخلصها من الطين الذى تبتلعه

﴿ التوالد ﴾

ديدان الأرض خناث ولكنها لاتلقح نفسها بل يحصل التلقيح عادة بين فردين وذلك بأن تضع الدودتان سطحيهما السفليين مقابل بعضهما على أن يكون رأساهما فى اتجاهين مختلفين . وعند ذلك تمر المادة المنوية من كل منهما وتدخل فى الأحواض المنوية للأخرى حيث تختزن بها . (انظر شكل ١٢)



(شكل ١٢)
دودتان فى حالة
الاجتماع التناسلى

وبعد هذه العملية تنفصل الدودتان وتفرز كل منهما من السرج مادة زلالية قرنية يتكون منها حزام عريض يحيط بجسم الدودة فى هذا الموضع . وعند ذلك تنسحب الدودة من هذا الحزام الى الخلف وعند مايصل الحزام الى الحلقة الرابعة عشرة تنزل فيه الدودة بضع بويضات وعندما يصل الى الحلقة العاشرة تنزل الدودة فى الحزام كمية من المواد المنوية . وعند انسحاب الدودة منه نهائيا ينسد طرفاه فيصبح بشكل حوصلة محتوية على بضع بويضات . وقليل من الحيوانات المنوية كلها مغمورة فى سائل لبنى مغذ يحتمل أن تقوم بافرازه غدد جلدية وفى تلك الحوصلة تخصب البويضات وعند فقسها تخرج الأجنة وتتغذى بالسائل اللبنى حتى اذا مانمت قليلا خرجت من الحوصلة لتعيد تاريخ حياتها . ولايخرج عادة من الحوصلة إلا جنين واحد يشبه الدودة اليافعة بعض الشبه وتضع الديدان بيضها عادة أثناء فصلى الربيع والصيف ولكنه قد يستمر طول العام

﴿ الأهمية الاقتصادية لديدان الأرض ﴾

(أولا) تستعمل الديدان طعما فى صيد الأسماك إذ يبحث عنها الصيادون على جانبى الترع تحت الأحجار والمواسير وغيرها .

(ثانيا) ديدان الأرض غذاء مهم لكثير من الطيور .

(ثالثا) تؤثر هذه الديدان تأثيرا عظيما على حياة النبات وذلك انها تتجول فى الأرض فتفككها وبذلك تكون عاملا مهما فى تهويتها وتصفيتها وتساعد كذلك جذور النباتات على التعمق فيقوى النبات ويكبر لاتساع دائرة غذائه

(رابعا) عند ماتأكل الديدان الطين تحدث بمواده المعدنية والعضوية تحليلا يجعلها أكثر صلاحية لتغذية النباتات

(خامسا) تقذف الديدان الطين بعد مروره فى جوفها على سطح الأرض وبعملها هذا تعرض الطبقات السفلية من التربة الى المؤثرات الجوية فكأنها تقوم بعملية حراثة بطيئة

(سادسا) بما أن هذه الديدان تسحب كثيرا من أوراق النباتات تحت سطح الأرض فبذلك تزيد فى خصوبتها عند ماتتعفن هذه المواد العضوية

ولما تحقق الاستاذ تشارلس دارون من فوائدها عنى بأمرها وأجرى تجاربه العديدة لاكتشاف مقدار ماتسببه هذه الديدان من نفع غير مباشر للانسان فقال (كانت هذه الديدان بمثابة المحراث الطبيعى للأرض قبل أن يخترع الانسان محراثا لأنها تؤدى عمله الا أنها أبطأ منه . ومنها فى الفدان الواحد من أرض الجنائن نحو ٥٣ ألف دودة يمر من أجسامها عشرة أطنان من التربة فى السنة وهذا القدر كاف لأن يغطى سطح أرض الفدان الواحد بطبقة سمكها نصف سنتيمتر)

هذه الديدان مقدرة غريبة على تجديد أجزائها المفقودة . فثلا اذاقطعت الدودة الى قسمين أثناء عزيق الأرض يعيش كل جزء مستقلا ويجى الجزء المفقودمنه فثلا ينمو للقسم الذى به الرأس جزء خلفى

(٢) - ﴿ العلق ﴾

العلق ديدان مائية تعيش فى المياه العذبة فى البرك والمستنقعات وبعضها فى الأراضى الرطبة . وهى حيوانات طفيلية تعيش على الدم الذى تمتصه من الحيوانات التى تعثر بها وجسمها خال من الأشواك وتتعلق بعائلها بواسطة ممصين موضوعين على طرفى جسمها ويساعدانها أيضا على الانتقال حيث يلاحظ ذلك عند حركتها بتثبيت الواحد منهما قبل رفع الآخر . وهذه الديدان خناث وتضع بيضها فى أكياس تصنعها لهذا الغرض وأهم أنواع هذه الديدان هو العلق الطبى

أقول : أفليس من المدهش أن نرى فى فدّاننا خمسين ألف محراث تحرث أرضنا قبل أن يضع ابن آدم محراثه فى الأرض ، أوليس مما يدهش أن نرى ماهو حقير فى نظر الجاهل عظيما فى نظر العالم ؛ وأن هذا الدود الذى كنا نستخرجه لنصطاد به السمك هو أثمن وأغلى فى العلم من الذهب والفضة لأنه به سعادتنا إذ هو يعين على نماء زرعنا ، ولامعنى للذهب والفضة إلا بعد أن يكون عندنا مزارع نأكلها فاذا عدمت الزروع فأى معنى للذهب أوالفضة أوالأحجار الكريمة ، الذهب للمعاملة فى البيع والشراء واذا لم تكن حياة بالغذاء فأى بيع وأى شراء ، والأحجار الكريمة للزينة وأى زينة لمن عاش وهوجائع لايجد فى جرابه مضغة . إذن الحياة مجاورة بالجهالة . إذن الموت خير لبنى آدم حتى ينقلهم من هذه الدار التى فيها قلبت الحقائق الى دار أخرى لتنير فهم تلك الحقائق بعد تمام البحث الممكن هنا . انتهى الكلام على الفصل السادس

﴿ الفصل السابع فى الكلام على الحدأة ﴾

الحدأة طير يعرف عند العامة بالحداية وهو من الطيور الجارحة واسمه العلمى (ملفوس اجبتيوس) وهو منتشر فى كل القطر المصرى ولكنه لايوجد فى مناطق الاسكندرية وبور سعيد والسويس ووادى النطرون الامتجولا . وهو كثير فى مديرية الفيوم

ويبلغ طوله نحو ستين سنتيمترا وطول منقاره نحو أربعة سنتيمترات والنصف الأعلى من المنقار متقوس الى أسفل كمنقار كل الطيور الجارحة . ويبلغ عرض الطير وهو باسط جناحيه نحو ١٣٠ سنتيمترا . ولون رأسه ورقبته أبيض رمادى يكون فيه شئ من الاحمرار فى أعلاهما . والخط المركزى لكل ريشة فيهما أسود ولون الريش فى أعلى جسمه قاتم . والريش الرئيسى فى الجناحين أسود . والذيل مشقوق ولونه قاتم مائل الى الحمرة فى أعلاه وأعتم فى جنبيه وفيه نحو عشر ريشات . ولون المنقار أصفر ويشاهد أن الحدأة التى لم تبلغ أشدها يكون منقارها أسود وذيلها غير مشقوق ويكون لون أعلى رأسها ورقبتها لونا أصفر يشبه لون الرمل

وكل من القدمين ينتهى بأربع أصابع وكل أصبع بمخلب حاد منحن قوى والأنثى أكبر من الذكر فى الجسم قليلا

ويعشش هذا الطير على الأشجار العالية فى القرى وفى المدن ويصنع عشه من أفرع الأشجار الجافة ينظمها على شكل حفرة ويبطنها من الداخل بالحشائش الجافة وورق الأشجار والورق الصناعى وبعض الخرق البالية وفى بعض الأحيان تحتل الحدأة عشا مهجورا لطير آخر (مثل الصقر)

وتظهر علامات التنبه الجنسى فى شهر مارس حيث يطير الذكر والأنثى متتابعين متلاعبين فى أعلى الهواء واسمين دوائر كبيرة القطر متتابعة على شكل حلزونى غير منتظم . وأثناء ذلك تكاد تكون الأجنحة ثابتة

ولا

ولايشاهد فيها إلا بعض حركات نادرة . فالطير يحلق فى الجو مستعينا بسطح جناحيه الواسع ومستعملا ذيله فى الاتجاه . ويشاهد الانسان إذالاحظ الحدأة وهى طائرة بجناحيها منبسطين أنها ترتفع فجأة فى الهواء الى منطقة أعلى دون أن تقوم بأدنى مجهود وسبب ذلك أنها تصادف فى سيرها تيارات الهواء الساخن الصاعد من الأرض فترفعها الى أعلى

وتبيض الأنثى نحو ثلاث بيضات ترقد عليها وحدها ويأتى الذكر الى الأنثى بغذائها أثناء ذلك وبعد فقس البيض تبقى الصغار مدة طويلة فى العش ثم حين تطير تبقى مدة أسابيع عالة على أبويها متغذية مما يأتيان به اليها منه . وصوت الحدأة العادى مخالف لصوتها وقت التفريخ

ويأكل هذا الطير صغار الدجاج والبط والاوز ويأكل أيضا الجرذان والضفادع والثعابين والسحالى ودود الأرض والحشرات ولايحجم عن أكل الرمم

ولولم تكن شراهته كبيرة فى افتراس صغار الطيور المنزلية لكان من أهم الحيوانات المفيدة للانسان بأكله الجرذان والحشرات الضارة وهو من أفيد الطيور فى المدن المصرية لأنه ينقى الشوارع من الرمم ومن بقايا الحيوانات وينقى الاسطح من كل بقايا المأكل ومن فضلات المطابخ التى تطرح عليها

وهذا الطير بطىء الطيران ولوأنه يطير عاليا وله كثير من الدهاء . وحاسة النظر عنده نامية جدا كما يشاهد ذلك من يتتبع حركاته عندما يسقط فجأة من أعلى منزل مرتفع على قطعة من بقايا لحم الجزارة ملقاة فى الشارع

هذا ما أردته من كتاب « علم الحيوان » والى هنا تم الكلام على الفصول السبعة والحمد لله رب العالمين

كتب فى أول أغسطس سنة ١٩٣٠

(خاتمة فى الحيوانات النافعة)

أذكرك أيها الذكى بما ذكرته فى ﴿ سورة يوسف ﴾ من انى كتبت فى مجلة « الملاجئ العباسية » مقالة فى الطيور لخصرتها الحكومة ثم حرمت صيدها ، وانى كتبت فى ﴿ سورة طه ﴾ آخر رأى الحكومة المصرية فى الطيور النافعة التى يحرم صيدها وهى :

(القنبرة . وعصفور التين . وأبو فصاده . والقلاق . والشحفوت . والجليل . والكروان . والسنونو . والزرزور . والدخله . والزريقه . والحسينى . والدح . والكركى . والوروار . والبلشون . وأبوقردان . وعصفور الجنة . والهدهد . والبلبل الصغير . والخطاف . وأبو بليقه . وأبواليسر . والزقزاق مطوق . والزقزاق البلدى . والغراب الزيتونى . وأبوصدر (أبوالحناء) والجيزه . والصعو . والهزار . والقمحية . وأم الهوى . وزقزاق شامى)

هذا ماذكرته هناك ، فلنزد عليه ماذكرناه هنا وهى السحلية والبرص وغيرها من كل حيوان قاتل للحشرات كالعنكبوت

فياسبحان الله: أيليق أن نعيش فى دورنا ونحن نجهل ماحولنا . هاأنا ذا فى العقد السابع من حياتى ولاعلم لى أن البرص يأكل الصرصار وغيره إلا فى هذا الشهر فأخبرت أهل المنزل بذلك وقد كانوا متشائمين منه ظانين انه ضار لانافع فمنعوا عنه الأذى

اللهم إن جهل هذه العلوم من أكبر ما أضر بالأمة الاسلامية ، هذا ولقد تقدم فى ﴿ سورة فاطر ﴾ عند آية ـ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء ـ الخ انى ذكرت هناك أن الجراد هجم على مصر أيام طبع تلك السورة وكتبت فى جريدة الاهرام أن الجراد تجارة رابحة وانه يعصر زيتا نافعا فى الطيارات ، وأن الجراد الهاجم على بلادنا اذا بعناه كان نعمة عظيمة وثفله ينفع لطعام البهائم ، ثم أرسلت الحكومة البلجيكية خطابا

للحكومة المصرية تطلب منها ذلك الجراد فلم ترد عليها . وهاك ماجاء فى جريدة الاهرام عندطبع هذه السورة يوم (٨) أغسطس سنة ١٩٣٠ وهذا نصه :

(تجارة الجراد فى بلجيكا)

والسعى للحصول على مقادير كبيرة منه للمصانع . عدم اكتراث الحكومة بما كتب اليها بشأنه

منذ أسابيع كتب جناب قنصل البلجيك فى الاسكندرية كتابا الى الحكومة المصرية لمناسبة اهتمامها بمحاربة الجراد يقول فيه مامؤداه : « إن فى بلجيكا مصانع خاصة تستخدم الجراد لأغراض صناعية . وقال إن بلاده على استعداد لشراء أى مقدار يقدم اليها من جماعات هذا الطير المضر بعد قتل ارجاله » (كذا)

ويظهر أن السلطة التى كتب اليها بهذا الشأن لم تهتم بالأمر كثيرا ، ويقال انها أهملت الطلب حتى انها لم ترد على كتاب القنصل بكلمة

وقد فهمنا الآن أن أحد البيوت المالية البلجيكية الكبيرة فى الاسكندرية علم أن العراق مازال يحارب الجراد فى بعض أرجائه فجعل يسعى للحصول على مقدار منه من تلك البلاد لايقل عن مئة طن . وهناك شروط معينة لتوريد الجراد أخصها انه يجب على المورد أن يضع الجراد بعد قتله فى الماء الحار نحو (١٥) دقيقة وتوضع فى الماء كمية من الملح . وبعد ذلك يؤخذ الجراد ويفرش على الأرض أربعة أيام ثم ينظف ويوضع فى أكياس أوصناديق ويشحن الى (ميناء أنفرس) حيث يتسلمه الطالبون

ولاندرى لماذا لم تهتم السلطة المصرية ذات الشأن بما كتبته اليها القنصلية البلجيكية فى هذا الموضوع فى أثناء محاربة الجراد فى الأراضى المصرية أيام كان الأهالى يهلكون ارجال هذا الطائر ويتلفون كل مايجمعونه منها . وقد كان بالامكان بيع مقادير كبيرة منه لمصانع البلجيك بواسطة القنصلية البلجيكية والكو بتوار البلجيكى . ولو أن الأهالى كانوا يعرفون أن للجراد فوائد صناعية وأن هناك مصانع تطلبه لاهتموا هم بالأمر وباعوا منه مئات الأطنان وربحوا منه المال الوفير

عسى أن لايأتى الجراد الى مصر مرة أخرى والبلاد فى غنى عن هذه التجارة . ولكن اذا الأقدار ساقت الى مصر جرادا فى وقت من الأوقات فيجب أن يكون مفهوما أن فى أوروبا مصانع تحتاج الى مايقتل من هذا الطائر الضر بالزراعة . انتهى

هذه حال حكومتنا المصرية التى لها فى الحكم نحو قرن وثلث وهؤلاء حكامها يتباطؤن فى منفعتها فما بالك أيها الذكى بغيرها من حكومات الشرق المتأخرة . ألافليعم التعليم النافع بلاد الاسلام فلا يكون تعلما قشريا إن بعض الحكام فى البلاد الشرقية ليس عندهم تهذيب تام ولاعشق للعلوم . إن من عشق العلم يحب الأمة والفضيلة ومن خلا من عشق العلم انصرفت همته الى شهواته فعاش خادما لها بحيث تكون جميع أعماله موجهة الى هذا الغرض وحده فلايبالى برقى الأمة وسعادتها والله يهدى من يشاء ويضل من يشاء وهو العزيز الحكيم . كل الأمر راجع للتعليم والحمد لله رب العالمين . انتهى ليلة الأحد ١٠ أغسطس سنة ١٩٣٠

﴿ اللطيفة الثانية ﴾

(فى قوله تعالى أيضا ـ هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ـ الى قوله تعالى ـ فانما يقول له كن فيكون ـ مع ملاحظة آية ـ خلقكم من نفس واحدة ـ مع قوله ـ ذلكم الله ربكم له الملك لاإله إلاهو فأنى تصرفون ـ التى فى سورة الزمر الى قوله هناك ـ فينبئكم بما كنتم تعملون ـ وقوله فيها ـ خلق السموات والأرض بالحق ـ الى قوله ـ ألاهو العزيز الغفار ـ)

هذه الآية أوّلها وحدة النفس التى منها خلقت نفوسنا الكثيرة وفى آخرها وحدة الله تعالى . ولاجرم أن الوحدة الأولى تدل على الوحدة الثانية وهذه من أعاجيب القرآن . يقول الله ـ خلقكم من نفس واحدة ـ وخلق من هذه النفس نفسا أخرى . ومن هاتين النفسين خلق نفوسا وهكذا . فالوحدة مبدأ الكثرة وذلك كالعدد أسه الواحد وبانضمام آخر اليه ابتدأ العدد لأن العدد يفهم منه التعدد ولاتعدد فى الواحد .

واعلم أن العلوم الحديثة المنتشرة فى كرتنا الأرضية هى التى تفهمنا سرّ هذه الآية . ألاترى رعاك الله أن وحدة الانسان ظاهرة بأن له روحا وهذه الروح تتصرّف فى جسمه وفى جميع أعضاء الحسّ وأعضاء الحركة وهى متعدّدة . ومن عجب أن هذه الوحدة الظاهرة فى الروح المتصرّفة فى الجسم ظاهرة أيضا فى ملكة النمل وجنودها منه . وفى ملكة الأرض (جمع أرضه) بوزن سمكة المرسومتين فى أوّل سورة سبأ . والمرسومتين أيضا فى سورة النحل إذقلت ان هذه الآية تفسرها العلوم الحديثة . أقول لك أيها الذكىّ ارجع فاقرأ ما كتبته على النمل فى ﴿ سورة النمل ﴾ وفيما كتبته على الأرضة فى ﴿ سورة سبأ ﴾ ثم أزيد عليه الآن فأقول :

هاهم القوم فى أوروبا ضغطوا على الزّر فى أوروبا فأوقدوا المصابيح فى استراليا ، فدلّ ذلك على أن هذه العوالم كلها متصلة اتصالا وثيقا ، ولقد تكلم السياحون وهم فوق القطب الجنوبى فى هذه السنة (١٩٣٠) مع من هم فى الممالك المتحدة بطريق البرق الذى لاسلك له ، إذن هذا الجوّ كله مملوء بالأسرار مفعم بالأنوار موصل جيد للأخبار

اذا علمت هذا فلتعلم علما ليس بالظنّ أن ملكة النحل وملكة النمل وملكة (الأرض) بوزن سمك متصلات مع رعاياها بواسطة هذه الأسرار الخفية فى الأثير وهى مع مملكتها كأرواحنا مع أعضائنا ، فاذا وصلت أعصابنا أخبار حواسنا الى داخل أجسامنا ، وأوصلت أعصابنا أخبار ملاذنا وآلامنا الى المخ وهو وصله الى أرواحنا فان الجوّ ومافيه من الأثير موصل بلاأعصاب فيه ، فكما وصل أخبار من وصلوا الى القطب الجنوبى لمن هم فى الممالك المتحدة ووصل تيار النور من أوروبا الى استراليا فى لمح البصر بمجرّد الضغط على الزّر بسر الراديوم ، هكذا وصل الأثير أخبار ملكة النحل الى عمالها فكان منهنّ المربية للذرّية والجامعة للعسل والشمع والتى تقف على باب الخلية حتى لايدخلها أحد ، ووصل أخبار ملكة النمل كما تقدّم فى ﴿ سورة النمل ﴾ فكانت مملكتها كأرقى مملكة فى العالم ، فمنهنّ الديدبان والعامل الصغير والجندى والضابط والمربى للذرّية كما تقدّم فى سورة النمل ، وهناك ترى مزارع النمل المنظمة البهجة مرسومة موضحة ، فهل يكون ذلك النظام وتلك الطاعة المدهشة تحت أمرة الملكة بلاخطاب منها ولاتفهيم ؟ كلا . والموصل هو العالم الخفىّ فى الأثير

تباركت ربنا وتعاليت ، أنت جعلت الوحدة فينا أى وحدة أرواحنا ، وهذه الوحدة فى أرواحنا جمعت قوانا وأعضاءنا فكانت عالما واحدا ، وجعلتها نموذجا نفهم به وحدة ممالك النمل والنحل وممالك الانسان بل مملكة الأرض والمجرّات والعوالم كلها كلهنّ متصلات اتصال أعضائنا بأجسامنا التى تقودها أرواحنا واتصال ممالك النحل بملكاتها وممالك النمل كذلك والأرض (بوزن سمك) كلهنّ خاضعات لملكاتهنّ خضوع أجسامنا لأرواحنا ، هكذا العوالم كلها بالله خاضعات متصلات متحدات مرتبطات ارتباطا وثيقا وأنت المدبر لها ، وقد ضربت لنا مثلا نفهمه من أنفسنا ومن ممالكنا ومن ممالك النحل والنمل ـ ولله المثل الأعلى فى السموات والأرض ـ . فاذا دبرت الروح الجسم ودبرت ملكات النحل ممالكها ودبرت ملكات النمل ممالكها وخضعت هذه الممالك كلها لواحد دبرها ، فهاهى ذه مملكتك خاضعة لك دبرتها وأنت واحد

بهذا فهمنا ـ ماخلقكم ولابعثكم إلا كنفس واحدة ـ وفهمنا قولك ـ خلقكم من نفس واحدة ـ وقولك فى أوّل سورة الزمر ـ ذلكم الله ربكم له الملك لاإله إلاهو فأنى تصرفون ـ أى فكما لاقدرة للأعضاء

على مخالفة الأرواح ، ولا لأفراد النحل عن الخروج عن أمر ملكاتها . ولا لأفراد النمل عن الخروج عن أمر ملكاتها . هكذا نوع الانسان لاطاقة له أن يخرج عن النظام الأقدس وهو التوحيد الذى أمر به وهو ملزم أن يدرسه و يسير على منواله و يطيع خالقه غاية الأمر ان طاعة الأعضاء للروح وطاعة أفراد النمل لملكاتها وطاعة أفراد النحل لملكاتها وطاعة الأرضات (بوزن سمكات) غريزية طبيعية . وطاعة الانسان ربه يجب أن يكون بالتعليم والتهذيب لاغير . انتهى صباح يوم الاثنين (١٥) سبتمبر ١٩٣٠

﴿ اللطيفة الثالثة ﴾

(فى قوله تعالى — الله الذى جعل لكم الليل — الى قوله — فانما يقول له كن فيكون —)

جاء فى هذه الآيات :

(١) ذكر الليل والنهار ، و بيان أن الله له فضل على الناس بتعاقبهما ، وأن الناس قل شكرهم على هذا الفضل

(٢) بيان أن الله خالق كل شئ بمناسبة تعاقب الليل والنهار ، وأن ذلك محل اعتبار فمن صرف عنه فهو خاسر

(٣) بيان أن الأرض جعلت لنا قرارا والسماء بناء ، وأن صورنا حسنة ، ورزقنا طيب ، فالله تعالى كثير البركات والخير وهو حى فوجب حمده والاخلاص له وترك عبادة غيره والتسليم له هو

(٤) بيان نظام خلقنا وتدرّجه فى النشوء

(٥) بيان حياة كل حى وموته وتعاقبهما

فى هذه المسائل الخمس تدخل العلم الإلهى فى العلم الطبيعى والفلكى ، فعلوم الفلك فى عدد (١) ان تعاقب الليل والنهار واختلافهما يترتب عليه اختلاف الحرارة والبرودة فى الأقطار . إذن هو الأصل وما بعده من أن الأرض قرار وأن صورنا حسنة ورزقنا طيب وارتقاءنا فى الحياة من تراب الى نطفة الى علقة وتعاقب الموت والحياة علينا كل ذلك فروع . إذن العلوم الطبيعية خاضعات لآثار الأفلاك ، فهنا علمان : الرياضيات والطبيعيات . وهى فروع جة واضحة فى ثنايا هذا التفسير ، وقد تخلل ذلك العلم الإلهى لأن نوعى الرياضى والطبيعى لاثبات لهما إلا بمدبر للعالم ، فلذلك نجده يذكر فى أثنائهما ، فقد قال قبل ذكر علم الفلك ادعونى أستجب لكم وحذرهم من الكبر وخوفهم من جهنم . ثم يتخلل الكلام على العلمين اظهار فضله على الناس وبيان انه هو الخالق لكل شئ أى فليست هذه العلوم منفصلة مفككة العرى بل لها من يحفظ كيانها . وأخذ يذم الجاحدين لأن الحركات المنظمة لها منظم . واذا كان هذا العالم مملوءا نشاطا وحياة فمن أين أتت هذه الحياة إلا من أن الخالق حى ؟ أفلانحيا نفوسكم بالاخلاص له وحده والاعراض عن سواه

أليس هو الذى ينقلكم حالا بعد حال فى الخلق بل يخلق الموت والحياة فيكم وفى غيركم . إذن فى هذا العالم حركات هائلة ليل ونهار وموت وحياة وأرض وسماء وصور حسان فى الانسان مشتقة من تراب لاحياة فيه . هذه نبذة عامة فى مجمل هذه الآيات . فهل لك أيها الذكى أن تسمع ما ألقيه عليك الآن من نبأ العمران فى هذه الأرض المبنى على الفلك لتعلم أن الاجمال فى آيات القرآن يعوزه التفصيل . إن الوقوف عند حفظ القرآن جهل عظيم وفهم المعنى اللفظى والوقوف عنده غرور وموت . وقف المسلمون غالبا عند ظواهر الألفاظ وناموا . لا أيها المسلمون . هذا إجمال أما التفصيل فانما يكون بجميع العلوم وليس معنى هذا أن المسلم يقرأ جميع العلوم تفصيلا . كلا . بل يختص كل جماعة بعلوم خاصة واذن يستخرجون منافع أرضهم ويحبون ربهم ويرتفع شأنهم فى الدنيا والآخرة . إن الحرارة والبرودة فى الأرض ترجع الى الليل والنهار ارتفاعا وانخفاضا وعلى

مقتضاها يكون ظهور النبات والحيوان وتكاثرهما تارة وقلتهما تارة أخرى وعدمهما بتاتا . الناس والحيوان والنبات موزّعات على الأرض بقوانين كلها ترجع الى سير الشمس . إن الله كما جعل التوسط فى الأخلاق من شدّة ولين هو الصراط المستقيم هكذا جعل المكان الذى يتوسط فيه وجود النبات على الأرض و يتوسط فيه الحرّ والبرد هو الذى يعيش فيـه الانسان . أما المكان الذى كثر حره ونباته أو المكان الذى كثر برده فهما لايصلحان لسكنى الانسان . إذن القانون واحد قانون الأخلاق بالتوسط فيها وقانون سكنى الأرض . شحنت كتب الديانات وكتب الفلسفة بعلم الأخلاق . لماذا هذا ؟ لأن الانسان لايعيش مع الناس إلا بخلق متوسط فاذا تغالى فى الشدّة أوتغالى فى اللين نبذه الناس فى الأولى بالخوف منه وفى الثانية بضعفه . والنفوس الانسانية لاتحبّ إلا الاعتدال . ذلك لأنك ستعرف قريبا كيف كان الانسان يستحيل عليـه أن يعيش فى الغابات الاستوائيـة لوفرة الحرارة فيها التى بها كثر النبات فطرد الانسان منها . ولا فى الأقطار الباردة لكثرة البرودة التى منعت أكثر النبات والحيوان فلم يستطع أن يعيش الانسان هناك . إذن الانسان عالم متوسط فى خلقه وحياته . متوسط فى أخلاقه ، إذن هناك تناسب بين خلقه وخلقه والله حكيم عليم

وستسمع قولا عاما على الأرض وسكانها وغاباتها و بدائعها مما لم يسبق له نظير فى هـذا التفسير ، وفيها ترى عجائب هذه الأرض وتعرف فيها مالايعرفه السائح حولها لأن السائح بعقله قد يعرف من التفصيل ما لايعرفه السائح بجسمه والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم

فقال صاحبي : لقد شوّقتني الى ماتقول ولكنى أريد أن يكون هذا المقال على سبيل المحادثة بينى و بينك حتى تنجلى الحقيقة واضحة ظاهرة ، أنت تريد شرح الحرارة والبرودة وماترتب عليهما من الحياة على الأرض وهذه كلها فروع لأصل والأصل هو البنية الانسانية ، ذلك ان كل مانزل من العلم على قلوب الأنبياء أوالحكماء أوالعلماء انما يراد به هذه الانسانية ، ولقد ذكرت أنت فى تفسير البسملة فى ﴿ سورة ص ﴾ ما ملخصه أن الانسان له أعضاء حسّ وهى الحواس الخمس وله أعضاء حركة وهى اليدان والرجلان ، ولقد كان هـذا أمرا عجبا ! وهل أعجب من أن خلق الانسان جعـل مناسبا للعالم فكأن العالم نسخته أوهو نسخة العالم ، أوكأن العالم شجرة وهو ورقتها ، وقد تقدّم فى ﴿ سورة يس ﴾ فى المقالة المنقولة من كتاب ﴿ علوم للجميع ﴾ كيف كانت الشجرة صورة مكبرة لورقة ساقطة تحتها فى بعض الأشجار ، أوالورقة صورة مصغرة للشجرة التى سقطت هى منها ، ذلك ان الزوايا التى تحدثها فروع عروق الورقة مع الخط المتوسط فيها (المشبه فى هذا التوسط فقار الظهر مع الأضـلاع فى الانسان والحيوان) تشبه من كل وجـه الزوايا الحادثة من أغصان الشجرة مع جذعها والحادثة من الفروع الصغيرة مع أغصانها حذو القذة بالقذة ، فهكذا نجد وضع هذا الانسان مع العالم المحيط به ، ذلك انه (وان غفل جمهوره ونام ولم يعقل حقيقة نفسه ولابهجة جسمه ولاجمال وضـ ولاحكمة خلقه) بحواسه الخمس التى تقدم القول فيها قد استعدّ لمشاهـدة الأنوار والظلمات والحيوان والنبات والعالم العلوى والسفلى و بأعضاء حركته استعدّ لأمرين : أمر الانتقال فى الأرض بالرجلين ، وأمر العمل فى الطبيعة باليدين فيصنع ماشاء صنعه بعـقله الذى استمدّ الصور من حواسه ، إذن العالم كله مقسم على أعضاء الحسّ وأعضاء الحركة ، فأعضاء الحسّ للعلم وأعضاء الحركة للعمل . فنها ماهيّ للانتقال . ومنها ماهيّ للعـمل . هذا هو الأساس الذى يبنى عليه كل علم فى الأرض وكل عمل . فـالبناء الذى تريد أن تبنيه على هذا الأساس الآن ؟ فقلت أريد أن أبنى بناء حسنا جميلا كما ان هـذا البناء حسن جميل . فقال : فى أى وجهة سيكون بناؤك فى ذلك المقال الذى تريد . فقلت : فى وجهة نظام العالم الانسانى كله . إنى أرى ولاشك فى رأيى وأنا موقن به أن جميع النوع الانسـانى يجب أن يكون كهيئة هذا الجسم . وأرى أن هذا الانسان كله الآن جاهل كثير الجهل . كثير الغرور لأن لمن درس هذا الجسم حقّ دراسته ودرس العالم حوله لم يشك أن هذا العالم

بالنسبة لهذا الانسان أشبه بهذه الأعضاء بالنسبة للروح والروح واحدة فى الهيكل الانسانى والأعضاء مطيعة لها . فلتكن الانسانية واحدة تطيعها العوالم حولها . فقال : هذا قول حسن وتقدم له نظائر فى التفسير . ولكن الاجمال يعوزه التفصيل . فقلت : إن الانسان سائر الى ما أقوله . فقال : كيف ذلك ؟ فقلت : اسمع ياصاح : أضرب لك مثلا رجلا له أبناء كثيرون فبنى لهم قصرا منيفا وأبدعه أيما ابداع . فجعل الأبنية فيه لاتبلغ إلا نحو الثلث والباقى من الأرض جعل بركة عظيمة تتخلل تلك الأبنية التى تشبه فى وضعها مدينة البندقية (فينزيا) فان البيوت يحيط بها ماء البحر والناس ينتقلون فى السفن من منزل الى منزل ثم انه ملأ تلك البركة بالسمك وملأ تلك الأبنية بأنواع النبات والحيوان والخيرات . فهو فى أول الأمر جعلهم متفرقين فى المنازل وجعل الماء يفصل بينهم . ثم أخذ يعلمهم كيف يضعون خشبات فى الماء وكيف يركبونها فكان سكان أحد المنازل اذا ركب فى البركة وقابل آخر من منزل آخر أخذا يتحاربان ويتقاتلان ثم أخذت كل جماعة تحارب الجماعات الأخرى واستمر النضال جيلا فجيلا وذلك النضال كان هو السبب فى بحث عجائب منازلهم وعجائب بحارهم فقر قرارهم آخر الأمر انهم يجهلون ما أراد بهم والدهم . ذلك ان أحدهم قال : انى وجدت فى حديقتى التى فى منزلى انى لا أنال حظا من ثمارها إلا اذا كانت الطيور تأكل الدود كأبى قردان وبعض الغربان والعصافير المغنية وغير المغنية وهكذا مما تغذى بالحشرات ، ووجدت أن البرص والسحلية وغيرها تأكل الحشرات فى أرض الحقل ، ومن المدهش انى رأيت العنكبوت تنصب الشباك فى الأشجار ولاتقتصر فى صيدها على الذباب بل هى تصطاد حشرات كثيرة . فيأيها الاخوة : ان أبانا ذو عقل وذو حكمة ، انه لم يشأ أن يقول لنا الحقيقة فباعد فيما بيننا ظاهرا وأراد أن نعرف الحقيقة من أنفسنا ولن نعرفها إلا بدراستها ولا دراسة إلا بمقتضيات والمقتضيات هى العداوات التى كانت بيننا وهى السبب فى تعلمنا ، فالعداوة بيننا كانت أشبه بالجوع فالجوع غير مقصود لذاته بل هو مهماز يسوقنا الى الغذاء لنعيش والعداوة مهماز أعلى يسوقنا الى العلم لنخترع مانشاء فى المحاربة وفى نهاية العلم اهتدينا الى ما يأتى :

ان كل واحد منا يقتل أخاه ليأخذ ماله ولكنه فى الوقت نفسه حافظ على عصفور وغراب وأبى قردان وكروان وبرص وسحلية وزقزاق بلدى وزقزاق شامى وعنكبوت فى الحديقة وعلى جاموسة وبقرة وجمل . لماذا هذا كله ؟ لأن كل هذه طعام لنا فيمكننا إبادتها بأكلها فى أيام قلائل ولكن نحن بالاختبار أبقيناها لتساعدنا فى حياتنا . فمنها مانحرث به أرض الحدائق . ومنها مايجر لنا العجلات لأعمال الزرع فى الحديقة . إذن بقاء هذه كلها وان كانت تحت تصرفنا خير لنا من إبادتها « وبعبارة أخرى » إن اللذة الوقتية بأكل هذه الحيوانات شر مستطير لأنها تحرمنا من ثمرات لاحد لها . إذن ننبذ اللذة العاجلة إذ أحرمتنا نفعا عظيما مستقبلا

هذه نظرياتنا فى منازلنا نحن هكذا نفعل ، فاذا كان بقاء هذه الدواب والطيور خيرا لنا (لأنها وان كانت تحتل الجو والأرض معنا وبعضها يأكل مما نزرع ويشاركنا بعض المشاركة فى الأرزاق فبقاؤها خير لنا) أفلا يكون كل واحد منا اذا بقى خيرا لاخوته وان شاركهم فى المطعم والملبس كما يشارك كلا منا دابته فى أكل بعض الحبوب وفى سكنى بعض أجزاء المنزل ومضايقته ، مع ان نفع الدواب محدود ونفع الانسان أوسع وأعظم قدرا

فلما فكر اخوانه فى كلامه قالوا صدقت والله ، وقال آخر منهم : « أيها الاخوان : إن أبانا كان حكيما فلم يفعل معنا مافعلته الطيور تعيش جماعات من غير تعليم ولاتثقيف ، فهو فرقنا ظاهرا ولم يشأ أن يجمعنا إلا بجدنا واجتهادنا وأحاط منازلنا بالماء حتى يكون لنا ميدان تسابق وسهل لنا سبل التواصل والتعقل حتى اذا اجتمعنا بعد الافتراق كان اجتماعنا بعقل فنرتفع فى السعادة الى أعلى منزلة بخلاف الحيوان فانه يقف عند حد

واحد

واحد وعاشوا بعد ذلك وارتقوا ارتقاء لاحدّ له

هذا هو المثل الذى أردت أن أضربه لأهل الأرض الآن ، فالأبناء تمثيل لبنى آدم ، والأب تمثيل لله عزّوجل - ولله المثل الأعلى - والمنازل هى القارّات والجزائر والبركة المحيطة بالمنازل هى البحر الملح المقسم الى أقسام كل قسم منها سموه محيطا فيقولون المحيط الاطلانطيق والمحيط الهادى والمحيط الهندى وما أشبه ذلك والخشبات التى ركبها الأبناء هى السفن فى البحار والعداوات بينهم مثل العداوات التى بين أهل الأرض ، وبقية القول معقول مفهوم

وبيت القصيد فى هذا المقام أن هذه الانسانية جاهلة غاية الجهل وهى اليوم آخذة فى رقيها ، ثم انظر الى ماقدّمنا فى (سورة يوسف) من أن الطيور النافعة كان الاورو بيون يقتلون منها أبا قردان وغيره . وهذه الطيور خلقت محافظة على الزرع تقتات من الدود فى الأرض فيسلم الزرع . فلما كان الاورو بيون فى بلادنا قوما لارادع ولازاجر لامن ضمائرهم ولامن حكوماتهم عاثوا فى الأرض فسادا وقتلوا هذا الطير لتتحلى نساؤهم بريشه فهلك الزرع . فلما كتبت مقالا فى إحدى المجلات العلمية وقرأه الوزراء صدر الأمر بإبقاء الطيور البالغات نحو (٣٠) طيرا مذكورا أكثرها فى (سورة يوسف) كما قلنا وباقيها فى سور أخرى

الله أكبر : اللهم إنى أحمدك على العلم وأحمدك يارب على الحكمة ، أنت المنعم أنت المعلم ، يارب ان العلم واضح والعيون تشاهد صوره ولكن القلوب مقفلة

اللهم إنك تعلم أن الأمم كلها أشبه بالأمة المصرية ، والجهل بمنافع الانسان فى الأرض كجهل قومنا بمنافع الطيور وظهور حكماء فى الأرض يعلمون الناس ثمرات بقاء الانسان على الأرض كظهور المقال الذى كتبته فى فوائد الطيور آكلة الدود وتحريم الحروب والقتال بين الأمم اجتناء لفوائد الأمم كلها كتحريم حكومتنا المصرية صيد الطيور فانتفعنا بزرعنا ، وهل الانسان الحالى إلا كما قال الله تعالى - قتل الانسان ما أكفره -

هذا هو المثل الذى ضربته من حيث الطيور المصرية وتحريم صيدها استبقاء لمنفعتها ومضاهاة منفعة الانسان ببقائه بمنفعة الطيور ، فشهوة اغتيال أمة لأخرى شهوة وقتية وبقاء الأمة الضعيفة مفيد للأمة القوية كما أفادت الطيور والدواب الانسان وهى ضعيفة أمامه . إذن النظرية التى شاعت وذاعت فى الكرة الأرضية فى القرن التاسع عشر من أن الأقوى يبيد الأضعف وجعلها عامّة نظرية خاطئة ، فلو كان مايقولون حقا لم يعش حيوان تقدر على أكله مع ان الطيور فى منازلنا وحقولنا وكثير منها حرّمنا أكله لمنفعتنا ، إذن هى نظرية جزئية جعلوها عامّة ، وضلال هذا الانسان أكثره يرجع الى تعميم القضايا والحكم بالجزئى على الكلى - قتل الانسان ما أكفره -

فقال صاحبى : لقد أجدت والله وأنصفت وأتيت بحكمة شريفة وآية منيفة وعلم تام ، ولكنى أتذكر انك قلت لى « ان الانسانية متجهة الى وجهة الاتحاد العام » . فهل تشرح لى ذلك ؟ وقلت : « ان أبناء الرجل الحكيم فى قصره الواسع أدركوا أن أباهم أراد إسعادهم من طريق تعبهم هم لامن طريق المنحة المجانية » فهل تشرح لى الأمرين معا فى شأن هذا الانسان ؟ فقلت : أما الأمر الثانى فهو واضح ألا ترى رعاك الله أن هذا الانسان أعطيت له الأرض وترك فيها وقيل لآدم وذرّيته - اهبطوا منها جيعا بعضكم لبعض عدوّ -

و ياليت العداوة اقتصرت على أن تكون بين الانسان والانسان بل جعلت بينه و بين ماحوله . الأرض دائرة حول الشمس تقرب وتبعد وفيها مناطق باردة وأخرى حارّة . فلاهو بقادر أن يسكن الباردة ولاهو بمستطيع أن يسكن الحارّة . فالمناطق الباردة قلّ فيها النبات والحيوان . والمناطق الحارة اكتظت بالنبات فطرد الانسان منها والأمطار تهطل ليلا ونهارا فلن يقدر أن يوقد النار فيها فلابد من أن يعيش فى الأقطار

المعتدلة . وهذه المعتدلة تكون فيها الغابات القوية وتكاد تمنعه أيضا من ولوجها . ولكن لما كانت تلك الأقطار يتتابع الصيف والشتاء والخريف والربيع . وكان الخريف والشتاء فصلين يجردان الشجر من قوته بعض التجريد قدر الانسان إذ ذاك أن يدخل فى تلك الغابات وينتفع بما فيها . فهو اذا طرد من القطبين ومن خط الاستواء لم يعدم وسيلة بها يدخل فى غابات الأقطار المعتدلة حيث تساعد أحوال الجو على ولوجها واستعمارها والانتفاع بأشجارها

وما هذا أيها الذكى إلا مثال واحد من أمثلة أعمال هذا الانسان . فهو اذا دحرته غابات البرازيل حيث الشمس حارة فى أمريكا وطردته غابات افريقيا الاستوائية فلم يستطع سبيلا لتذليلها أو السكنى فى أرضها لقوة النبات ولا السياحة فى داخلها إلا بمشقة فانه قدر أن يتمتع بنباتات المناطق المعتدلة ويغالب الطبيعة هناك . ثم ان الانسان لم يستطع ذلك إلا بالجموع الكثيرة منه . فأما الأفراد فلا

ياعجبا : هذا تفصيل جسم الانسان ، انه مفصل على مقتضى هذه الدنيا وهذه الدنيا كلها وجدناها مزرعة له ، ثم ألفيناه عقل بعض النظريات العلمية فحافظ على كل حيوان نافع له فأبقاه لأنه نافع له فى اجتناء الفوائد ، وهاهوذا يرى فوائد غزيرة فى الغابات الافريقية والغابات فى البرازيل ، يرى منافع ومنافع وعجائب تحت الأرض فى القطبين ، فهناك الفحم وهناك (غزال الرنه) ومنافع كثيرة ، وكلها موصدة أمامه تحتاج الى عناء ونصب وعقول وقوى ، أفلا تكون تلك المنافع القطبية والتى فى الغابات الاستوائية ومنافع الهواء والماء وضوء الشمس التى لاتزال كلها لغزا أمام النوع الانسانى . أقول : أفلا تكون هذه كلها مضاهية لمنافع زرعنا وتكون الأمم التى يسمونها ضعيفة بمنزلة الطيور آكلات السود لحفظ زرعنا . لا لا . والله ان الأمم الأرضية أعظم نفعا وذخرا فى استخراج ثمرات العوالم المحيطة بنا من أبى قردان فى حفظ زرعنا ومن العنكبوت فى حدائقنا المبيد لبعض حشراتها ، فالانسان الآن جاهل أشدّ الجهل بهذه النظرية العلمية ، وعلى كل من اطلع عليها وكان من أهل النبل والشرف والجاه والحكمة أن يذيع العلم فى أمم الاسلام أوّلا ثم يشفيهم روح الجدّ والنشاط واكتناه العوالم العلوية والسفلية ، ثم إن المسلمين اذا أشربت قلوبهم الحكمة يكونون هم السبب فى ارتقاء أهل الأرض لأن أهل أوروبا وأمريكا ينظرون الى الظواهر فيجعلون لون السواد ولون الحمرة فى أبناء السودان ببلادهم وأبناء أمريكا الأصليين من أسباب العداوة ، فلا يطيقون أن يروهم فى أماكنهم العامة ، وهكذا أهل (انكلترا) فهم يطردون السود من بعض مطاعمهم ، و بعض تلك الأمم تنقضّ على الأمم الضعيفة لتأكل خيرها وتذلها كما يفعل الفرنسيون مع أهل مراكش والجزائر وتونس وكما تفعل ايطاليا مع أهل طرابلس وكما تفعل انكلترا مع فلسطين ومصر والهند . وهاهى ذه اليوم قد سجنت غاندى الزعيم الهندى الذى قام بالحركة الاصلاحية هناك وطالب بعدم اسراف المال فى الملابس الأجنبية وعدم شرب الخمر القاتل للانسانية . إذن هذه الأمم كلها جاهلة قدر الانسانية فهى لاتصلح لرقيها وقيادتها . إن الأسد لا يصلح لقيادة الانسان وانما يصلح لأكله ونحن نريد أن يحكم الانسان و يعلمه انسان مثله لا حيوان !

الأرض قد بخلت بعدلها فلم تفرط فيما عندها من غابات خط الاستواء ونحوها ولا من المدخرات فى القطبين ونحوهما إلا اذا كان أبناؤها جميعا يدا واحدة فى استخراج ذلك . وهؤلاء لقلة تبصرهم يتركون الحقائق الكامنة . و يصدّهم عن هذا النعيم المنتظر للانسانية كلها مظاهر الألوان واختلاف الأديان والأقطار واللغات إذن الانسان جاهل كل الجهل . فليتعلم المسلمون وليعلموا الانسانية . أنا موقن أن هذا القول سيخوض البحار و يقرؤه أهل الأقطار وتنقله السفن فى البحار والطيارات والبالونات التى يركبها الناس فى الجو وتنتشر الفكرة ويعم الاتحاد وتخرج الانسانية من جاهليتها

إن الانسانية اليوم استعدت لفهم هذا القول . وهذه الطيارات تطير حول الكرة كلها والسياحون يطوفون حولها فى السفن والقطرات البرّية والعلماء يتسابقون الى الكتابات فى السلام العام كما أكتب أنا الآن إذن أتحد على هذه الفكرة سير السفن فى البحار حول الكرة الأرضية وطيران الطيارات حولها أيضا وكتابة العلماء فى الاتحاد العام . وهذا نوبل مخترع الديناميت المشهور قد أعد جائزة لمن ينفع السلام العام . فأقول اليوم جاء أوانه . فليدل المسلمون دلوهم فى الدلاء . وليقوّموا أنفسهم أوّلا ثم ليقوّموا الانسانية ثانيا والله هو الولىّ الحميد

فقال صاحبى : نعم مافصلت وحسن ماوبجه براءتك . ثم أذكرك انك تقول : « إن غابات خط الاستواء وغابات بلاد البرازيل لايمكن اجتيازها لصعوبتها» وذكرت أمورا لايعرفها إلا القليل . فأحب أن تذكرها لنا من مصدر علمى واسع النطاق يشرح هذه المواضيع كلها وما شابهها شرحا واضحا كما وعدت بذلك فى أوّل المقال فقلت اسمع ماجاء فى كتاب « الجغرافيا التجارية الاقتصادية » تحت العنوان التالى وهذا نصه :

﴿ الانسان وتوزيعه على المعمور ﴾

(تكاثف السكان)

شروط صلاحية القطر للسكنى ، مغالبة الانسان طبائع الاقطار التى يسكنها . أسباب قلة سكنى الغابات الاستوائية . مقارنتها فى ذلك بالغابات المعتدلة . التغيرات الفصلية تسد القطر للسكنى ، وكذا التغيرات الحضرية ، الحرف وتأثيرها فى عدد السكان

انظر الى خريطة العالم حيث توزيع السكان على المعمور ترَ الانسان منثورا فى متفرق النواحى من غير مساواة فى العدد فهذه الصين والهند وما جاورهما غاصة كلها بالسكان وهناك جهات أخرى من العالم الفسيح لايسكنها إلا النفر القليل حتى فى الولايات المتحدة وهى جمهورية واحدة ترى الانسان متجمهرا فى جهة الشرق ثم يرق شيئا فشيئا جهة الغرب وفى جنوب أمريكا تراه كذلك محتشدا فى جهات منتثرا فى أخرى وهاجرا شتى وكذلك فى أفريقية وأستراليا والخلاصة أنك بالتأمل فى الخريطة لاترى الانسان موزعا بانتظام فى أنحاء الأرض بل ترى منها ما اختصه بسكناه فتزاحم عليه وربما كان ذلك لعهد قديم مثل مصر ومنها مانضب عدده فيه مثل معظم أفريقية فلماذا كان بعض الجهات أصلح لمقام الانسان من البعض الآخر ؟ هذا مانجيب عنه

الانسان محتاج الى هواء معتدل فالرطب منه جدا والجاف جدا كلاهما لايطيقه ومحتاج أيضا الى مقدار معتدل من الحرارة فالأصقاع الباردة جدا والحارة جدا تضر به ولاتصلح له ومثل ذلك النبات والحيوان ولذا ترى أن الجهات النادرة الحيوان والنبات قل ان تصلح لمقام الانسان ففى أواسط القارة المتجمدة وفى أواسط الأرض الخضراء حيث توجد فلوات الجليد قل أن تدب دابة فلا يتسنى للانسان عيشة فيها كذلك فى قلب بعض القارات حيث ترتفع درجات الحرارة وحيث يجف الهواء جدا فينشأ عنه الصحارى القاحلة لاينتظر للانسان عيشة وكذلك سفوح البراكين الحية وأشالها من سطح البسيطة التى لم يستعمرها الحيوان والنبات ستبقى خلوا من الانسان مفلتة من قبضة يده إلا إذا تغيرت أحوالها وتبدلت أطواره

ومن المعلوم أن لكل صقع مجموعة خاصة من حيوانات ونباتات فكلما ساد الانسان فى صقع وتكاثر فيه كان ذلك على حساب تلك الحيوانات والنباتات الأصلية يزيحها و يحتل مكانها . عمر الانسان البرارى الاسكتلندية

مثلا منذ أقل من قرن فاذا تركت قلل جبالها جانبا ونزلت الى حيث يسكن منها وجدت « البلنج » قد فنى وليس منه إلارقاع صغيرة فى المراعى ورأيت حقولا من الشوفان والبطاطا واللفت والكلأ ومثل ذلك وماهى الاحاصلات تافهة فى جانب مايزرعه الفلاح الانجليزى فى الشرق . ولكنها مع ذلك تمثل المطلوب من أن الانسان يكتسح الاجناس الطبيعية السائدة بالصقع الذى يستعمره ويضع محلها نباتاته هى التى يختارها غذاء وكساء . وهكذا كلما تغشى فى صقع تمادى ذلك العمل على نظام ومنوال أوسع . تطوف بانجلترا وتسيح فى فرنسا فترى الأفدنة الشاسعة من الأراضى الزراعية المخدومة تنبت أنواع الحاصلات المختلفة وهذه هى نفس الأراضى التى كانت فى وقت بحسبه الطبيعى غير بعيد تكتنفه كله الغابات الكثيفة وتشوهها المستنقعات المؤذية فطهرتها يدالانسان بالجد والعمل ومثل ذلك وقع على الحيوانات فاذا ماسرنا فى الأراضى المنحطة من انجلترا واسكتلنده وجدنا من الأنعام والأغنام والخنازير والدجاج والأوز والبط خلقا كثيرا تملأ الضياع هناك وكل هذه الحيوانات المنزلية قد استنفرت الى الروابى ونجاد « ديفون » و « كورنوول » غزلانا كانت تجول فى الأحراج القديمة فى بريطانيا . ومن أجلها أيضا استؤصلت شأفة الذئاب العاتية التى كانت تعيث فى الأرض فسادا وتعيش على تلك الحيوانات البرية وقصارى القول أن الانسان لا يمكنه أن يعيش فى هذه الدنيا إلا بقلب طبيعتها واختصاص نفسه فى خلها الذى ينزل فيه ببعض الحيوانات دون الأخرى وبمطاردة التى لاتنفعه لتفسح مجالا لما يعوزه ويحتاج اليه

قلنا أن الانسان تتعذر عليه الحياة فى الجهات التى يسوء فيها نمو النبات وصحة الحيوان ولكن قد تكون غزارة النبات من جهة أخرى سببا فى حرمان الانسان من سكنى الجهات الفسيحة فاذا نظرت الى خريطة سكان العالم وجدت جزءا عظيما من العراء بل حيث الشمس حارة وضاحة والمطر وافر غزير يطيب فيه النبات ويزهو ويتكاثف ويعلو فيكون الأحراج الاستوائية ولكنك تبحث عن الانسان فى وسط هذا العالم فلا تكاد تجده إلا قليلا ومثل هذا فى غابات أفريقية الاستوائية فليست قلة الحياة النباتية هى التى تعرقل مساعى الانسان فى استعمار مثل هذه الجهات بل غزارتها ووفرتها الزائدة عن حد الطاقة اذ الغابات الاستوائية هى مايسميه النباتى « بالتآلف المطبق » أى المكان الذى يكون نضال الحياة النباتية فيه شديدا قاسيا لايفسح لأجناس جديدة أن تدخل فيه

نعم ان العراك والنضال النباتى كذلك شديد فى غابات المنطقة المعتدلة ولكنه تصحبه فى كل خريف وشتاء « هدنة من الله » اذ تضعف قوى الأشجار وتجمد ماء حياتها فى عروقها فيقوى عليها ساعد الانسان فتكون له الغلبة آخرا حتى اذا جاء الربيع الذى تتمائل فيه الأشجار الى القوة والفتوة لم تغلبه ولم تستعص عليه اذ كان قد ذللها من قبل واجتثها وملك ناصيتها ولايخفى أن فى الغابات المعتدلة تكون المقاومة بين الأشجار الكبار أما النبت على أديم الأرض فليست له مقاومة تذكر خلافا للغابات الاستوائية إذ التفت الساق بالساق بزاحفات من النبات متعددة قد تكدس منها على أديم الأرض عالم كثير حتى قال أحد السياح أن فى غابة غانة الجديدة الاستوائية اذا سار جماعة فيها ثلاثة أميال فى اليوم عد ذلك أمرا عظيما جدا لأنهم فى الغالب لايستطيعون قطع نصف هذه المسافة فى اليوم وقال أيضا انه لايوجد من حاصلات الغابة ما يمكن أن يقتات به الانسان فاذا نفد مأكله تهدده الجوع بالقتل

النضال فى الغابة الاستوائية شديد جدا والظروف الطبيعية هناك توافق حالات النبات لدرجة يتعذر معها وجود حيز فيها غير مشغول فتتفرع الأشجار وتبسق الى عنان السماء تطاول الواحدة جارتها . وكلما تلاحمتا وحجبتا الضياء عن الأرض تحتهما تسلقت عليهما النباتات الزاحفة طلبا للملأ حيث الهواء والضياء . وقد لاتصل جذورها الى التربة الأرضية بل تجد غذاءها الكافى بين الأوراق البالية . ومن الرطوبة الموجودة فى هواء

الغابة

هنا وعلى ضفاف الأمازون الفائرة حيث يطلب الباحثون المطاط ليرسلوه الى أوروبا لتتخذ منه اطارات السيارات وغيرها من منافع المدنية يتكبد رواده الشقاء والعناء من تزاحم الشجر اذ لا يرجون التسيار والتنقل إلا بقرب الضفاف حيث تتبعثر الأشجار ويقل عددها نوعا وفي غابات فرموزا واليابان والصين يطلب الرواد أشجار الكافور ليصنعوه بخورا أو كرات للعثة ولكن جهدهم هذا ينالونه أيضا بشق الأنفس لأن أشجار الكافور توجد في الغابة متفرقة الواحدة عن الأخرى فكلما جنوا شيئا من بقعة ارتحلوا طويلا الى غيرها وكم في هذا من عناء وعذاب

فما أكبر الفارق بين هذه الغابات وبين أمثالها في المنطقة المعتدلة حيث توجد في بعض جهاتها الرطبة من البحر الأبيض المتوسط مساحات ضخمة كلها من شجر أبي فروة والجوز واللوز والصنوبر والخرنوب وتوجد مساحات ضخمة من الزان والبلوط ويسميها كلها النباتيون « الأجناس المتجمعة » لأنه اذا وجدت زانة وجد من نوعها الكثير فتنشئ تربية الخنازير على مقربة يطعمونها من حبه . ومثل هذه الأجناس المتجمعة من الاشجار نادرة الوجود في الغابات الاستوائية . ولذلك لابد من بذل الجهد في طول الغابة وعرضها للبحث عن النبات الصالح

كذلك تكثر في الغابات الاستوائية الحيوانات ذوات الثدى ولكن أفراد كل نوع منها قليلة فلا يوجد فيها مثلا ما علمناه من وفرة عدد الجاموس البرى ببرارى أمريكا ولا الغزلان بسهول أفريقية ولا الحيوانات الأخرى بسهول آسيا قبل ان تصل اليها قدم الانسان ومايذكر من الأسباب هنا هو ما سبق ذكره عن المطاط والكافور مقارنا بالزان والبلوط ويوجد بغابات البرازيل أنواع كثيرة من القردة ولكن عدد كل نوع منها قليل جدا ويوجد الحيوان البطىء المسمى بالكسلان ولكنه نادر جدا ويوجد بها حيوانات أخرى أكالة اللحوم تتسلق الأشجار ولكنها قليلة أيضا وحالها هنا مصداق ماسبق قوله

والمقصود من هذا البحث أنه اذا قلت أنواع النبات والحيوان التى من جنس واحد عز بسببها الاستعمار وصعب الاستثمار وقلت السكنى وزد على ذلك أنه يوجد بالغابات الاستوائية الحيات الرقطاء والحشرات اللسعة ولكنها مع ذلك أقل خطرا من البعوض الذى أغلبه مصاص الدماء ويحمل من فريسة الى أخرى جراثيم الأمراض مثل الملاريا ومرض النعاس ومنه مايبيض تحت الجلد فيحدث القرح الأليمة . ومن الحشرات مايعض أو يخز والكثير من الهوام والبعوض يتأثر من التعرض لضوء الشمس في بعض أدوار حياته فيموت فاذا أمكن للانسان أن يطهر الغابة منه زال الخطر وتمت المنفعة ولكنه في الغابات الاستوائية الممطرة يحول الجو بينه وبين أعظم مساعد له على التطهير وهو « النار » فاذا كان ثمة صقع يتناوبه الجفاف والمطر (مثل غابات غرب أوروبا) أمكن للانسان انتهاز الموسم الأول فيشعل الحشائش الطوال ويبيد جيشا كبيرا من النبات الملتف فيكون الرماد الناعم تربة خصيبة تكون مهادا لبذور النبات الصالح الذى متى رعاه وتعهده أتى بالخير العميم . ولكن اذا كان الجو دائما دائبا على الأمطار تعذر أشعال النار وغلت يد الموقد

ومن ذلك نرى أن الأصقاع التى يسكنها الانسان يشترط أن تكون عرضة لتغيرات طبيعية صالحة لنمو النبات غالبة مرة ومغلوبة أخرى سواء أ كان التغير في درجة الحرارة كما في مناطق خطوط العرض المرتفعة فى المعتدلة الباردة أم في درجة الرطوبة كما في الهند والصين بسبب التغيرات الموسمية أو فيهما معا كما في بعض جهات الصين أيضا أعنى أن الممالك التى يكثر فيها الانسان هى التى يروج فيها النبات في مواسم مخصومة بسبب تغيرات الفصول وعلى ذلك فالأصقاع شديدة الرطوبة غير صالحة لأن موسم الرواج فيها قصير جدا أو منعدم بالمرة اذا كانت متطرفة في شدتها . وكذلك بعض الاصقاع الاستوائية حيث درجة الحرارة مرتفعة دائما والمطر

هطال دائما

ويدخل فى معنى الفصول هذه تلك التغيرات الطبيعية الموسمية التى كانت سببا فى إخصاب أرض مصر وإعدادها للسكنى من زمان قديم وهى جزء من الصحراء فدرجة الحرارة فيها دائما مرتفعة ارتفاعا نسبيا والمطر يكاد يفقد فيها مرة واحدة فتغير الفصول غير مشاهد فيها بالمعنى المراد اذا قارناها « بنيوفوندلاند » مثلا حيث الفرق بين درجة الحرارة فى الصيف والشتاء قد يصل الى ٥٠ درجة ف . من هذه الأسباب كان مورد الحياة فى مصر هو نيلها لاغير يعلو ويهبط سنويا فى مواسم معينة فاذا علا فاض بالماء الذى فيه حياة أهلها وحاصلاتهم واذا هبط حل الجدب الذى فيه موت كثير من أعداء الانسان من العشب غير الصالح وبعض الهوام وفى أثناء هذه الفترة القصيرة يتسنى له أن يجمع حاصلاته وأن يغلب على الماء فيحمله بالقنوات أنى شاء فيتزايد الزرع والحاصل ويموت جيش النبات الضار

والخلاصة أن نباتات أى صقع وحيواناته ماهى إلا مجموعات مرتبطة ملائم بعضها لبعض قد هيأها الله لحالة الصقع من أزمان فكل شئ يضطرب بسببه ولو قليلا هذا التوازن الدقيق يصبح فرصة سانحة لدخول الانسان وتحصل الاضطرابات هذه فى كثير من أنحاء الأرض بسبب دورة الأرض وتغييرات الفصول الناتجة عن تلك الدورة وكلما حصلت هذه التغيرات على نظام أوسع فى صقع ما وسهل على الانسان التدخل كان ذلك الصقع ساحة الوغى التى يجول فيها الانسان ويصول بخيله ورجله ويصل فيها الى أوج المدنية

وقد يكون مع التغيير الفصلى تغيير دهرى يقع فى أثناء الأجيال والدهور فيؤثر فى نتيجة الموقعة القائمة بين الطبيعة والانسان من ذلك انه يظهر فى فلسطين واليونان وفى معظم أواسط آسيا مثلا أن قد تقلب دهور وعصور تغيرت فيها مع البطء الشديد مقادير الأمطار الساقطة هناك فحال هذا التغير بين الانسان وبين كثير من المنافع التى كانت فى حظوته قديما وأمكنت الطبيعة البرية من أن تسترد كثيرا من أراضيها المغصوبة

كذلك عملت تغيرات أخرى من قرون لاعدد لها على جفاف تربة أوروبا . وفى أواخر عهد الجليد تحسنت حال المصارف فى جزء عظيم من تلك القارة بسبب تأثير الجليد فى سطح الأرض وإيجاده البحيرات ثم انتظمت مجارى الأنهار وفاضت بالطمى فانصلحت الأراضى حتى قال أحد الجغرافيين ان مثل هذه التغيرات الدهرية كانت العامل الأعظم فى التقدمات الباهرة التى حدثت فى القرون الأخيرة بأوروبا وأمريكا إذا كنسح عهد الجليد نوع الانسان القديم كما اكتسح معه حيوانات أوروبا وقد جعل الأرض بما أحدث من التغييرات فيها صالحة لسكنى الانسان المتمدين

ويقولون ان المدنيات القديمة التى يقرؤنها على الحفائر وغيرها فى مثل أواسط آسيا وبلاد العراق وفى مثل فلسطين وحتى فى جهات أمريكا الوسطى كلها تثبت أن الجو فى تلك الأيام الخالية كان غيره الآن . ولولا ذلك مازرع فيها القمح ولاغيره قديما ولاعاش بها انسان فى ذلك الزمان وفى هذا المعنى يقولون أن جو أوروبا الآن وفلسطين وآسيا الصغرى الخ . قد قلت فيه درجة الرطوبة عن قبل أمطارا وثلوجا

وينسبون التغيرات الدهرية الى إرسال الشمس شعاعها المتغير كثيرا أو قليلا على حسب طبيعة جوها التى هى فيه فاذا اشتد شعاعها كثرت عليها السفع . ويكون ذلك رمزا على كثرة الحرارة التى تعترى سطح الأرض من جراء ذلك ثم تكون هذه سببا فى تسخين الهواء واحداث زوابع الأمطار والثلج (أى فى رفع درجة الرطوبة) فاذاشعت الأرض حرارتها جميعها صار سطحها باردا جدا وهذا تعليل برودته ورطوبته قديما

ومما تعرف به التغيرات الجوية الدهرية أعمار الأشجار القديمة ففى غرب أمريكا مثلا توجد أشجار عمر الواحدة منها ألفا سنة أو أكثر وعمر الشجرة يعرف من دراسة الحلقات الموجودة على خشبها . ومن هذه الحلقات يستدلون على مقادير الرطوبة فى تلك العهود وتعرف التغيرات الدهرية كذلك من دراسة مستوى

البحيرات

البحيرات الملحة القديمة فى مثل غرب الولايات المتحدة وبخص طبقات الصود يوم والسكلور ين هناك إذ يرى لدى الشاطىء حزوز الطبقات فالعالى منها يثبت امتلاء البحيرات الى حده و يدل على كثرة الرطوبة فى وقته والواطىء يثبت انحسار مستوى البحيرة الى حده ويدل على قلة الرطوبة وهكذا

نرى من كل ماتقدم أنه لانبات بريا ولاحيوان وحشيا قد أظهر من القـدرة على الانتشار فى العالم مثل ماأظهر الانسان وأنه لانبات ولاحيوان قد تناسل مثل تناسله فالخلنج على البرارى سالفة الذكر قد يكثر حتى يخيل الى الناظر اذا ماوجـد هناك أن العالم كله خلنج ولـكنه اذا ترك هـذه البرارى ونزل الى الوهاد أوالى الوديان البسامة لم يجد للخلنج فيها أثرا مرة واحدة . سر على جبال الألب بين أشجار التنوب وغابات الصنوبر فيخيل اليك أن العالم كله تنوب وصنوبر . ولـكنك اذا غادرت موقعهما من الجبال مشيت الأيام والليالى دون أن تعثرهما على أثره تـكلمنا على الجاموس الامريكى والرشا الافريقى وذكرناهما أمثلة من وفرة النتاج بجهة من الجهات وهما مع ذلك لم يشغلا من سطح الأرض إلاجزءا صغيرا بالنسبة له

انبث الانسان فى جهات الأرض وعمرها وهو وان اضطر الى الفرار من غابات الاستواء وهجير الصحراء وبوادى الأقطاب ومن النجاد والوهاد القاحلة فهو مع ذلك فائز منصور حيث لم يحظ غيره من النبات والحيوان بمثل ظفره وانتصاره سواء عنده جوانب الألب الشامخة وهضاب تبت الباردة والوديان البسامة والسهول الخصيبة فقد عمرها كلها وانبث فيها مصطحبا معه أينما حل قطعانه المنزلية ونباتاته الزراعية قد ذللها جميعها فدانت له وتبعته الى أقصى الأرض حيث لم توجد أجناسها من قبل

هذا والحرف العصرية التى يجدّ العالم فيها ويلج الآن وغدا لها تأثير عظيم جدا فى السكان على المعمور فالأقطار « الزراعية » تجتذب اليها السكان ويتزايد عـددهم فيها كلما أخصبت الأرض وأينعت محصولاتها فتفيض عليهم بالأرزاق والأقوات فى مثل الهند والصين وغيرهما والأقطار « العشبية » التى تقوم فيها حرفة الرعى يقل عدد سكانها عن الأخرى الزراعية كما يلاحظ ذلك من الخريطة الخاصة ويرجع السبب فى ذلك الى عدم سخاء الطبيعة بالقوت الكافى للكثير من السكان

وأما أكثر الحرف اجتذابا للسكان فهما حرفة « الصناعة » وحرفة «التعدين» لما تتطلبه كل من كثرة الأيدى العاملة على استثمار المناطق الخاصة بهما ولما ينجم عن مزاولة الحرف الصناعية الآلية من عظيم الأجر وكبير الربح ولذا ترى المناطق الصناعية من انجلترا وألمانيا و بلجيكا والروسيا أغص جهات هذه الممالك سكانا وأكثرها ثراء ويسارا وبدهى أن المملكة التى يتجمع فيها عـدد من الحرف يتجمهر فيها السكان بمقادير عظيمة تمثل ماوصلت اليه هذه الحرف من الرقى كما هو الواقع فى شرق الولايات المتحدة ويحسن هنا مطابقة خريطة حرف العالم على خريطة تـكاثف السكان . انتهى ماأردته من كتاب الجغرافيا التجارية الاقتصادية

فلما سمع صاحبى ذلك قال : لقد وفيت بالمراد . وأتيت بالعجب العجاب . فقلت الحمد لله رب العالمين . كتب صباح يوم السبت ٢٣ أغسطس سنة ١٩٣٠

﴿ أسرار العلوم المخبوءة فى هذه السورة ﴾

جاء صديقى العالم الذى جرت عادته أن يناقشنى فى هذا التفسير . فقال : لقد فسرت الرحمة فى البسملة وطبقتها على مافى السورة تطبيقا تاما ، ولـكن بقى فى النفس شئ ، فهل تأذن لى أن أسألك استيفاء لهـذا المقام وايضاحا للأنام . فقلت : نعم . فقال : إنّ فى السورة ﴿ أوّلا ﴾ الذنوب ومغفرتها ﴿ ثانيا ﴾ الكفر والايمان ﴿ ثالثا ﴾ محاورة المؤمن من آل فرعون معهم ﴿ رابعا ﴾ محاجة الـكفار فى النار من الضعفاء والمستـكبرين ﴿ خامسا ﴾ مايقوله بعض المفسرين فى قوله تعالى ــ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق

الناس ـ الخ إذ جعلوا ذلك اشارة الى الدجال ، ألم تر الى ما جاء فى كتاب « تنوير المقباس » من تفسير ابن عباس المؤلف فى القرن التاسع الهجرى إذ جاء فيه : ـ إن الذين يجادلون فى آيات الله ـ هم اليهود وكانوا أيضا يجادلون مع سيدنا محمد ﷺ بصفة الدجال ورجوع الملك اليهم عند خروجه وقوله ـ ان فى صدورهم إلا كبر ـ أى عن الحق ـ ماهم ببالغيه ـ أى ببالغى ما فى صدورهم من الكبر وما يريدون من رجوع الملك اليهم عند خروج الدجال ـ فاستعذ بالله ـ يامحمد من فتنة الدجال ـ انه هو السميع ـ لمقالة اليهود ـ البصير ـ بهم و بأعمالهم و بفتنة الدجال وبخروجه ، لخلق السموات والأرض أكبر أى أعظم من خلق الناس أى من خلق الدجال ـ ولكن أكثر الناس ـ يعنى اليهود ـ لايعلمون ـ فتنة الدجال

هذا مارأيته فى ذلك ، وابن عباس رضى الله عنه شرفه عظيم وعلمه نبوى وقد دعا له رسول الله ﷺ

هذه هى الفصول الخمسة التى أريد منك شرحها وان كان فى ذلك مشقة عليك ، ولكن أنت محب للعلم ومحب لرقى العقول ، وحديثنا يقرؤه المسلمون بعدنا ، فالفائدة عامة فأرجو أن تحدثنى كيف يكون الله هو الرحمن الرحيم والناس :

(١ و ٢) يذنبون أو يكفرون

(٣ و ٤) وكيف عصى آل فرعون من آمن منهم ، وأضل المستكبرون الضعفاء ، فأين الرحمة ؟

(٥) وكيف يخرج الدجال فيضل الأمم ونحن نستعيذ بالله منه كل حين والله قادر أن يرفع هذه عن الأمم . ولقد تبين لى أن تفسير ابن عباس مؤيد بما ندعو به فى كل صلاة إذ نقول « وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال » فهذه مشاكل نحن فى حاجة الى حلها وطرق يعوزها التعبيد حتى تكون مذللة لنسير فيها على صراط مستقيم

فقلت : لقد تقدم فى تفسير البسملة مايغنى عن الاجابة الآن . انظر رعاك الله الى ماجاء فى تفسير البسملة فى أول سورة الروم وأول سورة لقمان . فقد ذكرت هناك كيف كانت الآلام التى تعرض لأبدان الحيوان خلقت لمنفعته هو . وكيف كان الضرب والكسر والصدم والجرح والبرد والأمراض والأسقام وكل مايضر الجسد و يفسده ، كل ذلك انما جعل منذرا لنا لنصلح مافسد بسبب الأحوال المادية فى هذه الدنيا وهكذا ذكرت لك هناك أن قتال الفرس والروم والمسلمين مقيس على أحوالنا المرضية . فهذه أمراض اجتماعية تنذرنا باصلاح مافسد من مجتمعنا كما ان الجوع وآلام المرض تحثنا على الطعام والدواء . فالآلام رحمة . إذن الرحمة لها جيشان : جيش الآلام . وجيش اللذات . هما جيشان للرحمة . واذا كانت الرحمة موجهة فقط الى لذاتنا فانها تنقلب نقمة . فاجتماع الآلام واللذات إتمام للرحمة . فاللذات نصف الرحمة والآلام النصف الآخر هذا ملخص ماتقدم

فقال صاحبى : هذا حسن ولكن هذا الكلام إجمالى عام فان فى هذه السورة أمورا أخرى . فيها مؤمن آل فرعون . ولماذا يقص الله ذلك القصص علينا ؟ وأى مناسبة بين أمة الاسلام الآن وآل فرعون ؟ ولماذا يقول لهم ـ فمن ينصرنا من بأس الله ان جاءنا ـ وأى بأس أنذرهم به ؟ وهل نزل بهم هذا البأس وفى أى زمن ؟ ولماذا ؟ كل ذلك أريد أن أعرفه حتى ينتفع المسلمون بحديث هذا المؤمن فى زماننا . إن حديث مؤمن آل فرعون لن يتم الانتفاع به لنا فى أمراضنا الاجتماعية إلا بمعرفة ما يرمى اليه وماذا كانت نتائجه ؟ ثم لماذا ذكر الله محاجة المتكبرين والضعفاء بعد محاجة مؤمن آل فرعون ؟ وما المناسبة بينهما ؟ ثم لماذا نرى ابن عباس يفهم هنا مسألة الدجال . وما الملك الذى يبتغيه اليهود ؟ وهل هم يحاولون ذلك الآن ثم لماذا نرى المسلم فى كل صلاة يستعيذ من فتنة المسيح الدجال . كل هذا أمور لاتزال غامضة والمسلمون يصلون وأكثرهم غافلون . والصلاة بلا عقل قليلة الثمرات . واذا لم يفهم المسلمون أدعيتهم فى الصلاة فالذى استفادوه

إذن ! إن الحياة المبنية على الحفظ بلاعقل حياة أشبه بحياة الجماد . وتكرار الصلوات بلاعقل قد ذمها الله فقال ـ فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون ـ وقال فى ذم من يقرؤن ولايعقلون ـ أفلايتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ـ وقال فى اليهود إذ كانوا لايعقلون التوراة ـ مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله ـ الخ

إن بقاء المسلمين على حالهم يصلون ولايعقلون الصلاة و يقرؤن ولايعقلون القرآن أوقعهم فى الغرور كابرا عن كابر جيلا فجيلا وكل جيل ينزل عما قبله حتى أصبح المسلمون اليوم أجهل الأمم التى على هذه الأرض وقد تركوا مواهبهم ، فاذا لم توضح هذا المقام غير مكتف بما قدّمت فى تفسير البسملة فان الحال تستمر على ماهى عليه وكل جيل يكون أقل مما قبله وهذا لايرضيك . فقلت : إنى بحمدالله سأوضح المقام على قدرطاقتى وأبينه بما أقدر عليه والله المستعان فأقول :

إن هـذه الأسئلة الحسنة التى تريد الاجابة عليها ترجع كلها الى أمر واحد ومتى عرفناه زال الاشكال . فقال : وماهو ؟ فقلت : هوماتقدم فى ﴿ سورة الزمر ﴾ فى أولها عند قوله تعالى ـ يكوّرالليل على النهار ويكوّرالنهارعلى الليل ـ . ألم أقل لك هناك ان الجنين فى الرحم يحيط به ظلمات ثلاث : المشيمة والرحم و بطن أمه . قال بلى . قلت : أليست هذه مع كونها ظلمات جعلت له رحمات . قال بلى . قلت : ألم نقل هناك ان علماء الفلك يقولون إن الغبار فى الجوّ ودخانه يصنعان فيه (١٦) طبقة حاجبة للشمس عن عيوننا رحمة بنا فيكون ضوؤها الواصل لنا صباحا أقل من الضوء الواصل وقت الظهيرة (١٣٥٠) مرة . قال بلى قد تقدم ذلك . قلت : ومعلوم أن الغبار والدخان ضاران بأجسامنا بدخلان رئاتنا فتضعف أجسامنا وتقصر أعمارنا . قال بلى . قلت : ولكن هذا الضارّ باجتماعه مع ضوء الشمس صار نعمة . قال نعم . قلت : ألم أقل هناك أن وسوسة الشياطين للناس نقمة ولكنها فى الحقيقة قد جعلت نعمة لهم لأنهم اذا أعطوا العلم دفعة واحدة لايطيقونه . قال بلى ولكن هذا المقام يحتاج الى الايضاح هنا . فقلت نعم أوضحه فأقول : أنالا أخرج عن هذا المثل وهو مثل الشمس ، انظر ، اذا أشرقت الشمس على الأرض فهل تستوى الأرض والماء فى قبول حرارتها ؟ قال : أنا أرجوك أن تسمح لى بفهم ما تقول . فقلت له : أيهما أسرع قبولا للحرارة الماء أم الأرض ؟ وأيهما أبطأ ، وأيهما أسرع إخراجا لحرارته التى كسبها من الشمس ؟ وأيهما أبطأ فى ذلك . قال الأرض أسرع قبولا للحرارة وأسرع تخلصا منها والماء على العكس من ذلك . فقلت : هل تستنتج من هذا شيأ . قال : لست مستعدا لذلك الاستنتاج فى هذا المقام . فقلت ههنا قاعدة ، كل ما كان أتمّ صنعا كان أدوم وأحسن فائدة ، وكل ما كان أنقص صنعا كان أقلّ دواما وأقلّ فائدة ، فهذه الأرض لما أسرعت فى قبول الحرارة أسرعت فى التخلص منها ، وهذا الماء لما أبطأ فى قبول الحرارة أبطأ فى التخلص منها . فالغنىّ الذى كسب المال بجدّه وعرق جبينه يكون غناه أتم وأدوم والذى نال المال بلاجدّ يكون له مبذرا لأنه لايعرف قيمته . انظرالى القرع والى النخل فذاك لايثمر إلا بعد سنين وهذا يطول و يثمر حالا ولكنه سريع الزوال وانظرالى صغار الحيوان كلما كان أسرع نموّا كان أقصر أجلا . ألاترى أن الكلب يتم نموّه فى سنة ونصف ولا يزيد غالبا عن (١٢) سنة كماتقدم . وأن الحصان لايتم نموّه إلا بعدثلاث سنين و يعيش (٢٤) سنة وهكذا وكل هذا تقدّم وإنما نضرب به هنا أمثالا وهذا فعل الله والفعل جيل ولايعرف جماله إلا بالعلم والحكمة فأما المعرفة القولية فلافائدة فيها . وهـذا الهرم المبنى فى بلادنا المصرية لما كان أتمّ بناء كان ثباته ودوامه أتم . وهذه قاعدة مطردة . قال قد فهمتها . فقلت : وقبل أن أرتب عليها الاجابة على ماطلبت أقول انهذا الاختلاف فى الأحوال قد جعل لغايات شريفة . ألاترى الى ماتقدم فى سوركثيرة أقربها ماجاء فى ﴿ سورة الأحزاب ﴾ عند آية ـ ياأيها النبيّ إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ✱ وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا ـ فقد وازنت

هناك مابين قول النابغة للنعمان ابن المنذر * كأنك شمس والملوك كواكب * ومابين هذه الآية وأن فضائل النعمان لا نسبة بينها و بين الشمس وأن ثمرات فضائل النبوّة تشبه منافع الشمس ، وقد ذكرنا هناك الرياح والسحاب ، وكيف كانا ناجين من الحرارة والبرودة ، وكيف كانت سرعة قبول الأرض للحرارة وضدها و بطء قبول الماء للحرارة والبرودة سببين متضادين أنتجا منافع للناس بالرياح المختلفات ، فلولا هذا الاختلاف لم يكن نسيم البرّ ولا نسيم البحر ولاالرياح الموسمية ولاالرياح التجارية الضدية وهكذا . كل ذلك تقدّم ، فهذا الاختلاف هو الخير والمنفعة والسعادة للحيوان على الأرض ، إذن اختلاف أحوال المادة جعل لفوائد شريفة . اذا فهمت هذا فأقول إجابة على أسئلتك الخمسة :

ما الذنوب ولا الكفر إلا أشبه بما عرفنا فى الماء من انه لايقبل الحرارة بسرعة ، فالكافر والعاصى لم يقبلا الايمان والطاعة لأن فطرتهما ليست سريعة القبول ، فاذا أسلم الكافر بعد ذلك ، واذا أطاع العاصى بعد اقتراف الذنب و بعد الندم الشديد كان ذلك بعد جهاد ومشاق طويلة فيكون صلاحه أتمّ وهذا معنى قولهم « ربّ معصية أورثت ذلا وانكسارا خير من طاعة أورثت عزا واستكبارا »

وكم من متوسط الذكاء فاق من هو أذكى منه بسبب طول أناته وصبره وجدّه فى التحصيل فيصير أرقى منه وأقدر وأقوى وأعلم

فقال : هذا حسن وقد فهمناه ولكن ماذا تقول فى العاصى اذامات بلاتوبة والكافراذا لم يؤمن ؟ فأين الحكمة إذن فى ضلالهما الدائم ؟ فقلت : هذا أدع الجواب عليه الآن فانه من المسائل التى ليس يعقلها كل امرئ . ولكن الاجابة عليها فى وقت غير هذا ولكنى أقول لك الآن إجمالا لايعقل حكمة ذلك إلا حكيم قرأ العلوم الرياضية والطبيعية والالهية ، فاذا لم يعلم ذلك فلايجوز له أن يبحث فى هذا لأنه فوق طاقته وأنت تقدر على الجواب من نفسك لنفسك . فقال : إذن نكتفى بهذا فى الفصلين الأوّل والثانى . فقلت :

﴿ الفصل الثالث فى محاجة مؤمن آل فرعون لقومه ﴾

وملخصها ما يأتى :

(١) ان كذب الرسول واقع عليه وصدقه ان لم يطع القوم أنزل العذاب بهم ، وهذه الحجة تنتج أحد أمرين : إما الاقتصار على عدم أذاه ، واما الزيادة على ذلك بالطاعة ، والنتيجة التى يقصدها عدم التعرّض له بالأذى

(٢) الملك لايدوم فاذا تعدّينا على غيرنا فالله لنا بالمرصاد فمن ذا ينصرنا

(٣) ان هناك أمما تقدّمتنا فعلوا مافعلنا فهلكوا أفلاتخاف العاقبة

(٤) بل هناك يوم الحساب

(٥) أنتم قوم اعتدتم التكذيب والشك كما حصل منكم فى أمر يوسف

(٦) إن هذه الحياة كسراب بقيعة فكيف تغترّبها

(٧) والأصنام التى تعبدونها لاقيمة لها

(٨) ونتيجة ذلك أن الله تعالى وقاه سيئات مكرهم ووقع العذاب بالقوم

إذن لنفصل العذاب الذى حلّ بالأمة المصرية بعد زمن المؤمن الذى قال هذا القول من بلادنا المصرية وهذا يعوزه ﴿ ثلاث جواهر * الجوهرة الأولى ﴾ فى مجمل تاريخ قدماء المصريين و بيان انه ثلاثة أدوار ﴿ الجوهرة الثانية ﴾ فى أن هذا الذى قاله مؤمن آل فرعون كان فى الدور الثالث . و بيان سرّ التنزيل إذ يقول لمؤمنهم — فمن ينصرنا من بأس الله ان جاءنا — وماهوهذا البأس ﴿ الجوهرة الثالثة ﴾ فى بيان الأسباب العقلية التى سببت هذا البأس . وكيف كان التقليد وترك العقل جانبا فى أعمال الحياة وفى الدين ينتهى بموت

الأمة وهلاكها . وأن هـذا الدرس متى فهمه المسلمون أقلعوا عن جهلهم لأن أكثرهم اليوم يشبهون هذه الأمة المصرية فى دورها الثالث وأن هذا التفسير هوآخر انذارلهم وهاك بيانها

﴿ الجوهرة الأولى ﴾

جاء فى كتاب الأدب والدين عند قدماء المصريين مانصه

﴿ لمحة فى تاريخ مصر القديم ﴾

ينقسم تاريخ مصر القديم باعتبار الدول الأصليـة الى ثلاثة أدوار : الدور الأول يشمل الدولة القديمـة . والدور الثانى يشمل الدولة الوسطى . والدور الثالث يشمل الدول الحديثة [1] وتاريخ الدولة القديمة ينحصر فى ثلاثة عصور : وهى العصر الصاوى والعصر المنفى والعصر الهراقليو بولوتينى

(١) ـ « العصر الصاوى » وتنحصر فيـه الأسرتان الأولى والثانية من (من سنة ٥٠٠٠ الى سنة ٤٤٥٠ ق م) وهو يبتدئ بالملك مينا رأس الفراعنة الذى جمع تحت سلطانه الوجهين البحرى والقبلى . وجعل : عاصمة ملكه تانيس أوطينة (البربة بجوار جرجا حيث توجد قبور الملوك الأوّلين

(٢) ـ «العصر المنفى» يبتدئ من الأسرة الثالثة وينتهى الى الأسرة الثامنة (من سنة ٤٤٥٠ الى سنة ٣٣٥٠ ق . م) وكانت عاصمة المملكة فى هذا العصر مدينة منف أومنفيس (المعروفة) الآن بميت رهينة الواقعة على بعدعشرين كيلومترا جنوبى القاهرة . وكانت فى ذلك الوقت محط الرحال . وكعبة الآمال . غنية بعلومها ومعارفها ، متقدمة بفنونها وصناعاتها . وفى هذه المدة توسعت مصر فى الفتوحات حتى استظلت برايتها بلادسينا والنوبة والواحات ، واشتهر من ملوك الأسرة الثالثة (من سنة ٤٤٥٠ الى سنة ٤٢٤٠ ق . م) زوسير مشيد الهرم المدرج . وسنفرو مشيد هرمى ميدوم ودهشور . ومن ملوك الأسرة الرابعة (من سنة ٤٢٤٠ الى سنة ٣٩٥٠ ق . م) خوفو وخفرع ومنقرع وهم الذين شادوا اهرام الجيزة . ومن الاسرة الخامسة (من سنة ٣٩٥٠ الى سنة ٣٧٠٠ ق . م) الملوك ساحورع ونوفراركرع واسرزع واوناس الذين شادوا اهرام أبى صير . وشيدوا بها المعبد الشمسى . ومن ملوك الاسرة السادسة (من سنة ٣٧٠٠ الى سنة ٣٥٠٠ ق . م) تيتى وبيبى الأوّل وبيبى الثانى ومرنرع الأوّل ومرنرع الثانى الذين بنوا اهرام سقارة ، وقد انتهى عصر هؤلاء الاسر الثمانيـة بوقوع البلاد فى وهـدة الشقاء بسبب الاضمحلال الذى ابتـدأ بالأسرة السابعة (سنة ٣٥٠٠ ق . م) وأخذ يزداد فى الأسرة الثامنة (من سنة ٣٥٠٠ الى سنة ٣٣٥٠ ق . م) التى انقرض هذا العصر بانقراضها

(٣) ـ « العصر الهراقليو بولوتينى » وهو يشتمل على الدولتين التاسـعة (من سنة ٣٣٥٠ الى سنة ٣٢٠٠) والعاشرة (من سنة ٣٢٠٠ الى سنة ٣١٠٠ ق . م) وفى عهد هاتين الدولتين نشبت الحرب بين ملوك الوجه البحرى وملوك الوجه القبلى

﴿ الدولة الوسطى من سنة ٣٢٠٠ الى سنة ١٦٠٠ ق . م ﴾

لما كان النصر من حظ ملوك الوجه القبلى . اهتم ملوك الانتيف ومنتحوتب . وهم من الأسرة الحادية عشرة

---

(١) يتعذر على المؤرخين تحـديد تاريخ العاديات القديمة العهد تحديدا صحيحا لأن المصريين لم يكن لهم تاريخ معـين بل كانوا يؤرخون الحوادث بسنى حكم الملك الجالس على العرش . فليس لدينا اذن الى الآن كشف تاريخى كامل يجمع أسماء الملوك ويعين مـدة الفترات الواردة فى هـذا الكشـف . فاذا أريد معرفة تاريخ الملوك أو الآثار استعملت أرقام الأسر المالكة حسب ترتيبها

(من سنة ٣١٠٠ الى سنة ٣٠٥٠ ق . م) بحفظ رونق مدينة طيبة (التى من اطلالها الآن الاقصر والكرنك والقرنة ومدينة هبو) واتخذوها قاعدة لملكهم . وجعلوا إلههم أمون رع سيد جميع الآلهة . وفى عهد الامنحتبين والأوسرتسين . الذين هم من ملوك الاسرة الثانية عشرة (من سنة ٣٠٥٠ الى سنة ٢٨٤٠ ق . م) كانت مصر زاهية زاهرة باهية باهرة . حافظوا على دولة طيبة الأولى ، وحكموا النوبة حتى الشلال الثانى واحتفظوا بملك سينا . وعمروا أقليم الفيوم . وأقاموا بطيبة المعابد الضخمة . والمبانى الفخمة وشادوا أهراما بدهشور واللشت والفيوم . و بنوا قبور بنى حسن والبرشة . وأقام الملك أوسرتسن الأول أمام هيكل الشمس مسلتين من حجر الصوان إحداهما موجودة الآن فى المطرية وطولها نحو العشرين مترا وقد بنى الملك امنمحعت الثالث قصرا شرق بركة قارون بالفيوم فيه ٣٠٠٠ غرفة وهو المعروف بالتيه المعدود من عجائب الدنيا السبعة . وفى عهد الأسرة الثالثة عشرة (من سنة ٢٨٤٠ الى سنة ٢٤٠٠ ق . م) حافظت مصر على نظامها ومجدها . ثم فى عهد الأسرة الرابعة عشرة (من سنة ٢٤٠٩ الى سنة ٢٢٠٠ ق . م) تجزأت مصر الى عدة حكومات . ونقلت عاصمتها الى سخا بالوجه البحرى . وتردت بأردية التقهقر والخمول فسقطت فى مهاوى الذل والهوان . حتى أنه فى عهد الأسرة الخامسة عشرة (من سنة ٢٢٠٠ الى سنة ٢٠٠٠ ق . م) لما هاجم مصر الهكسوس (رعاة آسيا) لم يجدوا مقاومة تذكر من المصريين فاحتلوها . وتقل المؤرخون أن الرعاة حكموا مصر ٥١١ سنة وكان منهم فرعون يوسف الصديق

﴿ الدولة الحديثة ﴾

(من سنة ١٦٠٠ الى سنة ٣٤٠ ق . م)

(وهى دولة طيبة الثانية) من سنة ١٦٠٠ الى سنة ١٣٨٠ ق . م

انضم أموزيس أول ملوك الاسرة الثامنة عشرة الى امراء الأسر الملكية المصرية القاطنين بالوجه القبلى بعد أن أخرج الرعاة الى آسيا ، وتوسع فى الفتوحات حتى بلغ ملكه نهر الفرات شمالا . والى النيل الأزرق جنوبا . واهتمت هذه الأسرة بالمبانى ومظاهر العمران

وفى زمن الأسرة ١٩ (من سنة ١٣٨٠ الى سنة ١٢٣٠ ق . م) التى كان ملوكها رعمسيس الأول وسيتى الأول ورعمسيس الثانى ومنفتاح احتفظوا بملك فلسطين وسوريا القبلية واستمرت بلاد آسيا والسودان تابعة لمصر حتى آخر عهدهم . ثم استقلت بعدهم حين ضعف نفوذ الملوك وسقطت سطوتهم بينما كان كهنة أمون قد أحرزوا الجاه الواسع والثروة من الهدايا والتحف التى كان يقدمها هؤلاء الملوك الى المعابد . فيأخذونها غنيمة باردة . و بسبب هذه الثروة الواسعة صار لهم النفوذ . وقويت كلمتهم . واشتدت شوكتهم ، ولم يزالوا يمهدون الأمور حتى تولوا الحكم وخلص الملك لهم .

﴿ العهد الصاوى ﴾

(من سنة ٧٢٠ الى سنة ٣٤٠ ق . م)

فى هذا العهد كانت مصر فى حاجة شديدة الى الوئام والوفاق لاتقاء شر الدول المتغلبة ومقاومة الأمم التى كانت استولت عليها . لأن هذه الأمم كانت نهضت لتحريرها وخروجها من نير العبودية ولكنها انقسمت على نفسها وفشا فيها داء التخاذل والتنافر حتى تنقلت العواصم مابين تانيس المعروفة بصا الحجر بمديرية الغربية وتل بسطة بمديرية الشرقية . ونتج من هذا الانقسام فى مصر أن استولى الاشوريون عليها . وبهم ابتدأت الأسرة الخامسة والعشرون (من سنة ٧١٥ الى سنة ٦٦٦ ق . م)

ثم جاء الصاويون وهم ملوك الأسرة السادسة والعشرين (من سنة ٦٦٦ الى سنة ٥٢٥ ق . م)

فأخرجوا الأشوريين من مصر واستولوا عليها . وفى عهدهم أصاب مصر من الضعف والوهن ماأصابها عقب حكم الملك بسامتيك والملك نخاو . واستولى عليها الفرس وخضعت لهم سنة ٥٢٢ ق.م

ثم جاء النقتانيبون وهم ملوك الأسرة الثلاثين (من سنة ٣٧٨ الى سنة ٣٤٠ ق.م) فنالت مصر على يدهم الحرية ، ولكنها لم تلبث قليلا حتى استولى عليها اسكندر المقدونى سنة ٣٣٢ ق.م . وقد اتفق المؤرخون أنه من هذا العهد لم يحكم مصر واحد من بنيها . وهكذا الشأن فى كل أمة يسود فيها الانقسام ويروج فيها التنافر والتخاذل وكل نزاع نتيجته الفشل وكل مملكة تنقسم على ذاتها تخرب . انتهت الجوهرة الأولى

﴿ الجوهرة الثانية والثالثة ﴾

لقد علمت فى الجوهرة الأولى أن أدوار هذه الأمة ثلاثة ، ودورها الحديث كان من سنة ١٦٠٠ ق.م الى سنة ٣٤٠ ق.م

أقول : إن من أشهر ملوكهم (امنحتب الأول) من الأسرة الثامنة عشرة واموزيس الأول وتحوتمس الثانى من الأسرة الثامنة عشرة ، وتحوتمس الثالث من الأسرة الثامنة عشرة ، ورعمسيس الثانى من الأسرة التاسعة عشرة ، ورعمسيس الثالث من الأسرة التاسعة عشرة أيضا ، وهؤلاء كانوا أعظم ملوكهم ، ولكن لابد أن نذكر أن رجال الدين زاد استيلاؤهم على العقول فاستولوا على الملك ، إن الرعاة الذين جاؤا الى مصر فى دورها الثانى كانوا أجانب عنها ، فكانوا يقبلون النازلين بمصر على الرحب والسعة ، ومن هؤلاء ابراهيم عليه السلام لما مر بمصر وهكذا يوسف واخوته وهم عشرة فانهم انما جاؤا فى أيام الرعاة و بقوا بمصر بعد خروجهم فاضطهدهم المصريون وهذا الاضطهاد حصل فى هذا الدور ، ولكن لاننس أيها الذكى أن العقول فى هذا الدور أخذت ترجع القهقرى ، وذلك بسبب وقوف العقول وتمجيدها التقليد المجرد و بعدها عن التحقيق وهل أتاك نبأ ما مر عليك سابقا فى هذا التفسير فى ﴿ سورة النمل ﴾ عند آية ـ فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا ـ وآية ـ إن الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها ـ فهناك ترى كيف اشتركت هذه الأمة المصرية الحديثة والأمة الأندلسية فى أمر واحد وهو الوقوف على الظواهر والتقليد الأعمى والفسوق ، وهكذا ذكرت لك هناك أمم العرب المتأخرة فى بلاد الشام والعراق إذ نقلت عن ابن خلدون أن هذه الأمم العربية لما كانت مستمسكة بالدين حفظت بلاد الله ولما نبذت الدين صارت عالة على الأمم فأزال الله ملكهم إذ ذاك

انظر هذا المقام هناك فانك تجد القوم من مبدأ الأسرة السادسة عشرة اتخذوا الحيوانات (التى كانت دالة على إبداع الخالق ورمزا لجماله) معبودات عبدوها هم وجعلوا المعبود الحق فى الدرجة الثانية فأخذوا يعبدون الطير والسمك والحيات والتماسيح والقطط والكلاب ، وهناك ترى حربا دارت بين بلدتين إحداهما عبدت السمك والثانية عبدت الكلب ، فالذين لايعبدون السمك أكلوه فاغتاظ عباد السمك وأكلوا كلبا إغاظة فى عابديه ، فعقول هذا شأنها صارت أسفل من الحيوان فى الارض بل هم أضل من الأنعام . فلماذا إذن لايدخل البلاد الأجانب ، وهناك تقرأ النبوآت التى أعلنها أنبياء المصريين بزوال ملكهم وخراب دورهم فارجع اليه واقرأه هناك فلاسبيل لاعادته هنا

فهذه العقول لما خربت خربت الديار . ألاترى رعاك الله أن الجيش الفارسى لما أخذ يحارب المصريين أحضر ملكهم قططا وجعلها صفوفا بين الجيشين فتحاشى المصريون ضرب القطط لأنها آلهتهم مع ان اسلافهم كانوا يحترمونها لأمر واحد وهوانها تأكل الفيران فأخذوا هذا التعظيم من حيث هو لامن حيث نتائجه وزادوه حتى صارت نفس القطط آلهة . وبهذه الحيلة دخل الجيش الفارسى مصر . لماذا ؟ لأن تلك العقول

لانى وانحطت تحت قوة الحيوان الأعجم

هذا هو السرّ فى قول مؤمن آل فرعون لهم — ياقوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض فمن ينصرنا من بأس الله ان جاءنا — و بأس الله هو دخول الفاتحين من الآشوريين أوّلا والفارسيين ثانيا والرومان ثالثا وهكذا . وكل هـذا سببه وقوف العقول على التقليد بلاروية ولافكر . انظر لقوله — أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم — الخ إذن هم لايفكرون لأن عندهم بينات لم يفكروا فيها . إذن هم قوم مقلدون و بهذا التقليد دخل الفرس بلادهم لانحطاط عقولهم

ومن العجب أن قول مؤمن آل فرعون يشابه قول (ملا كاتب جلبي) الذى ألف كتاب « كشف الظنون » فى القرن الحادى عشر الهجرى ، وقال فى حق الدولة العثمانية التركية التى هو مستظل بظلها ناقلا عن الشهاب الخفاجى فى كتابه « الخبايا فى الزوايا » يقول :

« إنّ الدولة التركية لما أفتى أحد علماء الدين بتحريم العلوم والفلسفة أخذت تنحط . ثم قال : وهذا إيذان من الله بذهاب ملك دولتنا » انتهى بالمعنى . وقد تحقق ذلك فى هذه الأيام فدولة بنى عثمان قد انحلت وذهبت كأمس الدابر

ومن عجب انى وأنا مراهق كنت أتعلم فى الجامع الأزهر وأرجع الى القرى فأجد أناسا يأتون بهيئة وقار واحترام وهم من آل البيت الكرام و يأخذون من الناس رزقا سنويا ولهم أناس يسيرون تبعا لهم و يبيتون عنـد الأغنياء ويذكرون ليلا ويأخذون رزقا من الناس يسمونه (العادة) ولقد بطل هـذا فى زماننا فى بعض البلاد

فياعجبا . كل ذلك للجهالة الفاشية ، فالمعطى جاهل والآخذ جاهل . كل ذلك للجهالة الحالة بأمم الاسلام لايجوز أن يكون فى الأمة عاطلون ، وما أولئك الذين يعيشون من كسب غيرهم بحجة الدين إلا كذباب أو حشرات أونباتات طفيلية ، فيجب على العلماء وعلى الأمراء أن لايسمحوا بهذا ، بل يجب أن يعم التعليم لأن الجهل هو الذى أوحى الى الجهال أن يتزيوا باسم الدين و يأكلوا أموال الناس بالباطل

إن شرار أمة الاسلام أولئك الذين يأكلون باسم الدين . إن كثيرا منهم يوهمون العامة أنهم يشفعون لهم عند الله فى جلب الرزق والصحة ولهم التصرّف فى الأنفس فيصرفون عقولهم عن ربهم الى أشخاصهم واذا وجدنا المصريين فى الدولة الحديثة قد جعلوا الحيوانات فى الدرجة الأولى والله المعبود الحق فى الدرجة الثانية فوالله ان الجهل قد أوحى بذلك فعلا الى جهلة المسلمين فما عليك إلا أن تتزيا بزىّ الصلاح والتقوى وتظهر للعامة أمورا توهمهم بها حتى يعتقدوا هـذا فيك ولم أر حكيما ولا عالما فى أمتنا الاسلامية يرضى بذلك والذى يرضى به هو الجاهل لأن العالم قلبـه معمور بالعلم والحكمة . أما الجاهل فلخلوّ نفسه من العلم يدّعيه ويفرح بقول العامة انه قطب زمانه كما يفرح كثير من أولئك التعساء اذا تعلموا فى المدارس العاليـة ولكن الأمة تحتقرهم لفسوقهم وسوء سلوكهم فلايعصرون فى نفوسهم بسعادة فيتلمسونها من كلام الناس و يسعون عند الملوك ليعطوهم ألقاب الشرف و يفرحون بقول القائل لهم سعادة فلان وعزّته وهو لاسعادة له ولاعزّة لأن السعادة والعزّة إن لم يحس بها القلب غير ممكنة اللهم إلا الرياء والرياء ليس سعادة بل هو كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيأ ووجد الآلام فوق الآلام والشقاء فوق الشقاء ظلمات بعضها فوق بعض وعذاب أليم

فقال صاحبى : لقد أقنعتنى وفهمت الحقيقة . وأريد الآن أن تأتى بنبذة من أحوال مصر فى عصرنا هذا استطرادا لنقارن بين وعظ الواعظين فى الدولة الحديثة المصرية منذ (٣٥٠٠ سنة) و بين وعظ الواعظين الآن وانما أردت هذا لأفرح بالموازنة بين عقلين بينهما (٣٥٠٠ سنة) والله تعالى لم يذر أمة بلانذير فكل زمان له

نذير . فمؤمن آل فرعون نذير قومه . فأريد أن تصطلق عبارة أدبية ليكون ذلك من لطائف مجلسنا فى تفسير هذه الآية . فقلت :

اعلم أن الأمة المصرية الآن اعتورتها الخطوب وانتابتها الصعاب وأحاطت بها الأمم من كل جانب فأول من أذلها فى الأزمان الأخيرة الأمة التركية إذ جرّدتها من سلاح العلم وأخذت صناعها منذ (٤٠٠ سنة) وحصرت مجموع الأمة فى الزراعة وحذفت من البلاد بيوت العلم شيأ فشيأ حتى اذا تغلبت دول أوروبا على بعض بلاد الشرق أرسلوا المبشرين فزلزلوا العقائد . وزاد الطين بلة أن الانجليز أزالوا أكثر آثار النهضة العلمية التى أحدثها المرحوم محمد على باشا فى القرن التاسع عشر وذهبت ورعة الدين ، وترى أكثر أكابر الأمة وعظمائها لايحلو لهم جلوس ولاسمر إلا فى المحال التى فتحها الفرنجة فى نفس بلادنا يحتسون فيها أنواع الشراب من البيرة والخمر والشمبانيا وأكثر المتعلمين لاعمل لهم إلا أن يكونوا فى مناصب الحكومة لأن التعليم تعليم لفظى لم يخالطا بشاشة القلوب ولم يحرك اليدين للعمل . فهلك أن تقرأ ذلك الخطاب الذى أرسلته أنا لمجلس النوّاب ولوزارة المعارف ولمجلس الشيوخ فاقرأه فى سورة يونس فى أوّلها

اذا عرفت هذا أدركت مضمون ما يكتبه الكاتبون فى بلادنا فان التعليم اذا كان لفظيا لايملأ القلوب روعة وظاهريا مخلوطا بالزيغ والالحاد فان نتائجه أن لا يكون بعض أهل الحل والعقد فى البلاد إلامن لايرقبون فى الله لومة لائم ولايقيمون العدل إلاقليلا ولايعملون عملا صالحا إلارياء . أما مراقبة النفس والعمل لمصلحة العامة فذلك قليل . ومما زاد الطين بلة أن المحاماة فى البلاد أصبحت من أهم الحرف والصناعات . ومبنى المحاماة أمام القضاة انما يكون على أساس الخداع والغش وقلب الحقائق . و بعض هؤلاء يتولون القضاء ثم يصيرون وزراء وحكاما . وقد يكون الرجل منهم سيء السيرة مخمورا مشتهرا بذلك بين معاصريه . ثم يتولى الرئاسة وهو مغضوب عليه فلايقيم للحق وزنا ولا للمروءة قسطاسا

والحق الذى لامحيص عنه أن الجهال أصفى نفوسا وأصح إيمانا وأنقى عقائد من بعض هؤلاء الذين لايتقون ولاهم يذكرون

اذا عرفت هذا أدركت مايرمى اليه الكتاب فى زماننا الحاضر . فهذه هى الاصول التى تتفرع عليها فروع الكتابة المتشعبة فى زماننا ، فاذا كانت نصيحة رجل من آل فرعون فى البلاد المصرية على هذا الأسلوب المذكور فى الآيات التى نحن بصدد الكلام عليها فهذه هى الاصول التى يدور عليها محور الارشاد فى أيامنا مضافا اليها مامنيت به الأمة من تهتك النساء والتبرج المزرى والتقليد الضارّ والسير على نهج لارأى فيه ولاهدى ولاكتاب منير ولله الأمر من قبل ومن بعد

هذا مجموع مايقال على أمتنا المصرية من حيث العموم . وقد آن أن أبحث معك أيها الذكى فى أمر خاص وهو أن هذه الأمة اليوم غير الأمة أيام مؤمن آل فرعون . هذه الأمة اليوم عربية بحتة نعم فيها أقوام من نسل آل فرعون ولكن أكثرهم أسلموا ثم الذين بقوا على دين النصرانية لايتكلمون إلابالعربية وأبناؤهم يتعلمونها و يقرؤن آداب العرب وأشعارهم وعلومهم وغالب الأمة مسلمون والقليل جدا هم القبط . واذا كانت عربية فلها اتصال بأهل طرابلس وتونس والجزائر ومراكش وأهل السودان وسوريا وفلسطين وشرق الأردن ونجد واليمن والحجاز و بلاد العراق والموصل . ولكن أصابها الترك فرّقوها فى قرون مضت حتى فرّقوا أوصالها ومزّقوا أحشاءها . وعلموهم كيف يتدابرون . وأفهموهم كيف يكونون جاهلين فهدوا بذلك للدول الثلاث هم (فرنسا وانكلترا وايطاليا) هذه الدول الثلاث هم الذين اقتسموا أبناء العرب وعلموهم كيف يجهلون و ينامون وقالوا لهم أنتم وطنيون فليس لكل منكم إلا وطنه . فأهل أوروبا كلهم يفتخرون بأنهم نصارى وعلى دين واحد . و يقولون لأبناء العرب : « دعوا صلة الدين وتفرّقوا بالوطنية »

ولما كان المصريون هم الذين اختص بهم هذا المقال أردت أن أذكر هنا رسالة شاب نابغة تعلم فى مصر وألمانيا وكان من تلاميذى بالمدرسة الخديوية وله بى صلة وهو رئيس تحرير مجلة «الشبان المسلمين» وهو الذى اخترت أن أكتب رسالته فى نصيحة المصريين أن يتعاونوا مع اخوانهم العرب والمسلمين عموما لتدرك أيها الذكى الفرق بين النصائح المذكورة فى القرآن من مؤمن آل فرعون فى بلادنا أيام الفراعنة وبين نصيحة الشاب المصرى ، وكيف كان مؤمن آل فرعون يذكر قومه بربهم وعظمته ويدلهم على صدق رسالة موسى عليه السلام بمعجزاته ، وأن عظمة الملك لادوام لها ، وأن الله بالمرصاد للظالمين ، وكيف أظهر فرعون العظمة واستبد بالأمر ، وكيف حذر المؤمن قومه من غضب الله عليهم كما غضب على الظلمة من الأمم السابقة فى الدنيا والآخرة ، وكيف عيرهم بالتمادى فى الانكار . وكيف حقر أمر الأصنام وانها لاتعقل . وكيف فوض أمره الى الله تعالى . وكيف وقاه الله مكر القوم . فاذا وازنا هذه النصائح بنصائح كتابنا كما ستراه فى هذه المقالة التى اخترناها ألفينا أن صديقنا يحيى الدردير يذكر العرب عموما والمصريين خصوصا بتاريخ أممهم وانهم ان جهلوه هلكوا . ويذكرهم بالأخلاق الفاضلة والعمل بالدين . وأراهم أن فصل تعاليم الدين عن التعاليم الوطنية مهلك للأمة . وأن المصريين القدماء قبل إلحادهم وكفرهم كانوا أمة موحدة . وأوصاهم بالتحالف مع اخوانهم فى العراق ونجد واليمن والشام وشمال افريقيا . إذن النصائح اليوم فى مصر متجهة الى الدين أولا وتصحيح العقيدة كنصيحة مؤمن آل فرعون . ولكن هنا زادت أمرا جديدا وهو الجامعة العربية . فهاك نص المقالة المذكورة :

﴿ النعرة القومية والفكرة الاسلامية ﴾

قامت فى هذه الأيام ضجة حول مبدء التمسك بالوطنية وترك ماعداها . وأنصار هذه الدعوة رفعوا شعار « الدين لله والوطن للجميع » فقال المصريون منهم نحن مصريون فرعونيون قبل كل شئ . وقال بعض السوريين نحن فينيقيون . وقال بعض العراقيين نحن كلدانيون وقس على ذلك . تريد كل فئة أن تمسك بمجدها التالد وتحتبس فى حدودها غير ناظرة الى مايهددها من المخاطر من جراء عزلتها التى تجعلها فريسة سائغة لكل مستعمر قوى مغتال

يجب على كل أمة أن تعرف تاريخها قديمه وحديثه لأن ماضى الأمة يلعب دورا كبيرا فى حاضرها ومستقبلها ولا يمكننا أن نتناسى الماضى لأن عقائدنا وأفكارنا كلها آتية منه . وهو الذى يكوّن روح الأمة وشكلها ولذلك كلما كانت الأمة عريقة فى المدنية وذات مبادئ حقة كان نسلها ذا استعداد طبعى لكل تقدم ورقى . قال الدكتور جستاف لوبون « حظ الشعب متوقف على مايعتقد أنه الحق . وان التطورات الاجتماعية . وتأسيس أو هدم الممالك وتقدم أو انحطاط المدنيـة ناتجة عن قليل من العقائد التى تنزل من النفوس منزلة الحقائق وهى تمثل مسايرة الشعب الوراثية وفقا لحوادث الدهر

« ان من أخطر الغلطات فى العصر الحاضر ترك الماضى . وعدم الاعتراف به . وكيف يمكن ذلك ؟ ان ظل الأسلاف يحكم أرواحنا . وهو يكوّن الجزء الأكبر منا . كما عليه ينسج القدر حظنا . وان حياة الموتى أكثر بقاء من حياة الأحياء . لا يمكن لأى مدنية أن تبقى بدون مرشدين أقوياء من المتعلمين أو بالأحرى بدون مبادئ عامة قوية . لأن قوة الأخلاق أو القوة المعنوية هى الآن المحرك الحقيقى للعالم »

معرفة الماضى يجب أن تكون أداة لاذكاء روح الحمية والغيرة والعزة والرفعة والاستقلال وهنا حدود الوطنية البريئة ولكن لايجوز أن تتعداها الى الصلف والكبرياء والعزلة والاغترار بالنفس وعدم الاعتراف للغير بفضائله ومحاسنه فهذا هو الطيش والحمق

قامت

قامت فى مصر الفكرة القومية أو الدعوة الوطنية منذ نشأتها على أساس صحيح معقول وهى تحرير الوطن من كل غاصب مغتال حتى تصبح مرافق الأمة فى أيدى أبنائها وأن يكون اعتماد الأفراد على أنفسهم فى سبيل تحرير بلادهم . وقد وصف الزعيم الأول للنهضة المصرية مصطفى كامل مايجب على كل وطنى عمله . فقال : ان الأمم لاتنهض الا بنفسها . ولا تسترد استقلالها الا بمجهوداتها . وان الشعب كالفرد لايكون آمنا على نفسه الا اذا كان قويا بنفسه مستجمعا لكل عدد الدفاع وآلات الذب عن الشرف والمال والحياة » . « ان قانون الحاكم فى معاملته للمحكومين خاضع لدرجة احترامه لهم . فان رآهم أمواتا فى أزياء أحياء يقولون مالا يعتقدون . ويطلبون من الاصلاح كما يطلب السائل الاحسان . لا كما يطلب صاحب الحق حقه استبد فيهم وسخرهم لسلطته كما تسخر الأنعام »

على مثل هذه المبادئ السليمة قامت الدعوة الوطنية الشريفة . ولقيت من الأمة المصرية آذانا صاغية وقلوبا واعية . وأصبحت حرية البلاد واستقلالها عقيدة قوية لايصح التهاون فيها . وهى كما قال مصطفى كامل « اذا صح التسامح فى بعض الأمور وفى ظروف معينة . فان التسامح فى الوطنية اعدام لها وقضاء عليها . وان من يتسامح فى حقوق بلاده ولو مرة واحدة يبقى أبد الدهر مزعزع العقيدة سقيم الوجدان » . وقال أيضا « ان الذين يطالبوننا بعدم ذكر الاستقلال انما يريدون أن تموت روح الوطنية فى مصر . أى تموت الأمة المصريه . لأن حياة هذه الأمة ومستقبلها مرتبطان بمقدار قوة هذه الروح فى الشعب »

الوطنية الصحيحة لاتقوم الا على الأخلاق الفاضلة وهذه بدورها تستمد قوتها من الدين الحنيف . وتاريخ مصر قديمه وحديثه شاهد على ماتقول ولذلك كان من أهم أغراض المستعمرين طمس معالم التاريخ القديم لتعليم النشء فى المدارس لتضعف فيهم روح الاعتزاز بالماضى ويلقنون فى روعهم أنهم عالة على الأمم الأخرى . ومحاربة الدين الاسلامى على الخصوص لأنه يبعث فى نفوس النشء الاسلامى الاحتفاظ بالكرامة ومبادئ الحرية والشجاعة وهذا مالايتفق مع سياسة المستعمر الغاصب فى اخضاع الأمم الاسلامية واذلالها

فالذين يدعون الى الوطنية وترك الدين جانبا انما يدعون الى قضية محققة الخسران . لانهم يدعون الى مبادئ لاروح فيها ولا حياة . اذ كيف يكون حال نشء فى الوطنية وهو خلو من مبادئ الفضيلة ومراقبة الله عز وجل فى السر والعلن ؟ هؤلاء لاتكون لهم الا سياسة واحدة وهى سياسة المنافع وجر المغانم أو بعبارة أخرى سياسة الهوى وهى سياسة مقضى عليها بالفشل . وقد قال لامارتين : بحق « ان ضميرا خاليا من الله كالمحكمة الخالية من القاضى »

ان تاريخ مصر القديم والحديث يثبت أن الدين والوطنية وحدة لاتنفصل بل هما بمثابة الروح والجسد فى عالم الحياة . جاء فى مجلة علم الآثار المصرية فى الجزء الأول المجلد الثانى ص ٣٧ للأستاذ العالم رفيو : « الدين كان له القدح المعلى والمكانة الاولى فى نفوس قدماء المصريين الورعة واليه يرجع الفضل فى كراهة الاجانب الغاصبين . وتوحيد القوى الوطنيه . التى بها أمكنهم أن يطردوا الهكسوس ومن بعدهم الاشوريين . ويشهد المؤرخ اليونانى هردت وقد زار مصر فى عهد العجم أن هؤلاء المغلوبين (المصريين) كانوا يبغضون الغاصب ويحتقرونه بما كانوا يبدونه من مقاطعته وقطع كل صلة مع الغاصبين . فلا يجلسون معهم على مائدة ولا يأكلون معهم »

اذا تتبعنا سيرة الحياة المعنوية لروح الأمة المصرية فى أطوارها نراها روحا اسلامية بحتة سواء فى عهد الفراعنة أو غيره لأن روحها روح التوحيد وقد تأصل فى قرارة نفسها بالرغم مما طرأ عليها من صروف الحدثان والمظاهر الكثيرة التى أولوها فى كثير من الأحيان على غير وجهها الصحيح . قال المؤرخ الشهير (شمبليون فيجياك) : « قد استنبطنا من جميع ماهو مدون على الآثار صحة ماقاله المؤرخ (جامبليك) وغيره

من أن المصريين كانوا أمة موحـدة لاتعبد الا الله . ولاتشرك به شيئا . غـير أنهم أظهروا صفاته العلية الى العيان مشخصة فى بعض المحسوسات . وأنهم لما غرقوا فى بحر التوحيد . علموا أبدية الروح . وأيقنوا بالحساب والعقاب . ولاعبرة بما قاله بعض مؤرخى الأجانب الذين حضروا محافل المصريين الدينية وشاهدوا بها كثرة تماثيلهم الرمزية . وانهم لجهلهم لغتهم . و بحقيقة عباداتهم حملوا الأمور على ظاهرها . وحكموا عليهم بالكفر والالحاد مع انهم لم يفهموا منها المراد . فكأنهم دخلوا فى قول الشاعر :

وكم من عائب قولا صحيحا * وآفته من الفهم السقيم

راجع كتاب الأثر الجليل لقدماء وادى النيل لأحمدبك نجيب ١٢٣ وقال العلامة مسبرو « من تأمل فى الآثار الباقيـة الى الآن بالديار المصرية واللوحات الدينية المنقوشة بالحيا كل وماعلى الورق البردى هالته كثرة هذه الآلهة المصورة عليها . حتى يظن أن مصركانت مسكونة بهؤلاء الآلهة . وان أهلها ماخلقوا الا لعبادتها . وسبب ذلك أن المصريين كانوا أمـة مخلصة فى العبادة إما بالفطرة أو بالتلقين أو التعليم . فـكانوا يرون الله فى كل مكان . فهامت قلوبهم فى محبته . وانجذبت أفئدتهم اليه . واشتغلت أفـكارهم به . ولازم لسانهم ذكره وشحنت كتبهم بمحاسن أفعاله . حتى صار أغلبها صحفا دينية »

كانوا يقولون انه واحـد لاشريك له كامل فى ذاته وصفاته وأفعاله . موصوف بالعلم والفهم . لاتحيط به الظنون . منزه عن الـكيف . قائم بالوحدانية فى ذاته . لاتغيره الأزمان . ثم عددوا صفاته العلية وميزوها بالأسماء واشتقوا منها نعوتا شخصوها فى المحسوسات . وكل شئ نافع . وجميعها ترجع اليه . ولأجل التمييز جعلوا لـكل اسم تمثالا . فانتشرت هى وما اشتق منها حتى ملأت المدن والبلاد . »

ان الساعة التى تسرب فيها الالحاد والشرك الى العقيدة المصرية كان ذلك نذير زوال مجد مصر . اذا عرفنا أن تاريخ المصريين يربط عقيدتهم الدينية (قديما وحديثا) بالله عز وجل وأنه تعالى يجب أن يكون قصدهم متبعين أوامره منتهين عن نواهيه فالاسلام عندى هو الدستور الطبيعى الذى يوصلهم الى غاياتهم السامية قال تعالى ـ ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال اننى من المسلمين ـ

الدين الاسلامى الحنيف لم يبخس الوطنية حقها . بل جعل حب الوطن من الايمان . وان تحرير الأوطان لايكون الا بالدأب على العمل المنتج « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم » وان الثمر متوقف على بذل الجهد ـ وأن ليس للانسان الا ماسعى ـ فلماذا إذا نحيد عن هذا الطريق المستقيم الذى يقودنا الى سعادة الدنيا بالعمل الصالح المنتج . والى سعادة الآخرة بمعرفة الله عز وجل ؟!

لقد أعلن دعاة السوء دعوة على غير وجهها الصحيح وأذاعوها من أن المصريين هم فرعونيون غير عرب . وان واجب المصريين أن يشتغلوا بشئونهم دون سواهم . اما أن يشتغل المصريون بشئونهم (أولا) فهـذا مايقره عليهم الاسلام حسب قاعـدة « ابدأ بنفسك ثم بمن تعول » واما أن ينعزلوا عن بقية الأمم الاسلامية المجاورة لهم فهـذا مبدأ لايتفق مع مصلحة المصريين ولامع مبادئ الاسلام السليمة . ونحن فى عهد تحالف واتفاقات دولية أصبحت احدى وسائل القوة والمنعة ومن عاش منفردا فى هذا الزمن عرض نفسه الى السلب والقهر

ان الدعوة القومية المصرية التى ألبسها دعاة التفريق ثوب الفرعونية ليخرجوها عن بقية الأمم الاسلامية انما أرادوا بها انتحار مصر الأدبى

أريد أن أهمس فى أذن هؤلاء النفر الناعر بالقومية الفرعونية . وأنا مصرى صميم مسلم موحد . اذا كان حقا ما تدعون من الاعتزاز بالمصرية الفرعونية هل غاب عنكم أن رسول الله ﷺ يتصل بكم فى جدته العليا هاجر المصرية أم اسماعيل عليـه السلام وهو أبو العرب المستعربة وان خاتم الرسل عليه السلام تزوج

منكم

منكم مارية القبطية . فنحن نتصل بالعرب بصلة الرحم والنسب فهم أقرباؤنا وجيراننا وهم أولى الناس بمحبتنا وعطفنا ومساعدتنا . ان دعوة رسول الله محمد ﷺ يجب أن لا تؤيد من ناحية المسلمين المصريين فحسب بل من ناحية المصريين كافة مسيحيين وغير مسيحيين أيضا حسب الأصول المتبعة فى الدفاع عن حق القرابة والنسب والجوار

يجب أن نفهم الحقيقة على وجهها الصحيح حتى لا نضل الطريق السوى فنهلك . ان الله جل شأنه هو الذى اختار رسوله الأمين محمدا ﷺ ليبلغ دينه الى الناس كافة فالدين الاسلامى هو دين للجميع لا دين عرب أو عجم وان من أكبر قواعده الديمقراطية أنه لم يجعل الفضل للجنسية بل جعله للعمل الصالح المنتج فقال تعالى ـ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ـ وقال عليه الصلاة والسلام « خير الناس أنفعهم للناس »

الاسلام هو الدستور البشرى السليم الذى يعطى كل ذى حق حقه ولا يبخس الناس أشياءهم . وان اشتغال المصريين بمسألتهم القومية والدفاع عن حريتهم واستقلالهم لا يمنعهم بأى حال من الأحوال من العطف على الأمم الاسلامية ومساعدتهم حسب ما فى قدرتهم و ـ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ـ

نحن نرتبط مع جيراننا من الأمم الاسلامية بروابط كثيرة منها رباط اللغة والدين . فيجب أن نحرص عليهما أشد الحرص ونعمل على تمكين هذه الروابط وتوثيق العلائق الاقتصادية والاجتماعية بيننا وبين الأمم الشرقية كافة والاسلامية منها خاصة ونحن فى عصر التحالف الذى لا تستطيع أمة أن تنفرد فيه بنفسها . فالممالك الكبيرة تتحالف بالرغم مما تملكه كل منها من وسائل القوة كمحالفة انجلترا لفرنسا مثلا وكذلك الممالك الصغيرة فقد قام التحالف الصغير يضم بولونيا ورومانيا وتشكوسلوفاكيا و بعض بلاد البلقان وقامت تركيا تتحالف مع جاراتها العجم وروسيا

ان مصر من العالم الاسلامى القلب النابض والرأس المفكر وفلسطين وسوريا والعراق و بلاد العرب والعجم والهند والصين الساعد الأيمن وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش وما اليها الساعد الأيسر فيجب أن لا يشغل مصر حالها عن أحوال جيرانها فانهم حصونها الطبيعية المكينة وان كل عدوان على أى بلد إسلامى نعتبره معشر المصريين عدوانا علينا فى الصميم

يجب أن نحذر سياسة الغاصبين المستعمرين وهى سياسة التمزيق والتفريق وقيام الحوائل الجنسية والقومية بين المسلمين والشرقيين ليشتغل كل منهم بنفسه فيدوم لهم إذلالهم وخضوعهم

ان عمل كل أمة شرقية كانت أو اسلامية لرد حريتها واستقلالها لا يمنعها بأى حال من الاشتراك مع جاراتها المظلومة فى رفع الصوت عاليا بالاحتجاج و بذل ما يمكن بذله لمعونتها الأدبية والمادية لرفع ما حاق بها « والله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه » و ـ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ـ انتهى كلامه والى هنا تم الكلام على الفصل الثالث فى محاجة مؤمن آل فرعون لقومه وجواهره الثلاث والحمد لله رب العالمين

***

وقبل الشروع فى الفصل الرابع الآتى قريبا نذكر ما فتح الله به عند طبع هذه الآيات وها هو ذا :

﴿ نور العلم فى صلاة الوتر بعد صلاة العشاء ﴾

(فى قوله تعالى ـ فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشى والابكار ـ)

(كتب ليلة السبت ٨ نوفمبر سنة ١٩٣٠)

بينما أنا أصلى فى هذه الليلة صلاة الوتر فى الساعة الثانية بعد نصف الليل وأنا أقول فى الركوع « سبحان ربى العظيم » وأكررها من ثلاث الى إحدى عشرة خطر لى أن هذه السورة التى تطبع الآن مبدوءة بغفران الذنوب وقبول التوبة . ثم ذكر فيها أن حملة العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى

الأرض . وأتبع ذلك بأحوال الكافرين وعذابهم . وضرب مثلا لذلك بكفر بنى اسرائيل . وأتبعه بذكر مؤمن آل فرعون . ثم لخص الموضوع كله بأن موسى أوتى الهدى والذكرى . وأتبع ذلك بأمر نبينا ﷺ بالصبر والاستغفار والتسبيح والتحميد . وهذا التسبيح وهذا التحميد والاستغفار هى التى صدرت من حاملى العرش ومن حوله فيما تقدم . ففى أول السورة ان تنزيل الكتاب من الله وانه غافر الذنب وقابل التوب واذا استغفر الملائكة فانما يستغفرون للمؤمنين لا لأنفسهم لأنهم ليسوا فى أجسام مادية كأجسامنا حتى يستغفروا لذنوبهم بل استغفارهم لأجل أهل الأرض . ورسول الله ﷺ أمر أن يستغفر لذنبه هو أولا . ولاجرم أن الله قابل التوب كما هو مذكور أول السورة . ومتى خلصت نفس الانسان من الذنب سبح ربه وحمده . ولاجرم أن التسبيح والتحميد هما ملخص الحكمة المخبوءة فى هذه الدنيا وفى الآخرة

يا الله : عجبت لصلاتنا كيف أمرنا بالتسبيح وأمرنا بالتحميد. نكررهما صباحا ومساء . نقول « سبحان ربى العظيم » فى الركوع . ونقول « سبحان ربى الأعلى » فى السجود . ونسمعك تقول لنبينا ﷺ ـ وسبح بحمد ربك ـ الخ ونسمعك تقول ـ فسبح باسم ربك العظيم ـ ونسمعك تقول ـ سبح اسم ربك الأعلى ـ ونسمعه ﷺ يقول « اجعلوا هذه فى ركوعكم واجعلوا هذه فى سجودكم » فجعلناهما كما أمر . فنحن الآن نسبح كما أمرنا ونستغفر كما يستغفر نبينا ﷺ والخلف يتبعون السلف فى هذه الثلاثة

ثم اننا نعلم أن نبينا ﷺ معصوم من الذنوب فكيف يستغفر لذنبه ! والملائكة لما كانوا فى عالم لا مادة فيه كان استغفارهم لمنافع غيرهم شفقة على الذين آمنوا . لكن الرسول ﷺ استغفر لذنبه هو نفسه فأين هذا الذنب وهو معصوم ؟ وهو كما استغفر لذنبه استغفر للمؤمنين كما تفعل الملائكة فهو ذو استغفارين استغفار لنفسه واستغفار لغيره . أما الملائكة فلا يستغفرون إلا لغيرهم لأنهم لايقعون فى معصية ولكنك تقول له ـ واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات ـ . هذا ماخطر لى فى الصلاة ﴿ الجواب ﴾ ولقد فتح الله عزّ وجل بما يشرح الصدر فى هذا المقام . فلأجعل الكلام فى ﴿ ثلاث مناهج ﴾ فى استغفار النبيّ ﷺ لذنبه . وفى تسبيحه . وفى حمده . فأقول :

اعلم أن الذنب على قسمين : ذنب هو مصدر وذنب هو فعل ، وبيانه أن هذه الطبيعة البشرية الممتزجة بالمواد الأرضية والمائية والهوائية معدّة للذنوب ولاذنوب إلا ماكان من الانحراف عن الاعتدال فى حال من أحوال النفس والذنب لايصدر إلا عن هيئة فى النفس تكون نتيجتها المخالفات والشرور . فهذه الهيئة التى فى النفس والصفة القائمة بها والميل الذى اتصفت به هو المصدر ، وأما الفعل فهو ما يكون من آحاد الذنوب ﴿ مثال ذلك ﴾ صبيّ عاش بين قوم لصوص فاكتسبت نفسه تلك الصفة وأشرب حبها . فهذه الصفة هى المصدر الذى عنه تصدر أفعال اللصوصية . فاذا لم تكن الصفة فى النفس فلن يكون الفعل . فكل سرقة بالفعل تكتب ذنبا على العبد ولكن لولا ذلك المصدر وهى الصفة القائمة بالنفس بسبب المعاينة واستحسان هذا الفعل من الأهل والأقارب ماصدر ذلك الفعل . هذا معنى المصدر ومعنى الفعل . والاستغفار من الذنب يتبادر الى الذهن انه راجع الى الفعل لا الى المصدر . ولاجرم أن محو المصدر القائم بالنفس والهيئة الشريرة فيها أقوم قيلا وأهدى سبيلا . واذا استغفر الانسان وطلب من ربه غفران ذنب من ذنوبه الشهوية والغضبية كشرب الخمر أو الظلم مثلا مع بقاء الصفة فى النفس كان فعل شيأ عظيما ولوانه طلب من الله أن يزيل ذلك الميل من قلبه لكان خيرا له واستغفار النبي ﷺ لذنبه راجع للمصدر لا للفعل إذ لافعل وذلك من باب تسمية السبب باسم المسبب وهذا فى علم المعانى مجاز مرسل علاقته المسببية كما فى قوله تعالى ـ إنى أرانى أعصر خمرا ـ أى عنبا . فكما يقال عصرت خمرا أى عنبا هكذا يقال استغفرت من ذنبي أى طلبت من الله أن يديم لى عدم الصفة التى هى مصدر للذنوب كما نقول فى الصلاة ـ اهدنا الصراط المستقيم ـ أى أدم هدايتنا . إذن قد حلت مشكلة

ـ واستغفر لذنبك ـ وحلت مشكلة ـ إنا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفرلك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ـ ومعنى هذا ليديم لك ذلك الغفران . وقوله ـ ماتقدم من ذنبك وما تأخر ـ معناه أن لا يكون هناك مصدر لذنب أصلا . فهذه الجملة ترجع الى عدم تلك الصفة التى يصدرعنها الذنب . ويقول الله تعالى ـ إنا فتحنا لك فتحا مبينا ـ ورتب على هذا الفتح المغفرة أى زوال ذلك المصدر أى الميل والصفة التى بسببها تكون آحاد الذنوب أى رتب على الفتح دوام تلك الطهارة التى عبر عنها فى بعض الروايات بأن صدره شق وأخرج منه حظ الشيطان . فهذا هو المصدر الذى تنشأ منه الذنوب . ولاجرم أن من صفت نفسه هذا الصفاء تكون نفسه على تمام الاستعداد للمعرفة والعلم والوقوف على الحقائق . ومن نتائج العلم العمل . ومن نتائج الأعمال فتوح البلدان لينتشر الاسلام . وكما أن للذنب مصدرا هو المقصود من الاستغفار هكذا لفتوح البلدان ونشر الاسلام فى الكرة الأرضية مصدر هو امتلاء النفس بالحكمة والعلم إذ القلب المقفل لاسلطان له على قلب الغافل فاذا عمر القلب بالعلم كان له تأثير على الجاهلين فيتعلمون ويعملون . إذن لافتح للبلدان إلابعد فتح القلوب ولا انتشار للاسلام إلا بعد أن كان الداعى لذلك الانتشار معمورا قلبه بالعلم الذى به يؤثر على سامعيه ولوكان علمه كعلم الفلاسفة أوعلم العلماء لكان مثلهم فتكون آثاره محدودة كآثارهم . إذن هناك فتوح أعلى وأن نفسه تستمد من العوالم القدسية وتشاهد الملك والملائكة وهو لايعطينا إلا مايناسبنا . ولولا انه يحس فى نفسه بالمشاهدة والقرب لذلك المقام الأقدس ما أطاعته هذه الأمم فى حياته وبعد موته ، إذن الغفران يرجع لمصدر الذنب والفتح يرجع لمصدره وهى علو نفسه ﷺ والفتوح العلمى . وكما يلزم من انعدام مصدر الذنب دوام ذلك الانعدام من النفس انعدام نفس الذنب هكذا يلزم من الفتوح بالمشاهدة والقرب بالعلوم والمعارف المستمدّ من ذلك الجناب القدسى ظهور الآثار فى المؤمنين بفتح البلدان وانتشار الاسلام ، وكما كان الاستغفار موجها الى مصدر الذنب فيدوم عدمه هكذا الفتوح راجع الى مصدر فتوح البلدان وهو فتوح العلوم ويلزم من ذلك فتوح البلدان الذى هو إحدى نتائج الفتح العلمى ، واذا روى البخارى انه صلى الله عليه وسلم قرأ ـ إنا فتحنا لك فتحا مبينا ـ لما دخل مكة وقد ظهرت عليه هيئة السرور فليس ذلك لهذه الظواهر وحدها . كلا . بل ذلك لمصدرها وهو الفتح الحقيق لنفسه ﷺ بالعلوم والمعارف وفرحه بربه ، ألاترى انه ﷺ قال : « إن أخوف ما أخاف عليكم ما يفتح عليكم من زينة الدنيا الخ » والحديث مذكور فى أوّل ﴿ سورة الأنفال ﴾ وقد ظهرت أسرار هذا الحديث بذل الأمم العربية التى فتحت تلك البلاد وظهرت آثار خوفه ﷺ على أمته فعلا فى زماننا وقبله . إذن فتوح البلدان وان كان لانتشار الاسلام فيه الخير والشرّ ، فالخير للصحابة والتابعين ومن نحا نحوهم لما عمروا أرض الله ، والشرّ لمن بعدهم وقد لحقنا نحن وأصبحنا اليوم تحت ضغط أمم أوروبا لأنا لم نقم بحق الفتح . إذن فتح البلدان فيه الخير وفيه الشرّ كما أخبر ﷺ وظهرت آثاره فينا . إذن مصدر الفتح هو الذى فرح به رسول الله ﷺ وأخذ يقرأ سورة الفتح عند الكعبة يوم الفتح وكان قلبه مفعما بالسرور لذلك ، وكيف يفرح بفتح البلدان الظاهرى وهو يظهر خوفه علينا من ذلك الفتوح ويقول ان أكثر خوفه علينا من ذلك كما فى الحديث الصحيح . إذن الفتح راجع لانكشاف الحقائق العلمية التى لايخاف من زوالها وهى السعادة التى لانهاية لها إذ لاسعادة لهذا الانسان كله إلا بالاطلاع على الحقائق ، وكل مايصيبنا فى الحياة قصد به أن يكون مهمازا نساق به الى العلم وهو تمام النعمة وهو النصر العزيز

إنّ ترتب الهداية على كمال العلم والوقوف على الحقائق أقرب من ترتبها على فتح البلاد لأن الهداية ألصق بالعلم وأيضا قد شرح الله صدره ﷺ ووضع وزره عنه ، ورفع ذكره ، وهو لايزال فى مكة قبل فتح مكة وقبل صلح الحديبية وهو مهدى الى الصراط المستقيم قبل ذلك فكيف يترتب عليه الهداية ! إن الفتوح فتوح

العلم وبالعلم جمع القوم وبالعلم فازوا

وهذا له نظير فى لفظ الغنى ، فلفظ الغنى يكتفى هذا النوع الانسانى منه بظاهره وهو كثرة المال ، والنوع الانسانى أكثره مخطئ فى ذلك لأنه ظنّ أن امتلاء خزائنه بالمال سعادة له وهو وهـم باطل إذ لاسعادة إلا بغنى النفس ، وكلما أوغل الانسان فى حوز المال توغلت نفسه فى الطمع والحرص فيزيد ذلة ومهانة . فالغنى الحقيق النفسى هو السعادة كالفتح الحقيقى والغفران الحقيقى . وكما انه لايلزم من غفران آحاد الذنوب زوال مصدرها الذى شرحناه هكذا لايلزم من فتوح البلدان المعروف بين الأمم الفتوح العلمى بدليل أن القوّاد الحربيين يفتحون المدن وهـم لايعلمون إلا فن الحرب . وكما انه يلزم من غفران مصدر الذنوب المتقدم ذكره عدم نفس الذنوب بتاتا هكذا يلزم من الفتح العلمى المذكور الفتح الاسلامى للبلاد فى الأرض

هذه مبادئ السرّ فى هذه الآية ـ واستغفر لذنبك ـ وآية ـ إنا فتحنا لك فتحا مبينا ـ الخ والفتح بالمشاهدة يترتب عليه دوام زوال مصدر الذنوب ودوام النصر وتمام النعمة

هذا مافتح الله به فى هذا المقام وتمّ الكلام عليه كتابة حوالى الساعة الثالثة بعد نصف الليل . وهذا هو المنهج الأوّل فى الاستغفار

﴿ المنهج الثانى والثالث فى التسبيح والتحميد ﴾

لقدقدّمت لك أن الذى حفزنى الى كتابة هذا الموضوع هواتنى فى الركوع كنت أقول « سبحان ربى العظيم » وهناك خطرت لى هذه الخواطر ، ولما رفعت رأسى من الركوع قلت « سمع الله لمن حمده ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء مابينهما وملء ماشئت من شئ بعد ، أهل الثناء والمجد أحق ماقال العبد ، كلنا لك عبد ، لا مانع لما أعطيت ، ولامعطى لما منعت ، ولا رادّ لما قضيت ، ولا ينفع ذا الجدّ منك الجدّ »

فما أتممت ذلك الثناء حتى جال فكرى فى هذه المعانى وأخذت أقول : « ياسبحان الله : نحن نسبح فى الركوع وفى السجود وعقب الصلوات والنبى ﷺ أمر أن يسبح ويحمد بالعشىّ والابكار ، ونحن بعد التسبيح تارانا نذكر السموات والأرض وما بينهما وما وراءها . إذن الأمر عظيم . إذن هذه الصلاة ليست ألفاظا فحسب . كلا . انها متن وشرحه هذه الدنيا كلها . نحن نسبح ونحن نحمد ونستغفر . أما الاستغفار ففتح باب لصفاء القلوب إذ العلم لايجتمع مع الظلمة فى القلب . فبقى التسبيح والتحميد ولقد كررت معناهما فى كل مناسبة فى كل مقام بحسبه . ولن يغنى ما أقوله فى مقام عما أقوله فى مقام آخر فى معناهما إذ العلم أشبه بأنواع الزرع وأنواع الطعام . ولاجرم أن اختلاف المزارع والطعوم لمقاصد وفوائد لاحصر لها . فههنا أقول : أكابر المسبحين هم الذين يقفون على حقائق هذه الدنيا . واذا درسوا نفس هـذا التفسير حصلت لهم ملكة بها يقتدرون على أن يعرفوا أن شرور هذه الدنيا ونكبات الدهر ومصائب الموت والفقر والذل وكل مصيبة تحلّ بفرد أو أمّة فانما ذلك موجه للخير العام والخير العام موجه لخير الأفراد . وأكثر العقول الانسانية لن تقدر على تصوّر ذلك ولكن هذه هى الحقيقة التى لايشك فيها المفكرون

إن السعادة الحقيقية فى الحب . ولاسعادة فى الحب إلا اذا توجه لموجود لايموت وهو جميل وحكيم وله صفات بديعة . وكل ماينسب له من الاهلاك والتدمير يحدث فى القلوب خوفا لا حبا . فأكثر أهل الأرض وقفوا عند درجة الخوف من البطش لا الخوف من انقطاع الحب . والتسبيح الحقيق به نقف على حقيقة هذه الشرور ومتى أدركنا سرّها (وأن جهلنا هو الذى أفهمنا أن ذلك كله موجه لإذلالنا وتفريق شملنا واهانتنا وتفريق جماعتنا) وعرفنا الحقيقة . هنالك تكون السعادة لأن تلك الذات المقدسة كل أعمالها رحمة موجهة لنا . وهذه الرحمة لاتكمل ولاتتم إلابهذه الشرور والايمان بهذه الأشياء حسن ولكنه لايملأ

القلب سعادة كما يعلوها الوقوف على الحقائق . وهيهات هيهات أن يقف الانسان على هذه الحقيقة أو يكون له بها يقين إلا بأن يجعل حياته وقفا على درس سائر العلوم الطبيعية والرياضية والفلكية وغيرها (وهى التى كان يظنها جهلة المتأخرين من المسلمين كفرا) اذا أمكنه ذلك ويساعد العقل على الفهم الصلوات والتسبيحات فانها لها آثار فى القلوب . وهنالك يفهم المسلمون مايقولونه فى الرفع والاعتدال كما قدمته « لامانع لما أعطيت ولامعطى لما منعت . ولا رادّ لما قضيت . ولا ينفع ذا الجدّ منك الجد » ويفهمون أيضا لماذا كان رسول الله ﷺ يعاهد المسلم على أن يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشرّه من الله . وسرّ التسبيح فهم أن هذا الشرّ الذى هو من الله انما هو خير فى الحقيقة . وهناك هناك يحل الحب الحقيق من العبد لله ومعه السعادة الحقيقية . وهذا يفهمنا معنى قوله تعالى ـ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ـ

هذا هو الفرق بين العالم والجاهل . الجاهل أمر أن يؤمن بأن الخير والشرّ من الله ووقف عند درجة الخوف من الله وعند درجة التسبيح اللفظى واعظام الله تعالى إعظاما مصحوبا بالخوف . والعارف هو الذى يعرف بعقله أن هذا الشرّ موجه للخير وأن هذا الشر مكمل لذلك الخير والخير بدونه ناقص . فهنالك يحب ربه حبا لاحدّ له ويسعد سعادة لاحدّ لها لاسيما اذا أمدّه الله بعلوم وحكم وأفاض عليه . فهذا هو التسبيح . أما التحميد فهو معرفة جميع العلوم المذكورة من حيث جمالها وكمالها وحكمها . وهذا هو السرّ فى ذكر التسبيح غالبا مع الحمد لأنهما فى الحقيقة بينهما صلة وهما يرجعان للعلوم . هذا مافتح الله به كتبته عقب ورود هذا الخاطر بعد ما انتهيت من نفس الصلاة والحمد لله رب العالمين .

﴿ الفصل الرابع فى محاجة الضعفاء والمستكبرين إذ يتحاجون فى النار
ونتيجة المحاجة أن الجميع فى النار ﴾

إن هذه المحاجة قد ذكرت بعد نصائح المؤمن من آل فرعون لهم من باب ذكر السبب بعد المسبب فان آل فرعون قوم مقلدون للرؤساء والمقلد للرؤساء بلاعقل هالك . إذن هذا من أسرار القرآن فانه بعد أن ذكر آل فرعون (وقد تبين فى تاريخهم الذى ذكرناه أن عقولهم إذ ذاك قد أخذت تنحط حتى عبدوا الحيوانات ، وقد ظهر ذلك ظهورا واضحا فى آثارهم) أخذ يذكر المحاجة بين الضعفاء والمستكبرين فى النار

والمقصود من هذا أن الله كأنه يقول : « أنا لم أذكر مؤمن آل فرعون ومحاجته مع قومه عناية بالتاريخ كلا . وانما ذكرتها أشبه بمثال للقاعدة المذكورة بعد ، والقاعدة المذكورة بعد أن وقوف العقول هو البلاء الأكبر . وليس الاتكال على الرؤساء بنافع المرؤسين فان العقول عند الجميع ، وما اتكال المرؤسين على الرؤساء إلا كالاغترار بالمسيح الدجال ، فالمسيح الدجال يوهم الناس فيتبعونه والرؤساء كذلك . إذن ماسيأتى فى الفصل الخامس متمم لما فى هذا الفصل وعلى هذا تكون الفصول الثلاثة متصلة كل فصل مكمل للآخر فضلال المصريين سببه الاغترار بالرؤساء والمرؤسون لاينفعهم الاحتجاج بالرؤساء مهما أوهموهم ، واذا كان إيهام المسيح الدجال لأتباعه واضلال عقولهم واظهار الامور العجيبة لايخلى أتباعه من العقاب على أتباعه لما لهم من العقول التى تركوها والمواهب التى أناموها . فكيف يفلت الضعفاء من العقاب اذا اتبعوا رؤساءهم الذين لايبلغون فى المكر والخديعة عشر معشار المسيح الدجال ! ـ لكل ضعف ولكن لاتعلمون ـ وهذه الحجج القرآنية دامغة واضحة وآيات ساطعات قد ظهرت فى هذا التفسير ليعلم المسلمون قاطبة فى أنحاء الكرة الأرضية أن دين الاسلام قد أحاطت به تقاليد كاذبة وضلالات خاطئة ومن قرأ كتاب « الفرق بين الفرق » وعرف مافيه من الفرق التى تبلغ نحو نيف وسبعين فرقة ودرسها درسا جيدا واطلع على بعض تلك الفرق الباقية الآن أدرك يقينا أن كثيرا من تلك الآراء قد ألصقت بالدين لغرض واحد وهو الجاه والثروة والملك

والرئاسة وحوز المال والتعالى والعزّة والبطش

إن هذا الكتاب ألفته للمسلمين عامّة ، ولست أريد أن أوضح أكثر من هذا ، وليس عندى لهذا الداء لجيع الأمم الاسلامية إلا دواء واحد وهو دراسة جيع العلوم وتعميم التعليم

﴿ الآراء الحديثة وآيات القرآن ﴾

انظر الى ما تقدّم فى قوله تعالى — قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون — واقرأ مانقلته عن العلامة (كانت الألمانى) فانظر كيف يقول : « إن البصيرة متوقفة على التعليم والتعليم متوقف على البصيرة وهذا دور والدور محال ، ثم أجاب عن هذا الاشكال بما ملخصه أن كل جيـل من أجيال الأمة يجد فيما ورثه عن أسلافه ويزيد عليه ويسلمه لمن بعده جيلا لجيلا حتى يصل الانسان الى السعادة »

ومما قاله أيضا : « إن المعلم اذا اتبع طريقة من قبله بلا تعقل فانه ينقص عنه وهكذا جيل ينقص عما قبله حتى تنزل الأمم الى أسفل سافلين »

وملخص آراء الرجل أن العلم لايؤخذ إلا مع أدلته على شريطة أن يعرف الانسان أصول الأشياء فيزيد شيأ ويرتقى الخلف عن السلف من حسن التصرّف . أما اذا لم يكن هناك إلا التقليـد المحض رجعت الأمة القهقرى ، وهل فى هذه الآيات إلا هذا ؟

هذا ملخص هذه الآيات ، ومن اطلع على الشبان المسلمين فى المعاهد الدينية يجد انهم يلقنون فى صغرهم أن عقولنا أضعف وهممنا أقلّ وكل جيل يأخذ عمن قبله ويكون أقلّ منه حتى ان أتباع الامام الشافعى فى زماننا ينظرون الى الرملى وابن حجر بعـين العظمة ولايقدرون أن يفكروا فى البويطى من أصحاب الشافعى فكيف اذن بالشافعى رضى الله عنه وأبى حنيفة . أما القرآن وأما الحديث وأما أحوال النبى ﷺ فهذه كلها ينظر اليها نظرا تاريخيا لاغير أو تبركيا غالبا وهذا هو الرجوع القهقرى

فليقرأ المسلمون جيع العلوم الطبيعية والرياضية وغيرها لتتسع عقولهم ويدرسوا تاريخ كل علم ليعرفوا أصولها ، ثم ليكن فى كل قطر جماعة من هذه الطبقة الممتازة ، ولتكن نتائج آرائهم موازنة فى مجلس عام مع آراء المصطفين من الجماعات المختلفة ، وليكن لهم مجلس عام فى مكة أوفى غـيرها ، ثم ليقرّر مايجب من الاصول المرعية للمسلمين ، ولايصح أن يتولى زعامة المسلمين أناس لم يدرسوا تلك العلوم ، فوالله انهم ليسوا أهلا لادارة شؤنها سواء أكانوا ملوكا أم أمراء أم علماء . هـذا هو المناسب لهذا الزمان . ولقد كتبت نظير هذا فى مواضع كثيرة من هذا التفسير

هذا هو الذى فهمته أيها الذكىّ من هذه الآيات . فقال : لقد أجدت صنعا وأحسنت وأفدت فلله الحمد والمنة ، ولكن لايزال بعض الاشكال قائما بل لا يزال بحاله . فقلت ولماذا ؟ قال : إن الرحمة تقضى أن لا يكون شئ من هذا وتكون الحياة سعادة . فقلت : هذا السؤال مكرّر فى هذا المقام وفى غيره وكم أجبت عنه فقال نعم ولكنى أريد زيادة الايضاح . فقلت : ماذا أوضح بعد ما ذكرت لك فى أوّل هذا المقام من مثال الماء والأرض والحرارة فيهما وانها فى أحـدهما أبطأ من الآخر ، وابطاء تصاعدها على مقدار إبطاء قبولها فهكذا الأمم اذا تدهورت بسبب الرؤساء أو شيوخ الدين أو شيوخ الصوفية أو الجهلاء الذين هم غير كاملين أو المستعمرين الذين يدخلون البلاد فيجعلوا الشعب أشبه بالحيوان يسخرونه

كل هذا لم يخرج عن كونه تأخيرا للرقىّ ، وهل هذا التأخير إلا نفس إبطاء قبول الرقىّ ، وهذا الابطاء يجعـل الرقىّ أدوم . إذن الجاهلون والمستعمرون والشيوخ الجاهلون كل هؤلاء جعلوا فى الأرض امتحانا لعقول الأمم يؤخرون رقيهم ، فاذا استيقظوا بأمثال مانكتبه فى هذا التفسير و بالآلام والاذلال فانهم يجدّون فى تثبيت مدنيتهم تثبيتا أتم . أما اذا شربوا العلم شربا بدون آلام ولاتأخير فقلما يدوم فى أجيالهم ، ولعلّ

قدماء المصريين لم يدم ملكهم خمسة آلاف سنة إلا بعد أن قاسوا حروبا واذلالا آمادا طويلة

فمثل الأمم التي يصيبها الذل بالاستعمار وبالشيوخ الجاهلين كمثل الماء فيما تقدم وما أحسن ضرب المثل بالماء فقدجعل مثلا للعلم فى آيات القرآن وعلماء الطبيعة جعلوه مبدأ لارتفاع سطح الأرض لأن سطحه منتظم وجعلوه مقياسا يقاس به الوزن النوعى للجوامد وللغازات بحيث يكون الجم الذى مثل حجم الماء من الزئبق يساوى وزن الماء ١٣ مرة و٦ من عشرة ، ومن الذهب ١٩ مرة وثلاثة أعشار المرة ومن الأثير الكبريتى سبعة أعشاره لاغير إذن هذا أخف من الماء والهواء أخف من الماء ٧٧٣ وستة أعشار أى ان الهواء المساوى لحجم الماء يكون أخف منه بهذا المقدار

أقول : فاذا كان الماء قد جعل مقياسا فى علم الطبيعة لوزن كل شئ وزنا نوعيا اذا كان على درجة ٤ فوق الصفر من سنتجراد وكانت هذه المعادن وغيرها على درجة الصفر منه ، فهو إذن معيار عظيم هكذا هنا هو خير معيار نجيب به عن ظواهر المظالم والجهالات فنقول انها لم تفعل شيأ أكثر من تأخير الرقى للأمم وهذا التأخير لأجل الشوق لذلك الرقى والشوق مثبت له . وهذا هو قوله تعالى ـ فعسى أن تكرهوا شيأ وهو خير لكم ـ

هـذه هى الحكمة الإلهية فى تحمل الضغط والاذلال . وعلى المفكرين فى الأمم أن يحملوها على دفع هذه المظالم ورفع هذه الأثقال عنهم والله من ورائهم محيط . قال : لقد انشرح صدرى بهذا المقال . فلنبدأ بالكلام على الفصل الخامس

﴿ الفصل الخامس فى المسيح الدجال ﴾

فقلت : لقد ذكرت المسيح الدجال غير مرة فى هذا التفسير . وكلما أحاول أن أقوله قدمى نظيره . فقال : ولكنى الآن أريد أن تشرحه شرحا تاما لتشرح صدرى وصدور القراء ، فأنا أريد أن أعرف كيف يقول ﷺ فى حديث أبى داود والترمذى أن الأنبياء أنذروا قومهم به ، وأن نوحا أنذر قومه به ، وكيف نستعيذ بالله منه فى كل صلاة ، وكيف يستعيذ رسول الله ﷺ منه فى صلاته ولم يظهر فى زمانه ، إذن الأنبياء يستعيذون بالله ونحن والصحابة والرسول ﷺ من شئ لم يحصل وهذا محال ! فقلت : إن الحيرة فى هذا إنما تأتى لمن يجهلون علوم اللغة العربية ، فالعامة يجهلون البلاغة فى كلام العرب ولكن الأدباء وهـم قوم أعطوا حظا من علم اللغة هم الذين يفهمون أمثال هذا المقام . إن القرآن فى أعلى طبقات البلاغة والبلاغة علم فاذا جعلنا تفسير القرآن على يد طائفة تجهل هذه العلوم حصلت لهم الحيرة . أما نحن فلا حيرة عندنا . إن فى علم البيان (وهو أحد علوم البلاغة الثلاثة) التشبيه والمجاز والكناية . والكناية باجماع العلماء أبلغ من الحقيقة وأى كلام أحق بالبلاغة من القرآن . قال : هذا حسن . فقلت : وما الكناية إلا لفظ له معنى ولكن ليس المقصود هذا المعنى بل المقصود الحقيقى معنى آخر مع ان المعنى الأول لايزال بحاله ويراد أيضا من اللفظ . فاذا قال رجل للآخر « إن كلبك جبان » وكان القائل بليغا فان السامع اذا كان بليغا أيضا يفهم منه أن هـذه الجملة معناها انه كريم لأن جبن الكلب انما جاء من كثرة الأضياف فانهم لكثرتهم لم يتحمل الكلب كثرة النباح عليهم . فهذا الممدوح من جهة كريم وهو المقصود . ومن جهة أخرى يصح أن يكون له كلب وذلك الكلب جبان فعلا . فهذه هى الكناية . فالمقصود فيها المعنى الذى كنى باللفظ عنه . فهنا نقول : هذا المسيح الدجال الذى يظهر العجائب وناره جنة وجنته نار ويقتله المسيح ابن مريم له معنيان كمسألة جبان الكلب . والمعنى المشار اليه هو المقصود والمعنى الأصلى جائز لامانع منه

هذا هو الذى يقتضيه علم البلاغة . واذا لم نستعمل هذا العلم فيما خلق له وهو فهم الدين أفنقتصر فى استعماله على أشعار العرب ونحوها . فقال : ولكن لابد للقرينة من كناية فما هى القرينة هنا ؟ قلت : هنا قرائن

لا قرينة واحدة بل قرائن يجب علينا أن ندرسها . فقال : وماهي ؟ قلت : كيف نستعيذ من فتنة المسيح ولا فتنة له الآن ! وهل يستعيذ رسول الله ﷺ من شيء لاوجود له ؟ وهل ينذر الأنبياء أقوامهم بما لاوجود له ؟ فقال : إذن المستعاذ منه كل من كان ظاهره الصلاح وباطنه الخداع والظلم والجور . فقلت : نعم وذلك يشمل الدجال الحقيقي متى ظهر ويشمل كل دجال من المستعمرين البلاد ومن الشيوخ الجاهلين فى الاسلام وغير الاسلام فكل هؤلاء دجالون لأن أحدهم يظهر العلم وليس بعالم ويظهر الزهد وليس بزاهد . والأمم المستعمرة تجعل أنفسها داخلة لاصلاح البلاد اذا هي تمنع العلم عنهم

كل هؤلاء استعاذ النبي ﷺ منهم ونستعيذ نحن . فهم فى ظواهرهم أشبه بالمسيح ابن مريم يريدون السلام العام وفى الحقيقة لايريدون إلا تسخير غيرهم لهم . ولقد ابتليت أمتنا بقوم من هؤلاء . فكثير من القائمين بالملك فى الأزمان القديمة كانوا لايريدون إلا العلو على الناس لا انهم يريدون الخير للأمة . نعم الصحابة رضوان الله عليهم كان لهم اجتهاد ولكن الأمم المتأخرة كثر فيهم طلاب الملك والرئاسة . وأنت ترى آثار ذلك الدجل فى الجهلة من الشيوخ الذين يحملون الأعلام ويدقون الطبول . كل ذلك آثار من آثار أسلافهم الذين كانوا يفعلون ذلك لأجل الملك . ولقد أحسن صنعا مصطفى كمال باشا فى تركيا إذ أخرجهم فقاموا بأعمال تنفع الأمة ولم يبقوا عالة عليها كما هو حاصل فى بلاد الهند . وقد تقدم مقال مطول شارح للأولياء المنود فى ﴿ سورة الأحزاب ﴾ عند آية ـ يا أيها النبيّ إنا أرسلناك شاهدا ـ الخ ذكرته هناك ليعلم المسلمون أن هذه الطوائف التى جعلت الدين مصيدة سبقنا بها البراهمة فاقرأه هناك ، ومستحيل أن ترتقى الشعوب الاسلامية إلا بالاطلاع الواسع حتى يزيحوا هذه الأوهام ، ولم تر أمة من أمم الفرنجة دخلت بلادا اسلامية كبلاد السودان أو بلاد شمال افريقيا إلا اتخذت هذه الطوائف أعوانا لها . لماذا هذا ؟ لأنهم اخوان شركاء فى الصيد . فالمستعمرون من أوروبا كالآساد وكالنمور وهؤلاء الشيوخ كالذباب وكالحدآت فانها تأكل فضلات أولئك المستعمرين . ولقد أخبرت منذ أيام أن رئيس طائفة كبيرة من الصوفية ببلاد المغرب قد تزوج امرأة فرنسية . إن فرانسا تعرف كيف تؤكل الكتف . إن أوروبا (كما يقول غاندى مصلح الهند) أشد خطرا من الشيطان وما أكذب الشيطان اذا نشر شره وهو يذكر الله (وبعبارة أخرى نقول) إن الأحاديث الواردة فى الدجال يراد منها ما هو حاصل الآن فعلا فى بلاد الاسلام ، حتى يقول المسلم « اللهم إنى أعوذ بك من عذاب القبر ، ومن عذاب النار ، ومن فتنة المحيا والممات ، ومن فتنة المسيح الدجال » فهذه الفتن كلها حاصلة والمظهرون الصدق والاخلاص فى العالم وهم كاذبون كثير أفرادا وأمما . فهؤلاء الشيوخ يقولون للناس « واظبوا على الأوراد صباحا ومساء فقط » ولكن لايحببونهم فى العلم لأن أكثرهم جهلاء والمتعلمون منهم كالمتعلمين من أهل أوروبا يقولون « اذا تعلموا تعالوا علينا » وهذا المقام تقدم شرحه فى مواضع كثيرة من هذا التفسير مثل ما جاء فى سورة الكهف عند آية ـ وما كنت متخذ المضلين عضدا ـ وفى سورة ابراهيم فى آخرها ، وفى سورة سبأ عند آية محاجة الضعفاء والذين استكبروا مثل ماهنا وهكذا . فقال : لقد انشرح صدرى لهذا الجواب ، ولكن بقى أمر واحد وهو : « كيف يقول ابن عباس ان اليهود يتخيلون ملكا يكون لهم على يديه » فهل هذا له أثر . فقلت : إن أمر اليهود لايخرج عما قررناه . إنهم الآن مشتتون فى كل أمة من الأمم وهم أذكياء جدا ولهم تاريخ مشهور ، فهم يحافظون على مجدهم ولاأمة فى الأرض تضارعهم فى هذا لأن التوراة قد ملئت بأخبار أسلافهم ، وهم قد أخذوا على أنفسهم أن يكونوا فتنة الأمم كلها كما نقلته فى هذا التفسير منقولا عن التلمود ، فلاتجد فيهم عالما ولاحكيما ولاسياسيا إلا وهمه موجه الى خير أمته وان هلكت جميع الأمم . وأقرب شاهد على ذلك أن الذى أثار الحرب الكبرى فى ألمانيا وأوروبا هم فلاسفة اليهود فان نتشيه يهودى وهو الذى نشر فيها « ان الرحمة فى هذه الأرض خطأ فلايبقى إلا الأقوياء » وانتشرت آراء كثيرة فى هذا المعنى

فقامت

فقامت الحرب بين الأمم كلها . ثم هم أنفسهم لما رأوا أن ألمانيا أخذت تنتصر نشروا فى طول البلاد وعرضها انها أمة متوحشة فثارت الأمة على الحكومة فسلمت ألمانيا لمن هم أضعف منها . وقد مضى على هذا نحو (١٣) سنة لأننا الآن فى سنة ١٩٣٠ وإيقاف الحرب كان فى سنة ١٩١٨ ونسمع أثناء طبع هذه السورة أن ألمانيا قامت تنفض الغبار عن وجهها و يقول رجالها فى الحزب الاشتراكى القوى فيها الذى قام الآن فعلا « لايبقى يهودى فى البلاد » لأنه يستحيل أن يكون يهوديا وألمانيا فى آن واحد . هذا هو الذى يقال فعلا عند طبع هذه السورة . وهاهى ذه ألمانيا يقوم شبانها فى هذا الاسبوع فيحطمون زجاج منازل اليهود . إن اليهود يريدون أن يجعلوا لهم السلطان على العالم كله ولو بطريق غير مباشر

ولقد أزاحوا القناع عن أمرهم أيضا فى مسألة فلسطين . فبعد الحرب التى ارتجت لها الكرة الأرضية وحصل الصلح أخذ اليهود يطلبون أن يكون لهم دولة فى فلسطين . وهذا من مكرهم وخداعهم . وأيضا ان القائم بأمر البلشفية فى الروسيا هم اليهود ولاندرى مابتم فى ذلك . فالعالم كله اليوم مخادع وأكثر الناس خداعا اليهود . ونحن نستغيث بالله من هذا الخداع

وعلينا أن نسعى فى رقىّ المسلمين بعلوم الأمم ثم نكمل مانقص من أخلاق غيرنا بعد كمال أنفسنا نحن . واذ ذاك نعلم أجيالا وأجيالا يكونون صادقين لخدمة الأمم فيذهب خداع الأمم بعضها بعضا وأكاذيب السياسيين والدجالين وشيوخ الطرق وأكاذيب التجار بل خداع الشهوات واللذات فهى ملحقات بخداع الدجالين لأن الانسان مخلوق مسكين تخدعه شهوته و يخدعه غضبه و يخدعه نقص علمه وتخدعه الأمم و يخدعه الشيوخ الجاهلون . ولست أقول إن شهواتنا من قبيل الدجالين . كلا . بل أقول انها ملحقات بذلك مقيسة عليه . فلنجد نحن المسلمين فى العلوم لنساوى الأمم ثم نسير على صراط مستقيم للتمهيد الى السلام العام بين الأمم الذى عبر عنه بزمان عيسى ابن مريم ولن يكون زمان المسيح إلا بعد أن يقتل الدجال . إذن لنقتل الدجل من بلاد الاسلام أولا ، ولن يكون ذلك إلا بالعلم و بعد ذلك نقتله من الأمم ثم يكون السلام العام وهذا هو المقصود ، فليس فى هذا أيها الذكىّ انكار للمسيح على حسب لفظ الأحاديث ولا للدجال على حسب لفظها ، وانما الذى يجب علينا نحن أن نعمل من الآن لهدم أركان الدجالين وترقية النفوس ليصلح العالم و يعم السلام . هذا ما أدين به وحسبنا الله ونعم الوكيل

فلما سمع صاحبى ذلك . قال : لقد نطقت بعلم وأفدت بفهم وشرحت صدرى ولكن ماتقوله من السلام العام وانه يحصل باماتة الدجالين وتعميم التعليم بعيد الحصول ، فاضرب مثلا مشاهدا أقيسه عليه . فقلت : أذكرك بما تقدم فى أول ﴿ سورة يوسف ﴾ . ألم أكتب مقالة أحمل فيها على الحكومة المصرية لاهمالها حفظ الطيور النافعة . قال بلى . قلت : ألم تأمر الحكومة بحفظ هذه الطيور . قال بلى وتبلغ فوق (٣٠) عدّا منها أبو قردان والكروان والزقزاقين الشامى والبلدى الخ . قلت : فأيهما أنفع للناس : أكل أبى قردان وأكل هذه الطيور كما كان ذلك حاصلا قبل منع حكومتنا أم إبقاؤها لتأكل الحشرات والدود فينمو الزرع كما هو الحاصل الآن قال : بل إبقاؤها خير ، ونسبة منفعة أكلها الى منفعة مانناله من بقائها أقلّ من نسبة الهواء الى الماء من حيث الخفة إذ تقدم انه أخفّ منه (٧٧٣) مرّة قريبا . واذن تكون المنفعة فى أكل تلك الطيور أشبه بالعدم فقلت : وماذا تقول فى البقر والجاموس التى تساعدنا فى الحرث والسقى اذا فرض أنه ليس لدينا غيرها اذا ذبحناها وأكلناها ، أنأكلها أم نبقيها ؟ فقال : بل نبقيها كما نبقى الطيور ، ومن أكل هذه الطيور أو هذه الحيوانات المذكورة فهو أولى بأن ينسب الى الجنون من أن ينسب للعقل . فقلت أحسنت ، ثم قلت انظر : هنا ماء يسقى الزرع وهواء يتنفس فيه و يأخذ منه الكربون كما تقدم فى ﴿ سورة يس ﴾ عند آية ـ سبحان الذى خلق الأزواج كلها ـ . قال نعم . قلت : وطيورنا تأكل

الحشرات والدود ، وذوات أربع تحرث الأرض وتسق الحرث . أليس كل هؤلاء تعاونوا على المزرعة . قال بلى . قلت : وهم مختلفون صفات اختلافا بينا . قال بلى . قلت : فماذا تقول فى الانسانية العامة . أليسوا مختلفين أمما وأفرادا اختلافا كثيرا أوقليلا . قال بلى . قلت : والاختلاف لغايات كالاختلاف بين صفات الانسان وصفات الطير والهواء والنتائج تبع ذلك الاختلاف . قال نعم . قلت : أفليست الدنيا كلها مزرعة واحدة . وبنوآدم اذا قتل بعضهم بعضا يكونون فى سخافة عقولهم أشبه بهؤلاء الزارعين الذين ذبحوا أبا قردان وأكلوه وذبحوا البقر والجاموس وحرموا الزرع من تلك المنافع فأصبحوا خاسرين . قال بلى والله حسن جدا . إذن الانسانية الآن فى غاية النقص . قلت نعم وكلها بذبح العجل والاستعمار ، فهذا الشيخ الذى يقول لتلميذ « اتبعنى واترك كل علم غير ما أقوله لك » مريدا بذلك ايقاف عقله أشبه بالفلاح الذى ذبح أبا قردان لأكله ونسى انه هوالذى يأكل حشرات حقله ، وهذه الأمم المستعمرة التى تذل الشعوب ليدوم خضوعهم هم أشبه بذلك الفلاح آكل الطيور وذبح البقر والجاموس وقعد يضرب أخماسا لأسداس . قال : ما هذا ؟ إذن الانسانية الآن بهذا البرهان سخيفة غبية . فقلت : حقا لا انسانية . وهذا لايزول إلا بأن يفهم المسلمون آيات هذه السورة ويعلموا أنهم هم المقصودون بانتشال الانسانية من حمقها وجهلها لأنهم ـ خير أمة أخرجت للناس ـ . وأن اليهود لن يرجعوا عن إضلال الأمم ودس الفتن فيها وكذلك أمم أوروبا لن ترجع عن إذلال الأمم فتصنع معها مايصنع الفلاح الغبى الذى يأكل أبا قردان ويذبح البقرة والجاموسة اللتين تنفعانه فى نمو زرعه إلا بظهور الحقائق ظهورا تاما ونشر الثقافة فى الأمم والتحلى بالأخلاق الفاضلة وحين ذلك يفهم المسلمون سر قول ابن عباس فى تفسير هذه الآيات . وأن اليهود وغير اليهود لن يسلطوا على هذه الانسانية وانها لابد من ارتقائها وأن الحرب ستزول ويكسر الصليب لأن دينا اخترعه العقل الانسانى واجتلبه من دين البوذية لن يبق إلا بالمبشرين وهم يحملون الصليب

فهذه وأمثالها ستخف وطأتها وتعرف الانسانية الحقائق ويكون الناس إخوانا فى نفس الحياة ، انما مثل المستعمرين الذين يفشون الجهل فى الأمم والشيوخ الذين يتاجرون بالدين كمثل من رأى صبيا يرضع من ثدى أمه فحكم بأن لايترك هذا الثدى أمد الحياة وهو يرى ويعلم أن هذا الطفل له أدوار ثلاثة : دور الجنين ودور الرضاعة ، ودور الاستقلال فى الطعام والشراب ، فاقتصار المريد على قراءة الأوراد أشبه باقتصار الطفل على لبن أمه أمد الحياة ، واقتصار الأمم التى استعمرها الأجنبى على أن يكونوا خدما وقد قتلوا ذكاءهم أشبه بذلك الصبى الذى لايترك لبن أمه ، فهؤلاء وهؤلاء قد حرموا فوائد عظيمة فقدتها الانسانية بتأخيرهم رقى غيرهم ، وكتابنا العزيز وتفسير ابن عباس يدلان أن الانسانية ستأخذ حظها ولايتم إلا بالسلام العام وبقتل المسيح الدجال ولايعيش فى الأرض إلا الصادقون المخلصون

ألم تر الى قوله تعالى ـ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ـ أى النصر ليس قاصرا على الحياة الأخرى ، إذن فلتبشر الانسانية كلها بالنصر وانهم يصلون للسلام العام لأن دين بالاسلام وأمة الاسلام المستقبلة ستنصر فى هذه العقيدة العيسوية المحمدية وتقتل العجل وتحيي السلام العام الذى يقوله المسلم فى عبادته

فلما سمع صاحبى ذلك . قال : ما أجل هذا المقال ، وما أبهج العلم ، وما أسعد العلماء ، ولكنى أريد منك زيادة إيضاح فى موضوع الدجالين . فقلت : أيها الذكى اقرأ ماتقدم فى آخر سورة المائدة عند قوله تعالى ـ وإذ قال الله ياعيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ـ ثم انظر كيف كان هذا الدين صورة منقولة من (دين خريستا) ومن (دين بوذا) بالهند أحدهما قبل الميلاد بمئات السنين والآخر قبله بآلاف السنين ، وتأمل فيما كتبته هناك تجد أصول الدين منقولة بالحرف الواحد وهى هناك واضحة أيما إيضاح ، وعلى هنا ترى هذا الدين له مبشرون قائمون بأمره ، محافظون على تعاليمه ، ومن عجب انهم

يتصرّفون فيها تصرّفا مزريا ، ومن أفظعه أن الخرافات التى عمت الكرة الأرضية الآن هم المبشرون بها وهم الفاتكون بالأمم وهذا مخالف لنص هذا الدين على خط مستقيم . ولقد جعل مبشروهم الدين آلة لتمزيق الأمم وزلزلة العقائد حتى ان فتح مصر لبلادنا المصرية لم يتم إلا بما اتخذوا لذلك من مبشرين زعزعوا العقائد فدخلت جنودهم البلاد بعد أن دخلت شرورهم وسمومهم القلوب

وهاهى ذه فرنسا ترحب بالدين خارج بلادها لاضرار عقائد الأمم ولكنها تضطهده فى داخل بلادها علما منها أن تعاليمه ضارّة بنظام بلادها . وبالجملة فالديانة المسيحية الآن أحبولة لاصطياد النفوس وقنابل لتفريق الجموع . أليس هذا هو أثر من آثار المسيح الدجال . وأى دجل أعظم من هذا . ونظرة فى المقالة الآتية التى سطرها أحد الفضلاء فى « مجلة جمعية الشبان المسلمين » تكفى لتبيان ماقلنا وذلك فى عدد نوفمبر سنة ١٩٣٠ وهذا نصه :

« من كان بيته من زجاج فلا يرجم الناس بالحجارة »

يحكى أن سائحا انجليزيا رأى صينيا يضع صحنا من الأرز المطبوخ فوق قبر فقال له متهكما : « متى تظن أن فقيدك يقوم فيأكل هذا الأرز ؟ » فأجابه الصينى بقوله « يكون ذلك متى جاء فقيدكم يستنشق روائح الأزهار التى تضعونها على قبره » هذا الرد الظريف المسكت ذكرنى بكلمة لصينى آخر عن أعمال المبشرين فى الصين فيها نفس المغزى وهو : « ان من كان بيته من زجاج فلا يرجم الناس بالحجارة » كنت قد قرأتها من زمن بعيد ثم رأيت أن أنقلها اليوم لقراء مجلة الشبان المسلمين كرد (خالص) على ذلك الاختلاق وتلك التقارير الوهمية التى يذيعها المبشرون عن انتشار المسيحية فى أنحاء العالم وتراجع الاسلام تحت ضغط انتشارها باعتبار أن الكلمة صادرة عن رجل يتكلم بلسان ربع سكان المعمورة وهذه هى : لأى غرض جاء الى بلادنا هؤلاء المبشرون ؟ هم يقولون انهم جاءونا بدين يرون فيه لنا أسباب السعادة فى الدنيا والآخرة . ويسمون هذا الدين بالدين المسيحى ولأننا لم نكن فى حاجة لمثل هذا الدين بالمرة لأنه فى نظرنا دون شريعة كونفوشيوس وبوذا لم يستطع المبشرون مدة أربعة عشر قرنا أن يؤثروا به فينا اذ لايوجد حتى الآن بين أمتنا التى يربو عددها على أربعمائة مليون نفس أكثر من أربعين ألف مسيحى صينى ولست بحاجة لأن أعرفكم بهؤلاء الصينيين المسيحيين فهم الفقراء الذين لايقدرون على كسب قوتهم . ولذلك صاروا مسيحيين لأن المسيحية لديهم هى العيش ولم يستطع المبشرون رغما عن الجهد الجهيد استمالة رجل ذى شأن ككاتب مطلع أو موظف أو تاجر أو أى ذى حرفة ولم يجتمع حولهم غير التعساء والمتشردين . وكيف يكون الأمر غير ذلك مادام بوذا قد علمنا كل مايحاول هؤلاء المبشرون تعليمه لنا مرة أخرى ومادامت فلسفة كونفوشيوس أكمل وأجل قانون عرفناه الفضيلة والأخلاق حتى اليوم . على أن أساس الديانة المسيحية وحده يكفى لابعاد كل ذى تفكير حر عن المسيحية وانى أترك لكم الحكم على صحة قولى هذا . يقول المسيحيون ان الله أراد فى يوم من الأيام انقاذ العالم وبما أنه القادر على كل شئ – وانما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون – كان يجوز أن يظهر رغبته فى انقاذ العالم بكيفية بسيطة ولكن الأمر لم يجر بهذه البساطة فهم يقولون ان الله الذى كان واحدا فردا رأى أن يصير ثلاثة مع بقائه فردا فليفهم ذلك منكم من يستطيع . وكانت نتيجة ذلك أن الله رزق بكرا من بنات آسيا غلاما وهذا الغلام صار رجلا والها فى آن واحد فما هذه التعقيدات والاشكالات . إنى أسألكم هل يوجد صينى سليم العقل يقبل هذه القصة ؟ أليس هذا وحده يفسر لنا لماذا لم يجد المسيحيون سبيلا لنشر دعوتهم فى هذه البلاد التى تترك الحكومة فيها للشعب حرية تامة فى التفكير فى مسائل الدين كما أثبت ذلك القسيس هوك . الى جانب هذا نعلم أن المسيح (نبى البيض) دعا قومه الى التسامح والرحمة والغفران (كما فعل

كونفوشيوس من قبل) وأوصاهم بأن يعيشوا مع الناس فى سلام وأن لا يعملوا مع الغير ما يريدون أن يعمل الغير معهم . فهل المبشرون يتبعون الشريعة التى ير يدون ادخالها بيننا . كلا فالدين ماهو الا وسيلة فى أيدى هؤلاء القسوس الذين جاءوا لانقاذ أرواحنا (كما يقولون) بغير أن نطلب ذلك منهم لأنهم كانوا الطلائع لغيرهم من مواطنيهم وهم التجار الذين ظننا أنهم هم الآخرون أتوا لتبادل المنفعة معنا فقابلناهم بكرم ولطف ورحابة صدر فبماذا قابلوا حسن صنيعنا . قابلوه باحتلال الجهات التى يسكنونها من الأراضى الصينية وادّعوا أنها ملك لهم ومحكومة بقوانينهم ومحال انهم كانوا يقبلون ذلك فى بلادهم لوادعى صينيون مناهناك مثل دعواهم فتركناهم مع ذلك وشأنهم ولكنهم مالبثوا أن أصبحوا لا يطاق لهم وجود لأنهم أرادوا أن يكونواهم السادة أصحاب الأمر والنهى وأن نكون نحن أرباب البلاد وأسيادها خدما لهم يحكموننا بالقوة والأرهاب الخ » وهى كلمة طويلة نكتفى منها بما تقدم . والذى يلفت النظر فيها بنوع خاص هو أن المسيحية التى يدعى المبشرون أنها تنتشر فى أنحاء المعمورة وان الاسلام يتراجع تحت ضغطها لم تستطع (بعد جهد جهيد استمر نحو ١٤٠٠ سنة) ان تجذب اليها رجلا واحدا ذا شأن فى بلاد الصين وان كانت فازت بعد ذلك الجهد بأربعين ألف مسيحى صينى لاأظن ان العالم المسيحى الأبيض يغتبط بأخوتهم لأنهم . كما يقول ذلك الكاتب . أناس ضحكوا على ذقون المبشرين ليأكلوا (عيشهم) والمبشرون من جانبهم يضحكون بهم على ذقون من يمدونهم بالمال ليعيشواهم الآخرون . فالاسلام لاخوف عليه من تهديد المبشرين ومزاعمهم

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعا ✻ أبشر بطول سلامة يامربع

مادام هذا الدين السمح الذى كفل الحرية الصحيحة للناس فى حدود الفضيلة وحرر النفس البشرية وساوى بين الناس فلم يفضل أبيض على أسود أوأحمر أوأصفر الابالتقوى والعمل الصالح . لاخوف عليه وهو دين الحرية والديموقراطية من طغيان الدين المسيحى عليه . ذلك الدين الذى يحتفل أبناؤه البيض (فى بلاد المدنية والعدل والحرية أمريكا . معقل رجال الدين ومصدر المبشرين) بتعذيب اخوانهم ومواطنيهم المسيحيين السود ونحن نتحدى كائنا من كان من المبشرين فى مشارق الأرض ومغاربها أن يكذب هذا الخبر الذى نورده هنا وهو هذا

احتفل أميركيو ولاية نيويورك فى مدينة نايلور بتعذيب زنجى اسمه « دان دافيز » فلما شدّ وثاقه الى شجرة . بعد التعذيب الوحشى الشديد . لاحراقه حيا توسل « دافيز » المسكين الى ذلك الجمع المحتشد من الرجال والنساء بعبارة مؤثرة تستدرّ الدمع أن يتقدم واحد منهم ليقطع عنقه قبل أن يسام ذلك العذاب الأليم فقال انى أرجو أيها السادة أن يكون بينكم رجل عامر القلب بالمسيحية فيتقدم ليقطع عنقى و يريحنى من هذا . فكان جواب الانسانية المسيحية البيضاء على هذا التوسل رنين ضحكات السخرية والاستهزاء من الجنس اللطيف والجنس الخشن سواء

نعم . لاخوف على الاسلام من طغيان المسيحية التى دعاتها المبشرون . انما الذى يهم جماعة الشبان المسلمين أن يقفوا عليه هو أن الدين أصبح وسيلة فى أيدى المبشرين يسترون تحت ثوبه مفسدة عمرانية اعتقادية تنتقل مع الأجيال وحسب القراء أن يطلعوا على تصريح رئيس وزراء فرانسا فى سنة ١٩٠٠ المسيو والدك روسو عن هذه الطائفة فى خطبة علنية أمام مجلس النوّاب حينذاك حيث قال : ان اختلاف التربية والتعليم باختلاف المدارس بين أهلية ودينية أحدث فى النشء الفرنسى فريقين مفترقين قلبا وقالبا ومبدأ وغاية ففريق يحب فرنسا و يخلص للجمهورية و يعاهد نفسه على الصدق فى خدمتها وتأييد ذلك النظام الذى اختاره الشعب وفريق تربى فى حجر جماعة اتخذوا لباس الدين رداء رياء ورواء خداع يربون الأبناء على كراهة الجمهورية و يبثون فى نفوسهم مبادىء تناقض مبادئنا الخ

واستكى

وا كتفى بهذا البيان على أن يترك التعليم حرا ولكنه أقفل أبواب الوظائف الحكومية فى وجوه خريجى مدارس تلكم الجماعات ثم ظهر بعده من لم يكتف بذلك بل قضى باقفال مدارس الرهبنات صيانة للأمة مما يهدد حكمها الثورى ونظامها الدستورى الذى أراقت فى سبيله الدماء الغزيرة حتى ظهر من انتصر للرهبنات . ولايهمنا نحن وجهة نظر كل فريق منهم انما نورد هنا خلاصته . فمنهم كاتب من كتاب الفريق الثانى وهو المسيو « دريمون » فى جريدة « الليبر بارول » فى سنة ١٩٠٢ حيث قال : فى ألمانيا التى لايحكمها أصحاب البدع والحق . يتصرف ولاة أمورها مع الرهبنات بغير ماتصرفنا به ويعملون معاتقيض ماعملنا . فان جيراننا الالمانيين لماعلموا علم اليقين أن المبعوثين أقوى العوامل السياسية والتجارية تأثيرا وأحدها أثرا أمدوهم بعنايتهم وأظلوهم بحمايتهم . الى أن قال : فلم يعهد للانجليز سبيل فتح مصر الا المبعوثون الانجليكان . فاذا كان باقيا هناك من لم يزل يتكلم باللغة الفرنسية فانما الفضل فى ذلك يرجع الى مبعوثينا الفرير أساتذة المدارس المسيحية الذين حافظوا على اجتذاب بعض القلوب الى فرنسا . نعم ليست العبرة بكلام هذا ولا بكلام ذاك من حيث وجهة نظر كل منهما انما العبرة بمدلول كلامهما حيث كشف لنا كل منهما سوءة من سوآت المبشرين ونبهنا الى جانب من جوانب الخطر الذى يتهدد الجنس الشرقى والاسلامى الملقى زمامه الى هذه الطائفة على ظن أنها تقوده الى مراقى العلم والفلاح . فليتق المسلمون الله فى أبنائهم وخلفائهم من بعدهم ليتدبروا فى كلام الرجلين حيث يظهر بوضوح جناية المبعوثين الدينيين ومدارسهم على النشء وليس لهم علينا حجة بعد ايراد شهادة شهود من أهل المبشرين عليهم والظاهر أن الفئة الأخيرة المدافعة عن الرهبنات قد انتصرت فهاهى فرنسا اليوم تشهر فى وجه الاسلام سيوف الاعتداء على العقائد بتعطيلها الشعائر الاسلامية فى بلاد المغرب واقفالها محلات عبادة المسلمين فى نفس الوقت الذى تنشر المدارس التى تلبسها ثوب التعليم ونشر الثقافة وتستر تحت هذا الثوب نفس الفكرة التى أجرى الله بها لسان المسيو دريمون فظهرت الحقيقة

أما الدين الاسلامى نفسه ففرنسا (وغيرها) تعلم علم اليقين أنه طود شامخ ثابت بعبادته الانسانية . سام بتعاليمه الروحية . فان جيوش المبشرين الذين تملأ بهم الدنيا لن تقوى على زحزحته عن موضعه قيد شعرة ولكن حب الاستعمار هو الذى يدفعها الى ركوب هذا المركب الخشن لأنها ترى فى تعاليم الدين الاسلامى عقبة فى سبيل الاستعمار ولكن لتفهم فرنسا أن نيتها مفضوحة وأن المسلمين اليوم غيرهم بالأمس . انتهى

فلما سمع صاحبى ذلك . قال : لقد شرحت صدرى . فقلت الحمد لله رب العالمين . والى هنا تم الكلام على سورة غافر وذلك صباح يوم الخميس ١٦ اكتوبر سنة ١٩٣٠



تفسير سورة فصلت

(هى مكية)

(آياتها ٥٤ — نزلت بعد غافر)

﴿ هذه السورة خمسة أقسام ﴾

﴿ القسم الأول ﴾ فى تفسير البسملة

﴿ القسم الثانى ﴾ فى التوحيد وذكر بدء الخلق من أول السورة الى قوله — ذلك تقدير العزيز العليم —

﴿ القسم الثالث ﴾ فى ذكر إهلاك بعض الأمم التى كفرت كعاد وثمود الذين هم أقرب الى المرسل اليهم ديارا ولغة وعوائد وتاريخا من قوله تعالى — فان أعرضوا فقد أنذرتكم — الى قوله — فأخذتهم صاعقة العذاب الهون * بما كانوا يكسبون * ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون —

﴿ القسم الرابع ﴾ فى ذكر الحشر وشهادة الجلود والحواس واختصام الناس مع أعضائهم والقرناء واضلالهم وانهم يتتابعون فى العذاب كما تتابعوا فى الاقتداء وتناسى عقولهم ثم اذا ظهرت الحقيقة تنابذوا وتناكروا وتعادوا واتباع ذلك بالتواد والتحاب بين العوالم الطاهرة من الملائكة وعوالم الانس ، وكيف يبشر الأوّلون الآخرين قائلين لهم وقت الحياة وعند الموت « لاتخافوا مما تردون عليه ، ولاتحزنوا على ماخلفتم من الأبناء والأهل والأمم ، فستردون الجنات . وتنالون أعلى المقامات ، فى ضيافة الله واكرامه » ثم وصية المؤمن أن يكون هينا لينا ، رحيما ودودا عفوّا ، يتألف أصحابه ولايتبرّم بهم ليصبحوا أحبابه ، وذلك لا يكون إلا بالصبر والاحتمال وحسن الخلق والتوادّ والتآلف ، وأن يستعيذ بالله من قرناء السوء من شياطين الانس وشياطين الجنّ اذا وسوسوا له ونزغوا بينه و بين أصحابه وفتحوا له باب الشرّ والنزاع والشجار ، وذلك من قوله تعالى — ويوم يحشر أعداء الله الى النار — الى قوله — فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم —

﴿ القسم الخامس ﴾ من قوله تعالى — ومن آياته الليل والنهار — الى آخر السورة ، فذكر الشمس والقمر وبهجتهما ومنافعهما ، وأن ذلك لاينبغى أن يوقف الهمم عندهما عبادة وسجودا لأن الانسان لم يخلق فى هذه الدنيا إلا للرقىّ ولارقىّ اذا وقف عقله عند مصنوع أرضى كالأصنام أومصنوع إلهى كالشمس والقمر ، فاذا وقف العقل عند أحدهما سواء أكان صنما أم جرما مضيئا باهرا كان ذلك المعبود حاجزا بينه و بين ارتقاء عقله ، وكيف يبحث عن الأجرام السماوية البديعة التى شمسنا بالنسبة لها صغيرة جدا ، كيف يبحث عنها اذا كان يرى أن الشمس أكبر وأعظم الأشياء لأنها معبودة والمعبود يفوق كل ماسواه ، فاذن تكون الشمس أعظم موجود ، فاذا عنّ لعالم فلكى أن هناك شمسا أكبر منها صدّه الدين عن ذلك الاعتقاد ، فما بالك اذا رأى أن هناك (١٠) آلاف مليون من الشموس أصبحت شمسنا بالنسبة لها كبرتقالة بالنسبة لبطيخة بل قلعة فضلا عن شموس لاتزال محجوبة عن الأنظار ، هذا هومقصود الديانات ومقصود القرآن ومقصود العلوم ، إن الله قد أرسل ابراهيم الخليل فدكّ صرح عبادة الشمس والقمر والكواكب ، وتمم هذا نبينا ﷺ فانطلقت العقول بعد أن كانت محصورة أيام الصابئين فى عبادة كواكب معلومة ، وعجزت العقول ومنعت من الاطلاع على عوالم لانهاية لها ، ثم أتبع ذلك بما يفيد : « انكم يا أهل الأرض لستم شيأ مذكورا بالنسبة

لعوالمنا الأخرى الروحية ، فاذا أبيتم يا أهل الأرض أن تعبدوا ربكم ليتسع لكم المجال فيرقى عقولكم لتخرجوا من العالم المادى ، فاعلموا أن هذه السموات والشموس والأقمار والتوابع ليست خالية من السكان ، إن هناك عوالم وهى الملائكة والملائكة صفوف وكلهم يعبدونى ، فاذا لم تبلغ مراتبكم هؤلاء فأنتم وشأنكم . فكم هناك من عوالم تسبح ربها عاكفة على السجود له والقيام بأمره ولا يسأمون بل عبادتهم بشوق وتوق وحب لاقتراب نفوسهم من ذلك الجمال الأبهى كما ان الشموس والأرضين دارت طائفة بنوع الجاذبية ، واذا ظننتم أن أرضكم الحقيرة الصغيرة قليلة الشأن هى التى حظيت بالعقول والعلوم وأن العالم كله محروم منها فكبروا أربعا على عقولكم وادفنوها فى الثرى ، وكيف تظنون ذلك وأنتم ترون أن البحار التى زاد عمقها عن مائتى قامة وضوء الشمس محجوب عنها قد خلقنا فيها عوالم من سمك وسرطان وأعطيناها كل ماتحتاج اليه ، وأضأنا لها بضوء تصرفه على مقدار حاجتها وتطفئه متى شاءت ، وتوقده متى شاءت ، وتطارد فريستها بهدايته ، وتتخلص من عدوّها أنى شاءت ، فتظهر نورها الوهاج أمام عينيه كى تبهره ثم تختفى وهى أمامه ، فاذا فعلت ذلك فى قرار بحاركم الذى يصل الى مايقرب من مائتى قامة ولا أذره يكون بلا حياة فهل أذر الشموس العظيمة التى شمسكم بالنسبة لها لاتعدّ شيأ مذكورا فضلا عن أرضكم المحقورة الضعيفة التى خلقتكم فيها زمنا ما لأنقلكم الى عوالم أخرى تستأهلونها بما فطرتم عليه فى هذه الأرض من الأخلاق والأعمال أسمى بعضها بالجنان وبعضها بالنيران . كلا . فأنا لم أدع عالما حقيرا كأرضكم ولا عالما عظيما كالشموس العظيمة وتوابعها إلا أسكنت فيه عالما يليق به ، وكلما كان المسكون أرق كان الساكن فيه أعلم وأعظم وأقرب الى ربه كما تقرب حاسة العين والسمع من العقل ، وتبعد عنه حاسة اللمس بعض البعد ، إن العين والسمع يعرفان القريب والبعيد ، واللمس لايفقه إلا القريب ، فأنتم يا أهل الأرض أشبه بحاسة اللمس لأن علومكم مادّية والعوالم الأخرى يقرب سكانها من ربهم لبعد نظرهم وكبر عقولهم وتشبههم بربهم ، وهذا مايأتى من قوله تعالى ـ يسبحون له بالليل والنهار وهم لايسأمون ـ . ثم ذكر أن الأرض اذا نزل عليها الماء اهتزت وزادت وتزخرفت بالنبات هكذا تحيا النفوس بالبعث كما تحيا الأرض بانزال المطر عليها . ثم ذكر أن هذا القرآن محفوظ لايتطرق اليه الخلل تذكرة للامم الأرضية الضعيفة لأنه نزل بحكمة وهى نعمة على الناس يستحق مسديها حمدهم له ، وأن الأمم المدعوة لهذا القرآن تقابله بما قابلت به الأمم السابقة أنبياءها لأن أهل الأرض منغمسون فى المادة ضعاف العقول غالبا ألهتهم الشهوات عن الحكمة لاقترابهم من عالم الحيوان والنبات ، فهذه جبلة فيهم والله سبحانه سيجازى المسىء والمحسن منهم بما هو أهله من عقاب وثواب ، ثم إن هذا القرآن لو نزل بلغة غير العربية كما يقترح بعضهم لكان ذلك بدعا فيقال نبىّ عربىّ وقرآنه أعجمى فتقوم حجتهم عليه ويقولون فى آذاننا وقر كلا . بل الأمر واضح نبىّ عربىّ وقرآن عربىّ تسمعه أمة عربية وتنقله الى الأمم ثم تذيع لغتها وينتشر دينها وتقوم دول بها ، ولا يصح ذلك إلا اذا كان بلغة العرب ، ثم أبان أن أمر الساعة كأمر خروج الثمرات من أكمامها وكأمر وضع الحوامل ، فهذه الأجسام الأرضية الانسانية تحمل أرواحا تربى فى الأرض بالخير والشرّ وتمتحن بالنعم والنقم والبلايا والرزايا وترسل لها الأنبياء ويخلق فيها العلماء فتتفتح الأجسام عن أرواحها بالموت كما تفتح الأكمام عن الزهر والكفرّا عن الطلع والحامل عن الطفل . فالأجسام بالموت تمخض كتمخض الحوامل وتبرز تلك الأرواح ظاهرة واضحة على حسب ماجبلت عليه كما يخرج الطفل حاملا ماورثه من أبويه وذويه ودولته وأمته فى الدنيا فيعيش على ما كان عليه فى الرحم من تلك المواريث ويتلقى كال علومه فى الحياة ، فاذا مات فقد تمخض جسمه عن روحه وأصبح فى عالم جديد يحمل صفات وآراء وأخلاق حتى اذا بعث برز هناك أمام الله والعالم بأخلاقه نفسه كما برز الطفل فى الحياة بما هو من جبلته . ثم قال وهذه الامور ليست بالطبع بل لاتحمل أنثى ولا تضع إلا بعلمه هكذا لايعمل عامل عملا ولا يحشر الى جنة أونار إلا بعلمه

لأن هذا نظام له قانون لايتعداه . ثم أخذ يذكر أخلاق أكثر النوع الانسانى فوصفه بأنه لايحب إلا الامور المادّية ، فاذانقص منهاشئ يئس مع انه خلق ليهذب و يربى ، واذا أنعم عليه بنعم كثيرة وغمر بها اغترّ وظنّ أن ذلك أمر دائم وأن النعم الروحية والأخروية تابعة للنعم المادّية الجسمية ، ثم بشرالله النوع الانسانى لاسيما العالم الاسلامى قائلا : « أيها الناس : إنى سأفتح لكم أبواب العلوم والمعارف والحكم ، وأبين لكم الحقائق ناصعة واضحة ، وأولا أفتح للسلمين البلاد شرقا وغربا وهذه دلالة صادقة على النبوّة المحمدية ، كيف لا وأن النبوّة تستلزم إيجادالأمم وتربيتها ، فدين يجمع أمة وتعيش أمدا طويلا وهوثلاثة عشرقرنا و يضم من الشرق والغرب آلاف الآلاف ، إن ذلك لدليل على أنه من عند الله لاسيما اذا كان الذى نزل عليه ذلك الدين أمّيا لايقرأ ولا يكتب وهو فى أرض خلقة لاصلة بينها وبين العلم . وثانيا ان هذا القرآن قد فتح للناس باب قراءة العلوم والمعارف فانتشرت الفكرة فى العالم كله وجاءت الحروب الصليبية فانتعشت أوروبا وظهرت العجائب الكونية وظهر علم الأرواح وعلوم النفس وهذه معجزة للقرآن . فهنا معجزتان : معجزة فتح البلاد على أيدى المسلمين . ومعجزة ظهور العلوم فى أوروبا التى أدهشت العقول وحيرت الأفكار . وقد ذكرنا كثيرا منها فى هذا التفسير . فهذه العلوم هى نفسها آيات الله تعالى أظهرها الله كما أخبر القرآن . والعلوم المذكورة قسمان قسم فى العلوم الطبيعية والفلكية وهى علوم الآفاق . وقسم فى علم الأرواح وعلم النفس وهوعلم الأنفس . وذلك كله معجزة للقرآن . والا فكيف يقول ــ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ــ أوليس ذلك لنا نحن المسلمين الآن !

يقول الله ــ حتى يتبين لهم أنه الحق ــ فليسمع المسلمون فى أقطار الأرض كلام ربهم . هذا أوانه . يقول لكم : سأريكم آياتى فى أنفسكم وفى الآفاق . أيها المسلمون : هذه الآيات قد ظهرت و بهرت . ظهرت شموس وبهرت العقول . ظهرت علوم الكيمياء . ظهرت عوالم بديعة غابت عن عقول الأمم الماضية . ظهر ذلك كله . ظهرت أسرار النفوس وعلوم الأرواح . كلّت الأرواح الأحياء . كلّموهم بما جاء به القرآن . قالوا لهم « اننا نعذب ونتنعم » . قالوا لهم : « اننا نألم لكل ذنب اقترفناه » . قالوا لهم : « ان العلم والأخلاق الجيدة هما المسعدان لنا بعد الموت » . قالوا لهم ملخص ماجاء فى القرآن

أيها المسلمون : هذا هودينكم يأمركم أن تدرسوا كل علم وتقرؤا كل فنّ ويقول لكم الله إى عبادى قدفتحت لكم أبواب الجنات فى هذه الدنيا . فتحتها على مصارعيها . انظروا تأملوا مافيها من جمال . وأين هى الجنان ؟ هى العلوم التى أبرزها الله فى الأرض . إن الجنان نتائج العلوم والأخلاق . والنيران نتائج الجهل والذنوب . يقول الله ــ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم ــ ولقد أرانا الله ذلك . كان آباؤنا أشرف خلق الله فلكوا الأمم لاسعادها . ولما سكنت ريحهم وغابت شمسهم خلفهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فلقوا غيا فأذلتهم الأمم . وهذه أيضا من آيات الله التى أراها الله لنا . أرانا آيات فى آبائنا إذ أخضعوا الأمم . وأرانا آياته فى أنفسنا فى مصر والشام وسوريا والحجاز وفلسطين والعراق و بلاد المغرب وفى بلاد روسيا والهند وسائر أقطار الاسلام وفيما وراء البحار . خضعت أكثر هذه الأمم للفرنجة . أذاقها الله النكال . هذه من آيات الله تعالى لأنه هكذا أوعد الله الذين لايفكرون . أظهر الله علوم الكائنات من شموس وأقمار وكواكب صغار ومعادن وحيوان ونبات وجمال أرضى وعجائب حكمية وعلوم أرواح . كل هذا من آيات الله فى الأنفس والآفاق ثم أيد ذلك بأن الله شهيد على كل شئ فهو يحقق هذه الامور كما وعد وانه عالم بالأشياء كلها وقد تمّ ذلك كله فى هذا الزمان وسيزيد فى الازمان المستقبلة

إنى لأدهش أيها المسلمون حينما أرى هذا كلام ربنا وأرى انه ديننا وأقول فى نفسى كيف يكون هذا دين أمة الاسلام والناس كلهم يرقون العلم أماهم فإنهم نائمون

عجبا لأمة أصبحت أشبه بملك أصم أعمى تقام له المحافل وهو غافل وتضرب له المدافع وهو نائم وتنصب له الحفلات وهو فى سبات أوكروس أقيم له الاحتفال ونشرت الزينات وأنشدت القصائد وهو تائه غافل لايعى مايقال ولايدرى

ياقوم : يقول ربنا ـ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم ـ ويقول انه شهيد على كل شئ محقق للوعد والمسلمون لايعلمون هذه الزخارف والزينات القائمة فى الأرض والعجائب البارزة زفها الله اليكم ، استخرج الله منافع البرّ والبحر وكلم الأموات الأحياء . كل هذا أخبر به نبيكم ﷺ فكيف تقام هذه الزينات وتنصب لكم الحفلات وأنتم فى غفلات . نعم إن المسلمين اليوم أشبه بملوك العباسيين فى آخر أيامهم أو ببعض المماليك فى الدولة المصرية إذ تقام لهم الحفلات باسمهم وتنصب لهم الزينات وهم مسجونون

هـذا ماجاش فى نفسى عند تقسيم هذه السورة وهو كمختصر لتفسيرها فلأبدأ فى تفسير هذه الأقسام فأقول مستعينا بالله

﴿ القسم الأول فى تفسير البسملة ﴾

هذه قد أخرتها الى اللطائف وهى أوّل لطيفة من ست ، وذلك لأن فهم الرحمة هناك من حيث شمولها لما فى السورة من العجائب يحتاج فيه الى معرفة ظواهر تفسيرها ولذلك أخرتها

﴿ القسم الثانى من السورة ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ • تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ • كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ • بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ • وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ • قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ • الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ • إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ • قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ • وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ • ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ • فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ •

﴿ التفسير اللفظي ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

(حم) هما حرفان وهما الحاء والميم وقد علمت أنهما في سورة غافر تشيران للحمد الذي اكتنفهما والنتيجة أنهما ترشدان الى اقتناص سائر العلوم ، هـذا ملخص مامضى في هذا التفسير ، انما لكل سورة مزية والمزية التي في هـذه السورة غير التي مضت ، فانظر الى ماسألقيـه عليك ، انظر كيف بذكر الله الحاء والميم المذكورين في قوله تعالى ـ تنزيل من الرحمن الرحيم ـ فالحاء والميم في كل من الاسمين ، وكيف يقول ـ نزلا من غفور رحيم ـ ، وكيف يقول ـ تنزيل من حكيم حميد ـ فالحاء والميم في الحمد والحكمة والرحمة المذكورات في هذه السورة ، ولاجرم أن الحمد أعمّ هذه المعاني لأنه لا يكون إلا على نعم ولانعم يحمد عليها إلااذا عرفت ، ومتى عرف الانسان أن الله رحيم ورحمته شملت العوالم العلوية والسفلية رحمة مصحوبة بالحكمة لا كرحمة الأمهات بل هي كرحمة الآباء مصحوبة بشدة التوازن والمحافظة عليها . متى عرف ذلك حمد الله فإذن يرجع الأمر الى التنبيه على العلم لاسيما أن الحاء والميم في الحمد قد جاآ في أوّل الكلمة متتاليين فأما في الحكمة والرحمة فليسا كذلك فرجعت هـذه السورة كالتي قبلها مع تفصيل في هـذه . ألاترى كيف ذكر بدء الخلق وانه نظم السموات والأرض وأودع فيها الأقوات والأرزاق وأعطى كل شئ خلقه وانه أمر الأرض والكواكب بالاتيان اليه فأتت له طائعة بطريق الجاذبية لا بطريق القسر والقهر وهذا الدوران مبنى على الحكمة والنظام العجيب . وكيف زين السقف الذي فوقنا بمصابيح مضيئة مشرقة بهجة تسرّ الناظرين فبينا الانسان ينظر في حقله فيرى أزهارا وأنوارا وجمالا وبهجة وماء لطيفا شفافا تظهرفيـه الوجوه والطيور تحوم حوله ويرى أنعاما وأشجارا وأنواعا شتى من الثمار في الأرض اذا هو ينظر فوقه فيرى سقفا مرفوعا مزينا بالصور الجميلة والقناديل المعلقة والرسوم البارزة والوجوه الباسمة والأوضاع المشوّقة والبهجات الشارحة للصدور المنعشة للقلوب المزيلة للهموم المذكرة بالأحباب المبعدة للنصب المزيلة للغموم المناجية لذوى العقول الشريفة الملهمة لهم الجمال السارّة للمفكرين المذكرة برب العالمين المصغرة لحياتنا الحيوانية المعظمة للحياة الملكية الخاصة بالكبراء الممنوعة عن الجهلاء المحجوبة عن ذوى الكبرياء تبرقعت عن الأغيار وظهرت للأخيار وازّينت وابتهجت وأبهجت . ذلك من الرحمة التي ذكرها في قوله ـ الرحمن الرحيم ـ

ثم انظر الى الحكمة التي بينها في السورة . ألاتراه بين أن قرناء السوء يوسوسون الى أمثالهم وقد زين لهم وسوستهم كما زين السماء لأصحاب العقول الكبيرة . ثم تراه يجعل الملائكة ملهمين للنفوس الشريفة في الأرض كما يبشرونهم عند الموت وعند البعث ويسلمون عليهم . أليس ذلك للحكمة . فبدء الخلق رحمة . ووسوسة النفوس الشيطانية الى النفوس الشهوية وإلهام النفوس الملكية الى النفوس الفاضلة في الأرض من آثار الحكمة . ذلك أن الحكمة تقتضى أن يقرن الشبيه بما يشبهه . فالشياطين توحى الى أمثالها من الناس والملائكة تلهم من يقرب لها في الخصال ليلحقوا بهم بعد موتهم . ثم أفاد أن الملائكة يعرفون ربهم أكثر من أهل الأرض فكأنهم شموس تتبعها أرضون ، فاذا رأينا شمسنا قد تبعتها السيارات والأرض وتوابعها ونحوها هكذا تلك الأرواح الكبيرة تتبعها أرواح صغيرة في أرضنا وغيرها فكأنها تدور حولها كما تدور أرضنا حول شمسنا ، وكما أن أرضنا تستمد من الشمس النور هكذا الأرواح الصغيرة في عالمنا تستمد العلم من أرواح فوقها أعلى منها بالالهام أوالالقاء في الروع وهذا هوالمقصود من قوله ـ فالذين عند ربك

يسبحون له بالليل والنهار وهم لايسأمون ـ وانهم يتنزلون على أهل الأرض يقولون لهم لاتخافوا ولاتحزنوا وأبشروا . كل ذلك من الحكمة . ومن الرحمة أن الأرض تخرج النبات فينتفع به أهل الأرض . ومن الحكمة أن ينزل القرآن باللغة العربية لمناسبة المرسل اليهم الذين هم أقرب اليه . ومن الحكمة مناسبة خروج الثمرات من الأكمام ووضع الاناث لقيام الساعة فكلاهما نتائج وثمرات لمقدمات

وبعد أن ذكر آثار الرحمة وآثار الحكمة وان كان كل منهما مصاحبا للآخر ختم السورة بما يوجب الحمد وهو انه يرينا آياته فى الأنفس والآفاق . واذا أرانا آياته فمعناه انه يظهر العلوم والأسرار كما ظهر لك منه كثير فى تفسير هذه السورة وغيرها وبالعلم وانكشاف الحقائق يكون الحمد فرجع الأمر كله الى معنى (حم) فقوله حم إشارة الى الحمد والحمد لا يكون إلا بمعرفة النعمة والنعم المذكورة فى السورة منها ماغلبت فيها الرحمة وهى بدء الخلق وانبات النبات . ومنها ما ظهرت فيه الحكمة وهى وسوسة الشياطين لأمثالها والهام الملائكة لتلاميذها واتباعها ونظام الأمر كله انه يرينا الآيات وهذا سبب فى الحمد . حقا ان هذه السورة روضات الجنات

إن من يقرأ هذه السور يرى ألفاظها متشابهة ومعانيها متشابهة وكأنه لايرى شيأ جديدا فاذا أمعن النظر انفتحت له خزائن العلم والحكمة كما يحصل عند مايسمع الانسان قوما يتكلمون بلغة لايفقهها فانه يرى أن الألفاظ متشابهة ولايفهمها إلا ببحثها وكما يشاهد جيشا عرمرما من بعيد فانه يراه شيأ واحدا لا اختلاف فيه وكلما اقترب ظهر له تفصيله . وكما يرى الشمس والقمر وهو على الأرض فانه يرى جسمين صغيرين فاذا ارتقى بالعلم فى الدنيا أو بعروج روحه الى السماء وكان من أهل ذلك هاله عظمتها . هكذا هذا القرآن نرى اننا كلما توغلنا فيه ظهرت لنا علوم جديدة تبرز فى ثناياه

هذا ماسنبان فى معنى حم فالحاء والميم يعبران عن الحمد والحمد يستلزم العلم . والمسلمون اليوم مخاطبون وهم الآن أقرب الى العلوم من كل زمان لأن الله أراهم الآيات فى أسلافهم وفيهم وفى الآفاق من العلوم والمعارف . فاذا قصر مسلم بعد مابيناه فان الله عزّ وجل يخسف به وبأمثاله الأرض وذلك بالذلة والهوان ثم الانقراض وهذا أمر لاشكّ فيه وأصبحت موقنا به كل الايقان . وقوله (تنزيل من الرحمن الرحيم) أى هذا تنزيل ممن عمت رحمته عظيمات الامور ودقيقاتها فى أكناف السموات وآفاق الأرضين . وقوله (كتاب) خبر بعد خبر ثم وصفه بأنه فصلت آياته فى معان مختلفة من عجائب خلق وابداع صنع واحكام نظم وانزال الغيث وانزال وحى أوالهام واضاءة سقف مرفوع وتبيان الحقائق واخبار بمستقبل العلوم ووعظ وأحكام وأمثال ووعد ووعيد وبهجة للناظرين وهذا قوله (فصلت آياته) أمدح (قرآنا) موصوفا بوصفين : الأوّل كونه عربيا . الثانى كونه (لقوم يعلمون) ووصفه بأنه عربىّ من الاشارات العجيبة فان اللغة العربية اليوم لايخلو محفل من محافل العالم شرقا وغربا من ذكرها والترنم بمحاسنها والقيام بشأنها ومعرفة تاريخها وتاريخ دينها والبحث والتنقيب عن أسرارها وآثار أهلها كما تقدم فى ﴿ سورة سبأ ﴾ وأنت ترى المستشرقين فى العالم الغربى مولعون بهذه اللغة ولولا القرآن لم يكن لها هذا الشأن . لقد اشتهرت الأمة العربية وما شهرتها إلا بالقرآن . لقد اشتهرت الأمة العربية وأصبح لها صيت عظيم ومجد كبير مع اننا اليوم تحت قهر الأمم ولكن القرآن العربى جمال لنا وزينة . يدعونا الى الرقىّ والسلام . أليس من العجب أن يخبرنى أكبر طابع للكتب فى مصر وهو الذى تعهد بطبع هذا الكتاب أن تفسير الطبرى لما طبعه لم يقدم على الاكتتاب فيه من مصر المسلمة إلا ثمانية عشر رجلا ، ولكن ألمانيا النصرانية قد اشترك منها ثلاثون فيه ، ومن عجب أن أوّل مطبع المصحف فى العالم طبع فى ألمانيا وهذا سرّ قوله تعالى ـ عربيا ـ مشيرا الى صيت العرب وذكرهم بهذا القرآن حتى طبعوا كتبهم ودينهم فى مطابعهم !

فياليت شعرى اذا كان هذا شأن اللغة العربية عندهم وهم مسيحيون فمابالك لوكانوا مسلمين ! هذا

كله سر قوله تعالى ـ قرآنا عربيا لقوم يعلمون ـ

إن أوروبا اليوم فيها فحول العلماء ، ولقد شاهدناهم وكاتبناهم فوجدناهم يدرسون اللغة العربية دراسة تامة ويعرفون أسرارها أكثر من كثير من المسلمين ، ذلك كله أشار له القرآن بقوله ـ عربيا ـ والا فمعلوم أن القرآن عربى

﴿ حكاية ﴾

كان أحد الملوك الاسلاميين وهو فى سفره له سمير يحادثه ويلقى عليه الملح والنوادر والفكاهات وكان لايتكلم معه إلا بحكمة ، فبينما هما سائران إذ لمحا بناء . فقال له ماهذا البناء ؟ فقال هذا بيت عاتكة الذى قال فيه الشاعر :

يابيت عاتكة الذى أتغزل ✲ حذر العدا وبه الفؤاد موكل

ولما كان من عادة الخليفة أن لايسمع من هذا السمير إلا ماله حكمة قال فى نفسه . ياعجبا : لم قال هذا البيت ؟ إن الجواب يكفى فيه أن يقال بيت عاتكة فلم ذكر السبب فسأل خواصه وندماءه هل هناك شئ يلاحظ بالنسبة لهذا السمير ؟ فقالوا نعم انك وعدته وعدا فلم تنجزه ففطن الى أنه يشير الى قول الشاعر :

ولأنت تفرى ماتقول وبعضهم ✲ ملق اللسان يقول مالايفعل

فأعطاه كل ما كان وعده به وأجازه لحسن أدبه

فما يشير له لفظ ـ عربيا ـ أن القرآن سيصير شرفا للعرب ولوفى أيام محنتهم . إن أبناء العرب اليوم أصبحوا أضعف من آبائهم فى الجاهلية من حيث السياسة ولكن شرف القرآن ألقى عليهم شعاعا وبارقة أمل نسمعها أيام هذا التفسير وسيكون لهم مجد لأنهم الآن أخذوا ينفضون غبار الكسل والذل عنهم وهم مجدون وفى آية أخرى ـ وانه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون ـ

يشير الله الى أن القرآن شرف للعرب وللنبى ﷺ والى أننا مسؤولون عنه لأننا أرباب اللغة . إن ذلك توبيخ لنا فى العصر الحاضر . يقول الله اذا كنتم أنتم أبناء العرب فكيف تهربون من مجدكم ؟ كيف يقوم أبناء الألمان المستشرقين الذين لايبلغون ثلثمائة فيقرءون تفسيره الكبير وهو تفسير الطبرى المذكور . وأنتم يا أبناء العرب تعرضون عنه . يقول الله القرآن عربى فأنتم يا أبناء مصر والشام والعراق والحجاز عرب فعليكم نشره . واذا كان أبناء أوروبا الذين هم ليسوا مسلمين يطبعونه وينشرونه أفلستم أولى به ؟

وقد أخبرنى السيد مصطفى البابى الحلبى الذى طبع ذلك الكتاب . قائلا : طبعت التفسير المذكور فلما أرسلته الى ألمانيا لم يعجبهم الفهرست فوضعوا له هم فهرستا آخر من عندهم . وأخبرنى أخبارا كثيرة من هذا القبيل

لقد اطلعت على عجائب فى أيام حياتى . ذلك أنى وجدت كثيرا من عظماء أمتى يحقرون الدين والعرب وكل شئ منسوب لآبائهم . لماذا ؟ لأنهم ظنوا جهالة أن الدين واللغة والانتساب للعرب هوالذى جعل الفرنجة يدخلون بلادنا . وظنّ بعضهم انهم باحتقارهم عاداتهم وتقاليدهم وأنهم يندمجون فى الأجانب الذين دخلوا بلادهم يرتقون ولكن تغيرت الأيام وظهر فى الشرق وفى مصر رجال غيروا الرأى وأخذت العقول تنشط ولكن الى الآن لم تصل الى درجة الارتقاء التى يفيدها قوله تعالى ـ قرآنا عربيا ـ فان صبغتنا العربية الآن محجوبة وهى تظهر قليلا قليلا وسيكون لها الشأن الأكبر قريبا كما قلت مرارا فى هذا التفسير . إن التعبير بلفظ ـ قرآنا عربيا ـ يفيد بقاء اللغة العربية أجيالا وأجيالا لأن القرآن حافظ لشكل اللغة ملزم جميع الأمم العربية وغير العربية المختصة بدراسة الأمم العربية أن تقرأ النحو والصرف وماأشبههما وذلك الشكل يبقى مابقى القرآن

والقرآن

والقرآن باق الى آخر الزمان وهذا الموضوع مذكور فى أول سورة آل عمران وهناك ملخص رواية منقولة عن أحد الألمان ملخصها أن اللغة العربية هى التى تبقى بارزة الى آخر الزمان وهى التى تحفظ العلوم لأن جميع اللغات بعد مئات السنين تتغير تغيرا كبيرا واللغة العربية تبقى لأن القرآن يحتم أن تبقى هذه اللغة على حالها بخلاف لغات العالم كلها فهى فى تغير مستمر كما هو معلوم فى علوم اللغات . وقوله (بشيرا ونذيرا) أى للعاملين به والمخالفين له (فأعرض أكثرهم) لأنه لم يتدبره (فهم لايسمعون) سماع تأمل (وقالوا قلوبنا فى أكنة) فى أغطية جمع كنان (مما تدعونا اليه وفى آذاننا وقر) الوقر أصله الثقل (ومن بيننا و بينك حجاب) يمنعنا من التواصل (فاعمل) على دينك (إننا عاملون) على ديننا (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى الىّ أنما إلهكم إله واحد) لست ملكا ولا جنيا لايمكنكم التلقى عنه ولست أدعوكم بلغة غير لغتكم فماذا يصدّكم عن الفهم فتقولون قلوبنا فى أغطية وآذاننا فيها ثقل وتعرضون هذا الاعراض (فاستقيموا اليه) الى الله (واستغفروه) مما أنتم عليه (وويل للمشركين) من فرط جهالتهم (الذين لايؤتون الزكاة) لبخلهم وقلة رأفتهم على الخلق (وهم بالآخرة هم كافرون) لاستغراقهم فى طلب الدنيا فلاعلم لهم بالآخرة فيرعوون عن الانهماك فى المال فيعطونه للفقراء ولاشفقة تدفعهم الى الاحسان اليهم ، ثم ذكر أضدادهم فقال (إنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون) أى غير ممنون به عليهم أوغير مقطوع

﴿ ذكر بدء الخلق ﴾

قال تعالى: (قل) يامحمد (أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين) فى نوبتين (وتجعلون له أندادا) أى ولايصح أن يكون له ند (ذلك) الذى خلق الأرض فى نوبتين : نوبة جعلها جامدة بعد أن كانت كرة غازية ومرة جعلها (٢٦) طبقة فى ستة أدوار ظاهرة فى علوم طبقات الأرض ، فجمودها نوبة ونظام طبقاتها نوبة (رب العالمين) لا ربها وحدها فهو مربى كل عالم ، فلئن رباها فى نوبتين فقد ربى غيرها فى نوبتين أو أكثر (وجعل فيها رواسى) جبالا ثوابت (من فوقها) مرتفعة عليها لتكون أساسها فى الأرض وهى الطبقة الصوّانية التى تقدم الكلام عليها فى علم طبقات الأرض فى ﴿ سورة هود ﴾ وغيرها بمثابة حصن حصين فوق الكرة النارية التى هى عبارة عن الأرض كلها ، وهذه الطبقة التى هى أوّل ماتكون فوق الكرة النارية هى التى برزت منها الجبال ، فالجبال أساسها بعيدة الغور ضاربة فى جميع الطبقات واصلة الى أوّل طبقة وهى الصوّانيـة التى لولاها لم تكن الأرض أرضا ولم يستقرّ عليها ، فهذه الطبقة أشبه بنظام الأجسام الحيوانية تكون حافظة للمائعات الداخلة من الطعام والشراب والدم والشحم وماأشبه ذلك ويسترها اللحم والظفر والشعر والعروق والشرايين والأوردة والشحم وغيرها ، هكذا كرة النار التى هى عبارة عن أرضنا غطيت بالطبقة الصوّانية وفوقها طبقات ألطف منها تكوّنت فيها الحيوانات والنباتات على مدى الزمان كما يكوّن على أجسامنا وأجسام الحيوان الشعر والوبر والصوف ، فأما هذه الجبال فما هى إلا نتوآت نتأت من تلك الطبقة وارتفعت فوقها عشرات الآلاف من الكيلومترات ثم ارتفعت فوق الأرض وصارت مخازن للمياه وللمعادن وهداية للطرق وحبسا للسحاب والهواء حتى تحفظه ولذلك عطف عليه قوله (وبارك فيها) أى وأكثر خيرها وذلك بالأنهار المتدفقة من الجبال المذكورة الحافظة من حيث أصلها للأرض أن تتبدد الخازنة لمائها ومعادنها كالذهب والنحاس والحديد (وقدّر فيها أقواتها) أقوات أهلها . كل ذلك حصل فى نوبتين فيكون خلق الأرض وجعل الرواسى فوقها وإكثار خيرها وتقدير أقواتها من أنواع الحيوان والنبات كل ذلك (فى أربعة أيام) فهذا كالفذلكة لماتقدم استوى (سواء) استواء (للسائلين) أى الذين يسألون الأقوات وهو كل حيوان على وجه الأرض قال تعالى ـ يسأله من فى السموات والأرض كل يوم هو فى

شأن ـ فالناس والحيوان كلهم سائلون ربهم مايحتاجونه من طعام وشراب ولباس ودواء وذلك السؤال طبيعي فيهم مغروس في جبلتهم ، يسأل الحيوان كالنملة والنحلة والشاة والذئب الرب كما يسأله الانسان سواء بسواء ، فالنملة تطلب قوتها فتجده والنحلة والعنكبوت والخنزير والكلب والشاة والذئب ، تطلب الشاة الطعام فتجد الكلأ ، ويطلب الذئب الطعام من ربه فيجد الشاة ، فقد أجاب الكل وكل يحبه ، وقد ألقى بينهم العداوة والبغضاء ليدوم الارتقاء للآكل والمأكول ، فالغزالة تهرب من الذئب فتعطى قوة ونشاطا لولا الخوف ما كانا وذلك يقويها ويرقيها ، والذئب يجوع وقد حرم عليه أن يأكل الحشائش فهو مضطر أن يأكل الغزالة وهو هو المخيف المزعج لها (وبعبارة أخرى) هو المقوى لعضلاتها لازعاجه إياها بصوته وحملاته فيغير على القطيع العظيم فيأخذ منه غزالة واحدة أو شاة واحدة ، ذلك أجلها فعله لأنه كأستاذ يعلمهم علم القوة وتربية العضلات والحذر ويقوى القوى الخيالية ، وينال مكافأة على ذلك شاة واحدة من قطيع يبلغ المئات من الشياه وربما يأخذ الضعيف المزيل منها لضعفه عن الجرى أو تأخره وما تأخر إلا لضعفه ويريح الجو من التعفن بتلك الجثث التي تقع فيه من الحيوانات ، فهذا من معنى قوله تعالى هنا ـ سواء للسائلين ـ

ثم إن الانسان يهتم بحال ماحوله من الأرض فلذلك قدم ذكرها وبين انها هي وما عليها قد كونها في أربع نوبات : فنوبة لتجمد المادة الأرضية بعد أن كانت غازا ، ونوبة لتكميل بقية طبقاتها ويدخل فيها معادنها ، والمرتان الأخريان إحداهما للنبات ، والثانية لعموم الحيوان ، ولما فرغ من الكلام عليها أخذ سبحانه يذكر السماء على سبيل الترتيب الذكرى أى ان الأرض أولا في الذكر (ثم استوى الى السماء) أى قصد نحوها يقال استوى الى مكان كذا اذا توجه اليه (وهى دخان) أى مادة غازية نارية أشبه بالدخان أو بالسحاب أو السديم وتسمى اليوم في العلم الحديث (عالم السديم) وقد شاهدوا من تلك العوالم اليوم ستين ألف عالم تبرز للوجود من جديد لاتزال على الحالة السديمية كما نقلته لك من الكتب الفرنجية في غير هذا المكان ، ورأوا أن من تلك العوالم ماهو في أول تكونه ، ومنها ماقطع مراحل في تكوينه ، ومنها ماقارب التمام وهى عوالم كعالمنا الشمسى الذى نحن فيه ، وسيبرز للوجود كما برزت شمسنا وسياراتها وأرضها وكانت في الأصل دخانا وستستمر في التكوين ومدتها نوبتان ، ونحن لانقدر أن نعرف كيف تكون النوبتان غاية الأمر أن نقول نوبة للبداية ونوبة للنهاية ويكون هذا القول من الجمل العامة وفائدته أن التكوين لم يكن في لحظة واحدة لئلا يتطرق الى العقول انه كان كذلك في الأصل بل يريد انه جار على الحكمة والنظام وقد كون في غير نوبة وكفى هذا في كتاب مقدس كالقرآن يقول انه خلق الأرض في نوبتين وما عليها كذلك والسموات السبع كذلك . فهذه العوالم كلها التى شوهدت بالمناظير المعظمة ستبرز للوجود في نوبتين بثوبها القشيب كما برزت أرضنا وكونت شمسنا في نوبتين إذ قصد الله اليها والى كل شمس من الشموس التى كشفت والتى لم تكشف وهى تعد بنحو خمسمائة مليون ، بل قدرها بعض الفلكيين في هذه السنة بما يبلغ ألفى مليون ويقولون هذا قطرة من بحر العوالم المجهولة ، فهذه كانت عالما دخانيا فدورها وكورها فدارت آلاف آلاف من السنين ، ثم خرجت منها الأرضون والسيارات كما خرجت أرضنا وسياراتنا من شمسنا أثناء دورانها ثم برزت الأراضى التى قدرت على الأقل بنحو ثلثمائة ألف ألف أرض أى ان تلك الأراضى الدائرة حول الشموس وحول أنفسها بردت قبل شموسها (فقال الله لها) أى لتلك العوالم السماوية (وللأرض) أى جنس الأرض التى دارت حولها وهى مئات الملايين (ائتيا طوعا أو كرها) شئتما أم أبيتما (قالتا) أى السموات والأرضون (أتينا طائعين) وهذا دلالة على الحركة المستمرة المعبر عن سببها بالجاذبية فهى حركة أشبه بحركة المشوق فهى تجرى جرى طاعة لاجرى قسر ، والدليل المشاهد على ذلك انا نرمى الحجر الى أعلى قسرا فيأبى إلا أن ينزل الى الأرض بطريق الجاذبية ، فهو مجذوب الى الجسم الذى هو أكبر منه . هكذ

الارض

الأرض مجذوبة الى الشمس التى هى أصلها وهى حركة دورية بالطوع لا بالقسر لأن الحركة القسرية كرمى الحجر الى أعلى وهى سريعة الزوال . أما حركة الطاعة فهى الدائمة مادام المطيع متخلقا بخلقه الذى هو عليه (فقضاهن سبع سموات فى يومين) أى نوبتين دلالة على النظام والسير بالحكمة كما تقدم فى خلق الأرضين ومن هـذا يفهم كيف قال ـ فقال لها وللأرض ـ الخ ، ذلك للدلالة على أن حركة الاتيان منهما مصطحبة فبينا ترى الأرض دائرة حول نفسها وحول الشمس ترى الشمس دائرة حول نفسها وحول شمس أكبر آلاف الآلاف منها ، فهذا هو السبب فى ذكرهما معا أى انه قال لهما معا وأجاباه معا وحقيقة الأمر كذلك لأن الأرض لما كانت من ضمن الشمس كانت دائرة من جملة أجزائها ، فالقول كان لهما معا وهو الآن لهما معا ، وانما قدم الأرض فى الذكر على السماء للسبب المتقدم أولا ولأنها تم تكوينها بعد البرودة . وأما أكثر الشموس فلايزال هناك زمن طويل حتى تبرد وتصير أرضين (وأوحى فى كل سماء أمرها) شأنها ومايتأتى حلها عليه اختيارا . ثم ذكر ماهو أهم لنا فقال (وزينا السماء الدنيا بمصابيح) فان هذا العالم الذى نشاهده وهو أقرب الينا الذى نراه مرصعا بالنجوم هو الذى نسميه السماء الدنيا ، ولو اننا ارتفعنا الى بعض عوالمه لرأيناه سماء أخرى بكواكب غير هـذه وهكذا الى آخرها ، فهو سبحانه يقول انه زين سماءنا الدنيا بهذه المصابيح المتلألئة المتوهجة ، ثم يقول (و) حفظناها (حفظا) من الآفات ومن أن يدرك سرها من لايتأهلون لمعرفتها (ذلك تقدير العزيز العليم) البالغ فى القدرة والعلم . انتهى التفسير اللفظى للقسم الثانى من السورة

﴿ لطيفة فى قوله تعالى ـ وقدر فيها أقواتها ـ ﴾

اعلم أن الله لما خلق الانسان قدر أقواته متفرقة ، وأحوج كلا الى كل بحيث ترى من يسكن بلاد آسيا يحتاجون الى أهل افريقيا ، وأهل افريقيا يحتاجون الى أهل آسيا ، وهذه التربية يراد بها التواصل طوعا أوكرها ، فتجد القطن بمصر وبأمريكا وكل الأمم فى حاجة اليه . وترى النخل لا يكون إلا بالبلاد الحارة . وليس للبلاد الباردة فيه من نصيب . وترى النارجيل فى الأقطار التى هى أشد حرارة . والبندق فى البلاد الباردة . وهكذا جعل لكل قطر خاصية . وأحوج الأمم الأخرى كل منها الى بقية الأمم . وكلما ارتقت الأمم ازدادت الحاجات . وهذا فى الحقيقة داعية الى التواصل والتحاب طوعا أوكرها . فتارة يتاجر بعضهم مع بعض وآونة يتصلون بالسياحات . وطورا بالكتب والمراسلات . ووقتا بالبعثات العلمية . وساعة بالحرب والقتال وهكذا كل ذلك دلالة عملية أن هذا الانسان تقدير قوته يدعوه الى التواصل والتحاب . وذلك يدعو بنا الى العلم فان تقدير الأقوات لما بحثناه وجـدناه يدعو الى البحث عنه . ولابحث إلا بعلم . فأمة الاسلام أصبحت ملزمة باتساع العلوم فى كل آية من كتاب الله والا فكيف يقول ـ وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين ـ وقد تقدم بقية الكلام اه

﴿ القسم الثالث من السورة ﴾

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ • إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ • فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ • فَأَرْسَلْنَا

عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ * وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ *

﴿ التفسير اللفظي ﴾

قال تعالى (فان أعرضوا) عن الايمان بعد هذا البيان (فقل أنذرتكم صاعقة) عذابا شديد الوقع كأنه صاعقة والصاعقة رعد معه نار (مثل صاعقة عاد وثمود * إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم) أى أتوهم من كل جانب وعملوا فيهم كل حيلة فلم يروا منهم إلا الاعراض . أو أنذروهم وقائع الله فيمن قبلهم من الأمم وعذاب الآخرة . وقوله (أن) هى تفسيرية بمعنى أى (لا تعبدوا إلا الله قالوا) أى القوم (لوشاء ربنا لأنزل ملائكة) أى لوشاء ربنا إرسال رسل لأنزل ملائكة . واذا كنتم أنتم بشرا ولستم ملائكة (فانا بما أرسلتم به كافرون) لأنكم لستم على ماشرطناه وهو أن يكون الرسول ملكا فرسالتكم لا نؤمن بها (فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق) أى فتعظموا فيها على أهلها بما لايستحقون فولايتكم عليها بلا استحقاق (وقالوا من أشدّ منا قوّة) اغتراروا بقوّتهم وشوكتهم (أولم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشدّ منهم قوّة) قدرة (وكانوا بآياتنا يجحدون) يعرفون أنها حق وينكرونها (فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا) باردة تهلك بشدّة بردها (فى أيام نحسات) جمع نحسة أى نكدات مشؤمات (لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا) أى عذاب الذّل فيها والهوان فى مقابلة استكبارهم فى الأرض (ولعذاب الآخرة أخزى) أشدّ خزيا وهو اسناد مجازى للمبالغة (وهم لاينصرون) لايدفع العذاب عنهم (وأما ثمود فهديناهم) فدللناهم على الحق (فاستحبوا العمى على الهدى) فاختاروا الضلالة على الهدى (فأخذتهم صاعقة العذاب الهون) أى ذى الهوان (بما كانوا يكسبون) من اختيارهم الشرك (ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون) الشرك والمعاصى وهم صالح والمؤمنون . انتهى التفسير اللفظى للقسم الثالث من السورة

﴿ لطيفة فى قوله تعالى ــ فان أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة ــ الخ ﴾

جاء فى بعض الروايات أن قريشا اجتمع ملأٌ منهم وقالوا التمسوا لنا رجلا عالما بالشعر والكهانة والسحر فليكلم محمدا وليأتنا لنعرف ما الذى جاء به فقال عتبة بن ربيعة أنا لها ، فلما دخل على النبىّ ﷺ قال له أنت خير أم هاشم وعدّد آباءه وقال : كيف تشتم آلهتنا وتسفه أحلامنا ، ثم عرض عليه المال والنساء والسيادة وأن يكفّ عن ذلك ، كل ذلك والنبىّ ﷺ ساكت ، فلما فرغ قرأ رسول الله ﷺ « حم * تنزيل من الرحمن الرحيم » الى قوله « فان أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة » فأمسك عتبة على فيه وناشده الرحم ثم رجع واحتبس ولم يخرج ، فذهب اليه أبوجهل فى جماعة واتهمه بالحاجة لمال من النبى ﷺ لأنه صبا اليه فغضب من ذلك عتبة وحلف لايكلم النبى ﷺ ولكنه قال أقول الحق ماهو بشعر ولا كهانة ولا سحر وقصّ عليهم ماجرى وماسمع وقال انى خفت أن ينزل بكم العذاب

وفى رواية أخرى انه وصل الى السجدة فسجد ثم قال أسمعت ياأبا الوليد فأنت وذاك فقام عتبة الى آخر ماتقدم وقال يامعشر قريش خلوا بين هذا الرجل وبين ماهو فيه واعتزلوه فوالله ليكوننّ لقوله الذى سمعت منه نبأ فان تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم وأن يظهر على العرب فلكه ملككم وعزّه عزكم وأنتم أسعد الناس به فاستهزؤا به ساخرين

﴿ القسم الرابع من السورة ﴾

وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ * وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ * فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ * وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ * وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ * فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ * ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ * وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ * إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ * وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ * وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ *

﴿ التفسير اللفظى ﴾

قال تعالى (ويوم يحشر أعداء الله الى النار) أى اذكر يوم يجمعون (فهم يوزعون) يساقون ويدفعون أو يحبس أولهم حتى يلحق آخرهم لكثرتهم (حتى اذا ماجاءوها) اذا حضروها (شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون) وذلك بلسان المقال أو بلسان الحال الخاصة التى لاتوجد فى غيرها

من الممكنات فتكون فيها علامات وشواهد دالة على أخلاقها وأعمالها وآرائها ، وذلك عبارة عن سوائل روحية متمايزة كل سائل يدل على خلق من الأخلاق لايحجب واحد منها الآخر كما يكون فى أنواع النبات والشجر روائح مختلفة ، وكما يكون فى الهواء أنواع الأصوات والروائح ، فالعلم والحلم والنشاط وحب الناس لها سوائل جيلة والجهل والطيش والكسل و بغض الناس لها سوائل رديئة . وتلك السوائل الروحية ملازمة لأربابها مضايقة لهم مشقية أومنعمة لهم مفرحة . وتختلف الناس بتلك السمات اختلافهم فى الدنيا بالألوان والأشكال والأصوات وخطوط اليد وخطوط الابهام بحيث لايشابه أحد غيره ، هكذا الأجسام الروحية بعد الموت تكون على هذا المنوال لاتشبه نفس نفسا أخرى فى أوصافها ، فهذه هى الشهادة التى تشهد بها أسماعهم وأبصارهم وجلودهم ، وههنا يبدو التعجب منهم قولا أوحالا وهوالمعبر عنه بالسؤال والجواب وهما (وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا) سؤال توبيخ (قالوا أنطقنا الله) نطقا لفظيا أوفعليا وانهما أوضح من النطق اللفظى (الذى أنطق كل شئ) فكل شئ يدل بلسان حاله دلالة أفصح من الدلالة اللفظية . انظرهذا المقام فى سورة النساء فانك ترى الكشف الحديث معجزة للقرآن . ثم قال تعالى (وهوخلقكم أول مرة) وفيكم دلائل واضحة كخطوط اليد والابهام والأصوات وألوان الوجوه وأشكالها وظهورآثارالأخلاق على الوجوه ، كل ذلك كان فى خلقكم أول مرة ، وقليل من الناس من يفطن له (واليه ترجعون) وتلك العلامات أصبحت أشد ظهورا عند رجوعكم اليه ، ولقد كنتم فى الدنيا تستترون عن الناس خوف الفضيحة والعار عند ارتكاب الذنوب وما ظننتم أن أعضاءكم وجسمكم الأثيرى الذى هو على صورة الجسم الظاهرى قد سطرت فيه جميع أعمالكم كأنه لوح محفوظ لها فلذلك ما كنتم تستترون عنها بترك الذنوب ، وهذا قوله (وما كنتم تستترون) خيفة (أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولاجلودكم) لأنكم لم تكونوا عالمين بشهادتها عليكم (ولكن ظننتم أن الله لايعلم كثيرا مما تعملون) أى ولكنكم اجترأتم على مافعلتم لظنكم أن الله لايعلم كثيرا مما كنتم تعملون وهوالخفيات من أعمالكم (وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم) مبتدأ وخبر ، وقوله (أرداكم) أى أهلككم خبر ثان (فأصبحتم من الخاسرين) إذ صرفتم مامنحتم من أسباب السعادة الى الشقاء به (فان يصبروا فالنار مثوى لهم) لاخلاص لهم منها (وان يستعتبوا فما هم من المعتبين) أى وان يسترضوا فما هم من المرضين ، أو يقال وان يسألوا العتبى وهى الرجوع الى ما يحبون فما هم من المجابين اليها (وقيضنا لهم) وقدرنا للكفرة (قرناء) اخوانا من الشياطين (فزينوا لهم مابين أيديهم) من أمر الدنيا وشهواتها (وماخلفهم) من انكار الآخرة (وحق عليهم القول) كلمة العذاب حال كونهم (فى أمم) فى جملة أمم (قد خلت من قبلهم من الجن والانس) وقد عملوا مثل عملهم (إنهم كانوا خاسرين) تعليل لذلك والضمير لهم وللأمم (وقال الذين كفروا لاتسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه) والغطوا فيه واللغط كثرة الأصوات فكان يرمى بعضهم بعضا باكثار الكلام وهوجرا حتى يختلط عليهم مايقول (لعلكم تغلبون) محمدا على قراءته (فلنذيقن الذين كفروا عذابا شديدا) وهم هؤلاء القائلون (ولنجزينهم أسوأ الذى كانوا يعملون) أى بأسوأ (ذلك) أى الأسوأ (جزاء أعداء الله) مبتدأ وخبر هى (النار لهم فيها دار الخلد) يقيمون فيها (جزاء بما كانوا بآياتنا يجحدون) ينكرون الحق (وقال الذين كفروا ربنا أرنا اللذين أضلانا من الجن والانس) وهما نوعا شياطين الانس والجن (نجعلهما تحت أقدامنا) نجعلهما فى الدرك الأسفل (ليكونا من الأسفلين) مكانا وذلا انتقاما ، ولما أنهى الكلام على قرناء السوء وانهم بعد المودة فى الدنيا يكونون أعداء فى الآخرة أعقبه بالقرناء الطاهرين الخيرين فقال (إن الذين قالوا ربنا الله) اعترافا بربوبيته (ثم استقاموا) فى العمل مع الثبات على الايمان والاخلاص (تتنزل عليهم الملائكة) عند الموت وعند الخروج من القبر ، ثم فسر ذلك فقال (أن) بمعنى أى (لاتخافوا) مما تقدمون عليه (ولاتحزنوا) على ماخلفتم فى الدنيا من أهل وولد فانا نخلفكم فى ذلك

(وابشروا)

(وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون) فى الدنيا على لسان الرسل (نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا) أى أنصاركم وأحباؤكم نلهمكم الحق ونحملكم على الخير بخلاف الشياطين كما تقدم (وفى الآخرة) بالشفاعة والكرامة أما الشياطين فانهم يكونون أعداء الكفار (ولكم فيها) فى الآخرة (ماتشتهى أنفسكم) من اللذائذ والكرامات (ولكم فيها ماتدعون) أى تتمنونه حال كونه (نزلا) رزق النزيل وهو الضيف (من غفور رحيم) * قال العلماء : واذا كان هذا كله نزلا وهو مايقدم للضيف فما بالك بما بعده ، وأقول : إن اللذات البدنية مهما طال أمدها لاتكفى النفس الانسانية ولا أمانى للنفوس إلا العالم الروحانى ﴿ وبعبارة أخرى ﴾ أن تصل الى لقاء الله تعالى وترقى فوق طبقات أهل الجنة وهو المشار اليه بقوله تعالى ـ ولدينا مزيد ـ وقوله ـ وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة ـ فكأن الصالحين يكونون فى الجنة أمدا على مقدار استعداداتهم ثم يبرحونها الى ماهو أعلى منها وهو العالم الأعلى المسمى بعليين كما ورد « أريت الجنة فاذا أكثر أهلها البله وعليون لأولى الألباب » وفسر الامام الغزالى البله بمن ليس لهم فكر فى حب الله تعالى ، فهؤلاء يقفون عند الثواب الجسمى وليس عندهم شوق الى الامور الالهية ، فهؤلاء هم الصالحون الذين يصلون ويصومون لأجل لذات جسمية فى الآخرة فينالونها ، ولكن هناك من هم أرقى منهم وهم عشاق العلم فى الدنيا أى نظام هذه الدنيا وعجائبها ، فهؤلاء اذا ماتوا طاروا فى عالم الجمال وتركوا اللذائذ الحسية لمن لم يعرفوا هذا النعيم الأعلى . انظر ايضاح هذا المقام فى أوائل ﴿ سورة البقرة ﴾ ثم قال تعالى (ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله) الى عبادته (وعمل صالحا) فيما بينه وبين ربه (وقال إننى من المسلمين) فيعتقد قلبه الاسلام ويتلفظ به (ولاتستوى الحسنة ولا السيئة) فى الجزاء وحسن العاقبة ، ولا الثانية مزيدة لتأكيد النفى بمعنى ان الحسنة والسيئة متفاوتتان والحسنة والأحسن منها متفاوتتان كذلك ، فاذا اعترضت سيئة وحسنة تخذ بالحسنة ، واذا اعترضت حسنتان فى دفع السيئة تخذ فى دفعها بالتى هى أحسن ، فاذا أساء اليك رجل فليس طريقه أن تسىء اليه وهناك حسنتان : العفو عنه ، والاحسان اليه ، والاحسان أحسن من العفو تخذ به ، فاذا ذمك فلاتكتف بالعفو بل امدحه وهكذا (فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم) فانك اذا فعلت ذلك انقلب عدوك المشاق مثل الولى الحميم مصافاة لك (ومايلقاها) أى يلقى هذه السجية وهى مقابلة الاساءة بالاحسان (إلا الذين صبروا) على تحمل المكاره وتجرع الشدائد وكظم الغيظ وترك الانتقام (وما يلقاها إلا ذوحظ عظيم) من الخير وكمال النفس (واما ينزغنك من الشيطان نزغ) النزغ يشبه النخس ، والشيطان ينزغ الانسان كأنه ينخسه أى يبعثه الى مالاينبغى أى وان صرفك الشيطان عما وصيت به من الدفع بالتى هى أحسن (فاستعذ بالله) من شره ولاتطعه (إنه هو السميع) لاستعاذتك (العليم) بنيتك وصلاحك . تم التفسير اللفظى للقسم الرابع

﴿ القسم الخامس من السورة ﴾

وَمِنْ ءَايَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ * فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ * وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِى أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِى ءَايَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِى ءَامِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ

اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير • إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وإنه لكتاب عزيز • لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد • ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم • ولو جعلناه قرءانا أعجميا لقالوا لولا فصلت ءاياته ءأعجمي وعربي قل هو للذين ءامنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في ءاذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد • ولقد ءاتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم وإنهم لفي شك منه مريب • من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد • إليه يرد علم الساعة وما تخرج من ثمرات من أكمامها وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه ويوم يناديهم أين شركاءى قالوا ءاذناك ما منا من شهيد • وضل عنهم ما كانوا يدعون من قبل وظنوا ما لهم من محيص • لا يسئم الإنسان من دعاء الخير وإن مسه الشر فيئوس قنوط • ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ • وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونا بجانبه وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض • قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو في شقاق بعيد • سنريهم ءاياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد • ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم ألا إنه بكل شىء محيط •

« التفسير اللفظى »

قال تعالى (ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر) لأنهما مخلوقان مثلكم ، وقد تقدم الكلام بالاسهاب على هذا وما قبله عند تلخيص تفسيرها فى أول هذه السورة ، وقوله (واسجدوا لله الذى خلقهن) الضمير للأربعة (إن كنتم إياه تعبدون) ولا جرم أن السجود أخص أنواع العبادات ، فمن سجد لشمس أوقمر ظانا انه يتقرب الى الله فهو فى ضلال (فان استكبروا) عن الامتثال (فالذين عند ربك) من الملائكة (يسبحون له بالليل والنهار) دائما (وهم لا يسئمون) لا يملون وقد تقدم ذلك فارجع اليه إن شئت (ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة) يابسة متطامنة (فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت) تحركت بالنبات (وربت) انتفخت (إن الذى أحياها لمحيى الموتى إنه على كل شئ قدير) فيكون

قادرا على البعث (إن الذين يلحدون فى آياتنا) يميلون عن الحق فى أدلتنا بالطعن (لايخفون علينا) وعيد لهم على تحريفهم القرآن عن جهة الصحة وطعنهم (أفمن يلقى فى النار خير أم من يأتى آمنا يوم القيامة) تمثيل للمؤمن والكافر (اعملوا ماشئتم) نهاية فى التهديد (إنه بما تعملون بصير) فيجازيكم (إن الذين كفروا بالذكر) بالقرآن بالطعن فيه وتحريف تأويله (لما جاءهم) حين جاءهم يعذبون (وانه لكتاب عزيز) كثير النفع عديم النظير محمىّ بعناية الله (لايأتيه الباطل) التبديل أو التناقض (من بين يديه ولا من خلفه) بوجه من الوجوه (تنزيل من حكيم حميد) مستحق للحمد (مايقال لك) مايقول لك كفار مكة ونحوهم (إلا ماقد قيل للرسل من قبلك) أى إلا مثل ماقيل الخ من كلمات جارحة ومطاعن (إن ربك لذو مغفرة) لأوليائه (وذو عقاب أليم) لمن هم أعداؤهم ، ولما قالوا لماذا لم ينزل القرآن بلغة العجم قال الله (ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته) بينت بلسان نفقهه (أأعجمىّ وعربىّ) أى أكلام أعجمى ومخاطب عربى (قل هو للذين آمنوا هدى) الى الحقّ (وشفاء) لما فى الصدور من الشك والشبهة (والذين لايؤمنون) مبتدأ هو (فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى) أى صموا عن استماع القرآن وعموا عنه فلا انتفاع لهم به (أولئك ينادون من مكان بعيد) فهم لعدم قبولهم الحق أشبه بمن ينادون من مكان بعيد للإيمان فلايسمعون لبعد المسافة (ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه) مابين مصدّق ومكذّب (ولولا كلمة سبقت من ربك) وهى فصل الخصومة يوم القيامة (لقضى بينهم) باهلاك المكذّبين (وانهم) أى الذين لايؤمنون (لفى شكّ منه) من التوراة أو القرآن (مريب) موجب للاضطراب (من عمل صالحا فلنفسه) نفعه (ومن أساء فعليها) ضرّه (وما ربك بظلام للعبيد) فيعذب غير المذنب (اليه يردّ علم الساعة) أى اذا سأل سائل عنها يقال له لايعلم وقت قيام الساعة إلاهو والخلق محجوبون عن معرفة ذلك ، ثم أشار بطرف خفىّ الى نظام يوم القيامة وجزاء المحسن والمسىء ليكون علما للمستبصر فقال (وما تخرج من ثمرات من أكمامها) جمع كم بالكسر (وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه) إلا مقرونا بعلمه واقعا حسب تعلقه به ، فكما أن الثمر لايخرج من الاكمام إلا وهو عالم به وأن حمل الحامل ووضعها لا يكون إلا بعلمه هكذا لاتكون الساعة إلا بتقديره ومشيئته وكما أن الثمر نتيجة الشجرة وعلى مقتضاها والولد يكون نتيجة أحوال الوالدين جسما وحالا غالبا هكذا تكون النفوس المنسلة من الأجسام الأرضية هناك على مقتضى ماكانت عليه فى الدنيا ـ ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضلّ سبيلا ـ وكأن هذا العطف أفادنا بطرف خفىّ أن الناس يوم القيامة على حسب أحوالهم فى الدنيا كالثمر على مقتضى شجره والولد على مقتضى أبويه ، وعلى هذا تكون العوالم كلها متوافقة فى نظامها متسابقة الى حسن النظام والنتائج الخاصة بها ، فاذن يكون العالم كله راجعا لمبدأ واحد لأن النظام الواحد مدبره واحد ، ولذلك أعقبه بقوله (ويوم يناديهم أين شركائى) بزعمكم (قالوا آذناك) أعلمناك (مامنا من شهيد) من أحد يشهد لهم بالشرك ، وذلك انهم لما رأوا العذاب تبرّؤا من الأصنام (وضلّ عنهم ماكانوا يدعون) يعبدون (من قبل وظنوا مالهم من محيص) مهرب (لايسأم) لايملّ (الانسان من دعاء الخير) من طلب السعة فى النعمة (وإن مسه الشرّ) الضيق (فيؤس) من الخير (قنوط) من الرحمة (ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضرّاء مسته ليقولنّ هذا لى) أى واذا أحللنا الصحة محل المرض والغنى محل الفقر قال ان هذا حق استوجبته بأعمالى وهو لايزول عنى بل هو دائم (وما أظنّ الساعة قائمة) أى ما أظنها ستقوم (ولئن رجعت الى ربى) كما يقول المسلمون اليوم (إن لى عنده للحسنى) أى الحال الحسنى والكرامة والنعمة ، فاذا كان الله أعطانى نعمة فهو يوم القيامة يوليني كرامته (فلننبئنّ الذين كفروا بما عملوا) فلنخبرنهم بحقيقة ماعملوا من الأعمال الموجبة للعذاب (ولنذيقنهم من عذاب غليظ) شديد لايفتر عنهم (واذا أنعمنا على الانسان أعرض) عن النعم وبطر النعمة فنسى الشكر (ونأى بجانبه) تباعد عن ذكر الله ودعائه

وتكبر وتعاظم ، والجانب المكان والجهة فنزلت منزلة نفس الانسان كما تقول كتبت الى جهة فلان والى جانبه العزيز أى نفسه ، فقوله — نأى بجانبه — معناه نأى بنفسه (وإذا مسه الشر) الضر والفقر (فذو دعاء عريض) كثير أى يقبل على الدعاء والابتهال والتضرع (قل) يامحمد (أرأيتم) أخبرونى (إن كان من عند الله) أى القرآن (ثم كفرتم به) من غير نظر (من أضل ممن هو فى شقاق بعيد) أى من أضل منكم وجواب الشرط محذوف دل عليه الاستفهام أى فأنتم ضالون وانما لم يقل منكم بل ممن هو فى شقاق بعيد أى خلاف للحق بعيد عنه لبيان حالهم وتقريعهم من غير مواجهة بالخطاب (سنريهم آياتنا فى الآفاق) من فتح البلاد شرقا وغربا وظهور العلوم فى العالم الانسانى ، وكشف ما كان مجهولا فى البحر والبر ، وتحليل المركبات الى عناصرها وظهور مخبآتها وانها مركبات بحساب لاخلل فيها كما بينا فى القرآن إذ قلنا — وأنبتنا فيها من كل شئ موزون — وقلنا — وان من شئ إلا عندنا خزائنه ومانتزله إلا بقدر معلوم — وقلنا — وكل شئ عنده بمقدار — وقلنا — إنا كل شئ خلقناه بقدر — وقلنا — والسماء رفعها ووضع الميزان * ألا تطغوا فى الميزان — وقلنا — إن الله سريع الحساب — وهذه كلها ستظهر لكم أيها الناس فتعلمون أن هذا القرآن حق . أقول : قد ظهر هذا كله اليوم وعرفنا أن النبات بحساب فى عناصره الداخلة فيه وكذا الحيوان وهكذا حركات الكواكب والمسافات التى بين كل كوكب وآخر ، كل ذلك ظهر فى العلم اليوم وكله معجزة للقرآن إذ قال الله — سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم — وهكذا خاطب الأموات الأحياء وكلموهم وتعارف الأحياء والأموات وفهم كل الآخر ، كل ذلك معجزة للقرآن ، وهكذا نظر الناس عن تشريح الحيوان وتشريح الانسان ونظام النبات ، كل ذلك على وتيرة واحدة — ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور * ثم ارجع البصر كرتين — فانك لاتجد خللا إلا عند الجاهلين ، فهذه العلوم التى ظهرت فى العالم الانسانى يجب على العقلاء أن يدرسوها (حتى يتبين لهم أنه) أى القرآن (الحق أولم يكف بربك) أى أولم يكف ربك أى ألم تحصل الكفاية به ثم أبدل منه قوله (أنه على كل شئ شهيد) أى محقق له فيحقق أمرك باظهار الآيات الموعودة أى ألم تكفهم شهادة ربك على كل شئ أى ان هذا الموعود من إظهار آيات الله فى الآفاق والأنفس سيرونه ويشاهدونه فيتبينون عند ذلك أن القرآن تنزيل عالم الغيب (ألا إنهم فى مرية) فى شك (من لقاء ربهم ألا إنه بكل شئ محيط) عالم بجمل الأشياء ومفصلاتها . انتهى التفسير اللفظى للقسم الخامس من السورة والحمد لله رب العالمين

﴿ لطائف هذا القسم ﴾

(١) فى قوله تعالى — ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت — وقوله — اليه يرد علم الساعة وماتخرج من ثمرات من أكمامها وماتحمل من أنثى ولاتضع إلا بعلمه —

(٢) فى قوله تعالى — لايسأم الناس من دعاء الخير — الخ

(٣) فى قوله تعالى — سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم — الخ

﴿ اللطيفة الأولى ﴾

(فى إنزال الماء من السماء . وانبات النبات ، واخراج الثمرات ، ووضع الحاملات أطفالهن ، مع قوله تعالى — اليه يرد علم الساعة —)

(١) اعلم أن المواد المعدنية والنباتية والحيوانية لاتنمو ولاتعيش إلا فى الظروف الخاصة بها ، فاذا لم تكن الظروف الموافقة فانها تبقى فى حالة لاتغير فيها ولانمو ولاحياة ، ومتى لاءمت الظروف اندفعت ذرات العناصر

ونقاربت

وتقاربت وتجاذبت وتحابت ، وبتركبها مع بعضها تنشأ هذه العجائب المنظورة والبدائع المسطورة والزهر والشجر والحدائق والجنات والأعناب والأنعام والغزلان والآساد والذؤبان ، فنرى النبات بما يعتوره من الحرارة والنور والرطوبة واليبوسة يهبّ ويرتفع تارة مسرعا وأخرى مبطئا ، كل ذلك لحوزه ما يلائمه أوفقده ذلك وهذه قاعدة مطردة كانت قديما وتبقى الى آخر الزمان وانقطاع الدهر وزوال العصور

(٢) يستنتج من ذلك أن مادّة الحياة الأولى انما جاءت من تجمع البسائط التي لاءمتها الظروف والأحوال

(٣) تركيب العناصر والموادّ التي على وجه الأرض يحصل بثلاث طرق كل واحدة أقلّ مما بعدها وأرقى عما قبلها ﴿ الطريقة الأولى ﴾ أن تركب العناصر تركيبا خاليا من صناعة الكيمياء ونظامها كما تركب الأحجار في الجبال فان تركيبها من عناصر ليس على نظام كيماوى ولا نظام حيوانى إذ ليس هناك قانون الكيمياء ولا قانون الحياة ، وذلك كحجر الجير المسمى أيضا بحجر البناء وهوكتل مختلفة الحجم ولونه أبيض أوسنجابى أومحمر وله أسماء مختلفة فيقال (دبش) و (دقشوم) وهذه الأحجار مكوّنة من كالسيوم وأوكسوجين ، والكالسيوم فلز ذولمعان أصفر يتغير بسرعة فى الهواء الرطب ، واذا سخن على صفيحة من البلاتين يحترق بلهب شديد اللمعان وهو يحلل الماء على الدرجة المعتادة ، فهذا الفلز وهوالكالسيوم مع الاكسوجين يكون مخلوطا بالرمل والطفل (بفتح الطاء) وأوكسيد الحديد وكربونات المغنسيوم ، فهذه الأحجار جميعها تكون مخلوطة بتلك الأجسام ، فاذن هذا ليس تركيبا كيمائيا بل هو أمر اتفاقى لاقانون له كما يبنى الناس بيوتا بموادّ مختلفة ﴿ الطريقة الثانية ﴾ طريقة التركيب الكيماوى ﴿ مثال ذلك ﴾ البوتاسا الكاويه وهى عبارة عن مركب من البوتاسيوم والاكسوجين والايدروجين والكالسيوم والكربون ، فيكون ثلاثة أجزاء من الاكسوجين وجزء من الكربون ومثله من الكالسيوم واثنان من البوتاسيوم وجزء واحد من الايدروجين فهذا المركب على هذا النظام يسمى مركبا كيمائيا ، فهذه الأجزاء تغلى فيحصل الاتحاد بغليانها ثم تروق وتصفى وتصعد بسرعة و بعد التصعيد تصهر فى جفنة من الفضة وتصبّ على سطوح من الرخام أوفى قوالب معدنية وهو فى حداثته يكون قطعا بيضاء معتمة ، فالمركب من هذه الأجزاء الخمسة يصبح جسما جديدا قد عدم جميع صفات الأجزاء التى تركب منها فلاتجد للكربون ولا للكالسيوم ولا للبوتاسيوم أثرا فى هذا الجسم الجديد بخلاف ماتقدّم فى حجرالجير فانك تجد الذرات الرملية والذرات الطفلية وهكذا حافظة خواصها . فهذا هو الفرق بين الأوّل والثانى ﴿ الطريقة الثالثة ﴾ طريقة الحياة النباتية والحيوانية . هاأنت ذا أيها الذكىّ قد تبين لك كيف كان المركب العادى قد حفظت أجزاؤه خواصها والمركب المعدنى قد فقد المركب فيه خواصه وأصبح عالما جديدا بخواص جديدة تخصه . فانظر الآن فيما أقصه عليك وتأمّل فى هذه الأرض التى نعيش عليها . نعيش عليها ونحن لانفكر فى أقرب الأشياء الينا . أقرب الأشياء الينا حياتنا وحياة النبات والحيوان . فاذا أخذنا الاكسوجين والاودروجين والاوزوت والكربون أعنى اذا أخذنا مقادير من هذه الأربعة التى عليها العماد فى تركيب كل نبات وحيوان وانسان أى ان كل حىّ لابدّ من أنه يتركب منها مع اضافة عناصر أخرى أو أملاح وجعلنا هذه المقادير مع بعضها بلانظام كانت أشبه بتركيب حجر الجير فيما تقدم . واذا ركبناها بطريق كيمائى بنظام تام وأجزاء ثابتة أصبحت لها صفة جديدة وفقدت خواص الأجزاء الأولى ولكن هل يمكنها أن تنمو وهل يمكنها أن تحس وتتحرّك . كلا . ثم كلا . فليركب الكيمائيون ماشاؤا فانهم لايقدرون أن يخلقوا ورقة واحدة ولا دودة ولا زهرة . فعلماء الكيمياء أولئك الذين يركبون العناصر بنظام تام على قوانين خاصة لايقدرون أن يذروها عاجزون جميعا عن إحداث حال جديدة للمركب بها يحس أو بها ينمو أو يتحرّك ! إذن فلنبحث عن الحياة

﴿ الحياة سرّ سار فى المادّة الأصلية للكائنات ﴾

لقد تعلم أيها الذكىّ أن المادة تتنوّع الى نور والى حرارة والى كهربائية والى مغناطيسية . هكذا تتنوّع الى قوّة حيوية وهذا التنوّع سرّ لايدركه الناس فهوقاسر يقسرها وقاهر يقهرها يتوّعها تنوّعات مختلفات . فما مثل الحياة إلا كمثل من رمى حجرا الى أعلى فارتفع الى الجوّ ولما بطلت القوّة الرافعة له التى استمدّها من الرامى كرّ راجعا الى الأرض . هكذا كل نبات وكل حيوان وكل انسان فتكسب النطفة فى الانسان قوّة وسرا يعطيها حياة فتأخذ فى الارتقاء والنموّ . وهناك تكون فى الجسم عمليتان : عملية الهدم وعملية التجديد ففى أوّل الحياة تقوى عملية التجديد على عملية الهدم كما يقوى الحجر وهوصاعد على مقاومة الجاذبية . فاذا بلغ الانسان أشدّه تعادلت القوّتان ثم تغلب قوّة الهدم على قوّة التجديد فيأخذ الجسم فى الانحطاط والرجوع الى الوراء فيصير هرما فيموت ، فالموت إذن ناجم من نفاد القوّة الحيوية كما نفدت القوّة الرافعة للحجر فهبط وليس الموت من أجل تلف الأعضاء وضعف وظائفها بل المسبب الأصلى للموت هو نفاد القوّة الحيوية يتبعها ذلك الضعف ، فالضعف تابع لا أصل ، ولو بقيت القوّة الحيوية بحالها لأمكن أن تقوم بالتجديد باذن الله تعالى

﴿ كيف بدأت الحياة ﴾

بدأت الحياة بمادّة هلامية فى قعر البحر كشفها العلماء وسموها (بروتو بلاسما) وهى مادّة رخوة لزجة تصيب كل الاشكال بسهولة ، ومتى تكاثفت كانت منها (حويصلات) جمع حويصلة ويقال لها (القلالى) فالحوصلة الواحدة تنقسم الى قسمين وكل قسم الى قسمين وتصبح هذه الحويصلات الجديدة متمتعة بحياة ونموّ كالحوصلة الأولى ، والأسهل أن نسميها بيضا جمع بيضة كبيضة الدجاجة تسهيلا للفهم ، فكل نبات وكل حيوان وكل انسان فى الأصل بيضة واحدة تنقسم الى قسمين كل منهما يصير بيضة وهكذا هاتان تنقسمان ويطرد الانقسام ويصبح كل قسم بيضة كاملة تامة الحياة تتغذى بغذاء خاص ، فكل نبات تراه وكل انسان تراه وأنا وأنت أجسامنا عبارة عن بيضة انفلقت فصارت بيضتين كل منهما كالأولى وهكذا ، وفى أثناء الانقسام صارلنا العين والأذن والقلب والشعر وصار للنبات الزهر والورق والثمرات وصار للحيوان الناب والظلف والظفر والقرن والأرجل وهكذا . هذه صورة الحياة على وجه الأرض

﴿ صورة ارتقاء الحياة على الأرض ﴾

إن الحياة على وجه الأرض سلسلة غير منقطعة كما قال الله تعالى - ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت - فالنبات عبارة عن البروتو بلاسما وقد تكوّنت فصارت بيضة فاجتمعت البيضات فكان النبات والنبات يولد ويحيا ويموت ويغتذى ويتناسل وهومحتاج الى النور والحرارة والماء وتقتله الموادّ السامّة ويتنفس وفى بعض أنواعه إحساس . ثم ان النبات من أعلاه متصل بالحيوان فان نوع التوفيت يربط الحيوان بالنبات فهوعلى شكل النبات لثبته بالأرض ولكنه حيوان ويليه الاخطبوط الهلامى وهولايمتاز عن النبات إلا بامكان التنقل وله معدة وبعض ظواهر الأعصاب وليس له نظر ولاشم ولاسمع . وبعد ذلك الديدان وهو أقوى وأقدر وأكمل أعضاء من الاخطبوط . ثم الحلزون والبزاق وذوات الأصداف التى ليس لها فقرات . ثم الحيوانات القشرية التى لها قشر كسرطان البحر . ثم عقرب البرّ وله سمع وبصر وله أعصاب عقدية . وبتلك الأعصاب تكون حركة الغذاء ودورة الدم . ثم ذوات الفقرات كالسمك وله دماغ ونخاع شوكى . ثم الدبابات الأرضية . ثم الطيور وأنثاها تبيض . ثم ذوات الثديين . ومنها ذوات الكيس وهى تحمل فيها صغارها وهى توجد الآن فى استراليا . وهكذا ترتقى الحيوانات حتى تصل الى القرد ثم الانسان

فهذه هى السلسلة التى نظمها الله عزّوجل من أدنى الى أعلى . فبينما تكون الحياة مادّة رخوة فى البحر

اذا

اذا هى قد ارتقت فى النبات من أدناه مرتقية الى أعلاه . وفى الحيوان الأدنى مما يلى النبات وترتقى فيه الى أعلاه حتى تصل الى الانسان . ومعنى هذا أن هذه العوالم أشبه بعقد منظم موضوعة خرازته بنظام مهندم . وليس معنى هذا أن كل خرزة ولدت الخرزة التى بعدها بل معناه أن الذى نظم هذا أحسن صنعه ولم يدع فى العقد موضعا خاليا ، فأما كون هذه الخرزة قد انتجت مابعدها فليس ذلك معلوما بل قال به قوم ولم يقم الدليل عليه الآن ، وهذا لايهم الباحث إنما المهم النظام والجمال

﴿ خلق الانسان ﴾

وهنا وصلنا الى مقصودنا من تفسير الآيات ، فها أنت ذا اطلعت على نظام النبات إجمالا وكذا الحيوان وانظر قوله تعالى — وما تخرج من ثمرات من أكمامها وماتحمل من أنثى ولاتضع إلا بعلمه — ألست ترى أن الأكمام التى على الشجر والحمل الذى فى رحم المرأة عبارة عن تلك المادة الهلامية مضاعفة أضعافا مجتمعة ، فتأمل كيف كان اجتماع تلك البيضات التى لاعدد لها منتهيا بفوائد متحدة أى كيف كانت نتائج الأشكال النباتية ملائمة لنتائج الأشكال الحيوانية وانها مناسبة لها غذاء ودواء . ثم كيف كان هذا الانسان إذ كان أرقاها يود أن يستولى عليها عقليا وعمليا ، فهو مغرم بمعرفة كل نبات وحيوان و بحوز كل منهما . إذن انظر فى تركيبه فى بطن أمه . انظر كيف كان خلقه تدريجيا لاطفرة . يقول الله تعالى — اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الانسان من علق — . وانظر كيف رأى العلماء انه يكون دودة صغيرة وهى العلقة المذكورة ثم حلزونة ثم سمكة ثم ذبابة ثم قردا ثم يتوارى ذنبه و يصير انسانا . فالدودة والحلزونة والسمكة والذبابة والقرد هى التى أشار لها الله تعالى فقال : — ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة — أى مسوّاة وغير مسوّاة ، فما قبل الانسانية هى غير المسوّاة ، والانسانية هى المسوّاة ، واعلم أن هذه الصور التى رآها العلماء ليست يقينية بل هى تخمينية (انظر هذا المقام فى سورة آل عمران)

وانما المهم فى هذا المقام أن نفكر فى أمر حياتنا فانها فى أوّل أمرها بيضة تصلح للنبات والحيوان ثم ترتقى فتصير حيوانا ثم تصير انسانا

هذا درس ألقاه الله الينا . يقول لنا : أنا لم أخلقكم لأهينكم بل أنا أرقيكم . ففى أمد قصير ارتقيتم فى بطون أمهاتكم درجات كثيرة وهى النباتية والحيوانية . فاذا عشتم على وجه الأرض رأيتم الحيوان خاضعا لكم . ثم أنزلت عليكم علوما وقلت لكم إن لى ملائكة ولى عرش وعالم أرواح و بعث الى آخره . فاذا متم فاعلموا أن العوالم التى تصلون اليها عظيمة جدا لاتقاس بسالكم . فالى يرد علم الساعة لاغيرى لأنها عوالم لاتعقلونها لأنكم لم تروها ولاتدركون زمانها إذ جعلته مجهولا عندكم لحكمة أردتها ونعمة قصدتها . ألاوان خروجكم من أجسامكم الأرضية كخروج الثمر من أكمامه والولد من بطن أمه . فكلاهما نتيجة لما خرج منه وقد انتهى الى عوالم لم تخطر بباله فهل كان التفاح يشعر أنه يكون على موائد الملوك أوكان الجنين فى بطن أمه يدور بخلده انه يوما ما يكون ذا ملك عظيم ويذهب ويجيء فى الأرض ويركب الخيل ويدبر الامور . هكذا حياتكم بعد موتكم تكون فى عالم نسبته الى أرضكم كنسبة الدنيا الى بطن الأم

هذا اذا كانت النفوس عظيمة . فأما النفوس الضعيفة فانها تكون هناك عمياء أشبه بالطفل الأعمى الأصم فى الأرض فتكون السعة هناك على مقدار درجات الأرواح العائشات هناك . وبهذا تم الكلام على اللطيفة الأولى والحمد لله رب العالمين



﴿ اللطيفة الثانية ﴾

(فى قوله تعالى ـ لايسأم الانسان من دعاء الخير وان مسه الشرّ فيؤس قنوط ـ)

هذا بيان لحال الانسان اذا لم يتنوّع العلم والدين عقائده وآراءه . إن الناس قبل أن يهذّبوا ويربوا متى أصابهم الشرّ أخذوا يقلقون ويضطربون ويندبون حظهم ويحزنون وييأسون من روح الله ، ويظنون أنه لافرج لهم ولاعزّ لهم ، وانه قد أقفلت فى وجوههم أبواب الفلاح والنجاح ، فاذا سكن جأشهم وخف حلمهم ورجعت اليهم عقولهم أخذوا يدعون ويتضرّعون ويلحون أن يعطيهم الله تعالى الغنى والسعة ، فاذا أجيبوا الى دعائهم وأعطوا نعمة نسوا ما كانوا فيه من الضيق وظنوا أن تلك النعمة دائمة لهم لاتفارقهم وهم أحقّ بها بل ربما ظنوا دوامها وأنكروا الآخرة لأن النعم أبطرتهم واللذات أسكرتهم

فهذا الانسان أمره عجيب ، يسلب النعمة فيضطرب ويكون مسلوب اللب يائسا حزينا . ثم اذا خفّ الأمر عليه دعا الله . فاذا كثرت النعم أصبح أعمى عن الحقائق ناسيا ربه ظانا أن مالديه من الصحة والمال والمنصب والقوّة دائم وهذا من غفلاته وجهالاته . وليس يخرج الانسان من هذه الجهالة العمياء إلا التذكر والتفكر ودرس العلوم والحكمة والصبر حتى يعلم الانسان أن النعمة والنقمة كل منهما درس له . فكل حال من أحوالنا دراسة لنا . فكما ندرس أطوار حياتنا فى الرحم وفى الحياة الدنيا وندرس الحيوان والنبات يجب أن ندرس مايجيء به الله لنا من المكاره والنعم لننظر ما فائدة ذلك لنا لا لأننا نيأس تارة ونغترّ أخرى فان ذلك فعل الذين عاشوا كالحيوان لايفكرون ولايعقلون . انتهى الكلام على اللطيفة الثانية

﴿ اللطيفة الثالثة ﴾

(فى قوله تعالى ـ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ـ)

لقد أشبعت الكلام على هذه الآية فيا تقدم . ولكن أقول لك الآن ان هذا الزمان أخصّ الأزمنة بهذه الآية وأولاها بها

لتعلم أيها الذكيّ أن هذا زمان الانقلاب . ان الله قد كشف العلوم وأظهر العجائب فى جميع أنواع الحكمة والمسلمون لايعلمون . يقول الله هنا ـ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ـ . أنت قرأت فى التفسير الى هذا المقام واطلعت على ما أبدعه الله فى هذه الدنيا وعلى العلوم التى أبرزها فى الأرض وأن مافى هذا التفسير خلاصة العلوم وجمالها وبهجتها وحكمتها ولن تراه مجموعا فى كتاب . هو خلاصة علوم هذه الكرة وثمرتها . ففيه من كل فن وكل علم وكل حكمة . أفلست ترى بعد هذا انك قد اطلعت فيا تقدم من هذا التفسير على تفسير هذه الآية أعنى انك قد قرأت فيه معنى هذه الآية . فاذا سمعت الآن قوله تعالى ـ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ـ . أفلست تقول نعم قد تبين لى أنه الحق وأن الله حق ذلك . وليس معنى هذا أن تقول إنى آمنت بالله ورسوله فالايمان أمر يشترك فيه الجاهل والعالم وانما أقول انه قد تبين لك أن هذا الدين حق وانى واثق انك ستقول نعم . أقول لك : إذن أصبح دين الاسلام ليس هو الذى يعرفه العامة بل هو دين الحكمة والعلم ودين الفلاسفة أى انه هو الدين الذى لما ظهرت العلوم الحديثة كانت مبينة حقيقته . واذا كان كذلك فأنت صرت شريكى فى العمل أعنى انه حرام عليك أن تنام . قم أيها الذكيّ وقل للمسلمين اقرؤا العلوم وادرسوها حتى تقوموا بنصيبكم من إسعاد الأمم فانكم الآن عالة على أوروبا . ادرسوا العلوم وأقيموا الحق فان هذا هو الزمان الذى أظهر الله فيه سرّ كتابكم وقد قال لكم ـ حتى يتبين لهم أنه الحق ـ

فقل للمسلمين إن الاقتصار على قراءة حديث « بنى الاسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله الخ » عار عليكم فلا تقتصروا على ظواهر الدين بل ادرسوا حقائق الكائنات

يقول الله لكم ـ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم ـ فهل رأيتم ذلك ؟ كلا . لاترونها إلابدراسة . فليدرس المسلمون كلهم على قدر استطاعتهم ليجدّوا . والله يسأل يوم القيامة وعند الموت من يقرأ هذا التفسير ولايقوم هو مستقلا بالعمل لرقى الانسانية

أيها المسلمون : أنتم خلفاء الله فى الأرض ونبينا خير الأنبياء ونحن خير أمة أخرجت للناس . وهذه العلوم يجب علينا أن ندرسها . وهذا التفسير وأمثاله جاء فى وقت انتقال الأمم من حال الى حال والمسلمون سيأخذون دورهم وأنتم حتما آخذون دوركم فان لم تقوموا به طوعا قمتم به كرها . وهذا التفسير وأمثاله تنبيه وانذار للأمم الاسلامية . وسيقرؤه النبهاء فيهم بشوق . فان لم يوقظوا الأمم الاسلامية بأقوالهم وأعمالهم فليعلموا أن الله قد أعدّ العدّة لكل متقاعس عن العمل من الأمم والأفراد . وسينزل غضبه على كل عالم لا يعظ وعلى كل أمة متقاعسة متقاعدة ـ إن الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ـ ، وكل من حضّ المسلمين على ماذ كرنا من الحكمة والعلم فله أجر المجاهدين . ومن ترك ذلك فهو من المقصرين

إن ورود هذه الآية فى هذه السورة الواردة فى أواخر القرآن لمما يدعو الى العجب فان القارئ لما قبلها من السور ، المطلع على ماحوت من بدائع الحكمة فى الأنفس والآفاق يقرّ اذا وصل اليها بأن القرآن يدعو الى علم الأنفس والآفاق . فاذن تأخرها الى الربع الأخير من القرآن بل الخمس الأخير منه لهذه الحكمة العجيبة

ألا وان هذا هو الزمان الذى سيرقى الله فيه المسلمين . فطوبى لمن بادر من العاملين . و بشرى لمن كان من المبشرين الموقظين . انتهى الكلام على اللطيفة الثالثة والحمد لله رب العالمين . كتب يوم الاثنين (٢٦) رمضان سنة ١٣٤٣ هجرية

(تذييل لتفسير هذه السورة)

(وفيه ثلاثة فصول)

(الفصل الأوّل فى إيضاح الكلام على قوله تعالى ـ اليه يردّ علم الساعة ـ)

بعد أن أتممت الكلام على هذه السورة خطر لى ليلا أن ألحقها بهذه الجواهر الثلاث فلم أدافع الخاطر لأنى رأيته خاطر خير . فهذه الأولى فى ردّ علم الساعة الى الله تعالى مع ذكر الحمل والوضع والثمر والأكمام

سبحان من أبدع هذه الدنيا وأحكم نظامها . تأمل رعاك الله فى الدرّ المكنون والياقوت البديع . انظر كيف جعل للانسان هذه المراتب وهو جنين . ينتقل مراتب فى الرحم . فمن دودة صغيرة وهى العلقة الى قوقعة الى سمكة وهكذا حتى يصل الى هيئة القرد فهيئة الانسان

ظنّ المشرّحون وعلماء الأجنة اليوم أن تلك هى الأدوار التى مرّ عليها وهم بذلك يوضحون نظامه ، يمرّ الانسان على هذه الأدوار وتكون نفسه فى تلك الأدوار مشاكلة لنفوس تلك الحيوانات ولكنها تمرّ عليها مسرعة ثم تقفز قفزة فتكون إنسانا ، فاذا رأينا الطفل يداعب الهرّة ويحب الحمامة و يلعب بالعصفور فذلك لأنه كان بالأمس مثلها . إن المدرّس لاينجح فى تعليم تلاميذه إلااذا مرّ على أدوار التعليم وكان تلميذا فيمكنه أن يمثل أدوار التعليم كما مثل أمامه . إن الله لم يجعل فى الأرض عظيما فى علم أوفى مال أوفى ملك إلا اذا مرّ على الأدوار المنحطة وارتقى منها فعرفها فرجع اليها وعلى ذلك تجد الحكومات فى رؤساء اللصوص الذين تابوا خير معوان على التجسس على اللصوص ، فربّ البيت أدرى بما فيه ، وهكذا نجد الأنبياء عليهم السلام يرعون الأغنام صغارا و يرعون الأمم كبارا . وأمهر الأطباء اليوم من يجرّب الدواء فى نفسه ليعرف

أحواله ثم يصفه فى كتبه لينتفع به الناس ، هكذا هنا مرّ الانسان على الأدوار الحيوانية وهو جنين لأنه أوّلا سيكون له بها علاقة فى الحياة الجثمانية زراعة وركوبا وأكلا وشرب لبن ولبس صوف وشعر ووبر وجلد وما أشبه ذلك واحتراسا من أسد ونمر وهكذا . وثانيا ليدرسها دراسة علمية اذا كان من أهل الحكمة ورجال العلم . وثالثا ليدرس نفسه وأحوالها فانه يجد صفات هذه الحيوانات فيه وهو يجاهد ليخرج منها الى عالم ارقى من عالم الأرض ، إن هذه الحيوانات تارة تطلب المنافع بالبصبصة كالكلب والسنور وأخرى بالحيلة كالعنكبوت وتارة بالغلبة كالأسد وتارة بالفرار كالأرانب والظباء والطير وقد يدفع بالسلاح كالقنفذ وقد يتحصن فى الأرض كالفأر والهوام ، وهو شجاع كالأسد ، وجبان كالأرنب ، وسخى كالديك ، وبخيل كالكلب ، وعفيف كالسمك ونفور كالغراب ، ووحشى كالنمر ، وانسى كالحمام ، ومحتال كالثعلب ، وسليم كالغنم ، وسريع كالغزال و بطىء كالدب ، وعزيز كالفيل ، وذليل كالجمل ، ولص كالعقعق ، وتائه كالطاووس ، وهاد كالقطا ، وضال كالنعامة ، وماهر كالنحل ، وحليم كالجمل ، وحقود كالحمار ، وشموس كالبغل . ومستحل كالذئب . ومضرّ كالفأر . وجهول كالخنزير . وغير ذلك

فهذه وغيرها من صفات الحيوان معرّض لها الانسان . فهو يجدّ بما أنزل من الديانات وما سطر من العلوم أن يخرج من هذه القيود الحيوانية ويتحلى بالحلية الملكية ويخرج من الدائرة الأرضية الى الدائرة الروحية . وهناك يتجلى له بعض قوله تعالى ـ اليه يردّ علم الساعة ـ

إن الانسان مادام مغرما بالأحوال الأرضية فهو أبدا حول هذه الأرض بعد الموت لايبرحها وكيف يبرحها وهو لايجد لذة إلا فيها . ولا سعادة إلا فى أكنافها فيصبح اليها مجذوبا مبعدا من عالم أعلى . ومعنى هذا الانجذاب أن يعذّب بعذاب جهنم فيكون فى حفرة من حفر النار . فان جهنم ملازمة لمن لايعرف إلا المادّة والجنة ملازمة لمن يتزحزح عنها فيقال انه فى روضة من رياض الجنان حتى اذا تخلص من ذلك بتاتا صار فى جنة عرضها السموات والأرض لاضيق جهنم الذى هو ملازم لمن كان لايعرف إلا العالم الأرضى

إن مرور الانسان على العوالم الحيوانية أعطاه أنسه بالحيوان فى أحواله المادّية ودراسة العلوم التشريحية والخلقية وجهاده فى الحياة ليخرج من حال الحيوانية الى الحال الملكية . وهذه نبذة من علم الساعة التى لايعلم علمها إلا الله تعالى واليه وحده يردّ علمها . وهذه سانحة من ذلك العلم وبارقة من سماء الحكمة . فأما العلم الحقيق فهو عندالله « وعنده مفاتح الغيب » وهذه من أسرار القرآن . وسرّ من أسرار عطف الحمل والوضع على علم الساعة . انتهى الكلام على الفصل الأوّل

﴿ الفصل الثانى والثالث ﴾

(فى إيضاح الكلام على قوله تعالى ـ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ـ)

فلأذكر فيه نبذتين : النبذة الأولى ما كتبته فى كتابى « ميزان الجواهر » تحت العنوان الآتى وهذا نصه :

﴿ خاتمة تتضمن فكرة المؤلف فى العلوم عامّة وفى فن التوحيد خاصة ﴾

مما أجمع عليه رأى الحكماء انه يجب على الانسان أن يجعل له فى حياته غاية يسعى لها والا عاش عيشة مهملة . وقد كنت فى ابان تعلمى بالجامع الأزهر أتلق العلوم الدينية وآلاتها من فنون العقليات والنقليات واذا ذهبت الى بلادنا بالشرقية أنظر ماذا ذرأ الله من النبات العجيب . وما أودع فى الكائنات من الغرائب . وأتأمّل مافى الأنهار والغدران من سيال عجيب يذهب فكرى فى ذلك كل مذهب وأقارن ما أراه بما أسمعه فلاأجد مناسبة . وأقول فى نفسى : لماذا لانسمع فى العلوم التى نتلقاها شيأ يحوم حوله مانشاهد كل يوم من

المزارع الخضرة والجنات وبدائع الحكمة الربانية ! وأجد فى نفسى شوقا وتوقا الى ذلك . وأعنى أن يكون له مدخل فى معارفنا الدينية ، ثم أكر كرة نحو ما أتلقاه من الفنون الدينية فأجدها توسع المجال جدا فى احكام المعاملات والميراث والحدود والدعاوى والبينات ، ولا أرى لما أشاهد فى أرض الله الواسعة إلا ان العالم حادث وكل حادث لابد له من محدث ونحوذلك ، وما يذكر فى أبواب السلم والربا من المكيلات والموزونات والتسلم والتسليم ، وكذلك الكلام فى بيع مابدا صلاحه أومالم يبد صلاحه ، ومع كونه إجماليا فانما يتكلم عليه من وجهة المعاملات بين الناس لامن الوجهة الإلهية

سارت مشرقة وسرت مغربا ✽ شتان بين مشرق ومغرب

وكنت أسمع كلاما من أفواه أساتذتى وفى كتب التوحيد أن العالم فى غاية النظام وأن القرآن فى غاية البلاغة ، فاذا توجهت الى بلاد الشرقية وخلوت بنفسى وتفكرت فى العالم وفى القرآن أجد الأمر صعبا علىّ جدا ، ولا أشم لهذا النظام وتلك البلاغة رائحة ، فاذا نظرت رأيت بهائم ترتع ، ونباتا يطلع ، وأناسا تذهب وتجىء ، وبحارا تجرى من أرض عليا الى أرض سفلى ، فأقول أين النظام الذى يقوله العلماء ؟ فصرت أجلس على شاطئ نهر جار وأتأمل فى الحيوانات الصغيرة التى تختفى فى الأعشاب وأقول : لورأيت حيوانا عليه خطوط فيها هيئة انتظام لدخل عندى شعور بهذا النظام ، ثم اذا عرفت أن هذا العالم منتظم كما يقول العلماء الأخيار أكون أسعد الناس وأكثرهم نشاطا وجدا واجتهادا إذ يكون إيمانى يقينيا . وبينما أنا كذلك إذ فتح لى باب آيات من القرآن . ولم أكن إذ ذاك أعرف تفسيره ، فاستحضرت بعض التفاسير وطالعت آيات العجائب وكان أوّل ماطالعت قوله تعالى – إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار – الى آخرها فتأملتها تأملا صحيحا فانفتح لى باب الفكر ، وصرت أعرض تلك الكلمات على عقلى وأنظر بنفسى فى هذه الصنعة الإلهية وهكذا بقية آيات العجائب ، فأخذ الفكر يطلب والمطالعة تزيد وحلا لى الفهم ، ثم اتصلت بالأزهر بعد انقطاع طويل وحضرت التفسير وغيره من العلوم حضور محب وله بل عاشق وصرت لا أتلو القرآن إلا بتدبر وفهم ، ثم ساعدتنى المقادير بدخول مدرسة « دار العلوم » فتأملت علومها تأمل من يريد أن يعرف هذا العالم . فكنت أحضر تلك العلوم وأطبقها على العالم الخارجى على حسب ماسبق فى النفس من الشوق الى ذلك حتى اتضح لى أن كل هذا العالم على غاية النظام والاحكام وفهمت آيات القرآن فى تلك العجائب فهما يقينيا لاتقليديا وصار كل شئ من العالم دروسا توحيدية وكأن المتأمل فيه يطالع عجائب القدرة الالهية والحكم الربانية فمن درس الهندسة والحساب والطبيعة أوالتشريح أوغيرها من العلوم ولم يذق منها لذة النظر من وجهة الحكمة العلية فهوصاحب صناعة يعيش بها ولم يمتز عن العامة إلا بالمظاهر الفانية . وكذلك من قرأ دروس البلاغة والنحو والصرف فى أى لغة من لغات العالم من العربية أوغيرها ثم لم يستخدمها فى مطالعة ذلك الجمال الالهى فى آيات القرآن العظيم والعلوم العالية مع استحضار الذهن ووزنها بميزان العقل الغريزى فليبشر بأنه أضاع أيامه ولم يحصل من حياته إلا على مغايشه وانه يأكل كما تأكل الأنعام . فأف لحياة يكون القصد منها ومن تحصيل العلوم فيها مآكل ومشارب تشاركنا فيها الحيوانات والنباتات . أولايرى المغرورون من ذوى القصور عن الاطلاع على ذلك الجمال أن الغذاء والتناسل عامان فى جميع النبات . فان كنت فى شك مما أومأنا اليك فاذهب الى الحقول وتأمل زهرة من الزهر كالقطن مثلا أوالذرة تجد أن الذكران فى زهرة الأوّل أربعة قد أحاطت بمحل الاناث الذى هو فى وسطها وقد ألقحتها وهكذا الذرة يلقح عاليها سافلها على منوال مايفعله الحيوان بحيث ترى ذلك الطلع الذى فى أعلاه ينزل على شرابة الكوز ويحصل الالقاح ، ثم تلك الحبوب من جميع الأصناف هى المقصودة للانسان أوله وللحيوانات إذ النبات خادم لهما وهكذا الحيوان خادم للانسان ويتمتع باللذتين تمتعا حقيقيا . فاذا استعمل الانسان عقله فيما يحصل به غاية الشهوتين اللتين تشاركه فيهما النبات والحيوان

فبئست العلوم و بئست الحياة التى ترجعه من أفق الانسانية الى أفق البهيمية أوالنباتية بل الحياة حياة العلوم العالية والنفوس الكاملة الشريفة التى تطالع ذلك الجمال الأبهى من هذه العوالم وهذا الكمال يشا كلها فى العوالم العلوية والسفلية

على نفسه فليبك من ضاع عمره * وليس له منها نصيب ولاسهم

ومن قرأ هـذا ولم يأخذ بمجامع هواه وأعرض عنه واكتفى بما لديه من العلم فذلك داخل فى قوله تعالى ـ فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم ـ وقوله ـ وكأين من آية فى السموات والأرض يمرّون عليها وهم عنها معرضون ـ وجميع العلوم آيات ودلائل تشفّ عن حكمة عالية وقدرة باهرة وعلم تام . والذى أراه أن الشرقيين لاينالون مجدهم إلا اذا رجعوا الى حالة التعليم قبل الدراس العلم لتثبت فكرة التوحيد فى جميع الأذهان واستحضار الخالق فى جميع الحركات والسكنات ، ولايخفى أن علم التوحيد أخذ فى أدوار تعليمه أشكالا وألوانا شتى من ابتداء الوحى الى الآن ، ففى زمن الصحابة والتابعين لم يكن فنا له قواعد وأصول وفروع بل كان باقيا على الفطرة الانسانية المستمدة من آيات القرآن ، وكل يعطيه الله من العلم على حسب استعداده فخلف من بعدهم خلف خرجوا عن الفطرة بما تلقوه من الجدل والفلسفة وانقسموا الى طوائف وحصلت مشاغبات ومنازعات وأخذ وردّ فخاف أئمة الدين رحمهم الله على العقائد فألفوا فنّ الكلام ليكون حصنا يقى من تهويش أذهان الناس بالمشاغبات فلم يكن مقصودا لهم لذاته وانما هو سلاح وجهاد ونحن فى زمان مات فيه ذلك العدوّ وبادت تلك المذاهب ، فمن استعمل ذلك السلاح الآن فهو غرّ يقاتل فى غير عدوّ وكيف وقد ظهر عدوّ آخر للعقائد فى هذه الأيام ، فيجب على العلماء الآن أن يبذلوا جهدهم للنظر فى كلام المادّيين الاوروباويين وجميع المخالفين ليردّوا عليهم فان اللغات منتشرة بين الأمم والأفكار تنتقل وجميع ذوى الضعف فى الدين يؤثر عليهم كل فكرة يسمعونها ، أما المذاهب البائدة فالكلام فيها عبث ـ تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولاتسألون عما كانوا يعملون ـ فان قلت كيف يعلم التوحيد ؟ أقول : يجب على المعلمين فى المدارس وغيرها أن يبتدئوا بذكر غرائب العالم من النباتات العجيبة والحيوانات الغريبة والنجوم ذات البعد العظيم والقدر الكبير والسرعة الهائلة ، ثم ينتقلون من الأغرب الى الغريب الى المعتاد وذلك لأمور :

(١) إن الفطرة الانسانية ميالة الى الغرائب والاحداث أكثر عشقا لها وولوعا بها

(٢) إن دليل الألوهية أقرب الى أذهان البسطاء فى الغرائب كالمتوحشين حتى ان أهل الهند على نهر الكنج يعبدون نباتا يتحرك فى الدقيقة ستين مرّة لاعتقادهم أن فيه قوّة إلهية ، وماذلك إلا لظهور تلك القدرة الباهرة بأعظم وضوح

(٣) إن آيات القرآن كلها ناطقة بأن النظر فى العوالم هو طريق التوحيد

(٤) إن المعلم متى أوقف المتعلم على كل عجيبة وذكر عند ذلك القدرة والعلم وصفات التقديس والتنزيه بحيث تكون جميع صفات الربوبية تذكر تطبيقا على تلك العجائب كان أثبت فى الذهن ورسخ الايمان رسوخا لاتزلزله الرياح العواصف

(٥) إن ذلك مع كونه علم التوحيد هو أيضا تاريخ طبيعى وطبيعة وتشريح وفلك وهكذا فيكون ماصرفه من الزمن فى تعليمه قد اكتسب به التلميذ علوما تنفعه فى دنياه وهو لايشعر ـ من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ـ فيكون قد أراد معرفة خالقه وهو فى الحقيقة يقرأ علوما كثيرة إذ التوحيد هو جميع العلوم بل مثل من يقرأ توحيدا بهذا الوصف مثل انسان زرع أرضا شجرا مثمرا فان هذا لم يفته خروج حشائش لنوع البهائم فقد جاء القصد الأدنى مع القصد الأعلى ، إن الله

يعطى الدنيا مع قصد الآخرة ولا يعطى الآخرة مع قصد الدنيا

(٦) إن التلميذ اذا نظر العلوم العالية يرى فى نفسه عند مطالعتها كأنه يطالع حكمة البارى فى تشريحه وبيطرته وطبه وزرعه وحصاده وهكذا لاعتياده على ذلك من صغره ، ولا سبب لفساد أخلاق الشبان الذين يتعلمون فى المدارس إلا خلوّ عقولهم من استحضار الخالق فيما عرفوه من العلوم ، ومن المقرّر أن الحكمة لاتفيد إلا من يستحضر الخالق بسرّه ويعرفه بعقله

(٧) اذا رأى علوم الدين التى أنزلها الله على نبيه لاتخالف الطبائع الكونية فانه يشبّ على تطبيق دينه على ظواهر الطبيعة وينفرس ذلك فى نفسه ويستشعر استشعارا تاما بذلك كما هو مقصود القرآن ، ألا ترى رعاك الله أن آيات الرحمة والعذاب يؤتى بعدها بآيات عجائب الكون ، ألم يكن ذلك ليظهر للناس أن العلمين متوافقان ، ومن العجيب أن بلادنا تنقسم الى قسمين : فبعض الذين تعلموا العلوم الدينية وحدها ينكرون العلوم الكونية من الطبيعيات والفلكيات ، ويظنون أن الدين برىء منها وماهم إلا جاهلون بها ، وبعض من لم يتعلم الدين ودرس فى المدارس تلك العلوم ينكر موافقتها للدين ويقول انها تخالفه ـ ذلك مبلغهم من العلم ـ و ـ كل حزب بما لديهم فرحون ـ بل كل من الحزبين مقصر لجهله بما لم يعلم ، ومن جهل شيئا عاداه ، بل الواجب على كل فرد من أهلهما أن يأخذ من كل فنّ طرفا والا صدق عليه قول الشاعر

ومن يك ذا فم مرّ سقيم * يجد مرّا به الماء الزلالا

فالذى خلق هذا الكون بنواميس خاصة جارية على نسق بديع جعل من تلك النواميس قوانين وشرائع بين الناس ، فالكون من فعله وتلك القوانين والشرائع المنزلة على خواص خلقه من قوله . وهل يناقض فعل الرب الأكبر قوله ـ تعالى الله عما يقول الجاهلون علوّا كبيرا ـ . فبين النواميس الطبيعية والشرائع المنزلة تطابق وتوافق لايعرفه إلا من عرف العلمين . وأما من درس أحدهما وجهل الآخر فهو حرىّ بأن يدعى تنافى العلمين ، بل كثير من قارئى الشرائع لقصور عقولهم يرون نصوصها متعارضة لعدم وقوفهم على أصل مأخذ النصين وماهو المقصود منهما فكيف يرون موافقتها للأشياء الخارجة عنها من النواميس الطبيعية فالحق أن الشرائع الالهية والنواميس الطبيعية متوافقة متلائمة وأن من أنكر فانما ينكر لقصور فى عرفانه وضعف فى بصيرته

هذا ما أردت ذكره بالنسبة للالهيات . أما النبوّات فالذى أراه أن يذكر صفات الأنبياء ومكارم أخلاق سيد الوجود ﷺ وتكون المعجزات داخلة فى ضمن تلك الأخلاق حتى يشبّ الطفل على حبّ النبىّ ﷺ وعلى التخلق بأخلاقه ويعتقد فيه الصدق حين يسمع المعجزات وتكون الواجبات فى حق الرّسل قد ثبتت فى الأذهان عرضا . فهذا فضلا عن كونه علم توحيد علم أخلاق فيخرج قارىء التوحيد من المدارس وقد درس علوما طبيعية وأشياء وفلكا وأخلاقا . ولنا أمل وطيد من المدارس التى تأسست بالقطر المصرى بهمة ذوى الثروة والجمعيات أن تسعى فى أن تسلك هذا المسلك الجيد وتدرس التوحيد على هذا النمط ليتم بها المقصود إن شاء الله تعالى . وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم . وبهذا تمّ الكلام على النبذة الأولى والحمد لله رب العالمين

﴿ النبذة الثانية ﴾

أذكر فيها ماكنت كتبته فى مجلة «نور الاسلام» منذ نحو (٢٥) سنة . وسبب كتابتها أنى كنت رأيت فى المنام عقب قراءة كتاب نقله المرحوم فتحى باشا زغلول عن أمة الاسلام من الفرنسية الى العربية رأيت

أن ملكا يعرب لى « بدأ الاسلام غريبا وسيعود كما بدأ » ودام على هذا الاعراب والشرح طول الليل وهو يقول : قوله غريبا صفة لموصوف محذوف ، فالوصف ناب مناب المصدر ، ثم يقول : والمعنى المقصود انه بدأ بدأ غريبا لم يعهد له نظير وسيعود كما بدأ أى انه ينتشر انتشارا غريبا لم يعهد له نظير ، و بقيت طول الليل وأنا أسمع هذا القول ويكرّر كأنى كنت تلميذا يعلمنى الاعراب والمعنى . ولايفتأ يقول وأنا أسمع وكنت أرى فى هذا التفهيم استعمال الطرق التى كنت ألقيها على التلاميذ لأنى كنت أعطى السنة الثالثة والرابعة فى مدرسة (الجيزه) كتاب النحو وأعطيهم باب المفعول المطلق ، وكنت أقول لهم ينوب عن المصدر وصفه وآلته وهكذا فصرت أسمع مثل ما أعطى وهو يقول : غريبا وصف نائب مناب المصدر الى آخره ، وكنت وأنا نائم أعلم أنى نائم وأعلم الحجرة التى أنا فيها وأعلم أن هذا ملك وهو يلق الىّ هذا القول ، فاستيقظت من النوم وقلت فى نفسى إن هذه الرؤيا عجيبة ولكن هى أشبه بأضغاث الأحلام ومع ذلك وجدت فى النفس وجدانا غريبا ولكن كنت أشد الناس حرصا على أن لا أكلم أحدا لأن مثل هذه يسخر الناس منها ، فماذا أفعل ؟ كتبت مقالة وضمنتها هذا المعنى باعتبار انه جاء من عندى ابتكارا وعنوانها « مما أوجب للمسلمين السقوط ، جعل اقتراب القيامة سبب القنوط » وأرسلتها الى إدارة مجلة «نورالاسلام» التى كانت تصدر بمدينة الزقازيق وطلبت أن لا يكتب اسمى تحتها خيفة التشنيع واللوم ، ثم انى بعد نحو (٢٠) سنة بحثت عن المقالة فلم أجدها فأسفت كل الأسف ، ولكنى بعد بحث وجدتها فى مكتبتى مجموعة فى ضمن أعداد هذه الجريدة فسررت سرورا عظيما وهاأناذا أكتبها هنا بنصها بعد اليأس منها

و بعد أن سبق الكلام على هذا المعنى فى سابق التفسير إذ ذكرت أنى فى هذه السنة اطلعت على مقالة فى الاهرام لكاتب ذكر هذا المعنى وقال انى وأنا صغير قرأته فى كلام أحد الفضلاء وعدّد أسماء من المشهورين وقال فلاأدرى أيهم قالها ، وشرح نفسى ماذكرته لك فعرفت أن هذا المعنى وصل الى بعض الناس وقد انتشر فى الجرائد السيارة ، واذن عرفت أن هذه الرؤيا أراد الله اظهارها للأمة وانها بشارة لها ، وأنا وان كنت أكتمها عن الناس وقد ظهرت فان آمالى من ذلك اليوم صارت معلقة برقىّ الاسلام موقنة به ولكن ليس من هذه الرؤيا وحدها . كلا . بل هناك ماهو أصدق وأبدع وأجل وأعلى ، وليس هذا مجال القول فيها فانى رأيت أعجب من هذه بما لايقاس . فهذا هو السبب فى إيقانى برقىّ المسلمين . ولهذا ألفت هذا التفسير . وهذا كله سرّ قوله تعالى ــ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم ــ . فبذلك فليفرح المسلمون . و بذلك فليسعد المسلمون . وهاك نص المقالة المذكورة

﴿ مما أوجب للمسلمين السقوط . جعل اقتراب القيامة سبب القنوط ﴾

سبحان من أعزّ وأذلّ وشكل الأشكال المختلفة والألوان البديعة والأصل واحد ــ وأنّ الى ربك المنتهى ــ أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها ــ فازداد الحلو حلاوة والمرّ مرارة (١) والغذاء تغذية والدواء مداواة والجميل جمالا والقبيح قبحا والعناصر لم تتغير . فياعجبا لهذا الاحكام . وما أعجب هذا النظام وكيف من الأصل الواحد تستخرج المتنافرات . وتنتج المتضادات . إن فى ذلك لآيات . و ينزل الخير والجود الإلهى فيكسب كلا مايشاكل طبعه فتشرق الشمس على المحموم والصحيح فتزيد كلا على حسب استعداده وتجمد الطين وتذيب الجليد . فالضوء واحد والقابلية اختلفت ــ إن ربك حكيم عليم ــ وهكذا العلم والهدى يصيب القلوب فيعطى كل قلب على حسب استعداده فيضل ويهدى ويسعد ويشقى ويعزّ ويذل والعلم فى نفسه واحد والقابليات مختلفات

(١) ليست الزيادة عامة فى الكل اهـ

جاء الدين الاسلامي والناس في جهالة وعماية فأخرجهم من الظلمات الى النور. ومما جاء فيه ان الساعة آتية لاريب فيها وأن الله يبعث من في القبور، وانها اقتربت وحان وقتها وأن النبي ﷺ بعث هو وإياها كأنهما متلازمان حتى قال ﷺ «بعثت أنا والساعة كهاتين»

فكانت تلك الأدلة والآيات والأحاديث من أقوى مابحث على أعمال الأمة بل هي أكبر باعث على استنهاض همم أبطال وعزائم رجال الى أعمال البر وترك الكسل والخمود إذ انبهام وقت موت الانسان وقيام الساعة التي يلاقي فيها ربه يبعث فيه روح نشاط على أن يستعد في كل نفس من أنفاس حياته للخيرات على حسب استعداده إما لنفسه أوأهله أو وطنه أو بني دينه وجنسه، ويكون أمام الخالق الأكبر كأنه خليفة على عباده يعمل لهم مافيه صلاحهم، فمن هذا عرفنا أن انبهام وقت الساعة والموت من أجل سياسة إلهية كبرى كيف لا وهي سياسة ملهم الملوك ومرشد العلماء. وعلى هـذا سلف الأمة الاسلامية جدوا في الأعمال عملا بقوله تعالى ـ سابقوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ـ لا للمتكاسلين والعاجزين فلكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت، وكانوا يعلمون حقا أن من طلب منه عمل الآخرة فانه طبعا طلب منه عمل الدنيا معها إذ هي مزرعة لها وطريق اليها، ومالايتم الواجب إلا به فهو واجب، فكأنه طلب منهم عمل الدنيا وزيادة لنفع نوع الانسان، وقد ضربوا لذلك مثلا رجلا زرع أرضا أشجارا مثمرة فانه لايعدم حشائش تخرج للبهائم فقد جاء القصد الأدنى مع الأعلى، أما من زرع البرسيم مقتصرا عليه فلاتخرج له الثمرات وعلى ذلك قال تعالى ـ من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله في الآخرة من نصيب ـ فكان وعظ القرآن وحثه داعيا لعلو الهمم وعلو الهمة من الايمان، ومن سفلت همته فهو بمعزل عن الفهم والعلم، ولاتكمل نفس الانسان إلا باراقة ماء الحياة في سبيل منافع أمته وبلاده مع القصد الأعلى وهوالتقرب للخالق الأكبر

هذه أعمالهم وهذه نياتهم، فانظروا ياقوم كيف تغيرت الأوضاع وانعكس المعنى وأصبح ما كان وسيلة الارتقاء سببا للذلة والهوان، ولكن لاغرابة في ذلك فالقرآن لم يزل والقلوب تغيرت ـ إن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم واذا أراد الله بقوم سوءا فلامرد له ـ. هذه الفاتحة وأين عمر. سمع سلفنا في الدين القرآن في الساعة وقربها فأطاعوا وصيته وحثهم على العمل، وسمعنا فعصينا وأشرب في قلوبنا حب عجول الجهل وشبان الخلاعة والأمل، وباليتنا اقتدينا بأسلافنا في الوطن إذ مع كونهم عبدوا العجل سارعوا الى العمل وما أشبه العلم بالماء يتلون بلون انائه ويتمثل على حسب مادخله في بنيته وأجزائه وبالنور يظهر على حسب لون الشفاف الذي هو فيه، فكما اهتدى أسلافنا بآيات قيام الساعة ضللنا نحن بها ـ يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا ومايضل به إلا الفاسقين ـ

أصبح المسلمون الآن في كافة أنحاء المعمورة ولاأمل لهم في شوكة ولادولة ولاعز ولاصولة حيث يسمعون من أفواه الجهال بالدين الذين يقولون مالايعلمون ان هذا الدين سيمحي وأن هذا أوانه وأن الكفر يعلو وهـذا حينه، وتمسكوا بقضايا لايعرفون معناها إذ هي محل نظر وبحث بين أكابر العلماء، وانتشرت تلك الفكرة بين العامة والخاصة، ومما يوجب الأسف والحزن أن الأذهان تطابقت على جمع الفكرتين وهما ان الساعة قربت جدا وأن الاسلام يمحى، وحيث انا في زمان كثر أنصار الجهل فيه وجب علينا أن نبين للناس فنقول ومن الله التوفيق

أما قرب الساعة فهولايدل على مايزعمه الجاهلون إذ يجوز أن تبقى الدنيا قرونا متطاولة بل آلافا من السنين بل ملايين، وربما استعظم هـذا بعض العقلاء واستبعده جـدا بناء على مارسخ في أذهان العموم مستدلا بآيات كثيرة وأحاديث كاتقدم على أن الساعة قريبة تقول له على رسلك أيها الأخ فان القرب ليس

من المعهود بيننا والا لقامت الساعة فى حياة النبى ﷺ أو بعده بقليل فان أعمارنا قصيرة ونحن نرى أن أقل من القرن قريب ولكن القرب على حسب علم ذلك القادر القاهر . ألاترى الى قوله تعالى - إنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا - فالأرض لها ملايين كثيرة وهى سائرة فى الفضاء . فاذا نسبنا مائة ألف سنة أوملبونا الى تلك الملايين الكثيرة كانت قريبا بتلك النسبة . فاذن لامانع من بقاء هذه الدنيا وهذا العالم الى آلاف من السنين والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين . فكل أمة اتسمت بمكارم الأخلاق وصلحت فى أعمالها وكان صلاحها أكثر من فسادها فتلك هى التى تبقى حتى تتغير النيات وتهبط العزمات فترد الى أرذل العمر . وهذه الأمة الاسلامية قد أخذت دورها فى الضعف . ولقد آن أن ترجع الى صلاحها وتأنس رشدها وتقوم من رقدتها . ومتى برهنت أمام الله والناس انها أصبحت صالحة للقيام بالخلافة فى الأرض سلمت اليها أمانتها - ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون - ولقد علم الله وشهد العالم المتمدين (أى العارفون بمقام الاسلام منهم) أن الاسلام أعظم نصير للمدنية كما يعلم بأدنى الثقافة للتاريخ . وان كنت فى شك مما قصصنا عليك فاقرأ كتاب « خواطر وسوانح فى الاسلام » الذى ترجمه فتحى بك زغلول تأليف الاستاذ هنرى أحمد الفرنساويين . أواقرأ كتاب ذلك العالم المؤرخ الشهير (سديو الفرنسى) تر العجب العجاب من أمة ودين ومكارم أخلاق هيمنت على العالم أجمعه

جدوا أيها المسلمون واعلموا أن أوان ظهور مجدكم وعوده قد آن . فاسترجعوا مجدكم القديم فقد عرف العالم المتمدين وشهدت الفطر الصادقة بل شهدت العقول ودلت التجارب أن هذا زمن ظهور الاسلام ورجوع مجده القديم فلقد بدا وانتشر انتشارا غريبا لم يعهد له مثيل فى تاريخ الأديان وتم من نحو ١٣٠٠ سنة وهاهو الآن قائم يعود كما كان وينتشر انتشارا غريبا كما انتشر أولا وهذا معنى ماقيل « بدا الاسلام غريبا وسيعود كما بدا » أى كما انتشر أولا انتشارا غريبا لم يعهد له مثيل فى الأمم . هكذا سيعود وينتشر بتلك الغرابة بعينها والسرعة الفائقة حتى تكون معجزة أخرى . فقوله غريبا صفة لمقدر محذوف أى بدأ غريبا . وهاهو ذا الآن أوان رجوعه بتلك الغرابة . علم الله وشهد كل عالم من علماء الأرض المحققين أن للاسلام رجعة جائية وتقدما غريبا قد ظهرت بوادره وجاء أوانه وعلى أيديكم أيها العقلاء يكون ظهوره ذلك ان شاء الله . جدوا لارجاع مجدكم وحوز فخركم . ومتى صحت المقدمات صدقت النتائج

لو تأمل علماؤنا اكتشافات القوم الحديثة وما لديهم من العلوم لعلموا انها تفسير لما أجمل فى الدين الاسلامى وتوضيح لما غم علينا فيه (وبعبارة أوضح) ان تلك العلوم والأسرار إيضاح وكشف لمخبآت القرآن . وأوضح من ذلك أن ذلك مقدمات ظهور سيدنا عيسى وتمهيدات له حين يأتى والناس قد استعدت فطرهم للاسلام قاطبة وتصير الأرض كلها اسلاما بأمر سيدنا عيسى وكأنى ببعض اخوانى يضحك من سماع مثل هذا الكلام ونحن نقول له أعر استحضار الأرواح هناك لفتة تر العجب العجاب وتجد مخبآت العلوم تظهر على أيدى هؤلاء - ولتعلمن نبأه بعد حين -

جاء وعد رسولنا الصادق الأمين بأن عيسى عليه السلام يأتى فى آخر الزمان ويحكم بشريعتنا أو يظن أن ذلك يكون بدون مقدمات للاسلام ومبشرات بين يدى ذلك النبى . كلا . ثم كلا . وهذا الظهور كل من العلماء يفهمه بما يوافق مشربه ولا نتعرض له وانما علينا ذكر النص وكل يفهم مايناسب معارفه

انظروا الى المستشرقين فى أوروبا يقرؤن هذا الدين ويعجبون أى اعجاب . انظروا لأولئك المتعربين فى أوروبا الذين يعجبهم كل شئ صدر منا وهم نظير المتفرنجين عندنا فالقوم فى بلادهم لايعرفون عن الاسلام شيأ إلا قليل منهم وكل من عرف شيأ منه تشبث به . ولابد أن يكون هذا القرن الآتى أوان ظهور شمس حقائقه فى ربوع العالم المتمدين حتى تأنس بعض معارفه الأذهان قبل مجيء ذلك النبى فى آخر الزمان يحكم

بشرع

بشرع خير ولد عدنان . فكيف بعد هذا كله يقنط المسلمون من رحمة الله وهذا وعد لهم . أم كيف ثبت فى عقولهم أن دولهم تنقرض وهم الذين ورد فيهم « لاتزال طائفة من أمتى قائمة على الحق حتى يأتى أمر الله » فهذا الدين وهذه نصوصه . فمن ظنّ أن الساعة قد جاء وقتها وأن الاسلام سينقرض فقد جهل وضلّ وأضلّ وادّعى انه أعلم من رسول الله ﷺ

والله تعالى يقول ـ يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربى لايجليها لوقتها إلا هو ثقلت فى السموات والأرض لاتأتيكم إلا بغتة يسألونك كأنك حفيّ عنها قل إنما علمها عندالله ولكنّ أكثر الناس لايعلمون ـ

فكيف جاء قوم اليوم جعلوا أنفسهم أعلم من رسول الله وزعزعوا قلوب الناس وأرجفوا وخوّفوا وافتروا على الله كذبا فى أمر الساعة ـ إن الذين يفترون على الله الكذب لايفلحون ـ وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أوهوأقرب إن الله على كل شئ قدير ـ ولكن إن بحثت عن هؤلاء تجد ان أكثرهم بها لايعرفون ـ يستعجل بها الذين لايؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون انها الحق ألا ان الذين يمارون فى الساعة لفى ضلال بعيد ـ

فتأملوا ياقوم وافهموا القرآن فان إخفاء الساعة سرّ مكنون ومنه أن يقيم الناس دولهم ويأملوا فى بقائها ودوامها . ومتى عرفوا قربها اختلت روابط الأمم ووقفت الحركة وانتزعت البركة . ولذلك أعقب هذه الآية بما يشير الى ذلك حيث قال ـ الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهوالقوىّ العزيز ـ

واذا كان إخفاء الساعة سياسة لاصلاح المعاش والميعاد معا ولطفا من الله بالمعاش فى الدارين لافى الدنيا فقد أرشدنا الى أن الرزق المذكور يؤتى به كالتابع لأعمال الآخرة ولذلك أعقبه بقوله تعالى ـ من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله فى الآخرة من نصيب

هذا ورجائى من كل من اطلع على هذا أن ينشر هذه الفكرة فى كافة أنحاء المعمورة حتى تنزع تلك الضلالة من الأذهان اه

﴿ تذكرة ﴾

إنى قلت « بدأ الاسلام الخ » بصفة انها حكمة عامة .

اللطائف العامة لأقسام السورة كلها (١)

وهى ست لطائف

﴿ اللطيفة الأولى ﴾ فى تفسير البسملة وذكر الرحمة فيها ومناسبتها لما ذكر فى السورة من طبقات الأرض ومافيها من صور جميلة وبدائع كشفها القوم فى زماننا مصداقا لقوله تعالى فى آخر السورة ـ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم ـ الخ

﴿ اللطيفة الثانية ﴾ فى قوله تعالى ـ فصلت آياته قرآنا عربيا ـ وكيف بقيت اللغة العربية محفوظة مصداقا لقوله تعالى ـ لايأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه ـ وقوله ـ سنريهم آياتنا ـ الخ وفى هذه معجزتان : الأولى ان الكشف أظهر أن الأرض لم تكون فجأة . الثانية : ان الأيام قد بلغت فى علم الفلك مئات الملايين وهذا يقرب من أيام خلق الأرض

﴿ اللطيفة الثالثة ﴾ فى قوله تعالى ـ حتى اذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم ـ مع

(١) هذه اللطائف لم يكن لها وجود عند التأليف ولم يفتح الله بها إلا عند طبع هذه السورة : المؤلف

قوله ـ يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم ـ وكيف ظهر علم الأيدى والأرجل وكشفها للجنايات فى الدنيا وانها اذا قبلت شهادتها عند الله فالقضاة أحرى أن يقبلوا شهادتها وهذه معجزة أيضا لأن الأيدى والأرجل اختصتا بذلك فى الكشف دون سائر الأعضاء

﴿ اللطيفة الرابعة ﴾ فى قوله تعالى ـ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ـ الخ

﴿ اللطيفة الخامسة ﴾ فى قوله تعالى ـ ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة ـ

﴿ اللطيفة السادسة ﴾ فى قوله تعالى ـ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم ـ

﴿ اللطيفة الأولى ﴾

(فى البسملة وذكر الرحمة فيها ومناسبتها لما ذكر فى السورة من طبقات الأرض ومافيها من صور كشفها القوم فى زماننا مصداقا لقوله تعالى فى آخر السورة ـ سنريهم آياتنا فى الآفاق ـ)

تجلت الرحمات العامة فى هذه السورة بصورتين اثنتين جليتين بهيتين ، صورة الحروف ، وصورة العناصر ورمز لهذين بالحاء والميم ، الرحمة وسعت كل شئ ، وتجلت فى هذه السورة فى الحروف والعناصر ، والحروف والعناصر يرجعان لشئ واحد هو التحليل ، اللغات التى يعرفها الناس تقدر الآن بنحو خمسة آلاف لغة ذكرت بجملها فى ﴿ سورة الروم ﴾ عند قوله تعالى ـ واختلاف ألسنتكم وألوانكم ـ فارجع اليه إن شئت ، وكلها راجعات لشئ واحد هو الصوت كما ان العناصر التى وصل المعروف منها الآن حوالى الثمانين عدّا منها تركبت جميع هذه المخلوقات ، اللغات حركات فى الهواء ، وعجائب الطبيعة حركات فى الأثير ، وكلها تحلل الى أصولها الأولى ، باللغات تدرس العلوم ويتعارف الناس ، وبالعناصر وتركيبها تكون حياة الحيوان والانسان

تجلت رحمات الأصوات والحروف فى قوله تعالى ـ كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا ـ واللغة العربية كما تقدم فى ﴿ سورة الروم ﴾ إحدى اللغات السامية التى تدرجت من حال الى حال كما ستراه قريبا ، فهى أبدا متقلبة متنقلة ، فبينما ترى قدماء العرب فى الجزيرة قبل تاريخ الميلاد ببضعة آلاف يكتبون بالقلم السومرى الآتى بيانه وصورته اذاهم يكتبون فى الجاهلية قبل الاسلام بقلم آخر اذاهم يكتبون فى زمن النبوّة بقلم أقرب الينا ، وهكذا نفس الألفاظ تتغير لهجاتها تباعا متطورات تطوّر الأزمان والقرون والسنين ، ولكن لما جاء الاسلام استقرّت اللغة العربية لفظا وخطا على أساس متقاربة الى الآن معجزة لهذا القرآن كما ستراه موضحا ، إذ انك سترى فيما يأتى سورة الفاتحة والاخلاص مكتوبتين باللغة الصينية ومعهما اللغة العربية ، فذلك التبدّل الذى يعترى اللغات لم يجر على اللغة العربية إلا فى طريقة التحسين والبهجة ، أما تغيير الحروف لفظا وخطا تغييرا جوهريا كما يعترى جميع اللغات فهذا لم يكن . ولما كان لهذه المعجزة آثارها التى ظهرت فى المسكونة من أقصاها الى أقصاها قال فى نفس هذه السورة ـ ولوجعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمىّ وعربىّ ـ الخ فكانت هذه الآية رمزا الى ماهو حاصل الآن من أن القرآن يكتب باللغة العربية وان كان القرّاء له أعجميين لأنهم لوقرؤه بلغاتهم لورد عليهم هذا الاشكال . أنبىّ عربىّ وقرآن أعجمىّ ! وهذا هو السرّ فى حفظ نفس اللغة العربية مع القرآن أينما حلّ

هذه هى الرحمة التى تجلت فى هذه السورة فى قوله تعالى ـ كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لأنه لوكان أعجميا لقيل هلا فصلت آياته بالعربية التى نزل بها فاذا قرئ بغيرها لم يكن مفصلا بل كان مبهما أعجميا . وبهذا تمّ الكلام على الآيات المفصلات الناجات من الحروف

﴿ الآيات المفصلات فى المادة الأرضية والسماوية ﴾

اعلم أن القرآن لايفرق فى الآيات بين كونها متلوة بالألسنة أو بين كونها مسموعة بالآذان أومخلوقة فى الأرض

والسموات

والسموات مركبات من العناصر منظورات بالعيون . الله خلق السمع والبصر . وللسمع جاءت اللغات ومنها العربية . وبالعربية سمعنا القرآن وبقى الى الآن باللغة العربية لفظا وخطا . وللبصر خلق الكواكب والمركبات الأرضية والبسائط . إذن الآيات مسموعات ومبصرات . وكم جاء فى القرآن ذكر السمع والبصر . ويقول سبحانه ــ إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا ــ وما الفؤاد إلا الطبيئة النفسية التى بها نفهم ونتبصر فيما سمعنا وفيما رأينا ، والسورة مبدوءة بالآيات المسموعة لأن الناس فى أول أمرهم يعملون بما يسمعون ، فاذا ارتقوا قليلا فهموا مايبصرون ، فالناس أوّلا يؤمنون بما يسمعون بسبب صدق الخبر لهم ، ثم بعد ذلك يفكرون بأنفسهم فيما سمعوه ، فالآيات المسموعات تكون أوّلا والآيات المبصرات تتلوها . لهذا ذكر المسموعات وتفصيلها أوّلا ثم تلاها بالآيات المبصرات ، فماذا تلا علينا ؟ تلى علينا أوّلا اجمال هذه الدنيا وأن الأرض خلقت فيها الجبال والنبات والمعدن والحيوان والانسان ، وكان ذلك كله فى أربعة أيام ، وأن السموات خلقت ورتبت ونظمت وأعطيت كل سماء نظامها الخاص بها وزينت بأجمل زينة وأبهج منظر . وذلك فى يومين . وكان مبدأ أمر السماء دخانا فما زالت العناية بها حتى صارت وصارت الأرضون بالحال التى نراها عليها الآن . ولاجرم أن المذكورهنا إجمال . فهمنا سماء وههنا أرض أمرا أن يأتيا طوعا أوكرها ولكنهما أقل من أن يعصيا خالقهما فأطاعتا والطاعة إنما تكون بالخدمة ولا خدمة إلا بحركة والحركة دائمة من أول خلق العالم الى فنائه ، بل نفس العالم هو نفس الحركات كما قررناه فى مواضع من هذا الكتاب

فالعوالم كلها مسخرات جاريات متحركات وكلهن آيات . وهذه الآيات المبصرات ترجع الى آيتين اثنتين فى المشاهدات آيات السماء وآيات الأرض . وكما أن مبدأ السورة فيه ذكر الآيات المسموعات القرآنية فى تفصيل القرآن العربى والآيات المبصرات الكونية فى خلق الأرض والسموات ، هكذا فى القسم الآخر منها تأييدكون القرآن لابدّ من بقائه بالعربية الى آخر الدهر كما قدمنا وذلك فى الآيات المسموعات وتبيان الآيتين الكونيتين المذكورتين أوّل السورة إذ يقول تعالى ــ ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لاتسجدوا للشمس ولا للقمر ــ ويقول ــ ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزّت وربت ــ . إذن ماجاء فى أواخر السورة مبين لما جاء فى أوّلها . فكون القرآن لايصح أن يكون أعجميا راجع لقوله تعالى ــ كتاب فصلت آياته ــ الخ وكون السموات من آياته وخروج النبات من الأرض من آياته راجع لما فى أوّلها من خلق السموات والأرض ومن قبل ذلك اتبع ذكر الآيات القرآنية والآيات السماوية والأرضية بانذار المشركين وشهادة الجلود ونطقها . والنار المؤلمة لهم . والعداوة التى تقع بينهم إذ يعذبون وتبشير المؤمنين بأن لهم مايشتهون . ثم ذكر علم الأخلاق . وذكر حسن المعاشرة . والصبر . وجميل الأخلاق . وختم السورة بوعد جميل قائلا : إن الآيات بقسميها سواء أكانت فى القرآن أم كانت فى السموات والأرض سأريكموها . فمن آيات القرآن المسموعة ان هذا القرآن لايأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه . وهذا قد ظهر ظهورا واضحا فان أهل أوروبا الذين كان هذا القرآن سبب نهضتهم الحديثة أصبحوا اليوم يبطشون بالاسلام وبأهل الاسلام . ومع ذلك غلبهم هذا الدين وبقى محفوظا . والدليل على ذلك مانراه من أنه مكتوب بالحروف العربية فى بلاد الصين كما ستراه فى الصورة الشمسية فى هذه السورة كما ذكرت آنفا . أفليس هذا هو نفس الوعد الذى فى آخر السورة . وهل أحد ملزم أن يظهر هذه المعانى أكثر منا نحن الذين نعيش فى الأرض الآن . المسلمون المتأخرون قبلنا لم تكن لديهم مواصلات مثلنا . إذن وجب علىّ أنا أن أقول للسابقين بعدنا أيها المسلمون : وعدنا الله أن يرينا آياته وهذه الآيات منها المسموع مثل ان القرآن لايأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه وقد ظهر واتضح . وأن أقول أيضا . أيها المسلمون : إن الآيات المبصرة التى وعدنا الله أن يريها لنا قد أراها فعلا ونشرها فى الأرض . الله وعدنا أن يرينا آياته . والآيات المبصرات المذكورات فى السموات والأرض جعلت اثنتين اجمالا فى السورة

ولكن هذا الاجمال فصل . وتفصيل هذا الاجمال جاء فى علمين اثنين : علم الفلك . وعلوم طبقات الأرض (الجيولوجيا)

الله أكبر : هاهو سرّ القرآن ظهر ، هاهى العلوم ، هاهى ذه علوم الله وآياته ظهرت وبهرت ، هذا وعد الله والله لايخلف وعده ، الله رحيم ومن رحمته أنه لايدع عباده يتخبطون فى دياجير الظلام تائهين حائرين لايستقرون . الله سبحانه وتعالى لايدع المسلم متحيرا يقول يارب أنت قلت انك خلقت الأرض ونظامها فى أربعة أيام . وخلقت السموات فى يومين . فأنا يارب فى حيرة . يارب أنت أمرتنا بالوضوء وبالصلاة وبالزكاة وبالحج وبالمعاملات . وخلقت لنا المجتهدين كالشافعى وأبى حنيفة ومالك وابن حنبل والامام زيد والمجتهدين من الشيعة . فيارب إن هؤلاء مابينوا لنا إلا الأعمال . والأعمال تصقل النفوس . والنفوس متى صقلت استعدت للعلم . وأنت أنزلت فى هذه السورة آيات مسموعة وآيات مبصرة وأمرتنا بالاستقامة فيها إذ قلت — فاستقيموا اليه واستغفروه — . وبعد ذكر الاستقامة ذكرت لنا آيات السموات وآيات الأرض . وكما أنك أوضحت آية المبصرات وآية المسموعات فى أواخر السورة بذكر كون القرآن عربيا . وبيان أن السموات والأرض من آياتك أوضحت أيضا نتائج الاستقامة المذكورة فى أول السورة إذ قلت — إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة — الخ . ففى السورة آيات مبصرة وآيات مسموعة وأعمال مشروعة بالاستقامة وكلها فصلت فى السورة . وهذه الأعمال المشروعة لصقل عقولنا ماهى إلا مقدمات للتبحر فى العلوم . وكيف تدخل العلوم قلوبا غير صافية لم تصقل وصقلها بالاستقامة . ونريد يا ربنا أن نكون علماء فبالعلم نصل اليك

يقول الله أنا رحيم ، رحمتى وسعت كل شىء ، أنا رحمت الحشرات فجعلت لبعضها آلاف العيون لتبصر فكيف لا أعلم الانسان . هاأناذا شرحت وفصلت الآيات فى علم الجيولوجيا والفلك ، فليقرأه المسلمون لأنه جميل ولأنه بهيج . نعم إن هذه العلوم الأرضية لم تصل الى غاية الكمال لأن نفوسكم لاتحتمل الكمال فى العلم وأنتم الآن عندكم مبادئه يأهل الأرض لأنكم لاتؤتون من العلم إلاقليلا ، ومن هذا القليل علم الجيولوجيا والفلك . أقول أنا ولقد جاء فى هذا التفسير أن اليوم إما (٢٤) ساعة وذلك بدوران الأرض حول نفسها فى اليوم والليلة وإما أن يكون أكثر من ذلك حتى يصل الى (٣٠٠) مليون سنة وأكثر من ذلك وأقل ، وهذه الثلثمائة المليون سنة لدوران المجرّة التى منها شمسنا على نفسها ، فاذا سمعنا الله يقول — وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدّون — أو يقول — فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة — فهذا فتح باب لمعرفة دوران الكواكب وأيامها وسنيها ، وبه نعرف الأيام التى خلقت فيها السموات والأرض . وهذا كله لاتساع العلوم والمعارف فليست الأيام قاصرة على ألف ولاعلى خمسين ألف و٣٠٠ مليون سنة بل تكون أكثر وأقلّ باختلاف الشموس والمجرّات والسدم . وأنا أحمد الله تعالى إذ كان هذا التفسير مملوءا بهذه العجائب ، ففيه مقنع لكل من اطلع عليه ، فالحمد لله الذى ألهم وعلم . هذا من حيث الأيام وأن علومها اتسعت فى زماننا فأصبحنا نعدّها بمئات الملايين

بقى علينا أن نبحث من علم الجيولوجيا فى نظام هذه الأرض والسموات وتدرجهما من حال الى حال وأن السموات كانت دخانا وهذا بيت القصيد

فلأشرح هذا الموضوع بقدر الامكان من علم الجيولوجيا تفسيرا لقوله تعالى — سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم — ولقوله — قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادا ذلك ربّ العالمين * وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدّر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين * ثم استوى الى السماء وهى دخان — الى آخره

أيها المسلمون : إن الله تعالى من عنايته بنا ذكر هنا ﴿ عشرة أفعال ﴾ فى هذا المقام : « خلق ،

جعل

جعل ، بارك ، قدّر ، استوى الى السماء ، فقال ، قالتا ، فقضاهن ، أوحى ، زينا » فهذه الأفعال العشرة جاءت على وتيرة واحدة وهى أفعاله تعالى نفسه . واذا كان الأئمة رحمهم الله قد اعتنوا بآية الوضوء والغسل والتيمم فألفوا فيها كتبا وليس فيها إلا أفعال خمسة من أفعالنا نحن وهى اغسلوا وامسحوا اطهروا تيمموا فامسحوا هذه أفعال خمسة من أفعال العبد استغرقت كتبا فى المذاهب المختلفة ولم تنل هذه الأفعال العشرة التى هى من أفعال الله جزءا من ألف مما استنفدته تائج الأفعال الخمسة العملية فى الوضوء والغسل والتيمم . أفليس هذا أعظم تقصير ! أفليس من العار أن يسمع المسلم الله يقول — فقال لها وللأرض — الخ ولا يبحث ولا يفكر ، إن ذلك جهل مبين

إذن لنبحث ونشمر عن ساعد الجد فى كسب أمرين : أمر علمى ، وأمر عملى . أما الأمر العلمى فهو الجمال والبهاء والنور والحكمة والسعادة النفسية لأن علم طبقات الأرض وعلم الفلك يرقيان نفوسنا ، ولامعنى للانسانية إلا العلم ، ومتى ارتقت النفوس قربت من ربها إذ لاقرب إلا بالعلم ، وما العمل إلا صقل للنفس واعدادها غالبا ، هذا هو الأمر العلمى

أما الأمر العملى ، فاننا لن ننال حظا فى حياتنا إلا بالعلم . وكيف نعرف خواص النبات أوالحيوان إلا بدراستهما . وكيف نستخرج الفحم من الأرض والملح والمعادن والسوائل كالبترول والغازات اللاتى عرفها أهل أمريكا فأوقدوا بها مصابيحهم من نفس الأرض إلا بعلم طبقات الأرض التى وعدنا الله بتفصيلها . فأذكر لك فيها بأتى شذرات منه . وعلى المسلمين بعدنا إتمام مابدأناه فان ذلك واجب عليهم شرعا ، فأجعل الكلام على الأرض فى ﴿ بابين ﴾ باب العلم ، وباب العمل

(١) باب العلم . لأبدأ أوّلا بذكر معلومات عامّة عن الكرة الأرضية

(٢) ثم أثنى بذكر أهم النظريات الحديثة من حيث ان أصل الأرض كانت سديما أى ذرات معدنية

(٣) ثم أتبعه بذكر العصر الأوّل للأرض

(٤) وبعده عصر الحياة القديمة

(٥) ثم عصر الحياة الوسطى

(٦) ثم عصر الحياة الحديثة ومافيه من بقايا خشب وغابات متحجرات

(٧) ومايتبع ذلك من العصر الحجرى القديم

(٨) ثم العصر الحجرى الحديث . وعصر البرنز

ثم يلى ذلك باب العمل ، وهو ذكر نبذة من تاريخ المعادن بالقطر المصرى . فلأشرع فى تفصيل ذلك فأقول ومن الله التوفيق

(باب العلم وفيه ثمانية فصول) [1]

﴿ الفصل الأوّل ﴾

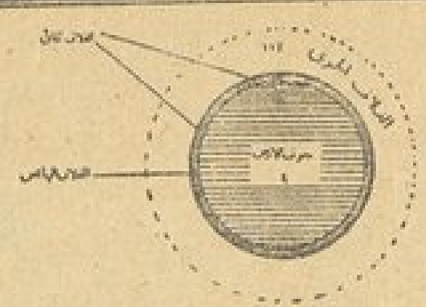
(فى ذكر معلومات عامة عن الكرة الارضية)

تطلق لفظة الأرض أو الكرة الأرضية على الكوكب الذى نسكنه سواء منه اليابس والماء، وعلى مايحيط به من هواء

ويمكن تقسيمها لسهولة البحث تقسيما طبيعيا الى أربعة أجزاء (انظر الشكل ١٣ فى الصفحة التالية)

---

(١) هذا ومابعده فى هذا العلم من كتاب الجيولوجيا تأليف الدكتور حسن صادق مراقب مصلحة المناجم



(١) الهواء ـ الغلاف الجوى
(٢) الماء ـ الغلاف المائى
(٣) اليابس ـ القشرة اليابسة
(٤) جوف الأرض

(شكل ١٣)
قطاع تخيلى يوضح أقسام الكرة الارضية

وفى الواقع أن الجيولوجيا تبحث فى تكوين وتركيب القشرة اليابسة وماتحدثه فيها العوامل الناتجة من تفاعلات الأجزاء الثلاثة الأخرى

(الغلاف الجوى)

يطلق هذا اللفظ على مجموعة الغازات التى تحيط بالكرة الأرضية . ولاعتبارات عديدة يقدر سمك هذا الغلاف تقديرا تقريبيا بنحو ٥٠٠ الى ٦٠٠ ميل على أنها بحكم قلة ضغطها أوكثافتها كلما بعدنا عن سطح الأرض تكاد لاتكون محسوسة على ارتفاع ٢٥ ميلا من السطح

يتركب الهواء من الغازات الآتية بالنسبة المئوية المبينة أمام كل منها

آزوت (نتروجين)	٧٩	فى المائة
أوكسيجين	٢١	«
ثانى أوكسيد الكربون	٠٠٣ ر.	«

وهذا عدا كميات قليلة جدا من غازات نادرة مثل الأرجون والهليوم والكريبتون والنيون والاجزينون وكذلك بخار الماء الذى يوجد بكميات تتفاوت بتفاوت سطح الأرض من حيث الرطوبة والجفاف . وهذا عدا الأبخرة والغازات البركانية والأتربة الدقيقة وهى مواد وان لم تكن أساسية فى الهواء لها أحيانا أهمية خاصة من حيث أثرها فى العوامل الجوية

وترجع أهمية الهواء كعامل من العوامل المؤثرة فى سطح الأرض اليابسة إلى صفتين :

(أولا) التأثير الكيميائى لبعض العناصر المكوّنة للهواء فى المعادن والصخور التى يتكوّن منها اليابس

(ثانيا) ميعة الهواء وسهولة حركته من جراء تغيير الحرارة والضغط وماينتج عن هذه الحركة من رياح .

ومن الهواء تهطل الأمطار ومن هبوبه تتكوّن الأمواج وهذه كلها عوامل ذات أثر ظاهر فى القشرة الأرضية اليابسة . وسيأتى وصف كل من هذه العوامل وأثرها

(الغلاف المائى)

يطلق هذا الاسم على مايوجد على سطح اليابسة من ماء فى المحيطات والبحار والبحيرات والأنهار وما يتخلل فجواتها وشقوقها . ولو كانت الأرض كرة ملساء لاتعاريج فى سطحها لغطاها ذلك الماء بغلاف سمكه ميلان أما وسطح الأرض بين مرتفع ومنخفض فقد اجتمع الماء فى مناطق الهبوط فتكوّنت منه المحيطات والبحار والأنهار التى تغطى نحو ثلاثة أرباع من مجموع سطح الكرة الأرضية

(أعماق البحار والمحيطات)

يختلف عمق هذا الغلاف المائى من مكان لآخر اختلافا كبيرا فالأنهار والبحيرات غالبا قليلة العمق والبحار قد يبلغ متوسط عمقها بضع مئين من الأمتار بينما المحيطات قد تبلغ من العمق آلاف الأمتار . وقد برهنت

المقاسات التى أجرتها بواخر الاستكشاف وبواخر وضع الأسلاك البرقية البحرية أن متوسط عمق المحيطات من ٤٠٠٠ إلى ٥٠٠٠ متر وقد بلغ أكبر عمق رصدته تلك البواخر نحو ٩٤٢٠ مترا بالمحيط الهادى قرب جزائر البوليبونيز

كذلك يستدل من نتائج أعمال بواخر الاستكشاف المذكورة أن قيعان المحيطات هى عبارة عن سهول ممتدة تكتنفها سلاسل من الجبال مغمورة تحت الماء وقد يصل بعضها إلى قرب سطح الماء أو يعلوه فيتكون منها بعض الجزائر فى وسط المحيط كجزائر القديسة هيلانه فى المحيط الأطلسى وجزائر ساندوتش بالمحيط الهادى

والماء هو مركب كيمائى من اتحاد الأوكسيجين والهيدروجين بنسبة ذرة من الأول وذرتين من الثانى إلا أنه يوجد فى الطبيعة دائما مذابا فيه أملاح مختلفة تتفاوت فى مقدارها تفاوتا عظيما

فمياه الأنهار وأغلب البحيرات عذبة . أى لأن الأملاح المذابة بها قليلة بينما مياه البحار والمحيطات مالحة أى مذاب بها كمية كبيرة من الأملاح

وتزيد نسبة الأملاح المذابة فى مياه البحار المغلقة فى المناطق الحارة نظرا لارتفاع نسبة البخر وعدم تعويض المياه التى تفقدها كما فى البحر الميت بفلسطين . انتهى الفصل الأول

« الفصل الثانى »

(فى أهم النظريات الحديثة من حيث أن الأرض كانت سديما)

اعلم أن العلماء بحثوا فى أصل الكرة الأرضية علما منهم بأن المركب ان لم يحلل الى عناصره والعلم ان لم تعرف أصوله ومبادئه وأحواله الماضية لم ينتفع الناس به كما ان اللغات لاتكون مفيدة مالم تحلل الجمل الى كلمات والكلمات الى حروف ، والحاء والميم المذكورتان فى أول هذه السور شاهد عدل بذلك لتقوم حجة رمزية على المسلمين الذين يجهلون تحليل العلوم وأصولها لأنهم لاينتفعون بها ولا بالحياة على هذه الأرض وإذن نشرع فى آراء العلماء فنقول .

لقد وضع العالم الفلكى الألمانى (كانت) سنة ١٧٥٥ نظرية لأصل هذه العوالم . فقال « إن الفضاء السماوى كان قبل تكوين الشموس العظيمة وسياراتها مملوءا بسحابة عظيم جدا مركب من مواد غازية مرتفعة الحرارة جدا ، ثم أخذت الجاذبية تلصق بعض أجزائه ببعض بحيث صار كتلا كل كتلة لها مركز خاص يدور بعضها على بعض وتأخذ الحرارة تنقص شيئا فشيئا وهذه هى الشموس التى نسميها نجوما »

فلما اطلع على هذه النظرية (لابلاس) الفرنسى سنة ١٧٩٦ — ١٨٢٤ اشتق منها نظريته المعروفة وهى «ان المجموعة الشمسية كانت سديما حارا يملأ فضاء واسعا فأخذ يبرد شيئا فشيئا ، وبعدذلك أخذيترك حلقات حلقة وراء حلقة وهذه الحلقات تكورت وبردت وهى تدور حول نفسها وحول الشمس وهذه هى الكواكب السيارة ومنها الأرض ، فالأرض على هذا الرأى ماهى إلا من ذلك السديم وقد كانت جزءا من الشمس ، والشمس لما أخذت تتقلص وتبرد تركت أجزاء منها هى عين السيارات وعين الشمس الخ »

هذا رأى (لابلاس) الفرنسى بعد (كانت) الألمانى . ومعنى هذا أن حرارة الأرض الآن أقل من حرارتها فى العصور القديمة جدا (عصور الجيولوجيا) أى علم طبقات الأرض ، وهذا الرأى هو الذى كنا ندرسه ونتلقاه ونحن تلاميذ بدار العلوم منذ نحو (٤٠) سنة ، ولكن هذا الرأى الآن ظهر بطلانه لأنهم لما نظروا الى الحيوانات التى استخرجوها من باطن الأرض (وسترى بعضها) وقد مضت عليها آلاف وآلاف من السنين وجدوها لاتحتمل حرارة أشد من حرارة الأرض الآن وأن حرارة الأرض الآن هى حرارة الأرض قديما .

إذن هذا الرأى بطل الآن وحل محله رأى آخر وهو أن السديم ليس غازا بالمعنى المتعارف بل هو معدن وهذا المعدن ذرات صلبة بينها جاذبية فتكون منها سحابة سماوية أو غبار سماوى يخضع لقانون كأنه جسم واحد. أقول والقول الأول والقول الثانى فى نظر القرآن سواء لأن الله يقول – ثم استوى الى السماء وهى دخان – فنظر السماء دخان ، ولكن كون هذا الدخان شديد الحرارة وليس معدنا أو معدنا له أجزاء طائرة فى الجو كالغبار ، فهذان سيان فى أنهما يسميان دخانا . فالرأى الحديث الذى استقر عليه القوم أن الأصل الأول سديم والسديم كما قلنا ذرات معدنية صلبة طائرات مرتبطات بقوانين ، أوهى غبار سماوى ، أو (دخان) وهاك صورته (انظر شكل ١٤)



(شكل ١٤ – منظر السديم المعروف فى مجموعة نجوم الجبار كما يرى بالنظارة الفلكية المعظمة)

ثم ان هذا السديم امتدت منه أذرع أخذت شكلا حلزونيا بسبب دوران شكل السديم فأصبح بذلك أشبه بالسديم الحلزونى الذى يرى فى مجموعة النجوم المعروفة بالسلاق (انظر شكل ١٥)



(شكل ١٥ – منظر السديم الحلزونى فى مجموعة نجوم السلاق كما يرى بالنظارة الفلكية المعظمة)

وهكذا أخذت المعادن أثناء الدوران تغوص وتنزل فى وسط هذا السحاب . ولما غاصت تركت وراءها مادة ألطف منها . فكانت هذه هى القشرة الأرضية . وهذه القشرة لما جمدت بالبرودة انكمشت وصارت

مجمدة فهبطت منها أجزاء وهى المحيطات وبرزت أخرى وهى القارات . وقد أحاطت بالأرض أبخرة صارت ماء . وبهذا تم الكلام على الفصل الثانى والحمد لله رب العالمين

﴿ الفصل الثالث فى العصر الأولى للأرض ﴾

جاء فى كتاب الجيولوجيا مانصه

﴿ العصر الابتدائى للأرض ﴾

يبدأ هذا العصر وقد أصبحت الأرض وحدة كروية مستقلة ذات قشرة خارجية من صخور جرانيتية . وتجمدت هذه القشرة بالانكماش الناتج عن البرودة فبرزت منها أجزاء هى القارات وانخفضت أجزاء أصبحت أحواض المحيطات بفضل ماتجمع فيها من المياه التى تقطرت بالبرودة من الأبخرة التى كانت تحيط بهذا الكوكب فى حالة نشأته الأولى

وتعرضت القارات الى عوامل التعرية فتفتت صخورها ثم اكتسحت المواد المفتتة الى البحار والمحيطات من جراء بعض العوامل التى تقدم وصفها كالرياح والأمطار والأنهار فتكونت الرواسب على قيعان البحار ومن ثم بدأ تكوين الصخور الراسبة

﴿ الفصل الرابع : فى الحياة القديمة ﴾

يمثل هذا الحقب جزءا كبيرا من مجموع الزمن الجيولوجى يقدر كما قدمنا بنحو ٣٠ فى المائة من مجموعه . وتدلنا الحفريات الكثيرة التى وجدت دفينة بين صفحات صخوره أن سطح الأرض وجوف البحار كانت وقتئذ مرتعا لأنواع من الحياة تختلف كل الاختلاف عن الكائنات الحية التى تعمر وجه الأرض الآن . فكانت من بينها أجناس وفصائل ورتب قد بادت وانقرضت فليس شئ يشابهها الآن على وجه الأرض كما أن على سطحها الآن من الفصائل الشائعة مالم تكن قد ظهرت بعد . (انظر اللوحة الأولى) فى الصفحة الثالثة

ومن أهم فصائل الحيوانات التى يختص بها هذا الحقب القديم الجرابتوليت والتريلوبيت التى عاشت واندثرت قبل انقضاء ذلك الحقب فلا أثر لها بين صخور الحقب الذى يليه . (انظر رقمى ١ و ٤ باللوحة الأولى)

والجرابتوليت من فصيلة الحيوانات البحرية المعروفة بالبوريفرا . وهى عبارة عن سلسلة متصلة من الخلايا يربط بعضها ببعض عمود دقيق . وقد تكون فردية مستقيمة أو مقوسة أو حلزونية وقد تكون متفرعة الى فرعين أو أكثر (شكل ١ باللوحة الأولى)

والتريلوبيت من فصيلة الحيوانات القشرية تنقسم طوليا ثلاثة أقسام هى الرأس والجسم والذنب وعرضيا ثلاثة أقسام أيضا (شكل ٤ باللوحة الأولى)

ومن أنواع الحيوانات أيضا الشعاب المرجانية (شكل ٣ باللوحة الأولى) والحيوانات المحارية (الشكلين رقمى ٥ و ٦ باللوحة الأولى) وكلها من أنواع وأجناس بادت قبل انقضاء ذلك الحقب فلم يظهر أثرها بين صخور الأحقاب التالية وليس لها وجود فى البحار الحالية

وقد كانت الأسماك أولى الحيوانات الفقرية التى ظهرت فى البحار أبان ذلك الحقب . على أنها كانت تختلف اختلافا بينا عن أسماك البحار الحالية إذلم تكن هياكلها العظيمة قد تعظمت تماما وكان يستعيض عنها الحيوان بدرقة خارجية تغطى رأسه وجزءا من جسمه (انظر الشكل رقم ٩ باللوحة الأولى)

ومن الأسماك نشأت أنواع الأمفيبيا أو الحيوانات البرمائية . على أن ظهورها كان قرب انتهاء ذلك

الحقب ومنها نشأت الزواحف التي كان لها شأن عظيم في حقب الحياة الوسطى (انظر شكل ١٦)



﴿ اللوحة الأولى ـ انظر شكل ١٦ ﴾

(الحفريات المبينة بهذه اللوحة حسب الأرقام المبينة أمام كل منهاهي . (١) جرابتوليت (٢) كرينويد (٣) شعب مرجانى (٤) تريلوبيت (٥) برودكتوس (٦) سبيريفر (٧) بليريفون (٨) ارثو-وراس (٩) سمك بتريكتس (١٠) نبات سرخسى (١١) ليبدودندرون)

﴿ الفصل الخامس فى عصور الحياة الوسطى ﴾

جاء فى كتاب « الجيولوجيا » مانصه :

كان هذا الحقب فترة سكون وهدوء لم تتعرض القشرة الأرضية فيه لمثل ماتعرضت له من حركات أرضية عنيفة إبان الحقب . ولم تكن الأرض فى غضون هذا الحقب المتوسط مسرحا لتفاعلات بركانية شديدة

ومع أن البحار قدعدت على بعض أجزاء من الأرض فغمرتها وألقت فوقها برواسبها المختلفة الا أن ذلك لم يكن نتيجة حركات عنيفة من نوع التى أدت فى الأحقاب الأخرى الى رفع سلاسل الجبال العظمى

كذلك كانت هناك براكين فى بقاع مختلفة ولكنها لم تبلغ الشأو والانتشار اللذين بلغتهما فى العصور السابقة وليس للصخور البركانية شأن كبير بين صخور تكاوين الحقب المتوسط

وقد كانت أنواع الحياة من نبات وحيوان تختلف فى مجموعها عنها فى عصور الحقب القديم * فبادت من بينها فصائل كانت قدأينعت وازدهرت فى العصور الأولى كالتريلوبيت والجرابتوليت وانتشرت بدلا عنها أجناس اختص بها هذا الحقب كالأمونيت والبلمنيت التى بدأت مع ابتداء ذلك الحقب واندثرت قبل انتهائه فأصبحت من أخص مميزاتها

والأمونيت (شكل ١ باللوحة الثانية) جنس من الحيوانات المحارية الرخوة محارته مستديرة الشكل مفلطحة فى التواءات حلزونية بداخلها تجويف حلزونى مقسم الى غرف أكبرها الغرفة الخارجية التى كان يسكنها الحيوان . وتنفصل هذه الغرف بعضها عن بعض قطاعات مجعدة . وقد كان من هذا الجنس نحو أربعة آلاف نوع يختلف بعضها عن بعض فى حجمها وشكلها وزخرفها الخارجى .

أما البلمنيت (شكل ٢ باللوحة الثانية) فهو حيوان ذو محارة سوداء مستطيلة أعلاها مجوف حيث كان يسكن هذا الحيوان وأسفلها ينتهى بنقطة حادة

ومن أنواع الحيوانات التى تكاثرت فى العصور الجيولوجية الوسطى الشعاب المرجانية التى كانت تشبه الشعاب التى تنمو الآن فى بحار المناطق الاستوائية (انظر شكل ١٧) فى الصفحة التالية

﴿ الفصل السادس . فى عصور الحياة الحديثة . (الكاينوزوى) ﴾

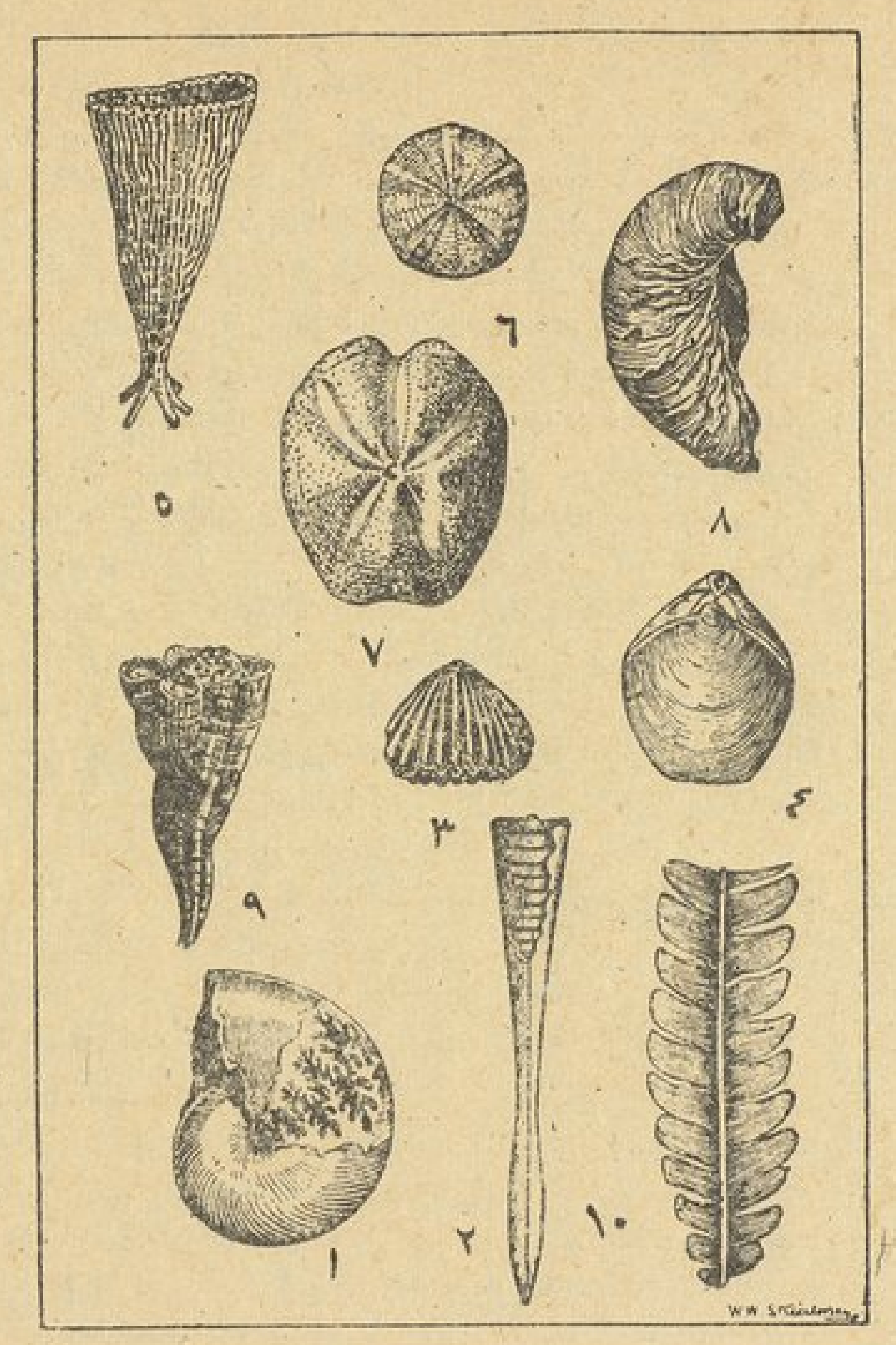
جاء فى كتاب « الجيولوجيا » مانصه .

ترجع تسميته الى الشبه الكبير بـ ماكانت تعيش فيه من نباتات وحيوانات ومايعيش منها الآن مع العلم أن كلمة (كاينوز) يونانية معناها حديث أوجديد وكلمة (زون) كلمة أخرى معناها حياة

وقد بدأ ظهور الفصائل والأسر والأجناس الحالية من حيوانات ونباتات مع ابتداء هذا الحقب وصارت تتزايد نسبتها كلما تقدمنا فيه . فكانت مجموعة الحياة تزداد شبها بالمجموعة الحالية . وكان فى ذلك تدرج من الحياة الوسطى الى الحياة الحالية

وكانت أجناس الأمونيت والبلمنيت التى اختصت بها العصور الجيولوجية الوسطى قد اندثرت شيئا فشيئا قبل بزوغ الحقب الحديث كذلك بادت الزواحف الكبرى التى تفوقت فى تلك العصور على باقى الحيوانات ولم تترك وراءها من تلك الفصيلة سوى أجناس قليلة الأهمية صغيرة الحجم هى التى بقيت على وجه الأرض الآن كالسحالى والتماسيح والأفاعى

ومن أخص مميزات أنواع الحياة فى ذلك العهد النوموليت والسريثيوم وهى لم تكن قدظهرت قبل ذلك . ومن الحيوانات الفقرية امتازت الثدية فتفوقت على باقى أنواع الحيوانات جميعا . و بلغت المملكة النباتية



(اللوحة الثانية ـ شكل ١٧)

(مجموعة أهم الحفريات فى صخور حقب الحياة الوسطى بالقطر المصرى)

(أسماء الحفريات المبينة باللوحة الثانيـة حسب الأرقام المبينة أمام كل منها هى . ـ (١) أمونيت (٢) بلمنيت (٣) رينكونيلا (٤) تريبراتولا (٥) اسفنج فنتريكوليتس (٦) هولكتيبوس (٧) هيميا.تر (٨) أوستريا (٩) رودستا (١٠) نبات سرخسى)

مالم تكن قد بلغته قبل ذلك من تنوع أجناسها وانتشارها وتوزيعها

ويقدرون عـدد أنواع الحيوانات التى عاشت فى عصور الحقب الحديث بنحو ٢٠ ألف نوع أهمها تابع للأجناس الآتية

النوموليت وهى حيوانات من فصيلة الفورامينيفرا تسكن الى هيكل جيرى مستدير يختلف حجمه شكلا من حبة العدس الى القطعة ذات العشرين قرشا . وقد كانت استدارتها ورقتها التى جعلتها شبيهة بقطع النقد سببا فى تسميتها . فاذا قطعت قصفين رؤيت منقسمة فى الداخل الى خلايا صغيرة مرتبة فى صفوف حلزونية يفصل بعضها عن بعض حواجز رقيقة (أنظر شكل رقم ١ باللوحة الثالثة) وقد اقتصرت حياة النوموليت على العصر الأول من عصور هذا الحقب وتكاثرت فيه وكان من جراء تراكم محاراتها أن تكونت الأحجار الجيرية النوموليتية ومنها أحجار جبل المقطم وهضبة أهرام الجيزة

ومن القنافذ البحرية جنس الأكينولامباس . ومن الحيوانات الرخوة السريثيوم وهى من القواقع ذات المحارات الحلزونية المزخرفة من الخارج بأزرار وخطوط وقد بلغ بعض أنواعها حجما كبيرا . ومنها أيضا البلانوربس وكانت تسكن المياه العذبة

ومن الحيوانات الرخوة ذات المحارات المزدوجة الأوستريا (شكل ٦ باللوحة الثالثة) والبكتن (شكل ٧ باللوحة الثالثة) واللوسينا (شكل ٢ باللوحة الثالثة)

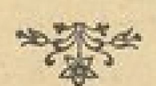
وقد انتشرت الحشرات انتشارا كبيرا وذلك يرجع لانتشار النباتات المزهرة . فكان من بينها أنواع النحل والبعوض والنمل والفراش وقد حفظت حفريات بعضها بحالة جيدة جدا داخل قطع الكهرباء (الكهرمان) الذى هو عبارة عن صمغ بعض الأشجار الصنوبرية التى كانت منتشرة فى غابات ذلك الحقب

ومن الحيوانات الفقرية الأسماك وكانت تشبه الأسماك الحالية كل الشبه . والأمفيبيا والزواحف التى كان من بينها السحالى والثعابين والسلاحف والتماسيح التى لاتختلف كثيرا عن مثيلاتها فى الوقت الحالى

واندثرت الطيور ذات الأسنان التى كانت قد نشأت فى أواخر العصور الوسطى وأخذت مكانها أنواع لا أسنان لها تشبه الطيور الحالية

أما الحيوانات الثدية فقد بلغت أقصى حدود الكمال فى ذلك الحقب وتفوقت على باقى أنواع الحياة جميعا ومن الهياكل العظمية التى وجدت مدفونة فى باطن صخور ذلك الحقب أمكن تتبع الحلقات المختلفة فى نشوء بعض الأجناس التى تعيش على الأرض الآن

فالفيل مثلا نشأ فى العصور الأولى من ذلك الحقب من جنس الماستودون وهو حيوان بلغ طوله (٥) ونصف من الأمتار وارتفاعه ٤ أمتار وله نابان فى كل من الفك الأعلى والأسفل (انظر شكل ١٨ أى اللوحة الثالثة) فى الصحيفة التالية





(شكل ١٨ - اللوحة الثالثة)

(مجموعة أهم الحفريات فى صخور حقب الحياة الحديثة بالقطر المصرى)

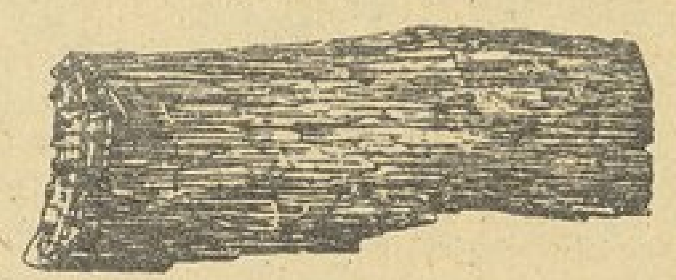
(أسماء الحفريات المبينة باللوحة الثالثة حسب الأرقام المبينة أمام كل منها هى (١) نوموليت (٢) لوسينا (٣) نانيكا لونجا (٤) سرطان بحرى (٥) فاكهة متحجرة (٦) أوستريا (٧) بكتن (٨) سن الحوت (٩) ورقة شجر (١٠) كليباستر)

(النحل)

﴿ الفصل السابع فى العصر الحجرى القديم ﴾

اعلم أن عصر الحياة الحديثة المتقدم ذكره قسمه العلماء الى قسمين عظيمين : عصر ثلاثى وعصر رباعى وفى العصرين ظهرت أنواع من الحيوانات الرخوة وهى لاتزال حية الى الآن . وقد وجدوها ستة أنواع فى أزمان مختلفة . وفى هذا العصر كانت بعض الغابات المتحجرة وهى الأماكن التى تظهر على سطحها هذه الطبقات الرملية التى تحتوى على بقايا الخشب المتحجرة . و بتأثير عوامل التعرية فيها تكتسح الرمال وتبقى الأشجار المتحجرة ملقاة على السطح . ومن أمثلتها « الغابة » المشهورة الواقعة على بضعة كيلومترات شرق العباسية حيث ترى كثيرا من سيقان الأشجار يبلغ طول بعضها عشرين مترا . وهى محتفظة بدقيق تركيب أليافها حتى إنها تشبه الخشب فى شكلها الخارجى إلا أنها مركبة من مادة سيليسية بدلا من مادتها الخشبية الأصلية . وقد استبدلت بالمادة الأصلية مادة السيليس ذرة لذرة فى مياه معدنية سيليسية كانت قد تفجرت من عيون فى نهاية ذلك العصر (أنظر الشكل رقم (ا) والصورة الفوتوغرافية رقم (ب) باللوحة الرابعة) (انظر شكل ١٩ وشكل ٢٠)

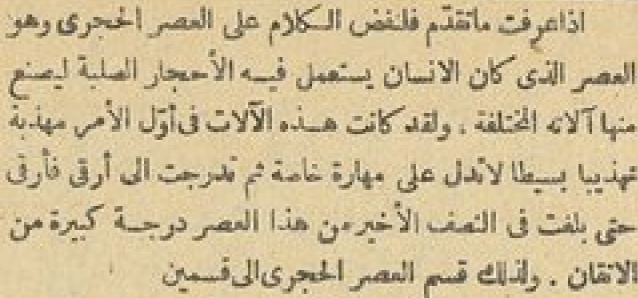
(اللوحة الرابعة)



(شكل ١٩) (ا) قطعة من الخشب المتحجر



(شكل ٢٠) (ب) منظر الغابة المتحجرة قرب القاهرة



اذاعرفت ماتقدم فلنفض الكلام على العصر الحجرى وهو العصر الذى كان الانسان يستعمل فيه الأحجار الصلبة ليصنع منها آلاته المختلفة . ولقد كانت هذه الآلات فى أول الأمر مهذبة تهذيبا بسيطا لاتدل على مهارة خاصة ثم تدرجت الى أرقى فأرقى حتى بلغت فى النصف الأخير من هذا العصر درجة كبيرة من الاتقان . ولذلك قسم العصر الحجرى الى قسمين



(١) - ﴿ العصر الحجرى القديم ﴾

وكانت فيه الآلات الحجرية بسيطة الشكل غير مصقولة ومن أمثلتها المجموعة التى ترى فى الشكل رقم ٢١

ومن الحالات التى توجد فيها هذه الآلات يتضح أن الانسان كان فى أول الأمر هائما على وجهه متنقلا فى السهول والوديان باحثا عن صيد أو هاربا من حيوان مفترس . و بعد ذلك لجأ الى سكنى الكهوف والمغارات حيث ترك وراءه فيها هياكله العظمية و بعض آثاره من آلات حجرية

ولقد بلغ بعض ساكنى هذه الكهوف مبلغا عظيما من الفن فتركوا على حيطانها رسوما متقنة تمثل ما كان يعاصرهم من أنواع الحيوانات البائدة كالماموث و بعض أنواع الغزال

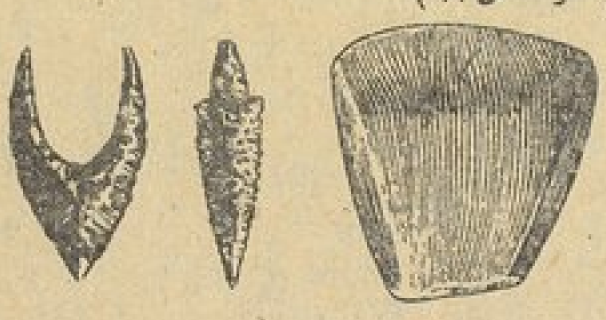
(شكل ٢١)
آلات من الصوان من العصر الحجرى القديم بالفيوم

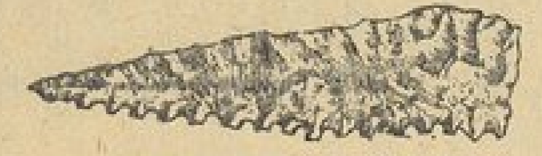
ومن آثار هذه الكهوف يظهر أن الانسان كان فى تلك العصور النائية قد فقه فائدة النار فى طهى الطعام والتدفئة . كذلك كان قد بدأ يستفيد مما عاصره من حيوانات فكان يصنع من أنياب الفيلة ومن قرون الغزلان سكاكين ورءوسا للرماح الى غير ذلك من آلات بسيطة الصنع

---

(٢) - ﴿ الفصل الثامن . فى العصر الحجرى الحديث ومعه عصر البرنز ﴾

تمتاز آلات الانسان فى ذلك العهد بصقلها ورقتها ودقة صنعها واختلاف أشكالها . فكان منها رءوس الرماح والسهام والبلط (انظر شكل ٢٢)





(شكل ٢٢ - مجموعة من الآلات من حجر الصوان تابعة للعصر الحجرى الحديث)

ذلك لأنه كان قد تقدم درجات محسوسة فى سلم المدنية فزادت احتياجاته والحاجة كما نعلم هى أم الاختراع .

ومن الرسوم التى تركها على جوانب الكهوف وعلى أيدى السكاكين يظهر أنه كان قد نجح فى إخضاع بعض الحيوانات الوحشية فصارت أليفة تساعده على كفاحه فى الحياة . فكان له منها الثور والحصان والحمار والكلب والقط . كذلك كان قد تعلم فنون الزراعة فزرع القمح والشعير لطعامه وزرع التيل ليصنع منه ملابس يتقى بها عوادى الطبيعة ويستعملها فى الزينة . كذلك كان قد علم شيئا عن صناعة الفخار فصنع لنفسه منه أوانى بسيطة

وقد هجر الكهوف فى آخر الأمر الى بناء مساكن يأوى اليها فى أواسط بعض البحيرات ليأمن فيها من اعتداء الوحوش الضارية وقد بقيت آثار بعض هذه المساكن فى بحيرات بسويسرا وغيرها من البلاد .

ويظهر أنه كانت له وقت ذاك معتقدات دينية فقد ترك وراءه هياكل أو معابد مكوّنة من جلاميد صخرية ضخمة لابد أنها تطلبت منه مجهودا عظيما فى اقامتها

﴿ عصر البرنز ﴾

هذا العصر يتفق فى أغلب البلاد مع ابتداء العصر الجيولوجى الحديث اى عقب انتهاء عصر البليستوسين فكان فاتحة العصور التاريخية المعروفة

ومن الغريب أن ينتقل الانسان من صناعة آلاته من الصوّان فجأة الى البرنز الذى هو خليط من معدنين وقد يكون ذلك من باب المصادفة

وقد شذ سكان وادى النيل القدماء عن هذه القاعدة العامة فى التدرج فلم يمرّوا فى عصر البرنز بل انتقلوا من العصر الحجرى الحديث الى استعمال النحاس الذى كانت لهم فيه طريقة خاصة لجعله شديد الصلابة

أما عصور الانسان الحجرية فى القطر المصرى فتوجد آثارها من آلات من الصوّان فى رواسب الرمل والحصى على جانبى وادى النيل وفى الوديان بالصحارى . وقد جمعت أحسن أمثلتها من طبقات الرمال والحصى بالعباسية فكان من بينها أنواع تمثل جميع درجات العصر الحجرى القديم من ابتدائه الى انتهائه . كذلك وجدت آثار العصر الحجرى الحديث فى بعض بقاع متفرقة فى وادى النيل نفسه وعلى مقربة من بحيرة قارون

ويستنبط من هذا أن الانسان فى العصر الحجرى القديم كان منتشرا فى وادى النيل والصحارى وقد يكون ذلك لملاءمة الأحوال الجوية لتنقله فى هذه المناطق . على أنه فى العصر الحجرى الحديث قد لجأ الى أماكن معينة بوادى النيل واتخذ عيشة أكثر سكونا من الأولى . والى هنا تم الكلام على باب العلم وفصوله الثمانية والحمد لله رب العالمين

باب العمل

ولأذكر هنا نبذة من علم الجيولوجيا خاصة بالقطر المصرى الذى هو بعض البلاد الاسلامية وهاك نصها

﴿ نبذة عن تاريخ التعدين بالقطر المصرى ﴾

يرجع أوّل اهتمام بالتعدين فى مصر إلى العصور التاريخية القديمة . فقد كان قدماء المصريين يهتمون به اهتماما عظيما يظهر أثره فيما فتحوه من مناجم للذهب والنحاس وبعض الأحجار الكريمة . وقد كان لما استنبطوه من المعادن بعض الفضل فى المركز الممتاز الذى تبوّءوه بين باقى الأمم . وقد ظهر من مسطوراتهم على البردى وعلى جدران بعض المعابد أنهم كانوا يبعثون الى الصحراء بعوثا مجهزة برجال الفن المعدنيين تحرسهم فصائل من الجند لتصدّ عنهم عادية أهل البدو المعادين

واستمر هذا الاهتمام بأمور التعدين طول عصر قدماء المصريين حتى عهد الرومان . ثم تولاها كانولى باق مرافق الدولة بحول تام لم تفق منه إلا فى عصور متقطعة إبان الحكم العربى الاسلامى

فلما أن تبوأعرش مصر ساكن الجنان محمد على باشا منشىء الأسرة العلوية الكريمة فقه بثاقب بصره أن المعادن هى أساس الصناعات جيعا ، فوجه عناية خاصة للبحث عنها وندب من علماء الأوروبين من جابوا الصحارى المصرية باحثين منقبين . على أن المنية عاجلته قبل أن تثمر جهوده الثمرة التى كان يرجوها ولم يضع مجهوده سدى . فاتجهت الأنظار بعد ذلك إلى مسائل التعدين فى مصر ومابدأ القرن الأخير حتى كانت جهود قيمة تبذل فى سبيل البحث عن المعادن بالصحارى المصرية . فأعيد فتح مناجم الذهب القديمة واستمر استغلال بعضها سنين عديدة ، وكشفت موارد الفوسفات والبترول والمنجنيز و بلغ استغلال بعضها شأنا لايستهان به وسنقتصر فى الكلام هنا عن أهم المعادن على حسب ترتيب أهميتها

﴿ زيت البترول ﴾

أوّل مادلّ على وجود البترول بالأراضى المصرية ما كان ينزّ منه منذ القدم على سطح الماء عند سفح جبل الزيت على شاطىء خليج السويس . وكان هذا النز سببا فى تسمية الجبل بهذا الاسم

ثم كشف بعد ذلك عام ١٨٨٥ بمنطقة الجمشة (جسا) فى مغارات كانت قد فتحت قرب الشاطىء لاستخراج معدن الكبريت . فأدّى ذلك الى البدء فى عمليات البحث التى لم تثمر قبل عام ١٩١٠ . ومن ذلك الوقت بدأ استغلال منطقة جسا كحقل بترولى واستمر استغلالها حتى عام ١٩٢٧ حيث نضب أغلب آبارها فأهملتها الشركة التى كانت تستغلها (أنظر صورة أحد آبار جسا رقم ب باللوحة الخامسة فى الصفحة التالية)

وفى عام ١٩١٤ كشف الشركة نفسها منطقة الغردقة التى تبعد ٦٠ كيلو مترا جنوب جسا ، وقد تقدمت الغردقة تدريجا حتى بلغت الآن درجة كبيرة من الأنتاج وأصبحت المورد الأكبر لزيت البترول ومستخرجاته بالقطر المصرى (الصورة (ا) باللوحة الخامسة فى الصفحة التالية) . وسنورد بعض الأرقام للدلالة على أهمية كل من هذين المكانين

﴿ جسا ﴾

بلغ مجموع آبارها	٣٤ بئرا
عدد الآبار المنتجة	١٠ آبار فقط
متوسط عمقها	٤٠٠ متر

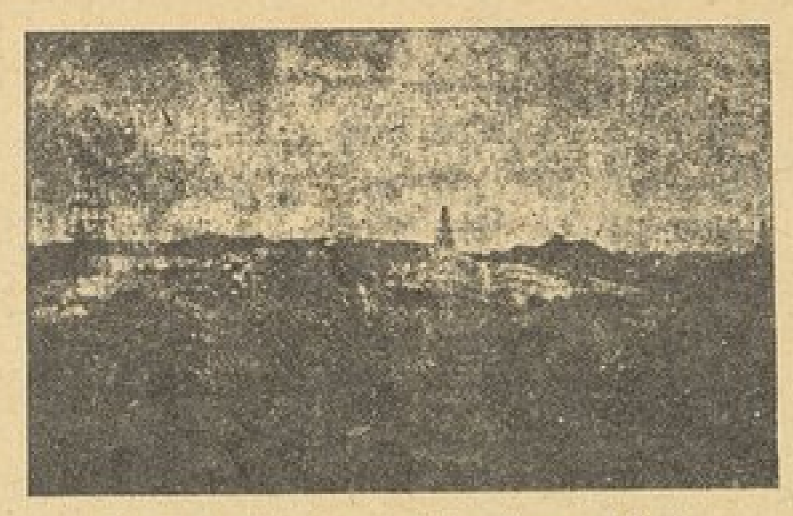
ومجموع ماأنتجته من البترول من وقت ابتدائها حتى أغلقت ١٨٢٤٨٨ طنا وكان البترول الذى أنتجته آبار جسا من نوع جيد غنى بالمواد الخفيفة كما يستدل من الأرقام الآتية

ثقله النوعى	٨٢٧ ر ٠
نسبة البنزين	٢٨ فى المائة
نسبة الكيروسين	٣٢ فى المائة
نسبة المازوت	٤٠ فى المائة

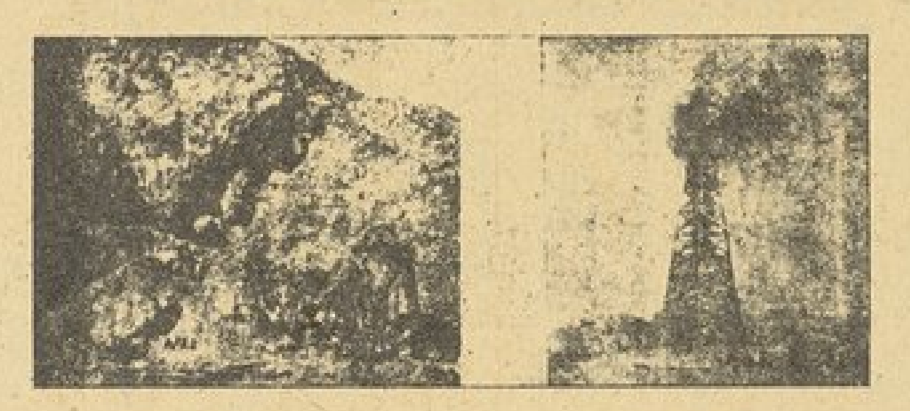
﴿ الغردقة ﴾

بلغ مجموع آبارها	٨٢ بئرا
عدد الآبار المنتجة	٦٩ بئرا
متوسط عمقها	٦٠٠ متر
مجموع ماأنتجته حتى نهاية عام ١٩٢٨	٩٥٥ ر ٢٨٦ ر ٢ طنا

(اللوحة الخامسة)

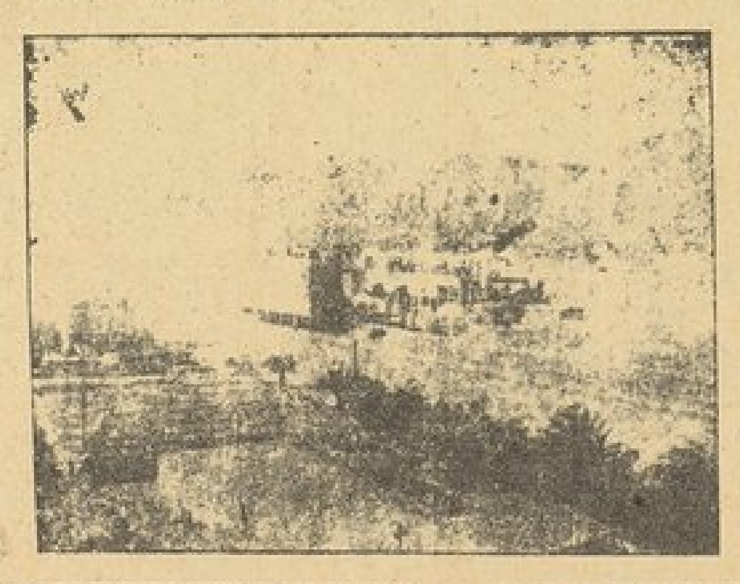


(شكل – ٢٣ (أ) منظر لجزء من حقول البترول بالغردقة)



(شكل ٢٤)
(ب) بئر في أول إنتاجه يتدفق البترول من فوهته بقوة عظيمة – جمسا

(شكل ٢٥)
(ج) أحد عروق المرو الحاملة للذهب بمناجم سمنا بالصحراء الشرقية



(شكل ٢٦) (أ) – منظر عام لمناجم الفوسفات قرب سفاجا بالصحراء الشرقية



(شكل ٢٧)

(ب) - منظر منطقة مناجم المنجنيز بشبه جزيرة سينا

أما نوع البترول الذى تنتجه الآبار فهو أقل جودة من نوع بترول جسا كما يستدل من الموازنة بين الأرقام الآتية والأرقام التى أوردناها

الثقل النوعى لبترول الغردقة	٩٢٠ ر٠
نسبة البنزين	٨ فى المائة
نسبة الكيروسين	١٥ فى المائة
نسبة المازوت	٥٧ فى المائة
نسبة الأسفلت	١١ فى المائة
نسبة البارافين (الجمع)	٧ فى المائة
نسبة الكبريت	٢ فى المائة

وتخرج هذه الزيوت مختلطة بمياه مالحة تحتاج لفصلها عنها الى عمليات خاصة كما أنه تنبعث من الآبار غازات كثيرة يقطر منها الجازولين وهو نوع من البنزين الخفيف . انتهى من كتاب الجيولوجيا للدكتور حسن صادق وبهذا تم الكلام على اللطيفة الأولى والحمد لله رب العالمين

﴿ اللطيفة الثانية ﴾

(فى قوله تعالى ـ كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا ـ وكيف بقيت اللغة العربية محفوظة مصداقا لقوله تعالى ـ لايأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه ـ الخ ولقوله تعالى أيضا ـ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم ـ الخ وهذه معجزة ثالثة)

اعلم أيها الذكى أن فى وصف القرآن بأنه عربى ﴿ مبحثين * المبحث الأول ﴾ لغوى ﴿ المبحث الثانى ﴾ علمى وسياسى

﴿ المبحث الأول وهو اللغوى ﴾

جاء فى كتاب « الاتقان . لعلوم القرآن » فى الجزء الأول صفحة ١٢٧ ما نصه :

« وأقوى مارأيته لنزول غير العربى فى القرآن وهو اختيارى ما أخرجه ابن جرير بسند صحيح عن أبى ميسرة التابعى الجليل . قال : « القرآن من كل لسان » . وقال قبل ذلك : وأجابوا عن قوله تعالى ـ قرآنا عربيا ـ بأن الكلمات اليسيرة بغير العربية لاتخرجه عن كونه عربيا ، والقصيدة الفارسية لاتخرج عنها بلفظة فيها عربية . ثم قال . وروى مثله (أى مثل ما قاله أبو ميسرة) عن سعيد بن جبير ووهب بن منبه . فهذه اشارة الى أن حكمة وقوع هذه الألفاظ فى القرآن انه حوى علوم الأولين والآخرين ونبأ كل شىء ، فلابد أن تقع فيه الاشارة الى أنواع اللغات والألسن ليتم إحاطته بكل شىء فاختير له من كل لغة أعذبها وأخفها وأكثرها استعمالا للعرب . ثم رأيت ابن النقيب صرّح بذلك فقال : « من خصائص القرآن على سائر كتب الله المنزلة انها نزلت بلغة القوم الذين أنزلت اليهم لم ينزل فيها شىء بلغة غيرهم ، والقرآن احتوى على جميع لغات العرب وأنزل فيه لغات غيرهم من الروم والفرس والحبشة شىء كثير » اه

وأيضا فالنبى ﷺ مرسل الى كل أمة ، وقد قال تعالى ـ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ـ فلابد أن يكون فى الكتاب المبعوث به من لسان كل قوم وان كان أصله بلغة قومه هو اه

وهاأناذا ملخص لك ماجاء فى ذلك الكتاب مما ورد من لغات قبائل العرب المختلفة ، ثم أتبعه بما جاء فيه من لغات الأمم المختلفة ليكون ذلك ذكرى لأولى الألباب

ولقد اخترت أن يكون على هيئة جدول لطيف بحيث تكتب الكلمة . وأمامها معناها وأمامهما فى صفهما اسم القبيلة ليكون ذلك أحسن وضعا وأتمّ صنعا وأقرب فهما وهاهى ذه فى الصفحات التالية



الكلمة	معناها	القبيلة
مسطورا	مكتوبا	جبر
السفهاء	الجهال	كنانة
خاسئين	صاغرين	»
شطره	تلقاءه	»
لاخلاق	لانصيب	»
وجعلكم ملوكا	أحرارا	»
قبيلا	عيانا	»
معجزين	سابقين	»
يعزب	يغيب	»
تركنوا	تميلوا	»
بقوة	ناحية	»
موئلا	ملجأ	»
مبلسون	آيسون	»
دحورا	طردا	»
الخراصون	الكذابون	»
أسفارا	كتبا	»
كنود	كفور للنعم	هذيل
الرجز	العذاب	»
شروا	باعوا	»
عزموا الطلاق	حققوا	»
صلدا	نقيا	»
آناء الليل	ساعاته	»
فورهم	وجههم	»
مدرارا	متتابعا	»
فرقانا	مخرجا	»
حرض	حض	»
عيلة	فاقة	»
وليجة	بطانة	»
انفروا	اغزوا	»
السائحون	الصائمون	»
العنت	الاثم	»
ببدنك	بدرعك	»
غمة	شبهة	»
دلوك الشمس	زوالها	»

الكلمة	معناها	القبيلة
شاكلته	ناحيته	هذيل
رجما	ظنا	»
ملتحدا	ملجأ	»
يرجو	يخاف	»
هضما	نقصا	»
هامدة	مغبرة	»
واقصد في مشيك	أسرع	»
الأجداث	القبور	»
ثاقب	مضيء	»
باللمم	باللمم	»
يهجعون	ينامون	»
ذنوبا	عذابا	»
دسر	المسامير	»
تفاوت	عيب	»
أرجائها	نواحيها	»
أطوارا	ألوانا	»
بردا	نوما خفيفا	»
واجفة	خائفة	»
مسغبة	مجاعة	»
المبذر	المسرف	»
تفشلا	تجبنا	جبر
عثر	اطلع	»
سفاهة	جنون	»
زيلنا	ميزنا	»
مرجوا	حقيرا	»
السقاية	الاناء	»
مسنون	منتن	»
إمام	كتاب	»
ينغضون	يحركون	»
حسبانا	بردا	»
من الكبر عتيا	نحولا	»
خربا	جعلا	»
غراما	بلاء	»
الصرح	البيت	»

الكلمه	معناها	القبيلة	الكلمة	معناها	القبيلة
أنكر الأصوات	أقبحها	حمير	كاظمين	مكروبين	ازدشنوءة
يترِكم	ينقصكم	»	غسلين	الحارّ الذى	»
مدينين	محاسبين	»		تناهى حرّه	
راية	شديدة	»	لوّاحة	حرّاقة	»
ويلا	شديدا	»	رفث	جاع	مذحج
بجبار	بمسلط	جرهم	مقيتا	مقتدرا	»
القطر	النحاس	»	بظاهر من القول	بكذب	»
محشورة	مجموعة	»	الوصيد	الفناء	»
معكوفا	محبوسا	»	حقبا	دهرا	»
مرض	زنا	»	الخرطوم	الأنف	»
فباءوا	استوجبوا	»	تسيمون	ترعون	»
شقاق	ضلال	»	مريج	منتشر	خثعم
خيرا	مالا	»	عفت	مالت	»
كدأب	كأشباه	»	هاويا	ضجورا	»
تعولوا	تميلوا	»	شططا	كذبا	»
يغنوا	يتمتعوا	»	نحلة	فريضة	قيس عيلان
شرّد	نكل	»	حرج	ضيق	»
أراذلنا	سفلتنا	»	لخاسرون	مضيعون	»
عصيب	شديد	»	تفندون	تستهزئون	»
لفيفا	جميعا	»	صياصيهم	حصونهم	»
محسورا	منقطعا	»	تحبرون	تنعمون	»
حدب	جانب	»	رجيم	ملعون	»
الخلال	السحاب	»	يلتكم	ينقصكم	»
الودق	المطر	»	حفدة	أختانا	سعد العشيرة
شرذمة	عصابة	»	كل	عيال	»
ريع	طريق	»	جابا	طرقا	كندة
ينسلون	يخرجون	»	بست	فتت	»
شوبا	مزجا	»	تبتئس	تحزن	»
الحبك	الطرائق	»	اخسئوا	اخزوا	عذرة
سور	الحائط	»	ربيون	رجال	حضرموت
لاشية	لاوضح	أزدشنوءة	دمرنا	أهلكنا	»
العضل	الحبس	»	لغوب	إعياء	»
أمة	سنين	»	منسأته	عصاه	»
الرس	البئر	»	طفقا	عمدا	غسان

الكلمة	معناها	القبيلة
بئيس	شديد	غسان
سيء بهم	كرههم	»
لاتقفوا	لاتزيدوا	مزينة
إملاق	جوع	لخم
ولتعلن	ولتقهرن	»
فجاسوا خلال الديار	تخللوا الأزقة	»
العقود	العهود	بنى حنيفة
الجناح	اليد	»
الرهب	الفزع	»
حصرت	ضاقت	اليمامة
تميلوا ميلا عظيما	تخطئون خطأ بينا	سبأ
تبرنا	أهلكنا	»
نكص	رجع	سليم
الصاعقة	الموت	عمان
ينعق	يصيح	طيء
رغدا	خصبا	»
سفه نفسه	خسرها	»
يس	يا انسان	»
أفيضوا	انفروا	خزاعة
الافضاء	الجماع	»
خبالا	غيا	عمان
نفقا	سربا	عمان
حيث أصاب	أراد	عمان
بعد أمة	نسيان	تميم
بغيا	حسدا	»
طائره	عمله	أنمار
أفطش	أظلم	»
لأحتنكن	لأستأصلن	الأشعريون
تارة	مرة	»
اشمأزت	مالت ونفرت	»
لينة	نخلة	الأوس
ينفضوا	يذهبوا	الخزرج
فافرق	فاقض	مدين

وجاء فى صحيفة ١٣٦ من الجزء الأول من كتاب الاتقان المذكور أيضا مانصه :

وقال أبو بكر الواسطى فى كتابه الارشاد فى القراءات العشر : فى القرآن من اللغات خمسون لغة ، منها لغة قريش وهذيل وكنانة وخثعم والخزرج وأشعر ونمير وقيس عيلان وجرهم واليمن وأزدشنوءة وكندة وتميم وحمير ومدين ولخم وسعد العشيرة وحضرموت وسدوس والعمالقة وانمار وغسان ومذحج وخزاعة وغطفان وسبأ وعمان وبنو حنيفة وثعلب وطيء وعامر بن صعصعة وأوس ومزينة وثقيف وجذام وبلى وعذرة وهوازن والنمر واليمامة

وفيه من غير العربية الفرس والروم والنبط والحبشة والبربر والسريانية والعبرانية والقبط ، ثم ذكر فى أمثلة ذلك غالب ماتقدم عن أبى القاسم وزاد الرجز العذاب بلغة بلى طائف من الشيطان نخسة بلغة ثقيف الأحقف الرمال بلغة ثعلب . وقال ابن الجوزى فى فنون الأفنان فى القرآن بلغة همدان الريحان الرزق والعيناء البيضاء والعبقرى الطنافس ، و بلغة عامر بن صعصعة الحفدة الخدم ، و بلغة ثقيف العول الميل ، و بلغة عك الصور القرن . وقال ابن عبد البر فى التمهيد : قول من قال نزل بلغة قريش معناه عندى الأغلب . انتهى

ثم ذكر فى صحيفة ١٣٨ ومابعدها الألفاظ الواردة من كلام غير العرب مرتبة على حروف المعجم وهذا نصها

الكلمة	معناها	الأمة
أباريق	طريق الماء أو صب الماء على هيئة	فارسية
أبا	الحشيش	عربية
ابلعى	ازدرديه	حبشية
أسباط	قبائل	لغة بنى يعقوب وهى العبرية
إستبرق	الديباج الغليظ	العجم
أسفارا	الكتب	السريانية والنبطية
اصرى	عهدى	النبطية
أكواب	أكواز	»

الكلمة	معناها	الأمة
أليم	موجع	زنجية أو عبرانية
إنا	نضجه	أهل المغرب (البربر)
أواه	موقن أو الرحيم	الحبشية
أوب	سبح	الحبشية
الجاهلية لأولى	الآخرة	القبطية (فعندهم الأولى آخرة وبالعكس)
بطائنها	ظواهرها	قبطية
كيل بعير	كيل حمار	عبرية
بيع	الكنائس	فارسيتان معربتان
تنور		هو فارسي معرب
تتبيرا		هي بالنبطية
من تحتها	من بطنها	النبطية
الجبت	الشيطان أو الساحر	الحبشية
جهنم	أصلها كهنام	فارسية أو عبرانية
حرم	الحبشية	وجب
حصب جهنم	حطب جهنم	الزنجية
وقولوا حطة	وقولوا صوابا	العبرية
الحواريون	الغسالون أصله حواري	النبطية
حوبا	إثما	الحبشية
دينار		هو فارسي
راعنا		بلسان اليهود
ربانيون		هي عبرانية أو سريانية
ربيون		سريانية
الرحمن		عبرانية أصله رخمن
الرس	البئر	أعجمي
الرقيم	اللوح	الرومية
رمزا	تحريك الشفتين	العبرية
رهوا	سهلا دمثا	النبطية
رهوا	ساكنا	السريانية
الروم	فهذا الجيل من الناس	

الكلمة	معناها	الأمة
زنجبيل	هو فارسي	
السجل	الرجل	الحبشة
«	الكتاب	فارسي معرب
سجيل	أولها حجارة وآخرها طين	الفارسية
سجين	هو غير عربي	
سرادق	الدهليز أو الدار	الفارسية
سريا	نهرا	السريانية
سفرة	القراء	النبطية
سقر		هي أعجمية
سجدا	مقنعي الرءوس	الفارسية
سكرا	الخل	الحبشية
سلسبيل		هو أعجمي
سندس	الديباج	الفارسية والهندية
سيدها	زوجها	القبطية
سينين	الحسن	الحبشية
سيناء	«	النبطية
شطر	تلقاء	الحبشية
شهر		هي كلمة سريانية
الصراط	الطريق	الروم
صرهن	شققهن	النبطية
صلوات	كنائس اليهود وأصله (صلوتا)	العبرانية
طه	هو كقولك يا محمد	الحبشية
طه	يارجل	النبطية
طه	يارجل	الحبشية أيضا
الطاغوت	الكاهن	الحبشية
طفقا	قصدا	الرومية
طوبى	الجنة	الحبشية والهندية
طور	الجبل	السريانية
طوى	ليلا معرب أو هو رجل	بالعبرية
عبدت	قتلت	النبطية
جنات عدن	جنات الكروم والأعناب	السريانية

الكلمة	معناها	القبيلة	الكلمة	معناها	القبيلة
العرم	المسناة التى	الحبشية	كفلين	ضعفين	الحبشية
	تجمع الماء		كوّرت	غورت	الفارسية
غساق	البارد المنتن	التركية	مقاليد	مفاتيح	الفارسية
غيض	نقص	الحبشية	مرقوم	مكتوب	العبرية
فردوس	بستان	الرومية	مزجاة	قليلة	العجم أو القبط
«	فرداسا	النبطية	ملكوت	ملك	النبطية (ملكوتا)
فوم	حنطة	العبرية	مناص	فرار	القبطية
قراطيس	معروف	غير عربى	مهل	عكر الزيت	أهل المغرب
القسطاس	العدل	الرومية	ناشئة الليل	قيام الليل	الحبشية
القسورة	الأسد	الحبشية	ن	أمنع ماشئت	الفارسية
قطنا (بتشديد	كتابنا	النبطيـة أو		وأصله (انون)	
الطاء)		الفارسية معرّبة	هدنا	تبنا	العبرانية
قنطار	١٢ ألف أوقية	رومية وسريانية	هودا	اليهود	الأعجمية
		وبربرية	هونا	حكماء	السريانية
القيوم	هو الذى لا ينام	السريانية	وزر	الجبل والملجأ	النبطية
كافور	معروف	معرّب	يحور	يرجع	الحبشية
كفر عنا	امح عنا	النبطية	يصهر	ينضج	البربرية

قال المؤلف : هـذا ما وقفت عليه من الألفاظ المعرّبة فى القرآن بعد الفحص الشديد سنين ولم تجتمع قبل فى كتاب قبل هذا . وقد نظم القاضى تاج الدين بن السبكى منها سبعة وعشرين لفظا فى أبيات ، وذيل عليها الحافظ أبو الفضل ابن حجر بأبيات فيها أربعة وعشرون لفظا وذيلت عليهما بالباقى وهو بضع وستون فتمت أكثر من مائة لفظة . فقال ابن السبكى :

السلسبيل وطه كوّرت بيع ٭ روم وطوبى وسجيل وكافور
والزنجبيل ومشكاة سرادق مع ٭ استبرق صلوات سندس طور
كذا قراطيس ربانيهم وغسا ٭ ق ثم دينار القسطاس مشهور
كذاك قسورة واليم ناشئة ٭ ويؤت كفلين مذكور ومسطور
له مقاليد فردوس يعد كذا ٭ فيما حكى ابن دريد منه تنور

وقال ابن حجر

وزدت حرم ومهل والسجل كذا السرى والأب ثم الجبت مذكور
وقطـنا وإناه ثم متكئا ٭ دارست يصهر منه فهو مصهور
وهيت والسكر والأوّاه مع حصب ٭ وأوّبى معه والطاغوت مسطور
صرهن إصرى وغيض الماء مع وزر ٭ ثم الرقيم مناص والسنا النور

وقلت أيضا :

وزدت يس والرحمن مع ملكو ٭ ت ثم سينين شطر البيت مشهور

ثم الصراط ودرىء يحور وس * جان ألبم مع القنطار مذكور
وراعنا طفقا ادهدنا ابلى ووراء * والأرائك والأكواب مأثور
هود وقسط وكفر زمرة سقر * هون يصدون والمنساة مسطور
شهر مجوس واقفال يهود حوا * ربون كنز وسجين وتتبير
بعير أزر وحوب وردة عرم * أل ومن تحتها عبدت والصور
ولينة فومها رهو واخلد مز * جاة وسيدها القيوم موفور
وقمل ثم اسفار عنى كتبا * وسجدا ثم ربيون تكثير
وحطة وطوى والرّس نون كذا * عدن ومنفطر الأسباط مذكور
مسك أباريق ياقوت رووا فهنا * ماقات من عدد الألفاظ محصور
وبعضهم عد الأولى مع بطائنها * والآخرة لمعانى الضد مقصور

هذا ماأردته من كتاب « الاتقان فى علوم القرآن » وبهذا تمّ الكلام على المبحث الأوّل فى اللطيفة الثانية والحمد لله رب العالمين

﴿ المبحث الثانى ﴾

فى اللطيفة الثانية وهو العلمى والسياسى فى قوله تعالى ـ كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون ـ

وصف الله القرآن بأنه عربىّ ، ولاجرم أن هذا الوصف لايحتاج فى حدّ ذاته الى بيان أوتصريح لأن النبىّ ﷺ عربىّ والسامعون له عرب ، فهومعروف بداهة ، إذن ذكر هذا الوصف قد جىء به لغرض سام وحكمة تظهر للأمم جيلا بعد جيل . ولقد ظهرت بعض آثارذلك فى أيامنا هذه . ياسبحان الله : إنّ للغات لآثارا عجيبة فى أحوال الأمم وتطوّرها وترقيها من حال الى حال

(١) فلأذكر لك أوّلا اللغة اللاتينية ، وكيف كان لها السيادة فى القرون الأولى بالدول الغربية ، ثم تلتها لغات أخرى وحلت محلها كما يقوم الابن مقام أبيه ويرث مايملكه

(٢) ثم أتبع ذلك بذكر دولة حورابى وهى الدولة البابلية الأولى من سنة ٢٤٦٠ ق.م الى سنة ٢٠٨١ ق.م وكيف اقتبست القلم السومرى القديم على عهد السومريين الذى كان شكله أشبه بشكل الكتابة الهيروغليفية (المصرية القديمة) وكيف استخدموا اللغة السومرية فى المكاتبات ، ثم تركوا اللغة وأبقوا الخط ، ثم تغيرت هيئة الخط

(٣) ثم أقفى بذكر اللغة العربية قبيل الاسلام . وكيف كان خطها النبطى والفرق بين ذلك الخط والخط المسمارى وبينهما نحوثلاثة آلاف سنة .

(٤) ثم أتبع ذلك بالنسبة بين هذا الخط النبطى واللغة العربية إذ ذاك فى القرن الرابع بعد الميلاد وبين ماحدث من التغيير فيهما أيام البعثة المحمدية

(٥) ثم أذكر بعد ذلك كيف نسخت اللغة العربية لغات الأمم التى حلت بها فى مصر والشام والعراق

(٦) ثم أتبع ذلك بما هو المقصود فى تفسير هذه الآية من هذا الموضوع كله ، وهوأن للغة العربية سحرا حلالا وبفضل القرآن دامت قرونا ، أى نيفا و١٣ قرنا ولغة القرآن لم تتغير استبقاء لوصف القرآن بالعربية ، حتى ان هذه اللغة كلما حاولت الدهور والقرون تغييرها على ألسنة العامة على مقتضى قانون التطوّر العام ، أبت أن تفارق اللغة الفصحى واجتذبت أهل الأقطار العربية والعجمية المسلمة الى تلك اللغة فأصبحت كهرباء تصل مابين أمم وأمم فى عصرنا الحاضر ، وهل أعجب من أن ترى الصورة الشمسية لسورة الفاتحة وقل

هو الله أحد مكتوب بتين باللغة الصينية فى نفس بلاد الصين واللغة العربية بالخط العربى مصداقا لقوله تعالى هنا – قرآنا عربيا – ولقوله تعالى أيضا – إنا نحن نزّلنا الذكر وإنا له لحافظون –

فههنا إذن ﴿ ستة فصول * الفصل الأول ﴾ فى مقدمة هذا المقام بذكر اللغة اللاتينية وكيف محيت مع انها كانت لغة الدين والسياسة ﴿ الفصل الثانى ﴾ فى عرب الجاهلية الأولى وهى دولة حورانى فيما بين النهرين ﴿ الفصل الثالث ﴾ فى اللغة العربية قبيل الاسلام وكيف كان خطها النبطى ﴿ الفصل الرابع ﴾ فى النسبة بين هذا الخط النبطى وبين الخط واللغة العربية أيام البعثة المحمدية ﴿ الفصل الخامس ﴾ فى أن اللغة العربية نسخت لغات الأمم المصرية والسورية والعراقية ﴿ الفصل السادس ﴾ فى المقصود من هذا كله فى تفسير هذه الآية وهو أن بقاء اللغة العربية محفوظة الى الآن فى بلاد العرب وأوروبا والصين من أكبر المعجزات

(الفصل الأول)

(فى مقدمة هذا المقام بذكر اللغة اللاتينية وماطرأ عليها تمهيدا لما سنذكر من اللغة العربية وما طرأ عليها تبيينا لمعجزات القرآن)

اعلم أن الدولة الرومانية كانت صاحبة السلطان فى جنوبى وغربى أوروبا فكانت حضارتها ولغتها ودينها وعاداتها وقوانينها ساريات فى تلك الأمم

ومن عادات الله فى الأمم أنها اذا استفحلت وكمل عمرانها وعظم شأنها أخذت ترجع القهقرى كما يكون ذلك فى الانسان والحيوان والنبات – وتلك الأيام نداولها بين الناس – وقيل « مصائب قوم عند قوم فوائد » فكان الرومان كلما ازدادوا فى ترفهم اقتربت منهم الأمم المتوحشة حولهم وهم سكان سواحل البلطيق وأودية الطونه والرين الذين كانوا فى شمال وشرق الدولة . ومازال أولئك المتوحشون يتربصون بتلك الدولة الدوائر ويشنون الغارات تلو الغارات الى أن كانت سنة ٤٧٦ ميلادية إذ تمكن ادوكر (وهو قائد من قواد القبائل الألمانية الذين يوصفون بالمتوحشين) من إزالة سلطان (رميولوس) آخر أمبراطور للدولة الرومانية الغربية وجعل نفسه حاكما لرومه . وهذه الدولة الغربية غير الدولة الشرقية التى كانت عاصمتها القسطنطينية ثم احتلها الترك بعدقرون . فلمازالت المملكة الرومانية الغربية انتشرت الفوضى والهرج والمرج والفساد لأن هؤلاء قوم لاقوانين لهم ولا نظام ، فأهملت الطرق وجهلت التجارة والصناعة والزراعة ، وهنالك أصبح الناس هناك جماعات كل جماعة لهم رئيس يجمعهم ليصدّوا عنهم جيرانهم ، وأصبح هناك نظام معروف باسم (نظام الاقطاع) وهو المعهود فى تاريخ العصور الوسطى

ومثل الألمان فى الاغارة على تلك الدولة أهل فرنسا وقد عظم شأنها حينا من الدهر أيام شرلمان سنة ٧٦٨ الى سنة ٨١٤ وسميت إذ ذاك بالدولة الرومانية . والذى يهمنا فى هذا المقام هو اللغة اللاتينية التى هى لغة الكتابة بين العلماء ثم انحصرت بين رجال الكنيسة ، وذلك أن هناك لهجات أخرى مؤسسة على اللاتينية فى ايطاليا وفرنسا واسبانيا ولهجات أخرى مناسبة لها فى شمالى أوروبا ترجع الى الأصل التيوتونى . وفى آخر العصور الوسطى قد ابتدأ أولئك الأقوام يتفننون بلغاتهم وان لم تكن مكتوبة ، تغنى قوم من فرنسا باللغة الفرنسية الشمالية ، وجماعة من ألمانيا بالألمانية ، وظهر (دانتى) فألف كتابه المسمى « الكوميديا الالهية » باللغة الطليانية . وكتب شوسر الانجليزى حكايات كنتربرى باللغة الانجليزية السكسونية القديمة . وظهرت فى اسبانيا أنشودة السيد باللغة الاسبانية ، فهنالك تكونت أصول اللغات الاوروبية الجديدة ، وظهر أثر ذلك فى ترقية معارف تلك الشعوب ، ذلك لأن أكثرهم يجهلون اللغة اللاتينية التى كانت وحدها لغة العلم وقلما

ألفت الكتب باللغات التي يعرفونها اتسعت مداركهم واستنارت عقولهم ، وساعد على ذلك أمران : الأمر الأول الحروب الصليبية التي بها اختلط القوم بالمسلمين وحلوا كتبهم وعلومهم ، فلما رجعوا غيروا أساليب حياتهم وعرفوا الحقائق وتعلموا الصناعات الكثيرة ، وهذا التفسير قد تقدم فيه هذا موضحا في سور كثيرة . الأمر الثاني سقوط الدولة الرومانية الشرقية سنة ١٤٥٧ باستيلاء الدولة العثمانية عليها ، فلقد كانت تلك العاصمة حافلة بالعلماء ، فلما أحسوا بدنو العثمانيين رحلوا منها ومعهم الكتب الاغريقية العظيمة في الفنون المختلفة التي كانت تجهلها أوروبا ودخلوا المدن الايطالية فصار هؤلاء أساتذة في مدارسهم وجامعاتهم ، وهذه أهم الأسباب في نهضة ايطاليا ومنها انتشرت في أنحاء أوروبا ، وهناك سبب ثالث لاينقص عنهما أهمية وهو أن الأندلس كان سقوطها في نفس ذلك القرن ، وأنت أيها الذكي ربما قرأت في مواضع كثيرة من هذا التفسير أن ابن رشد لما نفي تفرق تلاميذه اليهود في أوروبا ورحبت بهم ألمانيا وترجموا كتبه باللاتينية والعبرية وغيرها ، وأيضا قد كان بعض باباوات رومه كما تقدم قد تعلم في الأندلس ، وبعض علماء الانجليز قبل ذلك التاريخ تعلموا العلوم الرياضية وترجموا كتبا من بلاد الأندلس ومصر

بالعجب : إذن هذا القرآن الموصوف بأنه بلسان عربي هو السبب الحقيقي في نهضة أوروبا الحديثة . ذلك لأن الأندلسيين المسلمين لهم يد فيه والحروب الصليبية ثم الترك المسلمون التابعون لهذا الدين الذي نزل باللغة العربية هم ثالثة الأثافي . إذن أول النهضة الاوروبية وآخرها هو القرآن العربي وهذا من أسرار وصف القرآن بأنه عربي وقد ثبت بهذه اللغة ولم يتغير تبعا للتغير المستمر في جميع اللغات من قرن لآخر كما يأتي فانك سترى أن اللغة العربية في مدة ثلاثة قرون قد تغيرت ألفاظها واختلفت كتابتها لاختلافا بينا ، وهذا القرآن العربي لم تتغير لغته مخالفا في ذلك كل لغة كاللاتينية التي حلت محلها ألسنة أخرى مبنية عليها ولغات أخرى لاصلة بينها وبينها ، وهذا من أسرار ذكر الوصف بأنه قرآن عربي ، فلغة اللاتين لغة دينية ومع ذلك تغيرت ولغة العرب لم تتغير ولو تغيرت لزال هذا الدين ثم ان العداوة بين أهله وبين غيرهم كانت سببا في طرد جماعة من القسطنطينية وآخرين من الأندلس ، كان كل ذلك سبب انتشار العلم والنهضة الحديثة ، ولو تغيرت اللغة العربية كغيرها لانمحى الدين ولم يظهر فيلسوف كابن رشد ، ولا ملك يهاجم النصرانية كمحمد الفاتح ، ولاملك يدافع النصرانية كصلاح الدين أيام الحروب الصليبية ، والترك لسانهم غير عربي ومع ذلك تأثروا بذلك اللسان العربي ، وبهذا كله كانت هذه النهضة الحديثة

ومن آثار هذه النهضة الثلاثية في أوروبا بفضل القرآن العربي أن التعليم في تلك الأقطار كان مقصورا على علوم الدين والقانون الروماني وقانون الكنيسة وفلسفة أرسطاطاليس ، فماذا جرى ؟

(أولا) قامت مناظرة بين العلماء أشهرها المناظرة التي بين (بطرس ابيلارد) وبين (الأب برنارد) فالأول يقول بأن الناس يسيرون بمقتضى عقولهم ولايقتصرون على القوانين الدينية ، والآخر كان ينتصر للكنيسة وتحكمها في كل شيء

(ثانيا) ان الكنيسة قوت (برنارد) ونصرته وخذلت (ابيلارد) وحقرت تعاليمه ومع ذلك قامت جامعة باريس على أثر هذه المناظرة ثم تلتها سالرنو وبولونيا في ايطاليا ثم اكسفورد في انجلترا

(ثالثا) ظهر هنالك العلماء مثل (توماس اكوناس) وهو من ذوي الابتكار والعبقرية ، ومثل (روجر بيكن) صاحب النظرية المشهورة وهي البحث العلمي واستنباط القواعد الطبيعية من المشاهدات

﴿ ملخص ماتقدم ﴾

ان النهضة التي قامت بأوروبا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ترجع للحضارة العربية الآتية من الأندلس ومن آثار الحروب الصليبية وآثار علماء القسطنطينية الفارين من الترك ، وكل هذا ينطوي تحت هذه الآية

ـ كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً ـ ونشأ عن ذلك :

(الرقي السياسي)

كان البابا والامبراطور لهما السيادة ولا رادّ لقضائهما فهذا له سيادة الدين وهذا له سيادة السياسة فى جميع العالم المسيحى لأن هذه الأمم كانت تخضع لحكم (الاقطاعات) فى الممالك المختلفة وكانت السلطات متشعبة فى أيدى أمراء مختلفين وكل أمير مقاطعة يناوىء الآخر ويحاربه فى تلك القرون الوسطى أى التى بين سقوط الدولة الرومانية الغربية وبين سقوط الدولة الرومانية الشرقية المتقدم الكلام عليهما وذلك فى مدة نحو الفسنة كما هو واضح ، ولكن العقول متى تحركت نشطت الأجسام وهبت من رقادها وقامت من نومتها ونفضت غبار نومها ، فترى أحد هؤلاء الأمراء يقوى ويشتد ازره ويغلب الآخر حتى ظهرت روح القومية ودبّ حب الاستقلال التام فى الداخل والخارج .

(ا) فظهرت فى فرنسا أسرة (هيوكايت)

(ب) وفى انكلترا أسرة (النرمنديين) و (الايحفن)

(ج) وفى اسبانيا أسرتان وهما (قشتاله) و (ارغونه)

(د) وقامت أسرة (هنستوفن) وأرادت تكوين مملكة قومية فى (ألمانيا) فى القرن الثالث عشر فعارضها البابا

(ه) وقام الوطنى (رينزى) فى منتصف القرن الرابع عشر وحاول تحرير ايطاليا وتوحيدها

(و) وظهر «كتاب الأمير» وهو كتاب وضعه (مكيافلى) وهو كاتب سياسى من أهل فلورنسه شرح فيه أعمال الملوك ، وبين أن الأمير الذى يحفظ كيان دولته لابد أن يخالف الذمة والضمير والمروءة والانسانية والدين فى بعض الأوقات . هنالك أخذ الملوك يقاومون نفوذ البابا الذى كان إذ ذاك له النفوذ السياسى والدينى

إذن مبدأ نهضة القوم فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ولكنهم اعتبروها ابتدأت فى القرن الخامس عشر حينما ظهرت علوم وأدبيات قديمة يونانية ورومانية أكملت ماجاءهم من الأندلس العربى وعلماء القسطنطينية والى هنا تمّ الكلام على الفصل الأول والحمد لله رب العالمين

﴿ الفصل الثانى ﴾

(فى عرب الجاهلية الأولى وهم دولة حورابى فيما بين النهرين)

جاء فى كتاب « تاريخ العرب قبل الاسلام » تحت العنوان التالى مانصه

﴿ العرب البائدة ﴾

(أو عرب الشمال فى الطور الأول)

يقول العرب ان هذه الطبقة تشتمل على عاد وثمود والعمالقة وطسم وجديس وأميم وجرهم وحضرموت ومن ينتمى اليهم ويسمونها العرب العاربة وانهم من أبناء سام . قال ابن خلدون « وكان لهذه الأمم ملوك ودول فى جزيرة العرب وامتد ملكهم فيها الى الشام ومصر فى شعوب منهم ويقال انهم انتقلوا الى جزيرة العرب من بابل لما زاحمهم فيها بنو حام فسكنوا جزيرة العرب بادية مخيمين . ثم كان لكل فرقة منهم ملوك والطام

وقصور

وتصور الى أن غلب عليهم بنو يعزب بن قحطان» (١) وقال فى مكان آخر «إن قوم عاد والعمالقة ملكوا العراق» (٢)

واذا تدبرت مانقله العرب عن القبائل البائدة رأيتهم يقسمونهم الى قسمين العماليق من نسل لاوذ بن سام وسائر القبائل البائدة من نسل ارم بن سام (٣) . قال ابن خلدون «كان يقال عاد ارم فلما هلكوا قيل ثمود ارم فلما هلكوا قيل نمرود ارم فلما هلكوا قيل سائر ولد ارم ارمان» (٤)

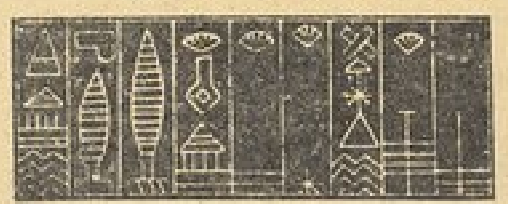
فالعرب يعدّون العرب البائدة ساميين من نسل ارم . أى آراميين الا العمالقة فيقولون انهم من نسل لاوذ بن سام أخى ارم ويقولون انهم ملكوا العراق «بابل» ثم نزحوا منها الى جزيرة العرب . فهذا القول على اختصاره يوافق خلاصة ماوصلنا اليه بعد النظر فيما كشفه العلماء فى بابل واشور من النقوش أو قرأوه فى كتب اليونان وغيرهم

ثم ذكر العمالقة الذين فتحوا مصر وكانوا شمالى الحجاز مما يلى جزيرة سينا ، وأن النسابين ينسبون العرب البائدة الى (ارم) والعماليق الى أخيه (لاوذ) . والذى يهمّ فى هذا المقام ذكره دولة حورابى أو الدولة البابلية الأولى . وسنورد هنا نبذة من تاريخها . وهاك نصها :

﴿ تمدّن دولة حورابى أو الدولة البابلية الأولى ﴾
(من سنة ٢٤٦٠ ق.م الى سنة ٢٠٨١ ق.م)

إذ استولى ساموابى أوّلا على شمالى بابل نحو سنة ٢٤٦٠ ق.م وكان الجنوب فى حوزة العلاميين ، وأخذ الملك ينتقل من ملك الى ملك ، وكان السادس منهم حورابى ، وهو الذى أخضع دولة العلاميين ، واستمرّ فى الفتح الى البحر الأبيض المتوسط . والذى يهمنا فى تفسير الآية أن نذكر مدنية تلك الدولة ومن أين اقتبستها ، وما قلمها الذى كانت تكتب به إيفاء لتفسير الآية فنقول ومن الله التوفيق

كان السومريون قبل هذه الدولة قد اتخذوا دينا ووضعوا شريعة واخترعوا كتابة ولهم لغة خاصة . فلما غلبهم الحورابيون اقتبسوا تمدنهم ونظاماتهم كما فعل العرب المسلمون بعدهم بدولة الفرس . وكان الحورابيون فى أوّل دولتهم يستخدمون اللغة السومرية فى المكاتبات ثم أهملوها بالتدريج حتى ذهبت وذهب معها العنصر السومرى . وبقى العنصر السامى كما تغلب العنصر العربى بمصر والشام بعد الاسلام بتغلب اللغة العربية . ولكن الحورابيين استبقوا الخط السومرى وهو القلم المسمارى لانهم استخدموه فى تدوين لسانهم وزادوا فيه أحرفا لم تكن فى السومرية (انظر شكل ٢٨)



(شكل - ٢٨)
﴿ القلم المسمارى القديم على عهد السومريين لايزال شكله صوريا ﴾

وكان القلم المذكور فى أصل وضعه صوريا مثل الهيروغليف المصرى كما ترى فى شكل ٢٨ ثم تشوّه شكله بالاستعمال و باستخدام المسامير فى طبعه على الطين فصار على هذه الصورة [illegible] شكل ٢٩

(١) ابن خلدون ج ٢ (٢) ابن خلدون ٥٩ ج ٢ (٣) جزء ١٢٢ و ١٢٨
(٤) ابن خلدون ٧١ ج ٢

أما المسلمون فأحلوا الأقلام التي كانت شائعة قبلهم في العراق وفارس والشام ومصر وهي الفهلوي والكلداني والقبطي وغيرها ونشروا قلماً حلوه معهم كان يستخدمه عرب مشارف الشام وأعالي الحجاز هو الحرف النبطي وتكيف بتوالي الأجيال حتى صار الى الحرف العربي المعروف وعم العالم الاسلامي العربي وغير العربي

أما تمدن السومريين فاقتبسه الحورابيون ورقوه وزادوا فيه كما فعل المسلمون بتمدن الروم والفرس وأكثرهم عناية في ذلك حورابي فانه جمع الشرائع ونظمها وبوبها فعرفت باسمه وقدرتها في ٢٨٢ مادة وجدوا نسخة منها سنة ١٩٠١ في بلاد السوس منقوشة بالحرف المسماري على مسلة من الحجر الأسود الصلب طولها سبعة أقدام وتدل تلك الشريعة على تقدم تلك الأمة في سلم الاجتماع الى أرقى مابلغت اليه تلك العصور ولاسيما في شروط الزواج والطلاق والتبني والارث . انتهى الكلام على الفصل الثاني

﴿ الفصل الثالث والرابع ﴾

(في اللغة العربية قبيل الاسلام وكيف كان خطها النبطي وفي النسبة بين خطها النبطي ولهجاتها و بين خطها ولهجاتها في أيام البعثة المحمدية)

جاء في كتاب آداب اللغة العربية تحت العنوان التالي مانصه

﴿ العصر الجاهلي قبيل الاسلام ﴾

(من القرن الخامس للميلاد الى ظهور الاسلام)

ان الحكم على ماتقدم من أحوال الجاهلية الأولى مبني على الحدس والتخمين لاستغراقه في القدم وضياع أخبار تلك الجزيرة بتمادي الأيام . ولعلهم اذا نشطوا للحفر والتنقيب كشفوا عن حقيقة هذه الظنون الستار

(الفرق بين لغة الجاهلية الأولى والثانية)

وفي كل حال أن عرب ذلك العهد القديم يختلفون عن عرب عصر الجاهلية الثانية قبيل الاسلام لغة ودينا وأدبا وخلقا . فالحورابيون كان أكثرهم أهل حضارة وتمدن يتوطنون المنازل والمدن . وأما عرب الجاهلية الثانية فأكثرهم أهل بادية ونجع وكانت لغة الحورابيين أقرب الى الأشورية منها الى العربية . فلغة أيوب اذا كانت عربية فهي غير عربية مضر التي وصلت الينا من عرب قريش وسائر الحجاز . وقد يكون الفرق بينهما كثيرا جدا أكثر من الفرق بين لغة القرآن ولغة عامة مصر أو الشام الآن . لأن أهل هذين المصرين قيدوا أنفسهم بالمحافظة على لغة القرآن وأساليبه . فكلما ساقتهم طبيعة النشوء نحو التغيير أعادهم التقليد الى الأصل . ولولا ذلك لكان الفرق بين لغة عامتنا واللغة الفصحى أبعد من ذلك كثيرا

قس مقدار الفرق بين لغة مضر ولغة عمالقة العراق بالفرق الذي وجدوه بين لغة عرب الشام في أوائل القرن الرابع للميلاد بما قرأوه على قبر امرئ القيس بن عمرو ملك الحيرة و بين لغة مضر عند ظهور الاسلام . وذلك انهم عثروا في اطلال النمارة في حوران على حجر عليه كتابة عربية بالخط النبطي نقشت في أوائل القرن الرابع للميلاد أي قبل الاسلام بثلاثة قرون وهذه صورتها (انظر شكل ٣٠) في الصحيفة التالية

شكل

(شكل ٣٠)

(رسم كتابة عربية بخط نبطى على قبر امرئ القيس بن عمرو سنة ٣٢٨ م)

واليك نصها كما تقرأ كل سطر على حدة

(١) تى نفس مر القيس بر عمرو ملك العرب كله ذو أسر التاج

(٢) وملك الأسدين ونزرو وملوكهم وهرب مذحجو عكدى وجاء

(٣) بزجو (؟) فى حبيج نجران مدينة شمر وملك معدو ونزل بنيه

(٤) الشعوب ووكله لفرس ولروم فلم يبلغ ملك مبلغه

(٥) عكدى هلك سنة ٢٢٣ يوم ٧ بكسلول بلسعد ذوولده

هذا لسان عربى تشوبه صبغة ارامية يحتاج تفهمها الى إيضاح وهاك تفسير هذه الكتابة باللغة العربية الفصحى وهو

(١) هذا قبر امرئ القيس بن عمرو ملك العرب كلهم الذى تقلد التاج

(٢) واخضع قبيلتى أسد ونزار وملوكهم وهزم مذحج الى اليوم وقاد

(٣) الظفر الى اسوار نجران مدينة شمر وأخضع معدا واستعمل بنيه

(٤) على القبائل وأنابهم عنه لدى الفرس والروم فلم يبلغ ملك مبلغه

(٥) الى اليوم . توفى سنة ٢٢٣ فى اليوم ٧ ايلول (سبتمبر) وفق بنوه للسعادة

وكان أهل الشام وحوران ومايليهما يؤرخون فى ذلك العهد بالتقويم البصروى نسبة الى بصرى عاصمة حوران وهو يبدأ بدخولها فى حوزة الروم سنة ١٠٥ للميلاد فاذا أضيفت الى ٢٢٣ كان المجموع ٣٢٨ للميلاد وهى السنة التى توفى فيها هذا الملك

انظر الى الفرق بين الأصل وتفسيره والمدة بين هذين العصرين ثلاثة قرون فكيف تكون وبينهما بضعة وعشرون قرنا ؟ والتغيير طبيعى فى كل لغة عملا بناموس النشوء . اعتبر ذلك فى الفرق بين اللغة اللاتينية الأصلية وما تخلف عنها من الايطالية والاسبانية وبين اللغة الانكليزية القديمة والحديثة وغير ذلك

فآداب العرب فى جاهليتهم الثانية يراد بها آدابهم قبل الاسلام وهم أهل بادية لايقرءون ولا يكتبون . وانما جمعت هذه الآداب بعد الاسلام بالأخذ عن الافواه . انتهى الكلام على الفصل الثالث والرابع والحمد لله رب العالمين

﴿ الفصل الخامس ﴾

فى أن اللغة العربية نسخت لغات لم تقم لها قائمة الى الآن فقد جاء فى كتاب تاريخ أدب اللغة العربية (لجورجى زيدان) تحت العنوان التالى مانصه :

﴿ الدولة الأموية واللغة العربية ﴾

أما الدولة الأموية فالهمة كانت متجهة فيها على الخصوص الى الآداب العربية الجاهلية . لأن الأمويين كانوا اشديدى الحرص على منزلة العرب كثيرى العناية فى حفظ الانساب وهم الذين جعلوا الاسلام دولة فأبدوها

ونشروا اللغة العربية فى المملكة الاسلامية بنقل الدواوين من القبطية والرومية والفارسية الى العربية . وبعد أن كانت مصر قبطية والشام رومية والعراق كلدانية أو نبطية أصبحت هذه البلاد بتوالى الأجيال عربية النزعة وتنوسيت لغاتها الأصلية وهى تعدّ الآن من البلاد العربية . واذا نزلها التركى أو الافرنجى أوغيرهما من أىّ أمة كانت وتوالدفيها عدنسله عربيا

وظل العرب فى أيام بنى أمية على بدواتهم وجفائهم . وكان خلفاؤهم يرسلون أولادهم الى البادية لاتقان اللغة واكتساب أساليب البدو وآدابهم . وظل كثير من عادات الجاهلية شائعة فى أيامهم كالمفاخرة والمباهلة ومناشدة الأشعار فى الأندية العمومية فكان أشراف أهل الكوفة يخرجون الى ظاهرها يتناشدون الأشعار ويتحادثون ويتذاكرون أيام الناس . وأهل البصرة يخرجون الى المربد لهذه الغاية كما سيجىء . كأنهم رجعوا بعصبيتهم الى ما كانوا عليه قبل الاسلام . ولم يبلغ العرب من العزّ والسؤدد مابلغوا اليه فى أيام هذه الدولة . وقد تكاثروا على عهدها وانتشروا فى ممالك الأرض . انتهى الكلام على الفصل الخامس والحمد لله رب العالمين

﴿ الفصل السادس فى المقصود من هذا كله ﴾

فى تفسير هذه الآية وهو أن بقاء اللغة العربية محفوظة الى الآن فى بلاد العرب وأوروبا والفرس والهند والصين وبلاد جاوه معجزة من أكبر المعجزات

انظرالى هذه اللغة التى تغيرت لهجاتها وصور أشكالها من كتابة السومريين الأولى ثم انها تغيرت ثم تحوّرت الى أن صارت قبل الاسلام كما رأيت فى (شكل ٣٠) المتقدم قريبا

ثم انظرالى طورها الرابع وهوما كتبت به المصاحف ، وكيف بقيت الحروف محفوظة ، وهيئاتها متقاربة نيفا وثلاثة عشر قرنا . ومن أجلى الأدلة وأوضحها ماتراه فى هذه الكتابات التى أمامك ، فهاهى ذه الحروف العربية واضحة مكتوبة فى بلاد الصين ، ومعها الخط الصينى لسورة الفاتحة وسورة الاخلاص (انظرشكل ٣١ فى هذه الصحيفة وشكل ٣٢ و٣٣ فى الصفحتين التاليتين)

شكل

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ٥

اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ٥

صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ

عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ

عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ٥

其意感讚是惟獨
保養普世普慈
今世獨慈後世
執掌還報日期
的主我們惟獨
拜你我們惟獨
求你相助哪主
你指引我們正
道那些人的
路道你在他
們上行恩他
們不受怒惱
他們也不是一
切迷路的人
接唸阿米勒

آمِينَ

其意、哪主你准承我們的。若跟隨以媽母的人、也同以媽母低唸阿米勒、接唸所勒。隨唸那個。不可言定。或唸這個。

قُلْ هُوَ اللّٰهُ أَحَدٌ اللّٰهُ

الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ

يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ

لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ

其意、你說。此是主命聖人說事情如此。主是獨一的。主是無求祈的。他不生人。人不生他。無有一物與他為對。○

فههنا تعاون الصينى والألمانى والفرنسى والانجليزى والترك والهندى والاسبانى والقازانى والعربى والعجمى والأمم كلها على حفظ اللغة العربية والخط العربى ، فلم يدخله ولم يدخل لغته ذلك التحريف الذى حلّ بساحة لغة وخط العرب البائدة أيام حورانى ولاأيام الجاهلية فى القرن الرابع الميلادى قبيل البعثة المحمدية بل هو باق كما هو ، فهذا معنى — لاتبديل لكلمات الله — ومعنى — إنا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون —

وبهذا كله تفهم أيها الذكىّ لماذا وصف القرآن بأنه عربىّ والحمد لله رب العالمين . كتب ليلة الاثنين (٢٠) اكتوبر سنة ١٩٣٠ الساعة العاشرة مساء . تمت اللطيفة الثانية . ويتبع هذه اللطيفة الثانية جوهرتان

﴿ الجوهرة الأولى ﴾

(فى قوله تعالى — قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى الىّ أنما إلهكم إله واحد —)

جاء فى مجلة « النهضة النسائية » تحت العنوان التالى مانصه

﴿ فى وجود الله تعالى ﴾

(للكاتب الأمريكى الشهير ارثر برزباين)

يزعمون أن العقل البشرى موجه اهتمامه بالأكثر الى المسائل الاجتماعية التافهة مثل جمع الأموال وكيفية عقد الزواج وماشاكل ، أما نحن فعلى غير هذا الرأى ونعتقد أن العقل البشرى لايوجه أخص اهتمامه الى هذه المسائل دون سواها ، لو أن محرر جريدة ألقى على قراء جريدته سؤالا عن « الزواج هل هو أفضل أم العزوبة » لوردت عليه الأجوبة الكثيرة بضعة أيام أو بضعة شهور . ثم يضجر الناس من هذه المناقشة وتنقطع الكتابات

وكل سؤال يكون نصيبه الاهمال بعد اشتغال الناس به زمنا معلوما محدودا ، وأما مسائل خلود النفس ووجود الله ومصير الانسان بعد وفاته فانها لابرحت تشغل أذهان الناس منذ البداية ، وسوف تبقى موضوعا لاهتمامهم العظيم الدائم

تأتينا الرسائل فى هذه المواضيع كل يوم من كل سنة فى مسائل تشغل خواطر الناس على الدوام يتساءلون « هل يوجد إله وهل تكون النفس خالدة ؟ » وهذه الكتابات الكثيرة الدائمة تختلف فى لغتها وحجتها وهى الدليل على مبلغ إيمان كاتبها ، وبعض هذه الرسائل تأتينا من المرتابين المتشككين والملحدين والكتاب ومن سائر الذين أسكرتهم تلك المعرفة القليلة التى جعلوها حكمتهم ودينهم بدلا من ثقة الأجيال الكثيرة تلك الثقة بوجود الله وخلود النفس

ويظن بعض هؤلاء أنهم اهتدوا الى طريقة جديدة مبتكرة تساعدهم على الحياة بالاستغناء التام عن الله وأن العلم قد وفقهم الى هذه الطريقة الجديدة

ولكن العلم لم يفعل شيئا من ذلك ، بل ان العلم فعل ماهو مخالف على خط مستقيم لظنونهم وأوهامهم العلم أثبت وجود الاله وخلود النفس وليسمح لنا القارئ أن نضرب لذلك مثلا صغيرا :

رجل عنده صندوق ووضع فيه بعض قطط فقدت أمها وهى صغيرة جدّا ولم تفتح عيونها بعد . اعتنى هذا الرجل بالقطط المذكورة وأحسن معاملتها وجعل للصندوق عجلات فكان يجره الى ضياء الشمس لتتمتع القطط بحرارة الشمس . كان يغذيها باللبن فى مواعيد معينة بمزيد التدقيق . كان يطرد الكلب الشرير إذ يحاول الاعتداء عليها ويخيفها ويرعبها كثيرا ، كانت هذه القطط تثق بالرجل وشعرت أنها فى حاجة اليه وأن لاغنى لها عنه وكان هذا دور الايمان

وحدث ذات يوم أن كلبا توصل الى قطة منها فقتلها بعد أن قطعها بأسنانه وشوه جسمها ذلك لأن القطة قد خالفت القوانين والشرائع التي سنها لها الرجل خرجت من صندوقها فحل بها ذلك المصاب . وكانت احدى القطط قد بدأت تبصر قليلا باحدى عينيها فقالت مغرورة بالقليل الذي تراه : « أنا لا أعتقد بوجود الرجل فاذا كان موجودا حقيقة فهو ظالم اذ سمح أن تقتل أختي الصغيرة وأن يمزقها الكلب لاأصدق ماتزعمونه من أن أختي قتلت بذنبها لأنها خرجت من الصندوق والحقيقة أن الرجل غير موجود فانما نحن القطط أولياء أمورنا وسادة الكيان وعلينا أن نحارب عدونا وندافع عن أنفسنا

هذه القطة هي قطة « انجرسول » الملحد الأمريكي الشهير

ثم ان قطة أخرى بدأت تبصر بعينيها وهي أرق من رفيقتها الأولى فقالت

(أنا عالمة . وقد وجدت أنني غير مدينة للرجل وعنايته بشيء وانما الشرائع والنواميس ولية أمورنا . هذا الصندوق قائم على عجلات يدور في نور الشمس بمجرد إرادته لا أنكر أنني أجهل ماهو الذي يدفعه ولكن أعلم أن الرجل لايستطيع دفعه وعلمت أيضا أنه لاوجود لناموس (توزيع اللبن علينا)

فانما يأتينا اللبن في مواعيد معينة بحكم الدور ومجيء اللبن ناموس طبيعي فقد كان يجيء من قبل وهو يأتي الآن وسيأتي كذلك بعد . دعوني من دعاويكم الفارغة فأنا منقلبة الى فراشي لأنام ولكن لاتذكروا على مسمع مني أمر رجل محب يعتني بنا . الأمر كله نواميس طبيعية وأنا عظيمة في ذاتي لأنني أول من اهتدى الى هذه النواميس

هذه القطة هي قطة « اسحاق نيوتن » ولكنها لم يكن لها إيمان نيوتن ويضيق بنا المجال لوأردنا أن نذكر ماقالته قطة « داروين » فقد كانت طويلة اللسان . ولكن اليك ماجرى بعد ذلك

كبرت القطط التي بقيت حية بعدأن ماتت تلك التي أصابها الموت جزاء مخالفتها وشرودها عن الصراط المستقيم وانفتحت عيونهن جميعا فصارت تبصر جيدا فرأت الرجل عيانا وعرفته واعترفت به وتوسلت اليه أن يسمح لها بالاقامة في منزله . قالت القطط للرجل

(لاتؤاخذنا ياسيدي واغفرلنا حماقتنا وجهالتنا إذ كنا صغيرات جاهلات ولكنك تعلم بأن بصرنا كان ضعيفا واننا كنا لانبصر ولانعلم) فقال الرجل الكريم لابأس انصرفن الى البدرون في أسفل المنزل وتمتعن بالراحة والقوت هناك

انتهى المثل الذي ضربناه . وانما نحن قطط عمياء فكلما حاولنا التعمق في اكتشاف أسرار الطبيعة وعجائبها نزداد توغلا في خفايا جديدة لاندركها نكتشف أن الأرض تدور حول الشمس ولكن لابد لأعظم عالم من الاعتراف بعجزه عن الاهتداء الى سبب دورانها

يقول هذا العالم « أعطني المحرك الأول وكل شيء سهل بعد ذلك » وهكذا قالت القطط العمياء في صندوقها قالت (ادفع صندوقنا دفعة واحدة وعلينا فهم الباقي)

واطلعت القطط على ناموس توزيع اللبن فجعلته بدلا من عناية الرجل بها شأن الذي ادعى التمسك بناموس الجاذبية العام فظن أنه يقدر بواسطته على جحود الله . ولكن العقل الكبير الذي اهتدى الى ناموس الجاذبية العام كان عقلا متدينا تقيا علم أنه ضعيف في ذاته لاقدرة له على إدارة كل شيء

ان نيوتن لم ينكر وجود الله . وكان أدرى الناس بغموض أسرار حكمته ونواميسه . علم وعلم الناس أيضا أن ذلك الناموس مايبرح عاملا منذ الأزل وهذا كل ما ادعاه وكل مايقدر أن يدعيه سواه

والعالم العصري (لورد كلفين) من أشهر أتباع نيوتن قيل له : ماهو سر الجاذبية ؟ فأجاب : لايحق للعالم أن يحاول كشف أسرارها فاننا نجهلها تماما ولانعرف عنها شيئا

لذلك

لذلك نقول للمرتابين : ارتابوا اذا كان لابد لكم من ذلك ولكن اجعلوا الحكم أساسا لريبكم وارتابوا أولا فى حكمتكم التى لاتزيد عن حكمة تلك القطط العمياء

اذكروا أنكم لا تعرفون شيئا طالعوا كثيرا ولكن لاتسمحوا لآراء غيركم القاصرة أن تسطو على عقولكم وتجعلكم آلة الريب والشكوك مهمافعلتم لاتتعرضوا العقائدالآخرين وإيمانهم ، انشروا المعرفة وأذيعوا الحقائق . وأما الريب التى تزعج الآخرين وتذهب بسعادتكم فاحفظوها لأنفسكم أذيعوا ماتعرفونه عن يقين واكتموا مادون اليقين فهل يسمع الملحدون . وبهذا انتهت الجوهرة الأولى

﴿ الجوهرة الثانية ﴾

(فى قوله تعالى ـ وجعل فيها رواسى من فوقها ـ)

وهى الجبال ، ولقد تقدم الكلام على الجبال فى مواضع كثيرة مثل ما جاء فى ﴿سورة الرعد﴾ عند آية ـ وفى الأرض قطع متجاورات ـ الخ وهكذا سيأتى فى آية ـ أفلاينظرون الى الإبل كيف خلقت * والى السماء كيف رفعت * والى الجبال كيف نصبت ـ الخ ولكن نذكر هنا عجيبة جاءت فى مجلة « اللطائف المصورة » فقد جاء فيها تحت العنوان التالى مانصه :

﴿ فى أميركا الجنوبية غنى طبيعى ﴾

هناك جبل من فضة لاينضب له معين

بوليفيا جمهورية صغيرة من جمهوريات أمريكا الجنوبية ، كانت فيمامضى مستعمرة اسبانية لكنها استقلت سنة ١٨٢٥ بعد حروب دموية بينها وبين الجيوش الاسبانية ، وهى صخرية جبلية يتراوح ارتفاع جبالها بين ٣٠٠٠ الى ٦٠٠٠ متر ، وفى وسطها اكمات تسمى لايونا فيها ثروات معدنية لايحصى لهاعدد ، يقدر مافيهاعشرات بل بألوف الملايين من الجنيهات ، من بينهاجبل كله من فضة يطلق عليه اسم (سيرودى بوتوزى) ، ظل مئات السنين يدر الأموال الطائلة على الدولة الاسبانية ، فكان لها المورد الأكبر الذى يأتيها من كل مستعمراتها الواسعة . وقد اكتشف هذا الجبل رجل هندى من هنود أميركا الملقبين بذوى الجلود الحمراء يسمى جوالكا فقد كان مسافرا فى أيام الشتاء الباردة فحط رحاله فوق هذا الجبل ، ولماقرسه البرد أشعل نارا تصطلى ، فما كان أشد دهشته عند ما أبصر الصخور تذوب تحت تأثير الحرارة وتسيل معدنا أبيض جيلا ، فتأمله طويلا لكنه لم يدركنهه ، فأسرع الى سيده القبطان (جون دى فيلارويل) وأطلعه على الأمر ، فاستحود هذا على جبل الفضة باسم مليكه الأمبراطور شارلكان فى يوم (٢٢) ابريل سنة ١٥٤٥

ولما ذاع خبر هذا الاكتشاف فى اسبانيا تقاطر الى بوليفيا كل مغامر وأخذوا يتقاتلون ويتناحرون فى سبيل الاستحواذ على جزء من هذا الجبل الذى كان يدر أموالا يكل عن إدراكها الحصر لاسيما فى ذلك الزمن الذى كان أقل مبلغ فيه يعد ثروة . وقد استخرج من جبل سيرودى بوتوزى من سنة ١٥٤٥ أى منذ اكتشافه حتى سنة ١٨٢٥ وهى السنة التى خرجت فيها بوليفيا من أيدى الدولة الاسبانية (١٦) ألف مليون ريال طليطلى أى ٥١٢٠ مليون جنيه فى ٢٨٠ سنة ، فيكون معدل غلته فى كل سنة من هذه السنين (١٨) مليون جنيه وثلث . وقد بلغ مانالة التاج الاسبانى من هذا الايراد (٦٤٠) مليون جنيه . وقد دفع أصحاب منجم واحد من هذا الجبل للحكومة بصفة جزية (١٦) مليون جنيه وثلاثة أرباع المليون

وقد أراد الأمبراطور شارلكان يوما ما أن يكافئ سكرتيره الخاص الدون فرانشيسكو دى لوس كوبوس فطلب منه أن يتمنى عليه مايريد فضغط الدون فرنشيسكو بين شفتيه : « أريد يامولاى (ريال) واحدا على

كل رطل » (والريل يساوى مليمين ونصف من عملتنا) . فأجاب الأمبراطور مندهلا « أمذا كل ماتطلبه ؟»
ولما رآه مصمما على طلبه هذا الذي صغر في عيني شارلكان وقع له على الأمر وناوله إياه ، وبعد ثماني سنوات أي في سنة ١٥٦١ مات الدون فرانشيسكو وترك ثروة تقدر بأكثر من (٧) ملايين من الجنيهات جمعها مما عاد عليه من المليمين ونصف التي كان يأخذها على كل رطل فضة يستخرج من جبل سيرو المذكور
ولم يزل هذا الجبل الى الآن مملوءا بالفضة لكنها تخرج ممزوجة بالقصدير . ولم تمض على اكتشاف جبل الفضة سنوات حتى أقيمت بازائه مدينة بوتوزى . وقد بلغ عدد سكانها في القرن السابع عشر ٢٠٠,٠٠٠ نسمة فكانت أكبر مدينة في أميركا الجنوبية وأكثرها سكانا
وكان لكل اسبانى (هيدالجو) أى منحدر من صلب اسبانى صميم ليس في عروقه دم يهودى أو عربى مغربى أن يكون له حق بأن يستغل جزءا من الجبل
والعادة المتبعة في ذلك والتى لم يزل معمولا بها الى الآن أن يأخذ الواحد له ركنا و يحفر فيه نفقا و يستولى على كل مايجده فيه حتى أصبح في الجبل أكثر من ثلاثة آلاف نفق . وكان الهنود الحمر القائمون بالحفر يشتغلون في الانفاق المظلمة التى ليس فيها نور ولايتخللها شعاع من الشمس ، وسياط أسيادهم الاسبانيين تنهال على أجسامهم اذا بدا منهم أقل وهن وأدنى ضعف . وكان المتزاحمون على استغلال جبل الفضة يتقاتلون حتى أدى بهم التناحر الى الانقسام الى حزبين كثر بينهما الاغتيال ثم القتال في صفوف مرصوصة . أما اليوم فمدينة بوتوزى التى كانت منذ مائتى سنة زاهرة زاهية لم يعد فيها غير ١٥,٠٠٠ أو ٢٠,٠٠٠ شخص لأن سعر الفضة انخفض كثيرا في أوروبا وقل الطلب عليها وكثر من جهة أخرى على القصدير ، ولكن من سوء حظ البلاد أن الأرض لم تعد تغل من هذا الصنف إلا كميات أقل مما كانت تغله فيما مضى . وبهذا تمت الجوهرة الثانية وبهما تم الكلام على اللطيفة الثانية والحمد لله رب العالمين

﴿ اللطيفة الثالثة ﴾

(في قوله تعالى — حتى اذا ماجاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون ﴿ وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شئ وهو خلقكم أول مرة واليه ترجعون وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون — الآيات)

قد تقدم في (سورة يس) — وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون — . فههنا ذكر الجلود مع الأسماع والأبصار وهناك خصص الجلود بالأيدى والأرجل ، وفي هذه معجزتان أظهرهما الكشف الحديث فتكون معجزات هذه السورة بالكشف الحديث خمسا . ولقد ذكرت لك هناك أيها الذكى حكاية القاتل اليابانى الذى قتل معشوقته التى رغبت عن زواجه ، وعرف بعد مدة بسبب آثاره ، وهذه مشروحة هناك باسهاب وايضاح تام ، ولكن هنا أذكر ماجرى من المحادثة بينى و بين صديق العالم الذى اعتاد أن يناقشنى في هذا التفسير . قال : كيف تنطق الجلود وتشهد ؟ وما معنى كون الأيدى والأرجل تشهد عند الله ؟ فالله تعالى يقول في ﴿ يس ﴾ — وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم — لم خص الأيدى والأرجل بهذه الشهادة ؟ وكيف تقول الجلود — أنطقنا الله الذى أنطق كل شئ — . فقلت : إعلم أن هذه المخلوقات المادية المشاهدات على قسمين : قسم لنا القدرة على التصرف فيه ، وقسم لا قدرة لنا على التصرف فيه . فالذى لنا القدرة على التصرف فيه شهوات الطعام والشراب والشبق والكلام ، فهذه خلقت فينا لأجل حياتنا و بقائنا ، وهذه تأتى بالحق و بالباطل فإن الانسان قد يجوع فيأكل والأكل قد يضره ، و يعطش فيشرب والشرب قد يضره ، وينتهى

الوقاع والوقاع قد يضرّه ، و يتكلم والكلام قد يضرّه . ذلك لأن من شهوات الطعام ماتكون شهوات كاذبة ، ومن شهوات الشراب ماتكون كاذبة ، ومن شهوات الوقاع ماتكون كاذبة ، ومن الكلام مايكون كذبا لاصدق فيه . إذن أحوالنا الحيوانية يعتريها الصدق والكذب . فمن الكلام صادق وكاذب . ومن الجوع والظمأ وشهوات الوقاع مايصدق ومايكذب . فكثيرا ما نرى أنفسنا بعد الطعام بمدة يسيرة تطلب الطعام ، وقد تطلب الشراب قبل مضى ساعة أوساعتين وقد تتكلم كذبا . هذا هو القسم الأول وهو الذى لنا القدرة على التصرّف فيه . أما مالاقدرة لنا على التصرّف فيه من الفاكهة والحب والخضر والمعادن والحجر والشجر . فهذه صوادق فى أفعالها ناطقات بالحق ، فلم تر حبة القمح أنبتت ذرة أو برسيما ، ولم تر بذرة القطن أنبتت كلأ أو باذنجانا ، ولم ترَ المشمش أصبح تينا ، ولا التين أصبح عنبا ، بل هناك نظام ، ولم تر الدواء أصبح غذاء ، ولا الغذاء صارسما ، بل هذه كلها نواطق بالحق ، لاعوج ولا كذب ولا خداع . واذا رأى الناس أن فى الطبيعة مالم يعهدوه كحوادث الزلازل والبراكين فذلك ليس من أكاذيبها ، بل هذه المفاجآت جاءت لغايات صادقة وان أخذت الناس بغتة فغاياتها شريفة . فأما غايات العواطف الناقصة فى الانسان فانها تكون شرا ، فالأكل بشهوة كاذبة والشراب والوقاع كلها مقصرات للحياة جالبات للمرض بخلاف حدوث البراكين فى الأرض من حيث لايشعر الناس بها فقد تكون لها منافع تربو على مضارّها مثل انبعاث بخار الماء وغاز الهيدروجين المكرر وغازات أحماض كبريتية أخرى فانها تكون هناك رواسب منها معدن الكبريت حول فوهة البركان وقد تصير طبقات سميكة تصلح للاستغلال كما نرى براكين كثيرة فى جنوب ايطاليا إذ هى أغنى مورد لمعدن الكبريت وتفتج كل عام منه (٢٠٠٫٠٠٠) طن ، فهذه النعم الكبريتية إنما جاءت بفضل البركان . إذن مفاجآت البراكين ليست كفاجآت الكذب وأمثاله . ومن ذا يقول إن شرور شهوات نفوسنا وغضبنا الغضب المفضى الى القتال والدمار والهلاك والتقاطع كغضب الطبيعة بحدوث البراكين . وهل الحرارة الناجة فى (بزولس) بالقرب من نابولى بجنوب ايطاليا البالغة (٢٩٠) بخار ستنجراد التى حوّلها القوم الى قوّة كهربائية يستعملونها فى الصناعات المختلفات . وكذلك نظائر هذه براكين فى جزائر (ليبارى) وفى (شيلى) يرسب بسببها الكبريت والبوريك والشب

أقول : هل هذه التى وجهت للمنافع العامّة بالمعادن النافعة والأعمال المفيدة تشبه شرور أنفسنا بالكذب وآثار الشهوات الكاذبة ، فالجوع الكاذب ، والعطش الكاذب ، والعداوة المبنية على سوء الظنّ ، كلهنّ جالبات لنا السوء بخلاف مانراه فى الطبيعة ، فهو على قسمين : قسم نتائجه واضحة لاخلل فيه كالفاكهة والأب وقسم لاتعرف أحواله لاشتباهه علينا ككون الأرض فنظنّ أن لابراكين فيها اذا هى ثائرة ، فهذه ظاهرها شرّ ولكن باطنها نعمة . أما نتائج الكواذب من طبائعنا فهو شرّ محض

حذه أيها الذكىّ مقتبسات لمطلوبك ، فألسنة الناس تصدق وتكذب ولكن لسان الطبيعة صادق غير كاذب فانا لم نر الذهب يوما زاد وزنه أونقص فهو (١٩) بوزن حجمه من الماء وهكذا الزئبق (١٣) تقريبا

واعلم أنه لامعنى للكلام إلا حركات فى الهواء ، وتلك الحركات مختلفات باختلاف المخارج ، وباختلافها امتاز بعضها عن بعض ، وبانضمام صوتين أوثلاثة أو أكثر تكون كلمة ، وبانضمام الكلمات تكون جمل ، والجمل تدل على المعانى ، وهذه الدلالة تارة تصدق وتارة تكذب . إذن فائدة الكلام انه يدل على المعانى ، ولكن هذه الدلالة قد تخالف الواقع . فلننظر فى المخلوقات أمامنا نرى الماء ونحن ظمأى فنحس فى أنفسنا بمعنى . وماهو المعنى ؟ هو انه يبل ظمأنا . ومثل ذلك الفاكهة والخضر والحب وما أشبه ذلك . فكل هذه لها دلالات ولكن دلالتها صادقة فلا كذب فيها بخلاف الكلام الصوتى فيدخله الكذب . إذن الدال إما بحرف وصوت وفيه الصدق والكذب . وإما بلاحرف ولاصوت وهذا لا كذب فيه . وكلام المخلوقات ليس بحرف

ولاصوت . وكلام الانسان بحرف وصوت

واعلم أن الكلام الذى ليس بحرف ولاصوت قسمان : قسم قدسى وهوكلام الله القديم . وقسم مخلوق وهو كلام هذه العوالم . فأما كلام الله فانه فوق عقولنا ولانسبة بينه وبين كلام المخلوق بحرف وصوت .و بلا حرف ولا صوت فهذا فوق متناول عقولنا . ولكن لماتناهت عظمته وجلت قدرته أبرز لنا فى الوجود عوالم تكون نتائجها صادقة بدون كلام حرف أوصوتى حتى سمعناه يقول ـ وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم ـ كيف تكلمت الأيدى وكيف شهدت الأرجل ؟ كلامها ليس بحرف ولاصوت ففيها دلالات ثوابت

ومن باهرالصنع ودلائل الاتفاق وبواهرالرحمة والحب أن الله تعالى لما احتجب عنا فلم نعرف كيف يتكلم بلاحرف ولاصوت وكان رءوفا بالعباد أراد أن يضرب مثلا بالمخلوقات . فكما عرفنا علمه وقدرته بضرب مثل بما نحس به من علمنا وقدرتنا وأن تكن النسبة مفقودة بين صفاتنا وصفاته تعالى هكذا عرفنا كون كلامه ليس بحرف ولاصوت كما نشاهد فى هذه المشاهدات من الدلالات الصادقة :

(١) على حكمته وقدرته وعظمته

(٢) وعلى معرفة الجانين بالطرق العلمية فى بحث خطوط اليدين والرجلين

(٣) وبما نتفع به من خواص ما نأكل ونشرب ونتداوى وهكذا . فهذا عرفناه بلا حرف ولاصوت ـ ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم ـ

فقال صديق : لقد فهمت من مقالكم أن هذه العوالم صوادق فى دلالتها والانسان قد يكذب وأن هذه الأيدى وهذه الأرجل دلائلها صادقات وفيها علامات مثبتات جرائم أصحابها وليست كاذبة بخلاف ألسنة الانسان فى الأرض فهى كاذبة . ولكن هل عز الله تعالى بأعمالنا فى حاجة الى أمثال الأيدى والأرجل ؟ فقلت : كلا . هو يعلم ذلك . ولكن هذه الآيات موجهات لاصلاح نفوسنا ولها دلالتان : أولا ان الله عليم بأعمالنا . ثانيا انه ضرب لنا مثلا بأن أيدينا وأرجلنا فيها علامات . ولصدق هذه العلامات الدالات على أفعالنا نسب اليها أن تخاطب بلاحرف ولاصوت من كلامه ليس بحرف ولاصوت . واذاسمع الله منها أفلايسمع القضاة نطق هذه الأيدى فيحكمون بما تدل عليه ؟ فقال : عجب ! مالنا وللقضاة ؟ فقلت : القضاء قضاءان قضاءالله يوم القيامة . وقضاء القضاة فى الدنيا . فاذا كان الله يوم القيامة وهو العليم بأفعالنا يقول على سبيل المجاز أو الحقيقة أن الأيدى والأرجل تكلمنا وتشهد بأعمال العباد وقد قبل شهادتها وسمع كلامها ، أفلايقبل شهادتها ويسمع كلامها قضاة الأرض ؟ فههنا علمان جليلان : علم الطبيعة الموزونة الجميلة التى تعبر عن جمال مبدعها الذى أبدعها وجعلها بهجة صادقة . وعلم القضاء الذى يترتب على صدق مقدماتها . فاذاسمع المسلمون وقضاتهم الله يقول ـ وأشهدوا ذوى عدل منكم ـ ويقول ـ واستشهدوا شهيدين من رجالكم فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء ـ فليس معنى هذا أنه لابينة إلاعلى هذا المنوال ، فقد أجمع علماء الاسلام قاطبة أن حكم القاضى مبنى على الظن والنبى ﷺ كان يحكم بحسب الظاهر والله يتولى السرائر ، لأننا لانزال فى الأرض . واذا وجدنا أن الظن جاء معه يقين ظاهر ألغينا هذا الظن . ألم يقل الله تعالى فى ﴿ سورة النجم ﴾ ـ ان الظن لايغنى من الحق شيئا ـ

فاذا سمع القاضى رجلا يقول ان الشمس لم تطلع مع أنها هى طالعة ، فهذه الشهادة لاتقبل لأنها خالفت الحق هكذا إذا دلت أصابع المجرم على أنه هو القاتل وأن آثار الأصابع ظهرت على صنجة السيف والسيف وجد على رقبة القتيل وجاءت شواهد أخرى على ذلك ، فانا اذا سمعنا شاهدا ينفى هذا نقول له كذبت أيها الشاهد . إن هذه الآيات أيها الصديق نزلت فى القرآن ليفتح لنا بها فى القضاء باب كان مقفلا إلا قليلا فان الحنفية يقولون : « إن القرائن لها دخل فى إثبات الجرائم » ولكن هذا الزمان الذى ارتقت فيه الأمم

ارتقت

ارتقت فيها أسباب الجرائم فأنزل الله تعالى هذه الآيات تقرأ فى كل حين تدينا وذكرا لله ثم استنباطا بعقله ذوو العقول الكبيرة . ولقد تقدم فى ﴿ سورة الكهف ﴾ فى قصة الخضر وموسى عليهما السلام ماملخصه أن قتل الخضر للغلام وخرقه السفينة راجع الى اتلاف النفس واتلاف المال وهذان أهم حقوق الناس . واذا وجدنا ذلك فى القرآن وعلمنا أنه قدم الحقيقة على الظن لأنه عرف أن هذا الفعل المخالف لظواهر الظنون أفضل وأحسن وهذا على طريق الكشف ونحن لا كشف عندنا بل لوكان عندنا كشف لم نحكم إلا بالظاهر ، فلنا طريق آخر وهو أننا متى تحققنا بطرق علمية أن هنا ضررا محققا قام عليه الدليل الظاهر لأهل الحل والعقد فاننا نقدمه على الحكم الذى عرفناه بطريق الظن ، فارجع اليه فالمقام هناك موضح بكلام الأئمة وأكابر علماء الاسلام مع دلائل العقل ، وعليه وجب على علماء الاسلام فى الأرض قاطبة أن يجدوا فى جميع العلوم ومن أهمها أدلة اليدين والرجلين التى ورد ذكرها فى القرآن لصدق دلالتها

فقال يامحبا : ولماذا خصصت اليدين والرجلين ؟ أليس جسم كل امرئ فيه علامات تدل عليه ؟ فلا فرق بين الأيدى والأرجل وغيرهما . ثم كيف تقول ان لساننا يكذب واليدان والرجلان لا كذب فيهما كما هو شأن العوالم المشاهدة من صدق شهاداتها مع أن الله سوى بينهما و بين اللسان فقال تعالى ـ يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ـ

فقلت الجواب على هذا يرجع لفصلين اثنين : الفصل الأول فى قيمة شهادة اللسان . الفصل الثانى فى اختصاص اليدين والرجلين بالشهادة

(الفصل الأول فى قيمة شهادة اللسان)

يقول الله تعالى فى ﴿ سورة يس ﴾ ـ اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون ـ فههنا أخرس الله اللسان وأنطق اليدين والرجلين وقبل منهما الشهادة . و يقول الله فى سورة أخرى ـ يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ـ فههنا سوى الله بين شهادة الثلاثة إذن هنا اللسان يصدق تارة ويكذب أخرى بدليل انه ختم على الفم تارة وأنطق اللسان تارة أخرى . فاذا كان الانسان بعد الموت ويوم الحساب لايزال مالكا لقواه وعواطفه كما كان فى الدنيا بحيث يتصرف كما يتصرف فى هذه الحياة ويقدر أن ينطق بخلاف مافى ضميره ، فهناك يختم على لسانه وتبقى شهادة الأيدى والأرجل . فأما اذا أصبحت عواطفه غير خاضعة لارادته وليست تحت تصرفه كما يجرى فى المنوم المغناطيسى ونحوه فهنا لاينطق إلا بالحقائق فهنالك يطلق اللسان فينطق كما تنطق الأيدى والأرجل . إذن اليدان والرجلان لهما مزية ليست للسان فاطلاقه باصلاح مقتضيا المساواة أراه أنا مانعا منها . وبهذا تم الفصل الأول والحمد لله رب العالمين

﴿ الفصل الثانى ﴾

(فى السبب فى اختصاص اليدين والرجلين بالشهادة دون باقى الجسم مع أن الأعضاء كلها متساوية فى انها لايظهر تغير هيئاتها الأصلية مدة الحياة)

اعلم أن الاجابة عليها ترجع لعلم اسمه التحقيق الجنائى . وهذا العلم حديث النشأة لم يظهر ولم يبرز لعالم الوجود إلا فى هذا القرن أى فى الزمن الذى يؤلف فيه هذا التفسير كما ستراه . وأمامى الآن كتاب فى هذا العلم ومؤلفه الاستاذ (محمد بك شعير) وكيل إدارة التفتيش بوزارة الداخلية وهو مدرس بكلية الحقوق تلخيص حاوله فى ذلك الكتاب :

﴿ بصمات الأصابع والأيدى ﴾

« ليس ماقرؤه من الوقائع المدهشة عن (شرلوك هولمز) و (كارتر) وأمثالهما وما يكتبه الروائيون أمثال (كونان دويل) و (ليكوك) وغيرهما ومازاه يشخص (بتشديد الخاء) فى دور الصور المتحركة من الروايات البوليسية الغريبة التى يتعقب فيها البوليس السرى الجناة ويتعرّف شخصهم ويظهر حقيقة أمرهم من إناء لمسوه أو وعاء أمسكوه أوكوب شربوا منه أوخزانة فتحوها . ليس كل هذا حديث خرافة وإنما هى ثمرة العلم الحديث ونتيجة مجهودات العلماء الذين أتوا بالمعجزات فى فن بصمات الأصابع والأيدى »

الى أن قال « وكان الصينيون والهنود من قديم الزمان يستعملون البصمة فى العقود والمشارطات لتقوم مقام الختم والامضاء . وقد أحسنوا فى ذلك لأنها لاتتشابه ولاتقبل التغيير والتزوير . فلوأنعمنا النظر فى باطن اليد وأطراف الأكف والأصابع وباطن القدم وجدناها مكسوة بخطوط بارزة دقيقة يتخللها فراغ . ترسم هذه الخطوط أشكالا وتعاريج وانحناءات مختلفة لاتنطابق فى شخصين قط كما نجد ثنيات تحت عقل الأصابع وتجعدات ناشئة من انطباق اليد وفتحها (انظر شكل ٣٤)



(شكل ٣٤)

وهذه الرسوم والأشكال تتكوّن والجنين فى بطن أمه من الشهر السادس للحمل ولا تتغير أبدا وتبقى حافظة شكلها واتجاهاتها فى سن الطفولة والشباب والرجولة والهرم بل و بعد الممات الى أن يتحلل الجسم وبلى كما شوهد ذلك فى الموميات المصرية القديمة وفى بعض أجسام القردة المحنطة . وكل مايبدو عليها أنها تمو وتكبر وتتسع تبعا لنمو الجسم كلما تقدم الانسان فى السن الى أن يصل الى الواحدة والعشرين . وقد ثبت ذلك من مباحث كثير من العلماء وأخصهم (السير فرنسيس جالتون) الذى له فضل كبير فى هذا الباب . ومن المجموعات الهائلة المحفوظة بادارات تحقيق الشخصية بأغلب البلاد الراقية . والبصمات هى الوحيدة فى جسم الانسان التى لاتتغير طول حياته بل تبقى حافظة شكلها فى أية سن وفى أية حالة كان عليها . اللهم الا ماطرأ على الجلد من العوارض كالقطع أوالحرق والمؤثرات الأخرى والنعومة بعد أن يصل الانسان الى سن الشيخ . وذلك خلاف باقى أجزاء الجسم فانها كلما نما الشخص وترعرع تتغير بسرعة وبدرجة كبيرة يتعذر معها

معرفته بعد بضع سنين ، فالسحنة وتقاطيع الوجه والأسنان ولون البشرة والشعر ولونه وكميته حتى لون العينين يتغير . لذلك كانت خاصية البقاء على حالة واحدة فى بصمات الأصابع (مع اختلاف شكلها ليس فى مجموع الأصابع فقط بل فى كل أصبع) الأساس الذى بنى عليه علم تحقيق الشخصية وهو أساس متين غير قابل للنقض ولا للطعن بأى وجه . ويشبهون بصمات الأصابع بأوراق الشجر فانها قد تتشابه فى شكلها العمومى ولكنها تختلف فى تركيبها وتفاصيلها

أما حكمة وجود هذه الخطوط وما يتخللها من الفراغ وما يقاطعها من التجعدات والثنيات فى راحة اليد وباطن القدم فلم يمكن تعليلها بشكل صريح . وقد اختلف علماء وظائف أعضاء جسم الانسان فى ذلك ، فبعضهم يرى أن مهمتها تسهيل خروج الافرازات المكوّنة للعرق ، والبعض الآخر يرى أن لها دخلا باللمس والحساسية

ولم يكن استخدام بصمات الأصابع فى الجنائيات للتعرّف على شخصية تاركها وترتيبها بطريقة ثابتة للاستعانة بها فى استخراج السوابق معروفا فى أوروبا إلا حديثا ، فقبل سنة ١٨٩٠ لم يعرف عنها شىء فى الحياة العلمية ، ولو أن بعض علماء الألمان بحثوا فوائدها فى أوائل القرن التاسع عشر ، وفعلا ألقى الاستاذ (بوركنجى) مدرّس علم وظائف أعضاء جسم الانسان بجامعة برسلو محاضرة نفيسة فى سنة ١٨٢٣ باللغة اللاتينية عن بصمات الأصابع وفوائدها ، وقسمها الى تسعة أنواع ، واقترح إيجاد طريقة لترتيبها وحفظها والاستعانة بها ولكن مجهوداته لم تلق ماتستحقه من القبول فى ذلك الوقت على أن ماتؤديه من الخدمات فى الوقائع الجنائية وفى تحقيق الشخصية وارشاد المحققين والقضاة عن سوابق الجناة واضح لايحتاج الى برهان ولا أدل على ذلك من تقارير فطاحل هذا العلم المقدّمة للمؤتمر الجنائى الدولى الذى عقد بمدينة (تورين) سنة ١٩٠٧ فقد وفى الموضوع حقه الأساتذة (لوكار) و (ريس) و (داسكاريلى) و (دى جاستى) و (دى فيرى) وغيرهم . انتهى من كتاب التحقيق الجنائى

فاعجب لأمرين اثنين أيها الصديق «الأمر الأوّل» قول المؤلف : « إن باطن اليد وأطراف الأكف والأصابع وباطن القدم ، كل هذه مكسوة بخطوط تختلف باختلاف الأشخاص «الأمر الثانى» انها تلازم الانسان من المهد الى اللحد وأن غيرها مما على جسم الانسان يتغير » . حينئذ ظهر أن اختصاص اليدين والرجلين فى الآية دون بقية الجسد أصبح معجزة فى القرآن ، فاليدان والرجلان فضلا عما ذكرته سابقا من أنهما نافعان فى أعمال القضاة هما معجزة قرآنية أنزلها الله فى القرآن وأبرزها فعلا فى الزمان الذى كنت أتعلم فيه فى مدرسة دار العلوم وملأ بها الكرة الأرضية فى أثناء طبع هذا التفسير لأن سنة ١٨٩٠ المتقدم ذكرها هى مبدأ تعلمى فى مدرسة دار العلوم وهذه السنة التى أكتب فيها هذا القول سنة ١٩٣٠ وبينهما (٤٠) سنة . وفى هذه الأربعين سنة ظهر هذا العلم وعملت به الأمم ، فبدأ الظهور سنة ١٨٩٠ وفى هذه المدة انتشر حتى وصل الينا . ومن العجب أن مؤلف الكتاب المذكور كان أحد تلاميذى فى اللغة العربية قبل سفره الى أوروبا وذلك فى المدرسة الخديوية فى أوّل هذا القرن فى العشرة السنين الاول منه . ومن أعجب العجب أن تختم هذه السورة بما يفيد ذلك إذ يقول ــ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم ــ الخ كأنه يقول : اختصاص شهادة الأيدى والأرجل دون بقية الأعضاء أمر يشكل عليكم ولكن سأظهر لكم بعض سرّه فى الدنيا وقد أظهره فى زماننا ولم يظهره فى غيره ، فوجب علينا أن نقول للمسلمين ذلك ونخبرهم بهذه المعجزة التى لم يظهرها الله إلا فى زماننا فهى معجزة من وجهين : أوّلا اختصاص اليدين والرجلين ثم ظهور ذلك فعلا لمكان ــ سنريهم آياتنا فى الآفاق ــ الخ . والى هنا تم الكلام على الفصل الثانى والحمد لله رب العالمين

وظهر لك أيها الذكىّ ظهورا واضحا جليا أن اليدين والرجلين اختصت بخاصية لم يشرف بها بقية الجسم

وانهما أيضا أصدق من اللسان ، فلم يبق إلا شرح خصائص خطوط اليدين والرجلين ، وكيف كانت الخطوط فيهما لامشابهة فيهما بين رجل وآخر . فأقول جاء فى الكتاب المذكور أيضا تحت العنوان التالى مانصه :

﴿ البصمات الخفية وطرق اظهارها وحفظها ﴾

يكاد الانسان لايصدّق أن أطراف الأكف ، أوأجزاء راحة اليد ، أو باطن القدم ، اذا لامست جسما مستويا أملس كالورق أوالزجاج أوالصينى أوالمرآة أوالمعادن والأخشاب المصقولة على العموم تترك عليها بصماتها بكل تفصيلاتها ورسومها لأن هذه البصمات تكون غير ظاهرة وغير مرئية للعين المجرّدة وبخاصة اذا كانت على الورق ، أما على الزجاج و بعض المعادن المصقولة ، فاذا دقق الانسان النظرفيها وندّاها بقليل من البخار الذى يخرج من الفم فانه يرى بعض شعاع منها لايلبث لحظة حتى يزول ، وليس تعليل ذلك من المعضلات العسيرة التى لايمكن تصوّرها بسهولة بل الأمر أبسط وأسهل مما انظن فان بشرة الجلد مغطاة بطبقة دهنية خفيفة ناشئة من افرازات العرق ، فاذا لامست الأنامل أوراحة اليد جسما مما سبق ذكره تركت عليه بصمتها وانطبعت عليه الخطوط والرسوم باتجاهاتها ومميزاتها ، ولكون تلك المادة الدهنية عديمة اللون تبقى البصمة مستترة غير ظاهرة ، لكن قليلا من المواد الكيمائية على شكل مسحوق أوسائل يظهرها للعيان ويخرجها من سترها واضحة جلية كالبصمة المأخوذة بالطرق العادية بحيث يمكن استخدامها والاستفادة منها فى التحقيقات الجنائية إذ ليس من المقبول عقلا أن الجناة لاتمس أيديهم بعض هذه الأجسام أثناء ارتكابهم الجرم فتترك عليها أثرا غير ظاهر إلا اذا احتاطوا لذلك من مبدأ الأمر بلبس قفاز مثلا أوتعمدوا إزالة ذلك الأثر بعد انتهاء عملهم ولانكون مبالغين اذا قلنا انه لاتخلو حادثة من الحوادث التى تقع فى الأماكن المتحضرة من وجود تلك البصمات التى لو عنى بالمحافظة عليها وعدم اختلاطها بغيرها أوازالتها بواسطة تعريضها للمؤثرات الخارجية لكانت من أثمن الأدلة المحسوسة وأرجحها

واعلم أن خطوط الأصابع ﴿ أربعة أنواع ﴾ رئيسية ولكل منها فروع ، فهى منحنيات ومنحدرات الى اليمين ومنحدرات الى اليسار ومستديرات

﴿ النوع الأوّل ﴾ المنحنيات أوالمقوّسات بحيث يكون شكل البصمة فيه عبارة عن خطوط أفقية منحنية أومقوّسة الأعلى على الأقل وليس فيه زاوية ولانواة له ، واذا وضع فيه زاوية لايتخللها خطوط (انظر شكل ٣٥) وهذا يرمز له بهذه العلامة (٨) فى مصر





(شكل ٣٥)

﴿النوع الثانى﴾ المنحدرات الى اليمين ورمزه فى مصر (ا) وهومانكون فيه نواة بشكل قناة ذات حافتين متصلتين من ناحية واحدة ، وهذه القناة تنحدر من اليسار الى اليمين وبه زاوية واحدة الى اليسار ، وقد يكون داخل القناة خط منفصل أوخطان أوأكثر (انظر شكل ٣٦)



(شكل ٣٦)

﴿النوع الثالث﴾ المنحدرات الى اليسار ويرمز له بهذه العلامة (ـ) وهومانكون فيه نواة البصمة عبارة عن قناة ذات حافتين متصلتين من ناحية واحدة . وهذه القناة منحدرة من اليمين الى اليسار وبه زاوية واحدة الى اليمين بعكس النوع الثانى (انظر شكل ٣٧)



(شكل ٣٧)

﴿ النوع الرابع ﴾ المستديرات ويرمز له عندنا بمصر بعلامة (٥) وهو ماتكون فيه نواة البصمة على شكل دائرى أو مضاوى أو حلزونى بين زاويتين متقابلتين إحداهما الى اليمين والأخرى الى اليسار كما فى (شكل ٣٨)



(شكل ٣٨)

ولما كانت آيات القرآن وتفسيرها يوجب علينا أن نستوفى هذا الموضوع وجب أن نذكر ماظهر من آثار الرجلين فى العلم الحديث كما ذكرنا آثار اليدين فنقول ومن الله التوفيق :

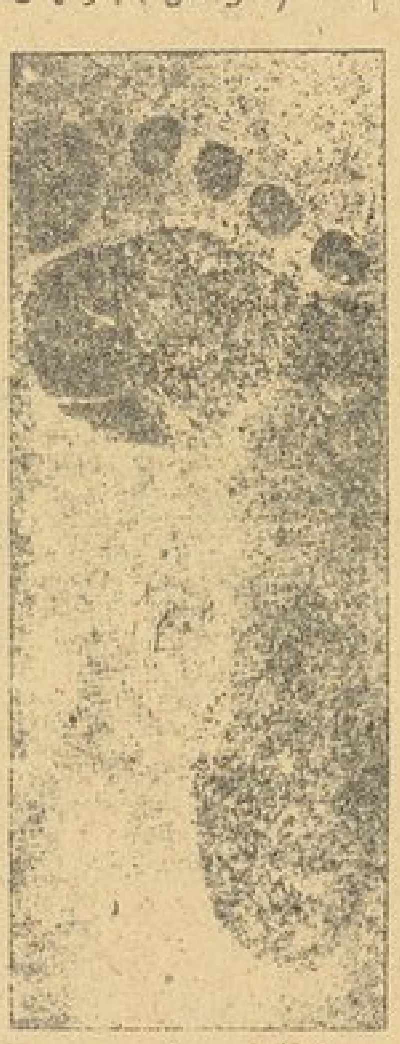
جاء فى كتاب « التحقيق الجنائى » تحت العنوان التالى مانصه :

﴿ آثار الأقدام ﴾

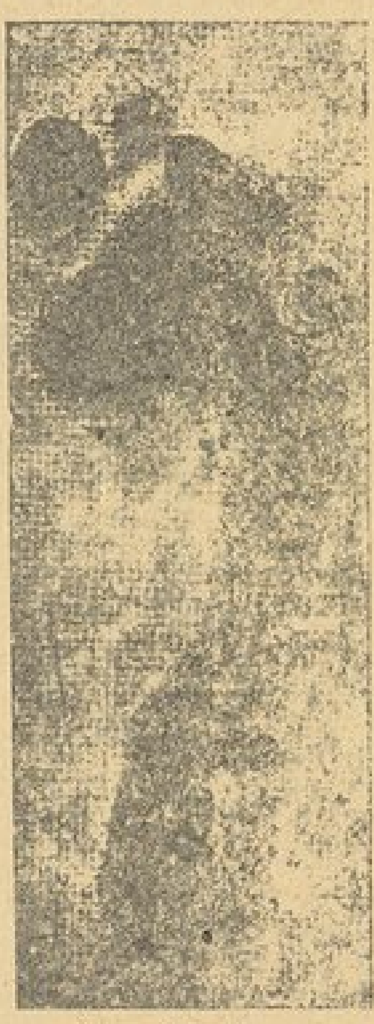
قص الأثر معروف عند العرب من زمن بعيد فانهم كانوا وما زالوا يتتبعون الإبل والمواشى المسروقة فى الصحارى والقفار ويستدلون على محل وجودها ولو كان على مسافات بعيدة ومراحل شاسعة . وجل اعتمادهم فى ذلك على قوة الباصرة والخبرة والتمرين وقليلا مايخطئ نظرهم فقد أتوا فى هذا الباب بالمدهشات التى يحار فى تعليلها الانسان فينبئك الواحد منهم بما اذا كان تارك الأثر ذكرا أوأنثى طويل القامة أوقصيرها سليم النظر أو به مرض باحدى العينين أو ببعض أجزاء جسمه حاملا شيئا أوغير حامل . وفى النساء ما اذا كانت إحداهن حبلى أوغير حبلى وهكذا . ولاغرابة فى ذلك فان الاعرابى معتاد منذ الصغر على التجوال فى الصحراء وهى أصلح مكان تنطبع عليه القدم وتترك أثرها بشكل واضح يمكن قراءته كما يقرأ الانسان فى كتاب . ومما يساعد على بقاء هذه الآثار وعدم محوها واختلاطها بغيرها اتساع تلك البقاع وقلة السكان وندرة المرور فيها وعدم وجود أسباب الرفاهية والعمران بها . فعلى مر الأيام يعرف سكان كل ناحية بعضهم بعضا كما يعرف كل منهم أولاد الآخر وناقته وماشيته . ويمكنه فى غير عناء معرفة مشية كل منهم وتمييز آثاره . ويستشهدون بها عند حدوث سرقة أوضياع ماشية . وهذه قاعدة متبعة للآن فى جميع أنحاء السودان وفى الجهات النائية

كالواحات ومصلحة أقسام الحدود . ولما كان هؤلاء القوم مازالوا على الفطرة ولم ينالوا من العلم قسطا يمكنهم من التعبير عن أفكارهم وتعليل استنتاجاتهم واقناع الغير بصحتها كما ان كل عمل من هذا القبيل مهما بلغ صاحبه من دقة النظر واصابة الرأى عرضة للخطأ . لذلك وجب أن لايعتمد على أقوالهم اعتمادا كليا . ولا بأس بأخذها بتحفظ تام وعلى سبيل الاستئناس فقط . وهذا لايمنعنا من الاعتراف بفضلهم وخصوصا فى الارشاد عن الاتجاه الذى سار فيه الأثر والطريق الذى سلكه الجناة

ولم تكن الاستعانة بآثار الأقدام بطريقة علمية معروفة فى أوروبا الى عهد قريب . فأول حادثة اكتشفت فيها فائدة آثار الأقدام العارية وقعت فى (٢٧) نوفمبر سنة ١٨٤٦ م وسترى فى الأشكال الآتية صور بعض آثار الأقدام المختلفة (انظر شكل ٣٩ و ٤٠ فى هذه الصحيفة وشكل ٤١ و ٤٢ فى الصفحة التالية)

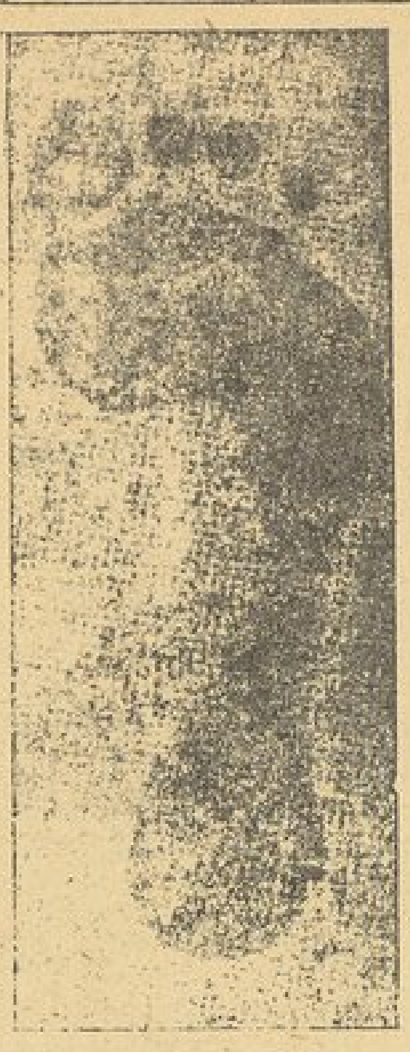


(شكل ٣٩)
قدم عارية وصاحبها سائر



(شكل ٤٠)
نفس القدم وصاحبها واقف





(شكل ٤١)
قدم مقوسة



(شكل ٤٢)
قدم منبسطة

هذا ما أردته من كتاب « التحقيق الجنائى » لمؤلفه محمد شعير بك تفسيرا لقوله تعالى — حتى اذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون — الخ وبهذا تم الكلام على اللطيفة الثالثة والحمد لله رب العالمين

﴿ اللطيفة الرابعة ﴾

آراء حكماء الأمم وعلماء الاسلام
فى الأخلاق

تفسيرا لقوله تعالى — إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا — الى قوله — إنه هو السميع العليم —

ولأجعل الكلام على هذه الآية فى خمس أمور :

(١) الكلام على الايمان بالله والاستقامة

(٢) إلهام الملائكة المؤمنين بالخيرات

(٣) مساعدتهم فى الحياة و بعد الموت

(٤) محاسن الأخلاق وملاطفة الأعداء

(٥) الالتجاء الى الله فى كل شىء

فى يوم الجمعة (٢١) نوفبرسنة ١٩٣٠ بينما أنا جالس أفكر فى معنى هذه الآية ، وأنا أعجب من أن الانسان يحس فى نفسه مذكرا يذكره بامور علمية أوأخلاقية وهذا شائع بين الأمم ، وكيف كان هذا من مضمون الآية إذ جاء فيها ـ نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ـ على لسان الملائكة

أقول : بينما أنا كذلك إذ أخذتنى سنة تخيل الىّ أنى فى روضات بهجات ، مزينات بأجمل الزينات ، والرياش الفاخرفى جو بهيج مضىء مشرق فى قصرمنيف ، فيه فرش مرفوعة ، وأكواب موضوعة ، ونمارق مصفوفة ، وهناك من الجواهر مالا أقدر على وصفه وأدرك كنهه

فبينما أنا فى دهش مما رأيت وفى عجب عجاب إذ أقبلت فتاة أشرق نورها وأضاءت المكان ببهجة جمالها وماتحلت به من أجمل الحلى ، ومالبست من أبدع الحلل ، وقد عطرت أرجاء القصر بالروائح العطرية ، فسلمت وحيت . فهنالك نسيت جمال القصر وبهجة الزينة والرياش وأخذ الجمال ببصرى و بصيرتى حتى نسيت كل شىء إلا مارأيت من منظرناضر وطرف ساحر وجمال باهر ونور زاهر ، فما كان إلا كلمح البصرحتى خررت صعقا وغابت الذاكرة ونامت الباصرة وأخذت فؤادى تلك النظرات الساحرة ، فصرت كالمسحور الذى لايعى ماحوله ولايدرى كيف يقول . وهكذا بقيت على هذه الحال مدة . فلما أفقت من غشيتى وقت من غفوتى رأيت الفتاة أمامى وهى تبتسم فكدت أخرّ صعقا كرّة أخرى إذ لم أر مثل هذا الجمال فى الأرض أمد الحياة وخطر لى خاطرقديم . ذلك انى يوما كنت دخلت (دارالصورالمتحركة) بمصرفرأيت من تلك الصورالتى تظهر فيها صورة (كليوبترا) ملكة مصرمن دولة البطالسة . وقد لبست أفخر الملابس التى يقال ان ثمنها يبلغ آلافا مؤلفة . فقلت فى نفسى إذ ذاك : ياحسرة على مصر . مصر التى انتهكت حرمتها الدول وأبقوا فيها امتيازات الأجانب فأدخلوا صورا تفسد الأخلاق وتثير الشهوات . فأما فى بلادهم فأن الأكثر فى مشاهد (دارالصور) أن تكون معلمة للشعب الفنون والعلوم وأحوال الحياة بأتم مظاهرها . فهذا الخاطر الذى خطرلى قبلا تجدّد لى إذ رأيت هذه الفتاة . فقلت ياو يلتى ماذا أقول الآن وهل مثلى فى هذه السن يلعب الجمال بعقله أويخطر الغرام بلبه . إن ذلك مزر بالمشيب . واذا كنت أخاف على الشبان من هفوات الأجسام . أفلاأخاف على أدبى وعقلى من زلات الضمير وفتنة القلوب والصبوة ولو بالخواطر والهفوة ولو بالنواظر

و بينما أنا كذلك إذ رأيتها ازدادت ابتساما وقالت سلاما سلاما لاتثريب عليك ماهذه بصبوة ولاأنت الآن فى غفلة . إنك الآن مكين أمين لاإثم ولاحرج . أنت الآن فى عالم المثال لا فى عالم الأجسام . فأنت روح وأنا مثلك . ثم أمسكت بيدى فكان نورا قبض على نور . ولم أحس بتلك العظام ولا العضلات ولاثقل الأعضاء الغليظة ، فقضيت العجب وقلت فى نفسى «أهذا كله فى عالم الخيال ؟» ولم أكد أتم هذا الخاطرحتى أخذت تقول هذا العالم هو الجمال الحقيق ، ألم تقرأ ـ وان الدار الآخرة لهى الحيوان ـ ، فقلت فى نفسى : ياليت شعرى ما اسم هذه الروح ؟ فقالت على الفور أنا اسمى (البصيرة) فتذكرت قوله تعالى ـ بل الانسان على نفسه بصيرة ولوألقى معاذيره ـ وخطرت لى خواطرالآية التى نحن بصدد الكلام عليها وأن الذين يعرفون الله واستقاموا يبشرون ويلاحظون فى حياتهم الدنيا وبعد الموت وتلهمهم الملائكة ، وقلت فى نفسى : هل هذه صورة روحية لبصيرة الانسان ؟ و ياليت شعرى أهذه تشاكل بصيرتى أنا أم بصائرجميع الناس فى الأرض ؟ وهل بصائر الناس جمال فاتن على هذا المنوال ، فأجابت بلاتردّد ولاتوان وقالت إن جمال أرضكم جزئى

إنه جمال نزل الى الأرض بقدر . ألاترى أن جمال الرجل أوالمرأة لايبقى إلا ريثما يلدان الذرية . فاذا أسنا ذهب الجمال وعوّضا بدل الجمال الظاهرى محبة ومودّة ورحمة بها يشتركان فى تربية الذرية وفى المنافع المنزلية والامورالمادّية . إذن الجمال فى الأرض ليس مقصودا بالذات وماجاء لسبب فهولامحالة ذاهب بذهاب سببه . أما الجمال هنا فهوأرقى من الجمال فى الأرض من جهتين : أوّلا ان نسبة جمال أهل الأرض الى جمال عالمنا كنسبة نورالسراج فى الأرض الى نور الشمس . ثانيا ان نسبة دوام الجمال عندنا الى دوامه عندكم كنسبة دوام نور الشمس الى فناء نور السراج . الجمال عندكم مقدّمات وعندنا مقاصد وغايات وسعادات . ولقد أخبرتك بأنى أنا البصيرة . إن بصائر أهل الأرض جميعا قد جعلني الله مثلا لها ، فأنا مثال البصيرة الكلية وعنوان لها ودليل عليها ، بل أنا هي ولست تتمكن من رؤيتي إلا على هذه الحال . هنالك قلت هذا مقام العائذ بالله وبك ألا تذريني أتخبط فى ظلام الأوهام ، إنى أودّ المقام بجوارك أمد الدهر . فلقد قضيت دهرى فى حياة كلها غرام بك وحبّ للنتائج الخلقية والعلمية التى أنت المبرزة لها . فقالت انك لاتطيقنى الآن . أوّلا لأن مظهرى الآن ربما لاتحتمله اذا طال مقامك هنا ، ألم تر أنك خررت صعقا حين لاقيتنى . ثانيا انك الساعة كما ذكرت لك فى عالم الروح . ولقد قضت العناية أن ترجع الى عالم الأجسام باليقظة ، وعينك هنا ترى مالاترى عينك هناك ، وهذا الجمال الذى ظهر لك إنما هو الجمال الكاسب لهذه الدرجة الروحية وو وراءها درجات متتابعات تخلق لها عيون على مقدارها فى عالم الأرواح العالية . ولوأن درجة من درجات الجمال ظهرت لأرواح لم تستعد لمشاهدتها لأهلكتها ، فلأن لابد من رجوعك الى عالم الحس المادّى زمنا ما لكى تكمل نفسك فلا تصعق كما صعقت الآن حين رأيتنى . قلت ولكن لاصبر لى على فراقك . فقالت إن لكل مقام مقالا ، فارجع الى الأرض عالم المادة واشهد مزارعى التى زرعتها فى الأرض . فقلت أى مزارع ؟ فقالت مزارع القلوب ، قلوب الحكماء والعلماء والأولياء ، فاقرأ مالقيته على قلب كونفوشيوش حكيم الصين وقلب أفلاطون وسقراط وقلوب الرواقيين وقلب الاستاذ (كنت الألمانى) ، فهؤلاء وأمثالهم الذين برعوا فى علم الأخلاق قديما . وهكذا قلب الغزالى والرازى وأمثالهما من علماء الاسلام بل أمثال الشعرانى من الصوفية فهذه مزارعى التى غرستها فى قلوب هؤلاء فى علم الأخلاق . فتذكرت إنى قرأت فى «جريدة الضياء» مقالا يوم الأربعاء ١٩ نوفبر سنة ١٩٣٠ وهذا نصه :

(المذهب الذى يعتنقه ٥٠٠ مليون من الناس)

الكونفشيوشية هي مجموعة التعاليم التى دعا اليها كونفوشيوش منذ ٢٥٠٠ سنة ورواها عنه أقدم حكماء الصين ، ولم يكن كونفشيوش يميل بطبيعته الى التغلغل فيماوراء الطبيعة والتعمق فى التأملات الدينية ، ولكنه كان شديد العناية بالفضائل والخلقيات

فهو يوجه جلّ اهتمامه الى دراسة المسائل العملية الخاصة بالعلاقات الانسانية ويدعو الى اتباع السبيل القويم فى المعاملات . وكان فى حياته الخاصة شديد الاعتقاد بالقضاء والقدر ، والايمان بأن الله منه الحياة وحدد له المهمة التى يؤدّيها ، وانها تحميه كيد أعدائه

ومن قوله « ما أعظم قوات الأرواح . اذا نظرنا لانراها واذا أنصتنا لانسمعها . ولكنها تدخل مع ذلك فى كل الأشياء ولايوجد شيء بدونها »

وكان لايصرّح بمثل هذه الأمور الخاصة أتباعه فى خلواته ، أماتعاليمه فكانت كلها عملية ؛ لأنه كان معلم أخلاق ورجل سياسة . وكان يعتقد أن معرفة الله شيء يفوق قوة تصوره . ومع ذلك فانه أعترف وهو يعرى نفسه بقوله انه ولد فى السماء وان الله أوجد الفضيلة التى فيه . وأن تعتنباته لاحدّلها ، فهو لايتدمرمن القضاء

كما أنه لايتبرم بالناس . وقوام عقيدته الاعتراف بضعف الانسان وحاجتـه الى مساعدة الاله ، ومحاولة التمتع بمباهج الحياة ومزاياها عن طريق الاتصال المباشر بالله . وتكاد الكونفشيوشية تكون طريقة مرسومة للحياة فهي الصفة الدينية لأنها تحض متبعيها على عدم مخالفة قوانين الطبيعة والتآلف مع بقية الناس ، وتنهى عن حب الذات وتأمر بتضحية النفس فى حب الآخرين . وقد نجح كونفشيوش فى اكتساب العقلية الصينية ، بفضل شخصيته القوية ، ومحافظته على التقاليد ، ولأنه اتخذ لنفسه صفة القيادة والزعامة فأمست تعاليمه مسلما بها من الجميع ، وأمسى الخارجون عليها فى حكم الكفرة

وأساس فلسفة كونفشيوش « التاو » وهى نقطة الابتداء ، والطريق الذى يتحرك فيه الوجود ، والنظام الذى يسير عليه العالم ، أو النظام الطبيعى . وهو السبيل الذى ينبغى أن يسلكه الناس جميعا . والاتجاه الخلقى لكل انسان . وهناك طرق ثلاثة طريق السماء وطريق الأرض وطريق الانسان وهو أهم الطرق الثلاثة

ولكن الطريق شيء غيرمنظور لايرى إلافى أعمال الناس فهو مبدأ خلق مستور تتفرع منه فضائل الحياة اليومية . ويؤمن كونفشيوش بثبات الطبيعة على مبدأ خلق واحد ، فهو يقول بأن السماء والأرض قد أظهرتا ثباتا معنويا فى طرقهما المطردة . والكون نظام وليس فوضى . وتتجلى فى كل أعمال الطبيعة مظاهر الاخلاص التى يجب أن تعتبر نقطة السير للحياة الخلقية

ويعتقد الكونفشيوشيون بأن الطبيعة هى خير فى ذاتها ، وأن مبادئها وقوانينها انما وضعت لارشاد الناس الى التصرف الواجب . ومع ذلك فان تصرفات الطبيعة غامضة ولا يمكن كشفها . وهذا ماجعل تصرفات الناس خاضعة لأحكامها المقدرة من قبل . فسعادة الانسان وشقاؤه ، وتوفيقه ونحسه كلها مقدرة ، واذا كانت لاتوجد علوم تمكن الانسان من السيطرة والتحكم فى الحوادث الطبيعية ، فان وقوع هذه الحوادث يصبح لذلك لامحيص عنه ولامفر منه . ومع أن وقوع هـذه الحوادث التى لامفر من وقوعها ، ومع مايبدولنا من قسوتها وشدتها أحيانا . كان وقوعها مرهونا فى الغالب بتصرفات الناس أنفسهم . لأن الطبيعة ليست شريرة فى أعماقها . وكل ماهنالك أنها عادلة وهى تضع دائما الخير مع الخير ، والشر مع الشر ، فالطبيعة شريفة وتتصرف بطريقة خلقية سامية . وكونفشيوش مثل لوك وعلى عكس هوبز ، يعتقد بأن الأصل فى طبيعة الانسان الخير وأنها تلتمس الخير كما يلتمس الماء الانحدار . وأول مايتعلمه التلميذ الصينى فى كتابه الدينى الصغير «الناس عند مايولدون يكونون خيرين بطبيعتهم »

ويفسر أئمة الكونفشيوشية هذا المبدأ بأن كل انسان يملك فى صميم نفسه مبدأ خيرا ، يسوقه الى العطف على الآخرين ومساعدتهم ، ومبدأ عاد لايشعره بالخجل من كل مايثير الخجل ، والكراهية لكل مايستحق الكراهية . ومبدأ اللياقة يحمله على احترام وتمجيد من يستحقون الاحترام والتقدير ، ومبـدأ حكيما يعرف به الحق ويؤيده . ويدرك به الباطل ويزحزح عنه

وهذه المبادىء ليست مخالفة للطبيعة الانسانية ولكنها مركبة فى غرائز العقل الانسانى ولاغنى للبشرية عنها . وليس على الانسان الا أن يطيع هذه المبادىء الكامنة فيه ليأمن العثار ويسلك الحب الذى لاغبار عليه . ويصبح انسانا كاملا . ان الناس يولدون أطهارا بطبيعتهم غير أنهم إذا طعموا غذاء دسما . واكتسوا ملابس تشيع الدفء فى أجسامهم . وسكنوا أماكن مريحة فانهم يصبحون كالبهائم تقريبا . فغاية التعليم القصوى هى استرداد العقل المفقود ، وأغلب الناس قدفقدوا عقولهم

ومن مميزات الثقافة الصينية العناية بآداب اللياقة ، وهى ظاهرة الأثر فى النظام الكونفشيوشى ويضع كونفشيوش نظاما خاصا من العوائد والاتيكيت لكل العلاقات الأساسية بين الناس . وكل مايشاهد فى الصينيين من مظاهر اللياقة وحسن التصرف انما منشؤه من هذه العادات . فالاتزان الذى يقابلون بهأى موقف من

مواقف الحياة يرجع الى استعدادهم الداخلي الذي جرى منهم مجرى الغرائز بفضل مرانهم الطويل مدى العصور المتعاقبة

فلذلك لايحتاج الصينيون الى كتب فى اللياقة لأنهم نشئوا منذ نعومة أظفارهم على اتباع أصولها المتبعة فى تقاليدهم الدينية المنسوبة الى كونفشيوش . حتى أصبح الثبات واللياقة طبيعة ثانية فيهم . فأنت لاتلمح أثرا للجلافة عندهم حتى فى أحط الطبقات الجاهلة ، بل تراهم جميعا قوما يحسنون التصرف بلباقة فى الأحوال

ويفضل كونفوشيوش فى كتابيه الثالث والرابع المعروفين (بتعليم الوضعاء) الكيفية التى يستطيع بها الانسان أن يتمشى فى قوانين الطبيعة لكى تظهر عناصر الخيرية المركبة فى طبيعته . وهاك بعض فقرات من الكتابين التناسب طريق الطبيعة . والوصول الى التناسب هو طريق الانسان . فالذى يتمشى مع الطبيعة يصيب الهدف من غير نصب ، ويفهم الحقيقة بدون تفكير والحكيم من يهتدى بفطرته الى الطريق القويم من غير عناء والتناسب أو التمشى مع طبيعة الكون هو فعل العلم فى الآداب الكونفشيوشية ، فالرجل الذى يصل الى هذه الدرجة من التناسق يصبح انسانا كاملا . ويدعو كونفشيوش الى الاهتمام بالأمرين (شو) ومعنى الكلمة الحكم على الغير باختبار الانسان الشخصى . لأن التشابه بين الناس فى تفكيرهم يمكن الفرد من الحكم على الآخرين فلو أنى عاملت كلبا أو جوادا بما لا أحب أن أعامل به ، فليس معنى ذلك أن هذه المعاملة لاتليق بالكلب أو الجواد . ولما كنت أنا انسانا واخوتى الآخرون هم أيضا من بنى آدم أعرف مايسبب لى الألم فانى أمكننى أن أعرف أن الآخرين عند مايتأثرون بنفس العامل يتألمون مثلى . واذا اتخذت قلبى دليلا لى فانى لا أعمل لغيرى مالا أرضاه لنفسى

ويعرف كونفشيوش الرجل الراقى ، بأنه الشخص ذو الفضيلة الكاملة ، الانسان الذى رفع نفسه الى مستوى الكمال الخلقى . بعكس الرجل الضيق العطن العادى التفكير ، وتجمع الصفات التى تتألف منها أخلاق الانسان الكامل هى : الاحسان . والانسانية والايثار . وإنكار الذات والروحانية والمحبة . أما المحبة فهى فى عرف كونفشيوش غاية الحياة الانسانية . ومن رأيه أن الانسان الكامل يجب أن لاينسى هذه الغاية ولو مرة واحدة . أثناء تناول وجبة واحدة . أو فى ظرف يكون فيه مشغولا جدا أو عند مايفشل فى عمل فشلا فاضحا

ويأمر كونفشيوش بحب الناس . أى أن يشعر الفرد بمحبة النوع الانسانى وينظر الى البشر جميعا كأنهم اخوته ويعتبر الانسان اجتماعيا بالطبيعة . ويحلل النظام الاجتماعى الى خمس علاقات : الملك ووزيره والأب وولده . والزوج وزوجته . والأخ الأكبر وأخوه الأصغر . والصديق وصديقه . فالانسان بطبيعته مغمور فى نظام من العلاقات ولايستطيع أن يعرف نفسه الاداخل هذا النظام . وهذه العلاقات تتضمن فوارق ، فالخضوع ليس معناه تحديد الحرية الطبيعية . ولكنه شىء طبيعى لابد منه اهـ

فلما قرأت هذا وهى مصغية لى (وعجبت إذ رأيت المقالة أمامى كأنى أشاهدها) قالت انظر فى الآية التى تفسرها أنت الآن . ألم تر أنى ألهمت حكيم الصين أن يقول : « إن الله منحه الحياة وحدّد له المهمة التى يؤدّيها وانه يحميه كيد أعدائه » . قلت بلى . قالت أليس هذا بعينه مافى هذه الآية ـ تتنزّل عليهم الملائكة ألاتخافوا ولاتحزنوا ـ الى قوله ـ نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ـ . ثم قالت : ألم تر أن ملخص كلامه عن نظام السموات والأرض انه فى غاية الكمال ، وأن نظام النفوس الانسانية فى الأعمال يجب أن يكون على مقتضى هذا النظام (وبعبارة أخرى) إن النفوس الانسانية يجب أن تكون مخلصة وصادقة كالاخلاص والصدق فى نظام الأرض والسماء ، وهذه المعانى هى التى برزت فى تفسيرك للقرآن لأن هذا التفسير سيكون نموذجا يؤمه أمم فى الشرق والغرب يسيرون على النظام الطبيعى فى أعمالهم باخلاص وأمانة وحب لربهم . ثم إن تعريف كونفشيوش للرجل الراقى هو عين قوله تعالى ـ ولاتستوى الحسنة ولاالسيئة

ادفع بالتى هى أحسن ـ وأما الحب العام الذى ذكره فهو مضمون نفس هذه الآية ومطلوب القرآن ـ إنما المؤمنون اخوة ـ

إذن آراء كونفشيوش هى مقاصد القرآن والله أعترك عليها الآن لتكتبها فيعلم المتعلمون من المسلمين الذين قرءوا العلوم الفلسفية الاوروبية . إن آيات القرآن المبذولة للجهال والعلماء على حد سواء ليست هى كما يظنون غير مستحقة عنايتهم بدعوى أن قراء القرآن أكثرهم جهلاء فقراء ، فان هذا القرآن من عند الله كما ان الماء المبذول لجميع الناس من عنده وهكذا الحب المبذور والنوى فى الأرض الذى تطؤه البهائم هو هو نفسه الذى يصبح حبا وثمارا جنية ، فليس عموم النعمة دلالة على نقصها ولاشمولها الجاهل والعالم عنوانا على هوانها . كلا . فليعلم أولئك المتكبرون أن كبرهم فى غير محله وأن القرآن تفسره الفلسفة فى الشرق والغرب وحكمة الحكماء وعلم العلماء ـ بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم ـ

ثم انى تذكرت بعد ذلك بعض آراء أفلاطون من المقدمة التى كتبها الاستاذ (بارتلمى سانتهلير) أستاذ الفلسفة اليونانية فى الكوليج دى فرنس ثم وزير الخارجية الفرنسية التى ترجمها الاستاذ (أحمد لطفى السيد) مدير دار الكتب المصرية ، فأسمعتها مانصه . قال :

(١) وقد استعار أفلاطون استعارة أخرى ليجوّد بيان هذا الطبع المزدوج للإنسان فقال : (فلنتصور أن كل واحد منا هو ما كينة حية خارجة من يد الاله . فالشهوات التى نحسها هى كأنها حبال أوخيوط يجذبنا كل الى ناحيته ، و بتعاكس حركاتها تجذبنا الى أعمال متضادة . وهذا هو مايقرّر الفرق بين الرذيلة و بين الفضيلة ولكن الحس السليم يدلنا على أن واجبنا أن لانطاوع الا أحد هذه الخيوط ونتبع اتجاهه ونقاوم شديدا كل ماعداه من الخيوط الأخرى . ذلك هو خيط الذهب المقدس . خيط العقل الذى هو القانون العام للممالك وللأشخاص . ينبغى أن يكون الحكم للعقل مادام أنه هو محل الحكمة وأنه مكلف بأن يسهر على النفس بتمامها ولاينبغى ألبتة أن يصغى المرء فى نفسه إلا إلى صوت العقل ، لأن العقل المستقيم إنما هو صوت الله يخاطب به أنفسنا . ولأن يعتقد المرء أن النفس تسمو بالمعارف أو بالثروة أو بالجاه والسلطان ، ذلك ليس الا نقصا فيما يجب من تشريف مافى نفسه من الجهة القدسية ، وتغريطا منه فى إكرام نفسه ، فان إكرامها الحقيق ينحصر فى الدأب على تمية الفضيلة فيها وحمايتها من الكبر يامو اللذات ، ومن الترف الذى يجعلها تجبن عن احتمال المشقات الضرورية ومن الجزع عند لقاء الموت بل حمايتها أيضا من جواذب الجبل ، فان الجبل لاينبغى أن يؤثر على الخير ، بل يلزم أن يقال : إن كل ماعلى سطح الأرض ومافى باطنها من ذهب لايستحق أن يوازن بالفضيلة . وان المرء إن لم يقصر تشبثه على الخير وحده بكل قواه ، كان موردا نفسه ذلك الكائن القدسى موارد العار والاحتقار(١)

(٢) وقال المترجم أيضا « و بمقتضى ذلك كان الواجب الأول على الانسان ، بل الواجب الوحيد الذى يشمل جميع الواجبات الاخرى هو أن يسلك فى الحياة سبيل العقل المستقيم . و إن أكبر خطيئة يرتكبها ، وأكبر جهالة يقع فيها إنما هو أن يعصى العلم والحكمة والعقل ، وهى ثلاثتها سادته الحقيقون . إنما هو أن يكره شيئا حكم هو بأنه حسن جيل بدلا من أن يحبه . إنما هو أن يحب و يعانق من يحكم هو أنه ردىء . على أن النفس تجد طمأنينة تامة ، وقوة أيما قوة حينما تتفق إحساساتها وأعمالها ، فتغتبط بأنه ليس لها أن تعود باللائمة على نفسها فى فكرة أو عمل ظالم فى حق الله أوفى حق الناس . وإن أكبر حروب فى الحياة هى الحرب

---

(١) القوانين ك ١ ص ٥٤ ـ الجمهورية ك ٤ ص ٢٤٠ وك ٩ ص ٢٣٢ ـ طيماوس ص ٢٣٥ ـ كريتون ص ١٣٥ ـ فروطا غوراس (السفسطائيين) ص ٥٧ ـ القوانين ك ٥ ص ٢٥٤ ـ الجمهورية ك ٩ ص ٢٠٩ ـ فيدون ص ٢٦٦

التي تقع بصدد صيرورة المرء فاضلا أو شريرا . (١) وقد يقع المرء في الضلالة إذا هو ظن أنه الرجل الذي له قيمة تقضي عليه أن يحسب حسابا للموت أو للحياة ، بدل أن يقصر سعيه على البحث فيما إذا كان مايعمل هو خيرا أم شرا ، وما إذا كان عمله عمل رجل صالح أم عمل رجل سوء . كل امرئ اختار مركزا ، لأنه رآه أشرف من سواه ، أو لأن رئيسه وضعه فيه ، يجب عليه أن يقيم فيه ثابتا ، ولاينظر إلى الخطر ولا إلى الموت ، ولا إلى شيء آخر غير الشرف . كذلك كان سقراط ، لماجيء به ليحاكم أمام الشعب الآتيني على تهمة كبرى ، لم يتأخر ألبتة عن تنفيذ هذه المبادئ بالعمل . فلما كان يخدم وطنه في ميدان القتال ، احتفظ كما يحتفظ الجندي الباسل بجميع النقط التي وضعه فيها القوّاد في بريدة وفي أنفيبوليس وفي ديليوم . كذلك لم يكن ليتحوّل عن المركز الذي خصه الله به . بل دأب على درس الفلسفة على رغم الخطر الهائل الذي كان يتهدده ، حتى إنه لما مثل أمام القضاة ، لم يخطر بباله ليتقي الموت أن يتنازل إلى التخضع بسؤال العفو ، ولا إلى التمليقات العادية التي اعتاد الناس أن يستدرّوا بها شفقة القضاة . وما كان الكلام هو الذي يعوزه في هذا الصدد . بل الذي كان ينقصه هو عدم الحياء من نفسه . فلم ينزل عن عزته إلى سكب الدموع . ومايستبيحه المتهمون المستهينون بكرامتهم من الدنايا ، كأن الخطر الذي هو فيه لم يكن في رأيه داعيا الى إتيان ماهو غير خليق برجل حرّ . فالشأن أمام الحاكم كالشأن في ساحة القتال ، لايسمح للمرء أن يتذرّع بأيّ وسيلة من الوسائل المختلفة لحفظ حياته . فكما أنه في الحرب لاينبغي ألبتة أن يلقي المحارب سلاحه ، ولا أن يطلب الأمان ، كذلك لاينبغي ألبتة تلقاء غيرها من الأخطار أن يشتغل (٢) إلى حدّ أن يقول كل شيء ، ويعمل كل شيء . كذلك مضى سقراط ، من غير أن يخسر من شرفه شيئا إلى الموت الذي حكمت عليه به المحكمة ، وترك الذين اتهموه ملطخين بوصمات الظلم والعار التي حكم عليهم بها الحق . لزم عقابه كما أنهم لزموا عقابهم . والشأن في ذلك كما يقول هو أن كل شيء هو على أحسن مايكون . ليس المهم أن يعيش المرء ولكن المهم هو أن يعيش عيشة حسنة . ذلك المعنى هو الذي حمل سقراط على أن يرفض خدمة المخلص « كريتون » فلم يشأ أن يهرب من السجن ليخلص من حكم ظالم لأنه يعلم أن هذا الهرب مهما برره الظاهر ، فانه ليس في الواقع إلا مخالفة لقوانين الوطن

ذلك هو إذن المبدأ الأول الذي قرّره سقراط ، وأيده بالمثل الفعلي . هو أنه لاينبغي ألبتة إتيان الشر بأية حجة كانت ، بل ليس سائغا أن يدفع الشر بالشر ، ولئن قيل : إن العدل انما هو إيتاء كل انسان ماله ، فليس معنى ذلك في عرف الحكيم أن الرجل العادل يجب عليه لأعدائه الشر ، كما يجب عليه لأصدقائه الخير ، فليس عمل السوء لأي انسان من العدل في شيء .

من هذا المبدأ استنبط سقراط نتيجة ضرورية ثابتة لم تكن من قبل ، وهي أن النفس متى كسبت السيئة بعامل الجهل أو الضعف ، على الرغم من شدة تحفظها ، فأول مايجب الاهتمام به هو شفاؤها من المرض الذي أصابها ، والذي يمكن أن تشفى منه . وعلاج الخطيئة انما هو العقاب ، فلا ينبغي للمذنب أن يتذمر من العقاب الذي أصابه إما بيد الله أو بيد الناس ، بل يجب عليه أن يغتبط بالبلاء الذي يكفر سيئته ويخلص نفسه مهما كان مؤلما . ان العقاب ضرب من الطب المعنوي . وشأن المذنب الذي يحاول اتقاءه شأن المريض (٣) الذي قد يؤثر المرض المهلك على أن يذهب الى الطبيب الذي يعيد اليه الصحة بالحديد أو النار . ولايعزب عن سقراط أن هذه المبادئ يبين عليها بادئ بدء أنها تصادم الرأي العام . وفي الحق أن من النادر في الواقع أن يوجد

(١) أفلاطون – فروطاغوراس ص ٣٨ – غرغياس (البيان) ص ٢٦٢ و٣٦٧ – القوانين ك ٣ ص ٦٦٧ و٩٦٥ – غرغياس ص ٤٠٢ – الجمهورية ك ١٠ ص ٣٦٥

(٢) أفلاطون – تقريظ سقراط ص ٩٠ و٩١ و١١٤

(٣) أفلاطون – تقريظ سقراط ص ١١٤ و١١٥ – كريتون ص ١٤٣

جناة بأنون ليسلموا أنفسهم الى العدل الذى يقتص منهم ، ولكن قد يكون ذلك عما لا يعبأ به ، فانه يلزم أن لا نهتم بما سنقوله عنا الغوغاء ، بل بما يقوله الذى يعرف العدل والظلم . وهذا القاضى الوحيد لأعمالنا إنما هو الحق ، إنما هو الله . فاذا جهد المذنب . كما هى العادة . ليخلص من العدل ، فانما هو حقيق بأن يرثى له ، حيث يضيف الى سيئته الأولى التى هى الجناية سيئة أخرى شرا منها . وهى بقاء تلك السيئة من غير عقوبة تكفرها . لكن القلب المخلص المستقيم متى كسب الخطيئة بالمصادفة يعجل الى طلب العقوبة راغبا فيها ، لأنها هى التى تصلح بينه وبين نفسه وبين الفضيلة [1]

(٣) وقال فى صحيفة ٣٩ ومابعدها مانصه : والخير الأكمل كما عرفه أفلاطون فى كتابه «فيليب أو اللذة» ليس كله فى العقل ولا فى اللذة ، بل هو فى مزيج منهما جميعا . ونسبته فيهما مما يدق تعيينه . لكن الفيلسوف مع تقييده للذة لا يريد إهدارها كما حاولت مذاهب الغلاة من بعده بزمان ، فان لديه سعادة العيش وشقاءه مسئلة كبرى ليس عنده همّ أشد من حلها على الوجه الحسن ، لذلك كان شديد الرغبة فى أن يبين أن الفضيلة لا يقصر شأنها عن أن تكون أجل شىء فى ذاتها . كما هو مسلم به ، الا عند العقول المريضة بل هى أيضا أنفع وأسعد ما يكون . تلك هى نقطة من الأهمية بأعلى مكان . ولما كانت شرائط الفضيلة فى هذه الدنيا لا تتغير . كان توضيح سقراط إياها يهمنا كما يهمّ معاصريه تماما . فاننا لا نزال نشكو من المحن المؤلمة الفضيلة كما كانوا يشكون . و إليك ما رتأته نفس الحكيم الكبيرة التى زهقت فريسة الظلم الصارخ

إنه يستشهد فيها التجربة . أجل ، متى أراد المرء تذوّق الفضيلة والتزامها [2] منذ حداثة سنه ، لا يتركها كما يفعل المرتد عن مذهبه ، فانها تقرّ فى القلب . أجل إنها تولد لنا كثيرا من اللذائذ وقليلا من الآلام فى جميع مدة الحياة . من ذا الذى يفكر حقيقة و يستطيع أن يؤثر الجنون والجبن والافراط والمرض على العقل والشجاعة والاعتدال والصحة ؟ من ذا الذى تلقاه مشهد الأحوال الانسانية يستطيع أن ينكر على العموم بعد الموازنة ، ان الفضيلة ليست أشمل سعادة من الرذيلة ؟ إنها فوق ماتحفظ على نصرائها من النعم النفيسة الباقية تكفسب مكافآت الرأى العام وتوزعها عليهم . إنها لا تخدع ألبتة من يعتنقونها باخلاص ، فان الملائكة لا يتخلون عن أى كان يحاول بالمرون على الخير أن يتشبه بهم فى الحدود الممكنة ، إذ ليس من الطبيعى أن كانا على هذا الخلق يتخلى عنه الموجود الذى به يتشبه . فالفضيلة إذن مكفولة بحماية الله . أما من جهة الناس . أفليس الأمر كذلك أيضا ؟ أليس مايحصل للخبيثين والأشرار هو عين مايحصل لهؤلاء المستبقين الذين يجرون سراعا عند صدورهم عن مقرّ حفلة السباق لكن لا عند رجوعهم اليه ؟ يثبون أوّلا بالسرعة ولكن على آخر الشوط يصيرون فى حال تعسة . آذانهم بين أكتافهم . ينزوون سراعا دون أن يتوجوا . فى حين أن العدائين الحقيقيين يصلون إلى الغرض حائزين قصب السبق و يتوّجون بتاج النصر . أليس حظ العادلين عادة هو كذلك [3] ؟ أليس حقا أنهم متى وصلوا إلى آخر مشروع من مشروعاتهم . يكتسبوا من سلوكهم وعيشتهم اسما حسنا . ويحصلوا من الناس على المكافآت الواجبة لهم ؟ أليس أنهم يصلون متى بلغوا سن الرزانة إلى مايرجون من علو المناصب ؟ أما الأشرار فانهم وإن أخفوا أمرهم على العيون فى شبابهم . فان أكثرهم ينفضح أمره و يرتدى بالسخرية فى أخريات أيامه . ومتى صاروا أشقياء فى شيخوختهم . باءوا بسبات الأجانب والمواطنين . بله مايلحقهم من

---

(١) أفلاطون — غرغياس ص ٢٥٧ و ٢٨١ و ٢٨٤

(٢) أفلاطون — القوانين ك ١ ص ٣٣ و ٥٣ «فيليب كل المحاورة» الجمهورية ك ٩ ص ٢٠٠ — القوانين ك ٥ ص ٢٦٧

(٣) أفلاطون — القوانين ك ٥ ص ٢٦٧ و ٢٦٩ — الجمهورية ك ١٠ ص ٢٧٦ و ٢٧٧ و ٢٧٨

المثلات التى تكاد تصيبهم دائما فى هذه الحياة الدنيا . ومايتلقاهم يوم القيامة من عدل الله — الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه —

ان أفلاطون مقتنع بصدق هذه المبادئ فى العمل الى حد أنه كان يظن أنه مستطيع أن يعين بالأرقام المضبوطة مقدار المقارنة بين سعادة الرجل الفاضل و بين الشرير . وجد بحساب له خاص أن أولهما أسعد من الثانى بسبعمائة وتسع وعشرين مرة . وإنه ليريد فوق ذلك أن يسحر بهذه القواعد الجلية التى هى ثمرات تجربة يؤيدها العمل اليومى نفوس الصبيان وهى لاتزال لينة مطيعة . ثقة منه بأن هذا الكلام يقر فى عقولهم بأسهل من كل ماعداه . ولما أقنع قلب شاب شريف مثل « غلوكون » كاد يطلق مناديا ينادى بأعلى صوته فى الناس جميعا بهذا الحكم الذى أصدره ابن ارسطون « ان أسعد الناس أعدلهم وأفضلهم وان أشقى الناس أظلمهم وشرهم »

الى هذه المشجعات التى لم تكن لتحط مقام النفس أضاف سقراط نصيحة من شأنها أن تطمئنها وتكبرها ان حوادث الحياة لاتستحق منا مثل هذا الاهتمام العظيم . العقل يهدى الى أن من الجميل الاحتفاظ بالبشاشة عند المصائب وأن لايدع المرء نفسه الى الشهوة تلقى به فى اليأس . وذلك لأن الانسان يجهل [1] ما اذا كانت هذه العوارض فى حكمة الله خيرات أم شرورا . ولأنه لايكسب شيئا من وراء الحزن لها ولأن الألم ليس إلا عائقا عما يلزم المبادرة بعمله فى هذه المواقف . فالرجل العاقل المستقيم الأخلاق اذا حلت به مصيبة كفقد ولد له . أو ضياع شىء آخر عزيز عليه يحتمل المصيبة بصبر لايطيقه أى رجل آخر . وليس هو فى ذلك ألبتة عديم الشعور لأن عدم الشعور فى مثل ذلك الموقف حديث خرافة . ولكنه يضع حدودا لألمه سواء أكان فى جمع من أمثاله أم كان منفردا بنفسه فماذا يلزم اذن عمله فى هذه المحن ؟ « أن يستشير المرء عقله فيما وقع . وأن يصلح سوء حظه بأحسن الوسائل التى يحكم بها العقل . وأن لايروح للصدمة الأولى واضعا يده على جرحه كالأطفال يضيع الوقت بالصراخ . بل أولى به أن يروض نفسه على علاج الجرح بأسرع ما يمكن . وأن يرفع ماسقط . وأن يتداوى بدلا من أن يتطير . ذلك هو خير مايستطيع الرجل عمله فى المصائب التى تحل به [2] »

(٤) وقال أفلاطون : « وليس من الممكن وجود صداقة مستديمة إلا بين الأخيار . وإن الفضيلة التى هى شرط للسعادة الفردية هى كذلك شرط للسعادة فى الجمعية . إن الأشرار لايستطيعون أن يأتلفوا زمنا طويلا . فاذا قاربت المنفعة بينهم لحظة . فلاتلبث أن تباعد بينهم . بل المنفعة التى تساعدها الرذيلة «وما الرذيلة إلا أسرع منها انتقالا» تسلحهم بعضهم على بعض وتصبح الجمعية . وليس فيها إلا أشرار . غير مستطيعة أن تبقى يوما واحدا . ان هذه القاعدة العتيقة «الشبيه يبحث عن الشبيه» ليست صادقة إلا بالنصف . فان الرجل الخير هو وحده صديق الرجل الخير . أما الشرير فانه لايستطيع ألبتة أن يعقد صداقة حقيقية . لامع الخير ولا مع الشرير شبيهه . ولما كان الشرير لاثبات له على حال متغيرا متخالفا مع نفسه مضادا لها . كان بعيدا عليه أن يشابه غيره ويحبه . وحينما اقترب الشرير من شبيهه واشترك [3] معه ، صار عدوه حتما . لأنه سيعتدى عليه بعض الشىء . وكيف يكون ممكنا أن يبقى المعتدى والمعتدى عليه صديقين

(٥) وقال عن سقراط مانصه : «ولما كان محظورا عليه ألبتة أن يأتى الشر . كان لايعمل السىء لأعدائه كما لايعمله لأصدقائه . ذلك منه بعيد . فانه يعرف أن الشر الذى يقع على الأشرار يزيدهم رذيلة على رذيلتهم .

---

(١) أفلاطون — الجمهورية ك ١٠ ص ٢٧٨ وك ٩ ص ٢٢٤ — القوانين ك ٢ ص ١٠١ — الجمهورية ك ٩ ص ٢٠٤ وك ١٠ ص ٢٥٦

(٢) أفلاطون — الجمهورية ك ١٠ ص ٢٥٥ و ٢٥٦ و ٢٥٧

(٣) أفلاطون — فورطاغوراس ص ٣٨ — ليزيس ص ٥٩ — فيدر ص ٨٦

شأن تلك الدواب الشمس . يضر بها السائس الأخطل . فتصير بذلك غير قابلة للتذليل . ومافعل الشر حتى بالاشرار إلا قاعدة لايجرى عليها غير الطغاة أو المجانين أمثال «فرديكاس» و «برندر» و «اكزركسيس» أما الرجل الحكيم فانه على الضد من ذلك يلطف الشرير بما يعمله له من الخير . أو على الأقل بما يضر به له من المثل الصالح من عدالته . إن الشرير أولى الناس بالشفقة ، لأنه مريض النفس قد اعتراه المرض فى جزئه الأنفس حقا أن من القلوب ماقد بلغ فى الفساد حدا لا يمكن معه شفاؤها . بل أخذت منها الرذائل مأخذا أصبح معه علاجها عسرا جدا أومستحيلا . ولكن هذه هى الاستثناءات التى يندر وجودها . أما أكثر الشريرين ففى شفائهم بقية من الرجاء . فيلزم أن يكظم الغيظ فى حقهم . وأن لايؤخذوا بالعقوبات القاسية التى لا يكون من ورائها إلا أن يركبوا متن الحدة و يبتعدوا عن الهواء الشافى

ان مايكسب مبادئ سقراط هذه من رفعة وميزة خاصة بها أنه لم يقصر أمره على تقريرها . بل كان يعانى تطبيقها . وما كانت حياته إلا وقفا على هذا التطبيق الطويل الشاق . فانه منذ تلقى من إله «دلفوس» رسالته المقدسة . واستنارت نفسه بنور الحق مازال يعلم مواطنيه بأكمل مايكون من الرعاية التى قد لاتخلو من التقريع بمحض لهم أنفع النصائح . و يحمل الى السرائر الخالصة نور سريرته الساطع . وقد كان يرى أن نفع الناس وتخليصهم مماهم فيه من الشرور واجب عليه الى حد أنه لواستطاع أن يخلصهم بتقديم حياته قربانا . لما تأخر فى ذلك . فلو قال له أهل آتينا

«ياسقراط إنا نطرح رأى (أنيتوس) ونحكم ببراءتك . لكن على شرط أن تكف عن الفلسفة وعن أبحاثك التى اعتدتها . وإنه إن وقع منك ذلك واكتشف أمرك عوقبت بالقتل لما تأخر عن أن يجيبهم بأهل آتينا إنى أحترمكم وأحبكم ولكنى أطيع الله لا أطيعكم أنتم . ومابقيت أنفاسى تتردد فى صدرى . وبقى لى حظ من القوة . لاأفتأ أنذركم وأنصح لكم وادعو كل من لقيته باللسان الذى عرفتم منى . ولوأنى كففت فى هذه الساعة لما كان هذا خوفا على نفسى كما قد يبدر للأذهان . بل خوفا عليكم أن تحاربوا الله بالحكم على . هذا هو اعتقاد سقراط وذلك هو إحسانه الى الناس . فلا يجب من يسمع تقريظه من أن يراه قد تقدم المسيحية نفسها إذ يقول لأهل جمهوريته : ياأيها الذين تتألف منهم المملكة كلكم اخوان . لأنه هو نفسه لم يغفل لحظة عن الاعتقاد بأنه أخو قاتليه [١] »

كفى بالمذاهب الأخلاقية التى من هذا النوع دليلا على المذاهب الدينية التى تتوجها . فمن السهل استنباط المعتقدات الدينية لأفلاطون وسقراط من مذهبهما الأخلاقى . فاذا كان الصوت الذى يخرج من أعماق ضميرنا هو صوت الله . واذا كان الله هو الشارع الذى تجب علينا جميعا طاعته . وإذا كان الناس لايؤلفون فيمابينهم إلاعشيرة واحدة ، فمن البديهى أن أبو الجميع العام انما هو الله الذى رضى لهم أن يحبوه كما يحبون أنفسهم بعضهم بعضا . وإن الصلة بينه و بين الانسان دائمة فلا يستطيع أن يفر منه أبدا . ولو صغر حتى نفذ فى باطن الأرض أوكبر حتى (عرج فى جوف السماء) . وأبعد من ذلك أن يستطيع التغلب على الاله أبدا . أو يتخلص من هذا النظام الثابت الذى شرعه ، والذى يجب احترامه الى مالانهاية . ومن الكفر البين بعد إنكار وجود الله أن لايعتقد بالعناية الالهية . فان ذلك يستقيم القول بأن هذه العناية يمكن أن تتخلى عن الانسان لحظة فلا ترعاه . وتسلمه بغير حساب الى سورة رذائله أو عجز فضائله . إن أجل ألقاب الانسان وأحسنها أنه صنعة صنعها الله بيديه ، فلاشىء لدينا إلا وهو من فيض إحسانه . ولا نستطيع أن نوفيه الشكر على نعمائه بصلواتنا وما نقرب من القرابين وما نأتى من العبادات المستمرة إنه هو قوتنا ولولاه لم نكن شيئا مذكورا . وإن الله على حسب التقاليد القديمة هو الأول وهو الوسط وهو الآخر لجميع الموجودات . وهو يسير على خط مستقيم تبعا لناموسه فى حين

(١) أفلاطون ــ تقريظ سقراط ص٩٣ و ٩٥ ــ الجمهورية ك ٣ ص ١٨٦

أنه يحيط بالعالم . ووراءه العدل المنتقم فى الجرائم التى تقع ضد شريعته . فأيما امرئ شاء أن يكون سعيدا . فليتصل بهذا العدل الالهى ويقتف أثره خاضعا متواضعا . أما من انتفخ كبرا . وأسلم قلبه الى نار الشهوات . وظن أن لاحاجة له بسيد ولاهاد . فان الله يتركه الى نفسه . ولايلبث أن يدفع الدين الى العدل الالهى . وينتهى أمره بأن يهلك هو وعشيرته ووطنه (١) »

مادام هـذا هو النظام الثابت للأشياء . فيم يفكر الحكيم وماذا يعمل ؟ بديهى أن كل انسان عامل يفكر فأنه ينبغى له أن يكون من الذين يتقربون الى الله . لكن ماهو السبيل المقبول عند الله ؟ هو طريق واحد . لأن الله بالنسبة لنا هو المقياس المضبوط لجميع الأشياء . لا الانسان كما زعموا باطلا . فلا سبيل الى أن يحظى الانسان بقرب الله حتى يعمل كل مافى وسعه ليتشبه به . أعنى بمقدار ماأتيح للانسان أن يبلغ من التشبه بذلك المثل الأعلى الذى لايبلغه أحد . ومتى أمن الانسان على هذا الاتصال وذلك «النسب الالهى» واقتنع بأن عناية الله تحرسه بلا انقطاع كما تحرس بقية الدنيا . وأيده ضميره الذى يرضى عنه لحسن طاعته للنظام العام فماذا عسى أن يخيفه فى العالم بأسره ؟ وكيف يمتنع قلبه عن الايمان بهذه الحقيقة المعزية : أن الانسان الخير لاخوف عليه فى حياته ولا بعد مماته ؟ فلامسه فى هذه الحياة سوء . فكيف لايحفظ الاعتقاد الراسخ بأن الاله سيهب له مالا يزال يهب للأخيار من لطف فى المصائب التى تصيبهم ، وتغيير فى حالهم الحاضرة الى خير منها ، على أن النعم المعنوية التى اكتسبوها والتى ليست نعما زائلة أو متنقلة تبقى لهم الى الأبد ، على أمثال هذه الآمال وفى أمثال هذه الأفكار يجب أن يقطع المرء عمره ، يذكر بها نفسه وغيره فى كل فرصة وفى كل مقام من مقامات الجد واللهو (٢) »

(٦) وقد قال عن سقراط مانصه : « أظن أن سقراط هو أول من حاول من الحكماء إثبات صبغة الله فى الطبع الانسانى بطريق البحث والتنقيب ، وقد صدر فى ذلك عن هـذا المعنى العميق الذى قرره «انكساغوراس» وهو أن العقل أصل كل شىء فى العالم فاستنتج منه كما ذكر فى «فيدون» هذه النتيجة وهى : أن عقلا مدبرا خالقا يجب أن يكون قد أعد كل شىء على أحسن مايكون . وليس على الباحث لمعرفة طبع أى شىء الا أن يبحث أحسن حالة يمكن أن يكون عليها ذلك الشىء ، فليس على الانسان فى كل مايتعلق به إلا أن يبحث ، كما هو الحال فى بقية الأشياء . عما هو الأحسن والأكمل ولقد كان «هرقليت» يقول من قبل سقراط : إن أجمل القردة إذا قورن بالانسان ظهر قبيحا . كذلك الانسان الحكيم لايظهر بجانب حكمة الله وجماله إلا كالقرد ، ولكن سقراط عز عليه أن يقف بحثه على درس الجسم كما فعل « هرقليت » فيلسوف يونيه . فتمشى مع مبدإ الأحسن فى درس الروح التى جعلها الجهة الوحيدة لدرس الطبع البشرى اهـ

هذه هى المقالات التى تذكرتها فى حضرة تلك الروح الشريفة الجليلة ، فلما سمعت هذه المقالات من كلام أفلاطون وسقراط وأرسطاطاليس . قالت نعم هذه من أجل مزارعى فى الأرض فيها بلغكم من العلم منذ ٢٥٠٠ سنة الى الآن . وكل هذه هى التى توضح هذه الآية وقد تطابقت كلها على (أمرين : الأول) الوازع الداخلى والقانون الوجدانى وهو . . . . فتبسمت بوقار . فقلت (البصيرة) قالت نعم — بل الانسان على نفسه بصيرة ۞ ولو ألقى معاذيره — (والثانى) إن هناك قوة عليا تساعد من أطاع هذا القانون وسار عليه . وللناس فى أمرك أنت مذكر وموعظة حسنة . ألست تحس فى نفسك بما يشد عزيمتك فى أوقات الشدائد . قلت بلى والله . قالت : ألست فى أثناء هذا التفسير تحس فى نفسك بسعادة وهناء لم تر لهما نظيرا مدة الحياة . قلت بلى . قالت

(١) أفلاطون — القوانين ك ١٠ ص ٢٥٣ و ٢٦٧ وك ٧ ص ٣٩ وك ٤ ص ٢٣٣ و ٢٣٥

(٢) أفلاطون — القوانين ك ٤ ص ٢٣٤ وك ١٠ ص ٢٥٣ وك ٥ ص ٢٦٦

أبست المعانى والمساعدات العلميـة لاتفتأ تترادف عليك وكلما ازددت فى التأليف إيغالا ازددت مددا وعلما وانشراح صدر وسرورا . قلت بلى . قالت فهذا هوالذى يقوله كونفشيوش وسقراط وأفلاطون وارسطاطاليس ويقوله بعدهم الرواقيون الذين جاءوا بعد أرسطاطاليس وأغرموا بعلم الأخلاق وقالوا إن سعادة الانسان فى الأخلاق وجمالها ولهم مذهب خاص بها نقل أهمه علماء الاسلام من الفلاسفة والصوفيـة ، وقد ملأ الغزالى من علمائكم كتاب الإحياء بعلم الأخلاق وهومعروف مشهور ، هاهى ذه بعض مزارعى التى زرعتها فى القلوب فاذا رجعت الى عالم المادة فأستوعب ذلك كله وأدخله فى تفسير الآية حتى يعلم المسلمون أن كلام الحكماء تفصيل وتفسير لآيات القرآن وأن آية ــ بل الانسان على نفسه بصيرة ــ وآية ــ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ــ الى آخره تفسران بعلوم الفلسفة . اليوم يشهد المسلمون أن دينهم ألقيت علومه على عقول الحكماء قبل نزول القرآن ، فهذه من المجازه العجيب . إذن أنا أظهر فى كل قلب بحسب درجتـه وتكون الجمل والانشاء على مقتضى اختلاف العقول والأمم . فانظر الى الشيخ الشعرانى رحمه الله الذى جاء فى القرون المتأخرة . فهذا قد ظهرت آثارى على قلبه بهيئة أخرى ، أنا واحدة ومظاهرى كثيرة كالشمس تختلف أضواؤها فينمو بها كل نبات والاختلاف يكون على حسب القوابل قوّة وضعفا ، واذا كان فى العوالم المادّية نظام جيل :

(١) كقوانين الجذر والتربيع فى امتداد النور والحرارة والكهرباء والجاذبية وفى قوانين الحجر الساقط فى بئر (هذا فى سورة الرعد عند آية ــ وكل شىء عنده بمقدار ــ)

(٢) وكقوانين الذكور والاناث فى تلقيح الزرع والشجر ، وفى نظام أوراق الأشجار من حيث هندستها وحسابها (هـذا فى سورة الحجر فى آية ــ وأرسلنا الرياح لواقح ــ وآية ــ وأنبتنا فيها من كل شىء موزون ــ)

(٣) وكنظام ممالك النحل والنمل والأرضة وغيرها (فى سورة النحل والنمل وسبأ)

(٤) وكجمال الأزهار والثمار ووجوه الانسان

واذا كان ذلك كله جيلا وبديعا بحساب عجيب كحساب العناصر من حيث وزنها وترتيبها فى جداول منتظمات (هذا فى سورة العنكبوت) أفلا يكون عالم الروح الذى هوأصل تلك العوالم وهوسيدها أجل وأبهى وأبدع نظاما وحسابا من عوالم المادّة . إذن فلتعلم أن لنفوسكم نظاما لاتدركون كنهه ولاتفتأ تصلحه أحد الدهر ، فتارة نظهر فى عقول الفلاسفة ، وآونة فى عقول رجال الدين ، ووقتا نظهر بهيئة صوفية ، والمبدأ واحد والمظاهر مختلفات ، فهل تذكر شيئا من آراء الشيخ الشعرانى رحمه الله ؟ فقلت نعم . قال فى المنن الكبرى ما نصه :

«ومما منّ الله تبارك وتعالى به علىّ عدم تكدّرى على شىء فاتنى من الدنيا وتكدّرى ممن صدّها عنى وذلك لعلمى ويقينى بأن كل شئ فاتنى فليس هو برزق ولاقسم لى فكيف أحزن على شئ لم يقسمه الحق تبارك وتعالى لى أو أتكدّر ممن صد ذلك عنى بالوهم وهذا خلق غريب فى هذا الزمان وغالب الناس يحزن ويتكدّر ممن سعى فى قطع رزقه أوخروج وظيفته عنه وربما عادى من عارضه فى رزقه الذى كان يتوهم انه له أبدا ماعاش (وقد رأيت) خطيبا كان يخطب فى الجامع الأزهر . فلما دخل السلطان سليم مصر وصلى فى الجامع الأزهر قال الناس لا يخطب اليوم الا فلان لفصاحتـه ومعرفته بالوعظ المناسب للسلطان ومنعوا صاحب النوبة تلك الجمعة لعجزه عن مثل ذلك . فلما خطب رسم له السلطان بخمسين دينارا فقال هذه لى ولم يعط صاحب النوبة منها شيأ فمشيت فى الصلح بينهما فلم أقدر ولم تزل العداوة بينهما الى أن ماتا على العداوة فقلت لصاحب النوبة أين قولك فى الخطبة والله ثم والله ثم والله مايعطى ويمنع ويضع ويرفع الا الله تعالى فـادرى مايقول وبالجملة فلا يقع فى مثل ذلك الا جاهل محجوب عن الله تعالى فان كان ولابد للمؤمن من أن يحزن فليحزن على ساعة مرت به لم يذكر الله تعالى فيها فان ذلك محمود ولولم يمكن تداركه لما فيه من التعظيم لجناب الله تعالى والحزن على فوات

مجالسته تعالى والوقوف بين يديه جل وعلا كما هو شأن كل محب مع محبوبه ومن لم يحزن على فوات مجالسة محبوبه فليس له فى مقام المحبة نصيب (واعلم يا أخى) أن الحزن على مافات من الطاعات انما هو محمود للعبد مادام محجوبا يختار خلاف مايختاره له ربه جل وعلا فاذا رفع عنه الحجاب لم يجد شيأ قسم له ثم فاته أبدا لأن ذلك لايصح عقلا ولاشرعا (وكان) الشبلى رضى الله تعالى عنه يقول وهو فى بداية أمره اللهم ان عذبتنى بشئ فلا تعذبنى بذل الحجاب فلما كمل حاله صار يقول الحمد لله الذى حجبنى فى الوقت الفلانى عن شهوده فانه تعالى ماحجبنى عنه إلا رحمة بى خوفا أن لا أقوم بأدب الشهود وتارة يقول انى لا أشتهى رؤية الله عز وجل أبدا فقيل له فى ذلك فقال انزه ذلك الجمال البديع عن رؤية محدث مثلى انتهى ولكل مقام رجال فافهم يا أخى ذلك والله سبحانه وتعالى يتولى هداك والحمد لله رب العالمين » اه

وقال أيضا فى صحيفة ١٨٨ من الكتاب المذكور مانصه : « ومما منّ الله تبارك وتعالى به علىّ عدم قطع برى وحسنتى للناس اذا كفروا وساطتى فى ذلك فانى عبد ليس لى فضل على أحد وانما أنا استعمل فيما أمرنى الحق تبارك وتعالى به وليس لى معه ملك أرى به فضلا على أحد من عبيده مطلقا و بتقدير رؤيتى الفضل على العباد فكلما كفروا وساطتى توفر لى الأجر بخلاف مااذا مدحونى فربما كان ذلك المدح يرجع على ذلك العطاء فلايبقى لى حسنة وقد كان سيدى علىّ الخواص رضى الله تعالى عنه يقول أعظم الناس أجرا من يحسن الى من لايشكره أو الى من يؤذيه من الأعداء انتهى . وسمعته أيضا رضى الله تعالى عنه يقول من أراد النصرة على أعدائه فليحسن اليهم وليتأمل فى نفسه الذى يعاقب ولده وتلميذه مثلا بقطع الاحسان اليه يجد الحق تبارك وتعالى يرزقه ليلا ونهارا مع كونه مخالفا له فينبغى للعبد أن يعامل عبيد سيده بالحلم والعفو والصفح وعدم المعاجلة بالعقوبة كما يعامله سيده . ثم لايخفى أن الاثم الواقع لمن يعاقب ولده مثلا بقطع رزقه انما هو من حيث قصده هو والا فالعبد لايقدر أن يرد ماقسمه الله تبارك وتعالى لغيره أبدا انتهى فافهم يا أخى ذلك واعمل على التخلق به ترشد والله تعالى يتولى هداك والحمد لله رب العالمين » اه

وقال أيضا فى صحيفة ١٨٩ من الكتاب المذكور مانصه : « ومما منّ الله تبارك وتعالى علىّ حضور قلبى مع الله تبارك وتعالى حال أكلى وشربى وشهودى ان ذلك من فضل الله تعالى علىّ لا أستحق ذرة منه بل لا أقوم بواجب حقه تبارك وتعالى علىّ لو سففت الرماد ثم اذا وقع لى أننى أكلت غافلا عن ذلك المشهد أو شربت استغفرت الله تبارك وتعالى حتى يغلب على ظنى أن الله تبارك وتعالى قبل استغفارى فضلا منه وانما لم أقل أستغفر الله مرة فقط لأن مثلنا ربما لايقع له حضور فى استغفاره الا بعد سبعين مرة وأكثر وسمعت سيدى عليا الخواص رضى الله تعالى عنه يقول ما أسبغ الله تعالى علينا النعم بالاصالة ليمكر بنا وانما أسبغها علينا ليجمع قلوبنا عليه ولانخرج من حضرته تبارك وتعالى الا لعذر شرعى وكأن الحق تبارك وتعالى يقول من كنت كافيه عن الحرف والصنائع التى تحجبه عنى بما سخرته له من الرزق على يد عبادى من حيث لايحتسب ولايتشرف نفسه اليه فلأى شيء يخرج من حضرتى (وسمعته) رضى الله تعالى عنه أيضا يقول تيسير استعمال الطعام نعمة كالصلاة فكما أن الصلاة ماشرعت الا لحضور العبد فيها بقلبه مع ربه تبارك وتعالى فكذلك الحكم فى مشروعية الأكل والشرب ماشرعا الاليحضر العبد فيهما مع من أحسن بهما اليه انتهى * واعلم يا أخى انه ماواظب أحد على الحضور مع الله تبارك وتعالى حال أكله وشربه الا أورثه الله تبارك وتعالى القناعة والزهد فى الدنيا وكفاه شر نفسه انتهى من كتاب لطائف المنن الكبرى

فلما سمعت ذلك . قال : أى فرق بين هذا القول وما قبله إلا فى العبارة على مقتضى الأحوال واختلاف الأمم ، فكل ذلك الاذعان لله والحب للناس . ثم قال : بقى أن تذكر ما تعلمه من كلام علماء أوروبا فى هذا المقام . فقلت : قال الاستاذ (بارتلمى سانتهلير) المذكور فى كتاب «علم الأخلاق» مانصه :

«حينما

وحينما يريد الانسان أن يختبر نفسه ويدخل فى أعماقها ، فهناك المشهد الكبير الوحيد الذى يكتشفه فيها عند الفكرة فى بعض الأفعال التى فعلها ، بل التى ينوى فعلها ، يسمع فى أعماق عقله صوتا يمدحه تارة ويلومه تارة أخرى ، وبقطع النظر عن أمثاله الذين يمكن أن يجد لديهم أحيانا صدى هذا الصوت الداخلى فان من المستحيل عليه أن لايلقى اليه سمعه . ونظرا الى أنه يحمل فى نفسه هذا الصوت فلايستطيع أن ينكره ولا أن يلزمه الصمت متى ائتمر بأمره يشعر بأنه عمل صالحا . ومتى عقه يشعر بأنه عمل سيئا . وانما فى هذا التردد بين الطاعة وبين العصيان تنحصر كل حياته الأخلاقية فاضلة فى حال ورذلة فى الحال الأخرى ، ولأن يسلم المرء نفسه وبلا رجعى الى خدمة هذه الأوامر الداخلية ويخلص لتنفيذها فى جميع امتداداتها من غير أدنى اعتبار للأشياء الخارجية وأن يكون دائما مستعدا لأن يضحى لها بكل الضحايا التى تقتضيها ، ذلك هو القانون الأعلى الذى يشعر الانسان بالخضوع له ولو أنه لايعرف إلا نادرا أن ينفذ مع التحرج أحكامه الصارمة . ذلك هو المثل الأعلى الذى لاينال والذى تتطلع اليه أنظار نفس الانسان وان كان يحيد عنه فى الغالب إلا أن مرجعه اليه على الدوام . ذلك هو الأمر الواقع المسلم به الذى هو بسيط وجليل معا والذى يكوّن الأخلاقية كلها . هل الانسان وحده هو الذى يعرف هذا القانون ويملكه ؟ كل مايهم من هذا هو أن الانسان يملكه حقا وذلك هو مايميزه عن سائر الخليقة التى يعيش فيها والتى لاتمتع بهذه الميزة

إلى هذا الأمر يضاف أمر آخر ليس أقل منه وضوحا ولا أقل منه عجبا . إن الانسان حيال هذا القانون الذى يناجى ضميره مناجاة علوّ وقدرة فى بعض الأحيان يشعر دائما أنه يستطيع مقاومته ، فعبثا يوصيه هذا القانون أن يلزم العدل فى فعله وعبثا يزكى العقل هذه الوصية . فالانسان قادر على أن يرفض تحت مسئوليته هذه النصائح القوية الحقة . ذلك لأن له بجانب ذكائه وعقله ملكة أخرى أقوى منهما بوجه ما لأنها تستطيع دائما (متى شاءت) أن تكسر نير طاعتها للعقل . تلك هى الارادة التى لاتخضع لشىء إلا لنفسها . فوجود مثل هذه الملكة فينا وحلولها محلا من الاستقلال والسيادة فى الدائرة الثانوية التى تخصها هو ماتستطيع اللاأدرية التحدّى بها حينما تهجم على الحق وعلى الذوق العام ، غير أن مانقوله هذا مجمع عليه من الجنس البشرى بل معترف به من جانب اللاأدرية نفسها إن لم يكن بأقوالها التى كان للسفسطة فيها شأن عظيم ، فبأفعالها التى منها ينبجس على رغمها وضوح المبدأ الذى تنكره الارادة فى الانسان هى هذه القدرة التى يستعملها للتصميم على وجه أو على آخر من غير أن يقترشىء فى الدنيا على إكراهها مادامت لاتقبل هى نفسها ذلك الاكراه ، ويبين أن هذه القدرة هى كل الانسان وهى التى تقوّم ماهيتنا . إن هذا الصوت الذى يناجى ضميرنا هو فينا ولكنه ليس إيانا مادام انه قانون يلزمنا ، نحن لم نضعه مادمنا غير قادرين على تغييره على رغم وحى المنافع وعمايات الشهوات ، أما الارادة فعلى ضد ذلك هى نحن نحن وهى شخصنا ، هى نحن وحدنا بعظمنا وضعفنا وبقدرتنا المزدوجة على الطاعة والعصيان

ذلك هو مايسمى بالحرّية ، تلك الهبة المعجزة المخيفة التى هى قوّة الانسان والتى يترتب على قدر مايحسن أو يسىء فى استعمالها سعادته أو شقاؤه علوّه أو سقوطه ذلك هو مايسمى بلغة (كنت) «حياد الارادة » لامن جهة أن إرادة الانسان كما قد يعتقد (كنت) تضع لنفسها قوانينها ، بل من جهة أن الارادة يمكنها دائما أن تطيع أو تعصى القوانين التى يمليها عليها العقل والضمير ، فمعنى حياد الارادة هو أنها تستطيع أن تقرر مايعجبها حتى ضد كل عقل وكل منفعة

يتضح بهذا أن القانون الذى هو فى ضمير الانسان يناجى عقله هو المبدأ الأسمى وفوق الانسانى . والارادة الحرّة التى تنفذ هذا القانون أو تخالفه هذه هى المبدأ الانسانى والتابع وهما اثناهما مصدر علم الأخلاق ومفتاحه . فالانسان يحمل فى نفسه قانونا ومحكمة بوجه ما تحكم ببراءته أو بادانته بحسب الأحوال ، ولها من

القوّة التنفيذية إما الرضا الجليل بأنه عمل خيرا و إما الندم ووخز الضمير على كونه عمل شرا . والانسان يحس نفسه رعية لقوّة هي أعلى منه منعمة لطيفة إذا أطاعها منتقمة جبارة اذا عصاها . ومتى اقتضى العدل عجلت له العقاب الخارجي بما تسومه من سوء العذاب الداخلي الذي يعرف الأثيم سره الأليم حتى لوتملص من انتقام الهيئة الاجتماعية

هذان الأمران : القانون الأخلاق والحرّية ، هما فوق كل مناقشة ممكنة ومن ينكرهما ينزل بذلك عن اسم الانسان و ينحط بنفسه (عن علم أوجهل) إلى ماتحت منزلة البهيمة وان كان أذكى منها بلاشك إلا أنه فاسد الأخلاق والبهيمة ليست كذلك

ليست النتائج ههنا بأقل وضوحا من المبادئ ولا بأقل عجبا فان الانسان متى قبل بارادته نير القانون فذلك يرفعه و يشرفه و بعيد أن يكون سببا فى خفضه . إنه بطاعته الاختيارية يشرك بمحض إرادته شيئا أكبر منه ويحس أنه مرتبط بنظام أعلى منه يشدّ أزره . وقلما يخسر بهذه الطاعة شيئا بل يكسب بها من العظمة والوقار مالم يكن له من قبل بدونها . إن العالم الأخلاق الذى يدخل فيه على بينة من تحديد حريته هو العالم الحقيقى الذى يجب أن تعيش فيه روحه فى حين أن جسمه يعيش فى عالم مخالف تماما حيث توشك الحرّية أن لا يكون لها عمل . إنما هو ذلك من الطهر والسلام حيث لا أرجاس ولا زعازع إلا ما يسمح لها الانسان بالدخول فيه . فالسكينة والنور فيه لا تتعلق إلا بالانسان وحده ، ومتى شاء استطاع أن يبسط فى هذه السماء الداخلية صحوا لا يكدر . و بمقدار مايوغل عقله فى الطاعة يكتسب من القوّة وتصير الأرض التى يرتكز عليها كذلك أكثر ثباتا وخصبا . إن اعتقادات الضمير تزداد ثباتا بالمران وإن بهذه المعاوضة بين الطاعة الاختيارية من جهة والقوّة المكتسبة من جهة أخرى تكبر قيمة الانسان فى عينه الى حدّ لم يكن يعرفه من قبل كبرا لا يأباه عليه تواضعه لأنه ينسب أصله الى قوّة أسمى منه . من ذلك يستمدّ ذلك الاحساس الشريف العجيب الذى يسمى احترام الذات وهو الكفيل للمرء بأن يؤدّى له أمثاله الاحترام الواجب عليهم والذى يؤدّيه هولهم فى دوره ، ولو عودل بين هذه الخيرات الداخلية التى هى فوق كل ثمن هذه الفيوض القدسية (كما كان يقول أفلاطون) و بين الخيرات الخارجية لقلت قيمة هذه بالنسبة لتلك ، ومع ذلك فان هذه الخيرات الداخلية يضحى بها من غير تردّد بل من غير ألم فى سبيل خيرات لا قيمة لها ، على أن الثروة والصحة والمحبة والحياة نفسها لا بقاء لها ، فليضحّ بها عند الحاجة قربانا للاحتفاظ بما هو أسمى منها إذ لا يستطاع إيثارها على الأمر الوحيد الذى يجعل لها شيئا من القيمة »

وقال فى صحيفة ١٧ ومابعدها مانصه : « لا يمكن القوانين الانسانية أن تكون أساسا لقانون الأخلاق لأنها تستمدّ منه ، وهو الذى يقضى عليها و يدينها حينما تنحرف عن جادّة أوامره الواجبة الاتباع ، كذلك التربية التى يتحدّى بها بعض الفلاسفة لا تفسر قانون الأخلاق الذى هو أكبر سلطانا عليها من القوانين العمومية ، والواقع أن التربية مهما كانت ممتازة فليس لها من صورة إلا التشريع المسنون للطفل بدلا من أن يكون مسنونا للناس ، وهذا التشريع الضيق ليس له قواعد إلا التشاريع المدنية ، فمن أى ناحية نظر الى علم الأخلاق لم يوبعد له من حيث أصله أثر بشرى ، وانه ليدبر شئون الانسان ويلى أمره بسبب أنه ليس من عمله ، ومتى أراد الانسان أن يدرس فيه سبل الله عرف منه بوضوح وجلاء أن الله قدير وأن الله لطيف .

« فى العالم المادّى بأسره مهما كان جيلا ومهما كان منتظما لا يجد المشاهد اليقظ شيئا يؤتينا أقل فكرة من قانون الأخلاق ، وان الآثار التى نصادفها أحيانا عند الحيوانات الأرقى تركيبا ونظنها آثارا لقانون الأخلاق ليست إلا تخيلات فاننا نعبرها ماتحن عليه ، نفترض أن لها طبعنا إما لجهل منا قد يكون إثما متى كان يرمى إلى الخفض من مستوانا الانسانى ، واما لنوع من العطف التافه ، ولكن الحق أن قانون الأخلاق ليس له محل

إلا

إلا قلب الانسان ، وأن الذى خلق العوالم والقوانين الأزلية التى تسيرها لم يخلق شيئاً يضارع ضميرنا فى العظم فان الحرية مع مابها من ضعف هى أحسن من الطبيعة كلها مع مابها من ثبات لايتزعزع ، بل إن المقارنة لامحل لها من الامكان لدى عقل قد فهم ذاته ، لأنها مقارنة سخيفة ، إذ أن رفعة العالم المعنوى لاتقاس بها رفعة على الاطلاق وأن قدرة الله تظهر حينئذ فينا بمظهر أجلى من مظاهرها فى الخارج ، وان فى إقامة الدليل على وجود الله بهذا القانون الذى نحمله فى قلوبنا وتعترف به عقولنا لبلوغا بالاستدلال الى أجلّ البراهين وأرفعها ، غير أن حلم الله يساوى على الأقل قدرته ، تنظر فى هذه القوانين غير الكاملة التى يسنها الناس مسوقين بدافع الحاجة لاستعمالها ، فترى دائماً فى أوامرها وزواجرها شيئاً من الغلظة والوحشية ، حتى متى كانت غاية فى العدل فان العقوبة التى تقع على المجرم يمكن أن تعدمه ولكنها لاتمس نفسه تخيفه من غير أن تصلحه ، الارهاب يحوله دون أن يحسن حاله ، أماهنا فلاشىء من ذلك ، فى شرع الله المرء هو قاضى نفسه مؤقتاً على الأقل ، ومن أجل أنه يمكن أن يحكم على نفسه يمكنه أيضا أن يتقى الوقوع فى الخطيئة التى يشعر بأنها كبيرة من الكبائر ، فان الصوت الذى يناجيه من داخل نفسه قد أنذره بادىء الأمر إنه يمحض له النصح قبل أن يقرّعه باللوم وانما هو يعاقبه حينما يصمّ أذنيه ، ولوأن قانون الأخلاق سلك فى التأديب سبلا غير معنوية محضة لكان فى ذلك من التناقض مافيه ، فكم فى هذا التأديب من مجاملة تراعى فى حق الجانى ! وكم من مجهود ينفق فى سبيل ردّه الى الخير ولايشعر بهذا المجهود أحد إلا هو ولايذاع خبره فى الخارج ! تحفظ ورصانة أيما رصانة ، ولاشكّ فى أن الانسان يجاوز غير مرة حدود الاعتداد بهذه الرحمة ، غير أن الشكوى منها إنما هى الجمع بين كفران النعمة وسوء الخلق . حسب الانسان استهانة برحمة الله أنه لاينتفع بها فان كل قلب مهما قسا يعجب بها و يشكر الشارع الأسمى على لطفه فى جانب عظيم قدرته

« إليك نتيجة أخرى لهذا النظام القدسى ليست أقلّ من الأولى صدقاً ولا أخفّ منها وزناً . وهى أن الانسان متى أحسّ من نفسه الاختيار فى طاعة قانون العقل أوفى عصيانه أحسّ بذلك أنه مسئول عن أعماله أمام القدير الصانع لهذا القانون ولهذا الاختيار ، فليس عليه البتة أن يخافه الخوف الذى لايليق إلا بالعبد ، لأن طبيعة طاعته قد تجعله يعامل أبا رحيما لاسيدا ، لكنه يجب أن يتقى غضبه عليه بتعدى حدود القانون الذى يعترف هو نفسه به أنه غاية فى العدل ، ولئن كان الانسان يغضب فى قلبه من الخطيئة التى وقع فيها ، فن باب أولى يجب أن يعتقد أن الشارع يغضب على من يرتكب الخطيئة وهو فى مكنة من اجتنابها ، وان الانسان الذى له بقانون الأخلاق فى هذه الدنيا حظ ممتاز يجب عليه أن يؤدّى الحساب عما يكون قد أنفق فيه هذا الحظ ، ليس عليه حساب لأمثاله ، لأن غاية مايعرفون هى أعماله التى يعاقبونه عليها أحيانا ولأنهم رعية مثله فاهم وهو إلا على حدّ سواء ، لايستطيعون أن يكونوا قضاته الحقيقيين ، لأنه يعزب عن علمهم ماتجيش به الصدور من نيات جميع الأفعال ومقاصدها ، على أن النيات والمقاصد وعلى جملة من القول كل ماعنى بحكم الضرورة على العدل الإنسانى هو مورد الحكم ، فاما أن تنكر قانون الأخلاق وحرّية الانسان ومسئوليته ، واما أن تقبل كنتيجة لازمة حياة أخرى تتلوهذه الحياة الدنيا فيها يقيم الله الوزن بالقسط و يرتب الجزاء الذى أعده للذين عملوا الصالحات وللذين كسبوا السيئات ثوابا وعقابا تفرّد وحده بعلمهما . غير أن علم الأخلاق لايتعدّى حدوده اذا هو قرّر أن هذا العدل النهائى لامحالة واجب وأن حياة الانسان الدنيا لايمكن أن تفهم بدون الحياة الأخرى التى يجب أن تتلوها »

الى أن قال : « فعلم الأخلاق بمجاوزته هذه الحياة الأرضية يتجه من الانسان الى الله ، ويثبت وجود الحياة الآخرة بما فيها من الثواب والعقاب كما يؤكد نظام هذه الحياة الدنيا . ليست هذه فروضا محضة لاسند لها . ولاهى من مسلمات العقل العملى كما قد يقول الاستاذ (كنت) بلهجته الشاذة ، بل هى نتائج صادقة

لازمة عن مقدمات صادقة لاجدال فيها . وفوق ذلك فان هذه النظريات فى غاية الوفاق مع الاعتقادات الغريزية للجنس البشرى تؤيدها البيانات المبينة وتوضحها الفلسفة »

وقال فى صحيفة ٢٢ من المقدمة مانصه : « تحمل الجسم على الاعتدال ورياضته الى حد ما وإيتاؤه حقه من حاجاته وحبسه عن كل مايتعداها ، وعلى جملة من القول جعل الجسم آلة ممتثلة وخادما مطيعا ، تلك هى إحدى القواعد الأصلية للحياة الأخلاقية وبالنتيجة أحد الأجزاء الكبرى للعلم . إن اجتماع الروح والجسم أعنى العقل والمادة هو مسألة خفية ليس لعلم الأخلاق أن يثير ثائرها لاختصاصها بعلم ماوراء الطبيعة . غير أن من واجبه أن يبحث عن ظروف هذا الاجتماع ويفسرها على نور القانون ، إنما هو عمل يدرسه كأعمال الضمير وليس بأقل أهمية منها فاغفاله نقص عظيم وحذفه من علم الأخلاق قد يعرّض الى عدم فهم الحياة الأخلاقية حق فهمها مع أن هذه الحياة الأخلاقية ليست فى الحقيقة إلا ضربا من المبارزة بين هذين الأصلين المتقابلين »

وقال فى صحيفة (٢٤) ومابعدها من المقدمة أيضا مانصه : « إن النقطة الأساسية لهذا العلم هى أنه يبين للانسان أن قانونه هو عمل الخير دائما مهما وقف فى طريقه من العقبات التى بسببها تعقد الأشياء الانسانية ، وأن عمل الخير إنما هو طاعة لامحدودة ولامقرونة بالتفحص مع استسلام ، بل مع ثبات وبسالة اذا اقتضى الحال ذلك طاعة لأوامر العقل المنشورة فى الضمير والتى قبلتها إرادة لها من سلامة القياد مالها من حدة الذكاء ، الأوامر التى يمكن أن تمثل أمام الشخص بأنها أوامر الله . ذلك هو مركز الحياة كما هو مركز العلم ولكنه مع ذلك أيضا ميدان التقاتل فى النظريات وفى العمليات . فان الفرد يأتى الشرّ على العموم إما عن عدم التفات وإما عن جهل ولا يكاد يقارف الاثم أبدا بعد تدبر وروية عالما بأنه يرتكبه ، وان كان من الطبائع ماهو من الشقاوة بحيث إن أجل مواهبها لاتخدم إلا الرذيلة . غير أنه فى العلم لاعذر بالجهل ولا بعدم الالتفات . واذا كان التسامح فى ماجريات الحياة يلزم كثيرا حتى بالنسبة للجناة فانه لايلزم أبدا بالنسبة للنظريات الفاسدة بل يجب دحضها بلاشفقة وإيضاح خطئها ليقلّ خطرها وتجب مداعاتها أمام محكمة الضمير النزيهة وادانتها نهائيا بلا استئناف ، وليس بجانب نظرية الخير الذى هو الواجب الوحيد على الانسان إلا محل آخر ممكن وهو نظرية المنفعة مع مايقترن بها من التيه والحنايا التى تتشعب فيها شخصيتها وتضلّ طريقها فان المنفعة تظهر على صور عديدة ، تظهر أولا على صورة من الخشونة بمكان ، وتلك الصورة هى الثروة مع كل الخيرات الثانوية التى تؤلفها ثم على صورة مصقولة نوعا وهى صورة اللذة مع جواذبها التى لاتقاوم ثم على صورة أقلّ تعينا وأكثر قبولا تبدو فى رواء حسن خدّاع وهى السعادة . إنه يجب على القانون الأخلاقى وبالنتيجة أيضا على علم الأخلاق أن ينكر المنفعة ويحاربها على أى شكل كانت عليه من الثروة أو من اللذة أو من السعادة نفسها وأن لايقبل أى واحد من هذه العوامل على أنه عامل لسلوك الانسان ، لاشكّ فى أن هذه العوامل هى المتسلطة فعلا فى الغالب بل قد يكون من الحسن أن تتسلط الى حدّ معين ، ولكن ليس لواحد منها أن يدعى السلطة ولأن يغتصب لنفسه السيادة دون مبدأ الخير صاحب السيادة وحده . إن قانون الأخلاق الذى تمثله القلوب الجاهلة أو الضعيفة بألوان قاسية ، هكذا لكى تسهل مخالفته لايحرم الانسان من الثروة التى هى ثمرة عادية يستحقها لعمله ولامن اللذة وهى حاجة طبيعية له ، ولامن السعادة التى هى رائد جميع مجهوداته ، ولكنه يهديه الى أنه يجب عليه فى بعض الحالات على ندرتها أن يضحى للخير بالثروة وباللذائذ وبالسعادة بل بالحياة ذاتها ، وأنه اذا لم يعرف أن يقرب هذا القربان فانما هو يعبد الأصنام ولايعبد الله الحق ، وأن هذه التضحيات على ندرتها عند الذى يفهمها تكفى لكشف القناع عن قانون الأخلاق فى أسنى بهائه . وبما أن الخير هو الذى ينال الظفر عند أكبر المنازعات وأشدها علانية يكون بذلك هو السيد الحقيقى للانسان . ولاتكون جميع العوامل الأخرى المتولدة عن المنفعة على درجات مختلفة كالثروة واللذة والسعادة إلا كما يكون الطاغية الظالم لرعيته » انتهى

ما

ماأردته من مقدمة المترجم لكتاب «علم الأخلاق» وهو الاستاذ بارتلمى سانتهلير والحمد لله رب العالمين
فلما ألقيت عليها ذلك . قالت : فهذه أنوارنا ألقيت إليكم وأنا أهنيك بها إذ تطلع المسلمين على خلاصات علم الأخلاق فتشرح صدورهم وبها تعلمون أن حكماء أمم الشرق والغرب يجمعون على فحوى هذه الآيات القرآنية . فعلماء اليونان والفرنسيين وحكماء الصين جميعا أيقنوا بأن لهم داعيا فى نفوسهم يحاسبهم اذا قصروا ويبشرهم اذا أطاعوا وبهذا يعرف الناس عظمة القرآن ، وهذا الزمان مبدأ ظهوره لحكماء الأمم شرقا وغربا ، فهذه هى آثارى ، أنا البصيرة والقرآن بصائر للناس . فهذه المقالات التى قرأتها علىّ من هؤلاء الحكماء هى آرائى وهذا الجمال الذى شاهدته فىّ وراءه ماهو أجمل منه ، وهنالك مالاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ولن يرى الله إلا نفوس حازت صفتين : علما كاملا بهذا الوجود . واخلاصا وخدمة لنوع الانسان مع أخلاق كاملة . الجمال يحيط بالناس فى المادّة وفى النفوس . وما أسعد من اعتاد النظافة والاتساق والنظام ودرس فنون الجمال فى الكواكب والبحار والأنهار والزروع والأشجار . فهذه المناظر كلما ازدادت عنده تمكنا ازدادت نفسه شغفا بالجمال الحقيقى . وهنالك يشتاق للذات الروحية وهى أبهى وأبهر وأجمل وأكمل .
وهذه الطائفة أقرب الناس الى طبيعتى فاذا أسديت لهم النصائح استمعوا لها بلا توان . لقد شاهدت فى قلبك أنت «ثلاث صفحات مكتوبات» صحيفة الكواكب فى سمائها . وصحيفة الزروع والأنهار والأشجار والعوالم الأرضية . وصحيفة آراء العلماء والحكماء قديما وحديثا ، فاقرأ علىّ من صحيفة الحكماء مامنه يكون القبس ثم تبسمت ، وهذه الابتسامة إشارة الى قوله تعالى — وهل أتاك حديث موسى إذ رأى نارا فقال لأهله امكثوا إنى آنست نارا لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى — (وقد كنت فى الليلة السابقة أردّدها فى الصلاة ولها صلة بآراء الفلاسفة سأوضحها) . فأسمعنى من اللوحة الثالثة من قلبك آراء حكماء بعد من ذكروا الآن ومتى أتبعته بالقبس يتضح المقام أتمّ إيضاح . فقلت :

آراء الحكماء بعد أرسطاطاليس

«أوّلا» آراء أتباعه مثل (ثاوفرسطس) المتوفى سنة ٢٧٨ واستراتون المولود سنة ٢٨٨ المجهولة وفاته وغيرهم ممن كانوا خلف أرسطو فى رئاسة دار التعليم بأثينا ، فهؤلاء عدلوا عن الإلهيات ، ذلك لأن أرسطو اعترض على أفلاطون أستاذه وقال له : «إن المثل التى استدللت عليها بأدلتك العقلية وقلت انها معان معقولة تكون أصلا لكل موجود فى الخارج غير واضحة ولا ظاهرة هى خفية ، وخبرنا أن نبدلها بما هو خير منها من المادة والصورة وانهما أصل العلم لأن الصورة فى المادة أقرب الى الفهم من تلك المثل والمعانى التى لانعرفها»
فردّ هؤلاء العلماء التابعون لأرسطاطاليس قوله وقالوا : «إن الصورة متغيرة لاثبات لها فى المادّة ، فكيف نسند العلم الى ماهو متغير!» وأدلة كثيرة من هذا القبيل أوجبت رجوعهم عن الالهيات
«ثانيا» هنالك ظهرت فرقتان : فرقة (أبيقورس) وهؤلاء قالوا باللذة أى ان الانسان يقرأ الفلسفة لأجل اللذة المستفادة من فهمها ، وهو مولود سنة ٣٤١ ق.م ومات سنة ٢٧٠ ق.م . وفرقة الرواقيين ورئيسهم زينون توفى سنة ٢٦٤ ق.م وكريزيبوس المتوفى سنة ٢٠٩ ق.م ومذهبهم انه ليس هناك إلا جوهر واحد هو المادة والله يلقى عليها شعاع نوره ، والالهيات والطبيعيات عندهم علم واحد . فهناك عقل يضبط المادة ألطف جدا له قوّة تحرّك العالم . فالعالم كحيوان وهو روحه . والانسان عالم صغير فى مقابل العالم الكبير . والانسان له من ذلك النور الالهى أكثر من غيره . والأخلاق عندهم عليها مدار الفلسفة . واذا كان نور الله مشرقا على الانسان أكثر من غيره وجب عليه أن يتلقى ذلك بالترحاب . وهل يكون ذلك إلا

بالأخلاق الشريفة . وما الفلسفة إلا بستان المنطق سياجه وعلوم الطبيعة أشجاره ومحاسن الأخلاق ثمرته . فلاعلم إلا بعمل ولاحكيم إلا من بلغ من العلم والعمل الدرجة العليا . ولاقصد للحياة إلا التخلق بأخلاق الله ولكنهم جعلوا الانسان مجبورا لامختارا فصارمذهبهم فيه بعض الانقباض . وأيضا رجعوا الى غيبوبة النفوس وأهملوا الأعمال الظاهرة نوعا ما وأخذوا يبحثون فى معرفة ماوراء الحس والكشف . وتبعهم فى ذلك بعض الأمم الاسلامية وهم كثير من فرق المتصوفة . ولم يحدث بعد هاتين الطائفتين ارتقاء فى العلم هناك

(٣) ثم جاء فى أواخر القرن الثانى للمسيح أمثال (نيقوماخس الجهرسينى) الذى عاش الى سنة ١٤٠ بعد المسيح القائل بأن الأعداد هى أصول الموجودات وهو صاحب كتاب الارتماطيق ومن فلاسفة هذا العصر جالينوس الطبيب . ولقد ظهر بالاسكندرية إذ ذاك (امونيوس سكاس) ومعنى سكاس (الحمال) لأنه كان فى أول نشأته يحترف بتلك الحرفة وكان نصرانى الأصل ثم انتقل الى ملة اليونان العتيقة وهى الوثنية وتعاطى الفلسفة واشتهر فيها . وقد ولد سنة ١٧٥ بعد الميلاد وتوفى سنة ٢٤٢ وجاء بعده تلميذه أفلوطين المتوفى سنة ٢٦٩ ب.م وبعد أفلوطين تلميذه بروفيريوس ولد بصور الشام سنة ٢٣٣ ب.م وتوفى سنة ٣٠٤ ب.م وهؤلاء ومن تبعهم يسمون الفرع الاسكندرى . وبعدهم يبليخوس ومن تبعه ويسمى الفرع الشامى إشارة الى مولد يبليخوس إذ كان باحدى بلادالشام وتوفى سنة ٣٣٢ ب.م ثم سريانوس وبرقلس ومن تبعهم وهم يسمون الفرع الأثينى لكون دار التعليم إذ ذاك قد انتقلت الى اثينا . ولد بروقلس سنة ٤١١م وتوفى سنة ٤٨٥ م كل هذا من كلام (ستلانه التليانى) فى كتابه (تاريخ الفلسفة) والى هنا انتهى دور اليونان ومن تبعهم

فهذه أمم خلت ثم جاء الاسلام وكان عصر الصحابة رضى الله تعالى عنهم وبنى أمية . ويحسن أن نذكر هنا نبذة من كتاب «مبادىء الفلسفة» المترجم من اللغة الانجليزية بقلم الاستاذ أحمد أمين فى الكلام على عصر العباسيين فقد جاء فيه مايأتى :

فلما جاءت الدولة العباسية «١٣٢ - ٦٥٦ هـ» عظمت حضارة المسلمين ، وهضموا ماأخذوه (بالفتح) عن الفرس والروم والهند ، ونقلوا علوم الأمم التى سبقتهم فى المدنية ولاسيما الهند واليونان . وفى زمن أبى جعفر المنصور والرشيد والمأمون ومن بعدهم ، ولاسيما المأمون توسع الناس وخاصة السريانيين (فى ترجمة علوم اليونان على اختلاف أنواعها : من طب وهندسة وهيئة وتقويم بلدان ، وفلسفة بفروعها المختلفة من طبيعيات وإلهيات ومنطق ونفس وسياسة وأخلاق) الى اللغة العربية فترجموا فى القرن الثانى والثالث للهجرة كتب أفلاطون وأرسطو وأقليدس وبطليموس وجالينوس وغيرهم ، وبحثوا فيها وتداولوها يشرحونها مرة ويختصرونها أخرى ، وخصص كثير من المسلمين حياتهم لدراسة الفلسفة وتفهمها فكانوا بعد فلاسفة

وكان أغلب مؤسسى الفلسفة عند العرب ومؤيديها أطباء وعلماء فى الطبيعيات أكثرمنهم رجال دين ، وعلى العكس من ذلك فلاسفة الغرب فى القرون الوسطى فقد كان أكثرهم قساوسة . ولهذا لم يقصر المسلمون نظرهم على الالهيات بل كان البحث فى الطب القديم والعلوم الطبيعية عندهم يسير جنبا لجنب مع البحث فى الالهيات وماوراء الطبيعة ، وترجموا كلام جالينوس فى الطب وأقليدس فى الهندسة كما ترجموا كلام أرسطو فى الالهيات (١)

غير أنه يظهر أن ماابتكروه من عند أنفسهم قليل اذاقيس بما نقلوه من اليونان ، نعم انهم فى بعض فروع العلم كالكيمياء وعلم المعادن والطب وعلم وظائف الأعضاء كان لهم أثر ظاهر ، واستكشفوا من القوانين مالم يصل اليها اليونان قبلهم ، ولكنهم فى غير ذلك من فروع العلم كالمنطق والنفس والأخلاق كانوا نقلة أكثر

(١) انظر فندلبند صفحة ٣١٦

منهم مبتكرين ، وكانوا فى طريقتهم العلمية ونظامهم فى البحث وأنظارهم الى العالم وترتيب فلسفتهم وقواعدهم متأثرين تأثرا عظيما بفلسفة أرسطو والافلاطونية الحديثة

ولهم الفضل على الغرب بكل مما نقلوا أو ابتكروا ، فكثير من كتب اليونان وأبحاثهم ما كان يصل اليها الغربيون لولا حفظ العرب لها ودراستهم إياها . كما أن كثيرا من مبتكراتهم واختراعاتهم تعد (بحق) من أسس المدنية الغربية

ابتدأ المسلمون لأول عهدهم بالفلسفة يدرسون الفلسفة « الافلاطونية الحديثة » (وهي مذهب مزيج من الفلسفة والدين ظهر فى أواخر القرن الثانى للميلاد ، وكان مقره الأصلى الأسكندرية ، حاول مؤسسوه التأليف بين الدين المسيحى والمذاهب الشرقية ومذاهب اليونان ولا سيما أفلاطون وأطلق عليه « فلسفة أفلاطون الحديثة » ومن أشهر دعاته (أفلوطين) ولد فى مصر سنة ٢٠٤ م قيل انه رحل الى فارس ودرس الفلسفة الشرقية وعلم فى رومة من سنة ٢٤٤ م ومات نحو سنة ٢٦٤ وكانت تعاليمه مزيجا من الفلسفة العلمية والتصوف الدينى) والذى دعا المسلمين الى اعتناقهم هذا الضرب من الفلسفة انها كانت فاشية لعهدهم فى الشام وأنها مصبوغة بالصبغة الدينية ، ثم ارتقوا منها الى النظر فى فلسفة أفلاطون وارسطو ، ولكن كانت قد غلبت عليهم فلسفة أفلاطون الحديثة ، فلما أن نظروا بعد فى فلسفة أفلاطون وأرسطو نظروا اليها بعيون متأثرة بالأفلاطونية الحديثة

وأول من اشتهر من المسلمين بالفلسفة يعقوب الكندى و يلقب (بفيلسوف العرب) لأنه عربى صميم تبحر فى الفلسفة . وقد كان تابعا للافلاطونية الحديثة وتعاليم أرسطو أكثر منه فيلسوفا مستقلا . وأكثر ماله من الفضل جاء من ناحية الترجمة والنقل ، وقد ظهر له فى عهد المأمون والمعتصم كتب كثيرة بعضها ترجمة و بعضها تأليف وصل الينا من أسمائها نحو ٢٥٦ كتابا عدها صاحب أخبار الحكماء ، وفهرست ابن النديم ومات نحو سنة ٢٦٠ هجرية

وجاء بعده أبو نصر الفارابى المتوفى سنة ٣٣٤ هـ عاش تحت كنف سيف الدولة بن حمدان وكان يعرف لغات كثيرة و برز فى الموسيقى والرياضيات وعلم اللغة والفلسفة ، درس فلسفة اليونان ومهر فيها ، وقد كان كالكندى تابعا للأفلاطونية الحديثة (وان لم يعرف هو هذا الاسم) وتعاليم أرسطو ، وكان معشوقه من فلاسفة اليونان أرسطو حتى قيل إنه وجد (كتاب النفس) لأرسطو وعليه بخط الفارابى (إنى قرأت هذا الكتاب مائة مرة) وقد لقب بالمعلم الثانى (والمعلم الأول هو أرسطو) لحله معميات الفلسفة اليونانية ، وكان الفارابى كسائر فلاسفة المسلمين يرون أن الاسلام من قرآن وسنة حق . وأن الفلسفة حق ، والحق لا يتعدد فوجب أن يكون الفلسفة والاسلام متفقين . غير أنه يؤخذ على فلاسفة الاسلام أنهم لم ينظروا الى الفلسفة اليونانية (كما كان ينبغى أن ينظروا اليها) من أنها مجموعة أقوال ومذاهب قد يناقض بعضها بعضا . وأن ما يذهب اليه أرسطو فى مسألة قد يكون مناقضا لما يذهب اليه أفلاطون فيها ، بل نظروا اليها كأنها حقيقة واحدة ملتئمة ، وقالوا ان أفلاطون قد يختلف مع أرسطو فى طريقة البحث أو التعبير عن المقصد ولكن آراءهما فى الفلسفة واحدة ، ووصلت اليهم تعاليم أفلاطون كما حكاها فورفريوس (وهو من أصحاب مذهب الافلاطونية الحديثة) وتعاليم أرسطو كما حكاها متأخرو المشائين ودخل عليهم فيما نقل اليهم من فلسفة اليونان ، ولا سيما فلسفة أرسطو ، خلط وتشويش . يدل على ذلك أنه فى زمن المعتصم ترجم أحمد نصارى لبنان جزءا من أتيته أفلوطين الى العربية وسماه (لاهوت أرسطو) وتلقى المسلمون كل ذلك بالقبول ، وعدوا أقوال الفلاسفة المختلفة شرحا لحقيقة واحدة فبذلوا جهدا عظيما فى التوفيق بين أقوال أفلاطون وأرسطو ، وزادوا عليهما للتدين (القرآن) وهذا ما فعل الفارابى ، فقد كان مؤمنا بأقوال أرسطو وأفلاطون منزها القرآن عن الخطأ ، فرح

اللوح والقلم والكرسي والعرش والملائكة والسموات السبع بتعاليم اليونانيين الوثنيين مع مابين أجزائها من التناقض ، ومحاولة ذلك تستدعي ذكاء نادرا وتصوفا و (كشفا) وغموضا وسبحا في الخيال

وبحث الفارابي كذلك في السياسة في كتابه (آراء أهل المدينة الفاضلة) واختار من أشكال الحكومة الحكومة الملكية الدينية ومزج في هذا الكتاب بين آراء أفلاطون في (الجمهورية) و بين أقوال الشيعة في الامام المعصوم اذ كان سيف الدولة بن حمدان مقرب الفارابي وحاميه شيعيا

وممن لهم أثر كبير في الفلسفة الاسلامية جمعية شبه سرية تسمى (اخوان الصفا) اجتمعت في البصرة نحو منتصف القرن الرابع للهجرة ودعاهم الى جعلها سرية كره عامة الناس وعامة المتدينين للفلسفة ومن اشتغل بها ومحاولتهم ايقاع الأذى بالفلاسفة ، وقد عد القفطي في أخبار الحكماء أسماء خمسة من أعضائها وكان قصدهم نشر المعارف بين المتعلمين في جميع الأقطار الاسلامية وتغيير أفكارهم الدينية والعلمية . قالوا (ان الشريعة قد دنست بالجهالات ، واختلطت بالضلالات ، ولاسبيل الى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة ، لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية . وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال (١) فألفوا احدى وخمسين رسالة ضمنوها خلاصة أنواع العلوم المعروفة لعهدهم فهي (دائرة معارف) تشتمل على معارف العرب اذ ذاك باختصار ، قالوا في أول هذه الرسائل : ان الحكماء والفلاسفة الذين كانوا قبل الاسلام تكلموا في علم النفس ولكنهم لما طولوا الخطب فيها ، ونقلها من لغة الى لغة من لم يكن قد فهم معانيها ، حرفها وغيرها حتى انغلق على الناظر فيها فهم معانيها ، ونحن قد أخذنا لب معانيها وأقصى أغراضهم فيها وأوردناها بأوجز مايمكن من الألفاظ والاختصار في إحدى وخمسين رسالة اه)

وكانت تعاليمهم فيها كذلك مزيجا من أبحاث (الافلاطونية الحديثة) والتصوف وماقاله ارسطو في العلوم الطبيعية وماقاله الفيثاغوريون في العدد (الرياضة) وقد كان لها أثر كبير في العقول بانتشارها بين الناس ولكن فيها من الخلط والتشويش ماذكر قبل . وقد ظن بعض الباحثين أن هذه الجمعية جمعية باطنية (اسماعيلية) لما بين مايجيء فيها أحيانا و بين تعاليم الباطنية من التطابق ، وقد عثر المغول عند فتحهم قلعة الموت (وكانت في يد الاسماعيلية) على كثير من نسخ الكتاب

وكان لأبي علي بن سينا البخاري (٣٧٠ - ٤٢٨) شهرة فائقة في الفلسفة ، وفلسفته تقرب من الفلسفة الارسطالية الصرفة ، وربما كانت أقرب فلسفات المسلمين اليها ، وكتابه (القانون) كان العمدة في الطب في القرون الوسطى عند الشرقيين والغربيين معا وله فضل كبير في نشر الفلسفة بين الناس بمؤلفاته العديدة ولاسيما الالهيات والمنطق . هذا الى كثير من أمثال هؤلاء الفلاسفة كالبيروني وابن مسكويه وابن الهيثم

وقد كان انتشار الفلسفة بين المسلمين في القرن الثالث والرابع والخامس للهجرة سببا في حركة جديدة قام بها المتكلمون (علماء الكلام) يريدون بها مقاومة تعاليم أرسطو وأفلاطون والافلاطونية الحديثة المتعلقة بالالهيات أو الردعليها ودحضها فنشأ من ذلك أبحاث كلامية كثيرة فبحثوا في العلة والمعلول والزمان والمكان والحركة والسكون والجوهر الفرد والدور والتسلسل ونحوها ، ولم تكن ردودهم موجهة الى الفلاسفة فحسب بل الى كل من خالف سنتهم من معتزلة وزنادقة وفلاسفة وظاهرية وحنابلة ، ومن أعلام هذه الطريقة أبوالحسن الأشعري وامام الحرمين والباقلاني ، ولكن أحدا منهم لم يخص الفلسفة بالطعن ولارد عليها من جميع جهاتها حتى جاء الغزالي (٤٠٥ - ٥٠٥ هـ) فدرس الفلسفة اليونانية درسا دقيقا (كما حدث هو عن نفسه) ، ثم حمل عليها حملة شديدة من جميع جهاتها وألف في ذلك كتابه المشهور (تهافت الفلاسفة) وكفر الفلاسفة لبعض تعاليمهم ، وأظهر منافاة الفلسفة لتعاليم الدين ، ودعا الناس الى الرجوع الى دينهم الصحيح الخالي من الفلسفة

(١) أخبار الحكماء

ودعب

ورغب في التصوف وأبان أنه الطريق الحق الى الله ، وكان بليغا في قوله مخلصا في حديثه سهل العبارة قوي الحجة ، فأثر ذلك في المسلمين أثرا كبيرا ، وكان من آثاره أن حول الناس عن الاشتغال بالفلسفة ، ورجعهم الى الكتاب والسنة ، وأعلى شأن التصوف والصوفية وحبب ذلك الى الناس . وسار على طريقة الغزالي كثيرون من بعده

هذا مجمل حال الفلسفة في الشرق ، أما في الغرب أعني في الأندلس وشمالي افريقية فقد أظهرت الفلسفة (حينا) أكثر من أزهارها في الشرق . وكان فلاسفة الأندلس والمغرب أكثر ابتكارا من فلاسفة المشرق ، وكان يندر بين مسلمي الاندلس الخلاف في العقائد والمذاهب كالذي كان عند المشارقة ، فكلهم الا القليل مالكي سني ، أخذوا الفلسفة عن أهل المشرق فقد كان منهم رحل اليه رحلوا عن طريق القاهرة وأمعنوا في الرحلة حتى الى فارس وانتفعوا بعلومهم ، وجاء الحكم الثاني ٣٥٠ - ٣٩٦ ﻫ فبعث في شراء الكتب الى الأقطار رجالا من التجار جمعوا اليه كتبا جمة ، فاشتغل الاندلسيون بالرياضة والعلوم الطبيعية والتنجيم والطب بعد أن نقلت اليهم كتب الفارابي ورسائل اخوان الصفا وطب ابن سينا . وقد تعاون المسلمون واليهود معا على الاشتغال بالفلسفة في الأندلس . ولم يلبث أن نبغ منهم كثيرون . مع مقاومة العامة وأشياعهم مقاومة أشد من مقاومة المشارقة

ومن أشهرهم (١) ابن باجه وقد اتبع تعاليم الفارابي (٢) وأبو بكر بن طفيل (مات سنة ٥٣١) وصل الينا من تآليفه رواية (حي بن يقظان) وكان بطلها (حي) يعيش في جزيرة لا يسكنها أحد من الناس وليس له علاقة بأحد من أهل الجزائر الأخرى . بحث بعقله بحثا منطقيا متدرجا من البسيط الى المركب حتى وصل الاعتقاد بالله . وغرضه فيها أن يبين أن الشرع يتفق مع العقل . وقد ترجمت الى اللاتينية وظهرت سنة ١٦٧١ م وسنة ١٧٠٠ ولم يمض على ظهورها عشرون سنة حتى ظهرت رواية روبنصو كروسو [١] و (٣) ابن رشد وهو أشهر فلاسفة الاندلس على الاطلاق (٥٢٠ - ٥٩٥) كان يعد أرسطو أكبر الفلاسفة . وقد شرح تعاليمه حسبما وصلت اليه . ودافع عن الفلسفة وألف كتابه (تهافت التهافت) ردا على الغزالي في طعنه على الفلسفة ، وأبان في كتب أخرى أن الفلسفة لا تناقض الدين . وألف في ذلك كتابا صغيرا سماه (فصل المقال فيما بين الشريعة والفلسفة من الاتصال) وأكثر مؤلفاته لا توجد بالعربية وانما موجود ترجمتها . من ذلك شرح أقوال أرسطو مع الرد على الغزالي رتبت وطبعت باللاتينية في البندقية سنة ١٥٦٠ م في أحد عشر مجلدا . وترجم له كتاب في الطب طبع كذلك في البندقية . وله كثير من المؤلفات مترجم الى اللغة العبرانية . وكان لفلسفته شهرة في الكنائس والمدارس الأوروبية منذ القرن الثالث عشر الميلادي (السابع الهجري)

وبانتهاء القرن السادس الهجري تقريبا وقف المسلمون عن البحث الفلسفي والنظر في العلوم الكونية . ولم يكن العلم الا نقلا . فالمؤلف ينقل عمن قبله فحسب ، حتى لا نكاد نجد في كتاب جملة ذات معنى جديد ، والمعلم انما يعلم ما سمع من أساتذته ، والاختلاف الذي يظهر بينهم انما هو اختلاف في الشكل لا في الجوهر (وليس هنا مجال للبحث في أسباب ذلك) ولم ينبغ منهم نابغ مبتكر ذو شخصية ظاهرة الا ابن خلدون (المتوفى سنة ٨٠٨ ﻫ) فانه باجماع الشرقيين وكثير من الغربيين مخترع فلسفة التاريخ أو علم الاجتماع ، وأكبر الباحثين فيه في الشرق والغرب الى القرن التاسع عشر الميلادي ، فبحث في (أحوال العمران ، في الملك والكسب والعلوم والصنائع بوجوه برهانية) وكما قال هو في مقدمة كتابه ان كثيرا قبله حوموا على الغرض ولم يصادفوه ولا تحققوا قصده ولا استوفوا مسائله (وأمل ممن يأتي بعده أن يستمروا في البحث ويضعوا ما فاته من المسائل وقد تحققت أغراض ابن خلدون ولكن لم يكن الذي حققها هم المسلمين بل أوجست كومت وسبنسر وأمثالهما

(١) فندلبند - ورواية روبنصن كروسو احدى الروايات الانجليزية الشهيرة لمؤلفها (ديفو) فرض فيها بطل الرواية قد عاش في جزيرة وحده بعد أن كسرت مركبه وأمكن أن يصل بعقله الى كثير من الأمور

(وكما كان ابن خلدون فى هذا الموضوع هو السابق فلم يكن له بين المسلمين لاحق

وأما من عداه فداروا فى دائرة ضيقة وكانت عنايتهم بالمسائل اللفظية تفوق العقلية ، قصروا نظرهم على كتب المتأخرين محدودة لاتبعث شوقا الى علم ولاتهيج العقل الى بحث ، قد ألغزوا فى معانيها وركوا ألفاظها ، فوجه المتعلمون أعظم جهدهم الى حل معمياتها وتفسير أغراضها وقليلا من الجهد (ان كان) الى نفس الموضوع

وكان العلم والفلسفة قد سارا شوطا بعيدا فى الغرب ، والشرق جامد فى مكانه ، وبدأ الشرق يغالب النوم والنوم يغلبه ويصارع الكسل والكسل يصرعه ، حتى أزعجته الحوادث وأقلقت راحته ضوضاء احتكاك الشرق بالغرب ، فانتبه متأخرا وأحس بتأخره ونقصان علمه وضرورة التعلم حتى يستطيع مشاركة غيره فى شؤون الحياة ، وما أحوجه اليوم الى هداة يضيئون له السبيل . ويأخذون بيده فى هذا المعترك العجب . وينقلون اليه زبدة ماوصل اليه الغرب فيمعن النظر فيها ويهضمها بعقله الشرق . ويكوّن له مدنية وعلما تتفق مع ذوقه وجوّه ودينه ــ والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم ــ انتهى من الكتاب المذكور

فلما سمعت ذلك . قالت : لقد أجدت فى اختيار النقل وحسن الاختيار ولكن للكلام بقية لابد من ذكرها . فقلت : وهل بعد ما أجملته قول فى هذا المقام . فقالت : لاتنس انك تفسر قوله تعالى ــ إن الذين قالوا ربنا ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ــ الخ وأن المواضيع هنا ثلاثة : معرفة الله ، والعمل الصالح ، والمكافأة عليه فى الآخرة . وأنت تعلم أن معرفة الله لابد منها أوّلا بطريق علمى حتى يعرف العاقل أنه فى هذه الحياة له مشرف يشرف عليه لا أنه مطلق من كل قيد ومجرّد السماع من الكتب الدينية ليس يكفى العقلاء فوجب عليهم البحث بأنفسهم وماتقدم من تاريخ الفلاسفة إنما هو تمهيد وتوطئة للمقصود ، وهل المقصود إلا تبيان الحقائق واضحة ، أزل الاشكال لجميع الناس ولكل الأمم ، اذكر لهم أمثلة من أنفسهم ، بين اختلاف المذاهب أوّلا فى معرفة الله وفى الأخلاق ، أوضحه إيضاحا تاما ، لاتقصر فى الايضاح . بين آراء الملحدين وآراء الموحدين . وبين آراء من يقول « إن أصل كل شىء هو المادّة وانه لا إله لهذا العالم » . وبين آراء من يقول « إن العالم له إله » وأوضح مذاهبهم . ثم اذكر مذهب من يقول « إن الانسان خلق لمصلحة نفسه وحده » ومن يقول « إن الانسان خلق لمنفعة غيره وأن ذلك سعادته » . وبعد هذا البيان أوضح برهانك أنت بحيث تظهر الحقيقة لكل عاقل فى هذه الأرض لأنك اذا لم تظهر هذه الحقيقة بالبرهان الذى يدركه كل امرىء متوسط العقل من نفسه يبقى الناس حيارى فيقولون من نتبع ؟ أنتبع من يؤمن بالمادة وينفى وجود الإله ؟ أم نتبع من يؤمن بالله وعقلى لايفرق بين البراهين وأيهما هو الحق ؟ أأعمل لنفسى فقط وأترك الناس ؟ أم أعمل للناس وأضحى ببعض مصالحى . فاذا برهنت على الحقيقة فى الأمرين : أمر معرفة الله . ومعرفة العمل الصالح ظهر معنى ــ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ــ ومتى ظهر ذلك المعنى بوجه على صحيح أخرجت العقلاء فى هذه الأرض من حيرتهم وأصبحوا موقنين بالحقائق وهنالك يفهمون معنى ــ تتنزل عليهم الملائكة ــ بسبب الايمان والعمل الصالح بل يصبحون فاهمين هذا التنزل ويحسون به من أنفسهم

فكر فى هذا الموضوع وأنا سأعينك لأنى أطلع على قلبك وأشاهد فيه اللوحتين تتقابلان لوحة الكواكب وأنوارها وجمالها وهى اللوحة الأولى ولوحة آراء العلماء وقد ارتفعت الثانية من أحد طرفيها وتقابلت مع الأولى بهيئة نورية مشرقة واتحاد المناظر السماوية المشرقة مع المعارف القلبية التى هى مزارعى فى القلوب ينجم عنه اليقين وهذا اليقين الذى تحس به الآن وأشاهده فى قلبك بعد امتحانك لآراء أوروبا فى القرون الحديثة سينتقل منه الى قلوب شريفة فى الشرق وفى الغرب وبه يخرج الناس من التخبط والانحلال فى الأخلاق الخالصة وفى السياسة العامة . واعلم أن قولك هذا سيكون له أنصار فى كل مكان . فقلت : إنى منشرح الصدر لما أمرتنى به ولكن المقام يطول . فقالت : ليكن القول مختصرا والمهم هو برهانك أنت عند الفصل

بين

بين علماء الأمم فى العلم النظرى والعملى بعد أن تبين للناس القبس الذى قبسته . فقلت : سأذكر ذلك بغاية الاختصار وليكن فى (ثلاثة فصول * الفصل الأول) فى آراء علماء أوروبا فى الحكمة العلمية والحكمة العملية (الفصل الثانى) فى القبس الذى فى آية — وهل أتاك حديث موسى — الخ لشدة مناسبته لهذا المقام وكيف فهمته فى أثناء الصلاة ليلا (الفصل الثالث) فى تبيان الحقيقة فى الحكمتين العلمية والعملية وبهذا يظهر معنى قوله تعالى هنا — إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا — الخ

الفصل الأول فى آراء علماء أوروبا

فى الحكمة العلمية والحكمة العملية

القائلون بالمادة . والقائلون بالروح . والقائلون بالمادة والروح معا

إن الانسان اذا خلا بنفسه وأخذ يفكر فى هذه الدنيا لايخرج تفكيره عن واحد من ثلاثة لارابع لها . إما أن يقول إن أصل العالم المادة . وإما أن يقول ان أصله الروح . وإما أن يقول ان أصله الروح والمادة معا

(١) ذلك ان كلا منا ينظر فيرى له جسما مركبا من عظم ولحم وعروق وعضلات وشحم ودم وأعضاء مختلفات ، ثم ينظر حوله فيرى الأرض والحجر والشجر والماء فيقول أنا لا أشك أن هذا هو الأول وهذا هو الآخر ، وما هذه الحركات ولا العقول ولا الاحساس إلا نتائج هذه المادة ، وهل الفكر إلا حركات فى المادة كحركات النمو والذبول ، وهل الموت والحياة إلا أحوال تعترى المادة ، وبالتأمل فى تاريخ الفلسفة ترى أن هذا الرأى دائما يكون مبدأ التفكر عند الأمم سواء فى ذلك اليونان والعرب والاوروبيون

(٢) وتارة يقول القائل . كلا . ماهذه المادة ؟ إن هى إلا عدم محض ، وكيف لاتكون عدما محضا وقد عرف الناس اليوم أن العالم لامادة فيه ، وهل المادة إلا وهم وكذب صراح ، من أين جاءت هذه المادة ؟ المادة لم توجد ولن توجد ، نحن لاشىء عندنا سوى الأثير وهو ليس مادة ، والأثير إن هو إلا عالم أشبه بخيالنا لايحس به وإنما أدركته عقولنا ، وهذا الأثير بالحركات المتتابعات فيه المختلفات كثرة وقلة يكون ضوءا وحرارة وشجرا وحجرا وشمسا . فالضوء يحتاج الى حركات فى الثانية من (٤٠٠) مليون مليون الى (٧٠٠) مليون مليون والجوامد تحتاج الى نحو ستة آلاف مليون مليون حركة فى الثانية . هذه هى المادة أولها وآخرها ماهى إلا حركات فى شىء يشبه خيالنا . إذن العقل هو المسيطر على هذا العالم . جسمى والأجسام حولى نتائج حركات ظهرت لحواسنا فسميناها بأسماء مختلفات — إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم — لاغير والافهى لاوجود لها ولادوام

(٣) وتارة يقول الانسان — الحق أحق أن يتبع — إن هنا مادة وروحا تدبرها والعالم كله لم يخرج عن مادة وعن شىء آخر يحركها

هذه هى الصور التى تجول بأفكار الأمم كلها قديما وحديثا . واذا كانت العوالم لاتخرج عن هذه الثلاثة فلاجرم ان اختلفت العقول باختلاف أنظارها . ولأذكرهنا ماكتبته فى كتابى (جوهر التقوى) فى علم الأخلاق وأنا أدرس هذا العلم لطلبة دار العلوم أولا وأتبعه برموز المصريين ورموز الرومانيين فى هذا المعنى

(١) فأما ماكتبته فى ذلك الكتاب فهذا نصه :

تحليل الأخلاق والأمور النفسية

التربية الجسمية

لقد أفضنا فيما سلف فى اثبات النفس ، وأبنا كيف باينت الجسم وان جوهرها أشرف وأعلى وأجل وأغلى

فلنبين فى هذا الفصل امتزاجها بالجسم وعلاقة أحدهما بالآخر وظهور آثار فعله فيه حتى عسر التمييز بينهما ، ودق الفارق على الناظر الحاذق . فتشابها وتشاكل الأمر حتى ضربهما الشاعر مثلا لتزاوج المعنى بالكلم فى قوله

وكم معنى بديع تحت لفظ * هناك مزاوج كل ازدواج

كراح فى زجاج أو كروح * سرت فى جسم معتدل المزاج

ولم يقف أمد تزاوجهما وتعسر التمييز بينهما على خيال الشعراء ، بل تخطى الى أفكار الحكماء فتفرقوا طرائق « وكل حزب بما لديهم فرحون» ففريق أهمل أمر الجسم وعكف على إصلاح النفس وقال ما الانسان إلا نفسه فهى القوامة عليه المدبرة له الحافظة لشكله . الساعية لتنميته تدبر احشاءه وتغذى أعضاءه وتتولى شأنه وان هو الا عناصر مؤلفة وعما قليل يلحقها الردى و يعروها البلى ولقد يموت المرء بكلمة تؤذيه و يفرح و يهش بخبر يسره و يرضيه فالجسم وجوده عدم . وآخرون نبذوا الروح وراءهم ظهريا كأنهم لا يعيشون ، واتبعوا فى سيرهم أمر جسمهم وقالوا ما الانسان الا الجسم وما الروح إلا عرض من أعراضه كسواده و بياضه ولئن لحقه مرض أوألمّ به ألم أونقص أوتلف تعدى للنفس أثره فهو حاملها وحافظها بل جوهرهى عرضه

وجاء قوم آخرون وهم المستبصرون وقالوا بالجوهرين وآمنوا بالزوجين وجمعوا بين الدليلين ونظروا بالعينين فلم يغمطوا الروح حقها ولم يسلبوا الأجسام حظها بل راعوا الجانبين وتربصوا الحسنيين ونظموا إدارة الجسم كما أداروا مملكة الروح وانا لذلك مختارون

لذلك نظمنا جوهر الجسم فى سمط عقد الأخلاق لئلا تبخسه حقه فلا يقولن امرؤ انى اذا هذبت نفسى وجعلتها عنوان درسى كفانى ذلك فى التهذيب . إلا أن له أثرا فى نفوسنا وسلطانا فى عقولنا ألا ترى أن المرضى أسوأ الناس أخلاقا وان للأغذية والماء والأجواء المددة لأجسامنا آثارا تصل لنفوسنا كالقبض والبسط والفرح والحزن فانها اذا كانت رديئة وصل للجسم انحراف على مقدار رداءتها وان كانت صالحة فالصلاح اليه واصل وعليه وارد . سر فى نظام جسمك على قانون الصحة يعتدل مزاجك وتصف روحك . فلعمرك ما العلوم التى بها جلب الغذاء من صناعة وتجارة وزراعة ولا نسلك الذى ترجو به بقاء ذكرك وظهور أثرك بنوع ما ولا نظام أمتك فى اجتماعها وسياستها الابعد حفظ صحة جسمك وادارة نظام هيكلك فى الرتبة وما الأموال المجموعة ولا الاخوان المحبوبة بمغنية عن المريض شيئا وانما من ذلك مدده واصلاحه فلا وربك لا أمة الا من الاسرات وانما الاسرات مركبات من أفراد فاذا اعتلت الأجسام فلا اجتماع ولا ائتلاف ولا أخلاق ولا آداب . تهذيب النفس شرع لتجاذب القلوب . وتحابّ النفوس وائتلاف الأفراد . ونظام الجمعية وتعاونهم أجمعين . فالتهذيب مؤخر فى وجوده عن وجود الافراد والافراد قوامها الصحة

و إياك أن يلج فى خاطرك غرابة الكلام على صحة الأجسام فى علم الأخلاق أو تقول نتركه لعلم قانون الصحة فانك عرفت قبلا علاقتهما وآثار أحدهما فى الآخر فلئن ذكره الأطباء فانما ذلك لأنه مقصود فى علمهم بالذات والنفس تبع . فأما علماء الأخلاق فانهم يبحثون عنه كمركب للنفس وسفينتها السائرة فى بحر الحياة اللجى . ودابتها التى تركبها فالجسم فرس . والنفس راكبها والسعادة قنيصتها ولا قنيصة لمن كلت فرسه كما لا سعادة ولا أخلاق لمن ضعف جسمه إلا من رحم ربك . ولقد أودع الله فى فطرة الانسان من الغرائز والمشاعر والادراكات وأحاطه بالمنفرات للتهلكة ما ان عمل به وسار فى سبيله بنظام هدى الى طريق رشاده . ألا ترى الى الحر والقر والجوع والعطش وماجبل عليه الأطفال من حب اللعب وتنشيط الأعضاء بالحركة ومصادمة الأجسام ومقارعة الأبطال ان كل ذلك إلا مرشد للعاطلين كم من امرئ جهل أمره واستسهل الأمر اليسير من شأنه كاللقمة يزدردها بلا كثير مضغ والحجرة يسكنها رديئة الهواء أو ضئيلة النور والبيت يقطنه تحيط به الروائح الكريهة فأحاطت به خطوب الزمان ومزعجات الأمراض أولم يعلم ما للانسان من الحكمة وما للآلام الحر والبرد من الانذار

والاعلام إلا أن التغفل عن الصغائر فى أمور الأجسام تجر الى الكبائر فى أمر النفوس والعقول فكم يحدث فساد الصحة من تغير فى طباع المرء كسرعة الغضب والتهيج المزرى ويقعده عن تأدية الواجبات الاجتماعية والمرض اذا حل بالجسم فزال أبقى له آثاراً عالماً فيه حتى يحين أجله و يذهب عمره . لابد من ارادة قوية يصدبها الشهوات البهيمية وعزم صارم يكبح به تلك الضاريات الهائجة حتى لانشترى الذى هو أدنى من اللذات الحسية بالذى هو أعلى من الصحة وسعادة الحياة والفرح بالاخوان و بهجة الجمعية القومية ونعيم العباد فى البلاد

فاعتدل فى مأكلك ومشربك وملبسك ومسكنك ونومك و يقظتك واجعل لكل وقتا خاصا به ، ونظم أوقات أكلك كما نظمت الأفلاك فى سيرها والنجوم فى جريها والشمس فى أبراجها وأقلل من الشرب وحرمه بعد انقضاء الأكل حتى يهضم الطعام واجعل لك وقتا للرياضة الجسمية كالمشى والأعمال الزراعية أوالصناعية فى أوقات عطلتك ليكون أجم نشاطا لعقلك وأتم قوة لجسمك وكالحركات الرياضية فى المدرسة فلعمرك انها تحرك من نشاطك وانها تفتح لك شهوة الطعام

الأن المستبصر الحاذق من سار على منهج قانون الصحة فقل مرضه . فذلك خير ممن يهمل الجسم فيقع فى قبضة المرض فيضطره لتعاطى الدواء فالخير كل الخير فى تدبير الطعام والشراب فى الصحة . وقد أثنى الله على بعض عباده الأصحاء العلماء ، فقال (وزاده بسطة فى العلم والجسم والله يؤتى ملكه من يشاء) . انتهى ماأردته من كتابى جوهر التقوى

(٢) وأما ما كان بعصرفانه قد كان بها هرم فى هيكل (ايزيس) وهى إلهة مصرية زوجة (اوزيريس) انتشرت عبادتها من مصر الى اليونان وروما وكانت عبادتها تنافس النصرانية . وكانت فى بلدة (صالحجر) من أعمال مركز كفر الزيات تبعد عن رشيد قليلا . وقد كتب على ذلك الهرم مايأتى : « أنا كل شىء كان وكل شىء يكون ومحال على من يفنى أن يزيل النقاب الذى تنقب به من لايفنى »

(٣) وأما ما كان من رموز الرومانيين فذلك انه كان فى إحدى حجر الفاتيكان صورة شهيرة فى حائط صورها (روفائيل) اسمها مدرسة (أثينا) وفى مركز هذه الصورة أرسطو وأفلاطون ومع كل أتباعه وأفلاطون يشير الى السماء بأصبعه وأرسطو يصغى بفتور مشيرا الى الأرض بيده اليمين ، والحق أن هذه الصورة واشاراتها تمثل جميع أفكار الانسان من أوله الى الآن

فاذا عرفنا أن أفلاطون قد قال : « إن الشمس المشرقة المضيئة سبب ظاهرى لما على الأرض من نبات وحيوان الخ » من حيث إيجادها ومن حيث هداية الحيوان والانسان بها الى السير فى الأرض ، وأن ذلك يهدى الانسان الى أن هناك إلها للعالم فى مقابلة الشمس وقد خلق عالما لطيفا فى مقابلة هذا العالم الكثيف وألقى من لدنه نورا على ذلك العالم اللطيف فعرفناه وهو متعلق العلم وبه عرفنا الكليات فى عقولنا وصور الجمال المجردة والكمال والحكمة والعدل كما ألقت الشمس نورها على حواسنا فعرفنا طرقنا وسرنا فى الأرض . واذا عرفنا أن أرسطو يقول . كلا . فنحن لانريد قط أن نجعل العوالم المعنوية وهى المثل الأفلاطونية متعلق العلم لدوامها بل نقول العلم يتعلق بالصورة والمادة والقواعد المستنتجة من ذلك هى كليات قائمات بالذهن ليس لها وجود فى الخارج

أقول اذا عرفنا ذلك عرفنا أن هذين الرأيين هما أول العلم وآخره لاغير فاما أن نعوّل على المادة واما أن نعوّل على الروح وأما المذهب الثالث فقد جمعهما

القائلون بالمادة منهم الاستاذ (كارل نفت) ومن قوله : « إن المخ يفرز الفكر بعين الطريقة التى يفرز بها الكبد الصفراء والكلية البول » . ومنهم الاستاذ (بخنر) الألمانى وقد ألف كتابا اسمه القول الفصل فى المادة . وهؤلاء لايقولون بالروح ولا بالملائكة ولا بالشياطين ولا بالله

(١) وعلماء الجوهر الفرد قديما من أنصار هذا المذهب مثل ديموقراطيس سنة ٤٢٠ ق.م وهومس الابونيين يقول إن المادة تتحرك من نفسها

(٢) وجاء أبيقور سنة ٣٤٠ ق.م وقال « إن النفس والفكر والعقل والقوة أعراض للمادة » ومثله ليوكاروس سنة ٩٩ ق.م المؤلف الروحانى الشهير ومن أنصار هذا المذهب

(٣) ثم توماس هوبز سنة (١٥٨٨ — ١٦٧٩) فى انكلترا وهو يقول : « إن الروح جسم طبيعى ارتقى ولم تدركها حواسنا »

(٤) ثم (لامتريه) فى فرنسا سنة (١٧٠٩ — ١٧٥١)

(٥) ومثله (باردن هليك)

(٦) ومثله (كابانى) أيام الثورة الفرنسية سنة ١٧٥٧ — ١٨٠٨

(٧) وفى ألمانيا ظهر (مولشت) فى القرن التاسع عشر وقال « لاقوة بلامادة ولامادة بلاقوة »

(٨) وتبعه (كارل نجت) ولد ويج بخنر المتقدم ذكره

فأما القائلون بالروح ، والقائلون بالروح والمادة معا . فالأولون منهم يقولون « إن المخ آلة الفكر ولكنه هو ليس سبب الفكر . وقالوا : ليس من المعقول أن يكون الفكر الانسانى العجيب مستنتجا من مادة ميتة لاتحس ولاتعقل . فالشاعر يفكر فى المادة والحكيم كلاهما لايمكن أن يكون فكرهما مادة . فهل مادة تفكر فى مادة ! » . وقد قال شاعر فرنسى ما يأتى

إن امرأ ظن المعارف أشرقت ٭ أنوارها من مظلم لجهول

وهذا المذهب الروحانى ظهر بعد المادى

(١) وقد أوضح أفلاطون نظرية المثل وقال إن لها وجودا حقيقيا والظواهر تتبعها

(٢) وجاء (ديكارت) فأحيا عقيدة الروحانية

(٣) ثم (ليبنتز) سنة ١٩٤٦ — ١٧١٦ وهو الذى ضبطها يقول : « إن أساس الموجودات شىء واحد وهو الروح وهناك نقط روحية لاعدد لها وكل نقطة من هذه تسمى (الذرة الروحية) وهذه الذرة خلقها الله ، وكل جوهر فرد مركب من مجموعة من هذه الذرات وعدم قبول الجوهر الفرد للقسمة أمر ظاهرى لاغير والا فهو ينقسم الى مالانهاية له لأنه مركب من أرواح حية وكل جسم مركب من ذرات روحية . وهذا الامتداد الذى نراه فى الأجسام ناشئ من اجتماع ذرات روحية وحقائق الأشياء هى هذه الذرات الروحية . وقد جعل الله تلك الذرات مراكز للقوة ومنحها قوة إدراكية وهى مختلفة الأشكال والأحوال كثيرة التغير

فلاتدوم على حال تكون به ٭ كما تلون فى أثوابها الغول

وهذه الذرات مرآة العوالم الحية وهى ان شعرت فهى الحيوان وان لم تشعر فهى الجماد . وقال كل ذرة لها جسم وروح فالروح هى الحقيقة والجسم مظهرها

(٤) ومثل هؤلاء (جورج بركلى) سنة ١٦٨٥ — ١٧٥٣ وهو مؤلف جرمانى يقول : « المادة لا وجود لها فى الخارج ، وانما ذلك خيال ، ولا وجود إلا للروح والعقل ، ولافرق بين الصور التى تتخيلها والتى نراها ، والعقل يتصور الشىء و يسمى فيبرزه فى الخارج ، وليس هناك شىء خارج عن العقل . و يقول : إن الشمس والقمر والجبل والشجر لا وجود لها اذا لم يكن هناك عقل يدركها وادراك الانسان مستمد من الله . ومتى طبعت الصور فى عقولنا سميناها ذلك أشياء حقيقية . وله كتاب سماه (السلسلة) جعله خاصا بمنافع القطران وتكلم فى نهايته على الموجود المطلق . قال :

ولم تكن المعانى التى ندركها أوهاما بل هى حقائق لاتتغير ، ألاترى أن وجودها أثبت فى نفوسنا من الأشياء الخارجة . المحسوسات الظاهرة تتغير وهل المتغير يصلح مناطا للعلم . وكما لاتصلح موضوعا للعلم لاتصلح للادراك

(٥) وقفى على آثارهؤلاء (هرمان لوتز) فشرح فى كتابه المسمى «العالم الصغير» هذا المذهب

(٦) ومثله (شو بنهور) إذ يقول : « إنّ الارادة هى حقيقة الأشياء »

(٧) وهكذا نخفر إذ يقول : « إنّ كل شىء فى الوجود حىّ »

والذين يقولون بالروح والمادة معا هم مثل :

(٨) انكساغورس سنة ٤٥٠ ق.م

(٩) وأرسطاطاليس

(١٠) والرواقيون

وقد يعدّ هو بارت ولوتز ونفته من هؤلاء . وهناك طوائف يسمون (المؤلهين) يعتقدون بالله وبالأنبياء . وآخرون يسمون (العقليين) يرون أن الله يعرف بالعقل وحده ولا يحتاجون الى وحى . وآخرون يعتقدون الحلول الذى برهنا على منافاته للعقل فيما تقدّم فى تفسير البسملة فى السور السابقة والعالم عندهم مظهر الله . وآخرون يسمون « أصحاب مذهب الجوهر الفرد » إذن المذاهب المذكورة أربعة :

(١) مذهب الجوهر الفرد

(٢) « المؤلهين

(٣) « العقليين

(٤) « الحلول

فالأوّل قال به ليوسيبس وتلميذه ديموقراطيس ، وقال بالثانى أرسطو وأفلاطون الخ ، وقال بالثالث تولاندوم وتندال وستانشبرى وهم يقولون : إنه يدير العالم بنظام ، وقال بالرابع كتاب (ريك فيدا) وهو كتاب الهنود المقدّس وهكذا جيوردانو برونو وسبنوزا من استردام (٢٦٣٢ — ٢٦٧٧) وهذا أعلن إعلانا مدهشا فيه إغراق وغلوّ . فقال : « إنّ فى العالم جوهرا واحدا وهو الله وهو مطلق لا يحدّ وكل الجواهر الأخرى المحدودة منبعثة منه ومظروفة فيه وليس لها إلا وجود زائل صائر الى الفناء . ولله صفتان يظهر بهما لنا نفسه الامتداد والعلم . فبالامتداد المتنوّع تتكوّن الأجسام . وبالعلم المتنوّع تتكوّن العقول . وهاتان الصفتان ثوبان لله نسجتهما المكوك الدائمة الحركة فى نول الزمن العاصف » ، وتبعه شلو وجوتيه وهرد وشلوما كر وهيتى وشلى ولسنج

***

صمت طويل وضيق صدر وألم نفس . كل هذا حصل لى بعد هذا الحديث الطويل . فلما لمحت ذلك تبسمت ونظرت لى طويلا وقالت : لقد قرأت فى صفحات قلبك انك الساعة مشمئزّ من سرد هذه المذاهب المختلفة وضاق صدرك ؟ فقلت حقا انى حالما شاهدت جمالك أذهب عنى الحزن وشرح صدرى ونسيت كل ألم وبه نلت كل أمل فكل مافاتنى غير قربك لاقيمة له وطلبت البقاء لديك . فقلت لى . كلا . إنك سترجع الى عالم الحس وأنت الآن فى عالم الخيال ، فوطن نفسك على أن تدرس مزارعى فى القلوب ، فهاهى ذه مزارعك فى القلوب قرأت منها صفحات ، فرأيت تناقضا فى الآراء ، وتباعدا فى المعانى ، فعهدت فى صدرى انقباضا لم أعهده ، فأين صحائف هذه القلوب التى بها ظهر تاريخ الفلسفة فى العالم من صحائف هذه الدنيا ، تلك الصحائف التى أقرؤها متى خلوت بنفسى وأنا مستيقظ فأشاهد جمالا بارعا وحسنا باهرا وبهجة فى النجوم وفى مناظر المواليد الثلاثة

وقد أصبحت فى الحال الاعتيادية أطرب لتمايل الأغصان وترنح العيدان وغوير الأعشاب وخرير الماء وصرير الباب ، وأشاهد فى الليل اذا عسعس أوانس الكواكب ونواعس النجوم ، وألحظ فى الليل البهيم سكونا مهيبا ولألاءا بهيجا فى مناظر السماء ، وآنس فى النهار نضرة النعيم فى كل مادبّ وطار ، وهل الحشرات المنبوثات اللواتى يحمل بعضها من العيون مئات فى نظرى إلا لآلىء وقناديل وحسن وجمال ، الا ليت شعرى هل تحسن أقوال هؤلاء الفلاسفة واختلافهم فى العبارة وقول (اسبينوزا) قولا موهما فى المقام الأعلى الأقدس كما تقدم « انه ظرف العالم ومنه الامتداد ومنه العقول وبالأول كانت الأجسام وبالثانى كانت العقول » . نعم إن العبارات ضيقة عند أهل الأرض حين يعبرون عن ذلك المقام القدسى . ولكن أليس هذا بعينه هو الحلول ؟ والحلول معاول محاول

يغرم الانسان بربه غراما لاحدّ له فيصل للتطرف والاغراق والافراط و يقول هو كل شىء . نعم اذا أصبح الانسان فى حال لاصحو فيها فانه لايعى ولايعقل ولايفهم ولايدرك ولايبصر ولايسمع إلامايذكره بربه . ولكن لن يكون ذلك العاقل . إنّ العاقل لايسعه إلا أن يفرق بين الخالق والمخلوق . أما هذا التهويش والاغراق والتطرف فى القول فهو محل محزن وهو فى ديننا الاسلامى كفر وأىّ كفر ! ألم أكذب هذه النظرية فيما تقدم فى موضعين بالبرهان العقلى . وكيف يكون الرب هو نفس العبد ! نظرية خضع لها كثير من علماء أوروبا والهند والمسيحيين وبعض الصوفية ، وهؤلاء كلامهم موهم أيما إيهام

أقول : هل يقوم كلام هؤلاء فى نفسى مقام الجمال الذى ألحظه فى بهجة الكون والشمس عند شروقها وغروبها والنجوم إبان طلوعها وأفولها ، والنجم اذا هوى ماحلّ تاريخ الفلسفة الحديثة ولا القديمة فى قلبى محل هذا الجمال المنصوب والطراز المعقد فى السماء والأرض

إنّ قراءة علم ماوراء الطبيعة والفلسفة الطبيعية وعلم النفس وعلم المنطق وعلم الجمال وعلم الأخلاق وعلم الاجتماع وتاريخ الفلسفة اليونانية والرومانية والفلسفة الحديثة والفلسفة الاسلامية والوقوف على ذلك كله (وهذه هى أقسام علم الفلسفة المتعارف الآن) ليس ينتفع به إلا أفراد يقودون الأمم وهم قليل جدا ولن ينتفعوا بهذه إلا بشرطين اثنين : الأوّل أن تكون قلوبهم قد أحست بالجمال فى هذه العوالم الأرضية والسماوية مع الذكاء المتوقد . الثانى أن يكونوا قد درسوا جميع علوم الطبيعة والعلوم الرياضية أتمّ دراسة على أحسن نظام . فهؤلاء اذا قرءوا تلك المذاهب الفلسفية ودرسوا فروع الفلسفة فانهم يكونون قادة لأمم الشرق

فأما قراءة كتاب مختصر أو مطوّل فى تلك العلوم . والاطلاع على أقوال الماديين كالذى قلته أنا الآن . وأقوال الروحيين . وأقوال الذين يجمعون بين الروح والعقل . وهكذا يرون قوما عقليين لايهتمون بالوحى . وآخرين إلهيين يهتمون بالوحى . وآخرين يقولون بالجزء الذى لايتجزأ وغيرهم يقول : ان الله حل فى كل شىء فانها لاتفيد إلا ضياع الذهن وتشتيت العقل والكفر الصراح والشك المستمر . وكيف لا يكون ذلك والشاب حين يسمع ذلك وهو جاهل بعلوم هذه الدنيا . ويرى أن هؤلاء يسمون فلاسفة . يقول : فاذا كان الفلاسفة أصبحوا مختلفين إذن المسألة ترجع للشكّ . فأنا أيتها المحبوبة أقول هذا رأيى فى قراءة المذاهب الفلسفية . انها تضلّ كثيرا ولاتهدى إلاقليلا . فكيف أمرتنى أن أرجع عن الصور الجميلة فى السموات والأرض التى أنا بها فى أنس وحبور ، وأن أفكر فى أقوال متضاربات وأحوال متضادّات لاسيما انى آليت على نفسى أن لاأكتم عن أحبابى قرّاء التفسير جملة واحدة ، وكيف أكتم أعظم محاورة وأعجبها بينى وبين محبوبة جميع النفوس وقرّة أعين الفضلاء والحكماء والعلماء والأنبياء ، ألست أنت قرّة كل عين ، ألست جمال النفوس ، ألم أكن ألحظك فى كل ذرة وقطرة وكوكب ونجم وشجر ، ألست أنت رفيقة قلبى وشارحة صدرى ، ألست أجمل مافى الوجود . وكيف أكتم جمال علمك عن أعزّ الناس عندى قرّاء التفسير ، ومتى استيقظت من هذا

الخيال كتبت مادار بيننا ومما دار بيننا حديث الفلاسفة واختلافهم وانهم فرق متشاكسون ، ثم انك لما أمرتني أن أقرأ آراء القوم قام بنفسك انى الآن لا أصلح لمجالستك ولاأقوى على محادثتك طويلا وان نفسى لم تزل يعوزها التصفية كما قلت لى من قبل ولكن ألا أستحق مساعدتك والأخذ بيدى وشد أزرى والقيام بنصرى ، ألست اليوم فى جهاد ، ألست اليوم فى أمم أريد أن تستيقظ ، وخير العلم ما جاء فى دور الانتقال ، والشرق الآن قد جاء دوره ، فهل من نظرة بها أسعد ومنك الجمال والكمال ، واذا كان الله جعل صور الجمال فى أرضنا سريعة الزوال وأوقات اللذات كبرق خلب ، وكانت الحكمة فى ذلك أن يذكر قلوبنا بالجمال الدائم والحسن الباقى الأكمل ، فالظهور للذكرى وسرعة الزوال لنكون فى مأمن من تعلق القلب بها والعكوف عليها والحنين اليها وذلك فى صحيفتى السماء والأرض ، فهل هكذا الصحيفة الثالثة وهى صحيفة القلوب وآراء الفلاسفة ، إذ نرى فى القول جمالا ثم يعقبه الاضطراب والاختلاط والتهويش وضياع الوقت . إن طريقتى فى العلم أن أقرأ صحيفة الوجود ثم صحيفة نفسى ، فهناك أرى اشراقا وجمالا . أما صحائف القلوب فانها تجمع الغث والسمين والصحيح والهزيل (وبعبارة أخرى) إنى أخاف أن قراء التفسير بعدى يسوءهم ماساءنى و يؤذيهم ما آذانى . وأنا أحب أن يكونوا فى بهجة وجمال

***

سمعت ذلك كله وهى صامتة تبتسم وهنالك رأيت وجهها قد زاد جمالا ونورا و بهجة فلم أقوعلى النظر اليها كما ان عينى لاتقوى على التحديق فى ضوء الشمس . وهنالك أخذت تقول : لقد قلت قولا جميلا ونطقت بالصدق . إن الفلسفة وتاريخها لن يعقلها إلا أناس صفت نفوسهم وهم أذكياء وقد قرؤا علوم الرياضيات والطبيعيات بحب وشغف . إن الفلسفة لايهتأ بها إلا أفراد قلائل فى الأمم وماقلته فى الجمال الأرضى وسرعة زواله حق وهكذا ما أبديته فى جمال العلوم المنزلة على أفئدة العلماء . كل هذا أقرك عليه وأنا مجيبة لك فكن منشرح الصدر قريرا مثبتا . أما أمرى لك بقراءة آراء القوم فان أمم الاسلام اذا اطلع خواصهم على آراء العلماء فى الأمم انقشعت عن قلوبهم سحائب الجهالة وأضاءت نفوسهم بأضواء الهداية وحلوا المبهمات وأنسوا بجمال المدركات . ولولا انى مطلعة على قلبك وانك فى الفصل الثالث (الذى بعد فصل القبس وهو الثانى) ستحل المشكلة العلمية أحسن حل وتقيم الدليل الذى يعرفه كل امرئ من نفسه فى القوة العلمية والقوة الخلقية . ما أمرتك بقراءة الآراء المتضاربة فاذا لم تقدم هذه الآراء أولا لايكون للفصل الثالث كبير مزية . وكيف تفصل فى مشكلة قامت فى أعظم العلوم النظرية وأعظم العلوم الخلقية من غير أن تقدم ذكر ذلك الخلاف . وكيف يقضى القاضى فى نزاع بين الخصوم وهم لم يطلعوه على وجوه الدعوى وهيئة النزاع . فكن اليوم أيها الجوهرى (ممتحنا) لمختلف الآراء . وانك قد أسمعتنى آراء العلماء فى معنى قوله تعالى هنا — إن الذين قالوا ربنا الله — فأسمعنى خلافهم فى قوله — ثم استقاموا — ومتى تم هذا الفصل جسميه فحدثنى بالفصل الثانى وهو القبس الذى خطر لك وأنت فى صلاة التراويح قبل الفجر لأنه أشبه بضرب مثل لآراء الفلاسفة فى الأرض . فقلت : لأجمل الكلام على ذلك فى (مقامين * المقام الأول) فى مذهب الغريزة الخلقية ومذهب التجربة (المقام الثانى) فى الغاية من سلوكنا الأخلاق . فقالت : قل وأنا أحادثك . فقلت :

المقام الأول فى مذهب الغريزة الخلقية ومذهب التجربة

كما ان شعور النفوس الانسانية بالجمال غريزى فى كل الأمم هكذا شعورهم بالحسن والقبيح فى الأخلاق ، إن الجمال وان اختلفت مظاهره باختلاف الأذواق والأشخاص والأمم والأحوال والبيئات ثابت الأصل فى النفوس . فاذا تعددت المظاهر واختلفت فالغريزة حية ثابتة ثبات الحياة . فكما اختلفت أحوال الأحياء وهى

ثابتة هكذا اختلفت مظاهر الجمال والغريزة ثابتة . ومثل ذلك يقال فى الحسن والقبيح . فأهل الشرق وأهل الغرب كل يعرف الحسن والقبيح فى الأفعال الانسانية وان اختلفت المظاهر . وهذا المذهب قال به كارليل وبطلر . وقال به من الألمان فخته والاستاذ كنت . وقال آخرون : « كلا . إن الحسن والقبيح فى الأفعال لاسبيل لمعرفتـه إلا بالتجربة . واذا كان مذهب النشوء والارتقاء ظاهرا فى الحيوان والنبات أفـلا يكون كذلك فى الحسن والقبيح ؟ أفنعيش على آراء من سبقنا فى معرفة الحسن والقبيح . كلا . بل تنظر الى الفائدة من أعمالنا ونحكم عقولنا وتكون أعمـالنا على مقدار فوائدنا . هذا هو السبيل الأقوم »

وقال بهذا القول وهو مذهب التجربة كارنوى ومل و بين وهربرت سبنسر . تم الـكلام على المقام الأول والحمد لله رب العالمين

المقام الثانى فى الغاية من سلوكنا الأخلاق

هل الغاية من سلوكنا سعادتنا الذاتية ؟ أم السعادة العامة ؟

يقول قوم : « إننا لم نخلق فى هذه الأرض إلا لمنفعتنا الخاصة ، فكل امرىء إنما خلق لاسعاد نفسه هو ، والمسألة كلها هى حب الخير لنفس الانسان » ومن هؤلاء (هو بز)

و يقول آخرون : كلا . ثم كلا (مثل هيوم وآدم سميث) إن فى الانسان عاطفة الحب العام ومن ذا الذى ينكرها فى نفسه . لقد غرست فى نفوسنا عاطفة حب الناس واسعادهم وحب الخير لهم وتكميلهم . وهذه تسمى نظرية الايثار

ومن أتباع المذهب الأول (ماكس سترنر) و (نيتشيه) ومن أتباع الثانى وهو الايثار (كنت وفخته وشو بنهور) . وفوق ذلك يقول آدم سميث وجون ستورث ميل : « إن الانسان عليه أن يضحى بنفسه اذا كانت تلك التضحية سببا فى سعادة غيرنا »

ويقول الاستاذ (مل) ﴿ ما أنقص هذه الدنيا وما أخل نظامها إذ كان من سننها أن أحسن طريق فى تحصيل السعادة هى التضحية التامة . واذا كان هـذا هو شأنها فانى أقر بأن الاستعداد للتضحية أكبر فضيلة يتصف بها الانسان ﴾ . وههنا مسألة ثالثة وهى :

ما الذى يسوقنا لحسن السلوك ؟

عرفنا أن هناك غرائز أوتجارب للتمييز بين الخير والشر . وعرفنا ما الذى نقصده من السلوك . ولكن ما الذى يبعث فينا النشاط لحسن سلوكنا ؟ ويكون مهمازا يسوقنا الى الغايات ؟ فقال الاستاذ (مل) ﴿ إن القانون الأخلاقى مقيم فى أعماق نفوسنا يساعدنا على كشف حجب الامور حتى نصل الى إدراك مايجب علينا وله سلطان قوى وتأثير وجاذبية . وهذه نظرية (القانون الذاتى) . وهذا سموه (صوت العقل) ومن القائلين بهذا القول الاستاذ كنت ﴾

وقوم يقولون : ﴿ إن الشعور والعواطف لها سلطان أيضا ﴾ وهذا قول هيوم وشو بنهور وآدم سميث فالعقل والشعور يرجعان الى القانون الذاتى

و يقول آخرون ﴿ إن الخوف من الله . أو من الناس . أو من الذم . أو الرغبة فى المدح . أو تحصيل الثواب . كل هذه قوى خارجية لها السلطان علينا تسوقنا الى فعل الخير ﴾

وأنا أرى أن هذه كلها لها سلطان بدرجات مختلفات وتختلف باختلاف الأشخاص والبيئات والتربية والى هنا انتهى الكلام فى ذكر الآراء فى علم الأخلاق ومناهج السلوك وبه انتهى الفصل الأول فى معرفة معنى قوله تعالى ـ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ـ و به فهمنا آراء الأمم فى معرفة الله وآرائهم فى الاستقامة

الفصل الثانى فى القبس المذكور فى سورة طه

ههنا أذكر ما وعدت به عما فهمته أثناء قراءتى آيات من ﴿ سورة طه ﴾ فى صلاة الوتر بعد نصف الليل منذ أيام إيفاء بوعدى لك وقياما بحقك وليكون ذلك مثلا مضروبا لاقتباس عقولنا من آراء عقول العلماء والحكماء من الأمم جمعاء

كنت أقرأ قوله تعالى كما قدمت ــ وهل أتاك حديث موسى إذ رأى نارا فقال لأهله امكثوا إنى آنست نارا لعلى آتيكم منها بقبس أوأجد على النارهدى * فلما أتاها نودى ياموسى إنى أنا ربك ــ الخ ، فأخذت أكرر هذه الآيات مرارا وقد استحضرت فى ذهنى الحجر والشجر والبرّ والبحر والايقاد واللهب ، كل ذلك حصل فى نفسى كلمح البصر ، وهذه المظاهر أصبحت كأنها مشاهدات أمام بصرى وأنا أكرر الآية وكأنى فى عالم غير عالمنا ، عالم الجمال ، عالم الحكمة ، وخيل لى انى خرجت من كل همّ وغمّ وحزن وألم لأن هذه عوارض عالم الحس والآية أحضرت لى عالم الخيال ، أوعالم المثال ، أوعالم البرزخ ، عالم لا كدر فيه ولاشقاء ولا أعداء ولامنافسين ، وما أجمل قيام الليل ، فاذا لم يكن فيه إلا هذا الجمال كفى ، وما أحسن الصيام فهو يصفى النفوس ويذهب عنها البؤس . وما أجمل الذكر . وما أحسن الفكر

فنظرت فى الأحجار اذا هى لاتقبل الالتهاب مع انها مشحونة بالنار . كيف لا وفى كل مائة رطل من الأحجار (٤٨) رطلا من الاكسوجين ولن تكون نار ولالهب إلا بالاكسوجين وهذا مصداق قوله تعالى ــ وقودها الناس والحجارة ــ وانما لم تحترق الأحجار لصلابتها ومتانتها . ثم نظرت فى نحو الحديد من كل جسم يعلوه الصدأ فوجدت أن ذلك فيه احتراق فان الاكسوجين يأخذ فى التزاوج والاتحاد والائتلاف مع الحديد ولكن ذلك الاتحاد والائتلاف والزواج لاتصحبه زينة ولافرح . فالزينة هى اللهب والفرح هى الحرارة وهذه هى التى اعتادها الانسان متى أراد البناء بعروس أظهر الزينة والسرور والفرح . هكذا اذا أراد إيقاد النار زوّج الاكسوجين بعروس فتلك العروس إن كانت عجوزا شمطاء كالحديد لم يكن فرح ولم تكن زينة بل يتم التزوج ببطء فيكون الصدأ وذلك كمباشرة هذه العجوز . وان كانت العروس خفيفة الروح شابة فهناك الحرارة وهناك اللهب . وانما يحصل اللهب بازدواج الاكسوجين مع الاودروجين ومع الفحم . وهذان العنصران يقيمان معا فى كل نبات وكل حيوان . فهما فى الحطب والخشب والفحم الحجرى والزيت والدهن والورق . فتى قربت النار من الورق اشتعلت الحرارة وظهر اللهب وأخذ الاودروجين والكربون الساكنان يظهران ويريدان التخلص ولكن هيهات هيهات فيقعان فى قبضة الاكسوجين ولايفلتان وهناك يتم الزواج

الاودروجين المذكور جزء من أجزاء الماء وهو متحد مع الاكسوجين فيه فهو يحبه اذا صادفه فى الورق والخشب وغيرهما . والايدروجين أيضا داخل فى تركيب الغاز (الايدروجين المكربن) أعنى أودروجين مزدوج بالفحم واسمه (غاز الاستصباح) وهو الذى تنار به الشوارع والأزقة والحارات والمخازن والحوانيت وهو يجرى فى أنابيب تستمدّ من احتراق الفحم فى أفران معدّة لذلك وهذا معروف مشاهد . والادروجين أخف من الهواء (١٤) مرة ونصف مرة ولذلك يجعلونه فى الطيارات فتخف وتطير فى الجو لأنها أخفّ من الهواء . هذه هى النار وهذا سرّها . والنار من أعجب العجب فى هذه الدنيا والناس يعيشون ويموتون ولاهم يذكرون جمالها وبهجتها . والسبب فى ذلك انها مبذولة لهم بلا تعب ولا نصب مع ان ماتقدم فى آخر سورة ﴿ يس ﴾ من الصور المرسومة لقوم متوحشين يوقدونها بشق الأنفس يدل على أنها كانت مستعصية على النوع الانسانى وكانت أثمن مما على الأرض ومافى باطنها من جواهر ومافى البحار من لآلئ حتى ان زرادشت قال انه جلبها من السماء ومرّ فى طريقه بجبال همالايا وكانت هذه معجزة له عند أتباعه فى بلاد الفرس .

وأخذوا يعبدون النار وهي مقدسة . لماذا هذا ؟ لعزتها ونفاستها إذ ذاك . وهكذا زعم الروم أن پروموطيه اختلست النار من عبادها (بتشديد الباء) وسترتها عن أعينهم وأهدتها لأناس غيرهم ، فكان الرومانيون يقدسون النار كما يقدسها الفرس ، والماسدنة يقومون بخدمتها ويحافظون على دوامها ، فلما أن صارت اليوم سهلة الحصول زالت تلك الهيبة من النفوس والعظمة

هذه هي النار ، وهذا تاريخها ، تاريخ النار تاريخ الحياة ، فلهب النار وحرارتها يرجعان للتفاعل والتزاوج ونتيجة اتحاد العناصر أن يكون هناك نبات وحيوان وانسان كلهن ناشئات من ذلك الاتحاد ، ويدوم ذلك التفاعل مدة ، ومتى يبطل التفاعل بطلت الحياة . إذن النار سر الله في أرضه

العلوم والمعارف

ليس في الأرض علوم ولامعارف إلا على نمط إيقاد النار ، وهل المعارف إلا ازدواج بين القضايا الذهنية إذ تكون مقدمتان ومنهما تكون النتيجة ، أليس ازدواج القضيتين في النفس يعطى فكرة كأنها حرارة وتكون النتيجة كاللهب ﴿ و بعبارة أقرب لما نحن فيه ﴾ ان آراء علماء الغرب والشرق متى ازدوجت في في نفوسنا حصل لعقولنا نتائج وهذه النتائج يصحبها نشاط في مقابلة حرارة النار ويكون سرور في مقابلة اللهب

إن انشراح الصدر بالمعارف خير من الدنيا ومافيها ، واذن يكون مافي الأرض من دهن وزيت وحطب كل هذه نشبه بها آراء علماء اليونان والرومان والألمانيين والفرنسيين والانجليز الذين تقدم ذكرهم . ثم إن تقليب هذه الآراء وبحثها واستخراج نتيجة تفهمها العقول واحدة ويفرح بها أهل العلم في العالم كما سيأتي في الفصل الثالث إن شاء الله أشبه بازدواج هذه المواد وظهور الحرارة واللهب منها واشراقها للعيون

ثم اني بعد أن فرغت من فهم هذه المعاني في الآية أخذت وأنا لاأزال أكررها في الصلاة أفكر في معناها وأقول : إن موسى قال لأهله امكثوا إني آنست نارا ، وربما أن يدل منها أحد أمرين : الأمر الأول لأهله ، والثاني له هو . فأما الذي لأهله فهو القبس لأجل الاستدفاء بالحرارة . وأما الذي له هو فهو أن يرى هاديا يهديه للطريق في الجبل وفقه فيعرفه طريق الوصول اليه كما قاله بعض المفسرين . إذن موسى عليه السلام قسم فوائد النار بينه وبين أهله ، فهكذا المفكرون في المسلمين بعد ظهور هذا التفسير وأمثاله عليهم أن يتخذوا علوم الأمم كلها مباحث لهم ويستخرجوا منها أولا المنافع المادية في مقابلة القبس الذي ذكره موسى وثانيا المنافع العلمية والمادية الخلقية في مقابلة هداية موسى . ونتائج ذلك لأمم الاسلام أن يعيشوا بسلام سعداء واذا ماتوا لقوا ربهم وقد أتموا ماعليهم ، وهذا في مقابلة قوله تعالى ـ فلما أتاها نودى ياموسى إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادي المقدس طوى ـ

كل هذا أقوله وهي مصغية الى سامعة لي وكلما ازددت إيضاحا ازداد وجهها إشراقا . هنالك قالت لي : هل هذه المعاني تفسير للآية ؟ وضح هذه الفكرة . قلت كلا ، إنما هي معان تخطر للنفوس عند قراءتها . والا فمعنى الآية يعرفه العامة والخاصة ، وهذه تسمى المعاني الاشارية أوالرمزية التي تخطر للنفوس على حسب استعدادها . واذا كان هرون الرشيد قتل البرامكة وأمعن في ذلك حينما سمع المغنى يقول :

ليت هندا أنجزتنا ماتعد ٭ وشفت أنفسنا مما نجد
واستبدت مرة واحدة ٭ إنما العاجز من لايستبد

فهكذا تفهم العقول الحكيمة المعاني التي تناسبها حينما تسمع القرآن من باب أولى ، والقرآن أولى من كتاب ﴿ كليله ودمنه ﴾ بالحكمة والعلم وهذا أمر واضح لأولى الألباب . وبهذا تم الكلام على الفصل الثاني في القبس وفهمه من الآية في الصلاة والحمد لله رب العالمين

الفصل الثالث

في جلاء الحقائق العلمية وتبيان الصواب في آراء هؤلاء العلماء العلمية والعملية أي النظرية والخلقية أي معرفة الله تعالى وعلم الأخلاق (وبعبارة أخرى) - إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا - الخ وهي آيتنا التي نحن بصدد الكلام عليها

ههنا أخذت أستعرض آراء علماء أوروبا الحديثة وآراء القدماء وأفكر في الماديات والروحيات. وكيف نسمع قوما يقولون «لا وجود إلا للمادة» ويقول آخرون «لا بل الموجود هي الروح»

وبينما أنا أفكر وهي الخ شاخصة إذ لاحت لي الفتاة الى وجهها الجميل فأخذتني الدهشة واعترتني الغشية وغابت عني الحواس ولم أشعر بما حولي، فلعمرك ما أدري كم ساعة قطعتها وأنا في غشيتي ثم أحسست بيد ناعمة تمر على وجهي ورائحة عطرية لم أشم مثلها مدة حياتي عطرت المكان، اذا هي قد أخذتني بين يديها لتوقظني، فما آنستها بعد الغشية حتى قلت ما قاله ابن الفارض

مابين معترك الأحداق والمهج * أنا القتيل بلا إثم ولا حرج
ودّعت قبل الهوى روحي لما شهدت * عيناي من حسن ذلك المنظر البهج

فقالت نعم لا إثم ولا حرج - لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما إلا قيلا سلاما سلاما - . فقلت ياسيدتي أخبريني بالحق؟ أأنا الآن في عالم الآخرة، أنا لا أعرف ما أنا فيه، إن هذه المعاني التي تجول بخاطري لم أعهدها في أيام حياتي، فلعلي مت؟ فقالت هذا صفاء نفس لا موت، وعند الموت تكون حالك أرقى من هذه الحال بما لاحدّ له. فقلت: ولكن ما هذه الحال؟ قالت: ألم أقل انك في حال البرزخ والمثال والخيال. فقلت: وهل هذه الحال لها وجود؟ قالت: هي أصل الوجود والصور الأرضية فرع. فقلت: أنا اذا استيقظت وأخبرت الناس بذلك طالبوني بالبرهان. فقالت: أتذكر انك أيام الشباب رأيت صورا جميلة. قلت نعم. قالت فهل ذوو تلك الصور الآن لا يزالون يحملونها. قلت: كلا فنهم من أصبح في القبر رميما ومنهم من أصبح عجوزا وشيخا هرما أكل الدهر عليه وشرب وابيض شعره ويبس جلده وانحلت عراه. قالت فهل تغيرت هذه الصور الجميلة في خيالك؟ قلت كلا إني أراها في نفسي تامة الجمال كما كانت لم تتغير. فقالت هذا مثل واحد ضربته لك لتعلم أن جميع الصور التي ترونها في المادة التي تتخيلونها باقية في عقولكم الى أمد الدهر، وبترا كمها تنتج أخلاقا وعوائد وسعادة وشقاء على حسب ما تصورت - كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا - - بل الانسان على نفسه (بصيرة) - وهنا ابتسمت ابتسامة وأضاء المكان بالنور وعبق العبير. ثم قالت: إن الوجود الأصلي انما هو ما حفظته النفوس، أما وجود المادة فهو تبعي لا أصلي، ألم تر كيف لا يكون عمل إلا بعد فكر، فهل الهرم ظهر في الوجود إلا بعد رسم في الخيال، وهل الكرسي والباب والشباك والآلة البخارية والقطار السائر في الأرض والسفن في البحار والمنطاد في الهواء وكذا الطيارات والجيوش المنظمات في الجو وفي الأرض وفي البحر برزت في الوجود إلا بعد أن رسمت في صحائف الفكر فكان إبرازها للعيان بعد ظهورها في الأذهان. فاذا حرق الكرسي والباب والشباك وحطمت الطيارة وهزم الجيش وتفرقت جموعه فان صورها تبقى في الأذهان. ألا ترى أن أخبار معارك هنيبال وحروب رومه وقرطاجنه تتناقلها القلوب وتتداولها الألسنة وتتلقاها الأجيال مع ان تلك الأمم قد زالت من الوجود وخلفتها أمم آخرون من نسلهم أو من أمم أخرى، إذن الأشباح المنظورة نتائج الصور المعقولة لا فرع لها، أولست انك قد ذكرت في التفسير في غير ما موضع أن هذا العالم كله حركات في عالم يسمى الأثير، وما الأثير إلا اسم تجهلون معناه، وما هو إلا أشبه بالخيال، ويؤيد هذا نظرية (اينشتين) إذن لا مادة، وغاية الأمر أن هنا حركات مختلفات الأعداد

والأحوال بها ظهر للعيون وللحواس أشباح . فقلت : إذن هذا تأكيد لمذهب الروحانيين . قالت هنا أرواح وهنا أجسام ، إن المواد لها وجود فى درجة الحواس فهى موجودة معدومة هى مترددة بين الوجود والعدم فأما عالم الصور العقلية فهى موجودة أبدا - وان الدار الآخرة لهى الحيوان - . فقلت : وهل هذه آخرة ؟ فقالت : إن عالم المثال الذى أنت فيه الآن مقدمة لعالم الآخرة ، ثم تبسمت وقالت : ولكن أنت الآن لم تمت فأنت حى . ثم انها فجأة قالت استودعك الله ، فراعتنى هذه المفاجأة وقلت .

ألمت فحيت ثم قامت فودعت * فلما تولت كادت النفس تزهق

فقالت أنا ما ودعتك إلا وأنا واثقة بما لديك من الهبات العلمية ، وبما منحك الله من الحكمة ، وانك ستلق للناس حقائق ورقائق حتى يعلموا أن آراء الفلاسفة ليست مقدسة وأنا مطلعة على قلبك أقرؤه كالصحيفة أمامى ، وانك ستقول للناس قاطبة « إن كل فيلسوف له رأى » فهذا الرأى راجع لحال خاصة (وبعبارة أخرى) ان أنظار هؤلاء الفلاسفة جزئية لا كلية ، ومتى أوضحت كل قول وأوضحت سببه عرف الناس أن كل واحد له حق من وجه واحد ولكنه باطل من وجوه عدة ، هذا كله ستقوله أنت ، فانصرافى الآن يكون بعد ماخبرت قلبك وانك ابن بجدتها (١) وأخو عذرتها ، وجذيلها المحكك ، وعذيقها المرجب . فقلت : ولكنى لاأطيق فراقك ، ومتى قت وأنا لم أتمم ماشرعت فيه من انى أسمعك ما سأكتبه فى هذا المقام ينالنى مالايطاق من الهم ، وان إصغاءك لى وسماعك لكلامى وان كنت مطلعة على مافى قلبى يحدث فيه مسرة لأن إصغاء المحبوب لقول المحب أشهى اليه من الحياة وأعز عليه من روحه كما فرح موسى عليه السلام بقوله لرب العالمين وهو يعلم مافى نفسه - هى عصاى أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى - ويجدد فى قلبى حكمة إذ أطمئن على ما سأكتبه وأثق بما ألقيه فى هذه المسألة التى حار فيها أهل الشرق وأهل الغرب . فقالت : لاجرم قد أجبنا طلبك ورحمنا تضرعك فأتمم ماشرعت فيه

وههنا حرت من شدة الوجد والهيام ، كأنى فى أضغاث أحلام ، وتذكرت قول ابن المعتز فى الشرق :

وقد نشرت أيدى الجنوب مطارفا * على الجو دكنا والحواشى على الأرض
يطرزها قوس السحاب بأصفر * على أخضر فى أحمر تحت مبيض
كهيئة خود أقبلت فى غلائل * مصبغة والبعض أقصر من بعض

وقول ابراهيم بن سهل الاسرائيلى فى الأندلس

أشمس فى غلالة أرجوان * وبدر طالع أم غصن بان
وثغر ما أرى أم نظم در * ولحظ ما حوى أم صارمان

وقلت فى نفسى هذا أوان الجذل والغزل فى صور لاتفنى ولاتزول ، فأما فى الأرض فانها صور زائلة وهذه هى السعادة التى لانهاية لها ، فإن هذه الحسناء الهيفاء قد ازداد جمالها بضع مرات وهى تزداد بهجة وجمالا وحسنا وبهاء ورقة إن الجمال فى أهل الأرض لم يجتمع لامرىء قط ، فإذا أشرق وجه الشباب بالجمال ، فالهيام إنما يكون بالظواهر غالبا فيه ، وإذا أضاء قلب الحكماء والعلماء أحبهم تلاميذهم وأغرموا ذلك الغرام ببواطنهم لا بظواهرهم لأنهم لايستأهلون لذلك الهيام والحب إلا بعد استكمال قواهم الداخلية وتمام عقولهم وعلومهم ، ولكن لم ير أحد من أهل الأرض جمالا كما أرى أنا اليوم ، فالوجه مشرق والروائح عبقة لم أرهما نظيرا على الأرض ، والجمال يزداد على مدى الساعات ، والحكمة والعلم يضاهيان حكمة أكابر الحكماء وعلم العلماء هنالك أشارت لى أن أشرع فى تحقيق الحق فى الآراء المتقدمة كما تقدم . فقلت : « إن الناس اذا

---

(١) هذه أربعة أمثال تضرب لمن هو كفء للشىء وهو به جدير بجدة كسجدة ، وعذرة بوزن غرفة وجذيل مصغر جذل ، وعذيق على وزنه

ارادوا

أرادوا أن يقفوا على جلية الحق فلينظروا لأنفسهم ، وذلك من «وجهين ٭ الوجه الأول» من جهة الحواس الخمس والعقل وذلك للمعرفة «الوجه الثانى» من جهة العواطف والشعور وذلك للأخلاق

الوجه الأول معرفة الانسان من جهة حواسه الخمس والعقل

إن حواسنا خمس : أدناها اللمس ، وأعلاها البصر ، وفوقها كلها العقل :

(١) أما اللمس فانما يستمد معرفته من المواد المحيطة به مباشرة ، فهو إذن كالأعمى يتلمس مايحيط به

(٢) وأما الذوق فانه وان كان كاللمس ففيه مزية أرقى ، وهوانه يصطفى ماهو أليق للغذاء ، ولايقبل إلا ما اختاره بخلاف اللمس فهو أعم

(٣) وأما حاسة الشم فهى أبعد مدى وسلطانها يكون على المسموعات اللاتى هى ذرات منفصلات من المواد والهواء السفير بين حاسة الشم والمشموم ، إذن هذه واسعة الأفق ممتدة الأكناف شريفة فيها لطف به اقتربت من عالم الأرواح

(٤) وأعلى منها حاسة السمع فهى أبعد مدى ، وأشرف مرتبة ، وأعلى مزية ، وسلطانها يحكم فى الهواء وحركاته لافى ذرات متناثرات من المادة فهى إذن أقرب من الشم الى عالم الأرواح

(٥) وفوقها حاسة البصر فهى لاسلطان لها على عالم المادة ولاصلة بينها وبينه فلاتتصل بنفس المادة كحاستى الذوق واللمس ، ولابذرات طائرات منها كالشم ، ولابلطيف الهواء كالسمع بل سلطانها فى عالم متوسط بين المادة وبين الروح وهوعالم الأثير الذى يحمل الصور الضوئية من المادة ويوصلها اليها . فترى الأشباح والصور والأشكال وقد امتد سلطانها الى أبعد غاية . فاذاكان السمع لايعلم إلاما كان فى عالم الهواء والهواء محدودلايتجاوز (٥٠) ألف كيلومترا فان البصر يمتد سلطانه الى أبعد ماكان فى هذا الجو الفسيح . فهو يرى الشمس على بعد هائل عظيم بحيث تصل القنبلة لها فى ١٢ سنة ويصل لها القطار السريع فى (٣٥٠) سنة . وبعد الشمس الهائل لايقطعه النور فى أكثر من (٨) دقائق و (١٨) ثانية . ووراء الشمس كواكب وشموس وسدم رأت العين أنوارها فى أبعاد شاسعة تقدر بسير النور لابسير القطار ولابسير قلة المدفع مائة ألف سنة بل مائة مليون سنة وأكثر . إذن تبين أن العين أعظم الحواس سلطانا وهى تحكم فى عالم الأثير الحامل للنور فعالمها أقرب الى عالم الأرواح

قاعدة

وههنا ظهرت لنا قاعدة هامة جدا « إن كل حاسة وهبت لنا لن تنفصل عن عالمها فهى به متصلة اتصالا يناسبها . فاللمس متصل بعالم عظيم وهى المواد المحيطة بنا وهكذا الذوق وهكذا الشم دائماملاصق للهواء ، وكذا العين والبصر يشرف على عالم أوسع وأوسع . وكلما ارتقت الحاسة عما قبلها اتسع عالمها والعين بلغت النهاية فى اتساع عالمها حتى انا بالمناظير المعظمة لم تقدر المدى الذى تراه العين فى الاتساع والعظمة واللطافة المتناهية وهى لطافة النور فى عالم الأثير

(٦) — العقل

وههنا آن أن نبحث فى حاسة فوق هذه الحواس . ثم هذه الحواس تحضر الصور وهذه الصور تخزن فى خزائن الدماغ وهناك يحصل ازدواج الآراء وتحصل نتائج . فياليت شعرى أى عالم اتصل بالعقل فأعطاه نور المعارف الخاصة به وقل له : « خذ الظواهر البسيطة الآتية من الحواس الخمس وتصرف فيها واستخرج فى الحساب وفى الهندسة وفى الجبر وفى الكيمياء آلاف القوانين » . إن هذه القوانين لاوجود لها فى صور المادة الواصلة للحواس الخمس . فمن أين أتى ذلك العلم للعقل ؟ أجاء له من تلقاء نفسه ؟ إذن فلماذا نرى الحواس

كلها لاعلم لها إلا بما حولها ولكل حاسة عالم يناسبها وبشا كلها وهى درجات بعضها فوق بعض وأرقاها البصر وعالمه وسط بين المادّة والروح ـ وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ـ . إن العقل حقا له اتصال حقيق بعالم عقلىّ وهوأوسع من عالم النور بمالاحد له بل هوعالم لانهاية له قياسا على ماقدمنا ، إذن الانسان يجلس وقد وضع القلم فى يده وأخذ يكتب مايملى عليه عقله ، فالقلم متصل باليد والعقل متصل بعالم عقلى و ينبوع منه يستمد الفكر ، واتصال العالم العقلى بعقولنا كاتصال القلم بأيدينا ، وكأن اليد جسم كثيف اتصلت بجسم كثيف يليق لها وهوالقلم هكذا عقولنا متصلات بعالم لطيف تستمد منه استمداد العين من الضوء والأذن من الصوت وحاسة الشم من الروائح فى الهواء

وهذا البرهان لايرد عليه ماورد على أفلاطون إذ استدلّ على عالم المثال ووجوده كما تقدم بأنه مقيس على المخلوقات الأرضية التى كانت الشمس سبب وجودها وسبب ظهورها لعيوننا وهدايتنا لها . فالله فى مقابلة الشمس وعالم المثال فى مقابلة المحدثات بسبب ضوئها وهداية الله لعقولنا كهداية الشمس لعيوننا وعالم المعانى كالجمال والخير والعدل والعظم والقوّة وغيرها عالم لايتغير باق كما ان الله لايتغير و باق ، والحوادث الأرضية تفنى لأنها وجدت بواسطة عالم يفنى و يتغير وهى الشمس . وهذا البرهان الذى قاله أفلاطون لم يكن مقبولا عند أرسطاطاليس فنفى عالم المثال كما قلناه فيما تقدم . وقال كلا ، ثم كلا . إن عالم المثال لاوجود له والعالم العقلى غيرموجود وانما الموجود عالم المادة ، ومجرّد النظر للمادّة والصورة كاف فى أن عقولنا تدرك القوانين ، وهذا هو السبب فيما وجد مرسوما فى الصورة التى رسمها الرسام الايطالى التى تقدم ذكرها من أن أرسطاطاليس يشير الى الأرض وسقراط يشير الى السماء ، و بسبب هذا اختلف الأحزاب بعد أرسطاطاليس . وقد تقدم الكلام على الرواقيين والأبيقوريين وكيف وقع هؤلاء فى الحلول وشكّ (بتشديد الكاف) طائفة وألحدت أخرى وهكذا مما تقدم فى هذا المقام

و بقى العلم على هذا المنوال حتى جاء العصر الحديث وظهر العلماء فى أوروبا وفيهم يقول الاستاذ (بارتلمى سانتهلير) مترجم أرسطو من اليونانية الى الفرنسية فى القرن الماضى وهو التاسع عشر فى صحيفة (١٠٣) من المقدمة المترجمة مايأتى

« بعد الرواقية و بدون أن أقف على شيشرون ولا على سنيك الرومانى أقتحم عشرين قرنا وأمضى الى (كنت) أكبر أخلاقى فى الأزمان الأخيرة ، اننا نجد من نظرياته خليطا من المذاهب الثلاثة الخ » أى مذهب أفلاطون ، ومذهب أرسطو ، ومذهب الرواقيين

أقول : ولقد قلت فى هذا التفسير مرارا أن الاستاذ (سنتلانه التليانى) ومثله (سبنسر) الانجليزى يقولان كما يقول جميع العلماء منهم : « إن فلاسفة القرون المتأخرة بالنسبة لسقراط وأفلاطون كالبقة بالنسبة للفيل فى مثل هذه المواضيع الشريفة الراقية » وهاهوذا الاستاذ (بارتلمى) يقول كذلك فى مواضع كثيرة من كتابه حتى جعل علماء أوروبا مدينين لليونان . كما ان العلامة (سديو الفرنسى) المؤرخ جعلهم مدينين للأمم العربية الاسلامية ، وكل قال على مقدار ماوصل له من العلم . إذن (بارتلمى) لايرى علماء نبغوا فى علم الأخلاق بعد عشرين قرنا إلا الاستاذ (كانت) ، فماذا يقول فيه ؟ يقول فى صحيفة (١٣٦) مانصه :

« اذا كان من اللازم ترتيب هؤلاء العظماء الذين حلت أفكارهم فانى لا أتردد فى أن أضع العلامة أرسطاطاليس فى الصف الثالث والاستاذ (كنت) فى الثانى وأفلاطون فى الأوّل » و بنى ذلك الترتيب على الاعتقاد لأن أرسطو لم يتكلم فى مستقبل الروح ولافى علاقتها بالله وجعل لسعادة الانسان مدخلا كبيرا فى الأخلاق مع ان الفضيلة وعمل الواجب هو الأولى بالمراعاة . وقال : إن (كنت) وان اعترف بالله و بقاء الروح فان دليله ضعيف جدا أقلّ من دليل أفلاطون ، فان (كنت) يقول : اذا كان الانسان يسعى لاسعاد

نفسه من جهة ولعمل الواجب لغيره من جهة أخرى فان العمل للواجب قد يتعارض مع العمل لنفسه ، وهنالك لاينال مطالبه فى الحياة الدنيا . إذن الحياة قاصرة هنا فلابد من حياة أخرى يرقى فيها ويكون الخلود وهنالك يكافىء الخالق كلا بما فعل »

إذن الاستاذ (كنت) جعل الاقرار بالله وبقاء الروح تابعين للقانون الأخلاقى ، وهذا ضعف ظاهر ولكنه على كل حال أرقى من آراء أرسطاطاليس وان كان أقل من آراء أفلاطون . هذا مجمل الكلام الذى ذكره وأوضحه أيما إيضاح فى المقدمة المذكورة

وأنا أقول : ههنا آراء أفلاطون وهى الصف الأول ، وآراء (كنت) فى الصف الثانى ، وآراء أرسطو فى الصف الثالث . وقد عرفنا فيما تقدم أن آراء أفلاطون وهو فى الصف الأول لم يعبأ بها أرسطاطاليس . وبسبب ذلك تخبطت الانسانية نحو عشرين قرنا من رواقية وأبيقورية وملاحدة أوروبية ، وظهر أمثال ليوكاروس وتوماس هوبز فى انكلترا ولامتريه فى فرنسا وهكذا من الماديين ، لماذا ظهر هؤلاء ؟ لأن العلماء تخبطوا من أيام أرسطاطاليس وهاموا فلم يجدوا من يحدثهم عن الحقيقة بأكثر مما قاله أفلاطون ، وأفلاطون عارضه أقرب الناس اليه وهو تلميذه ، فأين يذهب الناس ؟ فلما جاء (كنت) أتى بمذهب وسط وترك برهان أفلاطون وتنزل الى برهان ضئيل

هذه هى الآراء المنتشرة فى أمم الأرض ، وهذا آخر العلم فيها . فأما البرهان الذى قلته أنا الآن فليس يرد عليه من الطعن ماورد على برهان أفلاطون فضلا عن (كنت)

لقد برهنت ببرهان لايقبل النقض وأقل مافيه انه برهان الاستقراء فقد استقرينا الحواس فوجدناها متصلة بعوالم تحس بها ، فلماذا يكون العقل وحده هو الذى يقوم بعملية الاحساس من ذاته بلاعالم يمده مناسب له ! وهل يعد العقل إلا عقول تماثله وتناسبه ونسبته اليها نسبة الشم الى الهواء والسمع الى الهواء والعين الى الضياء

وأزيد عليه برهانا آخر وهو ان الأرض لم يكن فى استطاعتها وعجزت أن تعطى النبات نموا والحيوان هداية . إن النبات لن ينمو إلا بحرارة وبماء ، والماء لن يكون إلا بالبخار ، ولابخار يثور إلا بحرارة ، وهذه الحرارة لم تستطع ابرازها الأرض فأرسلتها الشمس . ثم ان الحيوان محتاج الى أن يرى سبله فى الأرض . والأرض لم تقدر أن تهديه نورا من لدنها . إذن الأرض قد برهنت على عجزها فى الحرارة وفى الضوء لنمو النبات والحيوان ولهداية الأخير . والضوء أيضا مساعدة فى نمو النبات (كما تقدم فى سورة يس عند آية ـ سبحان الذى خلق الأزواج كلها ـ لأن ضوءها يساعد المادة الملونة فى تعاطى الغذاء من الهواء)

واذا عجزت الأرض عن أخس الأمرين أى الحرارة والضوء لتربى أبناءها فهى عن أشرفهما أعجز وهو الادراك والعقل وغرائز الحيوانات . فاذا كان الضوء استعارته من عالم السماء فهى الى استعارة العقول والغرائز أحوج من عالم ألطف من عالمنا

فهذان برهانان قطعيان يثبتان عالم الأرواح الثابتة ويرفعان هذا الانسان من الحضيض الذى وقع فيه واذن لا يرد على هذين البرهانين ما أورده أرسطاطاليس على أفلاطون ويبقى هذان سليمين من الطعن . واذا كانا أثبت من برهان أفلاطون فهما من برهان (كنت الألمانى) أكثر متانة وقبولا . واذن ظهر معنى قوله تعالى ـ إن الذين قالوا ربنا الله ـ الخ . وثبت بالبرهان العقلى الركن المهم فى علم الأخلاق وهو بقاء الأرواح ووجود الله تعالى . وذلك ان هذه النفوس الأرضية متى ثبت اتصالها بعوالم روحية تناسبها فانا نقول هذه العقول الروحية لابد من اجتماعها كلها بموجود أعظم منها ولابد أن يكون واحدا كما ان أضواء الشمس مهما تكاثر عددها فلها منبع واحد

وههنا تسقط تلك المذاهب المادية لأول وهلة ونقول لأمثال الاستاذ (كارل نخت) القائل : « إن المخ يفرز الفكر بعين الطريقة التى يفرز بها الكبد الصفراء والكلية البول »

لقد أخطأت المرمى ولم تصب الحز ، لقد نسيت أن المخ عضو الاحساس الأعلى والأعضاء الحساسة لها أحكام غير أعضاء التغذية ، ذلك ان أعضاء الحس متصلة بعوالم خارجية وهذا عضو فى داخل البدن . ثم نقول له ولأمثاله : « نحن لا نكذبكم لأنكم أشبه بحاسة اللمس فأحكامكم موجهة الى الحرجة التى وقفتم عندها والرجل الأصم الأعمى ينكر الصوت والضوء »

إذن ظهر أن فلاسفة الأمم كل يقول ما وصل اليه عقله لا غير ، وعلى الحكماء فى الاسلام أن يدرسوا هذه العقول فى هذه الأمم ويستخرجوا الزبد ليرفعوا هذه الانسانية المسكينة

فقالت : لقد أحسنت كل الاحسان وأجدت كل الاجادة وبهذا ثبت البرهان على أساس متين ، فشكرتها . والى هنا تم الكلام على الوجه الأول وهو معرفة الانسان من جهة الحواس وما يتعلق بها وبه ثبتت المعرفة النظرية ، وهذا المقام سيزيد إيضاحا فى ﴿ سورة محمد ﴾ ﷺ عند قوله تعالى ـ فاعلم أنه لا إله إلا الله ـ فى الرسالة التى سميتها « مرآة الفلسفة »

الوجه الثانى

البحث فى الانسان من جهة عواطفه وشعوره

وههنا أقول : قد تبين بالوجه الأول أن حواس الانسان وعقله أشبه بمدرسة يتعلم فيها الناس الارتقاء فى الأحوال والسعادات ، فمن وقف عند الطعام والشراب وحب المال فهو من الطراز الأدنى لأنه لم يجاوز حاسة الطعام . ونرى الناس يسارعون الى السفر برا وبحرا ، لماذا يهجرون الأوطان ويتجشمون المشاق ؟ ليطلعوا على عجائب الأمم والبر والبحر ، وآخرون يتركون الفراش الوثير والطعام اللذيذ والروائح العطرية فى بساتينهم ودورهم ويترددون على دور الصور المتحركة ومحال الغناء مفضلين لذة البصر والسمع على لذات اللمس والشم والذوق . إذن المحسوس كلما كان ألطف كان أشرف وألذ . إذن المحسوسات بالعقل ألطف المحسوسات وأشدها وأشرفها ، فمن قصر فى فهمها ولم يشتق الى ذلك العالم الأعلى فهو غبى لم يدرس نفسه

بهذا وبهذا وحده يفهم النوع الانسانى كله أن الآخرة والأولى نعرفهما من أحوال أجسامنا ، وهذا من سر قوله تعالى ـ وفى أنفسكم أفلا تبصرون ـ وهذا الذى عرفناه فى الوجه الأول نتبعه بما وعدنا به فى الوجه الثانى فنقول :

إن الطفل بعد ولادته نراه لا يعرف إلا نفسه ، ويظن أن كل من حوله مسخرون له ، ثم يأخذ جسمه فى النماء وشعوره وادرا كه فى الازدياد . فاذا تكامل شعوره وتم نماؤه أدرك أن له أما وأبا واخوة ومدينة وأن عليه حقوقا وواجبات فيكون له ذرية وتلاميذ وعشيرة وأمة ، ويحس فى نفسه بحب لهم غريب ، وكلما ازداد عقلا ازداد شعورا بحب الناس حتى أن الفلاسفة والحكماء بعد الأنبياء أحب بنى آدم للناس يحبون لهم الخير على مقدار حبهم . وعلى مقدار ازدياد العلم يزداد الحب . وعلى مقدار النقص يكون نقص الحب للناس . ونرى هناك تناسبا عجيبا بين الأم نحو أبنائها وبين النبى والحكيم نحو أمتهما . فهذه تحنو على طفلها وتسهر عليه وتعطى للطبيب ما تملكه من مال وما عندها من حلى ولا تنام ولا تأكل ويلحقها الضنى وتبيت على الطوى مع انها قد تكون شابة فتية جميلة . ولولا هذا الطفل لأخذت زينتها وتبرجت بحلاها ولكن الرحمة الآخذة بفؤادها قهرتها وأخضعتها لهذا الطفل . ونحو الأم من الحكماء يعطفون عليهم هذا العطف عينه . وهكذا القواد الصادقون يخدمون أوطانهم بأنفسهم . ونرى العالم يزهد فى لذيذ العيش ويبيت ليله ساهرا ونهاره مطلا

ليفرح باسعاد أمته ورقي أبنائها ونجاحهم وفلاحهم . ولقد كنت في أوّل زمان شبابي أقول في نفسي « أتمنى أن أقف على الحقائق وأكون مجهولا لايعرفني أحد ويكون ذلك مسرّة لي » . ولما صارت سني أربعين سنة فأكثر كنت أتمنى لواني جلست في مكان وسمعت الأمة حولي فرحة قد أقامت الأفراح لانتصارها وارتقائها وأنا جالس لايعلمون مكاني وتكون غاية أمنيتي أن أعلم ذلك وأستلذ به وان كانوا لايعلمون

وعلى هـذا الذي ذكرناه الآن تعرض آراء الفلاسفة . فاذا سمعنا (كارليل) يقول : « إن الانسان يعرف قيمة الخير والشرّ بمجرّد الالهام والشعور بدون حاجة الى تمرين » فذلك ظاهر في حال المرأة إذ ترى طفلها وفي حال الحكماء وعظماء الرجال . ومامن رجل أو امرأة إلا وعنده أثر من هذه الغريزة قليلا أو كثيرا فيقلّ في الجهلاء ويكثر في العلماء غالبا . فاذا رأينا (كارنري) و (مل) و (بين) يقولون ذلك إنما يكون بالتجربة والتمرين فنقول : نعم إن معاشرة الكرماء وقراءة تواريخهم وما أشبه ذلك وكذلك التعوّد على الكرم . كل ذلك يزيد فيما اتصف به الانسان بفطرته وهكذا بقية الأخلاق

واذا قيل إن المقصد من الأخلاق هوسعادة الانسان نفسه وهي الاثرة كما يقول (ماكس سترنو ونتشه) قلنا لاغرابة في ذلك ، وهذا حقّ لأن الطفل هذا شأنه ، ولكن المرأة تفدى طفلها بنفسها والحكيم والقائد كذلك . إذن هذان نظرا نظرا جزئيا كما نقول لأمثال (كارل نخت) القائل فيما تقدم : « إن المخ يفرز المعقولات كما تفرز الكبد الصفراء والكلية البول » إنك صادق بحسب ماوصل اليه عقلك وعقلك لم يترقّ عما تلمسه الأيدى بحاسة اللمس ولوكنت مبصرا أوسميعا لعلمت ماعلمنا . فأمثال (ماكس سترنو ونتشه) نظروا نظر الصبي في أوّل حياته يرى أن الناس مسخرون له

له حق وليس عليه حق « ومهما قال فالحسن الجميل

هذه هي أخلاق الانسانية وآراؤها ذكرنا نموذجا لتحليل قضاياها العلمية والعملية ورددنا كل رأى الى مقرّه ، فآراء العلماء في هذه الأرض أكثرها راجعات لأحوال خاصة . أما النظر العام فهو الذى يكون على نسق مابيناه « وماكل مصقول الحديد يمانى »

واذا قيل : « إن السائق لسلوكنا في أعمالنا هو الخوف من التعيير والذم أوحبنا مدح الناس فذلك نقص . واذا كان الخوف من الله أوالرغبة في ثواب الآخرة فهو أكمل ولكنه ليس في المرتبة العليا . أما اذا كان العمل لأحد أمرين إما لحب العمل نفسه مع النية من حيث انه جميل ومحبوب ونافع كأولئك الذين يفدون الوطن بأرواحهم ، فهؤلاء يجدون في هـذا الاقدام سعادة ، فهنا اجتمعت سعادة الناس مع سعادة الانسان نفسه . والمرأة التي تسهر ليلا على ابنها ترى في ذلك انها عملت واجبا أرضاها ولاترضى به بديلا . واما حب الله وطاعته بدون نظر الى ثواب أوخوف من عقاب . فهذا العامل هو الذى يكون كأنه في جنة عرضها السموات والأرض لأنه في كل حين يكون مستحضرا ذلك المقام الأقدس فرحا به في غدوه ورواحه لايبالى بالمستقبل بل يفرح بأنه قائم بواجب في حضرة ربه ويكون إذ ذاك كأنه بين يدى الله تعالى وتحدثه نفسه أن رب الدنيا هو نفسه ربّ الآخرة . ومثل هـذه النفس تعجل لها السعادة في الحياة الدنيا فتكون الأعمال ممزوجة بالسعادة . وهـذا الفريق موجود في الأرض الآن ولكنهم مجهولون ، يحسون أن الله ناظر اليهم ، واذا وقفوا في العراء ظنوا انه أغرى النجوم الثاقبات لتنير الأرض فتذكرهم بجماله فيكونون حالا في حضرته وان كانوا في أجسامهم الظلمانية . فالسالكون للخوف عبيد مسخرون والسالكون للحبّ هم المقرّبون هذا تحقيق المقام . كل ذلك وهي صامتة لاتبدى حراكا

فلما أتممت هذا المقال . قالت : لقد أجدت ووفيت المقام حقه على قدر مايسعه ، وقد أذن الله بظهورها في هذا الزمان لأن الأمم منذ أكثر من عشرين قرنا لم تكن تستعد لها . أما الآن فان الانسانية أخذت تقترب والعقول أخذت تستيقظ . وأنت من الممهدين لرقيها والجدّين لاسعادها . ثم قالت : استودعك الله .

ووضعت يدها على صدرى وقرأت كلمات فلم أحس بشدة ألم لفراقها . ثم غادرت المكان وأنا لا أزال فى عالم الخيال ، وهنالك استيقظت فألفيتنى فى مكانى لم أبرحه ، وقضيت العجب مما رأيت ، وكتبته ليلة أول ديسمبر سنة ١٩٣٠ م

وفى صباح يوم الاثنين أول ديسمبر حضر صاحبى الذى اعتاد أن يباحثنى فى هذا التفسير واطلع على ما كتبته . فقال : حيا الله هـذه الروح التى ساعدتك على ابراز هـذه المعانى ، فلقد حوت كل مايعوزنا من الحكمة ، فهاهى ذهبت آراء علماء اليونان وعلماء أوروبا وبها أدركنا ماوصل اليه فلاسفة العالم أجمع فى قوله تعالى ـ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ـ وبهذا فهمنا معنى ماورد « أوتيت جوامع الكلم واختصر لى الكلام اختصارا »

فاذا كانت هاتان كلمتان لم نفهمهما إلا بعد أن درسنا آراء أفلاطون مع سقراط ثم أرسطاطاليس ووجدنا الآخر يعوّل على المادّة فى العلم والأخلاق ، ولكنى أسألك فى معنى السعادة عند أرسطاطاليس . فاذا كان هو لم يسلم بنظرية العالم المجرّد وخالفه الاستاذ (كنت) الألمانى بعض المخالفة إذ أثبت الثانى العقل المجرّد ورتبه على أن قانون الأخلاق والسلوك يؤدى فى نتيجته الى أن هناك عقلا مجرّدا لينال جزء .. جزاء وفاقا ، فهل يكتفى الأول فى السعادة بمجرد عمل الواجب واللذة العقلية به . قلت . كلا . ان أرسطاطاليس يقول : « إن السعادة يلحظ فيها جانب الأهل والأصحاب حتى جمال الانسان نفسه » . فالسعادة عنده رأسها سلامة العقل ووفور الحكمة . ويداها ورجلاها الزوجة والولد والأصحاب والمال

وقد قرّر ذلك الامام الغزالى رحمه الله تعالى فى كتابه الاحياء وفصل السعادة الى ستة عشر نوعا وجعل للعقل أربعة وللأصحاب والولد والأهل أربعة وللأمور الخارجة عن هـذا كله أربعة كالتوفيق والتأييد وما أشبه ذلك . ولاجرم أن ذلك يرجع الى رأى أرسطاطاليس . فقال : وما الرأى فى هذا ؟ فقلت : إن الرأى عند الفلاسفة قد قدمته وهو أن الفكرة العامة الايثار وأن يجعل المرء نصب عينيه إسعاد المجموع . فأما هـذه الأقسام التى زادها هو على السعادة النفسية وتبعه الامام الغزالى فيها فهى صالحة للسعادة والشقاء . فالولد والمال والأصحاب . كل هذه صالحات لخير الانسان وشرّه وهى تعين على عمل البرّ كما تعين على عمل الشرّ . إذن هذه آلات صالحات للسعادة فتزيدها وصالحة للشقاوة فتزيدها . وخير من أفصح عن ذلك هو (نفز قابس) الذى لخصناه فى مواضع من هذا التفسير . وعلى ذلك لا تصلح هذه الخيرات الأرضية للفرح بها . وكيف يفرح الانسان بها وهى معرضة للزوال فيكون الحزن والحزن شرّ وهذا سرّ قوله تعالى ـ إن الله لايحب الفرحين ـ لأن الفرح يدل على قلة المعرفة بالحقائق . وهذا هو السبيل الذى انتقد بسببه بعض فلاسفة أوروبا الأخلاق عند أرسطاطاليس ، فنجد أن (بارتلمى) الذى تقدم ذكره فى صحيفة (٩٨) من المقدمة التى ذكرها فى النسخة المترجمة يقول : « انى أضع أخلاق أرسطو مع مابها من عظم فى مقام أنزل بكثير من أخلاق أفلاطون وسقراط . وان (بروكر) أقسى منا فى حكمه إذ يرى أن أخلاق أرسطو إنما جرّه اليها مظهر معيات الملوك التى عاش فيها وليس صالحا إلا الى تكوين بطانة تهمهم ثروتهم أكثر مما تهمهم سعادتهم ، أو أمراء كالاسكندر أشغف بالمجد منهم بالفضيلة » اهـ

وأقول أنا : فما ذكره الامام الغزالى فى الاحياء تابعا أرسطاطاليس قد لطفه هو فى الاحياء كثيرا واضطر لذلك فيه لأن فلسفة أرسطاطاليس هى الشائعة إذ ذاك . ثم ان أرسطو كما تقدم جعل العلم ليس راجعا إلا الى المادة لا الى المثل الأفلاطونية . وقد تقدم شرحه مرارا . وهذان سببان فيما تقدم من أن روفائيل المصوّر صوّره فى الفاتيكان مشيرا الى الأرض كما صوّر سقراط مشيرا الى السماء . إذن أرسطو كما أنزل العلم النظرى الى عالم المادة وجعله مرتبطا به هكذا جعل السعادة فى الأخلاق لها ارتباط بالمادة

وأذكرك أيها الذكي بما كتبته في ﴿ سورة البقرة ﴾ عند قوله تعالى — وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون — الخ فهناك ترى ملخص ﴿ لغز قابس ﴾ اليوناني الذي عاش في زمن سقراط قبل أرسطاطاليس بزمن ، وكان ذلك في نحو القرن الخامس قبل الميلاد

ويقرب منه من حيث هذا المعنى كتاب « الكوخ الهندي » المؤلف في القرون الأخيرة بالفرنسية وقد لخصته سابقا في هـذا التفسير . فقال : « أي الفريقين يؤيد القرآن ؟ أفريق القائلين بأن السعادة مادية ، أم القائلون بأنها معنوية ؟ فقلت : الفريق الثاني . فقال ماديلك ؟ فقلت : — ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون — ، فقوله — ويؤثرون — الخ هو عين مايقوله علماء الفرنجة فيما تقدم (التضحية) . ومن هذا القبيل الجهاد في سبيل الله ومنه — إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم — الخ وكيف يكون المال والولد سعادة ﴿ كما يقوله أرسطاطاليس ﴾ في القرآن والله يقول — ولا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون — فإذا كان المال والولد عذابا كما في القرآن وفي صريح قول سقراط وقابس فكيف يكون سعادة ؛ فقال يالعجب إن حكم القرآن وأسراره هي نفس آراء أعظم الفلاسفة . وهنا أود إن سمحت أن أسألك في معنى بقية الآية فإن ماتقدم كله في معنى — إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا — الخ لأن النظريات العلمية ترجع لقوله تعالى — قالوا ربنا الله — والنظريات الخلقية كقضية أرسطاطاليس وكنت وغيرهما ترجع الى — ثم استقاموا — فما معنى قوله تعالى — تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون * نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ماتشتهي أنفسكم ولكم فيها ماتدعون نزلا من غفور رحيم — قلت : هذا المعنى تقدم في أول هذه المقالات . ألا ترى الى مايقوله حكماء الأمم قبل الاسلام وبعده وقد نقلناه قريبا والمنقول عن علماء الصوفية بحر لاساحل له في مساعدة الله تعالى للصالحين والمسلمون قد برعوا في هذا

والسبب في تلك المساعدة والمدد لهؤلاء الصالحين انهم متى صلحت أعمالهم ، واستنارت عقولهم ، وعرفوا أن نفوسهم متصلة بعوالم مجردة غير مادية صاروا أقرب اليها وأصبحت عند عقولهم قريبة كقرب المادة من أجسامهم ، فهنالك يحسون بالهام وبرحاب وبشائر ، ولا يعرف هذا إلا هم ، أما غيرهم فانهم محرومون من ذلك ، فمثلهم كمثل أكثر النوع الانساني من حيث مشاهدة الجمال ، فالجمال حولهم ولكنهم لايفرحون به لأنهم محجوبون عن جمال النجوم والشجر والأنهار والبحار والأزهار ، ذلك لأنهم من يوم أن أتوا الى الأرض لم يسمعوا عن سعادة إلا سعادة المال والسلطان ولم تفتح لهم أبواب سعادة الجمال ، فأغلب النوع الانساني محرومون من هـذا الجمال والاحساس به مع انهم يرونه بعيونهم وهم محرومون منه . ولاريب أن المحسوسات بالحواس أقرب الى عقول الجمهور . فاذا كان الأقرب لعقولهم وهو الجمال لم يدركوه ولم يسعدوا به فكيف بما هو أبعد من حواسهم وان قرب من عقولهم وهو عالم الالهام والبشارة في عوالم عقلية متصلات بعقولهم وهذه العوالم صلة بينهم وبين ربهم . فهؤلاء هم المحجوبون بسبب أن أبواب عقولهم أقفلت بينهم وبين الأرواح العالية . فاذا أحسوا بالهام أو رأوا رؤيا فرأوها صباحا مثل فلق الصبح ثم رأوا مثلها مرارا وتكرارا فانهم يقولون هذه مصادفات . واذا أغيثوا في حال الضيق أو ألهموا أمرا نافعا فانهم قلما يكترثون له ويقولون هذه مصادفات وهم يجهلون انهم مغمورون في رحمة الله وهو قريب منهم وهذه علامات قربه ولكن استعدادهم الناقص حجبهم عن ربهم فلم تفتح لهم أبواب السماء . وهـذا الباب يفتح للعامة بطريق الذكر والتقوى وللخاصة بذلك وبالتفكر والعلم

واعلم أن كثيرا من قراء هذا التفسير سيفتح لهم هذا الباب وهم المتوسطون في الفهم الذين لهم صلاة به يدركون البرهان الذي فتح الله به علينا فان أحدهم يجلس وقد أغمض عينيه وفكر فيرى أن روحه قطعة

متصلة بعالم روحي تستمد منه . وهنالك يحس أحدهم بأنه في عالم قدسي . وهؤلاء هم الفريق الذي ورد فيه الحديث «اعبد الله كأنك تراه الخ» فهذا باب من أبواب كأنك تراه . وهذه من أعظم درجات الناس في الدنيا ، فنحن لانرى الله بعين البصرة ولكن بهذا البرهان نراه بالبصيرة . وهناك درجة أقل من هذه وهي أن نعبد الله ونعلم أنه هو يرانا . وهذه درجة أقل من تلك لأني اذا كنت ألحظ الله وجماله في نفسي وفي كل ماهو حولي فان ذلك أشرف من أن أكون عبد سوء فأعبده خوفا من ناره أوطمعا في جنته وتكون عبادتي مبنية على تلك الأسباب مرتقبا منه إزاحة ناره عني أوان يدخلني جنته . وخير من هذا أن أكون كأني أراه في الحياة فاذا مت فاني أراه بعد موتي ورؤيتي له في الآخرة أجل من الجنة وهو المعبر عنه بقوله تعالى – ولدينا مزيد – والمقول فيه – وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة –

ولما وصلت الى هنا قمت وتوضأت وسجدت لله شكرا على نعمة العلم في هذا المقام وصاحبي يشاهد ذلك فقال : لقد شرحت صدري ، وصرت موقنا إيقانا تاما ، وأصبح المعسور ميسورا ، والمجهول معلوما ، وعلمت أنا مالم أكن ولا كثير من أمثالي نعلم وكان فضل الله علينا كثيرا . فقلت : الحمد لله رب العالمين

تذكرة

إني غادرت القاهرة وتوجهت الى مزرعتنا بالمرج يوم الاثنين أول ديسمبر سنة ١٩٣٠ م وسرت على قدمي نحو أربع ساعات لمجرد الرياضة ، وهنالك خطرت لي هذه الخواطر فكتبتها يوم الثلاثاء ٢ منه وهي :

نواظر الجواهر ، لنفائس العرائس

في خلاصة ما تقدم هنا من الحكمة العلمية والعملية

ذلك إنما مثل النفس الانسانية مع حواسها كمثل الشمس مع سياراتها ، فكما أن للشمس سيارات عليا كزحل والمشترى تدور حولها ، وسيارات سفلى كالزهرة وعطارد ، هكذا للنفس مدركات عليا كالعقل والعين ومدركات سفلى كاللمس والذوق ، وباعتبار آخر ان المدركات ﴿ ثلاثة أقسام ﴾ قسم أعلى كالعقل . وأوسط كالعين . وأدنى كبقية الحواس ، فباعتبار التقسيم الأول كان الفلاسفة على قسمين : قسم أقرب الى المادة وهم الملحدون ، وقسم هم أقرب الى العقل وهم الروحيون ، وكل لم يقل إلا ماوصل اليه جده واجتهاده لاأقل ولا أكثر ، فالملحدون أشبه بالصم العمي لم يعرفوا إلا ماتلمسه أيديهم و يشمونه و يذوقونه ، والآخرون لهم عيون ولهم عقول . والصورة التي رسمها روفائيل في الفاتيكان مظهر لذلك التقسيم . فأرسطو للقسم الأرضي وسقراط للقسم السماوي . و باعتبار التقسيم الثاني يكون أفلاطون كالعقل والاستاذ كنت كالبصر وأرسطو كالحواس الملابسة لعالم المادة . ذلك ان برهان الأول في إثبات وجود الله وخلود الروح أرقى من برهان الثاني و برهان الثاني لايحتمل المصادمة لأنه علقه على قوانين الأخلاق وأن من الناس من لاينالون مكافآت في الحياة فلاجرم تكون للناس حياة أخرى وإله يجزي بالعدل . و برهان أفلاطون رجع الى الشمس وما خلقه الله بسببها وهدايتها للحيوان وأن ذلك يقاس عليه وجود الله ووجود عالم المثال

وهذا هو خلاصة عقول الناس منذ (٢٥) قرنا ، فأولهم أفلاطون مع سقراط ، وهذا هو برهانه الذي نبذه أرسطو وعول على المادة والصورة في برهانه فخالفه تلاميذه ، فأخذت الانسانية كلها تتخبط الى وقتنا هذا فكان الرواقية والأبيقورية قبل الميلاد ، فالرواقية وقعوا في الحلول ، والابيقورية قالوا باللذة الروحية بالفلسفة . وتعالى الرواقية في الفناء وفي البحث عن كشف ماوراء الحس

فأما بعد الميلاد فقد نشأت الفرق الثلاث . الاسكندرية والأثينية والسورية . وأشهرهم أفلوطين وشيعته بمدينة الاسكندرية وهؤلاء هم الأفلاطونية الحديثة

ثم انتقلت الفلسفة الى الأمم الاسلامية والأمم الاوروبية ولم يظهر بعد الرواقيين فى الأخلاق عند أوروبا إلا الاستاذ (كنت)

هذه خلاصة الأمم تجلت واضحة جلية ، وقد عرفت أهم آراء هذه الأمم كلها ، وعرفت براهينهم بغاية الجلاء والوضوح

أما تفسير الجواهر فقد أتى ببرهانين (الأول) المدركات كلها مغموسة مغمورة ومتصلة بعوالم تناسبها ، وهذه العوالم تكون أعظم وألطف وأجل وأوسع كلما كانت أرقى ، فاذا وصلنا من أدنى الحواس الى أعلاها وهي الحس ووجدنا هذه القاعدة مطردة فمن الجهل ومن البله ومن الحق أن نحرم المدرك السادس وهو أعلاها بل سيدها من هذه المزية وأن يكون متصلا بعالم يشاكله ويكون أعظم وألطف وأجل وأوسع من العالم المتصل بالمدرك الذى يليه مباشرة وهو العين . وهذا البرهان حديث النشأة لم يذكره أحد من هؤلاء الفلاسفة ، ولن يرد عليه أى اعتراض مما ورد على الاستاذ (كنت) ولا مما ورد على أفلاطون وسقراط ، واذن تستأنف الانسانية اليوم دورا جديدا فى العلم والحكمة بعد هذا البرهان (البرهان الثانى) يساوى البرهان الأول فى القوة ان لم يكن أقوى منه ، وذلك أن نقول ان الأرض عجزت عن إيجاد حرارة بها تثير البخار من البحار وتثير الرياح فيكون مطر من السحاب المحمول بالرياح ، وعجزت أيضا عن ضوء يساعد النبات على التغذية والحيوان على الاهتداء فى فجاج الأرض ومسالكها والانتفاع بالحياة فيها ، ونجدها استعارت الحرارة واستعارت الضوء من الشمس ، فانا نجد الحيوان لايرى غذاءه ولا يميز عدوه من حبيبه إلا بالضوء ، ونرى المطر والرياح لا يكونان إلا بحرارة باعثة ، ونرى أوراق النبات لاتجتذب غذاءها من المواد الغذائية فى الهواء إلا بمساعدة ضوء الشمس لها (انظر ماتقدم فى سورة يس عند آية — سبحان الذى خلق الأزواج كلها — الخ فهناك ترى الأوراق مرسومة مشروحة وتفهم ذلك هناك فهما تاما)

فاذا رأينا أرضنا عجزت عن إمداد أبنائها بالحرارة وبالضوء واحتاجت الى الشمس فى ذلك فهى عن إمداد ما يكون عليها من حيوان بالادراك والغرائز والعواطف والعقول أولى ، ومن عجز عما هو أسهل وهو المحسوس بحواسنا من الحرارة والضوء فهو عما فوق ذلك مما تدرك عقولنا أشد عجزا . فثبت بهذا البرهان أن المادة لاتقوى على إحداث نفس أوعقل أوغريزة أوشعور فى الحيوان لأننا وجدناها قد أظهرت عجزها ولم تسعفنا بما هو أسهل وأقل عناء

فهذان البرهانان اللذان وضحا وضوحا تاما بهما طاحت تلك المذاهب البائدة وبهما تخرج هذه الانسانية من خطل الرأى والاغترار بالألقاب الفخمة العريضة الطويلة التى يغتر بها الأحداث فى المدارس فيظلون يسمهون بسبب سوء التقليد بلا عقل ولاهدى ولا كتاب منير

هذا هو نهاية الكلام على الحكمة العلمية . ومما يلحق بهذا مسألة الحرية وهل نحن أحرار فى أعمالنا واذا لم نكن أحرارا فلم العقاب ؟ واذا كنا أحرارا فأين هى تلك الحرية ؟ فأفلاطون أجمل فى هذا وآخرون استدلوا على وجودها بما اتفق عليه العقلاء من التمييز فى العقاب بين العاقل وغير العاقل وهكذا فدل ذلك على أن هناك حرية نتمتع بها ولاأطيل فى هذا الآن

الحكمة العملية

ملخص ماتقدم

(أولا) إن فى الانسان إلهاما يميز به بين الحسن والقبيح فى الأعمال كما يميز بين الجميل وغير الجميل فى الأجسام والتجربة تعين الانسان على ذلك

(ثانيا) إن غاية سلوكنا إما أن يكون نفعنا الخاص بنا وهى الاثرة واما أن يكون النفع العام
(ثالثا) ما الذى يحبينا الى تلك الأخلاق ؟ أهوصوت باطنى فى نفوسنا أم هوأمر خارجى كالخوف من الله أومن الناس ، أوحب المدح ، أوحصول الثواب

هذه آراء الأمم ، أما ماجاء فى تفسير الجواهر فهوانا كما فعلنا فى القسم النظرى إذ عوّلنا على النظر فى المدركات الست للانسان هكذا فعلنا فى القسم العملى الخلقى وقلنا لننظر الفرق بين طفل يستخدم جميع مواهبه فى الاستعانة بما حوله و بين حكيم ومحب لوطنه وأم ترضع ولدها وأب ينفق عليه ، فهؤلاء فى الذروة العليا من العطف والاشفاق والرحمة والايثار وذاك فى الدرك الأسفل فى الحياة ، وعلى ذلك يزول خلاف الفلاسفة إجمالا فمن قال لا أعمل إلا لنفسى قلنا له : هاأنت ذا عرفت درجتك ، فأنت إما طفل ، واما صبى ، واما مراهق ، والناس درجات لاحصر لها كدرجات الانسان فى حياته ، فهذا المثال لايذر مذهبا إلا دخل فيه ، فمن قال بالهداية الذاتية فهى مشاهدة ، ومن قال بالتجربة فكذلك ، ومن قال أخدم المجموع . فهاهى ذه الأم مع ولدها وهكذا فالمثال واضح جلى . وقيمة الفلاسفة تختلف باختلاف معارفهم . وأذكياء قراء هذا التفسير هم الذين يكونون شهداء على الناس . ذلك لأنهم يقرؤن علوم الأمم لكنهم هم الذين يحكمون على الفلاسفة بعقولهم على منوال ماجاء هنا فى تفسير الجواهر . أما ترك هذه الانسانية تتخبط فى ديجور الظلام فهذا لايجوز ولا يسمح ونحن خلفاء الله فى أرضه

(جمال العلم فى الحكمة العلمية والحكمة العملية)

لقد ضربنا المثل بالانسان فى الحكمة العلمية والحكمة العملية ورأينا أن قوته العقلية كما تتخذ الحواس الخمس آلات لها فى اكتساب المعارف الجزئية تستمد من العالم العقلى الكليات والكليات هى العلوم الحقيقية أما مدارك الحواس فهى قليلة جزئية و يعتريها الخطأ فان العين قد ترى الكبير صغيرا كالشمس . وترى الصغير كبيرا كالأصبع فى الماء . وكم للحواس من خدع ولايصلح تلك إلا العقل السليم

إذن كل ماعندنا من العلوم الرياضية والطبيعية وغيرها مستمد من عالم عقلى وهومستمد من المبدإ الأعلى الفياض القدسى كما تشرق الشمس بأنوارها على أرضنا وعلى السيارات الأخرى . فهكذا فى أخلاقنا وأعمالنا وشعورنا وعواطفنا نقول ما قلناه فى القسم النظرى : « اذا عجزت المادة عن أن تمد الأجسام بالحرارة والعيون بالضوء فما أشد عجزها وأضعف قوتها وماأوهى حيلتها فى إلهام الأم حب ولدها والهام الاستاذ حب ارتقاء تلميذه وشوق نفوس الحكماء الى التآليف للأجيال المقبلة التى لم يروها ولن يروها ، فمن أين أتت محبات الأقارب والأصدقاء والأزواج والذرية ؟ بل من أين أتت هذه الشهوات الطالبات ملابس وأغذية وأزواجا وذرية ومساكن وملكا عظيما ، ومن أين أتت هذه البواعث الشديدة فى نفوسنا من المحافظة على العرض والشرف والنجدة وحماية الذمار ، فاذا قلنا ان ذلك من نفس المادة التى خلقت هى فيها ، وأن تلك العواطف والحب والغرام والشوق كلها ناجمات من نفس الطبيعة يكذبه أن هذه الطبيعة الميتة عجزت عن إحداث الحرارة اللازمة لها وعن إحداث الضوء وبالأولى عجزت عن إحداث عقل وادراك ، فهكذا هى أشد عجزا عن إثارة الحب والغرام والعواطف والشهوات

فثبت إذن أنه كما ان الحرارة تثير البخار من البحار وتثير الرياح ويحمل الأخير الأول فيكون مطر ويحدث نبات وحيوان هكذا هناك فينا شهوة فى مقابلة الماء وغضب فى مقابلة الرياح ، وهناك باعث من أعلى لامن الطبيعة يثير أنواع الشهوات لنتغذى ونلد ونلبس ونسكن ، و يثير الحمية فنحافظ على الشرف والمال والعرض ، وهذا الباعث المسلط على نفوسنا آت من العالم الأعلى كما ان الادراك فى القسم النظرى صدر منه ، فصدور هذا الباعث هنا من العالم الأعلى القدسى فى مقابلة صدور الحرارة من الشمس فى العالم الحسى والضوء

والحرارة

وإثارة السحاب والرياح ثم هداية الحيوان على الأرض ، ونتيجة ذلك كله البهجة والجمال والحسن والكمال

فاذا جلست أيها الذكي في خلوتك وفكرت في نفسك وأيقنت أن عقلك وجميع علومك لها اتصال بعالم عقلي أنت فرع منه وهذا العالم العقلي أوسع من عالم النور وهو مستمد من الله ، فهنالك تحس بأنك في عالم جميل بهيج ، وإذا لم تبتهج بذلك ففكر حالا في جمال النجوم ليلا والشجر والزهر والأنهار نهارا وهكذا ترجع الى ما ألهمت من عواطف ، وما منحت من شرف وحماسة وعفة وكمال وحب عام لرقي نوع الانسان ورقي أهلك وعشيرتك . وقد علمت أن هذه إن هي إلا قبس من ذلك الفضل العميم والحب الأعلى والاحسان الكامل وأن إحسانك وحبك وعطفك كل ذلك مقتبس من العالم القدسي وأن العوالم التي يستمد منها عقلك هي نفسها التي تستمد منها عواطفك الحب والاحسان والرفق والغرام بالنفع العام . فترى نفسك إذن كأنك عالم صغير وتفرح بأن لك صلة بجمال لاحد له وكمال لانهاية له فترتقب الموت ارتقاب الفرح بالكمال المقبل على سعادة لانهاية لها . ولن يتم لك ذلك الحب والغرام إلا باطالة التفكير والبحث وتصفية النفس وكثرة الصيام والقيام . هذا هو سر هذا الانسان . وهذه هي سعادته . وهذه هي النفس المطمئنة التي نوديت فقيل لها ـ يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي ـ

خطاب الله عز وجل شكرا له

لك الحمد اللهم على الالهام والانعام والحكمة والجمال ونعمة العلم والنور . علمتنا وأنرت بصائرنا فنحن نعلن شكرنا ونثني عليك الثناء كله . أريتنا آياتك في الآفاق وفي أنفسنا . نظرنا في نفوسنا وفي الآفاق فألفينا :

(١) أولا صورا جميلة في الكواكب وفي الزروع والشجر والنهر والقمر وفي المعادن والحيوان وفي الانسان وجمال وجهه في محاسن الخدين والعينين والأنف والفم

(٢) ثانيا أثرت في أنفسنا شهوات لاقوام لحياتنا إلا بها . وهل نعيش إلا بالطعام والشراب واللباس والمسكن . وهل نحافظ على هذه الحيا كل الجسمية إلا بحافظ يحفظها وهي القوة الغضبية التي بها ندافع الأعداء من الخارج ونهذب أنفسنا من الداخل ولانفرط في حقوق الجسم والمحافظة عليه باثارة الحمية لأجل حب البقاء

(٣) ثالثا جعلت لنا عقلا ينظم القوتين السابقتين فهو نبراسهما ومعلمهما ومهندسهما ومنظمهما

ولما عز علينا فهم تلك الحقائق ومعرفة تلك القوى العاملة فينا أريتنا ما في الآفاق نعرفنا الحقائق . أريتنا الماء وأريتنا الهواء ومنهما تثير الحرارة البخار وتزجي الرياح ويحمل الريح الماء على متنه ويسوقه الى الأرض البعيدة مرغما لسقي الأرض فيكون النبات والحيوان ، فيكون الضوء مساعدا على تغذية النبات أولا وعلى هداية الحيوان ثانيا

فهما عالمان : عالم حامل ، وعالم محمول أثارتهما الحرارة وجاء دور الضوء فكان الغذاء لتمام الاشكال والهداية للسبل

فلما نظرنا في هذه الحرارة وفي هذا الضوء وجدناهما جاءا من عالم الأثير بسبب الشمس وعالم الأثير وسط بين عالم المادة وعالم الأرواح . والضوء في هذا العالم الوسط يجري بسرعة هائلة بحيث يدور حول الأرض نحو ٧ مرات في ثانية واحدة . هذا هو العالم الوسط بين المادة وبين الروح الذي أثار الماء وأثار الهواء ونظم الغذاء والهداية في فجاج الأرض . والأرض لاقبل لها بالحرارة ولاقبل لها بالضوء

فلننظر فيما هو أبعد مدى من ذلك فاننا نجد أمرا عجبا . نجد أولا قوى تبحث على الغذاء . وأخرى تحافظ على هذه الهيا كل داخلا وخارجا وهي الغضبية وأخرى هادية مرشدة . وهذه تقابل الحرارة والضوء في عالم المادة

فمن أين أتت هذه القوى الثلاث؟ أمن المادة أتت؟ كلا. لأنها عجزت عن احداث الحرارة والضوء وهما وسط بين الحسى والعقلى، أجاءت من عالم النور الآتى من الكواكب وهو العالم المتوسط بين العالمين. كلا. فأين النور وأين العقل مثلا الذى هو ألطف منه. إذن هذه القوى بريئة من المادة وهكذا القوى المنظمة للعوالم الكوكبية والنباتية والحيوانية اللاتى تحدث التزويق والجمال

فهذه كلها لن تكون إلا من عالم فوق عالم النور وهو عالم الأرواح، وهذا العالم فاض من الذات القدسية كما فاض النور من جرم الشمس. إذن كل جمال فى الانسان والعوالم حوله؛ وكل قوة فيه علت أو سفلت فائض من عالم روحى متصل بالقدس الأعلى

وبهذا نفهم قوله تعالى ـ الله نور السموات والأرض ـ، فكل جمال فى شجر أو زهر أو كوكب روحه فهو قبس من العالم القدسى وهكذا قوانا الباطنية من عقلية وغذائية والقوى المحافظة على ذلك فكلها نور معنوى وزع على منافعنا من ذلك الجمال الأقدس

وهذه الأنوار الداخلة فى أجسامنا، الظاهرة فى جمال ماحولنا، وفى وجوهنا يشملها قوله تعالى ـ مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ـ. إذن يارب أنت فى علمك القديم علمت عجزنا عن أن ننظر أنوارك فملأت أرضنا بأنوار جعلتها فى مقابلة نورك، وكل نورمنها مشكاة، فعواطفنا وعلومنا وجمالنا والقوى الداخلة فينا وبهجة القمر والنجوم والأزهار كل واحدة منها كأنها مشكاة من نورك، ولكن لم تبح لنا أن ننظر نورك نفسه لأننا لانقدر عليه غاية الأمر أننا نفكر أو ننظر جمال الشجر أو الزهر أو الوجوه الجميلة، أما وجهك فلا. أنت يارب بالنسبة لعقولنا كالشمس بالنسبة لأبصارنا، عجزت أبصارنا عن أن تنظر اليها فهكذا عجزت عقولنا عن أن تراك ففرحت بالمشكاة إذ لانطيق أكثر منها، المشكاة فى أرضنا مستمدة من الشمس وعقولنا وجميع الجمال الداخل والخارج عندنا مستمد من أنوارك الجميلة

إن نبينا ﷺ رأى وهو فى حال الاحتضار ذلك الجمال والكمال والحكم والحب العام والرحمة، وغاية الجمال الذى كل جمال فى الأرض ماهو إلا مشكاة، فماذا قال؟ « قال اللهم الرفيق الأعلى »

رآك بعين بصيرته ولكننا الآن عرفنا ذلك بمجرد الفكر، نحن الآن نطيق الفكر فى هذا ولكننا لانطيق جمال « الرفيق الأعلى » ولا أنواره إلا اذا كملت نفوسنا، إن جمال عقولنا وكمال نفوسنا أشبهنا فنحن نطيقه، ورسولك لما رآك وقدر أن يراك خاطبك قائلا « اللهم الرفيق الأعلى » لأنه رأى جمالا نسبته الى جمالنا كنسبة نور الشمس الى نور السراج فوصفك بالأعلى يعنى ونحن رفقاء ولكننا أدنى، وانما كنا أدنى لأن علمنا وجمالنا وحلمنا وجمال صنع صناعنا ورحمتنا لعبادك ضئيلة جدا، فيرحم أحدنا طفلا ولد له ومريضا أشرف على الهلاك. ولكن لضيق الرحمة عندنا وضيق الحب لم نبذلهما إلا لعدد محصور لأن رحمتنا محصورة وحبنا محصور على مقدار ضعف نفوسنا لأن كلا منا مشكاة. فاذن كل منا رفيق أدنى. ولما رآك ﷺ واطلع على رحمتك وجمالك وحبك لكل مخلوق وأنت منعم على الكل ترك هؤلاء الرفقاء الضعاف واشتاق الى الرفيق الأعلى. انتهى والحمد لله رب العالمين. كتب ليلة الخميس (٤) ديسمبر سنة ١٩٣٠ م

***

وقبل الفراغ من هذا المقام يحسن بنا أن نختمه بما يناسب الآية التى نحن بصدد الكلام عليها وذلك (بزهرتان: الأولى) فى قوله تعالى ـ إن الذين قالوا ربنا الله ـ وهى الحكمة العلمية (الثانية) فى قوله تعالى ـ ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولاتحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون * نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ماتشتهى أنفسكم ولكم فيها ماتدعون نزلا من غفور رحيم ـ وهى الحكمة العملية. فلأشرع فى ذكرهما فأقول مستعينا بالله

زهرتان فى بستان الحكمة العلمية والعملية

الزهرة الأولى فى قوله تعالى ـ إن الذين قالوا ربنا الله ـ وهى الحكمة العلمية

جاء فى جريدة الضياء بتاريخ يوم الأحد أول شعبان سنة ١٣٤٩ هجرية الموافق ٢١ ديسمبر سنة ١٩٣٠ م تحت العنوان التالى مانصه :

التوفيق بين العلم والدين

رأى العلامة سرجيمس جينس

إن عقولنا تتحيز للتفسير الآلى ، ويرجع بعض السبب فى ذلك الى طريقة نشأتنا العلمية الأولى كما يرجع السبب فيه أيضا الى أننا ننظر كل يوم الامور تسير آليا ميكانيكيا . لذا كان التفسير الميكانيكى هو التفسير الأسهل الذى لايحتاج الى كثير عناء أو الى مجهود فكرى عنيف ، وهو علاوة على ذلك تفسير طبيعى ، ولكن اذا نظرنا الى الحالة العامة نظرة دقيقة وتامة غير متأثرين بنوع تربيتنا العلمية والى شعورنا الشخصى نرى أن المادة قد فشلت فشلا مروعا سواء أكان ذلك فى العلم أم فى الفلسفة ، ويوجد الآن شبه اجماع بين العلماء أن العلم يتجه نحو الحقائق غير الآلية وصار ينظر الى العالم كأنه يمثل فكرة عظيمة بعد أن كان يعتبره آلة ضخمة

وابتدأ العلماء يشعرون بأن المادة ليست غريبة عن العقل ، ثم أخذوا يرحبون بالعقل و يعتبرونه منظما للمادة لايقصد بذلك عقل الانسان ولكن يقصد العقل الذى منه نمت عقول الناس

إن العلم الحديث يلزمنا أن نغير موقفنا الذى اتخذناه بدون طويل بحث أو روية ، ذلك الموقف الذى كنا نجاهر فيه أن العالم مادى لاأثر للحياة فيه ولاعلاقة له بالعقل ، ذلك الموقف الذى كنا فيه نعتقد أن بين المادة والعقل عداوة قائمة ، يجب أن نغير ذلك الموقف لأنه لاعداوة أوخلافا بين المادة والعقل بل هما يتفقان وذلك لأن المادة وليدة العقل وهو سببها

ومن هذا يتبين أن التفسير المادى للكون قد صار قديما وأن العلم قد ارتقى فترك هذا التفسير أثرا بعد عين ، و يشعر علماء النفس الآن أن فى العالم حقائق روحية ونفسية لايمكن ادراكها إلا اذا اعتقدوا بصحة الدين وضرورته . انتهى ما أردته من الجريدة المذكورة . تمت الزهرة الأولى

الزهرة الثانية

جاء فى كتاب اخوان الصفاء ما يأتى :

ذكر أن رجلا من المترفين وأرباب النعم ممن قد بسط له دنياه ومكن فيها جعل أكثر جهده وكده طول عمره ليلا ونهارا فى تنعم بدنه ورفاهة جسمه ولذة عيشه واصلاح شهواته حتى لم يكن له فى طول نهاره شغل إلا دخول الحمام وحلق رأسه وتمريخ بدنه أوتغيير لباسه أوتبخير ثيابه وبدنه واستنشاق طيبه أوتنقله من مجلس الى مجلس فى تجديد لذاته واصلاح شهواته حتى لم يكن يأكل ولايشرب إلا أطيب الطعام وألذ الشراب ، ولايلبس إلا أنعم اللباس ، ولايقعد إلا على أوطأ المراكب وألين الفرش ، وكان لاينام إلاعلى سرير معلق فى الهواء فى وسط قبة له مخافة دبيب يعرضه أوغبار يصيبه ، فعاش على هذه الحال زمنا طويلا حتى شهر فى الناس بطيب عيشه ولذيذ شهواته ، وجعل الراغبون فى شهوات الدنيا يتمنون حاله و يغبطونه فيما فيه ، ويتشبه به المترفون من أهل زمانه وأرباب النعم كل واحد بحسب امكانه واتساع حاله حتى صار قدوة لطالبى اللذات فى اتباع الشهوات ، وكان مع هذه الحال كلها لم يكن يعرف شيئا من اصلاح نفسه ولاتحسين أخلاقه ، ولاتفقها فى الدين ، ولاتزودا لآخرته ، ولا تفكرا فى أمر معاده ، ولارغبة فى علم ، ولاطلبا لأدب

ولافكرة فى زوال الدنيا ولاذكرا لموت بل كان مقبلا على طلب شهواته محتقرا لأمور الناس متزريا على من دونه معرضا عن الفقراء مهاجرا لأهل العلم متهاونا بأس الدين ثم أراد الله تعالى أن ينبهه من نوم غفلته ورقدة جهالته ويرى العباد قدرته ويجعله عبرة لغيره وعظة لمن سواه فبينما هو ليلة نائم على فراشه فوق سريره معانقا لحبيبته وأبواب داره مغلقة وستور مسبلة وحول سريره شموع تزهر وعلى أبواب داره خدمه وغلمانه مستيقظين إذ رأى فيما يرى النائم كأنه فى برية قفرة وحده وهو عريان جائع عطشان وبدنه مسود وشعره طويل وجسده ملوث برجيع مافى جوفه وعلى ظهره ثقل ثقيل واذا هو بأسودين منكر خلقتهما طويل قامتهما وعيونهما تبرق ومن مناخرهما يخرج الدخان ومن شدقيهما تلتهب النيران وبأيديهما حراب حداد وهما يقربان نحوه ليأخذاه فلما رآهما ولى هاربا من بين أيديهما وهما يتبعانه حتى إذا أمعن فى هربه إذا هو بجبل شاهق فيه طريق ضيق وعر مسلكه سلكه بمشقة شديدة وعناء طويل حتى اذا انتهى الى قلته هوى من الجانب الآخر فى واد منكسا على رأسه حتى وقع فى بئر يخرج منها دخان معتكر يأخذ بالأنفاس وطب يشوى الوجوه والاسودان فى أثره لايفارقانه . فمن هول مارأى وعظم ماعاين وشدة مالقى صرخ فى منامه صرخة واضطرب اضطرابا شديدا ووقع من سريره الى الأرض وانتبه كل من كان فى داره ومن حوله من جيرانه من شدة زعقته وطاش عقله وشخصت عيناه وارتعدت مفاصله وانغلق لسانه واجتمع حوله كل من كان فى داره من خدمه وغلمانه وأقربائه يسألون ما الذى أصابه فلم يطق جوابا بقية ليلته حتى أصبحوا وجمعت له المعزمون والراقون وظنوا أنه أصابه لمم من الجن أوسحر من الأعداء ووسواس من الشيطان . فقال لهم ليس بى ماتظنون ولكن رأيت رؤيا هالتنى وأفزعتنى وأدهشتنى فجمعت له المعبرون وقصت عليهم رؤياه (فقال) بعضهم أضغاث أحلام وقال بعضهم هذا من خلط سوداوى ومزاج غليظ . وقال آخر لابل فكر ردئ وتخيل فاسد . وقال آخر لابل هو من الجن وجعلوا يرجمون الظنون حتى جنهم الليل فجمع خدمه وغلمانه وأقرباءه فى مجلس واحد حول سريره ونام هو بينهم فوق فراشه وجعلوا يقرؤن الرقى والعزائم والعوذ ويبخرون الدخن حتى كان من ذلك الوقت من الليل فاذاهو برؤياه ذلك بعينه بل هو أعظم وأهول وأصرخ فقفز من فراشه وأفزع كل من كان حوله . ثم أدركوه وجعلوا يسألون عنه وهو مرتعد مرعوب لاينام ولاينامون توجعا له الى الصباح وتسامع الناس بخبره وبعثت له الأطباء فوصفت له الحمية والاستفراغ والشربة وظنوا أنه نافع من هذا العارض ففعل ومانفع شئ . فلما كان من الأسبوع الداخل فى مثل ذلك الوقت من الليل فاذاهو برؤياه بعينه بل هو أعظم وأهول فانتبه مرعوبا مسهدا الى الصباح مانام . فلما كان من الغد جمعت له المنجمون والمعزمون والعرافون وسئلوا عن موجبات أحكام النجوم فذكروا أن مثل هذا العرض انما يعرض للانسان من أجل أنه يكون فى أصل مولده من استيلاء النحوس على درجة طالعه أواحد الأوتاد فى تحويل السنين والشهور . فقيل لهم فما الدواء النافع فيه والمنجى له فقالوا نختارله يوما يكون القمر متصلا بالسعود وطالعا جيدا يكون السعود فى الأوتاد والنحوس ساقطا عنها ويتحول من ذلك الوقت من بلد الى بلد أومن محلة الى محلة أو من دار الى دار ففعل ذلك ومانفع الدواء له وشاع حديثه فى الناس وتسامعت به الأخبار فى البلاد وصار فى موضع رحمة بعد أن كان بحال غبطة وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس خائفين أن يصيبهم مثل ما أصابه من البلوى والمحن وجعل أهل المدينة ليس لهم حديث فى مجالسهم ومحافلهم الاحديثه ولاعظة الامأصابه فبينما يوما جماعة من جيرانه قعود على الطريق فى حديثه إذمر بهم رجل يعرف بالناسك وكان من أهل العلم والدين والسر قد رزق العلم والايمان . فقيل له كيف غمك على فلان جارك قال كغم أب مشفق طبيب على ولد عليل فقيل له وكيف ذلك قال لأن عندى تأويل رؤياه ودواء دائه . فقيل له لم لاتقصده وتعرفه ماعندك قال لانه لايسمع قولى ولايقبل نصيحتى فقالوا ولم ذاك قال لأن أزهد الناس فى علم الرجل جيرانه ولكن أخبركم انا وعرفوه أنتم ولاتذكرونى عنده فانى خائف ألا يقبل استغفارا

لما أقول أو يفعل من غير يقين فلا ينفعه قالوا له عرفنا نسمع ماتقول ، فقال أما رؤيته البرية القفرة فهو براءته من الدنيا و براءتها منه يوم يموت وأما فقره فهو فقره بعد الموت وشدة الحاجة فى الآخرة الى الزاد ، وأما عريه فهو عرى من الأعمال الصالحة التى لها ثواب الآخرة ، وأما جوعه وعطشه فهو رغبته وحرصه فى طلب شهوات الدنيا وأما سواد بدنه فهو سواد وجهه عند الله لسوء أعماله وأما طول شعره فهو شعور حزن طويل فى الآخرة وأما تلوث بدنه برجيع مافى جوفه فهو خوف واكتئاب يناله فى الآخرة يتمنى الرجعة الى الدنيا ولا سبيل له الى ذلك . وأما الثقل الذى رأى على ظهره فهو ثقل أوزاره وسوء أعماله ، وأما الشخصان المنكران فهو منكر أفعاله ونكير أخلاقه وسوء عاداته لا يفارقان نفسه حيث ماذهبت يتبعانها . وأما الجبل الشاهق فهو جبلته وعادته التى هو عليها مشقة والشاهق شقاء يناله بعد الموت الا أن يتوب و يرجع الى الله عن اثمه . وأما المسلك الوعر فهو طريق الآخرة التى لابد له من سلوكها بنصب وعناء ، وأما الوادى فهو وادى جهنم والبئر المهوى هى الهاوية التى اليها تصير نفوس الأشرار وأرواح الفجار فقولوا ان هو بادر وتدارك وتلافى قبل الموت فيكون مصيره الى هناك بعد الموت فان الله تعالى أراد بهذه الرؤيا أن يعظه و يذكره ليتوب ويرجع عما هو فيه من الغفلة فى أمر الآخرة والحرص على الدنيا ، فقالوا له فما دواؤه ، قال ينوى نية صادقة و يعزم عزما صحيحا ويرجع الى الله ويتوب مما قد سلف و يتصدق بشطر من فضول ماله على الفقراء والمساكين و يلبس الخشن من الثياب ما يوارى العورة و يصوم فى كل أسبوع يومين ويمشى الى المساجد خاضعا و يتفقه فى الدين و يستعمل القرابين و يصلى فى ظلمة الليل و يستغفر فى الأسحار و يسأل الله تعالى أن يكشف ما به وانه تعالى يفعل ذلك ان شاء فقام القوم من ساعتهم ودخلوا عليه وعرفوه بما أصابه و بما هو خائف مترقب له ثم أخبروه بما قال لهم الناسك فقال لهم من أين لكم هذا التأويل ومن وصف لكم هذه الرؤيا فقالوا أخبرنا العالم فى الدين الناصح الذى لاشك فيما قاله فقبل قولهم وجمع جماعة من العلماء والفقهاء وأهل الدين فأخبرهم بما قيل له ، فقالوا حقا ماقيل وصوابا ماوصف فسألهم عند ذلك عن التوبة النصوح كيف تكون وعن فقه الدين وطريق الآخرة وأمر المعاد وصفة الجنان وثواب الأخيار وأين يكون منقلب الأشرار فوصفوا له ماهو مذكور فى كتب الأنبياء عليهم السلام فقبل ماقالوه وفعل ما أمروه بين شك و يقين وخوف ورجاء ، فلما كان فى الأسبوع الآخر مثل ذلك اليوم صام نهاره وتصدق عند افطاره وأكل يسيرا من الطعام وقام يصلى ليلته ، فلما كان من ذلك الوقت وهو ساجد إذ غلبه النوم فرأى فى منامه كأنه فى تلك البرية بعينها وقد اخضرت من العشب والكلأ وقد تفتحت زهر الرياحين وفاح نسيمها فاذا هو على رأس قلة عليها عين من الماء الزلال وكأنه قد اغتسل من مائها فتناثر عن بدنه ذلك الشعر والدرن وقد ألبس ثيابا جد[illegible] تفوح منها رائحة الطيب واذا هو بشخصين قائمين أمامه كأنهما صورتان من النور تشف أبدانهما عليهما زى الجمال ومحاسن الكمال ورونق الشباب وهيبة الوقار وهما يتبسمان فى وجهه كالمستبشرين له يشيران اليه بالنظر الى قدام فتأمل اذا هو بفضاء فسيح يقصر دونه الطرف و بأنوار قد ملأت الآفاق من الضياء واذا فى ذلك الفضاء رياض خضر كأن بينها نسج الديباج من الزهر والنور والزعفران واذا فى وسطها أنهار تجرى على أرض بيضاء كأن حصباءها الدر والياقوت والمرجان ، وعلى حافات تلك الأنهار أشجار كأن أوراقها الحرير والسندس والأرجوان واذا هب نسيم تخشخشت أوراقها كأنها أصوات نغمات أوتار العيدان و بين تلك الأوراق ألوان الثمار متفننة الأشكال والطعوم والألوان واذا بين ذلك قصور شاهقة كأنها جبال من رخام أبوابها مفتحة وصحون واسعة وايوانات متقابلة فيها سرر موضوعة عليها فرش مرفوعة ونمارق مصفوفة و بينها سادة كرام متكئين متقابلين عليهم زين الجمال ومحاسن الكمال وهيبة الوقار بأيديهم التحف يسعى بينهم ولدان وغلمان وجوار حسان أتراب مبرقات بالمحاسن والجمال ، فلما رأى تلك المحاسن قال لصاحبيه ماهذه قالا هى الجنة دار السلام ومعدن الأرواح ومسكن نفوس الأخيار ومستقر الأبرار

فان أنت دمت على ماأنت عليه الى الموت فيكون مصيرك الى هناك بعد مفارقتك جسدك فتجد لذة العيش وسرور النعيم صافيا بلا تنغيص مابقي الدهر فمن فرح ماسمع وسرور مابشر استفزه ذلك فانتبه دهشا متفكرا يتمنى عسى أن ينام فيرى تلك الرؤيا ثانيا بعد أن كان كارها للنوم مخافة أن يرى رؤياه الأولى ، فلما أصبح تصدق بجميع ماله وأعتق كل عبده ولبس المسوح وكان طول نهاره صائما وسهر ليله قائما مجانبا الناس لايكلم أحدا بل يصلى نهاره باكيا حزينا زاهدا فى الدنيا راغبا فى الآخرة حتى فشاخبره فى الناس وتسامعت به فى المدينة والبلاد فقصده الناس من الآفاق يسألونه رؤياه ويسمعون تأويله ويتعظون به ، ثم صار بعد ذلك يتكلم على الناس فى المجالس بالحكمة والموعظة ويضرب لهم الأمثال ، ويدلهم على طريق الآخرة ويرغبهم فى ثواب الجنة ويزهدهم غرورها وأمانيها ويحذرهم الاغترار بها . فقيل له من أين لك هذه الحكمة والموعظة وأنت لم تكتب الحديث ولم تسمع الأخبار ولم تقرأ الكتب ، قال أجد قلبي كالمرءاة يتراءى فيه حقائق الأشياء وأجد لساني يجرى على الصواب من غير تكلف منى وأجد نفسى كالترجمان تسمع من وراء الحجاب وتعبر وتؤدى الى أبناء جنسى عما تسمع بلا تصنع منى . فعلم عند ذلك أنه مؤيد بملك من الملائكة يلهمه باذن الله جل ثناؤه ، ثم صار ذلك الرجل قدوة فى الدين لأهل زمانه فبينما هو يوما فى محفل والناس حوله يسألونه عن أمر الدين وهو يفتيهم والناس مابين مستمع مصدق وشاك ومتعجب منه كيف كان بالأمس أرغب الناس فى الدنيا وقدوة لطالبي الشهوات وكيف هو اليوم فى أمر الدين امام لطالبي الآخرة إذ وقف فى المجلس رجل من أولئك الذين دخلوا عليه يعودونه فرأى ذلك الناسك فى مجلسه يسائله عن مسائل من أمر الدين ويستوصف منه طريق الآخرة فدنا منه وقال له شبه المتعجب هذا صاحبك الذى فسرت منامه ووصفت دواءه وأنت اليوم تسأله عن أمر الدين وطريق الآخرة قال نعم ولكن قد جاءه من العلم مالم يأتنى وقد قبل نصيحتى أمس فنفعته اليوم وأنا أقبل منه اليوم ماعسى أن ينفعنى غدا وكانت صفتى له أمس تعليما بشريا وصفته اليوم تعليم ملكى ، ثم ان ذلك الرجل التائب بقى مدة من الزمان مجتهدا فى عبادة الله على عادته حتى قرب أجله ووقت مفارقته فرأى فى منامه كأن روحه قد خرجت من جسده واذا هى على صورة مثل شكل الجسد وهيئته سواء غير أن هذا الشكل جسمانى وتلك صورة روحانية شفافة لاينالها المس ولاحس واذا هى قد ثبتت فى الهواء حيث شاءت وكيف شاءت بلا كلفة ولاعناء وهى تجد من ذاتها خفة وراحة وسرورا وروحا ولذة وفرحا لايوصف بمثلها حال الأجسام ونظرت الى جسدها اذا هو مطروح لاحراك به فحنت اليه لطول الصحبة وإلف العادة . فلما دنت منه وتأملته فاذا هو كأنه قد أتى عليه ثلاثة أيام بعد الموت وهو منتفخ منتن الرائحة يسيل منه الدم والقيح والصديد ويجرى بين لحمه ودمه الديدان ويخرج من فيه ومنخريه وأذنيه الديدان والقمل . فلما رأت ذلك الهائل اشمازت منه وتأخرت عنه وأنفت من الدنو اليه وجعلت تغبط حالها حين فارقته وخرجت منه ونجت من وسخه ودرنه ووحشته وعاره ووباله ثم التفتت فاذا هى أبواب السماء قد فتحت والمعراج قد امتد من السماء الى الأرض والملائكة نزلت وامتلأت الآفاق من النور والضياء وسمعت مناديا ينادى - يأيتها النفس المطمئنة ارجعى الى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى - فانتبه من نومه ذلك ، ثم أخبر بما رأى وأوصى وصيته وما مكث إلا أياما حتى توفى ومضى لسبيله : انتهى ماأردته من اخوان الصفا والحمد لله رب العالمين

ويتبع هذا (حكمتان : الأولى) بعنوان (حكم عامة) فى موازنة عطف الأم على ولدها بنفع الحكيم لأمته (الثانية) فى السعادة المزيفة وهاك نصهما فى الصحيفة التالية

حكم عامة

الأم	الحكيم
الأم تغذي ولدها مع شفقة ومحبة بلبنها	الحكيم يغذى الأمّة والأم بعلمه مع شفقة ومحبة
الأم تسهر على ولدها وتكلؤه	الحكيم يسهر على الأمة والأم ويكلؤها بعطفه
الأم لاتبالى بالمشاق فى سبيل تربية ولدها .	الحكيم لايبالى بالمشاق فى سبيل إسعاد أمّته
الأم تبذل مالها وكل ماتقدرعليه وتصرف وقتها فى إسعاد ابنها	الحكيم يبذل ماله ومايقدرعليه من عمل ووقت فى إسعاد أمّته
الأم تستلذ النصب والتعب فى تربية ابنها	الحكيم يستلذ النصب والتعب فى إسعاد أمته
الأم تحس بلذة تضاهى ما تراه من رقّ ولدها	الحكيم يحس بلذة رقّ الأم بعلمه أعظم من لذة الأم ، نسبتها الى لذتها بولدها كنسبة الجوع الكثيرة التى هداها الى الولد الواحد الذى ربته الأم

السعادة المزيفة

(١) القائمون بأمر الأمم أغلبهم ذوو سعادات لفظية

(٢) الملوك منهم والأمراء اكتفوا بالنساء وكثرة المال والحصول على الشهوات

(٣) هؤلاء الحكام يتقون بما ظنوه سعادة ، مع ان القوى الجسمية كلما ازدادت تعاطيا للشهوات ضعفت وقلت لذاتها ثم فقدتها

(٤) فاذا ضعفت شهواتهم أخذوا يستعيضون عنها بالرتب والنياشين من الملوك ، وما كان لرتبة ولانيشان ولاألقاب تعظيم أن تنيل القلب سعادة ، أوتصرف الغم عن الفؤاد

(٥) واذا ملئت خزائنهم بالمال وقد ولى العمر وحالت الحال رجعوا الى أنفسهم فوجدوها خاوية على عروشها فازدادوا انقباضا و بئس المصير

(٦) إذن مكافأة الجهلاء من نوع الانسان أشبه بمكافأة الأطفال بالدّمى واللعب والأثواب المزركشة ، والوالدان يعلمان أن ذلك وقتى قليل القيمة . هكذا العناية الإلهية كافأت أطفال الرجال بما يشبه مكافأة الأطفال استصغارا لعقولهم ورحمة بأممهم ، فهم أشبه بفداء لأممهم يسهرون على راحة المجموع و يكافئون بما أكثره شؤم عليهم لأنهم لايعقلون اه

واعلم أيها الذكىّ أن هذا المقام العام ملخص فى تفسير البسملة فى سورة الدخان ، وفى رسالة « مرآة الفلسفة » فى سورة محمد ﷺ عند آية ــ فاعلم أنه لا إله إلا الله ــ فانظره هناك إن شئت . والى هنا تم الكلام على قوله تعالى ــ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزّل عليهم الملائكة ــ الخ والحمد لله رب العالمين

اللطيفة الخامسة

في قوله تعالى — ومن آياته انك ترى الأرض خاشعة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت — الخ وفي قوله تعالى — سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم — الخ

في هذه اللطيفة فصلان

الفصل الأول في قوله تعالى : فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت

جاء في مقال في جريدة الاهرام يوم السبت ٢٢ سبتمبر سنة ١٩٣٠ تحت العنوان التالي مانصه :

وحدة الحيوانات والنباتات

يعتقد أغلب الناس أن بين الحيوانات والنباتات تباينا كليا واختلافا تاما ، وأن كل فريق منهما مستقل عن الآخر . وقد كانوا يعلموننا في المدارس أن هناك عالم الحيوان وعالم النبات أو مايعبر عنه الغربيون بمملكة الحيوان ومملكة النبات . ومما لاشك فيه أن من يلقي نظرة سطحية على الحيوانات والنباتات الراقية يجد أن بينها اختلافات ظاهرية . فالحيوان يتحرك ويتغذى ويتأثر . أما النبات فهو ثابت في مكانه ولا يظهر أنه يتحرك أو يتغذى أو يتأثر على أن من يمعن النظر ويحقق في البحث يتضح له أن هذه كلها اختلافات ظاهرية لاحقيقة لها

ذلك لأن كل مميزات الحيوانات مثل الحركة والتأثر والتغذي والتنفس والتوالد توجد كلها في النباتات . وهي في الواقع تعتبر الى حدما مميزات جميع الكائنات الحية من حيوان ونبات

فالحركة لاتختص بها الحيوان . فان هناك حيوانات عديدة ثابتة منذ نشأتها الى موتها مثل كثير من الحيوانات المسماة بالجوفاء كالمرجان . وكذلك الحيوانات التي تعيش في قاع البحار وتشبه في شكلها النباتات والأزهار . ومنها الحيوانات المسماة بالتونيسية أوالقميصية السابقة للحيوانات الفقرية أو بالأحرى احدى الحلقات المتوسطة بين الفقرية واللافقرية . فانها تكون عند ولادتها متحركة مثل سائر الحيوانات . ولكن صغارها لاتلبث أن تثبت على صخر في البحر وتظل هكذا باقي مدة حياتها الى أن تموت

كما أن هناك من جهة أخرى نباتات متحركة مثل النباتات المفترسة فان لها أعضاء خاصة تنقض على مايقع عليها من الذباب والحشرات والحيوانات الصغيرة الأخرى وتنطبق عليها وتفرز حولها عصيرا هضميا مثل عصير الحيوانات فتهضم مايقبل الهضم منها وتمتصه ، ومن النباتات المتحركة النبات المعروف للعامة باسم «المستحيه» ومنها فصيلة كاملة من النباتات الطحلبية المائية المسماة « أوسيلير » فانها في حركة اهتزاز مستمر مثل رقاص الساعة ، وأبلغ من هذا حركات بعض النبات الأولية ذات الخلية الواحدة فان لكثير منها شعرا صغيرا عديدا ـ ولها أوشعرة واحدة طويلة في مؤخرها مثل الذنب تستعين بها على العوم في الماء فتذهب وتجيء مسافات تذكر لافرق بينها وبين الحيوانات ، وكذلك بذرة أو بويضات النباتات الطحلبية المائية وبذرة صف والموس» وصف النباتات ذات التولد الخفي . فان تلك البذور تستعين بذنبها . أي بالشعرة التي في مؤخرها للتحرك في الماء بحيث لايستطيع الانسان أن يميز من أول وهلة بينها وبين الحيوانات الصغيرة التي من حجمها . ولهذا سميت بالبذرة الحيوانية

هذا كله في الظاهر أما اذا حققنا النظر في الأمور فانا نجد أن الحركة نتيجة لازمة للمادة الحية على الاطلاق سواء أكانت نباتية أم حيوانيـة . وتفصيلا لهـذا الاجمال ، نقول ان أنسجة جميع الحيوانات لاترى إلا

بالميكروسكوب ، وشكل هذه الخلايا وتركيبها واحد فى الحيوانات والنباتات فالخلية مكونة من مادة زلالية أو بالأحرى من خليط من مواد زلالية مختلفة ومواد دهنية . ومواد سكرية أو نشوية . وقليل من بعض مواد معدنية . وفى وسط كل خلية نواة تركيبها واحد فى الحيوانات والنباتات . وللخلية فى معظم الأحيان غلاف خارجى من مادة زلالية أخرى مرنة عند الحيوانات ومن مادة جامدة تسمى بالسيليلوز عند النباتات . وهى مادة القطن وورق الكتابة

ومادة الخلايا التى يسمونها بروتوبلسما أو المادة الحية (خليط من المواد الزلالية والدهنية والسكرية) من أهم خواصها الحركة أى أن أجزاءها فى حركة مستمرة مادامت حية . ولاشك فى أن هذه الحركة نتيجة تفاعلات كيماوية دقيقة مترتبة على حريق المواد الغذائية . التى تصل الى الخلايا بعد الهضم والامتصاص ومثل حركة المواد الحية حركة السوائل . وهى تغلى والآلات الميكانيكية بسبب حريق الفحم أو البنزين أوالزيت وغيرها

ولافرق فى ذلك بين الخلايا الحيوانية والخلايا النباتية . ولكن لما كانت أغشية الخلايا الحيوانية من مادة زلالية مرنة كما تقدم كانت الحركة التى تبدأ فى واحدة منها تنتقل الى جاراتها وتأخذ فى الامتداد فيتحرك المجموع بعكس الخلايا النباتية فان مادة كل خلية منها محبوسة داخل أغشية صلبة من السيليلوز . فالحركة التى تقوم فى بعضها لاتستطيع الانتقال الى ماجاورها من الخلايا ولا الانضمام اليها . ولهذا كانت مواد كل خلية نباتية تتحرك فى مكانها داخل غلافها ومجموع النبات ثابت . والخلاصة أن الحركة من خواص جميع المواد الحية النباتية والحيوانية على السواء

وفى الحقيقة والواقع ليست الحركة وقفا على الأحياء ولكنها تعمل فى الجماد وجميع المواد المعدنية . وتعم كل مافى الكون من أكبر الأجرام الفلكية الى أصغر ذرات المادة أو الجوهر الفرد . وماهو أصغر منها مما اكتشف أخيرا ونعنى اليون أو الالكترون . فاذا رفعنا نظرنا الى السماء نجد أن جميع الكواكب والشموس والسيارات (بما فيها أرضنا) والأقمار وذوات الذنب فى حركة مستمرة لاتعرف الكلل . وكل مايحيط بنا على الأرض متحرك كذلك بلا انقطاع من أمواج البحار ومياه الانهر وهواء الجو والزوابع والزلازل وتساقط الأمطار والثلج والبرد ودوى الرعد وانقضاض الصواعق وغير ذلك من العوامل الطبيعية التى دكت الجبال الشاهقة وغيرت من شكل الكرة الأرضية مرات عديدة فى الأعصر الجيولوجية القديمة متمملاين من السنين الغابرة . وكذلك الحال بالنسبة لجزئيات المادة وجواهرها الصغيرة وذرات هذه الجواهر فانها فى حركة مستمرة تزداد بارتفاع الحرارة وتنقص بانخفاضها . وبالجملة فان الحركة هى الناموس الأساسى الذى يدير الكون بأسره منذ الأزل والى الأبد

ومايقال عن الحركة يقال عن التأثر فانه صفة لازمة للمواد الحية الحيوانية والنباتية على السواء . فاذا مالمس الانسان بسلك رفيع مثلا خلية من الخلايا الحيوانية أوالنباتية . وهى تحت الميكروسكوب يراها تتأثر وتتحرك فتنكمش أوتمتد . وهذا الذى يحدث عرضا بفعل الانسان يحدث عادة وعلى الدوام بفعل المؤثرات الطبيعية والكيماوية التى تعمل فى أجسام الحيوانات والنباتات او فى البيئة التى تحيط بها وتؤثر عليها

ولافرق فى خاصة التأثر بين الحيوان والنبات ، وكل مافى الأمر أن أغشية خلايا النباتات تحول دون انتقال التأثر من خلية الى خلية نظرا الى جودة تلك الأغشية فيظهر النبات فى مجموعه كأنه لايتأثر . والحقيقة أن مواد خلاياه تتأثر . ولكن يحجب هذا التأثر مادة السيليلوز الجامدة

على أن التأثر ليس فى الحقيقة من مميزات المواد الحية دون غيرها ، بل يشترك فيه كثير من الجماد مثل المواد المفرقعة ومثل المواد الكيماوية غير الثابتة التى تتأثر بالنور كمواد التصوير الشمسى (الفوتوغرافيا)

أو بالرطوبة أو بالحرارة أو بالكهرباء وغيرها . ومن الأمثلة على تأثر الجمادات أمر معروف فى علم الصوت (جزء من علم الطبيعة) وهو أنه اذا دق انسان دقة على وتر من آلة موسيقية وكانت فى الغرفة آلة أخرى مثلها فان الوتر الذى يقابل فيها الوتر الذى دق عليه بالآلة الأولى يهتز من تلقاء نفسه اهتزازا خفيفا ولكنه يظهر جليا بواسطة الآلة المكبرة للصوت

أما من جهة التغذية فمن المعلوم أن النباتات تتغذى مثلها فى ذلك مثل الحيوانات فمادتها الخضراء (الكلوروفيل) تستعين بضوء الشمس لتحليل حمض الكربونيك (ثانى أوكسيد الكربون) المنتشر فى الجو وتأخذ منه الكربون اللازم لغذائها وتمزجه بالماء فتكون أولا السكر والنشاء والسيليلوز (مادة القطن وورق الكتابة) ومادة الخشب وغيرها . ثم تكون أحماضا عضوية تركب منها المواد الدهنية . وتمتص من الأرض الماء وبعض المواد المعدنية المشتملة على الأزوت مثل الأزوتات أو النترات وتمزج هذه بالمواد السكرية والنشوية والأحماض العضوية فتكون المواد الزلالية وهى أهم غذاء لها وللحيوانات . وبالجملة ان النباتات تتغذى كالحيوانات . وتتناول لغذائها نفس المواد التى تتغذى منها الحيوانات وهى المواد الزلالية والدهنية والسكرية فضلا عن الماء وبعض الأملاح

والتغذى ليس قاصرا فى الحقيقة على الاحياء من حيوان ونبات بل يحدث لكثير من الجمادات فبقعة الصدا التى تبدو صغيرة على قطعة من المعدن ثم تكبر الى أن تنتشر على سطح المعدن كله انما هى تتغذى فى الواقع من بخار الماء والحامض الكربونيكى المنتشرين فى الجو ومن مادة المعدن القائمة هى عليه فتنمو وتتسع كما يجو ويكبر الجسم الحى والبلورات الصغيرة المنغطسة فى ماء مشبع من محلول موادها تتغذى من المادة الذائبة فى الماء فتنمو وتصبح بلورات كبيرة . والآلات الميكانيكية المتحركة تتغذى بالفحم أو البنزين أو الزيت . وليست مواد الوقود الاغذاء تلك الآلات الميكانيكية تحرق فيها فتولد القوة اللازمة لحركتها وقيامها بأعمالها

ويلحق بالغذاء التنفس . وغير خاف على كل من درس علم الفسيولوجيا النباتية أن النباتات تتنفس مثل الحيوانات ولها مسام صغيرة فى أوراقها وغصونها يدخل منها الهواء ومعه الأوكسجين الذى هو العنصر الأساسى فى التنفس أن الغرض من التنفس واحد فى الحيوانات والنباتات وهو احراق (أى تأكسد) المواد الغذائية داخل الخلايا لتوليد القوة اللازمة للحياة وقد عرف علماء الفسيولوجيا الحياة بأنها حريق أى تأكسد مستمر . وما الأجسام الحية الا آلات لتحول القوة الكيماوية الكامنة داخل مواد الغذاء بواسطة احراقها الى حرارة وحركة حركة انتقال . وحركة افراز . وحركة نمو . وحركة توالد وما الى ذلك من القوى الحيوية . مثلها مثل الآلات الميكانيكية التى تتغذى بالفحم أو بالبنزين أو بالبترول

وقد أثبت علماء الفسيولوجيا هذه الحقيقة بتجارب حاسمة حيث وضعوا حيوانات داخل كالوريمتر دقيق (آلة لقياس كمية الحرارة . وهى خلاف الترمومتر الذى لا يقيس الا درجتها دون كميتها) وكانوا يقيسون حرارة ما يتناوله الحيوان من الغذاء وما ينتجه جسمه من الحرارة . بعد خصم الكمية التى لم تهضم ولم تمتص من الغذاء فوجدوا أن الكميتين متعادلتان وقد طبق اثنان من العلماء الامريكان هذه التجربة على الانسان وهما اتوتر وبنيدكت فصنعا كالوريمتر كبير حجمه كالغرفة المتوسطة واتخذا كل الوسائل الدقيقة والاحتياطات الشديدة ، وكانا يقيسان مقدار الهواء الداخل من جهة والخارج من جهة أخرى ودرجة حرارتهما وما يشتملان عليه من اوكسيجين وحامض الكربونيك . ويقيسان فى كالوريمتر صغير على حدة ما تنتجه من الحرارة كمية الطعام الذى يتناوله الشخص الذى تعمل عليه هذه التجارب وغير ذلك من الاجراءات . فكانت النتيجة تعادل كمية القوة التى تدخل جسم الانسان فى هيئة غذاء وكمية القوة التى تخرج منه فى شكل حركة وحرارة . ومعنى هذا أنه لا توجد فى الجسم الا القوى الطبيعية ولا تعمل فيه الا القوى الطبيعية

أما التلقيح والتوالد والنمو والتطور وكافة مظاهر الحياة فلا حاجة بالقول بأنها مشتركة بين الحيوانات والنباتات . ويطول بنا المقام لوأردنا أن نثبت أن هذه المظاهر كلها مع التفاوت فى الجماد أيضا

ينتج مما تقدم أنه لايوجد أى فارق جوهرى بين الحيوانات والنباتات . وقد حار العلماء فى إيجاد حد فاصل بينهما أو محك للتمييز بين بعض الاحياء السفلى الملتبس فى أمرها وهل هى حيوانات أم نباتات فلم يجدوا أمامهم سوى فاصل واحد يقرون بأنه سطحى ظاهرى وهو مادة السيليلوز المكوّنة منها أغشية الخلايا النباتية فان هذه المادة لاوجود لها فى الحيوانات

ولكن هذا الفاصل غير شامل لجميع النباتات فى جميع أدوار حياتها لأن هناك بعض نباتات سفلى من صف النباتات الفطر بةمن الفصيلة المسماة ميكزوميست تقضى حياتها كلها أو معظمها وخلاياها شائعة بلا أغشية تفصلها عن بعض . ولكن اذا ساءت الأحوال الجوّية واشتد البرد وتهاطلت الأمطار أو الثلوج تفرز هذه النباتات حولها أغشية سيليلوزية لتحبس نفسها داخلها فتتقى هكذا خطر تقلبات الجوّ . أما فى الفصول المعتدلة فانها تعيش خالية من هذه المادة . فهى تشبه من وجوه كثيرة . وهى على هذه الحالة بعض الحيوانات الأولية ذات الخلية الواحدة مثل الاميبا التى يسبب نوع منها مرض الدوسنطاريا

ومن جهة أخرى فى بعض الحيوانات مادة تقرب كثيرا كيماويا من مادة السيليلوز وهى الحيوانات التونيسية أو القميصية المتوسطة بين الحيوانات الفقرية و بين اللافقرية مماتقدم لنا الاشارة اليه . كما أنه فى جميع الحيوانات مادة هى شقيقة السيليلوز من الوجهة الكيماوية وأعنى بها السكر فكلتاهما مكوّنة من فحم وماء . ولذا أطلق على مجموع هذه الفصيلة الكيماوية اسم هيدرات الكربون

وهناك فاصل فيسولوجى بين الحيوان والنبات قد يكون أوجه من الفاصل المتقدم وهو كيفية التغذية . قلنا فيما تقدم انه لابد لغذاء الحيوانات والنباتات من مواد زلالية ومواد دهنية ومواد سكرية . ولكن الفرق بين الحيوانات والنباتات هو أن الحيوانات تتناول هذه المواد مركبة جاهزة كما هى من أجسام النباتات أو الحيوانات الأخرى التى تأكلها بعكس النباتات فانها لاتجد أمامها . هذه المواد الضروبة لغذائها كما تجدها الحيوانات (مع استثناء النباتات المفترسة) فتضطر أن تركبها على الوجه المتقدم بيانه . قبل أن تتناولها . وبالجملة فان الحيوانات تتناول طعامها جاهزا أما النباتات فتكدّ وتشق فى تركيبه قبل أن تتغذى به . على أن هذا الفصل غير شامل لجميع النباتات فيوجد صف نباتات هى النباتات الفطرية لم تجد عليها الطبيعة بالمادة الخضراء (الكلوروفيل) فلا تستطيع أن تركب غذاءها بنفسها لهذا هى تتصرف فى الحياة كالحيوان بمعنى أنها تتناول طعامها جاهزا من حيوانات أو نباتات أخرى ومن أجل هذا نجدها كلها طفيلية تعيش على غيرها من الحيوانات والنباتات الحية أو على أجسامها الميتة . وعلى هذا فتكون الفصيلة الفطرية الحلقة المتوسطة بين الحيوانات و بين النباتات . ولولا وجود السيليلوز فيها لجزم العلماء بأنها حيوانات فهى نبات من جهة السيليلوز وحيوان من جهة كيفية تغذيتها

وفى هذا برهان واضح على وحدة الحيوانات والنباتات وتسلسلها من أصل واحد وهو الجماد . وقد جاءت المباحث والتجارب الجليلة التى قام بها العالم الهندى الكبير السر بوز مؤيدة لهذه الحقيقة التى أصبحت الآن أساس العلوم الطبيعية . وقد كان لاختراعه للآلة التى تكبر حجم الخلية الحية عشرة آلاف مرة تأثير كبير ونتائج هائلة فى العلم . وعلماء أوروبا يتحدثون فى جامعاتهم وفى مؤلفاتهم باكتشافاته ومباحثه الأخرى منذ أكثر من عشرين عاما ومع ذلك نرى قوما هنا يحملون على هذا العالم الشرقى الجليل لأغراض يأباها العلم وشرف النفس

نصيف المنقبادى المحامى

خريج كلية العلوم بجامعة باريس (السوربون)

ويلحق بهذا ماجاء فى جريدة الاهرام أيضا يوم الجمعة ٤ يوليه سنة ١٩٣٠ وهذا نصه

رأى في علاج الأزمة المالية

كاد ينقضى على انشاء وزارة الزراعة عشرون عاما . ومع ذلك لم تقم بشئ من المهمة التى ألقيت على عاتقها بينما نرى اختصاصات وزارات الزراعة فى الدول الاخرى لاتقتصر على تبخير الأشجار وعمل الاحصاء السنوى لكمية المنتظر من محصول القطن . أو الارشاد الى ادخال تحسينات تافهة على الزراعات القائمة . أو مقاومة بعض الآفات مقاومة لاتجدى ولاتنفع . أو الحصول على بعض الأسمدة والبذور الخاصة بالنباتات التى تزرع عادة . لوأن مهمة وزارة الزراعة اقتصرت على ذلك لهان الأمر على الجمعيات الزراعية الأهلية . ولاكتفت الحكومات بمعاونتها دون انشاء وزارة خاصة بالزراعة . ولكن المهمة أجل وأسمى من ذلك . المهمة خاصة بانماء الثروة الأهلية بادخال زراعات جديدة تستثمر فيها رءوس الأموال المتجمدة من الزائد عن النفقات الزراعية والنفقات المعاشية للفلاح . المهمة خاصة بايجاد مشتل من صنع الاخصائيين ينمو ويكبر على توالى الايام داخل معامل التحليل والابتكار والتطعيم لتزويد البلاد برأس مال جديد فى كل عام لا أن يقتصر الأمر على ايفاد بعثات زراعية سنوية الى مختلف البلاد ليعود أعضاؤها ويشغلوا الوظائف الكتابية أو وظائف التفتيش الرئيسية فتخمد فيهم الحية وروح الابتكار ولا ان يكونوا فى مكاتبهم وفوق كراسيهم كالدبلومات وشهادات الامتياز جنها الاطار الرائع ولاقيمة لها الا فى أعين حاملتها . مع ان الواجب كان يقضى أن تكون قيمتهم فى نظر الأمة والامة حتى تستطيع أن تقرر بحق انها استثمرت ما أنفقته عليهم من أموال فى تخصصهم وتعمقهم . ويستطيع الآباء أن يطلبوا مباهاتهم بثمرة كدهم وتعبهم فى سبيل تربية أبنائهم . والا فماذا أدخلت وزارة الزراعة المصرية على زراعاتنا من جديد يعاون فى سبيل الاحتفاظ بثروة الأمة بعيدا عن تهديد الازمات والأخطار التى تصيب محصولا لانعول الا عليه ، لتقل لنا الوزارة ماذا صنع معمل زراعة المناطق الحارة حتى الآن وأى نتيجة لتجارب أدت الى ادخال عامل زراعى جديد فى مصر مع أن زراعة المناطق الحارة قد درست فى مصر قبل الآن درسا عميقا أيام حكم ساكن الجنان اسماعيل باشا الخديوى الأسبق والمؤلفات والتقارير الزراعية عن نباتات المناطق الحارة فى عهده تكاد تزيد عن الضرورى . وما كنا فى حاجة الا الى مراجعتها لنعلم أى الزراعات تدخل فى مصر حتى تتعدد الحاصلات وتجتنب الاضرار الجسيمة التى يلحقها القطن بثروتنا العامة بين آونة وأخرى وتكرهنا على البكاء والعويل مادامت مصر فى عهد اسماعيل هى مصر الآن جوا وتربة وماء مع مراعاة ان العمار قد ازداد والسكان قد تضاعفوا والايدى العاملة قد ربت وطرق المواصلات قد تعددت والمسالك الزراعية نظمت والترع كثرت . لقد تكلمنا فيما تقدم عن زراعة الكاوتش فى مصر ورجونا من المصريين أن لاينتظروا الا نتيجة جهدهم وكدهم فى ادخال هذه الزراعة الفنية بحاصلاتها فى مصر حتى ينقذوا أنفسهم بأيديهم من مخالب الافلاس الذى يتهددهم دائما أبدا بسبب تحكم مستهلكى القطن أو زيادة المحصول الأمريكى الخ واليوم نقول كلمة أخرى عن زراعة المناطق الحارة الصناعية ومايجوز ادخاله فى مصر بناء على أراء الأخصائيين ولما كنا قد بدأنا بزراعة الأشجار فى سبيل أحياء عصر الغابات فى مصر وجب علينا الاستمرار فى هذه السبيل مقتصرين فى بياننا على الجهات التى تستورد منها هذه النباتات ومنافعها

(شجرة البقرة) ان هذه الشجرة من «كرا كاس» وساقها معتدل باسق . وطول أوراقها بين ٢٥ و ٣٠ سنتيمترا فى عرض عشرة سنتيمتر . وثمرتها كالبندقة الخضراء . وترجع شهرة هذه الشجرة الى طبيعة ألبانها التى تحاكى من كافة النواحى لبن البقرة ولذلك فان اهل «كرا كاس» يتغذون منه . ويمكن الحصول عليه بحز ساق الشجرة فى عدة نواح . ولقد أثبت المسيو «ريفيرو» والمسيو «بوسينجو» ان صفات هذا العصير

السكرى

السكري كصفات لبن البقرة مع فارق بسيط هو أنه لزج قليلا وله رائحة كرائحة البلسم أماخصائصه الكيمائية فلتها تختلف عن خصائص ألبان البقر اذ الأحماض لاتؤثر فيه أما «الاسبرتو» فانه يؤثر فيه الى درجة معينة حيث يجمدقليلا اذا أضيف له قدرمنه واذا وضع فى «حمام مارى» استخرج منه عطر كذلك الذى يستعمل فى ايطاليا لتطييب القفازات . ولكنه مع ذلك يختلف مع سائر العصارات اللزجة لانه لايشمل أى كمية من الكاوتش وقد زرعت هذه الشجرة فى بروكسل . ومن باب أولى أن تزرع فى مصر لاستعمالها غذاء وواسطة لاستخراج عطرها . وتصديره وتصدير هذه الألبان فى زجاجات خاصة

(ذات اليد) وهى شجرة يغطى قمم فروعها وبر أشقر اللون وتستعمل ثمراتها المحمرة فى اسود ادلعلاج الصرع ويمكن استيراد هذه الشجرة من البرازيل كما يمكن استيرادها من أوربا بأبخس الأثمان ومن السهل شتلها بواسطة الفسائل فى فصل الربيع (حشيشة الورق) وهى شجرة صغيرة من بلاد الصين ترتفع الى خمسة أوستة أمتار ويستخرج لباب ساقها ليصنع منه الورق الناعم فى الصين التى تصدر فى العام ورقا ما قيمته ٦٤٩ و٩٧٧ و ٣ (هاى لوان تايل) أى ريال ولكنه غير ثابت القيمة . ودائما يتراوح بين ٦٦ فى المائة من الدولار و بين دولار وثلث . ولقد أدخلت هذه الشجرة الجيلة ضمن الزراعات المصرية فى سنة ١٨٦٨ ونجحت نجاحا عظيما ولكن لسوء الحظ لم تستخدم فى الغرض الذى جلبت من أجله وهو استخراج لبابها لصناعة الورق الناعم مع أن زراعتها فى مصر من السهولة بمكان اذ يكفى وضع عقل الفسائل فى بطن الأرض وتغطيتها بقليل من التراب فلا يمضى وقت قليل حتى تنبت

(شجرة الحرير) وهى شجرة من نوع الأشجار العمالقة . وليس هذا التعبير لمجرد الخيال وانما هو الحقيقة فان المسيو (برتران بوكانده) قد حكى أنه رأى فى كازامانس مراكب طولها ١٥ مترا فى عرض مترين ونصف تصنع الواحدة من ساق احدى هذه الأشجار وتسع كل مركب من هذا النوع ثلاثين ثورا وستة عشر بحارا للتجديف وثلاثة رجال للعزف على الموسيقى . وفضلا عن هذا فهى تحتوى على غرف ومطبخ وحمام الخ . أما نوعها فهو من المراكب السريعة ذات الشراعين والمجاديف . وهذا مايكون عندنا فكرة من محيط ساق هذه الشجرة . غير أنها لاتعيش أكثر من قرن . ولذلك فان الاهالى يزرعون شجرة منها عند ميلاد كل ولد من أولادهم فاذا مابلغ الطفل السن التى تبيح له الاستقلال بمعيشته وجد فى هذه الشجرة كل مايلزمه لبناء منزله دون أن يمس باستمرار نمائها

واذا مابلغت هذه الشجرة سن الانتاج أثمرت فاكهة يخرج منها وبر قطنى حريرى فى كمية جسيمة تترامى على الأرض الى مسافات بعيدة تراها وكأن السماء أمطرت لؤلؤا وثلجا . ويستخدم هذا الوبر فى صنع الوسادات والكنبات وغيرها ويمكن غزله لاستخدامه فى صناعات مختلفة . ولقد أدخلت هذه الشجرة فى مصر بواسطة الدكتور فيجارى بك ويوجد منها نوع فى قصر العينى (أما حشيشة الملوك الشوكية) فان ارتفاعها يصل الى عشرة أمتار وساقها ضخم وشائك . وتزرع هذه الأشجار بصنفيها بذرة أو عقلة

(شجرة الدهن) وهى شجرة متوسطة الطول وتزرع فى الأراضى الرطبة من الصين . ولها لوز تحوى كل واحدة منها ثلاث حبات وأهميتها فيما يغطيها من طبقة دهنية بيضاء سميكة صلبة الى حد ما ويضيف الصينيون واليابانيون الى هذه المادة قليلا من شمع النحل وزيت الكتان لصنع الشمع الأبيض الذى يضىء مدة طويلة ، ولاستخراج هذا الدهن يجب سحق البذرة وابقاء مسحوقها فى ماء على درجة الغليان حتى تطفو المادة الدهنية على وجه الماء فيسهل استخلاصها (ومن جهة أخرى) هم يستخرجون من هذه الحبوب نوعا من الزيوت الصالحة للوقود ، وقد وجدت شجرة من هذه الأشجار بمدرسة الطب ، ولكننا لاندرى ماذا صنع بلوزها ، كذلك زرع فى حديقة الروضة شجرة من هذا الصنف ، ولاندرى لماذا لاتزرع

هذه الأشجار فى مصر مع أن زراعتها سهلة سواء من ناحية البذرة أو العقلة

﴿ شجرة البهار ﴾ هى شجرة من مدغشكر طويلة جميلة المنظر، وتستخدم أوراقها وجلدها كبهار ودواء . وهذه الشجرة تمو فى الحدائق المصرية . وتوضع أوراقها فى الطعام خضراء . ولابد لزراعتها فى مصر من الحصول على بذرتها من مدينة مدغشكر أولا فأولا

﴿ شجرة الثعابين ﴾ وهى شجرة صغيرة فى البراز يل طولها يقرب من متر . وتستعمل جذورها دواء للشفاء من لسعات الثعابين . وهذه الشجرة تصلح فى مصر فقط لأنها لا تزرع إلا فى الطينة الصالحة للزراعة والمناطق التى جهزت بمعدات الرى وتزرع عقلا

﴿ شجرة الاراروت ﴾ وهى شجرة ذات جذور سكرية لها ساق طوله يقرب من متر ونصف متر . وجذوع هذه الشجرة غذاء قوىّ للأطفال على مانعرفه جميعا . وهى تزرع على الخصوص فى جزيرة الانتى وأمريكا الجنوبية . وهى صالحة للزراعة فى التربة المصرية

﴿ الكمثرى الأمريكانى ﴾ أو كمثرى المحامى : وهى شجرة تدرّ اللبن الذى يتجمد فى صلابة القشدة ويستخدم فى التأثير على القماش باشارات لاتمحى ، أما الفاكهة ذاتها فانها غذاء جيد ، وتدخل هى والأوراق فى كثير من الأدوية ، وهى تزرع بطريق البزور التى تجلب من البرازيل . ويمكن استخدام العقل (بضم العين وفتح القاف) فى زرعها بعد أن تنبت وتشتدّ فى مصر . انتهى ما أردته من الجريدة المذكورة

بهجة العلم

فى قوله تعالى أيضا ـ ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزّت وربت إن الذى أحياها لمحيى الموتى إنه على كل شىء قدير ـ

يقول الله تعالى فى أول هذه السورة ـ كتاب فصلت آياته ـ ويقول فى سورة أخرى ـ يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون ـ ، إذن الايقان بلقاء الله تعالى مرتب على تفصيل الآيات ، فالآيات المفصلات فى هذه العوالم هى التى تعطينا اليقين ، واليقين هو الذى لايعتريه شك ، فهل لك أن أريك اليقين فى هذه الآية بعينك حتى تمكن من نفسك كنص الآية ، وتعلم الى أى مدى وصل هذا القرآن اليوم ، وهل تفصيل الآيات المورث لليقين إلا ماقام عليه البرهان أوثبت بالمشاهدة . فهاك ﴿ عجيبتين * إحداهما ﴾ من علم الحيوان ، والأخرى من علم الأرواح

﴿ العجيبة الأولى التى هى من علم الحيوان ﴾

جاء فى كتاب (بول بيرت) العضو بالأكاديمية العلمى وأستاذ السربون ووزير المعارف العامة بفرنسا المترجم بقلم زوجته الاسكتلندية الى اللغة الانجليزية (وقد نقلت عنه فى هذا التفسير كثيرا) فقد جاء فيه فى صحيفة (٧٩) و (٨٠) تحت عنوان « أنفاسوريا » مانصه :

« إنى سأريك نبأ عظيما عن مخلوق مدهش غريب يختلف اختلافا كثيرا عن سابقه ، وأين يكون هذا الحيوان ؟ إنه يكون فيما تعافه النفوس وتحتقره العيون مما يكون على جسم الحيوان الذى فسدت جثته بالتعفن والنبات الملقى المزدرى ، وهذه المخلوقات أكثرها يسمى فى علم النبات باسم (أنفاسوريا) وسترى صورته قريبا . ولكن هناك حيوانات ليست منه عجيبة الأشكال ومع ذلك ليست قليلة الفائدة . انظر الى هذه الزجاجة التى فيها الماء التى أحضرت فيها بعض الدريس (أى مثل البرسيم الجاف المعروف فى بلادنا) أمسك الزجاجة واجعلها بينك و بين ضوء الشمس حتى ترى بوضوح وتفصيل كل ماتحو به ، أنت ترى فيها

اشياء

أشياء صغيرة تتحرك فى الماء (انظر شكل ٤٣ الآتى قريبا) . إن المنظار الزجاجى يجعلك قادرا أن تتبين هذه المخلوقات بطريق أوضح ، ولكن (المكرسكوب) يجب الاستعانة به لتكون الرؤية أكمل ، إن هذه كأنها نقط غير متميزة صورها ، وفى الحقيقة هى حيوانات تعيش وهى آلاف مؤلفة ، هاأنت ذا ترى فى الزجاجة حيوانات صغيرات ذات صور مختلفات وأشكال متباينات بعضها قد صغر جدا ، وليس يظهرها لعيوننا إلا الآلات الزجاجية المكبرة بمقدار عظيم جدا ، وآلاف مؤلفة منها تعيش فى قطرة ماء . وهنا أخذ يسأل التلاميذ قائلا : من أين جاءت كل هذه الأشياء اللاتى أعشت أبصاركم ؟ ثم أجاب قائلا : إنها جاءت من العصف المأكول والتبن والدريس . ثم قال : كيف كان كل هذا ؟ وأجاب بقوله : هذه المخلوقات جافة كأنها بيض فهى تعيش هكذا وهى بهيئة طحلب لا يشعر به فوق سقوف المنازل وهى جافة أثناء الصيف ، فاذا نظرناها بالآلة المكبرة فانها تظهر لنا بهيئة حبوب صغيرة من رمل أخضر ، ولكن اذا أنزلنا عليها قطرة ماء وهى على هذه الحال فاننا نراها قد تحوّلت حالا وامتدّ جسمها وأخذت تبحث عن رزقها وما به حياتها ، فاذا غاض ماؤها أوصار بخارا رجعت خامدة لا حركة لها ، جامدة لا حياة لها كما كانت من قبل متربصة هطول آخر من الماء ينزل عليها فتحيا به . هذه مخلوقات عجيبة ! ألست ترى ذلك ؟ وهذه تريك أن أعظم مايسرّ النفوس وأبدع العجائب ليس خاصا بالحيوانات الكبيرة (انظر شكل ٤٣ و ٤٤)



(شكل ٤٤)
حيوان البكتريا وهو لا يرى بالعين المجردة



(شكل ٤٣)
(أنغلوريا) لا ترى بالعين المجردة
وقد عاشت فى قطرة من الماء الآسن

العجيبة الثانية التى هى من علم الأرواح

تذكر فى هذه العجيبة ماجاء فى إحدى المجلات العلمية وهى مجلة « كل شىء » بعدد ٢٣٤ فى يوم السبت (٣) مايو سنة ١٩٣٠ وهذا نصه :

توفيق دوس باشا يخاطب روح والده

زيارته لكلية علم الأرواح فى لندن

لما سافر الوفد الحكومى المصرى الرسمى إلى لندن برئاسة عدلى يكن باشا لمفاوضة الحكومة البريطانية فى حلّ المسألة المصرية . رافق الوفد يومئذ سعادة الاستاذ الكبير توفيق دوس باشا بصفة مستشار قضائى وسعادة شريف صبرى بك وحضرة الاستاذ عبد الملك حزة بصفة سكرتيرين . و بعد وصول أعضاء الوفد الى لندن بقليل أخبر الاستاذ عبد الملك حزه صديقيه توفيق دوس باشا وشريف صبرى بك انه من المهتمين بدرس علم الأرواح وأنه يود أن يدعوهما الى زيارة « كلية علم الأرواح » التى تديرها المسز سقيد ابنة المستر وليم ستيد الصحافى الانجليزى المشهور الذى غرق فى الباخرة « تيتانك » فى سنة ١٩١٢ فسألاه عن هذه الكلية وأغراضها فقال لهما انها معهد علمى يؤمّه الأشخاص الذين يأنسون فى أنفسهم قوة الوساطة فيمتحن المعهد هذه القوة فيهم بين الأرواح التى فى الآخرة وسكان هذا العالم ثم ان كثيرين من العلماء الذين

يشتغلون بعلم الأرواح يترددون على هذه الكلية لاجراء تجاربهم العلمية فيها فهي ليست والحالة هذه دارا من دور النصب التي يدخلها بسطاء العقول ليدفعوا جنيها أو جنيهين مقابل (مخاطبة الأرواح) وهنا ندع الكلام لتوفيق دوس باشا لكي يصف لنا زيارته لتلك الكلية، قال :

ولما سمعت هذه المعلومات من الاستاذ عبد الملك حمزة توالت فيّ رغبة في زيارة كلية علم الأرواح لأميط اللثام عن حقيقة ما كنت أعتقده تدجيلا ، فرافقني حضرته اليها وصحبنا شريف صبري بك ولما بلغناها قدمنا للمسز سنيد فطلبت منها أن تحيلنا الى وسيط من القادرين على مخاطبة الأرواح فعرّفتنا بشخص اسمه المستر بيتر ولما اختلينا به طلب إليّ أن اضمر الشخص الذى أريد أن يستحضر لى روحه بدون أن أسر اليه باسمه فاضمرت والدى فجلس الرجل على كرسى أمامنا وماهى الاثوان قليلة حتى أخذت عضلات وجهه وشرايين حلقه تنتفخ انتفاخا أزعجنى منظره ثم لم يلبث أن نام نوما عميقا وأخذ يتكلم باللغة الانجليزية وهى اللغة التى كان والدى يجهلها تماما فقال لى : « أنا والدك » فقلت له «وما دليلك على ذلك ؟ » فقال «أنا أطول منك قليلا» فقلت : (هذا لا يكفى) فقال (وأنحف قليلا) فقلت «وهذا لا يكفى أيضا» فقال (ولى لحية خفيفة لعب الشيب بجزء منها) فقلت له (وكيف انتقلت إلى العالم الثانى ؟) فقال . (بعملية عملت لى هنا) (وأشار الى مكان الأمعاء والمثانة والكبد) فقلت له . (هذا لا يكفى) فقال . (عمل لى العملية طبيبان وفى أثناء انهما كهما بعملهما دخل عليهما طبيب ثالث وعاونهما . ولما انتهوا من مهمتهم قالوا لكم ان العملية نجحت ولكننى توفيت فى اليوم التالى) فقلت . (وهل تعلم لماذا نحن فى لندن ؟) فقال (لأجل مسألة كبيرة) وفتح ذراعيه على وسعهما فقلت . وهل تنجح فيها ؟) فقال (كلا وبجانبى سيدة تزاحمنى لكى تخاطبكم بدلا منى .) وهنا أخذ الوسيط يتكلم بلسان هذه السيدة فوصفت نفسها وصفا ينطبق تماما على عمة زوجتى فقلت . (وهل لك أولاد ؟) فقالت لى . (ابن وابنة) فقلت . (وهل هما بعيدان عنك ؟) فقالت (بينى وبينهما بحر كبير) فقلت . (وهل هما فى مصر ؟) فقالت . (كلا)

قال لنا توفيق باشا . (واذا استثنينا هذا الجواب الأخير (أى هل هما فى مصر فأجابت كلا) فان جميع الأجوبة السابقة والبيانات التى تضمنتها تطابق الواقع . وقد عزوت ذلك فى بادىء الأمر الى ما يسمونه علم قراءة الأفكار وقلت فى نفسى ان هذا الوسيط له قوة قراءة أفكارى فيسترشد بها على الاجابة على أسئلتى ولكن هذا الاعتقاد زال عنى لما قال لى الوسيط . (ان هناك سيدة تزاحم والدى لتتكلم معى) فاننى لم أكن أفكر قط فى عمة زوجتى ساعتئذ لكى يقال ان الوسيط قرأ أفكارى فى صددها أيضا ولذلك لا أعرف كيف أعلل هذا الحادث على الاطلاق

ومضى توفيق باشا فى حديثه معنا فقال . (وقيل لى بعد ذلك ان فى الكلية وسطاء لهم قوة استحضار وجوه الأرواح بحيث يستطاع تصويرها بالفوتوغرافيا فذهبت الى الكلية فى يوم آخر مع شريف صبرى بك وعبد الملك حمزة بك وأخذت معى زجاج التصوير (البلاك) منعا لكل تلاعب ولما قابلنا المسز سنيد قلت لها . انى أريد تصوير وجه والدى) فقادتنى الى أحد الوسطاء القادرين على استحضار وجوه الأرواح فدعانا الى قاعة طليت جدرانها باللون الأبيض وأجلسنا على ثلاثة كراسى متلاصقة وأخذ يرتل بعض الصلوات والأناشيد الدينية ثم فتح آلة التصوير وصور بها ولما انتهى من عمله أخذت زجاج الصورة وكان شريف بك قد وقع عليها بامضائه لئلا تستبدل بلوحة غيرها وعنيت بتحميضها فى محل للتصوير باشرافى فاذا بالصورة التى ظهرت فيها تختلف عن ملامح والدى تماما فقصدت فى الغد الى المسز سنيد وقلت لها : (انكم تسخرون منا فان الرسم الذى ظهر فى الصورة ليس رسم والدى) مطلقا فقالت «قد يحدث ذلك أحيانا ويكون سببه أن شخصا أقوى من والدك على تصوير نفسه بواسطة الوسيط يزاحمه على الصورة فينجم عن ذلك أن يظهر رسمه بدلا من رسم والدك

فقلت

فقلت لها : انى سأعطيك الآن فرصة أخرى لاقامة الدليل على صحة كلامك فهيا بنا الى الوسيط ولما اجتمعنا به قلت لهم (اغلقوا الباب) فأغلقوه فناولتهم زجاج التصوير فوضعوه فى الآلة أمامى ، فقلت للمسترستيد عندئذ : (انى سأطلب من الوسيط رسم وجه والدك المسترستيد وأظن انه أقدر الأرواح على تصوير نفسه ولا يستطيع أحد أن يزاحمه على ذلك وقد أمضى حياته فى درس علم الارواح وفأخذ الوسيط يرتل وينشد الاناشيد الدينية وبعد قليل التقط الصورة ولما حمضها ظهر فيها رسم المسترستيد فعجزت فى تعليل هذا الحادث

فقلنا لتوفيق باشا : (هل لاحظتم فى أثناء التقاط الصورة أن هناك شبحا غريبا ظهر فى القاعة ؟) فقال : (لامطلقا) فقلنا . (إذن كيف يظهر على زجاج التصوير رسم لاوجود لصاحبه فى القاعة) فقال (سألتهم عن ذلك فكان جوابهم أن عدسة آلة التصوير أقوى من العين جدا وانها لذلك تستطيع رؤية شبح الروح الذى لاتراه العين العادية) فقلنا . (وهل أنتم واثقون من أنه لم يقع تلاعب فى زجاج التصوير ؟) فقال (أنا واثق من ذلك ولافائدة ، من أن تتعبوا أنفسكم بالأسئلة فقد اتخذت يومئذ جميع التدابير التى خطرت لى لمنع أى غش كان) فقلنا له (وكيف تعللون ذلك ؟) فقال (انى لأومن بعلم الأرواح ولكننى لاأجد تعليلا لمارويته لكم) فقلنا . (ألم تسألوا المسترستيد عن التعليل ؟) فقال : (سألتها فكان جوابها لوجاءك رجل من عشر سنوات فقط وقال لك انهم سيخترعون تليفونا لاسلكيا أفلا كنت تقول عنه انه مصاب بمس فى عقله فلماذا لايعقل أن تقتنع بعد سنوات بصحة علم الأرواح وحقيقته) وهنا دفع الينا توفيق دوس باشا بالصور التى صورت يومئذ بحضوره فى كلية الأرواح فنشرنا اثنين منها مع هذا الحديث ، وهاك صورتهما . (انظر شكل ٤٥ و ٤٦)



(شكل ٤٥)
رأس المسترستيد كما ظهر فى الصورة التى صورت لروحه بحضور توفيق باشا دوس



(شكل ٤٦)
توفيق دوس باشا والى يساره شريف صبرى بك والى يمينه عبدالملك حمزه بك وفوقهم الرأس الذى ظهر فى الصورة عند استحضار روح والد توفيق باشا . وترى فى أعلى إمضاء شريف بك على زجاج الصورة

ولما كتبت هاتين العجيبتين حضر صديق العالم الذى اعتاد أن يناقشنى فى هذا التفسير . فقال : وما يفيدنا فى هذه الآية من هاتين العجيبتين ؟ أنت أوضحت لنا فى العجيبة الأولى كيف تكون الحيوانات الدقيقة معدودة بالآلاف فى قطرة ماء ، وانها تموت اذا فارقها الماء وتحيا اذا وصل اليها ، فالموت والحياة يتناوبانها ، وقصصت علينا فى الثانية نبأ رجل مصرى فى البلاد الانجليزية خاطب والده الميت واحدى قريباته واحترس أشد الاحتراس فى المحاورات وفى أخذ الصور وتصويرها . فأى علاقة لهذين بالآية ؟ الله تعالى يقول — ومن

آياته أنك ترى الأرض خاشعة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزّت وربت ان الذى أحياها لمحيي الموتى انه على كل شيء قدير — فقلت : إن هاتين العجيبتين مناسبتان للآية أشدّ المناسبة . لقد تجلى فى العجيبة الأولى أن الحياة شاخصة أمامنا فى كل ما يحيط بنا . فهذه الأوراق والحطب والوقود وكل ما يحيط بنا تعلق به مواد لانهاية لها . وهذه المواد الدقيقة تحيا اذا جاءها الماء، وتفارق الحياة اذا تخلى عنها . إذن الموت والحياة فى المواد المحيطة بنا كالنوم واليقظة ، فموتها وحياتها أشبه شيء بنوم النحل والزنابير مدة الشتاء واستيقاظها فى زمن الربيع ، وهكذا نوم أمثال الحيات والثعابين شتاء واستيقاظها فى زمن الربيع وبعض السمك فى الطين اذا جفّ وفى الثلج اذا تراكم عليها ثم تقوم هذه اذا نزل الماء على الطين وذاب الثلج . ولقد تقدم فى آخر سورة الأعراف أن بعض حبوب القمح تحتوى على أكثر من عشرة آلاف حيوان ، جفف هذه الحيوانات بعض العلماء وبعد التجفيف نداها بالماء فرجعت لها الحياة ، بل تمادى العلامة (بيكر) فندى القمح بالماء بعد ما جففه (٢٨) سنة فرجعت الحياة ، وقد جزم العلماء بأن تلك حياة جديدة . إذن الحياة والموت أمران عاديان حولنا ، وهذه الحيوانات التى لا نراها تموت ثم تبعث ثانيا والحياة والموت عندها أمران عاديان (وبعبارة أخرى) ان الموت ليست له تلك القيمة والمخاوف التى جسمها الانسان

هذا ما نقرؤه فى تلك الحيوانات المحيطة بنا الصغيرة ، وهذه الحال بعينها هى حالنا ، فاذا رأينا الحيوانات الضعيفة تحيا وتموت ولا حاجز بين الموت وبين الحياة إلا شفاف رقيق ، هكذا رأينا الأمر بالنسبة لأنفسنا نحن ، يعيش الانسان أمدا ما ويكون له أصدقاء وذرّية فيموت أو يموت أهله أو ذريته أو أصدقاؤه فيخلع اليأس قلبه قائلا « إلى مفارقهم الى الأبد » فنسمع أوّلا أرباب الديانات وكبار الفلاسفة يقولون . كلا . لا موت وانما هو ثوب نزعتموه والبستم ثوبا آخر ، فيشك أكثر الناس ويقولون . كلا . لم نر شيئا من ذلك فاقتضت الحكمة أن تحضر الأرواح فتظهر فيشك قوم أيضا ، فيبحثون حتى يصل بعضهم الى الحقيقة فيطمئن لها ويبقى آخرون حتى يعرفوا أن نتيجة القارورة والماء الذى فيها فى العجيبة الأولى وحضور الأرواح فى العجيبة الثانية واحدة ، ومعنى ذلك أن الانسان لا يموت لأن روحه المتصرّفة فى جسمه هى التى تبقى بعد الموت فى جسم شفاف كجسمه الحالى لأن هذه الأجسام التى تعيش بها أنوار متراكمة قد أظلمت بهذا التراكم ، فاذا تركنا هذه الظلمات رجعنا الى أنوار أخفّ منها ولكن على هيئة هذا الجسم فصرنا فى حالة إطلاق لا غير ، غاية الأمر أن هذا الجسم الذى هو مدرستنا يكسبنا العمل به نتائج نراها فى حياتنا فى الجسم الآخر اللطيف وليست هذه الظاهرة التى قدّمناها فى العجيبة الثانية فريدة فى بابها ، فلها نظائر تعدّ بالآلاف المؤلفة ، وكم فى عالم الأرواح من عجائب ، وأن هذه الروح التى حلت محل روح ذلك المصرى وظهرت صورتها فى الصورة روح من الأرواح المتأخرة لأن هذا فعل صبيانى لا أثر للعقل فيه ، فقد ظهر عند العلماء اليوم أن الأرواح السخيفة فى هذه الحياة هى أنفسها سخيفة بعد الموت ولها أربع درجات مشروحات فى كتاب «الأرواح» ولعلك ترى هذا المقام مشروحا فى آخر ﴿ سورة الاسراء ﴾ . فالروح السخيفة الطفلة فى الدنيا هى نفسها السخيفة السمجة بعد الموت . وقد ثبت بظهور نفس صورة (استيد) المتوفى ثبوتا لا يشكّ فيه من صدّق الخبر به أن الأرواح تكون بهيئتها بعد الموت ويعرفها الناس فى الدنيا . أى ان الأرواح بعد الموت بتلك الهيئة الدنيوية لا أقلّ ولا أكثر . وبالاختصار ان العلم الآن قد قرّب لنا مسافة الحياة بعد الموت لنفهم سر قوله تعالى — ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذى أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شيء قدير — . وذلك ليريح قلوبنا من مخاوف العدم المحض . فالحياة إذن مستمرّة والسعادة بالأعمال الصالحة . كتب صباح يوم الخميس (٨) مايو سنة ١٩٣٠ وبهذا تمّ الفصل الأوّل من اللطيفة الخامسة

إيضاح لما تقدم

ثم حضر عندى صديق العالم الذى اعتاد أن يحادثنى فى هذا التفسير . فقال : لقد شاقنى حديثك فى المخلوقات الخافية الدقيقة ، وأبهجنى ما شاهدته منها الآن فى الرسم والشرح ، فهل تشرح صدرى بالافاضة فى هذا الموضوع فانه جيل . فقلت : إن أكثر النبات هو مالايراه ، ومايراه قليل بالنسبة لما لايراه . فقال : فهل تريني بعض مالايراه بالعين المجرّدة ؟ فقلت: انظر شكل ٤٧ وشكل ٤٨ وهذه صورتهما

(شكل ٤٧) (شكل ٤٨)

فقال ماهذا ؟ فقلت هذا هو أمغزنبات وهو مركب من خلية واحدة . فقال مامعنى خلية ؟ قلت الخلية لها :

(١) غشاء رقيق يحيط بها
(٢) وفى داخلها مادّة تسمى (البروتوبلازم)
(٣) وفى هذه الثانية نواة هى أصل الحياة

فقال : هى إذن أشبه بالبيضة لها قشر ولها ياض ولها مح وهى المادة الصفراء ومن هذه يكون الفرخ . قلت : والله لقد أصبت المحز ونطقت بالصواب ، ما الخلية التى أمامك إلا بيضة ، حسن جدا . فقال : إذن هذه البيضات التى يسمونها خلايا التى هى أمامى الآن ومنها الكروية والحلزونية والعصوية هى أصغر الأحياء فى العلم . قلت : كلا فان هناك ماهو أصغر منها ولم يدركه الناس . فقال عجبا ! فقلت لاتعجب فان المناظير المقرّبة لما رصدت الكواكب العظيمة ، ورأت أن المسافات فى البعد قد وصلت الى مئات الملايين من السنين فى بعد الكواكب عنا أخذوا يخترعون مناظير مقرّبة بحيث يكون قطر عدسة المنظار (٢٠٠) بوصة ، وسيتم قريبا ، ومتى تم يجدون من الكواكب مالاعلم به الآن . فهاهم أولاء لم يصلوا لأقصى ماهو عظيم و بعيد كما لم يصلوا الى أصغر ماهو قريب ، وكلما عرفوا مخلوقا منها بحثوا عما وراءه ، وهذه الخلايا النباتية التى أمامك تصل فى الصغر الى واحد من الألف من المليمتر . وقد قلت لك ان هناك ماهو أدق من ذلك والمناظير المعظمة لم تستطع رؤيته . فقال : أنت قلت انها نبات . فقلت نعم . فقال النبات يتنفس و ينمو و يتغذى و يتوالد . فقلت : هذه تتغذى بالسوائل والغازات وتعيش فى كل مكان ، تعيش فى الهواء وفى الماء وفى التراب ، فهى مقيسة على العوالم التى حولنا والتى فى الهواء تتنفس منه والتى فى غيره تستخرج منه ماتحتاجه ، ومنها مايتغذى بأجسام حية تسمى طفيلية ، ومنها ماتعيش على الأجسام العضوية غير الحية فتسمى (الرميه)

وأما التى تعيش على ماليس مادّة عضوية فانها قليلة ، وأما توالد هذه الأنواع فانما يكون بالانقسام متى وجدت أفراده مايلائمها . فقال : يظهر لى أن النبات المعلوم لنا كالقمح والقطن أسرع نموّا من هذا . فقلت كلا . فقد قال العلامة فيشر : « اذا تكاثرت بيضة واحدة أى خلية واحدة فى مكان ملائم فانها تنتج فى مدة (٢٤) ساعة (١٦٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠) ويبلغ زنة هذا نصف مليون رطل» . فقال : ياعجبا هذه الخلية التى أمامى التى لاتزيد عن واحد من الألف من المليمتر تتكاثر فى ٢٤ ساعة فتصير نصف مليون رطل أعنى خمسة آلاف قنطار . فقلت نعم . فقال : إذن اذا كانت فى الماء والهواء والتراب فمعنى هذا أن هذا الموت يحيط بنا من كل مكان . فقلت نعم والحياة ، فى هذه المخلوقات منافع ومضار . فقال هل هذه تتحمل الحرّ والبرد كالنباتات المعروفة . فقلت انها أقوى منها . فقال وكيف ذلك ؟ فقلت انها اذا كانت فى

حالة حياتها تتحمل البرودة تحت الصفر الى الدرجة التى يصير فيها الهواء سائلا وهى درجة (١٩٠) تحت الصفر، ومعنى هذا أننا كما نرى البخار اذا قلت حرارته صار ماء ودرجة حرارته فوق الصفر، هكذا اذا نزل الهواء تحت الصفر الى درجات تبلغ (١٩٠) فانه يصير سائلا، فهذه الخلايا التى تعيش بيننا لاتموت فى هذه الدرجة ولكنها لاتتحمل الحرارة أكثر من (٥٥) درجة فوق الصفر، فهى إذن ذات قدرة عظيمة تفوق قوّة النبات والحيوان المعروفين. فقال: أنت قلت انها لاتموت فى هذه الدرجة، فهل معنى هذا أنها تكون كالنباتات المعروفة ذات حياة. فقلت نعم. فقال: ومتى تخمد تلك الحياة. فقلت تخمد وتصير أشبه ببيضة الدجاجة اذا صادفت وسطا لايلائمها. فقال: فماذا يحصل؟ قلت يحيط بها غلاف سميك يحفظها كقشر البيضة وهناك تعيش سنين كما تقدم فى المقال الأوّل موضحا وتبقى الحياة كامنة، ومتى صادفت وسطا مناسبا رجعت لها الحياة ورمت القشرة الحافظة وعاشت حالا كما تقدم. فقال ماصورتها؟ فقلت هاهى ذه (انظر شكل ٤٩)

فقال: ههنا أريد أن تبين كيف تكون هذه نافعة؟ فقلت لولاها لم نعش على الأرض. فقال أوضح. فقلت إن هذه يسمونها (البكتريا) وهذه منها نوع يسمى (بكتريا التعفن) وذلك انها هى التى تحلل الموادّ المركبة المتبثة فى الأرض وترجعها الى عناصرها الأولى، وبهذا يمكن النبات أن يمتصّ من الأرض غذاءه. فهذه الجنود المجندة هى التى تعين على نموّ النبات. فهى أشبه بالطحانين والعجانين والخبازين لنوع الانسان عليهم تتوقف حياة كثير من الناس. فقال: والله إن هذا لعجب! فقلت إن النبات كالقطن والقمح لايستطيع أن يتعاطى عنصر (الاوزوت) مثلا وهو من أهمّ العناصر المكوّنة للنبات إلا بحالة خاصة وهذه الحال الخاصة لاتحصل إلا بعمل هذه الخلايا فى المواد العضوية المعقدة التركيب. إذن هذه نعمة من الله على الناس — إن الله لذو فضل على الناس ولكنّ أكثر الناس لايشكرون — وكيف يشكرون وهم يجهلون. وبهذا ظهر السرّ فى أن هذه النباتات فى حال خمودها كما فى (شكل ٤٩) تقدر أن تتحمل الحرارة الشديدة وتأثير الموادّ السامّة أكثر من التى هى غير خامدة بل حية، ويسمون الحية خضرية. والتى خمدت يسمونها بالجراثيم.

(شكل ٤٩)
تكوين الجراثيم فى البكتيريا

فقال إذن هذه النباتات التى لانرى تقوم بتحليل العناصر والنبات المعروفة عندنا تقوم بتركيبها. قلت: لقد أحسنت، فلولا صحة التحليل وصدقه ما أمكن التركيب. فقال: وهل لها فعل غير هذا؟ قلت كثير:

(١) بعض أنواعها يكون سببا فى الخل، ذلك كما قلنا انه محيط بنا: فهو ينزل فى نحو النبيذ والجعة فينمو ويتكاثر فيكون الخل

(٢) ولا يمكن دبغ الجلود إلا بعد قيام نوع آخر منها بعملية خاصة فيها، وهذه الزبدة التى نأكلها لايحسن طعمها ولارائحتها إلا بعد أن يختمر اللبن بنوع من هذه المخلوقات الخفية. وهكذا اللبن ان يكون (لبنا زباديا) إلا بواسطة هذه المخلوقات. فهى التى تتكاثر فيه حتى يختمر. إذن هى تحضر لنا غذاءنا كما تحضر للنبات غذاءه

فقال: إذن فاذكر لى ضررها؟ فقلت هى تدخل أمراضا كثيرة فى الانسان بطرق مختلفة ويجب على الانسان أن يتقيها وأوّل من أوضحها الاستاذ (باستور) منها:

(١) مرض التسمم

(٢) والطاعون

(٣) والتيفود

(٤) والتيفوس

(٥) والالتهاب الرئوى وهو السل

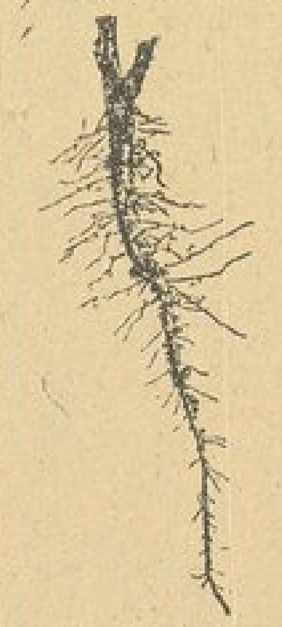
ويدخل للإنسان بالأول من طريق الجرح فى الجلد ، وبالثانى من طريق البراغيث ، وبالثالث من طريق القمل ، وبالرابع من طريق الغذاء جاريا فى القناة الهضمية ، فيكون هنالك الاسهال الشديد والسل الرئوى والتيفود كما قدمنا . كل هذا سببه هذه الحيوانات . وبالخامس من طريق الرئتين

والوقاية من هذه تجب النظافة واستعمال المطهرات والمعقمات فى الأول ، والنظافة وابادة الحشرات فى الثانى والثالث . وابادة الذباب واستعمال الماء النقى وتعقيم اللبن وحفظ الأغذية فى أماكن نظيفة وهكذا فى الرابع ، وتجنب الأماكن التى فيها التراب ، ومعالجة الزكام والبرد بسرعة ، وتجنب البصق ، والابتعاد عن المرضى ، وتناول الطعام الجيد ، والمحافظة على الصحة بوجه عام فى الخامس

فلما سمع صاحبى ذلك . قال : لقد أحسنت وشرحت صدرى ، ولكن هل هذا نعمة ؟ قلت أجل نعمة فهنا يعطى الناس دروس الجدّ والاجتهاد فى الحياة . فاذا كان بعض هذه الجراثيم الخضر والحيوانات الدنيئة تقوم بتحليل المواد العنصرية ليعيش زرعنا ويدرّ ضرعنا فهاهو ذه بعضها تقوم بتقويم العقول وتنمية الملكات وتهذيب الأخلاق ، فهى التى تدعونا لتنظيف أمكنتنا وثيابنا وطعامنا وشرابنا ونكون رجالا نشطين لا خامدين . إذن هذه جيوش مرسلة من الله لاطعامنا ولاحداث النشاط فينا بسبب مقاومتنا لها ، ومامثل هذه النباتات القزّمية التى تحلل العناصر لتغذية النبات فنعيش بها ، والتى تحدث الأمراض من طريق الجلد والقناة الهضمية والرئة إلا كمثل النحل ودودة الحرير وهكذا الحيات والعقارب فكما أن الحيات والعقارب والحشرات الأخرى تحثنا على تنظيف أفنيتنا ومنازلنا وثيابنا ، والنحل ودود القز تفيدنا غذاء وملبسا هكذا هذه النباتات فيها القسمان الضار والنافع ، فبالضارّ يكون الاحتراس والابتكار والاختراع وتقدم الطب وانشاء الكليات ومدارس الطب وارتقاء علوم كثيرة ، وبالنافع يكون نموّ النبات ومنافع أخرى كصلاحية الزبدة والخل للتعاطى

فقال : لقد استوفيت هذا المقام ، فأرجو أن تبين لى هل هذه الجراثيم والخلايا النباتية التى شرحتها الآن ذات ألوان كالنباتات المعروفة ؟ فقلت هى ثلاثة اقسام ، قسمان منها لا لون لهما ، والثالث له لون وهو الطحلب والذان لا لون لهما أحدهما يسمى الفطر والثانى يسمى البكتريا ، فمثال البكتريا ماترى فى (شكل ٥٠) الذى أمامك الآن

هاأنت ذا شاهدت العقد المحيطة بهذه البكتريا المعقدية ، أتدرى من أين أتت هذه العقد ؟ أتت من تلك الجراثيم ، فانها تعيش وتتكاثر فوق النبات وتتغذى بطعامين اثنين : طعام هو الكربون الذى فى الشجرة ، وطعام هو الاوزوت الذى هو أحد أجزاء الهواء فلايزال يتكاثر حتى يموت بانتهاء آجاله ومن الذى يرث هذا الميت ؟ يرثه نفس هذا النبات الذى قبله فى ضيافته وحلّ بساحته ، فماذا يجد النبات عند حصر التركة ؟ يجد أن الكربون الذى تمثل فى جسم تلك النباتات الصغيرة موفرا بحاله ومعه أمر آخر وهو الاوزوت الذى حصله ذلك الضيف من الهواء وهو كان قبل ذلك محتاجا اليه ليقوى به . إذن هذه النباتات نافعات للنبات من جهة ومن جهة أخرى تكسب الأرض خصوبة باضافة أوزوت جديد الى تربتها



(شكل ٥٠)
رسم العقد التى تشاهد على جذور النباتات البقلية

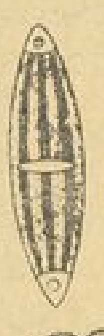
فلما سمع صاحبى ذلك . قال : أودّ أن توضح لى مسألة الطحلب . فقلت سأريك الآن العجب العجاب فى مسألة الطحلب . وذلك ماستراه من الأشكال البديعة فى الصفحات التالية . فهاك ماجاء فى كتاب «علم النبات» وهذا نصه

الطحالب

الطحالب نباتات ثالوسية مركبة من خلية واحدة أومن خلايا عدة ، وهى بسيطة التركيب لاتتميز فيها جذورأوسوق أوأوراق ، وتحتوى خلاياها على مادة الكلوروفيل ، وتعيش فى الماء الملح أو العذب ، والقليل منها يعيش فى التربة أوعلى جذوع الأشجار

والطحالب أهم غذاء للأسماك ، ويستخرج من بعضها اليود والبوتاسا ، ولدراستها أهمية عظيمة من الوجهة العلمية إذ أنها فى بساطة تركيبها وطرق معيشتها تساعد على تعرف طرق معيشة النباتات المائية . ومن المتفق عليه أن الكائنات الحية نشأت فى الماء . والطحالب على أنواع تختلف فى ألوانها وأحجامها :

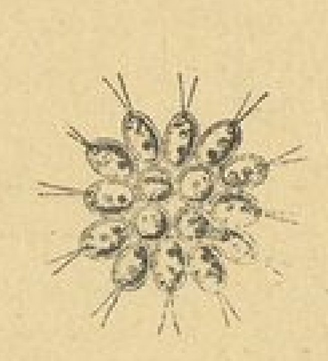
﴿ الطحالب الخضراء ﴾ تعيش طافية على سطح الماء أومثبتة على الصخور الواقعة على الشواطئ معرضة للضوء . وهى فى الغالب صغيرة الحجم . وحيدة الخلية . أوكثيرة الخلايا . مكونة خيوطا متفرعة أوغيرمتفرعة أومستعمرات (انظر شكل ٥١ و٥٢ و٥٣ و٥٤)





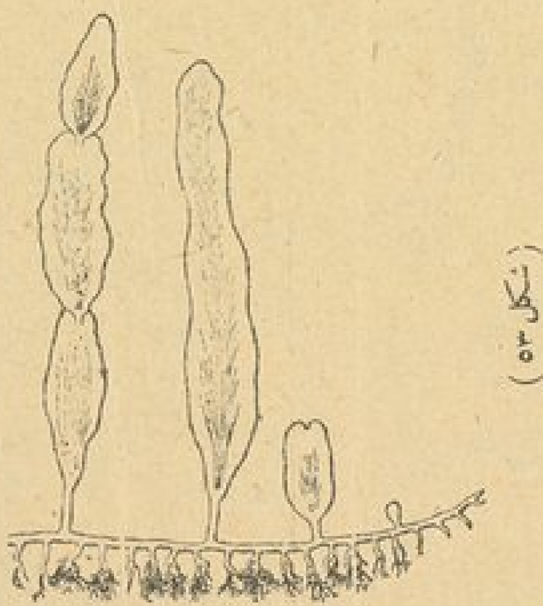
(شكل ٥١)

طحالب خضراء وحيدة الخلية



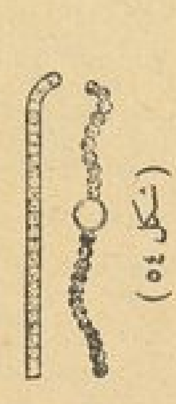
(شكل ٥٢)

مستعمرة من الطحالب الخضراء



(شكل ٥٣)

طحلب أخضر وحيد الخلية أعضاؤه تشابه أعضاء النباتات الراقية

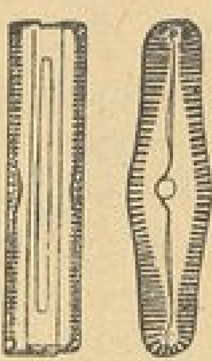


(شكل ٥٤)

طحالب زرقاء مخضرة

(الطحالب

﴿ الطحالب البنية ﴾ تعيش على عمق يسير من سطح الماء . أوطافية عليه . ومن هذه أنواع مركبة من خلية واحدة يحيط بها هيكل سيليسى (انظر شكل ٥٥) وعند موتها ترسب هيا كلها وتتكوّن منها طبقات سيليسية



شكل ٥٥ — طحالب بنية وحيدة الخلية (دياتومات)

وفى الغالب تكون الطحالب البنية مثبتة على الصخور الموجودة على مستوى ماء الجزر فتتعرّض للضوء مدة الجزر وتختفى قليلا مدة المدّ . وهى تختلف فى أحجامها من طحالب صغيرة الى طحالب كبيرة الحجم

﴿ الطحالب الحمراء ﴾ تعيش على أعماق كبيرة من سطح البحر . وأغلبها صغير الحجم خيطى التركيب .

وكل الطحالب على ألوانها المختلفة تحتوى على مادة الكلوروفيل ولكنه يوجد فى الطحالب البنية والحمراء فضلا عن الكلوروفيل مواد ملوّنة تخفى لونه الأخضر

ومن الطحالب مايماثل النباتات الراقية فى وجود مثبتات لها تشبه الجذور يعلوها جزء اسطوانىّ يشبه الساق ويخرج منه مايشبه الأوراق . وقد يبلغ الواحد منها أحيانا حجم شجرة كبيرة . وتتكاثف بعض تلك الطحالب الكبيرة كالسرجاسوم (انظر شكل ٥٦) فى مناطق معيّنة . منها منطقة فى المحيط الأطلسى تعرف ببحر سرجاسو . ولشدّة تكاثفها وكبر حجمها تعدّ خطرا على الملاحة فى هذه المنطقة . وبعض الطحالب الحمراء يفرز هيكلا خارجيا من كربونات الكلسيوم يحيط به ويساعد على تكوين الشعب المرجانية (انظر شكل ٥٦)



(شكل ٥٦ — السرجاسوم : أحد الطحالب البنية الكبيرة الحجم)

الفُطُــــر

الفطر تشبه الطحالب فى بساطة تركيبها . غير أنها كالبكتريا خالية من الكلوروفيل . ولانعدام الكلوروفيل فيها تأثير كبير على طرق معيشتها . فهى غير قادرة على تمثيل الأغذية غير العضوية . ولذلك تحتاج الى مواد عضوية مجهزة . وتنقسم الفطر بالنسبة لمصدر غذائها الى قسمين :

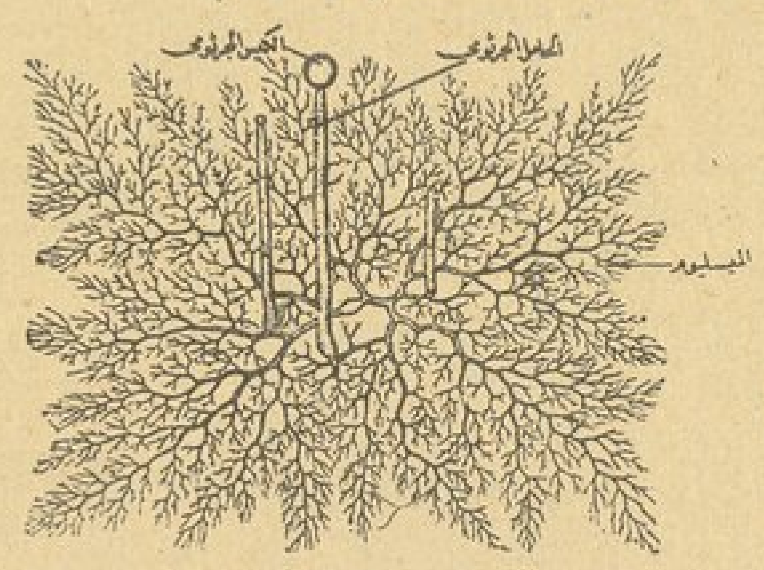
(١) فطر رمية وهى التى تتناول غذاءها المجهز من المواد العضوية الميتة . ولهذه الفطر أهمية كبيرة فى الطبيعة إذ أنها تساعد البكتيريا على تحليل المواد العضوية الميتة وتحويلها الى مركبات بسيطة . و بعضها يسبب فساد كثير من المواد الغذائية . فتعفن الخبز والمربات وكثيرا مايتسبب عن إصابة هذه المواد بأنواع مختلفة من الفطر

(٢) فطر طفيلية . وهى التى تتناول غذاءها من (بروتوبلازم) الكائنات الحية مباشرة . ومنها مايصيب النباتات فيسبب لها أمراضا مختلفة قد ينجم عنها خسائر فادحة فى المحاصيل الزراعية

ومن الفطر مايصيب الحيوانات والانسان . فالقراع مثلا يتسبب من إصابة جلد الرأس بنوع من الفطر الطفيلية . والفرق بين الفطر الرمية والفطر الطفيلية غير واضح فى بعض الأحوال لأن بعض الطفيليات قد يستمر على التغذى من عائله بعد موت ذلك العائل كما ان بعض الفطر الرمية قد يتحوّل الى طفيليات فى ظروف خاصة

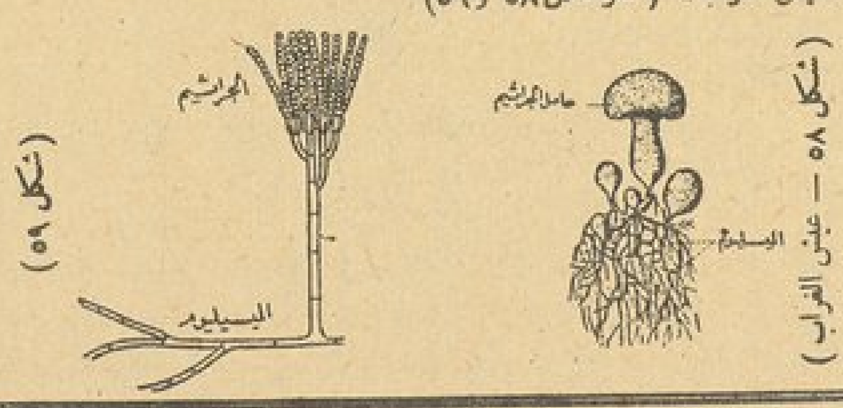
﴿ تركيب الفطر ﴾

يتركب جسم النبات الفطرى إما من خلية واحدة كالخميرة . واما من أنابيب رفيعة كثيرة التفرّع تسمى كل منها (هيفا) ومجموعة هيفات الفطرة الواحدة تعرف بالميسليوم كما فى (شكل ٥٧) وقد تكون الهيفات مقسمة بحواجز عرضية (شكل ٥٨) أو غير مقسمة (انظر شكل ٥٧)



(شكل ٥٧)

وقد تتكاثف هيفات بعض الفطر وتتلاصق فتتكوّن منها كتلة تشبه أنسجة النباتات الراقية كما هو الحال فى «عيش الغراب» (انظر شكل ٥٨ و ٥٩)



(شكل ٥٩)

(شكل ٥٨ — عيش الغراب)

﴿ جمال العلم فى قوله تعالى - ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة - مع قوله تعالى - وقدّر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين - ﴾

سبحانك اللهم شملتنا باحسانك . وبهرتنا بجمالك . ونحن الى جمالك أشوق . والى علمك أكثر بهجة وأفرح قلوبا

سمعناك يا ربنا تقول - وقدّر فيها أقواتها - . فأخذنا نستقرىء هذه الأقوات . فوجدنا عجبا ! وجدنا أن أسبابها هى المشرقات البهيجات من الشموس والكواكب والأقمار . أدرنا الطرف الى تلك المشرقات فألفيناها لاتفتأ تلقى الأشعة والأنوار على أرضنا الجميلة البهجة الحسناء . ووجدنا أن حركات تلك المشرقات لها حساب لاخلل فيه ولاخطأ ولاخطل . ورأينا صيفا وشتاء وربيعا وخريفا وليلا ونهارا كلهنّ بحساب . ثم ان الأنوار الواصلة الى الأرض مختلفات ضعفا وقوّة باختلاف ذلك الحساب . وعلى مقتضاه وجدنا النبات فى الأرض فقلنا لعلّ الحساب فى تلك الكواكب وحدها . أما النبات فلاحساب فيه . بل هو خارج بمقتضى المصادفة . ولكنا لما نظرنا فى أمر النبات وأخذنا نستقرى أنواعه وأجناسه وجدناه بحساب إذ رأيناه موضوعا أيضا بدقة لأنه مجعول لغذاء الحيوان والانسان . والانسان يحتاج فى اليوم والليلة من الغذاء الى مقدار أقله نحو نصف كيلوجرام وأكثره نحو كيلوجرام . وسيأتى تفصيل هذا المقام فى أول ﴿ سورة الجاثية ﴾ فراجعه ولاتعوّل إلا على التفصيل هناك ولنجمل بعضه هنا فنقول

رأينا أن الانسان يحتاج الى نوعين من الطعام : نوع هو مواد عضوية مركبات من مواد نشوية ومواد دهنية ومواد زلالية (آزوتية) . ونوع هو مواد غير عضوية كالأملاح المختلفة والماء . والجرام من المواد الدهنية يعطى الجسم حرارة تولد نشاطا فيه وحركة . وتلك الحرارة لها وحدة يسمونها (كالورى) أو (سعر) ومجموع مايحصل من جرام الدهن (٩) كالورى . وما يكون من جرام النشاء (٤) كلورى . وما يكون من جرام الزلال (٤) كلورى ، فاذا كان فى الطعام (٣) كلوجرامات من كل واحد جرام كان فيه (١٧) كالورى (سعر)

﴿ غذاؤنا لابدّ فيه من موادّ دهنية ، وأخرى نشوية ، وأخرى زلالية ﴾

فالدهنية كالزيوت ، والنشوية كالأرز ، والزلالية كالبيض واللحم وهكذا ، فهذا الذى نحتاج اليه فى طعامنا ألفيناه فى النبات وفى الحيوان ، ثم وجدنا نسبة مختلفة ، فتارة يكثر الزلال ، وتارة يكثر الدهن ، وتارة يكثر النشاء ، ولنا أحوال مختلفات من صحة ومرض وضعف وقوّة وعلى مقتضاه تختلف أطعمتنا ، فتارة نكثر من النشاء . وتارة نكثر من الدهن . وتارة نكثر من الزلال . ثم اننا لما بحثنا النبات وجدنا هذه فيه بنسب مختلفة أيضا فعرفنا أن ههنا حسابا موضوعا بدقة لنستعمل مايوافقنا منه بعد التروّى والبحث والتنقيب . وهاك مثلا لذلك :

﴿ الموادّ النشوية ﴾

رأينا المادة النشوية تكثر فى الارز والذرة والقمح والبزلة الناشفة والفول الناشف واللوبية الناشفة والعدس والبلح الناشف . فهذه الأنواع التسعة يكون النشاء فيها من نصفها الى ثلاثة أرباعها . ونرى الكرنب والطماطم والسبانخ والخص وكشك الماز والخيار والشمام والبطيخ والبرتقال والليمون فيها أقلّ من عشرة فى المائة مواد نشوية . ونرى الفول السودانى والتفاح والكمثرى والخوخ والتوت والعنب والموز والتين واللوز والبندق والجوز وأبوفروه وجوز الهند والفستق والصنوبر . كل هذه فيها النشاء أكثر من عشرة فى المائة .

﴿ المواد الدهنية ﴾

ونرى المواد الدهنية تكثر في اللوز والبندق والجوز والفستق وجوز الهند والصنوبر فهي في هذه أكثر من النصف . ونرى الدهن في الديك الرومي والأوز والضاني والبقري والفول السوداني والبيض أكثر من عشرة في المائة . ونراه في القمح والذرة واللبن والبطاطس والبطاطة واللوبية الخضراء وماأشبه ذلك قليلا جدا

﴿ المواد الزلالية (الآزوتية) ﴾

اننا نرى المواد الزلالية في الديك الرومي والأوز والفراخ والضاني والبقري، والصنوبر والفستق والجوز والبندق واللوز والفول السوداني والعدس واللوبية الناشفة والفول الناشف والبزلة الناشفة في كل هؤلاء أكثر من عشرة في المائة . ونراها أقل من عشرة في المائة في البزلة المقشرة وفي الكرنب والطماطم وهكذا

عجبا يا ربنا : وزنت سير النيرات . وأدهشتنا بعلم الفلك . ولكنك في خلق الحيوانات والنباتات وجدنا حسابك مركبا مضاعفا . فانك جعلت أجسامنا مركبة من مواد دهنية ومواد آزوتية ومواد نشوية . ونفس هذه المواد وجدناها بمقادير مختلفة . ثم سمعناك تقول في كتابك ـ وقدّر فيها أقواتها ـ

يارب تبا للجهالة . تبا للجهال . يسمع المسلم ـ وقدّر فيها أقواتها ـ فتمرّ عليه الكلمة غالبا كأن لم يسمعها . أوّاه لأمم الاسلام النائمة . أفلم يدبروا القول إذ جاءهم !

إن هذه المآكل قد وزنتها الأمم حولنا ونظروا فيها نظرائهم . فهل يبقى المسلمون مكتوفي الأيدي . ان للمسلمين بعد انتشار هذا التفسير لجولة ودولة وصولة واسعادا لنوع الانسان . هذه النباتات طلاسم وألغاز لايحلها إلا علماء جميع النوع الانساني لابعضه . والمسلمون يبلغون نحو الخمس أو الربع من نوع الانسان ، فعليهم أن يقوموا بما عليهم حتى اذا درسوا ما أنتجته قرائح آبائهم . ثم ماأنتجته قرائح الأمم المتأخرة بعدهم قاموا إذن بنصيبهم من البحث في الأغذية وأنواعها قياما بحق قوله تعالى ـ وقدّر فيها أقواتها ـ إذ وضعها بوضع مقدّر فكانت المواد النشوية والمواد الآزوتية والمواد الزلالية كل منها له نسب خاصة في المواد العضوية وذلك لاختلاف الآكلين والأمزجة والأمكنة والأشخاص ، وذلك يعوزه كثرة البحث والتنقيب حتى تكون هناك نتائج بها يخصص لكل قبيل ولكل امرئ مايناسبه زمانا ومكانا ، هنالك تقلّ الأمراض وترقى العقول وتسعد الانسانية . ولن يتمّ ذلك إلا اذا ساعد الغربي الشرقي ، والشرقي الغربي ، في درس هذه الدنيا ونظامها ورموزها

خطاب المؤلف لربه

يارب في القلوب حبك ، وفي العقول شكرك ، وعلى الألسنة ثناؤك ، لاسعادة في الحياة إلا بالحب ، ولاحب إلا بعد العلم

تحبك الدّواب والأنعام لأنك تسدي اليها الغذاء ، وتحبك العامّة من نوع الانسان لأنك تطعمهم من جوع وتغنيهم من فقر ، وهذا حبّ كحب عبيد العصا يحبون يحب سادانهم اذا رفعوا عنهم ضرب العصا ، فهو حب على دفع الألم بعد حصوله ، وهل اللذة إلا بعد الألم . ويحبك بعض آخر من العامّة لأنك فوق ماغذيتهم بالطعام ملكتهم منه كثيرا ، وأنعمت عليهم بالمال الوفير والخيرات والبركات وآتيتهم ملكا في الدنيا . ويحبك الأطباء لأنهم اطلعوا على أسرار الأغذية وخواصها فشفيت بها مرضاهم . ويحبك الحكماء وحبهم لك أعلى من حب السابقين

﴿ تذكرة ﴾

اذا أردت أن تعرف كيف ترتب غذاءك فاقرأ ماتقدم في آخر سورة ص عند قصة آدم عليه السلام ،

وفيها أيضا فى آخر سورة طه ، وفى سورة الشعراء عند آية ـ واذا مرضت فهو يشفين ـ وفى سورة الحجر وفى سورة الأعراف عند قوله ـ وكلوا واشربوا ـ الخ وفى سورة البقرة عند آية ـ أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير ـ

انهم يحبونك لعلمك الذى ظهرت آثاره فى نحو تقدير الأقوات ولرحمتك التى تجلت فى عنايتك باستيفاء أنواع أغذية الحيوان ، ولجمالك الذى تجلت آثاره فى صور النبات وأشكاله وبدائع الحيوان ، ولحبك الذى أمدّ بعضه القلوب فأحبت الاحسان والجمال والكمال . إن سعادتنا بالحب . ولا كمال للحب إلا على مقدار العلم بالمحبوب . يصلى المسلم فيقول « الحمد لله رب العالمين » ويسبح ويكبر . فبالتسبيح يتصوّر أن ذلك المحبوب أرفع من كل مايعلمه . وبالتحميد يتذكر إحسانه وعلمه فيزداد حبه . وبالتكبير ينسى كل مخلوق ويفرح بذلك الوجود الأكمل ، وهناك يفهم ـ واذا رأيت ثمّ رأيت نعيما وملكا كبيرا ـ

بازدياد العلم يزداد الحب . وبازدياد الحب تزداد السعادة . وأفضل سعادة الدنيا هو الحب . وأفضل سعادة الآخرة هو الحب

﴿ نور على نور وضرب مثل بما نحن فيه لما يلهب القلوب حبا ويملؤها جمالا ويبهرها أنوارا ﴾

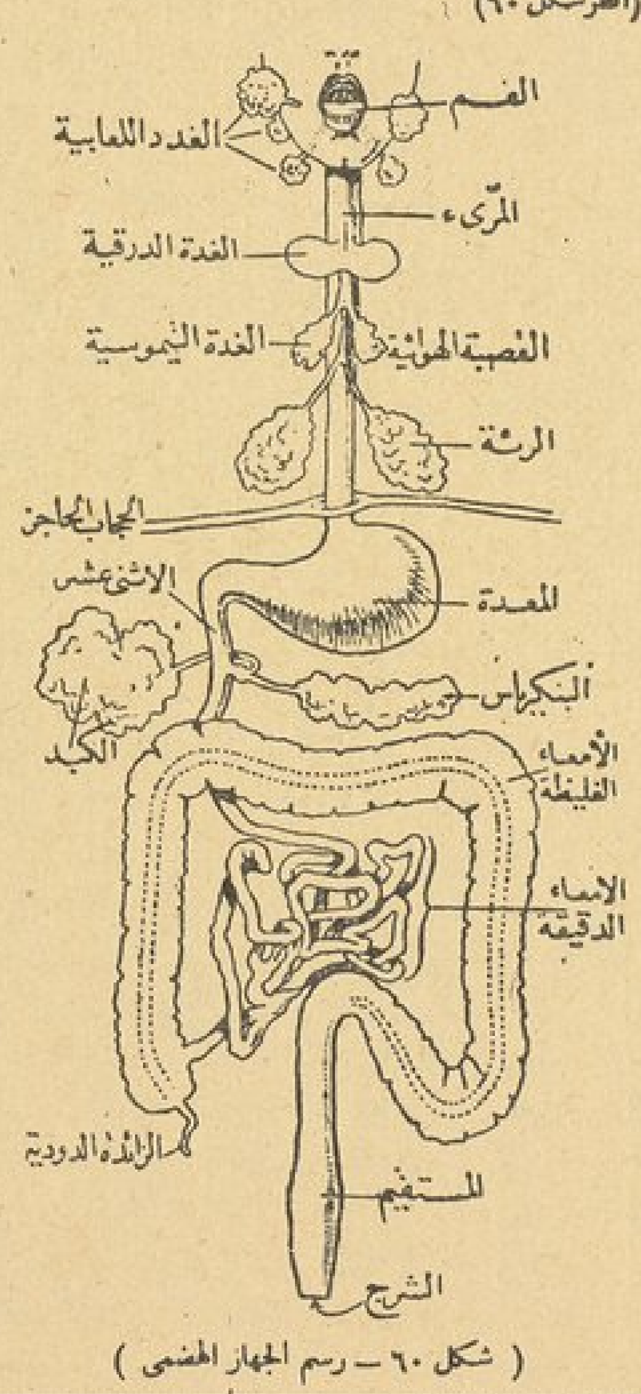
أريد أن أضرب مثلا ببعض أنواع النبات ونظامها وموافقتها للجهاز الهضمى . ياسبحان الله : ترى الانسان يعوزه فى اليوم (١٨٠٠) سعر اذا كان فى فراشه . وقد عرفنا ماهو السعر فيما تقدم قريبا أن الذى يحدثه فى الجسم هو المادة الدهنية والنشوية والاوزوتية . وهو يحتاج الى (٤٠٠٠) سعر إن كان فى شغل شاق والى نحو (٣٠٠٠) اذا كان فى شغل متوسط . ولقد عرفنا أن الجرام من المادة النشوية ومن المادة الزلالية يحدث (٤) سعر (كالورى) ومن المادة الدهنية يحدث (٩) كالورى فلننظر فى الذرة والقمح والصنوبر والفول السودانى فماذا نجد ؟ نجد الجدول التالى

الصنف	ماء	آزوتية زلالية	دهنية	نشوية	القيمة الغذائية للرطل المصرى
قمح	١٢ر٨	١٠ر٨	١ر١	٧٤ر٨	١٥٦٤
أذرة	٩ر٣	٩ر٩	٢ر٨	٧٦ر٣	١٥٤٧
صنوبر	٣ر٤	١٤ر٦	٦١ر٩	١٧ر٣	٣٠٤٠
فول سودانى	٩ر٢	٢٥ر٨	٣٨ر٦	٢٤ر٤	٢٤٣٤

إنما اخترت هذه الأغذية لأنها تعطينا ضروب التفاوت فى مقدار السعر وفى المقادير الدهنية والاوزوتية والنشوية ، فقد ارتفع الفول السودانى فى المادة الاوزوتية ، والصنوبر فى الدهنية ، والقمح والذرة فى النشوية وارتفع الصنوبر فى قيمة التغذية . ويليه الفول السودانى وأقلّ منهما الذرة والقمح

هذه صورة تظهرلنا مقادير الأغذية فى النبات ، إن كل نبات لايخلو من هذه المواد ، ففيها الماء ، وفيها المواد الثلاثة ولكن النسب مختلفات كما اختلف الناس أوطانا وقوى وأجساما وقبائل وعادات فاختلفت النباتات كما اختلفوا . وهنا مدهشات وعجائب ! هو أمر الشمس وأمر جذور النباتات وأمر أوراقه والجهاز الهضمى للانسان مثلا . أليس من العجب أن الشمس ترسل الأشعة فتساعد تلك المادة الملونة التى تقدم وصفها فى (سورة يس) عند آية ـ سبحان الذى خلق الأزواج كلها ـ يارب عجبا (انظر الموضوع هناك إذ ترى صور الورقات ، ووصف الحجرات فى كل ورقة ، وانها تكون مئات وألوفا وملايين فى الورقة الواحدة والمادة الملونة فى تلك الحجرات يساعدها ضوء الشمس فى اجتذاب الغذاء من الهواء ، ولولا هذا لم يكن نبات) وهكذا

ری جـذور الأشجار والزروع ذات مسام شعرية تختلف فتحاتها اختلافاً على مقتضى اختلاف النبات بحيث تكون الفتحات الشعرية لكل نبات صالحة لاجتذاب وقبول المواد التى يتمثل بها النبات ، وفتحات هذه الأنابيب هى مفاتيح سر النبات ، فتكون فى الصنوبر غيرها فى الفول السودانى غيرها فى الذرة والقمح بحيث لواختلت أواضطربت فدخلت مواد تزيد فى المادة الدهنية أوالنشوية أوالاوزوتية عما هو مقرر لكل منها لم يكن فى الأرض فول سودانى ولا ذرة ولا قمح ولا صنوبر ، فنظام هذا العالم نظام أدنى عجيب ، لواختلت الأوراق فى مجراتها أوالجذور فى فتحاتها فدخلت ذرات لا توافق حساب المواد المقررة للنبات لم يكن ذلك النبات وفسد هيكله ولم يعش حيوان ولا انسان قال تعالى ـ وكل شىء عنده بمقدار ـ . والأمر الأعجب أمر الجهاز الهضمى (انظر شكل ٦٠)



(شكل ٦٠ ـ رسم الجهاز الهضمى)

تعجب لهذا الجهاز . انظر كيف نظمت مصانعه على مقتضى نظام النبات . ومعنى هذا انه جاء مطابقا للمواد الداخلة فى النبات ، فكما نرى فى كل نبات :

(١) مادة نشوية وتغلب فى الحبوب كالقمح والشعير والأرز ، وفى الخضراوات كالطاطس والبطاطة واللفت والجزر والبنجر ، وفى البقول كالفول والعدس واللوبية والبزلة (الجافة)

(٢) ومادة زلالية أزوتية وتغلب فى البقول واللحوم

(٣) ومادة دهنية وتغلب فى الزيوت (والسمن والزبدة ودهن الحيوان والطيور)

هكذا نرى فى هذا الجهاز المرسوم فى الصحيفة السابقة :

﴿أولا﴾ — (١) مصانع فى الفم وهى (٦) ينابيع تهضم بعض المواد النشوية (٢) ومابقى من النشاء بلاهضم يهضمه البنكرياس بخميرة خاصة به ويزيد هذه المادة هضما (٣) عصارة الأمعاء الدقاق

﴿ثانيا﴾ المواد الدهنية وهى تهضم بعصير يخرج من مصنعين : أحدهما البنكرياس ، وثانيهما مايفرزه الكبد من الصفراء

﴿ثالثا﴾ المواد الآزوتية وهى تهضم بالعصير المعدى والبنكرياس

الهواضم	المواد		
(١) لعاب الفم وهوست ينابيع	النشاء	...	....
(٢) العصير المعدى	...	...	الآزوتية
(٣) الصفراء	...	الدهنية	....
(٤) البنكرياس	النشاء	الدهنية	الآزوتية
(٥) عصير الامعاء الدقاق	النشاء	...	....

فاذا نحن جاوزنا لعاب الفم ألفينا عجبا ، ألفينا البنكرياس يهضم الأنواع الثلاثة بأنواع من الهواضم مختلفات ، وألفينا العصير المعدى والصفراء والامعاء قد وزعت عليها أنواع الأغذية الثلاثة توزيعا عادلا فساعد كل مصنع فى هضم مادة من المواد ، إذن لكل مادة نوعان من الهواضم إذا استثنينا لعاب الفم للمواد النشوية

ههنا ننظر ضوء الشمس ، وفى حجرات الأوراق ، وفى فتحات الأنابيب الشعرية ، فنجدها قد حسبت حسابا متقنا حتى حصلنا المواد الغذائية ، ثم نبحث فى الجهاز الهضمى فنجد المصانع فيه موزعات على هذه المواد التى عملت فيها عوامل الأضواء والأوراق وفتحات الجذور الشعرية

﴿ نظام الأمم الأرضية ، والشوق الى مبدع النظام ﴾

فياليت شعرى يامعاشر بنى آدم ، أغفلتم عن هذا النظام ، ألم تعلموا أن هذا مثل ضربه الله للناس بنفس نظام ماخلقنا ، وقال لكم : « لولم يكن هناك البنكرياس مع العصير المعدى ، ولولم يكن البنكرياس مع الصفراء ، ولم يكن البنكرياس مع عصير الامعاء لم تهضم المواد الآزوتية ولا المواد الدهنية ولا المواد النشوية » — يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون —

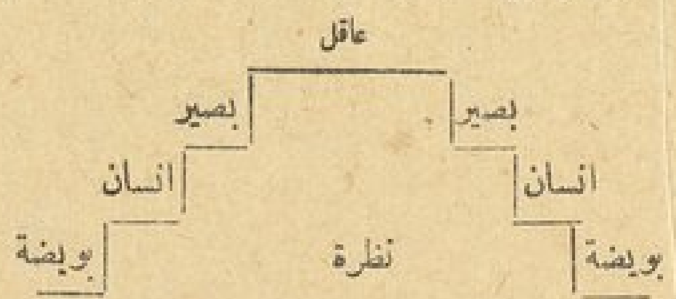
فههنا هو التفصيل ، وهذا هو التدبير ، وبهذين يكون الايقان ، واليقين هو العلم الذى لايدخله الشك . ولو أن مصنعا من هذه المصانع الهواضم للمواد لم يكن فى الجهاز الهضمى لاختل نظام الهضم . ألم يعلم هذا النوع الانسانى أن الأرض جميعها أشبه بالجهاز الهضمى وأن عقول بنى آدم أشبه بهذه المصانع الهواضم لهذه المواد وأن اختلال عقول أمة أوضعف قوتها يحرم المجموع الانسانى مما تنتجه تلك العقول كما حرم الانسان من هذا

الانتفاع بغذاء وبدعن و بزلال لم يجد مايهضمه . أى فرق أيها الناس بين القوى الهاضمات المواد والأغذية المختلفة و بين العقول المختلفات الموزّعات على الناس ، أليس هذا النظام الجسمى العجيب مشاكلا كل المشاكلة للنظام العام . اللهم إنى أكتب هذا القول فى كتابك وأخاطب عبادك جيعا فى الأرض ، وأقول : « مادامت هذه الأرض فيها أمة واحـدة لم يستخرج ماعندها من القوى العقلية ومافى أرضها من القوى المادية فأهل هذه الأرض جيعا معذبون على مقدار مانقصهم من فوائد تلك العقول كما تنقص سعادة الانسان الواحد بما نقصه من القوى الهواضم لمواد طعامه ، وهذا القول أنا به موقن

عروج النفس الى العالم الأعلى

لقد قدّمت فى غير ما موضع من هذا التفسير لاسيما فى آية ـ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ـ الخ فى هـذه السورة أن المادة عجزت عن إمداد عوالمها بالحرارة والضوء فهى عن إمدادها بالتصوير والادراك والعقول والغرائز والقوى أشدّ عجزا ، وأقول الآن : إن العلم اليوم فى العالم الانسانى أثبت أنه لاوجود للمادّة لأنها عبارة عن حركات تنوّعت فان كانت من ٤٠٠ مليون مليون فى الثانية الى ٧٠٠ مليون مليون فيها فذلك هو الضوء ، وان كانت نحو ٦ آلاف مليون مليون فى الثانية فهى العناصر ومركباتها ، فليحذف النوع الانسانى من محافظه ذكر الفلاسفة المادّيين ، فاذا لم تكن مادّة فكيف يكون لها فلاسفة ! ولكن الناس يذكرونهم وهم غافلون عن رقىّ العلم اليوم .

فلم يبق إلا ان هناك: علما ورحمة وجمالا وحبا استمدّ منه الناس علمهم ورحمتهم وحبهم وصوّرت العوالم بالصور الجميلة التى لاتقدر عليها المادة الموهومة ، فههنا نتيجتان : نتيجة سياسية ، وهى ان الأمم الأرضية لاتزال مضطربة معذبة حتى يستقرّ قرارها بنظام يشمل جميع نوع الانسان فيكونون كجهاز هضمى واحد يقوم بجميع مافى الأرض من الأعمال ، ونتيجة علمية ، وهى ان أسعد حياة للانسان أن يدرك هذه الحقائق بعقله من غير تقليد ، وهناك يرى أن عقله والرحمة التى عنده ، والجمال المبدع فى العوالم حولنا ، والحب المنبث فى العوالم كل هـذه آثار لعلم ورحمة وجمال وحب واسع ، فتى أحسّ بذلك دخـل فى عداد السعداء فى هذه الحياة ، ويكون ممن قيل فيهم ـ لايحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون ـ



وسيأتى تفصيل هذا المقام فى تفسير البسملة فى سورة الدخان ، وسترى هناك كيف خيلت لى درجات رقىّ الانسان أولا فى بطن أمه وثانيا فى درجات إحساسه ثم فى عقله ، وهناك ترى رسما أظهر من هذا الرسم إذ يكون بويضة فى الرحم فيرتقى الى أن يصير ذبابة وقردا وانسانا ، ثم بعد الوضع يلمس ويذوق ويشم ويسمع ويبصر ثم يعقل وهناك وصلت فى الخيال الى الذروة العليا ، وعلوت الى ذلك المستوى الرفيع ، وغادرت عالم المحسوسات ودخلت فى عالم المعقولات ، غدوت ولى نظرتان : نظرة الى أعلى ، ونظرة الى أسفل و بعبارة أخرى نظرة الى عالم العقل والروح والحب والجمال ، ونظرة الى عالم المادّة كالأرض ومن عليها وأشجارها وزروعها وأحجارها ورمالها وجبالها وبحارها ، هنالك تبينت لى الحقائق ، وابتهجت نفسى بالمعارف ، وأخذت أوازن مابين هذين المنظرين وبين الصلاة فى الاسلام ، فتارة كنت أحصر الفكر فى العالم اللطيف الذى أسكرنى غشيته

وأبهجتنى حكمته ، وأسعدتنى بهجته ، فأعرف إذ ذاك كيف يكون الحمد على النعم والشكر عليها والرحمة العامة ومبدأ الهداية الى الصراط المستقيم ، وتارة أنظر الى العالم الأرضى أسفل هـذا المعراج ، فأفهم لماذا يسلم المسلم على الأنبياء وعلى الصالحين وعلى نبيه ﷺ وعلى نفسه تارة ، ويصلى على نبينا ﷺ وعلى الأنبياء قبله تارة أخرى ﴿ و بعبارة أخرى ﴾ ان النظرة الأولى لعالم الأرواح والجمال والعقل منبع للنظرة الثانية وأصل لها ، فالأنبياء هم الذين يفشون السلام فى الأرض مما اقتبسوه من ذلك العالم ، فالفاتحة أقرب الى عالم الجمال والعلم ومأمهما والتشهد فى الصلاة مفرّع عليها ، فاذا كان هؤلاء الأنبياء هم مبدأ السلام فى الأرض اقتبسوه من عالم العلم والجمال ، فالمسلم يسلم عليهم ليقلدهم بسبب كثرة استحضارهم فى نفسه فيصبح ذلك ملكة راسخة فى نفسه فيفشى السلام فى الأمم كما أفشوه ويستعمل أهمّ الطرق لذلك ويبتدئ بتحية الله عزّ وجل وهذا سرّ السلام على كثير من الأنبياء فى ﴿ سورة الصافات ﴾ وانتهت السورة بتسبيح ربّ العزّة والسلام على المرسلين كلهم واعلان الحمد لله لأن هذا الحمد الذى تشمله الفاتحة المبنى على العلم والرحمة الخ مبناه وأصله سبب فى أن الأنبياء أفشوا السلام فى الأرض ، ومن هذا يفهم المسلمون سرّ قوله ﷺ « افشوا السلام » وسر تسليم المؤمن على أخيه كلما قابله . انتهى مساء ٣١ ديسمبر سنة ١٩٣٠ والحمد لله رب العالمين

بهجة الحكمة وجمال العلم

فى قوله تعالى أيضا ـ ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزّت وربت ـ

أنا الساعة أظنّ انى نجحت فى مشاركتك أيها الذكىّ فى فهم مقادير النبات ونسبتها الى جهازنا الهضمى والى الشمس والضوء والأنابيب الشعرية وفتحاتها المختلفات : لحقّ لى أن أريك الآن جدول الأطعمة من كتاب « الغذاء فى الأمراض » تأليف الدكتور حسن عمر . فقد جاء فيه تحت العنوان التالى ما نصه :

تحليل الغذاء كيمائيا

إن معظم المواد التى يتغذى بها الانسان إما أن تكون عضوية أوغير عضوية . فغير العضوية هى عبارة عن مختلف الأملاح التى يأكلها الانسان فى غذائه ومشربه . أما المواد العضوية فهى غالبا مركبة من مادة نشوية ودهنية وزلالية (آزوتية) . هذا وسترى فى الجدول الآتى قائمة فيها تحاليل معظم مأكولاتنا فى المائة مع ذكر قيمتها الغذائية للجسم فى الرطل المصرى الواحد (انظر هذا الجدول)

الصنف	ماء	أزوتية (زلالية	دهنية	نشوية	القيمة الغذائية للرطل المصرى بالسعر
قمح	١٢ر٨	١٠ر٨	١ر١	٧٤ر٨	١٥٦٤
أرز	١٢ر٤	٧ر٤	٠ر٤	٧٩ر٤	١٥٤٠
أذرة	٩ر٣	٩ر٩	٢ر٨	٧٦ر٣	١٥٤٧
لبن	٨٧ر	٣ر٣	٤ر٤	٥ر٠	٣٢٥
بيض	٧٣ر٣	١٤ر٨	١٠ر٥	٠ ٠	٦٨٥
بطاطس	٦٢ر٦	١ر٨	ر١	١٤ر٧	٢٩٧
بطاطه	٥٥ر٢٠	١ر٤	ر٦	٢١ر٩	٤٥٠
لوبية خضراء	٨٩ر٣	٢ر٣	ر٣	٤ر٧	١٣٦

الصنف	ماء	آزوتية (زلاليه)	دهنية	نشوية	القيمة الغذائية للرطل المصرى بالسعر
بزله بقرونها	٨١ر٨	٣ر٤	٤ر	١٣ر٧	٣٢٠
بزله مقشره	٧٤ر٦	٧ر٧	٥ر	١٦ر٩	٤٦٧
بزله فى العلب	٨٥ر٣	٣ر٦	٢ر	٩ر٨	٢٤٥
بزله ناشفة	٩ر٥	٢٤ر٦	١ر٠	٦٢ر٠	١٥٧٨
فول ناشف	١٠ر٤	١٨ر١	١ر٥	٦٥ر٥	١٥٨٩
لوبية ناشفة	١٢ر٦	٢٢ر٥	١ر٨	٥٩ر٦	١٥٢٧
عدس	٨ر٤	٢٥ر٧	١ر٠	٥٩ر٢	١٥٣٧
فول سودانى	٩ر٢	٢٥ر٨	٣٨ر٦	٢٤ر٤	٢٤٤٣
كرنب	٨٩ر٦	١ر٨٠	ر٤٠	٥ر٨	١٥٠
« مطبوخ	٩٧ر٤	٠ر٦٠	ر١٠	ر٤	١٥٠
طماطم	٩١ر٩	١ر٣٠	ر٢٠	٥ر٠	١٢٠
طماطم مطبوخة	٩٤ر٥	١ر٠٠	ر٢٠	١ر	١٢٠
سبانخ	٩٠ر٦	٢ر٥	ر٥٠	٣ر٨	١٣٢
خس	٩٤ر١	١ر٤٠	ر٤٠	٢ر٦	١٨٩
كشك الماز	٩١ر٧	٢ر٢٠	ر٢٠	٢ر٩	٩٨
خيار	٩٥ر٩	ر٨٠	ر١٠	٢ر١	٥٨
تفاح	٨٢ر٥	ر٤٠	٥ر	١٢ر٥	٢٥٠
كمثرى	٨٣ر٩٠	ر٤٠	٦ر	١١ر٥	٢٣٨
خوخ	٨٨ر٨٠	ر٥٠	٢ر	١٣ر٤	٢٥٧
توت	٨٤ر٧٠	١ر٣٠	٥ر٧	١٥ر٤	٥٢٤
عنب	٧٩ر٠	١ر٠٠	١ر٠٠	١٥ر٥	٣٣٣
شمام	٨٩ر٨٠	ر٧٠	٣ر٠٠	٧ر٦	٢٦٦
بطيخ	٩٢ر٩٠	ر٣٠	١ر	٦ر٥	١٢٤
موز	٧٤ر٠	١ر٥٠	ر٧	٢٢ر٩	٤٦٢
برتقال	٨٦ر٧٠	ر٩٠	ر٦	٨ر٧	١٩٥
ليمون	٨ر٩	١ر٠٠	ر٩	٨ر٣	٢٠٠
بلح ناشف	٢ر٠٨	٤ر٤٠	٢ر١	٦٥ر٧	١٣٢٨
تين	٧ر٩١	١ر٥٠	ر٩	١٨ر٨	٣٩٥
زبيب	١ر٤٠	٢ر٥٠	٤ر٧	٧٤ر٧	١٥٥٨
لوز	٤ر٨	٢١ر٠	٥٤ر٩٠	١٧ر٣	٢٨٧٣
بندق	٣ر٧	١٥ر٦	٦٥ر٣٠	١٣ر	٣١١٦
جوز	٢ر٨	١٦ر٨	٦٤ر٤٠	١٤ر٨	٣١٣٣
أبو فروة	٤٥ر٠	٦ر٢	٥ر٤٠	٤٢ر١	١٠٧٤

الصنف

الصنف	ماء	آزوتية (زلاليه)	دهنية	نشوية	القيمة الغذائية بالرطل المصرى بالسعر
جوز هند	١٤ر١	٥ر٧	٥٠ر٦٠	٢٧ر٩	٢٦١٩
فندق	٤ر٢	٢٢ر٦	٥٤ر٥٠	١٥ر٦	٢٨٥٦
صنوبر	٣ر٤	١٤ر٦	٦١ر٩	١٧ر٣	٣٠٤٠
بقرى بيت الكلاوى	٥٢ر٥	١٦ر١	١٧ر٥	٠٠	٩٨٥
بقرى نخذه	٦٧ر٠	١٩ر٠	١٢ر٨	٠٠	٨٤٨
بتلو نخذه	٦٠ر١	١٥ر٥	٧ر٩	٠٠	٥٩٠
ضانى «	٥١ر٢	١٥ر١	١٤ر٧	٠٠	٨٥٥
ضانى كستليتة	٤٢ر٠	١٣ر٥	٢٨ر٣	٠٠	١٣٧٠
فراخ	٤٣ر٧	١٢ر٨	١ر٤	٠٠	٢٨٣
أوز	٣٨ر٥	١٣ر٤	٢٩ر٨	٠٠	١٤٢٩
ديك رومى	٤٢ر٤	١٦ر١	١٨ر٤	٠٠	١٠٢٠

﴿ قسمة علم النبات بيننا وبين الأطباء ﴾

يقول عمرو بن كلثوم

فآبوا بالنهاب وبالسبايا * وإبنا بالملوك مصفدينا

ويقول عنترة العبسى :

لى النفوس وللطير اللحوم وللـ ـوحش العظام وللخيالة السلب

يقول إنى عظيم القدر شريف المنزلة ، لا أجعل نفسى وقفا على الامور المادية ، واذا قنعت الطيور بلحم من أجندلهم فى الميدان ، وقنعت الوحوش بالعظام ، ورجالى بما على المقتول من دروع وملابس ، فانى أكبر نفسا وأعز شرفا ، فكفانى أنى أنا القاتل . فهؤلاء مقاصدهم مادية ، فأما أنا فأرى أشرف قدرا وهو انى قاهر الأقران موصوف بالشجاعة والعلو والقهر ﴿ وبعبارة أخرى ﴾ لذاتى روحية ولذات هؤلاء حسية ، واللذة الروحية أعلى مرتبة وأشرف غاية وأكمل سعادة

واذا رأينا هذا الشاعر فى البادية يفخر باللذة الروحية ولامعارض له مع انها لم تمتز عن لذة النمر ، ذلك لأنه قد يقتل الحيوان لمجرد القتل لا لسد جوعه ، ولولا استلذاذه بالقتل مافتك لغير داعية الجوع ، فهذه إذن لذة سبعية لا لذة عقلية شريفة . أفلا يحق لنا أن نقول للأطباء : « أيها الأطباء لكم المرضى فافرحوا بشفائهم اذا عرفتم هذه المقادير ولكم الأصحاء فعلموهم مقادير الأطعمة ليحترسوا من الوقوع فى المرض . أيها الأطباء هذا هو النبات وهذه مقاديره ، وهذا علم الطب بقسميه : علم حفظ الصحة ، وعلم مداواة المرضى ، فقوموا بهما واشفوا المرضى من عللهم وأمراضهم ، ونسأل الله نجاحكم »

ولكننا نحن نريد مقاما أعلى لهذه الانسانية بعد أن تكونوا أنتم قمتم بصحة أجسامهم وحفظ صحتهم ليفهموا كلامنا لأن المريض قلما يفهم مانقوله ، وهناك حقول مختلفات فى المخ تموفيها أنواع العلوم الرياضية والطبيعية والتاريخية والأدبية والسياسية وهكذا كما دل عليه الكشف الحديث ، ذلك ان فى المخ محال مخصصات لكل علم قامت عليه الأدلة التشريحية بحيث تمو تلافيف خاصة باستعمال علوم معلومة ، وباهمال تلك العلوم لا يكون لهذه المحال فى المخ نمو . فاذا كان الجهاز الهضمى قد اقتسم المواد النشوية والدهنية

والاوزونية ، فهكذا نجد المخ اقتسم المواد العلمية من رياضية وطبيعية وأدبية وهكذا . وكما وجدنا أن للأغذية مبدأ وهي الشمس أشرف الموجودات المحسوسات هكذا نجد لأغذية العقل المتصرّف في الدماغ الذي هو أشرف من الجهاز الهضمي مبدءا وهو أشرف الموجودات الغائبة عن الحس وهو الذات القدسية ومنه انبعث العلم في نفوس هي وسائط توصل لنا الادراك والفهم والعلم على وزن توسط النبات بيننا وبين ضوء الشمس وحرارتها . واذا كانت كل حاسة من حواسنا الظاهرة متصلة بعالم يماثلها . فلتكن عقولنا متصلات بعوالم عقلية هي مستمدة من الله عزّ وجل

إن هذا البرهان يقيني كالبرهان الذي تقدم في قوله تعالى ـ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ـ الخ في هذه السورة

﴿ هذا زمان ظهور الحقائق ﴾

هاهي ذه براهين أرسطاطاليس وسقراط وأفلاطون ومن بعدهم من الأمم الى وقتنا الحاضر قد شرحتها لك واضحة فيما تقدم وأبنت طرقها . ولقد اختلقوا لخفاء تلك البراهين على الذات القدسية أن الله عزّ وجل لم يشأ أن يظهر الحقائق للأمم مرة واحدة . إن الله نظر الى الأمم كلها نظره الى نفس واحدة . وهذه النفس الواحدة أخذ يعلمها بالتدريج والطفرة محال فألهم سقراط ماعرفته هناك . وألهم أفلاطون تدوينه . وأوعز الى أرسطاطاليس أن يرد البرهان . وكان ذلك سببا في ظهور فرق متشاكسات من أبيقوريين ورواقيين قبل الميلاد والى الأفلاطونيـة الحديثة . ثم الى فرق متعـددة في الاسلام وفي أوروبا . ولكن اليوم إذ ظهر سرّ النبات وانتشر واستعدّت قلوب الأمم للعلم

ظهرت البراهين الآن في هذا الكتاب جلية واضحة بحيث يسهل على المتوسطين فهمها ويقل الاختلاف فيما كتبناه في هذا المقام وأوضحناه في هذه السورة . ولقد جاء في كتاب « المذهب الروحاني » لمؤلفه عبدالله الباجي أحد الروحانيين الشرقيين في صحيفة ١٤١ أسئلة تناسب المقام . وهاك نصها :

(س) هل يمكن للطبيب أن يستحضر المرضى الذين ماتوا على يده ، ويستوضح منهم بعض الدلائل يزداد بها خبرة ومعرفة ؟

(ج) قد يصح ذلك وينال المساعدة من الأرواح العلوية ذاتها بشرط أن ينكب على درسه هذا بالاستقامة وصفاء لابغية حشد المال وكسب المعارف من دون جدّ ولاعناء

(س) هل يمكن استرشاد الأرواح في المباحث والاكتشافات العلمية ؟

(ج) إن العلم هو صنع العقل ، ولا يكتسب إلا بالعمل ، وبالعمل وحده يتقدم المرء في طريقه ، أيّ فضل يبقى للانسان اذا أمكنه أن يعرف كل شيء باستنباء الأرواح ؟ ألا يصبح الغبيّ الجاهل بهذه الطريقة عالما ؟ ثم ان لكل شيء وقتا معينا يأتي في حينه أي عندما تكون الأفكار مؤهلة لقبوله وأما بتلك الطريقة فيقلب الانسان نظام الأشياء ، إذ يقطف الثمرة قبل نضجها

(س) ألا ينال إذن العالم والمخترع عونا من الأرواح في مباحثه ؟

(ج) إن العون لاينقصه عند ما يكون أوان الاختراع قد دنا فتوافيه وقتئذ الأرواح وتلقى اليه بعض الإلهامات الفكرية فيتلقفها هو ويشتغل بها الى أن ينتج منها الاكتشاف المقصود فيكون معظم الفضل راجعا له ، فما لكم إذن والزيغ عن محجة الروحانية والتطرّف الى أمر لايلحقكم منه إلا الخداع والسخرية [1] اه

(١) اتصل الجهل بالبعض عند ظهور الحوادث الروحانية الى أن يتطلبوا من الأرواح نسخة في صبغة الشعر ، وعلاج السعال فأصبحوا موضوع السخرية عند ما أشاعوا فيما بعد التراكيب التي تلقنوها من الأرواح الماكرة

أقول : فبناء عليه نقول إن هذه البراهين التى جاءت فى هذا التفسير قد استمدّت لها الأذهان . ألاترى أن طائفة الماديّين اليوم لاوجود لهم لأن المادة لاوجود لها عند علماء القرن العشرين ، واذا سمعت عنهم كالذى نقلناه فيما تقدم فانما هو أمر تاريخى لاغير ، لأنك علمت أن علماء عصرنا أجمعوا أنه لامادة ، فالمادة كلمة تطلق على كل مايحسّ به وليس هو بمادة ، بل هو حركات فى أمر خيالى سموه (أثيرا) وهذه الحركات باختلافها ظهرت لنا أنوار وحرارة ومغناطيس وعقاقير ومركبات أخرى وعناصر بسيطة ، واذا سقطت المادة باجماع العلماء فى عصرنا فقد سقط معها المذهب المادى اللهم إلا عند المدرّسين فى المدارس النظامية فى الشرق الأدنى كمصر والعراق وسوريا وما أشبه ذلك لأن هؤلاء يكرّرون على مسامع تلاميذهم ماقرءوه فى كتب منقولة عن علماء القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر ، أما قرّاء هذا التفسير فانهم علموا أن النوع الانسانى كانت معارفه مبعثرة قبل النبوّة . فلما أشرقت النبوّة المحمدية قال الله على لسانه ﷺ ـ سنريهم آياتنا فى الآفاق ـ الخ وقال ـ وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها ـ فهم سيقولون عرفنا يارب ووصلنا اليك بعقولنا وآمنا ببشارتك ، يا ربنا قبلنا البشارة التى بشرتنا بها . إذن لتكن أعمالنا يا ربنا من الآن موصولة برحمتك ، مستمدة من نور علمك ، موقنين بأنا معك وانا سنكون خير أمة أخرجت للناس . ومن الذين يوقنون بربهم وتكون أعمالهم فى الحياة أعمال قوم كأنهم فى حضرة ربهم . فاذا رأوا النمل والنحل وحشرات الأرضة كل من أفراد هذه الممالك تعمل وهى فرحة بأنها أرضت الملكة الجالسة على عرش الملك المرسومة فى السور المتقدمة . فهكذا نحن قرّاء هذا التفسير ومن نحا نحوهم نعمل وقد أيقنا ايقانا أشبه بالعيان بأن الله مع كل نفس منا ومطلع على أعمالنا ، فنحن جزاؤنا فى نفس عملنا لأننا نعمل بمحبة واخلاص . واذا وجدنا الصبى مخلصا فى عمله لأبيه ، فرحا بأن أباه راض عنه . فهكذا نحن أصبحنا موقنين بأننا نعمل والله راض عن أعمالنا ونحن نحسّ فى أنفسنا بسعادة وانشراح صدر صادرين من صانع العالم المطلع على سرائرنا وتلاحظه عقولنا كما تلاحظ الشمس وضوءها عيوننا ، فالحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور

الناس وان كانوا أحرارا فهم إما هائمون بالجمال إن كانوا سعداء ، واما مستعبدون بالشهوات إن كانوا أشقياء . قال ابن الفارض :

أنت القتيل بأىّ من أحببته ✻ فاختر لنفسك فى الهوى من تصطفى

اللهم انك أريتنا الجمال فى زروعك وشجرك وزهرك وقمرك ونجمك وشمسك . اللهم انك ملأت قلوبنا جمالا وأبهجتنا بصنعك ومنحت بصائرنا التمتع بالجمال فى هذه الحياة وكشفت الغشاوة وأحطتنا بالأنوار ورأيناك ألهمت الشيخ الدباغ فيما نقله عنه الشيخ أحمد بن المبارك إذ يقول : « إن فتح الحواس الظاهرة عبارة عن لذة تحصل فى الحواس الظاهرة ، وذلك بفتح العروق بما أدركته الحواس ، وبهذه اللذة يكمل البسط ، ففى البصر لذة بها يحصل الميل الى الصور الحسنة وعن ذلك ينشأ العشق والانقطاع الباطنى للمنظور ، وفى السمع لذة بها يحصل الخضوع عند سماع الأصوات الحسنة والنغمات المستقيمة وقد ينشأ عن ذلك اضطراب واهتزاز فى الذات وهكذا سائر الحواس ، ففى كل حاسة لذة زائدة عن مطلق الادراك ، والفرق بين فتح الحواس الظاهرة الذى هو من البسط وبين كمالها أن فتح الحواس يزيد على كمالها بفتح العروق فان فتح العروق زائد على الادراك الذى هو فى كمال الحواس وبذلك الفتح الحاصل فى العروق والتكيف الجاذب لصاحبه يقع الانقطاع الى المدرك . فترى صاحبه ينقطع مع كل نظرة الى كل مايراه وقد تحصل له غيبة خفيفة مع ذلك الانقطاع بخلاف مطلق الادراك فانه لايحصل معه هذا الانقطاع . فكم امرئ يرى أمورا حسنة ولا يتأثر بها . وكم من آخر يسمع أصواتا حسنة ولاتقع منه على بال . وبهذا الفتح والتكيف يحصل كمال البسط »

انتهى كلامه بالحرف

هذا كلام ذلك الأمى وهو الشيخ الدباغ ، ذلك الذى لم يتعلم أتى لنا بسر وهـذا السر يحيط بنا ولكننا لانفطن له . هذا السر هو أن جمال هذه الدنيا وشموسها ونباتها مباح للناس . نحن جميعا نراه فنا من هو مغمور بالمحاسن فرح بها سعيد مبتهج . وهذا الابتهاج وهذا السرور أمر آخر وراء مطلق الادراك . نحن ننظر . نحن نسمع . نحن نتعلم . نحن نقرأ العلوم الرياضية . نحن نقرأ العلوم الطبيعية ولكن النظر والسمع والقراءة والفهم والتعقل وحوز العلوم والفوز فى الامتحان والتفوق على الأقران فى العلم . هذا كله شىء وذوق المسموع والمبصر والمعلوم الرياضى والطبيعى والالهى والفرح بها والاستلذاذ والابتهاج بها شىء آخر ، فأول الرجلين وهو الذى لايحس قلبه بجمال مدركاته الحسية والعقلية نجده دائما يبحث عن حبيب يبهجه ويفرح به فلايجد له مناصا من حبيب يأسر فؤاده مادام ذلك المدرك ليس حبيبا له ولامعشوقا ولاهو هائم به . واذا كانت المدركات العلمية بقسميها ليست محبوبة له ولاجيلة فهو لامحالة يختار ضدها وهى الشهوات فيبحث عن الجميل للشهوة الحسية وعن المال للاستمتاع الجسمى والفخر الظاهرى وعن السلطة التى بها يرهب الناس . وبالجملة ان المحبوب إذ ذاك شهوة البطن والفرج وشهوة الغلبة والصيت والولد والمال . وهذا كله أمر آخر غير الجمال . إذن صدق قول ابن الفارض « اننا قتلى من نحبه » فان أحببنا الجمال انقطعنا إليه وكفانا . ولئن لم نحب الجمال أحببنا الشهوات وعلى هذا الثانى أكثر هذا النوع الانسانى وعلى المبدأ الأول القليل أو النادر منهم وهؤلاء هم أشرافه وساداته وعظماؤه وحكماؤه

فلننظر فى حال المسلمين اليوم وفى عالم النبات الذى كلامنا فيه . النبات بتحليله أرانا انه جميل ومحكم مشوق لتلك الذات القدسية هام بها عند رؤيته قوم وكفاهم حبه والغرام به يهجم أنى ساروا ويكونون فى الحياة سعادة لأممهم . ولكن أكثر الناس فى الاسلام كان هذا النبات سببا لاستعبادهم وشقائهم مثل سائر عرض الحياة الدنيا ، فاذا كان الأولون قتلى الجمال ، صرعى الحب والغرام ، يهيمون بالذات القدسية الرفيعة العلية ، مغرمين بتعليم الأمم وارشادها قد أعدوا أنفسهم خلفاء الله فى أرضه ، قوامين على عباده ، يبشرونهم بالخير وينذرونهم بالشر فان الآخرين وقد حرموا من الاستلذاذ بذلك الجمال يقعون لامحالة فى الهيام بظواهر الشهوات فيكونون عبيدا لها ، ومن استعبدته الشهوات استعبده الناس

مثلا نحن فى مصر نزرع القطن ولكننا قوم محرومون من النبوغ فى الصناعات وكثرتها ، فنحن نبيع القطن بأبخس الأثمان ويصنع فى أوروبا ونشتريه ملابس بعشرات بل بمئات أضعاف مابعناه به وقد رجع الينا ملونا بألوان زاهية فرحنا بها . إن بلادنا المصرية المسكينة هائمة بملابس الفرنجة وتقليدهم فى كل شىء وخزينة الحكومة مفتحة الأبواب للعاملين فيها ، فهؤلاء يأخذون ثلثها بصفة مرتبات لهم ويصرفونها فى الملابس والمآكل والخمر واللهو واللعب وهكذا نساؤهم ورجال ونساء ذوى القصور والضيعات والعقارات الواسعة ، فهؤلاء وهؤلاء لما حرموا الاستلذاذ بالحكمة والعلم لم يجدوا لهم مناصا من غشيان أبواب الفجور والتباهى بالثياب الملونة المصبوغة بألوان من القطران المستخرج من الفحم كما تقدم تفصيله فى أول سورة سبأ ، وكأنى وأنا أكتب هذا أشاهد أكثر قومى ومن على شاكلتهم مقرنين فى الأصفاد سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار ، تراه بصيرتى

سبحانك اللهم وبحمدك . أنت محسن رحيم جميل حكيم . حبست أرواحنا فى هذه الأرض لأنها ليست أهلا لمكان أرقى . وحبستنا فى لذاتنا وشهواتنا . وكلما ازددنا شهوة اثقلت الأغلال على أعناقنا . ذلك بما كسبت أيدينا . أفليس الناس اليوم مبعدين من الأغلال . اللهم لا وأى غل أشد وطأة من غل الأخلاق والآراء والعادات . تعس الانسان ما أجهله

يأتى

يأتى التجار من أوروبا بالملابس المصبغة والثياب الملوّنة والخمر القاتلة والشهوات الفاتنة ، فننكب عليها ولانقوم نحن بعمل تما ولاصناعة تما ورجالنا ونساؤنا ووجهاؤنا مقتنعون بأن ذلك هو الرقىّ ، فتذهب الثروة للأجانب وهؤلاء هم الذين يسيطرون على الشعب ويمنعونه من الرقىّ ومن العلم ومن الاستعداد الحربى . فاذا عجز الناس عن فك أغلالهم فى الدنيا فهم عن فكها فى الآخرة أعجز — ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضلّ سبيلا —

هذا ماخطر لى وأنا أصلى الصبح يوم الأحد ٢١ ديسمبر سنة ١٩٣٠ وأنا أقرأ هذه الآية — وترى المجرمين يومئذ مقرّنين فى الأصفاد سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار ليجزى الله كل نفس ماكسبت إن الله سريع الحساب — فانى أثناء القراءة كنت أشاهد بالبصيرة أن هذا منطبق انطباقا تاما على حال كثير من أمم الشرق الأدنى ومنهم كثير من أهل بلادى

اللهم إنى أشاهد الأغلال من الآن موضوعة فى أعناقنا فى أرضك ومن أشدها الملابس المصنوعات المزخرفة التى قتلت المسلمين لجهلهم وقلة الدعاة والوعاظ فيهم وكثرة جهلهم حتى ان القطن الذى نزرعه نحن فى مصر ينسج فيصير أغلالا لنا واستعبادا والاستعباد اليوم راجع للتجارة . إن التجارة اليوم هى الأغلال فى الأعناق وهى السبيل التام لذلك . فأخرج المسلمين فى مصر وغيرها من هذه المآزق . إنك أنت الرءوف الرحيم . انتهى فى صباح يوم الأحد ٢١ ديسمبر سنة ١٩٣٠ وبهذا تم الكلام على الفصل الأوّل من اللطيفة الخامسة فى قوله تعالى — فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزّت وربت — والحمد لله رب العالمين

﴿ الفصل الثانى ﴾

من اللطيفة الخامسة

فى قوله تعالى — سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم —

فى هذا الفصل ثلاث مباحث

(١) فى المخاطبة على بعد عشرة آلاف ميل

(٢) فى الصلة بين علماء الشرق والغرب

(٣) فى أحوال نفس المؤلف

﴿ المبحث الأوّل ﴾

جاء فى إحدى المجلات العلمية تحت العنوان التالى مانصه :

بين القطب الجنوبى ونيويورك

فى غرفة فى الدور الثالث من إحدى ناطحات السحاب النيويوركية القائمة فى قلب المدينة عند ميدان التيمس جلس شاب على أذنيه سماعتان سوداوان . وعلى وجهه أمارة تدل على انه سمع شيئا مع ان السكون سائد فى الغرفة حتى تكاد تسمع دقات القلب . ولاشئ أمامه إلا صندوق أسود قائم على طاولة . وإذا بيده تمتد الى قضيب نحاسى فى نهايته عقدة سوداء فيلمسها لمسا لطيفا فيلمع النور فى غرفة مظلمة فى الدور السابع عشر من ناطحة السحاب ذاتها ويسطع من صف من المصابيح من غير أن يحدث انفجار كهربائى أو أى صوت آخر . ليس فى الغرفة أحد . فاذا انقطع لمعان المصابيح اتشحت الغرفة بسود حالك

أنصت الرجل الذى فى الدور الثالث قليلا ثم أخذ قلما بيده وكتب العبارة التالية ؟ « اصغ الى الطيارة « النجوم والخطوط » فى الساعة الثالثة والدقيقة الخامسة عشرة صباحا » ولمعت المصابيح ثانية ناقلة الى مصدر

الرسالة السابقة جواب الشاب «وانى حاضر»

فى القارة المتجمدة الجنوبية على عشرة آلاف ميل من نيو يورك — من الغرفتين اللتين يقيم فيهما الشاب وتلمع المصابيح — مقر البعثة التى أعدها الأميرال برد الأميركى لزيارة المناطق المتجمدة الجنوبية والوصول الى القطب الجنوبى عن طريق الجو . انه يعد طيارته الآن — أى حين وردت الرسالة الى العامل اللاسلكى فى نيو يورك قاصدا أن يحلق بها فوق مفاوز الجليد بغرض الوصول الى القطب الجنوبى

الساعة الثالثة والدقيقة الرابعة عشرة ! ونيو يورك نائمة ولكن العامل اللاسلكى الفتى مستيقظ ، مقيم فى غرفته منتظر انباء الاميرال برد وطيارته

الساعة الثالثة والدقيقة الخامسة عشرة . لقد انحنى الفتى والتقط قلمه وكتب « الطيارة على وشك الارتفاع من سطح الجليد . انتظر »

ويلمس مفتاحا آخر أمامه فيدوى فى اذنيه — وهو فى نيو يورك — صوت محركات الطيارة وهى تستعد للتحليق فى الجو فوق مفاوز القطب الجنوبى .

وتحلق الطيارة فى الجو فينتقل الاتصال اللاسلكى من محادثة تدور بين المحطة اللاسلكية فى مقر بعثة برد وبين العامل اللاسلكى المذكور — الى محادثة تدور بين العامل اللاسلكى فى الطيارة المحلقة فى الجو ثلاثة آلاف قدم فوق مفاوز الجليد والعامل اللاسلكى المذكور التابع لجريدة نيو يورك تيمس . هذه هى أول مرة فى التاريخ تمكن فيها رجل محلق بطيارة أن يخاطب صديقا له على بعد عشرة آلاف ميل كأنه يخاطبه على بضعة أقدام فى مكتبه أو صالونه . ان صوت العامل اللاسلكى فى طيارة برد كان ينتقل أمواجا لاسلكية فوق مفاوز الجليد القطبى وجانب من المحيط الباسفيكى ثم فوق أميركا الجنوبية وخط الاستواء الى أميركا الشمالية والولايات المتحدة — من عواصف القطب الثلجية الى صيف أميركا الجنوبية الى قيظ خط الاستواء الى نيو يورك المغطاة بالثلج . كل هذا كان يتم فى غفلة عين أو أسرع أى بسرعة ١٨٦ ألف ميل فى الساعة

وارتفع ستار الليل وأخذ الفجر يتبلج وأخذت الاشارات اللاسلكية فى المحادثات المذكورة تضعف رويدا رويدا ولكنها تتراوح بين الضعف والقوة حتى بادت تماما عند شروق الشمس وهكذا ضرب النور ستارا بين ممثلى الرواية القطبية وسائر العالم . وصدرت صحف المساء — بعد الظهر — وعلى صفحاتها الأولى عنوان بحروف ضخمة سوداء مؤداها « ان كلمة واحدة لم تسمع من الرواد الشجعان فى اثناء عشر ساعات » فاضطرب الجمهور وقلق ، مع ان رجال اللاسلكى كانوا يعلمون ان الصمت ليس دليل الفاجعة ولكنه ناشئ عن تعذر التخاطب فى أثناء النهار بالأمواج القصيرة . وظل الجمهور مضطربا قلقا حتى وافت الساعة الرابعة مساء فأخذ ستار الليل ينسدل رويدا رويدا وأخذت الأشارات اللاسلكية تزداد وضوحا كلما زاد انسدال الستار . وما أقبلت الساعة الخامسة حتى كان العامل اللاسلكى النيويوركى يتلقى نبأ من الجنوب يفيد أن برد وصحبه حلقوا بطيارتهم فوق القطب الجنوبى وحاموا حوله ، وان برد أول رجل بلغ القطب الشمالى عن طريق الجو هو كذلك أول رجل بلغ القطب الجنوبى عن طريق الجو . فيبعث العامل بالنبأ الى محرر نيو يورك تيمس . وهذا يستعمله ليحرز لجريدته فوزا صحافيا عظيما . انتهى ما أردته من مجلة المقتطف

المبحث الثانى

بين الشرق والغرب . حول زيارة تاغور لانجلترا

جاء فى جريدة الاهرام فى يوم ٢٢ مايو سنة ١٩٣٠ ما نصه

لندن فى ٢٠ مايو — لمراسل الاهرام الخاص — أثارت زيارة رابندرانات طاغور ، شاعر الهند وفيلسوفها

الكبير اهتماما كبيرا فى انجلترا لأنه مضى وقت ليس بالقصير على زيارته الأخيرة لهذه البلاد ولأن لمؤلفاته مقاما كبيرا بين رجال الأدب الانجليز . وقد ألقى تاغور مساء أمس المحاضرة الأولى من محاضراته الثلاث فى قاعة المحاضرات بجامعة اكسفورد التى ازدحمت حتى الأبواب بينما لم يستطع الكثيرون الدخول بالمرة

ومن الملاحظات التى تسترعى الاهتمام أن الفيلسوف الهندى يقابل بمظاهر الترحيب أينما حل على الرغم من الحالة فى الهند والانباء التى ترد كل يوم عن انتشار الاضطرابات والقلاقل فيها . وكما ان دوائر الأندية الرياضية ترحب بدوليب سنهجين بطل الكركيت الهندى وتطلب أن يكون واحدا من الأحد عشر الذين سيمثلون انجلترا . فى المباريات التى ستجرى مع استراليا ، كذلك ترى رجال الادب . والعلماء يتهافتون على سماع طاغور و يقدمون فروض التجلة والاحترام الواجبة لهذا العبقرى العظيم

ور بما كان الكثيرون على رأى جريدة المانشستر جارديان فيما قالته اليوم وهو : ان خير سفير للهند ليس المهاتما غاندى وانما هو طاغور الشاعر والمفكر فمن الصعب معاملة غاندى سياسيا لأن السياسة من أعمال الرجال العاديين أما غاندى فقديس ، والقديسون رجال شواذ أما طاغور ففى وسعنا أن نتفاهم معه لأنه ليس قديسا بل شاعرا ومفكرا ، فهو من هذه الوجهة يستطيع أن يفهمنا و يعطف على أفكارنا نحن الرجال العاديين ، واذا قرأنا مؤلفاته أوسمعنا أقواله رأينا أن الهندى العادى لايختلف عن الأوربى العادى ، وان النزاع الأبدى بين الشرق والغرب ليس قضاء الطبيعة المحتم انتهى من جريدة الاهرام . تم المبحث الثانى

المبحث الثالث

آيات الله فى صحة جسمى بسبب تدبير الأغذية

فى هذا اليوم (١٥) مايو سنة ١٩٢٩ صباحا نظرت فى عضدى وفى جنبىّ وفى صدرى فرأيت أمرا عجبا ! وهذا العجب لاتعرفه أيها الذكىّ إلا بمقدمة فهاهى ذه :

لقد كانت أيام حياتى سلسلة تجارب فى الطعام والشراب ، ولقد تركت اللحم منذ نحو (٨) سنين ، ولما تركته وجدت تحسنا مطردا فى جسمى ، ولكنى وجدت هناك أمرا عجبا ! وجدت أن فى عضدى وفى جنبىّ وفى صدرى بقعا جلدية مخالفة للجلد فى اللون ، وهذه تارة تظهر وتارة تختفى ، وقد كانت كذلك قبل ترك اللحم ولكن لما تركته زاد ظهورها وتارة تختفى ، فأذهلنى هذا المنظر ، وقابلت الأطباء فوجدت أقوالهم لاتشفى من علة ، ولاتروى من غلة ، فقال قائل منهم : « خذ هذه الأعشاب واشرب منقوعها كل يوم » فلم يفد . وقال آخر : « كل الزيت الطيب وادهن به » . وأخيرا فحصنى طبيب أعلم ممن قبله . فقال : « هذا داء ليس معديا ، وليس له دواء ، وهذه البقع إنما تظهر فى الأعضاء التى لاتظهر للشمس وأكثر ظهوره فى زمن الصيف ، وسببه نقص فى التغذية » و بعد ذلك عملت تجارب كثيرة فلم تفد . ثم انى لم أعرف ماسبب نقص التغذية المذكور الى أن اطلعت على الكتب الطبية الحديثة . ورأيت فى كتاب الاستاذ و يلكوكس مايفيد أن الناس يأكلون الخبز من دقيق القمح الذى نخلوه . وأن ترك النخالة نقص فى التغذية . وأن الدم مركب من (١٦) عنصرا . وهذه العناصر كلها ثابتة فى البرّ . واذا ترك الناس النخالة ونحوها فمعناه انهم تركوا عناصر من دمائهم . إذن الناس بنبذ النخالة والمادة الأخرى المسماة سنا (بتشديد النون) من القمح إنما ينبذون قوى أبدانهم وصحة أجسامهم وسعادتهم

فلما قرأت هذا وأيقنت انه مبنى على العلم عرفت جهل هذا الانسان وغفلته وأن عقول الناس فى ناحية وأعمالهم فى ناحية فلم أتردّد فى العمل بالعلم كما تقدم فى سورة طه وفى سورة الحجر فهذا المقام مستوفى هناك هنالك أكلت الخبز الذى يصنع من دقيق البر كاملا غير منقوص . وهاهى ذه سنه مرّت على تلك الحال .

هذه هي المقدّمة

فلما أقبل الحرّ هذا العام نظرت فى جسمى وأعضائه المغطاة ، فرأيت أمرا عجبا ! رأيت البقع الملونة التى كنت أراها كل سنة لم تظهر . فقلت : ياسبحان الله هاهوذا الحرّ أقبل وتلك البقع التى عوّدتنى الزيارة كل سنة بالظهور على جسمى فى العضد وفى الظهر وفى الصدر وفى الجنبين لم تزرنى هذه السنة بعد أن أقبل الحرّ ، ولقد كان من شأنها أن تقبل اذا أقبل فصل الربيع والصيف وبعض الخريف ، فهاهىذه لم تحلّ بساحات جسمى ولم يكن لقدومها علامات ولامقدّمات ، ذلك انى كما قدّمت الآن أحذت آكل الفواكه والخبزالمذكور وزيت الزيتون والتمرغالبا ، وهذه الأغذية مستوفية مايجب لجسم الانسان فليس يعوزهامواد أخرى ، فالبرتقال الذى آكله ومعه بعض الطماطم فى بعض الأيام فيه مادّة الفيتامين من درجة عالية وهكذا الخبز المذكورفيه جميع مواد التغذية . هاأناذا تركت اللحم والخضراوات هذه السنة واللبن واقتصرت على الفواكه والحبوب فصحّ الجسم وصحّ التفكير بحسب ماأعرفه وما أحسّ به من نفسى الآن وهمنا أقول ياسبحان الله : أريتنا يا ألله آياتك فى أنفسنا وفى الآفاق ، ذلك ان هذا الجسم الذى سكنته نفسى مكوّن من مواد مخلوقة فى أرضنا ، وهذه المواد لها حساب وجهلنا بما نقبل منها وماتترك هوالذى جعلنا مرضى الأجسام تارة والعقول أخرى

سبحانك اللهم . أنت حكيم وقد ملأت أرضك بالحكمة وعلى مقدارنقصنا فى فهم مصنوعاتك تنقص صحتنا وعقولنا ومدنيتنا . هذا المثال الصغير مثال جسمى مع العوالم الأرضية المحيطة بنا يبين لنا أحوال هذا الانسان . يظهر لى اننا لوعرفنا الحقائق حقّ المعرفة لكنا أمما راقية سعيدة سعادة تامّة فى الأرض

تبين لى أن نقص سعادتنا فى الأرض مبنى على نقص معرفتنا وعلومنا . تبين لى أن أمم الأرض لم يظهر فيهم حكماء وعلماء يظهرون جميع الحقائق ، ولوأن الأرض برز فيها أناس على هذا النمط لأصبحوا جميعا سعداء

فأوّل الشقاء وآخره الجهل ، وأوّل السعادة وآخرها العلم ، فبكاء الباكيات على الميت ، وحزن الحزين على الفقر والذلّ وما أشبه ذلك كل ذلك للجهل الذى غطى على العقول

يظهرلى أن هذه الانسانية يوما ما ينبغ فيها نابغون يظهرون ما كمن فى هذه الدنيا ، ومتى ظهر ذلك سعد الناس فى هذه الحياة نفسها ، وأكبر الحزن يكون للموت أوللمرض أوللفقر أوللذل وكل ذلك مبناه الجهل بهذا الوجود ، فلوعرف الناس ناموس الموت وأيقنوا بأن الميت انتقل الى عالم أعلى ، وهكذا لوانهم عرفوا الأسرار المخبوءة فى الأغذية والأدوية والفواكه والملابس ودرسوها حق دراستها وعرفوا ماق الطبيعة من عجائب واستعملوها لقلّ المرض والفقر وبطل الاستعمار وصار الناس أصدقاء

لاتعجب أيها الذكىّ من أن أقرن حال جسمى وصحته بحال الأمم والأفراد وأوصابهم وأحوالهم فانه لافرق بين الأمرين . نحن نعيش فى عوالم نجهلها وعلى مقدار جهلنا نحسّ بالآلام . إذن نقصنا مبناه جهلنا لاأقل ولاأكثر ، ودليلى على ذلك ما عرفته فى نفسى ، فانى لما أكلت المواد التى استوفت شرائط غذاء الجسم زالت البقع من جلدى ، ولما كنت آكل بلاعلم ولاهدى ولا كتاب منير كانت هذه البقع تظهر تارة وتختفى أخرى . ولافرق بين جسمى وجسم العالم الانسانى كله فهو لما فيه من جهل يحارب بعضه بعضا غباوة وجهلا بحال الوجود وحال الانسانية . ومتى ظهر فيه حكماء وأعلموه بأن المعاونة العامّة خير وأبقى وأن يكون كل امرىء فى عمل خاص ينفع المجموع الانسانى فان هذا النوع الانسانى يصبح سعيدا ومتى حلت السعادة فى أهل الأرض لم يحسوا بحزن لأنهم يكونون قد عرفوا ماهوالموت وتقل الأمراض والعداوات بينهم لأنهم قسموا الأعمال فى الأرض على مواهبهم التى خلقت فى أجسامهم وعقولهم . هنالك يعلم أهل الأرض قاطبة أن المصائب التى تحلّ بالأمم وبالجماعات أشبه بالبقع التى كانت تظهر على جسمى وأن قيام كل فرد من أفراد الأمم

بعمل

بعمل نافع قائم مقام أغذى لجميع عناصر التغذية بطريق العلم . فهمنا أمران ثانيهما مركب على أولهما فى جسمى وفى الأمم . فاذا قامت الأمم كلها فى الأرض كل منها بعملها الخاص لها ولجميع أفرادها فان المجموع الانسانى يصبح سعيدا كما ان جسمى لما أعطيته الأغذية الكافية لتغذيته ذهبت عنه تلك البقع التى تظهر على ماهو مستورمنه ، واذا قصرت الأمم فى ذلك أو بعضها فان المجموع الانسانى تظهر فيه نقائص على مقدار التقصير كما ان جسمى أصابته البقع لما كنت أجهل أصول التغذية ، إن الأمم اليوم والأفراد سيان يتبعون شهواتهم وعاداتهم ، فالناس يأ كلون و يشربون مقلدين لآبائهم أومتبعين حواسهم هكذا دولهم فى سياستها يتبعون التاريخ حذوالقذة بالقذة ، والتاريخ مملوء بالكيد والخبث والمكر

فليكن فى الأرض حكماء ، وليكن فيها نظم سياسية أرقى مما كان قبلا وذلك هوقوله تعالى — سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم — . فجسمى الذى حلت نفسى فيه ماهو إلا ذرات مجتمعات من الآفاق وله ارتباط وثيق بهذه الآفاق فان جمعت ذرات جيدة باختيارى وعقلى كان جسما نافعا حسنا وان جمعتها بهيئة غير حسنة ولامرتبة ولامنظمة ضعف الجسم وتبعه العقل ، والسياسة العامة فى الأمة كالسياسة الخاصة فى الجسم

يؤخذ من هذا كله اننا جئنا هذه الأرض لأمر واحد وهوالعلم ، فلاحرب ولامرض ولافقر ولالذة ولا ألم إلا لأجل حثنا على العلم وعلى مقدارعلمنا تكون أرواحنا فى درجات لها بعد مغادرة هذه الدار . انتهى الكلام على المبحث الثالث والحمد لله رب العالمين

اللطيفة السابعة

فى قوله تعالى — سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم — الخ

إيضاح بعض كلام الشيخ الدباغ

فى مسألة الجنة والنار والتوحيد

هنا سألنى صديق العالم . فقال : يقول الشيخ الدباغ إن على وجه الأرض عجائب لوشاهدها أرباب الأدلة والبراهين ما احتاجوا الى دليل ، فمنها مابه تعرف الوحدانية ، ومنها مابه يعرف وجود الجنة ، ومنهامابه يعرف وجود النار ، وكل ذلك بلا إقامة أدلة على ذلك . فأنا أرجو أن تشرح لى هذا المقام . فقلت : ياسبحان الله أوتظن اننى فى مقام الشيخ الدباغ حتى أطلع على ما يعرفه ؟ نحن قوم كلفنا بالنظر والبحث العقلى . فقال : ولكن أرجو أن أسمع منك ماتتوجه نفسك اليه فى هذا المقام ، ولست أطلب منك ماهوفوق متناول عقولنا لأنى أعلم انك تخاطب العقلاء عموما لا أهل الكشف وحدهم ، ثم إن أهل الكشف وان كثروا فى الاسلام فانهم لم يحدثوا فى الأمم الاسلامية رقيا عاما ، فعلومهم خاصة بطائفتهم . فقلت : أما اذا أردت هذا فانى أقول مايفتح الله به الآن . فقال : أى العجائب تعرّفنا التوحيد بلاإقامة دليل ؟ فقلت : جميع العجائب التى وردت فى هذا التفسير وأمثاله تعرّفنا الله بلا إقامة دليل . فقال عجب هذا ! إن نفس العجائب أدلة أومقدمات لأدلة فقلت : إنه يريد ان بعض العجائب حين نشاهدها تكاد تخترق القلوب ويحصل للنفس انفعال برؤيتها وتنتقل النفس من هذا المخلوق الى خالقه وهذا هومقصوده فيما أظن أنا . فقال : مامثال ذلك ؟ فقلت : مثاله أعين الذباب وأعين النمل . هذه حشرات صغيرة يزدريها الانسان وهى تعيش على ما تعافه النفس من القاذورات والعفونات والقمامات والفضلات ، وعلى ماهومنبوذ من الحبوب وفضلات الخبز والقطع المنثورات فى الأرض وقد جعلت أشبه بالكناسين والزبالين لأنها تنظف الأرض من عفوناتها ومن بقايا فضلاتها وتحيله الى أجسامها ومع هذا كله تراها قد أعطيت عيونا كثيرة ، فالنملة فوق (٤٠٠) عين كل عين مستقلة عن الأخرى ،

والذبابة نحو أربعة آلاف عين كل عين مستقلة عن الأخرى . ومعنى هذا أن للنملة خمسة عيون ثلاثة منها مفردات موضوعات على هيئة مثلث واثنتان منها موضوعتان في مقدمة الوجه بهيئة أعيننا نحن وفي كل واحدة منهما نحو مائتي عين ، ومثل ما قلنا في النملة نقول في الذبابة ، ولكن نذكر أربعة آلاف عين فيها بدل (٤٠٠) عين . فقال : هذا عجب ! وهل العقل يتصور ذلك ؟ فقلت : إذن أنت لم تقرأ ماتقدم في «سورة النمل» وأن هناك رسالة سميتها «عين النملة» وفيها هذا المقام موضح . فقال : ورأيت بنفسك عين النملة انها مركبة من مائتي عين والعينان معا فيهما نحو (٤٠٠) . فقلت إي وربي رأيتها بعيني رأسي أراها لي صديقي شوقي بك بكير في منزله بمدينة حلوان تحت المنظار المعظم وهو من كبار علماء التاريخ الطبيعي ، وصلتي به انه كان قبل ذلك تلميذي بالمدرسة الخديوية . فاذا رأى العاقل مارأيت أنا في النمل أو في النحل أو في الذباب فانه لايسعه إلا أن يتذكر الخالق عند النظر الى هذا الجمال في المخلوق . فقال : أريد أن أسأل سؤالا آخر ؟ فقلت : سل مابدا لك . فقال : لِمَ جعل الله هذه العجائب التي فوق طوق البشر في أحقر حيوان . فقلت : ذلك من مقصود كلام الشيخ النابغ . قال : وكيف ذلك ؟ فقلت : إن الابداع والاغراب اذا ظهر في جميل بهي الطلعة حسن الشكل مرغوب فيه لم تكن له روعته في الحقير المنبوذ . النفس الانسانية يدهشها أن ترى في الحقير المنبوذ حكما لاحدّ لها بل ترى أعظم جمال وأجلّ حكمة في الحقير

ترى أربعة آلاف عين ، وكل عين لها طبقات ورطوبات وألوان في داخلها وعجائب ونظم مدهشة ، واذا فقئت إحداها لم تعطل البقية كما هو واضح هناك . فهذه عند العقلاء أشبه بمن كان يحفر في منزله فعثر على كنز بغتة فهذه المفاجأة في الكنز يقابلها المفاجأة في أمر عجائب الحشرات مثلا . فكما أن الفقير اذا عثر على كنز دهش وحصلت له حال غريبة وانفعال ، هكذا العاقل اذا اطلع على هذه العجائب في أحقر المخلوقات فانه يجد في نفسه حالا عجيبة تذكره بالصانع من غير استدلال بدليل وذوو العقول الصافية في نوع الانسان لايسعهم تلقاء هذه العجائب المدهشة (في الامور الحقيرة التي ليست محلا للجمال بحسب العادة) إلا التعجب وهذه الحال لايحلم بها ذلك الذي قرأ علم المنطق وعرف الاشكال وقرأ علم التوحيد المعروف وأخذ يقرأ تلك البراهين فيدخل في ساحات وأحوال عويصة ويتسرب الشك الى قلبه من حيث لايشعر لاسيما اذا قرأ أدلة الحدوث والقدم التي نقلت عن اليونان . وقد تبين فيما نقلته عن علماء الفرنجة في نفس هذا التفسير أن أكابر فلاسفة اليونان كانوا يقولون أيام سقراط «ان العالم حادث» بطريقة مشوقة تقدمت في هذا التفسير فبعض ماجاء في كتب علماء التوحيد والفلاسفة مربك للعقول مهوش للأذهان نقلوه عن علماء الاسكندرية أيام دولة الرومان بمصر وهؤلاء كانوا مقلدين . أما طيماوس الحكيم الذي كان أيام سقراط فقد شرح هذا المقام ونقلت بعضه في مواضع فارجع الى بعضه في سورة الروم وغيرها . فقال الآن فهمت كيف كانت تلك العجائب مذكرة بالله فكيف تكون تلك العجائب مذكرة بالجنة والنار وبها يعرف الانسان أن هناك بعد الموت جنة ونارا مع ان الجنة والنار من السمعيات . واذا كان العقل لايصل الى السمعيات فكيف توصل اليها مناظر العجائب . فقلت : ما الجنة ولا النار إلا داران ممتازتان . فإحداهما فيها كل محبوب . وثانيتهما فيها كل مكروه . ونحن في هذه الأرض لانعرف المحبوب إلا ماوافق حواسنا الخمس من صور جميلة ونغمات لذيذة وروائح طيبة وطعوم لذيذة وملموسات موافقة كأن تكون ناعمة مثلا . ذلك للبصر والسمع والشم والذوق واللمس وهكذا إذا تخيلنا تلك الصور ولكن حضورها في الخيال أقل لذة من حضورها في الحس وهكذا المعاني الشريفة الموافقة لعقولنا من العلوم البهجة وانكشاف الحقائق بالبراهين واقتناع النفس بالمعلومات . فهذه بهجتنا . فلكل قوة فينا بهجة تناسبها . فالمعقولات بهجة للعقل . والمحسوسات بهجة للحس . والصور الخيالية بهجة لخيالنا . فهذه المذكورات هي مجامع مانحبه في هذه الدنيا . والذي نكرهه يقابل ذلك فكل قبيح صورته مشوه خلقته أو غير طيب الرائحة أو غير متزن النغمات

أوغير لذيذ الطعم أوغير ناعم مثلا فانا نكرهه كما نكره تصوّره فى خيالنا . وهكذا خلوّ عقولنا من العلوم وجهلها وغباوتها وعدم معرفتها حقائق الأشياء، وتخبطها فى المعارف تخبطا يزرى بها . كل ذلك مكروه عندنا . إذن الجنة دار تجمع مانحب وجهنم دار تجمع مانكره ، ولكن الحياة الدنيا فيها مانحب ومانكره معا ، فيها امتزج المحبوب بالمكروه . وأصحاب العقول النيرة اذا طافوا فى هذه الأرض ودرسوا هذه العجائب يدهشون من نحو ماسأذكره ويحصل لهم علم من غير كدّ ولا نصب بالجنة والنار . فقال : هذا هو الذى سألتك عنه وكيف ذلك ، فقلت لنرجع الى مثال الذباب والنمل مع جميع الحشرات ، ألست ترى أن الذباب والحشرات خلقت لتنظيف الجوّ كما تقدم لأنها هى وأمثال الناموس والخنافس وغيرها تغتذى بالمواد الفاسدة التى لو بقيت لهلك الانسان والحيوان . فقال بلى . فقلت ألست ترى أن الأغذية على قسمين : قسم هو طعام شريف مثل الحبوب واللحوم والحشائش وأمثالها وهذه يأكلها الانسان وذوات الأربع من نحو الأنعام والسباع . قال بلى . قلت وقسم هو قاذورات تغتـذى بها الحشرات كما أوضحه الآن . قال بلى . قلت ألست ترى أن ماهو قاذورات على قسمين : قسم هو بقايا الرمم الملقاة فى الفلوات عقب الغزوات والحروب والاهلاك والتدمير وافتراس الحيوان فى البرارى والقفار . وقسم ليس كذلك بل هو عفونات وقاذورات ليست ناشئة من افتراس الحيوانات المعروفة ولامن قتال الانسان . قال بلى . قلت : لننظر فى أمر هـذا الانسان الذى يسمع بالجنة وبالنار فانا نجد له عقلا وهذا العقل لاتخلو حاله من حالين لاثالث لهما ، فهو إما أن يتحلى بالحكمة وادراك الحقائق ، ولما أن تكون سلوته بالغيبة والنميمة والشماتة وتتبع العورات والفتك بالأعداء ومسابقة الأقران وحوز الصيت والمال والملك وما أشبه ذلك

فاذا أغرم العقل بالحكمة والعلم وادراك الحقائق فان غذاءه أشبه بالغذاء الشريف فى المحسوسات كالفاكهة والحب والخضراوات من كل ماهو غذاء للحيوانات المعروفة والانسان . فأما اذا كانت لذاته خاصة بتفوّقه على الأقران أوشماتته فى الأعداء أوانتقامه منهم ، فهذا الغذاء العقلى يشبه غذاء الحيات بالضفادع وغذاء الصقور والنسور والشواهين والكلاب بالرمم الملقاة فى الفلاة ، وتكون منزلة هذه العقول لاتزيد فى معقولها على منزلة الصقور والكلاب فى تعاطى رممها ، واذا كانت لذات العقول لاتغادر حوز العقار وبناء الدور وشراء الحقول وحوز المال والدرهم والدينار ، فهى فى درجة الذباب فى أكل القاذورات والعفونات

وبهذا الايضاح صارت الدرجـة الثانية درجتين : درجة القوّة الغضبية ، ودرجة القوّة الشهوية . هذه هى الدرجات الثلاث للعقول فى هذه الأرض . فهى إما عقول تحب الحقائق ، واما عقول يغلب عليها الفخار والانتصار ، واما عقول لاتفرح إلا بالمال والشهوات الحيوانية فى مقابلة الأغذية الثلاثة المتقدمة لذوات الأربع ولنحو الطيور الكواسر ولنحو الذباب . وان يخلو عقل على هذه الأرض من هذه الخصال الثلاث

اجلس مع من تشاء وحادثه فانه يهشّ ويطرب لما يناسبه من حكمة ، أومن ذكر الحرب والضرب ، أومن ذكر لذات الأجسام الحيوانية

فاذا سمعت الرجل مغرورا برفع القضايا والانتصار أمام القضاة فهو من الفريق الثانى ، أو بحوز المكاسب والمال فهو من الفريق الثالث ، أو بالعلم والحكمة فهو من الفريق الأوّل

هذا هو نوع الانسان أوّله وآخره عقولهم جميعا موزّعة على المعقولات الثلاثة كما وزّعت أنواع الحيوان على أنواع الأغذية

فقال : أحسنت لقد فهمت هذه الثلاثة وقد كانت فى أوّل مقالك لى غامضة علىّ ولكن الآن وضحت لى وضوحا تاما مع ملاحظة أن ذكر الحيوانات وأغذيتها فى هـذا المقام مجرّد تنظير لتقريب الفهم ، ولكن الى الآن لم نصل الى الحقيقة التى سألتك عنها وهى ان النظر فى هذه العجائب يكون معرّفا بالجنة والنار . فقلت

كل ماذكرته الآن مقدمة لك ولولا مبادرتك لى بالاستحسان لأتيت بالنتيجة . فهاأناذا الآن أقول لو انك أخذت الجمل ووضعت أمامه لحما أفيأكله ؟ قال لا . قلت : فلو انك أتيت بأسد ووضعت أمامه حشائش أفتراه يأكلها ؟ قال لا . قلت : فاذا وضعنا الذباب فى مكان نظيف لارطوبات فيه أيعيش . قال كلا قلت إذن ماتستنتج من هذا ؟ قال أستنتج نتيجة واحدة وهى معنى هذا المثل « إن الطيور على أشكالها تقع » ومعنى هذه الآية ــ قل كل يعمل على شاكلته ــ ، وبصريح العبارة كل حيوان لايغادر عادته فى طعامه . فقلت : حسن وهكذا فى العقول بطريق قياس التمثيل ، فلاعقل يستلذ إلا بما عرفه كما لاحيوان يستلذ إلا بما ألفه . قال حسن جدا . قلت : اذا عرفت هذا فانظر فى هذا الانسان اذا فارقت روحه جسده وبقى العقل وحده فى الجسم الأثيرى بعد الموت فأى معان تحل فيه ؟ فقال : طبعا للمعانى التى غلبت عليه فى الحياة . قلت : وهذه غذاء عقلى له كما ان للأجسام غذاء ماديا . قال نعم . قلت : فاذا كان الشرير فى الحياة لايتم تنعما عقليا إلا بمزاولة الشر ثم مات فان هذا الخلق يلازمه ويريد أن يفتك بمن اعتاد الفتك بهم أو يقاضيهم فلايجد منهم أحدا فيكون ذلك عذابا له ، واذا وضع مع أقرانه وعاش معهم فى عالم الأرواح فانه يفعل معهم ما كانوا يفعلونه فى الدنيا لأنهم لايعرفون غير ذلك ، واذا كنا نجد اللصوص وقطاع الطرق لايفرحون إلا باخوانهم . ولايألفون مجالس العلماء والحكماء ، فهكذاتكون أرواحهم بعد الموت لا تألف إلا أبناء جنسها لأنها اعتادت الاجرام وهم مجرمون وهى بهم فرحة وهناك تكون مسرات وقتية بعدها آلام وهكذا . قال : حقا لا يكون غير ذلك . قلت واذا رأينا الذباب لايفرح إلا بالقاذورات فهكذا فليكن أولئك الذين انغمسوا فى المادة وحرمت عقولهم من الأدب والكمال لايلذ لهم إلا مثل ما كانوا فيه فى الدنيا ، فهم هنالك يعيشون مع أمثالهم وأصحابهم ويفرح بعضهم ببعض وقتا ويلعن بعضهم بعضا فى وقت آخر كما كان شأنهم فى الدنيا . فقال : حقا لأن الطباع لاتتغير . فقلت إذن بهذا القول اتضحت الحقائق ، وأن الدنيا دارامتزج فيها المحبوب بالمكروه ، والآخرة دار امتاز فيها المحبوب من المكروه وهناك يكون الناس فى مراتبهم وكل طائفة لاتعاشر إلا أقرانها ، ومن كانت أخلاقهم وعقولهم كاملة فى الدنيا يكونون فى لذة ذات نظام وسعادة ومن تغلبت عليهم شهواتهم الحيوانية أوقواهم الغضبية ، فهم فى الدرك الأسفل كل على مقتضى خلقه وطبعه (وبعبارة أخرى توضح هذا المقام) ان العجائب المشاهدة فى هذه الحيوانات أرتنا تفاوت الأغذية بتفاوت أنواع الحيوان ونظيره العقول ، فكل عقل له غذاء يناسبه فان كانت صور الغذاء العقلى شريفة فبها والا فهى خسيسة ويوضع فى مرتبته هناك

وكما اننا نرى فى الحياة الجرذان والحشرات ذليلة هكذا نرى بعد الموت النفوس التى تشابهها ذليلة ، ولو قيل لامرئ فى الدنيا أيهما خير لك أتموت أم تصبح فأرا ، فانه لايتردد فى أن يقول العدم خير من الوجود اذا كان على هذا المثال ، ومن هذا قوله تعالى ــ قالت ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا ــ . إذن درجات النفوس بعد الموت ظاهرة واضحة فى الحيوانات المشاهدة ، وهذه العقول قد تربت فى هذه الأجسام وصارت درجاتها مختلفة اختلاف هذه الحيوانات فمن عقولهم فى تنزلها تشبه الحشرات تعيش معا فى المكان المسمى بجهنم ، ومثلها النفوس التى أشبهت الصقور ، ولكن اذا كان هذان القسمان قد هذبا وألقى العقل عليهما والدين نصائح فانهما يكونان فى الجنة بشروط خاصة

وبالجملة فان أحوال أهل الجنة لها نظير فى العالم المشاهد ، وهذه المعانى التى ذكرتها الآن مع طولها تمر ببعض العقول فى وقت قصير جدا ، ومن النفوس الصافية ماتخطر لها هذه الخواطر حالا ، ولكن عدم مزاولة العلوم واللغات يقعدها عن التعبير . هذا ما أمكننى أن أجيبك به الآن . فقال لقد فهمت حق الفهم وأنا لك شاكر ، ولكن هل من فوائد تترتب على ماتقدم فى أحوالنا المدنية ؟ فقلت : اذا تفضلت بإيضاح

السؤال

السؤال أمكنني الاجابة . فقال : لقد ذكرت أن أمثال الذباب تعيش على العفونات والرطوبات ، وجعلت هذه مثالا للنفوس الشهوية ، وذكرت أمثال الصقور والشواهين وجعلتها مثالا للنفوس الغضبية ، ولقد انتهينا من تفسير كلام الشيخ الدباغ وأن هذه تذكرة لأحوال النفوس بعد الموت ، فهل من سبيل الى الانتفاع بهذه العلوم اللطيفة فى مصر والشام والعراق وبلاد السودان وافريقيا . فقلت حسن ماتقول ، نعم انظر الى الأمم المستعمرة تدخل بلاد الشرق وتعطيهم من العلوم قشورها ومن الصناعات أضعفها وتمنع عنهم نور العلم وتعدّهم أشبه بالحيوانات الذليلة ، فهى تسهل ادخال المشروبات الروحية من الخمر والمخدرات ، وتسهل لهم أحوال البطالة والكسل بما شجع أرباب المحال التى تستهوى العقول فيجلس الشبان أكثر النهار بلا عمل فيها ، وتوعز للذين يأتون بالصور المتحركة (السينما) أن تكون كلها أوجلها حافلة بالشهوات والمخازى وكل مايسقط النفوس فى المهاوى ، فهذه المناظر وتلك المشارب جعلتها الأمم المستعمرة شبكات لاصطياد العقول القوية بها يصطادونها فلاتقدر بعد ذلك على الخلاص ، وهذا هو الذى يبقى الاستعمار ، وهكذا يذيعون الروايات المملوءة بما يحط قيمة النفوس الانسانية ، فتتحوّل العقول فى تلك البلادالى حال تشبه حال العجماوات . ولكن الأمم الحرّة لاتدخل شريطا للسينما إلا اذا وجدته مهذبا للأخلاق رافعا للنفوس معلما للأمة ماتعيش به كالفلاحة والصناعات المختلفات ، فبدل أن تكون السينما والروايات لتشويق النفوس الى كل مايهدم الانسانية تكون لاعلاء شأنها ورفع قدرها وتعليمها الصناعات وشوقها الى المعانى والمعالى ، فالروايات والسينما وأمثالها إما مهيئات نفوس الناس الى منزلة من منازل الجنة ، واما الى حفرة من حفر النار . والسبب فى ذلك هم المستعمرون من الفرنجة الذين هم خلفاء المسيح الدجال لأنهم يظهرون أنهم مصلحون وهم يفسدون . هذا هو الذى كنت تريد أيها الذكىّ . فقال نعم هو والله جزاك الله خيرا . قلت : هل بقى لك سؤال ؟ فقال سؤال واحد وهو انه ظهرلى أن قوله تعالى ـ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ـ ظاهر أكثرظهور فى علوم عصرنا الحاضر . فقلت حقا فان مشاهدة أعين الذبابة وأعين النملة مثلا ونحو ذلك من العجائب المذكورة فى هذا التفسير تدهش العقول وهو هو من مصداق انه يريننا ، فهنا رأينا ذلك بالبصر بالمنظار المعظم والكشف المتتابع ، وذلك لم يكن فيما مضى . واذا كان البرهان مبنيا على المشاهدة كان الى اليقين أقرب . واذا كان الله شهيدا على كل شىء والملائكة يشهدون العوالم . فهاهم العلماء فى زماننا يشهدون فى عالم الحس عجائب الصنع وهــذا قوله تعالى ـ شهد الله أنه لاإله إلاهو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط ـ . فهل بقى لك سؤال أيها الصديق ؟ فقال إن أذنت لى . فقلت : سل ماتريد . فقال : لقد ذكرت أن الدنيا امتزج فيها الخير والشر . أليس كال الشىء أن يكون تاما لاناقصا والوجود لا يكون تاما إلااذا كان فيه الأمران معا ذلك أثبت فى هذا التفسير أن الرحمة لاتتم إلا بوجود الضدين معا والضدان هاهما الآن فى الدنيا إذ الخير والشرّ امتزجا فيها . فقلت : إن العقول الشريفة فى أرضنا جلّ اهتمامها بالبحث والنظر وأفعال الله فى كل وجود كاملة وعقولنا اليوم تعيش فى وسط الكمال والجمال غاية الأمر ان أكثرها لا يكشف له عن ذلك الجمال لغلبة المادة عليه . فاذا خلصت الروح من المادة ظهرلها الجمال فتكون أشبه بالمحبوس لم ير فى السجن إلاصورة ضئيلة مما فى الخارج فاذا خرج منه كان فى حالة أشرف وأجمل . واذا شبهناه بالجنين حين خرج من بطن أمه صحّ التشبيه . فقال قد اكتفيت ولم يبق فى نفسى شىء . فقلت الحمد لله رب العالمين . والى هنا تمّ الكلام على اللطيفة السابعة فى قوله تعالى ـ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم ـ الخ كتب فى صباح يوم الاثنين ١٠ نوفمبرسنة ١٩٣٠

(تمّ بحمد الله وحسن توفيقه الجزء التاسع عشر من كتاب « الجواهر » فى تفسير القرآن الكريم ويليه الجزء العشرون . وأوّله تفسير سورة الشورى)

فهرست

(الجزء التاسع عشر)

من كتاب الجواهر فى تفسير القرآن الكريم

صحيفة

والعصب الخ ولا معنى لهذا كله إلا العلم ، إذن تسبيحنا فى الصلاة وما معه يراد به التشويق للعلم . فاذا سبح الملائكة فنحن نسبح والنتيجة هى العلم بنظام هذه العوالم الجميلة

١٥ ﴿ القسم الثالث من السورة ﴾ من قوله تعالى — أولم يسيروا فى الأرض — الى قوله تعالى — بالعشى والإبكار — والتفسير اللفظى

١٩ ﴿ القسم الرابع ﴾ من قوله تعالى — إن الذين يجادلون فى آيات الله — الى آخر السورة وتفسيره اللفظى

٢٣ لطيفة فى قوله تعالى — ويريكم آياته فأى آيات الله تنكرون —

تذييل التفسير فى سورة حم غافر ، والكلام فيه على مقصدين

٢٤ ﴿ المقصد الأول ﴾ فيه الكلام على التنفس الرئوى لأنه فى الانسان والحيوان . و بيان صفة الرئة العامة وعلاقتها بالقلب ومافيه من طبقتى الأذينين والبطينين

٢٥ ﴿ المقصد الثانى ﴾ فى قوله تعالى — النار يعرضون عليها غدوا وعشيا — و بيان ماجاء فى كتابى المسمى (الأرواح) الذى ألفته بعد أن منعت موانع السياسة من مواصلة درسه فى دار العلوم . وفى تلك المدة تمكنت من تأليف كتاب الأرواح المذكور . وفيه جاءت عجائب هذا العلم الذى منه ذكرت هنا فى التفسير مقدمته لمناسبتها لهذه الآية وأن الأرواح قد نطقت فى المحافل العلمية بأمريكا وشرحت ما شاهدته فى عالم البرزخ . وأن المسلمين سيعجبون من الحاكم الألمانى الذى سمعت روحه من اضطهاد بتيمين ومن روح محاسب فى مدينة (ونسبرج) ارتكبت خيانة فطلبت مساعدة ومن روح غنى بخيل عذبت روحه بالمال وأن ذلك كله هو مقتضى آيات القرآن بل هو محور دين الاسلام وأصوله

٢٧ ويوافق هذا ماقاله الغزالى إذ يقول : « إن الميت فى أول أمره يعذب بفرقة المشتهيات وثانيا بالخجل من الفضائح وثالثا بالحسرة على فوت ماهو محبوب من الأعمال العظيمة » وبيان أن العذاب والنعيم أمران لازمان للطاعات والمعاصى . فالله لاينتقم وانما هو عدل . وهنا كلام (اخوان الصفاء) الموافق للغزالى من وجه . و بيان معنى الحيات والعقارب والتنانين الواردة فى عذاب القبر وانها إما أن تكون صورا حقيقية لاتظهر إلا لأهلها تعذيبا لهم كما يظهر الملائكة للأنبياء تعليما لهم لا لغيرهم . واما أن تكون أشبه بحال النائم . واما أن يكون المقصود الآلام المشبهات آلام العقارب وما معها لأن المقصد هو العذاب وهو حاصل . و بيان أن الآلام جسمية وروحية الخ وههنا شرح طويل و بيان للإمام الغزالى

٢٨ (المجلس الرابع) فى الروح التى أخبرت بموتها وزمنه وفى قلة علم النوع الانسانى وموازنات شتى بين أقوال الأرواح و بين القرآن والحديث الشريف . وذكر القتيل الألمانى الذى مضى له (١٧) سنة وأخبر بموته وطابقت الحكومة على قوله

٢٩ اللطائف العامة لأقسام السورة كلها ﴿ اللطيفة الأولى ﴾ فى قوله تعالى — هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة — مع قوله — الله الذى جعل لكم الأنعام — الخ و بيان أنه لامعنى لشكر النعمة ولا للحمد عليها إلا بتقديم العلم بها ، فالعلم هو الأس الذى يبنى عليه الحب وثناء اللسان ونشاط الجوارح فى الأعمال والعلم بهذه الأنعام وعجائب الخلقة قد تقدم فى سور كثيرة مثل النحل والحج وطه والنور والنمل وسبأ والروم والمؤمنين وفاطر والسجدة ، ومع ذلك فاننا هنا نزيد مسائل لم تذكر فى تلك السور مثل السحالى والبرص والحرباء ، أضارة هى فنقتلها أم نافعة فنبقيها ؟ وأى فرق بين الثعابين السامة وغير السامة ؟ وهل مايحمله الحواة (المشعوذون) من الثعابين سام أم غير سام ؟ وماهو الحيوان الذى يولد فى ماء ثم يهاجر الى المكان الذى خرج منه أبواه وهو لم يره ! وهل الحدأة ضارة ؟ وانما ذكرت هذه هنا لأن الآية فيها

صحيفة

٣٠ ذكر الأنعام وانها ثمانية أزواج ، وهذا يقتضى تقسيم الحيوان الى أنعام وغير أنعام ، فهذا من القسم المقابل لما فى الآية ، وفى هذا المقام يقسم الحيوان الى ناقص الخلقة وتام الخلقة ، والأول مقدّم على الثانى ويقسم أيضا الى أشرف وماهوأقلّ شرفا وذلك بحسب الحواس ، فهو إماذوحاسة أواثنتين أوثلاث أوأربع أوخمس ، فذوالحاسة كالدود فى حبّ الثمار ، وذو الحاستين كالدود الذى على ورق الشجر وزهره ، وذوالثلاث فلاسمع له ولابصر وهوالحيوان الذى فى قعر البحار والأماكن المظلمة غالبا وذوالحواس كلها ماعدا البصر وهوالهوام والحشرات التى تدبّ فى المواضع المظلمة مثل (الخلد) والكامل مافوق ذلك وبيان أن منها المتدحرج والزواحف والذى ينساب أويدب أو يعدو أو يطير أو يمشى ، وهذا له رجلان أوأربعة أوستة أوثمانية أوأكثر ، والذى يطير من الحشرات ماله جناحان وأربعة وستة أجنحة ، ومنها ماله حمة وقرون ومشافر ومخالب وخرطوم ، ومنها ماله فكر وروية وتمييز وتدبير وسياسة ، ومنها ماله أعضاء مختلفة مهندسة مفصلة مغطاة بالجلد وعليه الشعر والوبر والصوف والريش والصدف والفلوس خارجا ، وفى الداخل الدماغ والرئة والقلب والكبد والطحال والكليتان والمثانة والأمعاء والمصارين والأوراد والمعدة والكرسى والحوصلة والقانصة ، وفى الظاهر الأرجل والأيدى والأجنحة والأذناب والمخاليب ، وههنا الفرق بين البهائم والسباع والوحوش والطيور والجوارح والهوام والحشرات . وبيان أن كبير الجثة يمكث فى الرحم طويلا لتدور الشمس دورتها فيتشكل فى الرحم ، وهذه خلقت أوّلا عند خط الاستواء ثم تناسلت وانتقلت الى مواطن أخرى ولكن أرحام الاناث حفظت تلك الحرارة . وبيان أن الناس يتعجبون من خلقة الفيل وهم لوعلموا لتعجبوا من خلقة البقة أكثر لأن لها أرجلا أكثر وتزيد الأجنحة وغيرها ومع ذلك هى تؤذيه . هذا بالاجمال تقسيم المتقدّمين . أما تقسيم المتأخرين فهم يقولون إن الحيوان إما ذوخلية واحدة وهو الأدنى ، واما ذوخلايا ، والأوّل كحيوان الملاريا الذى لا أعضاء له ويعيش فى الكرات الحمراء فى الدم ، وذوالخلايا الكثيرة منه الاسفنج وحيوان المرجان وذوالجلد الشوكى وقنفذ البحر والديدان المفرطحة كدودة الكبد والبلهارسيا والديدان الاسطوانية كدودة الانكلستوما وكالدودة الحلقية والمفصلية ومنهاالحيوانات الرخوة والفقرية ومنهاالسمك والضفادع والزواحف والطيور وذوات الثدى . والحيوانات السبعة المتقدمة من ذوات الفقرات فهى مشاركات للمذكورات فى الآية وهى الأنعام . فأوّلها السحالى وهى من أنواع الورل (شكل ١) صحيفة (٣٤) وهى حيوانات نافعة للانسان لاضرر منها . وثانيها الأبراص جمع برص وهى حيوانات نراها فى منازلنا ونظن جهلا انها ضارّة وهى نافعة فوجب أن لانقتل (شكل ٢) صحيفة (٣٥) وكذلك الحرباء (شكل ٣) صحيفة (٣٥) وهى حيونات نافعة أيضا

٣٦ الثعابين منها ماهوسام (شكل ٤) صحيفة (٣٦) وشكل ٥ صحيفة ٣٧ والثانى هوالكوبرالمصرى أى الناشر . والحية المقرنة (شكل ٦) صحيفة (٣٨) والثعبان ذوالجرس (شكل ٧) صحيفة (٣٨) وهناك ثعبان غير سام وهوفى القطرالمصرى كثير وهو رملى يميل الى الاحمرار عليه بقع ذات لون بنّى وسطه السفلى أصفر وهذا هوالذى يحمله الحواة (المشعوذون)

٣٩ (شكل ٨) صورة ثعبان يسمى (البيتون) وهو أيضا غير سام

الكلام على ثعابين السمك وهى قسمان : قسم يعيش فى أنهار أوروبا وشمال افريقيا . وقسم يعيش فى أنهار الولايات المتحدة التى تصب فى المحيط الاطلانطيق . ومن ثعابين السمك نوع بمصر (شكل ٩) فى صحيفة (٤٠) وأكبرمدة يتمّ فيها نموّ ثعبان السمك سبع سنين . ومتى تمّ نموّها تجتمع وتهاجرمن الأنهار

صحيفة

وتترك مصابها وتنزل فى البحرالى بوغاز جبل طارق فالمحيط الاطلانطيق لجزائر برموده القريبة من الولايات المتحدة وثعابين أنهار أوروبا تفعل هذا كله ، وهناك تضع الاناث بيضها وتفرغ الذكور مادتها المنوية عليها فى الماء فيتم اخصاب البيض وربما تضع الأنثى أكثرمن مليون بيضة ، ثم يموت الذكور والاناث وتخرج الذرية وترجع الى الجبال التى خرج منها آباؤها وأمهاتها وهى لم ترهن

٤١ ولن تضل ذرية ثعابين السمك الأمريكى ولا الافريقى طريقها بل كل يرجع الى المكان الذى خرج منه الآباء والأمهات

٤١ الكلام على دودة الأرض (شكل ١٠) وهى ذات أشواك صغيرة ولها جلد رطب مخاطى

٤٢ وترى فى (شكل ١١) حجمها مكبرا والذى تقدم هو حجمها الطبيعى ، وهى تخرج أثناء الليل لتبحث عن غذائها فتأكل الفضلات من الأوراق والأزهار الساقطة وتسحبها الى داخل الأرض ، وكذا بذور النبات والبويضات والحشرات والديدان وهى تتوالد

٤٣ (شكل ١٢) رسم دودتين فى حالة الاجتماع ، وهذه لها منافع للناس ، فهى لصيد السمك ، ولغذاء الطيور ، وهى تحرث الأرض فيدخل الهواء فيها ، وتساعد الجذور على التعمق فيها ، وبأكلها الطين يدخل فيه مواد عضوية فيكون سمادا ، وهى بقذفها الطين ترفعه الى سطح الأرض فيقابل الشمس فهى أشبه بالمحراث ، وتسحب الأوراق الى بطن الأرض فيكون سمادا ، وقد يكون فى الفدان الواحد من أرض الحدائق (٥٣) ألف دودة يمر من أجسامها (١٠) أطنان من التربة وهو يغطى نصف سنتيمتر تقريبا

٤٤ (العلق) تعيش فى المياه العذبة فى البرك والمستنقعات وبعضها فى الأرض الرطبة وهى تعيش فى الفم وهى خناقى وهى تتعلق بكل حيوان تعثر عليه ، وأهم هذا النوع هوالعلق الطبيى

٤٥ الكلام على الحدأة ، وبيان انها تأكل صغار الدجاج والبط والأوز والجرذان والضفادع والثعابين والسحالى ودودالأرض والحشرات والرم ، وهى مفيدة جدا فى تنظيف الشوارع من الرم وسطوح المنازل من بقايا المآكل ، وضررها أقل من نفعها

خاتمة فى الحيوانات النافعة مثل المذكورة فى يوسف عليه السلام

٤٦ تجارة الجراد فى بلجيكا ، وبيان أن الحكومة المصرية اليوم لم تستيقظ لمنفعة الجراد الذى هجم على مصر مع ان فى بلجيكا شركة تصنع منه زيتا ، ولم تبال بالطلب الذى قدم اليها ، فعلى من بعدنا أن يربوا الحكام تربية أرقى من هذه لأنهم لو باعوه لعوضوا النقود الضائعة فى مطاردته

(اللطيفة الثانية) فى قوله تعالى ــ هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ــ الخ مع ملاحظة آية ــ خلقكم من نفس واحدة ــ وقوله ــ لااله إلاهو ــ فهنا وحدة النفس المتصرفة فى الأعضاء ووحدة الله ، ولافرق بين وحدة نفوسنا مع كثرة أعضائنا وبين وحدة ملكة النمل وملكة النحل وملكة الأرض (جمع أرضة) . وقد وصل تيارمن وصلوا الى القطب الجنوبى الى الذين فى الممالك المتحدة فى لمح البصر بمجرد الضغط على الزر . إذن اتصال الخبر بين النمل والنحل بنفس طريقة كطريقة الراديوم إذن العالم ذو وحدة لها محرك واحد وبه نفهم ــ ماخلقكم ولابعثكم إلا كنفس واحدة ــ

٤٨ (اللطيفة الثالثة) فى قوله تعالى ــ الله الذى جعل لكم الليل ــ الى قوله ــ كن فيكون ــ وفيها ذكر الليل والنهار ، وخلق كل شئ بسبب هذا التعاقب وأن الأرض قرار ونظام خلقنا وتدرجه وحياة كل حى وموته ، فى هذه المسائل الخمس تدخل العلم الطبيعى والالهى والفلكى

صحيفة

٤٩ إن الحرارة والبرودة فى الأرض يرجعان الى الليل والنهار ، والحيوان والنبات موزّعان على مناطق الأرض المختلفة بسبب سير الشمس ، ثم إن المكان الذى كثر نباته أوقلّ لايعيش فيه الانسان ، أما الذى اعتدل نباته فهوالذى يمكن عيش الانسان فيه ، فالغابات الاستوائية والأقطار الباردة لايصلحان لسكناه ، فالانسان كما وجب الاعتدال فى أخلاقه وجب الاعتدال فى محل سكنه ، ومن عجب أن جسمه مفصل على مقتضى هذه العوالم حوله ، فأعضاء الحسّ للعلم بالموجودات ، والرجلان لحركة الانتقال ، واليدان لحركة العمل فكأن الانسان الورقة المدوّرة بصورة الشجرة وهى هذه الدنيا . إذن العالم مقسم على أعضائه علما وعملا كما تقدم فى أوّل ﴿ سورة ص ﴾ وهذا الانسان اليوم جاهل لم يدرس جسمه ومن درس جسم الانسان وجسم العالم عرف أن الانسان والعوالم حوله أشبه بالروح والأعضاء الجسمية فكما أن أعضاءنا مطيعة لأرواحنا هكذا العوالم حولنا يجب أن تطيع الانسان والانسان سائر الى هذه الحال ، وأضرب لذلك مثلا : رجلا بنى لأبنائه بيوتا منفصلة بماء البرك وهم ينتقلون الى بيوتهم بالسفن والأبنية لاتبلغ إلا الثلث والباقى ماء ، وبهذه الطريقة كانوا يتحاربون ، وهذا القتال هو السبب فى نشاطهم ومعرفة أسرار الماء والأرض وهكذا ، وفى آخر الأمر قرّ قرارهم على مايأتى :

ذلك ان أحدهم . قال : أيها الاخوة إن أبانا حكيم لأنه لم يشأ أن يعطينا مجانا بل أراد أن نفكر بأنفسنا . انظروا . ألسنا نحافظ على الطيور كالزقزاق البلدى والشامى وأبى قردان ونحافظ على البقر والجاموس ، فهذه قد أجمعنا أننا اذا أكلناها ولم نبقها لتنفعنا فى زرعنا إما بالتقاط الديدان واما بالحرث والسقى فاننا نهلك لامحالة ، وهذا برهان يقينى واذا حافظنا على العنكبوت لأكله الذباب وعلى الحشرات لتنفعنا أفلانحافظ على الانسان نفسه الذى اذا أبقيناه ساعد مساعدة أتمّ من مساعدة الحشرات وغيرها وبهذه زال الحرب بينهم ، الأب ضرب مثل لله تعالى والاخوة بنوآدم والمنازل هى القارّات والماء هى المحيطات المعلومة . إن الانسان لم تقتصر العداوة على أن تكون بين أفراده بل انه حرم من المناطق الباردة القطبية والحارّة الاستوائية المملوءة نعما وخيرات لاحدّ لها . انه لم يحظ إلا بسكنى المناطق المعتدلة أما غيرها فلا . إذن هذه المناطق مخبوءة لهذا الانسان وهى عاصية عليه حتى يجتمع كله ويتحد ويصبح جميع الناس أمة واحدة وهم أولى بالاتحاد فى هذه الأعمال من اتحادهم مع أبى قردان والجاموس والبقر تلك الحيوانات التى اتحدت معهم فى المنفعة ، فهل منفعة الانسان أقلّ من منفعة الحيوان ! إن الانسان جهول والأنعام اليوم أرق منه . اللهم إنى أشكو اليك هذه الأمم ، وأهل أمريكا يقتلون السود جهلا وخبثا لمجرّد اللون . وأهل انكلترا يطردونهم من مطاعمهم لمجرّد اللون

٥٣ الانسان وتوزيعه على المعمور . شروط صلاحية القطر للسكنى . مغالبة الانسان طبائع الأقطار التى يسكنها أسباب قلة سكنى الغابات الاستوائية وموازنتها بالغابات المعتدله . التغيرات الفصلية تعدّ القطر للسكنى وهكذا التغيرات الدهرية . الحرف وتأثيرها فى عدد السكان

٥٧ أسرار العلوم المخبوءة فى هذه السورة ، وذكر خمسة أسئلة (١) الذنوب ومغفرتها (٢) الكفر والايمان (٣) محاورة مؤمن آل فرعون (٤) محاجة الكفار فى النار من المستكبرين والضعفاء (٥) مايقوله بعض المفسرين فى آية ــ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ــ فان ابن عباس يقول : إن ذلك اشارة الى الدجال وأن الآية ردّ على اليهود الذين يقولون إن الدجال يرجع لهم ملكهم . والاجابة على السؤال الأوّل والثانى أن الآلام كالضرب والكسر والصدم والجرح والأسقام كلها منذرات . واللذات نصف الرحمة والآلام نصفها الآخر . ثم ان ماتقدم فى أوّل سورة الزمر من أن فى الجوّ (١٦) طبقة سببها

الغبار والدخان ، وهذه الطبقات تحجب ضوء الشمس صباحا بحيث يكون أقل (١٣٥٠) مرة منه وقت الظهيرة . وهذه الحجب ودخانها الضارّ بأجسامنا المقصر لأعمارنا أصبح نعمة ، فنفعه أكثر من ضرّه ، فهكذا الذنوب فهى منعت افاضة العلوم على عقولنا دفعة واحدة لئلا نهلك . ثم ان الأرض أسرع قبولا للحرارة من الهواء وأسرع تخلصا والماء بالعكس وهكذا كل حيوان أونبات أبطأ فى النموّ كان أكثر نفعا والعكس بالعكس . فهناك فرق بين النخل والقرع وبين الحصان والكلب . وهكذا هناك فرق بين الهرم وبين أبنيتنا من حيث الاتقان المناسب للدوام . هكذا الكافر والمذنب اذا صلح حالهما بعد العناء الشديد كان صلاحهما وإيمانهما أتمّ لأنه بعدعناء . وهذا هو السرّ العام فى كل مانحن فيه من الشقاء والنصب فى هذه الحياة

٦٠ ﴿الفصل الثالث﴾ فى محاجة مؤمن آل فرعون لقومه وفيه ثلاثة جواهر

٦١ الجوهرة الأولى فى لمحة من تاريخ قدماء المصريين وهذا التاريخ ثلاثة أدوار: الدولة القديمة ، والدولة الوسطى والدولة الحديثة ، وتاريخ الدولة القديمة يبتدئ بالملك (مينو) الذى جمع ملك الوجهين البحرى والقبلى وعاصمته (تانيس) أوطيبة بجوارجرجا ، ثم انتقلت العاصمة بعدذلك الى منفيس عند ميت رهينة بقرب القاهرة ، وهناك شيد (زوسير) الهرم المدرّج وسنفروهرمى ميدوم ودهشور وخوفو وخفرع ومنقرع اهرام الجيزة الثلاثة وساحورع ونوفرارقرع وأمرنرع وأوناس وتيتى وبيبى الأول والثانى ومرنرع الأول والثانى ، فهؤلاء منهم من شيد اهرام أبى صير والمعبد الشمسى ، ومنهم من شيد اهرام سقاره . ثم تلت هؤلاء حروب وجاءت الدولة الوسطى ، وهؤلاء من الوجه البحرى ، وجعلوا مدينة طيبة مقرّهم ، وحكموا النوبة ، وأقاموا المعابد بطيبة ، وشادوا اهرام دهشور والمشت والفيوم ، وبنوا قبور بنى حسن والبرشه ومسلتين من حجر الصوّان إحداهما بالمطرية ، والقصر الذى هو شرقى بركة قارون . ثم نقلت فى الأسرة الرابعة عشرة الى الوجه البحرى فى (سخا) ثم سقطت الدولة ودخل الهكسوس وجاءت الدوله الحديثة فرجعت الى طيبة وعظمت مصر وعظم سلطان الكهنة ، ثم أصبحت العاصمة (صاالحجر) بالغربية وتل بسطه بالشرقية . وفى هذا الوقت ابتدأ الانقسام فدخل الآشوريون وضعفت مصرثم دخل الفرس ثم دخل اسكندر المقدونى . كل ذلك بالانقسام . والمهمّ فى الآية أن هذه الأمة وأمة العرب فى الأندلس متشابهتان فى الانقسام فالمصريون عبدوا الطير والسمك والحيات والتماسيح والقطط والكلاب كما تقدم فى ﴿سورة النحل﴾ واقتتلوا على ذلك ومتى خربت العقول ضاعت الأمم . وهكذا الأندلسيون افترقوا عشرين دولة صغيرة فأهلكهم الاوروبيون . وهذا هو السرّ فى قول مؤمن آل فرعون لهم — ياقوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض فمن ينصرنا من بأس الله ان جاءنا — الخ فبأس الله هو التفرّق والانحلال الذى جاء بعد هذه النصيحة لأنه كان فى الدولة الوسطى . وأعقب ذلك الزمن الدولة الحديثة التى كانت هى انتهاء دولة المصريين كما انتهت دولة العرب فى الشرق والغرب بنفس هذا الانقسام بعينه ومنه مع خراب العقول وضياعها بالتقليد الأعمى . وهذه هى حال المسلمين اليوم . ولقد فعل الفرنجة بأهل مصر فى زماننا ماحصل لهم أيام الفراعنة . فأولئك لما أراد الله اهلاكهم سلط على عقولهم الخرافات فجعلوا الحيوانات فى الدرجة الأولى من الالوهية والمعبود الحق فى الدرجة الثانية فتفرّقوا . وههنا تفرّقنا نحن بسبب المبشرين المبثين فى البلاد الذين زلزلوا عقائد الأكابر فأضاعوا البلاد ودخل الانجليز مصر وأصبح المتعلمون إلا قليلا منهم يتشبهون بالفرنجة فى كل أحوال حياتهم . فما أشبه الليلة بالبارحة . إذن قصة مؤمن آل فرعون منطبقة على حالنا اليوم . إن الرياء والخداع هما الرائجان . وقد

صحيفة

يقوم بأمر البلاد أخس النفوس وأضعف العقول والسفهاء وأصحاب الماضى الخبيث والسيرة القبيحة ، وقليل من يتولاها من ذوى النفوس الشريفة الصادقين ، والمصريون اليوم عرب لهم صلة بالعرب فى شمال افريقيا والحجاز واليمن والعراق الخ

٦٦ فهاك نصيحة الدكتور يحيى الدردير إذ رفع صوته فى صحيفة الشبان المصريين قائلا : « لابد من اتصال المصريين بالأمم العربية ، فأما الاقتصار على الوطنية المصرية وحدها وعدم اتصالها بالوطنيات الأخرى فى العراق والشام الخ فمعناه الموت والهلاك ومعناه الانقسام (وبعبارة أخرى) ذكر المصريين بروابط الدين واللغة والنسب مع العرب الآخرين . فهذه نصيحة مصرى فى عصرنا لماوازناها بنصيحة مؤمن آل فرعون وجدنا بينهما مشابهة ما ، وعسى أن تكون هذه النصيحة يعقبها ارتفاع الأمة وان كانت نصيحة مؤمن آل فرعون أعقبها هوان الأمة لأنهم لم يتعظوا

٦٩ نور العلم فى صلاة الوتر بعد صلاة العشاء ، ههنا ذكر المؤلف معنى الاستغفار ، لم يستغفر رسول الله ﷺ ؟ أمن ذنبه وهو لاذنب له . كلا . إذن استغفاره ﷺ هنا راجع الى إزالة سبب الذنوب أى دوام ذلك الزوال كما تقول اهدنا الصراط المستقيم ، والفتح المذكور فى سورة الفتح ترتب عليه الغفران بهذا المعنى إذ الفتوح هناك راجع لفتوح العلم وهو يحدث الأثر فى نفوس السامعين فينشرون العلم بفتح البلدان ، إذن الفتح والمغفرة راجعان للفتح العلمى ولصفاء النفس وخلوصها من سبب الذنب . أما التسبيح والتحميد فهما أمران عجيبان : ان النعم التى نشاهدها غزيرة ولكننا نراها ممزوجة بالشرور وهذه الشرور تحدث عندنا خوفا من الله ويكون الحب لله على مقدار ما يكون من اللطف الذى نحس به بعد كل شر يصيبنا فنكون عبيد سوء لانعرف النعمة ولانحس بها إلا اذا أصابنا الشر لنفرق بين النعمة والنقمة ، ولكن اذا أدركنا بعقولنا ودراستنا العلوم الرياضية والطبيعية ، وتحققنا بعقولنا أن الشرور لابد منها لتمام النعم أصبح حبنا لله لاحد له وهناك فقط نفهم معنى الرضاء بالقدر ومعنى « الايمان بالقدر خيره وشره من الله » وهناك هناك فقط تكون سعادة هذا الانسان ويكون الحب الحقيق ، وهل السعادة إلا الحب ، والحب هو النعيم كله والسعادة كلها ، فلادنيا إلا بالحب ، ولانعيم فى الآخرة بحق إلا بالحب . هذا هو سر الاستغفار والتسبيح والتحميد

٧٣ ﴿ الفصل الرابع ﴾ فى محاجة الضعفاء والمستكبرين فى النار . وبيان أن ذكر المسيح الدجال بعد محاجة الضعفاء والمستكبرين للدلالة على أنه اذا كان المسيح الدجال (مع ماله من المكر والدهاء التى لايبانها فى الخديعة الرؤساء الضالون والشيوخ الغاشون) لايخلى أتباعه من العقاب لأن لهم عقولا فأولى بالعقاب هؤلاء الذين يتبعون المضلين من الشيوخ والأمراء المضلين . إن المحاجة بين المستكبرين والضعفاء فى الآية تقريع للمسلمين الحالين الذين تركوا مواهبهم وعقولهم ونسوا أن كتاب « الفرق بين الفرق » الذى اشتمل على (٧٣) فرقة من فرق المسلمين ، كان كل اختلافهم المذكور فيه غالبا لايرجع إلا الى سبب واحد بحسب الأصل وهو الجاه والثروة والملك ، ولادواء لهذه الأمة عندى إلا دراسة العلوم الرياضية والطبيعية وجميع علوم أهل الأرض ، ولايصلح لقيادة هذه الأمة رجال يجهلون هذه العلوم ، فلا رجال الدين ولا رجال السياسة ولا الأمراء ولا الملوك ولا رؤساء الجمهوريات فى أمة الاسلام بنافعين مالم يتحلوا بهذه العلوم . وكفى كل واحد من هؤلاء أن يلم بأكثر مافى هذا التفسير . فأما غير من اتصفوا بذلك الوصف فهم لايصلحون لرقى هذه الأمة لأنهم جهلاء غالبا جهلا مركبا

٧٥ ﴿ الفصل الخامس ﴾ فى المسيح الدجال . لقد تكلمنا على المسيح الدجال فى مواضع كثيرة من هذا

التفسير

صحيفة

يمروا

صحيفة

يمرّوا على الدرجات كلها كما مرّ الجنين)

١٠٤ (الفصل الثانى والثالث) فى إيضاح الكلام على آية ـ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم ـ الخ وذكر نبذة من كتابى «ميزان الجواهر» تتضمن البحث فى نظام علم التوحيد فى بلاد الاسلام وأن المؤلف وهو فى حال الصبا كان يتمنى لوأن المسلمين درسوا هذه المشاهدات فى المعاهد الدينية. وانه شاهد بعض الحيوانات الصغيرة المرقشة فأدهشته، وأخذ ينظر بعقله، ويقرأ التفسير فى الحقول وهو بعيد عن دور العلم، فلا له الفهم، ثم اتصل «بدار العلوم» وأصبح موقنا بأن هذا العالم له نظام تام ففرح بذلك فرحا شديدا وأخذ يقول: «تبا لمن تمرّ عليه هذه الحياة وهو لا يعقل هذه العجائب، أما التناسل والمأكل فأمران عامان. فمن استعمل عقله فى هاتين الشهوتين فقط فالبهائم خير منه وهو أعمى» وههنا سبعة أمور: ـ (١) ميل الفطرة الانسانية للغرائب (٢) دليل الالوهية فى الامور الغريبة أقرب الى أذهان البسطاء (٣) آيات القرآن ناطقة بذلك (٤) ويجب أن يطبق العلم على صفات التنزيه والتحميد عند كل عجيبة (٥) فذلك مع كونه علم توحيد هو رقىّ للانسانية (٦) مطالعة العلوم على هذا النحو ازدياد علم بالله (٧) بهذا يشبّ الطفل على حب الله

١٠٧ (النبذة الثانية) ما كتبه المؤلف فى مجلة «نور الاسلام» لأنه رأى رؤيا وأن ملكا فى النوم كان يعلمه معنى «بدأ الاسلام غريبا» وأخذ يفهمه طول الليل أن الاسلام سيظهر وينتشر انتشارا غريبا اليوم كانتشاره أوّلا. فأخذ المؤلف هذه المعانى وجعلها من عنده فى مقالة تحت عنوان «مما أوجب للمسلمين السقوط. جعل اقتراب الساعة سبب القنوط». جاء فى القرآن أن الساعة آتية لاريب فيها وانها قريبة وذلك لاحداث النشاط للعمل. فالسلف كانوا مجدّين فى العمل بهذا السبب ولكن نفس هذا السبب اتخذه جهال المسلمين سببا للبطالة إذ يقولون: «قربت الساعة فلماذا نعمل» وهنالك جاء الكسل. ولكن قرب الساعة ليس يفهم كما يفهم الجاهل. ان أعمارنا قصيرة فالقرب عندنا عشرات السنين. أما القرب بالنسبة لصانع العالم فهو مبنى على النظام العلم القديم الزمان. واذا نسبنا مائة ألف سنة أو مليون سنة الى مئات الملايين كان ذلك قربا. وهذا معنى ـ أنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا ـ

١١١ اللطائف العامة لأقسام السورة كلها وهى ست لطائف

١١٢ (اللطيفة الأولى) فى البسملة ومناسبتها لما ذكر فى السورة من الرحمن الى طبقات الأرض ومافيها من صور كشفها القوم. الآيات المفصلات فى المادة الأرضية والسماوية. للسمع جاءت اللغات. وللبصر خلقت المشاهدات. والسورة بدئت بالآيات المسموعة ثم تلتها الآيات المبصرة والأرض وما عليها كلها فى (٤) أيام. والسموات فى يومين. العوالم كلها ترجع الى سماء وأرض. وتفصيلهما يكون بعلمين: علم الفلك وعلم طبقات الأرض. يقول الله: وأنا رحيم رحمت الحشرة بآلاف العيون ورحمتكم أنتم بعلم الجيولوجيا والفلك لتقرءوا الجمال»

١١٥ وسيكون فى الجيولوجيا بابان: باب العلم. وباب العمل. أما العلم فبذكر معلومات عامة وأهمّ النظريات الحديثة. والعصر الأوّل للأرض. وعصر الحياة القديمة. والحياة الوسطى. والحياة الحديثة. والعصر الحجرى القديم فالحديث وعصر البرنز. فى ذكر معلومات عامة

١١٦ قطاع تخيلى يوضح أقسام الكرة الأرضية (شكل ١٣) الغلاف الجوّى والغلاف المائى وأعماق البحار المحيطات. وبيان أن سمك الغلاف من (٥٠٠) الى (٦٠٠) ميل. وبيان تركيب الهواء الخ

١١٧ الكلام على أهمّ النظريات الحديثة من حيث ان الأرض كانت سديما. آراء الاستاذ (كانت) سنة

صحيفة

١٧٥٥ «انه كان هناك سحاب مركب من غاز» ومنها اشتق (لابلاس) مذهبه . ومعنى هذا أن حرارة الأرض الآن أقل من حرارتها قديما ، وهذا الرأى باطل الآن

١١٨ منظر السديم المعروف فى مجموعة نجوم الجبار (شكل ١٤) منظر السديم الحلزونى فى مجموعة نجوم السلاق بالمنظار الفلكى ، والأول يمثل كون الشمس دخانا والثانى يمثلها وقد امتد منها ذراع

١١٩ «الفصل الثالث والرابع» فى العصر الأولى للأرض . العصر الابتدائى والحياة القديمة . وفيه الكلام على أشكال الحيوانات البحرية القديمة

١٢٠ لوحة فيها (١٢) صورة لحيوانات قديمة فى ذلك العصر ونباتات وأنواع من أشجار

١٢١ عصور الحياة الوسطى ، وفيه وصف البحار وقد طغت على اليابسة . وكيف ظهرت حيوانات وانقرضت أخرى . وذكر انه كان هناك بعض الحيوانات الرخوة المحارية (الامونيت) وكان من هذا الجنس وحده (٤٠٠٠) نوع مختلفات وقد كثرت فيه الشعاب المرجانية . والكلام على عصر الحياة الحديثة

١٢٢ لوحة فيها (١٠) صور فيها أهم الحفريات فى صخور حقب الحياة الوسطى بالقطر المصرى

١٢٣ وهنا وصف المنافذ البحرية والاوستريا وأن الحشرات انتشرت انتشارا كثيرا الخ

١٢٤ لوحة فيها أهم الحفريات فى صخور حقب الحياة الحديثة بالقطر المصرى فيها عشر صور منها فاكهة متحجرة وسرطان بحرى وسن الحوت وورقة شجرة وغيرها

١٢٥ العصر الحجرى القديم . وهنا اللوحة (٤) فيها (١٩) رسما تشتمل على (ا) قطعة من الخشب المتحجر و (ب) منظر الغابة المتحجرة قرب القاهرة . وههنا ذكر الغابة المتحجرة القريبة من العباسية فيها أشجار تبلغ عشرين مترا

١٢٦ العصر الحجرى القديم والحديث . وعصر البرنز . وههنا ستة أشكال منها آلات من الصوان الحجرى القديم بالفيوم ومجموعة من الآلات من حجر الصوان تابعة للعصر الحجرى الحديث

١٢٧ وهنا ذكر أنهم وجدوا رسوم أيدى السكاكين التى أخضعوا بها الحيوانات والوحش كالثور والحصان والحمار والكلب والقط . وقد عرفوا الزراعة والصناعة ثم هجروا الكهوف وسكنوا وسط البحيرات خوفا من الحيوانات

١٢٨ «عصر البرنز» ومن الغريب الانتقال من آلات الصوان الى البرنز والمصريون وحدهم انتقلوا الى عصر النحاس وهو عجب !

«نبذة من علم الجيولوجيا خاصة بالقطر المصرى» اهتم قدماء المصريين بالمعادن وفى زمن الرومان ثم أيام المغفور له محمد على باشا وفى هذه الأيام اتجهوا كرة أخرى

«زيت البترول» كان ينز عند سفح جبل الزيت على شاطئ الخليج وكشف عام ١٨٨٥ فى جمسا فى مغارات قرب الشاطئ كانت معدة لاستخراج الكبريت

١٢٩ هنا أشكال : شكل ٢٣ منظر لجزء من حقول البترول بالغردقة (شكل ٢٤) بئر فى أول الانتاج يتدفق البترول من الفوهة بقوة عظيمة من جمسا (شكل ٢٥) أحد عروق المرو الحاملة للذهب بمناجم سمنا بالصحراء الشرقية (شكل ٢٦) منظر عام لمناجم الفوسفات بسفاجه بالصحراء الشرقية

١٣٠ (شكل ٢٧) منظر منطقة مناجم المنجنيز بشبه جزيرة سينا . موازنة بين أنواع البترول بهذه الجهات

١٣١ اللطيفة الثانية فى آية ـ كتاب فصلت آياته ـ الخ وهو مبحثان : مبحث لغوى ومبحث علمى سياسى والمبحث اللغوى جاء فيه قول ابن النقيب : «إن القرآن وان كان كله بلغة العرب قد دخل فيه من

لغات الأمم ألفاظ لأنه ﷺ مرسل للجميع »

١٣٢ وههنا جدول بالألفاظ تقرب من (١٥٠) لفظة من قبائل العرب المختلفة مثل : مسطورا أى مكتوبا بلغة حِمير ، ومثل السفهاء أى الجهال عند كنانة ، ومثل كنود أى كفور النعم عند هذيل ، ومثل : أنكر الأصوات أى أقبحها عند حمير ، ومثل : بجبار أى بمسلط عند جرهم ، ومثل لاشية أى لاوضح عند أزدشنوءة . ومثل رفث أى جماع عند مذحج . ومثل مريج أى منتشر عند خثعم . ومثل نحلة فريضة عند قيس عيلان . ومثل حفدة (أختانا) عند سعد العشيرة . ومثل جاجا أى طرقا عند كندة ومثل اخسئوا أى اخزوا عند عذرة . ومثل ربيون أى رجال عند حضرموت . ومثل طفقا أى عمدا عند غسان . ومثل لاتعلوا أى لاتزيدوا عند مزينة . ومثل أملاق عند لخم . والعقود عند بنى حنيفة وحصرت أى ضاقت عند اليمامة . ومثل تميلوا عند سبأ . ومثل نكص عند سليم . والصاعقة لعمان . وينعق عند طيء . وأفيضوا عند خزاعة . وخبالا عند عمان . وأمه أى نسيان عند تميم . وطائره عمله عند أنمار . ولأحتنكن عند الاشعريين . ولينه نخلة عند الاوس وهكذا . هذا فى قبائل العرب ، وهكذا لغات الأمم مثل : أباريق فارسية . ابلعى حبشية . وأسباط لغة بنى يعقوب . واستبرق عجمية . وأسفار أى كتب (سريانية وقبطية) . اصرى أى عهدى (نبطية) . أليم أى موجع (زنجية) . وإناه نضجه (أهل المغرب) . وأواه موقن (حبشية) . الأولى أى الآخرة وبالعكس (قبطية) . بطائنها ظواهرها (قبطية) . كيل بعير (حمار) عبرية . جهنم فارسية . حرم أى وجب (حبشية) والحواريون الغسالون (نبطية) . وراعنا بلغة اليهود وهكذا . وغساق : البارد المنتن . وفردس (رومية) والقيوم سريانية . ويصهر ينضج بربرية

١٣٦ وههنا نظم لأربعة وعشرين لفظا أوله (السلسبيل وطه الخ)

١٣٧ ﴿ المبحث الثانى ﴾ وهو السياسى العلمى فى قوله تعالى ـ كتاب فصلت آياته ـ الخ وهذا المبحث فيه الكلام على العرب أيام جاهليتهم الأولى وجاهليتهم الثانية . فهم فى جاهليتهم الأولى أيام حمورابى إذ كانوا بالعراق تغلبوا على السومريين حوالى سنة ٢٤٦٠ ق.م وكتبوا بالقلم السومرى وهو أشبه بالقلم الهيروغليفى المصرى . وفى أول أمرهم لما تغلبوا على السومريين استعملوا لغتهم وقلمهم ثم أهملوا لغتهم وحفظوا قلمهم . وله صورة بديعة فى صحيفة ١٤١ (شكل ٢٨) وهذا الخط لايزال يتغير حتى كانت سنة ٣٢٨ ب.م إذ أصبح بشكل ماكتب على قبر امرىء القيس بن عمرو . وهو خط يغاير الأول (شكل ٣٠) فى صحيفة ١٤٣ ولاجرم أن هذا كان قبل البعثة بثلاثة قرون . ومن زمن البعثة الى الأن بقى الخط العربى بهيئته الأصلية ومعه التحسين والخط واللغة محفوظتان (انظر شكل ٣١ و٣٢ و٣٣) وهى رسم لسورة الفاتحة وقل هو الله أحد باللغة العربية والصينية وذلك فى صحيفة ١٤٤ و١٤٥ و١٤٦ ومن يقارن ماحصل فى اللغة العربية من حفظها يجده مخالفا لما حصل فى اللغة اللاتينية التى كانت لغة الدين والعلم والسياسة . فان الدولة الرومانية صاحبة تلك اللغة لما هجم عليها المتوحشون وهم آباء هؤلاء الاوروبيين ونبغت منهم أمة الألمان وحكمت رومه وكانوا همجيين سنة ٤٧٦ ب.م واختل الامن أخذت كل أمة تكتب بلغتها وأصبحت اللغة اللاتينية لغة تاريخية لاغير وحلت محلها الألمانية فى ألمانيا والانجليزية فى انكلترا وهكذا . وهذا بخلاف اللغة العربية فانها لم تحل محلها لغة أخرى . فقد أعدمت لغة القبط بمصر والروم بالشام والنبطية أو الكلدانية بالعراق وحلت محلها الى الآن ولما نشأت منها لغات أخرى وهى لغات العامة بمصر والمغرب والشام بقيت هذه الأمم تحافظ على العربية

صحيفة

الأصلية . وكلما تباعدت عنها أخذ القرآن يقرّبهم منها . إذن هذه الآية ظهر سرّها الآن إذ رأينا اللغة اللاتينية التي كانت سائدة في أوروبا دينا وسياسة بطلت والعربية بقيت . هذه هي المعجزة القرآنية المذكورة في هذه السورة ـ لايأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه ـ مع قوله ـ سنريهم آياتنا في الآفاق ـ الخ وهذا من مدهشات القرآن

١٤٧ هونا جوهرتان : الأولى في مقالة للكاتب الأمريكي إذ يقول : « إن جميع المسائل يكتب الناس فيها أياما وشهورا ويسكتون ، ولكن معرفة الله وخلود النفس لانقف الكتابة فيهما في الماضي والحال والاستقبال » وضرب مثلا للعلماء بالقطط العمياء التي وضعت في صندوق والرجل يرفعه ويغذي القطط باللبن ولكن إحداها قتلها الكلب لأنها خرجت من الصندوق ، فقالت قطة منهنّ : أين الرجل ؟ لوكان موجودا ، لارجل هنا ولاحنوّ ولاشفقة ، فهذه تشبه (أنجرسول) الجاحد الأمريكي ، وقالت أخرى إن الصندوق يجري على نواميس طبيعية . أما الرجل فلا وماهذا اللبن إلا أمر نظامي طبيعي لاغير . أما الرجل فلا وهذه القطة تشبه (اسحق نيوتن) ولكنه هومؤمن ولكن القطط بعد ذلك أبصرت فرأت الرجل فاعتذرت له فقبل عذرها

١٤٩ ﴿ الجوهرة الثانية ﴾ في آية ـ وجعل فيها رواسي ـ وان من الرواسي وهي الجبال جبل الفضة بأمريكا الجنوبية الذي عثر عليه رجل أمريكي أصلي تابع للقبطان (جون) فاستولى عليه باسم ملكه سنة ١٥٤٥ وبقي معهم ٢٨٠ سنة ، وهذا الجبل بمملكة بوليفيا وقد خرجت من يد الاسبان سنة ١٨٢٥ وقد كسبوا منه ١٦ ألف مليون ريال أي ٥١٢٠ مليون جنيه ، فيكون الكسب منه كل سنة ١٨ مليون جنيه وثلث ، والفضة اليوم قلت قيمتها ، وفي الجبل قصدير ، ولايصدر منه إلا قليل الآن

١٥٠ ﴿ اللطيفة الثالثة ﴾ في قوله تعالى ـ حتى اذا ماجاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم ـ الخ ، وذكر آيات أخرى مع هذه مثل آية ـ يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم ـ هنا علم عجيب ، ذلك انه لماذا ذكرت الأيدي والأرجل وحدها في الشهادة ، ولماذا شهدت مع اللسان تارة وتارة وحدها والفم مختوم عليه ، وجواب ذلك أن اللسان يشهدمعها اذا كان الانسان أشبه بالمنوّم تنويما مغناطيسيا لاحرية له ، فأما اذا كان مستكملا قواه فانه يكذب فاذا كذب شهدت هي وحدها ، واختصاص هذين العضوين بالشهادة لسرّ قد ظهر في عصرنا ، فان الناس سنة ١٨٩٠ وهي التي دخلت فيها دارالعلوم استندوا في علم المباحث الجنائية الى هذين العضوين لأنهم وجدوا هذه الخطوط لاتتغير أمدالحياة من المهد الى اللحد ، فهي ترسم في الجنين وتبقى الى مابعد الموت بخلاف بقية ظواهر الجسم فهي كلها متغيرات تغيرا تاما . وهذا هوالذي عليه الاعتماد اليوم في تحقيق الجنايات . وهذا الذي يجب أن يعمل به قضاة الشرع الاسلامي . فاذا تعارض قول الشاهد مع هذه الآثار التي تركتها الأيدي والأرجل على ثياب القاتل أوعلى السيف أونحوذلك . فهذه يقينية وشهادة الشهود ظنية بالاجماع . واليقين مقدّم على الظنّ . واذا قبل الله شهادتها وهو ليس في حاجة اليها فالقضاة أولى بقبولها مع حاجتهم اليها . وهذا السرّ ظهر الآن في هذا التفسير وأنا أعلنه للمسلمين بعدنا . وههنا (٩) أشكال للأيدي والأرجل من نمرة (٣٤) الى (٤٢) وهي مرسومة في الصفحات من ١٥٤ الى ١٦٠ وهي تبين بوضوح أشكال الأيدي والأرجل . وتبين أن خطوط الأصابع أربعة أنواع رئيسية فهي إما منحنيات واما منحدرات الى اليسار . واما منحدرات الى اليمين واما مستديرات . ثم الاقدام إما أن تكون لرجل

صاحبها سائر . واما أن تكون لرجل صاحبها واقف . ولكل واحد من هذه الأحوال شكل من الأشكال المتقدمة ، ومن الأرجل ما هي مقوسة ، ومنها ماهي منبسطة . هذا هو الاجمال

١٦٠ ﴿اللطيفة الرابعة﴾ فى آراء حكماء الأمم وعلماء الاسلام فى الأخلاق تفسيرا لقوله تعالى ــ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ــ الخ وذلك ان المؤلف بينما هو جالس إذ أخذته غشية فأحس كأنه فى عالم آخر وقد رأى فرشا مرفوعة وأكوابا موضوعة ، وهناك فتاة رائعة الجمال . فلما رآها خر صريعا لدهشته من الجمال ، ولما اشتاق وأشفق أن يكون ذلك حراما عليه لأنه هام بالجمال الحسى . قالت له هذا ليس حراما عليك ، انك فى الحال الروحية ، وأفهمته أنها هى البصيرة ، فهى رمز لبصائر الناس جميعا فى الأرض ، فاستغاث بها أن لاتفارقه ، وأخذ يقول لها : أنا مغرم بك ، إن كل حياتى فكر والفكر منك وفيك . فقالت له كلا . ولكن انظر الى مزارعى فى عقول علماء الأمم . فهنالك امتثل أمرها . وأخذ يقرأ عليها آراء كونفشيوش الصينى قبل ٢٥٠٠ سنة ، ويتبع مذهبه ٥٠٠ مليون نفس ، وهذا المذهب ملخصه أن يحب الانسان جميع الناس شرقا وغربا ، وأن الطبيعة موزونة ، وأن الانسان له بالله صلة ، والله يرعاه ويرعى كل مخلص فى الأرض ، ويقول هو : « إن ثقته بالله لاحد لها وهو يساعده ، وهو الذى عين له الوظيفة التى يقوم بها الآن ، والطبيعة التى خلقها الله لاسر فيها ، والانسان له بجميع الناس علاقة ، والحب هو نهاية المقاصد فى الدنيا فيحب جميع الناس كما يحب العلم ويحب ربه . وفى كل انسان مبدأ للخير . ومبدأ للعطف على الناس . ومبدأ لما يثير الخجل من عمل الشر . ومبدأ يميز به الخير من الشر . والحق من الباطل . والناس يولدون أطهارا . والترف والنعيم وكثرة الطعام والحسم والحفة تجعلهم بهائم . على هذه الأخلاق درج الصينيون . هذا ملخص آراء كونفيشيوش

١٦٥ وهاك آراء أفلاطون فهى قريبة منها . يقول : « إن الشهوات والأهواء تتنازعنا فعلينا أن نسمع صوت العقل واكرام النفس فى شىء واحد وهو الفضيلة . إن الفضيلة تمتع الروح . ان الفاضل وان تعثر فى أول أمره فانه يسعد سعادة حقيقية داخلية فى أول أمره . وداخلية وخارجية فى آخر أيامه إذ يسمع الثناء الحسن والاحترام من الناس جميعا . إن الفضيلة فوق المال والمتاع وكل ماتقتنيه وتحب به »

١٦٦ ومثال ذلك سقراط قام بما عليه فى ميادين القتال وامتثل أمر رؤسائه . وهكذا لما صار يعلم أبناء أثينا العلم ووقف موقف الموت اختار الموت ولم يترك العلم والعدل ولم يرض بالهروب من السجن لأنه يعتقد أن ذلك شر والذى يقابل الشر بالشر لئيم . وعلق الاستاذ (بارتلمى سانتهلير) على هذا بما يفيد أن المصائب ماهى إلا عقوبات والعقوبات يجب قبولها بالسرور ولايجوز الهرب منها

١٦٨ ونقل عن سقراط مايأتى : « إن محبة الأشرار ليست محبة . ومحبة الأخيار هى المحبة . إن الأشرار يخون بعضهم بعضا . فأين المحبة إذن ؟ ومادام الانسان يرى انه يمتاز عن صديقه بمال أو بكرامة أو غيرها فلاصداقة بل هناك أحوال متغيرات واضطراب . ثم ان عمل الشر مع الأشرار يزيدهم شرا فيجب أن لانفعل الشر معهم »

١٦٩ وقال أيضا : « أصحاب النفوس الشريرة لايجوز للفاضل أن يقابل شرهم بالشر لأنهم مرضى . وهذه المقابلة تزيدهم شرا . وأكثرهم يرجع باللين . والنادر ليس كذلك . فيجب كظم الغيظ والعفو » وقد ضرب سقراط نفسه مثلا لذلك . فانه لما علم من الكهانة انه أعلم الناس شمر عن ساعد الجد وقام بنشر

صحيفة

العلم امتثالا لأمر الله وقدّم نفسه للقتل ولم يهرب من السجن مع تمكنه حفظا للفضيلة . إن فى القلب صوتا من الله يأمرنا بالأعمال الفاضلة مع الجميع ، فكيف نفرّ من هذا الصوت والله هو رب الجميع ، الله صنع الانسان وهو ممتلئ به يراعى من يلبي هذا الصوت ، ولا سعادة لامرئ إلا بذلك . فأما من أسلم قلبه للشهوات فان الله يتركه لنفسه . ليقتنع كل امرئ بأن الله يحرسه دائما فهو إذن لايخاف شيئا فى حالنا ، لاخوف على الانسان الخير فى الدنيا ولافى الآخرة ، واذا مسه الشرّ فانه يرى لطفا فيه متعاقبا

١٧٠ ليقطع المرء عمره بهذه الآراء . وقال عن (سقراط) انه قرّرماقاله أنكساغورس : « إن العالم صدر عن عقل ، فالعقل أصل كل شئ » وعليه رأى سقراط أن نبحث عقولنا حتى نعرف طباعها . وههنا ذكرت الروح التى تحادث مؤلف هذا الكتاب أن الله يساعده دائما فى هذا التفسير ، وأخذت تسمع منه ماجونه الشيخ الشعرانى فى العفو عن الشرير وعن الذى يسعى فى قطع الرزق عنه . وذكر ما حصل بين خطيبين لأجل دنانير أهداها السلطان سليم لأحدهما . وذكر أيضا أدبه فى الأكل وانه فيه يحضر قلبه مع الله تعالى . وأطنب فى العفو عن المذنبين

١٧٣ ههنا ذكر المؤلف آراء أهل أوروبا فى الأخلاق وخصّ بالذكر (الاستاذ بارتلمى) الذى قرّرأن هنا أمرين فى داخل نفوسنا : أمر فوق مستوانا ..وأمر هو عملنا ، أما الأوّل فهوأن الصوت الذى نحسّ به فى كل وقت يؤنبنا تارة ويمدحنا أخرى ، وهـذا ليس منا بل هو من الله بدليل انه يورثنا الندم ويعاقب تارة ويفرحنا ويمدحنا أخرى . إذن هوأعلى منا . أما الأمر الثانى فهى الارادة . إن لنا فى داخلنا اختيارا ، فلنا أن نطيع ذلك الصوت ، ولنا أن نعصيه ، فهو معلم ولكن الارادة منفذة فهى تعصى وتطيع كما تشاء هى لا كما يشاء ذلك الصوت الداخلى ، وليس فى العوالم حولنا هذه الحرّية ، بل كل العوالم تسير بقوانين أو بواعث لانعرفها . فخاصية الانسان إذن هى الارادة التى هى المتمتعة بالحرّية . إذن الضمير والارادة هما أصل علم الأخلاق ، وقبول الارادة ذلك القانون يشرف الانسان ويرفعه فى أعين الناس والله أيضا يرعاه ، وليس فى العوالم المشاهدة أشرف من ضمائرنا وهى مؤدّبة لنا تأديبا شريفا تعجز عنه قوانيننا . وبهذا يعرف الانسان انه مسؤل أمام خالقه ، وعلم الأخلاق يقرّر عدلا إلهيا بعد الموت وخلودا للروح لتنال جزاءها الذى لم يتم فى الدنيا خيرا أوشرا

١٧٦ سعادة النفس والسرور الوجدانى بالفضيلة أحبّ الى نفوسنا مما دون ذلك من المتاع والمال والبنين أوّلا ، ومن اللذات ثانيا ، ومن السعادة ثالثا ، بل الانسان قد يختار أن ينبذ هذه كلها ليحيا حياة السعادة النفسية ، وماهذه المذكورات إلا أمور ثانوية

١٧٧ آراء الحكماء بعد أرسطاطاليس . آراء أتباع أرسطاطاليس بعده . وهم أوّلا ثادوفرسطس والستراتون ومن نحا نحوهما ، فانهم لما وجدوا أدلته واهية فى أسناد العلم الى الصورة القائمة بالمادة وانها سبب فى حضور الكليات فى أذهان الناس تركوا التكلم على الإلهيات . وثانيا الابيقوريون . وأوّلهم أبيقورس القائلون باللذة (أى فى الفلسفة خلافا لما هومشهور) . وثالثا الرواقيون ورئيسهم زينون توفى سنة ٢٦٤ ق م القائلون : الله والعالم جوهر واحد (وهذا كفر فى ديننا) والالهيات والطبيعيات علم واحد والمدار عندهم على الأخلاق ليحلّ النور الإلهى فى جسد كامل بالأخلاق

١٧٨ ثم (نيقوماخس) صاحب علم الأعداد سنة ١٤٠ ب . م وههنا ثلاثة فروع : فرع أثينى ، وآخر شامى ، وثالث اسكندرى . وأشهر الاسكندريين بعد الميلاد أفلاطين . وأشهر الشاميين بيليخوس . وأشهر الفرع الأثينى سريانوس . وبهذا انتهت الفلسفة القديمة اليونانية وفروعها

صحيفة

ثم جاء الاسلام وفتحوا الفرس والروم والهند وقرؤا علوم الأمم وترجموها وكان المترجمون رجال علم بخلاف فلاسفة أوروبا فى القرون الوسطى فهم كانوا قسيسين ، فبحث فلاسفة الاسلام فى أكثر العلوم بخلاف الآخرين ، انما ابتكره العرب قليل بالنسبة لما ترجموه ولكن لهم الفضل فلولاهم لم ترتق أوروبا على هذا النمط

١٧٩ المسلمون درسوا الفلسفة الأفلاطونية الحديثة أوّلا ، ولما عثروا على آراء أفلاطون وأرسطو كانت الأولى قد تمكنت فيهم وفيها مزج العلم بالدين ، وأوّل الفلاسفة يعقوب الكندى والفارابى الذى اتبع الأفلاطونية الحديثة ، ويظن انها تعاليم أرسطو ، وقد قرأ كتاب النفس (١٠٠) مرة ، والفلسفة اليونانية متناقضة ومناقض بعضها للدين ، ففيها خلط وتهويش

١٨٠ والرواقيون أغرموا بالكشف ومعرفة ماوراء الحسّ ، والصوفية فى الاسلام مشتقون من هؤلاء ، وكتاب الفارابى المسمى « آراء أهل المدينة الفاضلة » له مزج بين آراء الشيعة وبين آراء جمهورية أفلاطون واخوان الصفاء ظهر فى القرن الرابع بالمشرق ، وانتقل الى بلاد المغرب ، وهو دائرة معارف والواضع لها جمعية سرّية كانت بالبصرة عدّ القفطى من مؤلفيها خمسة ، وقصدهم أن ينقوا الفلسفة من الخلط والصعوبة ، وأن يهذبوا الدين و يصلحوه بها . ومن الفلاسفة أبو على بن سينا فى القرن الرابع الهجرى على رأى أرسطاطاليس وكتابه « القانون » عمدة فى الطب وأن علماء الاسلام ردّوا على الفلسفة ، ولكن الامام الغزالى هو الذى صدّ الناس عنها بقوّة بيانه ورجعهم الى التصوّف

١٨١ ولما انتقلت الفلسفة الى الأندلس وساعد فى رواجها الحكم الثانى الأموى فى القرن الرابع وتبع ابن باجه وابن طفيل مؤلف (حىّ بن يقظان) الذى ترجم الى اللاتينية وظهر سنة ١٦٧١ وسنة ١٧٠٠ و بعد عشرين سنة من ظهوره ظهر رواية (روبنسون كروزو) ثم ان ابن رشد أشهر فلاسفة العرب تبع أرسطو وردّ على الغزالى ، ومن كتبه فصل المقال المشهور ، وأكثر مؤلفاته بغير العربية ، ولكن الموجود ترجمتها مع شرح أقوال أرسطو مع الردّ على الغزالى فى ١١ مجلدا وكتابه فى الطب لاتينى ، وله كتب بالعبرية ، وطارت شهرته بالمدارس والكنائس الى ابتداء القرن السابع الهجرى أى الثالث عشر المسيحى . ولما انتهى القرن السادس عشر وقف المسلمون فلا بحث لهم . و بقى المسلمون فى الألفاظ تقديما وتأخيرا وذكرا وحذفا ولكن نبغ ابن خلدون فى مقدمته فى علم العمران وطلب أن يتمه من بعده . فأجاب طلبه (أوجست كومت) أما المسلمون فلا . ولم يظهر بعد ابن خلدون نابغة اسلامى ولكن بقى الشرق نائما حتى أيقظته الحوادث اليوم . فهاهوذا قائم ينفض غبار الكسل

١٨٢ فلما سمعت هذا المقال . قالت : لقد أحسنت . وأخذت تذكر المؤلف بقولها : لا تنس انك فى تفسير آية من القرآن — إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا — الخ وأن تاريخ الفلسفة تمهيد للتحقيق فى ذلك التفسير . فلا بد من تحقيق آراء الفلاسفة فى معرفة الله وفى علم الأخلاق . وهنا أجاب المؤلف تلك الروح قائلا : سأبحث هذا الموضوع فى ثلاثة فصول

١٨٣ وشرع فى الفصل الأوّل فى الحكمة العلمية والعملية مبينا أن المذاهب ثلاثة فى الانسان : أهو الروح ؟ أم الجسم ؟ أم هما ؟ ناقلا ما كتبه فى كتابه ﴿ جوهر التقوى ﴾ فى ذلك

١٨٤ ذاكرا أن الروح والجسم متحدان فيشتبهان على الناس كالزجاج والخمر . وهذا هو السبب فى الخلاف إذ يقول بعضهم : « الانسان هو الروح والجسم لاشىء » وعكس آخرون الخ وعلم الطب ينظر لعلم الصحة نظرا تاما . إذن الطبيب يهمه الجسم . فهو إذن يقول بالروح والجسم . ذلك لأن آثار النفس

صحيفة

تعطى الجسم صحة وسقما كما يفعل الجسم فى الروح انقباضا وانبساطا

١٨٥ وههنا بقية المقال كنصيحة الانسان أن يعتدل فى مأكله ومشربه وهكذا ، ثم ذكر المؤلف ما كان بمصر من المعبودة المصرية التى كتب على قبرها «أنا كل شىء» وهكذا صورة أرسطو وأفلاطون واختلاف اشارتيهما الى السماء والأرض ، كل ذلك له آثار فى علم الأخلاق ، فاذا أيقن الانسان بقول أفلاطون و برهانه على أن الله بالنسبة لعقولنا نظير الشمس بالنسبة لعيوننا فانه يكون سعيداً بهذا الايقان وأن الصورة التى رسمها روفائيل الدالة على سقراط وأفلاطون هى نبراس أوّل العلم وآخره لأن الأمر دائر بين الروح والجسم .

١٨٨ من القائلين بالمادة (كارل نخت) وبخنر وديمقراطيس . وههنا ذكر أبيقور وتوماس ثم (لامتريه) وكابانى وغيرهما . وبالجملة فى هذا المقام سرّ العلماء القائلين بالروح والقائلين بالجسم من أيام اليونان الى الآن إجمالا مثل أنكساغورس وأرسطو والرواقيين وأصحاب الجوهر الفرد والمؤلهين والعقليين وأصحاب الحلول . أما سبينوزا فقد أعلن أن هذا العالم جوهر واحد وهوالله وهواعلان مدهش والعالم فرع منه

١٨٩ وههنا تألم المؤلف من سرد هذه المذاهب ، واعترض على الروح وقال لها : كيف أمرتنى بسرد المذاهب الفلسفية وهى مملوءة بما هو مهوّش مربك للفكر مع ان قلبى فيه صحيفتان أجل من ذلك وهما صحيفة جمال السموات وجمال الأرضين . إن قراءة تاريخ الفلسفة ضارّ فوافقته على ذلك ، وانما نفعها يكون لأناس قليل عددهم وقالت انك لابد من اطلاعك عليه لتبين الحقيقة للناس ، وهل القاضى يحكم بغير معرفة أقوال الخصمين ، وفى أثناء ذلك يقول المؤلف انه برؤيته وجهها انشرح صدره بعد انقباضه بقراءة هذه الآراء ، وأجابته قائلة : أنا أعلم من اطلاعى على قلبك انك ستحل المشكلة للعالم كله فقل وأنا معك . وبهذا تمّ الكلام على الفصل الأوّل فى آية - إن الذين قالوا ربنا الله -

١٩٠ فأخذ يحدثها عن المقام الأوّل فى مذهب الغريزة الخلقية ومذهب التجربة ، وبكلّ قال علماء ، فبالأوّل قال (كارليل) وبالثانى قال (كارنوى) وغيره ، والمقام الثانى فى الغاية من سلوكنا وفيما يسوقنا الى ذلك السلوك ؛ فهل الانسان خلق لمنفعته هو أم لمنفعة العموم ؟ بكلّ قال قوم ، وخيرهم من يقول بالتضحية مثل الاستاذ (مل) ، والذى يسوقنا لحسن السلوك إما القانون الأخلاق فى أعماق نفوسنا واما العواطف ، واما الخوف من الله ، أوذمّ الناس ، بكلّ قال قوم . والمؤلف يقول : « إن الناس درجات فلكلّ وازع يناسبه »

١٩١ (الفصل الثانى) فى القبس المذكور فى سورة طه وايضاح أن الحجر والشجر والزرع كلها مملوءة بالنار . فالحجر فيه (٤٨) جزءا من مائة جزء كلها اكسوجين . ويمنع اتقاده بالنار جوده . والحديد يحصل فيه التأكسد أى الصدأ وهو نوع من الاحتراق بطىء . وأما الخشب والفحم والورق والزيت والدهن ففيها كربون وأودروجين . ومتى قربت النار منهما أخذا يغرّان فيقبض عليهما الاكسوجين . فههنا زواج وارتباط . والحرارة أشبه بالفرح القلبى . واللهب أشبه بالزينة التى تقام فى العرس

١٩٢ إن ازدواج القضايا العلمية ، وآراء علماء الشرق والغرب أشبه بازدواج الكربون والاودروجين مع الاكسوجين ، والمسلمون بعد قراءة هذا التفسير سيقرءون علوم أمم الشرق والغرب ويصطفون منها ماهوحسن وتكون النتائج مستعملات فى المنافع المادّية فى مقابلة القبس عند موسى لأهله ، وفى المنافع العلمية فى مقابلة قول موسى - أوأجد على النار هدى - . إذن منافع القبس العلمى متوجهة

للماديات

صحيفة

المادّيات والمعنويات كقبس موسى عليه السلام حذو القذة بالقذة

١٩٣ (الفصل الثالث) فى جلاء الحقائق العلمية والعملية ، وامتحان آراء علماء الأمم الخلقية : أخذ المؤلف يفكر فى آراء الأمم أمة أمة ، وكيف يقول قوم بوجود الروح وحدها ، وآخرون بالمادة وحدها ، وكانت تلك الروح الجميلة البهجة تبتسم وهى صامتة ، فنظر المؤلف الى جمال وجهها ، فرآه ازداد جمالا وبهجة وحسنا ، فأغشى عليه ، فأخذت هى تلاطفه وتمرّ يدها عليه حتى استيقظ ، وأخذ يتغزّل بكلام ابن الفارض : ☆ مابين معترك الأحداق والمهج ☆ الخ وأخذ يسألها : أأنا الآن فى حال البرزخ وقد مت ؟ فقالت كلا بل هو صفاء نفس ، فسألها : هل هذه الحال لها وجود مع انها خيال ؟ فقالت : هى أصل الوجود مستدلة بدليلين : أحدهما اننا نرى الصور القديمة فى عقولنا لاتتغير بخلافها فى المادة ، ثانيهما ان كل عمل نعمله فى الخارج أصله من الآراء التى تجول بأذهاننا ، بل المادة لا وجود لها لأنها نتيجة حركات الأثير الواقعة على حواسنا . إذن هى موجودة فى مرتبة الحواس لاغير فهى وجود عدم ، وهنا أخذ المؤلف يتغزّل فيها كرّة أخرى لبهجة جمالها والأنس بها وأن صورتها أجمل صورة رآها لأن المعشوق فى الأرض إما حسن الظاهر خاوى الباطن ، وإما بالعكس ، وهذه جمالها ظاهر باطن معا ، وأرادت أن تنصرف ، فاستغاث بها ، فقبلت البقاء معه ليتمتع بسماعها لكلامه ، فأمرته إذن أن يحقق الأدلة للناس فى مقام العلم والعمل فى علم الأخلاق فأرجعهما معا الى الانسان ، فالنظر الى حواسه الخمس والى عقله يفهمنا أن هناك عالما روحيا ، كما ان نظرنا الى عواطف الأطفال من حيث انهم يرون جميع من حولهم مسخرين لهم ، وفى عواطف الحكماء والقواد الذين يرون انهم مسخرون للعطف على سائر الناس ويقذفون بمهجهم فى منافع أممهم ، فهذا النظر يعرّفنا لماذا خلقنا ويوقفنا على حقائق الأعمال الخلقية ، وهاتان النظريتان اللتان ظهرتا للمؤلف فى حضرة تلك المعشوقة هما معيار علم الأخلاق الذى ابتكره المؤلف ، وكل نظرية ، أورأى لمؤلف قديم أوحديث تندرج فيهما

٢٠٠ فاذا سمعنا أن أفلاطون وسقراط ثم أرسطو ثم الاستاذ كانت ، قد أتوا بأدلة فى إثبات الله ، فدليل الحواس الانسانية والعقل أقرب الى اليقين لأن كل حاسة من لمس أوذوق أوعين لها محسوسات ترتقى بارتقاء الحاسة والعقل الذى هو ألطفها تكون مدركاته لها اتصال به وهى تناسبه . إذن عقولنا متصلات بعقول كبيرة . إذن نحن سعداء الآن حتما ، فلا اعتراض على هذا كما اعترض أرسطو على (المثل) التى قالها أستاذه أفلاطون . واذا وجدنا علماء أوروبا وغيرهم يختلفون : هل نحن مخلوقون لنفوسنا أم مخلوقون للعموم ؟ فانا نقول لهم لاخلاف . فمن كان كالأطفال فهو لنفسه . ومن كان كالحكماء فهو لغيره . والأمر ظاهر واضح . بهذين البرهانين خرجت الانسانية من مأزقها فى العلم والعمل الخلقيين وهذه نهايات علوم العلماء (٢٥) قرنا . وهذا هو الامتحان الذى قدّمه المؤلف لأمم الشرق والغرب

٢٠٢ (نواضر الجواهر ، لنفائس العرائس) هذا مقال موضح لما قبله ، يشرح صدور القرّاء ويبهج نفوسهم يقول المؤلف فيه ان براهينه قد وصلت الى تمام الحكمة فى هذا المقام بعد دراسة الحكمة السابقة فى (٢٥) قرنا . ويقول ان برهانه لايحصل فيه خلاف كالذى حصل لبرهان أفلاطون ولأرسطو إذ قامت بعد ذلك فرق وهى الأبيقورية والرواقية وفرقة الاسكندرية والأثينية والشامية قبل الاسلام ، وفرق الصوفية بعد الاسلام ، وههنا استعرض برهان الاستاذ كانت وبرهان أفلاطون ، وأفاد أن برهان « تفسير الجواهر » أثبت ، فان الانسان اذا علم أن عقله متصل بعقول أكبر منه كاتصال العين بنور واسع المدى فانه يوقن إيقانا تاما بعالم الأرواح . واذا وجدنا أن الأرض قد عجزت عجزا تاما عن

صحيفة

إمداد أبنائها بالضوء والحرارة للحياة والهداية ، واستعارت لهما ذلك كله من الشمس فهى إذن عن امدادهن بالعقول والعواطف والغرائز أشد عجزا . وهذا برهان آخر واضح فلاحاجة إذن الى برهان الاستاذ (كانت) الألمانى ولاأفلاطون اليونانى لأن هذا البرهان أيضا يقينى . هذا فى الحكمة العلمية

٢٠٤ أما الحكمة العملية فأمرها ظاهر فى الموازنة بين طفل وحكيم فى عواطفهما . إذن سقط خلاف علماء الأمم الاوروبية

٢٠٥ ثناء المؤلف على ربه لأنه ألهمه الحكمة وعلمه هذه البراهين وأن هذه البراهين التى علمها الله المؤلف جعلته ينظر الى الجمال فى الصور السماوية والأرضية ، والى الشهوات التى فى النفوس ، والى العقول الانسانية ، والى الماء والهواء والحرارة التى تثيرهما فيحمل الهواء الماء ، والى الضوء ، وأن الله لما علم ضعف عقولنا عن فهم المنبع الذى وردت منه هذه الصور الجميلة وهذه العواطف والقوى والعقول أهى المادة نفسها أم شىء آخر أظهر لنا الحرارة والضوء من الشمس وقال لهما : ياأيتها الحرارة ويأيها الضوء : لتقم الأولى باثارة البخار من البحار وباثارة الرياح فيكون سحاب ، وليساعد الضوء فى التغذية وفى هداية الحيوان لطرق معاشه ، وأنتما لستما من الأرض بل من عالم آخر غيرها . ليقول نوع الانسان اذا عجزت أرضنا عن الضوء والحرارة وهما حسيان فهى أعجز ألف مرة عن إحداث صور الجمال وخلق العقول والعواطف والقوى الشهوية والغضبية والغرائز الحيوانية ، ههنا يفهم المسلمون مامعنى قوله ﷺ « اللهم الرفيق الأعلى » عند الاحتضار

٢٠٧ زهرتان فى بستان الحكمة العلمية والعملية . الزهرة الأولى : رأى الاستاذ (سرجس) فى أن الناس فكروا فى المادة لأنهم متأثرون بها ، والحقيقة أن المادة وليدة العقل ، والعلماء اليوم عندهم شبه إجماع على هذا ، فالقول بالمادة قديم ، والقول بالعقل قول حديث

الزهرة الثانية فيما جاء باخوان الصفاء ، وذلك أن رجلا من المترفين المنعمين أصحاب القصور والحور والولدان والثياب الفاخرة والمجالس والشراب عن يقلدهم المترفون ويتزيا بزيهم الغافلون رأى رؤيا أفزعته وتكررت هذه الرؤيا ، إذ رأى انه فى أرض مقفرة وهومشوه الوجه عار كئيب جائع شعره طويل وجسده ملوث بالقاذورات ، ووراءه أسودان منكران يخرج الدخان من شدقيهما وبأيديهما حراب وهما يطاردانه فهرب منهما ، فعارضه فى طريقه جبل شاهق ، فطلع عليه ، وسلكه بمشقة ، ثم هوى منكسا فى حفرة عميقة فيها دخان منكر ولهب يشوى الوجوه ، فصرخ صرخة أفزعت أهل القصر ، فحضر العلماء والمنجمون والأطباء ، وكل قال ماخطر له ، فلم تنجع العزائم ولا البخور ولا الأشربة ولا الأدوية ، فان الرؤيا رجعت بعينها كرة أخرى بأشد من الأولى وهكذا مرة بعد مرة ثم انه أخيرا عبرها له عالم فقال : ان ذلك كله انما هو اشارة الى سوء أعماله وسلوكه وحرصه على الدنيا وزهده فى الآخرة ، وأن كل وصف من أوصاف المنام راجع الى وصف من أوصاف حاله يوم القيامة وبعد الموت من الهوان والعقاب والحساب والعرض والذل والهوان . ثم وصف له الدواء وهو التصدق بفضول ماله والصوم نهارا والصلاة والتهجد ليلا ، ففعل ذلك وصار قدوة فى الدين بعدما كان قدوة فى الشهوات ، وصارت الحكم تلقى على لسانه من غير تكلف وهناك ملك موكل به يلهمه هذه الحكم حتى ان ذلك العالم الذى وصف له ذلك صار يتلقى العلم عنه ، وهذا هومعنى قوله تعالى — تتنزل عليهم الملائكة — الخ

٢١٠ وههنا ست حكم عالية فى الموازنة بين الأم مع ولدها والحكيم مع أمته والأمم كلها . وبيان أن سعادة

الحكماء

صحيفة

الحكماء حقة وهناك سعادة مزيفة للأمراء والملوك الذين لم ترتق عقولهم فإن الحكمة الإلهية عاملتهم معاملة الطفل مع أبيه ، فإنه يضحك عليه بالصور الملونة التي لاقيمة لها ، هكذا الله يفعل ذلك مع صغار العقول من بني آدم في الأمم الجاهلة ، فيعطي هذا الأمير مالا كثيرا ، وقصورا ونساء ، ويفتح له باب الشهوات ، ويجعل هذا مغريا له على أن يحفظ البلاد ، ظانا المسكين أن ذلك هو المكافأة ، ومادرى أنه هو نفسه تضعف قواه الصحية والتناسلية بكثرة مزاولتها ، وبعد ذلك يرى نفسه خاليا من تلك العظمة الفخفة ومن تلك اللذة الجسمية

٢١٢ ﴿ اللطيفة الخامسة ﴾ في آية — ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة — الخ وفيها بيان الكلام على وحدة الحيوانات والنباتات ، وأن الفصل بين هذين الجنسين عسر فالحركة والتغذية والتناسل والنمو وغيرها مشتركة ، فأين الفاصل إذن بينهما ؟ ففي النبات نبات مفترس ، والافتراس معه حركة ، والنباتات المستحية تتحرك ، وبذرة بعض النباتات الطحلبية ، وبذرة صف الموس لها شعرة تتحرك بها ، وهكذا بعض النباتات ذات الخلية الواحدة تعوم بشعر كثير أو بشعرة واحدة ، بل الأمر فوق ذلك كله

٢١٤ إن الحركة لازمة للمادة الحية على الاطلاق ، إن خلية النبات ، وخلية الحيوانات مركبتان من موادّ مختلفة ، ولكل خلية نواة ، وللخلية غلاف خارجي زلالي في الحيوان جامد في النبات من المادة التي يكون منها القطن وورق الكتابة . والفرق بين خلايا الحيوان وخلايا النبات أن الأولى غلافها مرن لحركتها الدائمة فيها تنتقل الى جاراتها فيتحرك الحيوان ، وغلاف الثانية جامد فلا تنتقل الحركة من الخلية الى جارتها ، إذن الحركة دائمة عامة ، والفرق انما هو الانتقال وعدمه فيهما ، على أن هذا الفارق بين النبات والحيوان ليس عاما ، فمن الحيوان مايترك الحركة ، ومن النبات مايتحرك كما تقدم . فإن بعض النباتات الفطرية تكون خلاياها شائعة بلا فاصل بينها كخلايا الحيوان . ثم ان التغذي في الحيوان معلوم . ويستعين النبات بالمادة الخضراء (الكلوروفيل) على التغذية إذ يتحد بضوء الشمس لاستخلاص الكربون من الجوّ فيمزجه بالماء فيكون السكر والنشاء والسيلولوز ومادة الخشب ثم يكون أحماضا عضوية تكون منها المواد الدهنية . ثم النبات يأخذ الماء من الأرض وكذا المعادن التي فيها أوزوت ويمزج كلها بالمواد السكرية والنشوية والأحماض العضوية فتكون الموادّ الزلالية التي هي أهمّ غذاء للحيوان . ثم إن التغذي ليس قصرا على مملكتي النبات والحيوان فبقعة الصدأ على سطح المعدن تتغذى من بخار الماء ومن المعدن وغيرهما . والبلورات المغموسة في ماء مشبع من محلول موادّها تتغذى من المادة الذائبة في الماء فتكبر . والآلات الميكانيكية المتحركة تتغذى بالفحم ونحوه وهكذا الحركة لاتختص بهاتين المملكتين فإن الكواكب والزوابع والأمواج وجميع الجزئيات والجوهر الفرد كلهنّ متحركات . وهكذا التأثر فاذا تأثر النبات والحيوان فإن المواد المفرقعة والكيمائية غير الثابتة تتأثر بالنور كمواد التصوير الشمسي وبالحرارة وبالرطوبة . واذا دقّ على وتر آلة موسيقية وفي الغرفة نظيرها تحرك الوتر المماثل لذلك الوتر

٢١٦ ههنا موضوع في علاج الأزمة المالية في مصر . ولكن المقصود منه مافيه من عجائب النبات مثل : شجرة البقرة ذات الثمرة الخضراء كالبندقة ولبنها يحاكي لبن البقرة وأهل كراكاس يتغذون منه وله عصير سكري . ومثل : شجرة ذات اليد . وشجرة الطرطو . وشجرة الصحن . وشجرة البهار . وشجرة الثعابين . وشجرة الأراروت . وشجرة الكمثرى الأمريكاني . فهذه الشجرات من أولاها يصنع الورق الناعم في الصين . ومن ثانيتها يخرج وبر حريري قطني ينزل على الأرض كاللؤلؤ والثلج ويغزل

صحيفة

٢١٨ ويدخل فى صناعات مختلفات . ويبلغ طول الشجرة (١٥) مترا فأكثر وعرضها على الأقل متران ونصف متر تستعمل مسكنا وهى لاتزال مزروعة ، ومن الثالثة تستخرج حبات لها دهن يساعد فى صنع الشمع الأبيض الذى يضىء مدة طويلة . وفى استخراج زيت صالح الوقود ، ومن أوراق الرابعة وجلدها بهار ودواء ، ومن جذور الخامسة دواء للشفاء من لسعات الثعابين ، ومن جذوع السادسة غذاء قوىّ للأطفال ، ومن السابعة يدرّ لبن يتجمد فى صلابة القشدة

٢١٩ بهجة العلم فى قوله تعالى — ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة — الخ وفيها عجيبتان : العجيبة الأولى من علم الحيوان ، آلاف مؤلفة من حيوانات صغيرة تعيش فى قطرة ماء ، وهى تخلق على الورق الجاف والتبن والتريس وهى بهيئة طحلب فوق سقوف المنازل وهى تجفّ أثناء الصيف وتظهر بالآلة المكبرة بهيئة حبوب رمل أخضر ، ومتى نزل عليها الماء تحوّلت حيوانا حالا ، فاذا غاض الماء أو صار بخارا رجعت ميتة لاحراك لها ، فاذا نزل عليها الماء تحركت حالا (انظر شكل ٤٣ و ٤٤)

٢٢٠ العجيبة الثانية : زيارة توفيق دوس باشا لكلية علم الأرواح ، وانه كلم روح والده وعرفه بعلامات ، وذكر له أحوالا يعرفها ، وطلب أن يأخذ صورته فأجيب الى ذلك ، ولكن لما صوّره وجد صورة أخرى فى الرسم ، فسأل بنت الاستاذ (ستيد) عالم الأرواح المشهور فأجابته أن روحا أخرى أقوى من روح والدك تقدّمت للصورة ، فطلب تصوير روح والدها واحترز كل الاحتراس فأجيب لذلك وظهرت صورة والدها ، فعجب لذلك ! وسأل : كيف أمكن تصويرها وهى لاترى؟! فقيل له ان عدسة الآلة المصوّرة تصل الى مالاتصل اليه عدسة عيوننا . وههنا شكل ٤٥ و ٤٦ يبينان الصورة التى جاءت هنا من عالم الأرواح وصورة (ستيد) فى صحيفة ٢٢١

٢٢٢ وههنا ذكر المؤلف أن مسألة العجيبة الأولى تذكرنا بنوم النحل والزنابير مدة الشتاء واستيقاظها أيام الربيع ، وكذلك الحيات والثعابين ، وبعض السمك الذى يكون فى الطين اذا جفّ ، وفى الثلج المتراكم ، وهذه كلها تقوم اذا زال المانع . اذا عرفنا ذلك فهمنا أن الموت والحياة فى هذه الحيوانات الحقيرة أشبه بالنوم واليقظة فى الحيوانات الكبيرة . إذن الموت أمر معهود لا أهمية له ، فكيف أعظم أمره هذا الانسان ! إن العجيبة الأولى فى الحيوان والعجيبة الثانية فى الأرواح من واد واحد كلاهما أظهر أن الموت ليس أمرا عظيما ، فاذا كانت الحيوانات الدقيقة تموت وتحيا بكل سهولة ، والأرواح ظهر أن لها وجودا بعد الموت . إذن الأمر سهل .

٢٢٣ إيضاح لما تقدم . إن أكثر النبات هو مالايرى (أنظر شكل ٤٧ و ٤٨) مثل بكتريا حلزونية وبكتريا عصوية وبكتريا كروية . فهذه أصغر النباتات مركبة من خلية واحدة . فهى كيفية لها غشاء ومادة داخلة فيها . وهذه الثانية لها نواة هى أصل الحياة . وهناك ماهو أصغر منها ولكن لايرى . وأحدها يكون واحدا من الألف من المليمتر ، وهذه تتغذى وتتنفس وتنمو وتلد وتموت

٢٢٤ الكلام على ماتعيش على مادة غير عضوية . والبيضة الواحدة اذا وجدت مكانا صالحا تنمو وتصير فى ٢٤ ساعة نصف مليون رطل وهى تعيش على درجة ١٩٠ تحت الصفر وهى الدرجة التى يصير فيها الهواء سائلا كالماء . ولكنها لاتتحمل الحرارة أكثر من ٥٥ درجة فوق الصفر . إذن هذه نباتات أقوى على التحمل من كل نبات نعرفه . ومتى جفت يصير لها غلاف سميك يحفظها وتبقى سنين حتى اذا صادفها وسط مناسب رجعت لها الحياة كرة أخرى (شكل ٤٩) رسم تكوين الجراثيم فى البكتريا

ان

صحيفة

إن البكتريا تعين على نمو النبات . فهي كالطحانين والعجانين والخبازين . إن القمح والقطن وكل نبات كبير لاقدرة له على امتصاص عنصر الآزوت من الأرض إلا بحال خاصة ، وهذه الحال الخاصة لاتتم إلا بتحليل البكتريا الصغيرة له فيسهل على النبات الكبير تناوله . والبكتريا أيضا تكون سببا فى الخل ودبغ الجلد وقبول طعم الزبدة ورائحتها واللبن الزبادى فهذه من منافعها ، ومن مضار البكتريا مرض التسمم والطاعون والتيفود والتيفوس والالتهاب الرئوى والسل

٢٢٥ والوقاية من الأمراض المتقدمة بالنظافة واستعمال المطهرات الخ وبيان أن هذه المخلوقات (البكتريا) من حيث ضررها ونفعها أشبه بالنحل ودودة الحرير والحيات والعقارب ، فمنها يكون العسل والملابس ومنها يكون الضرر . والجراثيم النباتية ثلاثة أقسام : قسمان منها لالون لهما . والقسم الثالث له لون وهى الطحالب . ثم ان اللذين لا لون لهما أحدهما يسمى الفطر (بضم الفاء والطاء) والثانى يسمى البكتريا (انظرشكل ٥٠) فهذه البكتريا تتغذى بالكربون الذى فى الشجرة وبالاوزوت الذى هو جزء من الهواء ، ولاتزال هذه تتكاثر على جذور النباتات البقلية حتى تموت بانتهاء آجالها فيرث النبات هذه البكتريا وينتفع بالميراث ، فقد كسب منه أمرا فوق الكربون الذى أخذه منه وهو الازوت الذى أخذه من الهواء ، فهذه البكتريا أعطت للأرض أمرا جديدا هوالاوزوت الذى حوّلته من الهواء الى الأرض

٢٢٦ (الطحالب) من شكل ٥١ الى ٥٤ وهى أشكال جميلة بهجة تبين الطحالب الخضراء والزرقاء المخضرة ، والتى أعضاؤها تشبه أعضاء النباتات الراقية ، ومنها ماهومستعمرة من الطحالب

٢٢٧ (شكل ٥٥) طحالب بنية وحيدة الخلية ، (وشكل ٥٦) أحد الطحالب البنية الكبيرة الحجم ومن الطحالب ماهى حمراء تعيش على أعماق كبيرة من سطح البحر

٢٢٨ (تركيب الفطر) (شكل ٥٧ و٥٨ و٥٩) ههنا تتكاثف بعض الفطر فتتكون كتلة تشبه أنسجة النباتات الراقية كما فى عيش الغراب

٢٢٩ جمال العلم فى آية — ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة — مع قوله تعالى — وقدر فيها أقواتها — الخ مخاطبة المؤلف ربه ، يقول له : « يا ربنا أخذنا نستقرئ هذه الأقوات التى قدرتها فعجبنا من أن المشرقات تجرى بحساب ، ووجدنا نفس النبات الذى ظهر بسبب أنوار المشرقات أيضا بحساب ، ورأينا اننا نحتاج فى طعامنا الى مواد دهنية وآزوتية ونشوية ؛ وهذه الثلاثة وجدناها فى النباتات بنسب مختلفة ، فمنها مازاد فيها الدهن ، ومنها مازاد فيه المادة النشوية وهكذا ، إذن أنت كما حسبت شمسك وكواكبك حسبت قيمة الغذاء الداخلة فى كل نبات من دهن ونشاء وآزوت »

٢٣٠ خطاب المؤلف لربه أيضا ، يقول له : « يارب فى القلوب حبك ، تحبك الدواب لعلفها ، والعامة لطعامها أولأمرائهم ، وهؤلاء عبيد العصا . والأطباء لاطلاعهم على أسرار الغذاء . والحكماء حبهم أعلى من السابقين . انهم يحبونك لعلمك الذى ظهرت آثاره فى تقدير الأقوات ولرحمتك ولجمالك »

٢٣١ نور على نور . وذكر بعض أنواع النبات كالقمح والذرة والصنوبر والفول السودانى . وأن منها ما مادته الآزوتية كثيرة أوالدهنية أوالنشوية . وهذا الاختلاف تابع لاختلاف الفتحات الشعرية فى الجذور عند امتصاص الغذاء ولاختلاف الأوراق أثناء امتصاص الكربون من الهواء عند مقابلة نور الشمس وتعاونهما على ذلك الامتصاص . وهكذا هيئة الجهاز الهضمى المرسوم فى صحيفة ٢٣٢ (شكل ٦٠) ففيه آلات وأدوات لهضم المواد النشوية ، وأخرى لهضم المواد الدهنية ، وأخرى لهضم الآزوتية .

صحيفة

إذن يلزبنا ههنا عجب ! شمس تضيء وتساعد الورق بفتحات تختلف باختلاف الأشجار ، وهناك يمتص من الهواء كربونا وتمتص جذور الأشجار بفتحات أخرى أغذية من الأرض فيكون حب على مقتضى هذه المقدمات له تركيب خاص من أنواع الأغذية فيحصده الانسان فيأكله فيتلقاه الجهاز الهضمي فتكون الأغذية موزعة على الآلات الهاضمات فى الجهاز الهضمي ، إذن يلزبنا هناك مناسبات تامات بين الضوء والنبات وفتحات أوراقه وجذوره ثم حبوبه والآلات الهاضمات فى الحيوان ، إذن أكثر النوع الانسانى فى جهل عميق

٢٣٣ تعجب لهذا الجهاز الهضمي الذى حوى مايهضم المواد الثلاث التى فى النبات بحيث كانت فيه مصانع للنشاء وللآزوت وللمواد الدهنية ، ولكل واحد من هذه الثلاث نوعان من المصانع ماعدا النشاء فله ثلاث مصانع فى نفس الجهاز الهضمي ، فاذا جاوزنا هذا الجهاز الى ضوء الشمس وفتحات الأوراق والجذر التى فيها والى فتحات الأنابيب الشعرية فى الجذور ألفينا الحساب هناك متقنا اتقانا بديعا بحيث ترى الأنابيب الشعرية والفتحات كلها لاتدخل فى النبات غير المواد المخصصة له

٢٣٤ نظام الأمم الأرضية والشوق الى مبدع العالم ، وبيان أن بنى آدم غافلون عن هذا النظام ، والا فأى يقين لهم بعد هذا التفصيل ، إن المجموع الانسانى أشبه بالأجهزة الهضمية ، والأرض وما عليها أشبه بالحب والنبات ومافيهما من المواد الثلاثة المختلفة ، فاذا لم تسلط مجموع العقول على جميع المنافع فى الأرض أصبحت بعض المنافع عاطلة لم تجد من يستخرجها وهذا نقص للجميع وهذا هو قوله تعالى — من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا — الآية

﴿عروج النفس الى العالم الأعلى﴾ وبيان أن فى تفسير قوله تعالى — إن الذين قالوا ربنا الله — إيضاح أن المادة لعجزها عن إحداث ضوء وحرارة لما عليها برهنت على أنها عن إحداث عقول وعواطف وغرائز أشد عجزا ، وزد على هذا أن المادة اليوم ثبت عدم وجودها ، إن هى إلا حركات فى الأثير إذن الفلاسفة الماديون سقطوا من قوائم الفلاسفة ، إذن هناك علم ورحمة وجمال وحب منها استمد الحيوان والانسان مالديهم من ذلك العالم القدسى ، والانسان متى أحس أن علمه ورحمته مستمدة من هناك أحس بالسعادة فى هذه الحياة ولايحزنه الفزع الأكبر ، والانسان اذا وصل الى ذلك المقام نظر الى أعلى والى أسفل فاستمد وأمد

٢٣٥ بهجة الحكمة وجمال العلم فى آية — ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة — الخ . يقول المؤلف انه نجح فى أن القارئ شاركه فى فهم مقادير النبات وفى نسبتها الى الجهاز الهضمي ، فههنا يبين أن المواد غير عضوية كالأملاح وعضوية وهى النشوية وأخواتها ، فههنا ذكر الجدول ليبين أكثر النبات : قمح أرز ، ذرة ، بطاطس ، بطاطه ، لوبية الخ . وبالجملة ففى هذا الجدول (٥١) أكثرها نبات وبعضها حيوان ، وهذه المواد هى التى يتعاطاها الناس غالبا ، وقد ظهر لكل مادة قيمتها الغذائية فى الرطل المصرى الواحد

٢٣٧ قسمة علم النبات بيننا وبين الأطباء ، الطبيب يفرح بهذه المقادير ليحافظ على الأصحاء ويشفى المرضى ، ولكن الحكيم يرتقى فوق ذلك فيقول : « أيها الأطباء ، لتفرحوا بشفاء مرضاكم وبقاء صحة أصحاء الناس ، ولكن نحن ننظر فى توزيع العلوم على مناطق الدماغ كما وزعت آلات الهضم على مختلف النبات ، واذا كانت الأغذية لها مبدأ وهى الشمس ، فهكذا للادراكات مبدأ وهى الذات الغائبة عنا القدسية ومنها انبعث العلم فى نفوس هى واسطة بيننا وبينها كما كان النبات واسطة بين ضوء الشمس

وبين

صحيفة

و بين أجسامنا

٢٣٨ وههنا أبان المؤلف انه أوضح آراء الأمم من أيام سقراط الى الآن ، وقد عاملها الله كلها فى (٢٥٠٠) سنة معاملة نفس واحدة ، وأنزل العلم قليلا قليلا ، وفى هذا التفسير صار أقرب الى عقول الأمم الحاضرة ، والاستئناس على ذلك بما تقوله الأرواح ، وهو أن العلم لايلقى الى الناس إلا اذا استعدّوا له ، و بيان أن هذا التفسير جاء فى زمان استعدّت له الأذهان فيها . فاذا قلنا ان المادة التى ثبت أنها لاوجود لها بسقوطها سقط المادّيون . فقد بنينا كلامنا على إجماع علماء العصر الحاضر . فأما هؤلاء المدرّسون فى مصر وسوريا والعراق ونحوهم فانما يكرّرون على مسامع تلاميذهم صدى صوت العصور القائتة فى القرن الثامن عشر . وههنا خاطب المؤلف ربه . انه يحسّ فى نفسه بانشراح وسرور عظيمين . وانه موقن أن المسلمين سيكونون خير أمة أخرجت للناس بعد ظهور هذا التفسير . وههنا أردف هذا القول بشرح قول الشيخ الدباغ . وهى ان الاحساس بالشىء غير الابتهاج به . فكم من جميل نراه ولايتأثر بجماله إلا قليل وهذا سار فى جميع الحواس . والمؤلف يقول : إن جميع المعلومات والمحسوسات يشترك كثير من الناس فيها ولكن ادراك الجمال قليل . وأكثر الناس إذا عجزوا عن ادراك الجميل اهتموا بشهواتهم التى كأنها ظل من يحموم لابارد ولا كريم لأنهم مترفون . إذن الانسان مغرم بما أحبه . فان أحبّ الجمال العلمى فهو منهمك فيه . وان أحب الشهوة فهو منهمك فيها . ولما كانت الشهوات مسلطة مع الكسل على كثير من المسلمين ككثير من أهل مصر كان القطن الذى نزرعه سببا فى إذلالنا إذ نبيعه بثمن بخس ونشترى منسوجه بأغلى الأثمان . هذه أغلال فى أعناقنا . بل هذه هى السرابيل التى من قطران المشبهات ما فى الآية — سرابيلهم من قطران — لأنها مصنوعة بقطران الفحم كما هو معلوم . وذلك خطر للمؤلف وهو يتلو الآية فى صلاة الصبح

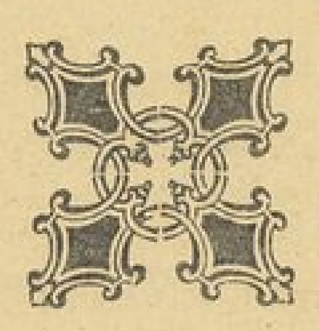
٢٤١ ﴿ الفصل الثانى ﴾ من اللطيفة الخامسة فى آية — سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم — الخ و بيان أن الأميرال (برد الأمريكى) الذى زار المناطق الجنوبية الجامدة . ووصل الى القطب بالطيارة . وصلت الرسائل منه بالتلغراف الذى لاسلك له الى نيويورك . والمسافة عشرة آلاف ميل . وكأنه يخاطب عامل التلغراف على بعد أقدام فقط ﴿ المبحث الثانى ﴾ ان الانجليز قابلوا تاغور الهندى بالاكرام مع ان الأمتين بينهما عداوة واضطراب شديد . فهذا يدل على أن نوع الانسان قابل للسلم ﴿ المبحث الثالث ﴾ فيما شاهده المؤلف فى صحة جسمه . كانت فى جسمه بقع ملوّنة تظهر وتختفى وقال له الأطباء انها ليست معدية . ولكن لايعرفون دواءها . و أخيرا قالوا سببها نقص فى التغذية . ولما أكل الفواكه والحبوب وزيت الزيتون والخبز الذى لاينخل والبرتقال ونحوه ذهبت تلك البقع . وهنا يقول المؤلف : « إن نقص السعادة الانسانية لنقص العلم بطرقها قياسا على صحة جسم المؤلف بالعلم ومرضه بسبب الجهل . فعلى الأمم الاسلامية أن تتضافر وتتعاون فى البحث عن طرق سعادة هذا الانسان

٢٤٥ ﴿ اللطيفة السابعة ﴾ فى آية — سنريهم آياتنا — الخ وفيها تبيان معنى كلام الشيخ الدباغ : « إن فى الأرض عجائب تعرّف الوحدانية بلا دليل . وتعرّف وجود الجنة كذلك والنار » و يفسر المؤلف ذلك بأن التوحيد يعرف بالعجائب المذكورة فى هذا التفسير بلاحاجة الى براهين علم التوحيد كعيون النمل والذباب والنحل وتعداده بالمئات . فان هذه العجائب لما ظهرت فى حشرات منبوذات فيما تعافه النفس كانت عجبا ! أشبه بكنز ظهر فجأة

صحيفة

٢٤٦ هذا ولما كانت النفوس الانسانية إما مغرمة بالحكمة . واما مغرمة بالقهر والغلبة والنزاع . واما مغرمة بالشهوات . والأولى أشبه بمن يأكل الفواكه من الانسان . والثانية أشبه بكل حيوان يأكل الرم والثالثة أشبه بالذباب آكل العفونات . كانت جهنم تؤخذ اعتبارا من القسمين الأخيرين . والجنة تؤخذ من القسم الأوّل . فاذا تفاوتت الأغذية بتفاوت الحيوان . هكذا تتفاوت أغـذية العقول على مقتضى درجاتها . وبالجملة أحوال الآخرة لها نظير فى العالم المشاهد

(تمت)



« التقاريظ »

لما كان هذا التفسير قد قرظه كثير من علماء الشرق والغرب وأطنبوا فى مدحه رأينا أن ننشرها تباعا تتميما للفائدة

التقريظ الأول

جاء فى جريدة المقطم يوم ٢٨ ذى القعدة سنة ١٣٤٥ هجريه تحت العنوان التالى مانصه :

كتاب (الجواهر)

فى تفسير القرآن الكريم

تأليف الأستاذ الفيلسوف حكيم الاسلام الشيخ طنطاوى جوهرى

المدرس سابقا بدار العلوم والجامعة المصرية

اذا كنا بحاجة الى كتب مفيدة نافعة تناسب حالات العصر وتتسق وما نحن عليه من اختراعات واستكشافات وظهور مافى الطبيعة من مكنونات . فان حاجتنا أعظم الى تفسير كتب الله المنزلة على أنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام لما فى ذلك من تثقيف العقول وتفجير ينابيع الرحمة فى قلوب الخلق . ولقد طالعنا كتب التفسير فلم نوفق الى تفسير يشفى الغلة وينقع الغلة حتى صادفنا «الجواهر» وهو تفسير للقرآن الكريم وضعه الأستاذ الجوهرى فاذا به يمتاز على غيره من التفاسير بكثير من المزايا . منها ان عبارته سهلة مشوقة لايملها المطالع . وانه جمع فأوعى فكأنه دائرة معارف جامعة . وفيه أكثر من مائة مسألة من مسائل العلم الحديث تضمنها القرآن وسبق اليها وهى معجزة النبوّة . وانه ألمّ بقصص الأنبياء فأظهر أن المقصود منها نتائجها والاتعاظ بها . وأنه نظر الى المسلمين نظرة حكيم وحضهم على الاكباب على العلوم العصرية والأخذ منها بقسط وفير . وانه لم ينسج على منوال أولئك الذين يبذلون جهدهم فى الجدل اللفظى وشرح الكلمات شرحا مملا . وانه راعى تطبيق الآيات على خلاصة الفلسفة العصرية والعلوم الحديثة وماتضمنت من الرياضيات والفلكيات والمعدنيات والنباتات والحيوانيات . وانما سبيله فى التفسير أن يبدأ السورة بحصر مقاصدها ثم بيانها اجمالا ثم يأخذ فى تلخيص تلك المقاصد اجمالا حتى ان المطلع بهذا يدرك ملخص السورة . ثم هو من بعد ذلك يشرع فى تفسير تلك المقاصد مبتدئا بكتابة المقصد من القرآن بخط مشكل ليقرأها المطلع قبل تفسيرها ثم يفسر مافى المقصد من ألفاظ ثم يعقب على ذلك بمعانى الآيات من أحكام شرعية تامة وماتضمنت من العلوم جميعها فنعم العمل وحبذا الهمم

التقريظ الثانى

جاء فى مجلة (المرشد) وهى مجلة علمية أدبية دينية تصدر بمدينة بغداد بتاريخ (١) محرم سنة ١٣٤٦ هجريه تحت العنوان التالى مانصه :

تفسير الجواهر

لاينكر ماللعلماء المسلمين اليوم من النزعة الى تفسير القرآن واظهاره بشكل يلائم روح العصر الحاضر ،

وما الهم من الرغبة فى استكشاف ما أقره العلم ووصل اليه من آى القرآن المجيد كالاتنكر حاجة المسلمين الشديدة الى ذلك . ولقد سبق للأستاذ الشيخ محمد عبده أن فسر القرآن تفسيرا كان فى بابه فاتحة دور جديد فى التفسير ولما لم يكن وافيا بالمقصد تماما ولم يستوف الأجزاء والسور القرآنية مقتصرا فى أكثر ابحاثه على السياسة ومعارضة الوثنيات المتغلغلة فى طوائف المسلمين بحسب ما اعتقد مما جعل النفوس تشرئب الى وجود كتب تفاسير أخرى تلائم العصر الجديد وعلومه بصورة أوسع

ولقد قام العلامة الحكيم الشيخ طنطاوى جوهرى الأستاذ بالجامعة المصرية بمهمة تفسير القرآن فجاء بتفسيره المسمى (بالجواهر) فكان آية من آيات العصر لأنه أفاض فى ذكر المخترعات والمكتشفات الحديثة واجتهد فى ذكر الأحاديث الناطقة بها والآيات الدالة عليها سواء فى مباحث السياسة والعمران أو فى مباحث العلم والفن . وقد امتاز مع ذلك كله بأسلوب أخلاق أدبى نفيس ينفع جداوعاظ المسلمين وخطباءهم . وقد أثبت هذا التفسير ما قاله سماحة العلامة الأستاذ السيد هبة الدين الشهرستانى الأعظم فى مؤلفه الأستاذ الجوهرى (انه رازى عصره ، وغزالى مصره) . وقال أيضا : «وهذا التفسير على ماهو عليه من الامتياز قد جاء بطبع متقن وعلى ورق صقيل . حرىّ بأن لاتخلو منه مكتبات رجال العلم والفضل فانه كاف عن اقتناء مئات من الكتب الممتازة»

التقريظ الثالث

جاء فى مجلة (المرشد) أيضا فى غرة شهر رمضان سنة ١٣٤٦ هجريه تحت العنوان التالى ما نصه :

كتاب تفسير الجواهر

الجزء ١ – ٥

ان للأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوى جوهرى أيادى بيضاء على الأمة الاسلامية بما قام به نحوها من الخدمات العظيمة التى لم يحرز قصب السبق فى مضمارها سواه فهذه تآليفه الكثيرة فى شتى العلوم والفنون وكلها شاهدة على فضله وجلال قدره وطول باعه ، وهى انما تخدم الأمة الاسلامية مباشرة أو بواسطة . وان النزعة التى كانت تخالج ضمائر علماء المسلمين وتغلغلت فيها هى تفسير القرآن الحكيم على نمط يلائم روح العصر الحاضرة و يخلو من شوائب الدس والخرافات التى ليست من الدين الاسلامى فى شىء . وقد وفق اليها العلامة «طنطاوى» فتفسيره هو التفسير الوحيد الذى جاء على هذا النمط وهو الذى يطلعنا على أسرار الشريعة الاسلامية وحقائقها الناصعة وما خفى قبلا على المفسرين

التقريظ الرابع

جاء من صاحب الفضيلة مفتى إيران فى ٨ ربيع الثانى سنة ١٣٤٨ هجريه ما يأتى

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه السالكين على منواله وسلم

انه من عبد الله مفتى الديار الايرانية السيد أبى القاسم الكاشانى عفا الله عنه

الى روضة العلم التى أربعت أزهارها ، وشجرة الفضل التى أينعت أثمارها ، الفاضل النحرير ، والكامل العديم النظير ، من اذا قيس عليه قس لفصاحته كان ازدراء به ، وان شبه بأدبه أدب سحبان كان تنقيصا فى أدبه الامام الأعظم ، والهمام الأقوم ، حضرة الأستاذ الحاوى ، أعزّ المفاخر الشيخ الجوهرى الطنطاوى ، لازال كوكب فضله مشرقا وشجر نبله مورقا .

و بعد

وبعد فمن فضل الله علينا ، وإحسانه الأسنى الينا ، ان سرّح أنظارنا فى تصنيفاتكم الشريفة . وقرر أبصارنا بتأليفاتكم المنيفة ، التى هى للعيون جلاءونور ، وللقلوب بهجة وسرور ، فوجدتها بعدما انتقدتها ، والحق يقال عديمة المثال ولاسيما التفسير الذى هو فقيد النظير فكم بدت به نجوم بمجتلى زهرها ، وزهت فيه نجوم بمجتنى زهرها ، يقتبس منها مايرام من الأنوار ، ويقتطفمنها مايشاء من الأنوار ، كأنه مسك به الارباء تمسكت وروح به الأرواح تمسكت ، يلوح منه شعاع يجمع كل شعاع دائم ، لك فضل استباق الغاية فى تصنيفك البديع الجليل الغاية .

فسرت وحى الله فى حسن النسق * فراق لفظه ومعناه ورق
أطربت فى تفسيرك المثانى * من لم يكن يطرب بالمثانى
راق بيانه وما أرقه * اذ احتوى من البيان حقه
سحر حلال حلّ فى البيان * فأبهرت آيانه يبانى
فما فؤاد واع إلا اعتلقا * بها اذ الناطق فيها نطقا
يتلو لها القرّاء سورة الفلق * حفظا لما حاز تمن حسن النسق
بديع تفسير به المعانى * رائقة فائقة البيان
لابدع فى مبدعه ولا عجب * فانه رب الكمال والأدب
سما المعارف العليم الحاوى * محلى جوهر الهدى الطنطاوى
شمس سماء الفضل والفقاهه * وبدر أفق النبل والنباهة
العلم الفرد الذى به اجتمع * شمل العلوم وسناؤها اتسع
منار مجتلى الرشاد والعلم * ومفرد الفضائل الفر العلم
علت مزاياه النجوم عددا * وانها هيهات أن تحددا
فى وصفها الرائق ما أقول * بجمل الوصف له فضول
أقصرت عنه التصور فى القلم * عن وصف تفسير حوى جم الحكم
فالمدح كل المدح إبدا العجز * عن أن ينال بالأقل المجزى
دمت منارا للورى ومجتلى * نور الهدى لمن سناؤه اجتلى

وفى الختام نهدى جزيل السلام السيد أبى القاسم الكاشانى
خادم الشرع الشريف ومفتى الممالك الايرانية
عفى عنه

(٨) ربيع الآخر سنة ١٣٤٨ هجرية



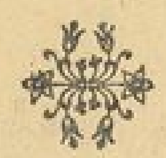
التقريظ الخامس

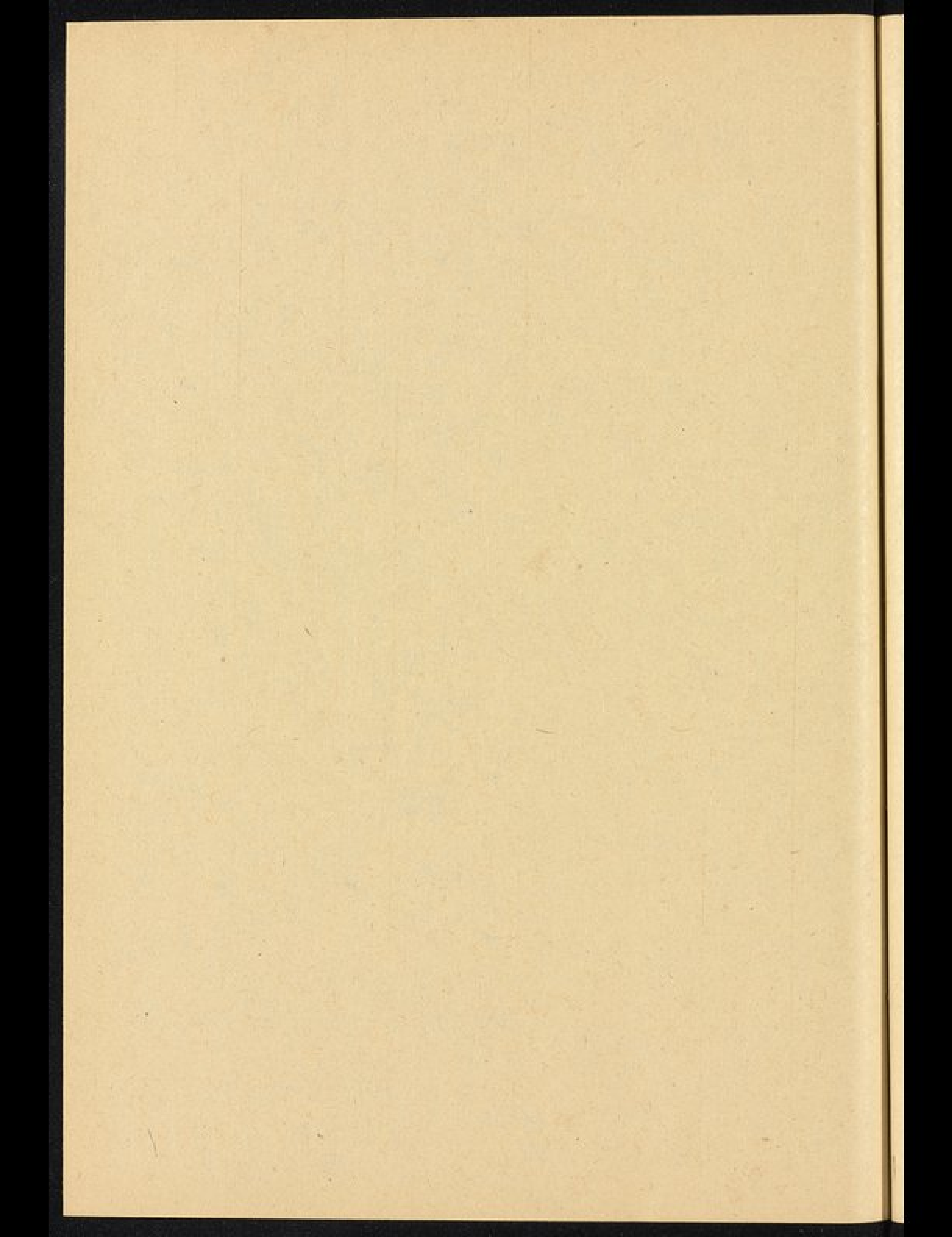
جاء فى مجلة المجمع العلمى العربى الشهرية التى تصدر فى دمشق فى الجزء الخامس والسادس من المجلد العاشر بتاريخ ١ ذى الحجة سنة ١٣٤٨ هجرية ما يأتى

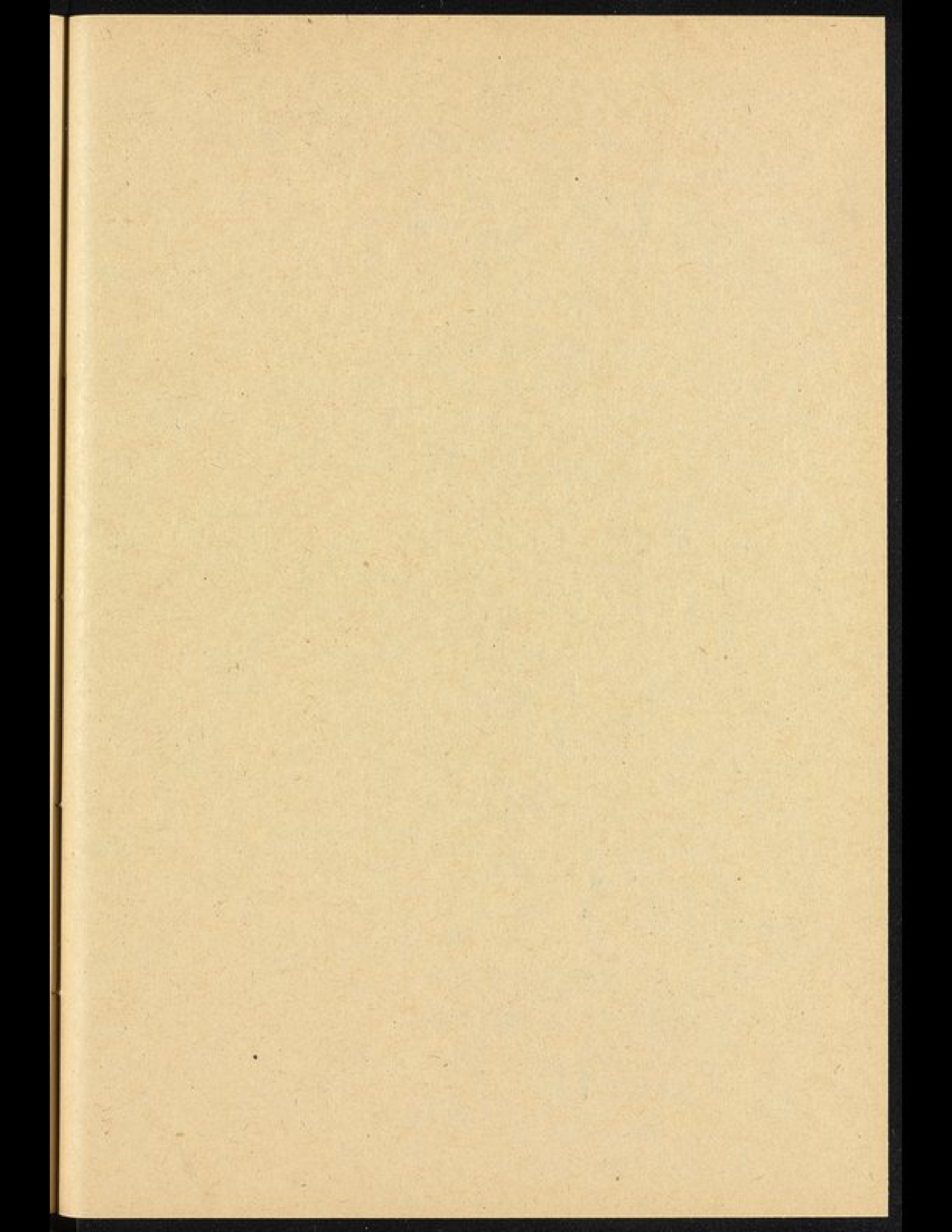
الجواهر فى تفسير القرآن الكريم

أهدانا السيد مصطفى البابى الحلبى صاحب المطبعة المشهورة بمصر الأجزاء التى صدرت الى اليوم من التفسير النفيس المسمى (بالجواهر) وهى ستة عشر جزءا تأليف العلامة الأستاذ «طنطاوى جوهرى» وقد قضى الأستاذ سنين طويلة فى تحبير هذا التفسير ولما يتم . وقد بلغ فيه سورة فاطر . ومن تصفحه أدرك سعة علم الأستاذ كما أدرك مبلغ العناء الذى كابده فى وضع هذا التفسير والعناية التى بذلها فى جمع مواده ، وتنسيق مباحثه . وأول ما يخطر للناظر فيه أنه لا ينظر فى تفسير قرآن وانما هو ينظر فى « دائرة معارف » على القرآن تضمنت شرحا لآياته ثم تاريخا وأدبا وأخبارا وفلسفة وسياسة واجتماعا وزجرا ووعظا وتنبيها وتحذيرا حتى انه لم يخل من ذكر نظرية «اينشتين» والاستشهاد بها على ما هو بصدده من تفسير الوحى الالهى ، وكثيرا ما يقع نظرك على بحث فى ثنايا الكتاب فتعجب لذكر مثله فى تفسير القرآن حتى تراجع صفحات كثيرة سبقت فيتبين لك اذ ذاك وجه المناسبة ولو ضئيلة بين هذا البحث و بين الآية المفسرة . افتح مثلا الجزء العاشر ص ٢٢٩ يقع نظرك على مسائل تحت أرقام متسلسلة ثم تقرأ تحت الرقم الأول ما نصه (الشعوب التى هى جديرة بالاستقلال التام . و يجب أن تتمتع به فى الحال . و بينها الصين ومصر وسورية والعراق) فلا تكاد تصدق أنك تقرأ تفسيرا للقرآن فترجع أدراجك الى ما سبق من المباحث مبحثا مبحثا فتجد نفسك فى تفسير قوله تعالى (والتى أحصنت . . . . وجعلناها وابنها . . . . ان هذه أمتكم . . . . كل الينا راجعون)

فتفسير (الجواهر) لم يؤلف للطالب العجول . ولا للضجر الملول . وانما ألف للرزين الوقور . الجليد الصبور ونرجو أن يكثر أمثال هؤلاء بين أبنائنا . وانا لنشكر للمؤلف الفاضل خدمته كما نشكر للطابع الناشر هديته جزاهما الله عن أمتهما خير الجزاء







الجواهر
في تفسير القرآن الكريم

المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات

تأليف
الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهري
المدرس بالجامعة المصرية ومدرسة دار العلوم سابقا
متع الله المسلمين بحياته آمين

الجزء العشرون

الطبعة الثانية
١٣٥٠ هـ — رقم ١٧١

طبع بمطبعة
مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر
مباشرة محمد أمين عمران

« وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ »

(قرآن كريم)

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة الشورى

هى مكية

إلا أربع آيات من قوله «أم يقولون افترى على الله كذبا فإن يشأ الله يختم على قلبك» إلى قوله « والكافرون لهم عذاب شديد » مع قوله «وهو الذى ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولى الحميد » فمدنية

آياتها ٥٣ – نزلت بعد فصلت

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ • عسٓقٓ • كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ • لَهُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ • تَكَادُ السَّمٰوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ • وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ • وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ • وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ • أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ • وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللهِ ذَٰلِكُمُ اللهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ • فَاطِرُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ

شىء

شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ * لَهُ مَقَالِيدُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ
إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا
وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ
مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ * وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ
مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ
الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ * فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا
أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ
اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا
وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ * وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ
رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ * اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ
وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ * يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ
مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ * اللَّهُ لَطِيفٌ
بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ * مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ
فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ * أَمْ لَهُمْ
شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ
الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ
الْكَبِيرُ * ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ
عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ
شَكُورٌ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ
الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ

عِبَادِهِ وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ • وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ • وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا
فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ • وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ
مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ • وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ • وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا
كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ • وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ
اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ • وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ • إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ
فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ • أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا
كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ • وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ • فَمَا أُوتِيتُمْ
مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ •
وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ • وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا
لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ • وَالَّذِينَ إِذَا
أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ • وَجَزَاؤُا سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى
اللهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ • وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ • إِنَّمَا
السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ •
وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ • وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ
وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ • وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا
خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا
أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ • وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ
يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ • اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ

يأتى يوم لا مرد له من الله مالكم من ملجإ يومئذ وما لكم من نكير * فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا إن عليك إلا البلاغ وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور * لله ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور * أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ويجعل من يشاء عقيما إنه عليم قدير * وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء إنه على حكيم * وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم * صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور .

اعلم أيها الذكى أن هذه السورة تشتمل على قسمين : القسم الأول من أول السورة إلى قوله « لهم عذاب شديد» وفى هذا القسم :

(١) أن لله ملائكة يقومون بتدبير شئون العالم المادى من جماد وحيوان وإنسان . وأيضا يقومون بإلهام الناس ماينفعهم فى أمورهم الدينية والدنيوية تبعا لقوله « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم » فان مايعرفه البشر من العلوم والمعارف يكون بإلهام، فإذا استعد الإنسان لعمل نافع دنيوى أو أخروى أحس فى قلبه بفكرة ، ثم هو نفسه بعد ذلك يتصرف فيها بعقله ، لأنهم لايلهمون إلا من وجدوا عنده استعدادا للإلهام .

(٢) وأنه صلى الله عليه وسلم أنزل عليه قرآن عربى لينذر أهل مكة ومن حولها . وذلك بالوحى الذى أنزله الله عليه بواسطة الملائكة المذكورين كجبريل . وليس الوحى لقوم والإيمان والكفر لآخرين إلا على مقتضى الاستعداد . وهذا العالم لايمكن أن يكون جميع أفراده على حال واحدة . فهم مختلفون فى جميع الأحوال وهذا الاختلاف نجم منه الاستعداد للإيمان والاستعداد للكفر . فعالمنا هذا لايصح إلا على هذا الضرب من الاختلاف .

(٣) وكما اختلف الناس فى أحوالهم كالإيمان والكفر اختلف كل شىء فى السموات والأرض كالذكر والأنثى والإنسان والأنعام ، فأما هو فليس كمثله شىء ، وإنما مفاتيح العوالم بيده ؛ فمن شاء وسع له فى رزقه ومن شاء ضيق عليه ، فاذا اختلف الناس إيمانا وكفرا ، واختلفت المخلوقات ذكورة وأنوثة ؛ وتنوعا فى الخليقة فهكذا اختلفوا فى الأرزاق بحسب الاستعداد والنظام ضيقا وسعة .

(٤) ثم رجع القول إلى الوحى والدين والنبوة، فأفاد أن الوحى الذى أنزله الله على الأنبياء جميعا كنوح ومحمد صلى الله عليه وسلم وإبراهيم وموسى وعيسى يدعو إلى أمر واحد وهو الإيمان بالقلب والطاعة بالعمل

وأن لا يختلفوا فى هـذا الأصل ، ثم إن شرائعهم تتفرع كل بحسب زمانه كما تفرعت الحيوانات إلى أنواع وذكران وإناث والأصل واحد وهى الحركة والنمو ، ثم إن الأمم بعد ماعرفوا أن التفرق ضلال وأن رسلهم حق وقد قرءوا كتبهم وعقلوها تفرقوا ، وهكذا هؤلاء الذين دعوتهم كبر عليهم ما تدعوهم إليه وكذا أهل الكتاب فى زمانك أصبحوا فى شك مقلق .

(٥) فاصدع بأمرك ، وادع للدين ، واستقم على الدعوة ، ولا تتبع أهواءهم ، وكلهم فى القوة العلمية والقوة العملية ، وحججهم لا تقوم ضد الحقائق الثابتة .

(٦) ثم إنه سبحانه أبان أن نظامه كامل والعالم كله موزون منظم ، وهذه الكتب الدينية إنما نزلت لإقامة العدل بين الناس بحسب الظاهر ، فمن كان باطنه غير كامل وهو ظالم فأمامه العدل العام فى السموات والأرض يتلقاه يوم القيامة، وهذا برهان إما خطابى وإما عقلى على اليوم الآخر كما ستراه بعد ، والناس فريقان : فى أمر الساعة ، فريق مستهزئ بها ، وفريق مصدق خائف . إن الله وسع فى ملكه البار والفاجر والصالح والطالح ، فلم يهلك المستهزئ ، بل أمهله إلى يوم القيامة . وإن أمر الرزق ليس تابعا للعقائد بل هو تبع المشيئة والمصلحة المعلومة عنده تعالى . وأمر الآخرة يرجع إلى إرادة الإنسان نفسه . فمن جعل همه العاجلة نالها لاغير . ومن جعل همه الآجلة أعطى النعمتين . وذلك على حسب النظام العام . والعدل أن لايعطى الإنسان إلا على مقدار مايستحقه ومايقبله استعداده . ولذلك يكون الظالمون يوم القيامة وجلين خائفين من ذنوبهم والصالحون منعمين . وهذه هى البشارة التى بشر الله بها عباده الصالحين . ثم أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أنه لايسألهم على التبليغ أجرا وإنما يسألهم أن يودوا الله ورسوله فى تقربهم إليه بالطاعة والعمل الصالح وذلك ليكونوا فى روضات الجنات .

وأما القسم الثانى وهو من قوله تعالى «ولو بسط الله الرزق لعباده» إلى آخر السورة ففيه أن تسخير العباد فى جلب الرزق لم يكن عبثا بل هو لتدريبهم على العمل ، ومن فوائد ذلك عدم التكبر والبطر والظلم ولأجل ارتقاء نفوسهم وتدريبهم على الصبر جعلهم بين رجاء وخوف وضيق وسعة ، فلا ينزل الماء عفوا بلا طلب بل يجعل الأرض يابسة ليطلبوا الماء ويشتاقوا إلى المطر ، ثم ينزل ليكون ذلك أدعى للتفكر والتدبر والاستبصار والشكر ، وإذا ركبوا فى البحر جرت الرياح جريا غير متصل ليحصل لهم الخوف والرجاء كما حصل فى المطر.

على أنه إذا نزل المطر وعم الخصب واستقامت السلامة ، فليس كل هذا له معنى فى نفسه إن ذلك متاع الحياة الدنيا ،ولكن الفضائل النفسية والأخلاق والعلوم هى الباقية ، فمن تلك الفضائل الشورى بين المسلمين والإحسان ، والجود بالمال على مستحقيه ، والعفو عن المذنب ، وأن لايكون عقابه إلا على قدر ذنبه ، وخير من هذا العفو ، فهو خير وأبقى .

ثم ختم السورة بما يفيد اختصاصه بالملك ، وأنه يفعل ما يشاء على مقتضى حكمة يعلمها ، وأن الناس مختلفون فى الذرية من حيث الذكر [illegible] الإناث والتعم وعدمه ، وهكذا فى القرب منه حتى خص الوحى بفريق مستعد لذلك ومع ذلك فلكلام الله معهم شرائط وأحوال ثلاثة . انتهى إجمال المقال على السورة.

التفسير اللفظى

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(حم . عسق) الحاء والميم يرجعان للحمد كما تقدم فى السور السابقة ، والحمد يرجع لأمر الدنيا والآخرة فهو متضمن معرفة النعم وذلك يستوجب سائر العلوم ، وقد جاء الحمد فى السورة السابقة فى قوله تعالى « تنزيل من حكيم حميد » وفى هذه السورة فى قوله « والملائكة يسبحون بحمد ربهم » والعين فى العزيز والعظيم والعلى ، والقاف من قدير فى قوله « وهو على جمعهم إذا يشاء قدير » والسين من الساعة ، فهذه الحروف داخلة فيما تقرر فى أول « آل عمران » وغيرها ، وتختص بما اختصت به آل حم فى أنها حاضة على الحمد وازدياد العلم والحكمة ، لاسيما بما سيأتى من البرهان على الساعة وقيامها . فإن هذا البرهان عقلى أو إقناعى ترتاح إليه النفوس وتطمئن القلوب كما ستراه لأنه مستمد من علوم الخليقة والنظم الطبيعية . فانه يقرر فى النفوس قدرة الله على جمع النفوس البشرية يوم القيامة . وهذا دلالة السين والقاف . أما العين فرجعها جلال الله وعظمته وكبرياؤه وعزته وعلوه فهاهنا محامد وعلوم يراد بها القرب من ذى العزة والعظمة . وبهذه العلوم تعرف البراهين الدالة على عدله وأنه لا يدع أمر العالم سدى بل لابد من بعثهم وحسابهم ، وكأن هذه المعانى التى تشير لها هذه الحروف أهم ما فى السورة فإن العلوم جميعها وأخصها ما تعلق بالله وباليوم الآخر ليس بعدها مزيد لمستزيد . قال تعالى : (كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم) أى مثل ما فى هذه السورة من المعانى يوحى إليك الله العزيز فى ملكه فلا يكلم أحدا إلا وحيا ، أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء ، ذلك لعلوه وعزته وحكمته ، فلعزته ترفع عن أحوال الحوادث ولحكمته كلمهم على مقدار حالهم . ثم وضح عزته وعلوه فقال (له ما فى السموات وما فى الأرض وهو العلى العظيم) هذه الجمل كلها لتبيان عظمته وعلوه وكبريائه وحكمته (تكاد السموات يتفطرن من فوقهن) أى ينفطرن من علو شأنه وعظمته أى تكاد كل واحدة تنفطر فوق التى تليها من عظمة الله تعالى . ولذلك ترى هذه العوالم التى نعيش فيها واشتقت منها المادة ما هى إلا أثير أى عوالم لا لون لها ولا طعم ولا وزن فهى فى الحقيقة عوالم ذائبة منفطرة بل تكاد تكون حركات مضطربات لا مستقر لها ومنها كونت الشموس . فهذه الشموس السارحات فى عالم الأثير تكاد تنفطر وذلك من عظمته ، إنه علىّ ، وإنه عظيم ، ولعلوه لا تتناوله الحواس وهكذا المادة التى خلقها هو ودبرتها الملائكة لا تصيبها الحواس وإنما الشموس والأقمار والأرضون هى التى تنالها الحواس . وهذه على شفا جرف هار ، فهى أيضا مستعدة للانفطار والانشقاق كما ثبت فى علم العصر الحاضر ، فما من كوكب أو شمس أو قمر إلا وهى مستعدة يوما ما لأن ترجع أثيرا ، فهى تكاد ترجع للطبيعة كرة أخرى لأنها مغروسة فى العالم الأثيرى اللطيف فتكاد ترجع لأصلها ، وإنما الذى يحفظها ويقيم أمرها هم عوالم الملائكة بإذن ربهم وهذا قوله (والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى الأرض) فهم يحافظون على هذه العوالم خيفة أن يتطرق إليها الخلل بنواميس سنها لهم ، ويلهمون الناس ما يحتاجون إليه ، فما مثل الملائكة إلا كمثل الضوء يعطى الحياة بحرارته ويعطى الهدى بنوره ، هكذا هؤلاء الملائكة يحافظون على الشموس والأرضين بقوتهم المستمدة من ربهم ، ويلهمون الخير لمن استعد لذلك . فالشموس التى تراها والأرضون لولا الملائكة لذابت فى الأثير والحافظ لها الملائكة . وإنما نبه الناس على ذلك ليفكروا فى ذلك ويعلموا أن هذا العالم الذى نعيش فيه كله حياة وحكمة . فعلى الإنسان أن يفكر فى أن يكون عضوا نافعا فى جسم

هذا العالم الكلى حتى يلحق الملأ الأعلى . فليكن من المصلحين فى الأرض على قدر طاقته . ولا جرم أن إلهام الملائكة ومحافظتهم على الناس بأمر ربهم مفيدة للناس ، وذلك دلالة على أن الله كثير المغفرة والرحمة إذ سخر الملائكة للاستغفار لمن فى الأرض فغفر لهم ورحمهم وذلك قوله (ألا إن الله هو الغفور الرحيم . والذين اتخذوا من دونه أولياء) شركاء (الله حفيظ عليهم) رقيب على أعمالهم فيجازيهم (وما أنت عليهم) يا محمد (بوكيل) بموكول إليك أمرهم (وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا) أى مثل المعنى الذى فى الآية التى قبل هذه من أن الله رقيب عليهم لا أنت ، بل أنت منذر ، وقد تكرر فى القرآن فى مواضع كثيرة ، أوحينا إليك قرآنا عربيا (لتنذر أم القرى) أى أهل أم القرى وهى مكة (ومن حولها) من العرب (وتنذر يوم الجمع) يوم القيامة تجمع الخلائق فيه والأرواح والأشباح والأعمال والعمال ، وقوله (لا ريب فيه) جملة اعتراضية وهم بعد جمعهم (فريق فى الجنة وفريق فى السعير . ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة) مهتدين أو ضالين (ولكن يدخل من يشاء فى رحمته) بالهداية (والظالمون ما لهم من ولى) يدفع عنهم (ولا نصير) يمنعهم من العذاب (أم اتخذوا من دونه أولياء فالله هو الولى) هو وليك يا محمد وولى من اتبعك (وهو يحيى الموتى وهو على كل شىء قدير) وكيف يستحق أحد أن يكون وليا إلا من كان بهذه الصفة (وما اختلفتم) أنتم والكفار (فيه من شىء) من أمر من أمور الدنيا أو الدين (فحكمه إلى الله) مفوض إليه ، فهو يميز المحق فينصره من المبطل فيخذله (ذلكم الله ربى عليه توكلت) فى مجامع الأمور (وإليه أنيب) أرجع فى المعضلات (فاطر السموات والأرض) خبر آخر لذلكم (جعل لكم من أنفسكم) من جنسكم (أزواجا) حلائل (ومن الأنعام أزواجا) أصنافا ذكرانا وإناثا (يذرؤكم) يخلقكم أو يكثركم (فيه) فى الرحم (ليس كمثله شىء) كلمة التشبيه كررت لتأكيد نفى التماثل أى ليس مثله شىء (وهو السميع) لسائر المسموعات (البصير) لسائر المبصرات (له مقاليد السموات والأرض) مفاتيح الرزق فيهما ، ففى السماء بالأمطار وفى الأرض بالإنبات ، ولذلك أعقبه بقوله (يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) أى يوسع على من يشاء ويضيق على من يشاء ، ذلك لأن مفاتيح الرزق بيده (إنه بكل شىء عليم) من البسط والتضييق (شرع لكم من الدين الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى) أى شرع لكم من الدين دين نوح ومحمد ومن بينهما من أرباب الشرائع أى الأصل المشترك بينهم وهو المبين بقوله (أن أقيموا الدين) الإيمان والطاعة (ولا تتفرقوا فيه) ولا تختلفوا فى هذا الأصل ، فأما فروع الشرائع فهى مختلفة (كبر) عظم (على المشركين ما تدعوهم إليه) من التوحيد (الله يجتبى إليه من يشاء) يجتلب إلى الدين (ويهدى إليه) بالإرشاد (من ينيب) يقبل عليه (وما تفرقوا) أى الأمم السابقة (إلا من بعد ما جاءهم العلم) بأن التفرق ضلال (بغيا بينهم) عداوة وطلبا للدنيا (ولولا كلمة سبقت من ربك) بالإمهال (إلى أجل مسمى) هو يوم القيامة (لقضى بينهم) باستئصال المبطلين (وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم) يعنى أهل الكتاب المشركين فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم فإن هذين القسمين أوتوا القرآن وشكوا فيه بعد ما تفرق قدماء أهل الكتاب وهم يعلمون أن التفرق ضلال ، فقوله (لفى شك منه) من الكتاب أى القرآن (مريب) مقلق ، أو مدخل فى الريبة (فلذلك) فلأجل ذلك (فادع) إلى الاتفاق على الملة الحنيفية (واستقم كما أمرت) واستقم على الدعوة (ولا تتبع أهواءهم) الباطلة (وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب) أى جميع الكتب السماوية (وأمرت لأعدل بينكم) فى الحكم إذا تخاصمتم فتحاكمتم إلى (الله ربنا وربكم) أى كلنا عبيده (لنا أعمالنا ولكم أعمالكم) كقوله « لكم دينكم ولى دين » (لا حجة بيننا وبينكم) لا خصومة لأن الحق قد ظهر والحجة قائمة عليكم (الله يجمع بيننا) يوم القيامة (وإليه المصير) المرجع (والذين يحاجون فى الله) يخاصمون فى دينه (من

بعد ما استجيب له) من بعد ما استجاب له الناس ودخلوا فى الإسلام ليردوهم إلى الجاهلية (حجتهم داحضة) باطلة (عند ربهم وعليهم غضب) بكفرهم (ولهم عذاب شديد) فى الآخرة (الله الذى أنزل الكتاب بالحق) ملتبسا به بعيداً من الباطل (والميزان) أى العدل والتسوية وهو النظام العام ، ولا جرم أن الكتب السماوية من نوع الميزان العام والعدل الشامل الذى ظهر فى عالمنا الأرضى والسماوى . ولما كانت الأحكام القضائية لا تعتمد إلا على الظواهر وكان هناك بواطن مخبوءة أرجئت لقيام الساعة حتى يكون الميزان الإنسانى تاما كالميزان العام فكأن سائلا يقول : يارب إنا نرى الناس فى الدنيا يغشون ويكذبون ولا عدل بينهم والقضاء يحكمون بالظاهر ، وأيضاً ربما رأينا الصالح حقيراً والشرير عظيما فأين الميزان فى عالمنا ؟ فأجاب (وما يدريك لعل الساعة قريب) منك أى لعل الساعة قريب وأنت لا تدرى (يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها) استهزاء (والذين آمنوا مشفقون منها) خائفون منها (ويعلمون أنها الحق) الكائن لا محالة (ألا إن الذين يمارون فى الساعة) يجادلون فيها (لفى ضلال بعيد) عن الحق (الله لطيف بعباده) فى إيصال النافع وصرف البلاء من وجه يلطف إدراكه (يرزق من يشاء) يوسع رزق من يشاء إذا علم مصلحته ، وفى الحديث : « إن من عبادى المؤمنين من لا يصلح إيمانه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسده ذلك ، وإن من عبادى المؤمنين من لا يصلح إيمانه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسده ذلك ثم قال (وهو القوى العزيز) الباهر القدرة المنيع الذى لا يغلب (من كان يريد حرث الآخرة) أي كسب الآخرة ، أى من كان يريد بعمله الآخرة (نزد له فى حرثه) بالتضعيف (ومن كان يريد حرث الدنيا) أي يريد بعمله الدنيا مؤثراً لها على الآخرة ، سمى ما يعمله العامل مما يبتغى به الفائدة حرثا مجازاً (نؤته منها) شيئا (وماله فى الآخرة من نصيب) إذ الأعمال بالنيات ولكل امرىء مانوى (أم لهم شركاء) أى بل ألهم شركاء (شرعوا لهم) بالتزيين (من الدين مالم يأذن به الله) أى لم يأمر به (ولولا كلمة الفصل) القضاء السابق بتأجيل الجزاء (لقضى بينهم) بين الكافرين والمؤمنين (وإن الظالمين لهم عذاب أليم) أى وإن المشركين لهم عذاب أليم فى الآخرة وإن لم يعذبوا فى الدنيا (ترى الظالمين) المشركين (مشفقين) خائفين (مما كسبوا) من جزاء كفرهم (وهو واقع بهم) نازل بهم لا محالة (والذين آمنوا وعملوا الصالحات فى روضات الجنات) والروضة أطيب بقعة فى الجنة وأنزهها (لهم ما يشاءون عند ربهم) أى ما يشتهون ثابت لهم عند ربهم (ذلك هو الفضل الكبير) على العمل القليل (ذلك) الفضل الكبير (الذى يبشر الله) به (عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات قل لا أسألكم عليه) على التبليغ (أجراً) نفعاً منكم (إلا المودة فى القربى) أى لكن أسألكم التقرب إلى الله والتودد إليه بالطاعة والعمل الصالح وهذا قول الحسن ويدخل فيه مودة النبى صلى الله عليه وسلم ومودة قرابته ومودة القرابة من المسلمين ، فمن تقرب إلى الله أحب رسوله وأكرم قرابة الرسول وقرابته هو من المسلمين ، وهكذا يكرم أبويه إذا كانا كافرين ، فهذا القول يجمع سائر الأقوال ؛ ومن إكرام قرابته صلى الله عليه وسلم تعليمهم إذا جهلوا . وتذكيرهم إذا غفلوا . وأما إكرامهم بمعنى التعظيم وحده فهو قصور معيب وجهل بديننا القويم (ومن يقترف حسنة) ومن يكتسب طاعة ، سيما حب آل الرسول صلى الله عليه وسلم (نزد له فيها حسنا) أى فى الحسنة بمضاعفة الثواب (إن الله غفور شكور . أم يقولون) بل أيقولون (افترى على الله كذبا) افترى محمد بدعوى النبوة أو القرآن (فإن يشأ الله يختم على قلبك) أى إن يشأ الله خذلانك يختم على قلبك لتجترىء بالافتراء عليه . ثم استأنف فقال (ويمح الله الباطل) حذفت الواو من يمحو خطا ولفظا وهى مثبتة فى مصحف نافع ، فهو فعل مرفوع بضمة مقدرة على الواو (ويحق الحق بكلماته) أى بما أنزل من كتابه على لسان نبيه . وهذا وعد قد تحقق . فهو محا باطلهم وأثبت حق الإسلام . وأيضاً لو كان ما يقوله محمد صلى الله عليه وسلم مفترى لمحقه الله حريا على

عادته أنه يمحو كل باطل (إنه عليم بذات الصدور) فهو يعلم المبطل والمحق فيعامل كلاهما هو أهل له (وهو الذى يقبل التوبة عن عباده) بالتجاوز عما تابوا عنه ، والتوبة صدق العزيمة على ترك الذنوب وأن لا يجد حلاوة الذنب فى القلب عند ذكره (ويعفو عن السيئات) وهى مادون الشرك ، فهو يعفو عمن شاء بلا توبة (ويعلم ماتفعلون) من التوبة والمعصية (ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله) إذا دعوه استجاب دعاءهم وأعطاهم ما طلبوا وزادهم على مطلوبهم (والكافرون لهم عذاب شديد) فى الآخرة (ولو بسط الله الرزق لعباده) أى لو أغناهم جميعاً (لبغوا فى الأرض) أى لبغى هذا على ذاك . وذاك على هذا . فالغنى يبطر أو يتكبر (ولكن ينزل بقدر) بتقدير (ما يشاء) ما اقتضته مشيئته (إنه بعباده خبير بصير) يعلم خفايا أمرهم وظواهر حالهم فيعطى كلا ما يناسبه (وهو الذى ينزل الغيث) المطر الذى يغيثهم من الجدب (من بعد ما قنطوا) أيسوا (وينشر رحمته) فى كل شىء من مخلوقاته (وهو الولى) الذى يتولى عباده بإحسانه ونشر رحمته (الحميد) المستحق للحمد على ذلك (ومن آياته خلق السموات والأرض) مع عظمهما (وما بث فيهما من دابة) أى وما فرق من الدواب فى الأرض وحدها والتعبير بهذا كالتعبير فى قوله «يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان» مع أن اللؤلؤ والمرجان لا يخرجان إلا من البحر الملح كما يقال بنو تميم فيهم شاعر مجيد وإنما هو فى فخذ من أفخاذهم . هذا إذا وقفنا عند النظر السطحى . فأما إذا فكرنا فإنا نجد هناك من العوالم ما تستحقر أرضنا بالنسبة له . ولقد يظن علماء الهيئة الآن أن أقل عدد يظن من الأرضين لا ينقص عن ثلثمائة ألف ألف أرض فيها سكان قياساً على أرضنا التى نحن عليها ، هذا ما يقوله علماء الفلك فأما علماء الأرواح فإنهم لما استنطقوها قالت : «إن هناك عوالم فى هذا الكون مسكونة تستحقر أرضكم بالنسبة لها ، وما أنتم بالنسبة لهم إلا كالنمل بالنسبة لكم» .

وهاك جملة من كلام روح غاليلى لما استحضروها قال : «إن الملايين من الشموس المؤلفة منها مجرتكم يحيط بأكثرها سيارات وعوالم تستمد منها النور والحياة ، فمنها ما عائل نجم (سيريوس) الذى يربو حجمه وبهاؤه على شمسكم ألوفاً من المرار والسيارات المحيطة به تفوق سيارات الشمس كبراً وسناء ، ومنها شموس مثناة : أى نجوم توائم تختلف وظائفها الفلكية عن وظائف شمسكم ، ففى السيارات المحيطة بتلك الشموس المثناة لا تعد السنون والأيام كما فى أرضكم ، وأحوال الحياة فيها يتعذر عليكم تصورها ، ومن الشموس ما لا سيارات له إنما أحوال سكانها خير الأحوال» انتهى المقصود منه .

فها هو ذا (غاليلى) لما استحضروا روحه أفادنا أن من السيارات ما هو خير من أرضنا كما أن شمسه أحسن من شمسنا ، ومن السيارات ما يسكن نفسه وتكون السكنى فيه والحياة خيراً من سواه ، وأن السيارات التى تتبع الشموس التوائم تكون الحياة فيها كأنها جنة بالنسبة لأرضنا . وعلى ذلك أصبح ما كان عند الفلكيين ظنا عند علماء الأرواح يقينا ، وإذن يكون هذا تفسيرا للقرآن [وبعبارة أخرى] هذا هو سر القرآن . إذ يقول الله تعالى «سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم» فى السورة السابقة . وأى آيات أبدع من هذه . يقول الله «وما بث فيهما من دابة» ويقول العلم الحديث ظنا تارة وإقناعا أخرى ، إن أرضنا لا قيمة لها والحياة فيها حقيرة . والحياة هناك أجمل وسعادتها أتم ، بل جاء فى مقال هذه الروح أيضاً أن هناك عوالم أقل من أرضنا استعدادا وأهلها أكثر شقاء من أهل الأرض ، إن ذلك معجزات القرآن قد أرانا الله آياته فى الأنفس والآفاق ، والمسلمون مقصرون فى البحث والعلم والتفكير . فليجدوا فى علوم الفلك والطبيعة والأرواح ، وقوله تعالى (وهو على جمعهم إذا يشاء قدير) أى فى أى وقت يشاء متمكن منه . ثم إن قولنا فى هذا المقام إن اللؤلؤ لا يخرج إلا من البحر الملح كذبه العلم الحديث أيضا فسيأتى فى سورة [الرحمن]

أن

أن الماء العذب يخرج منه اللؤلؤ ، فهذه معجزة ثانية للقرآن (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم) المراد بالمصائب الأحوال المكروهة من الأوجاع والأسقام والقحط والغلاء والغرق والصواعق ، والذى كسبته أيدينا هي الذنوب والمعاصى (ويعفو عن كثير) من الذنوب فلا يعاقب عليها . وهذه الآية في المجرمين . أما غيرهم فان مصائبهم لرفع درجاتهم بالأجر لصبرهم عليها . وفى رواية عن ابن عباس : « أنه ما من خدش عود ولا عثرة قدم ولا اختلاج عرق إلا بذنب وما يعفو الله عنه أكثر » . وروى عن على كرم الله وجهه «ألا أخبركم بأفضل آية فى كتاب الله حدثنا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير . وسأفسرها لكم ياعلى : ما أصابكم من مصيبة أى مرض أو عقوبة أو بلاء فى الدنيا فبما كسبت أيديكم والله أكرم من أن يثنى (بتشديد النون) عليكم العقوبة فى الآخرة وما عفا الله عنه فى الدنيا فالله أحلم من أن يعود بعد عفوه» ، وروى عن غيره مايفيد أن المصائب إما لرفع درجة أو لمغفرة ذنب . هذا ملخص ماعليه جمهور أمتنا الإسلامية . وقالت طائفة تميل إلى التناسخ . [لو لم يكن للأطفال حال كانوا عليها قبل هذه الحالة ماتألموا] . وأجاب العلماء بأن الآية مخصوصة بالمكلفين كما هو السياق . وإذا أردت تحقيق المقام عقليا فارجع إلى ما فى هذا التفسير فى [سورة البقرة] عند قوله تعالى « وبشر الصابرين » الخ فإنك سترى كيف كان القرآن معجزا . وكيف كان الفيلسوف قابس ألف كتابا على هذا المعنى يسمى [لغز قابس] وأماط اللثام عن هذا المقام . هناك تعرف سر القرآن وأن العلوم كلها له برهان . فوالله ما قلت لك هذا وأنا من المتكلفين وإنما أنا من الموقنين . وإلا فكيف تتحد العلوم الفلسفية والآيات القرآنية . وكيف يقول قابس فى رسالته التى ترجمت إلى جميع لغات أوروبا إنه لاينال السعادة فى هذه الدنيا إلا الذين عركهم الدهر وطحنهم بكلكله ومرنهم على تحمل المصائب وأذاقهم العذاب الهون حتى صقلهم بصقاله وآذاهم بنباله وقتلهم بسيوف رجاله وحط بساحاتهم ونزل بديارهم وأجلب عليهم بخيله ورجله وشاركهم فى الأموال والأولاد ولم يعبأ بالعلوم وفهمها ولا بالآداب ودرسها ولا بالنعم وحوزها ولا بالأموال وكنزها . وجعل ذلك كله يصيب البار والفاجر والعالم والجاهل كالليل والنهار والحر والبرد والحسن والقبح فأى علاقة لسعادة الإنسان بما يعتريه من الأحوال أنه لاسعادة له كاملة إلا بأن تصقله المصائب صقلا وتنزل عليه تفصيلا وجملا حتى يتكامل عقله ويكظم غيظه ويتم احتماله ويظهر جماله بهذا يظهر جمال القرآن ويعرف الناس سر الفرقان، ولكن بعد أن تدرس ما كتب فى سورة [البقرة] وكأن الإنسان خلق وفيه نقص كثير بطبعه ، وهذا النقص لا يذهب إلا بأعمال شريفة وعلوم منيفة ومصائب تساعد على ارتقائه . فالكسب ربما كان لما هو أعم مما جبل عليه الإنسان من النقص وما فعله بيده من الذنوب «والله هو الولى الحميد » ثم قال تعالى (وما أنتم بمعجزين فى الأرض) أى فائتين ما قضى عليكم من المصائب (وما لكم من دون الله من ولى) يحرسكم منها (ولا نصير) يدفعها عنكم (ومن آياته الجوار) السفن الجارية (فى البحر كالأعلام) كالجبال (إن يشأ يسكن الريح) التى تجرى بها السفن (فيظللن رواكد على ظهره) أى فيبقين ثوابت على ظهر البحر (إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور) لكل مؤمن كامل صبر على المصائب وشكر على النعم وحبس نفسه على النظر فى آيات الله والتفكر فى آلائه الذى هو نوع من الشكر (أو يوبقهن) أى أو يهلك أهلهن (بما كسبوا) من الذنوب بإرسال الريح العاصفة المغرقة؛ والمعنى إن يشأ يسكن الريح فيركدن ، أو يعصفها فيغرقن بعصفها (ويعف عن كثير) من الذنوب فلا يجازى عليها أى إن يشأ يهلك قوما وينج آخرين على طريق العفو عنهم، وإنما يوبق من يوبقهم بما كسبوا لينتقم منهم (ويعلم الذين يجادلون فى آياتنا) فى إبطالها (ما لهم من محيص) مهرب من العذاب (فما أوتيتم من شىء) من زينة الدنيا (فمتاع الحياة الدنيا) أى ليس هو من زاد المعاد (وما عند الله

من الثواب (خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون) وحينئذ يكون المؤمن والكافر مستويين فى متاع الحياة الدنيا فإذا صار إلى الله تعالى كان ماعند الله من الثواب خيرا وأبقى للمؤمن (والذين يجتنبون كبائر الإثم) كالقتل والزنا والسرقة (والفواحش) ما عظم قبحه من الأقوال والأفعال (وإذا ما غضبوا هم يغفرون) أى يكظمون الغيظ ويحلمون (والذين استجابوا لربهم) أى أجابوه إلى ما دعاهم إليه من الطاعة (وأقاموا الصلاة) المفروضة (وأمرهم شورى بينهم) يتشاورون فيما يبدو لهم ولا يعجلون ولاينفردون برأى لشدة تيقظهم وحذرهم ، يقال « ما تشاور قوم إلا هدوا لأرشد أمرهم » (ومما رزقناهم ينفقون) فى سبيل الخير (والذين إذا أصابهم البغى) الظلم والعدوان (هم ينتصرون) ينتقمون من ظالمهم من غير تعد . قال النخعى كانوا يكرهون أن يذلوا أنفسهم فإذا قدروا عفوا . فالمؤمنون إذن قسمان : قسم يعفون قبدأ بذكرهم وهو قوله « وإذا ماغضبوا هم يغفرون » . وقسم ينتصرون من الظالم وهو المذكور فى هذه الآية . ثم حصهما فقال (وجزاء سيئة سيئة مثلها) سمى الثانية سيئة للازدواج (فمن عفا وأصلح فأجره على الله) وفى هذا تعظيم للموعود به (إنه لايحب الظالمين) المبتدئين بالسيئة والمتجاوزين فى الانتقام (ولمن انتصر بعد ظلمه) بعد ما ظلم (فأولئك ما عليهم من سبيل) بالمعاتبة والمعاقبة (إنما السبيل على الذين يظلمون الناس) يبتدئون بهم بالإضرار (ويبغون فى الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم) على ظلمهم (ولمن صبر) أى لم ينتقم (وغفر) تجاوز عن ظالمه (إن ذلك) الصبر والتجاوز (لمن عزم الأمور) أى مما ينبغى أن يوجبه العاقل على نفسه ولا يترخص فى تركه ، وحذف الضمير الراجع لأنه مفهوم أى إن ذلك منه الخ . واعلم أن هذه الآيات كلها لإيضاح المقام وتبيانه ، ففيها ذم الظلم بالابتداء أو مجاوزة الحد ، وفيها أنه لاعتاب على من عاقب بمثل ماعوقب به ، وفيها إعظام أمر العفو ، فهنا ظلم وانتصار وعفو (ومن يضلل الله فماله من ولى من بعده) من ناصر يتولاه من بعد خذلان الله إياه (وترى الظالمين لما رأوا العذاب) يوم القيامة (يقولون هل إلى مرد من سبيل) أى إنهم يسألون الرجعة إلى الدنيا (وتراهم يعرضون عليها) على النار (خاشعين من الذل) متذللين خاضعين (ينظرون من طرف خفى) يسارقون النظر إلى النار خوفا منها وذلة (وقال الذين آمنوا إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم) بتعريضهم للعذاب المخلد (يوم القيامة) ظرف لخسروا (ألا إن الظالمين فى عذاب مقيم . وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله ومن يضلل الله فماله من سبيل) أى وصول إلى الحق فى الدنيا والجنة فى العقبى (استجيبوا لربكم) أى أجيبوا داعى الله يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم (من قبل أن يأتى يوم لامرد له من الله) لايرده الله بعد ما حكم به (مالكم من ملجأ) مفر (يومئذ ومالكم من نكير) إنكار لما اقترفتموه لأنه مكتوب فى صحائفكم وتشهد به ألسنتكم وجوارحكم (فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا) رقيبا أو محاسبا (إن عليك إلا البلاغ) ليس عليك إلا البلاغ . وفيه تسلية له صلى الله عليه وسلم (وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة) كالغنى والصحة (فرح بها وإن تصبهم سيئة) قحط أو مرض (فإن الإنسان كفور) لنعم الله المترادفة عليه كأنه يقول : إن هذا الجنس موسوم بكفران النعم أى إنه إذا مسه الشر يكون جزوعا كما إذا مسه الخير فإنه يكون منوعا . ولكن تهذيب نفسه بالعلم والدين يجعله محتملا صابرا . ومن تأمل النفوس الإنسانية وجدها كالمجبولة على اليأس ونكران النعمة وقت هجوم المصائب ، ولا يخرج الناس من هذا المأزق إلا الدين والعلم والصبر ، ومما ابتلى به الناس فيجعلهم يكفرون النعم أمر الذرية ، فيقول من لاولد له ياليت لى ولدا ، ويقول من رزق بنات ياليتنى أعطيت ذكرا ، ومن عنده ذكور يقول ياليت لى من البنات ولو واحدة ومن يخلقه الله الصنفان ربما اعتراه أحد أمرين ، إما الإعجاب والطغيان ، وإما كفر النعمة من الفقر والنصب فى تغذيتهم وتربيتهم ، فليعلم الناس أن ذلك منهم رعونة ، فليرض كل بما قسم له فإنهم إنما

خلقوا

خلقوا فى الأرض ليتعلموا الصبر والقناعة ، وهم لا يطيرون إلى العالم الأعلى إلا بقوادم النفسية ، فلا ذكر ولا أنثى عند الموت ولا مال ولا جند ولا أعوان ، إن الله رب الجميع وهو مالك السموات والأرض ويعلم المصلحة ويعطى زيدا مامنع عمرا لحكمة أرادها ، ويخص كلا بمزية ، فيعطى من لا ولد له مزية أخرى ، ويحرم من له ولد من بعض المزايا وهكذا (لله ملك السموات والأرض) فله أن يقسم النعم والنقم كيف يشاء (يخلق مايشاء يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور) فلا يولد للأول ذكر ولا للثانى أنثى (أو يزوجهم ذكرانا وإناثا) يجمع بينهما فيولد له الذكور والإناث (ويجعل من يشاء عقيما) فلا يولد له ولد (إنه عليم) بما يخلق (قدير) على مايريد أن يخلق فيفعل مايفعل بحكمة وعلم ، هذا فى تقسيم النعم البدنية . وأعقبها بتقسيم النعم العقلية وأفاد أنها أيضا على مقتضى الحكمة ولا اعتراض على القسمة فيها . فالناس محجوبون عن ربهم لأنهم فى عالم المادة وهو منزه . ولكن منهم من رق حجابه وخلصت نفسه .

(١) فيحس بمعانى تلقى فى قلبه وهو معنى النفث فى الروع كما روى (نفث فى روعى) أو يرى رؤيا منامية كرؤيا الخليل عليه السلام بذبح ولده .

(٢) أو يسمع كلاما من وراء حجاب كما سمع موسى عليه السلام من غير أن يبصر السامع من يكلمه ، فالعبد هنا سمع كلاما ولم ير المتكلم .

(٣) أو يرسل الله ملكا فيوحى الملك إلى النبى بإذن الله مايشاء . ومن النوع الأول نبوة النبى صلى الله عليه وسلم فى ابتدائها فإنها كانت فى المنام ستة أشهر ؛ ومن الثالث ما بعد ذلك ، فقد كان جبريل ينزل عليه بالوحى . وأما الثانى فهو ماحصل لموسى عليه السلام . وهذا قوله تعالى (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه مايشاء) أى وما صح أن يكلم الله أحدا إلا موحيا أو مسمعا من وراء حجاب أو مرسلا . وقوله (إنه على) أى عن صفات المخلوقين (حكيم) يفعل ما تقتضيه الحكمة (وكذلك) وكما أوحينا إلى سائر الرسل (أوحينا إليك روحا من أمرنا) نبوة أو قرآنا فهو به حياة الأرواح (ما كنت تدرى) قبل الوحى (ما الكتاب) أى القرآن (ولا الإيمان) أى شرائعه (ولكن جعلناه نورا) أى جعلنا القرآن أو الإيمان نورا (نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى) أى لتدعو (إلى صراط مستقيم) دين الإسلام (صراط الله) دين الله الذى شرعه لعباده (الذى له مافى السموات ومافى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور) أى أمور الخلائق فيضع كلا فى درجته من جحيم ونعيم . انتهى التفسير اللفظى للسورة كلها .

لطائف هذه السورة

(١) فى قوله تعالى «تكاد السموات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى الأرض» .

(٢) وفى قوله «جعل لكم من أنفسكم أزواجا ومن الأنعام أزواجا» مع قوله «يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور» الخ وقوله «ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة وهو على جمعهم إذا يشاء قدير» .

(٣) وفى قوله «الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان» الخ .

(٤) وفى قوله «الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوى العزيز» .

(٥) وفى قوله «وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون» .

(٦) وفى قوله «وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا» الخ .

(٧) وفى قوله «وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير» .

اللطيفة الأولى والسادسة

(١) فى قوله «تكاد السموات يتفطرن من فوقهن» الخ .

(٢) وفى قوله «وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا» الخ.

لقد جاء فى هذه الآية الثانية وجه آخر غير ماتقدم. فيقال : لايكلم الله البشر إلا بأحد طرق ثلاث : إما أن يوحى إلى الأنبياء بالملائكة، وإما أن يكلم الأمم بواسطة هؤلاء الأنبياء الذين تلقوا عن الملائكة، وإما بأن يكلم الأنبياء من غير أن يروه كمسألة موسى عليه السلام : وإذن نشرع فى عجائب هاتين الآيتين فنقول :

اعلم أن الله عز وجل جعل العالم المادى والعالم الروحى بينهما تشابه كما قال تعالى «ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت» وقال «ووضع الميزان . ألا تطغوا فى الميزان» فالعالم الروحى والعالم الجسمى يختلفان جوهرا ويتحدان فى النظام العام . فانظر أولا فى هذا العالم المشاهد ، وتأمل تجد الناس يعيشون فى وسط الأنوار فأما الظلمات فهى قليلة . إن الشموس لاتكاد تعد ولا تحصى ، فأما السيارات حولها فهى مستضيئة بها . وكذلك التوابع : فأرضنا وقمرنا يستضيئان بنور الشمس . وكذلك السيارات . ويظن أن الشموس سيارات ولكن لايستضىء منها إلا ما كان جسمه معتما كأرضنا أى برد سطحه وصار مثلها. وجميع الأقسام تنقسم إلى ثلاثة أقسام: أجسام مضيئة كالشموس التى هى هذا العالم كله ، حتى إن أرضنا كوكب مضىء لولا قشرتها ، فأما باطنها فانه نار على حاله ، فأكثر أجسام العالم مضيئة ، والنادر جدا مالاضوء له وهى أمثال قشرة أرضنا الصغيرة ، وأجسام معتمة كسطح الأرض والقمر والنبات والحيوان والأحجار، وأجسام شفافة كالهواء . فالأول يفيض النور، والثانى يستضىء ، والثالث يقبله ولا يحجبه عن المعتم . والأجسام المعتمة منها ما هو صقيل كسطح المرآة فانه يقبل النور ويحجبه عما وراءه ولكنه يعكسه على ما أمامه . هذا هو العالم المشاهد وأقسامه ، فلننظره نجد أن الشمس تفيض النور والهواء شفاف منفصل وجرم العين شفاف متصل بالأجسام فلننظر فى عالم العقل والروح نجد أن فى العالم الإنسانى من يقبلون العلم بالتعليم وهم جمهور الأمم ، فهم فى قبولهم العلم أشبه بهم حين يقبلون الصور التى وردت من طريق العين الواردة من الخارج ، ونجد الأنبياء والعلماء فيهم أشبه بالعيون المركبة فيهم ، فكما قبلت العيون الصور بسبب ضوء الشمس وأدتها إلى النفوس هكذا قبل الأنبياء وهم عيون الأمم العلوم ووصلوها إلى أممهم . فإذن تبين لنا أن العالم المشاهد أوضح لنا ست مسائل من ثمانية ، وإيضاحه أننا نقول : فى العالم الروحى نفس متعلمة وأنبياء معلمون وملائكة موصلون والله مبدأ الفيض ، فنحن لا نعلم من هذه الأربعة إلا اثنين : نعلم النفس المتعلمة ، والنفس المعلمة، ولكن الإثنان الباقيان محجوبان عنا ، وهما الله والملك ، فأرانا الله هذه الأقسام الأربعة فى العالم المادى وقال : انظروا تجدوها واضحة ، أجسام مظلمة تستضىء ، وأجسام شفافة متصلة تقبل ، وأجسام شفافة منفصلة ، وأجسام مفيضة للنور . فهذه القسمة تامة فى العالم المادى وقد رأيتم اثنين فى العالم الروحى ، فبطريق الإقناع تعرفون أن هناك ملكا ووراء الملك إله كما كان وراء العين هواء ووراء الهواء شمس ، وهذا لمن لم يقرأ علم الأرواح ، فالله تعالى هو المعلم وهو الذى يكلم الناس بالملك وبالأنبياء كما أن الشمس تضىء على الأرض وتتضح لنا الصور بطريق الهواء الشفاف وبطريق العيون والفضل كله راجع للشمس ، هكذا العلوم الدينية والطبية والصناعية ؛ وجميع مافى الأرض من علم مكمل لأهلها مصدره الله تعالى ، غاية الأمر أنه تارة يكون بوسط

للجمهور وبغير وسط للنفوس الشريفة . وهذا يوضح لنا قول علمائنا : [إن الله عميم الجود ليس بمانع له عن أحد ، ولكن الفيض يكون على مقدار الاستعداد] .

فاذا سمعنا أن زيداً قد ألهم العلم ونشر الحكمة ، فلتعلم أن فى نفسه صفاء استعد به أن يتقبل الحكمة العامة المغروسة فى قلوب نفوس الأرواح الحائمة حولنا وهى مستمدة من الله كاستمداد الهواء النور من الشمس ، وإذا سمعنا أن عمراً اتبع هواه وأغراه الشيطان فلتعلم أن النفوس التى ألهمته منحرفة وهو يشابهها فى الانحراف كما ترى الزجاجة الملونة تلون الماء الذى وراءها فتراه أصفر أو أخضر أو أحمر تبعاً لها مع أن النور عام والناس مطلعون عليه ولكن لا قدرة لهم على تغيير الطبائع ، فالأرواح الشريفة يرون الشياطين أمامهم أشبه بذلك الزجاج الملون ، ويرون الأحياء الذين يشاكلونهم مغرمين بآرائهم عاكفين على الإصغاء إليهم .

هذه مجامع الحكمة فى هذه الآيات . إذا عرفت ما ذكرته لك . فانظر فى هذه الآيات . ذكر الله السموات والأرض وأن عظمة الله تكاد تنفطر فيها السموات . ثم أتبعه بذكر الملائكة مشيراً إلى ما ذكرنا كأنه يقول انظروا إلى السموات والأرض وإلى عظمتى فيهما فإنكم ترون الظلمات والأنوار الخ فانظروا إلى الملائكة إنهم يسبحون ويحمدون . فهم يعرفون جلال الله وإكرامه أى صفات التقديس وصفات الإكرام فهم يعرفون بعده عن مشابهة المخلوقات ويقدسونه تقديساً ويقرءون عجائب صنعه وحكمته وقدرته المعبر عنها بالحمد . فهم يعرفون أن ذاته كاملة تفيض الخير . فقدم التسبيح لأنه يرجع لكمال الذات وأخر الحمد لأنه يرجع لتكميل الغير وإفاضة النور فالمقدس ذات منزهة كاملة ، والمقدس المحمود ذات كاملة مفيضة الخير والكمال على غيرها وبهذه العلوم والمعارف كانت للملائكة أرقى من أهل الأرض لأن أرواحهم لطفت فلم تلائم هذه المادة ولا تعيش فيها فأصبحت كالهواء من حيث قبول النور العلمى وإفاضته ، وليس يمنع الناس عن ذلك الكمال إلا الجهل كما قال سقراط : [الناس لا يعذبون إلا لجهلهم ، ولولا سعة علم الملائكة ما ارتفعوا عن المادة وما كانوا مسيطرين عليها ، وعلى مقدار جهل الإنسان يكون بعيدا عن العالم الروحى] .

فهذا ملخص ما يفيده قوله « يسبحون بحمد ربهم » . وأما قوله « ويستغفرون لمن فى الأرض » فهو إفاضة الخير ، فهم من حيث التقديس والتحميد يفاض عليهم من الله ، ومن حيث الاستغفار مفيضون الخير على الناس . ولما كان الإنسان لا يقدر أن يرى النور إلا بآلة متصلة به وهى العين هكذا لا يقدر الجمهور من الناس أن يدركوا العلم إلا بنفس تكون منهم تشبه العين فى جسم الإنسان ، فهى تتصل بالملائكة من وجه وتتصل بالناس من وجه آخر ، أى أن الأنبياء بروحانيتهم متصلون بالملائكة وبمادياتهم يتصلون بالناس كما اتصلت العين بالضوء من جهة الهواء ، واتصلت بالمخ من الداخل واتجهت الصور منها إلى النفس فأدركتها فهى قابلة موصلة والأنبياء قابلون موصلون ، فالله كلم الأنبياء بالملائكة وكلمنا بالأنبياء ، ويشير إلى هذا المقام أيضا ما جاء فى [سورة النبأ] « رب السموات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطابا . يوم يقوم الروح والملائكة صفا » .

وبهذا نفهم الآيتين فى أول السورة وآخرها ، وهذا المقام من عجائب العلم والحكمة ، إن الناس يرون هذا كله بأعينهم الجهال والعقلاء ، ولكن لا يدركه إلا من انفتحت بصيرته إليه . انتهى الكلام على اللطيفة الأولى والسادسة .

اللطيفة الثانية والرابعة

(١) فى الكلام على التناسل واختلاف الذكور والإناث فى الحيوان والإنسان .
(٢) ولطف الله فى تغذيته .

فمن الثانى ماجاء فى كتابى [جواهر العلوم] فى صحيفة ٩١ وبعدها وهذا نصه :

فقال إبراهيم : اعلمى نورك الله بنور العلم أن الخالق جل اسمه جعل تركيب الأسماك مناسبا للمعيشة فى الماء كما جعل للطيور أجنحة تساعدها على الطيران فى الهواء. فقالت : وكيف ذلك ؟ فقال : إن الأسماك تحتاج فى تصرفها فى معاشها وتقلبها فى أطوارها إلى أن تعوم فى الماء من جهة إلى أخرى أو تنخفض تارة وترتفع أخرى أو تتجه يمينا ويسارا لتبحث عن غذائها أو تهرب من عدوها أو تطلب صيدها فجعل الله سبحانه وتعالى لها عوامات كمجاذيف السفينة تشاهد فى الأسماك فى الجوانب وعلى الظهر ومن خلفها وحوصلة تسمى حوصلة العوم، وهى عبارة عن كيس مملوء هواء خالصا تضغطه إذا أرادت أن تغوص فى الماء فيصغر حجمها وتمدده إذا أرادت أن تطفو على سطحه فيكبر حجمها وجعل ذنبها مستمدا لأن يديرها يمينا وشمالا فى البحر فكما أن للسمكة عوامات تمخر بها الماء كذلك جعل للسفينة مجاذيف وشرعا تسيرها حيثما أراد الإنسان وكما أن لها ذنبا يكون موازنا لجسمها عند الانحراف يمينا وشمالا كذلك جعلت الدفة (السكان) للسفينة حتى يسهل التفاتها يمنة ويسرة، فلو انقطع ذنب السمكة مثلا ما أمكنها أن تنحرف إلى إحدى الجهتين بل تتجه دائما جهة الأمام ولو انعدمت عواماتها التى فى جوانبها وعلى ظهرها لوقفت فى مكان واحد وتعطلت عن اكتساب معيشتها ومن العجيب أن الأسماك جعل شكلها على هيئة تناسب اختراق الماء، فلم تجعل رأسها مفرطحة حتى تقاومها لجج المياه فتعوقها عن السباحة، فما أدق صنعته سبحانه وما أعظم رحمته وكل حى يغدو ويروح فى بحار نعمه مشمولا بسوابغها قال عز وجل « وما كنا عن الخلق غافلين » فعجائب الكون ظاهرة والناس عنها غافلون بلذاتهم وشهواتهم . قال عليه الصلاة والسلام : «ولولا أن الشياطين يحومون حول قلوب بنى آدم لنظروا إلى ملكوت السموات والأرض» فالإبل مثلا قصرت أذنابها لاستغنائها بطول أعناقها وعكس ذلك فى البقر، وكم من حكم ضربنا عن ذكرها صفحا ليراجعها محب الحكمة فى العلوم الطبيعية « والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » .

﴿ فصل: فى حكمة خلق الحشرات ﴾

فقالت ياسيدى إنى أعتقد أن كل هذه العوالم مؤسسة على حكم تحارفيها العقول ولكن إلى الآن لم أصل إلى حكمة خلق الحشرات من نحو الزنابير والذباب والبعوض فهل عثرت على ذلك فى كتاب؟ قال نعم إن الله عز وجل يخلق الشىء لحكم كثيرة منها مايعرف ومنها مالايعرف. أماهذه الحشرات كالزنابير والذباب وغيرها فإن حكمها كثيرة؛ منها أن العفونات الفاسدة التى على وجه الأرض لو بقيت لفسد الهواء، وجاء الوباء، وانتشر الهلاك وعم الخراب، فخلق الله سبحانه وتعالى تلك الحيوانات منها ليصفو لحمها ولا يعرض لها الفساد الذى هو سبب الوباء وهلاك الحيوان ولذلك ترى الزنابير والديدان والخنافس فى دكان القصاب (الجزار) والدباس[1]

---

(١) الدباس: هو صانع الدبس، وهو ما يسيل من الرطب .

أ كنز

أكثر مما يرى فى دكان البزاز (القماش) والحداد فاقتضت الحكمة الإلهية صرف العفونات إليها ليصفو الهواء منها ونسلم من الوباء . ومن الحكم العجيبة والأسرار الطبيعية الإلهية أنك ترى أن نحو الحيات والعقارب تسكن عادة وتكثر فى الأماكن العتيقة والمحال الفاسدة وهكذا خشاش الأرض من الخنافس والصراصير وغيرها ، وترى (الناموس) لا يتولد إلا فى المحال المستنقعة وكذا الذباب يكثر فى المحال القذرة وذلك كله لطف من الله بعباده ورحمة بهم فهذه كلها فضلا عن كونها تحيل إلى جسمها المواد الفاسدة وتنقى الهواء فهى من جهة أخرى مؤذية بطبعها ينفر منها الإنسان فتحمله على إزالة ذلك السبب فكأن لسان حال الحيات والعقارب يقول إن لم تصلح هذا المكان أو تخرج منه وإلا لدغتك .

ولما كان الهواء الفاسد الحامل للمواد المضرة لا يحس الإنسان بضرره فيحدث الضرر فى الأجسام أو يميت الإنسان وهو لا يشعر به جعل الحكيم الخبير تلك الحيوانات وأودع فيها مما يحس بألمه الإنسان فيتنبه فيتخذ الاحتياطات اللازمة للابتعاد عنه وهو مع ذلك لم يقصد منه إلا البعد عن تلك الأماكن العفنة فضلا من الله ونعمة .

وهكذا ترى أن من على وجهه قذر يعلوه الذباب ليبقى ما عليه وخلق فى الإنسان كراهية طبيعية لذلك حتى يضطر أن يغسل وجهه فيزيل ذلك القذر فكأن الذباب شرطى (جندى) يلازم أهل القذر ويأمرهم بالنظافة وإلا ضربهم بسوط يؤلمهم وهو الكراهية الشديدة ، فسبحان من أودع فى كل صغير وكبير من الحيوانات من الحكم والغرائب ما يجهله أكثر الناس وهو نافع لهم ولذلك ضرب الله بهذه الحيوانات الأمثال حتى قال (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون) فأنكره الجاهلون من المشركين فرد عليهم بقوله (إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا) ثم بين أن الذين يفهمون ذلك هم العالمون فقال فى آية أخرى (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ، خلق الله السموات والأرض بالحق إن فى ذلك لآية للمؤمنين) فأفاد بهذه الآية أنه لا يفهم تلك الحكم إلا أصحاب النفوس العالية الشريفة الناظرون فى ملكوت السموات والأرض الذين عبر عنهم بالعالمون بكسر اللام. هذا، ومن عجيب الحكم أنه عز وجل جعل صغارها مأكولة لكبارها ولولا ذلك لامتلأ وجه الأرض منها فليس فى ملكه ذرة إلا وفيها من الحكم ما لا يحصى ، وأعجب من هذا أن كلا ما جعل سببا لهلاك حيوان جعل لحمه سببا لدفع ذلك السم فإن الأطباء الأقدمين قالوا إن فى لحم الحيوان قوة دافعة لسمه فأدخلوا الحيات فى الترياق والتجربة تشهد أن من لدغته عقرب يلطخ الموضع برطوبة لحمها فيسكن ألمها فى الحال ، ثم إن هذا النوع من الحيوانات يختلف حالها عند الشتاء فمنها ما يموت من برد الهواء كالديدان والبق والبراغيث ، ومنها ما يكمن فيه ولا يأكل شيئا كالحيات والعقارب ، ومنها ما يدخر ما يكفيه لشتائها كالنحل والنمل . فتأملى تلك الأفعال العجيبة واعلمى أن هذا العالم كله حكم ومصالح (وما يعقلها إلا العالمون) فربما ظهر للخاصة من حكمه ما لا يظهر للعامة وظهر لخاصة الخاصة ما لا يظهر للخاصة فإن من رأى تلك الحشرات الصغيرة لم يدر فى خلده أن لها بعض تلك المنافع والحكم من تلقيح الأشجار وإصفاء الجو من العفونات فهى من المعينات على ما كانا وبقاء حياتنا ، وإن من أجل الحكم وألطفها وأدقها أكل الحيوانات بعضها بعضا فكم فى الجبال والأودية والسهول والقفار من حيوانات لو بقيت جثثها لفسد الهواء ثم هبت الرياح إلى ما جاورها من البلاد وعم الخراب ولذلك قال الشيخ كمال الدين الدميرى فى [حياة الحيوان الكبرى] إن الذئب يصيد الثعلب فيأكله والثعلب يصيد القنفذ فيأكله والقنفذ يصيد الأفعى فيأكلها والأفعى تصيد العصفور فتأكله والعصفور يصيد الجراد

فيأكله والجراد يلتقم فراخ الزنابير فيأكلها، والزنبور يصيد النحلة فيأكلها والنحلة تصيد الذبابة فتأكلها والذبابة تصيد البعوضة فتأكلها اه على أن فى ذلك فضلا عن تصفية الجو تغذية الحيوانات وعدم ضياع ذلك الجسم سدى بلا فائدة فلو ترك بلا أكل لتعطلت حكمته إذ ليس فى الملك ما تضيع حكمته ألبتة ففيه دفع مضار وجلب منافع اه .

ومن الأول ما جاء فى كتاب جواهر العلوم أيضا وهذا نصه :

« ومن عجيب صنائعه كيفيات التناسل التى ليست على نمط واحد ، فإن من الحيوانات ما يتم جنينه فى داخل جسده ثم يلده كالحيوانات اللبونية ، ومنها ما تخرج بيوضها منها ثم يتخلق الجنين فيها مهيئا له داخلها جميع ما يلزم من الغذاء، وذلك كالطير وبعض الحيات ومن ذلك كيفيات الإلقاح وتغذية الجنين فإنها كيفيات متباينة تؤدى إلى مقصود واحد فبعض الحيوان لايتم تلقيح ذكره إلا إذا وصل المنى فى باطن الأنثى ولو تعرض للهواء لفسد كالإنسان وكثير من الحيوان ومنه ما يلقى منيه على بيض أنثاه بعد خروجه منها فلا يفسده الهواء ، ومنه ماسفاده فى وقت معين ، ومنه مالا تعيين لوقته ، ومنه ما يعلو أنثاه عند السفاد ، ومنه مايدابرها ومنه ما يلصق جنبه بجنبها ويحاكها حتى تلقى بيضها وهو يلقى منيه على تلك البيوض فيلحقها وذلك كبعض الأسماك ومنها ما يغذى صغاره بلبن أعده الخالق الحكيم الرحمن الرحيم فى ثدييه أو أثديته التى تكون على عدد أولاده فى الغالب ، ومنه ما يزق أولاده زقا كالحمام ، ومنه ما يسعى بأولاده ويدلها على أقواتها كالدجاج ، ومنه مايشترك فى تربية أولاده الذكر والأنثى وذلك عندما تكون أولاده غير قادرة على السعى من أول ولادتها وذلك كالعصافير والحمام والإنسان لأن انفراد الواحد بالتربية مع سعيه على رزقه أيضا يكلفه فوق طاقته ، ومنه ما تنفرد أنثاه بالتربية وذلك عند ما تكون أولاده قادرة على السعى وذلك كالدجاج والحجل فإذا تأمل العاقل فى هذه العوالم وجدها تسعى لمقصود واحد خاضعة لإرادته متجهة لنظام الكون متعاونة على إكماله ، فالعلويات والسفليات مرتبطة ارتباطا تاما بقوانين الجذب العام والتثاقل وعقول بنى آدم وإدراك الحيوانات وما بينها من المحبة والألفة والشوق فالجذب العام كمحبة عمومية بين جميع أجزاء العلويات والسفليات وحب الحيوانات لبعضها وشوقها روابط جزئية بين أجزاء صغيرة من هذا الكون فكل ما تراه فى الحقيقة إنما يسعى للنظام التام وهو يظن أنه يسعى لمصلحته الخاصة ، انتهى ما أردته من كتابى جواهر العلوم .

اللطيفة الثالثة

فى قوله تعالى « الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان » الخ[1]

اعلم أن هذه الآية قد كنت رأيت فى المنام منذ نحو ٢٧ سنة حينما كنت أؤلف كتاب جواهر العلوم وأنا مقيم بالجيزة أن قائلا قرأ هذه الآية أمامى ، وألقى فى نفسى أن معناها ماتقدم من أن النظام تام فى هذه الدنيا ، وأن الأحكام الشرعية والقضاء تكون على حسب الظاهر ولم يبق إلا الباطن فيرجع إلى النظام العام وهو يكون يوم القيامة ، ولذلك لما استيقظت من النوم كتبته ثم أدرجته فى الكتاب ، فأنا اليوم أحمد الله عز وجل إذ حييت على هذه الأرض حتى أتيح لى تفسير القرآن ووصلت إلى نفس الآية ، وأقول الآن إنى لما استيقظت من النوم إذ ذاك وفكرت فى الآية ؛ لم أكن لأصدق أن الآية كما رأيت فى النوم ،

(١) سيأتى فى اللطائف العامة دلائل بقاء الأرواح ألقاها خطيب مصرى على سبيل الخطابة وهكذا آراء أفلاطون والمؤلف مع بدائع التفسير هناك .

بل

بل ظننت أنها حصل فيها تغيير ؛ فلما سألت مدرس القرآن بالمدرسة قرأها لى كما رأيت ، ونظرت المصحف فوجدتها كما هي طار قلبى فرحا ، وكتبت للمعنى فى كتابى « جواهر العلوم » ، وقد كتمته فى نفسى ، وها أنا ذا اليوم أكتب لك ما جاء فى « جواهر العلوم » وإن لم أذكر فيه من أين جاء وهذا نصه :

﴿ الفصل السادس عشر ﴾

فى الاستدلال على اليوم الآخر وعلى وجود الله بأدلة عقلية قريبة غريبة

ثم قال إبراهيم : قد تكلمنا فى مجالسنا السابقة على كثير من دلائل قدرة الله عز وجل ، وهى فى الحقيقة أدلة عقلية ، فهل عندك من دليل غير ما يذكرونه فى كتب علم الكلام بحيث يكون مقنعا للعقول فأنا كثيرا ما أسمع قولهم فى كتب التوحيد إن دليل الآخرة سمعي ، أى إننا نأخذه من الأدلة الشرعية لا من العقل . قالت الفتاة : أنا لا يمكننى أن أقول غير ما سطر فى كتب التوحيد . فقال إبراهيم . أنا قد خطر لى دليل لا يفهمه إلا أولو الألباب والراسخون فى العلم . فأشرق وجه الفتاة وقالت هات ما عندك :

فقال من نظر بعين البصيرة ، فيما أودع فى هذا العالم من الحكم والعدل والقوانين السارية فى العلويات والسفليات والحيوانات ولغاتها وإدراكاتها وعقولها حكم بالبداهة على أنها جارية على نواميس حقة وحساب منتظم دقيق لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها هذه الكواكب والشمس والقمر سابحة فى مداراتها على قوانين لا تقبل التغيير والتبديل ثم لننقل نظرنا إلى السفليات نجدها حذت حذو العلويات فى النسق والترتيب والنظام فأى حيوان تعدى طوره وأى نبات تجاوز سنته ثم لننظر العقول البشرية نجدها مفطورة على حب العدل والنظام وحذت حذو ذلك النظام الأعلى فلا ترى إنسانا على وجه الأرض إلا واستحسن العدل واستقبح الجور ولذلك ترى أرباب القوانين المخترعين لها من نوع الإنسان بل المستنبطين لها فى الحقيقة من الشرائع الإلهية يحثون على بواطن القضايا كظواهرها هذه الدول الغربية أمامنا كم ينفقون الأموال ويرسلون إلى الجهات المتباعدة من يبحث على الجانى ولو أنفقوا ما أنفقوا وكل ذلك لميل العقول إلى العدل ، وأن يجازى المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ومالنا ولأرباب القوانين والساسة فلننظر إلى سيد العائلة فانه يعاقب على ذنوب أهل منزله ويجازى كلا بما فعل بل أى إنسان ولو من أضعف الناس عقلا وأقلهم إدراكا . رأى رجلا يضرب آخر فإنه لا يتمالك نفسه أن يأخذ بناصر الضعيف « فطرة الله التى فطر الناس عليها » دعنا من الإنسان وانظرى الحيوانات فإنه مركوز فى جبلتها العدل أيضا لما شوهد كثيرا فيها بل كثيرا ما علم أنها تعاقب بالقتل على التهمة بالزنا وغير ذلك مما هو مشاهد فثبت أن هذه الفطرة منبثة فى كل حى على وجه البسيطة بل هى من الموازين التى قامت بها السموات والأرض واستقر بها كل موجود ، ومن المعلوم لكل من اطلع على علم الهيئة والفلك والنبات والحيوان والإنسان وعلوم الأحكام والمنطق وعلوم الأدب كاللغة والنحو والصرف والمعانى والبيان والبديع وغيرها أن هذه العلوم كلها قوانين تدلنا على سريان النظام فى كل شىء من الموجودات وعلى نهجها وضعت قوانين للمجرمين فى هذا العالم وتجرى على يد الانسان ولكنها مهما بالغ العقلاء فيها لا تحكم إلا على الظواهر ولا يمكن وصولها إلى الحقائق بوجه ما ، فهى أشبه شىء بالجمال الظاهرى فإنه يدل فى الغالب على الجمال الباطنى ومن غير الغالب قد تختلف القضية فكذلك الأحكام بالقوانين الشرعية أو الوضعية تابعة لأقوال الشهود والقرائن ودلالتها ظاهرية فقط وقد قدمنا أن كل شىء فى العالم يسير على نهج الحق والصدق والميزان العدل فلا بد أن يكون لباطن هذه القضايا حاكم يحكم فيها فى وقت آخر حتى يكون ميزانها على حسب الموازين الأخرى الصادقة

من العلويات والسفليات وأيضاً قد تقرر أنه لا يضيع شيء سدى في هذا العالم كما هو مقرر في العلوم الطبيعية فلا تضيع حركة ولا حرارة ولا كهربائية فطبل تنقلب الحركة حرارة والكهربائية تكون حرارة ثم ضوءا فهكذا تنقلب هذه الأعمال في الآخرة نعيما أو عذابا أليما فتذكروا يا أولى الألباب ؛ فلم تضيع أعمال العباد والذين لم يؤخذ بناصرهم أو الذين أحسنوا في هذه الدنيا ومن تأمل فيما قلناه فهم معنى قول الشاعر :

من يزرع الشر يحصد في عواقبه　　ندامة ولحصد الشر إبان

وقول الآخر :

من يفعل الخير لايعدم جوازيه　　لايذهب العرف بين الله والناس

وقول الآخر :

الخير أبقى وإن طال الزمان به　　والشر أخبث ما أوعيت من زاد

ألا ترى أن زارع الورد لا يجنى الشوك وزارع النخل لا يجنى الذرة . وعلى هذا القياس ترى النفوس تتأثر بأقوالها التى تصدر منها حسنا وقبحاً فمن أكثر من ذكر شيء أحبه بل خاطر الإنسان يؤثر على أخلاقه شرفا وضعة فعلمنا أن هذه القاعدة مطردة في المحسوسات والمعقولات وجميع الموجودات ومن فهم ماقدمنا جزم يقينا أنه لابد من يوم يقوم الناس فيه لرب العالمين حتى يقوم بين الناس بالقسط لما ثبت أن كل هذا العالم قائم بالعدل وبقيت أعمال الإنسان لم توزن إلا وزنا ظاهرياً فلا بد من وزن آخر ليكون فصلا حقا بميزان عدل لابخس شعيره وكيف ينتقم رئيس الأسرة وسيد العشيرة من المسيء ويحسن إلى المحسن ولا يفعل ذلك رب الأرباب (أفنجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار) (أفنجعل المسلمين كالمجرمين مالكم كيف تحكمون) (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لاترجعون) (أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون) ثم إن كل ماصرحت به أو لوحت في هذه المقالة من بحر آية من القرآن وهي قوله تعالى (الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان) قد فسر بالعدل والتسوية كما في الخازن والنسفي (وما يدريك لعل الساعة قريب) فليتأمل العقلاء ومايدريك لعل الساعة قريب بعد قوله «أنزل الكتاب بالحق والميزان» وليلاحظوا ماذكرناه في هذه المقالة يظهر وجه هذا التعقيب العجيب، ثم أعقب ذلك بقوله جل شأنه (يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ألا إن الذين يمارون في الساعة) يخاصمون فيها أو يشكون (لفي ضلال بعيد) عن الحق لعدم فطنتهم وإدراكهم موازين هذا العالم وفطرة حيوانه على الجزاء وعدم تدبرهم ما أنزل في الكتب السماوية للمطابقة تمام المطابقة لما يرى في العوالم بالعقل والنظر الصحيح على أن لنا وجها آخر في ذلك وقد عرضته سابقا على أكابر العقلاء والعلماء فاستحسنوه جدا وهو أن كل بني آدم على أي دين تراهم يحبون تخليد أسمائهم إما نقشاً على الأحجار أو في الكتب المؤلفة أو على ألسنة الناس وأيضاً يحبون الخلود وطول الأعمار، ولا نرى أحدا يحب الفناء إلا من شذ شذوذا بينا ثم ذلك الشذوذ لايدوم وأيضاً نرى جميع أهل الأرض قاطبة يزورون موتاهم ويتصدقون على أرواحهم وإذا نظرنا إلى هذه الفطر الثلاث المنغرسة في نفوس البشر دلتنا دلالة واضحة على أن لنا بقاء بعد موتنا إذ جميع فطرنا التى فطرنا عليها صادقة وليس فيها كاذبة ألبتة ولعمرى لايفهم ما قلناه إلا من درس جميع العلوم وعرفها حق معرفتها ألا ترى شهوة الغذاء والتناسل والغضب وما فينا من حياء وجبن وكبر وشجاعة وغير ذلك فكل هذه الفطر خلقت فينا لمصالح صحيحة ومنافع عظيمة وكلها فطر صادقة كما يعرفه أهل العلم فكذلك هذه الفطرة لحبنا البقاء وتخليدنا أسماءنا دليل على أن لنا بقاء بعد الموت وزيارة الأحياء للأموات وعموم هذه العادة في جميع بني آدم دليل على وجود أرواح الأموات وإلا

ثما هذا التهافت على المقابر والتصدق على الأموات ولنا وجه آخر وهو أننا لا نقنع فى هذه الدنيا بمال ولا علم مصداقا لقوله صلى الله عليه وسلم (منهومان لايشبعان طالب علم وطالب مال) وكل نفس من النفوس البشرية تستشعر فى نفسها حب لذة أعلى من جميع اللذات فى العالم المشاهدلها بدليل أنها لاتقف عند حد محدود بل كلما ارتفعت زهدت فيما وصلت إليه وأحبت أعلى منه وما سمعنا بأن أحداً قال غير هذه العبارة (هل من مزيد) فهذا لاستشعار النفوس جميعها بأن لها لذة أعلى من هذه فلا بد أن تكون فى عالم آخر الذى يطابق وصفه ما أحبته النفوس وحنت إليه .

وهذه الأدلة كلها لم أرها فى كتاب وإنما هى سوانح (١) ويقرب من هنا أن كافة بنى آدم يميلون إلى عبادة الخالق فى كل صقع من أصقاع الأرض حتى أهل جزائر المحيط الهادى الذين تباعدت ديارهم عن المتمدينين وإنما اختلافهم فى تعيينه فمنهم من ظنه شجراً ومنهم من ظنه تمثالا ومنهم مما لا يحصى كما هو معلوم مستفيض شائع ولا شك أن هذه الفطرة وحدها كافية للاستدلال على صانع هذا الملك العظيم . فأعجب الفتاة ما قال إبراهيم وقالت ما سمعت أدلة أوضح وأبين من هذه اه ما جاء من كتابى جواهر العلوم .

فالحمد لله الذى وفقنى إلى تأليف هذا التفسير والشكر له على أنى عشت حتى وصلت إلى تفسير هذه الآية وذكرت ما كان خطر لى منذ ربع قرن فأكثر : وما كان ليخطر لى إذ ذاك أنى سأكتب هذا أو أنشره بين الناس فالحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الخامسة

فى قوله تعالى «وأمرهم شورى بينهم»

أذكر فى هذا المقام ما اتفق لى أثناء هذا التفسير إذ ألغى الترك دولة الخلافة وأقاموا الجمهورية مقامها وكتب المسلمون فى ذلك . وطلب منى بعض أصحابى أن أكتب فى هذا الموضوع فكتبت رسالة فى جريدة « المقطم » وقد تقدمت فى سورة النساء .

هذا ولنذكر هنا ما جاء فى جريدة «وادى النيل» يوم الخميس ٢٩ ربيع أول سنة ١٣٤٧ هجرية الموافق ١٣ سبتمبر سنة ١٩٢٨ م فى معنى هذه الآية . وإنما ذكرناه هنا لما فيه من الأخبار لزيادة الفائدة ، فقد جاء فيها ما نصه :

الدين والدستور

جاءتنا هذه الرسالة ونحن ننشرها عملا بحرية النشر محتفظين برأينا الذى أبديناه من قبل فى هذا الموضوع

ثارت مناقشات عنيفة بين الشيخ محمد شاكر والسيد وحيد الدين الأيوبى فى مرجع الضمير من قوله تعالى «وأمرهم شورى بينهم» وقوله تعالى «وشاورهم فى الأمر» فجعله الأول خاصا بأولى الرأى المعتد بهم فى الإصلاح

---

(١) اطلعت بعد هذا على استدلال أفلاطون بحب البقاء والخوف على الحياة على أن هناك أمرا ثانيا وهى صورنا الدائمة فى عالم آخر ثم اطلعت على بقية هذه الوجوه فى كلام الحكماء بعد تأليف هذا الكتاب بسنتين فحمدت الله حمدا كثيرا اه المؤلف

وجه الثاني عاما لجميع الأفراد ، ومع كثرة المقالات في أعداد المقطم واتساع نطاقها خرج الفريقان من الميدان على غير نتيجة للقراء .

ولما كان البحث دينيا يجب تمحيصه لخلوص العقيدة اضطررنا العودة إليه من غيرهما فلم يكن : فكان حقا علينا وعلى جريدة وادي النيل بالأخص - لأنها المدافعة عن الدين الإسلامي والشرق - أن نفتح هذا الباب مرة أخرى لفحص علله وضباره فنقول : إن المشاورة في الأمر هي المشاركة في الآراء للحصول على النتائج النافعة لاقتنائها أو الضارة لاتقائها . ولن تكون كذلك إلا من أهل الحكمة والفقه والتقوى والأمانة قال تعالى « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون » وروى البخاري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « مابعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان - أي وزيران - بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه فالمعصوم من عصم الله تعالى » قال في القسطلاني فيؤخذ من هذا الحديث مشروعية أن يكون عند الحاكم أهل مشورة من أهل التقوى والعلم والأمانة اه .

وقد استشار رسول الله صلى الله عليه وسلم خواص أصحابه في غزوة بدر ثلاث مرات ولم يستشرهم كلهم. وفي ثالث مرة قال له زعيم الأنصار سعد بن معاذ : يارسول الله كأنك تعرض بنا ولعلك تخشى أن تكون الأنصار ترى حقا عليها ألا تنصرك إلا في ديارهم ، وإني أقول عن الأنصار وأجيب عنهم فاظعن حيث شئت وخذ من أموالنا ماشئت وأعطنا ماشئت وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت ، وما أمرت فيه من أمر فأمرنا تابع لأمرك فوالله لئن سرت حتى تبلغ البرك من غمدان لنسيرن معك ، والله لئن استعرضت بنا هذا البحر خضناه معك ، وقال له المقداد : لانقول لك كما قال قوم موسى لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ولكنا نقاتل عن يمينك وعن شمالك ومن بين يديك ومن خلفك ففرح رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لهم «سيروا وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين وإني قد رأيت مصارع القوم اه» .

وروى البخاري «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال حين أذن له المسلمون في عتق سبي هوازن وكانوا جاءوه مسلمين وطلبوا منه أن يرد عليهم سبيهم وأموالهم ، فمن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول مايفيء الله علينا فليفعل فقال الناس قد طيبنا فقال صلى الله عليه وسلم إني لا أدري من أذن منكم ممن لم يأذن فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم فرجع الناس فكلمهم عرفاؤهم فرجعوا (أي العرفاء) إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبروه أن الناس قد طيبوا وأذنوا له أن يعتق السبي» اه من الفتح. وكان هؤلاء العرفاء زعماء المجاهدين وكلمتهم نافذة ولم يرجع العرفاء لكافة المسلمين في هذا الحكم الديني بل إلى البعض ويشترط في العريف أن يكون كفؤا عالما فطنا وقورا له رأي بارز لأنه عضو عامل في المملكة كالعضو العامل في الجسد ولكل عضو من الجسد خاصية يمتاز بها عن غيره قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لقد هممت أن أبعث إلى الأمم رجالا يدعونهم إلى الإسلام ويرغبونهم في الدين فأبعث ابن أبي كعب وسالم مولى أبي حذيفة ومعاذ بن جبل كما فعل عيسى ابن مريم عليهما السلام فقالوا يارسول الله أفلا تبعث أبا بكر وعمر رضي الله عنهما فقال صلى الله عليه وسلم هما لابد لي منهما ، هما مني بمنزلة السمع والبصر» اه يعني أن يستشيرهما في الأمر وهما خواص من خواصه في الشورى ولو كانت عامة لاستغنى عنهما بغيرهما .

وقال صلى الله عليه وسلم «إن الله يرضى لكم ثلاثا : أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولاتفرقوا وأن تناصحوا من ولاه الله عليكم» رواه مسلم والمناصحة هي المشاورة في الأمر ، والناصح لايكون جاهلا أو مفسدا . وقال صلى الله عليه وسلم «العرافة حق ولابد للناس من عريف والعرفاء في النار» رواه أبو داود ، قال في الفتح (قوله) والعرفاء في النار يشعر بأن العرافة على خطر ، ومن باشرها غير آمن

من الوقوع فى المحظور وترك الإنصاف للنفس إلى الوقوع فى المعصية فلهذا يجب أن يكون من ذوى الأمانة والعلم والتقوى .

ولما طعن سيدنا عمر رضى الله عنه قيل له استخلف ، قال إن هذا الأمر شورى بين ستة رهط من قريش وأرسل إليهم وهم على بن أبى طالب وعثمان بن عفان وطلحة بن عبد الله (وكان غائبا) والزبير بن العوام وسعد بن أبى وقاص وعبد الرحمن بن عوف وحينا اجتمعوا لديه (ماعدا طلحة) قال يامعشر المهاجرين الأولين إنى نظرت فى أمر الناس فلم أجد فيهم شقاقا ولا نفاقا فإن يكن بعدى شقاق ونفاق فهو فيكم تشاوروا ثلاثة أيام فإن جاءكم طلحة إلى ذلك وإلا فأعزم عليكم بالله لاتتفرقوا من اليوم الثالث حتى تستخلفوا أحدكم فإن أشرتم بها إلى طلحة فهو لها أهل وليصل بكم صهيب هذه الثلاثة أيام التى تتشاورون فيها فإنه رجل من الموالى لاينازعكم أمركم وأحضروا معكم من شيوخ الأنصار وليس لهم من أمركم شىء وأحضروا معكم الحسن بن على وعبد الله بن عباس فإن لهما قرابة وأرجو البركة لكم من حضورهما وليس لهما من الأمر شىء وبحضرابنى عبد الله مستشارا وليس له من الأمر شىء . ثم قال : إن الناس لن يعدوكم أيها الثلاثة (يعنى عثمان وعليا وعبد الرحمن) ثم قال : فإن كنت ياعثمان فى شىء من أمر الناس فاتق الله ولاتحملن بنى أمية وبنى أبى معيط على رقاب الناس وإن كنت ياعلى فاتق الله ولا تحملن بنى هاشم على رقاب الناس وإن كنت ياعبد الرحمن فاتق الله ولا تحملن أقاربك على رقاب الناس ومن تأمر من غير إمرة فاقتلوه اه .

حصر سيدنا عمر الشورى فى ستة رهط فقط والتمس منهم إحضار بعض من يوثق بآرائهم وتلتمس بركاتهم مع أن الأمر فى الخلافة هو أهم مايستشار له ويهتم به كافة المسلمين اه .

أمين إبراهيم الأزهري

اللطيفة السابعة

فى قوله تعالى «وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم» الخ

لقد عرفت مجمل ماقاله العلماء فى الآلام التى تصيب الأطفال والبهائم والإنسان . وأزيد الآن أن بعض علماء الإسلام يقول : (إن الأطفال والبهائم لاتتألم) وهذا القول قال به بعض علماء أوروبا من الفلاسفة وعملوا تجارب على ذلك ومنهم فيلسوف ألمانى عظيم كان يقطع عضوا من أعضاء الكلبة بلا شفقة ولا رحمة وهى ترضع ولدها ولم يلهها قطع رجلها عن إرضاعها ولدها فكان هذا بعض أدلتهم .

ولأذكر لك الآن طرق النوع الإنسانى فى حال الإنسان . فإن القرآن قد فتح المجال لرقى العقول .

اعلم أن أمم الهند ترى أن الناس بعد الموت يقون فى حال أشبه بما كانوا عليه فى الدنيا من الأخلاق فإن كانوا أشرارا عاشوا عيشة بطريق التناسخ تكون عقابا لهم . والأخيار يعيشون فى حال أجمل حتى إذا خلصوا من المادة رجعوا إلى ربهم .

إليك خلاصة ما أثبته العلامة (جاكوليو) و (ديبوا دى جانسيق) و (هالهدوسيه) و (برونوف) و (روديه) و (بونسن) وكثير غيرهم . أثبت هؤلاء أن الهنود تركوا تعاليم عجيبة وفلسفة وحكمة . ومما كانوا قد اعتادوه أنهم كانوا يؤرخون موت ملك أو انتخاب (براهاتما) أى بابا البراهمة . أن يسطروا على كتاب خاص النقطة التى بلغتها الشمس فى منطقة فلك البروج فى الدرجة والدقيقة والثانية .

يقول مؤلف الكتاب : إن معنى هذا أنهم كانوا يراعون مبادرة نقطة الاعتدال التى تتقدم كل نحو

ألفى سنة برجا واحدا. وفى نحو (٢٥) ألف سنة (١٢) برجا. ويقول علماء الهند إنها (٣٦) سنه لا (٢٥) سنة فلنرجع إلى ما نحن فيه فنقول :

إن هؤلاء الهنود لهم أربعة أسفار مقدسة عندهم ، يقولون إن الله واحد، قيوم بذاته ، موجود فى كل الكائنات لاتصيبه الحواس المادية . بل الروح وحدها وهو المنزه عن كل ما يرى .

وقال كولوكا الهندى : « إن المؤمنين الأقدمين مع أنهم ألهوا الطبيعة المتعددة لم يعتقدوا إلا إلها واحدا مبدع الكائنات ، أزليا غير مادى حاضرا فى كل مكان . منزها عن كل كدر وهم . وهو الحق بذاته ومنبع كل عدل وحكمة . مدبر الكل ، والمرتب نظام العالم . لاشكل له ولا صورة ولا حد ولا نسبة» .

وكان البراهمة يقولون لمن دخل عندهم فى الدرجة الثانية هكذا : « يابنى إنه لايوجد إلا إله واحد فقط رب الجميع ، وعلة الكائنات ، والواجب على كل برهمى أن يعبده فى الباطن . وهذا سر يجب عليك كتمه عن العامة والجهال » .

ومن تعاليمهم : « إن الكائنات نشأت من الله ، وإلى الله سوف تعود بواسطة الترقى والنشوء الدائم ، والنفس بعد انفصالها من البدن لاتفقد المادة تماما وإلا لهلكت فى الكون العظيم ، بل يبقى لها جسم مصوغ من النار ، والإنسان شرارة أو شعاع من النار الإلهية تبقى مع جسمها اللطيف البهى ، ثم بعد زمن تتحد بجسد جديد منظور عند ما يأتى وقته » اهـ .

فانظر وتعجب كيف وحدوا الله كما نوحد نحن ، وكيف يقولون : « إن الميت تكون روحه فى جسد نارى بهى جميل » ولعل هذه النفس هى الصالحة وتكون الشقية معذبة بذلك الجسم النارى، كما أن حرارة الشمس تنفعنا تارة وتؤذينا تارة أخرى . وانظر كيف يقولون : « إنه يرجع بعد زمن جسما منظورا » وهذا هو البعث عندنا فى دين الإسلام إما إلى جنة وإما إلى نار على حسب الأعمال . وكانت لهم عبادة قلبية وأخلاق ذكرها (مانو) المشترع الفيلسوف قبل موسى عليه السلام بآلاف السنين : « الصبر ومقابلة الإساءة بالإحسان ، والقناعة ، والاستقامة ، والطهارة ، وكبح جماح الحواس ، ومعرفه الكتب المقدسة ، ومعرفة الله ، والصدق ، واجتناب الغضب » . فهذه هى الوصايا العشر عندهم . وبها يخرج الإنسان من العذاب بعد الموت .

وكان للهنود نساك ينفردون فى الغابات . ويعبدون الله . ويفسرون الكتب الدينية . ويعرفون أسرار الطبيعة ، ولهم بقية الآن . وعلى هؤلاء تعلم (خريستا) وهو أول مؤسس دين ظهر فى التاريخ سنة ٤٨٠٠ قبل الميلاد المسيحى ، فهاك بعض تعاليمه مما يخص ما نحن فيه أو ما يقرب منه . قال : « إن الجسد فيه النفس وهو زائل وهى باقية ، النفس سرمدية لاوزن لها ، ونصيبها بعد الموت يرجع لسر التناسخ إذا انحل الجسد عن الروح ، فإن غلبت الحكمة على النفس طارت إلى الأقطار العلوية ورأت الله . وإن كان الهوى متملكا رجعت إلى الذين هم متعلقون بالأرضيات . والمولود شقيا كان أو سعيدا نتيجة عمل سابق » .

وهنا سر أعظم من هذا ، وهو أنه « من رام بلوغ الكمال فليكتسب علم الوحدة التى هى أجل من الحكمة أى يلزمه أن يتعالى إلى الكائن الأسمى الذى هو فوق النفس المستقر فى كل منا ، إن فى باطنك صديقا إلهيا لاتعرفه لأن الله مستقر فى باطن كل امرىء ، ولكن قل من يعرف أن يجده ، فمن يضحى رغباته وأعماله للكائن الأزلى الذى منه نشأت مصادر الأشياء كلها وبه تكون العالم ، ينال بهذه التضحية الكمال لأن من يجد فى ذاته سعادته وفرحه ونوره فهو واحد مع الله ، فاعلموا إذن أن النفس التى وجدت الله تعتق من المولد والموت والشيخوخة والألم وتشرب من ماء الخلود » :

ثم جاء قبل التاريخ المسيحى بستمائة سنة (بوذا) المسمى (ساكيا مونى سودوا دانا) ملك كابيلافاستو فلما بلغ العشرين من عمره أخذ يتأمل فى حال شعبه ، وما دخل فى الدين من الطقوس والخرافات ، وله وصايا عشر وتعاليم أشبه بما تقدم ، ووصاياه هى :

« لا تقتل . لا تسرق . كن عفيفا . لا تشهد بالزور . لا تكذب . لا تحلف . تجنب كل كلمة نجسة . كن خالى الغرض . لا تأخذ بالثأر . لاتعتقد اعتقادات باطلة » اهـ .

لعلك تقول : ها نحن أولاء اطلعنا على الدرجات الثلاث لدين البراهمة ، فما فائدة ذكرها هنا ؟ أقول لك ذكرتها لتنظر فى تعاليم الأمم وتفكر فى العقائد والأخلاق . انظر إلى عقيدة التناسخ فإن الدين القديم قبل ظهور (خريستا) لا نص على التناسخ فيه ، بل قال إن الروح لها جسم نارى بهى وتبقى أمدا حتى تلبس جسما منظورا متى قضت بذلك شريعة الله ، ولم يقل بـ ـها بعد جسم ، فلا تناسخ ولا أجسام . فهذه الشريعة أشبه بشريعة الإسلام إذ جاء فيها : «إننا نعذب أو ننعم إلى يوم البعث ويكون لنا أجسام منظورة» .

ثم انظر . لما جاء خريستا ، ماذا فعل ؟ تكلم عن التناسخ . أى أن الإنسان بعد الموت إذا كان مذنبا يدخل فى جسم أرضى ويعيش مثل مانعيش نحن . ويعتبر هذا قضاء لذنوب ارتكبها . وكل مصيبة تصيبه تكون لأجل ذنب مضى .

انظر كيف يتوسع صاحب الدين المتأخر فى المعنى الذى قاله المتقدم : ثم انظر من جهة أخرى إلى وصايا (خريستا) وإلى وصايا (بوذا) ، فوصايا خريستا أرقى لأنها ترجع إلى العلم والأخلاق الباطنة ، ووصايا بوذا ظاهرية كالحلف وما أشبهه . فكأن القوم أيام (خريستا) كانوا أرقى ، وانظر إلى أمتنا الإسلامية كيف كان الصحابة والتابعون رضى الله عنهم يراعون البواطن من الإخلاص والصدق ، وكيف تأخر المسلمون اليوم فلم يعرفوا إلا العبادات الظاهرة وأكثرهم عن البواطن معرضون فلا يحاسبون عليها .

ثم انظر نظرة إجمالية فى قول الهنود : «ان الله فى باطن كل امرىء» وانظر كيف يقول الله تعالى : « وهو الله فى السموات وفى الأرض» ويقول «وهو معكم أينما كنتم» وكيف يقولون : « إن الإخلاص لله هو الذى يعتقنا من العذاب» وانظر إلى القرآن كيف كان كله على هذا النمط .

ثم انظر إلى علماء الإسلام رحمهم الله تعالى ووازن بين آرائهم وآراء الهنود لتقف على الحقائق : انظر كيف يقول علماء الهنود المتأخرون فيما تقدم : (إن المولود يكون على حسب ما كان له فى التجسد السابق . إن كان شريرا يكون هنا فى ذل ، وإن كان صالحا يكون فى حال سعيدة) .

وانظر إلى علمائنا رحمهم الله تعالى كيف نظروا الآية التى نحن بصددها وهى «وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم » الخ ؛ فقال قوم منهم ، (إن الإسلام لاتناسخ فيه) وهم جمهور الأمة ، فحصول هذه المصائب ليس بذنب سابق وإنما هو امتحان وتكليف لاعقوبة ، ومعنى قوله تعالى « فبما كسبت أيديكم » أى إن الأصلح عند إتيانكم بذلك الكسب إنزال هذه المصائب عليكم لأن الدنيا ليست دار جزاء بل هى دار تكليف » .

وقال أهل التناسخ من أمة الإسلام : (إن هذه الآية تفيد التناسخ ، ألا ترى أن الأطفال والبهائم يحصل لهم الألم فلابد أن يكون لهم وجود سابق ، والألم نتيجة ما كانوا عليه سابقا» .

وقال الذين ينفون التناسخ : كلا . فالبهائم والأطفال لا ألم عندها . والقول بالتناسخ فاسد .

وقالت طائفة : (دعونا من هذا كله) يقول الله «فبما كسبت أيديكم» هذا الخطاب للعقلاء ، فأى دخل للبهائم والأطفال ! » .

﴿ رأى المؤلف ﴾

. اعلم أن الأمم من هنود ومسلمين وغيرهم إنما يكلمون الناس على قدر عقولهم حتى نفس الأرواح كما سيأتى وإلا فالنتيجة واحدة . وإيضاحه أنه إذا فرضنا أن الناس كان لهم وجود سابق وأذنبوا فيه . فما الذنب إلا من النقص فى النفس . ولو كانت كاملة ما أذنبت . فلو قيل نقصها نشأ من الذنب السابق نقول يلزم التسلسل وهو مستحيل . فالأصل هو النقص ، والله سبحانه وتعالى يرقى النفوس بالألم كما يرقيها بالعلم والعمل وغاية الأمر أن علماء الأمم لا يريدون أن يزيدوا على ما ورد فى كتبهم والله أعلم .

﴿ آثار هذه الآية فى الأمة ﴾

عن الحسن رحمه الله قال : دخلنا على عمران بن حصين فى الوجع الشديد فقيل له ، إنا لنغتم من بعض ما نرى فقال : لا تفعلوا فوالله إن أحبه إلى الله أحبه إلى ، وقرأ « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم » فهذا بما كسبت يداى ؛ وسيأتينى عفو ربى اه .

ولعلك تقول . وما رأيك فى هذا المقام ؟ أقول لك : أما رأيى الذى ألقى الله عليه فهو أمر عام واحد لا غير وهو أن النفس الشريرة تلاقى ألما . والنفس الفاضلة تلاقى خيرا ، وهذا هو المعبر عنه بجهنم والجنة ، وجهنم ليست خاصة بالنار بل ورد فيها الزمهرير ، وقال بعض الصحابة رضى الله عنهم . «إنهم يحرقون بالزمهرير كما يحرقون بالنار» وهو عجيب جدا لأن العلم الطبيعى أثبت هذا وهو أن البرد الشديد يحرق الأجسام كالنار وهكذا فيها الحيات والعقارب . وجميع أنواع العذاب الروحى والجسمى ، والجنة بالعكس فيها جميع أنواع اللذات يقول الله : «فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين» ويقول : «فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون» .

فالمسلم عليه أن يعتقد الاعتقاد العام وهو سهل بسيط أن يفعل الخير بقدر الإمكان ويحترس من الشر ويرتقب رضاء الله .

رأى الأرواح

واعلم أن العلماء الذين يحضرون الأرواح يرونهم مختلفين فى هذه المسألة فمنهم من يقول هناك تناسخ ومنهم من يقول : كلا وهذا إما أنهم حجبوا عن الحقيقة وإما أنهم عرفوا : ولكن كل يعطى تعاليمه على حسب ما يرى من السامع . ونحن نقول : ما لنا ولهذا كله لانهتم بالتفصيل فلنجد لنخلص من المادة ونرجع إلى الله ونخلص نفوسنا من الطمع والغل والحسد وما أشبه ذلك ونملأ القلب بالمعارف والعلوم اه

﴿ اعتقاد قدماء المصريين ﴾

إن اعتقاد قدماء المصريين مشتق من اعتقاد الهنود وكما رأيت أن (كريستا) صرح بالتناسخ ولم يكن صريحا فى دينهم القديم لأن الشعب كانت حاله تقضى أن يقال لهم ذلك ، نرى قدماء المصريين لما أخذوا هذه العقيدة ألبسوها لباسا آخر ، فماذا فعلوا ؟ اعتقدوا أن الروح لها جسم ، وهذا الجسم اسمه (خات) وبعد الموت يتحول إلى جسم روحى (سعحو) وهذا الجسم يعيش مع الملائكة فى السماء . وبالاختصار الإنسان عندهم :

(١) جسم فان .
(٢) جسم روحى .

(٣) قلب .

(٤) ازدواج .

(٥) نفس .

(٦) ظل .

(٧) روح (أى مادة أثيرية لطيفة مضيئة غير ملموسة) .

(٨) (شكل إلهى) .

(٩) اسم .

ويقولون : (إن الإنسان بعد الموت يأكل مواد لاتتعفن ، ويشرب خمرا لايفسد) وبالجملة فعقيدتهم أشبه بالقرآن من حيث النعيم .

﴿ فتوح الرحمن الرحيم ، ونور الدين الإسلامى ﴾

انظر أيها الذكى تعجب من أمر الأمم ودين الإسلام ، انظر واصغ لما أقول ، وتعجب من العلم وكيف أضاء الله للمسلمين الدنيا ، وأشرقت الأرض بنور ربها .

ألا تتعجب معى فيما أقول لك ؟ أقول لك مافتح الله به الآن فقط . أنا الآن أقرأ ماسطره علماء أوروبا يوم (٢١) أغسطس سنة ١٩٣٤ ومنه مقالة عن عقيدة قدماء المصريين . انظر كيف جاء فيها أن شريعة التحنيط إنما جاءت سنة ٤٥٠٠ قبل الميلاد ، وانظر إلى ماذكرته لك ، وهو أن (خريستا) جاء قبل المسيح بنحو سنة ٤٨٠٠ وتأمل ماقلته لك ، وأن التناسخ لم يكن مصرحا به فى كتابهم المقدس وصرح به (خريستا) .

وانظر إلى قدماء المصريين . فإنهم استعملوا التحنيط خمسة آلاف سنة أى من سنة ٤٥٠٠ قبل الميلاد إلى سنة خمسمائة بعد الميلاد . أفلا ترى معى أن عقيدة (خريستا) انتقلت إلى مصر فى ثلثمائة سنة وأنهم فهموها فهما معكوسا فقالوا : «إن الإنسان إذا مات يبقى زمنا طويلا فى السماء منعما ، أو فى الجحيم معذبا . وذلك بما غلب على نفسه من صلاح أو طلاح» مثل ماقال البوذية سواء بسواء ، ولذلك جعلوا هناك ٤٢ قاضيا ولهم ميزان يزنون به قلب الميت وأعماله فتغلب الحسنات أو السيئات ويكون الجزاء على مقتضى تلك الغلبة كما رأيته فى تعليم الهنود وكما جاء فى القرآن سواء بسواء . فكأن العالم كله يفهم شريعة متشابهة من حيث الأصول . ثم انظر كيف يقول الهنود قبل المسيح بأربعة آلاف وثمانمائة سنة : (إن الإنسان يرجع بعد أمد إلى الأجسام ويولد ثانيا ، ويكون فى حال على مقتضى حياته السابقة ، ولا يزال يعود مرارا حتى يطهر وبعد ذلك يرجع إلى الله مع الملأ الأعلى) .

وقد قلنا لك إن هذه جاءت من (خريستا) لا ممن قبله أشبه بيدعقدينية . ثم انظر كيف نقلها المصريون بعد ثلثمائة سنة محرفة . فقالوا : (يرجع الإنسان إلى جسمه الأصلى) .

ياعجبا ! إن الأمم تأخذ العلوم على مقتضى أخلاقها . قد كان قدماء المصريين يعالجون عظام موتاهم بالقار لأجل حفظها من الفساد ؛ فلما سمعوا هذه الفكرة عن الهنود قلبوها إلى عاداتهم وقالوا : يرجع الإنسان لنفس جسمه الأصلى ، فأخذوا يحنطون الأجسام خمسة آلاف سنة .

إياك أن يبهرك الفلسفة والعلم والحكمة عند قدماء المصريين ، فتقول : لم خرفوا ؟ فاعلم أن فلاسفة كل أمة ينشأون على العقائد التى عندهم ، فإذا رأيت الزخرفة والنقش والحكمة ، وماأذاعته الجرائد عن قبر الملك (توت عنخ أمون) وأن فيه مسرجتين من مرمر لما أوقدوا المصباح فيهما ظهرت صورة الملك والملكة بألوان باهرة ، فلما انطفأ المصباح ظهرت المسرجتان بحالهما تماما لاصورة فيهما ، وقد قيل إن هناك (٣٠)

صندوقا مختومة بختم الملك لم تفتح وستفتح فيما بعد ، والسائحون من سائر أقطار العالم يغدون على بلادنا لمشاهدة هذه العجائب

وظهر قبر اخر بجوار الهرم على بعد (٣٠) مترا من سطح الارض ، ويقال إنه كشف عظيم الأهمية

أقول : إذا سمعت ذلك فلا تدهش لأن الأمم كلها أشبه بعيال عند صاحب العقيدة . فترى الفيلسوف والصانع والأمير والمزارع ، كل هؤلاء ينطقون بفكرة واحدة . أعنى أن أكبر فيلسوف عندهم لايقدر أن يقول إن هذا خرافة بل يقدسه كما يقدسه القوم . والمهندس والصانع وأمثالهما . كل هؤلاء يتقنون الصناعات وهم عند الفكرة الدينية أشبه بحاشية الملك والرعية كلهم يقدسونه ولو كان فاسقا ويطيعونه . هكذا عقيدة التناسخ التى ظهرت فى الهند وغيرت وجهتها فى مصر إلى رجوع النفس إلى جسدها نفسه بقيت أمدا طويلا حتى جاء دين المسيح ودين الإسلام فغيرت العقيدة

تعيش الأمم آلاف السنين ولا تتزحزح عن عقائدها . حتى إذا جاء مصلح غيرها ، فهاهنا جاء الإسلام ونزل فى القرآن أننا بعد الموت نعذب أو ننعم ، وأننا نحشر على مقتضى سابق حياتنا ، وأن منا من ينظرون ربهم . ومنا من يحجبون عنه وهكذا . فلم يذكر رجوع الجسم للولادة مرة أخرى ولا رجوعه لجسمه ثانيا

ثم انظر إلى الأمة الإسلامية كيف احتجبت أنظارها الآن عن أسرار الكون وبدائعه وغاب عنها ذلك وتشبثت بالوقوف على الظواهر ، وأن الله اليوم يريد رجوعها إلى أصل دينها ، وما أصله إلا النظر فى عجائب العلم والحكمة ، ودراسة الكون الذى نسكنه حتى نلاقى ربنا ونحن نعرفه ونحبه ، ونكون فى الدنيا قد قضينا ما علينا لأمتنا وللأمم حولنا ، فإننا نحن — خير أمة أخرجت للناس .

ليكن المسلم خليفة الله ، ليكن العالم كله تحت رعايتنا . لنكن خلفاء الله فندرس نظامه ونكفل عباده لأنهم إخواننا ، فمن دخل فى ديننا فيها ، ومن لم يدخل أعناه ، وراعيناه وأعطناه ، وإن اعتدى أدبناه ، هكذا جاء ديننا ، ولنرجع إلى أخلاق السلف الصالح من الشفقة والإخلاص ومراعاة أحوال القلوب ، وذلك هو الذى يرمى إليه الإسلام ، بل هو مستقبل الإسلام والمسلمين .

﴿ سؤال ورد على المؤلف ﴾

ولما وصلت إلى هذا المقام . قال لى أحد الفضلاء : كيف يعقل أن يحنط المصريون موتاهم بمجرد ما سمعوا التناسخ عن (خريستا) بالهند . قلت له : إن القوم قصة خيالية لهذا الغرض قد تقدم ذكرها فى هذا التفسير ، يزعمون أن (أوزيريس) كان محبا للمصريين ولنوع الإنسان كله ، وأخذ معه (توت) وسار بجيوشه وفتح الأرض كلها باللطف لا بالحرب ، فلما رجع إلى مصر حسده أخوه (سيت) ، فصنع صندوقا جميلا ، وصنع وليمة ، وقال : من كان هذا الصندوق على قدر جسمه فليأخذه لنفسه ، فكان ذلك على قدر (أوزيريس) فأطبق الصندوق عليه خيانة ورموه فى النيل ، فقامت زوجته إزيس وجزعت وقصت شعرها وبحثت عن الصندوق فوجدته على شاطئ فينيقية ، فأنزلوه فى سفينة إلى آخر ما تقدم ، وإنها وضعته عند غابة ، فعثر عليه (سيت) فقطع أخاه أربع عشرة قطعة ودفنها فى مواضع كثيرة ؛ ثم جمعتها هى وحنطتها وهنا بيت القصيد ، فتكون إزيس حنطت أوزيريس زوجها هى التى أثارت هذه الثائرة . ولكن الذى أقول إن هذه الخرافة لا تكفى فى هذا العمل الشاق ؛ فلابد أن تكون العقيدة هندية لاتفاق المؤرخين . فأما هذه الخرافة فهي لاتستعبد أمة بتمامها . انتهى والله أعلم .

اللطائف العامة للسور كلها[1]

اللطيفة الأولى

بهجة العلم فى الحكم المودعة فى بسم الله الرحمن الرحيم . حم . عسق
بدائع أسرار التنزيل
(بسم الله الرحمن الرحيم)

فى ليلة الجمعة ٣١ أكتوبر سنة ١٩٣٠ استيقظت قبيل الفجر . ولكنى لم أستطع أن أقوم بعمل ما من عبادة أو علم لعارض جسمى طارئ علىّ ، فخيل لى كأنى انسلخت من هذه العوالم المادية ، وكأنى أنظر إلى المجرات وشموسها ، والسدم وأحوالها . ولا جرم أن الخيال لكل امرئ لا يعدو ماعرفه . ونحن نعرف أن مجرتنا التى شمسنا فيها قد عرفت الأمم أن شموسها بحسب ما وصل إليهم تبلغ عشرة آلاف مليون شمس وهذه مجرة واحدة من آلاف الملايين منها . وهكذا خيل لى أيضا أنها كلها دائرات وحولها سياراتها وأراضيها وأقمارها . وكل شمس لها حركة خاصة كما أن كل سيار له حركة خاصة حول شمسه وكل قمر حول الكوكب السيار فإذا اجتمعت هذه كلها مرة واحدة ولا حظها الإنسان خيل له كما خيل لى أن العالم كله موسيقى فوق ما يتصوره المفكرون . ونغمات بهجات فوق ما يبتهج به المبتهجون .

الله أكبر . هنالك ازددت فى الخيال تعمقا . وتوغلت النفس فى صورها . وابتعدت عن العالم المحسوس إلى عالم الخيال المحض ، فهنالك هنالك خيل لى كأن إنسانا تراءى لى ، وجسمه من النور ، ولكن له جميع خصائص الإنسان الجسمية ، إذا هو يحدق ببصره إلىّ ؛ فأخذ فكرى يجول فى أمره ، وفى نظراته ، وفيم يتفرس من أمرى ، وأى الأمور يريد أن يحدثنى بشأنه ؟ فابتدرنى قائلا : (وفى ذلك فليتنافس المتنافسون) فقلت : خبرنى ماذا تريد رحمك الله ؟ فقال : أحدثك فى أمر نفسك وأمر المسلمين فى الأرض ، فقد اتسع خيالك عليك ، وراح يجول فى ساحات واسعات ، وباحات صفت فيها الصور ، وظهرت فيها الحكم ، وبهر النور ، هذا الخيال الذى تبدى لك اليوم تابع لما قرأت من كشف الحقائق ، ولكن هناك بعد مفارقتك هذا البدن سترى ما هو أعجب وأبدع ، نظراً حقيقيا لا خياليا ، وإذا كانت المسرة التى تحس بها نفسك الآن تكاد تكون فوق طاقتها ، فذلك لأنها محبوسة فى المادة ، ولكن إذا انطلقت منها ستحتمل من اللذات ما لا حد له ويكون ذلك على مقتضى العلم ومقتضى العمل « ولكل درجات مما عملوا » .

أنت الآن تتخيل الموسيقى فى العالم العام تخيلا وهناك سيكون ذلك حقيقة . فقلت وكيف تقول إن هذا العالم موسيقى ، وهل هذا المنظر الذى يخيل لى له مناسبة ما بالسور التى تطبع الآن فى التفسير ؟ إن الله عزوجل عودنى أثناء طبع هذا التفسير أن لا يمر بخاطرى فكر قوى إلا كان مناسبا أشد مناسبة لما أنا بصدده فهل هذا الخيال من هذا القبيل ؟ فقال إى وربى . فقلت : وكيف ذلك ؟ قال : إن هذه المناظر سيتجلى بها بعض أسرار « بسم الله الرحمن الرحيم . حم . عسق » فازداد عجبى ! وقلت : فلا تتركنى يرحمك الله . فقال : كلا لا أتركك فاستبشر وقر عينا ، فإنى مرسل من عالم آخر لأقر عينك فى هذا التفسير ولكنى لم أحضر فى خيالك إلا الآن . فقلت ؛ كيف أعرف أن هذه المناظر مفسرات لما ذكرتم . فقال لأسألك أولا :

---

(١) هذه اللطائف لم يكن لها وجود عند التأليف ولم يفتح الله بها إلا عند طبع هذه السورة . المؤلف

(١) ما صفة الموسيقى عند القدماء .
(٢) وما هيئتها عند علماء العصر الحاضر .
(٣) ثم ما صفة الموسيقى فى العالم كله الذى تخيلته أنت الآن ، وهل هذا النظام البديع تابع لعلم عالم حكيم أم هو مصادفة .
(٤) ثم ما نتائج هذه النظم كلها من الرحمات .
(٥) ومتى أحس العقلاء بالرحمة وعلموها حمدوا مسديها .
(٦) وهنالك يتجلى معنى البسملة والرحمة فيها ، ويتجلى معنى الحاء والميم والعين والسين والقاف ، إذن فى المقام ستة فصول ، فها أناذا سائلك فى :

الفصل الأول والثانى

ما صفة الموسيقى عند القدماء ، وما صفتها عند علماء العصر الحاضر

فقلت يا سبحان الله . أنا لست من علماء الموسيقى حتى تسألنى هذا السؤال . قال نعم . أنت لست من علمائها . ولكن لك إلمام بها إلماما علميا ، فاذكر ما تعرفه . فقلت أنا أتذكر أن (فيثاغورس) الفيلسوف سمع مطارق حداد فأطربته رناتها ، وسرته مناسبتها ، فوزنها فكانت نسبتها هكذا ٦ و ٨ و ٩ و ١٢ فأتى بأوتار أربعة متساويات طولا وسمكا ، وعلق فيها أثقالا على هذه النسبة ، فكانت مطربة مفرحة تشرح صدور البائسين . هذا كان أول ما خطر له ووضعه . فقال هذه العبارة بالحرف من كتابك «الموسيقى العربية» ولكن هناك أمر آخر أقرب من هذا . فقلت نعم فى كتاب [إخوان الصفاء] فإن أوتار العود لها نسب غير هذه والأوتار عند القدماء أربعة وهي (الزير والمثنى والمثلث والبم) وهى مرتبة من أعلى إلى أسفل ، وقد كانوا يظنون أنها مناسبات لكرة الأثير والهواء والماء والارض بهذا الترتيب ، الأعلى مماثل للأعلى والأدنى مماثل للأدنى ، وقد قالوا :

« إن وتر الزير مركب من (٢٧) طاقة من الحرير ، والمثلث يزيد عليه الثلث فهو (٣٦) طاقة والمثنى يزيد عليه ثلث (٣٦) فهو إذن (٤٨) والبم يزيد على ما قبله ثلثه وهو (١٦) فيكون (٦٤) وبهذا انتظمت النغمات وابتهجت النفوس » .

قال هذا هو الذى كنت أريد أن أسمعه منك ، هذا فى القديم ، فهل تذكر نظير ذلك فى الموسيقى الحديثة . فقلت : لا أذكر الآن . فقال عجبا ! تتذكر ما فى كتابك فى الموسيقى وقد مضى على تأليفه سنون ولا تتذكر ما كتبته فى ﴿ سورة مريم ﴾ من الموسيقى الحديثة ، فقلت نعم أتذكر الآن أنى ذكرته هناك وهو « إدراك الإنسان للأصوات ينحصر فى (١٠) دواوين أى أبعاد كلية موسيقية . فاذا ورد على الأذن (١٦) موجة فى الثانية ، فهذا أقل الأصوات ثم ٣٢ — ثم ٦٤ — ١٢٨ — ٢٥٦ — ٥١٢ — ١٫٠٢٤ ٢٫٠٤٨ — ٤٠٩٦ — ٨٫١٩٢ — ١٦٫٣٨٤ » .

ومعنى هذا أن أسماعنا تفرح بنظام الحركات بأى شكل كان ، ففى العود العربى القديم تفرح نفوسنا بالنظام المبنى على ازدياد الطاقات بالثلث ويكون ذلك منتظما . وهاهنا تفرح النفس بما تحس من نظام المتوالية الهندسية البديعة . فنفوسنا هى هى قديما وحديثا لا تفرح إلا بما هو منظم ، وأقرب شىء لها الأصوات التى يعرفها الجهلاء والعلماء . فقال أحسنت أحسنت ، أتم القول . فقلت : أما نظام الأفلاك وحركاتها وعجائبها ونظام الطبيعة فليس يدركه إلا الأقلون . فقال هذا هو الذي أريد أن أختبرك فيه .

الفصل الثالث

فى النظام العام فى العالم

فحدثنى إذن: هل النظام العام على مثال ما رأيت الآن فى الموسيقى القديمة والحديثة . قلت نعم . فقال: فاضرب لى أمثالا . فقلت :

﴿ أولا ﴾ إن أبعاد السيارات تتبع نظاما معلوما، فإذا أخذنا الأرقام التالية وهى (٣ و ٦ و ١٢ و ٢٤ و ٤٨ و ٩٦) ثم أضفنا (٤) إلى كل رقم كانت سلسلة متتابعة تفهمنا نسبة مسافات السيارات وأبعادها عن الشمس وهى (عطارد ، الزهرة ، الأرض ، المريخ ، المشترى ، زحل) فهى على هذا الترتيب فى بعدها عن الشمس أى أنها على مقتضى المتوالية الهندسية (وبعبارة أخرى) هى أشبه بالدواوين المتقدم ذكرها فى الموسيقى الحديثة التى يدرسها الفرنجة الآن فى قسم من أقسام العلوم الطبيعية ، فأما الأقدمون فكانوا يدرسونها فى العلوم الرياضية ولكل وجهة صادقة ، فالموسيقى ترجع للصوت أولا وحسابه ثانيا ، فالقدماء جعلوها فى علوم الرياضة لمكان حسابها ، والمتأخرون جعلوها فى العلوم الطبيعية لأن الصوت أمر طبيعى لأنه حركات فى الهواء .

﴿ ثانيا ﴾ إن الحجر إذا نزل من أعلى الجبل إلى أسفل البركان حسابه هكذا : فى الثانية الأولى يقطع (١٦) قدما إنجليزيا ، وفى الثانية الثانية نضرب هـذا العدد وهو (١٦) فى (٣) ، وفى الثانية الثالثة نضرب هذا العدد فى (٥) وهكذا (٧) و (٩) و (١١) و (١٣) إلى مالا يتناهى .

وإذا ربعنا الثوانى وضربنا المربع فى (١٦) يكون الحاصل ما قطعه الحجر جميعه ، فإذا مضت ثانيتان ضربنا ٢ فى ٢ يساوى ٤ ونضربها فى ١٦ ، وإذا مضت ثلاث ثوان ضربنا ٩ فى ١٦ وهكذا ، فهذه كلها مضاعفات منظمات كما انتظم ما قبلها .

ثم توقفت عن القول برهة . فقال : فكر فيما كتبته فى [سورة الرعد] عند قوله تعالى « وكل شىء عنده بمقدار » .

﴿ ثالثا ﴾ وذلك فى أمر الصوت والنور والحرارة والجاذبية، فهذه الأربع تقل بمقدار مايزيد من البعد عن الجسم الحار والجاذب والمنير والذى منه الصوت فتذكرت ذلك ، وهناك أمثلة تبين المقصود فلم أشأ أن أكتبها هنا خيفة الإطالة ، وهنالك نظام وحساب فى سير الأجرام الفلكية أقربه ما تقدم فى [سورة يس] وفى [سورة الزمر] وتجد فى [سورة يس] أيضا موازنة ما بين الشعر والموسيقى وحساب الفلك ، كل ذلك تقدم موضحا .

فهذه النظم فى أبعاد الكواكب ، وفى سقوط الأحجار ، وفى سرعة الأصوات والأنوار الخ تحيط بالمادة وكلها منظمة أنظمة جميلة حسابية موسيقية، فإذا ترقينا قليلا رأينا نفس النور على هذا النمط: أى أنه جار على حساب باعتبار ألوانه السبعة ، ذلك أن العين لا تتأثر من تموج الأثير الذى يزيد عدد درجاته فى الثانية عن (٧٩٠) مليون مليون ، أو ينقص ذلك العدد عن (٤٠٠) مليون مليون . فأقل الألوان وأولها الأحمر وأكثرها تموجات وآخرها البنفسجى وبقية الألوان بينهما ، إذن حاسة السمع آلة لسماع حركات فى الهواء ، وحاسة البصر آلة لالتقاط حركات الأثير فتظهر لها بهيئة نور ، إن هـذه العوالم كلها حسابية موسيقية عجيبة. فما وافقنا سميناه جميلا لذيذا، وما لم يوافقنا سميناه قبيحا مؤلما، فهذه الحركات فى الهواء المحصور مابين النهايتين الكبرى والصغرى فيما تقدم ، وهكذا عـددها المحصور ما بين النهايتين

فى الضوء كلاهما قد أحدث آثارا فى أسماعنا وفى أبصارنا ، والمسألة ترجع إلى نفس الآلة ، وهكذا تقول فى نعومة الحرير وخشونة الخيش ورائحة الورد والروائح الكريهة وطعم التفاح والحنظل ، فهذه منها المكروه ومنها المحبوب، ولا حب ولا كره إلا على مقتضى للملاءمة والمنافرة ، ولا ملاءمة إلا على حسب النظام المحسوب حسابا جاريا على قوانين توافق حواسنا ،ولا منافرة إلا على مقتضى اختلاف القوانين المذكورة فما هذا العالم كله إلا حركات ، وغاية الأمر أنها باعتبار الآلات القابلة فينا أصبحت هذه نورا وهذه صوتا وهذه رائحة وهذه ذوقا الخ .

ألا ترى رعاك الله إلى ما قررناه سابقا أن كل الجوامد وكل السوائل مثلها كمثل الأنوار فى أنها حركات وتلك الحركات تمثلت لنا أجساما وأنوارا ، ومن الأجسام سوائل وجوامد وغازات ، كل هذا واضح فى مواضع كثيرة من هذا التفسير

فلما سمع ذلك . قال : أحسنت كل الإحسان ، فلنشرع فى الكلام على :

الفصل الرابع ، والخامس ، والسادس

وهو الكلام على نتائج هذا كله وهى الرحمات ، ثم ما يترتب عليها من المحامد معنى الحاء والميم ، والعين والسين والقاف .

قلت : أما هنا فإنى أرجو أن تفتح لى الباب حتى أفهم هذا المقام . فقال انظر انظر بالبصيرة ، فنظرت. فقال ما ترى ؟ قلت أرى المجرات والشموس والسيارات كلها كأنهن حفلات ذات بهجات ، وكأن النور انقلب أصواتا ونغمات ، بل هذه العجائب ألذ عند عقلى من أن أسمع نغمات العود والمغانى ، فهاهنا جمال وإبداع وحسن وكمال. فقال من الذى يدبر هذه الكواكب ؟ قلت : نفوس عالية وهى الملائكة . فقال فإذا سألك أهل الأرض وقالوا لك ما البرهان ؟ قلت : أقول لهم قد تقدم فى سورة (حم السجدة) عند آية « ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة » الخ أن النبات على قسمين . قسم يحل المواد فى الأرض . وقسم يركبها فالمحلل للمواد هى (الفطر والبكتريا) وهذه وإن جلب بعضها الأمراض فإن أكثرها لولاه لم نعش يوما واحدا لأنها تخضر الأغذية فى خبايا الأرض وتجهزها للنبات الذى يقيتنا ، بل أزيد على ذلك أن هذه الفطر (بضم الفاء والطاء) ونحوها تعيش فى الأمعاء الغلاظ تتربص الأغذية التى تمر فى الجهاز الهضمى وقد عجز عن هضمها أنواع الهاضمات من الينابيع الستة التى فى الفم ومن البنكرياس ونحوها ، فتتلقاها تلك الفطر التى لاتراها العيون ، فتحلل ما بقى فيكون بذلك تمام أغذيتنا ، ولولا هذا لم يكمل غذاؤنا ، بل نموت جوعا وإن كنا آكلين . فإذا كان غذاء النبات وغذاء الحيوان وغذاء الإنسان لايتم الانتفاع به إلا بهذه المخلوقات التى لاترى وما كان أحد فى الخلق يظن أن ذلك يحتاج لفاعل يفعله فكيف تكون شموس وكواكب وأرضون وأقمار ومجرات تجرى ولا مجرى لها ؟ فإذا كانت الأمراض كالكوليرا والتيفوس والجدرى ، وإذا كانت الأغذية كل هذه لفعلها أسباب موجودة ، فكيف يحتاج أحقر المخلوقات إلى فاعل ولا يحتاج أعظمها إلى فاعل؟ إن ذلك يخالف العقل والمنطق والصواب .

وعليه أقول: إن هناك ملائكة هى التى تدبر هذه الكواكب والمجرات والشموس وبسبب هذا الدوران المختلف حصلت لنفسى مسرات أكثر مما تسرها نغمات الموسيقار ؛ فقال : حدثنى ، أهؤلاء ليس لهم قائد ؟ قلت بلى وهو قاهر فوقهم . فقال إذن أنت فهمت الجواب . فقلت لم أفهم . فقال بل فهمت والله ، ألا تذكر أن الرحمة فى البسملة. قلت أذكرها، فقال هذه الكواكب والعوالم هى آثار هذا النظام والحساب فهى رحمات والرحمة لاتكون إلا مع علم كما تقدم فى آية « ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلما » ، فالرحيم

لا تتم رحمته إلا إذا كان عالما بمواضع الحاجات لمن يرحمهم . قلت أى ورب . قال الحاء والميم فى (حم) تذكرة بالرحمة أولا وتذكرة بالحمد ثانيا ، ألا ترى أن مبدأ المخلوقات علم الله ، ثم إنه على مقتضى العلم خلقها ، ولما أحسنا بالنعمة وعلمناها حمدناه . فقلت حسن . قال هذا هو ملخص الآيات ، علم الله فرحمة منه فعلمنا فحمدنا ؛ الرحمة فى البسملة والحمد فى قوله « يسبحون بحمد ربهم » فالرحمة مبدأ والحمد نهاية ، ولا رحمة إلا مع علم ولا حمد منا نحن إلا مع علم . ثم إن هؤلاء الملائكة المدبرين لهذه الكواكب مسكنهم فى السموات ، وهم عارفون بجلال الله فهم يسبحون (السين) وبهذا نزل الوحى وهو القرآن (القاف) وملخص هذا أنك لما تخيلت هذه العوالم :

(١) عرفت الرحمة السابقة والحمد اللاحق ، ويشير لهما الحاء والميم .

(٢) وتفكرت فى أن الملائكة فى السموات يعرفون جلال الله وهم يدبرون هذه الكواكب بهذا النظام الوثيق ، وهذا ظهر فى قوله « السموات والتسبيح » لأن كلا منهما مبدوء بحرف السين

(٣) ولا حظت فى عقلك أن الله فوق الجميع علما وقدرة ، وهذا فى قوله « العزيز . العلى . العظيم » كلها مبدوءة بحرف العين .

(٤) وهذا الوحى نزل فى القرآن ، وهذا حرف القاف ، وأيضا هذه العوالم كانت فى أزمان سابقة وهى لا تزال كذلك إلى الآن ، وهذا فى لفظ من قبلك (القاف) .

ولا جرم أن قوله تعالى « تكاد السموات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى الأرض » أصبح واضحا مما تقدم ، لأن العوالم حركات لاغير كما أثبته أنت فى التفسير مرارا . وما الأثير إلا كالخيال فى النفوس البشرية ، والخيال متى تركه صاحبه طاح وذهب . والأثير أشبه بهذا الخيال لأنه ليس مادة ، فهو يكاد يتفطر لأنه فى الحقيقة لاشىء ، والحركات هى التى تتجلى لكم . ثم إن للملائكة لهم [صفتان] صفة معرفة الله ، وصفة تعليم الخلق . وللأولى « يسبحون بحمد ربهم » وللثانية « ويستغفرون لمن فى الأرض » وفى كليهما السين ، وهذه هى الخصلة التى تجب على كل عالم فى الإسلام علم بجلال الله وجماله : ثم أن يكون مفضالا منبعا للخير فياضا نافعا للناس . هنالك قلت يا ليت شعرى . إذا كانت هذه الحروف لم نفهم منها الآن إلا ملخص الآية من حيث إنها رمز لها فماذا أفادتنا ؟ فقال إنها جمعت العوالم العلوية والسفلية فى نظر النفس وأصبحت كأنها هيئة بهجة تشرح الصدور وتعرف جلال الله وجماله . وهذه تأنس بها الأرواح والإشارة أبلغ من العبارة ، وهذه لاتدرك إلا بالذوق ، وإنما الفرق بين هذه المزايا التى جاءت فى هذا التفسير وبين المزايا التى فهمها المتقدمون أن مزايا هذه الإشارات هنا تحث على التعقل والتفكر ، فأما ما جاء عن بعض المتقدمين أن هذه الحروف مقتطفات من اسم الله ، أو أنها تشير إلى أعداد خاصة كالجمل (بتشديد الميم) كما زعم اليهود ، أو أن تكون إشارة إلى ما فى العوالم العلوية من المنازل كما تقدم فى أول (سورة آل عمران) فإن ماذكر هنا أقرب منه إلى رقى الأمم الإسلامية ، وأى بهجة ونعمة أبهج وأكمل من استحضار صور العلوم كلها وكأن الله مشرف عليها والنفس تطالع ذلك وهى مغتبطة أى اغتباط وذلك عند النطق بخمسة حروف جمعت العوالم ، ثم فصلت تلك المعانى بعد ذلك فى السورة .

منافع الموسيقى العلمية
وضرر الموسيقى العملية

قلت له : لقد طال المقال فى نظام الموسيقى العالى فى السموات والأرض . وإن المطلعين على هذا التفسير ربما يرون أن الموسيقى فى الأرض عند العامة والجهلاء كالموسيقى التى أبدعها الله لأنى وازنت مابين العود ونظامه والسموات ونظامها. فقال: حقا إن هذا يتبادر إلى الذهن. فبين هذا المقام هنا؟ فقلت : لقد ذكرت فى أول (سورة الصافات) ما فى التعليم العربى فى الأمم الإسلامية من النقص الفاضح والجهل المريع من حيث الشعر العربى . ولاجرم أن بين الشعر والموسيقى صلة نسب وإتقان واتصال. إن الأمم الإسلامية منيت بأشعار العرب قبل الإسلام وبعده وفيها الغث والسمين . ولقد سرت هذه الفكرة سريان النار فى الهشيم . وظنوا أن هذه الأشعار على علاتها تعرف أسرار القرآن . والحق الذى لا مفر منه أن كل ماأخل بالأخلاق من الأشعار . وما كان منه فيه مجون أو غرام فهو لغو بل ضار . لأن ذلك يعلق فى النفس من صباها فلايتركها فيصبح خلقا فيها، وتلازم الغرام والصبوة فى الشباب فعلا وفى الشيخوخة قولا وأمانى . وإني ليدهشنى والله أن أرى هذه الأمة فى الأندلس وفى الشرق لا تفرق بين الشعر المحرض على العفاف والشعر الزرى بالمروءة ولم أجد من يحذر من ذلك الخلط ، لافى زماننا ولا فى الأزمان السابقة، وهكذا أجدهم فعلوا ذلك فى الموسيقى وفى الأغانى ، فكل هذه أباحها القوم ولا نكير إلا عند الفقهاء ، وأسمعهم يروون جميع الأشعار فى كتبهم وفى سمرهم وفى مجالسهم ، بل أرى الصوفية يرمزون بالغزل إلى الذات العلية ، وأجد العلامة الغزالى يبيح السماع بشروط ، والعلامة ابن سينا يجعله هو وطائفة من الصوفية مرقيا للنفس بشرائط خاصة كما هو واضح فى آخر (كتاب الإشارات) .

والحق الذى لامحيص عنه أن أكثر الأشعار وأكثر الأغانى وأنواع الموسيقى ضارات بمجموع هذه الأمة . إن مايقوله الإمام الغزالى رحمه الله من جوازها بشرائط ، وهذه الشرائط ترجع إلى أمر واحد وهو أنها إذا سمعها الإنسان لم تتوجه نفسه إلى محرم بل تتوجه إلى إدراك المعانى وشريف الخصال.

أقول : إن ما يقوله حق ، ولكن أكثر الناس غير مستعدين لذلك ولاهم يذكرون، فأكثر الأشعار وأكثر الموسيقى ضارة بمجموع هذه الأمة، والقليل منهما هو النافع ، إذن ليست موازنة الموسيقى فى الأرض عند الناس بالموسيقى فى السماء عند الله من حيث الحساب تفيدنا أنهما سيان فى الكمال. كلا . فهنالك الموسيقى نظام جميع العلوم ، وهنا استعمالها أكثره مزر بنوع الإنسان وهكذا الأشعار .

ولقد أنحى (سقراط) فى الكتاب العاشر من الجمهورية على طائفة الشعراء، وأخذ يلوم (هوميروس) الشاعر ويحط من أقدار هذه الطائفة ويقول إنهم لاهم فى العير ولا فى النفير ، قوم لا حقائق عندهم ولا علم، وما هم إلا مقلدون للحقائق ، وما مثلهم إلا كمثل الرسام الذى رسم لجام الفرس واللجام صنعه صانع وهذا الصانع وضعه بالهيئة التى طلبها راكب الفرس ؛ فراكب الفرس هو الذى يطلبه والصانع يعمل على مقتضى الطلب ولكن الراسم يقلد الصانع ، هكذا الشاعر فما هو إلا راسم للمعقولات ، لامتعقل ولا عالم ، إذن الشعر خيال والخيال غير الحقيقة .

عجب أن تكون أكثر الشعراء هذه قيمتها ، والله يقول « والشعراء يتبعهم الغاوون » . وهاهنا عجب وألف عجب أن نسمع القرآن يذم الشعر . وقد وافق فى ذلك الفلسفة من قبله . وهذا قوله تعالى « بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم » .

ثم إن المسلمين فى الشرق والغرب طاحت دولهم وذهب مجدهم فى الدولة العباسية والدولة الأندلسية بما تركوا مواهبهم ، ولم يكن لهم هم فى الأكثر إلا فى الشعر ونسوا المعقول وتركوه للأعاجم . لذلك ذهبت ريحهم وأصبحوا أثرا بعد عين .

إن « حم . عسق » جاءت رمزا لنظام العالم العلوى والسفلى وهو الموسيقى الجميلة والعلم والحكمة . أما شعر الشعراء فى الأرض وغناء المغنين فضرهما أكثر من نفعهما ، فليفكر العلماء فى الإسلام بعدنا فى قوانينهم للشعر النافع والموسيقى ، وليحتاطوا فى ذلك ، وليفرقوا بين النافع والضار ، فلا تكون الموسيقى إلا حيث يكون إنعاش النفوس للمعالى والعلوم وأشرف الأخلاق ، وكذلك الأشعار . فأما إذا كان كلاهما لتهييج الزوات فليحرم بتاتا . إذن هناك فرق بين ما دلت عليه « حم ، عسق » وبين ما يغرى بانحطاط النفوس الإنسانية .

فلما سمع ذلك قال : أجدت ووفيت المقام حقه . وبعد أن سمعت هذه الجملة منه انصرف الخيال من أمامى ، ونظرت فى نفسى ، فوجدت أنى لا أزال فى الفراش ، وعجبت من نفسى كيف كان حوارى مع خيالها النورى تخيله هى ، ثم أخذت أفكر فى هذه المعانى فوجدتها معقولة ، بل فرحت بها فسطرتها تبصرة وذكرى لى ولأصدقائى قراء هذا التفسير والحمد لله رب العالمين . كتب صباح يوم الأحد ٢ نوفبر سنة ١٩٣٠ م .

إشراق شمس هذه المقالة

فى سحر ليلة الإثنين ٣ من شهر نوفبر سنة ١٩٣٠ استبان لى من فحوى هذه المقالة أن (حم عسق) رمزت للحكماء والعلماء فى هذه الأرض أربعة منازل وهى :

(١) انبعاث النفوس من الخلق إلى أنوار الحق .

(٢) ثم ائتناسها بتلك الأنوار .

(٣) ثم يكون الاقتباس بعد الائتناس .

(٤) ثم الإفاضة على الناس من تلك الأنوار .

فالمنزلة الأولى هى الانبعاث ولها (حم) وذلك أن تشاهد أنفس أهل العلم بهجة هذه الكرات السماوية وتطالع أنوارها وحسابها وأعدادها وعظمتها ، فإذا امتلأت بتلك الأنوار وأشرقت بها أيما إشراق تكون المنزلة الثانية ، وهذه المنزلة الأولى تشير إليها الحاء والميم لأن تجليات العوالم وظهورها من العدم سر الرحمات والرحمة يسبقها العلم والعلم به النظام وتقدير الحركات والدرجات . وبإدراك ذلك الجمال ترتقى النفس إلى المقام الأعلى وهو المنزلة الثانية (ع) الائتناس إذ تتجلى للفكر تلك العزة والعظمة والعلو اللاتى أشرقت بها أنوار العين فى (عسق) . وهنا ارتقت النفس من المقدمة إلى النتيجة ، ومن المخلوق إلى الخالق ، ومن الأثر إلى المؤثر ، ومن الرحمة إلى الرحيم ، ومن الجمال إلى الجميل ، ومن الصنعة إلى الصانع ، وهناك تتجلى أعمال الملائكة الحافين حول العرش ، وهم يشاهدون العوالم كلها ، مطلعين على بدائعها ، منظمين لحركات السموات ولم يتم ذلك إلا بعد إشراق نفوسهم بما استمدوا من علم وما استفادوا من حكمة من العلى العظيم العليم ، وهذه هى المنزلة الثالثة وهى الاقتباس (السين) من (عسق) فإذا كانت المنزلة الأولى ارتقاء من الصنعة إلى الصانع ، والثانية تفكير فى أوصافه ومشاهدة أنوار الآثار ، فالثالثة الاقتباس ؛ ألا ترى أن المؤثر

الذين لم نرهم شاهدنا آثارهم ، وعلى مقدار اختلاف الآثار يكون اختلاف المؤثرين ، وهم الذين سميناهم ملائكة وضرب لهم المثل فى نظام العوالم بنظام أعضائنا ، فكما أن فى كل عضو قوات خاصة ، هكذا فى كل عالم ملائكة مختصون به يدبرونه ، وكما أن أعضاءنا تطيع القوات المدبرة لها هكذا العوالم الشاهدة تطيع الملائكة المدبرين وكما أن الإنسان منا له نفس واحدة ، وهذه النفس لها قوى كثيرة لا نقدر أن نحصيها نحن والله يحصيها هكذا الله واحد وله ملائكة ينفذون أمره وهم كثيرون ، وكما أننا نحس فى أنفسنا بأن هناك فى عقولنا قوى مختلفة مثل : (المخيلة ، والمفكرة ، والحافظة ، والذاكرة) وفى أجسامنا قوى أخرى أقل منها درجات من القوة الجاذبة والهاضمة والماسكة والدافعة والغاذية والمنمية والمولدة ، ومثل الغدد المختلفات كغدة الصفراء والبنكرياس وغدد اللعاب اللاتى فى الفم وهى ست ، وهكذا مما تقدم إيضاحه فى (سورة فاطر) هكذا فى العالم :

(أولا) ملائكة سماويون يدبرون العوالم تدبيرا محكما بنظام متقن ، وهم يستمدون ذلك من المقام الأقدس كما تستمد الحافظة والمفكرة ونحوهما من الروح الإنسانية معارفها واختراعها ، إذ لولا أرواحنا ما كانت هذه القوى اللاتى تحت سيطرتها ولا كانت معارفها ولا أعمالها .

(ثانيا) ملائكة أرضيون يدبرون الزرع والشجر والبر والبحر كما نرى الماسكة والهاضمة الخ والغدد المختلفات تعمل فى أجسامنا أفعالا مختلفات وأطوارا متباينات وهى أقل منزلة من قوى الدماغ لأن تلك للعلم والتدبير وهذه للعمل وإحداث الآثار .

وما هذا الذى ذكرته إلا ضرب مثل « ولله المثل الأعلى » فإذا ضرب الله لنوره مثلا بالسراج العموم فما أسهل ، وما أبدع ، وما أجمل أن نبين لذوى العقول السليمة والحكماء والعلماء فى الإسلام قاطبة .

(١) إن نفوسنا وأجسامنا وقوانا توضح هذه الآيات إيضاحا شافيا ، وأن وحدة النفس مثال لوحدة الله تعالى وإن كان الفرق شاسعا بين المثل والممثل له كالبعد ما بين نور الله ونور السراج .

(٢) وأن قوانا فى الدماغ ضرب مثل للملائكة السماوية الحافين حول العرش .

(٣) وأن قوانا الجسمية من البنكرياس والصفراء وأمثالها ضرب مثل للملائكة الأرضيين .

إذن ظهر بضرب المثل معنى قوله «وترى الملائكة حافين من حول العرش» فى سورة أخرى ، وإياك أن تظن أن المشبه كالمشبه به ، فقول القائل (وجهه كالقمر) ليس معناه أنه هو نفس القمر أو أنه مثله من كل وجه ، فهذا أمر واضح هكذا هنا ، فإذا كانت قوانا الجسمية لاعقول لها مستقلة فالملائكة ليسوا كذلك فهم ذوو عقول مستقلة بها يدبرون ، ولكن لهم صلة بربهم صلة القمر بالشمس يستمد منها .

هذا معنى كونهم حافين من حول العرش فهمناه فهما إجماليا ، وأما كونهم يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى الأرض ، فهذا موضع الاقتباس . فإن قوانا المختلفات فى الدماغ اللاتى لها وظائف عامة من فكر وحفظ وذكر وهكذا لم تتركها أرواحنا سدى بل لها صلة بها ولن تكون أعمالها إلا على مقتضى ماوصلت اليه أرواحنا ، فليس حفظ ولا فكر ولا تذكر زيد مشابها كل الشبه لهذه الثلاثة عند عمرو ومعنى هذا أن هذه القوى مستمدات الاستمداد التام من نفوسنا بدليل أنها مناسبة لها لا لغيرها . فهكذا نقول فى الملائكة «ولله المثل الأعلى» إنهم لم يكن لهم عمل إلا على مقتضى علومهم المستمدة من ربهم . ولذلك نجد النتائج منتظمات . فهم إذن عارفون صفات الجلال وصفات الإكرام أى الصفات السلبية من أنه مخالف للحوادث ، وأنه لا أول له الخ وصفات الإكرام وهى صفات المعانى كالقدرة والعلم الخ والأولى تدخل تحت التسبيح والثانية تدخل تحت الحمد . فقوله «يسبحون بحمد ربهم» دخل فيه العلم بالجلال والإكرام (وبعبارة أخرى) صفات التنزيه وصفات الإفاضة والخلق والرحمة .

ليس

ليس من المعقول أن يكون للسمع عالم الأصوات ، وللبصر عالم الأضواء، وللذوق عالم الطعوم وللشم عالم الروائح وللمس عالم الخشن والناعم الخ ثم لايكون للعقل عالم يناسبه وهو عالم كله عقول ؟

ليس من المعقول أن كل فعل من الأفعال الطبيعية له فاعل من جنسه كما تقدم فى النبات وفى الحيوان من أن هناك (الفطر والبكتريا) التى تحلل المواد الأرضية لغذاء النبات والمواد التى فى الأمعاء الغلاظ لإكمال الهضم كما تقدم قريبا ثم تكون آراؤنا وأفكارنا لم تستمد من عالم عقلى يشبهها ؟ إذن هنا ملائكة وهؤلاء هم الذين يمدوننا على حسب قوانا . وسيأتى إيضاح هذا المقام إيضاحا تاما فى كتابى المسمى «مرآة الفلسفة» أذكره عند آية «فاعلم أنه لا إله إلا الله» وهناك يزول ذلك الإشكال الذى بقى ٢٤ قرنا فى أمر العقول والنفوس والمادة وعلاقتها بصانع العالم ، وقد وصلت بحمد الله لحل هذا الإشكال المعقد ، وسترى هناك مراتب الفلاسفة فى العالم ، وكيف كان أفلاطون يقول بالمثل الأفلاطونية ، وكيف رد عليه تلميذه أرسطاطاليس بأن هذه المثل ليست تحل المشكلة ، والصواب عنده أن العلوم مرجعها غير تلك المثل وهى الصورة القائمة بالمادة ؛ ولما جاء بعدهم قوم آخرون رأوا الخلاف عسيرا والحل صعبا . توقفت العقول عند هذا الحد . فتركوا الإلهيات واقتصروا على العلوم الأخرى . وسترى أن (سبنسر) الفيلسوف الانكليزي والأستاذ سنتلانه الفيلسوف التليانى يقولان . «إننا بالنسبة لأصول الفلسفة أمثال هذه المسألة لا قدرة لنا على حلها . ونحن بالنسبة لأمثال سقراط ومن معه كالبقة بالنسبة للفيل .

وأنا أعلن المسلمين خصوصا والعالم الإسلامى عموما أن الله عز وجل قد من على بالتوفيق فى تلك الرسالة وسترى فيها طريقا غير طريق هذين الحكيمين خاليا مما ورد عليهما من الإشكال . فقد بينت لك هناك إثبات برهان وجود الملائكة ومعرفة الله بطريقة كطرق الهندسة يفهمها الخاص والعام من أهل العلم . وهناك ثبت عالم الملائكة ثبوتا هندسيا .

وقد تقدم فى السورة السابقة فى آية « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا » بعض ذلك واضحا وتمامه سيأتى فى الرسالة المذكورة إن شاء الله تعالى .

وبناء على ذلك نفهم قوله تعالى «شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط» فالعلم منه وهو يفيضه على الملائكة والملائكة يفيضون على الناس . فقوله تعالى «والملائكة يسبحون بحمد ربهم» راجع ذلك لاستمدادهم منه بالبرهان الذى ستراه فى (سورة محمد) عليه الصلاة والسلام والناس يستمدون من الملائكة . فاستغفارهم لمن فى الأرض لن يتم لهم إلا لما نالوا من العلم بجلال الله وإكرامه . والناس من الملائكة يستمدون وهذه هى المنزلة الرابعة من المنازل المتقدمة .

فالمنزلة الأولى نظام العوالم . والثانية إدراك صانعه . والثالثة إدراك الملائكة . والرابعة العلماء فى الأرض فهم يعرفون العوالم كلها ثم يفيضونها على الناس . ولهذا الإشارة بقوله «يوحى إليك وإلى الذين من قبلك» فالوحى هو القرآن وهذا هو حرف القاف (وبعبارة أخرى) « يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى الأرض» فهم يتبعون الملائكة حذو القذة بالقذة والملائكة يستمدون من الله .

هذا ملخص (حم ، عسق) فهى أربعة منازل : هى نظام هذه الدنيا وعقولها وعلومها وهيام القلوب بصانعها ، وهل هذه المنازل الأربعة إلا أشبه بما جاء فى (جمهورية أفلاطون) من المنارة والنار .

حم ‌. عسق ‌. ومغارة أفلاطون

اعلم أن ماقررناه من المنازل الأربعة فى (حم ‌. عسق ‌) هو نفسه الذى قرره أفلاطون فى جمهوريته كما تقدم فى هذا التفسير . ألم تر أنه تصور جماعة فى مغارة وجوههم متجهة إلى مؤخرها . وأمامهم ضوء نار على ذلك المؤخر وهم مسلسلون بحيث لايرون ماوراءهم من النار التى تضىء وراء سور ، وهناك أناس يسيرون وهم يحملون أنواعا من الحيوان والنبات والنار ترسم تلك الصور فى مقابلة وجوه هؤلاء الذين فى المغارة . وهؤلاء سموا هذه الصور بأسماء وقالوا إنها هى الحقائق بعينها . ثم إن أحدهم خرج منها وأخذ يتمرن على نور القمر فى الماء وكذا النجوم ليلا ثم يراها بأنفسها ، يرى صورة الشمس فى الماء ، ثم يراها بنفسها (وبعبارة أخرى) أنه أخذ يتدرج فى النظر فأدرك أن هذه الصور التى على الحائط ماهى إلا آثار صور الحيوانات الحقيقية وأن النار نفسها ماهى إلا أثر من آثار الشمس . وبه تعرف الفصول والسنون والشهور والأيام . فإذا جعلنا الشمس بدل النار ، وجعلنا سكان الأرض بدل سكان المغارة ، وجعلنا النبات والحيوان بدل الصور التى على الحائط تم لنا المقصود وظهر المثل بأوضح معانيه . وعليه تكون الشمس ضربت مثلا لله والنبات والحيوان يكونان على مقتضى عالم المثال الذى يقول به أفلاطون ، وسكان أهل الأرض كسكان المغارة . فهم جهال وليس يدرك الحقائق إلا أناس تركوا آراء الجمهور وبحثوا فعرفوا العلوم . ثم إن ذلك الذى خرج من المغارة وعرف الحقائق فى مثال أفلاطون رجع ثانيا إلى إخوانه وقاسى الشدائد فى تفهيمهم كما قاسى المشقات فى تمرين عينيه على نظر الأنوار الحقيقية ، إذن هنا صعود من المغارة ؛ ثم تعلم ثم رجوع إلى من فيها وتعليم لهم .

أفليس هذا كله هو عين (حم ‌. عسق ‌) ارتقاء عن المادة ، معرفة بالله والملائكة ، ثم رجوع إلى الناس وتعليم لهم على مقتضى ماتعلم .

هذا هو معنى قوله «والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى الأرض» فالحمد لله على نعمه الوافرة ، وآلائه الفاخرة اه .

جوهرة فى آية : الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان وما يدريك لعل الساعة قريب

إن المتعلمين أكثرهم نبذ الكلام على الآخرة والدين وإن ذلك تقدم فى التفسير . وهذه أول مرة قام فيها رجل له عمة وله احترام من المتعلمين بهذه الخطبة ، وهذه بشارة أزفها بأن الجو فى متعلمى الشرق الأدنى أخذ يتغير إلى الأحسن بعد أن كانوا يحتقرون هذه الآراء ؛ وهذا الإحتقار أضاع بلادهم . وهاك نص الخطبة المذكورة .

بأى

بأى ميزان تزن الحياة ؟

(محاضرة الأستاذ توفيق دياب)

ألقاها فى ألف ومئتى مستمع

أخواتى وإخوتى :

ذلك السر الغامض الذى يبدأ بالميلاد وينتهى بالوفاة . ذلك السر الغامض الذى نسميه الحياة ، ونرى أنفسنا فى غماره متدافعين إلى الأمام أو متراجعين إلى الوراء . ذلك البحر الخضم الذى تلقينا بين أمواجه يوم نولد قوة خفية ، حتى إذا سبحنا فيه شوطا قصر أوطال ، نزعتنا منه تلك القوة الخفية حين يحل الأجل ، هذه المعركة التى نساق إليها غير مختارين ، وننفصل عنها غير مختارين . هذه الحياة ماهى ؟ وما غايتها ؟ ولماذا ولدنا ؟ ولماذا نموت ؟

ليت أحدا يستطيع الجواب عن هذا السؤال فى كلمة أو كلمات . إذن لاستراح الفلاسفة وأصحاب المذاهب المختلفة فى كنه الحياة . فقديما كان . وإلى اليوم مازال هذا السر الرهيب موضوع البحث الملح ومثار الجدل العنيف بين العلماء والمفكرين : وليس عجيبا أن يفكر الفلاسفة فى مرمى الحياة ، وإنما العجب ألا يفكر فى مرمى الحياة جميع الناس .

نولد أجنة وندرج أطفالا وننشأ صبية ونراهق فتيانا ونستوى رجالا ونبلغ الكهولة وتدركنا الشيخوخة إن قدر لنا أن نعمر ، ثم ماذا ؟ ثم تجف الشجرة وتذوى الأزاهير ويتساقط الورق ، وما هو إلا نفس أخير نلفظه فاذا نحن رفات . وذلك دون أن نفكر يوما لماذا ولدنا ولماذا حيينا ولماذا نموت ، ودون أن نفكر من أين جئنا وإلى أين نعود ، وهل جئنا من عدم لنعود إلى عدم أو جئنا من وجود لنعود إلى وجود ؟

وأنت مع ذلك إذا أخذتك سنة من النوم ، ثم استيقظت فوجدت نفسك فى غرفة لا عهد لك بها ، فلن تستقر على حال من الدهش ؛ حتى تعرف ماهذا المكان ومن ذا جاء بك إليه وكيف جاء بك ولماذا ؟ ستطل من نوافذ الغرفة لترى على أية حديقة أو فناء تشرف ، ستفتح الباب فإن كان موصدا عالجته حتى ينفتح أو ينحطم ، فإذا خرجت من الغرفة جعلت تنظر يمنة ويسرة فى ذهول وحيرة . ثم جعلت تطوف بأرجاء الدار متسائلا نفسك أين أنا وما هذه الدار ولمن هى وفى أية مدينة؟ ولن يهدأ لك بال أو يستقر لك حال حتى تلقاك سيدة هى أشبه ماتكون بالممرضات فتنبئك بأن هذه الدار (عافاك الله) مستشفى ، وإن إغماءة طارئة غشيتك فخاف عليك والدك فأسرع بك إليه ، حتى إذا بشر الطبيب أباك بأن الأمر هين لا خطر فيه. آثرلك الإقامة هنا أياما إلى أن تستعيد صحتك فترجع إلى دارك سليما معافى .

حينئذ تدرك حقيقة المكان ومن جاء بك إليه وما السبب؟ فإذا عرفت أن الغاية هى استشفاؤك مما بك ، لم يزدك علمك بهذه الغاية إلا أخذا بأسبابها واستيفاءا لشرائطها ، حتى يتم لك منها ما أراده والدك وماأصبحت تريده لنفسك .

هذا شأننا من الدهش والتساؤل إذا طوحت بنا الطوائح إلى مكان نجهله . فما بالنا تبعثنا إلى هذه الدنيا قوة خفية على غير قصد منا ولا اختيار ثم تتوفانا مستضعفين على غير قصد منا ولا اختيار ، نظهر ونختفى على

سطح هذا المحيط الهائل . كالفقاقيع تنتفخ وتنفجر فى مثل لمح البصر ، دون أن يأخذنا دهش يدعونا إلى الحيرة والتساؤل والتفكير .

لماذا بعثتنا القوة الخفية القديرة الجبارة إلى هذه الدنيا . ألنقضى فى هنائها أو عنائها ، فى صحتها أو مرضها فى غناها أو فقرها ، فى عدلها أو ظلمها ، فى إخائها أو لددها ، فى رفقها أو جفائها ، أو فى مزيج من هذا كله ستين أو سبعين عاما إذا طال بنا العمر .

وما ستون أو سبعون عاما فى امتداد الأزل الذى لا أول له . وفى امتداد الأبد الذى لا نهاية له . إن العلماء ليحصلون السنين التى سلختها الإنسانية على هذا الكوكب بالملايين لا بالألوف ، ويقدرون لها البقاء فيه ملايين أخرى تربو على الإحصاء . فما أنا وما أنت ، وما نصيبى ونصيبك فى هذا السرمد الذى تحار فيه الألباب . ذرة ضئيلة من جبل أشم ، قطرة هينة من محيط مترام .

وإذن فما حياتك وما حياتى وما حياة هذا الجيل كله وما حياة الأمم الحاضرة كلها ، حتى نجعل موضوع هذه المحاضرة (بأى ميزان تزن حياتك ؟)

إن التاريخ المدون أو المكتوب لايعد وستة آلاف من السنين . وهى التى شغلت أقلام المؤرخين ، وهى التى ظهرت فيها حضارات واختفت حضارات . وارتقت أمم وانحطت أمم ، وهى التى وقع فيها من المظالم والحروب ، وطغى فيها من الرق والاستعباد ، وتقلب فيها من العقائد والأديان ، واختلف فيها من طرائق الخير والشر ، وتعاقب فيها على الجماعات والأفراد من السعادة والشقاء . وأظلم فيها من الضلالات والجهالات ، وأضاء فيها من المعارف والعلوم (ماتضيق عن الإحاطة به مئات الألوف من المجلدات ومئات الألوف من العقول . وهذا كله تراث ستة آلاف من السنين . وما هى من ماضى الإنسانية المجهولة ومن تاريخها غير المكتوب ، وما هى من مستقبل الإنسانية الذى لا تترامى إلى حدوده عين الخيال) إلا بمثابة الدقيقة الواحدة من ألوف الأعوام .

إذن أليس من الغرور أن أتكلم عن حياتك وحياتى وعن ميزان حياتك وميزان حياتى .

ماحياتك وما حياتى إذا قستها بهذا المقياس المخيف . إنك لو نظرت إليها بالميكرسكوب لعز على الميكرسوب أن يكشفها لمن ينظر إليها من أفق الأزل القديم والأبد الخالد .

ألا تصدق ؟ إذن ألا تعلم أن كوكبك هذا الذى عاش فيه أجدادك من البشر ملايين السنين وسيعيش فيه أحفادك ملايين أخرى لايحصيها العد ، إن لم يصطدم به جرم سماوى آخر فاذاأرضك هباء فى مثل قصف الرعد أو خطف البصر (ألا تعلم أن هذه الأرض بماضيها الزاخر ومستقبلها العظيم الباهر إنما هى شظية تطايرت من الشمس كما تتطاير الشرارة من التنور الهائل المستعر ، فجالت شرارتك فى الفضاء حتى أخذت مدارها من نظامنا الشمسى واستحالت حصاة (مستقلة ذات سيادة) .

أنا وأنت وهو وهى وهم وهن آحاد فى عداد ملايين الأمة المصرية . والأمة المصرية إحدى العشرات الكثيرة من أمم هذا العصر . وأمم هذا العصر حلقة قصيرة من سلسلة ترجع إلى ماض لايدرك الخيال مبتداه وتمتد إلى مستقبل لايدرك الخيال منتهاه على هذه الأرض وهذه الأرض شظية كانت ملتهبة تناثرت من الشمس فطارت من نظام الكون حيث تدور فماذا عسى تكون حياتى وماذا عسى تكون حياتك ، لاسيما وأنت تعلم أن نظامنا الشمسى ليس إلا واحدا من نظم كثيرة تماثله . لو أطلنا التفكير فى كنهها وفى تلك القوة الخفية التى تسخرها لقضينا أعوامنا الستين أو السبعين فى التفسير ، دون أن نزداد فى تفهمها إلا ذهولا وحيرة .

سيداتي وسادتي :

هل تحتملون مني كلمة جريئة ؟ إذن تفضلوا فاسمعوها :

إذا كانت الحياة هي الأعوام الستون أو السبعون التي نعيشها في هذه الدنيا ، من غير أن نكون مرتبطين قبل قدومنا بقوة هي التي بعثتنا الحكمة ، ومن غير أن نكون مرتبطين بعد رحيلنا بقوة هي التي استدعتنا إليها الحكمة . إذا كانت الحياة مصدرها العدم ومصيرها العدم . إذا كان مولدنا في هذه الأرض مصادفة لم تقصدها قوة مريدة مدبرة ، وكان موتنا مجرد انتهاء لهذه المصادفة ، إذا كان وجودنا مجرد نتيجة آلية عضوية لمجرد تفاعلات آلية عضوية ، وكان زوالنا نتيجة مادية لأسباب مادية لا أقل ولا أكثر ، إذا كانت أيامنا في هذه الدنيا برزخا تاعسا بين بلقعين ، بلقع الماضي قبل أن نولد . وبلقع المستقبل بعد أن نموت . إذا كنا في هذه الدنيا مجرد أحلام زائلة وأشباح حائلة ، إذا كان كل هذا العناء، وهذا الكدح وهذه الآلام وهذه الأمراض وهذه الخطوب التي نشاهدها أو نحتملها أو نكابدها في سبيل الإنسانية، إذا كانت كل هذه الحضارات وهذه العلوم وهذه الفنون وهذه الآداب التي تسمو إليها الأمم جيلا بعد جيل . إذا كانت هذه الشرور كلها وهذه الخيرات كلها ليس وراءها إلا مطلب واحد (هو أن يعيش كل فرد من الناس خمسين أو ستين عاما محدودة بحدين : عدم مطلق منذ الأزل وعدم مطلق إلى الأبد ما عدا هذه الأعوام الخمسين أو الستين) . إذا كان الأمر كذلك . فما أحمق الأحياء الذين يؤمنون بهذا العدم من قبل ومن بعد ثم يعيشون . إن الانتحار أولى بهم وأجدر . أما أنا فلو كنت منهم لانتحرت . إن هذه الأعوام الستين التي يعيشها المرء في هذه الدنيا لا تساوي في ذاتها عضة الفقر ولا قلة الحاجة عاما واحدا . إنها في ذاتها لا تساوي برحاء المرض الممض نصف عام . إنها في ذاتها لا تساوي احتمال ظلم الظالمين ولا جبروت المتجبرين . إن المرء ليصادف في هذه الأعوام الستين أو السبعين من ضروب الأذى ما لا يحتمله إلا لشعور واحد ، هو أن الحياة سر قديم خالد : لا حياة الجماعة فحسب بل حياة كل فرد من أفرادها كبر أو صغر ، جل في نفوس الناس أو هان .

إذا سألت بعض علماء المادة الذين يرون حياة الفرد مسبوقة بعدم منتهية إلى عدم ، إذا سألتهم لماذا يعيشون . قالوا نعيش طوعا لغريزتين : غريزة الحرص على بقائنا ، وغريزة الحرص على بقاء النوع . أما حرصنا على بقاء أنفسنا فواضح حتى في الطفل يتجنب السقوط من عل ويتجنب النار اللاذعة والحفرة العميقة . وأما حرصنا على بقاء النوع فواضح في الأم تسهر على ذراريها . والأب يعول أبناءه . حتى ولو كانت الأم حيوانا أعجم .

ونحن نفهم هذا التعليل بقوة الغريزة من غير السادة العلماء . فأما وهم من أهل التفكير الذين من شأنهم أن يرجحوا حكم العقل على اندفاع الغرائز ، فقد كان الأولى بهم إذا لم يؤمنوا بأن الحياة الفرد اتصالا وثيقا بالخلود كان أولى بهم أن يدركوا هذه الأعوام القليلة التي ستسلمهم عما قريب إلى فناء لا وجود لهم بعده . هذه الأعوام لا تستحق منهم عناء البحث والتنقيب في مظاهر كاذبة وزبارج باطلة ؛ ولا تستحق منهم هذا العكوف على المعامل والآلات والمنظار المكبر والمنظار المصغر والتعليل والتحليل والكدح بالليل والنهار للوصول إلى حقائق مهما تكن في نظرهم جليلة فهي تافهة ما دامت هذه الخلائق الإنسانية والسادة العلماء في طليعتها كائنات تافهة تظهر اليوم من ظلام العدم لتنتهي في الغد إلى ظلام العدم . كان أولى بهم أن يقفوا مبشرين بالفناء ، وأن يقولوا للناس فيم الكد وفيم العناء في سبيل غاية مقفرة مظلمة ، إلى العدم العاجل بيدك أنت أيتها الإنسانية مختارة طائعة ، فذلك أكرم وأروح للبال من أن يحل بك العدم غير طائعة ولا مختارة .

يقولون إن حياة الإنسانية شيء وحياة الفرد شيء آخر ، حياة الفرد إلى العدم. فأما حياة الإنسانية فإلى البقاء . لذلك يخدمون الانسانية بالعلم والفن والأدب ، ليجيء الجيل اللاحق خيرا من الجيل السابق ، ولتجيء الحضارة الآتية أعظم وأروع من الحضارة الماضية ، وهذا في الحق سخف عظيم ، لأن معناه أن جميع الأجيال الماضية وجميع الأجيال الآتية كانت وستكون مجرد عتبات ومدارج ، أو مطايا وبراذع ، يعلوها في النهاية آخر جيل تتمضخض عنه الإنسانية ، فإذا استوى الجيل الأخير على قمة المجد لم يكن مجده خالدا ، بل كان مجده زائلا كذلك ؛ ولو عمر الإنسان الأخير بفضل العلم ألف سنة . ثم ينقضى هذا الجيل الأخير بانقضاء صلاح الأرض للحياة ، وانتهت الدنيا إلى غايتها ، وفنيت حضارة الشمس ، وانطفأ ضياؤها ، واستحالت البحار جليدا والشجر والنبات هباء ، أمست الإنسانية عدما مطلقا إلى آخر نسمة فيها ، ولم يبق للانسان المسكين حتى ولا الذكرى ، إذ من ذا يذكر الإنسان وقد انمحى من صفحة هذا الكون آخر إنسان . وانمحى لا ليسمو إلى عالم آخر ولكن ليبقى غرقا في غمرات الفناء ، خالدا فيها أبد الآبدين .

هل هذه إذن غاية الإنسانية ؟ هل غايتها أن تقضى مئات الملايين من السنين لتنضج جيلا واحدا هو الجيل الأخير ، ثم يكون هذا مصير ذلك الجيل الأخير ؟ أتعرف الساحر الذى يخرج علبة من جوف علبة ثم يخرج الثالثة من جوف الثانية ، والرابعة من جوف الثالثة والخامسة من جوف الرابعة وهكذا حتى تمد عشرات من العلب يخرج بعضها من جوف بعض حتى ينتهى بك إلى علبة لا تكاد تراها لضئولتها . ثم يوهمك بأن فيها قطرة من سائل هو ماء الحياة . فإذا تناولها المتناول وأسرع بالقطرة إلى فيه ليرزق الخلود خر على الأرض فاقد الروح . تلك صورة فكاهية من الحياة الإنسانية كما يفهمها أولئك الماديون .

سيداتى وسادتى :

هل تريدون منى كلمة جريئة أخرى ؟ هذا الإنسان أكبر وأعظم من الأعوام السبعين أو المائة التى تمتد إليها حياته فى الدنيا . لكن هذا الإنسان متناقض عجيب . أتذكرون أيامه الغابرة ؟ أيام كان يأوى إلى الكهوف ويأكل الصيد نيئا ، ويضرب فى الغابات عاريا . ولا تكاد تميزه من سائر الحيوان .

هذا الإنسان ما الذى هداه إلى ما هو اليوم فيه ؟ ما الذى صعد به إلى المستوى الذى بلغه فى القرن العشرين معجزة القرون ؟ فى الدنيا حروب وفيها عدوان وفيها آفات وفيها عيوب . ولكنها عيوب الصاعد إلى المثل الأعلى رويدا رويدا ، ولا سبيل إلى أن ينجو من تراث الماضى وغرائز الأنانية الأولى كل النجاة فى ألف عام كلا ولا فى عشرة آلاف . قد يشن الحروب ويعتدى على الحقوق . ولكن لطيفة خفية تنزع به إلى السلام والانصاف بعد النزوع . له اليوم قوانين وشرائع إن طغت عليها يد العدوان يوما . فان الجماعة كفيلة برد الحق إلى نصابه وإن كره المعتدون . له اليوم علوم قيمة وفنون جميلة وآداب أفسحت أمام عقله سبحات المتاة المعنوية . له تعاون على البر والاحسان . يلطف من تعاون الأشقياء على الغدر والاساءة . له أديان مشروعة ومثل من الأخلاق موضوعة . له طائرات فى الجو وغائصات فى البحر وله أسباب ممدودة تراها العين أسلاكا برقية أو تلفونية أو لا تراها ، لأنها أسباب من الأثير تحمل الأصوات وتخفى عن النظرات .

وهو مع ذلك متناقض عجيب . ذلك الذى دوخ الأرض وسخر الجو والبحر ونفذ فى الصخر وكشف من الأسرار عجائب كانت قبل عشرة أعوام أو عشرين فى عداد المعجزات . ذلك الذى يقف وراء المدفع الضخم يطلقه على البرج المشيد أو القرية العامرة فإذا هي أطلال . ذلك الذى كشف أسرار الأفلاك والكواكب والنجوم . وعرف مزاج بعضها وتأليف مواده وتركيب عناصره . وقاس أبعادها وحقق حسابها حتى ليتنبأ لها بحوادثها ومجرياتها قبل أن تقع بمئات الأعوام . ذلك الذى اتخذ من الغاز سموما . ومن الهواء غذاء . ومن

حرارة الشمس وهدير الماء قوة مستعملة أومذخورة . ذلك الذي أضاء الليل بثريات مكهربة فكأنها شموس وأقمار . ذلك الذي يطوف الآن حول الأرض على متن الهواء ، قبل أن يطوف أخوه البدوي مناخ قبيلته على ظهر البعير . ذلك الذي كشفت له الأشعة مكنون الجسوم واخترقت له حجب الغيب فأصبح يرى مالم تكن تراه العيون .

ذلك الإنسان تقتله البعوضة وتمرضه نسمة الهواء ، وتشرقه جرعة الماء . ويصرفه الهوى عن الجادة ويريد الأمر المستطاع فيصرفه عنه التخاذل ! ذلك الإنسان يعدل ويظلم - ويقسو ويرحم ويتخذ العلم للشر ويتخذ العلم للخير ، فما هذه القوة وما هذا الضعف ؟ وما هذا النور الساطع وما هذا الحلك الدامس . وكيف يجتمعان ولأيهما الغلب آخر الأمر . وهل نستطيع أن نستخلص من بين هذه الأطوار المتنافرة ، والمظاهر المتناكرة حقيقة الحياة وغاية الحياة وميزان الحياة ! ثم وأيك يجب أن نستطيع .

سيداتى وسادتى :

هل تريدون منى كلمة جريئة أخرى ؟ نحن تلاميذ القوة العظيمة التى بعثتنا إلى هذه الدنيا يوم ولدنا . والتى تتوفانا يوم يحل الأجل نحن تلاميذها وهى تعلمنا من حيث لا نراها ، وقد أودعتنا سرا يسميه الفلاسفة عقلا . وتسميه الأديان روحا . وأنا لا يهمنى ماذا نسميه . هو قبس من هذه القوة العظيمة وشعاعة من نورها وليس يولد إنسان إلا وينطوى على هذا القبس أو هذه الشعاعة كامنة ! وإنما توقظها تجاريب الحياة من ألم ولذة وحرمان وإحراز ومرض وصحة وإخفاق ونجاح ! فالألم يوقظ هذا السر السكين ، ويروضه على النظر كيف ينجو من الألم . واللذة تبعث فيه حب الاستزادة فحب الحركة فى سبيل إحراز تلك اللذة والحرمان يبعث فيه حب التحصيل والإحراز . ولذة الإحراز تدفعه إلى طلب المزيد ، والمرض يعلمه التوقى ويعلمه الصبر والجلد ، والصحة تثمره الهناء ، والإخفاق يغريه بالكدح ومعاودة العلاج . والنجاح يزيده همة وعزيمة .

كان هذا منبت الغرائز فى الإنسان الأول ، ثم رأى ذلك التلميذ الناشئ ، على كر الأجيال أن فى بعض لذاته إيلاما لأخوته ، وأن فى بعض سعادته شقاء لسواه . فازدادت فيه الحساسية ، فوازن قليلا بين سعادته وشقاء الآخرين ، فانصرف قليلا قليلا عن الأنانية المطلقة . ومازج تقديره شىء من العطف على سواه .

السر الدفين يستيقظ ، الشعاعة السكينة ترسل ضوءها خارج نفسها لأول مرة ، بذرة الإنصاف والعطف والغيرية تستحيل نبتة مزهرة . التلميذ يتعلم فى مدرسة الحياة درس العدالة ، فيحاكى المعلم الأعظم الذى بعثه إلى مدرسة الحياة ، التلميذ يدرس منهاج الفضائل فى مدرسة الدنيا مكرمة بعد مكرمة . ومحمدة بعد محمدة . أليس المعلم الأعظم كريما حميدا ؟ وهذا تلميذه أودع فيه قبسه ليتقدم بزمام الحوادث والتجاريب . أهى البسالة والإقدام ؟ إن المعلم الأعظم يعلو عن المخاوف فهو القوى المتين ! أهو الدأب والكفاح والعزيمة لا تعرف اليأس ولا القنوط . إن المعلم الأعظم شديد المراس يعلو عن الفترة والوهن . أهو البر والإحسان ؟ إن المعلم الأعظم هو المحسن البار وهو ينبوع البر والإحسان .

ومامن فضيلة ولا مكرمة الا اشتق أصلها من تلك القوة المهيمنة ومن ذلك المعلم الأعظم . ولكن المعلم الأعظم لا يعلمنا الشجاعة ولا قوة العزيمة ولا البر والإحسان إلا عن طريق الحوادث والتجاريب . فقبل الشجاعة ساد الجبن حتى استيقظت شعاعة المعلم الأعظم فى التلميذ فاحتقرت الجبن والجبناء ، وقبل الوفاء ساد الغدر . وقبل البر والإحسان سادت القسوة والجفاء .

وفى هذه المدرسة مازال التلاميذ يدرسون ولن يزالوا ؛ وإلى جانب الأخلاق التى تروضهم عليها حوادث المدرسة ويقظة السر السكين . يتجه ذلك القبس إلى محاكاة المعلم الأعظم فى العلم والقدرة والإرادة فملا

تغذا الأشعة الأزلية الخالدة التى تصل قلوبنا بعظمته، لا تفتأ تبحث وتنقب فى أسرار هذا الوجود ، فتستكشف اليوم قانونا من قوانين الطبيعة وتستكشف غدا جوهرا من جواهرها الخفية ، حتى استطاع التلميذ بحركة من أصبعه أن يحيل الغرفة المظلمة نورا وهاجا ، لأنه عرف سر الكهرباء ، فما كان بالأمس معجزة يرتاب فى جوازها العقل ، أصبح اليوم حقيقة مألوفة لا يدهش لها الأطفال .

واستطاع التلميذ أن يشافه صاحبه بكلمات تلوكها الألسن وتسمعها الآذان ، هذا فى جنوب المعمور وذاك فى شماله من غير حاجة إلى أسلاك . واستطاع التلميذ أن يشارك الطير فى ارتياد الجو فكأن كل محلق فى الجو سليمان . وغاص مع الأسماك فى مساربها . وتتبعها إلى مهاربها .

ذلك أن المعلم الأعظم يريد لتلاميذه أن يحاكوا عظمته فى العلم والإرادة والقدرة ، كما يريد لهم أن يحاكوه فى المحامد والمكارم ، أليس المعلم الأعظم قديرا على كل شىء ؟ أليس فعالا لما يريد ،أليس يقول للشىء كن فيكون ، وها هو ذا تلميذه ، ها هو ذا سره وقبسه فى هذه الدنيا الإنسان قد استطاع أن يسخر الهواء والماء والكهرباء ، وكثيرا مما نرى ولا نرى من قوى هذه الطبيعة العذراء .

سيداتى وسادتى :

إذن لا يرو عنكم أن تكونوا ذرات صغيرة الأحجام محدودة الأعمار فى هذه الدنيا . إذن لا تستهينوا بأنفسكم إذا قستموها بما سبقكم من الأجيال وما يخلفكم منها حتى إذا رجع الماضى إلى الأزل وامتد إلى الأبد. ولا يهولنكم أن يكون كوكبكم شظية تناثرت من الشمس ، فكل واحدة منكن سيداتى ، وكل واحد منكم سادتى يحمل بين طواياه سر الوجود . هذه الأرض ستفنى . والشمس التى هى أصل الأرض ستفنى ؟ والنظم الشمسية على اختلافها قد يجعلها المعلم الأعظم مظاهر أخرى لقدرته وصورا جديدة لإرادته لكن ذلك القبس الذى هو نفحة من روحه جلت روحه وعلت عن الأرضين والشموس والأقمار ، ذلك القبس الذى يصلكم به صلة أزلية خالدة لا تنفصم ، ذلك القبس هو سر الوجود .

فبأى ميزان نزن الحياة ، أبميزان الطعام والشراب والفقر والغنى والدور والقصور والبذخ والمناعم والوظائف والمناصب ، أم بميزان المحامد والمكارم والعلم والارادة وكبريات الصفات التى نحاكى بها معلمك الأعظم ؟ نحن لا نحتقر الطيبات من الرزق ولا نبغض إليكم كسب المال وإنفاقه فى سبيله الخيرة ، بل نحض على ذلك ففيه حفز للهمم وعود على النفس وذوى القربى وأهل الخصاصة بالمتاع الحلال . ولكن الأمر كل الأمر الذى أريد أن أذكر نفسى به وأذكركم ، هو أن كل مرافق الحياة من متاجر ومزارع وصناعات ، ومن مطاعم ومشارب ومساكن ، هى أدوات ووسائل لابد منها ولكنها ليست غاية الغايات أذكر نفسى بهذه الحقيقة الأولية وأذكر بها حضراتكم لا غضا من الوسائل ولا صرفا لكم عن اتخاذ الأدوات ، ولكن لأنك لو أحصيت فى زماننا هذا أولئك الأيقاظ الذين لم تصرفهم وسائل الحياة عن غاية الحياة ، لألفيتهم نزرا يسيرا لا يبلغ عددهم فيما أحسب واحدا فى كل ألف .

أولئك يزنون الحياة عامة ، ويزنون حياتهم خاصة بما تحوى جيوبهم من مال ، لا بما تحوى نفوسهم من خصال ، وبما يشغلون من مناصب لا بما يخدمون من مبادىء .

سيداتى سادتى :

هذه الأرض مدرسة بعثنا إليها بديع السموات والأرضين . وهذه حقيقة الحياة ، حياة الأفراد وحياة الأمم . وغاية هذه الحياة هى أن نحاكى صفات المعلم الأعظم ، نحاكى عظمته فى غير

صلف ؛ تحاكى رحمته فى غير ضعف . تحاكى علمه وقدرته فى غير زهو ولا خلاء . تحاكى إرادته فى غير تجبر ولا غرور .

سيداتى وسادتى :

فى هذه المدرسة الربانية الكبرى تلاميذ مختلفة درجاتهم فمنهم المبرز ومنهم المتخلف ، فلا تعجبوا إذن لبعد مابين الناس من تفاوت فى الأخلاق والعزائم والعرفان ، لكن حين يعلم الناس أنهم هاهنا تلاميذ وأنهم لم يرسلوا إلى الحياة لعبا ولا لهوا . وأن معلمهم هو ينبوع النور والعرفان والفضائل فى كل قلب مضىء ورأس عامر بالعلم ونفس خفاقة بالشعر أو ببدائع الفن الجميل . حين يعلم كل ذى موهبة . وكل ذى فضيلة وكل صاحب اختراع وكل مستكشف لسر من أسرار الطبيعة ، أن ملهمه ومرشده هو ذلك القبس المستمد من قوة الله حينئذ يبطل الغرور حياء من الله . وتتضاعف الهمم مرضاة للعلم الأعظم . ويكون ميزان حياتك هو مبلغ محاكاة لصفات للصدر لكل عظيمة من عظائم الصفات .

***

هذه هى الخطبة التى ألقاها الأستاذ توفيق دياب ونشرت فى الجرائد . كتبتها لأنها تمت إلى الحقائق بسبب (وبيانه) أن الناس قسمان : قسم لايعرف من الوجود إلا الظواهر . وهذا القسم هو أغلب نوع الإنسان . وقسم يبحث عن حقائق الوجود . وهذه الخطبة تمت إلى القسم الثانى ، لسبب ذلك كتبتها فى هذا التفسير . وهل لك أيها الذكى أن أحدثك حديثا عجبا . إن هذه الخطبة ذكرتنى بجوهرتين : الجوهرة الأولى أنها تقرب من كلام أفلاطون فى جمهوريته فى الكتاب الخامس : الجوهرة الثانية : أنها تقترب بعض الاقتراب بما خطر لى وملأ قلبى جمالا وبهجة وسرورا واشراحا صباح يوم السبت ٥ رمضان سنة ١٣٤٩هـ الموافق ٢٤ يناير سنة ١٩٣١ م .

الجوهرة الأولى فى موازنة هذه الخطبة بآراء أفلاطون فى جمهوريته

ترجع هذه الخطبة كلها إلى أن كثيرا من الناس لايفقهون إلا الحياة الحاضرة وهى فى ظاهرها مسبوقة بعدم ويلحقها عدم . فسواء أكان اجتهاد الناس فى الدنيا موجها لأنفسهم هم ، أم كان موجها لأبنائهم وأحفادهم ، أم كان موجها إلى مواطنيهم ، أم كان موجها للأمم كلها ، أم كان موجها لأجيال سيأتون بعد آلاف آلاف السنين ، فهذا كله ما هو إلا وبال وسعى لغير فائدة ، فالوجود الذى يعقبه الفناء وجود خير منه العدم والفناء .

هذا ملخص الخطبة ، وعادة هذا الإنسان المتدين والملحد أنهم لا يفكرون على هذا الأسلوب ، وغاية الأمر أن المتدين يقول : « أعمل خيرا ليكون لى ثواب ، فأتمتع باللذات بعد موتى » أما أمثال هذه الآراء فإن عادة الإنسان فى الأرض عدم خطورها بباله خطوراً يحث على البحث ، وإذا خطرت يذرونها بلا بحث ويكتفون بدياناتهم التى نشأوا عليها وهم لا يفهمون منها إلا قشورها ، فهاك ما قاله أفلاطون فى جمهوريته .

إن هذا الفيلسوف كما تقدم كثيراً فى هذا التفسير لا يرى أحداً يصلح لحكم الأمم إلا الفلاسفة ، ذلك لأنهم وقفوا على الحقائق فصاروا كأنهم خلفاء الله فى أرضه ، وبهذه الخلافة يقلدونه فى صنع ما هو كامل ويحفظون الأمم كما يحفظ هو الكون كله ، وعلى هذا أخذ يصف هؤلاء الفلاسفة ، ويدور محور كلامه على أمرين اثنين لا ثالث لهما ، وهما أن الوجود إن كان دائما فالقائم به المتحقق به هو الفيلسوف ، وإن كان

للوجود غير دائم فالمكتفى به ليس فيلسوفا لأن علمه متعلق بما ليس له دوام ، فهو يبنى أساس عقله وعقده على ما ليس بثابت ، فهو أشبه بمن يبنى قصوره على شفا جرف هار ، أو على أرض بركانية يثور فيها البركان وقتا بعد وقت ، أو كمثل من يركب الأسد ، فهو فى جميع أحواله خائف يرتقب الهلاك وهكذا مصاحب الكاذب الخائن ، فهو فى جميع أوقاته يترقب غدره وإيقاعه فى الهلاك وهكذا .

إن ما هو معدوم يكون تصوره جهلا ، وما هو موجود دائم يكون إدراكه علما ، وما يكون متردداً بين الوجود والعدم يكون إدراكه تصوراً ، فهو متردد بين العلم والجهل .

هذا إجمال كلامه وإن أردت يا صاح إلا الإفصاح ، فدونك الصور الجميلة والأنغام الشجية والقصور الفخمة والأطعمة اللذيذة والثياب الملونة والأشربة المفرحة والمزارع النضرة والبساتين الجميلة والممالك الواسعة التى يملكها الملوك ، والأرض الواسعة التى يملكها الأفراد ، وأمثال ذلك مما يعرفه جمهور الناس وهو شائع بينهم .

هذا كله موجود مشاهد ، والناس فى الشرق والغرب قديما وحديثا لا يرون لهم سعادة ولا عزا ولا مجدا ولا لذة إلا فى التمتع بهذه وأمثالها ، فتجد الإنسان مفتونا بمعشوق جميل ملك قياده كغادة هيفاء ، أو بنوع من الشراب يفنى فيه أوقات فراغه ، أو قصصى يقص عليه أخباراً مسلية ، أو جوقة تمثل رواية غرامية ، أو السينما (دار الصور المتحركة) التى تعكس صوراً بهجة غريبة .

وبالجملة إن هذه كلها هى التى يفرح بها الناس ويظنون أن هذا وجود حقيق وهذا خطأ . إن كل هذه مترددات بين الوجود والعدم . فمن وقف نظره عليها خانه عقله وأخطأه جده فإن هذه كلها لها وقت فيه تتغير ولا تبقى . فالقصور والبساتين والمزارع والغادات الفاتنات والصور المتحركات فى السينما إذا أخذناها باعتبارها هى وأنها مقصودة لذاتها وأن هذا الجمال الذى فيها لا نطلب شيئا وراءه فإن عقولنا إذن تكون فى غاية الخطأ . والدليل على ذلك أن حياتنا محدودة . وكذلك وجود كل هذه المشاهدات التى فرحنا بها . إذن وجودها عدم وأى عقل يفرح بما ليس بدائم . العقل الذى يفرح بما ليس بدائم عقل مخبول . فهذه الصورة الجميلة التى سلبتنى لبى وأخذت على مشاعرى . وهذه الحديقة الجميلة . وهذا الملك الواسع . وهذه السلطة ، سيحصل أحد أمرين : إما أنى أنا أضعف عن التمتع بها بموت أو مرض أو غيرهما . وأما أنها هى تزول أو تفارقنى أو تأتى عوارض تحول بينى وبينها . فترى هذه الغادة الجميلة أغرمت بغيرى أو ماتت . وهناك ينقلب العشق مرضا ولهفا وحزنا . وهكذا يقول أفلاطون : كل هذه الأشياء مترددة بين العدم والوجود فالفرح بها والاعتداد بوجودها والوقوف عندها عدم عقل وضعف فى البصيرة . إذن ماذا يفعل هذا الإنسان المسكين الذى كله لا يعرف إلا هذا ؟ فقال : يتخذ هذه الصورة الجميلة . وهذه اللذات المختلفة والقصور والدور والممالك والأبهة وسيلة للتوصل بها إلى إدراك أن هناك جمالا مطلقا وملكا كبيرا وعدلا تاما ونظاما دائما لا يعتريه الفناء . ومعنى ذلك أن الفيلسوف يبحث بالطرق العلمية ويدرس جميع العلوم وجميع هذا الوجود . وتقوده تلك الصور الجميلة والنظم البديعة إلى ماوراءها من جمال دائم وملك واسع وماهذه إلا صور تشف عما وراءها : ويكون كل مايصبو اليه الجهال من صور جميلة ومال عند الحكيم مذكرا ووسيلة لترقى عقله إلى جمال أتم وملك أوسع ولذة أكمل مع الدوام يلحظه بعقله ويعيش قرير العين بحيث إذا غاب ذلك الجميل أو غدر أو زال ذلك الملك أو المال فإن نفس الفيلسوف سعيدة . ذلك أن محبوبها لم يغب عنها . فإن محبوبها هو الجمال المطلق والملك المطلق . فأماهذه الصور التى ظهرت له فما هى إلا ظواهر مذكرات بما وراءها لاحقائق ، فأمثال هؤلاء الفلاسفة هم الذين يجب أن يقوموا بنظام الأمم .

أنا

أنا الآن أعتقد أنى قدمت لك أيها الذكى فكرة عامة عما يريده أفلاطون فى جمهوريته ، وهذا القول الوجيز هنا يكفيك الآن :

فإذا عرفت هذا فهمت ماقاله مترجم الكتاب فى صحيفة ١٢٢ وهذا نصه: «الفيلسوف الحقيق هو المغرم كل الغرام ، بالحكمة فى كل فروعها ، وعلينا أن نميز فى هذا الموقف أدق تمييز بين الفيلسوف الحقيق وبين المدعى حب الفلسفة تدجيلا ، وتستقر نقطة الفرق بينهما فى أن الدجال يكتفى بدرس الموضوعات الجميلة مثلا ، أما الفيلسوف الحقيقى فلا يقف عند ذلك الحد ؛ بل يتجاوزه الى إدراك الجمال المطلق ويمكن وصف حال الأول العقلى بأنه (تصور) وحال الثانى أنه (معرفة حقيقية) أو (علم) فهنالك الوجود الحقيق الذى يتناوله العلم . واللاوجود أو العدم الذى نسبته الى الجهل نسبة الوجود الحقيقى الى العلم . ويتوسط بين العلم وبين الجهل التصور . فنستنتج أن التصور يتناول الوجود الظاهرى . فالذين يدرسون الوجود الحقيق يدعون محبى الحكمة أو (فلاسفة) والذين يدرسون الوجود الظاهرى يدعون محبى التصور (لا فلاسفة) ».

وفهمت ماجاء فى المتن . وأذكر لك بعضه فى صحيفة ١٤٨ من الجمهورية إذ سأل سقراط غلوكون . فلسقراط (س) ولغلوكون (غ) وهاك نصها :

(س) إن الراغب فى تذوق كل أنواع المعرفة فيكب على دروسه بسرور ورغبة ولايكف أن إنسانا كهذه يحق ندعوه فيلسوفا ألا ندعوه .

(غ) إن وصفك هذا يشمل عددا عديدا . ويضم طائفة مستهجنة ، وبحسبه كل عشاق الطلب فلاسفة لأنهم راغبون فى المعرفة . وكذلك المنصبون على سمع القصص هم طبقة خاصة بين الفلاسفة . أعنى بهم الذين لايشهدون محاورة فلسفية . ولا غيرها من أنواع المحاورات على أنهم سامعون مواظبون لايغيبون عن حفلة ديونيسية [1] فى مدينة أو قرية . فكأنهم آجروا آذانهم للسمع لكل جوقة فى وقتها، أفنهب لهؤلاء لقب فلاسفة ولأمثالهم ممن لاذ بأى نوع من الدروس ولأساتذة الفنون الصغرى :

(س) مؤكد لا بل ندعوهم فلاسفة زائفين :

(غ) فمن هم الذين ندعوهم فلاسفة حقيقين ؟

(س) هم الذين يحبون أن يروا الحقيقة .

(غ) لا يمكن أن نخطىء فى هذا ولكن هل تريد أن توضح ماتعنيه

(س) ليس ذلك سهلا مع غيرك . أما أنت فتجود على بالتسليم الذى أنشده .

(غ) وما هو ذلك التسليم .

(س) هو فيما يأتى : لما كان الجمال ضد القبح فهما شيئان .

(غ) مؤكد أنهما شيئان .

(س) وإذا كانا شيئين فكل منهما واحد على حدة .

(غ) وهذا أيضا حق .

(س) ويتمشى هذا الحكم نفسه على العدالة والتعدى ، وعلى كل التصورات العمومية فكل منها شىء واحد ، لكنه يظهر متعددا باعتبار علاقاته المتبادلة بالأشياء والأعمال التى بها يتجلى فى كل مكان .

(غ) أنت مصيب .

(١) أو بختالية : نسبة إلى باخس ، وهى حفلة شرب ومرح .

(س) واستنادا إلى هذا المبدأ أميز بين الذين وصفناهم الآن أنهم عشاق النظر والصناعة ومحبة الفنون ورجال العمل من جهة واحدة ، وبين الذين نحن في صددهم وهم وحدهم نسميهم فلاسفة في الجهة الأخرى .

(غ) أوضح ماتعني .

(س) أعني أن محبي النظر والسمع يعجبون بالجميل من الأصوات والأشكال والألوان والصور ، وكل مادخلت في تركيبه هذه الأشياء من منتوجات الفن ، ولكن فهمهم يقصر عن إدراك كنه الجمال واعتناقه .

(غ) نعم إنه كما تقول .

(س) أو ليس القادرون على التفكر الحر في الجمال المطلق هم قلائل

(غ) حقا إنهم قلائل .

(س) فإذا أدرك امرؤ وجود الأشياء الجميلة ولكنه جحد الجمال المطلق وعجز عن اتباع من تقدمه إلى إدراكه ، أفلما تحسب حياة إنسان كهذا أم يقظة ، تأمل أليس الحالم ، في يقظة أو في منام ، هو الذي يخلط بين الحقائق وبين الصور المنعكسة عنها .

(غ) اعترف أن امرأ كهذا حالم .

(س) وما قولك فيمن غايره ، ففهم الجمال المطلق ، وامتلك قوة التميز بين هذا الجوهر وبين الأوساط التي يتجلى بها فلا يخطيء في حسبان المجال جوهرا ولا الجوهر مجالى ، أحلما تحسب حياة هذا أم يقظة ؟

(غ) يقظة دون شك .

(س) أفلسنا مصيبين إذ ذاك ، في تسمية فعل الشخص الثاني العقلي معرفة لأنه أدرك الحقيقة ، وفعل سابقه تصورا لأنه تصور فقط .

(غ) غاية في الصواب .

(س) حسنا ؛ فاذا امتعض من سميناه متصورا لاعارفا ، وغضب علينا مدعيا أن ماقلناه غير صحيح ، فهل لنا من سبيل لتلطيف غضبه وإقناعه برقة ولين ، ساترين عنه حقيقة حاله ، وهى أنه ليس في حال الصحة .

(غ) ذلك أمر مرغوب فيه .

(س) فانظر فيما يلزم أن نقول له . أنستحسن أن نحادثه مسلمين أنه لوعرف شيئا لما حسدناه على علمه أقل حسد ، بل كنا نسر بأنه كما يدعى ، ولكنا نقول له أجب عن هذا السؤال إذا عرف ذو الحجى فهل عرف شيئا أولا شيئا أجب عنه ياغلوكون .

(غ) أجيب أنه عرف شيئا .

(س) أموجود ذلك الشيء ، أو لاموجود ؟

(غ) بل موجود ، لأنه كيف يمكن غير الوجود أن يعرف .

(س) أفمتثبتون نحن من هذه الحقيقة ، في أية صيغة نظرنا فيها أي أن الموجود حقيقة يعرف معرفة تامة ، أما المعدوم فمجهول بتاتا .

(غ) إننا

(غ) إنا متثبتون منها كل التثبت .

(س) حسنا . فاذا كان هنالك شيء متردد في الوقت نفسه بين الوجود وبين العدم أفلا يوضع في رتبة متوسطة بين الموجود يقينا وبين المعدوم بتاتا

(غ) يلزم أن يوضع .

(س) فإذا خصت المعرفة بالموجود والجهل بالمعدوم ، أفلا يلزم أن نجد حالة متوسطة بين العلم والجهل تختص بما هو متردد بين الوجود والعدم .

(غ) يقينا .

(س) أنقول أن التصور شيء .

(غ) بلاشك

(س) أفنحسبه قوة متميزة عن العلم أم نحسبه العلم نفسه .

(غ) هو شيء متميز عن العلم .

(س) فنخص العلم بدائرة نفوذ ، والتصور بدائرة أخرى بطبيعة مافي كل منهما من قوة .

(غ) تماما .

(س) أفليست طبيعة العلم المختص بالموجود هي معرفة كيف وجد أولا ؛ وإلا فهناك فرق واضح يلزم تحديده .

(غ) وماهو ؟

(س) إن القوى . كمجموع قائم بذاته . هي مانعمل به نحن . وكل أحد مايمكن عمله مثلا : إني أدعو السمع والبصر قوتين . إذا كنت تدرك الفكرة الخاصة التي أروم أن أصورها .

(غ) إني أدركها .

(س) فاسمع ماأراه فيها . لست أرى في القوة شكلا ولا لونا . ولا غيرهما من الأعراض التي أراها في مختلف الأشياء . وبها أميز (أي بالأعراض) بين شيء وشيء ؛ أما في القوة فأعتبر وظيفتها ودائرة نفوذها وبذلك توصلت إلى تسميتها فأدعو القوى التي من نوع واحد وتعمل عملا واحدا . ولها وظيفه واحدة (قوى واحدة) ولكن القوى التي تختلف دوائر نفوذها وتتفرع وظائفها فادعوها (قوى متنوعة) فما قولك .

(غ) هكذا بالتمام

(س) فأخبرني ياصديقي الفاضل في أية رتبة تضع العلم أنحسبه قوة .

(غ) نعم أدعوه قوة : وهو أعظم القوى كافة .

(س) وهل التصور قوة أوندرجه في سلك آخر .

(غ) لا آخر . لأن مابه نتصور لايكون إلا تصورا .

(س) وقد اتفقنا الساعه أن العلم والتصور غيران .

(غ) وهل يجمع العاقل بين الخطأ والصواب .

(س) أحسنت فنتفق في أن التصور شيء غير العلم .

(غ) غيره .

(س) فلكل منهما بطبيعته ميدان نفوذ خاص وتأثير خاص .

(غ) الاستنتاج قاطع .

(س) فميدان نفوذ العلم هو معرفة طبيعة الوجود .

(غ) نعم .

(س) وميدان نفوذ التصور هو (الظن) .

(غ) نعم .

(س) أفيتناول التصور حتما وفعلا مادة العلم . وبعبارة أخرى هل مادة التصور هي نفس مادة العلم . أو إن ذلك محال .

(غ) إنه محال : بناء على ماقررناه أي أنه إذا سلمنا أن القوى المتنوعة دوائر نفوذ مختلفة . وأن العلم والتصور قوتان متميزتان . وقد جزمنا بذلك ، فهذه المقدمات تجعل توحيد مادة العلم ومادة التصور محالا .

(غ) طبيعي .

(س) فإذا كان للوجود مادة العلم فمادة التصور هي حتما شيء آخر غيره .

(غ) يلزم أن يكون غيره .

(س) فهل يتناول التصور المعدوم ؟ أوأن تصور المعدوم غير ممكن إصالة . افتكر من يتصور ألا يوجه أفكاره نحو شيء . أفيمكن أن يكون تصور في اللاشيء ،

(غ) غير ممكن .

(س) فمن يتصور فقد تصور شيئا .

(غ) نعم .

(س) ولكن المعدوم لايدعى شيئا بل هو لاشيء .

(غ) بالتمام .

(س) وقد الزمنا أن نخص الجهل بالمعدوم والمعرفة بالموجود .

(غ) وبالصواب فعلنا .

(س) فموضوع التصور ليس الوجود ولا المعدوم .

(غ) لا هذا ولا ذاك .

(غ) فليس التصور معرفة ولا جهلا .

(س) أفيستقر وراء أحدهما ، فيفوق المعرفة يقينا ، ويفوق الجهل إبهاما .

(غ) يظهر أنه ليس كذلك .

(س) فقل : أنحسب التصور أقل وضوحا من المعرفة ، وأقل خفاء من الجهل .

(غ) نعم وهو متميز عن الاثنين كثيرا .

(س) فهو إذا بين هذين الطرفين .

(غ) نعم .

(س) فنحسب التصور إذن شيئا بين الاثنين

(غ) بالتمام .

(س) أو لم نقل الساعة إنه إذا بان لنا شيء أنه موجود وغير موجود في وقت واحد ، فيجب وضعه بين الموجود الحقيقي وبين المعدوم المطلق . فلا يكون إذن مادة علم ولا مادة جهل . بل هو مادة قوة ثالثة بين العلم والجهل يجب اكتشافها .

(غ) قلنا ذلك .

(س) وقد اكتشفنا الآن قوة بين الاثنين دعوناها تصورا .

(غ) واضح أنا اكتشفناها .

(س) بقي أن نكتشف مايشترك في الوجود والعدم ، وليس هو أحدهما بكليته فإذا ظهرت لنا ماهيته دعوناه بحق (مادة التصور) ناسبين الطرفين ماهو لهما ، والوسط ماهو له ألست مصيبا .

(غ) إنك مصيب .

(س) فإذا وضعنا هذه الفروض ، فإني أسأل ذلك الرجل المعتبر الذي ينكر وجود شيء كلي ، أوأي صورة من صور الجمال المطلق ، التي تظل إلى الأبد كما هي غير قابلة التغير ، مع أنه يعترف بوجود أشياء عديدة جميلة ، ذلك الذي يحب المنظورات ، وهو لا يحتمل أن يقال له إن الجمال واحد وأن العدالة واحدوهلم جرا ، فأقول له ؛ ياسيدي العزيز أيوجد بين كل الأشياء الجميلة شيء واحد لا قبح فيه ، وبين كل الأشياء العادلة عادل واحد لاظلم فيه ، وبين كل الأشياء الطاهرة طاهر واحد لادنس فيه .

(غ) كلا بل تظهر كلها بلا تخلف ، جميلة وقبيحة ، عادلة ومعتدية بارة ودنسة باعتبارين

(س) وأيضا . ألا يمكن اعتبار المضاعفات الكثيرة إنصافا علاوة على أنها مضاعفات .

(غ) تماما كما أنها أيضا مضاعفات .

(س) وجريا على الأسلوب نفسه هل للأشياء التي ندعوها كبيرة ، وصغيرة وخفيفة وثقيلة حق في أن تدعى كذلك أكثر من أضدادها .

(غ) كلا بل كل منها يمكن أن يدعى بالإسمين على السواء .

(س) فنكون أقرب إلى الصحة إذا وصفنا كلا من هذه الأشياء بأنه قد يكون وقد لايكون كما وصف

(غ) انك تذكرني بأحجية التضاد التي تتلى على موائد الطعام (التسلية) ولغز[1] الأولاد عن الخصي الذي رمى الخفاش بما رماه به، هو جاثم على ماهو جاثم عليه. لأن الأشياء المشار إليها فيها الغموض نفسه فلا يمكن الإنسان أن يميز هل هي موجودة ، أو غير موجودة معا .

(س) أفيمكنك إفادتي ماذا تعمل بها ، أو هل عندك رتبة لها أفضل من الرتبة الوسطى بين الوجود والعدوم لأنها في مذهبي ليست أحق من المعدوم لتكون أكثر عدما منه ، ولا أوضح من الوجود فتكون أثبت منه وجودا .

(غ) إنك مصيب كل الاصابة .

---

(١) تقول الأحجية : قيل إن رجلا وليس برجل ، رمى وماري ، طائرا وليس طائرا جاثما وليس جاثما . على غصن وليس بغصن . بحجر وليس بحجر . وهكذا وقد فسرت هذه الحكاية نوعا في المتن .

(س) فقد اكتشفنا أن الأفكار الشائعة فى الجمهور فى العدالة والجمال وأخواتهما هى تائهة بين الوجود المطلق وبين العدم المطلق .

(غ) اكتشفنا .

(س) وقد سلمنا سابقا أنه إذا ظهر شيء من ذلك دعى تصورا لامعرفة . وإن مايتراوح بين الأمرين يفهم بقوة متوسطة .

(غ) قد سلمنا هذا التسلم .

(س) ولذلك حين تقع عين الناس على شتى الأشياء الجميلة ، ولكنهم لايقدرون أن يروا الجمال بالذات ولا أن يتبعوا من يقودهم إليه . وحين يرون أشياء عديدة عادلة ولا يرون العدالة بالذات . وهكذا فى كل مثل . فإنا نقول أن لهم فى كل موضوع تصورا . لامعرفة حقيقية فى الأشياء التى يتصورونها .

(غ) الاستنتاج ضرورى .

(س) ومن الجهة الأخرى . ماذا يجب أن نقول فى أولئك الذين يفكرون فى الأشياء على ماهى فى ذاتها كائنة دون فناء ولا تغير ؟ أفلا نقول إنهم عارفون وليسوا متصورين .

(غ) وهذا أيضا استنتاج ضرورى .

(س) أفلا نقول أن هؤلاء يحبون بمواضيع المعرفة ويحبونها وأولئك يعجبون بمواضيع التصور لأننا لم ننس أننا قلنا إنهم يحبون ويطلبون الأصوات والألوان البديعة ونحوها من الأعراض ولكنهم لم يسمعوا بوجود الجمال المطلق .

(غ) لم ننس .

(س) أفنخطىء إذا سميناهم محبي التصور . بدلا من تسميتهم (فلاسفة) أو يستاءون كثيرا إذا سميناهم كذلك .

(غ) كلا إذا قبلوا رأيى . لأنه من الخطأ أن يسوءنا الحق .

(س) فالذين يحبون للوجود الحقيقى . فى كل موضوع لاندعوهم محبي التصور بل فلاسفة .

(غ) نعم . من كل بد . انتهى الكلام على الجوهرة الأولى .

الجوهرة الثانية

فى ذكر ماخطر بقلبى وملأه جمالا وبهجة وسرورا صباح يوم السبت ٥ رمضان سنة ١٣٤٩ .

ذلك أنى بينما أنا بين اليقظة والنوم صباحا إذ تجلت لى هذه الدنيا بهيئة جميلة . وازينت بزينة بهجة بديعة . وخيلت لى الأرضون والسموات وما بينهما بهيئة غير ماأراها ببصرى . وهذه حال يعجز قلمى عن التعبير عنها . فما أسرع خاطرى للتفكر فيها . وما أبهج قلبى بمشاهدة مناظرها الخيالية فهناك هناك خيل لى كأن قائلا يحدث عقلى ويقول : وياعجبا لهذا الجمال المصون عن الجهال . إيه أيها الإنسان . إيه يا أهل الأرض ، واعالمكم ، هذه الشمس وهذا القمر ، وهذه النجوم ، وهذه الأنوار مرسلات اليكم وأنتم لاتبصرون . لا لا ، أنتم أرواح من الطراز الضئيل ، يظهر أنكم كنتم فى عالم غير هذا ولم تصلحوا لقيادته

ولا لسيادته . فأقصيتم عن المكان الرفيع ، وأنزلتم إلى هذا المكان ، أصلكم شريف ، أنتم من عالم أعلى أنتم من نور ، أنتم من أصل كريم ، أنتم نور من الله ، ولكنكم ضعفتم عن أن تسيروا على سننه فكانت هيئتكم كهيئة ماتعافونه من قمامات المنازل ، ومما تسمدون به الأرض من كل مالا يصلح لغذائكم ولا انتفاعكم فأنتم تجعلونه سمادا لزرعكم فيكون الحب والخضر والفاكهة : إن السماد من مادة النبات والجاهل يحقره ، ولكن العالم الدارس يرى المادة واحدة، ولكن السماد تنزلت مرتبته عن الفاكهة، فما هى إلا شهور معدودة فيزول وصفه القديم ويكسب وصفا شريفا يؤهله أن تقبله نفوسكم ، فنفوسكم شريفة من العالم العلوى ، ولما عجزت عن أن تسير على القانون الإلهى أنزلت إلى هذه الأرض (وتشير لذلك قصة آدم) والقانون الإلهى يرجع إلى أمرين اثنين . وهما حب العلم ، وحب الأمم . الله لاحد لعلمه ، ولاحد لإنعامه على المخلوقات ، ولكن أرواحكم لم تقو على السير على سننه فأرسلت إلى هذه الأرض . ومن درس هذه النفوس البشرية اعتراه العجب منها . ذلك أنه يجد أنها مجبولة على حب ذواتها تريد أن تجعل العالم كله خادما لها . وجميع السحرة فى هذه الأرض وكل رجال السياسة هم والشحاذون على حد سواء، كلهم يريدون أخذ مال الغير بسهولة أى يريدون أنفسهم لا غير . فالساحر وقارئ العزيمة ورجل السياسة الذى يحكم الأمم لمجرد شهوات أمته لا لرقى تلك الأمم . كل هؤلاء قوم شحاذون أو لصوص أو قطاع طرق ، بل كل شيوخ الدين ورجال الصوفية (غير الصادقين) أى الذين يحبون الشهرة لا غير أو جمع المال فهؤلاء وهؤلاء كلهم شحاذون وقطاع طرق ولصوص .

وبالجملة كل من لا يريد إلا نفسه فإن نفسه لا تزال ضعيفة ، لا فرق فى ذلك بين الفرد وبين الأمة وبين السوقة والملوك ، فهؤلاء جميعا لم يخرجوا عن أنهم فى هيئة أطفال ، فشيوخهم وشبانهم وكهولهم كأطفالهم على حد سواء .

خلقت هذه الصفة فى الإنسان فى حال صباه ، والهم أن يسعى لرزقه ويكد ويكدح ، وفى أثناء ذلك قرأ العلوم وعرف الصناعات ، كل ذلك لشهوته الخاصة لأن روحه لم تقدر على أكثر من ذلك ، ولكن بعض هذا الإنسان فى أثناء بحثه تظهر له أنواع الجمال والعلوم فيتسع نطاق عقله يوما فيوما فيرى شموسا وأقمارا وأراضى ومعارف وأمما ، ويرى دائرة وجدانه تتسع فيرى زوجة وولدا وعشيرة وقرية وأمة ، فيحس فى نفسه بحب واتصال بهؤلاء ، فكلما اتسع وجدانه زاد إحساسه بهؤلاء ، فلا يزال الإنسان فى استكمال قواه حتى يصبح فيجد نفسه يحب سعادة جميع نوع الإنسان ، وأن يكونوا أمة واحدة أو ما يشبه ذلك بقدر الإمكان .

هذا من حيث العمل ، أما من حيث العلم فإنه يرى هذه العوالم كلها جنته وسعادته ، فيكون مغرما بالعوالم كلها فهما وبصيرة لا تمتعا زائلا ، هنالك تصل هذه الأرواح الأرضية إلى عالم أرقى من هذه الأرض وتقترب من ربها وتكون رياضتها فى أرضنا مشابهة بعض المشابهة لما يحصل فى القامات المزدراة فى الأرض من انقلابها تفاحا وموزا وتمرا .

وهاهنا أخذ يقول وأنا أسمعه : « هذه الأرواح الأرضية يحيط بها الجمال وهى لا تعقله ، شموس وأقمار وأرضون وأنوار تحيط بهم أفلا يعقلون! هاهنا رحمة لا حد لها ، وجمال لانهاية له وعناية تامة تحيط بكم ، والدليل على رحمة الله التى لاحد لها وعلمه وعنايته أن نفوسكم مع قصورها وضعفها واقتصارها على لذة نفسها ومايتفعها فى حياتها وتغاضيها عن منفعة الآخرين أحيطت بكل جمال وكمال من أنوار الكواكب والأقمار والشموس والهواء والماء والضياء والنعم ، ولما كانت لضعفها لا تقوى على النظر إلى وجه ربها ، وهو لشدة رحمته لكم

وحسنه عليكم بحب إنكم تروه لتبتهجوا به لأنه كريم أذا كم صوراً جميلة وبث زينته فى كل مكان ، وأودع فى قلوب الآباء والأمهات رحمة ، وفى قلوب الملوك والحكام غيرة على ممالكهم بالمحافظة عليها ، وفى قلوب المربين والأساتذة والأمهات والمراضع عطفا وشفقة على من يقومون هم بتربيته أو تغذيته ، وعمم الرحمة فى كل حيوان كل ذلك إن هو إلا مظاهر لجماله ورحمته ولعنايته ولطفه ، أرسلها لهذه الأرواح من وراء حجاب لما عجزت نفوسكم أن تنظر إلى ربها فعلا ، ومن الرحمة العظيمة أن الصور الجميلة لا تبقى على حال واحدة وهكذا الأمهات والآباء وكل ماتملكون ، فهذه كلها تسلب منكم ولاتبقى ، فالله يقول لكم : « يا أهل الأرض . فهمتم عطف الأمهات وعشق الغادات والتمتع باللذات والمناظر السارات . ها أناذا أريتكموه ولكن أسلبه منكم رحمة بكم لتفكروا ، أهذا النعيم به المسلوب منا هو الذي تقر به عيوننا ، أم هناك ماهو دائم ثابت نفرح به بلا انقطاع » فبين الإعطاء والمنع يكون التفكر ولا وصول لكم إلا بهذا . أنا سلطت بعضكم على بعض وكل يحارب الآخر أفراداً وأمما . وفى أثناء ذلك تحدث المعرفة فيعرف الغربي الشرقي والعكس . ذلك لأن نفوسكم خامدة ولا وسيلة لإنعاشها بحسب ضعفها إلا بأن يقال لها حاربى لتفهمى . وهاهى ذه الحروب الصليبية جرت مغنم العلم والمعرفة وبها عرف الصليبيون علوم المسلمين مع أنهم جاءوا لإبادتهم . هذه الحرب العظمى وضعت لإشباع الشهوات ولكن أعقبتها منافع عامة ككثرة الكلام فى السلام العام وكارتقاء فن الطيران . وبعض ما استعمل للحرب أصبح نعمة فى السلم مثل الآلات المهلكات المستخرجات من نفس (الأوزوت) الذى هو أحد عنصرى الهواء ، فإن ألمانيا حولتها بعد الحرب إلى سماد . وللحرب الفضل فى انتشار هذا الاختراع . كل هذا ناتج من قصور هذه الأرواح فإنها مجبولة على حب النفس وتجهل غيرها ولكن هذه الأنانية استخدمت وسيلة المنفعة العامة . هذه أخلاق هذه النفوس . فسياسة الأمم العامة هي بعينها سياسة الله فى الأجسام . فالمرء يأكل اللذة وإزالة جوعه ، ولكن المقصود بقاء حياته . ويقرب الأنثى لمجرد اللذة ولكن الحكمة العامة تريد الولد لدوام نوع الإنسان .

فنتيجة هذا كله أن النفوس الأرضية لما ضعفت عن اللحاق بالأرواح الإلهية من حيث عموم العلم وعموم الرحمة وعموم الجمال ، تجلى الله لها بالجمال فى عوالم تناسبها كالأقمار والشموس ، ونسبة جمال هذه العوالم إلى جمال مبدعها كنسبة ضوء أنوار الشمع والبترول إلى ضوء الشمس ، ونسبة هذه العوالم إلى كمال مبدعها كنسبة الساعة التى نعرف بها الوقت إلى الشمس العظيمة التى تدور أرضنا حولها وتنظيم الأوقات العامة .

الإنسان مغمور فى الجمال ، وفى الكمال وفى العلم ، وهو لضعفه قصير النظر والله لعطفه وكرمه يأخذ بيده والإنسانية كلها سائرة إلى هذا الخير فى عالمنا وفى عوالم أخرى إلا ماشاء الله . كتب صباح يوم الأحد (٦) رمضان سنة ١٣٤٩ هـ الموافق ٢٥ يناير سنة ١٩٣١ م

هذا كله سر من أسرار القرآن

مخبوء فى حرفين : حاء ، وباء

وما إن كتبت هذا العنوان حتى حضر صديق العالم الذى اعتاد مناقشتى فى هذا التفسير . فقال : ماهذا العنوان ؟ أتريد أن تقول أن ما ذكرته أنت وما ذكره الخطيب المصرى من أمر النفوس الإنسانية وأن الحياة التي لها نهاية لا تستحق العناية وهكذا ما ذكر أفلاطون أن كل ما لاجاء له من الصور والمتاع لاقيمة له أتقول إن هذا كله فى حرفين اثنين فى القرآن وهما حاء وباء ، وإنى أخاف أن أحدا ممن يسمعون هذا أو

يقرءوه من المسلمين (لا أنا طبعا) يقول إن هـذه مجازفة وإغراق ، فأى حرفين فى القرآن يفيد أن هذه المعانى ، وأى حاء وباء تريد . إن هذا القول أمره عجب . فقلت : أيها الأخ المفضال ماذا جرى ، لعلك اليوم فعلت مايفعله بعض الناس إذ يسمع « لاتقربوا الصلاة » فيقول الصلاة منهى عنها ، أفلا تصبر حتى أخبرك الخبر بعد المبتدأ . فقال : ولـكن هذا العنوان نفسه هو الذى حفزنى أن أقول هذا القول لأنه عنوان غريب ، وأنا مشفق على التفسير أن يطعن فيه الطاعنون . فقلت : ها أنا ذا أشرح لك أيها الذكى ما تريد ، أتذكر آية ابراهيم فى الأنعام . قال نعم . قلت ماذافيها ؟ فقال إنه أيقن بالله ، وهذا الإيقان بسبب أنه ظن أولا أن الله هو الكوكب ، ثم لما أفل قال أنالا أحب الآفلين ، ولما رأى أن القمر أبهى من النجم قال هو ربى . ولما أفل أظهر الحيرة تعليما لقومه ورجع إلى ربه ، ولما رأى الشمس بازغة فعل كما تقدم ، ولما أفلت وجه وجهه لله ، هذا هو ملخصها . فقلت له : ألم تعثر فى أثناء هذه القصة التى ذكرتها على هذا السر فقال : وأى سر أهو الحاءوالباء ؟ فقلت إى وربى . فقال: أى حاء وباء ؟ فقلت : ارجع وفكر فى الآيات فقال : لا أرى شيئا . فقلت : ألم تعلم أنه نفى الإلهية عن الكوكب وعن القمر وعن الشمس لأنها متحركات والإله لايتصف بالحركة لأن ذلك فعل الحادث ، ولأنها غابت بعد الظهور ، والإله لايغيب بل معنا أينما كنا وما يغيب لايكون إلها ، فالألوهية يناقضها الحركة ويناقضها غيبوبتها . فقال : هذا حسن ولـكنه لم يأت بالفائدة المرجوة وهى بعيدة عما تريد أن تبرهن عليه . فأين الحاء والباء ؟ فقلت : أنا أتركها لبحثك أنت لأن العلم إذا جاء عفوا لايفيد ، والرزق كذلك ، بل نفس الآية معناهاأن معرفة الله إذا جاءت عفوا لاثبات لها ، وإلا فلماذاترى ابراهيم يفكر فى الكوكب فالقمرفالشمس ؟ أليس هذا معناه البحث ، فأنا أفعل معك ما فعله الله مع ابراهيم وإذاكان ابراهيم نبيا وعومل هذه المعاملة تعليما لقومه أفلا أعاملك أنا كذلك ؟ فلتبحث أنت عما رمزت لك به . هنالك أخذ يكرر الآية مرارا ويقول : « الحاء فى (حنيفا) ولـكن أين الباء ، والحاء فى (حاجه) ولـكن أين الباء ، والباء فى (ابراهيم) ولـكن أين الحاء ، ثم رجع ثانيا وقال ، أهما مجتمعتان أم مفترقتان ؟ فقلت فكر بعقلك ولا تسألنى ، وأضاع زمنا ثم قال : نعم (لا أحب الآفلين) فقلت نعم . فقال : أنا والله إلى الآن لا أفهم فى « لا أحب الآفلين » معانى تتضمن كلام أفلاطون وكلامك وكلام الخطيب المصرى ، فإذا تفضلت بشرح هذا المقام كنت لك من الشاكرين ، ويشكرك المسلمون بعدنا أجمعون . فقلت . أيها الصديق : إن ابراهيم لما رأى الكواكب والقمر والشمس كان عند كل واحد منها يقول فى نفسه انه مسخر مقهور لأنه متحرك وهو يغيب ويحضر والإله لا يكون كذلك . قال نعم . قلت : فـكان مقتضى الظاهر أن يقول أنا لا أعبد الآفلين لأن المقام مقام العبادة ، ألا ترى أنه قال « هذا ربى » ولما رأى أنه لا يستحق الربوبية حصل له شك فيه بل إنكار ، فمقتضى الظاهر أن يقول مثلا « هذا ليس ربى » لأنه على خلاف صفات الرب وإذا لم يكن ربى فلا أعبده ، فهو قال هذا ربى ، وعند الإنكار يقول هو ليس ربى ويلزم من ذلك انه لايعبد فهو لم يقل هذا ولا ذاك ، ولـكنه عبر بعبارة عجيبة وهى أنه نفى الحب عمن لا يتصف بصفات الرب ، وهذا هو السر ، فقوله «أحب» المنفى بلا مشتمل على أربعة حروف الهمز وهى زائدة والحاء والباء مضاعفة فرجع الأمر إلى الحاء والباء . فقال : أنا فهمت الآن ولـكن لم أصل للمقصود . فقلت : نعم سأوضحه .

اعلم أيها الذكى أن العابد إما أن تـكون عبادته من أجل الرهبة ، وإما أن تـكون عبادته من أجل الرغبة ولم يكن عابد فى هذه الأرض يعبد الله إلا لأحد أمرين : إما أنه خائف من الله لئلا يدخله جهنم ، وإما أن يعبده لأنه طامع فى دخول الجنة ، أو لمجرد الحب . فالعبادة إما لخوف وإما لرجاء ، فلا عبادة إلا

على هذا النمط وخير الجميع أن يجده حبا له وغراما به وشوقا إليه وعشقا له ، وهذه العبادة هى المبنية على الحب ومستحيل أن يحب الإنسان أحدا إلا بعد معرفة أحماله وصفاته فيعشقه . قال نعم هذا التفسير كله على هذا النمط . فقلت فكل عابد فى الأرض لاتكون عبادته إلا عن رغبة أو رهبة ، وعبادة العابد الذى أحب ربه أحد قسمى الرغبة . فقال نعم . فقلت : إذن المذكور فى الآية من أحد شق سبب العبادة وهو الحب والعبادة فرع الاعتقاد فى الربوبية . فقال حسن . فقلت : هاهنا وصلنا إلى المقصود . فانظر رعاك الله إلى ما أقول: ألست ترى أن كل ماتقدم من كلامى وكلام أفلاطون وكلام الخطيب المصرى راجع إلى أمر واحد وهو أن مالابقاء له ولا دوام يجب علينا أن نحقره وأن هذه الحياة الدنيا القصيرة ليس من المعقول أن تكون لها قيمة عند العقلاء أصلا إذ لم يكن لها دوام ، وهذا هو قول الخطيب المصرى المتقدم ، واستنتج من هذا أن الحياة تدوم وإلا كان كل هذا عبثا ولهوا وجهالة . فقال بلى . فقلت : ألم تر أن كلام أفلاطون يرجع برهانه إلى أن العقول الصغيرة تقف عند ظواهر الجمال والمال والزينة ، وحقر هذا كله وحكم على أكثر عقول الإنسان انها خاوية جاهلة إذ تظن أن هذه الصور الجميلة والأغانى وكل ما فى هذه الأرض من زينة محل للتمتع ومناط المسرة والسعادة وهى كلها ذاهبة. وكيف يفرحون بما لا ثبات له ، ثم أفاد أن ماله ثبات وهو الجمال المطلق الثابت الذى لا تدركه الحواس وإنما يدركه العقل هو الذى إليه تتجه الهمم والعقول فقال بلى والله . فقلت إذن الحياة التى لا بقاء لها لايصح أن تحب ولا يعول عليها ، وكل ماهو جميل أو نافع ثم هو آفل وذاهب لاينبغى أن يكون محط الرحال ولا هو مناط الآمال. قال نعم. قلت : أليس هذا كله معناه أن المحبوب الحقيقى هو الذى يبقى فقال بلى . فقلت إذن ثبت أن العلم والحكمة أثبتا إثباتا حقيقيا لاتشوبه شائبة أن كل هذه الحياة الدنيا وكل صورها لاينبغى أن تكون مقصودة لذاتها بل مقصودة لغيرها ، وذلك الغير هو الذى يحب وتكون هذه المحبوبات الوقتية مذكرات بالمحبوب الدائم . وهذا المحبوب الدائم يعبد لحبه هو لا لجنة أو نار . إذن أصبح هذا النوع الإنسانى بعد براهين الفلسفة التى خضعت لها جميع حكماء أوروبا والشرق وهى فلسفة سقراط وأفلاطون ومايوافقها من كلام غيرهما ، كله إلا قليلا واهما فى أمر المحبة ؛ فالمحبة التى على غير هذا النمط محبة جاهلة . فقال نعم فقلت : إذن قد وصلنا إلى المقصود وهو أن التعبير بقوله «لا أحب الآفلين» قد حوى تلك المعانى . فاذا كانت حياة الناس على الأرض ليس لها إلا هذه المدة الوجيزة ثم تنقض فهى حياة لاتستحق الاهتمام فلا يصح الحرص عليها لأنها لاتستحق الحب ، وهذا كلام الخطيب المصرى ، وإذا كان كل مافى هذه الدنيا من المال والولد والصور الجميلة ، وما نملك من عقار ومال ومتاع ، وما نسمع من الألحان ، وما نستلذ به من أنواع المشمومات والمذوقات والملموسات والمسموعات والمنظورات . جميعه متغيرا لابقاء له ومالا بقاء له لاينبغى للعاقل أن يحبه بل يحب سببه الدائم الذى يعرف بالعقل لاهو كما يقوله سقراط . أقول : إذا كان كذلك أفليس هذا هو معنى «لاأحب الآفلين» أى أن مايغيب ومالا يبقى لايصح حبه . فقال الله أكبر . الله أكبر جل العلم وجلت الحكمة . وهنالك اعترته دهشة وقال والله لم يكن ليخطر لى أن هذه المعانى يحويها القرآن وهذه أسرار غريبة ، هذه أوروبا وهذه أمريكا وهذه الأمم حولنا يعظمون سقراط وأفلاطون ويتخذون الجمهورية نبراسا لهم ويقرءون منها أبوابا لتربية الجيوش والأسرات ويقدسونهما ويقولون إن الله لم يخلق مثلهما فى العالم الإنسانى . فهذان المقدسان عندهم المعظمان هما اللذان أتيا بهذه النظرية أى نظرية الحب وأنه لاينبغى أن يكون لغير الباقى وهذه شملت كل ماجاء فى الجمهورية وهانحن أولاء وجدناها فى معنى الحب .

ثم أخذ يقول : فليحضر علماء البلاغة قديما وحديثا وليقولوا ماشاءوا . فهذه هى البلاغة . وهذه هى الحكمة وهذا هو العلم . الله الله الله ، هذه هى المعجزة التى لانظير لها .

أيها المسلمون : انظروا فلسفة أفلاطون وسقراط . وملخص الكتاب الخامس من جمهورية أفلاطون دخلت فى القرآن بل فى حرفين اثنين .

يا إخوانى أبناء العرب أبناء مصر وبلاد شمال أفريقيا وسوريا والعراق والموصل ونجد واليمن تعالوا انظروا ديننا ، انظروا قد حوى جميع علوم الأمم ، ها نحن أولاء نرى حرفين ابتلعا أعظم الفلسفة .

لتشمروا عن ساعد الجد ، ولتدرسوا علوم الشرقيين وعلوم الغربيين ، ها ها ، ها أنا ذا عرفت ، عرفت مايشيع على الألسنة أن القرآن فيه علوم الأولين والآخرين ، فذلك من هذا الوادى يكون ، فإذا سمع المسلم « قل انظروا ماذا فى السموات والأرض » علم أن كل العلوم مطلوبة ، وإذا بحث وفكر فى عجائب العلوم استخرج جزئياتها من بعض الكلمات أو الجمل ، اللهم إنا نحمدك على العلم والحكمة . فقلت الحمد لله الذى أقر عينك . فعرفت أنى ما كتبت عنوان المقالة مجازفة أو غلوا أو إغراقا ، فأنا كنت فى أول حياتى أشك فى كل شىء ، فكيف أكتب مالا أوقن به أو ماليس مبنيا على برهان .

هنالك ذرفت عيناه بدموع الفرح . وقال : أريد أن تفيض بعض القول فى عوالم السموات وجمالها. فقلت ياسبحان الله ، إن هذا الكتاب أكثره فى عالم السموات ، فقال ولكن لماذا نسمع الله يقول فى آية الكرسى (بعد ذكر السموات والأرض) « وهو العلى العظيم » . فقلت : حسن . اعلم أن هذه من الأسرار التى تجلت للخليل عليه السلام وهى تتجلى لبعض النفوس الشريفة الإسلامية ، وذلك أن الإنسان إذا فكر فى النجوم واستحضرها بخياله ـ لاسيما إن كان دارسا لعلم الفلك ، وقد درس قبل ذلك العلوم الرياضية التى تعرفه عجائبها ـ تحدث فى نفسه روعة وإعجابا ومحبى بجمالها ورفعتها وعلوها وعظمتها ، فيقول فى نفسه [إن خالقها على عظيم وجميل أيضا] ، فالعلو والعظمة ذكرت فى آية الكرسى تذكيرا بما يخطر للمفكرين من العقلاء فضلا عن الأنبياء . فقال : وهذه أيضا من أسرار البلاغة التى لم يعلمها أحد قبل هذا الزمان. ثم قال : ولكن هنا أمر يؤسف له . لماذا لانرى فى النوع الإنسانى أثرا عظيما لحب الله المذكور فى الآية « يحبهم ويحبونه » و « لا أحب الآفلين » فإن مقتضاه أن الإنسان يحب غير الآفل وهو الله ، وهذا الحب قليل أو ضئيل ؟ فقلت : أيها الحبيب . أكثر الناس فى هذه الأرض يحبون ربهم. وهذا الحب غير واضح لهم وعلى قدر اكتناه العجائب يزداد الحب ، إن حب الله مغطى بألف غطاء ، فإن الشهوات والآلام والعداوات والأمراض والحسد . كل ذلك قد غطى على هذا الحب ، ولو ظهرت هذه العجائب للناس لتقطعت قلوبهم من العشق والحب . كيف لا ونفس الجسم الإنسانى لاحد للكمال الذى فيه ، وهذه النفس الإنسانية العجيبة ، هنالك جعل هذا المخ لها مزرعة تزرع فيه أنواع العلوم والمعارف وفى كل منطقة من مناطقه يزرع علم مخصوص من رياضيات وطبيعيات وإلهيات حتى إن العلماء عرفوا تلك المناطق بعض المعرفة اليوم وفوق هذا علم النفس الذى جاء بطريق التجربة فى عصرنا وسترى بعضه فى أول [سورة الجاثية] عند آية « وفى خلقكم » الخ .

فهذا العلم أظهر أن فى النفس عجائب لاتزال مخبوءة وستعجب مما ستقرؤه هناك فهذه العجائب فى نفوسنا وفى أجسامنا وفى العوالم حولنا لو أنها كشفت لنا ولم تغط بالمرض والحسد والعداوات والحروب لهلك الناس من عشق مبدع هذه العوالم ولكن هذه الأغطية من النعم العجيبة التى أنعم الله بها على الناس حتى يقدروا أن يعيشوا فى الأرض وإن كانوا معذبين فحياة مع هذا العذاب خير من العدم .

إن الله مزج الضار بالنافع رحمة بنا ليصرف عقولنا عن هذا الكنز المخبوء فى الدنيا وهو الجمال الباهر حتى تتسع عقولنا وإذ ذاك يسفه لنا فى عالم الأرواح وفى الفاتحة تراه يذكر الرحمة ويتبعها بقوله « مالك

يوم الدين » فهنا شدة ولين كما تراه جعل فى النبات قوة امتصاص الكربون من الجو بمساعدة المادة الملونة فى الورق مع ضوء الشمس وهذا الكربون يتحد مع الماء فيكون هناك النشاء والسكر ومادة (السيلولوز) التى منها القطن والكتان، وهذه المادة تجعل فى الحويصلات التى يتركب منها النبات غطاء خلف كل خلية من الخلايا التى يتركب منها النبات، فجميع الخلايا مغلفة بهذه المادة كما تقدم مرارا فهاهنا فى النبات مادة الحياة داخل كل خلية وكل خلية يحيط بها غلاف يحفظها فهذا الغلاف فيه معنى الملك والحفظ « مالك يوم الدين » وداخل الحويصلة مادة وهو معنى « الرحمن الرحيم » فهكذا كل العالم فيه مايسرنا وفيه مايؤلمنا . فالمؤلم أشبه بغطاء حافظ لما يسرنا فهذه الشرور مانعات حياتنا من الانحلال لأننا لو عرفنا جمال هذا الوجود لم تتحمل نفوسنا هذا الجمال فنغشى علينا بالمصائب والبلايا والمرض والموت حتى لانعرف الحقائق دفعة واحدة بل نتناسها شيئا فشيئا بالتعلم والدرس والرياضة والعبادة فالعجائب أشبه بمادة الحياة فى حويصلات النبات وخلاياه، وحوادث الدهر أشبه بما يغلفها من مادة السيليلوز الحافظة للخلية الواحدة ، ومن الخلايا كان كل حيوان وكل نبات ، فهذا هو السبب فى عدم ظهور حب أكثر النوع الإنسانى لصانع هذا العالم الحكيم العليم ، فقال. الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وإلى هنا تم الكلام على اللطيفة الأولى كتب يوم الخميس ١٠ رمضان سنة ١٣٤٩ هـ ، و٢٩ ينايرسنة ١٩٣١ م .

اللطيفة الثانية

فى قوله تعالى «وهو الذى ينزل الغيث» الخ

جاء فى جريدة الأهرام فى يوم ٦ يناير سنة ١٩٣١ مايأتى :

أشجار يرجع تاريخها إلى قبل ١٥ مليون سنة

« اكتشف فى غربى كندا بقايا أشجار يظن أنها مما نبت فى أمريكا الشمالية قبل خمسة عشر مليون سنة وقد أحدث اكتشافها ضجة فى المقامات الجيولوجية لأنه يعبث بالنظريات الحالية فيما يتعلق بالأزمنة السابقة للأزمنة المعروفة فى التاريخ . وهى قد اكتشفت فى السنة الماضية فى بطن الرمال بجهة (فورد مكوراى) فأرسلت إلى علماء الجيولوجيا الذين فى خدمة الحكومه ، وهم بعد بحث طويل دقيق يقولون الآن : إن وجودها يعبث بالنظريات المشار إليها ، ويؤخذ من التقارير الأولى أنها نبتت ونمت على مايظهر فى العهد الذى كانت فيه طبقة سطح الأرض فى دور التكوين . ويقول الدكتور (بيلاى) وهو عالم كبير معروف : إن هذه الأشجار هى من نوع الأشجار التى كانت تنمو فى أرض اليابان . وهذا القول يعزز نظرية القائلين إن شمالى أمريكا وآسيا كانا فى غابر الأزمنة قارة واحدة ، وسيقوم العلماء بمباحث جديدة فى المكان الذى اكتشفت فيه بقايا تلك الأشجار » انتهت اللطيفة الثانية .

اللطيفة الثالثة

فى قوله تعالى : (ومن آياته الجوار فى البحر كالأعلام إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور)

اعلم أيدك الله بالعلم أن هذه العوالم كلها آيات الله ، ولكن ليس يدرك ذلك إلا أناس امتازوا بأمرين: الصبر والشكر ، والصبر أقسام كثيرة ، صبر على البأساء وهو الفقر ، وعلى الضراء وهو المرض ، وعلى البأس وهو الحرب ، وعلى طلب العلم ، وعلى القناعة والاكتفاء باليسير ، وعلى الصدق فى القول والعمل والعادة ، وجميع أنواع الطاعات . وهذا الصبر يتحد مع الشكر فى كثير من مواطنه ، والشكر لايتم إلا بمعرفة النعم ولا تعرف النعم إلا بالدراسة ، وكيف تتم الدراسة إلا بالصبر عليها ، فهاهنا صبر وهنا شكر اتحدا عملا واختلفا تسمية ، فقل لى رعاك الله ، أيعرف نعمة الرياح المجريات للسفن وللسحاب كل إنسان وكل حيوان . كلا . فإن كل ذى عينين يدرك الحقائق ، وكيف يدرك الإنسان الحقائق إلا بالفهم والعمل ، فهاك مسألة جرى الرياح هل تعرف إلا بالصبر عليها ، ومن ذا يصبر إلا القليل من الناس ! هذا بعض السر فى قوله تعالى « لكل صبار شكور » .

فانظر رعاك الله إلى الهواء الجوى ، ينظر الجاهل إلى الهواء الجوى فيراه يهب تارة ويسكن أخرى فلايدرى من أين جاء ، ولكن إذا درس وصبر على الدرس علم أن أسباب الرياح كلها ترجع إلى (سببين اثنين) كما قال تعالى « ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون . ففروا إلى الله » .

خيالى يوم الأحد ٢٨ إبريل سنة ١٩٢٩ م

كأنى أسمع رب العزة لما خلق الهواء واليابسة والماء يقول : « أيتها اليابسة ، ويا أيها الماء ، اسمعا ، هاأنا ذا أريد أن أخلق نباتا وحيوانا وإنسانا ، وهؤلاء لاحياة لهم إلا بسحب ماطرات ، والسحب الماطرات لابد لها من رياح ، والرياح لاتتم إلا بأمرين : حرارة وبرودة . هذان زوجان جعلتهما سبب الرياح والرياح تحمل السحب وتسير السفن . فقالت اليابسة والماء : نحن لك يارب مطيعون . فقال : أما أنت أيها الماء فعليك أن تكون بطىء الحرارة بطىء البرودة . وأما أنت أيتها اليابسة فعليك أن تكونى سريعة البرودة سريعة الحرارة ، ومتى تم ذلك حصل فى الهواء اختلاف كثير فهبت الرياح ، وهنالك يدور الهواء عليكما كما يدور الدولاب وكما تدور السواقى وكما تدور الطواحين ، إن الساقية تدور بحيل صنعها عبادى :

(١) فيدور الثور ، وبدورانه فى مدار الساقية

(٢) يدور (النير) الذى فوق رقبته

(٣) والنير يجر الحبل

(٤) والحبل يجر خشبة أخرى متصلة بعمود خشبى

(٥) والعمود الخشبى يدير آلة خشبية مدورة كبيرة لها أضراس أفقية الوضع

(٦) وهذه الأضراس تدير آلة مدورة أصغر منها رأسية الوضع

(٧) وهذه تدير عمودا أفقى الوضع

(٨) وهذا العمود يدير دائرة خشبية عليها قواديس رأسية الوضع

(٩) وهذه القواديس تملأ ماء عند نزولها وتفرغه عند طلوعها ، وهناك تسقى الزرع .

هذه حيل العباد فى إخراج الماء ، أما حكمتى أنا فى الهواء فإنى حركته فوق الكرة الأرضية وجعلته رياحا بالحرارة والبرودة ، إنى لو جعلتك أيها الماء وأيتها اليابسة بطبيعة واحدة فى الحرارة والبرودة لم تكن رياح فلا يكون لى خلق، لذلك أمرتكما أن تكونا مختلفتين حرارة وبرودة ، وباختلافكما كانت هذه النعم وهذه المخلوقات ، إن اختلافكما نعمة ، بل هى أصل النعم فى الأرض» وهاك إيضاح هذا المقام بالرسم من كتاب [الجغرافيا الرشيدة] فقد جاء فيه ما يأتى :

تأثير الحرارة فى الضغط الجوى

أول أسباب اختلاف الضغط الجوى توزيع الحرارة على وجه الأرض بدرجات متفاوتة ، ففى شكل (١) سطح وجه الأرض (هـ و ز ح) مقسم إلى ثلاث مناطق (هـ و) و (و ز) و (ز ح)

ونظرا لسقوط الأشعة العمودية فى المنطقة (و ز) تشتد عليها الحرارة فيسخن الهواء الذى فوقها ويتمدد ويصعد فى اتجاه السهم إلى الطبقات العالية من الهواء، وهى التى فوق الخط الوهمى (ا ب ج د) وبارتفاع هذا الهواء يضغط على الطبقات الفوقية المحصورة بين المستويين (ب ج) و (بَ جَ) فتصبح كثيفة ويشتد ضغطها على الأهوية المجاورة لها فوق (ا ب) و (ج د) لأن هذه الطبقات مازالت قليلة الكثافة ، ويترتب على ذلك هبوب تيارات هوائية فوقية إلى الجانبين فى اتجاه السهمين المرسومين فى أعلى الشكل .

(شكل ١)

وفى أثناء ذلك يتخلخل الهواء فوق (و ز) وتقل كثافته ، على حين أن الهواء لا يزال على جانبيه فى (هـ و) و (ز ح) كثيفا فيترتب على ذلك هبوب تيارات هوائية سطحية فى اتجاه السهمين فى أسفل الشكل

وباستمرار هبوب هذين التيارين واستمرار تسخين الهواء فوق منطقة (و ز) يستمر طلوع الهواء، وهبوب التيارات الفوقية تجاه (ا ب) و (ج د) . ويئول أمر هذا الهواء إلى السقوط فى اتجاه السهمين الجانبين على (هـ و) و (ز ح) ليسد النقص الحادث من انتقال التيارات السطحية .

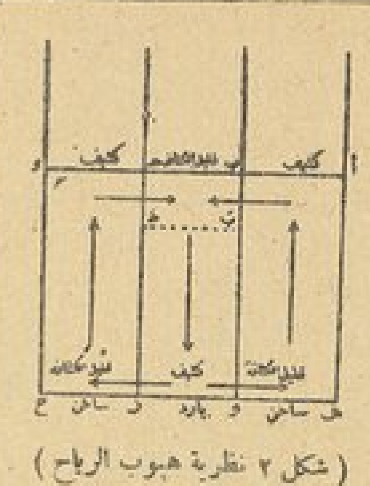
وهاك توضيحا آخر لهذه المسألة بعينها : كما تراه فى شكل (٢) الآتى فى الصحيفة التالية ففيه رقعة من سطح الأرض (هـ و ز ح) مقسمة إلى ثلاث مناطق (هـ و) و (و ز) و (ز ح) والمنطقة (و ز) مشغولة باليابس والمنطقتان (هـ و) و (ز ح) مشغولتان بالماء .

ونظرا لإقبال فصل البرد قد برد اليابس قبل الماء فبرد الهواء فوق (و ز) وتقلص وتكاثف وهبط سطحه من (ب ج) إلى (بَ جَ) على حين أن الهواء لا يزال فوق (هـ و) و (ز ح) عاليا كما كان، فيترتب على ذلك تياران فوقيان فى اتجاه السهمين المرسومين فى أعلى الشكل .

وفى أثناء ذلك يزيد الضغط عند (و ز) ويخف عند كل من (هـ و) و (ز ح) فينشأ عن ذلك تياران سطحيان فى اتجاه السهمين المرسومين فى أسفل الشكل (انظر شكل ٢) .

فيتضح من الشكلين السابقين أن التيارات الهوائية السطحية تنتقل من الجهات الشديدة البرودة إلى جميع الجهات المجاورة . وهذه التيارات السطحية هي التي تؤثر تأثيرا مباشرا في المناخ وهي التي نخصها بالكلام فيما يلي :

وينتج من ذلك نظريا انتقال الرياح من الجهات القطبية إلى خط الاستواء ، فيكون اتجاهها من الشمال إلى الجنوب في نصف الكرة الشمالي . ومن الجنوب إلى الشمال في نصف الكرة الجنوبي .



(شكل ٢ نظرية هبوب الرياح)

نسيم البحر ونسيم البر

كأن الله يقول : أيتها الأرض ، إذا طلعت الشمس عليك فلتسرعي بقبول الحرارة ، وأنت أيها الماء عليك أن تكون بطيء الحرارة . فإذا فعلتما ذلك فإن الهواء الذي يكون فوقك أيتها الأرض يكون أسرع سخونة بمجاورتك ، ومتى أسرع إسخانه خف وعلا ، ومتى خف وعلا أسرع الهواء الذي فوق الماء يجري فوقك لأن الأثقل يحل محل الأخف ، فاذا جاء الليل فلتكوني أيتها الأرض سريعة البرودة . ولكن أنت أيها الماء بطيء البرودة فتكون الحرارة فوقك أكثر منها فوقها وإذن يجري الهواء من فوق اليابسة إليك كما كان يجري منك إليها نهارا . فهذا هو المسمى نسيم البحر ونسيم البر ، فإن النسيم يهب من البحر إلى البر نهارا ومن البر إلى البحر ليلا . ولذلك يخرج الصيادون في القوارب وقت الفجر مع نسيم البر وفي الضحى يعودون مع نسيم البحر إلى الساحل ومعهم السمك ، فهذان النسيمان يلطفان مناخ السواحل ومثلهما .

الرياح الموسمية

وكما يخيل لي خطاب الله للبر والبحر يخيل لي خطابه للقارات والمحيطات . فالقارة بدل البر والمحيط بدل البحر . والصيف كالنهار والشتاء كالليل . فمثلا تشتد الحرارة على جبال آسيا الوسطى مثل جبال (همالايا) فتقل كثافة الهواء فوقها . ولكن المحيط الهندي لايكون مثلها . فتهب الرياح من المحيط المذكور إلى آسيا كل ذلك في زمن الصيف . وهذه تسمى الرياح الموسمية . وبسببها يكون الري والخصب في سهول الهندستان وهناك يعيش نصف سكان الأرض في الهند والصين واليابان . وذلك بفضل غزارة الأمطار وتولد الأنهار العظيمة ذات الفيضان السنوي . وتكون هناك سهول (غرينية) خصبة تتوافر فيها المواصلات والري وأسباب العيش والرفاهية ، وهكذا يحصل في بلاد الحبشة بالرياح الموسمية أيضا إذ ينشأ بسببها في أول الصيف فيضان النيل وهكذا ساحل (ناتال) في شرقي أفريقية ، وساحل الولايات المتحدة الجنوبي الشرقي إذ تسقط عليهما أمطار صيفية بمثل هذه الرياح وهكذا الساحل الشرقي لاستراليا . فإذا جاء الشتاء تنعكس الحال فتبرد هضبات اليابس ويظل البحر دافئا . فتنشأ رياح تنتقل من البر إلى البحر وهي جافة لصدورها من الجاف وهو البر .

فاعجب أيها الذكي لأمرين اثنين : حرارة وبرودة نشأ عنهما سعادة سائر الناس والحيوان على الأرض

فهذا الهواء فعل الله به مافعلناه نحن فى النواعير والسواق وآلاتنا ، ولكن هو أدار الهواء بأمرين اثنين : حرارة وبرودة ، وجعل الأمر عدلا ، نسيم من البر إلى البحر وبالعكس ورياح موسمية بحيث يكون مداها ستة أشهر ، فهاهنا ليل ونهار لنسيم البر ونسيم البحر ، وهاهنا صيف وشتاء للرياح الموسمية . وهاهنا عاشت الأمم بهذه الرياح : وهذه الرياح مبناها الحرارة والبرودة .

التيارات البحرية

وقبل الدخول فى الكلام على تلك التيارات وخطاب الله عز وجل لها أقدم مقدمة من كتاب الجغرافيا الرشيدة يتضح بها المقام وهاك بيانها .

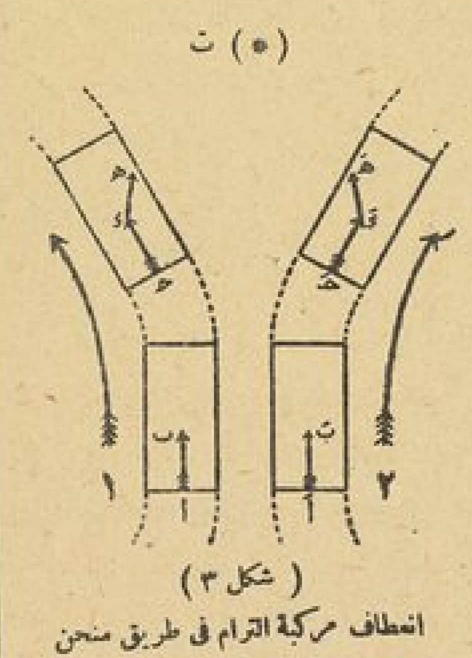
تأثير دورة الأرض على محورها

تنحرف الرياح فى أثناء حركة الأرض على محورها عن اتجاهها الأصلى ؛ ولتوضيح ذلك نضرب المثل الآتى فى شكل (٣) :

راكب ترام ينظر إلى التمثال أمام الترام وينتقل متجها نحوه فى العربة فى الاتجاه ا ب ثم ينعطف الترام يسارا كما هو موضح فى القسم الأول من الرسم (١) فإذا كان الراكب مصمما على السير تجاه التمثال فإنه ينحرف نحو اليمين ويكون جملة سيره فى اتجاه السهمين (ج د) و (د ه) .

وبالعكس من ذلك إذا انعطف الترام يمينا كما هو موضح فى القسم (٢) من الرسم فإن مجموع سيره نحو التمثال يكون فى اتجاه السهمين (ج َد) و (دَ هَ) .

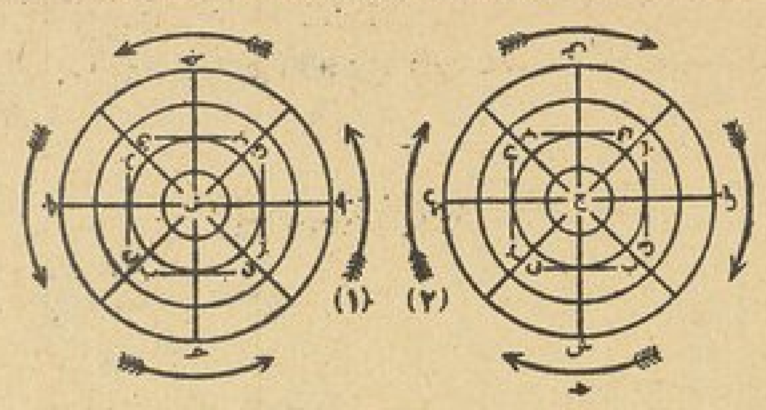
فنى كلتا الحالين يحدث انحراف بعكس انعطاف الترام



(شكل ٣)
انعطاف مركبة الترام فى طريق منحن

وكذلك الحال على الأرض ، إذ تنحرف الرياح بسبب الدورة اليومية : ففى شكل ٤ شطران : يمثل الأول منهما نصف الكرة الشمالى ويمثل الثانى النصف الجنوبى .

(شكل ٤



(شكل ٤ دورة الأرض على محورها)

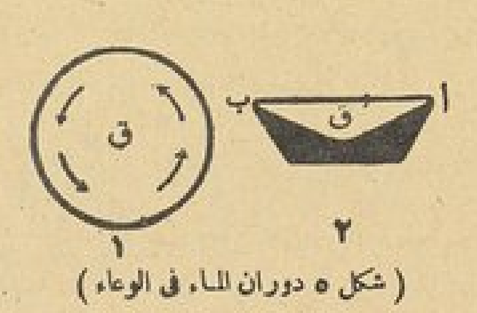
(١) فنى مركز الدائرة فى الشطر الأول القطب الشمالى ، وكل اتجاه يبعدنا عنه جنوب وبتعيين الشمال والجنوب يكون الشرق إلى اليمين والغرب إلى اليسار ؛ وبذلك تكون دورة الأرض فى اتجاه الأسهم المحيطة بالدائرة .

(٢) وفى مركز الدائرة فى الشطر الثانى القطب الجنوبى ، وكل اتجاه يبعدنا عنه شمال ، وبذلك تكون دورة الأرض فى اتجاه الأسهم المحيطة بالدائرة .

فإذا وازنت بين شكلى (٣ و ٤) تعرف أن الرياح تنحرف إلى اليمين فى نصف الكرة الشمالى وتنحرف إلى اليسار فى نصف الكرة الجنوبى ، وتسمى هذه القاعدة (قانون فرل) وبمقتضاها تصبح الرياح الشمالية فى نصف الكرة الشمالى رياحا شمالية شرقية ، وتصبح الرياح الجنوبية فى نصف الكرة الجنوبى جنوبية شرقية .

مناطق الضغط العظيم خلف المدارين

فى الشطر الأول من شكل (٥) وعاء فيه ماء فإذا دار الماء فى الوعاء حول القلب (ق) باستمرار لايلبث أن يهبط سطحه فى الوسط ويرتفع عند الحافة ، فيكون سطح الماء كما ترى فى الشطر الثانى من الشكل عند (ا ق ب) .



(شكل ٥ دوران الماء فى الوعاء)

وكذلك حال الهواء على وجه الأرض إذ تزحه دورة الأرض على محورها بعيدا عن القطب ، وتعمل على تكثيفه عند خط الاستواء . ولولا الحرارة عند خط الاستواء لأصبح الهواء عنده كثيفا جدا . وبالعكس من ذلك مخلخلا عند القطبين بسبب دورة الأرض على محورها .

لكن هنا عاملان متعاكسان : فالحرارة تعمل على إبعاد منطقه الضغط العظيم عن خط الاستواء ودورة الأرض على محورها تعمل على إبعادها عن القطب . ونتيجة منافسة هذين العاملين وجود منطقتى الضغط

العظيم حوالى خط عرض ٣٠° شمالا و ٣٠° جنوبا .

أما خطا عرض ٦٠° شمالا و ٦٠° جنوبا فيكون الهواء عندهما قليل الكثافة بسبب فعل الدوران فى إبعاد الهواء عن القطبين .

الرياح الدورية على وجه الأرض

ينتج مما تقدم ماتراه فى (شكل ٩) فعند خطى العرض ٣٠° شمالا و ٣٠° جنوبا تزيد كثافة الهواء فتهب الرياح منهما إلى خط الاستواء وتسمى بالرياح التجارية .

وتهب من كل منهما إلى خط عرض ٦٠ الرياح العكسية .

وتنحرف الرياح التجارية نحو الغرب بسبب دورة الأرض على محورها ، وبذلك يكون انحرافها إلى اليمين فى نصف الكرة الشمالى وإلى اليسار فى النصف الجنوبى .

(شكل ٦)
الرياح التجارية والرياح العكسية
مناطق هبوبها واتجاهها

وتنحرف العكسية نحو الشرق أيضا لهذا السبب :

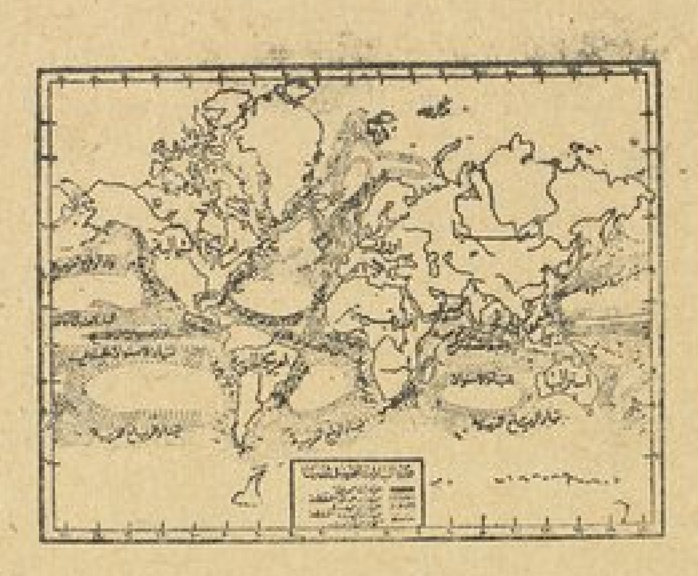
فتهب الرياح التجارية من الشمال الشرقى فى نصف الكرة الشمالى ، ومن الشرق فى النصف الجنوبى ، وتهب الرياح العكسية من الجنوب الغربى فى نصف الكرة الشمالى ، ومن الشمالى الغربى فى النصف الجنوبى . وحول كل من القطبين منطقة ساكنة .

وعند خط الاستواء منطقة سكون يرتفع عندها الهواء بفعل الحرارة إلى الطبقات العليا من الجو ، وعند خطى عرض ٣٠° شمالا و ٣٠° جنوبا منطقتان من السكون تسقط عندهما الأهوية من الطبقات العليا انتهى ما أردته من كتاب الجغرافية الرشيدة .

تلخيص ماتقدم

هاهنا آن أن أذكر مايخيل لى من خطاب الله عز وجل للماء كأنه عز وجل يقول : أيتها المياه . اسمعى هأنذا جعلت الحرارة من الشمس الساقطة على الأرض سببا فى إثارة الهواء ، فباختلاف قبول اليابسة والماء لها أدرت الرياح فكانت نسمات البر وكانت نسمات البحر ، فإذا كان الليل هبت النسمات من البر إلى البحر لأن جو اليابسة يكون أبرد وجو البحر يكون أقل برودة ، فتجرى الرياح من البارد المتقلص وهو البر إلى الحار المتمدد وهو البحر ، فإذا كان النهار قلبت الوضع وأجريت الرياح من البحر الذى لم تسرع الحرارة فيه إلى البر الذى أسرعت فيه الحرارة ، فهما متعادلان نسيم من البر إلى البحر ونسيم من البحر إلى البر ومثله الرياح الموسمية ، ثم إنى أدرت الكرة الأرضية على محورها من الغرب إلى الشرق والمحور متجه من الجنوب إلى الشمال ، وبسبب هذا الدوران يفر الهواء من القطبين إلى ناحية خط الاستواء لكن خط الاستواء

يطرد الهواء بحرارته . فلا محيص للهواء إلا أن يلتجئ إلى نقطة معينة وهي هنا درجة (٣٠) شمالا ودرجة ثلاثين جنوبا ، وهناك منطقة سكون تتجه منها ريحان : ريح تتجه إلى جهة خط الاستواء راجعة وهي المسماة تجارية ، وأخرى تتجه إلى ناحية القطبين وتسمى ضدية أو عكسية ، ولا بد من انحراف كل من الرياح التجارية والرياح العكسية أو الضدية لأجل تأثير دوران الأرض (انظر شكل ٧) .



(شكل ٧)

فهاهنا يقول الله للرياح التجارية : أيتها الرياح التجارية الجارية في المحيط الأطلسي عليك أن تحركي تيارين : أحدهما في جنوب خط الاستواء ، وثانيهما في شمال خط الاستواء ، يتجهان معا من سواحل أفريقيا إلى سواحل أمريكا ، فأما التيار الاستوائي الجنوبي فعلى بلاد البرازيل أن تصده ومتى صدته ينعطف محاذيا للساحل الشرقي لأمريكا الجنوبية . وأنت أيتها الرياح العكسية أرجعيه ثانيا إلى مقره الأول فيرجع إلى سواحل أفريقية ثانيا ، ويتم دورته حول منطقة ساكنة ، وهكذا ليفعل التيار الاستوائي الشمالي ؛ فليتوجه من سواحل أفريقيا إلى خليج المكسيك ، وليسر محاذيا للساحل الشرقي لأمريكا الشمالية ، وأنت أيتها الرياح العكسية وجهيه إلى خليج المكسيك (يسمى تيار الخليج) وهناك يجب أن يقطع قطعتين فيكون هناك تار أوروبا الغربية وتيار آخر للنرويج ، وهكذا ليكن ذلك في المحيط الهادى ؛ فلتحرك الرياح التجارية تيارين على جانبي خط الاستواء كهذين ، فأما التيار الاستوائي الذي جهة الجنوب فعليه أن يتوجه من سواحل أمريكا إلى سواحل استراليا ، وأنت أيتها الرياح العكسية رديه ثانيا إلى أمريكا ، وأما التيار الاستوائي الذي جهة الشمال فعليه أن يتجه من أمريكا أيضا إلى ساحل آسيا عند اليابان وهو التيار الأسود (كوروسيوه) بالرياح التجارية . وعليك أيتها الرياح العكسية أن ترديه إلى أمريكا ثانيا ، وهكذا لتفعل الرياح التجارية والرياح العكسية حول استراليا في المحيط الهندى ، فلتحرك أيتها الرياح التجارية تيارا واحدا جنوبي خط الاستواء فقط لأن نصف الكرة الشمالي مشغول بقارة آسيا ، وليسر التيار من ساحل استراليا إلى سواحل أفريقيا ، وعلى الرياح العكسية أن ترده إلى استراليا ثانيا .

هذا هو الخطاب الإلهي الذي يخيل إلي كأنه حقيقة ، وكأن الله عز وجل يقول في منافع هذه التيارت

فيا تيار الخليج ، ويا تيار البرازيل فى المحيط الأطلسى ، ويا تيار (كوروسيوه) ، ويا تيار شرقي استراليا فى المحيط الهادى ، ويا تيار موزنبيق فى شرق أفريقيا فى المحيط الهندى . أنا نقلت بعضكن من الجهات الاستوائية إلى العروض البعيدة عن خط الاستواء لمقصد سام وحكمة بالغة « وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين . ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون ـ يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون » أنا نقلتك من الجهات الحارة إلى الجهات الباردة لأجل تلطيف كل مناخ تمرين عليه ، إنى بالتيارين اللذين عند غرب أوروبا وعند النرويج أذبت مياه بحر الشمال مع أن بحر البلطيق الذى يساويه فى درجات العرض يكون جامدا خمسة أشهر فى السنة . والرياح العكسية لحرارتها أثرت فى تيار الخليج فأدفأته فوصل إلى سواحل أوروبا دافئا فكان المطر الكثير والدفء العظيم .

ثم كأنه عز وجل خاطب البحار القطبية والبحار المدارية قائلا ؛ إنك أيتها البحار القطبية لم أسلط عليك حرا كثيرا لذلك كان ماؤك محفوظا فلم يكن منك بخار كثير بل زدتك ومددتك بكثير الثلج فزادك ماء .

وأما البحار المدارية فإن الحرارة ترفع ماءها إلى الجو بهيئة بخار ؛ فعليك أيتها البحار الشمالية أن ترسلى تيارات مائية إلى الأقطار الاستوائية لأنى عدل ، فلما سمعت هذا الخطاب البحار القطبية الشمالية أرسلت من لدنها مددا وهو تيارات بحرية إلى خط الاستواء .

(١) مثل تيار (لبرادو) الذى يحاذى سواحل (جرينلنده) و(لبرادو) و (نيوفنلد) ثم يقابل تيار الخليج وهو دافئ فيتلاشى فيه .

(٢) وتيار شمالى شرق اليابان الذى يحاذى شبه جزيرة (كمشتكا) وجزيرة (يسو) ومتى قابل تيار (كوروسيوه) يتلاشى فيه .

(٣) وهكذا المحيط المتجمد الجنوبى أرسل تياره حول الدنيا من الغرب إلى الشرق دائما سائرا مع الرياح العكسية الغربية ؛ ومتى قابل الأطراف الجنوبية لأفريقية واستراليا وأمريكا الجنوبية يتفرع منه تيارات فى المحيط الأطلسى وفى المحيط الهندى وفى المحيط الهادى ، وهذه كلها تقابلها تيارات دافئة لتخفيها وتعدمها ، فأنت أيتها التيارات الباردة لك آثار حسنة . فإنك تؤثرين فى جهات (جويسو) فى اليابان فتكون أبرد من (جوهنشو) وفى مناخ جهات (پيرو) فى غرب أمريكا الجنوبية فإن حرارتها تكون ألطف مع قربها من خط الاستواء الموجب لشدة الحرارة ، ولقد جعلتك أيتها التيارات الباردة أشبه بالفعلة والصناع إذ ينقلون التراب والحجارة من مكان إلى مكان لإصلاح البقاع والبناء ونحو ذلك ، فأنت تحملين الثلج ومعه صخر ، فمتى وصلت بثلجك وصخرك إلى شواطئ القارات تكون هناك مساحات واسعة مرتفعة عند سواحل (نيوفوندلاند) بالمحيط الأطلسى وعند سواحل الشمالى الشرق لليابان ، وما هى إلا صخور ذات الثلج الذى كان معها أصبحت هي محال لتربية السمك فيصطاده الناس عند تلك السواحل ، إذن أنت أيها التيارات الباردة تحملين برودة معك لتلطيف الحر وتصنعين صنع البنائين والفعلة ، فإنك تبنين أماكن للسمك يصطاده الصيادون .

خطاب الله للناس

وكأنى أسمع خطابه للناس إذ يقول : يابنى آدم ، أين عقولكم ، وأين أحلامكم ؟ أليست هذه آياتى؟ فمن آياتى الرياح فى البحر . ولو أنى أسكنت الريح بسببه اتحاد الحرارة على الماء واليابسة لم تكن رياح ولم تكن تيارات . انظروا ياعبادى ، فمن أين تكون تيارات حارة تخف إلى غرب أوروبا وعند النرويج . فتذيب بحر الشمال لمنفعة عبادى فى أرضى ، ومن أين تكون تيارات باردة تذهب إلى (پيرو) فى غرب

أمريكا

أمريكا الجنوبية فتلطف حرارتها . سياسة أبدعت ، وحكمة نظمت ، وآيات وعجب ! هذه عجائب صنعى ماخلقتها لكم عبثا . أنتم قلدتم الطيور فطرتم فى الجو بطياراتكم ، وقلدتم النمل فى الحرب . والأسود فى الافتراس . تفرحون وتمرحون وتقولون قد امتطينا الطيارات وقتلنا الأمم بالقذائف النارية وتظنون أنكم بهذا مفلحون. كلا ، ثم كلا . وعزتى وجلالى إن هذه إلا أساليب الشياطين وأخلاق الحيوان والسباع . فإذا لم يفهم أهل الأرض حكمتى فإنى سأهلكهم أجمعين أكتعين أبصعين .

أيها الجهلاء . أيها الغافلون : ألم يأتكم نبأ تيارات الماء المذكورة . ألم تروها تجرى من الجهات الباردة إلى الحارة ومن الحارة إلى الباردة لإصلاح أحوال عبادى . فها هى ذه التيارات القطبية تجرى إلى جهات الاستواء لتلطف الحرارة والتيارات الاستوائية تتجه إلى الجهات الباردة فتقلل برودتها . ألم يكن هذا درسا لكم ؟ ألم يأن لكم يا أهل الشرق ويا أهل الغرب أن تكون سياستكم كسياستى ؟ هذه سياستى فمن الذى يقلدها ! أعوالم السمك أم عوالم الدواب ؟ كلا . بل أنتم المقصودون بتقليدها ، نعم أنتم قلدتم فى الأمور الشهوية ، فطرتم فى الجو لتغيروا على غيركم ، أو لتسافروا لأغراضكم الخاصة ، ولكنكم قط لم تدركوا حكمتى ولم تقلدونى فى صنعى . أنا بالحرارة واختلافها أجريت الرياح وأجريت التيارات شرقا وغربا ، هكذا فلتكن حرارة العلم متأججة فى قلوب الناس شرقا وغربا ، ولتكن منها جاذبية فى قلوب الأمم كلها فى نظام السياسة والاتحاد كما سرت الجاذبية فى التيارات وانتظمت بها تيارات تشبه الأقطاع الناقصة التى تسير فيها الكواكب فى السماء ، فأصبحت التيارات البحرية من أفريقيا إلى أمريكا ومن أمريكا إلى استراليا وآسيا وهكذا كلها متجهات إلى تكوين قطع ناقص تشبها بنظام الكواكب فى سيرها لأن كل أم يتبعها ولدها ، وكأنها إشارت أن نظام الإنسان فى المستقبل سيكون أشبه بنظام هذه التيارات والرياح التى يعد الحار منها البلاد الباردة والبارد منه البلاد الحارة ؛ ألم يأن لكم أيها الناس أن تجعلوا أممكم أمة واحدة، فقويها يواسى ضعيفها وتتلطفون فى الهداية والسياسة بحيث يكون المتوحشون فى كنف المتعلمين من جيرانهم ، ليكن مسلموأفريقيا نورا لمتوحشيها. وهكذا ليكن الناس بعضهم لبعض معين ومساعد كما ظهر فى التيارات البحرية باردة وحارة .

ومن عجب أن تكون هذه الآية فى سورة الشورى ، فإن لم يكن العالم كله أمة واحدة الشورى أفلا يكون المسلمون وحدهم أمة شورية ، والحمد لله رب العالمين . كتب صباح يوم الجمعة ٣ مايو سنة ١٩٣١ .

جوهرة فى قوله تعالى

« إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره »

نظرة راكب السفينة فيما حوله من الماء والأرض

لراكب السفينة نظرات فيما حوله ، فتارة ينظر فى الرياح واتجاهها واختلافها ونتائجها كما تقدم هنا . وتارة أخرى ينظر فى جوهر الماء والبحر والبر وصور المخلوقات البرية والبحرية ، فيرى أشكالا وألوانا وعجائب وهذا تقرؤه فى (سورة الروم) فى قوله تعالى « فطرة الله التى فطر الناس عليها » وإنهم مفطورون على البحث فى الأشكال والأحوال والحكم على هذه المادة بأشكالها وبيان مساحاتها ونظمها المختلفات وإن هذه العقول بفطرتها المطبعة لم تحتج فى مساحة محيطات الدوائر ، ولا فى مساحة الدوائر ، ولا فى مساحة سطح الكرة ولا فى معرفة حجم الكرة إلا أن تمسح نصف القطر ، دلالة على

حكمة مبدعها وقدرته وعلمه ونوره الذى ألقاه على هذه النفس فنفذت إلى سويداء الأجسام فاخترقتها وحكمتها وحكمت عليها بنصف القطر وحده بحيث تربعه تارة وتكعبه أخرى وتضربه فى أعداد معلومة محفوظة ، كل ذلك تقرؤه فى سورة الروم ، ولكن المقام الذى يليق أن يوضح هنا أبهج رونقا وأبهى منظرا وأشرق نورا وأليق بهذا المقام ، لأن ذلك عام فى كل ذى شكل فى بر أو بحر ، أما ما هنا فإنه يختص بالماء والسماء .

الماء والسماء

إن راكب السفينة يرى بعينيه نجوم السماء وأمواج الماء ، فهو بين نجوم وماء ، فلا جرم يجب أن يقرأ عجائبها ، ولتعلم أن هذه العلوم مبينة بالبراهين معروفة بالقوانين فلا يصدنك عنها قول كثير من المتظاهرين بالعلم إنها ظنون أو أوهام . كلا فلا علم إلا وله براهين أقنعت أهله وكل من دخل معهم اعترف بصدق نظرياتهم، فإذا قرأت ما سأقصه عليك فلا يخدعنك عنه خادع ، ولا يصدنك عنه مارق ، يقول لجهله ولحسده : ما هذه إلا ظنون ، فلتقرأ ولتدرس ولتعلم أن هذا هو الذى يطلبه الله ودينه ونبيه صلى الله عليه وسلم .

إن العلماء كما بحثوا الأشكال وعرفوا مساحتها أدركوا أيضا أبعادها ، فعرفوا أبعاد الشمس والقمر والكواكب ووصلوا إلى أن عرفوا أن من أبعاد الكواكب ما وصل إلى مائة مليون سنة بحيث إن نور تلك الكواكب لم يصل بعد خروجه من كوكبه إلى أرضنا إلا بعد أن قطع فى سيره مائة مليون سنة وهذا واضح فى غير هذا المكان من التفسير ، وهذه المقادير وإن كانت تقريبية قام عليها البرهان : أى البرهان الهندسى بحيث يستعملون فى ذلك المثلثات التى لها أحوال خاصة . وعلم الهندسة علم يقينى . غاية الأمر أن المقادير تزيد وتنقص على حسب آلة الرصد لا غير . فلا يصدنك عن ذلك قول القائل : إن علم الفلك علم يخطىء كثيرا ، فإن هذا القول صادق فى علم أحكام النجوم وهو العلم الذى يخبر بالحوادث المستقبلة ، فهذا العلم يكذبه العقل ويخطئه النقل . فأما حساب السنين والشهور وأبعاد الكواكب فذلك قامت عليه البراهين إذن فلأشرع فى الكلام على السماء ثم أتبعه بالكلام على الماء .

الكلام على السماء

إن راكب السفينة بعد أن يدرس الرياح المتقدمة يخطر بباله ما يرى فوقه من النجوم ، وهذه النجوم قد تقدم الكلام عليها فى مواطن كثيرة ، ولكن الذى أذكره هنا هو الكلام على مدة دورانها فى الفلك كما أذكر فى الماء القوانين العلمية التى بها غاص فيه أجسام وعام على سطحه أجسام أخرى ، فإن ثقل الأجسام وخفتها يؤثران فى صعودها على سطح الماء، وسقوطها فى قاع البحار ، كما أن السيارات تختلف مدة دورانها حول الشمس باختلاف أبعادها وأحجامها وقوتها الطاردة والجاذبة ، وسأوضح هذا ليعجب الأذكياء من نجوم باهرات سائرات بقوانين لا تختلف على مدى الأزمان ، ومن ماء جميل يستقبل الأجسام فى أسفله تارة وفى أعلاه تارة أخرى بقوانين بحيث يخرج المطلع على هذا بعد فهم هذا الموضوع وقد تحلت نفسه بحلية العلم وابتهجت بزينة الجمال وعرفت سرا من نبأ قوله تعالى « ولقد جعلنا فى السماء بروجا وزيناها للناظرين » وأدركت قبسة من نور قوله تعالى « والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون » ومن قوله أيضا « والسماء رفعها ووضع الميزان : ألا تطغوا فى الميزان » .

ينظر راكب السفينة فى السماء فيجد الكواكب تنقسم قسمين : سيارات وثوابت ، فالثوابت هى

كل

كل ما تراه فى السماء من الكواكب إلا قليلا ، والقليل هى السيارات والسيارات تسير حول الشمس ، فمنها :

(١) عطارد يدور حول الشمس فى (٨٨) يوما تقريبا ، ويبعد عن الشمس (٥٧) مليون كيلومترا

(٢) الزهراء تبعد عن الشمس (١٠٧) مليونا كيلو مترا ، وأبعادها وأحجامها تقرب مما للأرض عنها .

(٣) المريخ : السيار الذى يلى الزهراء بالنسبة للشمس هو الأرض وهى معروفة فيما تقدم فى أجزاء هذا التفسير والذى يليها هو المريخ ، وبعده المتوسط عن الشمس قدر بعد الأرض عنها مرة ونصف مرة ومقداره (٢٢٥) مليون كيلو مترا تقريبا . والقطر الظاهرى من المريخ يساوى (٥٤ر٠) من قطر الأرض تقريبا أعنى (٦٨٠٠) كيلو مترا ، وحجم المريخ (١٤٧ر٠) من حجم الأرض ، ودورته السنوية مركبة من (٦٦٩) يوما نجميا للمريخ .

(٤) المشترى هو قدر حجم الأرض (١٣٠٠) مرة وقطره يساوى (١٤٠٠٠٠) مليون ، فهو قدر خط الاستواء الأرضى (١١) مرة ، وبعده المتوسط عن الشمس يساوى (٧٧٠) كيلو مترا ، وسنته (١٢) سنة من السنين الأرضية .

(٥) زحل : البعد المتوسط لزحل عن الشمس هو قدر بعد الأرض عنها تسع مرات ونصف ، أعنى (١٤٠٠) مليون كيلو متر تقريبا ويقطع الفلك فى (١٠٧٥٩) يوما أعنى (٩) سنة ونصف تقريبا ، وحجم زحل قدر حجم الأرض (٧١٨) مرة وقطره الاستوائى هو (٢٩٩ر٩) .

(٦) أورانوس : مدة دورته حول الشمس (٨٤) سنة تقريبا أو (٣٠٦٨٧ر٧) يوما بالضبط وبعده عن الشمس (٧٠٨) مليون فرسخ ، وحجمه قدر حجم الأرض (٦٩) مرة ، وقطر كرته (٣٥ر٤) بأخذ قطر الأرض وحده .

(٧) نبتون : بعده المتوسط عن الشمس (١١٠٧٠٠٠) فرسخ وهو أبعد السيارات ويتم دورته فى ١٢٥ سنة وقطره (٣٫٨٠) بالنسبة لقطر الأرض .

هذه هى السيارات المعروفة التى عرفها الإنسان الآن ، اختلفت أحجامها وأبعادها وأضواؤها ومدد دورانها . والمهم فى هذا المقام أنها مع هذا الاختلاف قد حفظت أبعادها ومدد دورانها فلم تتغير . فلا فرق بين أرضنا وبين تلك الكواكب فى حفظ مدد دورانها .

اللهم أزل الغشاوة عن عقولنا ؛ هذه المعلومات البسيطة التى ذكرتها هنا ليست إلا شيئا يسيرا جدا مما تقدم فى مواضع هذا التفسير ، ذكرتها ليتفكر راكب السفينة فى عجائب الكواكب . تلك الكواكب التى لاتخطئ فى سيرها ولا تتعدى مارسم لها من مداراتها تذكرة لقوله تعالى «فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين . فقضاهن سبع سموات فى يومين » فهذه سبع سيارات منظمات سواهن الله عز وجل ونظمهن وأحكمهن وقال لهن : سرن أيتها السيارات فى طرقكن ولا تتعدين مارسمته لكن ، سارت هذه السيارات وهى طائعة مختارة ولم تخطئ فى تفسير ولم تنقص فى سيرها ولم تزد ثانية واحدة وهذا هو السبب فى بقاء هذا العالم منظما آمادا وآمادا . إذن فلننظر فى :

عالم الماء

هانحن أولاء نظرنا عوالم السماء فرأيناها منظمة سائرة بحكمة وعلم تامين ، فلننظر فى عوالم الماء التى تسير السفينة فوقها فهل نجد لها قوانين تشبه تلك القوانين بحيث نفهم به قول الله تعالى «فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين» .

هانحن أولاء عرفنا من هذا المقام ومن غيره كيف كانت عوالم السماء قد أتت لربها طائعة ، فهل نعلت مثلها عوالم الأرض وأتت طائعة ؛ نحن لانعرف ذلك إلا بالدراسة فنقول :

إن فى علم الطبيعة تعرف الكثافة والوزن النوعى ، يقولون إن كثافة الجسم هى كتلة وحدة حجومه وهذه الجملة فى ظاهرها غير مفهومة ولكنها لابد من ذكرها وفهمها والسير فى هذه المباحث حتى نعرف أن عوالم الماء كعوالم السماء لها قوانين وقد أطاعت الله كما أطاعته الكواكب . وكل منهما يحتاج إلى دراسة تامة . يقولون إن كتلة السنتيمتر المكعب من الحديد تساوى (٨ر٧) من الجرامات . وكتلة السنتيمتر المكعب من الزئبق تساوى (٦ر١٣) من الجرامات . وكتلة السنتيمتر المكعب من البلاتين تساوى(٥ر٢١) من الجرامات ، فكثافة هذه الأجسام هكذا بالترتيب (٨ر٧) و (٦ر١٣) و (٥ر٢١) من الجرامات .

ومعنى هذا أن الحديد والزئبق والبلاتين إذا أخذنا منها مقادير مساوية لحجم السنتيمتر المكعب من الماء فإن أوزانها تزيد عليه بهذه المقادير فيكون الحديد أثقل منه (٨ر٧) والزئبق أثقل منه (٦ر١٣) والبلاتين أثقل منه (٥ر٢١) وهذا هو الوزن النوعى ، لأن الوزن النوعى لجسم هو النسبة بين حجمين متساويين منه ؛ ومن الماء المقطر وهو فى درجة (٤) فوق الصفر من الميزان المئوى (سنتغراد) .

وهنا لابد من ذكر قاعدة (أرشميدس) وهى كل جسم مغمور فى سائل يكون مدفوعا من أسفل إلى أعلى بقوة تساوى وزن مقدار من السائل حجمه يساوى حجم الجسم . (وبعبارة أخرى) وزن السائل الذى يحل محله الجسم . وينتج من هذه القاعدة ماياتى :

إذا طفا جسم على سطح سائل كان وزنه مساويا وزن السائل الذى يحل محله الجزء المنغمس فيه . ولهذا السبب يطفو الرخام والحديد على سطح الزئبق ، ويمكن أن تطفو الأجسام الكثيفة جدا على سطح الماء إذا كانت مشكلة بشكل يمكن معه أن يكون وزن السائل الذى يحل محله الجزء المنغمس فيه مساويا لوزن الجسم كله ؛ فمثلا الكرة المعدنية الجوفاء التى حجمها (١٠٠) سنتيمترا مكعبا ووزنها (٦٠) جراما لا ينغمس منها فى الماء إلا مقدار يحل محل (٦٠) سنتيمترا مكعبا فقط ، وفى هذه الحالة يكون وزن الماء مساويا وزن (٦٠) جراما وهو وزن الكرة المعدنية ، والسفينة التى تزن (٥٠٠٠) طنولاته لايمكن أن تطفو فوق الماء إلا إذا زاد حجمها على (٥٠٠٠) متر مكعب حتى يحل الجزء المنغمس منها محل هذا القدر من الماء ، ولذلك تطفو السفن التى من الحديد فوق الماء ، مع أن كثافة هذا المعدن أعظم كثيرا من كثافة الماء .

ومن العجيب أن العلماء أوجدوا الوزن النوعى للأجسام بطريق الطفو ، فيضعون مثلا من البلوط متوازيا مستطيلا فى وعاء فيه ماء فيطفو فوق سطحه ، ويحسبون الجزء الطافى والجزء المنغمس فى الماء ويطرحون الطافى من المنغمس ، فالباقى يكون هو الوزن النوعى للبلوط وهو طبعا أخف من الماء بعكس الحديد والزئبق والبلاتين والذهب فإنها أثقل من الماء .

أليس هذا عجبا ! أن الماء يصبح حكما فى معرفة كثافة الأجسام (وكتلها) المندمجة فى أحجامها ، فالكتل المندمجة فى الأحجام التى تعرف بها كثافة الجسم يظهرها الماء ، فإن كانت الأجسام أخف من الماء طفت أو أثقل انغمست ، وهنالك درجات معينات لثقل الأجسام وخفتها قد أظهرها نفس الذى جعله الله ميزانا يوزن به ثقل الأجسام وخفتها .

هاهنا علمت أيها الذكى لماذا ذكرنا هنا كواكب السماء ، ومقادير أبعادها وأحجامها وعدد حركاتها فإن أجسام المعادن والخشب وغيرها ثقلت وخفت بمقادير معينة عينها الماء، وأوضحها أيما إيضاح كما تعينت الأبعاد والأحجام فى السيارات ونسبنا أحجامها وسنيها إلى حجم الأرض وسنيها ، والنسب الكوكبية فى السيارات لا تتغير والنسب الوزنية فى الأجسام الأرضية ووزنها النوعى لا يتغير ، وهذا قوله تعالى « قالتا أتينا طائعين » فهذه هى الطاعة ، طاعة الكواكب وطاعة الأجرام الأرضية . بل الطاعتان ترجمان لأمر واحد هو الجاذبية ، فالحديد ثقيل وخشب البلوط المتقدم خفيف ، فغاص الحديد فى الماء وطفا الخشب على الماء ، ذلك لأن الحديد أكثف من الخشب ، فلذلك انجذب إلى الأرض على مقدار كثافته . فكان أسرع نزولا إليها ، فقلنا هذا ثقيل ، فلكل من الخفيف والثقيل حركات تخصه نسميها ثقلا وخفة كما اختلفت حركات الكواكب بالنسبة لاختلاف أوصافها وأحوالها وأبعادها ، ولقد بنوا على قاعدة (أرشميدس) تطبيقات أخرى وهاك بيانها :

(١) منها أن انغماس السفن فى مياه البحار الملحة أقل من انغماسها فى مياه الأنهار العذبة .

(٢) ومنها أن السمك يتمكن من الغوص فى الماء إذا ضغط حوصلته ويصعد فيه إذا مددها فاتسعت . فبالضغط والتمدد لحوصلة العوم فيه يضمر جسمه فيغوص فى الماء أو يكبر فيرتفع ، وهذه الحوصلة يراها الإنسان وهو يأكل السمك .

(٣) ومنها أن السفينة إذا مست قرار البحر أو غاصت فى رماله ، فلنجاتها وإنقاذها تربط فى سفينة أخرى عائمة ثقيلة الحمل ، ثم يلقى محمولها فترتفع وترتفع معها السفينة الغائصة الغارقة .

(٤) ومنها أن جثث الغرق تطفو على سطح الماء بعد أيام لأنها تحللت مادتها فتكونت فيها غازات تصيرها أقل كثافة من الماء فتطفو عليه .

***

هنالك حضر صاحبى العالم الذى اعتاد أن يسألنى فى مسائل هذا التفسير . فقال : هاهنا سمعت كلمات ربما تكون غامضة على كثير من قراء هذا التفسير ، وأنا رأيت أنك تريد أن تجعله سهلا لجميع القراء ، ذكرت السفينة التى تزن (٥٠٠٠) طونولاته ، وذكرت الجرام ، وذكرت السنتيمتر المكعب ، فكل هذه ألفاظ تحتاج إلى إيضاح . فقلت : اعلم أن الله عز وجل كما جعل الماء فى الأرض حياة لأجسامنا وغذاء لزرعنا وأنعامنا جعله ميزانا لأعمالنا ، والموازين على قسمين : موازين طبيعية ، وموازين صناعية . فالموازين الصناعية هى التى سألتنى عنها . فأما الموازين الطبيعية فهى الوزن النوعى ، ومعنى هذا أننا نعرف تراكم المادة فى الرصاص أكثر من تراكمها فى النحاس ، ونعرف تراكمها فى النحاس أكثر منه فى الحديد وفى الحديد أكثر منه فى الخشب بموازنته بالماء ، فالماء هو الذى يحكم بينها ، ولقد وجد العلماء ما يأتى :

الاردواز : وزنه النوعى ٧ر٢ والبلاتين : وزنه النوعى ٥ ر٢١ والحديد ٨٦ر ٧ والخارصين ١ ر٧ والذهب ٣٢ ر ١٩ والرخام ٨ ر ٢ والرصاص ٣٧ ر ١١ والعاج ٩ ر١ والفضة ٥ ر ١٠ والفلين ٢٦ ر ٠

والفولاذ ٧٫٩ والقصدير ٢٩ ر ٧ والكهرمان ١ ر ١ والأبنج ٥٨ ر ٠ والماس ٥٢ ر ٣ والنحاس المطروق ٩ ر ٨ والنيكل ٩ ر ٨ .

هذه أشهر الموازين النوعية ، فاذا أتيت بالعاج وعينت منه حجما خاصا فإنك تجد وزنه يساوى الحجم الذى يساويه من الماء مرة و٩ من عشرة من ذلك الوزن ، وإذا فعلت مثل ذلك فى الذهب رأيت كتلة الذهب أثقل من نظيرتها من الماء أى المساوية لها فى الحجم ١٩ مرة ونحو ثلث المرة وهكذا .

فهذا هو الماء الذى جعل معيارا للوزن النوعى لهذه المخلوقات ، الماء معيار للوزن النوعى ، ولماذا كان كذلك؟ ذلك لسر الربوبية ، سر خفى ، سر يجهله الناس ، الناس يركبون السفن وبهم تسير من قطر إلى قطر ، ولا يعرفون منها إلا أنهم بها يصلون لأغراضهم ، وفاتهم أن حياتهم قصيرة ، وأنهم خلقوا فى الأرض للدراسة ، وأن هذه العقول لم توضع فى أدمغتهم إلا للدراسة ، يركبون السفن ويغفلون عن السر الذى حفظها ، ويغفلون عن قول مجرى السفن فى البحر « ومن آياته الجوار فى البحر كالأعلام إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور » .

إذن الآيات على قسمين : آيات فى نفس السفن ، وآيات فى هبوب الرياح . أما آيات الرياح فقد تقدمت قبل هذا المقام مستوفاة . وأما آيات نفس السفن فهى التى نحن بصدد الكلام عليها .

العقول النائمة لا تعقل أن فى السفن آيات ، ولكن العقول المفكرة تدرس السفن وتعقل الوزن النوعى لها ، وتدرس قوانين صعودها فوق سطح الماء ، وتعرف أن هذا الماء أمره عظيم . إن أمر الماء وبقاءه متناسب الأجزاء محفوظ القوام هو الذى به بقيت السفن وحفظت وجرت ، ولو أن أجزاء الماء اختل نظامها لغرقت السفن ؛ كما أن الكواكب التى تقدم وصفها لا بقاء لها فى مداراتها إلا بممسك أمسكها فبقيت فى مداراتها ، إذن هنا ممسك يمسك الكواكب فى مداراتها ويمسك ذرات الماء فتبقى متلاصقة متماسكة ويمسك ذرات الحديد والنحاس والذهب فتبقى متماسكة ثابتة ، ولولا هذا الممسك لم يستقر قرار لهذه الموجودات .

سبحانك اللهم وبحمدك ، أنرت السبل بالعلم ، وحفظت هذه الدنيا ، وأتممت نظامها . هذا العالم الذى نعيش فيه كله مركب من مادة فى غاية الصغر وأجزاؤها الدقيقة وهى الجواهر الفردة بينها مسافات فى غاية الصغر ويسمونها للمسافات (الجزيئية) ولم ير أحد الجوهر الفرد المذكور ولم يقم دليل على وجوده ولكنهم اقتنعوا به فى تعليل الظواهر ، ولقد أظهر المنظار المعظم أن آلاف الآلاف من المخلوقات الحية تعيش فى قطرة ماء كما ذكرناه كثيرا فى هذا التفسير ، وهذا القول يدرس الآن فى مدارس الشرق والغرب فلا خلاف فيه ولا منكر له ، وهذه الملايين من الأحياء تنمو وتتكاثر هناك ، ولا يخلو منها مستنقع ، وهى تتغذى بدقائق أصغر منها لا تكاد تدرك لصغرها . ومع ذلك يعتبر الجوهر الفرد أصغر من هذا كله .

إن العلامة الانجليزى (وليم تمسن) توصل بطريق الحساب إلى ما يأتى : « إذا تصورنا قطرة ماء تمددت حتى بلغ حجمها حجم الأرض ما بلغ حجم الجزىء فيها حجم رملة » .

فإذا كانت هذه حال المادة من الصغر والكثرة ومسافاتها الصغيرة بين تلك المواد الدقيقة فليس يحفظها متلاصقة مجتمعة إلا أمر آخر هو الذى يسمى « قوة التماسك » .

يقول علماء الطبيعة : « إن كل جزءين من نوع واحد يجذب كل منهما الآخر بقوة تتغير تبعا لطبيعة مادتهما وتقوى تبعا لصغر المسافة بينهما ، وخاصة التجاذب هذه المسماة « قوة التماسك » واضحة جدا فى الأجسام الصلبة ، وأقل وضوحا فى السوائل ، ومعدومة فى الغازات . فقوة التماسك المذكورة هى القوة التى

بها

بها حفظت دقائق الماء متلاصقة بحال واحدة ، وكرات الكواكب فى السماء فى مداراتها وهو المعبر عنه بقوله تعالى « إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده » .

فبهذا عرفنا بعض آيات الله فى السفن الجاريات فى البحر كالأعلام ، فهى جرت فى البحر لأن ذرات الماء الدقيقة جدا ذات السافات الصغيرة بقيت متماسكة بحال واحدة فى جميع الأزمان فعاش الناس آمنين ، يسافرون عليها ولا يخافون افتراق هذه الأجزاء فتغرق السفن لأن الله لايخلف وعده « وعد الله لايخلف الله وعده » فالله لايخلف وعده فى حفظ الكواكب فى مداراتها وفى سيرها منظمة ، ولا فى انتظام أجزاء المادة وتلاصقها وبقائها محفوظة كما حفظت الكرات السماوية . فبقى الناس آمنين على انتظام أزمانهم وساعاتهم ، وآمنين من الغرق فلا تتفرق أجزاء الماء الملتصقة ؛ إذن هنا قوة حافظة لهذه العوالم كلها . وكذلك الله لايخلف وعده فى حفظ أجزاء الحديد والنحاس والذهب والفضة والخشب ، فهو يبقيها بالقوة التى تمسكها فتبقى بوزنها النوعى ، فيعيش الناس بها بسلام مطمئنين على ذلك الوزن النوعى وهم سالمون آمنون ، كل ذلك سر قوله تعالى « إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا » الخ وبهذا تم الكلام على الموازين الطبيعية .

أما الموازين الصناعية التى سألتنى عنها ، فاعلم أيدك الله أن الماء كما كان بثباته سببا لمعرفة الوزن النوعى للأجسام صار أيضا سببا لمعرفة الموازين الصناعية التى اصطلح عليها الناس أجيالا وأجيالا ، وذلك أن المتر وهو القياس الفرنسى المشهور ينقسم إلى مائة جزء كل جزء منها يسمى سنتيمترا ، وهذه المائة إذا ربعت تصير عشرة آلاف ، وإذا كعبت تصير ألف ألف من ضرب مائة فى مائة فى مائة ، فهذا هو المليون .

فإذا كان لدينا إناء طوله متر وعرضه متر وعمقه متر وملأناه ماء مقطرا درجته أربعة فوق الصفر فإن هذا الإناء يكون قد حوى ألف ألف سنتيمتر مكعب ، وكل واحد منها طوله سنتيمتر وعرضه كذلك وعمقه كذلك وكل واحد منها سموه جراما . إذن هو يحتوى على ألف ألف جرام أو ألف كيلوجرام ، ولا جرم أن هذه تبلغ فوق (٢٢) قنطارا . ومعلوم أن الكيلوجرام (٣٢٠) درهما وبضرب الألف فيها تبلغ (٣٢٠) ألف درهم . والقنطار (٤٥) كيلوجراما .

إذن القناطير (٢٢) قنطارا ، ويضاف إليها (١٠) كيلوجرامات ، وهذه أيضا (٨٠٠) أقة ، وكل ٣٦ أقة قنطار فيكون الباقى بعد (٢٢) قنطارا (٨) أقات .

إذن الطنلاته تبلغ (٢٢) و(١٠) كيلو جرامات أو (٨) أقات . إذن الماء بثبات دقائقه وتلاصقها حفظ لنا أوزان الأجسام النوعية أى التى نسب ثقل أحجامها إلى ثقل حجم الماء المساوى لها فى الحجم بحيث يكون مضاعفا له مرتين أو عشرة أو عشرين أو مساويا لبعض أجزائه كالثلث والربع كما تقدم . وحفظ لنا موازيننا المعتادة من الجرام ومضاعفاته ومايوازنه من الدرهم والأرطال والقناطير . ذلك كله يدعو إليه فهم قوله تعالى « ومن آياته الجوار فى البحر كالأعلام إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور » .

ولقد تبين لك من هذا المقام أن هذه المعانى لايمكن أن يعقلها إلا من يصبر عليها صبرا مستمرا وإلا فكيف يتسنى للرجل الشهوانى الغر الجاهل أن يصبر على ما ذكرناه هنا من عالم الكواكب المناسب للمقام وعالم الماء وعوالم المعادن ونحوها ، ويستمر فى بحثها ويصبر على دراستها ، ولا جرم أنه إذا صبر هذا الصبر أصبح شاكرا لأن الشكر يرجع إلى فهم النعمة . وفهم النعمة لا يعقل إلا بالصبر على دراستها وتعقلها وكلما كان الصبر على الدراسة أتم كان الشكر أوفر . ولذلك يقول الله « لكل صبار شكور » وكلاهما صيغة مبالغة فمن بالغ فى الصبر كان أكثر شكرا وعلى مقدار الصبر ودراسة النعمة يكون شكرها ، وشكرها أن يحس

الإنسان فى نفسه يحب لمسدى النعمة ، وينطق لسانه بالثناء فى المدارس والجامع والمواعظ ، وتنطلق جوارحه بخدمة الأمم التى يعيش الشاكر فيها ، فهو كما يعشق مسدى هذه النعم ويحبه لإتقانه صنعه وإبداعه يكون مصدر العلم والخيرات لعباده ، بل يكون خليفته فى الأرض ، وذلك بأن يكون مقتديا بالأنبياء سائرا على نهجهم فى الإصلاح وإسعاد الناس ، وهذا الشكر هو الذى ورد وجوبه فى قوله تعالى « واشكروا لى ولاتكفرون » فعلى مقدار العلم يكون هذا الشكر .

ولا جرم أننا مأمورون بازدياد الشكر وبازدياد العلم . وهذا وجوب عينى على كل قادر نص عليه علماء الأصول . فقالوا : «شكر المنعم واجب» وقد علمت معناه .

أما إسداء النعم للناس بهذه العلوم فهذه فروض كفايات ، والأمم الإسلامية اليوم قصرت فى ذلك كل التقصير . فأمثال هذه الموازين النوعية الطبيعية ، والموازين الاصطلاحية لابد لها من رجال مختصين بها ويكون عددهم على حسب احتياج الأمم الإسلامية ، فلتدرس هذه العلوم جميعها، ولتوزع على جماعات تكفى نظام الأمم الإسلامية وحياتها ، هذا تحقيق المقام والحمد لله رب العالمين ، تم هذا الموضوع مساء يوم الأحد ٢٦ مايو سنة ١٩٢٩م .

إيضاح بعض أسرار قوله تعالى

« ومن آياته الجوار فى البحر كالأعلام» إلى قوله : « إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور»

مع قوله تعالى : « فما أوتيتم من شىء فمتاع الحياة الدنيا » الآية

هاهنا جعل الله السفن الجاريات من آياته ، وهذه الآيات لاتظهر إلا لمن صبر وشكر ، فأما الصبر فعلى العمل والتنظيم ، وأما الشكر فلا يكون إلا بعد فهم النعم ، وكيف تفهم إلا بالدراسة ، ومن عجب أن آية سورة فاطر مثل هذه الآية فى ترتيب نظامها إذ يقول تعالى « وترى الفلك فيه مواخر، لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » فالابتغاء من الفضل إنما يكون بالعمل ولا عمل إلا بصبر ، فالابتغاء هناك فى مقابلة الصبر هنا والشكر مشترك بينهما . ولقد بينت هناك بعض تعميم السفن من حيث تسهيل النقل مع وصف البحار وأعماقها . وذلك كله موجب للشكر ، فإنك ترى هناك أن فى البحر عجائب مثل الكاشالوت ذو الأنياب المحددة والروكال الذى يبلغ طوله (١٢٠) قدما، ومثل عمق البحر (٢٧٥٠) قامة مع أن النور لايبعد أكثر من (٢٠٠) قامة، فهناك فى الظلام حيوانات تعيش بلا نور خارجى ، بل إن النور يخرج منها نفسها ، فهو تحت أمر السمكة ، إذن هناك فى (٢٢٥٠) قامة فى الظلام أحياء ، ومنها ماله نور فسفورى . وفى البحر المرجان يبنى جزائر كثيرة كما بنت الأرضة فى اليابسة مبانى عالية ، إذن الأرضة برا والمرجان بحرا فعلا ماعجز عنه الناس ، فإن المرجان أحدث فى البحر آلافا من الجزائر عاش فيها الحيوان والنبات ، ومن العجائب أن قوة الحصان تجر (٣٠٠٠) رطل فى البر بسرعة ثلاثة أقدام فى الثانية ، وعلى السكة الحديدية (٣٠٫٠٠٠) رطل للمسافة نفسها والوقت نفسه ، وفى البحر (٢٠٫٠٠٠) رطل ، إذن الماء أكسبنا تسهيلا فوق السير المعتاد (٧٠) مرة ؛ هذه سر آية «وترى الفلك فيه مواخر، لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » إذن المسلمون عليهم أن تكون لهم يد فى البحار عظيمة ، هذا ملخص ما كتبته هناك .

وأزيد هنا ماجاء فى كتاب (الجغرافيا التجارية الاقتصادية) لمؤلفه الأستاذ محمد حمدى بك ناظر مدرسة التجارة العليا . فقد جاء فيه مايأتى :

الإنسان ومغالبة البحار والمحيطات

فى موضوع ترقى الملاحة

ملاحة الأنهار. علاقتها بالسكك الحديدية والقنوات. ملاحة البحار والمحيطات. مراكب التجارة. المواني وأنواعها وأشهر المواني التجارية. المواني المصرية تأثير القنوات الملاحية فى تجارة المحيطات. قناة السويس. قناة بناما.

للملاحة غريزية فى الإنسان من القدم إذا كان يدفع بنفسه فى الأنهار والبحيرات لصيد الأسماك وكان ولا يزال يأوى للسكنى على سطح البحيرات فى مساكن يقيمها هنالك أمانا من الأخطار التى يمكن أن تحل به من البر فكان دائما فى حاجة شديدة إلى أى نوع كان من الزوارق.

ولا يخفى ما للأنهار من الأهمية فى اجتياز الممالك الغابية أو المستنقعات، كذلك لا يخفى أن قواعد المدنية الأولى كانت راسخة فى وديان الأنهار العظمى وإذن كانت هذه الأنهار سبل التجارة بين أرجاء البلاد مثل مدنية المصريين القدماء على تلك السلخة الأرضية التى يغمرها النيل بخيره ومثلها بابل وآشور فى الوديان السفلى لدجلة والفرات ومما نلاحظ فى نظام تجارة مثل الممالك سابقة الذكر أن تقوم المملكة بسد حاجاتها بنفسها خصوصا فيما يتعلق بمواد الغذاء الرئيسية التى هى موضوع التجارة الدولية فى العالم فى الوقت الحاضر على منوال لم يسبق له مثيل. وإذا كانت قد قامت حركة تجارية بين تلك الأمم القديمة بواسطة الطرق البرية فإنما كان ذلك فى أواخر أدوارها من الرقى وكانت قاصرة على المواد الصغيرة الحجم الغالية الثمن من اللذائذ لا الضروريات التى لا مندوحة عنها ولم يسمح فى عهودها بالاتجار فى المواد الأولية والصناعية (بكميات طائلة) لأن طريق البر كانت تستخدم فيها الناس والدواب للنقل فكانت الأحمال على قدر طاقة هؤلاء فضلا عن أن التجارة كانت عرضة فى الزمان القديم إلى سطو اللصوص وقطاع الطريق إذا انتقلت إلى مسافات بعيدة برا أو بحرا.

ولقد كان التدرج فى بعض الممالك من ملاحة الأنهار إلى ملاحة البحار طبيعيا وفى أمم أخرى كانت ملاحة البحار هى الخطوة الأولى لما كا بين سكان الجزر فى المحيط الهادى أو الاسكيمو فى القطب، فترقى الملاحة إذن ليس أمرا قديما فحسب بل هو أمر عام فى أنحاء الأرض ولا يقع طبعا فى الأصقاع الجافة الخالية من الأنهار كما يفهم من حال العرب فى بدء مدنيتهم حتى لقد كان يكره سيدنا عمر البحر ويهابه مع أنه كان يرى فضل النقل بالماء إذ أمر بحفر خليج أمير المؤمنين بمصر، ولا فى الأصقاع المحوطة بالبحار الخطرة الطلقة الساحة كما فى الجنوب الغربى من أفريقيا.

وترقى صنع الفلك يمكن تقصيه فى التاريخ ابتداء من الخشبة الطافية فالبوص المحزوم مما يتسنى له أن يحمل رجلا وحده ثم الكتل الخشبية المفرغة فالهيكل السبقى المحوط بالجلد فالقارب المصنوع من الأخشاب المسمرة ثم إلى تهيئته (بالدفة) وهكذا.

والبوص هو أشهر ما صنع منه الفلك قديماً في الممالك الخالية من الأشجار في مثل أراضي النيل وبحيرات العجم، وأول ما ظهر من القوارب على شكل الأسبات الملفوفة في الجلود كان في نهر الفرات ثم امتد التقليد والترقي في ذلك تدريجيا .

وفي الأدوار الأولى للرقي التجاري تقتصر المملكة على استخدام أنهارها الملاحية وتكون هذه في غاية الأهمية لأهلها ولكنهم في أدوارهم الأخيرة يعمدون إلى استعمال السكك الحديدية مع الأنهار التي ربما قد يقل استعمالها بترقي هذه السكك ولنضرب لهذه الأدوار أمثلة :

ففي حوض « الأمازون » تجري جميع المواصلات تقريبا بواسطة الأنهار والنهر الرئيسي قابل الملاحة بواسطة البواخر الضخمة المحيطية إلى مسافة ٣٠٠ ميل لغاية بلدة « ايكويتوس » ثم ما فوق هذه مسافة ٥٠٠ ميل قابل للملاحة بواسطة مراكب أقل حجما مما تسحب الواحدة أربع عشرة قدما ثم يصادف النهر شلالات كثيرة مثل « بنجودي مازريكي » وغيره، وهي من خصائص نهيراته أيضا لاسيما في كثير من جهاتها العالية وفي أواسطها وأحيانا في أسفلها فتجرى الملاحة بواسطة الأنهار في كل جهات البرازيل إلا إذا اعترضتها الشلالات فيلجئون إلى نقل البضائع برا، وليس بالبرازيل سكك حديدية إلا ما ندر منها على الشواطئ ولقد شرعوا حديثا في مد خط على نهر ما ديرا من سان انطون على مقربة من شلالات متوالية [1] .

وحوض « الكنغو » من أحسن ما يمثل ارتباط التجارة النهرية بالسكك الحديدية إذا تعذر تسيارها بسبب الشلالات تدخل مراكب المحيط من المصب إلى « ما نادي » ومن بعدها شلالات هي من خصائص جميع الأنهار العظيمة لأفريقية حتى في مجاريها الواطئة وهي التي كانت سببا مهما في تباطؤ كشف أفريقية ورقي تجارتها، لأنه يتعذر سلوك الأنهار إلى الداخل لذلك توجد سكة حديدية طولها ٢٦٠ ميلا من مانادي إلى « ليوبولدفيل » على بركة « ستانلي » فيتجنبون بواسطتها شلالا عظيما اسمه « يلالا » وبعد ذلك يوجد نحو ١٠٠٠ ميل من النهر صالحة للملاحة لغاية شلالات استانلي فتوجد سكة حديدية أخرى تبلغ ٣٠٠ ميل لتحاشي هذه الشلالات أيضا وهي من « ستانلي فيل » إلى « بونثير فيل » ثم يعقب هذه ٣٠٠ ميل من النهر قابلة للملاحة وبعدها سكة حديدية ثالثة من « نيانجوى » يصلون بها إلى جزء آخر من النهر قابل للملاحة في « لوالابا العليا » [2] .

وكذلك هو الحال في « وادي النيل » إذ ترى مثل هذه الخصائص من عدم وصول السكة الحديدية فيه إلى حد الكمال فهي تمتد في حوضه الواطىء من البحر الأبيض المتوسط إلى الشلال الأول على مدى ٧٠٠ ميل تقريبا ثم تنقطع لضيق الوادي وتبتدئ ثانية من وادي حلفا في حوضه الأعلى إلى السودان المصري الإنجليزي فيبقى النهر الوصلة بين الشلال ووادي حلفا وهكذا يجب تتبعها لدراسة سيرها مع النهر .

وفي « كولومبيا » بجنوب أمريكا أمثلة كثيرة للسكك الحديدية التي وظيفتها مجرد إيصال بعض المدن الشهيرة على الأنهار بالمدن الواقعة خارجة عنها ، ويحسن لذلك دراسة حوض « المجدلينا » .

وتزداد فوائد الأنهار بشق الترع والقنوات في أحواضها، والقنوات إما أن تشق وتكون حافظة مستوى واحدا على طول مداها فيتبع في نظام حفرها مستوى سطح الأرض وإما أن يكون من نظامها تغير ارتفاع سطح الماء فتجهز « بالأهوسة » وقد تبنى الأهوسة كذلك على الأنهار نفسها إذا كان تيارها سريعا لاتتيسر

(١ و ٢) يجب تتبع هذه المعلومات في خريطة طبيعية سياسية .

مه الملاحة أو إذا اعترضته الشلالات فى مثل قناة «سولت سان مارى» .

وبما أن مجارى الأنهار والترع تكون عادة متعرجة فقد يصيب جوانبها التلف إذا سارت فيها المراكب بسرعة ودفعت بالمياه يمينا وشمالا فضلا عن أن الأهوسة تكون معطلة قليلا لتوالى سير المراكب لما تقتضيه من الانتظار فى رفع الماء وخفضه لذلك ولأسباب أخرى كانت الملاحة بالأنهار والقنوات بطيئة غير مسعفة ولكنها مع ذلك ذات شأن فى نقل الأحمال الثقال كالفحم وغيره من المواد الضخمة نظرا لرخص الحمل على الماء فيكون ذلك أرجح أحيانا من سرعة القطارات الحديدية ولما تجمد «السين» فى سنى الحرب دأبوا على قطع الجليد منه ونسفه بالديناميت ليتسنى استخدامه مع أنه فى سنى السلم كان ملهى انزلاق .

ونظام القنوات الملاحية فى وسط أوروبا وغربها عجيب جدا ومفيد من الوجهة التجارية الفائدة العظمى إذ يشتبك جميع الأنهار العظمى بعضها ببعض «الرين والرون والألب والأودر والفيستولا والطونه والسين واللوار» بقنوات فى غاية العظمة والمنفعة وبين ألمانيا وبلجيكا وهولانده وفرنسا قنوات ملاحية من الدرجة الأولى فى الحركة التجارية وعليها تمر المحمولات العديدة الضخمة .

ولبعض الأنهار والقنوات فى شمال أمريكا أهمية عظمى فى التجارة؛ فالمسيسبى ونهيراته عماد حركة تجارية فى طول البلاد وعرضها وقناة هادسن وإيرى التى تصل نيويورك بالبحيرات العظمى ـ والبحيرات العظمى ـ نفسها ، العليا وميشيغان وهورون وإيرى وإنتاريو قطب رحى الحركة التجارية فى كندا والولايات المتحدة وعامل من عوامل رقى التجارة الداخلية لتلك الجهة ، ولقد أقيمت الأهوسة تحاشيا لشلال سولت سان مارى وتسمى «سو» بين البحيرة العليا وهورون ومن وقت ما أخذت هذه القناة الطبيعية فى الحركة التجارية إلى الآن بلغت محمولاتها من البضائع آلاف الآلاف بالنسبة لعهد بدئها ولم يمض عليها إلا نصف قرن كذلك يوجد بين ميشيغان والمسيسبى قناة تجارية عظمى وتوجد أخرى بين بحيرة إيرى وأنتاريو تحاشيا لشلال نياغرا ونهر سان لورانس قابل للملاحة من بعد بحيرة أنتاريو إلى المصب . هذا ، ويوجد فى كندا قناة ملاحية أخرى من خليج جورجيا فى بحيرة هورون إلى بحيرة أنتاريو ، وستشق أخرى بين خليج جورجيا المذكور ونهر أتاوة لتقصير المسافة وعدم ضرورة مرور تجارة هاتين الجهتين فى البحيرات كما يتضح من الخريطة .

هنالك يحمل قمح كندا فى المراكب التجارية من فورت وليام وبورت أرثر على البحيرة العليا ويحمل قمح الولايات من موانيه دلوث وشكاغو إلى بافالو ثم يوزع منها ويحمل الفحم من الحديد من بعض الموانئ على البحيرة العليا وميشيغان إلى جهة بحيرة إيرى ؛ والحركة التجارية فى الفحم عظيمة جدا وأكبر محمولات المراكب التجارية لهذه البحيرات تبلغ ١٣٠٠٠ طن أو أكثر ـ من الفحم والحديد وما نضخم حجمه ومراكب ظهر الحوت للقمح حمولة الواحدة ١٠٠٠٠ طن .

وأنهار الملاحة العظمى هى التى يتوافر من شروطها أن تصب فى المحيطات التجارية العظمى لأن الممالك القابضة على زمام التجارة واقعة على المحيطات خصوصا الأطلسى وله ثلث الحركة الخاصة بأنهار العالم التجارية والهادى سبعها والهندى ثمنها والباقى للمحيط المتجمد وداخل القارات .

مراكب التجارة

كانت التجارة البحرية ترقى تدريجيا متباطئا فلم تظهر مراكب التجارة فى أشكالها وأحجامها الضخمة إلا من عهد ليس ببعيد، فقد كانت أقصى حمولة المراكب الرومانية فى البحر الأبيض ٥٠٠ طن أو أكثر من ذلك بقليل . وفى عهد الاكتشافات وعبر المحيطات بلغت حمولة بعض المراكب المستخدمة ١٠٠٠ طن وعبر كولمب الأطلنطى فى مركب حمولتها ٢٣١ طن لاغير، ولما اكتشف البخار أحدث تغيرات عظيمة جدا فى حمولات المراكب فعبرت أول مركب بخارية المحيط الأطلنطى سنة ١٨١٩ ثم اشتهر بعد ذلك صنع المراكب من الحديد وفى سنة ١٨٧٥ صنعت من الصلب وتفوقت هذه الصناعة على الأولى وازداد عدد المراكب البخارية من هذا الحين حتى تساوت فى انجلترا حمولة الشراعية والبخارية بين سنة ١٨٦٥ ـ ١٨٧٠ وأخذ عدد المراكب البخارية من ذلك الحين يعلو عدد الشراعية ، ففى خلال سنة ١٨٧٠ ـ ١٨٧٤ زيد سنويا على الأسطول التجارى الانجليزى ٢٤٠ مركبا شراعية متوسط حمولة الواحدة ٦٥٠ طن ولكن فى خلال سنة ١٩٠٥ ـ ١٩٠٩ لم يزد سنويا عليه إلا ١٥٠ مركبا فقط بينما ازداد عدد المراكب البخارية سنويا من ٥٠٠ ـ ٦٠٠ مركب ولا يوجد الآن من المراكب الشراعية إلا ربع أسطول العالم .

ولقد أدخل حديثا فى المراكب الشراعية الكبرى آلات بخارية بغرض إخراجها من الميناء أو تسييرها فى مناطق السكون وزاد عدد المراكب التى من هذا النوع على أنه لا تزال الحاجة إلى المراكب الشراعية ماسة فى التجارة فى بعض النواحى فهى تحمل للآن غلال كاليفورنيا ونترات أمريكا الجنوبية ويتجر بها على ساحل الباسيفيك لأن هذا الساحل لا توجد على مقربة منه مناجم فحم يمكن للمراكب البخارية أن ترسو عليها ولا يزال جزء عظيم من التجارة بين مصر وسوريا والأناضول والبلقان تحمله المراكب الشراعية وغير هذه الجهات كثير .

وكان للامبراطورية البريطانية قبل الحرب $\frac{٩}{٢٠}$ من مراكب العالم البخارية وقسط كبير من هذه النسبة تابع لبريطانيا نفسها لأن بريطانيا جزيرة فى الأطلنطى كثيرة للموانئ البحرية وهى فى حد ذاتها مملكة شهيرة بالصناعة شهرة فائقة وواقعة بين أسواق أوروبا وأمريكا فهى من كل هذه الوجوه أسعد جهات العالم بصلاحية موقعها للتجارة البحرية وبريطانيا وأرلندا كانتا تبنيان ثلث مراكب العالم وكان الولايات المتحدة أكثر من $\frac{١}{٨}$ من أسطول العالم التجارى وكان لألمانيا $\frac{١}{١٠}$ منه وكلتا المملكتين ترقى فى الصناعة ترقيا سريعا ويهمها أن تملك أساطيل تجارية جرارة ومن بعدهما تأتى النرويج وكان لها تقريبا $\frac{١}{١٢}$ وهى نسبة عظيمة بمراعاة عدد السكان فهى ليس لها صناعات عظيمة مثل الممالك الأولى وهى جبلية فقيرة ليست غنية بالمزارع الكثيرة ولا بالمعادن الوفيرة ولكن لشاطئها كثير التعرجات تحميه على مداه جزر عدة خالية من الجليد فى فصل الشتاء بالرغم من وقوعها على خطوط عرض مرتفعة وهى غنية بالأسماك والنرويجيون مشهورون بالملاحة من بدء تاريخهم يساعدهم على ذلك فيوردانهم والطرق بين الجزر المنثورة على شاطئهم وعندهم كثير من الموانئ الطبيعية وهم دائما على أهبة أن يزجوا بأنفسهم فى البحر ، فلا غرابة إذا كانت مرتبتهم الرابعة فى ملاحة العالم ويأتى بعد النرويج فى حمل تجارة العالم فرنسا وإيطاليا واليابان والأراضى المنحطة .

وفى نحو سنة ١٨٩٠ كانت للمراكب التى حمولتها أكثر من ٨٠٠٠ طن قليلة ولكن سنة ١٩١٠ كان ملك الشركات المختلفة أكثر من ٨٠ مركبا حمول الواحدة منها أكثر من ١٢٠٠٠ طن وللمركب الكبيرة

ذات

ذات الحمل العظيم من البضائع قد تكلف في الصنع أقل من تكاليف مركبين محولهما مثلها ولكن يباهي في الأولى من حيث حجومها الضخمة عمق المواني المستخدمة واتساع الأهوسة .

خطاب المؤلف ربه شاكرا له نعمه

قبيل صلاة الفجر يوم الخميس (١٠) رمضان سنة ١٣٤٩ هجرية ، و ٥ فبراير سنة ١٩٣١ م

رباه في العيون جمالك ، وفي القلوب حبك ، وفي السماء عظمتك ، أريتنا جمالا في النجوم والشموس والأقمار ، وأريتنا جمالا في الوجوه الحسان في أرضنا ، وظهرت عظمتك في الشموس الكبيرة فشمسنا أكبر من أرضنا نحو مليون وثلث مليون مرة ، ونجمة من نجوم الجوزاء بلغت في العظم مقدار الشمس (٢٥) مليون مرة ، رباه أنت جميل ، وأنت عظيم ، رباه حرنا بين جمالك وعظمتك ، نهابك لعظمتك ونحبك لجمالك ، أنت جميل ، وأنت عظيم ، وصفان عجيبان : وصف الجمال ووصف العظمة . بالجمال أسرت قلوب الحكماء فتاهت في حبك ، وأشرقت نفوسهم إشراقا يضاهي إشراق الشموس .

أرسلت ضوء شمسك على الأرض فأعان النبات في تغذيته ، والحيوان في هدايته لسبله ، وأرسلت الحرارة من لدنك فأثارت الرياح لجرت السفن .

يارب ذاتك لانراها لأننا مخلوقون من المادة ، والمادة ماهي إلا حركات في الأثير ظهرت لنا بهذه الأشكال فقلنا مادة وماهي إلا كلماتك ؟ والكلمات غير المتكلم ، وأخلاق المتكلم والمؤلف تظهر في كلامهما ، والعالم كلامك ، وهو تأليفك وتصنيفك ، ونحن منعنا من النظر لجمال ذاتك ، ولكنك لرحمتك لم تمنعنا من مشاهدة تأليفك وتصنيفك وصنعتك ، ومن هذه الصنعة التي فيها كنت أسرار آثار جمالك وبهائك ، أنوار الشمس المشرقات على الأرض ، وقد صحبتها الحرارة المنبثة على الأرض المثيرة للرياح الحاملات للسفن :

كلما كان الجمال أدوم كانت نتائجه أغزر وأتم ؛ وكلما كان أقصر مدى وأسرع زوالا كانت نتائجه أقل عددا هذه المشرقات في السماء دام جمالها فكانت نتائجها هذه المواليد من نبات وحيوان وسفن ماخرات في البحار ، وهذه الأوانس الحسان من نوع الإنسان قصر أمد الجمال فيهن إذ يصبحن عجائز إذا بقين في هذه الحياة . لذلك كانت نتائجهن محدودة ضئيلة بنات وبنون .

إن نسبة دوام جمال النجوم والشموس المشرقات إلى سرعة انقضاء جمال الغواني الحسان كنسبة ما أنتجت الشمس على الأرض من نبات وحيوان وإنسان إلى من تلده المرأة من البنات والبنين ، الضوء والحرارة أرسلتهما الشمس إلى الأرض وبينهما ارتباط واتصال ، وبالحرارة جرت السفن في البحار ، فسير السفن بعض آثار الشمس الدائمة الجمال بالنسبة لجمال الفتيات . فإذا كانت هذه الحرارة والضوء المنبعثان من ذات الجمال البديع التي استمدت جمالها من جمالك وهي الشمس قد كان من آثارها كل حيوان وكل نبات فهكذا نجد من آثار الحرارة الرياح الجاريات المزجيات للسفن في المحيطات المسهلات للحمل بحسب العادة (٧٠) مرة .

فهذه نعم دائمة مادام الإنسان على وجه الأرض ، إنه مادام الإنسان في الدنيا اليوم وغدا وأمس يرى نعما مترادفة في سير السفن في البحار والأنهار ويكسب راحة فوق مااعتاده سبعين ضعفا كما تقدم .

بهذا يعرف الإنسان نعمة ربه وبالتالي يشكره عليها ، وأول الشكر بعد المعرفة هو الحب ، تجري السفن

فى البحار فتحملنا لطلب المعاش أو العلم أو الحرب ونحن غافلون عن منبع الرحمة والجمال . نحن فى الأرض نجد ونسعى برا وبحرا ، جارين من آسيا إلى أفريقيا إلى أوروبا إلى الشرق إلى الغرب تحت رعايتك أنت ، نحن فى جوف هذه الكرات الهوائية والأرضية والمائية المغموسات فى الأثير أشبه بالجنين فى بطن أمه وأنت تكلؤنا فى أحشاء هذه الكرات والفلك بنا سائرات بحرا والقطرات جاريات برا والغواصات مخترقات بنا لجبا والطيارات طائرات بنا فى جو السماء مايمسكهن إلا لطفك وحنانك ورحمتك . غرست فينا عقولا وغرائز ، وأطلقتنا فى هذه الأرض وأبحتها لنا ، وقلت لنا : إياكم أن تخرجوا من أقطارها ، إياكم أن ترتموا إلى كوكب آخر . الكواكب عليكم محرمة ، أنتم هنا محبوسون كما يحبس الجنين فى بطن أمه ، هو حر له أن يروح ويغدو فى بطن أمه كما يشاء ، ولكنى حظرت عليه أن يغادره إلا إذا بلغ الكتاب أجله ، فهكذا أنتم من شيب وشبان لاتفارقون هذه الأرض إلا فى أجل معلوم ، ثم قلت لنا : أنا لم أعط لأحد فى هذا العالم حرية غيركم ، فلكل حيوان غريزته ، ولكل كوكب مداره ، ولكل نبات نظامه : أما أنتم فانى متعتكم بنعمة الحرية التى صحبت عقولكم ، فها أنتم أولاء ياعبادى .

(١) أولا اتخذتم البوص سفنا .

(٢) فالكتل الخشبية .

(٣) فالهيكل المحوط بالجلد .

(٤) فالقارب من الخشب .

(٥) ثم ألهمتكم صنع القطار فى البر ، فأتم لكم أعمالكم التى لم تتم بها سفن البحار لاسيما إذا صدها الشلال فى وسط الأنهار .

وهكذا أخذتم تزيدون سفنكم اتساعا فبعد أن كانت تحمل (٥٠٠) طن فى زمن الرومان ازدادت فصارت تحمل (١٥) ألف طن فضوعف المحمول (٣٠) مرة وتزيد ، وذلك بما ألهمتكم أن تصنعوا السفن من الحديد والصلب وتقووها بآلات بخارية ، ومن فضلى عليكم أن سفنكم البخارية على قسمين : قسم منها يجرى فى خطوط معلومة يحمل ركابا وبضائع ، وقسم منها جوال فى البحار والمحيطات لفوائد غزيرة لا يلتزم خطا خاصا ، وقد أعددت أماكن من شواطئ أنهاركم وبحاركم لتكون «موانى» ولا تصنع السفن إلا على مقتضى هذه الموانى :

(١) فأمثال موانى (لندن) و (لفربول) و (همبرغ) و (أنفرس) و (روتردام) و (فيلادلفيا) موانى جاءت عند مصب الأنهار ، فهى بوقوعها على البحر تصدر منها البضاعة إلى الممالك الأجنبية وبوقوعها على النهر تصرف البضائع فى الداخل والعكس .

(٢) وأمثال موانى نيويورك وسان فرنسيسكو موانى طبيعية ، وهكذا موانى بلاد النروج ، فهذه كلها اتسع داخلها وضاق مدخلها والموانى الطبيعية جعلتها لكم نموذجا لتتخذوا لكم نظيرها بضاعتكم . فكما أنكم رأيتم خشبا وورقا يعوم فوق الماء فعرفتم بعقولكم أن هذا الماء يحمل السفن فصنعتموها هكذا هذه الموانى الطبيعية التى صنعتها لكم فتحت لكم بابا للموانى الصناعية فصنعتم بأنفسكم ميناء الاسكندرية وميناء دوفر ، أن الثلج يعوق سفنكم أن تدخل ميناء ريغا على البلطيق المسماة (أوست دفنسك) فى فصل الشتاء ، وهكذا فى الموانى الواقعة على سان لورانس فى كندرا (كويبك ومنترال) فهاتان تغلقان من نصف ديسمبر إلى إبريل ، فهذه كلها وإن صدكم عنها الثلج شهورا فإنها موانى مشهورة ونظامها كنظام الليل والنهار . فكما أنكم بالليل نيام وبالنهار تعملون ، هكذا جعلت هذه الموانى ذات

نوبتين : نوبة للسكون ، ونوبة للعمل لأفتح لكم باب النظر والفكر ، ولقد ألهمتكم أن وصلتم البحر الأبيض بالأحمر بحفر قناة السويس فزادت حركة التجارة بين الشرق والغرب ، وفتحتم الطريق البحرى الغربى إلى الهندى بحفر قناة (بناما) ذات القناطر الست المزدوجة التي تقطعها السفن في نحو عشر ساعات وتمر فيها (٤٠) مركبا في (٢٤) ساعة وبهذه القناة سهلت تجارة بريطانيا وألمانيا وفرنسا الخ مع بعض الولايات المتحدة وكندا ومع المكسيك وجواتيالا وزيلانده وشيلي وبيرو وهكذا. هذه ياعبادى أعمالى ورحمتى لكم الواسعة ولكن ليس معنى هذا أن تعيشوا كعيش السمك في البحر ، أو الطير في الهواء ، أو الهوام في التراب ، أو الأنعام فوق الأرض ، هذه كلها لاحرية عندها كحريتكم بدليل أنها لزمت الخطط التي رسمتها أنا لها ، أما أنتم فإنى منحتكم الحرية وجعلت الأرض والأنهار والبحار مدارسكم فتعيشون إلى أمد ثم تموتون، وقد ظهرت حريتكم في أعمالكم البرية والبحرية المذكورة وبهرت . فكما ظهرت آثار حريتكم في الأعمال الحيوية في الحياة الدنيا فلتظهر ولتبهر فيما هو أبعد مدى وأشرف منزلة من شرف نفوسكم وإسعادها وترقيتها، إنى خلقت في أرضكم فلاسفة وأوحيت إلى أنبياء وقلت لهما : أفهموا عبادى أن ما يفنى لاقيمة له (كما تقدم في مقال سقراط قريبا في آية « الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان » الخ) لايغرنكم ماتصنعون وما تملكون ، ألم تقرءوا الآية التى بعد هذه الآية وهى « فما أوتيتم من شىء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها » فهذه السفن الجاريات والمصانع والمتاجر والممالك لابقاء لها ، كلها زينة لكم وجمال ولكنها فانية كما يفنى جمال فتيانكم وفتياتكم . إذن فليكن حرصكم على الجمال الدائم ، والجمال الدائم ملازم للحياة الدائمة التى منها استمدت الشموس طول بقائها وأضاءت أرضكم بأنوارها . إن جمال الإنسان وكل ما أوتى من زينة الحياة الدنيا لاقيمة له بالنسبة لجمال الشموس والأقمار والكواكب ذوات الزينة الدائمة نوعا ما . وهذه المشرقات لانسبة بينها وبين الجمال المقدس وهو جمالى ، هذه البحار ، وهذه السفن ، وهذه الممالك ، وهذه الأرضون ، وهذه الشموس المشرقات كلهن آثار من رحمتى المصحوبة بعلمى وحبى وقدرتى وجمالى . كل ماهو جميل فهو من آثار جمالى سيزول العالم وترونى . وهنالك تنسون هذا الجمال بما يسبى عقولكم ، فاستعدوا لذلك المقام .

إن الجمال (ثلاثة أقسام) قسم أدنى وهو زينة الأرض من جمال الفتيان والفتيات وكل نبات وحيوان ومعدن . وقسم أوسط وهو جمال النجوم والشموس ، وجمال أعلى وهو جمال ذاتى . والأول جمال نارى حاد سريع الزوال . والثانى جمال نورى بطىء الزوال . والثالث جمال روحى إلهى لا يعتريه الزوال . ويتبعه العشق فهو نارى ونورى وروحى إلهى ؛ فالأول مااختص بالوجوه الجميلة وزينة الأرض ، والثانى ماتعلق بجمال العوالم العلوية وتتبعه الفلسفة . والثالث ماتعلق بجمال مبدع الكائنات . والأدنى الخاص بالجمال النارى صاحبه بعد الموت فى جهنم مؤقتا أو مؤبدا . والأوسط فى الجنة والأعلى يرى ربه .

هذا ماخطر لي فى معنى آية « ومن آياته الجوار فى البحر كالأعلام » مع الآية بعدها « فما أوتيتم من شىء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها » كتب صباح يوم السبت ٧ فبراير سنة ١٩٣١ .

اللطيفة الرابعة

مباهج العلم ومناهج الحكمة
فى ملخص سورة الشورى

اللهم إنك أريتنا العجب فى مباهج آياتك المصنوعة ، كما أريتنا مناهج الحكمة فى آياتك المقروءة ، هما توأمان ورضيعا لبان ، وفرسا رهان لايفترقان .

بدأت سورة الشورى بأنك :

(١) أوحيت قرآنا عربيا ، وأنت عزيز حكيم .

(٢) وأنك مالك السموات والأرض ، وأنت على عظيم . فأنت عظيم بما خلقت ، على بما أنعمت وغالب وحكيم فيما أنزلت . وهذه العوالم خاضعات لك مدبرات بعوالمك الروحية العالية وهم الملأ الأعلى بأمرك وأنت خلقت هذه العوالم على صراط مستقيم . ونظام محكم بتدبيرك كما قلت فى آخر السورة « صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض » كما جاء فى أول السورة . هذا مافى أول السورة وما فى آخرها فرجع العجز إلى الصدر .

(٣) وشرحت فى وسط السورة نتائج السموات ونتائج الأرض .

(٤) فأبنت لنا أنك لم تبسط لنا الرزق بسطا تاما لحكمة بالغة . ذلك أنك حكمت أن تكون حياتنا كلها مبنية على العمل والحركة المباركة كما نرى الشمس والقمر وجميع الذرات متحركات ، فلو أن حركاتنا سكنت وأعمالنا وقفت بما تبسط لنا من الرزق لكان الوبال والخبال . فلذلك جعلت الغيث بعد القنوط . واليسر بعد العسر ، والرفعة بعد الخفض كل ذلك تدريب وتعليم وتربية بالحكمة والعزة والعلو والعظمة المذكورات فى أول السورة .

(٥) وذكرت لنا مالدينا من الحيوان الذى بثثته فى الأرض ، وما حبوتنا من الذرية ذكرانا وإناثا ومن البحار والرياح والسفن الجاريات فى البحار العظيمة .

هذا مجمل ما جاء فى عالم الخلق فى هذه السورة . أما مجمل ما جاء فيها من آيات الوحى فذلك أنك :

(١) أنزلت قرآنا عربيا .

(٢) وأول من يتعلمه وينذر به أهل مكة ومن حولها .

(٣) وهذا الدين ليس بدعا بل هو كالأديان السابقة . فما نزل دين إلا للاجتماع ، أما الافتراق فإنه آت من الأهواء والأغراض والشهوات وحب التملك والاستعباد والترف

(٤) وهو صلى الله عليه وسلم مأمور أن يدعو إلى هذا الدين ، ويستقيم كما أمر . وأن يعدل بين الناس ، والعدل على مقدار ما يظهر له من الحجج والبينات فى القضايا . فعليه أن يحكم بالظواهر ، والله يتولى السرائر .

(٥) إن الله أنزل الكتاب المقروء لنعمل به ، ونحكم بأحكامه . ونصب ميزانا فى العوالم العلوية والسفلية ، وذلك الميزان توزن به هذه العوالم كلها فى الدنيا والآخرة ، وبه توزن أيضا أعمال العباد . فما لم تقم الحجج الظاهرة والبينات أمام القضاء فهناك يكون فصل القضاء

فيه

فيه يوم القيامة وذلك قوله تعالى : « الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان وما يدريك لعل الساعة قريب » .

(٦) والله كما اتصف بصفة العدل اتصف بصفة اللطف . فليس لطفه بمطمع الظالم فى الخروج عن العدل فيجعل كالصالح ، بل الظالمون مشفقون مما كسبوا ، والآخرون فى روضات الجنات . فاللطف إذن لاينافى العدل. هذه خلاصة مما جاء فى هذه السورة من آيات السموات والأرض وما بينهما وآيات الوحى . فلأجعل الكلام فى بسط هذا المقام على قسمين .

(القسم الأول) فى نظام السموات وضوء الشمس وآثاره فى النبات والإنسان . واتصال عوالم السموت بهذا الإنسان ، بحيث تدرك أيها الذكى أن هذه العوالم كلها كأنها حيوان واحد أو نبات واحد كما تقدم مفصلا فى مواضع من هذا التفسير .

(القسم الثانى) فى هذا القرآن المنزل بالحكمة . ولماذا أمر صلى الله عليه وسلم أن ينذر أم القرى ومن حولها ولماذا ذكرت أم القرى فى هذا المقام ، مع أن أهل مكة كانوا أشد الناس إنكارا للوحى والقرآن . وما الحكمة التى تظهر فى هذا الزمان؟ وهناك نذكر تعداد المسلمين الذين حول أم القرى من الأمم والأجناس ثم نبين الأجر الذى حصر النبى صلى الله عليه وسلم سؤاله فيه ، وأى أجر له ؟ وأى أجر للمصلين بعده؟ أهو أجر يجر لهم مغنما دنيويا أم أمرا أدبيا دائما تقربه نفوسهم ويفرحون به عند ربهم فى دنياهم وآخرتهم ؟ وبيان قوله تعالى « قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين » وقوله أيضا : « قل ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا » وموازنة هذه المعانى بقوله تعالى « إلا المودة فى القربى » فى هذه السورة فلأبدأ بالقسم الأول وشرحه فأقول :

الكلام على السموات وعجائبها

اللهم إنا نحمدك حمدا جزيلا ، ونشكرك شكرا كثيرا على نعمة العلم وبهجة الحكمة . أريتنا ياربنا جمالا تراه عيوننا ، وحكمة تبصرها نفوسنا فى سمواتك ، وذلك له علاقة بأجسامنا وعقولنا، وزنت حركات الأفلاك ، وأنعمت ببيانها فى هذا التفسير فى مواضع كثيرة ، فلك الحمد اللهم على نعمة العلم وبهجة الحكمة، أرسلت الأضواء لأرضنا بالحكمة وقدرتها بالميزان . فها هو ذا عطارد يدور حول الشمس فى ٨٨ يوما إلا قليلا والزهراء تدور فى ٢٢٥ يوما إلا قليلا ، والأرض فى ٣٥٦ يوما ٢٥٦ من الألف من اليوم . والمريخ فى ٦٨٧ يوما إلا قليلا . والمشترى فى ٤٣٣٢ يوما ونصف يوم تقريبا . وزحل فى ١٠٧٥٩ يوما وخمس يوم تقريبا : وأورانوس فى ٣٠٦٨٧ إلا قليلا . ونبتون فى ٦٠١٢٧ يوما إلا قليلا .

هذه هى السيارات المعروفة أبعادها ومنها أرضنا، أنت ياألله نظمتها وفصلت حركاتها، وجعلت بين الأرض والقمر والشمس علاقات أخرى غير الحركات المذكورة وتلك هى حوادث المد والجزر ، فإن البحر يرتفع وينخفض كل يوم مرتين بل كل ٥٠ ٢٤ عن تسوية متوسطة، فحينما يرتفع البحر يزحف على الشواطئ ويدفع بالتالى مياه الأنهر فترتفع حينئذ فى مجاريها وهذا هو المد ، ومدة الارتفاع ست ساعات ومتى أخذ البحر نهايته العظمى من الارتفاع يستمر سبع أو ثمان دقائق ثم يبتدئ فى الانخفاض زاحفا عن الشواطئ التى كان علاها شيئا فشيئا وهذا هو الجزر وبعد الجزر يحصل مد جديد وهكذا .

والمسافة بين المدين ٢٥ و١٢ ومدة المد تزيد عن مدة الجزر لأن البحر يستعمل زمنا فى الصعود أكثر

من الزول ، والفرق ليس واحدا بالنسبة لجميع المين فمقداره فى هافر وبولونى ٢٢٨ د س وفى مينة برست ١٧ د فقط .

تغير أوقات المد والجزر . التأخير اليومى لحادثة المد والجزر هو ٥٠ دقيقة وهـذا القدار هو مقدار تأخير مرور القمر بمستوى الزوال كل يوم ، وحيث إن تأخير ٥٠ دقيقة كل يوم يحدث تأخيرا قدره ٢٤ ساعة بعد ٢٩ يوما وثلث أعنى بعد شهر قمرى فيجب حينئذ أن تنقلب أوقات المد والجزر كل نصف شهر قمرى من صباح إلى مساء ، وبالعكس . وبعد شهر قمرى كامل يعود المد والجزر إلى الأوقات الأولى بعينها وحينئذ فهناك ارتباط بين الأوقات التى يحصل فيها المد والجزر وبين أوقات مرور القمر بمستوى الزوال .

تغير الارتفاع . كلما كان ارتفاع المياه فى المد كبيرا كان انخفاضها كثيرا فى الجزر التالى له ويأخذ المتوسط بين جزر ومد متتاليين يتحصل على نتيجة ثابتة تقريبا ولهذه التسوية تنسب الارتفاعات فى عمليات الميزانيات ويسمى مدا كليا متوسط مدين أحدهما يلى جزرا والآخر يسبقه ، والمد الكلى فى الوقت الواحد متغير على حسب المين بسبب اختلاف شكل الشواطئ وفى المينة الواحدة يتغير على حسب أوجه أشكال القمر وعلى حسب أبعاد الأرض عن القمر والشمس وعلى حسب ميل هذين الكوكبين . فى وقت الاجتماع والاستقبال يصل المد نهايته العظمى والجزر نهايته الصغرى . وأما فى وقت التربيعين فيأخذ المد نهايته الصغرى ، ولعلم أن أعظم مد لا يحصل فى نفس لحظة الاجتماع أو الاستقبال بل بعدها بقدر ٣٦ ساعة . فالمد الثالث الذى يلى الاجتماع والاستقبال هو الذى يكون أكبر مد وكذلك المد الثالث الذى يلى التربيع الأول والأخير يكون هو أصغر مد وهذا التأخير ينسب لاحتكاك العناصر السائلة بعضها على بعض وعلى قاع البحر ، وينشأ عن هذا الاحتكاك بطء فى حركتها وفى (برست) يصل المد الكلى للاجتماع والاستقبال فى المتوسط ارتفاعا قدره ٦٫٢٥ متر والمد الكلى للتربيعين فيها هو ٣٫١٠ متر فقط .

وبعد الأرض عن القمر يحدث تأثيرا على مقدار المد الكلى الذى يزداد باقتراب القمر من الأرض ويتناقص بتباعده عنها وفى مينة (برست) تغير البعد المذكور يحدث تغيرا مقداره ١٫٧٧ فى ارتفاع المد الكلى وكذلك تغير بعد الشمس عن الأرض يؤثر على مقدار المد الكلى غير أن ذلك التأثير قليل بالنسبة لتأثير القمر .

وكذا ارتفاع المد والجزر يتغير على حسب ميل الشمس والقمر . فحينما يكون القمر قريبا من دائرة المعدل فى وقت الاعتدالين يكون المد المقابل للاجتماع والاستقبال هو أكبر مد ، وينتج من جميع ما تقدم أن هناك ارتباطا أصليا بين حادثة المد والجزر وحركات القمر والشمس .

وسنبين أن المد والجزر هما نتيجة تأثير جاذبية القمر والشمس على الأرض أعنى نتيجة من قاعدة الجذب العام اهـ .

فهذا إجمال الكلام على علاقة الأرض بالشمس من حيث حركاتها حولها مع السيارات الأخرى ومعها ومع القمر باعتبار المد والجزر ، وهذا معناه أن هذا العالم كله أشبه بالجسم الواحد (انظر المجموعة الشمسية مرسومة فى سورة الأنعام وفى سورة سبأ وآثار الأضواء فى الأرض) .

إن الأضواء تصل إلى الأرض منتظمة فكان الصيف والخريف والشتاء والربيع فماذا رأينا ؟ رأينا النباتات موزعات على أيام السنة (وبعبارة أخرى) إن هذه النباتات قد تبعت فى زرعها وترتيب أوقاته نظام حركات الأرض حول الشمس ، سبحانك اللهم وبحمدك . أنت الحكيم ، أنت العلى ، أنت العظيم ، أنت العزيز . فالعزة قهرت الأرض فدارت ، وبالحكمة قدرت حركاتها . وأنت لاتلابس المادة التى غرقنا فيها بل نحن فيها

محسوسون . يا ربنا ، وأنت منزه عنها ، فأنت علي وأنت عظيم ، فلك العلو على هذا النظام ، ولك العظمة . اللهم إنا رضينا أن نكون مغمورين في هذه المادة تحت عظمتك وعلوك والأرض تجري بنا حول الشمس بنظام محدود وأوقات لا تتغير ولا تتبدل . وإنما رضينا بهذا لأنا نعلم رحمتك الواسعة التي غمرتنا بها ، فنحن لما شاهدناها رضينا بكل ما تحكم به فينا في هذه الدنيا وفي الآخرة . فإذن نتوكل عليك . وليس يصح التوكل ولا يتم إلا بأن نسير على نهجك ونكون صالحين مصاحبين لعبادك جارين على صراطك الذي نصبته في سمواتك وفي أرضك .

ومن هذا الصراط وهذا الميزان أوقات الزراعة . فلكل فصل من فصول السنة بل لكل شهر شمسي أنواع من الزرع تنبت فيه (اقرأ هذا المقام مفصلا في أول سورة الزمر) وهاك بعضه هنا وبقيته هناك .

(شهر هاتور) فيه يزرع القمح ويطلع البنفسج [1] والمنثور . وأكثر البقول . ويجمع ما بقي من الباذنجان وما يجري مجراه . ويحمل العنب من قوص . وفي ثانيه يبتدئ حصاد الأرز . وفي خامسه أول تشرين الثاني من شهور السريان . وفيه يبتدئ برد المياه . وفي سادسه أول المطر الوسمي ، وفي سابعه يبتدئ أهل الشام الزرع . وفي ثامنه يبتدئ هبوب الرياح الجنوبية . وفي تاسعه يبتدئ زرع الخشخاش [2] وفي حادي عشره يبتدئ اختفاء الهوام . وفي ثالث عشره يبتدئ غليان البحر . وفي رابع عشره تعمى الحيات . وفي سادس عشره يجمع الزعفران ، وفي ثامن عشره تكثر الوحوش . وفي الثاني والعشرين منه يغلق البحر الملح وتمتنع السفن من السفر فيه لشدة الرياح . وفي الثالث والعشرين منه تبتدئ سخونة بطن الأرض . وفي الرابع والعشرين منه أول اسفيدار ماه من شهور الفرس .

(شهر كيهك) فيه تدرك الباقلاء ، وتزرع الحلبة وأكثر الحبوب ، ويدرك النرجس والبنفسج ، وتتلاحق الحمضات . وفي أوله ابتداء أربعينيات مصر . وفي ثالثه يبتدئ موت الذباب . وفي خامسه أول كانون الأول من شهور السريان . وفي سابعه آخر الليالي البلق وأول الليالي السود . وفي حادي عشره يبتدئ الشجر في رمي أوراقه . وفي ثاني عشره تظهر البراغيث . وفي سابع عشره أول فصل الشتاء ، وهو أول أربعينيات الشام . وفي ثامن عشره يتنفس النهار . وفي الحادي والعشرين منه يكثر الطير الغريب بمصر . وفي الثالث والعشرين منه أول مردوماه [3] من شهور الفرس . وهو نوروزهم وأول سنتهم . وفي الخامس والعشرين منه يهيج البلغم . وفي السادس والعشرين منه تلقح الإبل . وفي السابع والعشرين منه يكثر شرب الماء في الليل وفي الثلاثين منه يبتدئ تقليم الكروم .

يا سبحان الله . هذا هو ميزانك الذي شاهدناه في هذه الدنيا أو هذا هو صراطك المستقيم . رأيناه في الحياة قبل أن نموت . فأنت لم تذر حركة ولا ذرة إلا وزنتها . فأما الحركة ففي علم الفلك . وأما الذرة ففي علم الكيمياء .

لك الحمد اللهم على نعمة العلم . علمتنا يا رب أنك ذو نظام جميل ففهمناه . وعلمنا أنك لم تقف في الوزن عند العوالم العظيمة كالكواكب السيارة . كلا . بل نراك راعيت هذا الميزان في خلق النبات وأريتنا جذوره

---

(١) بسكون الفاء وفتح بقية الحروف .

(٢) بفتح أوله .

(٣) سيأتي قريبا أن نيروز الفرس وأول سنتهم أفرودين ماه ونظنه الصواب لأنه الذي ورد في مروج الذهب وغيره ومع ذلك لم يذكر هذا الشهر في أسماء الشهور الآتية .

مفصلات تفصيلا بديعا ، بحيث كانت ملائمة كل الملاءمة لما خلقت له بحيث تجتذب الجذور من الأرض بأنابيبها الشعرية مايوافق الثمرات التي خلق ذلك النبات لها والحبوب والخضر وهكذا . فتراك كما قدرت حركات السيارات ولم يكن فيها خطأ هكذا قدرت ووزنت تلك الأنابيب الشعرية والفتحات التي تعسر مشاهدتها فكانت مناسبات لنتائج النبات من حب وفاكهة وزيت ونشاء وهكذا . وهذه الفتحات لاتجذب من الأرض إلا الملائم لها . ولو أن نباتا اتسعت فتحاته أو ضاقت عما يلائم ماتجذبه لم يخرج لنا تمر ولا بر ولا خروع بل هناك يختلط الحابل بالنابل ويموت الإنسان والحيوان .

اللهم أنت اللطيف بنا « الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوى العزيز » فأى لطف أعجب من هذا؟ عجب يارب دقة الحركات في الشمس ، ودقة فتحات الجذور أمران عجيبان.هذه أعظم رحمة لك . ولكننا لانفطن لها ولا نفكر فيها . ذلك لأن شهواتنا الصغيرة حبست عقولنا فلم تتنبه إلى النظر في دقة هذا الصنع لأن شهواتنا استحوذت على عقولنا فمنعتها من التغلغل في هذا المجال .

هذا ، ولم يقف الأمر عند دقة الحركات ونظام أوقات الزرع على مقتضاها ولا عند نظام الفتحات بل الأمر فوق ذلك . فقد رأيناك أبدعت في خلق الورقات بأن جعلت لكل ورقة حجرا داخلة فيها ، ولكل حجرة سقف وحيطان ووضعت في كل حجرة سائلا وهذا السائل فيه مادة ذات لون . وهذه المادة باتحادها مع ضوء الشمس (الواصل من بعد عظيم يبلغ بسرعة القطار ٣٥٠ سنة . وبسرعة قلة المدفع ١٢ سنة وبسرعة الضوء ٨ دقائق و١٨ ثانية) تكون سببا في أن النبات يتغذى من الهواء بمادة الكربون (الفحم) وهذه المادة الكربونية تدخل النبات فتكون منه أنواع الخشب ، والتبن ، ونحوهما . أليس من العجب أننا نراك تحسب حركات الأرض التي لو اختلت لاختل نظام زرعنا .

يارب ماأجهلنا أهل الأرض ما أضعف عقولنا ياربَاه . أنت ربيتنا بانتظام حركات أرضنا وبانتظام الزرع على مقتضى تلك الحركات وبالفتحات الموافقات في الجذور وبالحجرات المقدرات في الأوراق . تلك الحجرات التي قد تبلغ في البوصة المربعة ١٢ حجرة و ٢٤ وفوق ذلك إلى آلاف وآلاف . هذا في البوصة فما بالنا بالورقة الواحدة ، وما بالنا بالورق ، وما بالنا بالشجرة كلها ، ومابالنا بالحقل كله .

بهذه يارب تعاشنا في الدنيا هذه هي الحياة المنتظمة ونحن جميعا في الأرض عالمنا وجاهلنا لانفكر فيها وهذه الأوراق مغذيات النبات (انظر هذا المقام في سورة يس وانظر شرحه وصور الورق المذكور) إذن لو أن هذه الورقات لم تكن فيها الفتحات منظمة لم يكن نبات ، ثم لم يكن حيوان ولا إنسان لأن هذه الفتحات التي تعد بالآلاف المؤلفة عليها قوام حياة النبات وحياة الإنسان . أليس هذا هو قوله تعالى في سورة أخرى « يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون » أليس هذا الذى نذكره في هذا التفسير هو من التفصيل الذى وعد الله به ، وإذا فصلت الآيات في نفس الخلق ولكنها لم تفصل في عقولنا فمن أين يأتى اليقين لنا ؟ هذا هو اليقين . وهذه هي السعادة أى السعادة التي أحس أنا بها الآن ويحس بها جميع المغرمين بهذا التفسير وما فيه من عجائب الصنع المفصلات المورثات اليقين .

ثم إننا لم نجد الأمر وقف عند هذا الحد ، فإن بين كل ورقة وأخرى حسابا هندسيا ونظاما متقنا . فترى الأشجار والأوراق عليها متقابلات مثنى وثلاث ورباع وخماس وهكذا . وهذه الورقات قد رسمت شكلا هندسيا من حيث وضعها (انظر هذه الأشكال في سورة الحجر ، وتعجب مما تقرؤه هناك من ورقتين على الغصن بينهما ١٨٠ درجة من الدائرة على الغصن وثلاث ورقات وخمس ورقات قد رسمنا شكلين حلزونيين وهذان

الشكلان

الشكلان يتممان دائرة منتظمة بديعة عجيبة وتكون الدوائر التامة متشابهات والأوراق الخمس منظمات قد اقتسمن تلك الدائرة اقتساما صادقا بحيث ترى بين كل ورقة وأختها ٧٢ درجة من الدائرة البالغة ٣٦٠ درجة من ضرب ٥ فى ٧٢ وتجد كل ورقة من الخمس فى دائرة موازية لنظيرتها فى الدائرة الأخرى، جل الله وجل العلم وجلت الحكمة ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل إن الدوائر المنظمة فى نبات بينهما وبين الدوائر الأخرى فى نبات آخر مناسبات عجيبات حتى إننا بالبحث نجد أن جميع أوراق النبات بينها علاقات حسابية وهندسية كالعلاقات الحسابية والهندسية فى نظام النجوم الثوابت والسيارات والأرض .

وهذا النظام كله نتائجه هو ماياً كله الحيوان والإنسان مما ذكرناه قريبا فى السورة السابقة . فإنك تجد هناك الجدول المبين لأنواع النشا، والمادة الأوزوتية والمادة الدهنية . وهذه الأنواع الثلاثة لم تتم إلا بنظام الأوراق والجذور والأضواء والأيام التابعات حركات الأرض حول الشمس ، وينتهى الأمر بالجهاز الهضمى الذى شاهدت صورته فى سورة فاطر وفى سورة فصلت قبل هذه السورة فهناك تجد الحساب مفصلا والنظام متصلا ، وأن القوى والعصارات المختلفات الموضوعات فى جهازنا الهضمى موزعات على تلك الأنواع الثلاثة الناتجات من نظام النبات المنتظم الأوراق ، الجارى على سنن الأضواء فى وصولها إلى الأرض .

أليس هذا معناه أن هذه العوالم كلها أشبه بجسم واحد (وبعبارة أخرى) أليس معنى هذا أننا على هذه الأرض ملزومون أن ندرس الكواكب والأرضين والأضواء وحسابها والنبات وحسابه وشرح أجسامنا وتشريحها ثم نفوسنا .

خطابى للمسلمين

يامعاشر المسلمين : الحق أحق أن يتبع . نحن نعيش فى الأرض عالة على الأمم فى هذه القرون المتأخرة يامعاشر المسلمين أكتب كتابى هذا ، وقريبا أفارق هذه الأرض . وأصعد إلى الله وأرى أمن الكتمان وأقول يارب قد اجتهدت أن أبلغ المسلمين ماعرفته من صنعك وما فهمته من كتابك وما على إلا أن أبين ، وفوق ذلك أقول : إنكم ستبلغون شأوا عظيما فى سعادة الحياة وسعادة الممات . إنكم ستدرسون كل ماتزونه فى السموات والأرض ، وهناك تفهمون لماذا يكرر ذكر العوالم العلوية والسفلية فى كثير من آى القرآن . وبهذا تم الكلام على القسم الأول فى نظام السموات والأرض .

القسم الثانى

هذا القرآن المنزل ، ولماذا أمر صلى الله عليه وسلم أن ينذر أم القرى ومن حولها
ولماذا ذكرت أم القرى فى هذا المقام الخ

لنجعل هذا القسم فى (فصلين : الفصل الأول) فى أن القرآن عربى (الفصل الثانى) فى ذكر أم القرى ومن حولها .

الفصل الأول

فى أن القرآن عربى

فأقول : قد تقدم الكلام عليه فى (سورة فصلت) وهى السورة السابقة . وسيأتى الكلام بقية فى (سورة الزخرف) .

الفصل الثانى

فى تبيان تخصيص أم القرى ومن حولها

اعلم أيها الذكى أن الله عز وجل قبيل نزول القرآن قد كان نظم أمتين وهما فارس والروم . وهاتان الدولتان قد اقتسمتا الأقطار المحيطة بجزيرة العرب قبيل النبوة . فكان للروم البلاد الجنوبية ، قدملكوها نحو (٦٠٠سنة) وللفرس البلاد الشمالية، كان لهم عليها بعض السلطان نحو نيف وثلثمائة سنة ، ولم يبق إلا مكة والبلاد المجاورة لها بنجوة من نفوذ هاتين الأمتين .

وأنت عليم أيها الذكى بما كان لهذه الأمة العربية بسبب القرآن من السطوة والنفوذ ، وكيف أزالت ملك هاتين الدولتين . ثم كيف بقيت قرونا ، ثم كيف تولاها الخور والضعف حتى أصبحت أمم أوروبا على أبواب مكة ، والمسلمون فى مكة وحول مكة الآن بعد ١٣٤٩ سنة قد بلغ تعدادهم مابينته فى كتابى المسمى [القرآن والعلوم العصرية] وقبل أن أذكر ما كتبته فى ذلك الكتاب وما خاطبت المسلمين به أذكرك أيها الذكى بما تقدم فى أول سورة (العنكبوت) من الرسائل التى أرسلها النبى صلى الله عليه وسلم إلى ملوك وأمراء العرب والعجم ، وبعد أن تقرأ ذلك أكمل القول بحادثتين تاريخيتين لم يذكرا هناك (الحادثة الأولى) هى التى وردت فى (أيلة) أيام النبوة (الحادثة الثانية) هى التى جاء ذكرها فى قبائل البجة الذين كانوا يسكنون مصر ، وإنما نذكر هاتين الحادثتين هنا لأنا فى مقام إنذار أم القرى ومن حولها بالقرآن العربى وهذا الإنذار تبعه رقى أم القرى وما حولها حتى تعدى العرب حدود آسيا وأفريقيا واحتلوا ربوع أوروبا ولما بلغوا العلم لتلك الأمم ورفعوا شأن الإنسانية رجعوا ثانيا إلى مايشبه حالهم الأولى . فإذا ذكرنا الحادثتين فإنما نريد بهما كيف كانوا يهاجمون الأمم ، وكيف يحافظون على النفوس والأرواح ، وهم إنما خلقوا فى جزيرة قاحلة لاعلم فيها ولا حضارة ولا مدنية وأن هذه السيرة سترجع لهذه الأمم كما ابتدأت .

الحادثة الأولى هى حادثة العقبة

إن الإنسان يصعد إليها منحدر من مسافة طويلة من الغرب حتى يصل إلى قمتها . فإذا أردت أن تنزل إلى الجهة الشرقية صرت نازلا صاعدا وصاعدا نازلا فى أرض حجرية تارة ، وأخرى رملية ناعمة ، وأخرى خشنة أو زلطية إلى أن تمر فى مضيق لايسع إلا جملا جملا ، ويسمى قطع لاظ ، وطريق هذا القطع حلزونى تقريبا أصلحه ابن طولون . ثم محمد بن قلاوون ، ثم عباس باشا الأول ، ومع ذلك فإن المسافر فيه لابد أن ينزل عن دابته ويسير على قدمه حتى يقطع العقبة فى ست ساعات نزولا وضعفها صعودا ، ومن دون هذه العقبة قرية العقبة ويسمونها (أيلة) وهى بلدة قديمة جدا ، وكانت عامرة من زمن مديد ، وكانت فى مدة سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام ميناء كبيرة للمراكب التى كانت تفد إلى الشام من اليمن والهند وفارس وانقطع بها طريق البر من اليمن إلى بطره . ولما مات سليمان رجعت الطريق الأولى إلى ما كانت عليه فى نقل التجارة برا . وكان فيها أسواق كبيرة ، بل كانت مركزا للتجارة بين مصر وبلاد العرب وفارس والعراق . ولما أتى النبى صلى الله عليه وسلم إلى غزوة تبوك فى السنة التاسعة للهجرة أتاه ابن رؤبة صاحبها وصالحه وأعطاه الجزية فكتب له عليه الصلاة والسلام عهدا هذه صورته: بسم الله الرحمن الرحيم . هذا أمنة من الله ومحمد

النبى

النبي رسوله لتحية ابن رؤبة وأهل أيلة أساقفتهم وسائرهم في البر والبحر، لهم ذمة الله وذمة النبي ومن كان معهم من أهل الشأم وأهل اليمن وأهل البحر . فمن أحدث منهم حدثا فانه لايحول ماله دون نفسه وأنه طيب لمن أخذه من الناس وأنه لايحل أن يمنعوا ما يريدونه ولا طريقا يريدونه من بر أو بحر » هذا كتاب جهم بن الصلت وشرحبيل بن حسنة بإذن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفي سنة ٥٧٦ هـ كان الإفرنج قد استولوا عليها في الحروب الصليبية ، فسار إليها من مصر صلاح الدين الأيوبي ، وأخذ معه مراكب مفصلة على الجمال ، حتى إذا وافى مياهها أصلح مراكبه وأنزلها في البحر ، وحاصر المدينة برا وبحرا ، حتى أخذها عنوة وطرد الإفرنج منها ، وهي الآن قرية صغيرة في أيدي عرب الحويطات ، وفيها قلعة بناها السلطان مراد الرابع فيها بعض الجنود لحراستها ، وعدد سكانها لايزيد عن مائة نفس ، وفي هذه القرية نخيل وأشجار ، وماؤها حلو ، ويزرع في أرضها الخضراوات ، وبين العقبة ومعان نحو مائتي كيلو متر شرقا ، والطريق فيها صعبة ، وتخترق جبال السراة التي يكسوها الجليد طول الشتاء ، وبينها وبين بيت المقدس شمالا بغرب نحو (٣٠٠) كيلو متر في صحراء قليلة المياه طريقها وعر ، وبينها وبين السويس نحو (٣٠٠) كيلو متر . وبهذا تم الكلام على الحادثة الأولى .

الحادثة الثانية في قبائل البجة

جاء في كتاب «الرحلة الحجازية» لمؤلفه الأستاذ محمد بك لبيب البتنوني تحت العنوان التالي مانصه :

الطريق القديم والحديث

من مصر إلى الحرمين

كانت مصر ولا تزال طريق المسلمين إلى حج بيت الله الحرام ، وزيارة نبيه عليه الصلاة والسلام ، في نصف الكرة الأرضية الغربية ، باعتبار أن مكة المكرمة هي قلب العالم أو النقطة المركزية التي تنبعث منها أنصاف أقطار إلى محيط جميع دائرة الأقطار ، فالأندلسي الذي كان يسكن في غرب أوروبا ، والمغربي الذي في غرب أفريقيا ومادونه من مسلمي البربر فالسنغال وبلاد التكرور والسودان الغربي والشرقي كانوا إذا قصدوا الحج إلى بيت الله الحرام سافروا من بلادهم إلى مصر بحرا أو برا ، وكذلك كان يقصدها كثير من أهالي الشام والترك والقوقاز وجزائر البحر الأبيض المتوسط ويجتمع الكل بالقاهرة قبل شهر رمضان ، ثم يسيرون منها إلى قوص برا أو النيل (٦٤٠ كيلو مترا) في نحو عشرين يوما ، ثم تسافر قوافلهم منها في صحراء عيذاب مدة ١٥ يوما يقطعون فيها نحو ١٢٠ كيلوا مترا إلى القصير على البحر الأحمر ، وكانت من قديم ميناء مصر الشرقية : أي أنها كانت من مصر بالأمس مكان ميناء السويس الآن ، وكانت هذه القرية في أيدي عرب البجاة الذين كانوا يتولون نقل الحجاج على إبلهم في صحراء عيذاب .

وقبائل البجاة أو البجة يقال إنهم من البربر وكانوا يسكنون في صحراء مصر الشرقيه من سواكن إلى قرية يقال لها الحزبة في صحراء قوص ، وهذه الصحراء عامرة بمعادن الزمرد والذهب والفضة والحديد وفيها مغائر وآبار قديمة لاستخراجها . وهي طبعا من عهد قدماء المصريين ، وبعضها من عمل المغفور له محمد علي باشا والي مصر ، وكانت العرب تستخرج منها المعادن ، وخصوصا التبر في القرن الأول والثاني

للهجرة وذلك باتفاق مع ملك البجة الذى كان مقره أسوان ، وكان ينال المسلمين منه ومن قومه أذى كبير فأرسل المأمون إليه عبد الله بن الجهم فكانت له معهم وقائع ، ثم وادعهم وكتب بينه وبين كنون رئيسهم كتابا نذكر لك طرفا منه لتعرف مقدار التسامح الإسلامي مع أهل الذمة ، وكيف أنه كان لايفرق بينهم وبين المسلمين فى المعاملة : « هذا كتاب كتبه عبد الله بن الجهم مولى أمير المؤمنين صاحب جيش الغزاة عامل الأمير أبى إسحاق ابن أمير المؤمنين الرشيد أبقاه الله . فى شهر ربيع الأول سنة ست عشرة ومائتين لكنون بن عبد العزيز عظيم البجة بأسوان . إنك سألتنى وطلبت إلى أن أؤمنك وأهل بلدك من البجة وأعقد لك ولهم أمانا على وعلى جميع المسلمين ، فأجبتك إلى أن عقدت لك وعلى جميع المسلمين أمانا ما استقمت واستقاموا على ما أعطيتنى وشرطت لى فى كتابي هذا ، وذلك أن يكون سهل بلدك وجبلها من منتهى حد أسوان من أرض مصر إلى حد ما بين دهلك وباضع ملكا للمأمون عبد الله بن هارون أمير المؤمنين أعزه الله تعالى ، وأنت وجميع أهل بلدك عبيد لأمير المؤمنين إلا أنك تكون فى بلدك ملكا على ما أنت عليه فى البجة وعلى أن تؤدى إليه الخراج فى كل عام على ما كان عليه سلف البجة ، وذلك مائة من الإبل أو ثلثمائة دينار وازنه داخلة فى بيت المال ، والخيار فى ذلك لأمير المؤمنين ولولاته ، وليس لك أن تخرم شيئا عليك من الخراج ، وعلى أن كل أحد منكم إن ذكر محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم أو كتاب الله أو دينه بما لاينبغى أن يذكره به ، أو قتل أحدا من المسلمين حرا أو عبدا فقد برئت منه الذمة ذمة الله وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم وذمة أمير المؤمنين أعزه الله ، وحل دمه كما يحل دم أهل الحرب وذراريهم ، وعلى أن أحدا منكم إن أعان المحاربين على أهل الإسلام بمال أو دل على عورة من عورات المسلمين أو أثر لغرتهم فقد نقض ذمة عهده وحل دمه ، وعلى أن أحدا منكم إن قتل أحدا من المسلمين عمدا أو سهوا أو خطأ حرا أو عبدا أو أحدا من أهل ذمة المسلمين ، أو أصاب لأحد من المسلمين أو أهل ذمتهم ببلد البجة أو ببلاد الإسلام ، أو بلاد النوبة أو فى شىء من البلدان برا أو بحرا ، فعليه فى قتل المسلم عشر ديات ، وفى قتل العبد المسلم عشر قيم ، وفى قتل الذمى عشر ديات من دياتهم ، وفى كل مال أصبتموه للمسلمين وأهل الذمة عشرة أضعافه ، وإن دخل أحد من المسلمين بلاد البجة تاجرا أو مقيما أو مجتازا أو حاجا فهو آمن فيكم كأحدكم حتى يخرج من بلادكم ، ولا تؤووا أحدا من آبق المسلمين، فإن أتاكم آت فعليكم أن تردوه إلى المسلمين ، وعلى أن تردوا أموال المسلمين إذا صارت فى بلادكم بلا مؤنة تلزمهم فى ذلك ، وعلى أنكم إن نزلتم ريف صعيد مصر لتجارة أو مجتازين لاتظهرون سلاحا ، ولا تدخلون المدائن والقرى بحال ، ولا تمنعوا أحدا من المسلمين الدخول فى بلادكم والتجارة فيها برا ولا بحرا ، ولا تخيفوا السبيل ، ولا تقطعوا الطريق على أحد من المسلمين ، ولا أهل الذمة ، ولا تسرقوا لمسلم ولا ذمى مالا ، وعلى أن لا تهدموا شيئا من المساجد التى ابتناها المسلمون بصيحة وهجر وسائر بلادكم طولا وعرضا ، فإن فعلتم ذلك فلا عهد لكم ولا ذمة الخ » وباقى الكتاب لايخرج عن هذا المعنى . وبهذا تم الكلام على الحادثة الثانية .

تعداد المسلمين فى بلاد الإسلام

أذكر فى هذا المقام ما جاء فى كتابى [القرآن والعلوم العصرية] من تعداد المسلمين فى بلاد الإسلام والخطاب الذى وجهته لهم ، فقد جاء فيه فى صحيفة ١٥ وما بعدها تحت العنوان التالى ما نصه :

المسلمون كثير عددهم

أيها المسلمون : ما أكثر عددكم على وجه الأرض

	مليونا
إن منكم فى بلاد الهند الصينى والصين:	٧٠
وفى الهند وما جاورها:	٧٥
وفى مالزيا والاقيانوسية :	٥٠
وفى ولاية الحجاز واليمن بأقسامها المستقلة وغير المستقلة وعسير وعدن والنواحى التسع وعمان ومسقط والبحرين وحضرموت ونجد والكويت والربع الخالى وعنزة وشمر الخ.	١١
وفى سوريا وفلسطين والعراق العربى والعراق العجمى :	٦ر٥
وفى مصر والسودان المصري:	١٨
وفى طرابلس وتونس والجزائر ومراكش :	١٨
وفى الصحراء الكبرى والسودان الفرنسى:	٢٠
وفى السنغال وما يتصل به والسودان الأوسط ووادای وباكومى وما حوالها :	٥
وفى جمهورية ليبريا:	٠ر٥
الجميع	٢٧٤
وفى السودان الإنجليزى والنيجر وما حولهما :	٨
وفى مستعمرات الكمرون الألمانية والكونغو والكاب وموزنبيق ومدغشقر وشرق أفريقية الألمانى وزنجبار وشرق أفريقيا الإنجليزى وأوغندة والحبشة وأرتريا ومايتصل بها :	١٠ر٥
والأتراك فى روملى وجهات الأناضول والبلقان والولايات العثمانية التى معظمها من غير المسلمين :	١٥
وفى ولاية روسيا الأوروبية ، ومنها التتر الذين هم أمم قسم من الأتراك وفى قفقاسية وآسيا الوسطى وفرغانة وسيبريا وخيوة وبخارى:	٣٥
والترك فى الشمال والشمال الغربى من بلاد الصين :	٢٥
وفى بلاد أفغانستان وفى بلاد إيران والعجم :	١٠

فيكون جميع المسلمين فى أقطار الأرض ٣٧٧ر٥ مليونا ، والمتأمل فى هذا يجد عشرين مليونا مكررة وإذن نقول إن المسلمين ٣٥٠ مليونا تقريبا فسألتكم بالله أيها المسلمون كيف يغلب هذا العدد الكبير والجم الغفير وكيف يصادرون فى حريتهم ويغلون فى عقر دارهم ويسامون سوء العذاب. كل ذلك من الجهل والتفرق وعدم الاتحاد ، وقد آن أوان أن أشرح طرق الاتحاد عسى أن يكون فيه ذكرى لإخوانى المسلمين .

طرق الاتحاد

﴿ كيف يتحد المسلمون ﴾

أيها المسلمون هذا المجموع الكبير العظيم الممتد من بكين فى الصين إلى رأس الرجاء الصالح ، ومن طنجة إلى المحيط الهندى. هذا المجموع جسم له رأس وأعضاء ، وقد ذكرنا الحديث الشريف إذ جعل المسلمين كالجسد الواحد إذا اشتكى بعضه تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى هذا بعينه ما يحصل الآن فى أطراف المعمورة فإن المسلم الإفريقى يتألم لما يصيب أخاه الصينى ويسره مايسره قال تعالى « إنما المؤمنون إخوة » ولا جرم أن الأخ الأرشد واجب عليه وقاية الأصغر ، والمحافظة عليه وتربيته وترقيته ، فعلى العقلاء والعلماء والأمراء والأغنياء من العرب والفرس والترك والهنود والصينيين أن يكونوا جماعة تتخذ لها مركزا خاصا ولعلها الآن موجودة .

وإذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم شبه الأمة كلها بالجسم ، فلننهج منهجه عليه الصلاة والسلام ، ولننسج على منواله مبينين بالعقل صحة ماتواخينا والطريق التى ارتضينا ، فنقول :

إن فى الجسم رأسا هو مركز الحواس من السمع والبصر والشم والذوق واللمس ، ومنه تصدر جميع الأعصاب الحساسة وإليه ترد بما نقلت من أخبار السمع والبصر الخ ، فالرأس هو القائم بأعمال الجسم المنظم لحركاته ، فلو تخلى الرأس عن الجسم لأصبح جثة هامدة لاتغنى ولاتسمن. هكذا العلماء فى هذه الأمة والأغنياء والأمراء والعقلاء المفكرون المتبصرون ، هم المسئولون فى الدنيا والآخرة ، وهم وحدهم الذين يقفون بين يدى الله تعالى يسألهم عز وجل عن إهمالهم أمر هذه الأمة ويسأل الله عز وجل المفكر والعالم والأمير والغنى ويقول لهم أنتم رأس هذه الأمة وقوتها فماذا فعلتم ؟ تركتم هذا المجموع يئن تحت نير العبودية والذلة وهذه الطوائف الإسلامية من أقصى الأرض إلى أقصاها جعلتها أمانة عندكم فكيف تشاغلتم عنها حتى أصبحوا أذلاء ، وأنتم شاركتموهم فى ذلهم وقاسمتوهم ضعفهم وانكسارهم . ألم أنزل عليكم فى كتابى « لايكلف الله نفسا إلا وسعها » فها أناذا لا أكلف الزارع المسكين ولا الحمال ولا البدال هذا الأمر ، أولئك عيالكم وإخوتكم الصغار وإنما أكلف أرباب العقل ورجال الحكمة وأهل المال أولئك هم المسئولون « وقفوهم إنهم مسئولون » ألم أنزل فى كتابى على نبيكم « لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون » ومعنى هذا أن الله يوبخ علماء أهل الكتاب من الأحبار والرهبان على عدم نهيهم الأمة عن قولها الكذب الذى يأثم به الإنسان وعن أكلها السحت أى الحرام ؛ ثم بالغ فى ذمهم فقال « لبئس ما كانوا يصنعون » مبتدئا بلام القسم ، وهذا مبالغة فى التوبيخ ، أفلا تعلمون أنى قصصت عليكم ذلك لتعتبروا ولتتذكروا. أيها المسلمون ألم يقل لكم نبى محمد صلى الله عليه وسلم « لاتزول قدما ابن آدم من عند ربه يوم القيامة حتى يسأل عن خمس عن شبابه فيم أفناه وعن عمره فيم أبلاه وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه وماذا عمل فيما علم ؟ » ألم يكن فى هذا الحديث دلالة على أن العالم والغنى شريكان فى المسئولية كلاهما مسئول ، العالم مسئول والغنى مسئول ، وفى حديث البخارى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « لاحسد إلا فى اثنتين رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الخير ورجل آتاه الله علما فهو يعمل به ويعلمه الناس » .

والمراد بالحسد الغبطة وهى تمنى مثل ماعند الغير ، فإلى الأغنياء وإلى العلماء والمتبصرين من الأمة أوجه قولى ، فلقد اتضح أنهم هم المسئولون يوم لاينفع مال ولا بنون ، فأقول :

لتكن منكم جماعة خاصة تكون بمنزلة الرأس ، ولتتخذ لها مكانا ؛ وليكن لها فروع تمتد إلى أقاصى المعمورة أشبه بالأعصاب فى الجسم ، ولتكن أعمال تلك الجمعية مقسمة إلى قسمين : القسم الأول يأمر بنشر الأخلاق والعبادات والعلوم والصناعات فى سائر أقطار الإسلام وبنشر الكتب والرسائل وجلى فى الجرائد ويوعز إلى أهل البلاد بإذاعة ذلك كله مع المحافظة التامة على العوائد الإسلامية ، وليجيبوا إلى الناس أن يعرفوا ماذرأ الله فى الأرض وما أبدع فى السماء وما أفاد من صناعة ومابث من حكمة حتى يضارعوا أوروبا ويفوقوها اقتصاديا وماديا .

والقسم الثانى يكون قصارى أمره ومنتهى رأيه أن يدرس أعمال أوروبا مع الأمم الإسلامية فى أقطار العالم وينشر ذلك فى جميع الأقطار الإسلامية ليعرفوا إخوانهم النابهين من الترك والفرس والعرب والصين والهند تلك الأمم القديمة الشرف العظيمة القدر ، ومتى انتشر ذلك فى الأقطار الإسلامية عرف المسلمون إذ ذاك للجاهل جهله وللفاضل فضله ، وإذ ذاك يقرءون « وجزاء سيئة سيئة مثلها » فيقاطعون الدولة المسيئة فى التجارة سواء أكانوا فى الصين أم فى أفريقيا أم فى تركيا . ذلك شأن هذه الطائفة ، ولعلكم تقولون من أين عرفت أن هذه الجمعية بها يتحد المسلمون وهل هذا دواء شاف ؟

أقول : عرفت من نفس القرآن ، فانظروا الآية المتقدمة ، الحاضة على الاجتماع ، وهى :

« واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون » هذه الآية أمرت المسلمين بالاجتماع وعدم التفرق ، ولكنها لم تبين كيف السبيل إلى ذلك ، ولذلك أردفها بآية أخرى لبيان ذلك فقال « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف » وهذا هو الفريق الأول الذى ينشر العلوم والمعارف والصناعات ويحض على العبادات الدينية ثم قال « وينهون عن المنكر » وهذا هو القسم الثانى ؛ فالنهى عن المنكر هنا يشمل الذنوب الخاصة بين المسلمين والكفر والمعاصى وللمظالم الواقعة عليهم فى مشارق الأرض ومغاربها ، فأولئك هم الذين يجمعون تلك المظالم ويوصلونها إلى الجمعية الكبرى ، وهى بسبب هذا القسم وبعمله تنشر أخبار تلك المنكرات فى أقطار الأرض حتى يفر المسلمون من هذه المظالم ويقاطعوا تجارة الأمة الظالمة ، وإذن يحق لهم وعد الله إذ قال « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا » هذه الآية ذكرناها مرة أخرى فى الكتاب وأعدناها هنا بعد أن بينا طريق الاتحاد بين المسلمين ، تلك الطريق التى هدانا الله لاستخراجها من الكتاب العزيز لا سبيل إلى إسعاد المسلمين بغيرها ولا سبيل لاراحتهم وتمكينهم فى الأرض واستخلافهم فيها وتبديل خوفهم أمنا إلا بهذه السبيل وحدها فليفكر المسلمون ماشاءوا ، فهم والله لاينجون من شر الفرنجة إلا بهذه السبيل وحدها ، ولنقرأ الآية على وجهها فنقول « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون . ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ماجاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم » . فانظروا يامعاشر المسلمين كيف قال « ولتكن » فاللام لام الأمر للوجوب ، فالمسلمون فى أنحاء المعمورة : أى الأغنياء والعلماء منهم آثمون مذنبون إن لم يقوموا بهذا الأمر ، وبعد أن بين القسمين وهم الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر قال « وأولئك هم المفلحون » إشارة إلى ماينالون فى الدنيا من الطمأنينة والسعادة والثناء الحسن عليهم من الأمة الإسلامية ، وفى الآخرة من علو الدرجات ومنتهى السعادات والقصور والحور والولدان فهذا قوله « وأولئك هم المفلحون » ولما كانت الآية مبينة كيف يكون اتحاد المسلمين ، وسهلت الطريق وأبانت حقيقتها الناصعة أردفها بالإنذار فقال

« ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ماجاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم » وهذا إنذار من الله للمسلمين إذا أغفلوا أمر هذه الجمعية المركزية ذات الفروع إذ قال احذروا أن تكونوا متفرقين كالأمم السابقة التى بينت لها السبيل ومهدت لها الطرق فتفرقوا طرائق «وكل حزب بما لديهم فرحون» لأنهم تفرقوا واختلفوا من بعد ماجاءهم الآيات البينات الواضحات .

ولقد أبنت لكم يامعشر المسلمين كيف تكونون متحدين وعلمتكم طرق الاتحاد وعدم التفرق فاذا خالفتم وغفلتم بعد هذا البيان كنتم كأولئك الذين عرفوا الطرق فتركوها فتفرقوا فكان لهم من ذلك عذاب عظيم فى الدنيا بالذلة وفى الآخرة بجهنم أما من ساروا على طريق الاتحاد فأولئك هم الفائزون .

﴿ فصل : فى أن الكعبة المشرفة أيام الحج دار ندوة ﴾

وعلى هاتين الطائفتين المصلحتين فى الإسلام المرسلتين من الجمعية الكبرى التى أشار الله لها فى كتابه العزيز أن يجتمعوا كل سنة عند البيت الحرام بمكة شرفها الله فإن للحج أكبر نصيب فى هداية المسلمين النازحين إليه من أطراف البلاد ؛ ولقد علم الله قبل أن يخلق الإسلام والمسلمين حاجتهم إلى بيت يحجونه ويكون مثابة لهم : أى مرجعا وأمنا فقال «وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى» وقال «جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس والشهر الحرام والهدى والقلائد ذلك لتعلموا أن الله يعلم مافى السموات وما فى الأرض وأن الله بكل شىء عليم» فانظروا وتعجبوا كيف ختم الآية بقوله « ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض » وقد زاد على ذلك فقال : « وأن الله بكل شىء عليم » .

فتأملوا كيف جعل أن علمنا بأن الكعبة قيام للناس يورثنا علم أنه يعلم مافى السموات ومافى الأرض بل يعلم كل شىء ، ذلك لأن الأمر اتضح فى هذه الأيام أن المسلمين ينتفعون سياسيا برجوعهم إلى هذا المكان وجعله دار ندوة كل عام يتشاورون فيه ويتباحثون وهم فى مأمن فى ذلك الوادى السحيق فضلا عن فريضة الحج . إن ذلك أمر لم يكن فى علم أحد من الناس بعد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

ومن ذا الذى يعلم الغيب إذ ذاك فيقول إن الكعبة ستكون مرجعا للمسلمين يعرف بعضهم بعضا ويقضون فى الأمور السياسية النافعة ويتعارفون ويتحدون ويكون من وراء ذلك سؤددهم وعزهم ومجدهم وخروجهم من تحت نير ذل العبودية ، لاجرم أن الذى عرف ذلك هو الله الذى فرض الحج ورسم البيت وعرف مستقبل المسلمين ومايئول إليه أمرهم فهو يعلم ما فى السموات وما فى الأرض الخ إلا أن لكل شىء سببا فلا يكون الحب بلا زرع ولا الثمر بلا شجر ولا النيل بلا مطر ولا الرى بدون سقى ، هكذا لن يكون اتحاد المسلمين إلا بالطرق التى رسمناها والبينات التى أوضحناها ، والله هو الولى الحميد. وبهذا تم الكلام على القسمين : قسم السموات والأرض ، وقسم إنزال القرآن باللغة العربية وإنذار أم القرى ومن حولها . وأختم هذا المقال بخطاب أوجهه لجميع المسلمين فأقول :

أيها المسلمون : قد شرحت لكم نظام العوالم إجمالا ، ولاجرم أن أولها عالم المجرة الذى يدور مرة واحدة فى (٣٠٠) مليون سنة ، وهناك دوران الكواكب السيارة فى أوقاتها المعينة والأرض ثم النبات وأوراقه وثمراته واتصال هذا كله بأجسامنا ثم نفوسنا ، ثم بعد ذلك شرحت اتصال الأمم الإسلامية على الأرض فى مكة وما حولها ، وهذه أمة العرب جمعها الاسلام ، وجمعتها اللغة العربية ، وجمعها تقارب الأوطان ، فهى إذا لم تبادر بالاجتماع والاتحاد فهى لامحالة معاقبة على تفريطها ، وبينها وبين الفرس والترك علاقات الدين والجوار ، فليكن اتحاد بين هذه الأمم وعلاقات متينة وهكذا سيكون، إذن فليعمم التعليم الآن فى بلاد العرب

وبلاد

وبلاد الإسلام ؛ ثم لتدرس العوالم كلها ، وتدرس الكرة الأرضية من حيث الجغرافية ، وليدرس التاريخ دراسة تامة ، وليخصص لكل علم طائفة ، ولتقرءوا علوم كل الأمم ، ثم ليكن منكم حكماء وعلماء بكل علم وبكل فرع . هناك هناك أيها المسلمون تكونون شهداء على الناس كما أن الرسول شهيد عليكم ، وهناك فقط تتبوءون مركزكم فى الأرض ، هناك أنتم تعلمون أمم الشرق وأمم الغرب كيف يكون السلام ، وكيف تكون السعادة المستقبلة ، ولأختم هذا المقال بإيضاح أجر الصالحين وأجره ﷺ فوق ماتقدم فى التفسير اللفظى ؛ فأقول مستعينا بالله :

لا مخلصا فى هذه الأرض ، عارفا بصانع العالم ، دارسا لنظام هذه الدنيا إلا وله قلب متقد حرارة وصدقا ، وإخلاصا وبهجة ونورا وحبا لرقي هذه الإنسانية المسكينة المضطربة المعذبة .

هذه حال الدارسين العارفين فى جميع أمم الأرض ، فإذا كانت هذه حال الدارسين المفكرين فكيف تكون حال الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام . إن للأنبياء سعادة في نفوسهم يحسون بها ، ولقد ضرب لنا الله مثلهم المحسوس بالأم ترضع ولدها والأب الشفيق ، فالأب والأم يربيان ولدهما لايبغيان جزاء ولا شكورا . بل هما يجعلان حياتهما وقفا على تنمية هذا الطفل . فإذا كانت هذه حال العامة فى الأمم بالنسبة لأبنائهم فكيف بالأنبياء بالنسبة لأممهم . إن للأنبياء لحبا علويا لربهم ، وهذا الحب يقودهم إلى كل قول وفعل جميلين ، وصدورهم منشرحة لما يصنعون . ثم إن الصالحين من أممهم يقول الله لهم « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا » فهذا الود الذى يلقى فى قلوب الناس لهم ود الله ولهم نتيجة مرتبة على الأعمال الصالحة ، إن الأجر لايسأله إلا الرجل المتكلف ، أما الأنبياء فليسوا متكلفين « قل ماأسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين . إن هو إلا ذكر للعالمين ؛ ولتعلمن نبأه بعد حين » .

الذى لاتكلف عنده يكون عمله قريبا من السليقة ، فنفس العمل محبوب ومن نتائجه المودة ، والأنبياء لايسألون أجرا على التبليغ والله برأ رسوله من ذلك ، وغاية مايحبه الأنبياء ويكرمون به أن يكون أتباعهم مقربين إلى ربهم (وبعبارة أخرى) أن الذى يسرهم هو ارتقاء أممهم فى الصلاح والتقوى ، فلو كان هناك أجر لم يزد على ذلك ؛ ومعلوم أن هذا ليس أجرا وإنما هو نجاح رسالتهم وتمام أمرهم ورغبتهم فى إسعاد الناس وهذا قوله تعالى « قل ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا » إذا قرة عينه صلى الله عليه وسلم أن يرى أتباعه يتقربون إلى الله تعالى ويطلبون الزلفى لديه بالإيمان والطاعة ، فصور ذلك بصورة الأجر من حيث إنه مقصود فعله وهو ليس بأجر وإنما هو حب للاسعاد العام للناس ، وهذا المعنى هو الذى جاء فى الآية فى هذه السورة على قول من أقوال العلماء غير الجمهور « قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى » أى إلا أن تودوا الله ورسوله فى التقرب له تعالى بالطاعات والأعمال الصالحات وهذا المعنى لاينافى المعنى المشهور . إن المعنى المشهور داخل فى هذا بطريق التبع لأن المودة للأشراف مقربة لله كجميع الأعمال الصالحات ، وهذا المعنى العام هو الذى يطابق آية الفرقان المتقدمة « إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا » .

تحقيق لمقام الود

وتبيان عام لمودة الأنبياء والصلحين

اعلم أنه لاسعادة فى دنيا ولا فى أخرى أجل من سعادة الحب والود ، إن الله هو الغفور الودود . فإذا وجدنا بعض الكتاب فى عصرنا فى صحيفة [الضياء] يوم ١٩ يناير سنة ١٩٣١ م ،

يصف الحب الخاص والود المحدود بأوصاف منطبقة على ما نشاهده فى أحوال الناس من التضحية والإيثار والفرح بكل ما يبتهج به المحبوب فما بالك بالحب العام الذى يسع العوالم كلها ، فانظر كيف ضرب مثلا :

(١) لسعادة المحب بما يبدو من محبوبه وقد شبه ذلك بانعكاس نور الشمس على القمر .

(٢) وبالكاتب الفكاهى الذى يتلمس سعادته من السامعين لكتابته .

(٣) وبالمرء يجد لحديثه سامعا جديدا .

(٤) وبالرجل يجد امرأته تحبه .

(٥) وبالرجل أتى بالمشمش لأطفاله الفقراء فسعادته بفرحهم .

(٦) والعاشق مع من عشق فى القفر وقد أكل المحبوب العنب والمحب فرح به ، وهاك نص المقال المذكور :

خواطر فى الحياة

انحصار المرء فى ذاته وتقييد شعوره فكره بنفسه من دواعى الألم والشقاء ، وأما سعادته وغبطته فهى فى الخروج بمعونة الخيال عن دائرة نفسه وحدودها . والسعادة وإن كان ينبوعها كائنا فى نفوسنا إلا أننا لانعرفها ولا نتذوقها إلا إذا انعكست علينا من شىء خارج عن أنفسنا كنور الشمس المنعكس عن صفحة القمر ، وهذا العنصر الأجنبى الذى يمتزج بالسعادة يكسبها فى شعورنا حلاوة وغرابة مثلما تفعل عناصر القمر بنور الشمس . انظر إلى الكاتب الفكاهى مؤلف الكوميديا ، إنه يجهز ملحه وطرائفه فى الخلوة ، فهل يتذوق حلاوتها إذ ذاك ؟ كلا ، إنما يتذوق لذاتها ، ويجنى ثمراتها من بريق السرور فى أعين الجماهير الشاهدة تمثيلها ومن هتاف الطرب فى أصواتهم المتصاعدة . ألا ترى إلى الحديث المملول من طول الإعادة كيف يخلع ملالته ويكتسى رونقا ورواء إذا صادف سامعا جديدا ؟ وأنت قد تكون مثريا من المحامد والمناقب حامل الجم من المحاسن والمزايا ولكنك لا تشعر بهذه تمام الشعور ولا تغتبط بها حق الاغتباط ولا ترقص طربا لها وجذلا حتى ترى لألاءها منعكسا عليك من وجه غادة ألوف ، وتبصر جمالها يتألق فى ألحاظها الضاحكة . فى هذا الظرف ولا فى غيره تحس السعادة حقا وتعرف حلاوة مذاقها ، والرجل الفقير يعود إلى داره بقرطاس المشمش أو البرتقال . فإذا دخل على أولاده فأيقظهم فاستووا جالسين على فرشهم الرثة المهلهلة وتناولوا منه الفاكهة يلتهمونها التهاما والعصير يتحلب من أفواههم المنهومة الظمئة ، والفرح يتوقد فى عيونهم المحرومة المتشوقة عاد لشدة الفرح والجذل كأنه قد ملك حدائق يافا وبساتين دمشق وحماة ، فهل يجدن مثل هذه اللذة فى أكلة برتقالة ؟ وأنت إذا كنت مع حبيبة لك فى قفار وفياف وقد آذاك السغب والصدى ثم رزقت عنقودا من العنب فأى الخطتين أحب إليك أن تقسمه على السواء بينكما أو تؤثرها به (إلا عنبة واحدة تطفىء بها نار ظمئك) وتظل ترنو إليها وهى تلتقطه حبة حبة كما تفعل العصفورة بالقرطم ، وفى هذا المنظر الجميل والمشهد البديع مايشبعك ويرويك ويملأ بطنك ويكظ أضلاعك وأى طعام (عمرك الله) أشبع من الجمال وأروى ، وأى شراب أمتع من الحب وأشهى ؟ والحق أنه لاسعادة فى الدنيا إلا ما كان مزاجها الحب ، وما الحب إلا استكشافنا أنفسنا فى خلاننا وأصفيائنا ، وسرورنا بهذا الاستكشاف ، والإنسان منفردا عن الجماعة لايستطيع أن يدرك السعادة كالذى يعيش بعيدا عن المرآة لايستطيع أن يعرف صورة وجهه : قيمة المرء مايحسنه وآثاره عنوان ما يكن فيه من الفضل ، وهى السراج الذى به نستطيع أن نسبر غور شخصيته ونقيس أعماقها

وأبعادها

وأبعادها ولا جدال فى أن كل امرىء يخرج إلى الدنيا منطويا على قدر معلوم من القوة أو الكفاية لا يزال متناسبا مع مقدار إنتاجه . وكذلك نرى أن كل كلمة أو فعلة تصدر عن امرىء تكون مطبوعة بطابع شخصيته، بل تكون حلقة فى سلسلة حياته ، ولقد كذب من حسب الإنسان متناقضا متباينا إنما هو متجانس متناسق متشابه الأقوال متماثل الأفعال . وماصدق من قال عن رجال الأدب إنهم عقلاء أذكياء على الورق . أما فى ميدان الحياة فحمقى أغبياء ، يغرقون فى شبر من الماء ، هذا كذب وبهتان . ولا يعقل أن نرى الرجل الواحد فيلسوفا على مكتبه وحمارا فى الشارع . ولا أن يكون فردا بعينه أعرج فى الطرقات ثم أبرع رقاص فى الحفلات الساهرة . أجل إنه على قدر قوة المرء وبحسب حذقه ومهارته فى استخدام هذه القوة تكون قيمة عمله . كما أنه على قدر قوة الدفع يكون مرمى قذيفة المدفع وعلى قدر قوة البأس وامتداد الأنفاس تكون سرعة العداء والمشاء، وإذا رأيت شعرا خاليا من حسن النسق والانسجام فاعلم أن ذلك لاختلال النسق وقلة الانسجام فى روح الشاعر . وكذلك إذا عثرت على الكلمة أو الفعلة لرجل مادلتك عليه وساقتك إليه كما يرجع بك شعاع الشمس إلى الشمس .

معظم الناس لا شخصية لهم ، أولئك لا وزن لهم ولا قيمة ، وأهميتهم فى كثرة عددهم ، ومن أجلهم يشتغل العدادون وكتاب الإحصاء ، ومنهم تتألف الجماعات والجماهير والأغلبيات الساحقات ، وهم الذين يجمعون الأموال ويؤدون العادى المعروف من أعمال هذه الدنيا ولن تكون لهم قيمة إلا تحت إشراف القادة الزعماء فهم كالعجينة يشكلها الصانع الحاذق كما يشاء ، ويشيد بهم البناء كما يشيد باللبنات ، وهم فى الجملة يكونون الرأى العام وإن كنا نعرف أن الرأى العام فى كل عصر وجيل إنما هو زبدة أفكار ستة أو سبعة من الرجال يتوسدون صفائح قبورهم فى طمأنينة وسلام ؛ والجماهير تحتفظ بأفكار أولئك الموتى كما يحتفظ هواء الجو بحرارة الشمس ونورها بعد الغروب .

ولا مشاحة فى أن الشخصية البارزة أو التفرد أو قوة الخلق أو الرجولة الشاذة الثابتة أو ماشئت أن تسمى تلك الميزة التى اصطلحنا على تلقيبها (العبقرية) هى أفضل هبات الطبيعة للانسان وأجزل آلائها وليس مقدم الرجل القوى إلى هذه الدنيا إلا حسن البشارة بسعادة المستقبل ، فهو نبوءة خير ، وبشرى فلاح مثله فى ذلك كالريح تهب الآن هاهنا ولكن للموجة التى هى من فعلها وأثر هبوبها لن تلبث بعد ركودها أن تميض وتطغى على الساحل القصى الواقع على مسافة ألف ميل .

إن الرجل الشاذ ليعد نعمة عظيمة فى مثل دنيانا هذه السخيفة السمجة الاعتيادية ، وكفى أرباب الشذوذ والانحراف وأهل المجون والهزل وذوى الخلاعة والهتك فخارا أنهم يذهبون من وحشة الحياة الاجتماعية وينفون من سآمتها وملالها بتنويعهم من تماثل هيئتها وصورتها وبتكسيرهم من استواء أديمها الجامد الميت ، وجدير بالإنسان أن يصبح معروفا بين الملأ بشىء خلاف اسمه ولقبه .

وهذه النبرة الشخصية والطابع الذاتى أو (الماركة) الذاتية تكون فى عالم التأليف جليلة القيمة ، من حيث إن عظمة المؤلف لا تتوقف على ما يشركه فيه غيره بل على ما ينفرد فيه بنفسه ويستأثر به وحده ، والرجل العظيم هو المبتكر الذى يصنع الشىء لأول مرة ، لقد كان استكشاف القارة الأمريكية من أصعب الشاق ، فلما استكشفت أصبحت الرحلة إليها من أسهل الأمور ، وتلك الميزة الخاصة المنفردة التى تمتاز بها القطعة الفنية من شعر أو نثر أو نقش أو غناء ، هى الأساس الذى يقوم فوقه الحكم النهائى عليها وتسجل كلمة التاريخ ، وعلى أية حال فالعمل الفنى المشتمل على هذه الميزة الخاصة الفردية يكون حائزا لعناصر الخلود .

انظر إلى الطبيعة تنبث الحياة من جميع أنحائها وأرجائها ، وتجيش الحياة فى جميع جزئياتها وذراتها وكأنها

بلورة صافية شفافة تتجلى من ورائها الروح الأبديه السرمدية فى مليون شكل وهيئه ويلوح من دونها السر المقدس الإلهى ، الظاهر الخفى فى آلاف الآلاف من الصبغ والألوان ، والنغم والألحان ، والصور والأشباح والأجراس والنبرات ، والروائح والنفحات وكل شىء فى الطبيعة تنبجس منه الحياة وتتفجر حتى الصخر الأصم إن هو فى كنهه وحقيقته إلا حياة تجسدت وروح تجسدت ، كتلة من الروح الكلى وثوب تنسجه الحضرة القدسية الإلهية . فى تلك اللحظة انعدمت المادة فى نظرى وتلاشت . والواقع أنه لا مادة فى الكون للعين الشاعرية للملائكية ، النافذة الثاقبة الجلية .

وكما أن الريح الجوالة على البحر تستل من كل موجة جزءا خفيا فتحمل منه إلى أهل الساحل روح المحيط الأثيرية فكذلك النسيم الخطار على العشب والكلأ ، والشجر والنجم والدوح ، والنهر والجدول والغدير يسرق من الزمان ، صيفا كان أم خريفا ، جزئياته وذراته إذ يستلب من الأفنان والأغصان ومن الورق والأكمام والأزهار ، ومن سائر النبت والأغراس ذرات ضوء الشمس فيحملها إلينا ويمزجها مع الأنفاس بنفوسنا . وكذلك يروح تيار الهواء بعد انغماسه فى كؤوس النوار والأزهار تحت موسيقى النحل والأطيار ، تدب فيه الروح وتجيش الحياة ، فما هو بالجماد ، ولكنه كائن حى يترنم بذكر الله ويسبح بحمد المانح الوهاب .

فى هذا الوادى المقدس أمام ذلك المشهد الرائع ، بين أكناف الطبيعة البديعة وقفت أحتسى كأس الخلود وقد تفتح صدرى وانفسح جنانى لأبعد أغوار الحريف وأسحق أعماقه ، حتى وسع قلبى ما امتد أمامى من ذلك المنظر الفتان إلى الأفق السديد القصى . إلى أدنى حشرة فى الثرى ، إلى أسمى طائر فى الجو .

وكذلك بهرنى مشهد الطبيعة الرائع ، وسحرنى وملك على مشاعرى فاندفعت على ضفاف النهر تجذبنى وشائع الأغصان ولفائف الأفنان وتحدونى أعجميات الألحان ، على عذبات الأيك والبان ، وذوات الأطواق على منابر الأوراق ، وأحس حميا الحياة تتدفق من ضياء الشمس ومن نسمات الشمال فى كيانى ووجدانى وكأن العشب والكلأ المنبسط أمامى بلانهاية . والدوح الباسق المنتشر القوى ومطارب البلابل والقمارى . كأن هذه كلها تنصب فى روحى ، وتمتزج بأجزاء نفسى . وتلك الأزهار التى تلقت لبان الصباح على الآلاف المؤلفة من وجنانها ، رأيتنى أشاطرها حياتها وسرورها وفرحها .

وأبصرت الجمال ينبثق من كل ورقة وزهرة ، والحسن ينسكب من كل موجة وقطرة ، وعجائب صنع الله تتجلى فى كل هباءة وذرة . ووجه الأرض صحيفة كتبت عليها سورة الجلال ، ولوحة نقشت بها صورة الفتنة والجمال .

واتعلمن « علمت الخير » أن الساعات التى تظل فيها الروح مستغرقة فى الجمال لهى وحدها الساعات التى نعيشها والجديرة أن تحسب من العمر ، وكل برهة نقضيها بين الجميل والجليل والرائع والبديع إنما هى فرصة تختلس من الدهر ، وغنيمة تنتهب من مخالب الزمن . هذه الساعات التى تستغرق الروح وتفعمها جمالا هى الخليقة حقا بأن يقال إنها لم تذهب ضياعا ولم تطح جبارا ، هذه هى الحياة المحضة الصريحة وكل ماعداها خدع وأضاليل وأكاذيب وأباطيل .

بين أرجاء هذا المشهد الرائع الذى كله روح تجيش وحياة تنفرز . محال أن يذكر الإنسان الموت وتمر بباله فكرة الفناء ، وكيف يتأتى له الجمع بين الضدين والنقيضين ، صورة الحياة فى أكمل معانيها وأنصع مجاليها وصورة الموت . لقد جعلت أقول لنفسى وأنا أنظر إلى الطبيعة كأنها عروس قد تبرجت لزفاف وتزينت وأرنو إلى الوادى العشيب يهتز نعمة وريا .

لقد جعلت أقول فى نفسى وأنا أتأمل ذلك المنظر الحى المتألق الخفاق ، ولكأن الموت لم يهتد قط إلى هذه البقعة البهجة ولم يدر السبيل إليها . وأكبر ظنى أن عالمنا الأرضى قد كان هكذا قبل هبوط آدم وحواء على أديم الثرى بذنوبهما وخطاياهما وذريتهما الباغية الطاغية المجرمة الأثيمة بشرورها وآفاتها ومصائبها ونكباتها وحاشيتها وبطانتها من الأبالسة والشياطين على رأسهم إبليس ، وزبانيتها من العلل والأمراض والأوبئة على رأسها الجلاد الأكبر عزرائيل .

أجل ، لقد كانت هذه البقعة البديعة قبل ظهور ألأم صنوف الحيوان أعنى الإنسان . وتالله إن الناظر إلى هذا الوادى الأنيق لايكاد يتصور أن رسول المنية قد جاس قط خلاله ، وخاض ظلاله ، ولا أن الأرض الطويلة العريضة تحتوى قبرا واحدا أو تنطوى على رمة ؛ ولا أن الكون بأسره قد تصعدت قط فيه زفرة أوتحيرت عبرة ؛ أو علت أنة ، أو دوت رنة ، أوقام فيه حداد ، ولبس سواد أوشقت جيوب وأبراد .

الحب وحده هو الذى يشفى غلة النفس الصادية ويشبع نهمة الروح الجائعة . الحب وحده هو الدواء وهو السعادة وهو البغية والغاية والمراد ، وليس فى سواه من ملذات الحياة مايسد مسده أو يقوم مقامه وماذا ترى فى مسرات العيش يغنى غناءه .

اللهو ، اللهو لايشبع روح ذى الروح السامية ولايطرب نفس ذى النفس الشريفة العفة العالية ولاترضيه أذهان ذوى الأذهان الثاقبة النيرة ، إذن فماذا يقوم مقام الحب ، السوامر والحفلات والأندية . هذا كتاب سرعان ماتقرؤه وتحفظه حتى تمله وتسأمه : العلم أو الفن . هذا أو ذاك لايمكنه أن يملأ من عواطفنا إلا جزءا معينا .

القراءة أو الثقافة ، هذه لاترد لهفة ولا تبرد غليلا ، ولكن هنالك شيئا واحدا هو الكفيل أن يخلع على الحياة ، ذلك النور الذى لم يشاهد قط فى أرض ولا سماء ولم ير قط فوق بر ولا بحر وذلك هو الحب .

الحب أبعد غاية من أن يقاس وأعمق من أن يسبر وأكثر من أن يحصى ويحصر ، وأعمق الحب وأشده ماتغاضى عن معايب المحبوب ومعايره مهما عظمت .

والصداقة قد تحتاج إلى أن تدعم على أساس من الاحترام المتبادل ، ولكن الحب لايحتاج إلى أى أساس أو سد أو دعامة ، الحب يكتفى بنفسه وحدها ويعيش على نفسه دون سواها .

وشرارة الحب تقدح من نظرة أو لمسة أو همسة . أما الاحترام فليس فى طاقته أن يوجد الحب ، كما أن قلة الاحترام لاتستطيع أن تمحو الحب . ولا جرم أن العاشق ليظل وهذه الملايين التى تملأ الأرض أموات فى عينه ولم يبق حيا على ظهر الأرض إلا عينان مشرقتان تنظران فى روحه وتحرقانها فتتركانها رمادا ، أتفهم ماأقول ؟ . كلا ؟ إذن أنت لاتفهم الحب ، أتقول الاحترام أساس للحب ؟

تزعم أيها القارىء أنك لن تحب المرأة إلا إذا كان لها من الصفات مايستدعى احترامك ؟ كأن الحب قرش فى جيبك لن تخرجه إلا لمن أعجبك من الشحاذين وراقتك طباعه ؟ إن كان هذا رأيك فأنت أجهل الناس بالحب وأولى لك إن فتح موضوعه أن تسكت أوتنسحب .

والواقع أن العاشق لايحيا إلابروح معشوقته ، ولا يجد فى العالم إلا شخصية واحدة ، هى وحدها المحبوبة وهى الجميلة وهي الضرورية وهي البغية والغرض والأمنية ، شخصية واحدة من بين الملايين التى تملأ الدنيا وهذه الشخصية مهما هفت وأخطأت ومهما جنت وأجرمت ومهما أسفت وسفلت ، ومهما لقيت من تحقير الناس وإصغارهم وسخريتهم وازدرائهم لتبقين فى عين عاشقها كما هى لايؤثر فيها ذاك شعرة ولا ينقصها مثقال

ذرة ، هذا لايستطيع أن يغير الحب . بل كلما زيد الأذى على تلك الشخصية وضوعف البلاء تبين لعاشقها أنها أحوج ماتكون إلى الحب، ومن ثم مانراه كثيرا من العشاق من مكافأة خيانة حبائبهم بالأمانة وغدرهن بالوفاء ، ما أعجب الحب وما أعجب حاله ؟ نرى مليون وجه، ونسمع مليون صوت ونلتقي مليون أنثى حاليات الثغور باللآلىء والعيون باللألاء ، ولكنهن لايمسسن أرواحنا ، ولا يحركن شعورنا ، ثم نصادف من بينهن واحدة فإذا هي تحمل لنا الحياة أو الممات فى يدها ، وتلعب بهما كما يلعب الطفل بلعبه ، ياللعجب ! بماذا تمتاز هذه الواحدة عن تلك الملايين ، بلاشيء ؟ وماهي أفضل ولا أجمل ولا أنبل ولا أكمل ممن شاهدنا قبلها ، ومع ذلك نجدنا نرى الدنيا من غيرها صحراء مجدبة انتهى . وفى هـذا المقال الجميل بعض المعانى السقيمة الساقطة .

ها أناذا أيها الذكى كتبت المقالة جميعها وفيها وصف الحب ، وهذا الحب هو الحب الأدنى الذى لايعرف الشبان إلا إياه وقيمته ضئيلة ، ولقد ذكرت فى هذا التفسير كثيرا أن الحب ثلاثة أقسام : أدنى، وأوسط، وأعلى ، فما ذكر هنا هو الأدنى لأنه معروف ، والأوسط عشق العلوم ، والأعلى حب الله تعالى وعشقه ، وهذا لايتصوره كثير من الناس ؛ وقليل جدا من النوع الإنسانى من يفهم حب الله تعالى الذى يشير له أكثر القرآن ، وترى الحمد فى الفاتحة يشير له إذ الحمد والمدح لايكونان إلا بعد نعمة عرفها الحامد ، وهذه المعرفة أولا تحدث فى قلب الحامد حبا للنعم فينطلق لسانه بالثناء، وأعماله للخدمة ، والخدمة هنا بالجوارح للأمم الأرضية الذين هم تحت رعاية المحبوب الممدوح، ولاجرم أن الله عز وجل منبع كل جمال وعلم ورحمة وشجاعة، فحصر الكاتب الحب فى المرأة راجع إلى الطبقة المعروفة والحكماء يرتقون طبقات ويفرحون فرحا لاحد له بمحبوبهم ، ويذكرهم بذلك المحبوب كل شمس وقمر ونجم ونهر وبحر وشجر وحجر وحبيب متبسم، وتصبح حياة هذه الطائفة سعادة دائمة ولا يحس بسعادتهم أحد إلا هم أنفسهم ولا قدرة لهم على التعبير عنها .

هذا هو الود الذى ورد به القرآن أنه للصالحين ، فهؤلاء هذه حالهم وهذا هو نموذج الود المذكور فى قوله تعالى فى آيتنا هنا « قل لاأسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى » أى إذا كان لى أجر فهل هو إلا أن تودوا الله ورسوله بالتقرب بالطاعات .

فهذا هو التفسير الذى تؤيده آية الفرقان كما تقدم ، هذا هو الذى جاش بخاطرى ووافق تفسير بعض علماء الإسلام ، وفسر بمنطوق آية الفرقان . وذلك ليلة الخميس ثالث يوم من رمضان الأغر سنة ١٣٤٩هـ بعد نصف الليل :

يامعاشر المسلمين : كفى غفلا وجهلا ، لم ينزل هذا الدين إلا لإنعاش الأمم وإيقاظها وإحداث حركة فكرية جدية أما إذا ظن المترفون المنعمون وهم على فرشهم أن الأنبياء يبتغون من النبوة أن يقال فى أبنائهم ماقاله النصارى فى المسيح، فيقول الباطنية فى كرام آل البيت إنهم آلهة ، كما تقدم [فى سورة الكهف] عند آية « وما كنت متخذ المضلين عضدا » وعند آية إبراهيم فى آخر سورة إبراهيم وهكذا، فذلك جهالة تؤدى إلى بطالة . إكرام آل البيت مطلوب مرغوب ، ولكن مما لاسبيل إلى قبوله أن يتخذ ذلك ذريعة إلى أن تناط أمور المسلمين بمن لاوسيلة عنده إلا النسب . كلا ثم كلا . ديننا يراعى الكفاءة للأعمال ، إن نبينا صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء فلا يوسد عملا إلا إلى أهله .

أيها المسلمون : أيها الأذكياء . لاسعادة إلا بالحب ، والحب الدائم حب الحى الذى لايموت ، وهذا دونه خرط القتاد لأكثر نوع الإنسان . ولن يصل إليه إلا الأقلون . انتهى ليلة الخميس الموافق ٣ رمضان سنة ١٣٤٩هـ .

جمال

جمال الحكمة والبهجة

فى هذا المقال

يا ألله أنت أريتنا جمال وضعك ، وحسن صنعك ، وآنستنا بنور وجهك ، وأشرقت علينا بهجات نورك وأنوار شموسك وأقمارك . رأينا يا ربنا علاقات تامة بين أرضك وشمسك ، مدا وجزرا ، وكذلك مع قمرك . ورأينا الحركات منتظمات . ورأينا أجسامنا وتربيتنا منوطين بالحرارة والضوء الساريين فى النبات الوصل لنا الصحة والقوة من عالمك الأعلى . وهانحن أولاء رأينا علاقتنا بالأمم حولنا كعلاقتنا بالشمس والقمر وكل معدن ونبات وحيوان .

نظام خلق الإنسان

هانحن أولاء ياربنا فهمنا وضعك ، وشرح صدورنا فعلك ، وقد بهرنا مارأينا فى خلق أجسامنا . ياربنا ها نحن أولاء نرى أجسامنا مصنوعة بشكل يخالف كل حيوان فى بر أو بحر أوهواء . إن هذا الجسم كتاب مفتوح هو رق منشور ، هو حكمة . هو علم . هو رمز . ومتى ملكنا هذا الرمز عشنا فى الأرض سعداء . ربنا رأيناك جعلت الحيوانات مقسمة أقساما : فمنها الفقرية ، ومنها الحلقية ، ومنها المفصلية ، ومنها الرخوة ، ومنها النباتية .

(١) إن الحيوانات النباتية هى التى نراها تعيش فى البحار كأنها نبات ، إذن فيها حياة كحياتنا ولكنها لم تعط قوة كقوتنا وعقولا كعقولنا (انظر صورتها فى آخر سورة الحج ، فبعضها ذات خمسة أشعة منتظمة جميلة ، وهى عند آية الذباب) .

(٢) والحيوانات الرخوة مثل المحار والصدف الذى فيه اللؤلؤ ، وأم الحلول (وقد شرح بعضها فى سورة مريم فى أولها شرحا وافيا فانظره) فهذه مع ماقبلها لما قابلنا صنعك فيها بصنعك فى أجسامنا دهشنا أشد الدهش من إتقان وإحكام فينا وارتقاء مرتفع عن تلك المخلوقات اللاصقات بالأرض المحبوسات فى البحار . ولم تعط يدين بهما تصنع ماتشاء كما نصنع نحن من جميل الأعمال .

(٣) ولم تكن الحيوانات المفصلية (مثل العنكبوت والعقرب والسرطان . ونحو أم أربعة وأربعين رجلا ، وذوات مائة الأرجل ، وأمهات ذوات ألف رجل المتقدم ذكرها فى سورة النور) متمتعات بقوة الإنسان وعقله ويديه القويتين المفصلتين تفصيلا بديعا تصنع أعمالا لاقبل للعنكبوت بها ولا السرطان ، فأولهما أعطى حرفة النسيج وهو يعيش فى البر ، والثانى يعيش فى البحر مقيدا بقيود خاصة . فأنى له بقوة الإنسان .

(٤) وهل الحيوانات الحلقية (ومنها دود السباخ ، ودود العلق ، وحيوان البلهارسيا ، والانكلستوما والدود الكلوى) إلا عاجزات عجز ماقبلها من المفصلية . فكل منها لاصقات بالأرض لاحول ولا قوة لها إلا غرائز بها تعيش ثم تخفى من الوجود .

(٥) وليست جميع الحيوانات الفقرية (التى شاركت الإنسان فى فقراته ولها هيكل عظيمة وبعضها له دم أحمر كدمه) إلا أقل من الإنسان تفصيلا فى أشكالها ، ونظاما فى أفعالها .

وهل السمك فى البحار قامت شوكاته التى يعوم بها مقام يدى الإنسان فى شىء اللهم إلا أنها تعينه على السباحة وإن شارك السمك الإنسان فى الفقرات والهيكل العظمى ، وهل السلاحف بدرقاتها والورل والثعابين

بسموها بجانب الإنسان إلا عواطل من القوى الشريفة والأعمال المنيفة ، ولعمرك مايغنى جناح (الدجاج والطاووس والحجل والبط وأبى قردان والنعامة والبلبل والببغاء والنسر والحدأة والعقاب) فتيلا ولا قطميرا ، وهل لذلك الجناح إلا أنه يحمل الطير فى جو السماء ، وهل للجناح إلا عمل واحد هو حمل الطائر ليصل إلى أعماله ، وفرق عظيم بين الأجنحة وأيدى الإنسان القائمات بأعمال غير محصورات ، وما القيطس الماشى فى البحار الذى يستخرج منه الإنسان الزيت ، ولا الدلفين الذى ينفع الإنسان بحفظه من الغرق ولا الكشلو الذى يستخرج منه الناس العنبر السنجابى ، ولا الحيوانات المجترة (المشروحة فى سورة النحل بصور لبعضها) ولا ذوات الظلف الواحد (كالفرس ، ولا ذوات الأرجل المشقوقة مثل الخنزير وجاموس البحر ، ولا ذوات الخرطوم كالفيل ، ولا الحيوانات الثديية آكلة الحشرات مثل القنفذ والفأر القيطى ، ولا الحيوانات آكلات اللحوم كالأسود والنمور ، ولا القردة) لها ما للإنسان من قوة اليدين والعقل العظيم .

يا ربنا ها نحن أولاء نظرنا فوجدنا اليدين اللتين وهبتهما لنا أعطتانا مالم يعطه الأسد فى عرينه ولا القيطس فى مائه ، ولا النسر فى جوه ، ولا الفيل بقوته ، ولا الفرس بسرعته .

نظرنا هذه المخلوقات فألفيناها مقيدات مقلدات لما غرست فيها من الغريزة ، وأحطتها بالطبيعة ، كلهن مقيدات ناقصات . نهن أقل من هذا الإنسان قوة معنوية وقوة مادية .

ربناه : نحن بنظرنا فى هذا الوجود ألفيناك وضعتنا فى مركز هام عجيب . فإن نظرنا الشموس والأقمار وعالم النبات والحيوان والبحار والهواء وجدناها كلها كأنها جسم واحد ونحن فى داخله ولنا به اتصال عجيب ، بل يكاد كل جسم من أجسامنا يكون أشبه بعضو فى الجسم العام فى السموات والأرض . وإن نظرنا إلى ما فيه الحياة مثلنا من كل حيوان وجدناك قيدتهن جميعا . فقيدت ذا الظلف وذا الجناح وصاحب نصف الجناح ، وقيدت الزاحف والماشى وكل ما فى هواء أو على الأرض أو فى لجج البحار ، فكلهن مقيدات . ولم يفك من العقال إلا هذا الإنسان ، فإن أيدينا وعقولنا تفعل مالا يقدر عليه الجناح ، ولا يسمو له الخرطوم فى الفيل ولا القوة الأسدية ، والافتراس النمرى .

إذن أنت يا الله فضلتنا بعقل وبيدين فضلا عن سواهما . إذن أنت يا ربنا جعلت أجسامنا مفصلات تفصيلا كأنها كتاب نقرؤه ، وهذا الكتاب مفصل أبدع تفصيل . إذن يارب أنت أنعمت علينا بما وهبتنا من الحرية العقلية ، وباليدين اللتين بهما نقدر على الاختراع والإحكام والتدبير وإدارة كل عمل فى أرضنا من زراعة وصناعة وتجارة وعلم وإبداع واختراع . كل ذلك ابتكرته عقولنا وصنعته أيدينا . إذن هذا الكتاب الذى قرأناه فى أنفسنا وتفصيلها وفى الحيوانات حولنا وفى العوالم العلوية والسفلية يوجب علينا أن نكون خلفاء لك فى أرضك ، ولن تحقق هذه الخلافة إلا بالعلم والعمل ، وأنا الآن يارب أكتب هذا القول للمسلمين . تلك الأمة التى برزت فى الوجود منذ (١٣) قرنا وغيرت معالم الكرة الأرضية . وبسببها ظهرت أمم وأمم فى الشرق والغرب . فأنا أكتب هذا لهم وللأمم . وأسألك يارب يا رحيم أن يقوم فيهم مجددون يقومون للنوع الإنسانى بما قام به أسلافهم كل بحسب زمانه ، وأخاطبهم قائلا :

« أيتها الأمم الإسلامية ، ويا أيتها الأمم العربية ، طال نومكم ، ألم تسمعوا قول ربكم « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر » . فأين خيريتكم الآن . ألستم لما نمتم عن وظيفتكم تولى بعضها غيركم من الأمم . أنتم خلفاء الله بنص الآية وبما يفهم من تفصيل الجسم الإنسانى . أتريدون أن تكونوا فى الأمم أشبه بالعناكب والذباب وهم يكونون أشبه بالإنسان . أتريدون أن تتجاهلوا مالكم من العقول والأيدى فيجعل بعضنا نفسه كذى الجناح أو ذى الحافر (حاشا لله أن يكون ذلك) .

وهل

وهل يرضى أبناء العرب الذين هم أصل هذه الأمم الإسلامية أن يكونوا فى مؤخر الأمم ويتنزلوا عن مجدهم الرفيع وشرفهم الكبير ، ويذروا عقولهم بلا تفكير وأيديهم بلا عمل ، ويجهلوا ما عرفت الأمم حولهم من العلوم والصناعات ؟ لا لا . يا أمة الإسلام ها أنا ذا وصلت لكم القول لعلم المفكرون منكم قوله تعالى « وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها » والله كما فصل القرآن فصل آيات هذا الوجود . ومن هذا التفصيل تفصيل جسم الإنسان ، فهو مفصل تفصيلا عجيبا . فها هو ذا القرآن وها هو ذا جسم الإنسان يقضيان بحرمان الجاهلين الكاسلين الذين يذرون مواهب العقول وابتداع الأيدى عجائب الصناعات وابتكارها غرائب المنافع فى الدنيا والدين ، كتب فى ٣ رمضان سنة ١٣٤٩ هـ و٢٢ يناير سنة ١٩٣١ .

نظرتى أمس (٣ رمضان أيضا) فى بلدة البركة

امرأة تطحن على رحاها

يا سبحان الله : مررت على هذه البلدة كعادتى لأنها فى طريقى إلى مزرعتنا بتلك الجهة قرب القاهرة فلما رأيت المرأة تدير رحاها تطحن بها برا تصنعه لأهل منزلها (وقد كان هذا الموضوع أى موضوع السموات والأرض ، وانتظام هذا المجموع واتصاله بجسم الإنسان وأمم الأرض مرتسما فى ذهنى محضرا فى عقلى لا أقدر على التماس منه) حتى كانت هذه الرحى إتماما للموضوع وشرحا وتطبيقا على ذلك كله .

الله أكبر : دارت الأرض حول نفسها فكان الليل والنهار ، الأرض دائرة فى يد صانعها مجذوبة حول الشمس فكانت لها نتائج لاعدد لها ولا حصر . وبدورانها كان الصيف والشتاء والخريف والربيع وهناك مالا حصر له من المخلوقات ، فهى رحى كبيرة . إن رحى المرأة التى رأيتها أمس مدورة والأرض كرة . إن رحى المرأة دائرة بيد المرأة والأرض دائرة بيد الصانع الحكيم . ولكن فرق مابين الدورتين ، فدورة الأولى لغذاء بيت واحد . ودورة الثانية لغذاء أمم وأمم .

إيه أيها المسلمون . كلما كانت الأمم فى صناعاتها أقرب إلى صنع ربها كانت أسعد بالا وأنعم حالا ، وكلما ابتعدت عن صنعه كانت أقل وأذل ؛ أفلا ترون الآلات الطاحنة ذوات العجلات المنتظمات الدائرات دوران هذه الرحى عملتها أيدى أناس مثلكم فقامت مقام آلاف رحى كرحى المرأة التى رأيتها فى بلدة البركة .

أفلا ترون الآلات الحابرات والحارثات والجاريات فى البر والبحر فقد عملتها أيد كأيديكم بإرشاد عقول كعقولكم فأغنت أمما وأمما .

كلما كانت صناعات الأمم أقرب إلى البساطة كانت الأمم أقرب إلى التفرق فيكون الانحلال ثم الفناء ، وكانت بالنسبة للأمم ذات الصناعات العظيمة أشبه بالحيوانات الرخوة بالنسبة للانسان ، وكلما كانت صناعاتها أقرب إلى صنع الصانع الحكيم مبدع الكون كانت أقرب إلى الاجتماع والاتحاد والكمال فى الإنسانية ، والإنسان اليوم سائر إلى هذه الحال شاء الجهال من المسلمين أم أبوا ، وسيكون هذا النوع الانسانى أشبه بأمة واحدة تعمل لغاية واحدة ومنفعة للجميع وتكون سعادة الإنسانية بتلك الأيدى والعقول فوق ماهو عليه الآن آلاف آلاف مرة ، وتكون نسبة سعادتهم اليوم إلى سعادتهم فى المستقبل كنسبة الحيوانات المفصلية والحلقية كالعلق والعقرب إلى نوع الإنسان ، أو كنسبة هذه الرحى التى تديرها المرأة التى شاهدتها فى بلدة البركة وغيرها إلى آلة بخارية عظيمة تطحن لآلاف من الأسرات فى القرى والأمصار . هذا، وإنى

أحمدك اللهم على نعمة التوفيق والعرفان والحكمة والتبيان ، كتب يوم الجمعة ٤ رمضان سنة ١٣٤٩ هـ وإلى هنا تم الكلام على اللطيفة الرابعة، والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الخامسة

فى قوله تعالى « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء إنه على حكيم »

حضر أخى العالم الذى اعتاد مناقشتى فى هذا التفسير . فقال : لقد جاء ذكر الشيخ الدباغ ذلك الأمى فى آية « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم » الخ ولكن للقول هناك بقية . ولقد أذكرنى بها هذه الآية لأن البشر ليس لهم أن يكلمهم الله إلا بالوحى أو من وراء حجاب أو إرسال رسول الخ فياليت شعرى أأمثال هذا الأمى من هؤلاء . حتى يأتى لنا بعلوم عجيبة بعضها نعقله وبعضها لاندركه . فقلت : أيها الأخ . الشيخ الدباغ وأمثال الشيخ الدباغ لا نأخذ العلم عنهم وإنما هؤلاء مذكرون لنا بالوحى . فإذا سمعنا من هؤلاء حكما لم ندركها نحن وبحثنا فوجدناها موافقة للوحى المنزل على نبينا صلى الله عليه وسلم قبلناه وإن رأينا ما يخالفه نبذناه . فلنا عقول ولنا دين . ولكن ليس معنى ذلك أننا نترك هذه الينابيع النابعة من فيض الله كما لاندع الينابيع الظاهرة من الأرض بلا عمل منا . إن المسلم فى مستقبل الزمان غير المسلم الماضى فى القرون المتأخرة . إنه إنسان غير جامد . إنسان فيه حقيقة الإنسانية ، لايدع نعمة تصل إليه ولا حكمة يسمعها إلا بحث فيها . فإذا كان الماء النابع من العيون لا ينبغى للمسلم ترك الاستفادة منه . هكذا لايليق به أن يذر حكما تصدر على لسان إنسان بدون أن ينقدها ويفكر فيها . بل فوق ذلك يعلم أن الله هو نفسه الذى ساقها إليه اختبارا له لينظر أيشكر بقبولها وبحثها والاستفادة منها أم يكفر بتركها واحتقارها فيقول لا لا أنا لم أقر أمثال هذا القول فى الدين . بل أقول فوق ذلك كل قول يسمعه المسلم من أى عالم فى أقطار الأرض فى جميع العلوم الرياضية والطبيعية والسياسية والتاريخية إنما هو نعمة من الله ساقها إليه فنبذها إنما هو نبذ للنعمة المرسلة من الله إليه . وعليه أقول : إن المسلمين بعد انتشار هذا التفسير (وقد انتشر فعلا) سيكونون نورا للأمم لايذرون قوة فى الأرض وما عليها . ولا حكمة صادرة من رجل فتح عليه وهو لم يتعلم كالشيخ الدباغ . ولا علما جدّ فيه عالم صينى أو يابانى أو ألمانى أو فرنسى الخ بعقله ونصبه وآلاته الرصدية أو الكيميائية أو غيرها إلا سارعوا إليها ودرسوها ومحصوها . واصطفوا ما هو نافع . وتركوا ما هو ضار .

هذا هو الحق الذى لامحيص عنه . أليس هذا هو قوله تعالى « فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب » .

فالآية عامة وتخصيصها لا معنى له . والأرض أرض الله والناس عباده . وإذا انتفعنا بماء الأرض الذى هو من صنع الله وفيضه فإن الانتفاع بما تنتجه العقول أولى لأن العقل أفضل من المواد ، والماء مادة والعلم ينتج من العقول . إذن ترك ذلك كله أو بعضه جهالة وقلة دين وعقل .

لك الحمد اللهم على نعمك ، ولك الشكر ، ولك الفضل العظيم علينا وعلى الناس أجمعين . أنت الذى خلقت الإنسان وجعلت جسمه فى هذه الأرض محوطا بالخير والشر وحجبته عن المعارف والعلوم بما سلطت عليه من شهوة وغضب ، فأخذت الأمم يموج بعضها فى بعض ، ويلعن بعضهم بعضا ، فجعلتهم معذبين

فى صورة منعمين، وجهلاء فى صورة علماء، وأريهم بصيصا من العلم، وبصيصا من الجمال، وهيأت أرواحهم لقبوله بدرجات مختلفات بحيث لايتفق اثنان من الناس فى درجة واحدة، فهم فى معارفهم مختلفون اختلافهم فى ألوانهم ولغاتهم. واختلافهم فى خطوط أيديهم التى ظهر سرها فيما تقدم فى السورة السابقة، واختلاف استعدادهم الفطرى :

(١) فهانحن أولاء نجد القرآن نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولقد فهمه الصحابة رضى الله عنهم والتابعون فنشروه فى الكرة الأرضية، وكان لهم فيه فهم غير مانفهم، وآراء غير مانعرف، والدليل على ذلك نتائج أعمالهم فى الأمم التى حكموها والممالك التى أحكموها والمظالم التى منعوها وأنواع العدل التى سلكوها والمبرات التى أظهروها والسعادات التى نشروها.

(٢) ثم خلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات وبغوا فى الأرض الفساد وقطعوا الأرحام فحق عليهم قول الله «فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم» فلذلك استرد الله منهم ممالكه وأورثها قوما آخرين قرونا وقرونا وهم يتدلون فى حضيض الجهالة والذلة. وكلما نبغ نابغ ذموه وحقروه، وكلما ظهر عالم ازدروه، واكتفوا من العلم بقشوره، ومن القرآن بلفظه، ومن العبادة بظاهرها، ومن الدين باسمه، واستحلوا الجهل واستعذبوه واستبشعوا العلم ونبذوه، لذلك حرقوا كتب الامام الغزالى فى بعض بلاد الغرب فى القرن الخامس وذموا ابن رشد وكفروه أيام دولة الموحدين، فلم تقم فى أمم العرب خصوصا وأمم الإسلام عموما للعلم قائمة بعد ذلك كما ذكرته سابقا فى هذا التفسير فى مواضع كثيرة وأوضحته أيما إيضاح.

ولما تم ذلك قيض الله للخلف قوما آخرين ليسوا علماء كالذين تعهدهم، بل خلقهم على شاكلة تلك الأمم لم يتعلموا علما ولم يحفظوا دينا ولم يقرءوا القرآن وأنطقهم بعلوم فوق طاقة نوع الإنسان، وإنما فعل ذلك رحمة بهم؛ ذلك لأن رحمة الله عامة، فإنا نراه لم يذر حشرة ولا طيرا ولا حيوانا ذريا لاتراه العيون إلا أحاطه بالنعم وملأه بالحكم، وأنت أيها الذكى تعرف ذلك من العجائب المتقدمة فى هذا التفسير. فإن العلوم التى ملأ الله بها أرضنا والمسلمون كانوا محرومين منها وقد كتبت ثمراتها فى هذا التفسير، تملأ القلب روعة وحبا لله تعالى وإيقانا بأنه لم يذر ذرة إلا ملأها بالحكم ولا حيوانا دقيقا أو عظيما إلا أحاطه برحمته فهو كذلك سبحانه أحاط آباءنا الذين جهلوا القرآن وكرهوا العلوم برحمته ولم يذرهم يتخبطون فى دياجير الظلام بلا مرشدين بل بث فيما بينهم هؤلاء الأقوام وهم أرباب القلوب والصالحون، وكانوا كلما أوغلوا فى الجهل زادهم الله من هذه الطائفة، ومن هؤلاء من ذكرته سابقا فى هذا التفسير وهو الشيخ الدباغ الذى ظهر فى بلاد مراكش منذ نحو قرنين اثنين، فإنه كان فى القرن الثانى عشر الهجرى، فهل لك أيها الذكى أن أحدثك عما جرى بينى وبين بعض علماء مراكش فى عصرنا الحاضر فى أمر هذا الشيخ، وذلك أن هذا التفسير أثناء طبعه أخذ أفاضل العلماء فى مدينة فاس وغيرها يقرءونه لتلاميذهم، فأنا حمدت الله عز وجل وزدت إيقانا بما سيكون لهذه الأمة من السعادة والفضل العظيم.

والحديث الذى جرى بينى وبين هذا العالم الفاضل هو ماياتى: قال [إنا لما اطلعنا على تفسير الجواهر انشرحت صدورنا وازدادت مسرتنا ووالله لقد سرت روح هذا التفسير أثناء طبعه فى البلاد من أقصاها إلى أقصاها. وأصبح العلماء والطلاب والعامة الذين يتعلمون منهم يفكرون فى منافع أرضهم ومعادن جبالهم ومصادر أنهارهم ومواردها، وفى الصناعات والعلوم على اختلاف درجاتها، وقد انفتحت بصائرهم وانشرحت صدورهم بسبب مايلقيه العلماء من الحكمة التى أودعها الله فى هذه الدنيا، فأصبحوا يرون حكم الله فى الحجر

والشجر والنهر والبحر والجبل مع أن تفسير القرآن كان العلماء يحرمونه قديما على التلاميذ باعتبار أنه فوق طاقة المخلوقات ، وهذا القول سمعته من كثير من علماء تلك البلاد] .

ثم قال: والله لقد أحسنت وأجدت وشرحت الصدر ، وهذا موافق لأقوال أكابر علماء الإسلام الذين لايعولون فى أقوال أهل الكشف إلا على ماوافق الدين وأنت صرحت بذلك ؛ إذن هذا يشجعنى أن أسأل فى بعض كلام الشيخ الدباغ ومامقصوده حتى نستفيد منه ، فقلت : سل مابدا لك ، فقال إن الشيخ عبد العزيز الدباغ ذلك الرجل الأمي قد أتى فى تفسير الحروف التى فى أول السور بأمور عجيبة جدا تفوق طاقة الإنسان ؛ ولما اطلعنا على تفسير الجواهر وجدنا بصيصا من نور كلامه فيه وبقية معناه فوق متناول العقول فى زماننا ، فأريد منك إيضاح هذا المقام حتى أنبه بين إخوانى العلماء إذا رجعنا إلى تلك الأقطار . فقلت : إذا تفضلت بإيضاح السؤال فإني أرجو من الله أن أوفق للاجابة . فقال : إنه يقول فى معنى (ص) إنها تشير إلى الفراغ الذي يتلون على ماتقتضيه أفعال كل ذات من الذوات . فتراه على كافر عذابا وعلى مؤمن إلى جنبه رحمة من الرحمات وعلى كافر آخر واقف إلى جنب هذا المؤمن عذابا ولكن لامن جنس العذاب الذى للكافر الأول بل من جنس آخر ، وعلى مؤمن آخر واقف إلى جنب هذا المؤمن رحمة ولكن لامن جنس الرحمة التى للمؤمن الأول بل من جنس آخر اقتضته أفعاله وهكذا حتى يأتى على جميع من فى المحشر ولاتجد فيه حيزا يشبه حيزا أبدا مع أنه فراغ واحد فى رأى العين ، وعلى ماتقتضيه طبيعة الدنيا . والمفتوح عليه يرى هذا عيانا ، فيرى زيدا فى فراغه على ما كتب له ، ويرى عمرا فى فراغه على ما كتب له ، وكأنهم الآن واقفون فيه بين يدى الله عز وجل ، فلهذا قلنا : لو علم الناس ما أريد بص وما أشير إليه به ماأجترأ واحد على مخالفة أمر الله عز وجل . فإنه لو فتح للناس على مكانتهم فى ذلك الفراغ لاغتبط المطيع ولمات المخالف أسى ، ولا يخفى أنه يكون فى ذلك الفراغ الكفار والمؤمنون والأنبياء والملائكة والجن والشياطين ، وقد أشار إلى الكفار فى صدر السورة بذكر طوائف منهم . وإلى الأنبياء بذكر طوائف منهم ، وإلى المؤمنين بذكرهم خلال ذكر الأنبياء ، وإلى الملائكة بذكر الملأ الأعلى آخر السورة ، وإلى الجن والشياطين بالإشارة إليهم فى آخر السورة وذكر أحوالهم فى الدنيا وإن لم تكن لهم فى المحشر لأنها هى السبب فى اختلاف أحوالهم فى ذلك الفراغ الذى يحشرون فيه وبقيت أسرار أخر تتعلق بما فى السورة لا يحل إفشاؤها. والله تعالى أعلم .

ثم أخذ بعد ذلك يتكلم على معنى « كهيعص » وغيرها فلا أطيل به ، ثم قال : « وقد رأيت نفس هذا الشيخ لما سأله الشيخ أحمد بن المبارك فى سبب كون تكبير العيد سبعا فى الركعة الأولى وستا فى الثانية أجابه مسرعا قائلا : إن التكبيرة الأولى يشاهد فيها العبد المكبر لاسيما سيد الوجود صلى الله عليه وسلم المكونات التى فى الأرض الأولى والتى فى السماء الأولى ويشاهد المكون سبحانه وتعالى ؛ والتكبيرة الثانية ويشاهد فيها المكونات التى فى الأرض الثانية والتى فى السماء الثانية ، ويشاهد المكون سبحانه وتعالى لأنها أفعاله تبارك وتعالى ، والتكبيرة الثالثة يشاهد فيها المكونات التى فى الأرض الثالثة والتى فى السماء الثالثة ويشاهد المكون سبحانه لأنها أفعاله تبارك وتعالى ، والتكبيرة الرابعة يشاهد فيها المكونات التى فى الأرض الرابعة والتى فى السماء الرابعة ويشاهد فيها المكون سبحانه لأنها أفعاله تبارك وتعالى ، والتكبيرة الخامسة يشاهد فيها المكونات التى فى الأرض الخامسة والتى فى السماء الخامسة ويشاهد فيها المكون سبحانه لأنها أفعاله تبارك وتعالى ، والتكبيرة السادسة يشاهد فيها المكونات التى فى الأرض السادسة والتى فى السماء السادسة ويشاهد فيها المكون سبحانه لأنها أفعاله تبارك وتعالى ، والتكبيرة السابعة يشاهد فيها المكونات التى فى الأرض السابعة والتى فى السماء السابعة ويشاهد فيها المكون سبحانه وتعالى لأنها أفعاله تبارك وتعالى .

هذا في الركعة الأولى . وأما الركعة الثانية فإن التكبيرات الأولى منها يشاهد فيها ما خلق في اليوم الأول وهو يوم الأحد ويشاهد المكون سبحانه وتعالى ، والتكبيرة الثانية يشاهد فيها ما خلق في اليوم الثاني وهو يوم الاثنين ويشاهد المكون سبحانه ، والتكبيرة الثالثة يشاهد فيها ما خلق في اليوم الثالث وهو يوم الثلاثاء ويشاهد المكون سبحانه ، والتكبيرة الرابعة يشاهد فيها ما خلق في اليوم الرابع وهو يوم الأربعاء ويشاهد المكون سبحانه وتعالى ، والتكبيرة الخامسة يشاهد فيها ما خلق في اليوم الخامس وهو يوم الخميس ويشاهد المكون سبحانه وتعالى ، والتكبيرة السادسة يشاهد فيها ما خلق في اليوم السادس وهو يوم الجمعة ويشاهد المكون سبحانه وتعالى . فقلت : وهذه المخلوقات في هذه الأيام الستة هي التي في السموات السبع وفي الأرضين السبع . فقال رضي الله عنه يشاهد عند رؤيته إلى الأيام أصول المخلوقات التي كانت في بدء الخلق ، وأما عند نظره إلى السموات والأرضين فيشاهد المخلوقات الموجودات على ظهرهما . فقلت : فتكبير العيد سبعا وستا شرع في حق كل مكلف وأين كل مكلف من هذه المشاهدة ؟ فقال رضي الله عنه من فتح الله عليه فلا كلام فيه ومن لم يفتح عليه فينبغي له أن يستعمل هذه المشاهدة ويستحضرها ولو على سبيل الإجمال والله تعالى جواد كريم ، فإن استحضر العبد ما ذكرت في هذا العيد وفي العيد الذي بعده وهكذا وفرح بربه ودام على ذلك فإن الله تعالى لا يخيبه ولا تخرج روحه من جسده حتى يريه تعالى هذه المشاهدات تفصيلا لأن الله على كل شيء قدير ، والبعد والانقطاع إنما حصل من ناحية العبد لا من ناحية الرب سبحانه وتعالى « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين » .

ثم لما أجابه عن ذلك سأله عن سر التكبير ثلاثا إثر خمس عشرة فريضة من ظهر يوم النحر إلى صبح اليوم الرابع . فقال : التكبيرة الأولى يستحضر فيها ويشاهد تصوير الذات نطفة ثم علقة ثم مضغة ، والتكبيرة الثانية يستحضر فيها ويشاهد تمام التصوير وكماله وحسن خلقه ونفخ الروح فيه وصيرورته خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ، والتكبيرة الثالثة يستحضر فيها ويشاهد فساد الصورة ورجوعها ترابا حين تكون في القبر ، فإن هذه الأمور الثلاثة من عجائب قدرته تبارك وتعالى ، ومن غرائب ما أبدعه في مصنوعاته سبحانه وتعالى لا إله إلا هو ، وهذا التكبير لا يختص عند الصوفية بما ذكره الفقهاء بل يستعملونه دبر كل صلاة ولكن قبل السلام منها . قال رضي الله عنه : والمفتوح عليه يشاهد هذه الأحوال عيانا ويراها جهارا ، فيشاهد من باهر قدرته تعالى ما لا يكيف ، وكم من عجائب لله تعالى في مخلوقاته ، فإذا حصل للمفتوح عليه ما أوجب تغيره أو قبضه أو نحو ذلك نظر إليها فيحصل له من التوحيد والاعتبار ونحو ما نزل به ما لا يكيف ، فغير المفتوح عليه يدفعه بالرؤية والعيان (كذا) . قال رضي الله عنه : وعلى وجه الأرض عجائب لو شاهدها أرباب الأدلة والبراهين ما احتاجوا إلى دليل ، من تلك العجائب ما إذا شاهده العبد علم بوحدانية الله تعالى من غير دليل وتكفيه مشاهدة ذلك الأمر ، ومنها ما إذا شاهده العبد علم بوجود الجنة ، ولا يحتاج إلى إقامة الدليل على وجودها ، ومنها ما إذا شاهده العبد علم بوجود جهنم ولا يحتاج إلى دليل ، إلى غير ذلك من عجائب مخلوقات الله تعالى والله أعلم . انتهى من [كتاب الإبريز] .

هذا هو الذي أسألك عنه . ثم قال : ولست أقول إنك تجيبني من ذلك المقام الواسع فإنه فوق طاقة أهل الأرض ولكني أسألك لتجيبني بما يفتح الله به عليك أنت مما يناسب زماننا الذي خلقنا نحن فيه .

فقلت : اعلم أيها الأخ الفاضل أن الله عز وجل خلق أرباب القلوب وجعل بعضهم كالشيخ الدباغ من الطبقة التي لم تتعلم ، والسبب في ذلك رحمته بالعباد ، فإن المسلمين لما كرهوا العلوم وحرموها وطردوا أهل العلم فذهبوا إلى أوروبا وهو سبحانه وعد ، ووعده حق إذ قال « ورحمتي وسعت كل شيء » فلم يشأ

أن يذرهم بلا علم لأن الإنسان هو الحيوان الناطق . فقال لهم : [يا عبادى أنتم كرهتم المفكرين والعقلاء الذين يجتهدون بعقولهم ، فأنا أرسلت لكم من ينطقون بالعلم بلاكلفة ولكنى عدل ولم أخلقكم فى الأرض ليكون علمكم بلا مشقة . إن العلم الذى يعطى للانسان بلا مشقة لا فضل فيه له ، وكل ما كسبه الإنسان بنصبه وتعبه كان كمالا له ، وكل ما أعطى له بلا مشقة ولا نصب كان أشبه بالمال الذى يرثه الولد عن أبيه ، فهو لا يعرف له قيمة ولا وزنا] .

فهؤلاء الصالحون ينهم الله فيهم ، فمنهم الصادقون وهم قليل جدا وأكثرهم يعيشون ممتعين بالراحة على نفقة هؤلاء الجهلاء ، وقد جعلوا الدين شبكة يصطادون بها حطام الدنيا ، وهم هم الذين يساعدون الفرنجة فى إذلال الشعوب ، ومثلهم بعض أمراء الإسلام ، فهاهنا ثلاث طوائف : بعض رجال العلم والتصوف وبعض الأمراء والمستعمرون ، فهؤلاء هم الذين يحبون أن يبقى المسلمون فى الذل والجهل ليعيشوا مما على حسابهم ومن كد أيديهم ، وهذه الطوائف الثلاث كالعنكبوت تصطاد الذباب بالشبكات ، فالذباب هم جهال المسلمين والعنكبوت الصائد هم المستعمرون وبعض أمراء الإسلام وأكثر رجال التصوف وأهل العلم الذين يعملون لإرضاء المستعمرين .

فإذا خلق الله أمثال الشيخ عبد العزيز الدباغ وأنطقه بالحكمة التى فوق متناول عقول أهل الأرض فذلك لحكم :

(أولا) أن هذا الشيخ لم يقرأ مثلهم ، وليس فيلسوفا ولا حكيما حتى يكفروه فهذا به يأتنسون وهذه رحمة بهم .

(ثانيا) هو ينطق بالعلوم المدهشة التى يقف أكبر حكيم أمامها حائرا لعلوها وهذا يجعل أولئك الجهلاء مصدقين بالدين الإسلامى فيكون أرباب القلوب إذ ذاك أشبه بأوتاد وجبال ، فكما أن الأوتاد تحفظ الخيام من أن تزعزعها الرياح ، والجبال تحفظ الأرض من أن تميد ، هكذا أمثال الشيخ الدباغ والشيخ الخواص ومن على شاكلتهم بثهم الله فى الأرض كما بث الجبال الرواسى فثبتوا قلوب آبائنا علماء وجهلاء ، وثبتت العقائد ، وآمن الناس واستماتوا فى الدين استماتة حفظته من الضياع حتى سلموه إلينا .

ولا دين فى الأرض يبقى بلا دعاة . وهذه النصرانية لولا جمعيات المبشرين (الذين يملكون من المال مئات الملايين ويجمعونه من سائر الأقطار ، وبهم زلزلوا عقائد بعض المسلمين) لم يبق لها وجود ، والدين الإسلامى لا جمعيات له والله يريد بقاءه كما وعد ، فخلق هؤلاء الذين هم أرباب القلوب فنطقوا بالحكمة التى تجرى على ألسنتهم كما ينطق النوموم (بالفتح) تنويما مغناطيسيا ، وهؤلاء وهؤلاء يشاهدون عوالم لم نشاهدها نحن فى أجسامنا هذه ، غاية الأمر أن أرباب القلوب من المسلمين وصلوا لذلك بأنوار بصائرهم والنوموم (بالفتح) وصلوا لذلك بطرق صناعية ، والأولون أرقى منهم ، والعوالم كلها فى يد الله وهو الذى فعل ذلك رحمة بآبائنا لحفظ هذا الدين ثم وصل إلينا فنظرنا فيه وفرحنا بنعمة الله .

حكم أرباب القلوب

(كالشيخ عبد العزيز الدباغ) وتفسير الجواهر

كلاهما من مصداق قوله تعالى « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب » الخ، وقوله أيضا في السورة السابقة « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد »

فقال الأستاذ: إن في الأمر لغموضا فأرجو إيضاحه حتى أفهمه فقلت له: ماذا قال الشيخ عبد العزيز الدباغ ألم يقل إن كون تكبير الركعة الأولى في العيد سبعا وفي الثانية ستا يرجع إلى مشاهدة عجائب السموات السبع والأرضين السبع في كل تكبيرة سماء وأرض من تلك الأرضين والسموات، قال بلى. قلت ألم يرجع هو رحمه الله تكبيرات الركعة الثانية الست إلى مشاهدة المخلوقات التي خلقت فوق الأرض في كل يوم عالم من العوالم كالذى تقدم في علم طبقات الأرض إجمالا موضحا بالصور الفوتوغرافية في السورة السابقة. قال بلى والله قلت رجع كلامه في تكبير الركعتين إلى عجائب السموات والأرضين في الركعة الأولى وإلى ما كان عليهما في مبدأ الخلق في الثانية، ولما كانت الأمم تعرف السبع والست وأن الأولى سموات وأرضون والثانية أيام أنزل هو التكبيرات على ذلك بإلهام من الله تعالى:

ومعلوم أن عوالم الأثير الذى لاوزن له قد قرر علماء عصرنا أنه عالم أثقل من الذهب والحديد بما لاحد له كما تقدم في أول (سورة الصافات) وإن لم يكن مادة، وإذا كان الذهب أثقل من مقدار حجمه من الماء نحو ١٩ مرة. فإن المليم الواحد من هذا الجو أثقل من ألف طن كما تقدم في أول (سورة الصافات) ثقلا ماديا فاقرأه هناك مفصلا. فالسموات السبع والأرضون السبع اقتصر عليها لأن الناس لم يسمعوا إلا بها ولكن من زماننا ظهر أن المجرة فيها عشرة آلاف مليون أرض؛ وكم في الكون من ملايين المجرات إذن هذا ماهو إلا قول على مقدار ما يفهم السامعون.

ثم قلت: انظر زادك الله علما، وشرح صدورنا وصدور العلماء في الإسلام لانقاذ هذه الأمة المسكينة من الجهالة. أفلست تراه لما سئل في التكبير ثلاثا إثر خمس عشرة فريضة من ظهر يوم النحر إلى صبح اليوم الرابع، قسم أطوار خلق الإنسان إلى ثلاثة أقسام: فجعل أطوار النطفة والعلقة والمضغة قسما ثم تمام التصوير والحسن والجمال والكمال وانتشار الروح فيه وحياته قسما، وهلاكه وفساد صورته ورجوعه ترابا قسما وجعل كل قسم لتكبيرة من التكبيرات الثلاث. قال بلى. قلت: ثم إنه لما أتم ذلك أتى بالمقصود الحقيق، وأبان أن ذلك ليس هو كل شيء وإنما هو ضرب أمثال. فقال: « إن المفتوح عليه يشاهد من باهر قدرته تعالى مالا يكيف، وكم من عجائب لله تعالى في مخلوقاته فإذا حصل للمفتوح عليه ما أوجب تغيره أو قبضه أو نحو ذلك نظر إليها فيحصل له من التوحيد والاعتبار ونحو مانزل به مالا يكيف.

ثم قال: وعلى وجه الأرض عجائب لوشاهدها أرباب الأدلة والبراهين ما احتاجوا إلى دليل من تلك العجائب الخ».

أفلا تعجب معى من هذا المقال: أليس هذا هو عين ماقلته في هذا التفسير مرارا: « إن العبادات يقصد بها فتح باب العلوم ».

ومن أعجب العجب أن يقول في التكبير « إنه يقصد به التفكر في السموات والارض وماخلق عليها »

وهذا هو تفسير قول المصلى « ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ماشئت من شىء بعد » الخ وعين أذكاره فى ركوعه وسجوده إذ يذكر السمع والبصر الخ . إذن هذا سر أظهره الله فى أيامنا هذه ، بل ألا تعجب من أنك أنت سألت هذا السؤال أيها الذكى . فقال وكيف ذلك ؟ فقلت إن هذا المقال كله تفسير لآية « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم » فأما الآفاق فهو ماذكره الشيخ الدباغ من السموات والأرض فى تكبيرات العيد ، وأما الأنفس فهو ماذكره رحمه الله فى تكبيرات أيام التشريق فى(١٥) فريضة ، إذن هذا كله تفسير لآية «سنريهم آياتنا» الخ فى السورة السابقة .

وإنما أبرزه الله على ألسنة هؤلاء الذين يخلقون فى زمن اضمحلال العلم وشيوع الجهل ليكون ذخيرة للمسلمين يقرءونه وهم معجبون فيؤمنون كما تقدم . ولكنهم لطردهم العلماء وفرحهم بالجهل يعكف الصالحون منهم على العبادة ويذرون عقولهم تتخبط فى ديجور الظلام .

إذا مالم تكن إبل فمعزى كأن قرون جلتها العصى

ويكتفون بأنوار الصلاح مع حرمانهم من أنوار العلوم . وغاية الأمر أن أناسا منهم يفتح عليهم وهؤلاء قليل نفعهم للأمة ونحن جئنا فى الأرض ليكون بيننا رابطة ودية ، ولن تتم تلك الرابطة بيننا إلا بأن نعرف العلوم التى بثها الله فى أرضنا بعقولنا ، وهذا هو مقصود القرآن ، أما الفتوح فأمر آخر يختص بالإنسان نفسه والسعادة الحقيقية فى إسعاد الأمة ولاسعادة لها إلا بتعميم التعليم ، ولن يكون ذلك إلا بالعقل والفهم والجرى على سنة الله فى أرضنا . إذن أرباب القلوب :

(١) نفعوا القدماء بالإيمان بسبب مشاهدتهم ، ولكن هؤلاء الأتباع لاعلم عندهم وعقولهم تقف عند حد خاص لأنهم يرون جميع علماء الإسلام جهلاء ، فالفقه والأصول ونحوها كلها لافائدة منها وهكذا التفسير ، إذ تفسير هذه الطائفة فوق طاقة المفسرين .

(٢) ونفعوا الذين فى زماننا وهم قراء أمثال هذا التفسير . ذلك أن قراءه فى أقطار الإسلام سيكونون جميعا على مشرب واحد لأنهم يحبون معرفة العوالم العلوية والسفلية ، ويرون حكم الله فى كل ماجل ودق ، ويفرحون فرحا لاحد له ، ويرقون رقيا لا أعرف أنا منتهاه الآن ، فيكون الشافعى والحنفى والحنبلى والزيدى والمالكى والجعفرى وكل شيعى على سنن واحد فى حب ربهم وحب الأمة الإسلامية وحب العلوم ، ويرون هذا الخلاف البسيط فى عدد الركعات أو التكبيرات أو نحو ذلك أمرا سهلا عمليا ويتجلى لهم الجمال فى كل هذه الدنيا ويزدرون تلك العداوات فى القرون المتأخرة الناشئة من الجهل بنظام الله تعالى فى العوالم كلها . فهؤلاء سيذيعون ما فى هذا التفسير من العلوم بين أمم الإسلام قاطبة . وهناك يقابلهم طوائف من العباد والنساك وتلاميذ صغار مشايخ الطرق ، فيقولون لهم إن هذه العلوم التى فى هذا التفسير ماهى إلا بدعة ولم ترد عن المتقدمين فيقولون لهم أرأيتم إن أعظم أمرها أمثال الشيخ الدباغ والشيخ الخواص فماذا تصنعون ؟ فهنالك يخضعون ويكون ماتقدم من كلام الشيخ الدباغ حجة عليهم ، ومتى سمعوه يقرون بأنهم جهلاء وأنهم يجب عليهم أن يتعلموا ، وغاية الأمر أن الأغبياء منهم يقولون هذا أمر لايصح إلا بالفتح ، فيرد عليهم بما تقدم فى سورة الحج بما نقلته أنا فى هذا التفسير عنه نفسه وهو أن الفتح ليس مقصودا بل الحجاب لأكثر الناس خير منه . فقال الأستاذ : حقيقة أنا قرأت هذا فى تلك السورة منقولا عنه) .

فقلت : إذن ملخص كلام الشيخ الدباغ تفسير لهذه الآية وهو مقدمة جعلها الله مخزونة فى الكتب

حتى ظهر تفسير الجواهر وأمثاله فى زماننا فوافق شرحه طبقته . ذلك ليأنس بهذا الكتاب جميع أفراد الأمة وأ كثرهم أتباع مشايخ الصوفية ، وهؤلاء متى عرفوا أن ذلك أهم مقصود الصوفية فرحوا به وأحبوه وتعدوا العلوم بعقولهم . وإذن لايكون هناك تعطيل لعقول المسلمين كما كان فى القرون المتأخرة ، إذن لم يبق إلا أن أذكر معنى (ص) فى كلام الشيخ الدباغ.

ثم إن ماقاله فى معنى (ص) وغيرها فكله على هذا النمط ، فهو للأمم الإسلامية الجاهلة فى القرون المتأخرة إيمان وثبات عقيدة وللأمم الإسلامية المستقبلة المستنيرة بصائر ونور إذ يعرفون أن كلامهم هو إجمال لعلوم الأنفس والآفاق ، وأمثال هذا التفسير تفصيل يدركه العقل ، وترى الأمم الإسلامية المستقبلة والحاضرة التى قرأت هذا الكتاب وهو (تفسير الجواهر) أن هذا ليس بدعا بل أرباب القلوب قد ألمعوا إلى مافيه وأتوا برموز وإشارات . فهم فى المسلمين أشبه بحروف أول السور فى القرآن . فكما أن حروف أول السور مفاتيح لعلوم تلك السور ، وقد فتح الله فى هذا التفسير فى معانى هذه الحروف بما أراده على مقدار طاقة المؤلف وطاقة الأمم الإسلامية . هكذا جاء أولئك الصالحون وكأنهم رموز وكلامهم رموز قد حفظها المسلمون ولم يدركوا مقصودهم ، فجاء أهل عصرنا وقرءوا أمثال (كتاب الجواهر) فأدركوا التفصيل وهذا معناه أن تتصل الأمة سلفها وخلفها ، فالسلف الأول وهم الصحابة والتابعون ومن بعدهم بالشريعة والعلوم الإسلامية وخلفهم الجهلاء فى القرون المتأخرة بالرموز والإشارات وكلام أرباب القلوب والمسلمون بعدنا بالعلم والحكمة وظهورهم فى الأمم المستقبلة وسعادتهم أولا وإسعادهم لأهل الأرض ثانيا . وكل ذلك مع حبهم لربهم وخدمتهم للانسانية العامة .

ولا جرم أن المعانى التى ذكرها الشيخ الدباغ فى معنى (ص) لم تخرج عن آيات الله فى الأنفس . وإذا رأيناه فى التكبير وراء الصلوات أيام التشريق الثلاثة من أول ظهر يوم النحر يرجعها هو إلى أحوال الأنفس من حيث حياتها الجسمية فى الرحم وفى الدنيا وفى حال الموت وجعلها من العجائب والغرائب . فها هو ذا معنى (ص) يقول «إنها تشير إلى الخلاء الخ» .

ومعنى هذا أننا نحن فى الأرض اليوم متفقون بحسب الظاهر فى الحيوانية والناطقية . وإننا نأكل ونشرب ونلبس . والحقيقة أننا الآن أشبه بقوم فى أحلام ، فإذا رأيت جماعة فى مجلس وهم يتحدثون فظاهرهم واحد ، ولكن الحقيقة أن أحدهم بين جنبيه نار ، والآخر بين جنبيه نار أخرى ، وثالث فى قلبه مسرة ، ورابع فى قلبه مسرة أخرى وهكذا ، فهم إذن أشبه بالنائمين . فهذا يحلم حلما مفزعا والآخر بجانبه يرى أنه لابس تاج ملك ، أو أن عروسا تزف إليه . فإذا تشابه النائمان أجساما واختلفا نفوسا من حيث المسرة والمساءة . فهكذا هؤلاء الجالسون المتشابهون فى مجلس واحد أكثرهم فى نصب وتعب وشقاء فى الحياة الدنيا والآخرة ، ولاشقاء هناك إلا من الشقاء هنا ، لأن من يملك قنطارا من الذهب فى غاية الحزن لأنه لايملك قنطارين . وهذا ظاهر واضح . إذن هذه الحياة أشبه بنار جهنم ولكن الناس لايعلمون أنهم فى تلك النار الجهنمية ، فهى وإن لم تكن نارا ظاهرة فهى عذاب شديد ونحن لانحس به ولا نظن أنه عذاب .

هذا معنى كلامه . ومثل ماقلنا فى الشقاوة نقول فى السعادة . فالسعيد أقوام تخلت نفوسهم عن الطمع والحسد والغل . وهؤلاء يعيشون بيننا ولكن الناس حولهم لايعرفون سعادتهم وصفاءهم وهم بين ظهرانينا . إذن هذه الأنفس فيها عذابها الآن ونعيمها الآن . وينبوع العذاب والنعيم هذه الأنفس الإنسانية فى الأرض والله هو المتجلى على الجميع . وكأن الناس اليوم واقفون أمام ربهم والله سبحانه يعذب ويرحم كل نفس بما أودعه فيها والوقوف يوم القيامة تابع للوقوف فى الدنيا .

هذا معنى كلامه وقد جعل جميع ما فى السورة راجعا إلى هذا الأصل كما تقدم . فهذه المعانى التى يقولها الشيخ الدباغ راجعة كما قلت لك الآن إلى عجائب الأنفس، كما إن عجائب تقلب الإنسان فى أطواره راجعة إلى عجائب جسم الإنسان .

إذن معنى (ص) الذى ذكره مؤيد لما ذكرناه من أن هؤلاء القوم وإن كانت علومهم ليست من المستوى الذى نسير عليه فى أمثال هذا التفسير بل ترجع إلى مقام آخر فإنها ترجع إلى عجائب الأنفس والآفاق ، وإذن سؤالك أيها الذكى جمعت فيه مايتناول الآفاق فى السموات والأرض وما يتناول الأجسام الإنسانية وعجائب النفوس الإنسانية .

وبهذا ظهر أن الأمة الإسلامية متحدة المشارب سائرة على نمط واحد أولها وآخرها . فقال ماشاء الله كان . لقد شرحت صدرى وأبنت الحقيقة وتجلت . فلله الحمد والمنة . وله الشكر على هذه النعمة . ولكن عندى سؤال واحد . فهل لك أن تأذن لى به ؟ فقلت سل مابدا لك . فقال : لقد سمعت فى أثناء الإجابة على ماسألتك عنه تقول : إن هؤلاء الصالحين وأرباب القلوب يخلفون فى أيام اضمحلال العلم وشيوع الجهل ، فكيف يكون ذلك ؟ فقلت إن الله عز وجل قال «والله أنبتكم من الأرض نباتا» ولا جرم أن الإنسان نبات مقلوب . فرأسه فى الهواء والنبات رأسه فى الطين ويداه ورجلاه كفروع الشجرة وأغصانها وصدره وظهره كجذع الشجرة ولذلك يسمونه فى علم التشريح الجذع ، قال نعم فهمت . هذا واضح . فقلت إن النبات على قسمين : نبات يخرج بلا زرع زارع ولا حرث حارث كما ترى فى الغابات والأودية والبرك والمستنقعات والأنهار وفوق الجبال . ولقد مر عليك فى هذا التفسير أنواع المرجان التى تظهر بهيئة نبات وإن كانت حيوانات كثيرة اجتمعت بصورة نبات. وبالجملة هذه الأرض ينبت فيها نبات نافع بلا زارع له وتخرج منه ثمار بهجة بهية نافعة . فإذا سكن تلك الأرض الإنسان فإنه يزيل تلك الغابات ويبيد الحشائش ويقتلعها فينتفع بالخشب والأعشاب ، ثم يستعمل الأرض لما يزرعه هو على حسب حاجته فلا يخضع للطبيعة بل شرفه هو أن يخضعها هو بعقله الذى هو أشرف من الطبيعة .

هذا هو المثل الذى أردت ضربه ؛ فانظر إلى المسلمين فإنهم لما تركوا عقولهم ومواهبهم كانت نفوسهم أشبه بالأرض التى ظهرت فيها أنواع الطحلب والحشائش والشوك والحسك والأشجار المثمرة وغير المثمرة . فأما الطحلب والشوك والحسك فهم أولئك الدجالون من الشيوخ الذين يجتمع الناس حولهم وهم لا علم عندهم ولادين ، وما أكثرهم فى بلاد الإسلام ، وعلامتهم أنهم يأخذون المال إما من الحكومات الأجنبية المستعمرة وإما من أهل البلاد ثمنا لولايتهم وصلاحهم .

وأما الأشجار المثمرة ونحوها فنظيرها فى المسلمين أمثال الشيخ الدباغ والشيخ الخواص وهؤلاء قليل فإذاما ازدهرت البلاد الإسلامية بالعلم وعمرت العقول بالحكمة وترعرعت العلوم وارتقت ، فهنالك تقل هذه الطوائف إذ لاحاجة إليها كما يقل الحسك والشوك والأعشاب الضارة بالزرع والبرك والمستنقعات الضارات بنوع الإنسان إذا انتظمت البلاد وعم الأمن وحفظت الأنهار والقنوات ، هنالك يحل زرع الزارعين من الناس محل مزارع الطبيعة ، ونرى النخل والزيتون والرمان والعنب والقمح بدل الشوك والحسك والحشائش الضارة . هذا هو المثل الذى ضربه الله فى أرضه لهؤلاء الصالحين بقسميهم ، فإنه إذا ارتقى التعليم فى بلاد الإسلام يقل هذا الفريق صادقهم وكاذبهم . فقال : لقد تم ما أردت أن أعرفه وانشرح صدرى . فقلت الحمد لله رب العالمين . كتب ليلة الجمعة ٧ نوفمبر سنة ١٩٣٠ م .

جمال العلم وبهجة الحكمة

هاهنا قال صديق : هل تأذن لى أن أسأل سؤالين يلذ لى وللمسلمين الإجابة عليهما، فهذا المقام وإن طال فإن القول فيه جميل والحكمة بهجة والسعادة ترفرف بأجنحتها على هذه الأمة الإسلامية بإظهار هذه الحكم التى كانت خافية على العقول ولم تكن إلا رموزا ، والدين يسر والقرآن شفاء ، والله يقول « ثم إن علينا بيانه » ويقول « ويريكم آياته » ويقول « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق» وإذا كان تبيان أن القرآن حق لا يكون إلا باليقين . فأذن أن أطلب منك الإجابة على السؤالين الآتيين فما طلبت إلا اليقين الذى وعد الله أن ينشره فى المسلمين ، وقد صدق الله وعده فى زماننا وجاء اليقين لا سيما فى هذا التفسير ، فلعلى بعد هذا البيان أحظى بأن تأذن لى بإيراد هذين السؤالين . فقلت حبا وكرامة . فقال :

(١) أولا إن ما أوردتموه فى تفسير كلام الشيخ الدباغ من حيث إن العجائب الكونية وأنواع الجمال تعرف الناس أن هناك جنة وأن هناك نارا يحتاج إلى إيضاح أو فى وعلم أوسع ، فلقد ذكرتم أمثال الذباب والقاذورات وأمثال الصقور والرم وأمثال البهائم والمزارع من حيث اختلاف الأغذية باختلاف المتغذيات. وفى المقام طول. والاستنتاج يعوزه العقول الممتازة . فنحن فى حاجة إلى برهان يسهل على كل قراء هذا التفسير .

(٢) ثانياً إن الكلام فى العفونات والرطوبات وما يقابلها من الشهوات يعوزها زيادة إيضاح وبيان أتم من حيث الحكمة بحيث يكون بانضمامه إلى ما تقدم كافيا وافيا لإشباع هذه النفوس الشرهة للحكمة فى بلاد الإسلام .

فقلت نعم أبين هنا عجبا آخر وهو اختلاف النبات ورقا وزهراً وعرا . إن فى اختلاف النبات ثماراً وروائح وطعوما وجمالا وصغراً وكبراً لعبرا تفتح لنا باب المعقولات على مصراعيه . ألم تر أن معلوماتنا وعلومنا وعقولنا وعواطفنا تتربى فى معاهد ومدارس مخلوقات فى داخل أجسامنا . وتلك المدارس والمعاهد الداخلات فى نفوسنا تشبه من وجه المصانع والمعامل التى وزعت على قناتنا الهضمية واختلفت باختلاف مناطقها. ففى الفم ترى ستة أنهر جمات لهضم المواد النشوية ، وهناك ترى غدة البنكرياس وغدة الصفراء، وعصارات المعدة والأمعاء، وحركات القبض والبسط لأعضاء الهضم ، فهذه فى هذه الأغذية المادية التى يتعاطاها الإنسان التى يمكنك أيها الذكى الرجوع إلى دراستها كرة أخرى فى (سورة فاطر) عند قوله تعالى « والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجا » الخ وترى أشكالها مرسومة تسر قلبك بالعقل وروحك بالفهم وجليسك بالأنس . فهذه هى التى شبهنا بها المدارس والمعاهد الموزعات فى مناطق عقولنا المرسومات فى مخنا فهذه إذا وردت لها علوم إما بواسطة الحواس كالبصر والشم والذوق ؛ وإما بواسطة كلام محمول فى الهواء داخل فى الصماخ دال على نفس تلك المعانى المنقولة بتلك الحواس مباشرة ، فإن تلك المعاهد التى شبهناها بمناطق القناة الهضمية تتلقاها، وكل معهد من معاهد المخ يعمل فى تلك المعانى عمله ؛ فمعمل يجمع تلك المعلومات جمعا كأنه مخزن الرسوم وهو الحس المشترك ، ومعمل للتحليل والتركيب كالمعامل الكيميائية فى المدارس وهى القوة المخيلة ، ومعمل لإصدار الأحكام وهى القوة المفكرة ، ومعمل جعل لمجرد الحفظ ، وهناك آخر جعل للتذكر وهى « الذاكرة » . وهناك معمل جعل لإبراز آثارها كن فى تلك المعاهد كلها بهيئة ظاهرة غير

خافية ، فهو يصور ماتحويه تلك المعاهد كلها ويظهر للعالم الخارجي بحيث يستبين للناس أن وراء هذا المعهد معاهد جمعت صورا لكل ماهو ظاهر للناس فى أقطار الأرض ، وهذا المعهد الأخير هو اللسان ، فهو يعبر عن تلك القوى كلها ويبرزها بهيئة حروف ، فهو يعبر عن كل مافى خزانة الخيال والحس المشترك والقوة المفكرة إلى آخره ، فهذه هى المعاهد أو المعامل التى فى نفوسنا الموزعات على مناطق أدمغتنا المطابقات للعوالم الخارجية المشابهة كل المشابهة لمعامل المناطق الهضمية المشروحة سابقا .

إذا صح هذا فنقول : إذن هنا تربية للمعلومات فى نفوسنا تربية حقيقية كما ربينا الغذاء فى القناة الهضمية فخرجت ثمرة الغذاء بعد الهضم على مقتضى القناة الهضمية من ضعف وقوة وإجادة وإهمال ، وأى فرق بين نتيجة الغذاء من حيث الصحة والمرض ، والقوة والضعف ، والجمال والقبح ، والذكاء والبلادة ، التى ترتبت جميعها على هيئة الغذاء الذى ربيناه وهذبناه بآلاتنا فى معاملنا الموزعات على مناطق قناتنا الهضمية وبين علومنا ومعارفنا التى ربيناها فى مناطق مخنا وترعرعت وشبت وبلغت أشدها وصارت فتية قوية ، كل ذلك بما لنا من معاهد قائمة فى مناطق أدمغتنا ، فمنها معهد لجمعها ، ومعهد لتحليلها وتركيبها ، ومعهد لاصطفاء ماهو أجمل ، ومعهد هو خزانة لما ينبغى بقاؤه ، ومعهد هو دار لذكرى مانحن فى حاجة إليه ، ومعهد لنشر مافى الخارج ، إن فى الدماغ لأماكن لعلوم اللغات ومناطق للعلوم الرياضية وأخرى للطبيعة وهكذا ، ولو أن منطقة من هذه أصابها العطب ، وحل بها الوصب ، ونزلت بها الكوارث ، وانتابها الخطوب لتعطلت تلك المنافع المترتبة عليها ورسب فى الامتحان تلاميذ معاهدها ، فلا ترى ذلك الإنسان يحسن أن يعد الآحاد فضلا عن العشرات ، فضلا عن الطرح والقسمة والضرب إذا اضمحلت مناطق علوم الرياضة من الدماغ كما تكون الأمة الأمية لاعلم لها بالحساب إذا لم يكن فيها علماء به ، وعلى هذا فقس ، فالنتيجة أن المعارف تربى فى نفوسنا تربية منتظمة ونتائجها تكون على مقتضى مناطق تربيتنا لها فى عقولنا كما كانت نتائج الأغذية تابعة لمناطق القناة الهضمية سواء بسواء .

هذا ، ولا جرم أن هذا عين مايكون فى النبات . فزهره وورقه وأثماره تابعات تلك المعامل الكامنة فى باطنه ؛ فللنبات معامل فى داخله تتربى فيها جراثيم الأزهار والأنوار والأوراق والثمار وتكون الثمار الناتجات تابعات لمزاج ذلك النبات فى الداخل ؛ فيكون حلوا ومرا وعفصا وحريفا ومسهلا وقابضا ومغذيا ومنعشا ورديئا وحسنا وذا رائحة جميلة ورائحة غير جميلة وساما وشافيا ومسكنا ومخدرا وهكذا من الصفات والأحوال المختلفات ، إذن عندنا (ثلاثة أنواع) من المناطق (النوع الأول) القناة الهضمية فى كل حيوان (النوع الثانى) المناطق التى فى النبات ، ولا جرم أن هذين النوعين من واد واحد ، لأن النبات والحيوان فى هذا المعنى متشابهان ، لأن فى كل منهما مناطق هضم واختلفت ظواهرها واتحدت وجهتها (النوع الثالث) مناطق الفهم فى الدماغ اللائى فيها تربى العلوم ؛ وهذه تحذو حذو القسمين الأولين فى أن النتائج لا تعدو المقدمات ، وهاهنا آن أن نظهر نتيجة هذا كله فنقول :

المعارف والآراء والعواطف التى رزقها الإنسان فى هذه الحياة تكون نتائجها تابعات لما أدته مصانع عقله ومعامل ذهنه كما تعمل قناته الهضمية وكما يكون ثمر النبات . أليس هذا هو البرهان اليقينى على الجنة والنار وماهى الجنة ؟ ، وماهى النار ؟ ألم نقدم أنهما يرجعان لكل محبوب ولكل مكروه مهما كانت هيئته ، ألم تر أن ثمرات النبات تختلف سموما وأغذية . قال صاحبى بلى ، وحلاوة وحموضة . قال بلى وربى . قلت : وأحدهما محبوب والثانى مكروه . قال بلى . قلت فأحدهما يمثل الجنة وثانيهما يمثل النار . ومعنى هذا أن جهاد النبات فى معامله الداخلية أنتج ماهو محبوب لنا وما هو مكروه على حسب المصانع التى تربت فيها الثمرات ،

هكذا جهاد الإنسان فى معامله الداخلة أنتج ما هو محبوب له ومكروه على حسب تلك المصانع إن خيرا فخير وإن شرا فشر ، وإذا كانت علومنا ومعارفنا ما هى إلا نتائج معاملنا الداخلية مادمنا فى هذا الجسم ، وإذا نبذناه وألقيناه شاهدنا النتائج عالقة بأرواحنا ظاهرة فى نفوسنا ، نراها رأى العين ؛ فهذا نظير ما إذا درسنا القمح وذريناه وغربلناه فألفيناه حبا لاتبن معه ولا طين ، ويكون الحب نتيجة لذلك الزرع شرفا وضعة كما أن عواطفنا وعلومنا نتائج مصانعنا شرفا وضعة وصحة ومرضا .

وإذا كان لكل نبات ثمرات لها مصالح تتبعها ، فمن الجهل والغباوة أن نقول إن هذا الإنسان وعقله وعواطفه التى رباها فى نفسه لا نتيجة لها ، أليس من الغفلة أن نعرف أن الإنسان والحيوان والنبات كلها أجسام نامية؟ ثم إننا نعلم علم اليقين أن ثمرات النبات نتائج تختلف باختلاف مزاجه وننكر ذلك فى نوع آخر من أنواع الناميات وهو الإنسان ، وإذا كان حب النبات يبقى متميزا بعد تمام تربيته وهلاك زرعه فكيف لا يبقى نظيره فى الإنسان بعد فناء جسمه ، فإذا رأينا حبا اختلف غذاء ودواء وسما بعد تحليل ماتربى فيه وهلاكه هكذا نحكم بأن هناك علوما ومعارف وعواطف وأخلاقا تبقى بعد فناء الجسم وتفرق عناصره وتبدده فى العراء .

أفلا يكفيك هذا أيها الذكى فى شرح ما قاله الشيخ الدباغ بقدر الإمكان ، فى أن العجائب فى هذه الدنيا تعرفنا الجنة والنار ، فقال والله لا أقدر أن أقول كفتنى فى هذا فحسب ؛ ولكنى أقول إنها كفتنى وحدها فى قوله تعالى « ثم إن علينا بيانه » وفى قوله « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم » ولو لم يكن بيان سوى ما قلتموه الآن لكفى . ولقد تجلت لنفسى الآن معان فى هذا المقام ، ذلك أن هذا الذى ذكرتموه هو عينه تفسير لآية « إليه يرد علم الساعة وما تخرج من ثمرات من أكمامها وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه » فهذه الآية أثناء شرحك المسهب الجزل كانت ترد على خاطرى وأراه شرحا لها . فقلت : هذا إلهام ألقاه الله على قلبك وأنا أقرك عليه لأن ذكر خروج الثمرات من الأكمام بعد ذكر علم الساعة أشبه بذكر الدليل بعد المدلول أو الحجة بعد الدعوى . فقال : إذن أرجو الإجابة على السؤال الثانى . فقلت اعلم أن الحكمة عامة فى المقام المتقدم والذى سنذكره ، فكما أن نتائج الزروع وحبوبها مختلفات اختلاف أصولها بحيث لا يستوى الشجر المر مذاقه والشجر الحلو طعم ثمرته كالحنظل والنخل، ولم نر من العقلاء من نفر من هذا النظام، بل جميع نوع الإنسان مقر بفضله معترف بجماله فرح ببهجته ، لا فرق بين جاهلهم وعالمهم ، ونابههم وخاملهم ، فكل هؤلاء يرون أن نتائج الزروع والأشجار كمال من حيث المناقضات فمنها المغذى والسهل والمخدر والمنعش والسام المهلك الخ .

فإذا صح ذلك فيما نراه ، فهكذا يسوغ فيما لا نراه من نتائج العقول الإنسانية ، فإذا تجردت أرواحنا وآنست نفوسا اختلفت أوصافها اختلاف ثمر الزرع ، فكان منها من هو أحق بأن يكون مع الملأ الأعلى ومن هو أحرى بأن يكون مع الشياطين فى جهنم تبعا لخواص نفوسهم وأمزجة عواطفهم، فإنها تأنس بذلك الاختلاف ولا تفرق بينه وبين اختلاف الحنظل والتمر من حيث إنه نظام حسن .

أقول : فإذا صح هذا فى نتائج الزروع والعقول به مطمئنة فى ثمرات النبات فى الدنيا وفى ثمرات النفوس فى الآخرة ، هكذا فلنقل فى شهوات النفوس وأخلاقها الغضبية : إن هذه القوى الكامنة فى نفوسنا اللاصقة بها المهيجة للأعمال الحيوانية والبهيمية والسبعية إذا تجردت الروح من الجسم بعد الموت وجب هناك أن لاتكون معطلة ، وإذا كنا نشاهد العفونات والجراثيم التى تجلل وجه بعض الأرض ، وكذلك الرمم الملقاة فيها لم تعطل بل كان لها من المخلوقات الحية ماقام بأكلها فتغذى بها رحمة :

(١) بالأحياء من الحيوانات لئلا يهلكها الهواء الفاسد .

(٢) ورحمة بالحشرات لأنها تتغذى به .

(٣) وإظهارا للحكمة القائلة : (إنه لامعطل فى الوجود) .

فهذه العفونات وهذه الرمم بعد أن كانت مصدر الوباء أومعطلة لافائدةمنها أصبحت رحمة للحشرات التى تأكلها ، فهكذا نحكم على خصال الشر الشهوية الباقية فى نفوس الناس بعد الموت ومثلها خصال الشر الغضبية كالبغى والسرقة ونحوهما ، فهذه تعيش بها تلك النفوس التى أشربت حبها ، فهى على وزان نظائرها من قاذورات الأرض تعيش بها أرواح ألفتها بعد الموت كما عاشت بنظائرها فى الأرض أشباح لازمتها فيحصل هنا:

(١) أنه لامعطل فى الوجود .

(٢) وأن الشر يشتق منه الخير .

وما الخير هنا إلا بقاء تلك النفوس بسبب بقاء تلك الشهوات ممثلة فى أفكارها ، ولو أزيلت تلك الأفكار الناقصة من تلك الأرواح لم يكن وجود ، ولا وجود لروح إلا بما يقوتها من الآراء والعواطف كما لاتعيش الأجسام إلا بما يقوتها من أغذيتها ، وهذه ليس لديها من الآراء الشريفة مابه تعيش ، وليس لديها إلا تلك الآراء الرديئة التى اعتادتها فى الحياة الدنيا . فهذه الآراء تعيش تلك النفوس ولا مقر لها إلا فى جهنم فهم معذبون بتلك الحال ، فهاهنا رحمة عامة «ورحمتى وسعت كل شىء» وهاهنا أيضا عذاب ، فالعذاب هنا رافقته الحكمة والرحمة ، فكأنها فى نفسها رحمة .

(١) بدليل أننا إذا قلنا لتلك النفوس فى جهنم أترضين بالموت فإنها تقول لا .

(٢) وهى حكمة لأنها أنتجت من شرور النفوس حياة لها كما يعيش الدود فى القاذورات والفيران فى المراحيض .

(٣) وذلك من عجائب النظام المفيد أنه لامعطل فى الوجود .

فكما أن الله لم يعطل القاذورات فى الأرض ولا الرمم بل اشتق من شرها خيرا ، هكذا لم يعطل الشهوات المغروسات فى النفوس بل جعلها غذاء لها بعد الموت لأنها لاتعيش بغيرها كما لايعيش الذباب بغير القاذورات .

هذه هى الحكمة البديعة ، والآية الطريفة ، والحكمة العالية . اللهم إنا نحمدك حمدا جزيلا ونشكرك شكرا كثيرا . لقد أريتنا ونحن فى هذه الدنيا محبوسون ممنوعون من الاطلاع على الحقائق . إن فى مزارعنا وحيواناتنا من العلم مابه نعرف أن هناك نارا وأن هناك جنة ، وأن تلك النيران وتلك الجنان لوازم لما زاولته تلك الأرواح فى هذه الحياة من الأعمال مع حكم أخرى شرحناها ، وعجائب كبرى بيناها . فالحمد لله فى الأولى والآخرة ، ولك الشكر والفضل العظيم . كتب بعد صلاة يوم الجمعة ١٤ نوفمبر سنة ١٩٣٠ م . وإلى هنا تم الكلام على اللطيفة الخامسة من اللطائف العامة ، والحمد لله رب العالمين .

فذلكة : فى قوله تعالى «وأمرهم شورى بينهم»

آثار القرآن لا سيما سورة الشورى فى أمم الأرض

أولا انظر أيها الذكى ما تقدم فى (سورة البقرة) عند الكلام على قوله تعالى « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » لترى النظام العام فى العلوم الواجبة على أمة الإسلام ، وفى (سورة النساء) عند آية « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » فهذه الآية ونحوها من آيات الشهادة « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم » الخ وهكذا فيها ذكر الخلافة الإسلامية والعدل ، وكيف كان قائما ، وكيف عدل قوم وظلم آخرون ، وهكذا فى (سورة المائدة) ذكر العلوم الواجبة أيضا ، وفى (سورة التوبة) بيان أن قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل » الخ . كان إيقاظا للمسلمين أن يكونوا سببا فى إظهار أحكام الإسلام للأمم ليقوم العدل فى بلادهم ، وهناك ترى شهادة سيدة أوروبية أسلمت تقول : [إن فولتير وروسو اللذين كانا سبب الثورة الفرنسية لم يتعلما ما كتباه إلا من آراء ابن رشد وعلماء الإسلام وهناك تقرأ مظالم رجال الدين المسيحى فى أوروبا واضحة مهينة للشعوب] ، وفى (سورة النحل) تقرأ نظام الدولة فى آية « إن الله يأمر بالعدل والإحسان » وفى (سورة الإسراء) تقرأ فى أوائلها كيف حاد بعض ملوك الدولة الإسلامية فى الأندلس ونحوها عن جادة الصراط السوى فذلوا ، وفى (سورة الكهف) تقرأ عند آية « وما كنت متخذ المضلين عضدا » كيف ظهرت فى الإسلام طوائف حرمت انتشار التعليم ، وكيف ظهر قوم من الفرس آلمهم ظهور مجد العرب بالإسلام ، فكادوا للمسلمين كيدا عظيما ، وكيف حرم حسن ابن الصباح على أتباعه حرية الفكر والتعلم ، وكيف كان كثير من رجال الصوفية يفعلون فعل ابن الصباح ، وأوروبا اليوم تنهج مع المسلمين هذا المنهج عينه ، وتقرأ فى (سورة النمل) بمناسبة آية « إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها » الخ مع آية « فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا » فذلكة عن ظلم الأمم المتأخرة الإسلامية ، وكيف كان ذلك سببا لهلاكهم ، وتقرأ فى (سورة القصص) عند آية « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض » كيف هلك الظالمون ونصر الضعفاء ، وفى (سورة سبأ) عند آية المحاورة بين الضعفاء والذين استكبروا قصة (محمد بن تومرت المهدى) وكيف أقام ملكا ولكن لم يدم أكثر من مائة سنة ، وبيان منافع الذين ادعوا المهدوية وضررهم ، وهناك تبيان القول الفصل فى هذا المقام وإظهار الحقائق لأمم الإسلام بعدنا حتى لايقعوا فيما وقع فيه أسلافهم ، وهكذا فى (سورة المؤمن) نماذج علمية وعملية تتخلل السورة ، وقبلها فى (سورة الزمر) عند آية « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » الخ نماذج التربية التى أثبتها الأستاذ (كانت) الألمانى فى كتابه ، وبيان أن الأمراء والملوك وحدهم لا يرقون الشعوب ، بل يجب على المفكرين أن يجدوا فى ذلك كما حصل فى ألمانيا .

فإذا اطلعت على ذلك أو أكثر ، فانظر الآن فى أمر أمم الأرض نظرة إجمالية فإنك لا تجد الشورى ظهرت فى أمم الأرض إلا بعد ظهور الإسلام ، فانظر أولا فى أمر الأمم الانجليزية ، فهؤلاء كانوا أول من فكر فى التخلص من ظلم ملوكهم ، وتبعتهم فرنسا ثم بقية الأمم ، وامتدت الحركة إلى أهل آسيا وأمريكا ، وزلزلت الأرض زلزالها ، ومادت عروش ، وهلكت جيوش وقامت جمهوريات ، وجاءت

الحرب العظمى من سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩١٨ م وظهر هذا التفسير ليوقظ الله الذين من سباتهم به وبأمثاله .

فانظر ماذا جرى أولا فى انكلترا ، تلك الأمة التى لم تكن فى أول أمرها إلا أقواما من الجنس (السكلتى) من سكان مقاطعة (برطنية) شمالى غربى فرنسا ، جاءوا إلى الجزيرة المواجهة لهم وسموها (بريطانيا) باسم بلادهم الأصلية ، ومنها انتقلوا إلى (إيرلنده) وبقى هؤلاء القوم أصحاب الشأن فى تلك البلاد إلى أن دخلوا فى (الأمبراطورية الرومانية) بعد حروب طويلة بها خضعوا خضوعا تاما حتى اضمحلت (الدولة الرومانية) وتركت البلاد لأهلها ، هنالك أغارت عليهم قبائل الأنجليز والسكسون والجوت ، وهم كانوا فى شمالى ألمانيا ، وكان ذلك فى أثناء القرنين الخامس والسادس المسيحى أى قبيل ظهور الدين الإسلامى بقليل ، فتغلب الفاتحون على أهل البلاد وسموها (أنجلند) أى أرض الإنجليز ، فصارت هنالك ممالك متنافرة .

وفى سنة ١٠٦٦ م أغار على بلادهم (دوق نورمنديه) وهزمهم فى موقعة هاستنجس . وتوج ملكا على انكلترا ، وهنالك امتزج النورمنديون بالسكان الأصليين فكان هذا الشعب الأنجليزى الحديث الذى يعتبر من ابتداء الفتح (النورمندى) وظهر إذ ذاك لملوك انجلترا شأن فى فرنسا بطريق المصاهرة ، ثم كانت حرب المائة سنة التى تمت سنة ١٤٥٣ وبه خرجت انجلترا من فرنسا ، وفى مدة النورمنديين المذكورين ظهر الدستور الانجليزى الذى سقنا الكلام هنا لأجله ، ولم يكن ذلك إلا آثار الإسلام كما تقدم ووليم الفاتح المتقدم ذكره وإن دخل البلاد فإنما قد خضد من شوكته بعض قوانين للنظام الإقطاعى الذى كان عاما فى أوروبا إذ ذاك . ولما حكم (هنرى الثانى) فى القرن الثالث عشر المسيحى نشأ النظام المعروف بنظام المحلفين وهو أشبه بمبدأ لرقى الشورى فى البلاد . ولما تولى جون ابنه قاوم الأشراف ورجال الكنيسة الملك المذكور وحاربوه فاحترم حقوقهم ، وهكذا أخذ البرلمان يقوى ويشتد وقتا بعد وقت ، وأخذ يراقب المالية ويحاسب الملوك . .

وفى عهد أسرة (لنكستر) زاد نفوذ البرلمان إلى أن ضعف الملك وقامت حرب سميت (حرب الوردتين فى ١٤٥٥ - ١٤٨٥) إشارة إلى الوردة الحمراء التى كانت شارة بيت (لنكستر) ، والوردة البيضاء التى كانت شارة بيت (يورك) فمات أكثر الأشراف وانتصرت أسرة لنكستر ، وتوج هنرى تيودور (دوق تشمند) ملكا على انجلترا باسم (هنرى السابع) وبقيت هذه الأسرة من سنة ١٤٨٥ إلى سنة ١٦٠٣ وفى أثناء هذه المدة ظهرت حركة إحياء العلوم وذلك فى زمن (هنرى الثامن) فى القرن السادس عشر الذى أخذ يقطع العلائق الدينية مع رومة ، وفى هذا القرن ظهر الإصلاح الدينى ، هناك أخذ (الدوق سمرست) الذى لقب نفسه (حامى المملكة) إذ كان رئيسا لمجلس الوصاية على (إدورد السادس) يهدم التماثيل والصور من الكنائس ، وألغى الصلاة اللاتينية ، وأخذوا يصلون بالإنجليزية ، وصودرت الأديرة وأملاكها ، وكل ذلك أتباع لمذهب (لوثر) وهو المذهب البروتستنتى ، ذلك المذهب الإصلاحى الذى امتد إلى أوروبا من آثار دين الإسلام كما تقدم .

وارتقى البرلمان والشورى فى أيام اليصابات ؛ تلك الملكة التى كسر جيشها جيش الأسبان وقهرهم ، وفى أيامها أيضا ظهر (شكسبير وبتون) و (فرنسيس بيكون) .

وقامت بعدها أسرة (استيورت) ومنها شارل الأول سنة ١٦٢٥ إلى سنة ١٦٤٩ وثار البرلمان عليه ففر منهم إلى الشمال ، وأخذ يحاربهم بجنود وهم قابلوه بالمثل ، ثم أخضعوه وحبسوه ، واتهم البرلمان الملك

بالخيانة

بالخيانة وحاكه ، وأعدموه سنة ١٦٤٩ ، وكان المطاع فى البرلمان أقوى رجل فيهم وهو (أولفركرمول) وأصبحت انكلترا جمهورية ، وهذه هى الحادثة الأولى فى العالم الجديد التى بها عرف الناس أن الملوك لاحق لهم فى اضطهاد الشعوب ، وأن الشورى هى الحق والعدل . وهذا صدى صوت هذا الدين الحنيف « وأمرهم شورى بينهم » .

اللهم إنك أنت تخفض وترفع . أنت رفعت العرب الأولين بالشورى ، ولما قصروا فيها بعثتها إلى أوروبا فانتهت الحال بقتل (شارل الأول) ملكهم أى ملك الإنجليز . كل ذلك سر (سورة الشورى) .

وبقيت البلاد جمهورية من سنة ١٦٤٩ إلى سنة ١٦٦٠ ثم عينوا شارل الثانى سنة ١٦٦٠ إلى سنة ١٦٨٥ فرجعت ملوكية ولكنهم قيدوها إلى الآن .

وجيمس الثانى من سنة ١٦٨٥ إلى سنة ١٦٨٨ ولكن البرلمان كان يكره هذا الملك فعزله وولى (ماريه) وزوجها (وليم) وفر جيمس إلى فرنسا وهاهنا لم يسفك دم وساد البرلمان فى انكلترا إلى الآن ، وبعد ذلك أصدر البرلمان (قانون الحقوق) وهذا القانون بنيت عليه الحرية الانجليزية وذلك سنة ١٦٨٩ وأعلنوا فيه أن حق الملك فى العرش مستمد من إرادة الشعب الممثل فى البرلمان ، وأن البرلمان له حق نقل التاج حسب المصلحة ، وبهذا قضوا قضاء مبرما على فكرة « الحق المقدس للملك » وبهذا منع الملك من التدخل فى السلطة القضائية ، ومن جمع الجيوش وقت السلم ، ومن جمع الضرائب بدون إذن البرلمان ، هذا كله سر هذه السورة (الشورى) .

فرنسا بعد إنكلترا

قلنا إن سبب الثورة الفرنسية إنما هو ما كتبه فلتير وروسو ، وقلنا إن هذا كما قلنا فى سورة التوبة إنما كان بسبب ما قرءوه فى كتب المسلمين لاسيما كتب ابن رشد . وأنضج الفكرة عند الفرنسيين ما سبقهم به الإنجليز من قتل ملكهم (شارل الأول) وطرد ملك آخر وهو جيمس ، كل ذلك على مرأى ومسمع من فرنسا جارتهم ، فكانت الثورة الفرنسية أشد وأنكى ، فهى على قاعدة : إن كل مجتمع سياسى له حق الدفاع عن نفسه ، فهو يقاوم كل مجتمع يريده بسوء . وهذا الحق إنما يستمده من نفسه لا من حاكمه « وأمرهم شورى بينهم » .

ولقد بدأت حركة الدين فالسياسة فى الشعب الفرنسى فى النهضة الأوروبية الحديثة التى بها نالوا الحرية الدينية وتبعتها الحرية السياسية ، وأشهر الكتاب (فلتير) المقدم ذكره و (روسو) . أما فلتير فكان من سنة ١٦٩٤ إلى سنة ١٧٧٨ فتهكم بأسلوبه العجيب بنظام عصره السياسى والدينى مناديا بإبادة القديم الذى لا يصلح ، وحارب الكنيسة وامتياز الأشراف وسوء تصرف الملوك وفساد القوانين الجنائية ، فجاء (جان جاك روسو) من سنة ١٧١٢ إلى سنة ١٧٧٨ وهو متشبع بروح فلتير ، فألف لهم كتاب [العقد الاجتماعي] الذى أبان فيه طريق الانتخاب وأن تنيب الأمة عنها رجالا منها يتولون شؤونها ، وهذا معناه « وأمرهم شورى بينهم » . وأساس نظريته أن الشعب هو صاحب السلطة الحقيقية ، وأن الحكومة منه تستمد قوتها وسلطتها والتشريع يجب أن يكون بيد الشعب ، وآراء (روسو) صارت كأنها إنجيل وكتاب مقدس تسير على مقتضاه زعماء الثورة الفرنسية . وهكذا كتب (روسو) فى التربية والموسيقى . وهو يميل للرجوع للحال الطبيعية .

وجاء بعده الفيلسوف (منتسكيو) فكتب موضحا الدستور الإنجليزى ومزاياه ففتح أذهان الشعب

الفرنسي وعرف مزايا الحرية التي يتمتع بها الانجليز ، ثم فصل السلطات الثلاث بعضها من بعض وهي التشريعية والتنفيذية والقضائية . فالأولى بيد البرلمان. والثانية بيد الوزراء. والثالثة بيد القضاة . وهؤلاء مستقلون عن السلطتين السابقتين . فعرفوا بذلك فساد حكومتهم إذ كانت هذه السلطات الثلاث في يد فرد واحد وهو الملك . وظهرت حركة إصلاح أخرى في الاقتصاد . فقام أمثال (كسناي) و (ترجوت) وأمثالهما ينقدون طريقة توزيع الضرائب في فرنسا وإرهاق الشعب بها فكسدت التجارة وبارت الصناعة وماتت روح الاختراع ووقفت الجماعات المحلية . وقد كانت فرنسا ثلاث طبقات : الأشراف . ورجال الدين . والشعب . وكانت الحكومة تخص الطبقتين الأوليين بامتيازات لا نصيب للشعب فيها . فكانوا يعفونهم من ضريبة الخراج ومن المكوس ، وكان كل شريف من الأشراف له حق أخذ جزء من محصول الفلاح وإلزامه بطحن غلته في طاحونة وعصر نبيذه في معصرته بأجر عظيم . وله حق الصيد في حقول الفلاحين وإن لحق الضرر بزرعه ، ووظائف الحكومة خاصة بالأشراف فهم السفراء والقواد والضباط في الجيش ، وللكنيسة خمس أرض الدولة ولا تدفع عنها ضرائب ؛ ويجمعون الأعشار من الشعب ، وأكثر ما يجمعونه يدخل جيوب الأساقفة ورؤساء الأديرة . أما الشعب وهو الطبقة الثالثة فكان (٢٥) مليونا ، والطبقتان الممتازتان كانتا (١٧٥) ألفا .

إن الملك يتصرف كما يشاء وبهوى لا قيد له ، فيحبس من يشاء ويطلق سراح من يشاء ويقتل ويعطي ويمنع ، وكان معه برلمان صوري .

ولقد كانت فرنسا عند موت لويس الخامس عشر في سنة ١٧٧٤ على شفا جرف هار من الافلاس بسبب ما خسرته من المال والمستعمرات في الحروب التي أدخلهم فيها لويس المذكور ، فلما تقلد الحكم لويس السادس عشر أراد تخليص فرنسا من الضيق المالي ولكن حاشيته لم تساعده على ذلك مخالفين رأى العالم الاقتصادي (ترجوت) الذي أشار بتقليل تلك الحاشية الملكية التي تأخذ كثيراً من مال الدولة . ولما نشر (نكار) العالم الاقتصادي الذي حل محل (ترجوت) تقريراً عن حال المالية المرتبكة بسبب القروض التي اقترضتها الحكومة لمساعدة الولايات المتحدة للتخلص من حكم انكلترا ، وبسبب ما يصرفه الملك على نفسه وعلى حاشيته عزل الملك (نكار) وولى (كالون) مكانه فقال للملك : يجب أن يرغم الأشراف ورجال الدين على دفع الضرائب وأن تلغى الجمارك الداخلية ، فلم يقبل ذلك منه رجال الدولة ، فعزله الملك وتولى هو تقرير الضرائب بنفسه ، فلم يوافق البرلمان على تلك الضرائب ، وأكرهوا الملك على عقد الجمعية العمومية سنة ١٧٨٩ فرفض النواب من الطبقتين الممتازتين أن يجتمعوا معهم ، وقد كان لكل طبقة (٣٠٠) نائب فصاروا جميعاً (٦٠٠) نائب وأربعمائة من الأشراف ، ورجال الدين هم الذين استكبروا أن يجتمعوا مع هؤلاء العامة ، اللهم إلا بعض أفراد تسللوا لواذا وحضروا مع نواب الشعب في مكان آخر غير قاعة الاجتماع وهو ملعب (التنس) وهناك أعلنوا أنهم هم (الجمعية الوطنية) .

ولما اجتمع جميع النواب لسماع خطبة العرش، وانصرف بعض الأشراف ورجال الدين شدد أمين الملك في طلب انصراف نواب الشعب فقال له (ميرابو) وهو أقوى النواب : «نحن هنا بأمر الأمة ، ولن نفارق مكاننا إلا بأطراف الأسنة » . وهنالك أمر الملك أن تكون الجمعية الوطنية مشكلة من الجميع بحيث يجتمعون معا ، ولكن العامة أوجسوا شراً من الملك بإشاعات تخيلوها ، فانقضوا على (حصن الباستيل) وهدموه وأطلقوا المسجونين فيه ، وكان ذلك في (١٤) يوليه ، وقد أصبح ذلك عيداً تاريخيا ، وهذا اليوم هو أحسن أعياد فرنسا . وازداد الجوع في فرنسا فدخل الشعب لاسيما النساء في شهر أكتوبر على قصر (فرساي)

يطلبون الخبز من الملك ، ولولا الحرس لدخلوا على الملك والملكة . فانتقل الملك إلى باريس وهكذا الجمعية الوطنية أيضا . وأصلحت الجمعية الوطنية القوانين . ونظمت كل شيء . وأزالت كل ظلم . ولكن العامة بعد ذلك تطرفوا وتغالوا وفقدوا رشدهم . فهرب الملك . فكشفوا أمره عند بلدة (فارن) فى يونيه سنة ١٧٩١ فقاده العامة إلى باريس ووافق على النظام الجديد الذى أسسته الجمعية الوطنية وأعلنت انحلالها : ولكن فى أثناء ذلك هاجر الأشراف خارج فرنسا واتفقوا مع النمسا وبروسيا على محاربة الثورة الفرنسية وإرجاع حقوق الملك إليه . ودعا الأمبراطور (ليوبولد الثانى) وهو أخو الملكة ملوك أوروبا لإخماد هذه الثورة . وهذا الأمبراطور وملك بروسيا أصدرا منشوراً للملوك فحواه [إنهما مستعدان أن يكسرا ثورة فرنسا مع من ينضم إليهما] .

وقهرت الأمة الملك على أن يعلن الحرب على النمسا ولكن جيوش فرنسا تقهقهرت أمام المغيرين فاتهموا الملك بالخيانة ، وكلما قربت بروسيا من فرنسا ازداد غضب الفرنسيين على الملك ، هنالك أعلن القائد البروسى [أن كل من مس شعرة من رأس الملك يقتل] فزاد ظنهم السوء به ، فهجموا عليه ، فهرب إلى الجمعية الوطنية سنة ١٧٩٢ . والحرس قاوموا ولكن الملك أمرهم أن يسلموا ، وهنالك كثرت الذبائح ، ذلك أنهم قد اتهموا كثيرا بالخيانة كما اتهموا الملك وقتلوا نحو (١٥٠٠) نفس ؛ وفى هذه الفترة أصلحوا الجيش فقاوم البروسيين وأعلنوا الجمهورية فى ٢٠ سبتمبر سنة ١٧٩٢ وألغوا الملكية ؛ وأخطر العامة المؤتمر أن يحاكم الملك بتهمة الخيانة فحاكموه وأثبتوها وحكموا عليه بالقتل ، ونفذ الحكم فى (٢١) يناير سنة ١٧٩٣ م وهذه الجمهورية لم تطل إذ تولى العرش نابليون سنة ١٨٠٤ وجعل نفسه أمبراطورا .

خطاب المؤلف لله عز وجل

اللهم إنك أنت الحكيم العليم العدل ، آنسنا عدلك ونظامك فى نجومك وشموسك وأقمارك ، نظام بديع ، لا بخس شعيرة ، حركات منتظمات ، وعجائب واضحات ، اتحدت أضواء الشمس السبعة وهى الأحمر والأصفر والأخضر والأزرق والبنفسجى والبرتقالى والنيلى ، اتحدت فكان اللون الأبيض ، وباتحادها سعدنا فى الحياة ، وشاهدنا سبلنا ؛ وتغذى نباتنا بمواد الكربون الطائر فى الهواء (انظره مشروحا مرسوما فى سورة يس) وهذه الألوان هى التى ظهرت بها أفانين الألوان فى الأزهار والأشجار وبدائع الجمال فى عوالمنا الأرضية ، انتظمت النجوم فى سيرها واتحدت فى أنها لا خلل فى حسابها ، فماذا كان ؟ ظهرت بها سعادتنا على الأرض ، أما فى البر فمعلوم ، وأما فى البحر فإن ربان السفينة العظيمة لن يفتأ ليلا ونهارا وهو فوق متن الماء ، ينظر الكواكب السيارة ويحسب حسابا دقيقا معقدا لا يعرفه سواه ، ولو أنه توانى لحظة لضل الطريق ولم يعرف أين هو ، فوق سطح البحر نجوم منظمة وأحوال كاملة ، هذا عملك ؛ وأنت على صراط مستقيم ، لقد خلقتنا فى وسط هذا النظام الجميل العجيب ، وأعطيتنا عقولا وقلت لنا «وأمرهم شورى بينهم»

فيارباه هاهو ذا نوع الإنسان آخذ فى التقليد لنظامك ، نظامك العجيب البديع ، نظامك الذى لا خلل فيه ، هذه هى النجوم رأيناها فى أماكنها دائرات منظمات ، لا تصادم ، لا تهافت ، لا خلل .

أما نظام أممنا وجماعاتنا فهو جاهل غير مبنى على التجارب المتعاقبة لأننا لا غريزة لنا نتبعها كغريزة النحل وغريزة النمل وغريزة الأرضة ، غرائز صافيات كاملات بها عاشت تلك الجمهوريات بغاية النظام . أما جماعاتنا وجمهورياتنا فإنك جعلتها مبنية على تجاربنا نحن ؛ فهاهو ذا القرآن يأمرنا بالشورى فقام بها أسلافنا ثم تركها آباؤنا وأجدادنا فتولاها قوم آخرون وكان رائدهم التجارب ، إنك أردت بذلك أن تكون سعادتنا ورقينا

مبنيين على جدنا واجتهادنا ، وأنت تبين المجتهدين فى أى أمر كان دينى أو دنيوى ، وها هى ذه فرنسا وانكلترا لهما مجالس شورية (البرلمانات) وهكذا أمريكا وبقية أوروبا ، وقد لحق بهؤلاء أهل الصين والفرس والترك .

اللهم إن عبادك لايزالون ضعافا فإن فرنسا التى أعلنت الحرية فى بلادها وهدمت حصن الباستيل وقتلت لويس السادس عشر وانكلترا التى قتلت (شارل الأول) لأجل ظلمهما هاهما معا قد انقضا على بلاد الإسلام ونرى فرنسا تريد تغيير دين البربر فى مراكش وتذل المسلمين فى شمال أفريقيا، وانكلترا تعبث بحقوق مصر وبعض بلاد العرب .

اللهم إن الإنسان لظلوم كفار ، قتل الإنسان ما أكفره إنه كان ظلوما جهولا ، إن الأمم حلت محل ملوكها المقتولين فى ظلمهم ، فهم يفعلون مع الأمم فى الظلم مافعله معهم ملوكهم ، وقد جهلوا أن هذه الأمم المظلومة ستفعل معهم لظلمهم مافعلوه هم مع ملوكهم عاجلا وآجلا .

اللهم إنك أنت حكيم . إن النوع الإنسانى قد جبل على أنه لايعرف قيمة شىء إلا إذا تعب فى تحصيله فهذه الأمم الشرقية سلطت أنت عليها دول الغرب لإذلالها ليكون ذلك باعثا لهم أن يتخلصوا بقوتهم هم ويخرجوا من قبضة الظالمين كما تخلصت تلك الأمم من ظلم ملوكهم الذين جعل الله ظلمهم وسيلة لجهاد شعوبهم وارتقائها ونيل حريتها .

خطاب المؤلف لأمم الإسلام وأمرائهم

ياأمم الاسلام : اسمعوا . هاهو ذا كتاب الله ينادى بالشورى . وهاهم أسلافكم كانوا قدوة الأمم . وهاهو ذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : [من رأى منكم فىّ اعوجاجا فليقومنى] وهاهو أحد آبائكم يقول له : [والله لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناك بحد سيوفنا] .

فهل فعلت انجلترا وفرنسا مع (شارل الأول) ومع (لويس السادس عشر) غير ذلك . عمر بن الخطاب الذى كان يلبس ثوبا مرقعا بضع عشرة رقعة بعضها من ليف . عمر بن الخطاب الذى منع ابنته من أن تضمخ إزارها بالروائح العطرية من بيت المال . هذا هو الذى فهم الدين وعرفه . وفهم معنى الشورى فدانت له المشارق والمغارب هو والخلفاء الراشدون . وأنتم يا أصدقائى قراء هذا التفسير لاتتوانوا فى إرشاد هذه الأمة فوالله إنى لأعتقد فى نفسى بأن أي خاطر يخطر لى فلا أكتبه للمسلمين يجر على جسمى وعلى عقلى أذى كبيرا فى الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر .

إياكم أن تتوانوا فى بث فكرة الإصلاح العام الذى فى هذا التفسير وفى غيره الذى يكون على شاكلته . على كل منكم أن يكون أمة بنفسه لا يتكل على غيره . إن المصلى منا يقول فى افتتاح الصلاة « وأنا أول المسلمين » . فلتكن أول مسلمى قريتك فى أمثال هذا الإصلاح وإعلانه ، أو مصلحى أمتك . إن الإنسانية آخذة فى الارتقاء والاتحاد على منوال ما فعله الله فى السموات والأرض ، وذلك لايتم إلا بالجهاد ، وليس الجهاد خادما بقتل الأعداء ، بل محاربة العدو جهاد أصغر . أما الجهاد الأكبر فهو ما ترونه فى أمثال هذا التفسير فإن نشر هذه الآراء يصلح جميع مرافق الحياة ومنها نظام الجيوش الذى لايتم إلا بإصلاح جميع أحوال المملكة ، وإن مداد العلماء أفضل من دم الشهداء . والعلم أعظم النعم فى الإسلام ، ليأخذ المسلمون عموما وأبناء العرب خصوصا مكانتهم العلمية ، وليقودوا هذه الأمم

المتخبطة الآن فى ديجور الحياة ، ولتكونن وجهة المسلمين اليوم أنهم يكونون أقوى من جميع الأمم ، ليقودوهم إلى معنى قوله تعالى « حتى تضع الحرب أوزارها » وذلك بالسلام العام ؛ وهل يعم السلام إلا إذا ساويتم الأمم فى جميع أعمالها .

وأنتم يا أمراء الإسلام اسمعوا منى نصيحة أنا ملزم أن أعلنها . من كان من بيت الملك منكم فليفكر فى أمبراطور اليابان جد الأمبراطور الحالى ، ذلك الذى لما عرف أن أوروبا تحاول إذلال مملكته نزل عن تلك العظمة التى جعلته هو وآباءه لا يرى الشعب لأنهم فوق الناس ، بل هم من نسل الآلهة (فى خرافاتهم) فسار فى الطرق وقال للناس : «ها أنا ذا الأمبراطور ، أنا مثلكم وأعلن التعليم العام فعلم الشعب وارتقت بلاده ، وهو وأبناؤه لا يزالون ملوكا بعظمتهم وملكهم ، والشعب هو الذى يتولى إدارة الشئون ، ولهم كما لملك الإنجليز حقوق لا تضر الشعب والشعب راض بهذه الحقوق » .

هذا هو ما أوصيكم به ، إن جهل الشعوب كان غير ضار بالملوك قديما ، أما الآن فإن الأمم بالمرصاد فهى لا تذر أمة ضعيفة إلا استعبدتها . وهذا هو العدل الإلهى ، فإذا كان قوم يعطلون نعم الله التى خلقها لعباده . وهناك قوم يقدرون على استخراجها . فمن عدل الله فى نظامه أن يرسل الآخرين ليسيطروا على هؤلاء الجهال الذين لم يستخرجوا نعمة لمنفعة عباده بصناعة أو زراعة أو تجارة . هذا قولى وأستغفر الله لى ولكم . كتب قبل الفجر وفى ضحى يوم الاثنين ٢١ فبراير سنة ١٩٣١م .

موازنة بين سيرة عمر وجمهورية سقراط

وتطبيق نظام الأمم العربية والتركية والفرنجية عليها

أيها المسلمون : قد ظهر الحق وانفلق عمود الصباح . أيها المسلمون : بهذا يفهم النوع الإنسانى معنى «كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر » .

أيها المسلمون : عمر وأمثال عمر هم الذين فهموا معنى قوله تعالى « إن الله بالناس لرءوف رحيم » ومعنى « الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم » . عمر رضى الله عنه رحيم بالعبد والحر والذمى والمسلم . قرأت فى بعض كتب الزيدية المطبوعة حديثا عن آل البيت «أنه صلى الله عليه وسلم رأى رجلا وامرأة فى السبى منكسى الرأس ذليلين ، فسأل عنهما ، فقيل إننا جئنا ابنهما لأجل طعام السبى ؛ فأمر برده إليهما» :

قد تقدم فى (سورة النحل) عند آية « إن الله يأمر بالعدل والإحسان الخ » آراء (سقراط) فى الحكومة ، وأنه رتبها خمسة أقسام ، وأن كل نام فإنه يذبل ، ونظام الحكومات والأفراد كنظام كل ماله حياة فهو شاب فكهل فشيخ فهرم وهكذا .

وها أناذا أوضحه هنا بعض الإيضاح ، وأعجب والله كل العجب من سياسة عمر رضى الله عنه ومن فراسته . الحكومة خمسة أقسام : أروستقراطية ، وتيموكراسية ، والياركية ، والديموقراطية ، والمستبدية .

ومعلوم أن الأمة كالفرد ثلاث طبقات : طبقة الفلاسفة وأولى العلم ، وطبقة الجند ، وطبقة بقية الشعب .

وهو يقول : « إن هؤلاء الحكماء هم الذين يحكمون القسمين الآخرين كما أن قوة العقل فى الإنسان تحكم قوة الغضب المقابلة للجند فى الأمة وتحكم قوة الشهوة المقابلة لبقية الرعية . ثم إن لكل قسم حقا يناله فى الأمة

وفى الفرد يجب أن يقوم بعمله ، فالجند تطيع الحكام ، والعامة يطيعون القسمين كما تطيع قوة الغضب عقولنا والشهوة تطيع العقل وقوة الغضب ، ولا معنى للعدل إلا هذا . فهذا معنى الحكمة والشجاعة والعفة والعدل . فاذا تولى حكم الأمة الحكماء فهذا معنى (أروستقراطية) وإذا مضى الجيل الأول فترت همة الجيل الثانى عن الفلسفة والعلم واكتفوا بقوة الجند وحكموا الأمة بمجرد القوة التى لاتصحبها الحكمة المستمدة من الله تعالى ، فهنالك تسمى الحكومة (تيموكراسية) والثانية أقل من الأولى درجة ، ولكن إذا تمادى الجند فى الحكم رأوا أنفسهم هم والأمراء الذين لاعلم عندهم ولاحكمة مغرمين بالمال إذيقتسمون مال الطائفة الثالثة ، وهنالك يتنزل الأبناء عن منزلة آبائهم ، وتكون الحكومة إذ ذاك (اليغاركية) وهى حكومة الثروة. فالحكمة فى الأولى تنزلت إلى حماسة فى الثانية ، وهذه تنزلت إلى مطامع الشهوة وجمع المال ؛ وهنالك تزيد غلات فريق الحكام ويصبح الناس طبقتين اثنتين لاغير : أغنياء يملكون أكثر ما فى الدولة وهم قليل جدا وفقراء وهو جميع الشعب فلا مناص من قيام الشعب على طبقة الحكام وإذلالهم والاستحواذ على أموال الدولة وهذه تسمى (ديموقراطية) وهى دولة التهتك والخلاعة وعدم الحياء والصيانة فيصبح الأمر فى يد العامة والجهلاء ، ولا يحترم الابن أبويه ولا المحكوم الحاكم وهكذا ، ونظير هذا فى الفرد الواحد التهتك والخلاعة وعدم الحياء والمجاهرة بكل موبقة وعدم الاكتراث بالعار والشنار ، والأمة إذا وصلت لهذه الدرجة فلابد من ظهور واحد فيها يستبد بها ويذلها ويقهرها وهذه هى الحكومة الخامسة وهى الاستبدادية ، وخير هذه الخمس أولها وشرها آخرها ، والثلاثة التى بينهما مرتبات ترتيبا تنازليا .

هاهنا فلننظر ، أليس ماقاله أفلاطون فى الجمهورية (التى ألقاها الله على قلبه وعلى قلب سقراط أستاذه قبل ظهور النبوة المحمدية بمدة تزيد على تسعة قرون) أصبح نموذجا لنا نفهم به قيمة الحكومات ونمتحنها ونبحث فيها بجد .

سبحانك اللهم وبحمدك ، علمت قلة علومنا ، وعلمت انقطاع سند العلم بيننا ، فأطلعتنا على آراء سقراط ففهمنا أنها أشبه بمقدمة لهذا الدين الحنيف .

أقول هذا وأنا موقن به ، إن عقلاء أمم الأرض وحكماءهم فى عصرنا وبعده كلهم يقدسون سقراط وأفلاطون من حيث التفكر ، ومتى عرفوا أن هناك تلاؤما وتوافقا بين المدنية التى اختطها عمر رضى الله عنه وبين مارسمه هذا الفيلسوف أيقنوا بمعنى « كنتم خير أمة أخرجت للناس » .

إن الذى يأمر جنده أن لايأخذوا أرضا ليزرعوها من فلاحى الأمة التى دخلوها ويقول أنتم أيها الجند عليكم حفظ البلاد ولكم أرزاقكم على بيت المال وكفاكم ماتأخذون منه ، ويقول : أنتم إذا ملكتم الأرض تنازعتم وفشلتم وتذلون عباد الله ويذلون ملككم ، ولما خالف بعض رجاله هذه الأوامر بمصر أرسله عمرو ابن العاص إلى عمر فهابه هيبة شديدة كما تقدم ، ولما أظهر التوبة عفا عنه .

أقول : إن الذى يفعل هذا فى ذلك الزمان الذى كان الفرس والروم فيه قد انتهوا فى الحكم إلى الدرجة الخامسة وهى الاستبدادية وهى أدنى الدرجات ؛ ثم نراه يحكم الناس بالطريقة التى مدحها (سقراط) فى الجمهورية وهى أن الجند لايجوز لهم أن يكون لهم ملك لئلا يميلوا إلى جمع المال وكفاهم رزقهم الذى يفرض لهم من الخراج الذى تدفعه الرعية .

أقول : إن الذى يفعل هذا كله وهو لم يقرأ تلك الجمهورية ولا غيرها بل هو فى أمة كلهم أميون وليس عنده من العلم إلا أعماله صلى الله عليه وسلم والقرآن الذى جاء فيه «ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » وجاء فيه «إن الله يأمر بالعدل والإحسان» .

أقول: أمثال هذا إنما جعله الله نموذجا لأمم الأرض قاطبة فى الشرق والغرب . والإنسانية التامة لابد يوما ما صائرة إليه ، إن الله عز وجل أبقى جمهورية أفلاطون فى الأمم وهى مترجمة بجميع اللغات وفيها هذه المراتب ولم يظهر لاعلى يد أفلاطون ، ولا على يد أستاذه سقراط ، ولا على يد دولة اليونان ولا الرومان حكومة تكون مثلا أعلى لأمم الأرض وإنما ظهرت فى (٣٠) سنة وهى مدة الخلافة وبقيت فى التواريخ ، وهذا مصداق حديث «الخلافة بعدى ثلاثون» وإذن نفهم معنى «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين» فهذه هى الرحمة العامة :

أليس من العجب أن الأمم الإسلامية بعد عصر الخلافة اعتراها مااعترى الزرع وكل حى من أنه آيل التفرق والانحلال ، ألم تحصل هذه المراتب الخمسة التى رتبها (سقراط) فى الحكومات وقال إنها أمور طبيعية لايمكن اجتنابها ولا تلافيها ، ورأينا أبناء العظماء بعد تلك الخلافة وبعد الصحابة (الذين كانوا مجتهدين) قد نزلوا إلى الحكومة (التيموكراسية) ونرى ذلك فى أوائل حكم بنى أمية وبنى العباس وهى حكومة الجند لاحكومة العلماء الذين يسيرون بالحق التام . ألم تر أن بعض أواخر دولة بنى أمية قد تنزلوا عن أخلاق آبائهم إلى درجة (الاوليغاركية) كما تنزل ملوك بنى العباس بعد المأمون والمعتصم ونحوهما إلى تلك الدرجة وعكفوا على الغانى والشرب واللذات ، هكذا ترى الفرس الذين استعان بهم بنو العباس لكسر شوكة العرب قد تغلغلوا فى الدولة الإسلامية ، وأخذ الملك يرجع القهقرى ، وأذلوا الرعية كما أذلوا الملوك وهكذا الأتراك .

أليس ذلك قريبا من المرتبة الرابعة وهى (الديموقراطية) وهى التى يثور فيها المحكومون على الحاكمين ولايبقى للحكومة هيبة ، ثم ظهر فى الأمة مستبدون من القواد فحكموا الأمة بيد من حديد . ويمثل الديموقراطية أيضا (قيام طائفة الانكشارية) فى الترك على ملوك بنى عثمان ، وكم عمل الجند أعين الخلفاء العباسيين كما فعل أمثالهم من الانكشارية مع ملوك بنى عثمان ، ولتعجب مما تقدم قبل هذا من أمر ملوك فرنسا أيام لويس السادس عشر ومن قبل لويس ، وكيف رأيت فيما تقدم هنا أن الأشراف ورجال الدين ماكانوا يدفعون الضرائب ، وكانت الرعية أذلة للطائفتين « أليست هذه هى الحكومة الثالثة وهى (الاوليغاركية) وهى حكومة الثروة وجمع المال ، وهى أدنى من الحكومة الارستقراطية ومن الحكومة التيموكراسية أى حكومة الفلاسفة وحكومة الجند . وانظر كيف اضطربت الأمة كلها على بكرة أبيها وقامت فقتلت (١٥٠٠) من محبى الملك وقتلوه على مرأى ومسمع من أوروبا كلها والملوك كلهم بالمرصاد » وقد اتحد الروس وأهل بروسيا على قتال فرنسا ، أليست هذه هى الحكومة الديمقراطية التى هى أسفل وأدنى منزلة من الثلاثة قبلها وهى الحكومة التى تكون بيد الأمة كلها . ثم انظر بعد ذلك ، ألست ترى أن نابليون ذلك الضابط الصغير لما ضرب الثائرين بالمدافع خضعت الأمة إذ أمسكها بيد من حديد ، أليست هذه هى الطبقة الخامسة وهى أدنى الحكومة باعتبار عمومها لأنها هى حكومة المستبد وإن كان نابليون له مزايا لطفت الاستبداد .

اللهم إنى أحمدك وأشكرك على نعمة العلم ونعمة الحكمة ، اللهم إن العلم الذى لاتطبق عليه أحوال الأمم لايفيد الفائدة التامة المرجوة .

اللهم إنى أحمدك إذ كشفت لى حقيقة أمتنا الإسلامية . وعرفتنى طرق إصلاحها . وكيف غشت الجهالة على أقوام وأقوام من أسلافنا ، فابتدعوا أحاديث ، واختلقوا لها أسانيد ، وجعلوا حكم الأمم منشؤه الأنساب فى حد ذاتها . كلا والله . كذب والله .

اللهم إنك شرحت صدرى للعلم وأنا أكتبه لأمتنا الإسلامية ، فأنا أحمدك حمدا كثيرا وأشكرك . أحمدك أن وفقتنى ، وجعلت لى أصدقاء فى جميع أقطار الاسلام ، وهم هم الذين سيبطلون الباطل ويحقون الحق ، أنت يارب أردت ذلك ، هم سيشرحون هذه المسائل العلمية ويبينونها للناس ، هم الذين سيدرسون علوم

الأمم وعلوم الإسلام وعلوم النبوة ـ التي نحن معاشر المسلمين أكثر الأمم جهلا بحقائقها ـ وذلك بما انتشر بيننا من الدعايات لأهل الأنساب بحيث يرث الابن أباه في حكم الأمة وإن كان جاهلا غبيا ، ما كفاعل الحر والنفاق فيهلك وتهلك أمته معا ، لاسيما في زماننا .

هذا ، وقد يتخذ أمثال هذا الأمير الدول الأوروبية وسيلة لاستعباد الأمم الإسلامية ويذلونها باسمه ، وليعلم الملوك والأمراء الاسلاميون أني لست أقول أعطوا الملك لغير أبنائكم فإن ذلك ليس في الإمكان ولكني أقول : (يجب أن يتعلم الشعب كله لأن الملك وحده لايقوم مقام الأمة ، وإذا كان ولي العهد صالحا للملك فهو أحق من غيره ، ولكن لسنا على يقين من أن الأعقاب يكونون على منوال الآباء بدليل ماتقدم من حوادث التاريخ ومن نفس طبيعة النوع الإنساني) .

فلينظر علماء الإسلام الذين يقرءون هذا التفسير وملوك وأمراء الإسلام ، فإذا أنسوا من بيت الإمارة والملك علما وكمالا وسياسة وحكمة فهم أولى بالحكم ، ولكن لما كان عالمنا الذي نعيش فيه يسير على طريقة تنازلية بحيث يكون كل جيل أضعف مما قبله وهكذا وجب (لأجل الاحتراس) أن يجعل الأمر بيد مجلس الأمة ، وهؤلاء الملوك ينفذون مايقرره المجلس وللملك مزايا خاصة تقرر بينهم وبينه ، فهنالك يحصل الغرض المطلوب ، فالأمة كلها تجد في التحصيل وتحس بالتبعة الملقاة على عاتقها ويخف الحمل عن الملك وأعوانه ، ويبقى الأمير أو الملك موضع الإعزاز والإعظام والإجلال ، وذلك كما في بلاد اليابان وبلاد الانجليز ، حتى إذا كان أحد الأبناء منحرفا عن الجادة فإن الأمة والوزراء هم المسئولون وكفى .

وقد ذكرت هذا من قبل وأكرره في كل مناسبة ، هذه طريقة سهلة ، فاذا لم توفق أمة من أمم الإسلام إلى ذلك فلتجعل الامارة بالانتخاب والشورى كما فعل سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه وكما تفعل الولايات المتحدة ، ومتى انتظمت إمارات الإسلام وجب على الأمراء أن يجتمعوا وينتخبوا واحدا منهم يكون خليفة المسلمين كأبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، ويكون انتخابه لمدة معينة نحو خمس سنين ، وذلك خيفة أن تتغير أطواره فتحصل الفتنة . هذا مافتح الله به في معنى «وأمرهم شورى بينهم» .

أما أن نسمع أن أمم الإسلام تتخذ رجلا لأجل نسبه وتقول إنه إله أو الإله حل فيه ويجعل له أعوانا يشيدون باسمه ، أو تتخذ آخر لأجل صلاحه وقد اجتمع حوله تلاميذه فجعلوه فوق جميع الأولياء والصالحين وذكروا له كرامات ، ثم يحكم الناس بهذه الوسيلة فيقولون هو المهدي (اقرأ ما في أول سورة الحج من الكلام على المهدي) أو نحو ذلك فهذه أشبه بأمواج في بحر السياسة تموج فيه ثم تضمحل عند الشاطئ اقرأ ذلك في أخبار المهدي محمد بن تومرت في سورة سبأ وفي سورة الكهف عند آية «وما كنت متخذ المضلين عضدا» . اللهم إني كتبت مافتحت به علي اليوم ولك الحمد على نعمة العلم .

إن الرجال الذين اشتهروا بالصلاح وهم حريصون على المال لهم منافع ومضار وضرهم أكثر من نفعهم أما الذين وصفناهم وقررناهم فهم الذين يجب أن يتولوا الملك لأن نفعهم أكثر من ضررهم .

***

ولأختم هذا المقام بحديث دار بيني وبين أحد مشايخ الطرق بمصر . ذلك أني كنت أسكن بجهة طولون عند قلعة الكبش ، وكان بيتي بالقرب من شيخ طريقة معظم في بلاد الصعيد ، وهذا الشيخ له مريدون وأكثرهم من البرابرة . وكان إذا نزل الصعيد وعلم مريدوه قابله ٥٠٠ خيال احتراما له واتخذوا يوم حلوله عيدا لهم ، وهنالك يكسو الرجل زوجته وأبناءه وبناته . ويكون الفرح والهناء بقدم الشيخ والبلاد

التي

التى يعظمه أهلها تقل فيها السرقات . وقد شرح ذلك شرحا بينا فقال : أنا إذا قدمت القرية يحضر زيد فيقول لى يا أستاذى أنا أخطأت لاتغضب على فيقول له من كان معك ؟ فيقص القصص إنه هو وفلان وفلان وفلان سرقوا بقرة أو نقبوا حائطا أو قتلوا رجلا . فهنالك يقطب الشيخ وجهه وقد حفظ أسماء الشركاء . فمتى حضر أحدهم يأمر الشيخ بعدم دخوله عليه . فهنالك يزيد الاعتقاد فى الشيخ .

فهذه هى منافع هؤلاء الشيوخ . فأما مضارهم فان هذا النفع لاقيمة له لأنه لم يكن من نفس الفرد بل إنه خائف من الشيخ ، والشيخ لاينال هذا إلا بجهل أتباعه . وأمة هذا شأنها تكون عالة على المجتمع الإنسانى . وبعض هؤلاء الشيوخ يمثلون عجل السامرى . وهذا العجل يجب أن يحرق ويذرى فى الهواء كما فعل موسى فإن التقوى المبنية على الرعب من نفس الشيخ تقوى لابقاء لها وهذا هو الانتكاس وضياع الأمم بل لابد من الإرشاد والتعليم .

وهذه المسألة الجزئية تفسر لنا الطريق التى سنها حسن بن الصباح فى قلعة الموت هى مذكورة فى (سورة الكهف) فلا يظهر لأتباعه وقد حرم عليهم دراسة العلوم وحكمهم بمثل هذه الطريقة ثم انقرضت تلك الدولة . فمهما كانت نية القائم بالأمر من الإصلاح فهى مخالفة لدين الإسلام وضارة بالأمم وفساد للمجموع .

***

وهناك حديثا آخر حدثه لى هذا الشيخ وأنا معه فى منزله وأتباعه يذكرون الله والمنشد يغنى . قال: إن أحد أتباعى بالصعيد (وكان أعمى) أخذ يجد فى العبادة والذكر على حسب طريقتى . فأخذ الناس يذكرون له كرامات وسمع هو بذلك فصار يتظاهر بما يدل على ذلك حتى أشاعوا أنه ارتقى فوق مرتبتى أنا ، وأنه نال فوق مانلت . فلما نزلت ببلدتهم وكان الجمع محتشدا وهو بينهم وقفوا جميعا أما هو فانه بقى جالسا ليحقق قولهم وأنه أعلى من شيخه فى الولاية ، فسلمت عليهم جميعا . ولما لم يقم لم أسلم عليه مع أنه لو كان غيره من الناس لضربوه وأهانوه ، ولكنهم احترموه لأنه أصبح أعلى فى مقام الولاية منى ؛ فأوعزت سرا إلى أحد أتباعى أن يسرق حذاءه . فلما أخذنا ننتقل من ذلك المكان وقام معى هذا الجمع المحتشد لم يجد حذاءه . وظهر للناس أنه لاعلم له بمن سرق نعله . إذن هو ليس بولى فتركوه فمشى حافيا ، ثم أتى ليذكر مع الذاكرين فأخرجه أتباعى بأمرى . فشكاها إلى ، فقلت له : إن الولاية لى أنا فكيف تتكبر على بها ، وأخذ يوبخه على فعلته ثم عفا عنه ، فرجع فردا من الأفراد والتلاميذ المعتادين .

وإنما ذكرت هذا لأنه معهود فى أكثر ديار الإسلام والحمد لله رب العالمين . كتب صباح يوم الخميس ٢٤ رمضان سنة ١٣٤٩ هجرية و ١٢ يناير سنة ١٩٣١ م .

بيان العدل العام فى السموات والأرض

وأن الشورى مفتاح العدل ، وأن العدل والجمال يرجعان لأمر واحد فيكون جمالا فى المحسوسات أو موسيقى ، وغريزة فى الحيوان ، وعدلا عند الإنسان ، ثم ذكر أنباء الشورى فى زمن النبوة والخلافة وبقاء الملك ، ثم بيان تركها وذهاب الملك ، وتبيان أن المسلمين بسبب ماذاقوا من حلاوة الشورى فى زمان أبى بكر وعمر قتلوا عثمان غيلة لما ظنوا أنه يفضل بنى أمية ولم يلم بهم من الظلم عشر معشار ما ألم بالانجليز حين قتلوا (شارل الأول) فى القرن السابع عشر ، ولا ما ألم بالفرنسيين إذ قتلوا (لويس السادس عشر) فى القرن الثامن عشر ، ولا بالألمان إذ ثاروا على أمرائهم فى القرن التاسع عشر

بعد ما كتبت ماتقدم من أمر الشورى فى بلاد فرنسا وانكلترا (تطبيقا على آية « وأمرهم شورى بينهم ») وبيان أن هذه الثورة السياسية فى الأقطار الأوروبية لم تكن لديهم إلا من آثار النهضة الاسلامية الأولى ، جاشت النفس بخواطر فى أمر الشورى فى مدة الخلافة الاسلامية وهى (٣٠ سنة) وكيف كانت إذ ذاك ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم هو الذى بين الشريعة للناس ، فالصلاة والزكاة والصيام والحج لولا فعله صلى الله عليه وسلم وفعل أصحابه ماعرفنا شيئا منها ، فآية الشورى آية مجملة والإجمال لايغنى عن التفصيل والله يقول « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس مانزل إليهم » ونحن إذا اكتفينا فى تفسير هذه الآية بما تقدم نكون قد خالفنا منهج الحق وهذا الكتاب اليوم بين يدى المسلمين ، فحق على أن أذكر جملة صالحة توضح أمر الشورى فى عصر النبوة وفى عصر الخلافة حتى يعرف الناس السبب فى هذا الملك العظيم الذى امتد شرقا وغربا ولماذا أزال الله ذلك الملك ومزق أبناء الذين قاموا بهذا الأمر تدريجا بعد العصور الأولى ، وأقدم قبل ذلك مقدمة فى النظام العام فى السموات والأرض . فأقول :

اعلم أن العدل والجمال يرجعان معاً إلى النظام العام ، فكل ما كان منظما فهو مرغوب فيه محبوب ، وما فقد النظام فهو منفور منه ، إن النظام حليف الدوام ، والاختلال يتبعه التفرق والانحلال ، إن من اطلع على هذا التفسير أو أكثر فإنه يوقن أن نظام الكواكب والشموس والأقمار نظام تام عجيب لا خلل فيه فكانت نتائجه لاحصر لها ، إن التناسب وحسن النظام إذا فارق الأجسام الحيوانية والنباتية لم تكن لها حياة ، وإذا لم يكن تناسب بين الخدين العينين والمنخرين والفم فى الوجه فقد الجمال ، فالجمال يتبع التناسب والقبح يلازم عدم التناسب ، هكذا كل عضو من أعضاء الإنسان والحيوان ، وكل غصن أو ورقة من نبات لها نسب خاصة ، وبغير تلك النسب لا تكون حياة للنبات ولا الحيوان .

تقدم فى هذا التفسير فى غير ما موضع أن شبر الانسان مقياس لأعضائه ، فهو ثمانية أشبار بشبره ربعها من الركبتين إلى القدمين ، وربعها من الركبتين إلى الحقوين ، وربعها من حقويه إلى رأس فؤاده ، وربعها من رأس فؤاده إلى مفرق رأسه ، وإذا مد يديه يمنة ويسرة كان امتدادهما (٨) أشبار أيضا ، وإذا مد يديه إلى فوق رأسه فإنه يجد أن المسافة من السرة إلى أطراف أصابعه (٥) أشبار كالمسافة التى بين السرة والقدمين ، أنا لا أطيل فى هذا لأنه تقدم ولكنه تذكير بجمال الوضع فى العالم المشاهد والكمال فيه ، وهذا فى المشاهد المحسوس بحاسة البصر ، ومثله المحسوس بحاسة السمع كما تقدم كثيرا فى غير ماموضع فإن الموسيقى القديمة المبنية على نسب (البم والمثنى والمثلث والزير) والموسيقى الحديثة المبنية على قاعدة المتوالية الهندسية (١٦ - ٣٢ - ٦٤) وهكذا لم تخرج عما تحبه النفوس من النظام والجمال .

الله أكبر . اللهم إنك أنت الجيل الحكيم العليم . أنت الذى أحكمت ملكك ، ونظمت خلقك . عجبنا يارب من إبداعك . أنت واحد ونظامك واحد ، ولكن اختلفت مظاهره . أنت سريع الحساب فإن كان ذلك الحساب فى الشاهدات بحاسة البصر كبهجة الأشجار وجمال الأزهار والزروع ، وجمال الوجوه سميناه جمالا (وإن هو إلا تناسب بين الألوان والأغصان والأوراق والأعضاء بحساب لا خطأ فيه البتة كحساب سير الكواكب . انظر حضه فى سورة الحجر عند آية « وأنبتنا فيها من كل شىء موزون » فهناك تعرف أيها الذكى لم فرح الناس بالأشجار وعدوها جميلة ، وهناك تشاهد رسم الأوراق والهندسة فى الدوائر التى تكونت على الأغصان وأكثر أهل العلم عنها غافلون) وإن كان فى المسموعات سميناه موسيقى واستلذت النفس به ، وإن كان ذلك الاتقان فى جماعة الحيوان كما تقدم فى جمهورية النحل وجمهورية النمل وجمهورية الأرضة (المذكورات المصورات فى سورة النحل والنمل وسبأ) سميناه غريزة ، وإن كان ذلك الاتقان فى سياسة الإنسان العامة وحفظ الجماعة سميناه عدلا .

عجبا يا ربنا ، أينما قلبنا الطرف وأدرنا وجوهنا يمينا ويسارا وفوق وتحت لا نجد إلا نظاما واحدا ، وهذا النظام له مظاهر مختلفات ، فهو جمال ونغمات وغريزة وعدل ، وأقرب المخلوقات إلينا هذه الحيوانات التى نظمت ممالكها نظاما أدهشنا ، عجز الإنسان والله عجزا ظاهرا أن يجارى النمل فى جمهوريته أو يساوى النحل فى مملكته ، أو يجارى الأرضة العمياء التى تحكمت الألوف من تلك الحشرات التى هى عميا ، مثلها فهذه يا ربنا حكومات منظمات على منوال مانظمت أنت من جمال وجوهنا وبدائع أشجارها وأزهارها والأثمار ؛

نعم الإنسان لم يقدر أن يجارى هذه الحشرات ولا غيرها ، فإن عدل يوما ظلم سنين ، وإن علم شيئا جهل أشياء ، أنت أعطيته الحرية ، ووهبته معها عقلا ، وقلت له : دونك التجربة ، ولم تذره ونفسه ، بل أرسلت له أنبياء فعلموه ، وخلقت قوما حكماء فهموه ، ومع ذلك لا تزال الشقوة تحيط به ، والقتل يغشاه وآخر من أرسلته من الأنبياء نبينا صلى الله عليه وسلم وجاء فى وحيك « وأمرهم شورى بينهم » . فها نحن أولاء نبحث فى سيرته صلى الله عليه وسلم وسيرة الخلفاء الخاصة بالشورى ، فنجد أنه روى أن المشركين نزلوا بأحد يوم الأربعاء ثانى عشر شوال سنة ثلاث من الهجرة ، فاستشار الرسول عليه الصلاة والسلام أصحابه ودعا عبد الله بن أبى ابن سلول ولم يدعه من قبل ، فاستشاره فقال عبد الله بن أبى ابن سلول : « كثر الأنصار يا رسول الله ، أقم بالمدينة ولا تخرج إليهم فو الله ما خرجنا منها إلى عدو قط إلا أصاب منا ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه فكيف وأنت فينا ؟ فدعهم يا رسول الله فإن أقاموا أقاموا بشر محبس وإن دخلوا قاتلهم الرجال فى وجوههم ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم ، وإن رجعوا رجعوا خائبين » وكان صلى الله عليه وسلم أميل إلى هذا الرأى وقال بعض أصحابه « اخرج بنا إلى هذه الأكلب لئلا يروا أنا جبنا عنهم وضعفنا وخفناهم » . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنى قد رأيت فى منامى بقرا فأولتها خيرا ، ورأيت فى ذباب سيفى ثلما فأولتها هزيمة ، ورأيت أنى أدخلت يدى فى درع حصينة فأولتها المدينة . فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم » فقال رجال فاتتهم بدر وأكرمهم الله بالشهادة يوم أحد : « اخرج بنا إلى أعدائنا » وبالغوا حتى دخل فلبس لامته . فلما رأوا ذلك ندموا على مبالغتهم . وقالوا : اصنع يا رسول الله ما رأيت ، فقال : « لاينبغى لنبى أن يلبس لامته فيضعها حتى يقاتل » اهـ

(اقرأ بقية الكلام على هذا المقام فى [سورة آل عمران] فى المجلد الثانى من هذا التفسير) . إذن هانحن أولاء رأيناه صلى الله عليه وسلم كان يميل إلى أن يبقى فى المدينة لأنها تأويل الدرع الحصينة التى رآها فى المنام ولكن لما أشاروا عليه لبس لامته ولم يرجع عما أشاروا به وإن كانوا هم ندموا على مبالغتهم فى طلب الخروج

القاء . وهكذا نجد عمر رضى الله عنه هو من خلفائه يجد فى العدل والعفة . ولا يبرم أمراً إلا بمشورة أصحابه حتى ما يختص بأمر نفسه ، وما يقوم بأمر معاشه .

(أولا) - ذلك أنه جمع الناس بالمدينة حين انتهى إليه فتح القادسية ودمشق ، فقال إنى كنت امرءا تاجرا وقد شغلتمونى بأمركم هذا فماذا ترون أنه يحل لى من هذا المال فأكثر القوم وعلى رضى الله عنه ساكت ، فقال : ياعلى ماتقول؟ قال مايصلحك ويصلح عيالك بالمعروف ليس لك من هذا الأمر غيره ، فقال القول ماقال على بن أبى طالب .

وأخرجا عن أسلم قال : قام رجل إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال : مايحل لك من هذا المال ؟ فقال ما أصلحنى وأصلح عيالى بالمعروف وحلة للشتاء وحلة للصيف وراحلة عمر للحج والعمرة ودابة لحوائجه وجهاده.

وروى الطبرى أن هذا العطاء الذى رضيه عمر لنفسه وفرضه له المسلمون لم يكفه واشتدت به الحاجة فاجتمع نفر من المهاجرين منهم عثمان وعلى وطلحة والزبير وتشاوروا فى زيادة يزيدونها لعمر فى رزقه من بيت المال فهابوا مقابلته بذلك فأتوا بنته حفصة وأمروها أن تخبره بالخبر وترى رأيه فيه ولا تذكر له أسماءهم فلما أخبرته بذلك عرفت الغضب فى وجهه وقال لها: من هؤلاء ؟ قالت لاسبيل إلى علمهم حتى أعلم رأيك فقال لو علمت من هم لسوءت وجوههم أنت بينى وبينهم أنشدك بالله ما أفضل مااقتنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيتك من الملبس (وكانت زوجته) قالت ثوبين ممشقين كان يلبسهما للوفد ويخطب فيهما للجمع قال فأى الطعام ناله عندك أرفع ؟ قالت خبزنا خبزة شعير فصببنا عليها وهى حارة أسفل عكة [1] فجعلناها هشة [2] دسمة فأكل منها وتطعم استطابة لها ، قال فأى مبسط كان يبسطه عندك كان أوطأ [3] قالت كساء لنا ثخين كنا نربعه فى الصيف فنجعله تحتنا فإذا كان الشتاء بسطنا نصفه وتدثرنا بنصفه قال يا حفصة فأبلغيهم عنى أن رسول الله ﷺ قدر فوضع الفضول مواضعها وتبلغ بالترجية ، وإنى قدرت فوالله لأضعن الفضول مواضعها ولأتبلغن بالترجية [4] وإنما مثلى ومثل صاحبى كثلاثة سلكوا طريقا فمضى الأول وقد تزود زادا فبلغ ثم اتبعه الآخر فسلك طريقه فأفضى إليه ثم اتبعه الثالث فان لزم طريقهما ورضى بزادهما لحق بهما وكان معهما وإن سلك غير طريقهما لم يجامعهما .

هكذا كان شأن عمر رضى الله عنه فى العفة والقناعة والرضا بالكفاف مما يسد الجوع ويستر العرى. وروى فى المناقب عن الحسن قال: خطب عمر الناس وهو خليفة وعليه إزار فيه اثنتا عشرة رقعة وفى المناقب أيضا عن أبى عثمان النهدى قال: رأيت عمر بن الخطاب يطوف بالبيت وعليه إزار فيه اثنتا عشرة رقعة إحداهن بأدم (جلد) أحمر . وفيها عن قتادة أن عمر بن الخطاب أبطأ على الناس يوم الجمعة ثم خرج فاعتذر إليهم فى احتباسه وقال : إنما حبسنى غسل ثوبى هذا ولم يكن لى ثوب غيره .

وفيها عن مصعب بن سعد بن أبى وقاص قال : قالت حفصة بنت عمر بن الخطاب لعمر ياأمير المؤمنين لو لبست ثوبا هو ألين من ثوبك هذا وأكلت طعاما هو ألين وأطيب من طعامك فقد وسع الله من الرزق وأكثر من الخير ، فقال إنى سأخاصمك إلى نفسك ، أما تذكرين ماكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلقى من العيش ، فما زال يذكرها حتى أبكاها .

(ثانيا) - جاء فى (كنز العمال) عن النعمان بن بشير أن عمر بن الخطاب قال فى مجلس وحوله المهاجرون والأنصار : أرأيتم لو ترخصت فى بعض الأمور ما كنتم فاعلين فسكتوا فقال ذلك مرتين أو ثلاثا ، فقال بشير

---

(١) قربة السمن الصغيرة .
(٢) طرية .
(٣) ألين .
(٤) قال فى القاموس: تبلغ بكذا اكتفى به . والترجية والرجاء بمعنى واحد: وهو ضد اليأس .

ابن

ابن سعد لو فعلت ذلك قومناك تقويم القدح (وهو السهم المعوج قبل أن يراش وينصل) فقال عمر : أنتم إذن أنتم إذن (استحسانا لقولهم) وفي المناقب عن عبد الجبار بن عبد الواحد التنوخي قال : قال عمر رضي الله عنه وهو على المنبر : أنشدكم الله لا يعلم رجل مني عيبا إلا عابه فقال رجل نعم يا أمير المؤمنين تديل بين البردين وتجمع بين الأدمين ولا يسع ذلك الناس قال فما أدال بين بردين ولا جمع بين أدمين حتى لقي الله . وقوله تديل بين البردين أي يلبس قميصا ويغابه ويلبس غيره . وذكر بعض المؤرخين أنه خطب يوما فقال : أيها الناس من رأى منكم في اعوجاجا فليقومه ، فقام رجل فقال : والله لو وجدنا فيك اعوجاجا لقومناه سيوفنا ، فقال عمر : الحمد لله الذي أوجد في المسلمين من يقوم اعوجاج عمر بسيفه .

(ثالثا) ـ قال الأحنف بن قيس : كنت مع عمر بن الخطاب فلقيه رجل فقال يا أمير المؤمنين انطلق معي فأعدني على فلان فإنه قد ظلمني فرفع عمر الدرة فخفق بها رأسه فقال : تدعون أمير المؤمنين وهو معرض لكم حتى إذا شغل في أمر من أمور المسلمين أتيتموه أعدني أعدني. قال فانصرف الرجل وهو يتذمر قال «أي عمر» علي الرجل « أي ردوه علي » فألقى إليه المخفقة . وقال امتثل «أي اقتص بمثل الضربة» فقال لا والله ولكن أدعها لله ولك ، قال ليس هكذا أما أن تدعها لله إرادة ما عنده أو تدعها لي فاعلم ذلك ، قال أدعها لله قال «أي الأحنف » فانصرف ثم جاء يمشي حتى دخل منزله ونحن معه فصلى ركعتين وجلس فقال « يخاطب نفسه » يا ابن الخطاب كنت وضيعا فرفعك الله وكنت ضالا فهداك الله وكنت ذليلا فأعزك الله ثم حملك على رقاب الناس فجاءك رجل يستعديك فضربته ما تقول لربك غدا إذا أتيته ؟ قال فجعل يعاتب نفسه في ذلك معاتبة حتى ظننا أنه خير أهل الأرض .

(رابعا) ـ من إنصافه الرعية ، ما روي أنه أتى رجل من أهل مصر إلى عمر بن الخطاب فقال يا أمير المؤمنين عائذ بك من الظلم ، قال عذت معاذا . قال سابقت ابن عمرو بن العاص فسبقته فجعل يضربني بالسوط ويقول : أنا ابن الأكرمين، فكتب عمر إلى عمرو يأمره بالقدوم عليه ويقدم بابنه عليه فقدم، فقال عمر أين المصري خذ السوط فاضرب فجعل يضربه بالسوط ويقول عمر اضرب ابن الأكرمين ثم قال المصري ضعه على صلعة عمرو : قال يا أمير المؤمنين إنما ابنه الذي ضربني وقد اشتفيت منه فقال عمر لعمرو : مذ كم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ، قال يا أمير المؤمنين لم أعلم ولم يأتني (يعني) المصري .

(خامسا) ـ ومن معاملته لأهل الذمة وشفقته عليهم ما جاء في نفس هذا الكتاب وهذا نصه : «ومن جميل سياسته اهتمامه بأهل الذمة الذين دخلوا في عهد المسلمين وسلطانهم من الشعوب غير المسلمين ووصاياه للعمال بالحرص على راحتهم وتجنب ظلمهم وأذاهم وبلغ اهتمامه بهم أن كان إذا غابت عنه أخبارهم أو بلغه أقل شيء عنهم يستدعي ذوي أمانة من المسلمين الذين أقاموا في بلادهم ويسألهم عن أحوالهم ويستقصي سيرة العمال معهم ومن ذلك ما رواه الطبري في تاريخه أن عمر رضي الله عنه كتب إلى أمير البصرة أن يبعث له جماعة من ذوي الرأي والبصيرة فأرسل إليه وفدا فيهم الأحنف بن قيس فسألهم عن أهل الذمة وهل يشكون ظلما أو حيفا فأجابوه بالسلب ولم يطمئن لقولهم حتى استوثق من الأحنف وكان يثق بصدقه ثم صرفهم .

ومن أجمل ما يؤثر عنه من الرفق بأهل الذمة ما جاء في (كنز العمال) أن عمر مر بشيخ من أهل الذمة يسأل على أبواب المساجد فقال : ما أنصفناك كنا أخذنا منك الجزية في شبيبتك ثم ضيعناك في كبرك ثم أجرى عليه من بيت المال ما يصلحه .

(سادسا) ومن حسن سياسته تقدمه إلى قواده بأن لا يمسكوا الجند في الغزو أكثر من أربعة أشهر وسببه أنه كان يطوف ليلة بالمدينة على عادته فسمع امرأة من وراء بابها تقول :

تطاول هـذا الليل واسود جانبه وأرقني أن لا خليل ألاعبه
فلولا حذار الله لا شيء مثله لزحزح من هذا السرير جوانبه

فكتب عمر إلى عماله أن لايغيب أحد بالغزو ونم الرأى .

ومن سياسته توقيفه الحدود عند الضرورة الداعية لذلك ، فقد أخرج ابن أبي شيبة في المصنف عن حكيم ابن عمير قال : كتب عمر بن الخطاب: ألا يجلدن أمير جيش ولا سرية أحدا الحد حتى يطلع الدرب لئلا تحمله حمية الشيطان أن يلحق بالكفار .

ومن سياسته أنه كان يحبس عن العمل كثيرا من كبار الصحابة فمنهم من كان لايستعمله خوفا على دينه من أن يدنسه بالولاية، فقد أخرج ابن سعد عن عمران بن عبد الله قال : قال أبي بن كعب لعمر بن الخطاب مالك لاتستعملني ؟ قال أكره أن تدنس دينك .

ومنهم من لايستعمله خشية أن يحمله على رقاب الناس أو خشية أن تحدثه نفسه بالإمارة إذا بعد عن مراقبته وهؤلاء هم بنوهاشم لما كان يتفرسه فيهم من التطلع إلى الإمارة ففي (مروج الذهب) للمسعودى عن عبد الله بن عباس أن عمر أرسل إليه فقال يا ابن عباس: إن عامل حمص هلك وكان من أهل الخير وأهل الخير قليل وقد رجوت أن تكون منهم وفي نفسي منك شيء لم أره منك وأعياني ذلك فما رأيك في العمل؟ قال لن أعمل حتى تخبرني بالذى في نفسك، قال وماتريد إلى ذلك . قال أريده فإن كان شيء أخافه على نفسي خشيت منه عليها الذى خشيت وإن كنت بريئا من مثله علمت أني لست من أهله فقبلت عملك هنالك فإنني قلما رأيت أو ظننت شيئا إلا عاينته ، فقال يا ابن عباس إني خشيت أن يأتي على الذى هو آت وأنت في عملك فتقول هلم إلينا ولاهلم إليكم دون غيركم . إني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم استعمل الناس وتركـكم ، قال (أى ابن عباس) والله قد رأيت من ذلك فلم تراه فعل ذلك ؟ قال (أى عمر) والله ماأدرى أضن بكم عن العمل فأهل ذلك أنتم أم خشي أن تبايعوا بمنزلتكم منه فيقع العقاب ولا بد من عتاب فقد فرغت لك فما رأيك؟ قال : (أى ابن عباس) أراني لاأعمل لك ، قال ولم ؟ قال إن عملت لك وفي نفسك مافيها لم أبرح قذى في عينك قال : فأشر علي ، قال إني أرى أن تستعمل صحيحا منك صحيحا لك .

(سابعا) جاء في (كنز العمال) عن عاصم بن أبي النجود أن عمر بن الخطاب كان إذا بعث عماله شرط عليهم أن لا تركبوا برذونا ولا تأكلوا نقيا ولاتلبسوا رقيقا ولاتغلقوا أبوابكم دون حوائج الناس إن فعلتم شيئا من ذلك فقد حلت بكم العقوبة . ثم يشيعهم ، فإذا أراد أن يرجع قال إني لم أسلطكم على دماء المسلمين ولا على أعشارهم ولا على أبشارهم [1] ولا على أعراضهم ولا على أموالهم ولكني بعثتكم لتقيموا بهم الصلاة وتقسموا فيهم فيأهم وتحكموا بينهم بالعدل، فان أشكل عليكم شيء فارفعوه إلى ألا فلا تضربوا العرب فتذلوها ولا تجمروها[2] فتفتنوها ولاتعتلوا عليها فتحرموها ، جودوا القرآن (وفي رواية) وأقلوا من الرواية .

وكان إذا بلغه عن أحد من عماله أمر يخل بالمروءة عزله في الحال، ففي (المناقب) لأبي الفرج بن الجوزى عن ابن سعد قال : كان عمر بن الخطاب استعمل النعمان بن نضلة على ميسان وكان يقول الشعر فقال :

ألا هل أتى الحسناء أن حليلها بميسان يسقى في زجاج وحنتم

---

(١) كناية عن أجسامهم وأموالهم .

(٢) قال في القاموس جمره تجميرا جمعه والقوم على الأرض تجمروا إلى أن قال والجيش حبسهم في أرض العدو ولعله هو المراد .

فى أبيات يقول فى ختامها :

لعل أمير المؤمنين يسوءه تنادمنا بالجوسق المتهدم

فلما بلغ عمر قوله قال: نعم والله إنه ليسوءنى، من لقيه فليخبره أنى قد عزلته ، فقدم عليه رجل من قومه فأخبره بعزله فقدم على عمر فقال والله ما أحب شيئا مما قلت ولكن كنت امرأ شاعرا وجدت فضلا من قول فقلت فيه الشعر فقال عمر والله لاتعمل لى على عمل ما بقيت . وفى رواية عن عثمان الحزامى عن أبيه قال: لما بلغ عمر بن الخطاب هذا الشعر كتب إلى النعمان بن نضلة « بسم الله الرحمن الرحيم . حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب . وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول لا إله إلا هو إليه المصير » أما بعد فقد بلغنى قولك :

لعل أمير المؤمنين يسوءه تنادمنا بالجوسق المتهدم

وايم الله إنه ليسوءنى وعزله .

ومن عجيب سياسته مع العمال أنه كان يحصى أموالهم قبل العمل وما زاد بعده يصادرهم على كله أو بعضه . ومن هـذا ما رواه الطبرى أن عمر استعمل عتبة بن أبى سفيان على كنانة فقدم المدينة بمال ، فقال له ماهذا ياعتبة ؟ قال مال خرجت به معى واتجرت فيه ، قال ومالك تخرج المال معك فى هذا الوجه؟ فصيره فى بيت المال .

وروى أن خالدا لما أدرب هو وعياض إلى بلاد الروم انتجعه من العراق رجال منهم الأشعث ابن قيس فوصله بعشرة آلاف درهم فبلغ ذلك عمر فكتب إلى أبى عبيدة أن يحصى مال خالد ويصادره على النصف فدعاه وتلا عليـه أمر أمير المؤمنين وصادر على نصف ماله حتى الخفين أخذ منهما واحدا وترك له الآخر .

(ثامنا) ـ شاطر عمر سعد بن أبى وقاص على ماله ، وشاطر أبا هريرة ولما أبى أن يشاطره ضربه ، وصادر غيرهم أيضا ورد أموالهم لبيت المال .

(تاسعا) ـ وأخرج عن حبيب بن أبى وائل قال : قال عمر بن الخطاب : لواستقبلت من أمرى مااستدبرت لأخذت فضول أموال الأغنياء تقسمتها على فقراء المهاجرين .

(عاشرا) ـ ومن أخباره فى التأديب التى تدل على عظيم رحمته وحنانه وشدة عقوبته لغلاظ القلوب ما جاء فى (كنز العمال) عن أبى عثمان النهدى قال : استعمل عمر بن الخطاب رجلا من بنى أسد على عمل فجاء يأخذ عهده فأتى عمر ببعض ولده فقبله . فقال الأسدى : أتقبل هذا ياأمير المؤمنين والله ما قبلت ولدا قط ، قال عمر فأنت والله بالناس أقل رحمة ، هات عهدنا لا تعمل لى عملا أبدا .

(حادى عشر) ـ تظلم رجل من بعض عمال عمر وادعى أنه ضربه وتعدى عليه فقال : اللهم إنى لا أحل لهم أعشارهم ولا أبشارهم (أموالهم وأجسامهم) كل من ظلمه أميره فلا أمير عليه دونى ثم أقاده منه (أى أخذ له القود) .

وقال المغيرة بن شعبة وذكر عمر فقال: كان والله له فضل يمنعه أن يخدع وعقل يمنعه أن ينخدع .

فى كنز العمال عن طاوس أن عمر قال: أرأيتم ان استعملت عليكم خير من أعلم ثم أمرته بالعدل أقضيت ما على ؟ قالوا ، نعم قال لا حتى أنظر فى عمله أعمل بما أمرته أم لا ؟

وفيه عن عمر قال « الرعية مؤدية إلى الإمام ما أدى الإمام إلى الله فإذا رفع الإمام رفعوا » (أخرجه ابن سعد) .

(ثانى عشر) - (حكاية عمر مع جبلة بن الأيهم ملك غسان) فإنه لما أسلم ووفد على عمر ابن الخطاب بأبهة الملك وحشمه تلقاه عمر بالترحيب وبينما هو يطوف يوما وطىء على إزاره أعرابى من بنى فزارة فضربه على وجهه فشكاه الأعرابى إلى أمير المؤمنين فاستدعى عمر جبلة وقال له إما أن ترضيه وإما أن يضربك كما ضربته فكبر ذلك على جبلة وقال ألا تفرقون بين الملك والسوقة ؟ قال لا ، قد جمع بينكما الإسلام ، فاستمهله إلى الغد ثم أخذ قومه وفر بهم ليلا ولحق بالامبراطور هرقل بالقسطنطينية فأرسل عمر من يسترضيه فأبى الرجوع .

(ثالث عشر) - ما ذكره الطبرى فى تاريخه عند الخبر عن إرسال الجيوش إلى نهاوند فى أخبار سنة ٢١ قال وزل بسعد (أى ابن أبى وقاص) أقوام وألبوا عليه ، فما بين تراسل القوم واجتماعهم إلى نهاوند ولم يشغلهم مادهم المسلمين من ذلك وكان ممن نهض الجراح بن سنان الأسدى فى نفر فقال عمر إن الدليل على ما عندكم من الشر نهوضكم فى هذا الأمر وقد استعد لكم من استعد ، وايم الله لايمنعنى ذلك من النظر فيما لديكم وإن نزلوا (يعنى الفرس) بكم ، فبعث عمر محمد بن مسلمة والناس فى الاستعداد للأعاجم والأعاجم فى الاجتماع وكان محمد بن مسلمة هو صاحب العمال الذين يقتص آثار من شكى زمان عمر[1] فقدم محمد على سعد ليطوف به على أهل الكوفة والبعوث تضرب على أهل الأمصار إلى نهاوند فطوف به على مساجد أهل الكوفة لا يتعرض للمسئلة عنه فى السر وليست للمسئلة فى السر من شأنهم إذ ذاك . وكان لا يقف على مسجد فيسألهم عن سعد إلا قالوا لا نعلم إلا خيرا ولانشتهى به بدلا ولا نقول فيه ولا نعين عليه إلا من مالأ الجراح بن سنان وأصحابه فإنهم كانوا يسكتون ولا يقولون سوءا إلى أن قال الطبرى وخرج محمد به (أى بسعد) وبهم إلى عمر حتى قدموا عليه فأخبره الخبر فسأله عمر عن أوجه الشكوى فأنكرها ولم يسمهم إثباتها فردهم عمر وخشى إذا أبقى سعدا على الكوفة أن يكون بينهم وبينه أمر فعزله احتياطا وسأله من خليفتك على الكوفة ؟ فقال له عبد الله بن عبد الله بن عتبان فأقره .

ومنه تعلم كيف كان رضى الله عنه مراقبا لعماله كثير التحقيق عن أخبارهم لا يتعجل فى أمرهم إذا جاءته شكاية على أحدهم بل يتثبت الخبر بنفسه ويحققه بمواجهته فإن ثبت عليه شىء مما يدعيه الشاكى عزله .

(رابع عشر) - كان رضى الله عنه لايحب أن يفرق بين عماله فى المعاملة بين الحر والعبد ولابين القوى والضعيف . أخرج ابن جرير الطبرى عن الأسود بن يزيد قال : كان الوفد إذا قدموا على عمر رضى الله عنه سألهم عن أميرهم فيقولون خيرا فيقول هل يعود مرضاكم فيقولون نعم فيقول هل يعود العبد فيقولون نعم فيقول كيف صنيعه بالضعيف وهل تجلس على بابه فإن قالوا لا عزله .

(خامس عشر) - لما وفد عليه الأحنف بن قيس وسأله عن حال الذمة فى ولاية البصرة وصرفه كتب معه كتابا إلى عتبة بن غزوان أمير البصرة يوصيه فيه بأهل الذمة ، هذه صورته (عن تاريخ الطبرى) .

أعزب الناس عن الظلم واتقوا واحذروا أن يدال عليكم لغدر يكون منكم أو بغى ، فإنكم إنما أدركتم بالله ما أدركتم على عهد عاهدكم عليه وقد تقدم إليكم فيما أخذ عليكم فأوفوا بعهد الله وقوموا على أمره يكن لكم عونا وناصرا .

---

(١) وظيفة محمد بن مسلمة هذه تشبه وظيفة المفتشين لهذا العهد .

ويلينه

وبلغه مرة : أن حرقوصا عامله على الأهواز نزل جبل الأهواز والناس يختلفون إليه والجبل كئود يشق على من رامه فكتب إليه ماصورته نقلا عن تاريخ الطبرى فى حوادث سنة ١٧

أما بعد : بلغنى أنك نزلت منزلا كئودا لاتؤتى فيه إلا على مشقة فأسهل ولا تشق على مسلم ولا على معاهد وقم فى أمرك على رجل تدرك الآخرة وتصف لك الدنيا ولا تدركنك فترة ولا عجلة فتكدر دنياك وتذهب آخرتك .

(سادس عشر) ـ وأخرج عن أبى فراس قال : خطب عمر بن الخطاب فقال : يا أيها الناس إنى والله ما أرسل عمالا إليكم ليضربوا أبشاركم ولا ليأخذوا أموالكم ولكنى أرسلهم إليكم ليعلموكم دينكم وسنتكم (وفى رواية : ويقضوا بينكم بالحق ويحكموا بينكم بالعدل) فمن فعل به شىء سوى ذلك فليرفعه إلى فوالذى نفس عمر بيده لأقصنه منه [1] فوثب عمرو بن العاص فقال يا أمير المؤمنين أرأيت إن كان رجل من أمراء المسلمين على رعيته فأدب بعض رعيته إنك لتقصه منه . قال إى والذى نفس عمر بيده إذن لأقصنه منه وكيف لا أقصه منه وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقص من نفسه . ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم ولا تجمروهم فتفتنوهم ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم ولا تنزلوهم الغياض فتضيعوهم .

وعن أبى رواحة قال : كتب عمر بن الخطاب إلى العمال ، اجعلوا الناس عندكم فى الحق سواء قريبهم كبعيدهم وبعيدهم كقريبهم ، إياكم والرشا والحكم بالهوى وأن تأخذوا الناس عند الغضب فقوموا بالحق ولو ساعة من نهار .

وروى الطبرى أن عمر كان يقول فى عماله : اللهم إنى لم أبعثهم ليضربوا أبشارهم ، من ظلمه أميره فلا إمرة عليه دونى . ومع كل هذا التشديد على العمال فإنه رضى الله عنه كان دائما قلقا على الرعية خائفا من أن يجار عليهم بأمر لا يصله خبره لهذا عزم قبيل قتله أن يسافر ويطوف على العمال جميعهم ليبحث عن أمور الرعية ويقضى حاجاتهم . فقد أخرج الطبرى عن الحسن قال : قال عمر بن الخطاب : لئن عشت إن شاء الله لأسيرن فى الرعية حولا فإنى أعلم أن للناس حوائج تقطع دونى أما عمالهم فلا يرفعونها إلى وأما هم فلا يصلون إلى فأسير إلى الشام فأقيم بها شهرين ثم أسير إلى الجزيرة فأقيم بها شهرين ثم أسير إلى مصر فأقيم بها شهرين ثم أسير إلى البحرين فأقيم بها شهرين ثم أسير إلى الكوفة فأقيم بها شهرين ثم أسير إلى البصرة فأقيم بها شهرين ، والله نعم الحول .

(سابع عشر) ــ كان من عماله سلمان الفارسى وكان عامله على المدائن وكان على جانب من الزهد والتقى والصلاح عظيم فكان يلبس الصوف ويركب الحمار يبرذعته بغير إكاف ويأكل خبز الشعير فلما احتضر بالمدائن قال له سعد بن أبى وقاص يا أباعبد الله أذكر الله[2] عند همك إذا هممت وعند لسانك إذا حكمت وعند يدك إذا قسمت ، فجعل سلمان يبكى فقال له يا أبا عبد الله مايبكيك ؟ قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن فى الآخرة عقبة لا يقطعها إلا المخفون » وأرى هذه الأساودة (جمع سواد وهو المال الكثير) حولى فنظروا فلم يجدوا فى البيت إلا إداوة وركوة ومطهرة .

وكان عامله على الشام أبا عبيدة بن الجراح وكان يظهر للناس وعليه الصوف الجافى فعذل على ذلك وقيل

---

(١) يعنى يمكن خصمه من الاقتصاص منه ، أو يقتص له منه .

(٢) لعل الصواب: قد كنت تذكر الله

له إنك بالشام وأمير المؤمنين وحولنا الأعداء فغير من زيك وأصلح من شارتك فقال ما كنت بالذى أترك ما كنت عليه فى عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكان عامله على حمص سعيد بن عامر بن حذيم فشكاه أهل حمص إليه وسألوه عزله ، فقال عمر اللهم لاتفل فراستى فيهم ، ماذا تشكون منه ؟ قالوا لايخرج إلينا حتى يرتفع النهار ولا يجيب أحدا بليل وله يوم فى الشهر لايخرج إلينا ، فقال عمر على به فلما جمع بينه وبينهم ، فقال ما تنقمون منه . قالوا لايخرج إلينا حتى يرتفع النهار فقال ماتقول ياسعيد ؟ فقال ياأمير المؤمنين إنه ليس لأهلى خادم فأعجن عجينى ثم أجلس حتى يختمر ثم أخبز خبزى ثم أتوضأ وأخرج إليهم ، قال وماذا تنقمون منه ؟ قالوا لا يجيب بليل ، قال قد كنت أكره أن أذكر هذا إنى جعلت الليل كله لربى وجعلت النهار لهم، قال وماذا تنقمون منه ؟ قالوا له يوم فى الشهر لايخرج إلينا . قال نعم ليس لى خادم فأغسل ثوبى ثم أجففه فأمسى ، فقال عمر الحمد لله الذى لم يفل فراستى فيكم ياأهل حمص فاستوصوا بواليكم خيرا . ثم إن عمر بعث إليه بألف دينار وقال استعن بها ، فقالت له امرأته قد أغنانا الله عن خدمتك ، فقال لها ألا ندفعها إلى من يأتينا وأحوج ما كنا إليه قالت بلى فصرها صررا ثم دفعها إلى من يثق به وقال انطلق بهذه إلى فلان وبهذه إلى يتيم بنى فلان ومسكين آل فلان حتى بقى منها شىء يسير فدفعه إلى امرأته وقال أنفقى هذه ثم عاد إلى خدمته ، فقالت له امرأته ألاتبعث بذلك المال فتشترى لنا منه خادما ، فقال سيأتيك أحوج ماتكونين إليه . انتهى من كتاب [أشهر مشاهير الإسلام] .

ها نحن أولاء اللهم شاهدنا جميل صنعك وبديع إتقانك فى عوالمك المشاهدة والمسموعة والتى أوحيت بها للحيوانات وماعلمت به الإنسان وها نحن أولاء نقرأ آثار (سورة الشورى) فى آخر الأديان المنزلات إلى الأرض . كل جمال فى كوكب أوزهر أو وجوه حسان فى نوع الإنسان . وكل نظام فى جماعة الحيوان أوعدل على يد نبى أو خليفة أو صالح داخل تحت آية « وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم » صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض »

أما صراطك الذى فى السموات والأرض ، فهذا التفسير قد ألم بصور كثيرة منه . وأما الصراط المستقيم الذى يدعو إليه رسولك ، فبعضه ماجاء فى هيئة الشورى المقدمة أيام النبوة والخلافة .

اللهم إن هذه الأعمال الشريفة ، والمعانى المنيفة ، لم يبق عند كثير من أمم الإسلام إلاأخبارها ، اللهم إنى بينت باعانتك وأنت الحكيم العليم ، فاشرح صدور المسلمين لدرس تلك الأعمال الشريفة ليرجعوا مجدهم ويقوموا بنظام أممهم ويساعدوا الأمم على النظام العام .

هاهم أولاء المسلمون بعد ٣٠ سنة وهى التى كانت فيها الخلافة أخذوا يرجعون القهقرى تدريجا لما كاد عثمان رضى الله عنه يقتل حتى قرعت القارعة واشتد الخصام والنزاع على الخلافة ، نعم كان ذلك باجتهاد من أصحاب نبيك صلى الله عليه وسلم فأما بعد ذلك فإن الأمر كله راجع للملك وحده ، وأخذ بنوأمية وبنوالعباس يتنافسون على الخلافة ، وأدخل الآخرون الفرس معهم لإذلال العرب فذهبت ريحهم على ممر الأيام ، ولازالت الأمة تتقهقر بالتدريج حتى يومنا هذا .

لاملاذ ولا ملجأ للمسلمين إلا أن يرجعوا لنفس النبوة ونفس الخلافة فيدرسوهما درسا تاما مفصلا . هانحن أولاء لم نجد فى أممنا الإسلامية حولنا ولا فى أمم أوروبا حكومات تشاكل حكومات الخلفاء الراشدين .

تبين من كلام عمر مع ابن عباس أنه يضن بالمسلمين أن يكونوا تحت إمرة من يتولى الخلافة بحق النسب خفية أن تترك الشورى ويحل النسب محلها وذلك الذى خاف منه عمر رضى الله عنه قد حصل عند الأمويين

وعند

وعند العباسيين ، فالنسب صار أصلا الخلافة، وعمر يقول : كلا . إنما يكون بالشورى ، شاطر عمر جنى العمال فى أموالهم وكره من آخر كما تقدم ما أعطى من المال الناس وذم ذلك سواء أكان من ماله هو أم من مال الأمة ، وعده على الأول إسرافا ، وعلى الثانى خيانة ، فها هو ذا تاريخ ملوك الإسلام قديما وحديثا إنهم جميعا إلا قليلا منهم مسرفون فى مال الأمة إسرافا فاحشا، وكان الشعراء لايعيشون إلا من عطاء الأمراء والملوك وكل هذا مال الأمة ولا نكير عليهم ولا رقيب.

قتل المسلمون عثمان رضى الله عنه بما ظنوا من ميله لقومه بنى أمية ، وبما اتهم به مروان بن الحكم من تزوير كتاب فيه إراقة دم لمسلم ، وهذه لاتبلغ معشار عشر ماابتليت به أمم الفرنسيين والإنجليز والألمان فصوا ملوكهم ، فلقد علمت كيف ظلم الإنجليز ملوكهم ظلما فاحشا ، وكيف ظلم رجال الكنيسة والأشراف الأمة الفرنسية ، فكان لايدفع الضرائب إلا الطبقة الثالثة وهى أيضا لاحق لها فى أن تمنع الطائفتين الغالبتين عن إفساد الزرع بصيد الأشراف فيه كما تقدم .

أيها المسلمون : هاهو ذا كتاب الله ، وهاهى ذه سنة رسوله والخلفاء من بعده ، فوالله لاحجة لكم بعد هذا ، قامت حجة الله على أمراء المسلمين وعلى العلماء وعلى العامة، أما العلماء فبنشر الفكرة بحيث تصبح كالعقيدة الجوهرية فى الإسلام ، فوالله إن خطاب المسلم لربه فى الصلاة إذ يقول «اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم» يتضمن ماتقدم عن الخلفاء ، إذن هذا الصراط هو العدل والشورى هو «صراط الله الذى له مافى السموات ومافى الأرض» المذكورين فى أول هذه السورة «حم عسق» إلى قوله «له مافى السموات ومافى الأرض» الخ . عدل الخلفاء الراشدون لإشراق نور النبوة عليهم ، ولكن ذلك النور أخذ إشراقه يتضاءل على من بعدهم ، وخير لعلماء الإسلام وملوك الإسلام أن يدرسوا مع السيرة النبوية والخلافة نظام العالم أيضا . (كالذى نشرناه فى هذا التفسير ، فذلك مفتاح لمعرفة نور النبوة فى مستقبل الزمان) .

وأما الملوك فعليهم الاجتهاد فى اتباع سيرة الخلفاء ، وأما العامة فعليهم الانقياد للوالى النافع ونبذ الظالم وذلك لايكون إلا بتعميم التعليم ، وأنتم ياأمم الأرض المحيطين بالإسلام ، هاهو ذا نظام الإسلام والأرض الذى أبدعه الله وهو الذى ألهم الحشرات (وكل حيوان يعيش بهيئة جمهورية) كيف تنظم الجماعات وتعطى كل ذى حق حقه ، فأنتم محاسبون جميعا على ماترون من هذا النظام ، أنتم جميعا بعد الموت سترون النقص فى نفوسكم وهذا النقص نفسه عذاب لكم ولابد لكم من قطع عقبات فى عوالم أخرى حتى تصلوا إلى تمام النظام ، وذلك بأمرين : علم تام بهذه الكائنات ، وإخلاص تام للجماعات بحيث تصبح نفس الإنسان فى المساعدة لأخواتها بعد التروى والتفكر أشبه بما طبعت عليه النحل فى جماعتها والنمل فى قريتها وهناك يكون الوصول إلى الله والنظر إلى وجهه الكريم وتكون السعادة التامة ، أما قبل ذلك فلا ، هذا ماعن لى اليوم كتبته فى تاريخه ، والحمد لله رب العالمين . الأربعاء ١١ فبراير سنة ١٩٣١ م - ٢٣ رمضان سنة ١٣٤٩ هـ :

عدل عمر وإنصافه

جاء في (كنز العمال) في كتاب (أشهر مشاهير الإسلام) ما نصه :

كان بين عمر وبين أبي بن كعب خصومة، فقال عمر : اجعل بيني وبينك رجلا ، فجعلا زيد بن ثابت فأتياه ، فقال عمر : أتيناك لتحكم بيننا وفي بيته يؤتى الحكم ، فلما دخلا عليه وسع له زيد عن صدر فراشه فقال هاهنا يا أمير المؤمنين ، فقال له عمر : هذا أول جور جرت في حكمك ، ولكن أجلس مع خصمي ، فجلس بين يديه ، فادعى أبي وأنكر عمر ، فقال زيد لأبي : أعف لأمير المؤمنين من اليمين وما كنت لأسألها لأحد غيره . فحلف عمر ثم أقسم لا يدرك زيد القضاء حتى يكون عمر ورجل من عرض الناس عنده سواء .

وفيه عن عبد الله بن حكيم قال : قال عمر بن الخطاب : (إنه لا حلم أحب إلى الله تعالى من حلم إمام ورفقه، ولا جهل أبغض إلى الله تعالى من جهل إمام وخرقه) اهـ .

جمال الحكمة والعلم

في آية «وأمرهم شورى بينهم» وآية «قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى»

اللهم إنك أنت الحكيم العليم ، أنت الرب الشهيد . يا الله ، ما أجمل صنعك في السموات والأرض ، وما أبدع نظامك في العقول الإنسانية ، حارت الأمم الإسلامية ياربنا في دين الإسلام . هذا الدين الذي أنزلته منذ ١٣ قرنا ونصفا . المسلمون يرون في هذه السورة أنك تحب إليهم الشورى . ثم هم يجدون الأمم الإسلامية أكثر حكوماتها جاهلة غافلة . فيقرءون سيرة عمر فيعلمون إلى أي حد وصل العمل بهذا الدين أيام سني الخلافة فيفكرون في السير على منواله . ويرون في هذه السورة «قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى» ويرون المفسرين مختلفين في تفسيرها كما قدمناه ، ويجدون آية أخرى تؤيد أن القربى هي التقرب لله كما قدمناه إذ يقول . «قل ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا» والقرآن يفسر بعضه بعضا ، ولكنهم يجدون تفسير الجمهور وهو أن المراد بالقربى قرابة النبي صلى الله عليه وسلم هو المشهور بين الناس ثم يرون لآل البيت مقابر جعلت محل الإعظام والإجلال . وأخذ الناس يقدمون لها في بعض أقطار الإسلام النذور ، يريدون بذلك قضاء الحوائج ، وفوق ذلك يرون كثيرا من العلماء في الإسلام يقرون ذلك ، فهم في شدة الحيرة من ذلك . فهذه الحيرة أقضت مضاجعهم ، وفرقت وحدتهم ولكن رحمتك التي وسعت كل شيء تداركت الأمة بمثل ما جاء هنا في محاورة ابن عباس مع عمر في سبب عدم إسناد العمل إلى آل البيت ، وقول الثاني للأول كما تقدم : «إني خشيت أن يأتي على الذي هو آت وأنت في عملك فتقول هلم إلي ولا هلم إليكم دون غيركم ، إني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم استعمل الناس وتركم» ثم أشار عمر إلى أن سبب ذلك خشية أن يبايع الناس آل البيت بمنزلتهم فيقع العتاب ، ولا بد من عتاب . ثم قال : فقد فرغت لك فما رأيك ؟ إلى آخر ما تقدم .

اللهم إنك أنت الحكم العدل ، وأنت الرحيم : ظهر السر الذي كان مخبوءا ، ظهر في ثنايا الكتب المتروكة . أنت أمرت بالشورى ولكن الناس يتأثرون بفوى البيوتات والمجد والشرف ولا يراعون العلم

والقوة ، وكثيرا ما ولوا طفلا صغيرا لمنزلة والده الراحل إلى ربه . فإذا صح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ترك ولاية بعض بنى هاشم خيفة أن يتابعوا الناس بعزلتهم . وإذا صح أن عمر فعل ذلك أيضا وقد ظهر صدق فراسته إذ تقلد ابن عباس ولاية لعلى رضى الله عنه ، وأخذ ما فى بيت المال لنفسه فأحزن أمير المؤمنين عليا بذلك فضلا عما يلقاه من معاداة معاوية بالشام . أقول : إذا صح هذا فقد ظهر الحق واستبان السبيل .

اللهم لا محبة للمسلمين فى مخالفة الحقائق « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » . فهاهنا أمران : (أولا) الإمارة لا يجوز أن تكون إلا بالكفاءة وهذه يعرفها أهل الحل والعقد . والعبرة بالأغلبية . (ثانيا) : إكرام آل البيت رضى الله عنهم ، إن هذا الإكرام لا يختلف فيه اثنان من المسلمين ، ولكن هذا الإكرام ليس معناه (أولا) أن نولى أحدهم ولاية وفى الأمة من هو أجدر منه ونضيع المسلمين ونطمع فيهم الكفار بهذا السبب ، ولعمرى لأن نحفظ بلاد الإسلام من عدوان الأعداء ، وآل البيت محترمون فيها خير من أن يأخذها العدو فيهم الذل آل البيت وغيرهم (ثانيا) أن تنفر لهم النذور فنقول : إن شفى مريضى أو جاء غائبي فإنى أضع فى صندوق السيدة زينب رضى الله عنها أو فى صندوق سيدنا الحسين رضى الله عنه كذا كذا من النقود فإن هذا من أوضاع الجاهلين من أمم الإسلام

اللهم إن قراء هذا التفسير المغرمين به لا يعوزهم إيضاح هذا المقام ، ولكن سأنقل لهم ماجاء من أقوال الشيخ الدباغ لأنه من كبار الأولياء والصالحين وبقوله يحتجون على كل من ادعى الولاية من المسلمين ، أولئك الذين يقولون : [إن الشريعة شىء والحقيقة شىء آخر] فهذه خدعة كاذبة خاطئة ، فانظر ماقاله وهذا نصه :

قال ابن المبارك : [وسألته رضى الله عنه ؟ لم كان الناس يستغيثون بذكر الصالحين دون الله عز وجل؟ فترى الواحد إذا جهد فى يمينه يقول : وحق سيدى فلان كسيدى عبد القادر الجيلانى أو سيدى يعزى أو سيدى أبى العباس السبتى وغيرهم نفعنا الله بهم . وإذا أراد أن يحلف أحدا ويؤكد عليه فى يمينه يقول : احلف لى بسيدى فلان ، وإذا أصابه ضر وأراد أن يسأل كالسعاة الذين يتكففون الناس صرح باسم سيدى فلان وهم فى ذلك كله منقطعون عن الله عز وجل ، وإذا قيل لهم توسلوا بالله أو احلفوا به أو نحو ذلك لا يقع ذلك الكلام منهم موقعا ، فما السبب فى ذلك ؟ فقال رضى الله عنه : أهل الديوان من أولياء الله فعلوا ذلك عمدا لقوة الظلام فى الذوات وكثرة المنقطعين عن الله عز وجل فصارت ذواتهم خبيثة ، وأولياء الله تعالى يحبون الذين يذكرون سيدهم وخالقهم سبحانه أن تكون ذاته طاهرة لأنه تعالى يجيب من دعاه إذا انقطع إليه باطنا وقت الدعاء ، وإجابته تكون بأحد أمرين : إما أن يعطيه ما سأل ، وإما أن يبين له سر القدر فى المنع إذا منعه وهذا لا يكون إلا للأولياء ولا يكون للعداء المحجوبين ، فلو توجهت الذات الظلمانية إليه تعالى بجميع عروقها وبكل جواهرها وسألته أمرا ومنعها ولم يطلعها على سر القدر فى المنع لربما وقع لها وسواس فى وجود الحق سبحانه فتقع فيما هو أدهى وأمر من عدم قضاء حاجتها ، فكان من المصلحة ما فعله أهل الديوان من ربط عقول الناس بعباد الله الصالحين لأنه إذا وقع لهم وسواس فى كونهم أولياء فإن ذلك لا يضرهم . قال رضى الله عنه : ومما يدلك على كثرة المنقطعين وزيادة الظلام فى ذواتهم أنك ترى الواحد يخرج من داره بعشرين موزونة مثلا ويذهب بها إلى ضريح ولى من أولياء الله تعالى فيطرحها عنده ليقضى له حاجته ، وكم من فقير محتاج يلقاه فى الطريق ويطلب منه متاع الله فى سبيل الله لوجه الله فلا يعطيه درهما واحدا حتى يبلغ الولى فيطرحها عند رأسه ، وهذا من أقبح ما يكون ، وسببه أن الصدقة لم تخرج

لله عز وجل وعظمته وكبريائه ووجهه الكريم ووجوده العظيم، إذ لو خرجت لذلك لدفعها صاحبها لكل محتاج لقيه ، لكن لما كان الحامل عليها والداعي إلى إخراجها هو قصد النفع لنفسه واستكمال أغراضه وحظوظه خص بها موضعا دون موضع لظنه أن النفع يتبع ذلك الموضع وجودا وعدما . قال رضي الله عنه : وقد رأيت في هذا اليوم ما أهدى الصالحين من باب تلمسان إلى الساقية الحمراء فإذا هو من الدنانير ثمانون دينارا ومن الغنم ثلثمائة وستون شاة ، ومن البقر اثنان وسبعون ثورا ، أخرج هذا كله في يوم واحد الصالحين وما أخرج لله تعالى في ذلك اليوم عشرة دراهم . قال رضي الله عنه : وهذا سبب من الأسباب الموجبة للانقطاع عن الله عز وجل الطارئة على هذه الأمة من غير شعور لأكثرهم بها وهي منحصرة في ثلثمائة وستة وستين سببا كلها موجبة لانقطاع العبد عن ربه عز وجل . فقلت : وهل حضركم الآن منها شيء ؟ فقال رضي الله عنه اكتب . (الأول) : الهدية للصالحين على الوجه السابق دون وجه الله عز وجل . (الثاني) : التوسل إلى الصالحين بالله عز وجل ليقضوا الحاجة ، فيقول الزائر : « قصدت إليك وجاء الله يا سيدي فلان إلا ماقضيت لي حاجتي » وإنما كان سببا للانقطاع لأن الزائر قلب الواجب وعكس القضية ، فإنه كان من حقه أن يتوسل لله عز وجل بأوليائه لا أن يعكس . (الثالث) : زيارة الصالحين وعلى الزائر دين فرض كعدد صلوات وجب قضاؤها عليه فترك قضاءها الذي هو حق الله وفيه نور الله وسره تعالى الذي يرحمه به وذهب إلى زيارة صالح ، ولا يخفى ما فيه من الانقطاع والظلام . (الرابع) الخوف من الظالم على العمر والرزق وغيرهما فيقول في نفسه : « لا أعصى هذا الظالم لأني إن عصيته قتلني أو منع رزقي » أو غير ذلك مما يوجب الخوف منه ولو تحقق بوجود الحق تعالى معه وتصرفه فيه وفي ذلك الظالم لعلم أنه هو الفاعل وحده ، لا يشاركه ذلك الظالم ولا غيره في فعل من الأفعال ، وحينئذ فلا يخاف إلا منه تعالى ، وبقدر ما يقوى هذا النظر في العبد يقوى قربه من ربه تعالى ، وبقدر ما يقل أو ينعدم يكون بعده من الله عز وجل وانقطاعه (الخامس) الطمع في الظالم فيتقرب إليه لينال منه رزقا ، ولو تحقق بأن الله سبحانه هو الرزاق لم يصدر منه ذلك (السادس) النصرة للكافرين فيلهمهم مصالحهم في دنياهم بأن يرى لهم طريقا ونحوه فإنه من أسباب الانقطاع عن الله عز وجل . قلت : وما رأينا من نصح ظالما إلا وكانت عاقبة أمره خسرا : ونذكر هاهنا قصة سفيان الثوري رضي الله عنه مع الذي أراد أن يوقظ حرسيا للصلاة ، فقال له سفيان : لا توقظه دعه هذه الساعة نسترح منه ومن شره فيها . (السابع) : عدم النصيحة للمسلمين ، فيرى ما يضرهم ولا يأمرهم بالتحرز منه ، ويرى ما ينفعهم ولا يأمرهم بالتأهب له (الثامن) استحلاء التعب والمشقة في طلب الدنيا على عبادة الله عز وجل ، فمن أحس بذلك من نفسه فليعلم أنه مرتكب سببا من أسباب الانقطاع . (التاسع) : طلب الدنيا بما هو أهون منها وأذل وأحقر ، وقد كان السلف الصالح رضي الله عنهم يطلبونها بما هو أعلى منها وأعز كالجهاد والتجارة والزراعة وغير ذلك من أسباب الحلال . وأما من طلب الدنيا بالزور والكذب والفجور والأيمان الحانثة فقد طلبها بمعاص هي أخس منها أي من الدنيا ، فمن أحس بذلك من نفسه فليتب إلى الله عز وجل . فإن الدنيا لاتدرك إلا بما هو أعز منها . (العاشر) : أن تكون أعمال العبد وطاعاته بقصد أن يرحمه الله بها وبقصد نفع نفسه وتحصيل أغراضه وحظوظه لابقصد وجه الله الكريم ووجوده العظيم ، وهذا سبب قد عم أكثر الناس إلا من رحمه الله عز وجل جعلنا الله منهم بمنه وفضله . قال رضي الله عنه : ولو لم يخلق الله جنة ولا نارا لتبين من يعبده ممن لايعبده ولكانت عبادة الذي يعبده خالصة لوجهه الكريم ، وحينئذ تحصل المعرفة به تعالى على وجهها الكامل لمن عبده ، ولكن الناس لما سمعوا بذكر الجنة والنار تفرقت أغراضهم نحوهما فضلوا عن

السبيل (الحادى عشر) المعاصى فى حرمات الله تعالى كالمساجد ونحوها فإن العبد لو تحقق بإضافة البيت إلى ربه وقال فى قلبه (هذا بيت الله) لم تصدر منه فيها معصية (الثانى عشر) اللواط وستأتى مفسدته وأنه لا مزيد عليها (الثالث عشر) ضرب الرجل امرأته من غير ذنب فلذلك الضرب سبب فى الانقطاع لما لها عليه من الحقوق (الرابع عشر) المنة على العيال والأهل بالنفقة فيقول : (أنفقت عليهم كذا وكذا) بقصد المنة (الخامس عشر) الحسد ، وسيأتى إن شاء الله تعالى ما فيه من المفاسد وأن غالب المعاصى منه . (السادس عشر) الإقدام على المعصية مع معرفتها ، وسيأتى إن شاء الله بيان ذلك عند الكلام على أشد الناس عذابا يوم القيامة (السابع عشر) جمع الدنيا من الحرام . قلت : ولا يتكرر مع الوجه التاسع كما لا يخفى (الثامن عشر) عقوق الوالدين : فسمعته رضى الله عنه يحكى عن شيخه سيدى عمر بن محمد الهوارى ، وذكر أنه كان جالسا معه عند السدرة المحررة التى هى خارج روضة سيدى على بن حرزهم فجاءه ولده يودعه وأراد الذهاب إلى الحج فأبى عليه أبوه سيدى عمر . قال : وكان عاقا لأبيه ، فذهب وأبوه غير راض عنه ، فقال لى سيدى عمر : نتيجة عقوق الوالدين أربعة أمور : أحدها أن الدنيا تذهب عنه وتبغضه كما يبغض المؤمن جهنم . ثانيها أنه إذا جلس فى موضع من المواضع وجعل يتكلم مع الحاضرين فى شىء من الأشياء صرف الله قلوبهم عن الاستماع لكلامه ، وينزع الله تعالى البركة والنور من كلامه ويصير ممقوتا بينهم . ثالثها أن أولياء الله تعالى من أهل الديوان والتصرف لا ينظرون إليه نظر رحمة ولا يرقون له أبدا . رابعها أن نور إيمانه لا يزال ينقص شيئا فشيئا ، فمن أراد الله به الشقاوة والعياذ بالله لم يزل كذلك إلى أن يذهب نور إيمانه ويضمحل بالكلية فيموت كافرا ، نسأل الله السلامة ، ومن لم يرد به ذلك مات ناقص الإيمان أعاذنا الله من ذلك . قال : ونتيجة رضاهم أربعة أمور هي أضداد لهذه الأمور : تحبه الدنيا كما يحب المؤمن الجنة ، ويحلو كلامه بين الناس ، ويحن عليه أولياء الله تعالى ، ولا يزال إيمانه يزيد شيئا فشيئا والله الموفق.

فانظر يا أخى هذه المفاسد الأربعة التى فى عقوق الوالدين ، والمحاسن الأربعة التى فى بر الوالدين. (التاسع عشر) مخالطة المحجوبين كذوى الرياسات فإن فى ذات العبد المؤمن خيطا من نور يخرج من ثقبة من ذاته يتصل ذلك النور بحظيرة الحق سبحانه يزيد بمخالطة أوليائه تعالى ويقل بعدمها ويخاف عليه من الانقطاع أصلا ، وانسداد الثقبة بمخالطة أرباب الرياسات ، فإنهم برياستهم وأموالهم وجاههم يستولون على ذاته فتكون تحت أسرهم وفى حكم قبضتهم ، فلا يزال يحنى إليهم بقلبه وقالبه ، ويبقى على ذلك المدة الطويلة ولا يقع الحق سبحانه فى فكره ولا فى خاطره ، فلا يزال كذلك مسترسلا فى أغراضه وانقطاعه حتى تنسد الثقبة أصلا والعياذ بالله ، وهذه آفة حاصلة من ذوى الرياسات . نسأل الله السلامة (العشرون) التفريق بين الخلفاء الأربعة : أبى بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم أجمعين .

هذا ماقاله الشيخ الدباغ رحمه الله تعالى ، ومن عجب ماذكره الشيخ الشعرانى فى كتابه المسمى (درر الغواص) فى هذا الموضوع ، فقد سأل شيخه الخواص، فقال ما نصه :

وسألته رضى الله عنه : هل أقرأ أو أصوم وأجعل ثواب ذلك لآدم عليه الصلاة والسلام ليكون ذلك وصلة بينى وبينه فى المعرفة فى الآخرة بسبب أعلمه به ؟ فقال : لا تجعل بينك وبين الله واسطة أبدا من نبي أو غيره . فقلت له : كيف ؟ فقال لأن الرسول إنما هو واسطة بين العبد وبين الرب فى الدعوى إلى الله لا إلى نفسه ، فاذا وقع الإيمان الذى هو مراد الله تعالى من عباده ارتفعت واسطة الرسول عن القلب إذ ذاك وصار الحق تعالى أقرب إلى العبد من نفسه ومن رسوله ولم يبق للرسول إلا حكم الإفاضة على العبد من جانب التشريع والاتباع كما فى حال المناجاة فى السجود سواء ، فنفس الرسول يغار من أمته أن يقفوا معه دون

الله تعالى فإنه جعل أن مقصود التشريع حصل بالتبليغ كما حصل له الأجر على ذلك كما أشار إليه قوله صلى الله عليه وسلم «من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها» الحديث . انظر يا أخي إلى غيرة الحق تعالى على عباده بقوله لمحمد صلى الله عليه وسلم «وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان» فأعلمنا تعالى بأنه أقرب إلينا من أنفسنا ومن رسولنا الذى جعله الله تعالى واسطة لنا فى كل خير مع أنه تعالى بالغ فى مدحه صلى الله عليه وسلم حتى كاد أن يصرح بأنه هو لكثرة ما وصفه بالكمال فى نحو قوله تعالى «من يطع الرسول فقد أطاع الله» وبقوله «إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله» ومع ذلك قال له «ليس لك من الأمر شىء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون» فأخرجه عن حال الخلق ونفاه عنهم وأثبته معه فى البراءة عن الكلية وعن مشاركة أحد منهم له فى كماله أو رتبته صلى الله عليه وسلم فافهم والله أعلم . انتهى كلامه .

درة يتيمة

حضر صاحبى الذى اعتاد أن يحادثنى فى هذا التفسير . فقال : هل تسمح لى أن أنقد هذه المقالات . فقلت حبا وكرامة . فقال : أين الثريا وأين الثرى ؟ ذكرت سيرة عمر رضى الله عنه لمناسبة آية الشورى وأتبعتها بأقوال الشيخ الدباغ ، فأين المناسبة بينهما ؟ فقلت يا صاح الأمر سهل ، إن فى السورة آيتين وهما آية الشورى وآية المودة فى القربى وبينهما صلة ما . ألا ترى أن المسلمين أبوا أن يسيروا بالشورى بعد سنى الخلافة وهى ٣٠ سنة كما تقدم ، ولقد ظن الناس أن الانتساب لعظيم أو لملك كاف ، وهذا فى الحقيقة انحراف عن الجادة فى الخلافة ، فآية المودة فى القربى باعتبار التفسير المشهور جعلت سببا فى إبطال الشورى فى زمان ما من أزمان التاريخ الإسلامى ، ولقد تمادى الناس فى التدلى والتنزل والتغاضى عن الحقائق الإسلامية حتى نذروا النذور لمن مات من الأولياء شرفاء أو غير شرفاء ، فلذلك ذكرنا أقوال الشيخ الدباغ ليظهر المسلمين الحقائق التى يقول بها علماء الإسلام وظهرت على لسان صالح من صلحاء الإسلام .

ولو أنهم أدركوا الحقائق لرجعوا إلى ربهم فى صغيرات الأمور وكبيراتها والله يقضى بالحق . إن الذى أضل كثيرا من المسلمين هو الجهل الفاضح ، ولعلك تذكر ما قدمته من حديث عمر مع ابن عباس : فقال : أذكره ولكن أريد ما هو أوضح . فقلت اسمع ما جاء فى كتاب (أشهر مشاهير الإسلام) وهذا نصه :

ومن عجيب فراسته التى كان كأنه ينظر منها بعين الغيب ما ذكره ابن عبد ربه فى العقد . قال : قال أبو بكر بن أبى شيبة : كان عبد الله بن عباس من أحب الناس إلى عمر بن الخطاب ، وكان يقدمه على الأكابر من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ولم يستعمله قط ، فقال له يوما كدت أستعملك ولكن أخشى أن تستحل الفىء على التأويل ، فلما صار الأمر إلى على استعمله على البصرة فاستحل الفىء على تأويل قوله الله تعالى «واعلموا أن ما غنمتم من شىء فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى» واستحله من قرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم كما تفرس فيه ذلك عمر من قبل . هكذا كان مبلغ فراسة عمر رضى الله عنه خصوصا فى بنى هاشم وقد كان يتفرس فيهم القيام يوما لطلب الخلافة وإثارة غبار الفتن والاستحواذ على ذلك المنصب الذى كانوا يرون أنفسهم أحق الناس به على خلاف ما كان يراه جلة المهاجرين الذين يعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم منعهم من أن يعملوا له عملا كى لا يحدثوا أنفسهم بشىء من الإمارة لأنها غير النبوة ، ومن ذلك ما ذكره فى العقد أن العباس رضى الله عنه عم النبى صلى الله عليه وسلم طلب منه ولاية فقال له : «ياعم نفس تحييها خير من ولاية لا تحصيها» .

وكان عمر لتفرسه فيهم التطلع إلى الإمارة لا يستعمل أحدا منهم كما لم يستعملهم رسول الله ﷺ وسلم وجاهر بقلة هذا فيهم ، وقد جاهر به لعبد الله بن عباس مرارا ، ومنه ماتقدم ذكره فى باب سياسته إذ قال له : « يا ابن عباس إنى خشيت أن يأتى على الذى هو آت وأنت فى عملك فتقول هلم إلينا ولا هلم إليكم دون غيركم » .

ولقد تحققت فراسته فى بنى هاشم بعد إذ قضوا عصورا طويلة فى مكافحة الملوك ومزاحمة الخلفاء على الخلافة وأسسوا عدة دول أضخمها العباسية فى بغداد والفاطمية فى أفريقيا وأهرقوا سيولا من دماء أشياعهم وأشياع غيرهم فى سبيل نيل هذه البغية ، وتأتى عن هذه المزاحمة من التشويش فى أمور الدول الإسلامية والاضطراب فى المسلمين ما الله به عليم . على أنهم لو اتعظوا بعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ صرف أسلافهم عن الإمارة وصرفها عنهم لما أقدموا على شىء من ذلك بل لكانوا إذا استمر فى نفوسهم شىء من التطلع إلى الخلافة سلكوا إليها سبيلا غير ذلك السبيل وجعلوا الأمة بأجمعها طامحة الأنظار إليهم ساعية بنفسها لإسناد منصب الخلافة لأهل الجدارة منهم وحسبهم موعظة وذكرى أن على بن أبى طالب رضى الله عنه على صلاحه وتقواه وسابقته فى الإسلام وقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم وشهرته بالعدل والورع والزهد (ومن كمل بعده) لم يوفق إلى جمع كلمة الأمة على الرضا بخلافته لا لقصور فيه معاذ الله وإنما هو لما وقر فى نفوس الأمة يومئذ من أن الهاشميين بسبب قرابتهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم لاينفكون عن الإدلال على الناس وحب الاستعلاء على الكافة والناس يومئذ فى إبان نشأة الإسلام وعز الحرية وحظيرة المساواة والإخاء التى حشرهم إليها الإسلام بقوله تعالى « إنما المؤمنون إخوة » وبقول النبى صلى الله عليه وسلم : « لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » فبتوهم أن يسلبهم بنو هاشم شيئا من هذه النعمة بالاستعلاء عليهم ، كانوا غير مبالين لاستخلاف أحد منهم ، يدلك على صدق هذا القول ماذكره فى العقد عن عبد الله بن عباس . قال : « ماشيت عمر بن الخطاب يوما فقال لى : يا ابن عباس مايمنع قومكم منكم وأنتم أهل البيت خاصة ؟ قلت لا أدرى ، قال : لكننى أدرى أنكم فضلتموهم بالنبوة ، فقالوا : إن فضلوا بالخلافة مع النبوة لم يبقوا لنا شيئا وإن أفضل النصيبين بأيديكم بل ما إخالها إلا مجتمعة لكم وإن نزلت على رغم أنف قريش (بريد الخلافة) انتهى ما أردته من كتاب (أشهر مشاهير الإسلام) والحمد لله رب العالمين .

فقال صاحبى : لقد وضح المقام وضوحا تاما ، فالحمد لله ، فماذا تقول فى الأمم الإسلامية الحاضرة ؟ هل ظهرت فى بعضها بوادر الشورى . فقلت : إن هذا هو الزمان الذى سيظهر فيه نور النبوة وتظهر سيرة النبى صلى الله عليه وسلم وسيرة عمر وغيرهما ، وهناك تبدل الأرض غير الأرض ، والمسلمون مقبلون على هذه الحال طوعا أو كرها ، والذى منعهم من ذلك هو الجهل ، أما اليوم فإن الله قد أذن بانتشار العلم فى الإسلام ، وستكون الحكومات كلها شورية ، فهل لك أن تسمع ما جاء فى جريدة الأهرام يوم الاثنين ٥ نوفمبر سنة ١٩٣٠ وهذا نصه :

الحياة النيابية فى أفغانستان

جلالة الملك نادر شاه يمنح البلاد مجلسا نيابيا
حفلة الافتتاح وخطاب العرش

نشرنا فى الأهرام الغراء منذ أسبوع كلمة عن جلالة الملك نادر شاه ملك أفغانستان الحالى بمناسبة تتويجه واليوم جاءنا البريد الأفغانى طافحا بوصف حفلة افتتاح المجلس النيابى الجديد الذى أنعم به جلالة الملك نادر شاه على بلاده التى تعشق الحرية وتتفانى فى الذود عن حياضها من قديم الزمان رغبة فى أن تسود العدالة والرفاهية فى تلك البلاد .

وقد ألقى جلالته خطابا ضافيا بحث فيه عن حالة المسلمين وقارن بين تاريخهم الماضى وتاريخهم الحاضر بشىء من الإيجاز وخرج من بحثه بنتيجة هامة هى منح بلاده الحياة النيابية الصحيحة لتتمكن فى صراحة وإمعان من إدارة شئونها بنفسها . وقد قامت الأمة الأفغانية المجيدة على بكرة أبيها تهلل وتكبر لهذا الحادث السعيد . وإننا لانرى مندوحة من أن ننشر للقراء الكرام وصف حفلة الافتتاح كما شرحته الجرائد الأفغانية وترجمة خطاب العرش الكريم : قالت جريدة (إصلاح) التى تصدر فى كابل « كان يوم ١٦ ربيع الثانى سنة ١٣٤٩ يوما مشهودا فى كابل تطاولت إليه أعناق الأفغانيين وتطلعت إليه أبصار الشاهدين منهم والغائبين لأنه فاتحة عهد جديد وغرة عصر سعيد ، وهل هناك أعظم من نعمة الحرية والشورى الملية جدير بهذا اليوم أن يحتفل به الأفغانيون احتفالا جديرا بهم وهم الأبطال الأماجد» .

فى هذا اليوم غصت ردهة قصر جهل ستون (الأربعين عمودا) بجموع وكلاء الأمة وعظمائها والكثيرين من العلماء والموظفين العسكريين منهم والملكيين وذلك لمشاهدة الاحتفال بافتتاح المجلس النيابى الأفغانى الذى يعد أكبر حادثة تاريخية فى أفغانستان فى العصر الحاضر لأن أفغانستان التى نشأت من القديم على حب الحرية كانت محرومة من نعمة الشورى بطريقة رسمية تخضع لها الحكومة المركزية وتكون رهن إشارتها ، وقديما كان القول الفصل فيها هو للحاكم الأعلى لارقيب عليه ولا حسيب ، وكثيرا ما نتج عن ذلك مضار لاتحصى وأخطار كبدت الأمة ضحايا كثيرة وخسائر جسيمة ، وفى الوقت نفسه يجدر بالحاكم العظيم خصوصا فى بلد كأفغانستان أن يعول على عضد شعبه ورضاه بدلا من أن يستقل برأيه الشخصى ويتبع هواه ويسخر من مواطنيه ولو تصفحنا تاريخ أفغانستان لوجدنا أن الحكام الذين ساروا وفق رغبة الأمة كانوا فى مركز أعظم ضمانة وأكثر حرية وأكبر كرامة وأبعد نفوذا وبالعكس فإن الذين فسقوا عن أمر الأمة واستهانوا بكرامتها طردوا ولم يجدوا لهم عونا ولا نصيرا .

وهاهو جلالة الملك نادر شاة الذى نفخ فى بلاده تلك الروح العالية التى نشلتها من الكارثة التى كادت تؤدى بها إلى الهلاك وتحمل فى سبيل ذلك كل مايتحمله المخلصون مستعينا فى ذلك بما وهبه الله من قوة الذهن وسعة العقل وحسن البصيرة ، يفتتح عهده السعيد باعطاء البلاد حريتها التامة وحقوقها الكاملة فأنشأ المجلس النيابى (لويه جركة) رغبة فى جمع كلمة الأمة وتوحيد الوجهة الوطنية توحيدا صادقا لخدمة الصالح العام كما يتضح من خطاب العرش وهذا ترجمته :

(أعزائى المحترمين : أحمد الله الذى أتاح لنا هذا الاجتماع الأخوى بعد أن قاسينا ماقاسينا فى سبيل تبديد تلك الشدائد والمخاوف التى كانت تحيط بنا وبالبلاد من كل جانب ، فاجتماعكم أيها النواب فى هذا المجلس المقدس

وأنتم على أتم ماتكونون اتحادا وأخوة إسلامية عملا بقول الله تعالى « إنما المؤمنون إخوة » إنما هو لقصد شريف وهو ترقية أفغانستان والعمل على إسعادها ورفاهيتها وتقوية أركانها وفقا للأمر الإلهى القائل (وشاورهم فى الأمر) «وأمرهم شورى بينهم» لهذا اجتمعتم فى مكان واحدوفقا لرغباتنا الصادقة، وإنى أشكر الله تعالى على ذلك شكرا عظيما وأحييكم من صميم قلبي وأتمنى أن تكونوا أنتم وكافة أفراد الأمة بخير وعافية، وبعد فإنكم تعلمون أن النجاح والسعادة فى الحياة هما فى الاتفاق، كما أن الخراب والعبودية فى النفاق ، وقد شاهدنا ذلك بعيوننا فى مدة لاتتجاوز السنة فتأكدنا أن النفاق عذاب إلهى كما أن الاتفاق رحمة سماوية وتفصيل هاتين الحقيقتين واضح فى التاريخ فى كل زمان ومكان وأثرهما يعرفه كل إنسان .

وإنكم تفهمون لماذا وكيف انتشر الإسلام وعم الآفاق ونشر ألوية الأمن والسعادة البشرية والترقيات العصرية خفاقة فى عهد النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين رضى الله عنهم ومن سلك مسلكهم ؟ لم يكن ذلك بقوة السيف وحده وإنما بالأصول الصحيحة والقواعد السليمة التى جذبت الجماعات المختلفة والأقوام المتباينة إلى حظيرة الدين الحنيف الذى انتشر بقوة البرق الخاطف أينما حل وسار، ومن أكبر دواعى نجاحه انعدام الفوارق الجنسية والاجتماعية بينهم، فالمسلمون إخوة مهما اختلف لونهم وتعددت أجناسهم وتباينت أوضاعهم فلا فضل لأحد على الآخر إلا بالتقوى فهل تراهم تمسكوا بأهداب المساواة وحافظوا على الشورى فى أمورهم وأعمالهم، إن رقى المسلمين فى الماضى لم يكن له من سبب إلا بمحافظتهم على هذه الصفات الكريمة والمزايا الجيدة فلما انحرفوا عنها وهى فى الحقيقة أساس الرقى والتقدم سقطوا إلى الحضيض، لقد عرفت الدول المتمدينة بعد طول التجارب أن الأصول الإسلامية كالحرية والمساواة والشورى أفضل الأصول وأرقاها ولذا اتخذتها أساسا لحكوماتها بعد أن أراقت فى سبيلها الدماء الغزيرة ولم يكن قبل الإسلام حرية بمعنى الكلمة حتى يمكن أن يشير إليها .

ومن أحسن أنواع المساواة فى الإسلام مسألة ترتيب الصفوف فى الصلاة؛ فالخادم يقف بجانب الملك فى حضرة الإله يؤدى الفرض بلا كلفة ولا حرج . ونفس صلاة الجماعة أعظم مثل فى المساواة الإسلامية ، ولكن لسوء الحظ فإن الحكومات الإسلامية مالت إلى الاستبداد وعكفت على الإفساد والتفرقة فتأخرت وانحطت حتى أصبح يضرب بها المثل فى الذلة والمسكنة .

فما سبب هذا التدنى وذلك الترقى ؟ يا ترى الدنيا عالم أسباب : فإذا كانت الأسس التى تبنى عليها الأعمال والاصلاحات مبنية على التجارب الصحيحة والقواعد الثابتة كانت النتيجة فى أى زمان ومكان لاشك مفيدة منتجة .

وإذا كانت الأسس غير صالحة والتجارب غير ناضجة جاءت العاقبة وبالا بلا مراء . هذا هو القانون الأساسى الذى لايتبدل ولايتحول إلى قيام الساعة «إن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» ففى الزمن الأول كان المسلمون أهل استقامة وعلم بالسياسة وحزم وشجاعة عملا بقانونهم الإلهى القويم فوصلوا بذلك إلى ماوصلوا إليه من الرفاهية والسؤدد ، فلما ابتليت الأمة الإسلامية بالملوك الأنانيين والعلماء المفسدين وساءت سيرة الحاكمين مع انتباذ قانونهم المبين وصلت إلى ماهى فيه الآن من العجز والانحطاط .

ومن دواعى الأسف أنه كلما ظهر فى هذا العصر رجل بصير حازم غيور على دينه وبلاده سواء أكان من الحكام أو العلماء قام فى وجهه المعارضون فلا يهدأ لهم بال إلا إذا نكسوا رأسه فيخلو الجو لذوى الأغراض والمصالح الشخصية وهذا ماينباهى به المسلمون والتاريخ شاهد عدل على ذلك .

ولما كان لابد من قوة تنظم وتؤيد المعاملات والأحكام أعنى حكومة عادلة تسير على منهاج الشرع الإلهي

يكون فيها الحاكم هو المسئول الأول فى تنفيذ القوانين التى شرعتها الجماعة التشريعية ويكون مسلكه قدوة للرعية إذ (الناس على دين ملوكهم) كان من الواجب أن زمام أمر كل أمة دائما أبدا بيد شخص عاقل صادق يسهر على مصالح الأمة ويعمل على محو الفوضى والخراب وجلب السعادة والرفاهية .

هذه هى نظريتى التى توصلت إليها أعرضها عليكم أيها الأعزاء .

وفيما يختص بوطننا العزيز ، فإنى لآسف بأن الانقلاب الذى وقع أخيرا لم يكن وحده هو سبب خراب أفغانستان بل أيضا عدم وجود أساس حكومى ثابت كان أكبر عامل فى ضعف وتأخر البلاد .

فإذا لم نتخذ بالرغم من كل شىء الاحتياطات اللازمة والوقايات الضرورية إزاء أمثال هذه الصدمات الفجعة والنكبات المدلهمة فإننا نعتبر مقصرين فى خدمة الوطن الخدمة الحقة اللائقة به إن لم نعتبر خائنين له ،

وإنى كما تعلمون حقا أحب بلادى من صميم فؤادى ولست أرغب فى شىء أكثر من أن أعتبر خادما من خدام الدين والوطن ، ولهذا وبالرغم من المشاكل المالية التى وقعت عقب الانقلاب الأخير أرغب فى أن تكون حكومة أفغانستان على أساس صحيح وأمتن رغبة فى تقدم البلاد وإنهاضها إلى مدارج الفلاح ، وكل من يساهم فى هذا المقصد النبيل لاشك يفوز برضا الوطن المقدس وإحراز السعادة الأبدية الخالدة .

ولهذا المقصد عينه الذى أعتبره مفتاح السعادة طلبتكم أيها الوكلاء لأعرض عليكم رغباتى الخالصة وهى أنا منحنا رعيتنا الحرية الكاملة التى لم يحصل عليها أكثر الأمم رغم إراقة الدماء وأمرنا بالمجلس النيابى رغبة فى أن تسود العدالة والرفاهية فى هذه البلاد ، ولتعلموا أنكم إذا أحسنتم استعمال حقكم المخول لكم أمكنكم الحصول على فوائد جمة لخير وطنكم وحكومة بلادكم .

وإنى لأرجو أن تقوم فى أفغانستان الشورى الملية التى هى دواء المرض ومفتاح السعادة على خير الأسس وتحوز كافة الصفات والعناصر التى هى فى الإسلام .

وإنى أحمد الله الذى وفقنى إلى تحقيق ماوعدت به وها هو المجلس النيابى ينعقد لهذا المقصد السامى وبذلك أشكر الله شكرا كثيرا على ماهدانى إلى إحياء سنة كانت متروكة إلى هذا اليوم .

وسيتباحث معكم فى هذا الباب الصدر الأعظم ومجلس الوزراء فى جو ودى للوصول إلى طريقة الانتخاب وعدد الوكلاء ، وفقكم الله وسدد خطاكم حتى يكون عملكم هذا موضع إعجاب ورضا العالم أجمع آمين »

وإننا لنبتهل إلى الله بالدعاء بأن يجعل هذا العمل محمود النتيجة مبارك الأثر على البلاد وأن يبقى به عليها ظلال الأمن والرفاهية وأن يحفظ للبلاد ذات جلالته الكريمة وهو من شهد له التاريخ بعمله الموفق فى إنقاذ البلاد من الفوضى ومن عرفت له البلاد مآثره الكريمة فى نشر ألوية الحرية مؤيدة بتوفيق الله . انتهى ماجاء فى الجريدة المذكورة .

فلما أتممت هذا المقال قال صاحبى : لقد شرحت صدرى فأحمد الله عز وجل ولكن ماذا تقول فى بقية بلاد الإسلام . فقلت : هى إلى هذا سائرة ؛ فأهل مصر بلادى وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش ، وكذا أهل الشام والعراق وغيرهم ، كل هؤلاء ستكون حكوماتهم شورية صادقة ، وستزول الأمم الأوروبية من بلادهم فلا تبقى انكلترا فى بلادنا مصر وفلسطين والعراق ، ولا إيطاليا فى طرابلس ، ولا فرنسا فى الجزائر ومراكش وتونس والشام ، ولا إسبانيا فى مراكش ، بل هذه الدول سترحل من تلك البلاد لأن الذى أدخلها فيها هو جهل المسلمين وغفلتهم ، والقوم اليوم استيقظوا ، وستكون الحكومات محلية صادقة بعيدة عن الترف والنزوات والشهوات القاتلة .

إن الذى أخر المسلمين بعد الصدر الأول ظنهم أن الحاكم هو الذى يفعل مايشتهى ويتمتع ويأكل كما

تأكل

تأكل الأنعام في هذه الحياة ، وهـذا مرض وجهل ، فليتعلم المسلمون تعلما أرقى ، وليعلموا أن ذلك كله مرض وجهل فاضح وخزي عظيم ، للملك والأمير والحاكم والقاضي يجب أن يكونوا أزهد الناس في مال الدولة وأرضهم نفسا وأعفهم ، والله هو الولي الحميد ، انتهى تفسير سورة الشورى .

تفسير سورة الزخرف

(هي مكية)

إلا قوله تعالى «فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين» المدنية

آياتها ٨٩ ـ نزلت بعد الشورى

بسم الله الرحمن الرحيم

حمٓ • وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ • إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ • وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ • أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ • وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ • وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ • فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ • وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ • الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ • وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ • وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ • لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ • وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ • وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ • أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ • وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ • أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ • وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا

أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ • وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمٰنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ
بِذٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ • أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ •
بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ • وَكَذٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ
قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ
مُقْتَدُونَ • قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ
كَافِرُونَ • فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ • وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ
لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ • إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ • وَجَعَلَهَا كَلِمَةً
بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ • بَلْ مَتَّعْتُ هٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ
مُبِينٌ • وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ • وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هٰذَا الْقُرْآنُ
عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ • أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ
فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ
رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ • وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمٰنِ
لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ • وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ •
وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ • وَمَنْ يَعْشُ
عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ • وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ
وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ • حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ
الْقَرِينُ • وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ • أَفَأَنْتَ
تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ • فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ
مُنْتَقِمُونَ • أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ • فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي
أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ • وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ •

واسئل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون • ولقد
أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه فقال إني رسول رب العالمين • فلما جاءهم
بآياتنا إذا هم منها يضحكون • وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها وأخذناهم
بالعذاب لعلهم يرجعون • وقالوا يا أيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك إننا
لمهتدون • فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون • ونادى فرعون في قومه
قال يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون • أم أنا
خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين • فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب أو جاء
معه الملائكة مقترنين • فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين • فلما
آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين • فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين • ولما
ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون • وقالوا أآلهتنا خير أم هو ما ضربوه لك
إلا جدلا بل هم قوم خصمون • إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبني
إسرائيل • ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون • وإنه لعلم للساعة
فلا تمترن بها واتبعون هذا صراط مستقيم • ولا يصدنكم الشيطان إنه لكم عدو
مبين • ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذي
تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعون • إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط
مستقيم • فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم • هل
ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون • الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض
عدو إلا المتقين • يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون • الذين آمنوا
بآياتنا وكانوا مسلمين • ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون • يطاف عليهم
بصحاف من ذهب وأكواب وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون •
وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون • لكم فيها فاكهة كثيرة منها

تأكلون • إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون • لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون • وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين • ونادوا يامالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون • لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون • أم أبرموا أمرا فإنا مبرمون • أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون • قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين • سبحان رب السموات والأرض رب العرش عما يصفون • فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون • وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله وهو الحكيم العليم • وتبارك الذى له ملك السموات والأرض وما بينهما وعنده علم الساعة وإليه ترجعون • ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون • ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون • وقيله يارب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون • فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون •

(تفسير البسملة)

لك الحمد اللهم على نعمة العلم والحكمة وعلى ما أوليتنا من الجميل ، وشرحت صدورنا لتبيان بعض أسرار كتابك الكريم . هذا ، ولما كتبت هذه الكلمات حضر صديق الذى اعتاد مناقشتى فى هذا التفسير فقال ما الذى تريد أن تكتب فى البسملة بعد ما تقدم فى بضع عشرة سورة ، وكيف تعيد القول فيها ؟ وهذا إلى التكرار أقرب ، والتكرار فى التأليف غير محمود ؛ فقلت: أيها الصديق لقد تعجلت على وما كان لك أن تحكم حكما قاطعا من طريق الظن . فقال : ليس بالظن . إن البسملة معروفة المعنى يفهمها الخاص والعام ، فإعادة القول فيها جار على المثل « توضيح الواضحات من المشكلات » . قلت تسمح لى أن أبدى رأيى ، فقال وهل تجاسرت على الإسراع فى الاعتراض إلا لأسمع مقالك ، وأفهم بيانك ، إيضاحا للأمر ، وتبيينا للحق فقلت : إن هذا النوع الإنسانى ما أوقعه فى الإثم وأضاع منه معظم سعادته فأصبحوا فى الأرض متقاطعين متدابرين إلا اغترارهم بعقولهم وظنهم أنهم يعلمون كل شىء ، فهم يرون الجمال فى الوجوه الإنسانية والصور الحيوانية والنباتية والكواكب المشرقة ، ولكن أكثرهم عن الجمال مسحورون وفى ذنوبهم وهمومهم الوهمية محبوسون مقصورون ، وما يدرك حقائق الجمال إلا أولوا الألباب .

ومثل الجمال فى شيوعه وعدم تنبه الناس له كمثل المآكل والمشارب ، فالناس جميعا يأكلون ويشربون ويعيشون

ويموتون ولا هم يذكرون حقائق ما يأكلون ، فهم عن معرفة حقائق المآكل مسحورون كما أنهم عن بدائع الجمال والفرح بها مبعدون .

وعلى هذا القياس تسمع المسلمين من نوع الإنسان يقرءون الفاتحة فى الصلاة ويسبحون ويحمدون ويظنون أنهم يفهمون حقائق الرحمة التى يقرءونها فى البسملة ، وهذا الظن استوى فيه علماؤهم وجهلاؤهم وشيوخهم وصبيانهم ، وهم جميعا إلا قليلا منهم مغرورون لأنهم لايعلمون .

إن الإنسان اعتاد أن يظن أن ما ألفه عنده معروف ، ألا لا فرق بين الشمس والقمر والنجوم التى اعتدنا رؤيتها وألفنا منظرها وبين البسملة والمآكل والمشارب والجمال العام ، فهذه جميعا يظن الجاهل بسبب ألفتها أنه بها عليم وما هو بعليم . لايعقل الجمال من نوع الإنسان إلا القليل وهم الحكماء وما أندرهم فى هذا الإنسان ، وقد مر الكلام فى هذه وحدها فى (سورة السجدة) عند آية « الذى أحسن كل شىء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين » الخ فارجع إليها إن شئت ، وبقى الكلام فى الطعام والشراب والبسملة . فقال صديق : أما البسملة فنعم ولماذا تذكر عجائب الطعام والشراب ، فقلت إيضاحا لسؤالك ، ألم تسو بين هذه الثلاثة فى أن أكثر الناس يجهلونها وما هم بعالمين ، قال بلى . قلت : ألم أقل إن أمر الجمال تقدم فى (سورة السجدة) . قال بلى ، قلت إذن نشرح القسمين الباقيين ، فأما أحدهما فن باب التنظير ، وأما ثانيهما وهى البسملة فهى المقصود ، وهذا الأسلوب الذى سلكته فى هذا التفسير وإن كان فيه إطناب سيكون من بواعث إنهاض الأمم ، وبعث العزائم ، وشرح الصدور ، وإبراز همم كانت خامدة ، وعقول كانت نائمة . قل لى رعاك الله : أيهما أقرب إلى إيقاظ الهمم ، وبعث تلك النفوس الشريفة التى أودع الله فيها قوى يعوزها الإيقاظ والتنبيه ؟ أإعراب البسملة الذى كان كثير من المؤلفين يكررونه فى أول كل كتاب وتطبيقها على العلوم الاثنى عشر المشهورة عند المتأخرين من أمم الإسلام وموت النفوس فى قشور العلوم فيكون الجهل التام والموت الزؤام ، أم الغوص على الدرر والجواهر فى بحار العلوم واستخراج خلاصاتها فى أول كل سورة بمناسبة ما فى نفس السورة كالذى نفعله الآن ، إن تفسير البسملة فى هذه السورة لاتكرار فيه ألبتة ، هى فوائد مستخرجات من نفس القرآن ، بل من نفس السورة التى فيها البسملة ، وسترى فى هذه السورة عجبا فإن الرحمة مكررة فى سورة (الزخرف) هنا ثمان مرات اثنتان على هيئة المصدر «أهم يقسمون رحمة ربك» الخ «ورحمة ربك» الخ و (٦) بهيئة الصفة المشبهة :

(١) «وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا» الخ .
(٢) «وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا» .
(٣) «وقالوا لوشاء الرحمن» الخ .
(٤) «ومن يعش عن ذكر الرحمن» الخ .
(٥) «أجعلنا من دون الرحمن آلهة» الخ .
(٦) «قل إن كان للرحمن ولد» الخ .

فالرحمة وما اشتق منها كررت فى السورة وذكرت فى البسملة ، والحاء والميم فى أول السورة حرفان من الرحمة ، وهذه الآيات التى بها الرحمة فيها أسرار لابد من إظهارها ، وسترى هنا من عجائب العلم وبدائع الحكمة مما فتح الله به فى ليلة الجمعة الفائتة وفى ليلة السبت بعدها قبل الفجر أى فى ليلتى (١٤) و (١٥) نوفمبر سنة ١٩٣٠ م ماتقربه أعين أرباب البصائر ويبرز علم مخزون تفتح به أقفال كانت موصدة قبل ألفى سنة على كنوز خبأها سقراط وأفلاطون فى كتاب الجمهورية عند الكلام على المثل الأفلاطونية وما اعترض بجعلها أرسطاطاليس

بعدها ، وما قاله الفلاسفة بعد تلك القرون وأغلق الأمر عليهم ؛ فأرجو أن أوفق فى هذا المقام لتحقيق هذا المقام وذلك بطريق النقل تفسيرا لهذه الآيات وتطبيقا عليها . فقال : إن هذا القول الذى سمعته منك الآن غريب . وكيف يدخل مايقوله سقراط ومن جده فى هذا المقام . وكيف ترجو أن تحل مشكلة عسر فهمها على فلاسفة اليونان والرومان والأمم بعدهم فقلت : أنا قلت لك أرجو وستكون معى وقت المباحثة فى هذا الموضوع والله يقول « وأمرهم شورى بينهم » ، أنا إذ ذاك سأعرض فى المناقشة آيات السورة التى فيها الرحمة وسنحاول بطريق مبادلة الفهم والمناقشة معى « ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا » الخ ، وقوله تعالى فى سورة أخرى « ألا بذكر الله تطمئن القلوب » وندرس هذا الموضوع ، وننظر هذا المقام فى قول سقراط سيد فلاسفة أوروبا الحاليين والسابقين بإقرارهم وماذا قال فى هذا المعنى قبل نزول القرآن ثم نذكر الشبهات التى وردت عليه وهكذا ، ثم نبين ماعن لنا فى ذلك فإن زالت الشبهة فقد نصرنا الله وفتح علينا وإن لم تزل فقد نلنا نعمة الاجتهاد وقمنا بالواجب علينا . فقال والله لقد أقنعتنى وشفيت صدرى ، فأنا الآن أوافقك على البحث فى هذا الموضوع ، ولقد انشرح صدرى فيه لاسيما أن هذه الآيات لاتخطر فى بال علماء الإسلام فضلا عن الجهال . إن الأمم السالفة خطر لهم الكلام فى معانيها قبل نزولها ، فالكلام فى ذلك يكون من أعجب الأعاجيب . فقلت الآن اتفقنا على أننا سنبحث فى البسملة من هذه الوجهة . قال نعم . قلت إذن لنبحث فى المسألة التى كنا أخذنا نشرع فيها قبل البسملة بعد الكلام على عموم الجمال وهى مسألة المآكل والمشارب من حيث إن الناس لما كانوا معتاديها لم يتفطنوا لها كما لم يتفطن أكثر المسلمين منهم للبسملة من أجل شيوع ذكرها فى كل أمر ذى بال . قال : أنا موافق على ذلك . فقلت :

المآكل والمشارب

قدمت لك أيها الصديق فى هذا المقام أن أكثر الناس يتوهمون أنهم يعرفون ما يأكلون وما يشربون وهم فى ذلك مغرورون ، فإذا سألت صبيا أو رجلا جاهلا وقلت هل تعرف الماء ؟ استهزأ بهذا السؤال وظن السائل غبيا . هذا معنى ماقلته . قال نعم . فقلت : ألست تظن أن هذا الوهم خطأ ، وكيف لا يكون خطأ ونحن نعلم أن هذا الماء الذى نشربه وهو من السوائل مركب من عنصرين كل منهما يشبه الهواء (وبعبارة أخرى) إن هذا الماء الذى فى النهر والبئر والبحر إذا وضعناه فى زجاجة وسلطنا عليه الكهرباء وجدناه انحل حالا ولم يبق أمامنا ماء ، وإنما نرى عندنا جسمين يشبهان الهواء وكل منهما له صفة تخالف الآخر ، فأحدهما إذا أدخلنا فيه قطعة خشب طرفها فيه آثار النار فإنها تشتعل حالا ، والآخر جسم خفيف جدا يصلح لارتفاع الطيارات فى الجو ، وأولهما الاكسوجين ، والثانى الأدروجين ، والأكسوجين ٨ على ٩ من الماء . إذن معظم الماء أكسوجين والاكسوجين يكون غازا كالهواء ويكون مع الأدروجين ماء وهو داخل فى الدبش الذى نبنى به مساكننا وفى الحجارة ، فلوأننا وزنا الحجارة بعد تحليلها لوجدنا أن فى كل مائة أقة منها (٤٨) أقة من الأكسوجين كما أننا إذا وزنا الماء بعد تحليله وجدنا فى كل تسع أقات منه ثمانية أوقات ، فهو مكون لأكثر الماء ولما يقرب من نصف الحجارة ، وهو داخل فى الهواء مع الأوزوت ، وهذا الأوزوت لايخلو منه جسم إنسان ولا حيوان بل هو ثلاثة أرباع وزن جسم الحيوان [اقرأ كتاب تنوير الأذهان فى تغذية الأجسام] لأستاذنا على باشا مبارك ، إذن الماء الذى نشربه (ويظن الصبيان والجهال منا أنهم يعرفونه كما يظن المسلم أنه يعرف معنى البسملة) يعوزه درس وتفصيل . إذن المعرفة يعوزها التفصيل والإيضاح ، أما الإجمال فالوقوف عنده غرور .

أوليس من العجب أن ترى أكثر من ٨ على ٩ من الماء مادة تسكون فى نحو نصف الأحجار وثلاثة أرباع الحيوان ، وتراها فى الماء شرابا ، وفى الأحجار بيوتا صلابا ، وقلاعا حصينة ، وفى الحيوان عظاما ولحاما ودما . شرب الماء ونغسل به البلاط وهو فى الوقت نفسه نصف نفس البلاط المغسول ، إذن هو غاسل وهو مغسول وهو شارب وهو مشروب ، فإذا كان ثلاثة أرباع الإنسان أكسوجينا فالأكسوجين المتجمد شرب الأكسوجين السائل ، ومعلوم أن الهواء فيه أكسوجين ؛ فإذن الإنسان أيضا يأخذ بالتنفس الأكسوجين الذى فى الهواء.

اجلس فى أى مكان شئت ، فالبلاط تحت الجالس نصفه أكسوجين ، والهواء فيه أكسوجين ، ونفس الإنسان فيه أكسوجين ، والماء أكثره أكسوجين ، إذن هذه مسائل أعجب وأبدع من سحر السحرة ، هذا الإنسان يمتطى القارب ويركب القارب والسفين فى اليم والقطار فى الأرض ويسير إلى القطبين ويرصد النجوم ليعرف العجائب.

يا أيها الإنسان : أنت عجب ، وشرابك عجب ، وجسمك عجب : وتنفسك عجب ، ومجلسك عجب ، أنت مغمور فى بحر لجى من النور.

سبحان الله الجميل البديع ؛ عجب وألف عجب ! أكسوجين يصير حجرا وعظما ودما ، وهواء ، فهو جامد وغاز وسائل ، وهو هو نفسه يطهر نفسه ، فهو من حيث إنه ماء يطهر نفسه من حيث إنه إنسان أو بلاط أو غيرهما ، كما أنه هو يدخل فى الرئة فتتلقفه هى من الهواء فيطهر الدم فى أجسامنا ، جل الله وجل العلم وجلت الحكمة وجلت نعمة العلم .

ما الناس سوى قوم عرفوا وسواهم همج الهمج

فلا كتف أيها الصديق من الكلام على الشراب بما ذكرناه فى الأكسوجين ، ولنذكر مقالا وجيزا فى المآكل . وإنى ليسرنى إذا كنت على ذكر مما تقدم فى هذا التفسير ، فأجابنى قائلا : نعم لقد جاء فى سورة فاطر عند آية « والله خلقكم من تراب » ما ملخصه أن فى الفم ستة مجار تفرز موادا تهضم المواد النشوية ، فإذا وصل ما بقى منها وهى الذى لم تؤثر فيه تلك القنوات الست إلى المعدة تلقاه العصير المعدى فأذابه ، وجملة ما يتعاطاه الإنسان إما مواد عضوية ولكنها ليس فيها مواد زلالية وذلك كالنشاء والسكر وكالزيت والشحم والسمن فهذه يدخلها الفحم ولا يدخلها الزلال كزلال البيض ، وإما مواد عضوية وفيها المادة الزلالية كزلال البيض والمواد المستخرجة من العظام المغلية ومادة الجبن ومادة أخرى من نوع ذلك فى اللحم ، وفى بذور البقول كالفول والعدس والبسلة وفى الحبوب كالقمح والذرة ، وبهذا عرفنا المواد العضوية بقسميها .

وهناك مواد غير عضوية مثل كربونات الجير ، وذلك فى العظام والأسنان ، وفوسفات الجير فى العظام أيضا وهى نصف وزنها تقريبا ، وهذان يدخلان فى الأغذية النباتية والحيوانية وملح الطعام وأملاح أخرى ، هذا هو ما يتعاطاه الإنسان . فقلت : إذن طعامنا مفرق على البر والبحر وما فيهما ، فهذا الملح مستخرج من البحار ومن الجبال ، والمواد الدهنية تستخرج من الحيوان ومن الأشجار كالزيتون ، والمواد النشوية مستخرجات من النبات كقصب السكر والحبوب أمثال القمح ونحوه ، والمواد الزلالية تستخرج من الحيوان ومن الحبوب أيضا ، ولعلك تذكر المواد الفحمية الطائرة فى الهواء التى هى المخزن العظيم الذى إليه ترجع المواد الفحمية الخارجات من أجسامنا مع الزفير الذاهبات إلى النبات لتغذيته الراجعات إلينا ثانيا بطريق تعاطيه من أوراق النبات وثماره ، فهناك تبادل بين الحيوان والنبات فى ذلك ، فبينما النبات يتنفس مادة الأكسوجين فى الهواء ويرسله إلى المخزن العظيم فى الهواء إذ الحيوان يقبل ذلك الأكسوجين ويعطى

الجو بدله مادة فحمية تصل إلى ذلك المخزن الطائر فى الجو وهو يوصله إلى النبات . فقال أتذكره فهو مذكور فى (سورة يس) كما أن القناة الهضمية وجميع رسومها وما يوضحها مذكورة فى (سورة فاطر) وهناك أن الفحم الصافى فى الجو نحو ١٤٨ ألف مليون ونصف مليون طن ، والطن معلوم أنه نحو ٢٢ قنطارا والقنطار ٣٦ أقة . فقلت نعم إذن نحن بنى آدم فى الأرض أكثرنا فى غرور عظيم إذ نظن أننا نفهم الطعام والشراب ، فها نحن أولاء ذهبنا كل مذهب فى طعامنا وشرابنا ، لقد فرق على الكرة الأرضية وطار فى الجو وغاص فى البحر ، وأدهشنا أن نرى أسناننا قد ركبت من الجير الداخل فى بناء منازلنا وهو الذى التقطه النبات من الأرض فأكلناه ومن (الفسفور) تلك المادة البيضاء ذات الرائحة الشبيهة رائحة الثوم ، وهي تباع فى مربعات من البلور مملوءة بالماء الوقاية من إيذاء تلك المادة لأنها تلتهب سريعا بمجرد ملامسة الهواء ، فإذا لامست الأصابع التهبت حالا ويعسر إطفاؤها وتحدث جروحا خطرة ، وهذه المادة إذا كتب بها على حائط فى محل مظلم لانور فيه ظهرت الكتابة كأنها نار تفزع منها الأطفال والشيوخ والنساء ، فعجب أن يكون الجير فى منازلنا وتلك المادة النارية التى نراها فى أعواد الكبريت التى نوقد بها النار داخلين فى أسناننا بأنواعها الثلاثة لتمزيق أغذيتنا وقطعها وطحنها « إن ربى لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم » .

فهذه الأسنان تهرس الطعام، والعيون الست النابعات فى الفم تتخلله لتهضمه، ثم يمر فيصل إلى الاثناعشر هل تتذكره أيها الصديق . فقال أتذكره مرسوما فى (سورة فاطر) . فهناك تقابله عصارتان إحداهما آتية من الصفراء والأخرى من البنكرياس المرسومين هناك ، وهاتان العصارتان يتقابلان فيغيران تلك المادة تغيرا عجيبا ليحصل لها اقتراب من أن تكون من جملة الدم .

ولنرجع إلى الفحم الذى يخرج من الزفير . قال أنا أتذكره جيدا من هذا المقال ومن سابق التفسير فقلت : أزيدك فيه علما إنه فى السكر وفى الورق وريش الطيور وفى العظم واللحم والجلد والشمع والدهن والزيت فإن الفحم يظهر فى آثار مايوقد منها وهو تلك المادة السوداء الظاهرة للعيان وكل شيء لايخلو من الفحم وهو فى الحجر الذى فى المبانى وفى الرخام والمرمر ، إذن هو فى كل ما نضعه على المائدة إلا الملح فهو لا فحم فيه ، ولقد قالوا « إن الفحم أمير والأكسوجين المتقدم شرحه سلطان » ولا جرم أن الهواء مركب من الأكسوجين والأوزوت ، وهذا الأوزوت هو نفسه المواد الزلالية المتقدم شرحها الداخلة فى الحبوب واللحم والبيض وقد تقدم شرح ذلك فأجسامنا مركبات من أكسوجين فى الهواء وفى الماء ومن فحم فيه وفى غيره ومن مادة الزلال السابحة فيه ومن شحم الحيوان ولحمه والزيت ونشاء الحبوب وغير ذلك ، وهذه كلها يحملها الدم وهو يجرى فى الشرايين ، والشرايين تصل بدقتها المتناهية فى كل جزء من أجزاء الجسم وتعطيه ما يستحقه من تلك المواد بعدل وإنصاف ، فإذا وصل الدم إلى الأسنان مثلا أخذت حقها وهو المواد الجيرية والفسفور كما تقدم ، وإذا وصل إلى العين أخذت المواد التى تليق لها بحيث تصلح للإبصار وهكذا الأذن والجلد والأعصاب ، إذن هذه حكومة عجيبة مدهشة . وإنى ليحزننى أن أرى أكثر هذا النوع الإنسانى يعيش جاهلا بهذه الكرة الأرضية ، ويعيش جاهلا بنفسه وهو مغرور جهول « قتل الإنسان ما أكفره » .

فياليت شعرى متى يرتقى هذا الإنسان وينظم أممه على مقتضى نظام جسمه البديع الجميل المتقن ، يجرى الدم فى الشرايين فتتلقاه الأعضاء فيأخذ كل عضو حقه ولا يتعداه ، ويترك ما ليس له بحق ، كأن هذه الأعضاء قرأت « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو

على

على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » أوكأنها قرأت جمهورية أفلاطون ، أوكأنها قرأت « إن الله يأمر بالعدل والإحسان » .

الله أكبر . أجسامنا بديعة التركيب ، حسنة الوضع ، ونحن نعيش فيها ، ونحن بها جاهلون ، نتعاطى الطعام ومثلنا معه كمثل من قال الله تعالى فيهم « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا » . وإذا جهلنا الطعام والشراب فإننا أعرق فى الجهل بمعنى البسملة التى كلامنا فيها ، ومتى أخذ كل عضو حظه من مواد الغذاء الذائبة فى الدم نما وكبر على مقتضى قوانين مجهولة لنوع الإنسان فى الأرض ، ثم يكون هناك عالم آخر وهو عالم لأعصاب المتصلات بالنخاع الشوكى للرسومات المشروحات فى (سورة فاطر) والنخاع الشوكى يوصل الأخبار إلى المخ وهناك عالم التعقل والتفكر . إذن طعامنا فى القناة المضمية كيموس وكيلوس ، وفى الدورة الدموية دم ، وفى أعضائنا المختلفات أعصاب وعظام وعضل ودهن الخ . وآثاره فى أعصابنا ونخاعنا الشوكى ومخنا علوم ومعارف وفكر وذكر وحكمة ، فكيف نقول إننا بما نأكل عارفون أو لما نشرب دارسون ، وهذا من أسرار قوله تعالى « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » وهذا الجهل كما تقدم يضارعه جهلنا معنى « بسم الله الرحمن الرحيم » . إذن فلنفض الكلام على معنى الرحمة الذى هو المقصود فى هذا المقام فنقول :

الرحمـــة

قد قدمت لك أيها الذكى فى أول هذا المقام أن الرحمة فى هذه السورة قد ذكرت ٨ مرات فوق ما جاء فى البسملة (٢) فالجميع (١٠) والحاء والميم تشيران إلى الرحمة أيضا فلابد لنا إذن من فهم الآيات المذكور فيها الرحمة مثل « وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا » الخ ، ومثل « ومن يعش عن ذكر الرحمن » الخ ومثل آية « ولولا أن يكون الناس أمة واحدة » الخ ، ولكن لابد لنا قبل فهم معانى هذه الآيات من تحقيق معنى الرحمة فوق ما تقدم .

فقل لى أيها الذكى : أيهما أحق باسم الرحمة ، أهذه النعم المتغيرة المتبدلة التى لا ثبات لها ، أم النعم الثابتة ؟ قال بل الثابتة . قلت حسن . قلت : ثم إن النعم المتغيرة أيها أحق باسم الرحمة أأعلاها أم أدناها ، قال : كل ما كان أعلى كانت الرحمة فيه أوفر ، وكل ما كان أدنى كانت الرحمة فيه أقل . قلت إذن وجب الآن أن نشرح أنواع النعم ونبتدى من أدناها إلى أعلاها حتى نفهم الرحمة ونبين أنواع الرحمات المذكورة فى هذه السورة إذ ذاك . فقال : يا للعجب ! وهل للنعم لها نهاية حتى تبين عددها ودرجاتها ، إنها يعوزها علوم الأمم وأعمار جميع العلماء فى الأرض . فقلت : إننا لا نعرف من جميع النعم إلا ما أدركته حواسنا وعقولنا ، إذن فلندرس درجاتها باعتبار إدراكنا لها ، وحواسنا معروفة محصورة عندنا والنعم مقسمة عليها ، فالبحث فى النعم سيكون فى تفصيل ما يدركها لا فى تفصيل المحسوسات والمعلومات . قال : أما هذا فهو حسن فأريد أن تذكر لى أدنى درجات النعم . فقلت : هى كل ما كانت تستلذه حاسة اللمس كنعومة الحرير فإن لابس الحرير والنائم على الفراش الوثير يحس كل منهما بلذة اللمس ، وهذه اللذات سببها النعومة الحاصلة فى اللباس والفراش قال ولماذا كان هذا أدنى الرحمات ؟ قلت لأن حاسة اللمس عامة فى كل حيوان حتى الدودة فى الماء وفى الطين لها حاسة اللمس ، وهذه الحاسة لا تعرف إلا ما يلاصقها فهى كالأعمى لا يدرك إلا باللمس . قال ثم ماذا ؟ قلت : اللذة التى هى من هذه المحسوسات بحاسة الذوق كالأطعمة والأشربة ، فإذا رأينا أقواما يفخرون بالطعام ولذته ، والشراب وسورته ، عرفنا أن هؤلاء فى درجة اللذة الثانية . فقال ولم جعلتها ثانية ؟ قلت لأن للذوق

من المطعومات أشرف من بقية الملموسات؛ فحاسة اللمس عامة ولكن الطعم خاص بمواد مخصوصة ، فنحس نحن بكل ما يمس جلدنا ، ولكن حاسة الذوق اصطفت خلاصات المادة كالفواكه والحبوب وليس لها علم بالحجر والمدر والطين والتراب وهكذا . قال : ما الذي فوق هذه ؟ قلت حاسة الشم ، ذلك لأنها لا تتقيد بشم ما لاصقها بل تشم للمادة عن بعد، وليست مضطرة إلى ملاصقتها وملاقاتها وإنما تلاقى ذرات لطيفات لا تراها العيون يرسلها المشموم كالورد والمسك تسير في الهواء وتصل إلى الخيشوم فتؤثر في الأعصاب فالشرف هنا من حيث إن الحاسة لم تلاق نفس المادة ، بل لاصقت ذراتها اللطيفات والواسطة في ذلك الهواء .

وأرفع من هذه حاسة السمع لأنها ليست في حاجة إلى ملاقاة المسموع بل الهواء هو الواسطة بينها وبين الجسم الذى خرج منه الصوت وليست الأصوات كالمشمومات التى هى عبارة عن ذرات مادية . كلا . وإنما هذه حركات في الهواء ، ولا جرم أن الحركات ألطف من الذرات في حاسة اللمس .

وفوق ذلك يكون البصر وهو أرقى ، فهو كما لم يكن في حاجة إلى ملاصقة الجسم المنظور ، ولا إلى ذرات منه هكذا لم يكن في حاجة إلى حركات في الهواء كالسمع بل يحتاج إلى صور تسير في النور والنور حركات في الأثير وهذا عالم أجل مما سبقه ، فهل فهمت في هذا الترتيب حكمة أيها الذكى ؟ قال نعم . قلت إذا تفضلت بذلك أكون شاكرا لك . فقال : قد ظهر لى هنا قاعدتان : القاعدة الأولى أن الحاسة التى هى أشرف يكون تركيبها أتم ، القاعدة الثانية أنه كلما كانت النعمة أتم كانت أبعد عن المادة وأقرب إلى التجرد منها . فقلت ما برهان ذلك ؟ فقال : أما كون الحاسة تكون أتقن كلما كانت أعلى فان ماتقدم فى (سورة آل عمران) بحثنا عن ذلك فإن تركيب الأذن هناك أتم من تركيب مادونها من الحواس ، فهناك في تركيبها ١٤ عجيبة من عجائب الإتقان ، وذلك مذكور فى أول السورة عند قوله تعالى « هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء» فهناك الأذن الظاهرة والأذن المتوسطة والأذن الداخلة ، وهناك عجائب لا عد لها مثل السائل الذى في داخل الأذن وفيه خيوط دقيقة شعرية وهكذا ثلاثة آلاف جسم صغير ظنوها آلات البرق (التلغراف) بحيث يتلقى كل واحد منها نوعا من الأصوات يناسبه ويرسل ذلك إلى المخ ، وبالجملة ففي الأذن « الصيوان والصماخ والطبلة والعظيمات الثلاث والمحلزن والقنوات الهلالية والقوقعة والسائل المتقدم ذكره والرمل الحافظ للصوت وعصى كورتى والشعرات القوقية والأعصاب السمعية ، فهذه هى الأربعة عشر جهازا فى الأذن وتفصيلها هناك ، وهذا الإتقان لم يكن فى صنع اللسان ولا الجلد ولا الخيشوم

وإذا ترقينا إلى تركيب العين وجدنا وصفها هناك أتم من تركيب الأذن ، كيف لا وقد عددت الحكم هناك فوجدت ٢٦ حكمة ، فهناك :

(١) القرنية .

(٢) والمنبية .

(٣) والعنكبوتية .

(٤) والشبكية .

(٥) والمشيمة .

(٦) والصلبة .

(٧) والملتحمة .

(٨) والجسم الزجاجى فى وسط الشبكية .

(٩) والرطوبة الجليدية وتسمى العدسية .

(١٠) والرطوبة البيضية .

فالسبع الأول طبقات والثلاث الأخيرة رطوبات ، وهناك تفصيل لامحل لذكره ، والمقصود هنا أن الحاسة التي هي أشرف يكون تركيبها أتم ، وأما كون النعمة أتم كلما كانت أبعد من المادة فبرهانه واضح ذلك أننا نرى نوع الإنسان يفارق النوم على المستقر والحرير والفراش الأنيق (ومعلوم أن هذه لذة الملامسة) ويركب القطار ، لرؤية الأقطار ، ويجوب البحار ، ويقتحم الأخطار ، ويركب متن الهواء ، ويخترق بغواصاته لجج البحار ليشاهد أنواع السمك والنبات ، وصنوف المخلوقات التي في قاع البحار ، ونرى الجهلاء والعلماء يغادرون حدائقهم وفيها الروائح اللطيفة وأنواع الفواكه ويتوجهون إلى محور الصور المتحركة مع أنهم في تلك الحديقة قادرون أن يضربوا العود ويتمتعوا بأصناف الطرب وصنوف اللذات المختلفات . فدل ذلك على أن المسرات عند الإنسان أرقى من جميع المحسوسات . لذلك كان البصر أدق وهكذا . ولم تر حاسة غير البصر لها قدرة على مشاهدة الشمس ، فأما البصر فهو الذي اختص بها . قلت والله لقد نطقت فهم وأجبت . ثم قلت أيها الصديق إننا نريد أن نتوغل في البحث ، فقال حبا وكرامة ، فقلت : إذا كانت الشمس أعظم مايشاهد بحواسنا ، وأشرف حواسنا هي العين وتركيبها أتم ، والواسطة بينهما هو النور فهذا آخر لذة يعرفها الحيوان والإنسان نوع منه ، وأريد أن أسألك أيها الصديق : ماأقصى سعادة عند الإنسان من هذه المحسوسات . فقال : للمسرات واللذات . فقلت اللذات أقصى مايسعى إليه الناس . قال نعم ، فقلت تذكر قليلا في عاشق ملك معشوقه وفرح بماله ففقده ، ومغرم بجميل فذبل الجمال .

لعلك نسيت أيها الصديق ماقررناه أولا في أول هذا المقام وهو أن الثابت أتم نعمة والمتغير نعمته أقل فالسعادة به تكون أنقص ، قال حقا كان ذلك ولكن المسرات الجزئية بالعوالم المتغيرة لاينكرها العقلاء قلت : ولكننا الآن في مقام الفلسفة والحكمة وفي تفسير القرآن ، ونريد أن نصل الحكمة في ذكر الرحمة في قوله تعالى (ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة الخ) فهذه نعم متغيرة والقرآن والحكمة يطلبان النعم الثابتة ولاثبات للمادة ، فقال إذن كأنك تريد أن أسعد ماينا له المرء في الحياة الدنيا هي البصائر ، فقلت : حسن ولكن هذا المقام يحوزه إيضاح وإفصاح ، فقال يسرني أن أسمعه منك فقلت : إن هاهنا عينا وضوءا وشمسا ، فالعين أرقى حاسة والشمس أرقى محسوس والضوء أجمل واسطة ، قال هذا صار مبرهنا عليه . قلت ولما رأى حكماء الأمم قبل الإسلام أن هذه المرتبة يشاركنا فيها البهائم فكروا فقالوا : إن الشمس بالنسبة لعوالم المولدات الثلاث على الأرض أشبه بنار متقدة والناس في الأرض أشبه بقوم في مغارة ظهورهم نحو الشمس ووجوههم متجهة إلى الضوء الذي على جدار المغارة أمامهم ، وهذه المواليد الثلاثة أشبه بالصور المرسومة على حائط المغارة بواسطة ضوء النار ، وهذا المثال تقدم غير مرة ولكن ذكرناه هنا لنوضح به المقام . إذن وراء هذه الشمس الله الذي برأها ، ولهذه المواليد الثلاثة عوالم سماها أفلاطون عالم المثال وهو عالم ثابت ، وعالم المواليد عالم متغير كما أن الله ثابت دائم والشمس متغيرة ، فالله بالنسبة لعقولنا كالشمس بالنسبة لعيوننا . وكما أن الشمس ضوءها يصل إلى العين هكذا عالم المثال ينير على بصائرنا ، فإذا لم تضئ الشمس فإن عيوننا لاترى المبصر وإن كان أمامها هكذا عالم المثال الثابت يرسل أشعته إلى عقولنا ولولاه لم نعقل ولم نعلم ، وإلى هذا المقام انتهت عقول الحكماء في الأمم قبل الإسلام .

ولما ترجمت الكتب إلى الأمم الإسلامية حصل عندهم القول بالاتحاد والحلول . هل تتذكر في أي مقام أوضحنا هذا أيها الصديق ؟ فقال : قد تقدم في (سورة فاطر) نقلا عن الإمام الغزالي إذ ذكرت هناك

فى تفسير البسملة البراهين التى ذكرها موضحة وبان بها وظهر أن مايقوله متأخرو الصوفية من الاتحاد والحلول عار عن البرهان العقلى بل هذا أشبه بكلام الصبيان . قلت : ولكن أريد هنا أن أبينه بطريق أوضح مما نقلته فيما تقدم لأن الأدلة هناك مطولة وفيها بعض الصعوبة . فقال : أحب أن أسمع ذلك . فقلت أى حاسة فى الجسم أشرف . فقال : طبعا العين . قلت ، هل يمكن أن يقول أحد إن العين هى الشمس . فقال وهل تخطر بعقل عاقل . قلت : اسمع ياصاح رعاك الله . إن العين فى الحقيقة مضيئة لأجسامنا والشمس تضىء العالم . إذن العين شمس صغرى . ألم تر أن تركيبها كما قلنا سابقا أتم ، ولماذا هذا ؟ لأجل أن تكون أقرب كمالا من الشمس ، ولولم تكن على هذا النمط لم تر النور ، فالعين مخلوق بديع عجيب والشمس كذلك والعين فى أجسامنا أقرب شىء إلى الشمس فلذلك تقبلت منها النور ؛ ثم إن العين والجسم والأجسام كلها فى الأرض مخلوقات لم تكن لولا الشمس ، فبالشمس ثار السحاب من البحار وهبت الرياح بالحرارة ، فإذا لم تكن شمس لم تكن رياح ولا سحاب فلا إنسان ولا حيوان ، وبالتالى لا عيون ولا أبصار . قال نعم هو ذلك . قلت : إذن الشمس سبب فى العين ، والعين أقرب عضو فى أجسامنا إلى الكمال والكامل هى الشمس . قال حسن ذلك . فقلت : إذن يتوجه السؤال : هل العين هى الشمس ؟ قال . كلا ، لأن إحداهما سبب والأخرى ، مسبب غاية الأمر أن العين أقرب إلى الشمس لأنها عنها أخذت وتركيبها ساعدها على ذلك . قلت : حسن جدا . ثم قلت هكذا نقول لجميع علماء الصوفية السابقين واللاحقين ونعلن الحقيقة واضحة للعالم قاطبة فنقول : « أيها الناس إن ما سمعتموه من أقاويل الصوفية من وحدة الوجود وما جاء فى كتاب الأستاذ الكبير محى الدين فى (الفتوحات المكية) كل ذلك عبارات موهمة يجب الإقلاع عنها حالا لأنه ثبت بالبرهان اليقينى اليوم أن النفوس الإنسانية كالعيون والله « ولله المثل الأعلى » كالشمس والعوالم الروحية كالضوء ، وعالم المثال كعوالم المواليد الثلاثة ، ولن تبصر العين ما لم يكن النور ، وكما أننا لا نقول إن العين هى الشمس وإن كانت أقرب إليها وهى تتلقى عنها الصور والأشكال بواسطة ضوئها ، هكذا لا يعقل أن يكون الأنبياء أو الحكماء أو الأولياء مهما علت درجاتهم وبلغوا أقصاها أن يكونوا هم نفس الله تعالى مع أنهم بالنسبة للناس كالعين والناس من ورائهم كالحواس الأخرى أدنى منزلة وهم يستضيئون بالنور الإلهى فيلهمهم الملائكة ويوحون إليهم المعلومات الثابتات فى العالم الروحى ، فقال : ما أجمل هذا البرهان ، إنه لقريب سهل المنال يعقله كل متوسط الذكاء ، فقلت : فإذا عرفنا هذا وقد امتحنا آراء أسلافنا وقد وضحت الحقيقة فلنتجاوز ذلك إلى ماوراءه وهى آراء سقراط وأفلاطون وأرسطاطاليس ، فنذكر أولا ماقالوه ، وما آثار كلامهم فى الأمم التى بعدهم ، ثم نتبعه بما نراه مما فتح الله به ليلة الجمعة كما قدمته قريبا . فقال ما أشوقنى إلى ذلك . فقلت : إن أفلاطون بعد أن ذكر مثال الشمس المتقدم . قال : « على الإنسان أن يترقى من الأخص إلى الأعم ، ثم يترقى من المحسوسات إلى المعقولات حتى يرجعها كلها إلى ذات الله وهو الكمال المطلق والخير المحض ، وجميع المعانى هى صفاته وهى حكمته » وهناك أعلن للملأ أن هناك عالم المثال وهو ثابت وعالمنا هو المتغير ، ولقد عارض هذا المذهب أرسطاطاليس تلميذ أفلاطون . فقال : « أنا أسلم أن الكليات هى أصل العلم ، ولكن لا أسلم أنها مفارقة للمادة ، وهل هناك كليات إلا فى أذهاننا ، فالذهن مخزن الكليات ، أما أن هناك عالما نسميه عالم المثال وهو أصل لعالمنا فهذا لا أسلم به ؛ وكيف أسلم به وهو إذا كان ثابتا لا يتحرك فكيف صدر عنه هذا العالم المتحرك ، ثم إنه إذا كان مفارقا فكيف يؤثر فيما فارقه ، وكيف يكون جوهرا مفارقا له وإن كان متصلا بالعالم فقد دخله التغير بتغير ما اتصل به ، وكيف ينطبق الجوهر الواحد على الأفراد المختلفة مع أنه لا يقبل الانقسام » وأطال فى ذلك ثم قال : « إن العالم مكون من مادة وصورة (وكيفية معينة من الوجود) والمادة لا تحقق لها إلا بهذه

الميئات وهى فى نفسها إمكان محض أى قوة واستعداد لقبول الصورة ، والصورة كل مابه يتعين وجود المادة من شكل ووضع وبعد وكيفية كاللون والطعم والرائحة والثقل والخفة ، وهذان لايكونان متميزين إلا بالعقل أما فى الخارج فلا، وما الحركات إلا شوق المادة إلى الاستكمال، فهى أبدا مجدة الـكمال وذلك بالحركات فى المقادير (الـكم) كالنمو والزيادة والنقصان والذبول و بالحركات فى الـكيف كالاستحالة من صفة إلى أخرى و بالحركات فى الأين وهى النقلة من مكان إلى مكان.

وقول أرسطاطاليس المذكور فيه لبس ، فقد رد عليه حكماء اليونان بعده فقالوا : ﴿ أولا ﴾ إن المادة عندك أمر سلبي وعدم محض ، وإذا كانت عدما فـكيف تشتاق إلى الاستـكمال بالحركات ، وإذا لم نقل ذلك بل قلنا إنها (إمكان محض) فهل يعقل أن للامكان وجودا. إن وجود المادة يناقض مايقوله هو أنها مساوية الوجود ، وإذا سلمنا بوجودها بعد هذا كله فقد أصبح للوجود أصلان معا وهو مناقض لأصل مذهبه . ثم هو يقول : « إن الطبيعة ماهى إلا المادة والصورة والحركة والمجتمع من هذا كله يسمى طبيعة ، ولم يبين هذه الطبيعة ، ما هى ؟ هل هى ذات موجودة ، أم هى معنى موجود باعتبار العقل » .

فلما مات أرسطاطاليس ترك تلاميذه هذه المباحث وأخذوا يفـكرون فى علم الطبيعة والأخلاق وجدوا فى هذه العلوم ، وهنالك نبغ (أبيقورس) المولود سنة ٣٤١ ق . م. المتوفى سنة ٢٧٠ ق. م ورجع إلى مذهب (ديموقراطيس) القائل بالجزء الذى لايتجزأ وهو يقول : « أجل المقصود من الحياة إدراك الحقائق وذلك بالفلسفة واللذة الناتجة عنها أهم مقاصد هـذه الحياة » ثم نبغت فرقة الرواقيين ويسمون أصحاب الأسطوانة وأصحاب المظال (وهو اسم المحل اجتماعهم بأثينا) وهم شيعة (زينون) المتوفى سنة ٢٦٤ ق م . وهؤلاء يقولون : « إن العالم جوهر واحد ، فهو من جهة قوة عاقلة ، ومن جهة أخرى مادة » ومن صحابه (كرزيبون) المتوفى سنة ٢٠٩ . ق . م. وعلم الطبيعيات هو علم الإلهيات عند هذه الطائفة .

ملخص هذا المقام

هنالك قال صاحبي : لقد طال المقال فأرجو تلخيصه ثم كيفية ارتباطه بالرحمة أولا ، ثم كيف تفسر الآيات التى فيها الرحمة فى سورة الزخرف بهذه العلوم المذكورة هنا . فقلت : ألا تذكر أن أصل المقام :

(١) إنك قلت إن البسملة معروفة وتفسيرها هنا تـكرار .

(٢) فأجبتك بأن الجمال المذكور الموضح فى سورة السجدة أكثر الناس يزعمون أنهم يعرفونه وما هم بعارفين ولا يعقله إلا الحـكماء .

(٣) وأن الطعام والشراب يظن الصبيان والعامة أنهما معلومان وهم جميعا لايدركون بالتفصيل عجائب توزيع المواد النشوية والمواد الزلالية والمواد المعدنية والماء كالأرز والبطاطس وكاللحم والبيض وكالملح وكماء الأنهار .

فهذه موزعات على مناطق الأرض فى أنواع النبات والحيوان والبحار، وهكذا تقتسمها أجزاء القناة الهضمية فتهضمها وتخالط الدم فيأخذ كل عضو حظه من الحياة وهكذا .

ثم يكون الفـكر والعقل ، فهذا إجمال الـكلام على الطعام والشراب، وبقى الـكلام على الرحمة المذكورة فى البسملة التى كررت (٨) مرات فى سورة الزخرف ، فلما أخذنا نفصلها وجدنا أمرا عجبا ! وجدنا أن

حواسنا كلما كانت أقرب إلى محسوسها كان ذلك المحسوس أخس . وكانت نفس الحاسة أقل درجة وكنا نحن بذلك المحسوس أقل اهتماما : ذلك أن المحسوس الناعم كالحرير لانعرفه إلا إذا لامس أجسادنا وذلك يعطينا لذة ضئيلة إذا قسناها بلذة المشموم والمشموم يبعد عن حاسة الشم ويرسل من لدنه ذرات لطيفة فهو ألطف من المطعوم كالحلو الذى يلامس حاسة الذوق التى هى أرقى من حاسة اللمس . فإذا ارتفعنا إلى السمع وجدنا الحاسة أتم تركيبا والمحسوس ألطف يكاد يفارق المادة ولا نحتاج فى تعرفه إلى الملاصقة . أما المبصرات فإنها أبدع وأعجب ورسولها الأمين أشرف من الهواء، وهو الضوء والضوء فى عالم الأثير جل الله، جل الله الذى أعطى الإنسان درسا لن ينسى : فهاهو ذا يقول له . « أيها الإنسان : ألست تعقل ؟ ألم يكن أشرف حاسة عندك هى البصر ؟ أليس المبصر بها يبعد عنها ولا يلاقى حاستك إلا النور . إذن هذه الحياة الجسمية نفسها كشفت لك الغطاء عن السعادة . تقول لك بلسان طلق : أيها الإنسان : أما تخجل وكيف تجهل نفسك تلمس السعادة فى جوانب المادة وأنا رسمت لك الخطة : إن المادة ماهى إلا مبدأ كالذى رأيت فى عالم الملموسات ولكن لابد من ارتقائك فى المعانى كارتقاء العين فى محسوسها عن حاسة اللمس فى ملموساتها . ألا ان الفرق مابين الخشن والناعم من حيث ملاصقة الجسم وبين الشمس والعين من حيث شدة البعد التى تصل إلى مسافة (٣٥٠) سنة يجرى القطار السريع ليلا ونهارا . يجرى فيها النور بين عينك والشمس وكأن الله يخاطب المسلمين فى الأرض قائلا : « المادة مبدؤكم فلابد من دراستها وإتقانها كما درست حاسة لمسكم ماحولكم وإياكم أن تقفوا عندها لئلا تذلوا بل ارتقوا فى دراستها طبقا عن طبق لتحكموها وأنتم فيها كما ارتقت حواسكم طبقا عن طبق فحكمت الأذن على الأشياء البعيدة فأخذت علمها بطريق الحركات فى الأصوات . وكما حكمت عيونكم على الكواكب البعيدة فاقتنصت صورها من الجو وهى جارية فى الضوء السارى فى ألطف موجود وهو الأثير ثم كأنه عز وجل يقول : (أيها المسلمون : هاهم أولاء الأمم قبلكم وإن لم أرسل لهم رسولا فكروا فى هذه العوالم وارتقوا فى الأسباب وقالوا « إذا كانت السعادة تتبع الارتقاء عن المادة وكل من ارتقى عنها خضعت له وكل من خضع لها أذلته . فهاهم أولاء من قبلكم بحثوا بآرائهم وعقولهم وقالوا إن هناك صورا معنوية هى أصل لهذه المواليد على الأرض وربكم مشرق نوره على تلك العوالم المثالية التى على مثالها خلقت عوالمكم ، وهناك تجلى الله على عقولكم بالإلهام كما تتجلى الشمس على عوالمكم بالضوء . وكما أن الضوء يأتى لأعينكم بصور المخلوقات الأرضية ، هكذا أتجلى أنا على عالم المثال فيشرق على عقولكم بسبب إمدادى لكم .

هذا ، ثم جاء آخرون بعد هؤلاء فأنكروا عالم المثال وقالوا : (إن الكليات العلمية لهذه المحسوسات كالإنسان والحيوان لن تكون إلا فى الذهن) إذن ليس هناك عالم مثال وهناك يقول أرسطاطاليس : (إن العلم إنما يتعلق بمحقق والمحقق هى المادة وصورتها المعينة المعروفة) وجاء بعده الأبيقوريون والرواقيون وهم أصحاب المظال . فقالوا : « إن كلامه فى للمادة غير منتظم » وأدركوا أن هذه الأقوال غير مجدية ؛ فتركوا هذه الارتباكات ورجعوا إلى دراسة علم الطبيعة وعلم الأخلاق .

هذا أيها الصديق ملخص ما تقدم ، وأنا أحمد الله حمدا كثيرا على التبيان وتعليم البيان ، ولم يبق إلا أن ألخص المقام كله فى كلمتين اثنتين : وهما أن دراسة هذه المخلوقات التى هى آثار الرحمات عرفتنا أمرين : أحدهما محقق . والثانى يعوزه التفكر . أما المحقق فهو أن سعادة أهل هذه الأرض لاتكون بالانغماس

المادة بل فى التحاق عنها والترقى فى إخضاعها لا تركها، فيكون الناس فى هذه الأرض بالنسبة للمادة كالعين بالنسبة للشمس .

فهذه قضية محققة أظهرتها دراسة رحمة الله المذكورة فى البسملة فى حواسنا وفى المخلوقات حولنا فكلما كان الناس مضمورين فيها ذلوا ؛ وكلما ارتقوا فأخضعوها اخضاعا معنويا سعدوا ، والدليل على ذلك أن استعمال الكهرباء التى هى ألطف من الأجسام الأرضية أسعد الناس سعادة ما ، وذلك أقرب إلى استعمال العين الشعاع الواصل من الشمس فإن بين الكهرباء والنور مشاكلة ، ففرق مابين استعمال عارب البغل والحمار والفرس التى هى أجسام كثيفة وبين استعمال الكهرباء التى هى عوالم لطيفة شريفة فالثمرات على مقتضى المقدمات كثافة ولطافة ، وهذه بينها دروس يعطيها لنا ترتيب أجسامنا : هذه هى الكلمة الأولى المحققة . أما الكلمة الثانية التى يعوزها التفكير فهو ما يقوله أرسطاطاليس وأيفورورزينون مما تقدم فهذا راجع لأصل العالم ومنشئه .

وسترى إن شاء الله فى (سورة محمد) صلى الله عليه وسلم تحقيق المقام فى رسالة سميتها (مرآة الفلسفة) التى وعدت بذكرها سابقا مرارا فى هذا التفسير ، ولكنى أقول قولا إجماليا الآن تذكرة لك أيها الصديق وللأذكياء من قراء هذا الكتاب.

اعلم أننا نحن على هذه الأرض لن نصل إلى غاية العلم ، وغاية الأمر أننا نلمس الممكن منه ، فهاهوذا البرهان اليقينى الذى عرفناه من دراسة جسمنا أثبت لنا أن سعادتنا فى اللطائف لا الكثائف ، وأن هذا الإنسان عليه أن يجد فى المنويات فى هذه الحياة حتى يتمرن عليها ويرتقى فيها كما ارتقت عينه عن لسانه ، فهذه ترى الشمس فى الأقطار البعيدة ، وهذا يلامس الثمرة فتكون قيدا له وسجنا ، فإذا تلمسنا علم ما وراء ذلك ونظرنا نظر سقراط الذى اعترض على العالم المثالى الذى قرره فإنا نقول إذا كان علماء الطبيعة لما عجزوا عن إثبات مادة تحمل الضوء السارى فى الجو من الكواكب وتحمل قوة الجاذبية التى بين الكواكب وبين الشمس والأرض والقمر .

أقول لما عجزوا عن ذلك قالوا نفرض أن هنا عالما خفيا نسميه (أثيرا) ولقد تقدم شرح عالم الأثير فى أول سورة (الصافات) وتحقيق الكلام فيه، فهذا الفرض قد اضطروا إليه اضطرارا، ليمكنهم به حل النظريات الطبيعية وفهم القوانين، فإذا جاز هذا فى علم الطبيعة التى هى أقرب إلى عقولنا، أفلا يجوز نظيره فى علم ماوراء الطبيعة ونقول : إذا كان الضوء لا يصل إلى عيوننا إلا بعالم سميناه أثيرا ونحن لم نتحققه ، أفليس من حقنا أن نقول إن العلم لا يكون له ثبات إلا بأمور ثابتة ، والأمور الثابتة هنا نسميها عالم المثال وهو نماذج لعالمنا هذا وعلى مقتضى عالم المثال الذى صورت فيه جميع القضايا الكلية التى نحس بها فى أذهاننا خلقت العوالم المشاهدة فأما كل ماورد من كلام علماء اليونان على عالم المثال فإنه يرد نظيره على عالم الأثير فإذا كان معدوما فكيف يحمل المعدوم الموجود ؟ فالقول هناك كالقول هنا .

امتحان آراء علماء الإسلام

وآراء علماء اليونان

إذن نحن الآن امتحنا آراء علماء الصوفية من حيث وحدة الوجود فظهر لنا أن دراسة أجسامنا تحل المشكلة كما تقدم فى العين والشمس ، وامتحنا آراء فلاسفة اليونان فرأينا أن عالم الأثير المقبول عند علماء الطبيعة يرد عليه ماورد على عالم المثال ومع ذلك اضطر له العلماء فى زماننا اضطرارا وقنعوا باثباته لحل النظريات

لتسهيل حل النظريات العامية. وهذا الذى قلته الآن برهان إقناعى، ولكن البرهان اليقينى ستراه فى سورة محمد صلى الله عليه وسلم كما أنبأتك .

تفسير الآيات

لاجرم أنك بعد هذا أيها الصديق تفهم حق الفهم قوله تعالى « وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا » إلى آخره إذيرى الإنسان أنه محصور الفكر فى أن الولد ذكرا وأنثى وهذا انغماس فى المادة ، والانغماس فيها عذاب أليم فى الحياة الدنيا والله منزه عن المادة فكيف يجعله متصفا بما كان عذابا له ؟ وهناك يظهر سر « فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا » ودراسة علم الحواس المتقدم يظهر لنا أن الخضوع للمادة صغار ، وهكذا قوله « وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا » فالذكورة والأنوثة صفات أهل المادة الذين هم أقرب إلى العذاب فى الحياة ببرهان دراسة الحواس المتقدم والملائكة مبرءون من المادة وهم مختصون بالعلم . وقوله « وقالوا لوشاء الرحمن ماعبدناهم » فهؤلاء جهلاء ولكن الله لسعة رحمته لهم لم يهلكهم . فهو وسعهم كما وسع البهائم فى الأرض وكما عاش الإنسان بين عين تنظر الشمس ولمس يلمس الحجر ، فالله يرحم الأدنى والأعلى كل فى مركزه الخاص به . وأما قوله « ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين » فهو المقصود من هذا البحث كله . ذلك أن السعادة كما قدمنا ترجع إلى إدراك ما هو ثابت ولا ثبات للمادة . والثابت الحق هو الله عز وجل . وكل مال وولد وسلطان وجمال وأرض وسماء لاثبات لها . فالفرح بالمتغير غرور . ولا فرح ولا سرور إلا بما هو ثابت . ويظهر هذا فى قوله تعالى « ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن » الخ، فالقصور المزخرفات والذهب والفضة والسرور راجعات كلها إلى المادة الغليظة وقد برهنا برهانا يقينيا أن السعادة فى الابتعاد عنها والرحمة الحقيقية فى إدراك ماهو ثابت ولا ثابت إلا الصانع العالم ، فهل لك أن أسمعك ماقاله نفس أفلاطون عن (سقراط) لتعجب من أن القرآن قد جاء تفسيره على ألسنة الفلاسفة ، بل على لسان أكبر فيلسوف تخرله فلاسفة أوروبا الحاليين باعترافهم سجدا فانظر ماذا يقول ؟ يقول معنى نفس هذه الآيات ؛ فهو يقول فى الكتاب السادس مخاطبا (اديمنتس) .

« أولست من رأيى أيضا أن سبب استياء الجمهور من الفلسفة راجع إلى تصرف الذين كالسكارى يقتحمون مالا يعنيهم ويسيء بعضهم بعضا ، ويسرون ببث الفتن والاغتياب ، وبالاجمال الأشخاص الذين لاتتفق تصرفاتهم مع الفلسفة ، ثم قال : وحقا يا اديمنتس أن من وجه أفكاره نحو الأشياء الموجودة حقيقة ليس له متسع من الوقت للاشتباك بمصالح الآخرين ومنازعتهم فتتسرب إليه عدوى أذاهم بل على الضد من ذلك يقف أوقاته على التفكر بأشياء صحية ثابتة وإذ يرى أنها لا تضر إحداها الأخرى ولا تنى خاضعة للنظام وهي على أتم وفاق مع العقل يجتهد فى درسها والتشبه بها . أو تظن أن الإنسان يستطيع ألا يتمثل بما يلازمه ويحترمه . فأجاب : غير ممكن . فقال سقراط : فالفيلسوف الذى يلازم ما هو إلهى متزن يصير إلهيا متزنا مع أنه هنا كما فى كل موقف آخر مجال واسع للتزييف » .

وقال فى صحيفة ١٨٨ مانصه : « إن بحثنا أرانا أن فى كل منا آلة تساعده فى تحليل العلم كما أنه لا يمكن تحويل العين من النور إلى الظلام بدون أن يتحول الجسم كله . هكذا أمر هذه القوة مع النفس فيلزم

تحول

تحول النفس كلها عن العالم الفاني ليمكنها التفكر في عالم الحقيقة وفي أبهى قسم منه وهو ماندعوه صورة الخير » انتهى .

يقول طنطاوى : أفليس مما يدهش المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها أن آيات هذه السورة التى ذكرت فيها الرحمة كالتى تصف الكافرين بأنهم لو كانت لهم قصور مزخرفة وسرر الخ لم يكن ذلك نافعا لهم وكالتى تبين أن من أعرض عن ذكر الله تسلمه الشيطان وأضله وهكذا .

أقول إن هذه الآيات قد جاء تفسيرها قبل أزمان النبوة بنحو ثمان قرون على ألسنة الفلاسفة . إذن هذا القرآن كما وصفه الله آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم . إذن المفكرون فى جلال الله المتعلمون الحكمة هم أرقى الناس وهم أولى بإدارة الأمم لأنهم يزهدون فى المال وفى أعراض الدنيا وليسوا كبعض الزهاد يعتزلون الناس ويكونون عالة عليهم . وبهذا يعرف المسلمون أن الزهد فى الدنيا ليس معناه تركها ، بل أن يكون الإنسان عالما بالجمال الأقدس موقنا أن السعادة فى المعرفة والعلم أى العلم بالله والملأ الأعلى وهذا لن يمكن بمجرد قراءة القرآن ولا تفسيره ، ولكن بدراسة علوم هذه الدنيا وينتقل من الخلق إلى الخالق ثم يكون خليفة له على عباده ، ولم أجد من سار على منواله سوى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن جرى على طريقه فهو الذى ينطبق عليه الآيات المذكورة من احتقار المادة والقيام بخدمة الأمة وتنظيم الدولة . ذلك هو الحق الصراح ، فأجل أنواع الرحمة فى الحقيقة يرجع إلى إدراك جمال الله عز وجل وصفاته وفهم الوجود تبعا لذلك . ثم أن يكون الإنسان زاهدا فى المادة متخلقا بالأخلاق الجميلة ، خليفة على عباد الله . منظما لأممهم نافعا لدولهم ، فهو فى العالم ولكنه غير مغرم به بل بالعلم وبالله وهو مساعد للمجموع منظم للحكومات وللأمم بقدر طاقته ، هذا هو الحق الصراح والحمد لله رب العالمين . انتهى صباح يوم الثلاثاء ١٨ نوفمبر سنة ١٩٣٠ .

مقاصد السورة

(١) تأييد النبوة إلى قوله «ومضى مثل الأولين» .

(٢) وإثبات الألوهية بالأدلة الطبيعية إلى «وإنا إلى ربنا لمنقلبون» .

(٣) بعض سيئات كفر القوم إلى قوله «فهم به مستمسكون» .

(٤) سبب كفرهم إلى قوله «وإنا على آثارهم مقتدون» .

(٥) شدة جهلهم وجمود عقولهم إلى قوله «بما أرسلتم به كافرون» .

(٦) الانتقام منهم إلى «عاقبة المكذبين» .

(٧) تسلية النبى صلى الله عليه وسلم بذكر قصة إبراهيم إلى قوله «وإنا به كافرون» .

(٨) ليست المظاهر المادية من أسباب الدرجات العلية والدينية إلى قوله «عند ربك للمتقين» .

(٩) من ترك عقله فلم يشغله بالحكمة تولاه الشيطان .

أعطيت ملكا فلم أحسن سياسته كذاك من لا يسوس الملك يخلعه

إلى قوله «مهتدون» .

(١٠) من تصادقا على المعصية تعاديا عند القضاء إلى قوله «إنكم فى العذاب مشتركون» .

(١١) إنما تنفع الذكرى من استعد للفهم إلى قوله «ومن كان فى ضلال مبين» .
(١٢) عدة الله نبيه بالنصر وعلو أمره وإنه مسئول عن الدين والقرآن هو وقومه إلى قوله «وسوف تسألون» .
(١٣) قصص موسى لتأييد أن المظاهر المادية ليست سببا للمعارف العقلية إلى قوله «ومثلا للآخرين» .
(١٤) شؤم الحرص على الجدال وعدم جدواه فى إبطال الحقائق إلى قوله «إنه لكم عدو مبين» .
(١٥) ذكر عيسى عليه السلام واختلاف أتباعه ووعيدهم إلى قوله «وهم لا يشعرون» .
(١٦) معاداة قرناء السوء يوم القيامة وعذابهم وسعادة الصالحين إلى قوله «فأنا أول العابدين» .
(١٧) تنزيه الله تعالى ووصفه بسعة الملك والقدرة والحكمة وشهادة الفطرة بذلك ، وبالاختصار وصفه صفات الجلال والإكرام وهو المقصود إلى قوله «لا يؤمنون» .
(١٨) سعة الصدر والصفح والمسالمة خير الأخلاق اهـ .

مجمل تفسير الألفاظ

فى المقاصد الأربعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

(حم) تقدم الكلام عليها فى السورة السابقة (والكتاب المبين) القرآن ، أقسم به من حيث نظمه وإعجازه ، إن الله صيره كذلك ، فالقسم كالاستشهاد على المقسم به (لعلكم تعقلون) لكى تفهموا معانيه (وإنه) عطف على «إنا» (فى أم الكتاب) فى اللوح المحفوظ (لدينا) عندنا (لعلى) رفيع الشأن فى الكتب لكونه معجزا (حكيم) ذو حكمة بالغة . أو محكم لا ينسخه غيره (أفنضرب عنكم الذكر صفحا أن كنتم قوما مسرفين؟) أفنذود الذكر ونبعده عنكم صافحين فلا نأمركم ولا ننهاكم من أجل أنكم أسرفتم فى كفركم وترككم الإيمان (وكم أرسلنا من نبى فى الأولين) إلى قوله (يستهزئون) أى كاستهزاء قومك بك (ولئن سألتهم) أى المشركين (من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم) أى أنهم أقروا بأن الله خلقهما ، وأنه ذو عزة وعلم ، ومع ذلك جمعوا بين النقيضين إذ عبدوا غيره وأنكروا قدرته على البعث (الذى جعل لكم الأرض مهدا) قارة يمكن الانتفاع بها . والمهد موضع راحة الصبى ، والخلق كلهم يتربون على الأرض وهى موضع راحتهم فلذلك جعلت مهادا لمدد العباد (وجعل لكم فيها سبلا) طرقا (لعلكم تهتدون) إلى مقاصدكم فى أسفاركم ، فلم تكن تلك المهاد رمية من غير رام (والذى أنزل من السماء ماء بقدر) بقدر حاجاتكم إليه ، فلم يكن كثيرا حتى يهلككم (فأنشرنا به) بالمطر (بلدة ميتا كذلك) كما أحيينا بلدة ميتا (تخرجون) من قبوركم أحياء (والذى خلق الأزواج كلها) أى الأصناف والأنواع أو الذكران والإناث أما هو فهو فرد لا ثانى له . (وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون) فى البحر والبر (لتستووا على ظهوره) على ظهور الفلك والأنعام (ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه) أى بتسخير ما ركبتموه فى البحر والبر (وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا) ذلك (وما كنا له مقرنين) مطيقين أو حافظين (وإنا إلى ربنا لمنقلبون)

لمنصرفون فى المعاد (وجعلوا له من عباده جزءا) أى بعد الاعتراف بأن الله هو الذى اتصف بالخلق والعزة والعلم الخ جعلوا له من عباده ولدا وهم الملائكة ، والولد جزء الوالد وبعضه لأنه بضعة من الوالد (إن الإنسان لكفور مبين) ظاهر الكفران ومنه نسبة الولد اليه تعالى (أم اتخذ مما يخلق بنات) هذا استفهام إنكار وتوبيخ وتعجب ، يقول : أتخذ ربكم لنفسه البنات (وأصفاكم) أى أخلصكم (بالبنين) فاختار لنفسه المنزلة الدنيا ولكم المنزلة العليا (وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا) أى بالجنس الذى جعله له مثلا إذ الولد لابد أن يماثل الوالد (ظل وجهه مسودا) صار وجهه أسود فى الغاية لما يعتريه من الكآبة (وهو كظيم) مملوء قلبه من الكرب (أو من ينشأ فى الحلية) أو جعلوا له من يتربى فى الزينة يعنى البنات (وهو فى الخصام) فى المجادلة (غير مبين) مقرر لما يدعيه من نقصان العقل وضعف الرأى (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا) أى حكموا بهذا وأثبتوهم إناثا، وقد جمعوا بهذه الفرية بين الضدين : العبادة والولادة (أشهدوا خلقهم) أى أحضروا خلق الله إياهم فشاهدوهم إناثا (ستكتب شهادتهم) التى شهدوا بها على الملائكة (ويسألون) عنها يوم القيامة (وقالوا لوشاء الرحمن ماعبدناهم) أى لو شاء عدم عبادة الملائكة ماعبدناهم (مالهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون) أى وقال بنومليح بوجه غير ماتقدم : لونهانا الرحمن وصرفنا ماعبدناهم استهزاء ولكن أمرنا بعبادتهم ولم ينهنا عنها ، بالهم بما يقولون من حجة ، ماهم إلا يكذبون على الله (أم آتيناهم كتابا من قبله) من قبل القرآن (فهم به مستمسكون) بذلك الكتاب .

ذكر سبب كفرهم

ولما بطلت جميع الحجج رجعوا إلى التقليد (بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة) أى دين ، وهى من الأم وهو القصد ، فالأمة الطريقة التى تؤم أى تقصد (وإنا على آثارهم مهتدون) أى إنهم مهتدون باتباع آبائهم وتقليدهم من غير حجة ، وهذه فى الحقيقة حجة الغافلين من الأمم الحاضرة والغائبة . ومن ذلك قوله تعالى (وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون) وهذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ودلالة على أن التقليد فى ذلك ضلال قديم والأمم فى ذلك متشابهة والعلة فى ذلك التنعم والكسل والبطالة . ولذلك أكثر الله فى نوع الإنسان من الحروب والأمراض والعداوات ليستحثهم على العمل ولتنشط العقول وليفكروا حتى يقل الترف الجالب للتقليد والنوم فى ظل الجهالة العمياء .

شدة جهلهم وجمود عقولهم

قال تعالى (قل) أتتبعون آباءكم (أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم) أى بدين أهدى من دين آبائكم : وقرأ ابن عامر وحفص « قال » أى النذير ، فقل حكاية أمر ماض أوحى إلى النذير وحينئذ يقال فماذا أجاب أهل القرية ؟ فأجاب (قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون) وإن كان أهدى : وذلك ليقنطوا نذيرهم من أنهم يفكرون .

من المقصد السادس إلى المقصد التاسع إلى قوله (مهتدون)

قال تعالى (فانتقمنا منهم) بالاستئصال (فانظر كيف كان عاقبة المكذبين) ولا تكترث بتكذيبهم (وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إننى براء) أى برىء (مما تعبدون ؛ إلا الذى فطرنى) أى إننى أتبرأ مما تعبدون إلا من الله الذى خلقنى (فإنه سيهدين) أى يرشدنى إلى دينه (وجعلها) أى وجعل إبراهيم كلمة التوحيد التى تكلم بها وهى لا إله إلا الله (كلمة باقية فى عقبه) فى ذريته فيكون فيهم أبدا من يوحد الله ويدعو إلى توحيده (لعلهم يرجعون) أى يرجع من أشرك منهم بدعاء من وحده (بل متعت هؤلاء وآباءهم) يعنى أهل مكة وهم من عقب إبراهيم ، فمددت أعمارهم ، وأكثرت نعمهم ، فشغلتهم النعم والترف والشهوات وأطاعوا الشيطان ونسوا كلمة التوحيد ، وجرت على عادتى أن أجعل فى بنى إبراهيم من يوحد الله ويدعو من كفر منهم لعله يرجع ، فاخترت محمدا ليدعو هؤلاء ، فقالوا هذا سحر الخ ، وهذا قوله تعالى (حتى جاءهم الحق) أى القرآن (ورسول مبين) الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، وقوله «مبين» أى واضح الرسالة بما معه من الآيات (ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنا به كافرون . وقالوا) فيه متحكمين بالباطل (لولا نزل هذا القرآن) العبارة تفيد الاستهانة (على رجل من القريتين عظيم) أى رجل عظيم من إحدى القريتين كقوله «يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان» وإنما يخرجان من الملح وحده على قول بعض القدماء ، ولكن ظهر فى العلم الحديث أن اللؤلؤ يخرج من الماء العذب كما ستراه فى (سورة الرحمن) وهذا من معجزات القرآن ؛ والقريتان مكة والطائف ، والرجلان الوليد بن المغيرة عظيم مكة ، وعروة بن مسعود الثقفى عظيم الطائف ، وكان كل منهما ذا مال وذا جاه مع أن العظيم فى العقل والعلم والدين غير العظيم فى اصطلاحهم (أهم يقسمون رحمة ربك؟) أى النبوة ، والاستفهام للانكار والتجهيل والتعجب كأنه يقول : أيها القوم عجبا لكم ، كيف جهلتم قدر أنفسكم ، أو بلغ من شأنكم أن تصطفوا من تشاءون للنبوة التى لا يصلح لها إلا من له رتبة عظيمة روحانية تستدعى عظم النفس ، فتكون ذات فضائل قدسية . وكمالات خلقية ، وتكون مستهينة بالزخارف الدنيوية التى انغمستم فيها ؛ فلستم أهلا لأن تفاض عليكم فضلا عن أن تهبوها لمن تشاءون . (نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا) يقول تعالى : نحن فاوتنا بينهم فى الرزق ، فمنهم الغنى ، ومنهم الفقير ، ومنهم السيد ومنهم العبد ، ومنهم الملوك ، ومنهم السوقة ، ومنهم الأقوياء ، ومنهم الضعفاء ، ومنهم ذوو الجمال ، ومنهم ذوو الدمامة ، ولم يقدر أحد من عبادنا أن يغير ما حكمنا به فى أحوال دنياهم مع قلتها وذلتها ، فكيف يقدرون على الاعتراض على حكمنا فيما هو أرفع درجة ، وأعظم منصبا ، وأشرف غاية ، وهو النبوة ، فنحن رفعنا بعضهم على بعض بمشيئتنا وخصصنا من نشاء للنبوة كما أردنا ، فكما لم يغيروا ما هو أدنى هكذا هم أعجز عن التغيير فيما هو أعلى . ثم أتم وصف حال تفاوتهم فى الدنيا فقال (ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات) أى أوقعنا بينهم التفاوت فى الرزق (ليتخذ بعضهم بعضا سخريا) ليصرف بعضهم بعضا فى حوائجهم ويستخدموهم فى مهنهم ، ويسخروهم فى أشغالهم ، حتى يعيش بعضهم مع بعض ، وينفع بعضهم بعضا ، فهذا بماله وهذا بأعماله . لأنا حكمنا أن هذه النفوس تعيش فى الأرض لتتعاون ونحن قادرون أن نطعمهم وهم قاعدون كما أطعمنا النبات والدود ، ولكن هى الحكمة أن الأعمال التكليفية التى يتعاطاها الناس سواء أكانت طبيعية أم شرعية تصير فيما بعد الموت مغذية النفوس فيسهل عليها التعارف والتعاون فى عالم الأرواح ، وعلى قدر تهذيبها وحبها لبعضها يكون ارتقاؤها ، وكيف تتعارف فى الدنيا إلا باللقاء والاختلاط فأحوجناهم إلى القوت

وأغنينا وأفقرنا ، وجعلنا ذكرا وأنثى . كل ذلك ليتعارفوا ويتعاونوا . وأنزلنا العبادات وفرضناها ليتحدوا في الصلوات ، ويتعاونوا في الصدقات . وأنزلنا القرآن والعلم لتجمعهم جامعة الحكمة والأخلاق وهي أقوى الجامعات وأمتن الروابط وهذا قوله تعالى (ورحمة ربك) بالنبوة وما يتبعها (خير مما يجمعون) أي مما يجمع الكفار من الأموال ، فالدنيا على شفا جرف هار . إن المادة والمظاهر الفانية لاقيمة لها في حضرتنا ، فنحن أغدقنا النعم على الدواب والأنعام وكثير من جهلة بني الإنسان . ولولا أن تتطلع أعين المؤمنين إلى زهرة الدنيا وزينتها إذا غمرنا الكافرين بها وأوسعناها عليهم سعة مطلقة وأن تهلع قلوبهم وتنخلع حينما يرون الكافرين في أنعم حال وهم في شظف العيش لجعلنا كل كافر في أرغد عيش وأنعم حال ولكنا لم نفعل ذلك رحمة بالمؤمنين وهـذا قوله تعالى (ولولا أن يكون الناس أمة واحدة) أي ولولا أن يصيروا كلهم كفارا فيجتمعون على الكفر ويرغبون فيه إذا رأوا سعة الرزق عند الكفار (لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج) ومصاعد إلى المعارج جمع معرج (عليها يظهرون) يعلون السطوح لحقارة الدنيا وقوله « لبيوتهم » بدل اشتمال (ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون) أي أبوابا وسررا من فضة . يقول لجعلنا للكفار سقفا من فضة ومصاعد وأبوابا وسررا من فضة (و) جعلنا لهم (زخرفا) أي زينة من كل شيء ويقال: الذهب أيضا فيكون عطفا على محل من فضة: أي سقفا من فضة وذهب أي بعضها من فضة وبعضها من ذهب ، وإذا كانت المعارج والأبواب والسرر كالسقف كما تقدم يكون بعضها من فضة وبعضها من ذهب على هذا التقدير أيضا (وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا) أي ما كل ذلك إلا متاعها القصير الفاني وليس مما تقدر به قيم النفوس الإنسانية فكيف يقولون لولا أنزل هذا القرآن على رجل الخ والعظمة المادية لاعلاقة لها بالمناصب النبوية (والآخرة عند ربك للمتقين) الكفر والمعاصي . ولا جرم أن هذه النعم والسرر والأبواب المصنوعة من الذهب والفضة لو أعطيت للمؤمنين حتى يصبح الناس كلهم مؤمنين لأخلت بالمقصود من الإيمان لأن الترف والنعيم يحجبان أكثر العقول عن عالم الروحانية والرقي العقلي وقل من يتخلص من شرك هـذه الآفات . فالشهوات والزينة والزخارف للعقول أشبه بالقاذورات بالنسبة للأجسام . وكما أن الأجسام القذرة يحوم حولها الذباب فيلقي فيها بيوضه لتفرخ في القروح والعيون ويخرج ذباب يعيش من تلك القاذورات فتكون آلام وآلام هكذا تلك النفوس الضعيفة تعشش فيها النفوس المماثلة لها من عالم الشياطين وتلقي إليها بذور الفساد فتزرع في تلك العقول وتحصدها النفوس خزيا وعارا في الدنيا والآخرة ، ولذلك أعقبه بقوله (ومن يعش عن ذكر الرحمن) يتعام ويعرض عنه بانهماكه في المحسوسات واشتغاله باللذات (نقيض له شيطانا فهو له قرين) أي نسبب ونضم له شيطانا ونسلطه عليه ، وذلك على مقتضى سنننا الكونية كما سلطنا الذباب على الأجسام القذرة وخلقنا الحيات والعقارب والحشرات في الحال العفنة تلطيفا للهواء ورحمة بالناس والحيوان هكذا النفوس . فإذا قتلت الحيات أحدا أو أصاب الحيوان الذري الذي لايرى المسمى بالمكروبات أحدا ، أوعم الوباء من ذلك ، فمن مات فقد كان هكذا استعداده ، ومن عاش فإنه يكون أقدر على الحياة لقوة تحمله فلم يؤثر فيه الوباء ، هكذا هـذه النفوس الموسوسة للضعفاء توقعهم في الذنوب لاستعدادهم فينالون جزاءهم من عقاب الحكومات ، أواحتقار الناس ، أو الأمراض في الدنيا فيكون ذلك عبرة لهم وزجرا لغيرهم ، وتكون نتيجة ذلك الرحمة ، ويشير لذلك قوله تعالى « يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن » . فالعذاب بالأمراض الفتاكة والموت والشياطين المضلة . كل ذلك إيقاظ من الله للانسان ، وإياك أن تدخل في هـذا عذاب الكافر فوالله إن فيه سرا يحرم إفشاؤه تحريما قاطعا ، فإذا عرفته فلا تقله بل ليدفن معك لأن الأمم اليوم لا تستعد لفهمه . واعلم أن هذا المقام هو نتيجة العلوم كلها

دينا وحكمة وتصوفا، فمن عرف الحقيقة فى هذا المقام فقد وصل لله ونال غاية الحكمة ، فإذا عرفت فالزم.
قال تعالى (وإنهم) أى الشياطين (ليصدونهم) ليمنعون العاشين (عن السبيل) عن سبيل الهدى (ويحسبون) أى العاشون (أنهم مهتدون) لأنهم تلقوا من الشياطين مايلائم أمزجتهم ويوافق أخلاقهم وألفوه فلم ينكروه اه .

الكلام على المقاصد من العاشر إلى الثالث عشر

إلى قوله : «ومثلا للآخرين»

يحسب كفار بنى آدم أنهم على هدى وقد أغواهم الشيطان (حتى إذا جاءنا) الكافر منهم (قال) لقرينه الشيطان (ياليت بينى وبينك بعد المشرقين) أى بعد المشرق والمغرب ، ففيه تغليب أحدهما ثم التثنية (فبئس القرين) أنت (ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم) أشركتم (أنكم فى العذاب مشتركون) أى لا ينفعكم الاشتراك فى العذاب ولا يخفف عنكم شيئا ، إن الكافر يتمنى هنا شدة البعد بينهما ، وجاء فى آية أخرى « ربنا أرنا اللذين أضلانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا» الخ. فأجيبوا بأن الاشتراك فى العذاب لا يخفف عنكم شيئا (أفأنت تسمع الصم أو تهدى العمى) فقومك كالصم البكم فلا يقبلون الهداية ، فمن عجب أنك تقدر على هدايتهم ، وعطف على العمى قوله (ومن كان فى ضلال مبين) فى ضلال لا يخفى ، فهؤلاء لا يقبلون الهداية (فإما نذهبن بك) بأن نميتك قبل أن نعذبهم (فإنا منهم منتقمون) بالقتل بعدك (أو نرينك) فى حياتك (الذى وعدناهم) من العذاب (فإنا عليهم مقتدرون) قادرون على ذلك متى شئنا عذبناهم وقد انتقم منهم يوم بدر ، وهذا فيه تسلية له ﷺ لأنه وعده الانتقام منهم على كل حال (فاستمسك بالذى أوحى إليك) من الآيات والشرائع (إنك على صراط مستقيم) لا عوج فيه (وإنه) أى القرآن (لذكر) لشرف عظيم (لك ولقومك وسوف تسألون) عن حقه وأداء شكره ومعنى هذا أن القرآن نزل بلغة العرب ودين الإسلام وعد الله بنشره فى الأرض وأبناء العرب هم العارفون باللغة ، فعلى هذا هم الملزمون بالقيام بنشر اللغة العربية ودراسة هذا الدين للأمم الأخرى ، فالأمة العربية متى قصرت فيما ألزمها الله به أذلها الله فى الدنيا ، وأدخل المقصرين منها النار يوم القيامة ، ولذلك لما قصرت فى واجبها انطمست معالمها ودخلت فى حوزة الأمم الأوروبية ، وعسى أن يقرأ هذا أبناء العرب من إخواننا ويفهموا مركزهم فى الأرض أنهم هم المعلمون للأمم ؛ فلينشروا هذا القرآن وليتعلموا هم لغات الأمم وليكتبوا المصاحف بالعربية ويكون على الهامش تفاسير بلغات مختلفة كالإنجليزية والروسية والألمانية وهكذا حتى تعرف الأمم هذا الدين . هذه الآية توجب على أبناء مصر والشام واليمن والحجاز والعراق أن يكونوا ناشرى هذا الدين ، ولكن هم اليوم فى الجهالة تائهون ، وسيقوم مجدهم كرة أخرى وترجع أيام عزهم ، وإذا ورد فى حديث البخارى ومسلم أن الخلافة فى قريش ؛ وفى البخارى أيضا حديث « إن هذا الأمر فى قريش لا يعاديهم أحد إلا أكبه الله تعالى على وجهه ما أقاموا الدين » وأيضا يقول بعض المفسرين القوم هم العرب والقرآن لهم شرف .

إذا عرفت هذا فتأمل قوله صلى الله عليه وسلم « ما أقاموا الدين » فكأن الخلافة جعلت لهم ليحافظوا على الدين فكأن المحافظة على الدين هى المقصودة من خلافتهم ، فالمحافظة أصل والخلافة فرع ، وهذا يشير لمعنى الآية (واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا) أى واسأل أممهم وعلماء دينهم (أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون) هل حكمنا بعبادة الأوثان ، والمراد تقرير أن جميع الأنبياء على التوحيد فليس بدعا ماجاء به

محمد صلى الله عليه وسلم حق يعارض (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه فقال إني رسول رب العالمين) أي بهذا القصص ذاكرا فيه ما يناسب المقام من تفاخر فرعون بعظمة ملكه ، ومن اتهامه لموسى عليه السلام بالسحر كما فعل القوم مما هو مذكور في هذه السورة ، إذ عنوا أن تكون النبوة لرجل من القريتين عظيم وجعلوا النبوة سحرا (فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون) يسخرون (وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها) من قرينتها (وأخذناهم بالعذاب) كنقص الثمرات وإرسال الطوفان الخ (لعلهم يرجعون) عن الكفر (وقالوا يا أيها الساحر) سموه ساحرا أي عالما ماهرا باهرا إنكارا للنبوة (ادع لنا ربك) فيكشف عنا العذاب (بما عهد عندك) أي بما أخبرتنا عن عهده إليك ، أنا إن آمنا كشف عنا العذاب فاسأله أن يكشفه عنا (إننا لمهتدون) لمؤمنون ، فدعا ربه فكشف عنهم فلم يؤمنوا (فلما كشفنا عنهم العذاب إذاهم ينكثون) ينقضون عهدهم (ونادى فرعون في قومه قال يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي) أنهار النيل تجري من تحت قصري وبين يدي في جناتي. (أم أنا) بل أأنا (خير من هذا الذي هو مهين) ضعيف حقير فكيف تكون له رئاسة مع المهانة (ولا يكاد يبين) الكلام لما به من الرتة فكيف يصلح للرئاسة (فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب) جمع أسوار ، وقرئ أساورة جمع أسورة ، وقرئ أساور جمع أسوار ، أي هلا ألقي مقاليد الملك إليه . ذلك أنهم كانوا إذا أرادوا تسويد رجل سوروه بسوار وطوقوه بطوق من ذهب (أو جاء معه الملائكة مقترنين) مقرونين به يعينونه أو يصدقونه (فاستخف قومه) أي فاستخف أحلامهم بما يديه من عظمة الملك والرئاسة وجعلها مناط العلم . ولو كان هناك نبوة لكان هو أولى بها كما قال أهل مكة في رجل من القريتين (فأطاعوه) فيما أمرهم به (إنهم كانوا قوما فاسقين) إذ أطاعوا الفاسق . هكذا أنتم يا أهل مكة إذا اتبعتم من يجعل النبوة موقوفة على العظمة والجاه وتصبحون كقوم فرعون إذا نقمنا منهم لما أغضبونا (فلما آسفونا) أغضبونا بالعناد (انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين) في اليم (فجعلناهم سلفا) قدوة لمن بعدهم من الكفار يقتدون بهم في استحقاق مثل عقابهم (ومثلا للآخرين) حديثا عجيب الشأن سائرا سير المثل يضرب بهم الأمثال فيقول الناس مثلكم مثل قوم فرعون .



ذكر المقاصد من ١٤ إلى ١٨ وهى الأخيرة

وهى شؤم الحرص على الجدال وعدم جدواه فى إبطال الحقائق . وذكر عيسى عليه السلام واختلاف أتباعه ، وذكر معاداة قرناء السوء يوم القيامة وعذابهم وسعادة الصالحين . وذكر تنزيه الله تعالى . ووصفه بسعة الملك والقدرة والحكمة وشهادة الفطرة بذلك . وبالاختصار وصفه تعالى بصفات الجلال والإكرام . وذكر سعة الصدر والصفح والمسالمة وأنها خير الأخلاق

اعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قرأ على قريش « إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم » غضبوا فقال ابن الزبعرى : يا محمد أخاصة لنا ولآلهتنا أم لجميع الأمم ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم . فقال ألست تزعم أن عيسى ابن مريم نبى وتثنى عليه وعلى أمه خيرا . وقد علمت أن النصارى يعبدونهما وعزير يعبد والملائكة يعبدون فإن كان هؤلاء فى النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم ففرحوا وضحكوا وسكت النبى صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى « إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون » ونزلت هذه الآية (ولما ضرب ابن مريم مثلا) أى ولما ضرب ابن الزبعرى عيسى ابن مريم مثلا لآلهتهم وجادل رسول الله صلى الله عليه وسلم بعبادة النصارى إياه (إذا قومك) قريش (منه) من هذا المثل (يصدون) ترتفع لهم جلبة وضجيج فرحا وضحكا بما سمعوا منه من إسكات النبى صلى الله عليه وسلم بجدله (وقالوا أآلهتنا خير أم هو) أآلهتنا خير عندك أم عيسى ؟ فإن كان فى النار فلتكن آلهتنا معه ومع عزير والملائكة (ما ضربوه لك إلا جدلا) أى ما ذكروا لك عيسى ابن مريم إلا للجدل والخصومة (بل هم قوم خصمون) جدلون بالباطل . ولما ذكر عيسى وأنه معبود عند النصارى أخذ يبين حاله فقال (إن هو) أى إن عيسى (إلا عبد أنعمنا عليه) بالنبوة (وجعلناه مثلا) وصيرناه عبرة عجيبة كالمثل السائر (لبنى إسرائيل) فليس معبودا كما يزعم قوم من النصارى ؛ وإنما العبرة فيه أنه ولد من غير أب فيفتح للناس باب التفكر والتذكر والفهم والعلم وليست مخالفة العادة فى شئ موجبة لعبادته بل هى مذكرة بعبادة الخالق الحكيم (ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة فى الأرض يخلفون) على أنا لو نشاء لجعلنا ذريتكم ملائكة يخلفونكم فى الأرض كما يخلفكم أولادكم كما خلقنا عيسى من أنثى بلا ذكر وجعلناه رجلا : أى لو نشأ لجعلنا فى الأرض عجبا كأمر عيسى بحيث يلد الرجل ملكا فيخلفه ، فباب العجائب والنظم المدهشة لاحد له عندنا ، فكم من نواميس خافية عليكم بيدنا تصريفها (وإنه) أى القرآن (لعلم للساعة) لأن فيه إعلاما بها ودلالة عليها (فلا تمترن بها) فلا تشكن فيها (واتبعون) هذا قول الرسول صلى الله عليه وسلم أمر أن يقوله (هذا) الذى أدعوكم إليه (صراط مستقيم) لا يضل سالكه (ولا يصدنكم الشيطان) عن المتابعة (إنه لكم عدو مبين) ثابت عداوته لأنه وسوس لأبيكم ولكم (ولما جاء عيسى بالبينات) بالمعجزات الواضحات (قال قد جئتكم بالحكمة) بالإنجيل والشريعة لتستبين السبيل لكم (ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه) من أمور الدين وحدها (فاتقوا الله وأطيعون) فيما أبلغه عنه (إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه) وهذا ملخص جميع الديانات اعتقاد الوحدانية والتعبد بالشرائع أى العلم والعمل . انظره فى سورة (آل عمران) فهذا ملخص الديانات فى الأرض مصداقا لهذه الآية (هذا صراط مستقيم) هو من كلام عيسى عليه السلام ، فالصراط المستقيم علم بحقائق وعمل بشرائع (فاختلف الأحزاب) الفرق المتحزبة

(من

(من بينهم) من بين النصارى (فويل للذين ظلموا) من المتحزبين (من عذاب يوم أليم) يوم القيامة (هل ينظرون إلا الساعة) والمعنى هل ينتظرون إلا الساعة (أن تأتيهم بغتة) فجأة والمقصود أنها تأتيهم لا محالة (وهم لا يشعرون) أى غافلون عنها لا شتغالهم بأمور الدنيا وإنكارهم لها (الأخلاء) الأحباء (يومئذ بعضهم لبعض عدو) فالخلة التى مبناها الباطل تبطل متى ظهرت حقيقتها ، وهؤلاء يظهر باطلهم يوم القيامة (إلا المتقين) لأن المودة أسست على حقيقة لاتخفى ، وإذن ينادى الله المؤمنين المتحابين فى جلاله فيقول (ياعباد لاخوف عليكم اليوم) مما تلاقونه بعد الموت كما يخاف غيركم (ولا أنتم تحزنون) على ماخلفتم لاعتقادكم أنى وكيل حكيم أتصرف فى ملكي بالحكمة والعدل ، ولكن الحزن لغيركم ، ثم وصف العباد بقوله (الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين) أى مخلصين (ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون) تسرون وتنعمون (يطاف عليهم بصحاف من ذهب) جمع صحفة وهى القصعة الواسعة (وأكواب) جمع كوب وهو كوز لا عروة له (وفيها) فى الجنة (ماتشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون) بخلاف النعيم الذى هو زائل وهو نعيم الدنيا (وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون) شبهت الجنة فى بقائها على أهلها بالميراث الباقى على الورثة ، وتلك إشارة إلى الجنة المذكورة والجنة خبر ، وقوله (لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون) فيه إيماء إلى أنهم يأكلون بعض الثمار والباقى مزين لشجره . وفى الحديث «لاينزع أحد فى الجنة من ثمرها إلا نبت مكانها مثلها» (إن المجرمين فى عذاب جهنم خالدون) خبر بعد خبر (لايفتر عنهم) لايخفف ولا ينقص (وهم فيه) فى العذاب (مبلسون) آيسون من الفرج متحيرون (وما ظلمناهم) بالعذاب لأننا نضع كل مخلوق فى مرتبته (ولكن كانوا هم الظالمين) هم ضمير فصل . يقول : إن العذاب راجع إلى الاستعداد الفطرى لنقص فى قابليتهم ولم يخرج ذلك عن ترتيب الدرجات على مقتضى الاستعداد ، وهذا ليس من الظلم فى شىء . فالفاعل يعطى والقابل ليس بأهل لما يفاض عليه (ونادوا) لما يئسوا من فتور العذاب (يامالك) وهو خازن النار . قيل لابن عباس : إن ابن مسعود قرأ يامال . فقال : ماأشغل أهل النار عن الترخيم (ليقض علينا ربك) ليمتنا يقال قضى عليه : أماته أى سل ربك أن يقضى علينا (قال إنكم ماكثون) لابثون فى العذاب لاتتخلصون منه بموت ولا فتور (لقد جئناكم بالحق) أى لقد جئناكم معاشر الملائكة بالحق حينما أوحى الله إلى الأنبياء بواسطتنا (ولكن أكثركم للحق كارهون) لاتقبلونه وتنفرون منه ، لأن الحق يوجب التعب والباطل يوجب الكسل (أم أبرموا أمرا) أى بل أأحكم مشركو مكة أمرا من كيدهم ومكرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم (فإنا مبرمون) كيدنا كما أبرموا كيدهم ، وكانوا يتنادون ويتناجون فى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى دار الندوة (أم يحسبون أنا لانسمع سرهم) حديث أنفسهم (ونجواهم) مايتحدثون فيما بينهم ويخفونه عن غيرهم (بلى) نسمعهم (ورسلنا) والحفظة مع ذلك (لديهم) ملازمة لهم (يكتبون) ذلك (قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين) منكم : أى لو صح وثبت ببرهان صحيح توردونه وحجة واضحة تدلون بها أن للرحمن ولدا لكنت أسبقكم إلى طاعته كما تعظمون أنتم أبناء ملوككم فإنى أول العابدين وهذا وارد على سبيل المبالغة فى نفى الولد ، يقول : وإذا كنت أنا لم أعترف بولد بدليل أنى لم أعبده مع أنى أقرب الناس إلى الله فالولد منفى حتما : أى فانتفاء الولد مرتب على انتفاء عبادته ضرورة انتفاء الملزوم بانتفاء لازمه ثم نزه نفسه فقال (سبحان رب السموات والأرض رب العرش عما يصفون) أى عما يقولون من كونه ذا ولد . ألا ترى أن الكواكب والشموس والأحجار والمعادن كلها لا تلد المثل كما يلد الإنسان والحيوان . وذلك لأن هذه العناصر المركبة منها تلك العوالم موضوعة للتحليل والتركيب فهى جعلت أصولا للأحياء تبرأت عما يتصف به الحيوان من توليد المثل ، فالحجر لايلد حجرا . والأرض لاتلد أرضا مثلها ، وكذا السماء والهواء والماء فإذا كانت هذه التى جعلت أصول الأحياء تبرأت عن الولد فكيف يلد مبدعها ! (فذرهم يخوضوا) فى باطلهم

(ويلعبوا) فى دنياهم (حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون) وهو القيامة (وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله) أى وهو الذى هو فى السماء معبود وفى الأرض معبود لا إله إلا هو وإنما قلنا هو فى السماء لأجل صناعة الإعراب . وقلنامعبود بدل إله ليكون مشتقايتعلق الظرف به (وهوالحكيم) فى إبداعه وصنعه فى السموات (العليم) بجميع النتائج والمقدمات ، والأسباب والمسببات ، بحيث تخللت الحكمة التى قرنت بالعلم كل رطب ويابس ، وجليل وحقير ، وهذا هو الذى يبرهن أنه المستحق للعبادة فى السموات وفى الأرض لأن من يشاهد إتقان الحكمة فيهما يجد نظاما واحداً وحكمة متسقة . هذا معنى الآية . ولما كان الناظر فى علم الطبيعة والفلك وقد درس علوم الرياضات ونظر فى هذا النظام يدهش لما يجد من العجائب والإتقان والصنع البديع ، ويحار لبه من تلك الحكم التى لا نهاية لها فى أصغره كما يراه فى جلائل المخلوقات أردفه بقوله (وتبارك الذى له ملك السموات والأرض وما بينهما) والتعبير بتبارك لايقوم مقامه تعبير فى اللغة حتى يؤدى ما يثور فى نفوس الحكماء والعلماء من مدهشات هذه الدنيا وغرائبها بحيث يرى العاقل فى أدق الأشياء بدائع تحير العقول ، مثلا ترى الملح الذى نأكله مم ركب ؟ ركب من عنصرين أحدهما عبارة عن مادة إذا وضعت فى الماء التهب الماء فصار ناراً ، والعنصر الآخر سم مهلك قاتل ، فيا عجبا ! عنصران : أحدهما نار والآخر سم ، لانعيش فى الدنيا إلا بتعاطى المركب منهما صباحا ومساء ، ولو نظر الحكيم الدارس علم الحيوان فى قطعة صغيرة من جناح الناموسة لا اطلع على تفاصيل ودقائق وأوردة وشرايين ولرأى فى إطارها مايشبه الريش محيطاً به ، وهكذا قد كشف العلماء بما نظروا بالمناظير المعظمة غرائب ينطق عندها العاقل قائلا « وتبارك الذى له ملك السموات والأرض وما بينهما » .

حيوان ذرى يدير دولابا

قد اطلعت بواسطة المنظار المعظم عند الأستاذ شوقى بك بكير المدرس بمدرسة الزراعة بحلوان على بركة ماء يبلغ عمقها فى النظر عشرة أمتار وفيها حيوانات كثيرة أصف واحداً منها بأنه يحمل عجلة وهو يديرها فى لجج الماء الغزير لتحصيل رزقه ، ولعلك تقول : وماهذه البركة ؟ أقول لك إنه قد بل الزجاجة برطوبة من بركة هناك عنده ، فهذه الرطوبة لما وضعت تحت المنظار ظهرت هكذا وفيها تلك الحيوانات والنباتات والآلة الدائرة لتحصيل الرزق مع أن هذا الحيوان ودولابه الدائر لو اجتمع هو وآلاف مثله لم تره أعيننا فضلا عن عجلته أو دولابه . هذه المعانى وأمثالها هى التى يحملها قوله تعالى « وتبارك الذى له ملك السموات والأرض وما بينهما » فهذا مما بينهما . واعلم أن العقول الإنسانية تبقى راكدة حتى تحركها أمثال تلك العلوم . وإنهاض القلوب على قسمين : قسم بما قلناه من أمثال تلك العلوم إذا قرئ على الوجه الذى قررناه . وقسم بظهور أصحاب العقول الكبيرة الذين يحملون الشعوب على انتهاج خطة الكمال ، وقد آن أوان ظهور الأمرين معا فى أمة الإسلام ، فسيظهر أهل العقول الكبيرة ومعهم تلك الحكم العالية ، وهذا هو الذى يديم الأمم ورقيها. ولما كانت هذه العجائب لايعلمها إلا الله وحده ، والناس لايعلمون إلا قليلا مع أنها بين أيديهم كانت الساعة أولى أن يجهلوها فأعقبه بما يدل على ذلك فقال (وعنده علم الساعة) التى تقوم القيامة فيها (وإليه ترجعون) للجزاء . ولما كان ذلك اليوم يكون فيه الحساب والشفاعة قال (ولايملك الذين يدعون من دونه الشفاعة) من معبوداتهم كالأصنام والملائكة والمسيح (إلا من شهد بالحق) بكلمة التوحيد (وهم يعلمون) أن الله ربهم حقا ويعتقدون ذلك ، فهؤلاء هم الذين يملكون الشفاعة كالملائكة والمسيح لأن الشفاعة على مقدار وصول الآثار العلمية والدينية وكل من وصله علم المسيح قبل النسخ وهكذا المؤمنون من جميع الأمم الذين

لم تنسخ دياناتهم يشفع لهم أنبياؤهم وعلماؤهم وشهداؤهم كما فى الحديث والملائكة من باب أولى لأنهم الواسطة (ولئن سألتهم) أى المشركين (من خلقهم ليقولن الله) لا الأصنام (فأنى يؤفكون) فكيف أومن أين يصرفون عن التوحيد وهذا إقرارهم ، ثم عطف لفظ قيله من (وقيله يارب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون) على الساعة أى وعند الله علم الساعة وعلم قوله . ـ ول محمد صلى الله عليه وسلم يارب الخ» وقرئ مجروراً ومنصوباً وهو فى الثانى عطف على محل الساعة لأن إضافة العلم للساعة من إضافة المصدر لمفعوله فمحلها نصب ، فلما شكا صلى الله عليه وسلم إلى ربه عدم إيمانهم أجابه الله قائلا (فاصفح عنهم) فأعرض عن دعوتهم وأنت آيس من إيمانهم (وقل) لهم (سلام) أى متاركة فلا تدع عليهم بالعذاب ولا تدعهم للدين (فسوف يعلمون) عاقبة كفرهم وتنصر عليهم . انتهى التفسير اللفظى .

فى هذه السورة سبع لطائف

(١) فى قوله تعالى «إنا جعلناه قرآنا عربيا» مع قوله «وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون» وقوله «وإنه فى أم الكتاب لدينا» الخ .

(٢) وفى قوله تعالى «ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم» إلى قوله «وإنا إلى ربنا لمنقلبون» مع قوله «سبحان رب السموات والأرض رب العرش عما يصفون» إلى قوله «فأنى يؤفكون» .

(٣) وفى قوله «بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة» الخ .

(٤) وفى قوله «قالوا هذا سحر وإنا به كافرون» مع قوله «وقالوا يا أيها الساحر ادع لنا ربك» الخ . وفى قوله «لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم» مع قوله «فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب» وقوله «أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون» .

(٥) وفى قوله «حتى إذا جاءنا قال ياليت بينى وبينك بعد المشرقين» مع قوله «الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين» .

(٦) وفى قوله «وإنه لعلم للساعة فلا تمترن بها» .

(٧) وفى قوله «فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا» .

اللطيفة الأولى والثانية

قد علمت فيما مضى من السور أن «حم» تشير فى هذه السور إلى الحمد ، وأن الحمد هو مناط العلوم كلها والحكمة ، فأول هذه الأمة الإسلامية حمد ، وآخرها حمد ، وفى صلاتها حمد ، وفى أكلها حمد وفى لبسها حمد . وفى سفرها حمد . وفى جنتها حمد ، يقولون : «الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن» وأيضا على لسان الملائكة حمد لأنهم يسبحون بحمد ربهم والحمد يكون على النعم : والنعم لا يحمد عليها إلا إذا عرفت .

فرجع الأمر إلى العلوم وعجائب الصنع والحكمة فى السموات والأرض . أما علوم اللغة من النحو والصرف والمعانى وأمثالها فما هى إلا آلات ؟ وأما علوم الفقه ومقدماتها كالأصول وما يلحقها من علوم الجدل فإنما هى للقضاء وحفظ نظام الدولة الظاهرى . أما امتلاء العقول بالحكمة وإظهار رجال عظماء فى أمة الإسلام وحفظ البلاد من تألب الأمم عليها ورفدها بالخيرات والثمرات والنعم ، فذلك لن يكون إلا بعلم السموات والأرض وعلم الكيمياء والنبات والحيوان والتشريح وطبقات الأرض والهواء والبحار ، ألا تراه ابتدأ السورة قائلا « حم » مشيرا للحمد ، ثم أعقبه بذكر القرآن العربى لأنه الدليل على ما يجب على الناس ، ثم أبان منزلته فى علوه عنده تعالى وحكمته فهى أعلى المنزلة وهو موسوم بالحكمة . ومن الحكمة ما ذكره فى اللطيفة الثانية من شهادة الفطر بأن الله خالق السموات والأرض صاحب العزة والعلم الذى مهد الأرض وجعل فيها السبل وأنزل الماء من السماء فأخرج به النبات والأنعام وجعل السفن ، وأيضا ذكر أنه معبود فى السموات والأرض ورب السموات والأرض ورب العرش ، كل ذلك مناط الحمد المرموز له بلفظ « حم » فالحمد لله رب العالمين .

والتربية هنا أضيفت إلى السموات والأرض وأضيفت إلى العرش ، فيرجع مدار إسعاد أمة الإسلام إلى معرفة العوالم كلها وتربية الله لها ، وهذا هو الذى بيناه فى (سورة الفاتحة) فارجع إليه فإنها أشارت لجامع العلوم ، وكأن سور آل حم جاءت مفصلات للحمد المذكور فى الفاتحة ، وقد جعلت آل حم رياض القرآن ومعلوم عند أكابر الحكماء من أمتنا الإسلامية أن رياض الجنة العلوم ، فالفاتحة بها تفتح أبواب الجنات وهى العلوم عند الحكماء فى الإسلام وتفتح أبواب الجنات الحسية عند العامة ، فليس يعقل جنات العلوم إلا الذين أدركوها فى هذه الدنيا ، فهؤلاء يتمنون جنات العلوم ولا تهمهم الجنات المحسوسة ، والعامة وصغار العلماء لا ينظرون إلا إلى الجنة المحسوسة ، ففى هذه السورة أشير إلى مجامع الحمد بالآيات التى ذكر فيها السموات والأرض وأضيف الرب إلى العرش تارة وإليهما تارة أخرى ، وكذلك شهدت الفطر بأن الله خالق ذلك كله وهذا القول منزل للأمة الإسلامية كلها عربيها وعجميها ، أما الذى يدهش العقول ويحير الألباب أن أبناء العرب اليوم مسئولون أمام الله وهم نائمون .

يا أبناء العرب : يامن أنتم اليوم فى شمال أفريقيا فى تونس والجزائر ومراكش ومصر والشام والعراق واليمن والحجاز وغيرها ، أأنتم نيام ، ألا تنظرون ، ألا تفكرون ، اسمعوا كلام ربكم ، يقول : « إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون » ووصف هذا القرآن بأنه على المنزلة ، حكيم النظم والمعنى ، ثم فى نفس هذه السورة قال : « وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون » وهذا أمر عظيم ، فأبناء العرب اليوم مسئولون عن هذا القرآن وحفظه ونشره بين الأمم ، إنكم يا أبناء العرب لا تقدرون أن تنشروا هذا القرآن إلا إذا كنتم أنتم للعلوم دارسين ، وللحكمة عاقلين ، حتى إذا نشرتموها نشرتم ما يشير إليه من العلوم ، وليس معنى هذا أنكم تدرسون كل علم وكل فن . كلا . بل أقول إن من اطلع على ما كتبته فى هذا التفسير وقرأ بعضه بنظام فى جميع القرآن فقد أدرك كيف يدعو إلى القرآن . إن الله يا أبناء العرب سائلكم فشمروا عن ساعد الجد ، يا أبناء العرب نمتم عن هذا القرآن بما كان لكم من الصولة والدولة وقام بنصره فريق من أمة العجم جزاهم الله خيرا ، ولكن أنتم أهل اللغة ، فإذا نشرتم القرآن وكنتم عالمين بالحكمة انقادت لكم الأمم انقيادا أدبيا والأمم اليوم لا تعرف إلا الحجة ، فلتكن لكم جمعيات منظمة تدرس نظام هذه الدنيا ومقاصد القرآن مع الإلمام ببعض اللغات .

يا أبناء العرب : إن أهل أوربا يريدون منكم نشر دينكم . يا أبناء العرب ، أقول لكم ذلك عن علم

فإن سمت (اللورد هدلى) الإنجليزى لما حضر إلى الجامع الأزهر وهو يخطب يقول : (إن ثلاثة أرباع الأمة الإنجليزية اليوم يريدون أن يسلموا ، ومامنعهم إلا أنهم لا يجدون قوة علية مع هذا اللورد ومن معه تقوم بنشر حقائق دين الإسلام ويكونون قوة يحتج بها من أراد اعتناق الدين أمام آبائه وإخوته وأصحابه) فأينا ولى الأوروبى وجهه لا يجد عربيا واحدا ينصر هذا الدين ويقيم الحجة ويعلم الدين هناك .

يا أبناء العرب : هذا زمان مجدكم ، يا أبناء العرب : إن ربكم يقول « وسوف تسألون » . أما نبينا صلى الله عليه وسلم الآن فليس بمسئول لأنه بلغ ونحن الآن المسئولون ، نسأل بين يدى الله تعالى ، إن الأمم سئمت تلك الديانات الباردة والتى فترت ، ودينكم هو الذى يليق بالعصر الحاضر :

فإذا أعرضتم عن نشره فاعلموا أن الله لكم بالمرصاد ، فالنار تحت الأجل فى باطن الأرض ، والنار قد ظهرت فى الأعمال الحربية فى أوربا ، وأصبحت الأمم المقصرة فى العلوم الواجبات تحت رحمة أصحاب النار الذين يرسلونها من طياراتهم ، فهبوا من رقدتكم واقرءوا العلوم كما أوضحته فى هذا التفسير . ثم لتكونوا شهداء على الناس ، ولتكونوا حزب الله ، لتكونوا ناصرى العلم الحكمة ، لتقوموا بتمدين النوع الإنسانى بعد أن ترتقوا ؛ ليس فى الأرض اليوم شعب يقدر أن يكون بهذا غير العرب ، العرب قاموا بدورهم أيام القرون الأولى ولكن دورهم الحالى أهم وأعظم ، دورهم الحالى قراءة العلوم كلها ونشر القرآن بحكمته هو الذى يفهم الأمم أن العلوم المنتشرة فى الدنيا يطلبها القرآن .

قولوا يا أبناء العرب للأمم : هذا القرآن نزل بلغتنا ونحن نحفظه وتركنا العلوم وربنا الذى هو ربكم ورب كل شىء ألهمكم أن تستخرجوا العلوم من كنوزها فى الأرض وفى السموات ، فإذن هو أنزل إلينا لفظه وألهمكم مايتضمنه من المعانى ، إن ربنا عدل حتى لا نقول نحن سادات العالم بالعلم والدين ، وحتى لا تقولوا أنتم نحن سادات العالم بالأمرين ، فأعطانا دينا حقا ، وأعطاكم سره ، فعندنا لفظه وعندكم معناه ، ونحن اليوم نقرؤه عليكم ونبين مواضع علومكم منه وهى تتخلل كل سورة وكل آية ، بل الحروف الهجائية فى أوائله تشير إلى مجامع علومكم ، فلسنا نفتخر عليكم ولستم تفتخرون علينا ، فإذا قلنا هو ديننا نزل بلساننا تقولون أنتم ولكن الله أظهر أسراره على أيدينا وقوله تعالى «وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها» يشير إلى الآيات التى ظهرت على أيدينا . وقوله « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » كذلك ، فإذن أنتم حملتم لفظه وبعض معانيه ، ونحن قرأنا ماهو مقصوده ومغزاه ، والله هو الذى أحوج أهل الشرق لأهل الغرب كما أحوج أهل الغرب لأهل الشرق ؛ فهؤلاء بدينهم وهؤلاء بعلمهم ، وهذا مما يشير له الحديث «ليبلغ الشاهد منكم الغائب فرب مبلغ أوعى من سامع » فنحن المبلغون وأنتم المبلغون : والله أراد أن نتعارف وبمثل هذا يتم التعارف ، فنحن معاشر الأوربا وبين أخذ آباؤنا العلم عن آبائكم وآباؤكم أخذوا العلم عن أمم أخرى ونحن دخلنا العلوم من أبوابها وأظهرناها فقرءوها ، فلنا الفضل فى حفظها وارتقائها ولكم الفضل فى حفظها سابقا وفى حفظ الدين الإسلامى سابقا ولاحقا . هذا هو الزمان الذى يقال فيه هذه المحاورات ، والله هو الولى الحميد .

واعلم أن هذا الأسلوب من الدعوة هو الذى سينشر فى مستقبل الزمان وهو بعض الذى يقصد من قوله تعالى « ليظهره على الدين كله » وهذا ظهور حجة وبيان ، وقد ظهر كثير من ذلك أيام الحروب الصليبية ، فإن أهل أوربا كانوا كالوحوش جهلة ذلك التاريخ ، ثم أخذوا فى الرقى شيئا فشيئا ، ولما جاءت الحروب الصليبية خلعوا لباس الجهالة ولبسوا لباس الحكمة ، وأذكر لك من ذلك :

(١) إن البابا كان معتبراً عندهم كالقطب عند المسلمين ، وكان له الملك السياسى فى الأرض التى تحت سلطته ، وقدملك أهل إيطاليا سنة ٧٢٦ ميلادية الموافقة سنة ١٠٨ هجرية البابا عليهم بجعلوه رئيس النصرانية ، ثم توسع أتباعه فى ذلك قرنا بعد قرن حتى صاروايولون من يشاءون ويعزلون من يشاءون من ملوك أوربا .

(٢) وكان لكل ملك تاج ولهم ثلاثة تيجان .

(٣) وكانوا إذا ركبوا يمسك لهم الركاب ملوكهم .

(٤) وإذا أمروا بمحاربة أمة لا يخالفهم أحد .

(٥) ويحرقون من خالفهم بالنار وهو حى .

(٦) وكان البابا مرة ألزم أمبراطور ألمانيا أن يقف حافيا ثلاثة أيام فى فصل الشتاء أمام باب قصره ليطلب منه الغفران

(٧) ورفس البابا مرة برجله تاج ملك جرمياحيث كان جاثيا أمامه يطلب الغفران.

وبهذه الأفعال أخذت سطوة البابا تنحط شيئا فشيئا الى سنة ١٢٨٨ هجرية فدخل الإيطاليون عاصمة مملكة البابا وأخذوها منه وأبقوه رئيسا على الكاثوليك ومقره فى الكنيسة الرومية . وإلى هنا تم الكلام على اللطيفة الأولى والثانية ، والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثالثة

فى قوله تعالى : « بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون »

هذه الآية وأمثالها كثير فى القرآن قد تقدم القول عليها فى غير ما موضع . فإن النوع الإنسانى لكونه فى هذه الأرض التى تعتبر أنها فى الطبقة المتأخرة من العوالم ليس كاملا كل الكمال فهو فى عالم متأخر يعاشر الحيوان الذى لا رأى له بل يسير بما فطره الله عليه ، فأدنى الإنسان قريب من الحيوان ؛ قل فيه المفكرون الذين يجتازون تلك الأسوار المنيعة ، والحصون الشاهقة ، والأشواك الشائكة ، والطرق الوعرة ، والبحار الواسعة ، والجبال الشاهقة الفاصلة بينه وبين التفكير . إن الناس خلقوا بين أوهام وآراء تقف أمامهم سدا وحائلا أشد مما ذكرناه ، فاذا ما أنار الله بصائر الناس هدموا تلك الحصون ، وأزالوا تلك الجبال ، وكسروا تلك الحوائل ، وعبروا الأنهار ، ووصلوا الى الحقائق سالمين ؛ وكثير منهم يهلكون ، أثناء الطريق لعدم قدرتهم على تلك المشاق العظيمة .

هذا كله من التقليد الذى ملك مشاعر هذا الإنسان الذى يعيش بالتقليد ويموت على التقليد بل جميع الديانات تقليد. فالمسلم والوثنى والنصرانى كلهم مقلدون، متبعون لامبتدعون، والله أظهر قهره للانسان بهذه الأحوال ليفكر المفكرون ، ويعتبر المعتبرون ، ويخرج فى كل أمة مجتهدون عاقلون ، وقوله تعالى فى هذا المقام « قال أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم » فتح باب للنظر والعلم ، إن الأمة الإسلامية فى الأعصر الأخيرة غفلت عن هذا النور ، فهم أمروا بهذه الآية أن يتبعوا ماهو أهدى وما هو أحسن كما فى آية أخرى « الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه » فنحن مأمورون باتباع الأحسن وباتباع الأهدى فى كل زمان ، هذه فتح باب النظر فى كل صناعة وكل علم ، فلندرس طرق البحار والهواء والحرب والسلم والسياسة ونتبع ماهو أسلم لنا . هذا هو الدين وهذا هو القرآن . وما سواه ضلال . تم الكلام على اللطيفة الثالثة .

اللطيفة الرابعة

في قوله تعالى « قالوا هذا سحر وإنا به كافرون » مع قوله « وقالوا يا أيها الساحر ادع لنا ربك » وقوله « لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » مع قوله « فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب الخ »

الناظر في هذه السورة يرى أمر القصص واضحا ، فإن نبأ موسى عليه السلام فيه مسائل كثيرة نذكر هنا ما يناسب المقام . إنه تعالى ذكر قول مشركي مكة هذا سحر ، وأتى من قصص موسى عليه السلام بما يناسبه فقال « وقالوا يا أيها الساحر » . وأيضا هزم الله فرعون ونصر موسى ، فهكذا محمد ﷺ يكون مثله وقد تم ذلك فإنهم قالوا ساحر كما قال قوم فرعون لموسى ، ثم نصر النبي ﷺ كما نصر موسى . وأيضا قال مشركو مكة : إن الأولى بالنبوة الرجل العظيم في المال والجاه ، فهكذا قال فرعون « أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتي » وقال أيضا « فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب » الخ أي إن النبوة إنما تكون لمن أعطى الملك وعزة الحياة الدنيا ، وكانت نتيجة ذلك أن نصر موسى هكذا يا محمد سيكون شأنك وقد تم ذلك ، واعلم أن هذا المقام يفتح لك باب التفكر في قصص القرآن . ويدلنا أن هذا القصص غير مقصود لذاته فيؤتى منه بالشواهد التي تكون تسلية للنبي وللمؤمنين وحكمة ، وهذا يدلنا أن التواريخ ليست مقصودة لذاتها بل يراد بها الحكمة والعلم وانتهاج الخطة المثلى . فلنرجع إلى قصص القرآن ولنفكر في المقصود منه لا في أصل القصة وحقائقها فإن ذلك ليس مقامه بل مقامه الاعتبار والحكمة والنتائج وهذا من غرائب الحكمة والعلم .

فالحكمة في ذلك أن لا يدرس التاريخ إلا للنتائج ولا يترك سبهللا ، بلا تنظم دروسه ، وتتخذ نتائجه منارا تهتدى به الأمم الإسلامية ، فليقرأ المسلمون تاريخهم ، وليأتوا بمقاصده الحكيمة ، والله حكيم عليم . انتهت اللطيفة الرابعة .

اللطيفة الخامسة

في قوله تعالى « حتى إذا جاءنا قال ياليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين » وقوله « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين »

في هذه الآيات أصول المحبات والعداوات ، إن المحبة لا تكون إلا بأسباب ، ولا محبة بلا سبب فمن قال « إنا أحب فلانا لله » ظانا أنه لا سبب له فهو جاهل ، بل الحب حبان : حب في الله وحب في غير الله . فأما الحب الذي هو لله فهو المبنى على العلم والطاعات والحكمة ، ولذلك ترى الذين استووا في أخلاق واحدة وعلوم متحدة وعقائد صادقة تكون بينهم المودة والمحبة على مقدار تكامل هذه الصفات فيهم ، وكلما تباعدت الصفات تقاصرت المحبة حتى إذا ما تنافرت أغلبها حصل التنافر العظيم ؛ فمن كانت موداتهم ترجع إلى الطاعات فحبهم في الله ، ومن كانت موداتهم على الشرور كالقتلة والفسقة فهي لغير الله ، ومستحيل أن تكون محبة بلا سبب . فإذا قال امرؤ أنا أحبك لله وظن أنه لا سبب له فهو مخطئ ، وعلى ذلك إذا أحب الإنسان أباه

وأستاذه وتلميذه والصانع الذى صنع له حذاءه فكل هذا الحب فى الله لأن الأسباب التى أوجبت الحب لامعصية فيها لأنها إما مباحة ، وإما واجبة ، أو مندوبة .

نتائج تلك المحبات

وتكون نتائج تلك المحبات بقاء ما كان أصله الطاعة وانحلال ما كان أصله المعصية ، وبيانه أنك ترى القتلة والفسقة والذين يشربون الخمور وأمثالهم يجتمعون ويتحابون ، فإذا وقفوا أمام القضاء أقر كل منهم على صاحبه بقتل أو بسرقة ، فذهبت تلك المودات ، وضاعت تلك الصداقات ، فهذا الذى تراه فى الدنيا هو بعينه ما يرى يوم القيامة وبعد الموت ؛ فإن من أضل جاهلا يعرف بعد الموت أن ضلاله من إضلال قرينه فيكرهه يوم لا ينفع ذلك ولا الندم على ما حصل . فأما المتقون الذين كانوا على الصلاح وعلم الحقائق فإنهم بعد الموت لم يروا ما يناقض أسباب مودتهم ومحبتهم ، فتزيد لألفة الجامعة كما تهدمت الألفة الفاسدة . هذا معنى قوله تعالى « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين » انتهت اللطيفة الخامسة .

اللطيفة السادسة

فى قوله تعالى : « وإنه لعلم للساعة »

تقدم أنك قرأت أن الضمير يرجع للقرآن لأنه مشتمل على بيانها فهو مبين لأمر الساعة ، وهذا الرأى على غير ما قال به جمهور المفسرين فإنهم قالوا إن الضمير يرجع لعيسى عليه السلام ، وفى هذا الاحتمال وجهان : الأول أن عيسى عليه السلام ينزل فى آخر الزمان ونزوله يعلم به قرب الساعة ، وقرئ علم كقمر أى علامة على قرب الساعة . الثانى : أن إحياءه الموتى بإذن الله دليل على أن الله قادر أن يحيى الموتى يوم القيامة . فهاهنا يكون الوجه الأول والوجه الأخير لادليل فيهما على نزول عيسى آخر الزمان . والوجه الثانى هو الذى يدل . ولذلك ترى التفتازانى وبعض العلماء لم يجعلوا فى الآية دليلا على نزول عيسى عليه السلام .

إذا عرفت ماذكره العلماء فى القرآن فهل لك أن تسمع الأحاديث الواردة فى الصحيحين فى أمر عيسى عليه السلام .

(١) فى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والذى نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عادلا ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد» .

وفى رواية أبى داود : قال : « ليس بينى وبينه عيسى نبى وإنه نازل فيكم الخ » . وفى حديث الشيخين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كيف أنتم إذا نزل ابن مريم وإمامكم منكم » .

وهناك روايات أخرى ليست فى الصحيحين مثل إنه يقتل الدجال ، وإنه يأتى بيت المقدس . والناس فى صلاة العصر فيتأخر الامام فيقدمه عيسى ويصلى خلفه على شريعة محمد صلى الله عليه وسلم ويخرب البيع والكنائس ويقتل النصارى إلا من آمن .

هذا ماجاء فى الروايات وقد علمت ما صح منها فأما ماعداها فليست عن الشيخين ، ومحصل الكلام فى أمر

عيسى

عيسى عليه السلام أن القرآن لم ينص عليه فإن فى الدليل احتمالا ، وأنى فى الصحيحين ما صحته ومازاد فليس فيهما .

الكلام على المهدى

واعلم أن الكلام على المسيح يستدعى الكلام على المهدى ، وخير من كتب فى أمره هو العلامة ابن خلدون، لقدعقدفصلا لهذا الموضوع. هكذا « فصل فى أمر الفاطمى وما يذهب إليه الناس فى شأنه وكشف الغطاء عن ذلك » وقد ذكر فى هذا الفصل الأحاديث الواردة فى المهدى ونزوله فى آخر الزمان وآراء المتصوفة وكبار الشيوخ ومحص الموضوع تمحيصا .

الأحاديث المروية

ذكر الأحاديث التى رواها الترمذى وأبوداود والبزار وابن ماجه والحاكم والطبرانى وأبو يعلى الموصلى، وذكر أنهم أسندوا تلك الأحاديث إلى الصحابة رضى الله عنهم مثل على ، وابن عباس وابن عمر ، وطلحة وابن مسعود وأبى هريرة وأنس وأبى سعيد الخدرى ، وأم حبيبة ، وأم سلمة ، وقرة بن إياس ، وعلى الهلالى وعبد الله ابن الحرث . وقال إن تلك الأسانيد عارضها قوم بالإنكار ، والمعروف عند أهل الحديث أن الجرح مقدم على التعديل ، ومن جملة الأحاديث مارواه أبو بكر الإسكاف : « من كذب بالمهدى فقد كفر ، ومن كذب بالدجال فقد كفر » ، وقال فى طلوع الشمس من مغربها مثل ذلك . ويقولون إن أبا بكر الإسكاف عندهم متهم وضاع للأحاديث . وهناك ذكر الأحاديث الكثيرة مثل أن المهدى يكون اسمه على اسم النبى صلى الله عليه وسلم واسم أبيه على اسم أبيه صلى الله عليه وسلم وقد أطال فى ذلك واستوفى المقام ، وكنت أود الإطالة بذكره ولكن المقام لا يحتمل ذلك فى مثل هذا التفسير . ثم قال : فهذه جملة الأحاديث التى خرجها الأئمة فى شأن المهدى وخروجه آخر الزمان ، وهى كما رأيت لم يخلص منها من النقد إلا القليل ، والأقل منه ، وقد تقدم الكلام فى هذا الموضوع مطولا فى أول سورة الحج فارجع إليه إن شئت .

آراء الصوفية وكلامهم فى أمر المهدى

ذكر العلامة ابن خلدون فى هذه المقام أن السلف الصالح من الصوفية ما كانو يتعرضون لمثل هذه الأمور ، فلايذكرون المهدى ولاخروجه وكانوا يحرصون على المجاهدة ونتائجها ، وكان الإمامية والرافضة من الشيعة يرجع كلامهم إلى التبرى من الشيخين أولا ثم حدث فيهم القول بالإمام المعصوم وأكثروا كثيرا فى ذلك ، وجاء الإسماعيلية منهم فادعوا ألوهية الإمام بنوع من الحلول ، وآخرون يدعون رجعة من مات من الأئمة على طريق التناسخ ، وآخرون ينتظرون مجيء من يقطع بموته منهم ، وآخرون منتظرون عود الأمر فى أهل البيت مستدلين بتلك الأحاديث المطعون فى أسانيدها ثم ظهر عند المتأخرين منهم الكلام فى الكشف ومعرفة ماوراء الحس والقول بالحلول والوحدة فشاركوا الإمامية والرافضة القائلين بألوهية الأئمة وحلول الإله فيهم ، وهكذا القول بالقطب والأبدال وهو يحاكى مذهب الرافضة فى الإمام والنقباء ، وأشربوا أقوال الشيعة وظهر فى كتب الاسماعيلية من الرافضة وكتب المتأخرين من المتصوفة مثل ذلك فى الفاطمى المنتظر . كل ذلك مبنى على أصول واهية ، ومن هؤلاء ابن سبعين .

وقال ابن عربى فيما نقل ابن أبى واطيل عنه : (وهذا الإمام المنتظر من أهل البيت من ولد فاطمة .. وظهوره يكون بعد مضى ستمائة وثلاث وثمانين سنة ، ولما انصرم هذا العصر ولم يظهر أخذوا يؤولون ولم يتم شيء . قال : وزعموا أن خروج الدجال يكون سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة من اليوم المحمدى الذى ابتداؤه وفاته صلى الله عليه وسلم ونهايته ألف سنة .

وذكر الكندى أن هذا الولى يجدد الإسلام ، ويظهر العدل ، ويفتح الأندلس ، ويصل إلى رومية فيفتحها : ويسير إلى المشرق فيفتحه ، ويفتح القسطنطينية ، ويصير له ملك الأرض ، فيقوى المسلمون . ويعلو الإسلام ، وحدد لذلك سنة سبعمائة وثلاث وأربعين ، ثم يعقب ذلك سبع سنين الدجال . ثم ينزل عيسى فى وقت صلاة العصر . فيصلح الدنيا ، وتمشى الشاة مع الذئب . وأطال فى ذلك رحمه الله ونار قبره وأنعم عليه بالنظر إلى وجهه الكريم .

إنى حينما أقرأ أمثال هذا فى كتب أسلافنا يأخذنى الأسف على هذه الأمة المسكينة التى كثر فيها الخلط والخبط والتحريف ، حتى إن أكبر العلماء يضل فى مثل هذه الأمور ، ومن العجيب أنه ينقل عن متصوفة عصره ماتسمعه من متصوفة عصرنا ، وكل له خبط وخلط وأمانى وأضاليل . وقال إنه سمع فى عصره عن المسمى أبا يعقوب البادسى كبير الأولياء بالمغرب فى أول المائة الثامنة أن ظهور المهدى قريب . فالأولون والآخرون يقولون وينتظرون وتذهب الأعمار ولا يحصلون على طائل .

رأى العلامة ابن خلدون

يقول : ان الملك لايقوم إلا بشوكة وعصبية . يقول : وعصبية الفاطميين فى زمانه قد تلاشت وهكذا قريش أجمع . وظهرت أمم غلبت عصبيتها عصبية قريش ، ثم قال : إن بالحجاز فى مكة وينبع بالمدينة بنى حسن وبنى حسين وبنى جعفر . قال : فإذا صح ظهور مهدى فليكن منهم . وملخص كلامه أنه لا يظهر إلا فى عصبية . وأما مجرد النسبة إلى آل البيت فلا يكفى .

وقد ذكر جماعة ممن قاموا بدعوة المهدوية ولا عصبية لهم فقتلوا (مثال ذلك) أنه قام رجل ينتحل التصوف وادعى المهدوية برباط ماسة لأول المائة الثامنة فاتبعه خلق كثير من السوس ، فدس عليه رؤساء المصامدة من قتله بياتا وانحل أمره ، وكذلك ظهر قبله بسنين قليلة رجل يسمى العباس وادعى أنه الفاطمى واتبعه قوم ، ودخل مدينة فاس عنوة وأحرق أسواقها ، ودخل غيرها فقتل فى المزمة غيلة وانحل أمره .

فكرة عامة فى مسألة عيسى عليه السلام والمهدى

قد رأيت أن المهدى أحاديثه مطعون فيها وليس له فى القرآن ذكر . وقد ظهر بعد أيام العلامة ابن خلدون الشيخ السنوسى ، ويقول أتباعه إنه المهدى المنتظر : وهكذا ظهر فى السودان المهدى السودانى وهو الذى تركته دولة انكلترا حتى استفحل أمر التعايشى بعده . وانقضت عليه بعساكر بلادنا وعساكرها وهى تحكم بلادنا المصرية . فزالت الملك وانتهى أمر المهدى أحمد . وقد ظهر فى الإسلام بعد ابن خلدون أيضا من قال إنه هو عيسى وهو بهاء الله فى بلاد الفرس وأتباعه يسمون البهائية ولهم انتشار فى أوروبا وأمريكا .

وظهر فى زماننا رجل فى الهند جعل نفسه عيسى المنتظر . وقال إنه نسخ الجهاد وأقر لانكلترا بأن تحكم المسلمين وهو لذلك مستبشر فرح وهو الملقب بالقاديانى .

فياليت شعرى ماذا ينقذ الإسلام من هذه المصائب التى حلت به . خرج المهديون وقد كثروا فمنهم من قتل ومنهم من بقى ملكه سنين ومئات السنين ثم ذهبت دولهم وخرج الذين يقولون إنهم هم نفس عيسى الموعود به فى القرآن احتمالا وفى الحديث صريحا والأمة فى ذلك لاتعرف كيف يكون المخرج . وإذا كان فى الإسلام الآن «عيسيان» ولكل عيسى منهم أتباع فربما جاء بعدهم غيرهم وهكذا . إن هذا تمزيق لدين الإسلام وإتساف له ، فالعامة يعرفون بالمهدى قديما وحديثا ، ويرون من يقول أنا عيسى فيحار أمر الناس فى ذلك «والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم» .

رأى المؤلف

اعلم أن الأمة الإسلامية لامخرج لها من الجهالة العمياء والذلة إلا بدراسة العلوم والوقوف على الحقائق ليكن فيها اختصاصيون فى العلوم الطبيعية والرياضية والتاريخ والحديث والتصوف وهكذا حتى يقف الخواص على حقائق هذه الدنيا . وإذن يسهل عليهم معرفة الحقائق ، أما رأيى فى المهدى فواضح . فقد قام بالأمر العلامة ابن خلدون وأظهر الحقيقة ناصعة ، وأما الكلام فى عيسى عليه السلام فاعلم أنه أقوى من المهدى لأنه جاء فى الصحيحين . وجاء أنه يجعل الدنيا دار سلام ويكون على دين الإسلام الخ . وملخص ذلك أن هذه الأرض التى نسكنها تتبدل حالها وتكون حالها أجمل مما نحن فيه . وإذا نظرنا نظرة صادقة لهذا الموضوع أيقنا أن ذلك لايتم فى يوم أو سنة أو قرن لأن انقلاب الإنسانية من هذه الحال إلى تلك الحال يحتاج لقرون فإذا عاش عليه السلام فى الأرض سبع سنين أو أكثر أو أقل كما فى الروايات الواردة فهذه المدة لا تقلب الأمم لأن هذه ليست سنة الله وهو عليه السلام نزل إلى الأرض قديما فرجع الناس لحالهم بل أرادوا صلبه فشبه لهم . وجاء النبى صلى الله عليه وسلم إلى الأرض وأمر الدنيا بعده معلوم . فإذن نزول المسيح مرة أخرى لايكون إلا بعد انتقال الأمم من هذه الحال تدريجا إلى حال تصبح الأرض فيها أشبه بالفردوس ، ولعل المقول إذ ذاك يكون لها شبه علم بنزوله عليه السلام : فإذا نزل تقبلته بالقبول هذا ما يمكن أن يقال والله أعلم .

فائدة هذا الموضوع كله

ها أنت ذا قرأت الأحاديث الواردة فى المسيح عليه السلام وقد دخل فى جملة الأمور الاعتقادية فى الأمة وإن لم يكن صريحا نصه فى القرآن ، ولكن أحاديث الشيخين لهما منزلة القبول فى الأمة . وإذن نريد أن نعرف فائدة هذا الاعتقاد فنقول :

لقد علمت مما أسلفنا فى هذا التفسير أن الأمة الإسلامية عليها أن تقوم بما عليها للانسانية فهم خير أمة أخرجت للناس ، وهم شهداء الله على الناس كما أن الرسول شهيد علينا ، وهذا الدين وعد الله بظهوره على جميع الأديان ، فهذه وأمثالها ترجع إليها لأنها ظاهرة واضحة ، وإذا ضممنا إليها أن النبى صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين ونحن معاشر أمة الإسلام اليوم فى الأرض قائمون بشريعته فنحن إذن يجب أن نكون رحمة للعالمين وعلى هذا يكون المسلمون يوما ما يقودون الإنسانية إلى السلام العام والإنسانية الخالصة ، وتكون الأمم بسبب نشر المعارف والعلوم قد اقتربت من السلام العام ، وتكون أمة الإسلام قد أصبحت صاحبة الفضل الأكبر فى ذلك ، إذن تسرى الروح العيسوية فى العالم بسبب الإسلام وظهور حقائقه الموعود بها بمثل قوله تعالى «سأريكم آياتى فلا تستعجلون» ومثل «سيريكم آياته فتعرفونها» ومتى سرت الروح العيسوية فى

الأرض بسبب دين الإسلام فهناك حين يظهر المسيح بمجد الأمة مستعدة للسلام العام ، وسواء أنزل هو بنفسه أم كانت النفوس قد أشربت السلام فيكون ذلك رمزا ، فمثل هذا لا نتعرض له ، فهو خاص بعلم الله تعالى والذى فى قدرتنا أن نقوله : على المسلمين اليوم أن يأخذوا دورهم فى الرقى ، وأن يكونوا دعاة الإنسانية والسلام والمودة وأن ينشروا العلوم ، ويكون الإسلام ممزوجا بما كشفه الناس فى العصر الحاضر ، وتكون دعوته قائمة بنفس العلوم كما سطرناه فى هذا التفسير ، أما أن يقوم فى كل قرية رجل ويجعل له أتباعا ويقول أنا المسيح ، فهذا مالا يطيقه الإسلام ، وإذا كان هؤلاء الذين ظهروا كل واحد منهم هو المسيح فأين السلام فى الأرض ، وما هذا التعدد ؟ مع أن عيسى واحد لا اثنان . وكيف نرجح أحدهما على الآخر ؛ وأين السلام فى الأرض .

فالقول العدل أن الأمة الإسلامية التابعة للمذاهب المختلفة يجب على رؤسائها أن يوجهوا همهم إلى تعميم التعليم وإكثار المدارس ونشر فكرة العلوم ممزوجة بالدين كما أوضحناه . ومتى تنورت الأذهان ووضحت الطرق طاحت تلك الدعاوى من النفوس أى إننا لا نشغل أنفسنا بتكذيب أحد من مشايخ الطرق ولا العيسويين ولا المهدويين ، ولكن نقول : ليقرأ أتباع هؤلاء الشيوخ العلوم فيعلمون الحقائق : وربما كان أساتذتهم هم الذين يمنعونهم العلم خيفة اطلاعهم على الحقائق فيستصغرون شأنهم ، فأنا أوصى قراء هذا التفسير أن يذيعوا بين الأمة العلم والحكمة . وبذلك وحده يظهر المسلمون ويكونون خير أمة أخرجت للناس ويستعدون للروح العيسوية حتى إذا جاء أوانه فهموه فنزل فيهم . وأما مادام المسلمون على هذا المنوال فكيف ينزل المسيح فى قوم جاهلين ربهم ونظامه وجماله وحكمته .

وأنصح أيها الذكى الأمة أن تقلع عن انتظار من يأتى إليهم من المهديين . فوالله لا سعادة لأمة إلا بجدها واجتهادها . إن نفس الأنبياء لم يرسلوا إلا فى أوساط تناسبهم . فليرق الشعب نفسه بالعلم والعمل والحب العام وينتظر بعد ذلك نعم الله عليه . فليس يقلب المسيح طبائعهم بل يأتى إليهم وهم مستعدون السلام العام : تم الكلام على اللطيفة السادسة والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة السابعة

فى قوله تعالى: «فاختلف الأحزاب من بينهم»

اعلم أن النصارى بعد رفع المسيح عليه السلام كانوا مقرين بالوحدانية ولعيسى بالرسالة ، ثم بعد رفعه دخلت شبه فانقسموا ثلاث طوائف : ملكانية . ونسطورية . ويعقوبية . فالملكانية مصرحة بالتثليث فهم يقولون : (الآلهة ثلاثة : المسيح . وأمه . والله) ويقولون : (إن المسيح ناسوت كلى قديم : ومريم ولدت ولدا أزليا . والله هو الأب . وعيسى هو الابن) اطلاقا حقيقيا عندهم . وأما النسطورية فإنهم يقولون (إن الكلمة أشرقت على جسد عيسى كإشراق الشمس على كوة أو بلور) . وأما اليعقوبية فيقولون : (انقلبت الكلمة لحما ودما فصار الإله هو نفس المسيح) وإلى الملكانية الإشارة بقوله تعالى (لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة) وإلى اليعقوبية الإشارة بقوله تعالى (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم) ثم إن الملكانية هم المسمون الآن (كاثوليكية) . فأما اليعقوبية والنسطورية فهؤلاء ليسوا فى أوروبا ، وربما يكونون فى الشام ومصر والعراق والحبشة : وإنما الذى حدث فى أوروبا هو مذهب

البروتستانت

البروتستانت والكاثوليكية . والبروتستانت يقرون بالبعث . والبعث إما بالأرواح والأجساد، وإما بالأرواح فقط، خلاف بينهم . ثم إن لفظ كاثوليكية كلمة مدح لأهلها كأهل السنة عندنا . ورئيس المذهب الكاثوليكى هو البابا برومة فى دولة إيطاليا. فهو اليوم الرئاسة الباطنية كالقطب عند المسلمين وكمشايخ الطرق، وتقدم قريبا ظلم البابا لأهل أوروبا وملوكها فانحطوا وذهبت رئاستهم . ثم إن الكاثوليكية بقوا على مذهبهم إلى القرن التاسع الهجرى . فظهر منكرون للبابا برومة فصاروا يسمون المنكرين (بروتستانت) وهى كلمة أشبه بكلمة الخوارج أو المعتزلة عند المسلمين .

وملخص ذلك أن الخلاف بين الكاثوليك والبروتستانت هو البابا، فمن اعترف ببابا رومة فهو كاثوليكى ومن لم يعترف به سموه بروتستانتى فيأنف ويقول أنا كاثوليكى وإن كان لايعترف برئاسة البابا ، والبابا من جملة الأساقفة ، ورئاسة الأساقفة ليست خاصة به، بل هى له ولأسقف الإسكندرية وأسقف القسطنطينية، فأما الكاثوليك فلا يعترفون إلا ببابا رومة ، وبعض البروتستانت أيضا لايقر بالتثليث ، لأنهم نظروا فى كتب الإسلام فاعترفوا بالوحدانية ، ويجعلون عيسى عبد الله ورسوله ، وهم مع الكاثوليك فيما بقى من العقائد .

وهناك فريق من البروتستانت باق على التثليث ، ويكون الفرق بينهم وبين الكاثوليك عدم الاعتراف بالبابا وحده ، ثم إن الصوم يقول البروتستانت إنه سنة، ويقول الكاثوليك إنه فرض وهو مدة (٤٠) يوما يتركون الطعام والشراب من طلوع الشمس إلى غروبها .

وأما البروتستانت وبعض الكاثوليك الذين ضعفت عقيدتهم ، فهم يجوزون تناول الطعام والشراب . لكن يمنعون اللحم كله وماتولد منه كاللبن والسمن إلا الحوت فانهم يأكلونه فى حال الصيام ويأكلون الخبز والحلوى ، وعندهم فرقة يسمونها اللاتينية، وفرقة يسمونها أهل الديانة الروسية (أورثوذكس) وذلك لأنهم لايعترفون بالبابا رئيسا، وهم موافقون للكاثوليك فى كل شىء . وهؤلاء جميعا يفتخرون بأنهم كاثوليك فيكذبهم أخصامهم قائلين لهم: أنتم فرقة لاتينية أو أورثوذكس .

واعلم أن الفرنسيين دخلوا دين النصارى سنة ٤٩٦ ميلادية وهم كاثوليك وبروتستانت ، ومنهم من لايقر بإله فى باطنه ، وكان ابتداء ملكهم سنة ٤٢٠ ميلادية وأصل ملكهم قبل الميلاد بنحو خمسمائة سنة ولم يتم الاستقلال فيما بين التاريخين ، فحكمهم اليونان فالرومان فاستقلوا ، وكانوا يعبدون الأصنام التى على صور الكواكب كالهنود .

ودولة الانجليز التى ابتدأ ملكها قبل الميلاد بنحو خمس وخمسين سنة لم يستقلوا إلا سنة ٢٤٣ هجرية وهى سنة ٨٢٧ ميلادية ، ودخلوا النصرانية سنة ٥٩٦ مسيحية ، وذلك قبل الهجرة بست وعشرين سنة وفيهم الكاثوليك والبروتستانت والدهرية وحصل بينهم وبين الفرنسيين حرب من سنة ١٣٣٧ م الموافق سنة ٧٣٨ هجرية إلى سنة ١٤٥٣ م الموافق سنة ٨٥٧ هجرية ويسمى حرب المائة سنة .

(دولة النمسا أوستوريا) أكثرهم من التتار ، ابتدأ الملك سنة ٣٣ ميلادية ، والاستقلال سنة ٩٨٢ ميلادية الموافق سنة ٢٤٨ هجرية ، ودخولهم النصرانية كالذين تقدموهم .

(الدولة الجرمانية) ابتداء الملك سنة ٥٤ ميلادية ، والاستقلال سنة ١٣١٥ ميلادية الموافق سنة ٨١٨ هجرية .

(دولة السكوف) استقلالهم التام سنة ١٦٢ ميلادية الموافق سنة ٢٤٨ هجرية ، وكانوا يعبدون الأوثان ودخلوا النصرانية سنة ثلثمائة وخمس وسبعين هجرية ، فهم الأمة الوحيدة التى تأخرت فى دخول

النصرانية إلى ذلك الزمن ، وأما بقية دول أوروبا فإن دخولها فى النصرانية فى أواخر القرن الخامس الميلادى فتكون النصرانية فى أوروبا الآن نحو ألف وأربعمائة سنة ، ومذاهبهم الكاثوليك والبروتستانت واللاتين والأرثوذكس . ثم الكاثوليك هى عين الملكانية ، وأما النسطورية واليعقوبية فقد حذفنا من الغرب وربما كانت فى الشرق ، والله أعلم . وقد تقدم ملخص هذا فى (سورة آل عمران) وإلى هنا تم الكلام على اللطيفة السابعة من اللطائف الخاصة ، والحمد لله رب العالمين .

اللطائف العامة للسورة كلها [1]

اللطيفة الأولى

في قوله تعالى « إنا جعلناه قرآنا عربياً لعلكم تعقلون » مع قوله « وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون »

لأجمل الكلام على الآيتين فى مقامين : المقام الأول فى غريب اللغة العربية فى القرآن . المقام الثانى فى نفس الأمة العربية ، وهاك بيانهما .

الكلام على المقام الأول فى غريب اللغة العربية فى القرآن

تقدم فى أول سورة « حم فصلت » الكلام على الألفاظ التى دخلت فى القرآن من القبائل المختلفة ومن اللغات التى ليست عربية كالفارسية والهندية الخ . وأريد هنا أن أذكر نبذة يسيرة فى الكلام على معرفة غريبه فقد جاء فى كتاب « الإتقان فى علوم القرآن » تحت العنوان التالي ما نصه :

النوع السادس والثلاثون فى معرفة غريبه

أفرده بالتصنيف خلائق لا يحصون منهم أبو عبيدة وأبو عمر الزاهد وابن دريد ، ومن أشهرها كتاب العزيزى فقد أقام فى تأليفه خمس عشرة سنة يحرره هو وشيخه أبو بكر بن الأنبارى ومن أحسنها المفردات للراغب ، ولأبى حيان فى ذلك تأليف مختصر فى كراسين . قال ابن الصلاح وحيث رأيت فى كتب التفسير قال أهل المعانى فالمراد به مصنفو الكتب فى معنى القرآن كالزجاج والفراء والأخفش وابن الأنبارى انتهى. وينبغى الاعتناء به ، فقد أخرج البيهقى من حديث أبى هريرة مرفوعا « أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه » وأخرج مثله عن عمرو بن مسعود موقوفا ، وأخرج من حديث ابن عمر مرفوعا : « من قرأ القرآن فأعربه كان له بكل حرف عشرون حسنة ، ومن قرأه بغير إعراب كان له بكل حرف عشر حسنات » المراد بإعرابه معرفة معانى ألفاظه ، وليس المراد به الإعراب المصطلح عليه عند النحاة وهو ما يقابل اللحن لأن القراءة مع فقده ليست قراءة ولا ثواب فيها ، وعلى الخائض فى ذلك التثبت والرجوع إلى كتب أهل الفن وعدم الخوض بالظن ، فهذه الصحابة وهم العرب العرباء وأصحاب اللغة الفصحى ومن نزل القرآن

---

(١) هذه اللطائف لم يكن لها وجود عند التأليف ولم يفتح الله بها إلا عند طبع هذه السورة ، المؤلف.

عليهم وبلغتهم توقفوا فى ألفاظ لم يعرفوا معناها فلم يقولوا فيها شيئا ، فأخرج أبو عبيدة فى الفضائل عن إبراهيم التيمى أن أبابكر الصديق سئل عن قوله « وفاكهة وأبا » فقال أى سماء تظلنى ، أو أى أرض تقلنى إن أنا قلت فى كتاب الله مالا أعلم ؟ وأخرج عن أنس أن عمر بن الخطاب قرأ على المنبر « وفاكهة وأبا » فقال : هذه الفاكهة قد عرفناها فما الأب ؟ ثم رجع إلى نفسه فقال : إن هذا لهو الكلف يا عمر، وأخرج من طريق مجاهد عن ابن عباس . قال : كنت لا أدرى مافاطر السموات حتى أتانى أعرابيان يختصمان فى بئر فقال أحدهما أنا فطرتها يقول أنا ابتدأتها ، وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير أنه سئل عن قوله « وحنانا من لدنا » فقال سألت عنها ابن عباس فلم يجب فيها شيئا ، وأخرج من طريق عكرمة عن ابن عباس . قال : لاوالله لا أدرى ما حنانا. وأخرج الفريابى : حدثنا إسرائيل حدثنا سماك بن حرب عن عكرمة عن ابن عباس . قال : كل القرآن أعلمه إلا أربعا : غسلين ، وحنانا ، وأواه ، والرقيم. وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة . قال قال ابن عباس : ماكنت أدرى ما قوله « ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق » حتى سمعت قول بنت ذى يزن (تعال أفاتحك) تقول أخاصمك . وأخرج من طريق مجاهد عن ابن عباس قال : ما أدرى ما الغسلين ولكنى أظنه الزقوم .

فصل : معرفة هذا الفن للمفسر ضرورية كما سيأتى فى شروط المفسر

قال فى البرهان : ويحتاج الكاشف عن ذلك إلى معرفة علم اللغة أسماء وأفعالا وحروفا ، فالحروف لقلتها تكلم النحاة على معانيها ، فيؤخذ ذلك من كتبهم ، وأما الأسماء والأفعال فتؤخذ من كتب علم اللغة ، وأكبرها كتاب ابن السيد ، ومنها التهذيب للأزهرى ، والمحكم لابن سيده ، والجامع للقزاز ، والصحاح للجوهرى ، والبارع للفارابى ، ومجمع البحرين للصاغانى . ومن الموضوعات فى الأفعال كتاب ابن القوطية ، وابن الظريف والسرقسطى ، ومن أجمعها كتاب ابن القطاع . قلت : وأولى ما يرجع إليه فى ذلك ما ثبت عن ابن عباس وأصحابه الآخذين عنه ، فإنه ورد عنهم ما يستوعب تفسير غريب القرآن بالأسانيد الثابتة الصحيحة ، وها أنا أسوق هنا ما ورد من ذلك عن ابن عباس من طريق ابن أبى طلحة خاصة فإنها من أصح الطرق عنه وعليها اعتمد البخارى فى صحيحه مرتبا على السور . قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى (ح) وقال ابن جرير حدثنا المثنى قالا حدثنا أبو صالح عبد الله بن صالح حدثنى معاوية بن صالح عن على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله تعالى (يؤمنون) قال يصدقون (يعمهون) يتمادون (مطهرة) من القذر والأذى (الخاشعين) المصدقين بما أنزل الله (وفى ذلكم بلاء) نعمة (وفومها) الحنطة (إلا أمانى) أحاديث (قلوبنا غلف) فى غطاء (ما ننسخ) نبدل (أو ننسها) نتركها فلا نبدلها (مثابة) يثوبون إليه ويرجعون (حنيفا) حاجا (شطره) نحوه (فلا جناح) فلا حرج (خطوات الشيطان) عمله (أهل به لغير الله) ذبح للطواغيت (ابن السبيل) الضيف الذى ينزل بالمسلمين (إن ترك خيرا) مالا (جنفا) إثما (حدود الله) طاعة الله (لا تكون فتنة) شرك (فرض) أحرم (قل العفو) مالا يتبين فى أموالكم (لأعنتكم) لأحرجكم وضيق عليكم (ما لم تمسوهن أو تفرضوا) المس الجماع والفريضة الصداق (فيه سكينة) رحمة (سنة) نعاس (ولا يئوده) يثقل عليه (صفوان) حجر صلد ليس عليه شىء (متوفيك) مميتك (ربيون) جموع (حوبا كبيرا) إثما عظيما (نحلة) مهرا (وابتلوا) اختبروا (آنستم) عرفتم (رشدا) صلاحا (كلالة) من لم يترك والدا ولا ولدا (ولا تعضلوهن) تقهروهن (والمحصنات) كل ذات زوج (طولا) سعة (محصنات غير مسافحات) عفائف غير زوان فى السر والعلانية (ولا متخذات أخدان) أخلاء (فإذا أحصن) تزوجن (العنت) الزنا (موالى) عصبة (قوامون) أمراء (قانتات)

معلومات (والجار ذى القربى)- الذى بينك وبينه قرابة (والجار الجنب)- الذى ليس بينك وبينه قرابة (والصاحب بالجنب) الرفيق (فتيلا) الذى فى الشق الذى فى بطن النواة (الجبت) الشرك (نقيرا) النقطة التى فى ظهر النواة (وأولى الأمر) أهل الفقه والدين (ثبات) عصبا (سرايا) متفرقين (مقيتا) حفيظا (أركسهم) أوقعهم (حصرت) ضاقت (أولى الضرر) العذر مراغما التحول من الأرض إلى الأرض وسعة الرزق (موقوتا) مفروضا (تألمون) توجعون (خلق الله) دين الله (نشوزا) بغضا (كالمعلقة) لاهى أيم ولا هى ذات زوج (وإن تلووا) ألسنتكم بالشهادة (أو تعرضوا) عنها وقولهم « على على مريم بهتانا » رموها بالزنا (أوفوا بالعقود) ما أحل الله وما حرم وما فرض وما حد فى القرآن كله (يجرمنكم) يحملنكم (شنآن) عداوة (البر) ما أمرت به (والتقوى) ما نهيت عنه (المنخنقة) التى تخنق فتموت (والموقوذة) التى تضرب بالخشب فتموت (والمتردية) التى تتردى من الجبل (والنطيحة) الشاة التى تنطحها الشاة (وما أكل السبع) ما أخذ (إلا ما ذكيتم) ذبحتم وبه روح (الأزلام) القداح (غير متجانف) متعد (لإثم) (الجوارح) الكلاب والفهود والصقور وأشباهها (مكلبين) ضوارى (وطعام الذين أوتوا الكتاب) ذبائحهم (فافرق) افصل (ومن يرد الله فتنته) ضلالته (ومهيمنا) أمينا ، القرآن أمين على كل كتاب قبله (شرعة ومنهاجا) سبيلا وسنة (أذلة على المؤمنين) رحماء (مغلولة) يعنون بخيل أمسك ما عنده تعالى الله عن ذلك (بحيرة) هى الناقة إذا أنتجت خمسة أبطن نظروا إلى الخامس فإن كان ذكرا ذبحوه فأكله الرجال دون النساء ، وإن كان أنثى جدعوا أذنها (وأما السائبة) فكانوا يسيبون أنعامهم لآلهتهم لا يركبون لها ظهرا ، ولا يحلبون لها لبنا ، ولا يجزون لها وبرا ، ولا يحملون عليها شيئا . (وأما الوصيلة) فالشاة إذا أنتجت سبعة أبطن نظروا للسابع فإن كان ذكرا أو أنثى وهو ميت اشترك فيه الرجال والنساء ، وإن كان أنثى وذكرا فى بطن استحيوها وقالوا وصلته أخته فحرمته علينا . وأما الحام فالفحل من الإبل إذا ولد لولده قالوا حمى هذا ظهره فلا يحملون عليه شيئا ، ولا يجزون له وبرا ولا يمنعونه من حمى رعى ولا من حوض يشرب منه وإن كان الحوض لغير صاحبه (مدرارا) بعضها يتبع بعضا (وينأون عنه) يتباعدون (فلما نسوا) تركوا (مبلسون) آيسون (يصدفون) يعدلون (يدعون) يعبدون (جرحتم) كسبتم من الإثم (يفرطون) يضيعون (شيعا) أهواء مختلفة (لكل نبأ مستقر) حقيقة (تبسل) تفضح (باسطوا أيديهم) البسط الضرب (فالق الإصباح) ضوء الشمس بالنهار وضوء القمر بالليل (حسبانا) عدد الأيام والشهور والسنين (قنوان دانية) قصار النخل اللاصقة عروقها بالأرض (وخرقوا) تخرصوا (قبلا) معاينة (ميتا فأحييناه) ضالا فهديناه (مكانتكم) ناحيتكم (حجر) حرام (حمولة) الإبل والخيل والبغال والحمير وكل شىء يحمل عليه (وفرشا) الغنم (مسفوحا) مهراقا (ماحملت ظهورهما) ماعلق بها من الشحم (الحوايا) المبعر (إملاق) الفقر (دراستهم) تلاوتهم (صدف) أعرض (مذؤما) ملوما (ريشا) مالا (حثيثا) سريعا (رجس) سخط (صراط) الطريق (افتح) اقض (آسى) أحزن (عفوا) كثروا (ويذرك وآلهتك) يترك عبادتك (الطوفان) المطر (متبر) خسران (أسفا) هو الحزين (إن هى إلا فتنتك) إن هو إلا عذابك (عزروه) حموه ووقروه (ذرأنا) خلقنا (فانبجست) انفجرت (نتقنا الجبل) رفعناه (كأنك حفى عنها) لطيف بها (الطائف) اللمة (لولا اجتبيتها) لولا تلقيتها (بنان) الأطراف (جاءكم الفتح) المدد (فرقانا) المخرج (ليثبتوك) ليوثقوك (يوم الفرقان) يوم بدر فرق الله فيه بين الحق والباطل (فشرد بهم من خلفهم) نكل بهم من بعدهم (من ولايتهم) ميراثهم (يضاهئون) يشبهون (كافة) جميعا (ليواطئوا) يشبهوا (إحدى الحسنيين) فتح أو شهادة (مغارات)

النيران فى الجبل (مدخلا) السرب (أذن) يسمع من كل أحد (واغلظ عليهم) أذهب الرفق عنهم (وصلوات الرسول) استغفاره (سكن لهم) رحمة (ريبة) الشك (إلا أن تقطع قلوبهم) يعني الموت (الأواه) المؤمن التواب (طائفة) عصبة (قدم صدق) لهم السعادة فى الذكر الأول (ولا أدراكم) أعلمكم (ترهقهم) تغشاهم (عاصم) مانع (تفيضون) تعملون (يعزب) يغيب (يثنون) يكنون (يستغشون ثيابهم) يغطون رءوسهم (لا جرم) بلى (أخبتوا) خافوا (فار التنور) نبع (أقلعى) أمسكى (كان لم يغنوا) يعيشوا (حنيذ) نضيج (سىء بهم) ساء ظنا بقومه (وضاق ذرعا) بأضيافه (عصيب) شديد (يهرعون) يسرعون (بقطع) سواد (مسومة) معلمة (أليم) موجع (زفير) صوت شديد (وشهيق) صوت ضعيف (غير مجذوذ) غير منقطع (ولا تركنوا) تذهبوا (شغفها) غلبها (متكأ) مجلسا (أكبرنه) أعظمنه (فاستعصم) امتنع (بعد أمة) حين (تحصنون) تخزنون (يعصرون) الأعناب والدهن (حصحص) تبين (زعيم) كفيل (ضلالك القديم) خطئك (صنوان) مجتمع (هاد) داع (معقبات) الملائكة (يحفظونه من أمر الله) بإذنه (بقدرها) على قدر طاقتها (سوء الدار) العاقبة (طوبى) فرح وقرة عين (ييأس) يعلم (مهطعين) ناظرين (فى الأصفاد) فى وثاق (قطران) النحاس المذاب (يود) يتمنى (مسلمين) موحدين (شيع) أمم (موزون) معلوم (حمأ مسنون) طين رطب (أغويتنى) أضللتنى .

هذا وإذا أردت بقية هذا الموضوع فراجعه فى كتاب الإتقان المذكور تجد جميع الغريب فيه إلى آخره وهو نحو ٧ صفحات فاقرأه هناك إن شئت .

ويتبع ذلك ماورد عن ابن عباس أيضا إذ اكتنفه الناس يسألونه عن تفسير القرآن ، فقال نافع ابن الأزرق لنجدة بن عويمر قم بنا إلى هذا الذى يجترىء على تفسير القرآن بما لاعلم له به ، فقاما إليه ، فقالا إنا نريد أن نسألك عن أشياء من كتاب الله فتفسرها لنا وتأتينا بمصادقته من كلام العرب فإن الله تعالى إنما أنزل القرآن بلسان عربى مبين ؟ فقال ابن عباس : سلانى عما بدا لكما، فقال نافع : أخبرنى عن قول الله تعالى : «عن اليمين وعن الشمال عزين» . قال العزون حلق الرفاق قال وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال نعم أما سمعت عبيد بن الأبرص وهو يقول :

فجاءوا يهرعون إليه حتى يكونوا حول منبره عزينا

قال أخبرنى عن قوله تعالى (وابتغوا إليه الوسيلة) قال الوسيلة الحاجة . قال وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال نعم أما سمعت عنترة وهو يقول :

إن الرجال لهم إليك وسيلة إن يأخذوك تكحلى وتخضبى

وهكذا استمر يسأله وهو يجيب على هذا النمط ، ونحن الآن نجتزىء هنا ببعض الكلمات وشواهدها اختصارا واستبصارا :

الكلمة	الشاهد
(١) (منهاجا) طريقا	(١) لقد نطق المأمون بالصدق والهدى وبين للاسلام دينا ومنهجا ...
(٢) (ينعه) نضجه	(٢) إذا ما مشت وسط النساء تأودت كما اهتز غصن ناعم النبت يانع ...
(٣) (ريشا) مالا	(٣) فرشنى بخير طال ماقد بريتنى وخير الموالى من يريش ولا يبرى ...

الكلمة	الشاهد
(٤) (كبد) اعتدال	(٤) ياعين هلا بكيت أربد إذ ... قمنا وقام الخصوم فى كبد
(٥) (السنا) الضوء	(٥) يدعو إلى الحق لايبغى به بدلا ... يجلو بضوء سناه داجى الظلم
(٩) (حنانا من لدنا) رحمة	(٦) أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا ... حنانيك بعض الشر أهون من بعض
(٧) (أفلم ييأس الذين آمنوا) أفلم يعلم بلغة بنى مالك	(٧) لقد يئس الأقوام أنى أنا ابنه ... وإن كنت عن أرض العشيرة نائيا
(٨) (فأجاءها المخاض) ألجأها	(٨) إذا شددنا شدة صادقة ... فأجأناكم إلى سفح الجبل
(٩) (لاتنيا فى ذكرى) لا تضعفا عن أمرى	(٩) إنى وجدك ماونيت ولم أزل ... أبغى الفكاك له بكل سبيل
(١٠) (القانع والمعتر) فالقانع الذى يقنع بما أعطى ، والمعتر الذى يعترض الأبواب	(١٠) على مكثريهم حق من يعتريهم ... وعند المقلين السماحة والبذل

ولأكتف بهذا فى النظم ، ومن أراد استيفاءه فليقرأه فى كتاب الإتقان . والشواهد تبلغ نحو (١٥٠) شاهدا فلا نطيل بذكرها ، وإلى هنا تم الكلام على المقام الأول .

المقام الثانى

فى الكلام على نفس الأمة العربية

أعلم أيها الذكى أن الأمة العربية بقدر ما ذاقت من العز والاتحاد والسعادة ومانالت من الارتقاء أصابها الذل والانحلال والشقاء والانحدار ، أمة بلغت بعلمها المشرقين والمغربين ، ثم رجعت بعد ذلك بخفى حنين رفعها العلم وخفضها الجهل ، أمة عريقة فى المجد ، رفيعة القدر ، قوية الشكيمة ، هى وحدها التى اختارها الله لارتقاء النوع البشرى ، لذلك خلقها وتحت كلأة ربك ، خلقها فى البادية ، وأنضج عقولها ، وهذب نفوسها تهذيبا نسبيا ، ومرنها على شظف العيش ، والبأس وعزة النفس والقناعة ، أعطاها مثالب مع هذه الفضائل فصار كل أهل بيت وقبيلة يرون أنهم سادات الأمم وعظماء أهل الأرض ، فأورثهم ذلك التخاذل والتطاحن والأضغان والأحقاد ، وما ذلك كله إلا من ازدياد سمو النفس والشهامة وحب العزة وازدياد تلك القوة عن المقدار الوسط والنهج القديم ؛ فأصبح ما كان محمودا تلحقه المذمة ، وبينما هى على هذه الحال إذا جاءهم الرسول صلى الله عليه وسلم ونزل القرآن فجمعهم بعد الفرقة ولم شملهم فنالوا ملكا لم تحلم به الأكاسرة ولا القياصرة ؛ وتضامت تلك القوى المتفرقة المنتشرة فى الصحارى والقفار فصارت قوة واحدة فهزت أم الأرض هزا . وما ذلك إلا لما فهموا (إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون) « وإنه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم » . ثم استبدلوا الكسل بالعمل ، والترف والتنعم بشظف العيش ، والقناعة وفتح البلاد لزوات

النفوس والشهوات، والطمع والجشع وجمع المال الوفير المورث للاستكانة والصغار والذل بالجهاد لإعلاء كلمة الله وإعزاز دينه مع حفظ الدولة وإسعاد الإنسانية كلها بلا تفرقة بين الأمم والشعوب بالمحافظة عليها مع تأدية تلك الأمم ما يجب عليها لهم. فحق عليهم ما ورد فى الصحيح . « إن أخوف ما أخاف عليكم ما يفتح عليكم من زينة الدنيا » الخ وهذا الحديث بنصه فى أول (سورة الأنفال) وهو من صحاح الأحاديث .

ثم إن هذه الأمة بعد أن أدت وظيفتها فى الأرض ونشرت الدين وتفرقت فى أقطارها خمدت ريحها وأصبح الأبناء على نقيض الآباء ونسوا مجدهم القديم وعزهم الشامخ وفضلهم العظيم ، فأبناء العرب اليوم فى شمال أفريقيا مراكش والجزائر وتونس وطرابلس ومصر والسودان واليمن ونجد والحجاز والعسير والعراق والموصل ودير الزور. فكل هؤلاء بلادهم متلاصقة ودينهم واحد وعقولهم متقاربة ولغتهم واحدة.

فياسبحان الله ، أنا لم أر أمة بلغت ما بلغت هذه الأمة فى مجدها أيام رفعتها ، ولم أر أمة سقطت سقوطها أيام ذلها كأن الغنم بالغرم ، وبرد الشتاء على مقدار حرارة الصيف ، وطول الليل فى الشتاء بمقدار قصره فى الصيف . ها أناذا من أبناء العرب ولدت بالبلاد المصرية فى قرية من قرى الشرقية . حفظت القرآن صغيرا ودخلت الأزهر بالغا ، ثم اعترتنى فكرة هيجت بلبالى زمن الشباب ، فأخذت أستغيث وبمن أستغيث ؟ لا استغاثة إلا بمن خلقنى ، فكنت أدعوه وهو سميع الدعاء ، ولكم سألته أن يوقفنى على حقائق هذه الدنيا ونظام الكون وبؤس المسلمين وذلهم وعز غيرهم ، ولماذا أرى الجهالة والنقص فاشيين حتى فى التعاليم الدينية . وأنت أيها الذكى تعرف مما ذكرته كثيرا فى التفسير أن اتصالى بمدرسة دار العلوم ، ونظرى فى كتب الأمم المحيطة بنابه ، وقفت على كثير من أحوال هذا العالم ، وهذه الأمم . ومما اتفق لى حادثة لابد من ذكرها ذلك أنها أشبه بتعريف لمفتاح به تفتح أبواب الخيرات لسائر الأمم العربية .

محاورة بينى وبين المرحوم لطيف باشا سليم

فى أمر ارتقاء العرب فى المستقبل القريب

قد كنت فى أطوار حياتى إلى السكون والخمول والانزواء أقرب لما قرأت ما يأتى :

لقاء الناس ليس يفيد شيئا سوى الهذيان من قيل وقال
فأقلل من لقاء الناس إلا لأخذ العلم أو إصلاح حال

ولكم كنت أقول فى نفسى : « لو أننى عرفت الحقائق وكنت مجهولا فى الناس لا يفكر فى أحد لكان ذلك أقصى أملى » ولكن حب البحث والعلم كانا سببا فى علاقاتى بجميع أمم الإسلام ، ومنهم الطبقة الراقية فى مصر ، ولما أخذت أؤلف الكتب عرضتها على أهل العلم وذوى العقول الراجحة لأستوثق مما أظهر برأيهم ، وكان منهم المرحوم الشيخ محمد عسكر والمرحوم لطيف باشا سليم ، فأما الأول فإنى قابلته فى منزل المرحوم إبراهيم بك أباظة بجوار قريتنا ولم يكن رآنى ولا رأيته من قبل ولكن عرف كل منا الآخر وأنا شاب وهو قد بلغ نحو مائة سنة ، وله قدم صدق فى الحادثة العرابية . وأخذ يسألنى عن تاريخ حياتى العلمية التى عرف مجملها من قبل أن ألقاه فأجبته هنالك قال لى : أنتم أحسن منا : نحن أيام عرابى باشا لم نبن ثورتنا على

أساس ، أما أنتم فبناؤكم على أساس ، لأنكم تريدون أن تجعلوا العلوم التي بها ارتقت أمم الأرض متصلة بالدين وأنتم ناجحون ، وأن ماسمعته منك من حيث إن بعض رجال المعارف يضطهد ذلك : فهذا زادني يقيناً لأن الرجل لا يكون عظيم الشأن حتى يحقد عليه نظراؤه . وسيكون نشر آرائك على أيدي تلاميذك ، والمستقبل لهذه الأمة عظيم ، وأما المرحوم لطيف باشا فهاك مادار بيني وبينه وهو الذي سيقت الكلام لأجله ، لم تكن لي سابقة معرفة بالمرحوم لطيف باشا سليم . وهو كان من أكابر الأمة ومن أكابر الوطنيين ، والذي عرفني به أني نشرت بعض كتبي وأردت أن أعرف آراء أكابر العلماء في مصر ، فأعطيته كتابي (نظام العالم والأمم) فأثنى عليه ، وصارت لي به صلة وثيقة ، وهذه صورة المحادثة التي سيقت الكلام هنا لأجلها :

قال رحمه الله : إن جلد الحمار الميت أرفع شأناً من الأمة المصرية (أقول : وذلك من شدة غيرته على البلاد) . فقلت : ما برهانك ياباشا : فقال : إن جلد الحمار يمكن العلماء بالصناعة وبالكيمياء يلونونه بالحمرة أو بالصفرة الخ وهذه الأمة حل بساحتها الآشوريون والفرس والرومان والفرنسيون والإنجليز ومع ذلك لا تزال نائمة خامدة جامدة ، إذن جلد الحمار أمكن تلوينه والأمة المصرية لم تلون . هذه الأمة جامدة . فقلت : إن لي رداً على ماذكرتموه . فقال : لماذا تقول ؟ فقلت : إن الأمة المصرية أمة عربية لأن الأصل القبطي فيها قليل ، وها نحن أولاء نجد عاداتنا وأخلاقنا وآدابنا كلها عربية ، والأمة العربية بعد ما بلغت الصين شرقاً وجنوب فرنسا غرباً وأزالت ملك فارس والروم أصابها داء الترف ، وأرداها الكسل ، وأنهكها الطمع ، وجند لها الجهل ، وأصابها التخاذل والتنابذ والكبرياء والادخار والاتكال على الأمم المحكومة بهم فسلط الله عليهم من كانوا لهم مسخرين ومستعبدين من الفرس والترك والممالك البرية والبحرية ، وأذلهم الاسبانيون في الجزيرة ، وحل الترك بساحة مصر فأزالوا نخوتها ومظاهر جمالها وكمالها ، وأقفلوا مدارسها وتركوها قاعاً صفصفاً ، ومحوا منها الصناعات والعلوم ، وبقيت البلاد ترتع في معاهد الجهل ، ومراتع الذل ، حتى إذا قيض الله لها المغفور له محمد علي باشا فقد أخذ يعلمها ، ولكن تعليمه لم يكن مصحوباً بحرية ، فبقيت الأمة مقيدة وعمومها جاهل مخنوقة ، حتى إذا جاء المرحوم مصطفى كامل باشا في هذه السنين ونشر في جريدة اللواء مقالات وقرأها الشبان وأنا ملاحظ ذلك انفتحت بصائرهم وعرفوا الحرية في هذه السنوات القلائل . ولقد كنت قبل ظهور جريدة اللواء أشاهد من تلاميذ المدارس احتقاراً لكل ماهو وطني حتى إذا ظهرت جريدة اللواء أحبوا الوطن واستبدلوا حبه بحب الأساتذة الإنجليز ، وكان مدرس اللغة العربية كأنه أمر ثانوي عندهم ، فانقلب الحال وعدوه لهم أباً ، كل ذلك بتأثير جريدة اللواء التي طلعت بهيئة عرفت الشبان ماهي المحافظة على الوطن وعلى الحرية . إن أهل مصر أكثرهم من أصل عربي ، والذي أخرهم وأضناهم هو الجهل الذي غمرهم به الترك مدة مئات السنين ، وما مثلهم في مصر إلا كمثل آبائهم قبل النبوة فإنهم كانوا قوماً جاهلين ، لما كاد صلى الله عليه وسلم يدعوهم إلى الدين ومضت ٢٣ سنة حتى كانوا أهل ملك عظيم ودين كبير هكذا (وإن كان الفرق كبيراً) آباؤهم وهم أهل مصر ومن حولهم من أهل الشام وفلسطين والمغرب والعراق والموصل فمكن هذه الأمم أن يظهر فيهم نابغة كظهور مصطفى باشا كامل حتى يعلموا حقوقهم وينفضوا عن رءوسهم غبار الذل وينهضوا ببلادهم ، ودليلي على ذلك حال التلاميذ بمدارسنا وانقلابها في زمن قليل جداً ، فهذا دلني على أن هذا الشبل من ذاك الأسد . فقال رحمه الله : أنا قلت لك لامانع أن يحصل أمر غير عادي . فقلت : لكن أنا لا أقول ذلك ، بل أقول هو أمر عادي ، فإن المسألة علم وجهل فالعرب متى عرفوا نهضوا ورجع لهم مجدهم . انتهى الحديث .

مصطفى

مصداق هذا الحديث

حديثى مع نجله فؤاد باشا سليم

وبعد سنين قليلة توفى المرحوم لطيف باشا فذهبت إلى منزله بالعباسية لأعزى نجله فؤاد باشا سليم ، فلما رآنى بكى لمله بعودة أبيه لى ، وحكى لى ما يأتى . قال :

« إن مصطفى باشا كامل لما أسس الحزب الوطنى وأصبح هو رئيسه وأنا ناموسه (سكرتيره) ، كان والدى إذ ذاك فى مرض موته ، فدخلت عليه ، وسألنى ماذا فعلتم ؟ فقلت : ها نحن أولاء أسسنا الحزب الوطنى فقال : يا فؤاد اجتمع المصريون ؟ فقلت نعم يا والدى وأنا سكرتير الحزب الوطنى . فقال : لو قالها غيرك لم أصدقه ، أنا أموت وأنا مستريح الضمير إذ رأيت المصريين اجتمعوا فى حياتى » اه .

فقلت له الحمد لله إذ صح ما استنتجه قبلا فى حديثى معه وظهر له صدق فراستى فى أمة العرب والأمة المصرية . أكتب هذا الآن وفى بلادنا الأحزاب الآتية : الوفد . الحزب الوطنى . حزب الاتحاد . حزب الشعب حزب الأحرار الدستوريين . إذن أصبح ما كان فراسة أولا يقينا الآن ، وعليه أقول حقا وصدقا إن الأمة العربية على بكرة أبيها لا ينقصها إلا العلم ؛ والذى قتلها هو الجهل ؛ فهى أمة متروكة مهملة وقد أقبلت أيام سعادتها وها هى ذه أخذت تقوم من رقدتها . وهنا أذكر بعض ما كان لها من المجد فى العلوم الطبية فى الشرق والغرب والآثار العمرانية ، وأخص بالذكر بلاد الأندلس ، وأقفى بذكر ما حاق بها من الذل والهوان فى القرون الأولى بسبب تفرق وحدتها ، ثم أتبعه بنتائج ذلك اليوم فى البلاد الإسلامية ، وأخص بالذكر تونس ومراكش ، ثم أقفى بما ساقه الله من الدلائل على مستقبل باهر للأمة العربية والأمم الإسلامية ، وذلك بذكر مسألة الوطن القومى لليهود فى فلسطين ، وكيف كانت هذه أول أساس أخذ المسلمون يبنون عليه اتحادهم ، فالعرب جميعا اتحدوا مع أهل فلسطين فى ذلك ، ثم إن دفن المجاهد الكبير الولى محمد على الهندى فى فلسطين وتوطيد الودة بين العرب والهنود المسلمين أمر لم يسبق له فى التاريخ نظير ، ثم أبين أن هذه الحوادث ترجع لآيتين إحداهما آية « لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس » فى سورة حم غافر ، والثانية هنا وهى « وإنه لذكر لك ولقومك » وإيضاح للمسيح الدجال هنا والعلم العيسوى ، فهذه سأوضحها فى سبعة فصول : (الفصل الأول) فى أثر الطب العربى فى تطور الطب الفرنسى (الفصل الثانى) فيما قاله الأمير شكيب أرسلان فى رحلته إلى بلاد الأندلس للدلالة على عظمة آثار العرب (الفصل الثالث) فيما جاء له أيضا فى كوكب الشرق من تخالف الأمم العربية قديما وتضافر الأمم عليهم فذهبت دولهم (الفصل الرابع) فى نتائج ذلك التفرق القديم الذى حل بالمسلمين اليوم فى تونس ومراكش (الفصل الخامس) فى حادث الوطن القومى لليهود ، وكيف كان سببا لوضع أساس للاجتماع بعد التفرق (الفصل السادس) فى حادث لم يسبق له نظير من اتحاد العرب والهند بعد ذلك ومن دفن المجاهد الكبير (محمد على) بالقدس وتصريحات أخيه الولى شوكت (الفصل السابع) فى أن هذه الحوادث ترجع لآيتين من كتاب الله تعالى الأولى « لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس » وقد تقدم بيانها فى سورة حم غافر ، وفيها شرح أمر الدجال ، والثانية هنا وهى « وإنه لذكر لك ولقومك » .

الفصل الأول

فيما ذكرت به أمة الإسلام عموما والعرب خصوصا فى علم الطب

وذلك فى مقالين : المقال الأول وهو ماجاء فى مجلة « الجامعة الإسلامية » المقال الثانى وهو ماجاء فى جريدة الأهرام : تحت عنوان « أثر الطب العربى فى تطور الطب الفرنسى » وذلك كله إيضاح لقوله تعالى هنا « وإنه لذكر لك ولقومك » وهاك نصهما

البحث عن تاريخ العلوم

أو

تأثير المدنية العربية الإسلامية فى نهضة الغرب

فى أوربا اليوم حركة عظيمة للبحث عن منشأ العلوم الحاضرة وعن كيفية تطورها وقد كان من أكبر العوامل على هذه الفكرة أحد العلماء الطبيعيين الافرنسيين الكيماوى (مارسلين برتلو) ولهذا العلامة فضل كبير فى جلب أفكار الأوربيين إلى مسألة هامة وهى تاريخ العلوم ، لقد أدرك (برتلو) أنه لابد من دراسة تطور الفكر البشرى فقال لابد أن ندرس كيفية تطور العلوم فى الأزمان المختلفة ، فألف لذلك كتابا سماه تاريخ العلوم ومنذ ذلك الحين عمت فى أوربا فكرة جديدة وهى أنه لايجوز أن ينظر إلى ما فكر فيه السالفون كأنه أساطير الأولين لأن الرقى لا يكون إلا بالتدريج أى كل عصر من العصور مدين للعصر الذى قبله ، ولا يمكننا أن نتصور أمة تنشأ فجأة كما نرى ذلك فى كثير من كلامهم ، ونرى الأوروبيين يهتمون الاهتمام العظيم فى هذا الشان ، وينفقون له كثيرا من القوى المادية والمعنوية ، ففى كل قطر من الأقطار عدة معاهد لهذا الشأن بعضها للبحث عن تاريخ الطب ، وبعضها للبحث عن تاريخ العلوم الطبيعية . أما تاريخ الفلسفة فقد اشتغل فيه كما لا يخفى أناس كثيرون منذ أجيال عديدة ، ولا يمكننا أن نتصور شخصا درس الفلسفة إلا واهتم بتاريخها قبل كل شىء ، ففى ألمانيا اليوم عدة أساتذة وقفوا كل حياتهم لهذا الغرض ، وقد عثروا فى طريقهم على نقط هامة ، وليس غرضهم هنا معرفة المنشأ ولمن الفضل فى نشر العلوم فحسب ، بل يودون أن يعلموا إلى أى جهة تتجه معارفنا (أى معرفة الماضى والحاضر التفكير فى المستقبل) كما اتضح لبعضهم أن العلوم المادية برقى عظيم والمعنوية بانحطاط مستمر فثابروا على إحيائها ، وبذلك قطعوا خطوات واسعة ، وتهتم الحكومات الأوروبية لهذا الشأن اهتماما كثيرا فساعدت علماءها على نشر ما كشفوه من الأمور وعلى عقد مؤتمرات يحضرها العلماء من أقطار مختلفة ليتبادلوا الآراء وليعرفوا صوابهم وخطأهم بالبحث مجتمعين ، وقد عقد فى منتصف شهر أيار الماضى من السنة الحالية مؤتمر بين المللى (كذا) فى باريس حضره علماء من أصقاع مختلفة ، هل تعلم ماذا كان أهم شىء تداوله المؤتمر ؟ وجوب تعلم تاريخ الأمة العربية ، وإن أكبر عثرة واقفة أمام طريقهم هى معرفتهم تاريخ الأمة العربية حق المعرفة ، ومادامت الحالة على هذه لايمكنهم أن يداوموا البحث بصورة جدية . ولقد سمعت هذا من أستاذين كبيرين : الأستاذ سيغريست المتخصص بالطب عند العرب فى ليزيغ ، والأستاذ روسكا رئيس معهد البحث عن تاريخ العلوم الطبيعية فى برلين . وهناك كتب خطية عديدة ولا أظنها إلا بحث بثمن بخس هى اليوم فى مكتبات أمهات مدن أوروبا محفوظة فى أعز موقع لا يسمح لنا

برؤيتها

رؤيتها إلا بكل صعوبة ، تفتخر كل أمة من الأمم بأنها بين خزائن كتبها . ولا يمكننا أن ننالها ولو أنفقنا في سبيل ذلك ما أنفقنا من الأموال الطائلة ، هكذا كانت تلك الكتب القيمة ذليلة بيننا، عزيزة عند من يعرف قيمتها، ولقد أحرز اثنان من بني وطننا وهما السيدان : كامل عياد ومحمد أبو غنيمة، لقب دكتوراه في جامعة برلين ، الأول في الفلسفة ، والثاني في الطب ، لاشتغال الأول في ابن خلدون والثاني بالطبيب العربي الجراح أبي القاسم الزهراوي . فأهمية ابن خلدون كما قال عنه كبار الغرب إنه أول من وضع التاريخ ضمن علم، وجاء بنقد التاريخ ، وتتبع الحوادث التاريخية ليحصل الإنسان على نتائج لابد منها لمعرفة الشعوب ومزاياها وتطورها وحسناتها وسيئاتها، أما أبو القاسم فقد ذكر عنه الدكتور أبو غنيمة بأنه سلك طريقا في التداوي بالكي يشبه تمام الشبه الجراح الشهير الأستاذ المستشار (بير) وقد ذكر قاموس المحيط الألماني عن أبي القاسم هذه الكلمات :

« ولد أبو القاسم في الزهراء من مدينة قرطبة وتوفي سنة ١١٠٦ — ١١٠٧ ج وقد كان شهيرا في الجراحة ، وأهميته لا تزال حتى هذا اليوم في التاريخ ، وله كتاب في الطب الذي ألفه وترجم إلى اللاتينية للمرة الأولى من غريم سنة ١٥٣٢ م » .

أما القسم التشريحي وهو نحو ماورث من الطب العربي ، فقد ترجمه إلى اللاتيني في أكسفورد سنة ١٧٧٨ العالم الإنكليزي شانينغ . فنجد أهمية البحث عن تاريخ العلوم هنا وكيف كانت تدرس العلوم من منابع عربية ؛ وقال السيد الدكتور محمد شرف في المقدمة من معجمه الإنكليزي العربي ما نصه : « بقيت جامعات أوروبا أكثر من خمسة قرون تعتمد في مادتها العلمية على الكتب العربية ، وفي نهاية القرن الخامس عشر كانت الكتب العربية المستعملة في جامعة توبنجين أضعاف الكتب اليونانية ، وكانت مؤلفات الرازي وابن سينا أساس التعليم الطبي في (جامعة لوفان) في القرن السابع عشر ، واستمرت مؤلفات ابن سينا تدرس في جامعة الطب الكبرى في (مونبيليه) حتى القرن الثامن عشر » .

ولقد ألقى الأستاذ المتخصص في تاريخ الطب (سيغريست) محاضرة في الحفلة التي أقيمت على مضي ألف سنة على الطب العربي في المعهد الطبي الألماني التابع لجامعة برلين هذه خلاصتها : « نحن مدينون للعرب بجزيل الشكر لهذه المدنية الزاهرة التي نتنعم بها . أهمية المدنية العربية كبيرة لأننا إذا وصلنا إلى آخر حلقة من حلقاتها نجدها متصلة بنا . فإذا أخذنا مثلا اكتشاف ميزان الحرارة من قبل (غاليلة) نجد كتب طب ابن سينا الأساس الذي مشى عليه في ذلك العهد ، عندنا اليوم كثير من التعابير اليونانية لايمكننا فهمها إلا إذا ترجمناها للعربي ، تاريخ الأمة العربية قبل الإسلام لا يهمنا كثيرا حيث لا صلة له بنا ، ولكن الذي يهمنا منذ نشأة محمد صلى الله عليه وسلم ذلك الرجل الذي عرف توحيد القبائل وغرس الفضيلة في قلوب الناس . وما مضى على ظهور هذا الرجل قرن واحد إلا رأينا مدنية زاهرة وحكومة عظيمة عادلة، فنجد أولاد الصحراء القاحلة يفتحون العالم وينشرون العلوم والفنون في أرجائه المختلفة » .

وقد ازدهرت العلوم في عهد العباسيين وترجموا كثيرا من آثار اليونان وقد كانوا مترجمين فأصبحوا محاكة وإنا نعجب حتى يومنا هذا كل العجب بتلك القابلية العظيمة التي كانت عندهم ، فنجد شخصا واحدا تجتمع فيه ميول عديدة مثل الفخر الرازي الذي ألف ألف مجلد، وكان رئيس مستشفى وفيلسوفا وموسيقيا ومن محبي الفنون الجميلة ، ولا زال العجب يأخذ منا من ابن سينا الذي أراد أن يستخرج قانون الطب على حسب المنطق فنجده سياسيا دينيا حقوقيا طبيبا منطقيا ، ومن يذهب اليوم إلى قرطبة يرى غابة من المرمر الجميل، ويرى الآثار التي تنبئ عن وجود (٥٠) مستشفى، ويرى المكتبة التي تحتوي على (٤٠٠) ألف مجلد

ويرى الجامع القديم هناك يدرك ولا شك أهمية تلك المدينة ، ثم إذا مر بعد ذلك على قصر الزهراء يكون في القصر الذي ولد فيه الطبيب العربي الجراح (أبو القاسم) .

ولقد كان لظهور هذا العالم أهمية عظيمة في الجراحة حيث كانت العرب قبله تخاف من الموسى . وأهميته على قسمين : نظرية وعملية . أما الأولى ففي تغير أفكار الناس من وجهة الجراحة والنظر للمريض بعين الشفقة. أما العملية فهي ترقى أسباب الطب الجراحي إلى أن صار بالصورة التي نراها اليوم .

الآن لقد انعكس الأمر (مخاطبا طلبة العرب) فنحن يجب أن نؤدى ماعلينا نحوكم من الواجب . وهذه العلوم التي ترونها اليوم عندنا قد ورثناها عن أجدادكم ، عندكم واجب كبير ولكم مجد عريق وسلف صالح ، يجب عليكم أن تفهموا تاريخكم ومدنيتكم ، وكم من الكنوز العربية الثمينة أصبحت اليوم مدفونة للاهمال ، ومؤتمر العلوم في باريس أفهمنا جهلنا بتاريخ العرب ، وقدساعدونا على درس تاريخكم وحضارتكم

وعليكم واجب ثان ياطلاب العرب ، الشرق اليوم يتحين النهضة وأنتم ستنقلون المدنية وتعلمون الناس كما فعل ذلك حنين بن إسحاق وستكونون بادئ ذي بدء مترجمين فتصبحون بحاثة . ولا يبعد أن يكون بينتا رجل يحتفل فيه أيضا بعد ألف سنة كما نحتفل اليوم في هذا المكان بأبي القاسم . ولقد قال المستشار الأستاذ (هيس) مدير جامعة برلين هذه الكلمات : (نحن نهتم بتاريخ الطب العربي لأمور ثلاثة :

(أولا) الجد والاجتهاد الذي لايعرف الملل الذي كان عندهم .

(ثانيا) حب الاطلاع وأداء الواجب المجرد عن أي شخصية .

(ثالثا) تحمسهم للمعرفة وشرف الصنعة عندهم .

فلذلك لاعجب أن نرى ممن اجتمعت فيهم هذه الصفات أن يكونوا من أحسن البحاثة :

ليتنا قدرنا هذه الحقيقة كما يقدرها الأوروبي الذي لايريد من ذلك إلاأن يزيد مداركه ومعارفه ليتقدم إلى الأمام ، وقد بحثوا أيضا في العلوم الطبيعية التي كانت عند العرب مباحث كافية، ونشروا كذلك كتبا عديدة كمصنفات في الكيمياء لجابر بن حيان، نشره هو لمبارد الانكليزي وطبع في باريس، ولقدأطلعت على هذا الكتاب فوجدت نظريات جمة في العلوم الطبيعية الموجودة في ذلك الزمن وبين الآراء الطبيعية اليوم . وأكبر فضل وجدته في جابر هو تقديره للعمل والتجربة إذ يقول: (وملاك كمال هذه الصنعة العمل والتجربة فمن لم يعمل ولم يجرب لم يظفر بشيء أبدا .

ثم قوله أيضا : كل شيء طبيعي فاعتمد عليه . ويوجد أيضا كثير من التعقيدات التي وضعها قصدا لكي لايبوح بسر الصنعة .

ونشر أيضا في فن المستعدنات تأليف (التيفاشي) طبع في روما . وكتاب الأحجار لأرسطاطاليس ترجمة (لوقابن اسرافيون جمة) وترجمه إلى الألمانية الأستاذ (روسكا) . وقد قال في مقدمة الكتاب الكلمات الآتية : (ليست الأسفار اليدوية ولا الأدب الذي جاء بعد الإسلام هو الذي رفع اسم العرب في الغرب فقط إذا أردنا أن نعرف تأثير المدنية الإسلامية في المسيحية الغربية فلنتفكر في الرياضيات والفلك والكيمياء والطب كيف كان علماء الاسلام يشتغلون بها بعد أن فقدت علوم اليونان إلى يومنا هذا فيها نرى الأسماء الفنية، المشتقة من العربي وكيف كانت العلوم زاهرة تحت راية الإسلام وكيف تعلق الغرب المسيحي بالشرق الإسلامي، هكذا يشتغل الأوروبيون في البحث والتنقيب عن تاريخنا ومدنيتنا وينشرون بذلك كتبا قيمة يقيمون حفلات عظيمة لكل عالم خدم البشرية خدمة صادقة ، ونحن ننظر إليهم كأساطير الأولين ، أيطربنا هذا الإهمال؟ أيطربنا تفرقنا شيعا وأحزابا بين قديم وحديث ، ونحن اليوم بأشد الحاجة أن نمد يد الإخاء إلى بعضنا للجد والاجتهاد؟!

وقد قال لي أحد الإخوان أثناء احتفال ألف سنة على الطب العربي ، وفي نفس الوقت تقيم

مأعما على خروج المدنية من أيدينا ، ولا ينفعنا الحزن واليأس بل السعى والجد ، النوم كان طويلا فكل شىء أمامنا صعب جدا ؛ وكلما تقاعسنا عن العمل ازدادت الصعوبة ، هكذا كان أجدادنا فى غابر الأزمان واليوم فقدنا كل شىء من أثر الأجداد ، ولم يبق لنا غير ذكريات الماضى نسمعها من العلماء الغربيين .

إن كنا حقا نحب ذلك السلف الصالح رحمهم الله فلنسترجع مجد الخلف لتعيد لنا ذلك الشرف فإنا بهم مقتدون ، وإنا على آثارهم لمهتدون .

برلين　　　　　　　　　　　　محمد يحيى الهاشمى

***

ومما يناسب ذلك أيضا ما جاء فى جريدة الأهرام يوم ١٥ مايو سنة ١٩٣٠ تحت العنوان التالى وهذا نصه :

أثر الطب العربى

ألقى الدكتور البارع يوسف أفندى حريز الحائز لشهادة الامتياز من كلية باريز محاضرة فى نادى مدرسة الطب عن أثر الطب العربى فى تطور علم الطب فى فرنسا ؛ ولأهمية هذا الموضوع رأينا نشر خلاصة تلك المحاضرة القيمة . قال المحاضر :

« من المتعارف أن الإغريق كانوا منذ ألفى عام حملة الطب القديم ، أكان ذلك بعض ما خلفه الإسكندر الأكبر عقيب غاراته المشهورة على الشرق ، أم أن هنالك بقايا معلومات طبية يونانية الينبوع ، قد يكون الصواب بين هذين . على أن العرب لم يتصل بهم فن الشفاء إلا بعد قيام الدولة الأموية ، ولئن كان العهد الجاهلى فيه بعض من مارس الطبابة إلا أن خالد بن يزيد بن معاوية كان أول من نقل العلوم الطبية والنجوم والكيمياء إلى العربية ، وكذلك فعل جابر بن حيان . على أن الحركة العلمية التى بدئ بها فى صدر الدولة الأموية لم يتح لها أن تبلغ شأوا بعيدا إلا فى صدر الدولة العباسية ، وعلى الأخص فى عهد المأمون سابع الخلفاء العباسيين الذى حمل رأسه أرفع عمامة فى الشرق والإسلام . ولما انتهت هذه البذور الجديدة إلى ذلك المستنبت العربى العجيب ظهرت قرائح طبية من الطراز الأول فى القرن العاشر للميلاد أعد منها الرازى أبا بكر محمد بن زكريا فى آسيا وابن الجزار فى أفريقيا بالقيروان وأبا القاسم عباس بن خلف الزهراوى فى الأندلس . أما الرازى فقد ترجمت مؤلفاته إلى اللاتينية فى الجيل الثانى عشر للميلاد وكانت عمدة التدريس فى أوروبا جميعها وعلى الخصوص فى مدرستى مونبليه وباريس بفرنسا كما تشير إليه بكل تفصيل أطروحتى فى جامعة باريس الموسومة « حظ الطب العربى فى تطور الطب الإفرنسى » .

وللرازى مؤلفات عديدة أوصلها كتاب « عيون الأنباء » إلى المئة ، ومما يدهش فيها تعدد مواضيعها وبحوثها ، فقد كتب الرجل فى الفلك ، وقال بدورة الأرض ، وكتب فى الطب والتفسير والكيمياء والإلهيات إلى آخر ما هنالك من شتى المذاهب والأبحاث . وبمناسبة عيده الألفى ألقيت عنه محاضرة فى المجمع العلمى فى دمشق الشام فى شهر أكتوبر المنصرم ، وله بيتان مشهوران من الشعر لا بأس من إيرادهما قالهما حين حضرته الوفاة بعد أن عمر مئة من الأعوام وتزيد :

لعمري لا أدرى وقد أذن البلى — بعاجل ترحالى إلى أين ترحالى
وأين مقر الروح بعد خروجه — من الهيكل المنحل والجسد البالى

ومنه يستدل على شكه الطبى . وأما ابن الجزار فهو تلميذ سليمان الإسرائيلى ومن أكبر مؤلفى العرب فى الجيل العاشر الميلاد . وضع فى القيروان كتابه الموسوم بزاد المسافر ونقله إلى اللاتينية فى الجيل الحادى عشر (لاون) الإفريقى كبير النقلة من العربية إلى اللاتينية فى الجيل الحادى عشر كما كان جيرار الكرمانى كبيرهم فى الجيل الذى يليه، وفى ابن الجزار وكتابه [زاد المسافر] يقول كشاجم :

أبا خالد أبقيت حيا وميتا — مكارم ذاعت فى البلاد عظاما
رأيت على زاد المسافر عندنا — من الناظرين العارفين زحاما
سأذكر أفعالا لأحمد لم تزل — مواقعها عند الكرام كراما

وأما أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوى، فقد كان بلا شك جراح عصره وأستاذ القرون الوسطى فى ذلك الفن ، ولقد نشرت له مجلة [المعهد الطبى] بدمشق الشام منذ عامين رسوم أدوات جراحية وجدت فى إحدى منسوخات كتبه وكلها تشير إشارة لا تقبل الاعتراض إلى معارفه التشريحية وطول باعه فى هذه الصناعة .

الجيل الحادى عشر

كان من أكبر كواكبه الشيخ الرئيس ابن سينا ، وقد كان اهتمام أوروبا به بالغا حد الإعجاز فقد نقلت إلى اللاتينية وشرحت كتبه وذيلت ما يقارب الأربعين من المرات . على أن أكبر مؤلفاته الطبية وهو القانون موجود اليوم بالعربية فى قاعة المطبوعات فى المكتبة الأهلية بباريس وهو طبع روما ، ويرجع تاريخ طبعه إلى الجيل السادس عشر أى فى أوائل عهد الطباعة كما هو معلوم ، ولابن سينا فى قاعة المطبوعات بباريس كثير من كتبه أذكر منها كتابا لبقراط فى الطب العام ، وقد كتب على الصفحة الأولى منه : (هذا الكتاب ملك أبى الحسين على بن سينا المتطبب) .

وعلى الجدار الأمامى لبهو الكبير فى كلية الطب بباريس رسم أطباء الإنسانية من عهد أبى الطب بقراط إلى يومنا ومن جملتهم الرازى وابن سينا والزهراوى .

الجيل الثانى عشر

وانتقل مصباح العلم من الشرق إلى الغرب وكان بنو زهر على رأس الحركة الطبية لذلك العهد وحفيدهم أبو العلاء، وهو أشدهم صداقة متينة وصلة بابن رشد فيلسوف الأندلس وطبيبها ، وبينما كان ابن زهر يظهر عدم اكتراث بمؤلفات الرئيس ابن سينا كان ابن رشد يشرح أرجوزة الرئيس ، وكتب هؤلاء المؤلفين الكبار نقلت إلى اللاتينية فى القرن الثالث عشر والرابع عشر وكانت موضوع التدريس فى أوروبا جميعها مئات من الأعوام أما ابن رشد فقد ظل لمذهبه الفلسفى أثر جديد ، وآخر من اهتم به الفيلسوف الكاتب (أرنست رينان) فقيد فرنسا ، ولما كان الرازى أول من وصف الجدرى وكتب فى أمراض الأطفال وفى واجبات الطبيب ، كان ابن زهر أول من تكلم عن الشعور فى العظام ، ووصف عالم الجرب ودعاه بالصواب ، وأسهب فى وصف السكر والوشاء ، وكذلك كان الزهراوى أول من أشار بالكى واستعمل حجر جهنم إلى آخر ما هنالك من ضروب العلاج .

وأختم

وأختم كلمتي هذه بأن أرى من طلاب المدارس الطبية في الشرق أمثال الأعلام من سبق ذكرهم ليعيد للشرق رونقه النابر ونسير مع أبناء العصور في سبيل رفاهية الإنسانية ، وما على المجد أمر عسير . وإلى هنا تم الكلام على الفصل الأول والحمد لله رب العالمين .

الفصل الثاني

في بعض أسرار قوله تعالى « وسوف تسألون » وأن هذه الأمة عوقبت في الحياة الدنيا فضلا عما تعاقب به في الآخرة وذلك في ثلاث مقالات ، وهاك نصها

المقالة الأولى

جاء في جريدة « المؤيد » بتاريخ يوم الأربعاء ٣ ربيع الثاني سنة ١٣٤٩ هجرية تحت عنوان « الرحلة إلى الأندلس » وفي مدريد وطليطلة للأمير شكيب أرسلان ما نصه :

وصلت أمس إلى مدريد آتيا من سرقسطة التي كان العرب يسمونها بالثغر الأعلى كما يسمون طليطلة بالثغر الأدنى ، وقد استغرقت معنا الطريق من سرقسطة إلى مدريد نحوا من ست ساعات بالسكة بالسير السريع مررنا فيها على قرى ومدن معروفة من زمان العرب مثل قلعة أيوب والحمة وغيرهما ، والحمة حمام سخن كما يفهم من اسمها ، وجميع هذه القرى والمدن الصغار التي شاهدناها في أثناء اجتيازنا إلى مدريد مبنية على أنهر وجداول ومحاطة بالجنان والبساتين وهيئتها شامية في تربتها وأشجارها وزروعها حتى في جبالها ووهادها فلا عجب أن رغب أهل الشام أكثر من كل العرب في سكنى الأندلس ، فإنهم ماانتقلوا من شام إلا إلى شام ومن لم يشاهد أسبانيا لم يعلم سبب الجاذبية التي بينها وبين سورية ولكن متى شاهد هذه الديار فهم السبب فالأندلس في الحقيقة قطعة شرقية في الغرب ، أو قطعة غربية من الشرق ، ولقد ذكرت لقراء رسائلي أني سأخرج إن شاء الله كتابا مستقلا عن رحلتي إلى الأندلس ، فلا ينتظر القراء مني هنا إلا إشارات بسيطة ولمحات دالة ، وقد كان يخفق فؤادي طول هذه الطريق من مشاهدة المآذن التي كنا نراها في كل قرية من القرى التي كانت السكة تشقها أو تمر حذاءها ، فهي باقية على حالها بطرزها المعماري العربي وشراريفها وطاقاتها ومخارمها وكلها مربعة الشكل على نمط مآذن المغرب وما تغير فيها إلا وضع الأجراس في أعلاها وتحويل المساجد إلى كنائس في أدناها ، وجميع البشر يريدون الله ، وكثيرا ما كنا نرى منارتين أو أكثر حول مسجد واحد مما يدل على أن المساجد كانت لعهد العرب أوسع مما هي الآن وهي كنائس وأن القرى التي هي اليوم قرى متوسطة الحال كانت في دور الإسلام قصبات كبارا وأن القصاب التي لا ترتفع اليوم إلى درجات مدن كانت مدائن حافلة فإن المساجد التي تبنى من فوقها منارتان وثلاث وأربع لا تكون إلا في المدن الزاخرة العمران ، وقد صادف وجودي في القطار بعض نبهاء من الفرنسيس لحظوا هم أيضا مالحظته أنا .

أما مدريد فهي عاصمة من أجمل العواصم الغربية لاينقصها شيء عن عواصم الممالك الأخرى من سعة شوارع ، ونظافة أزقة ، وضخامة شأن ، وفخامة بنيان ، وعظمة ساحات ، وتراخي مساحات ، والتفاف أدواح جنائن ، ونضارة أزهار وحدائق ، وانتظام شامل كل معاني المدنية مع مزية فيها هي ارتفاع الصقع وإشراف يشعر معه الغريب بانشراح الصدر .

ليس لمدريد ما ينقصها إلا حداثة تاريخها إن كان هذا يعد نقصا ؛ فإنها ليست كبرشلونة التي يرجع تاريخها إلى دور الفينيقيين الذين لم يجبوها إلا لشبه سواحل هذه البلاد بسواحل سورية ، ولا كسر قسطة التي كانت كرسيا لمملكة أراغون بعد أن أخذها الاسبانيون من بني هود الجذاميين ، وقد كان لها دور مجيد في زمن الرومان واشتق اسمها سرقسطة من (سيزرا وغسطا) أى القيصر أوغسطس الذى كان له مزيد العناية بها . ولم تكن مدريد كطليطلة عاصمة القوط يوم دخل العرب الأندلس ، ولا كقرطبة كرسى الخلافة الأموية لعهد اكتمال عظمتها فى الغرب واشتمالها على الممالك من جنوبى فرنسا إلى السودان . ومن البحر المحيط إلى طرابلس الغرب . كلا . فمدريد كانت فى أيام العرب قرية غير ذات شأن بنى العرب فيها حصنا فى وجه بوار قشتالة اسمه مجريط وذلك فى القرن العاشر .

ثم لما أخذ الاسبانيول يسترجعون البلاد مستفيدين من قتال العرب بعضهم لبعض (هذا المرض العربى الذى كان ولا يبرح رأس كل بلاء هذه الأمه) استرجع الأذفونش السادس ملك قشتالة حصن مجريط بعد نحو ١٥٠ سنة من بناء العرب إياه ، والقصر الملوكى الحالى مبنى فى محل جامع كان مسجدا لقرية مجريط التى تحول اسمها إلى مدريد لقرب مخرج الجيم من الدال وقرب مخرج الدال من التاء أو الطاء ، ولكن الذى جعل مدريد مدريد هو فيليب الثانى ابن شرلكان ، وإنما اختارها برغم قحولة باديتها وجدب ضاحيتها لأجل توسطها من بلاد اسبانيا ، فسرقسطة ضاربة إلى الشمال الشرقى وبرشلونة مرسى واقع فى طرف قرطبة مائلة إلى الجنوب وإشبيلية ممعنة فى التغرب وهلم جرا ؛ فبهذا عمرت مدريد وهى أحدث أسبانية تاريخا وارتفعت وانخفض ما كان مرتفعا قبلها والله يرث الأرض ومن عليها .

ثالث يوم وصولى إلى مجريط أو مدريد قصدت إلى طليطلة التى لا تبعد عنها بسكة الحديد أكثر من ساعة ونصف فزرت تلك المدينة الشهيرة عاصمة الأندلس يوم فتحها العرب ، وشاهدت كل مايشاهده السائح فيها وبقيت بطليطلة نحو ثمانى ساعات أبحث عن آثار العرب وأحدق فى هذا القصر وهذا الجسر وتلك المنارة وهاتيك المأذنة وأقبل ذا الجدار وأمسح بذلك الركن حتى شفيت غليلى من طليطلة ، فقد كان فى نفسى منها ما كان فى نفس القراء حتى كنت منذ عهد الحداثة أحفظ قول القائل :

زادت طليطلة على ما حدثوا بلدة عليه نضرة ونعيم

الله زينه فوشح خصره نهر المجرة والغصون نجوم

فرأيتها كما قيل بلدة عالية مشرفة على نهر كبير هو نهر (تاجه) الذى ينتهى إلى البحر المحيط عند أشبونة (لزبون) وقد انخفض النهر المذكور عن طليطلة وأحاط بها من الجهات الثلاث فهى لا تساوى البر إلا من جهتها الشمالية ، وعلى النهر بساتين وأشجار ، وفى ضفافه غياض وجنان ، ومنظر هذا النهر وما يليه من بسائط طليطلة من أبدع المناظر التى سرحت فيها طرفى على رأى الكتاب ، وكذلك حصانتها ظاهرة للعيان وقد قلت لما دخلتها : إنه لا يمكن أن تؤخذ إلا بجوع أو بخيانة ، ولا سيما فى الأعصر التى أخذت فيها ، وكنت أعلم من تاريخ الأندلس أن بنى ذى النون أساءوا التصرف فيها حتى آل الأمر إلى استرداد الاسبانيون إياها قبل جميع حواضر الأندلس حاشا برشلونة، فلما رجعت إلى مدريد راجعت التواريخ بالتدقيق ، فأيدت المراجعة حدسى (وقررت ما جال فى نفسى) وتحرر الخبر أن القادر بن ذى النون كان ضعيف التدبير فائل الرأى فطمع فيه جيرانه من أمراء المسلمين وطفقوا يعتدون عليه ويتجاوزون ، فذهب إلى الفونس السادس ملك قسطيلية أو على حسب قول العرب الأذفنش طاغية قشتالة وطلب حمايته ، وجاء الأذفنش بجيش ومعه القادر بن ذى النون ليفتح له بلدته التى كانت هى أيضا تمردت عليه ووعده الأذفنش بأنه يفتحها ويقره فيها ، فلما دخلها بسبب تفرق كلمة أهلها قلب له ظهر المجن وأقطعه بلادا أخرى ، واستولى الأذفنش على طليطلة وأخذها الحاضرة للملك كما كانت يوم دخل العرب الأندلس .

وكم في العالم الإسلامي من أمثال المعتز بن ذي النون قديماً وحديثاً ينخدعون بأقا ويل الأعداء ويستلون إليهم ويثقون بجهودهم حتى إذا ماتمكن هؤلاء بواسطتهم من مرادهم قلبوا لهم ظهر المجن وأرسلوهم يقرعون سن الندم على ثقتهم بهم ولكن حين لاينفع قرع السن على حسن الظن ؛ فكان استرداد الإسبانيول لطليطلة مبدأ مصيبة الأندلس لأنه بأخذها أخذ الاذفنش إقليماً طويلاً عريضاً فيه ثمانون منبراً ، ودخل في وسط بلاد الإسلام منها ، فحال بين قرطبة وغرناطة من الغرب ، وسرقسطة ولاردة وقلعة أيوب من الشرق حتى قال الشاعر :

الثوب ينسل من أطرافه وأرى   ثوب الجزيرة منسولا من الوسط

وإلى هنا تمت المقالة الأولى .

المقالة الثانية

ثم إنه لما استوثق لصاحب قشتالة أمر طليطلة وتمكن بها طمع في قرطبة وما زال حتى أخذها ، ثم في أشبيلية ومازال حتى أخذها ، وانهار بعد ذلك ملك الإسلام بالأندلس : ولولا نجدة المرابطين ثم للموحدين من أفريقية لسقطت الأندلس قبل أن سقطت بنحو (٣٥٠ سنة) فأبناء تاشفين ثم من بعدهم أبناء عبد المؤمن هم الذين شاء الله أن ينسأوا أجل الإسلام في أسبانيا تلك المدة ، وأما السبب في ملك ابن ذي النون لطليطلة وجلبة الأذفنش إليها فهو انصداع الخلافة في قرطبة وتشظي عصاها بتوالي الفتن . حتى إنه لما رأى أمراء الأطراف أن أمر الخلافة لم يعد جميعاً استقل كل أمير منهم بما بيده ، فابن ذي النون بطليطلة وابن هود بسرقسطة ، وابن عباد بأشبيلية ، وابن صمادح بالمرية ، وابن الأفطس ببطليوس وهلم جرا .

وهؤلاء هم الذين يقال لهم ملوك الطوائف ، لم يكن لهم شغل إلا مقاتلة بعضهم بعضاً بينما العدو يلتهم منهم جميعاً كل يوم قطراً وهم مع ذلك عن غيهم لاينتهون .

ولذلك ولشدة ماعانى مسلمو الأندلس من ملوك الطوائف عندما نصرهم يوسف بن تاشفين رحمه الله في وقعة الزلاقة وأراد القفول إلى أفريقية فزع إليه الفقهاء وقالوا : إنك بمجرد ماترجع يرجع هؤلاء إلى الظلم والعسف ومقاتلة بعضهم بعضاً واستنجاد الطاغية على المسلمين فنرجو منك أن تريحنا منهم وتقوم بما أخذه الله عليك وهكذا أقنعوه بأن يبسط يده على الأندلس كلها ويقضي على ملوك الطوائف ، وجاءت الفتاوى بمثل ذلك إلى ابن تاشفين من الشرق حتى قيل إن الإمام الغزالي أفتاه بالاستيلاء على الأندلس لإزالة لمعرة ملوك الطوائف ، وليس لي أدنى اعتراض على مافعل ولو كان ابن عباد صاحب أشبيلية لخمياً وكنا نحن ننتمي إلى أرومة واحدة وكان ابن هود الجذامي جداً لصديق خالد بك القرقني من عيون أعيان طرابلس الغرب ، وهذا عدا أن لخماً وجذاماً كانتا قبيلة واحدة تقريباً .

وقصارى ماأعترض أنا فيه على يوسف بن تاشفين في تحيه المعتمد إلى أغمات التقصير معه في أمر معيشته فقد كان يمكنه أن يرفه عيشه ، أو يسد خلته ولو كان منفياً

ولم تنجم دويلات الطوائف هذه إلا بسبب سقوط الخلافة في قرطبة ، ولما كان حبل الخلافة مستحصفاً كانت الوحدة تامة ، وكان الإسلام مهيباً ، وكان المسلمون في أسبانيا نحو ١٥ مليونا ، وكانت قرطبة وحدها ذات مليون ومائتي ألف نسمة ، وكان وكان .

فلما انتكث حبل الخلافة ، وانصدعت الوحدة ساءت الحال ، وتفرق الناس وزالت الهيبة ، وذلت العرب ، وبعد أن كان الناس لهم خولا صاروا هم خولا للناس

هذه هي الخلافة التي يقول بعض الناس اليوم إنها لم تفد الإسلام بشيء ، بل يقولون إنها كانت وبالا على المسلمين ، وما كان وبالا على المسلمين إلا ابتلاؤهم بالشقاق والتقاطع ، ولاسيما العرب الذين هم كما قال النعمان ابن المنذر لكسرى : «تراهم كلهم ملوكا» .
وكل أمة يريد جميع أفرادها أن يكونوا ملوكا ينتهي أمرها بأن يملك أمرها الأجانب ولا يبقى لها ملوك.
وأعود إلى طليطلة فأقول : عند ما كنت أقرأ :

طليطلة أدال الله منها سواها إن ذا نبأ كبير
فليس نظيرها إيوان كسرى ولا منها الخورنق والسدير

كنت أقول : ماذا عساها أن تكون هذه التي لا يحاكيها إيوان كسرى ولا ترتفع إلى مستواها الخورنق والسدير ؟ فلما رأيتها وجدت من حصانة موقعها ، ومنعة أسوارها القديمة المبنية طبقا على طبق ما أكد لي قول هذا الشاعر وعلمت أن سقوط طليطلة هو بالفعل نبأ كبير ، لأن العرب لما أخذوا طليطلة ملكوا جميع ديار الأندلس ، ولأن صاحب قشتالة لما دخل طليطلة بدأ الإنهيار في جدار العرب، ثم لما تذكرت قوله :

جوامعها كنائس أي قلب على هذا يقر ولا يطير

لاحظت أن ناظم هذه القصيدة إنما نظمها ثاني سنة فتح الأذفونش لها لأنه بحسب شروط تسليم طليطلة له كان تقرر بقاء المسجد الجامع للمسلمين ووعد الأذفونش بمراعاة حقوقهم وأحسن معاملتهم في البداية ووزع مائة ألف دينار على ضعفائهم حتى يعملوا ويحرثوا ، وهذا كله حتى يخدر أعصابهم ويغري غيرهم بالاستسلام ، وقد أفلح في سياسته هذه ، وخدع منهم خلقا كثيرا ، ولكنه بعد ذلك نقض كل عهد عاهد به وأعاد للمسجد الجامع وغيره كنائس وشاهدت تلك الكنيسة العظيمة وهي مبنية بمكان المسجد ولم يبق من المسجد الأصلي إلا قسم قليل .

والبيوت في طليطلة لم يبق منها إلا قليل من القديم ، ولكن صفة البلدة في ضيق شوارعها ودخول بعضها في بعض لا تزال كما كانت كأنما العرب لم يخرجوا منها إلا من خمسين سنة ، وقد بقيت اللغة العربية لغة أهل طليطلة حتى بعد رجوعها للاسبانيول نحو خمسمائة سنة يتكلم ، ويكتب بها المسلمون والمسيحيون معا ؛ ثم خلت طليطلة من المسلمين ، فبقى المسيحيون وحدهم ، وكذلك بقي اليهود ، ولبثت لغتهم هي العربية ، وبقي طرز بنائهم ، وأسلوب معيشتهم غربيين ، واستمر ذلك إلى سنة ١٥٨٠ مع أن ارتجاع الاسبانيول إياها كان سنة ١٠٨٥ .

وكان لنصارى طليطلة طقوس دينية خاصة بهم يقال إنهم أخذوها عن القوط القدماء ، وليست بالتمام مطابقة للطقس اللاتيني ، ولما كانت طليطلة تحت حكم خلفاء بني أمية أي تبعا لقرطبة كان للنصارى المستعربين فيها أساقفة كما لنصارى قرطبة ، وقد كان لمطران طليطلة في زمان الخليفة عبد الرحمن الناصر أسقف يقال له عبد الله بن قاسم ، وقد أطلعني الأستاذ آسين بالأسيوس أعظم مستشرقي الاسبانيول على أربعة مجلدات مطبوعة حديثا تتضمن الوثائق والصكوك العربية الباقية كانت في خزانة الكنيسة بطليطلة يستدل منها على أن اللغة العربية كانت هي اللغة السائدة في تلك البلدة وماجاورها إلى نحو سنة ١٦٠٠ .

ولقد نسخت بعض أنموذجات من هذه الوثائق وهذا كاف من خبر طليطلة ، بل هذا زائد على القدر اللازم لأن جميع هذه المباحث يجب ادخارها (للحلة السندسية ؛ في الرحلة الأندلسية) وما جاء منها هنا هو محض اعتداء على (الحلة) وابتسار من ثمرات الرحلة ، فمن شاء فليراجع الأخبار في آنها ومكانها .
انتهت المقالة الثانية .

المقالة

المقالة الثالثة

الجامعة الإسلامية لم تكن يوما من الأيام بالمعنى الذى شاءت أوروبا تسميتها به لا فى العصور الأخيرة ولا فى العصور الأولى من الإسلام، طبعا أن القرآن يوصى المؤمن أن يكون دائما إلى جانب أخيه، وأن لايفرق قضيته عن قضيته، غير أنه يأمره أيضا بأن لا يؤيد إلا قضية عادلة. وأن يقيم العدل الصحيح تجاه كل الناس دون مانفريق فلا يمكن والحالة هذه أن يكون فى الإسلام مسألة مناصرة مؤمن لغير مؤمن لمجرد كونه مسلما، جاء فى القرآن الكريم « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لاتعدلوا أعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ».

إن القرآن وسنة الرسول مليئان بالمواعظ الحاثة على إقامة العدل دون مانفريق، الحق والحقيقة هما لله ولقد قال النبى صلى الله عليه وسلم مرة « انصر أخاك ظالما أو مظلوما » فسئل: كيف يعين أخاه ظالما؟ فأجاب عليه الصلاة والسلام: إذا كففت أخاك عن الظلم فقد نصرته. ولكن إذا كان المؤمن مظلوما أينما كان وكيفما كان فإن القرآن يجعل معونته فرضا مقدسا إلا أنه ينبغى ذكر أن امكان هذه المساعدة بين المسلمين يجب أن يكون ثابتا، ويجب أن تكون درجة هذه المساعدة موضع الدرس، فلا يمكن مطلقا أن يطلب من المؤمن مالا يستطيع، فالأقربون أولى بالمعروف والقرآن صريح فى هذه النقطة، وإليك الشروط التعاونية التى أمر بها الدين الإسلامى.

فالمسلمون تعاونوا بعضهم مع بعض غالبا أدبيا وعقليا وسياسيا واقتصاديا وماديا، والإسلام يقدم الأمثلة الناصعة على هذا التضامن، بيد أنه لم يتخذ فى زمن من الأزمان شكلا عاما عالميا، فالخلافة الموحدة فى الإسلام لم تدم إلا مدة حكم الخلفاء الأربعة الأول، حتى أن خلافة على كانت منشأ انشقاق هائل وحرب دامية بين المؤمنين، حرب أولدت الانقسام بين السنة والشيعة فمنذ عهد الأمويين فى الشام ووحدة الخلافة تعرضت لصدمة عظيمة من قبل ثورة ابن الزبير الذى انتزع منهم الحجاز مدة خمس عشرة سنة، لكن فى الاجمال ظلت الامبراطورية الإسلامية موحدة. وهذه الحال استمرت زهاء قرن حتى سقوط الأمويين وقيام العباسيين الذين نقلوا قاعدة الخلافة من دمشق إلى بغداد. وفى ذلك الحين استطاع أحد الهاربين من بنى أمية أن ينجو من سيف العباسيين فقصد أسبانيا التى كان الاستيلاء عليها حديث العهد، لكى يقيم فيها دولة مستقلة عن خصومه. ثم إن عبد الرحمن الأول وهو المسمى بصقر قريش لم يجرؤ وهو مستقل على اتخاذ لقب الخلافة لنفسه، وظلت الأدعية العامة فى الأندلس تدعى أمامه باسم خلفاء بغداد، وإنما عبد الرحمن الثالث الفاتح الشهير الذى أخضع كل اسبانيا وجنوبى فرنسا وكل شمالى أفريقيا والذى كان أبرز حاكم فى زمانه (القرن الثالث للهجرة) هو الذى تجرأ على أن يتخذ لقب خليفة بالرغم من وجود الخلفاء العباسيين فى بغداد. وعندئذ قامت عدة دول إسلامية مستقلة بعضها عن بعض، فالعباسيون فى بغداد والأمويون فى قرطبة، وفى حين من الدهر كان الأدريسيون فى المغرب، ثم قامت أسرة ملكية أخرى تحدث انقساما جديدا وهى أسرة الفاطميين خلفاء القاهرة (القرن الخامس للهجرة استطال حكمها حتى القرن الحادى عشر) ومن ذلك الحين فقدت الوحدة الإسلامية كقوة سياسية: ولم يعد التضامن إلى تلك الممالك المتحدة. وكان معترفا للعباسيين بشىء من التفوق الأدبى ليس غير. وكان يبدو أحيانا مظهر التضامن الأدبى حتى والمادى فى البلاد الإسلامية لكنه لم يتجاوز حدود التضامن الذى كان ممارسا فى البلاد المسيحية.

وقد قدمت الدول المسيحية في القرون الوسطى تجاه الإسلام مثالا الوحدة التى كانت مفقودة عند الدول الإسلامية ، وذلك بتضافر الفرنسيين والألمان والفلمنك والإنكليز والطليان الخ ، كتلة واحدة لحرب المسلمين فى الشرق ، فقاموا باحدى عشر حملة صليبية ، ومن جهة ثانية رأينا أن المسلمين لما أرادوا صد تلك الحملات لم يتحدوا إلا فيما بين المصريين والسوريين وسكان مابين النهرين ، وهؤلاء جميعا ليسوا إلا جزءا من المسلمين وعبثا نادى صلاح الدين ودعا مسلمى المغرب لتؤازره حكوماتهم بأساطيلها القوية ، ولو أنهم لبوا دعوته لاستطاعوا أن يحولوا دون نزول الحملات الصليبية .

ولئن كان بين مسلمى أفريقيا ومسلمى الأندلس تضامن تجلى بتقدم الجيوش فقد كان ازاء ذلك اكثرية منهم بجانب الشعوب المسيحية ، ولكن بين الشرق الإسلامى والغرب الإسلامى لم يسطر التاريخ أعمالا عسكرية تبودلت بشكل عام . وقد وقع فقط أن أهل تونس والجزائر وطرابلس الذين كانوا أقلية تجاه الدول المسيحية دعوا لنجدتهم الدول العثمانية ، وقد سارع السلطان سليمان القانونى لوضع هذه البلاد تحت سيطرته إما رغبة فى الفتح ، وإما فى التضامن الإسلامى ، وإما لإقامة التوازن بين قوته وقوة شارلكان .

وقد مر حين من الدهر لم يكن فى البحر المتوسط سوى أسطولين : أحدهما إسلامي تحت قيادة خير الدين بربروس . والآخر مسيحى . انتهت المقالة الثالثة .

الفصل الثالث

فى أن القرآن ذكر المسلمين عموما والعرب خصوصا فى النهضة الحالية

ولأقدم مقدمة فأقول : اعلم أيها الذكى أنى كما ذكرت سابقا مولود بقرية من قرى مديرية الشرقية تسمى (كفر عوض الله حجازى) وقد كان ذلك أيام الظلم والاعتساف ، والجور والقسوة ، فكان الحكام أظلم خلق الله ، وكانت الرعية جارية على سنن الرعاة ، فالأقوى كان يظلم الأضعف ، وكنت أرى أن الأقوياء والأغنياء يتحكمون فى الضعفاء ، فيرسلونهم إلى أعمال الحفر فى الجسور والترع التى لا أجر عليها من الحكومة بل هى مجرد ظلم واسترقاق وإرهاق ، ولكن كانت الحكومة المصرية تنتقل من حسن إلى أحسن سنة فسنة حتى استتب الأمن فى البلاد وعرف كل ذى حق حقه . وفى أثناء تلك المدة دخلت الأزهر فمدرسة دار العلوم فصرت مدرسا . وهنالك أخذت أؤلف الكتب لنشرها بين المسلمين قياما بما عاهدت الله عليه أنى إذا عرفت الحقائق العلمية جعلت حياتى وقفا على تعليم ورقى المسلمين كى لا يستسلموا الشك الذى آذانى وأقلق بالى ، وأخذت أعرض الكتب على ذوى الرأى فى البلاد حتى إذ وجد أحدهم عيبا دلنى عليه وكان حديثى التقدم مع المرحوم لطيف باشا سليم وتوالت الجمعيات فى مصر كحزب الوفد المصرى وحزب الأحرار الدستوريين وغيرهم وهذا كله مصداق لما رأيته من قبل ، وقد ظهرت فى هذه الأيام جمعية الشبان المسلمين ولها فروع فى الجزائر وتونس والشام والعراق وأمريكا ، وهكذا جمعيات أخرى كجمعية المواساة والجمعية الجغرافية وغيرها ، وكم فى الأقطار العربية من جمعيات أدت أعمالا عظيمة وأكثرها ظهرت بعد الحرب الكبرى ، وجميع البلاد الناطقة بالضاد اليوم تطلب الاستقلال . فانظر ماجاء فى جريدة الأهرام بتاريخ ٢٧ اكتوبر سنة ١٩٢٩ وهذا نصه :

الانتداب فى البلدان العربية

بقلم الكبتن غورمون كانينج

المقال الأول

كان من أهم اسباب سقوط الأمبراطوريات القديمة اسراف القوة الرئيسية تدريجا بالتوسع المطرد فى الممتلكات ، ونرى فى عصرنا هذا أن الامبراطورية البريطانية والأمبراطورية الفرنسوية فى خطر الانحلال لهذا السبب نفسه ، إن مستشارى الأمبراطوريتين ويلوح انهم من طراز قديم (سابق لتاريخ البشر) ممن لهم خبرة بفنون الحرب يصرحون أن الضرورة تقضى بصيانة الممتلكات الموجودة بضم ممتلكات أخرى .

معلوم أن زيت البترول باب من أهم مطالب العالم فى هذه الأيام فأصبحت موارده من الضرورات الأولية لكيان الدول العالمية ؛ فالبترول اذن كان من العوامل التى اجتذبت انكلترا إلى العراق وفلسطين وإيران التى اضطرت بحكم أحوال خصوصيه إلى الانسحاب منها ، ومتى كانت انكلترا موطدة فى العراق وفلسطين فرنسا لا يمكنها أن تتخلى عن بقعة مجاورة ترتكز إليها وتتخذها قاعدة لحماية مصالحها ، وهذا مابعث على عقد اتفاق (سيكس ـ بيكو) وتنفيذ هذا الاتفاق كان مضرا بالاتفاق الذى عقد بين الملك حسين والحكومة البريطانيه مع أنه كان فى تاريخ سابق لاتفاق (سيكس ـ بيكوا) ومما يدل على أن انكلترا قد سلمت بأنها حنثت فى عهدها مع الملك حسين أنها أوجدت عرش العراق للملك فيصل بعد ماطردته السلطات الفرنسوية من سورية ، وقد أثر ذلك تأثيرا سيئا فى سمعة انكلترا وهيبتها فى الشرق الأدنى والشرق الأوسط لأن العناصر العربية أدركت أنها سحت لشار أقوى وأقدر ؛ فقد كانت مقتضيات مواصلة الحرب أهم من كل شئ وفوق كل شئ ، حتى أن الشرف البريطانى ترك جانبا وعد من سقط المتاع ، وكانت هذه الاتفاقات الحربية المختلفة هى الـ بب الأكبر التى جعلت معاهدة فرساى وغيرها من المعاهدات شؤما وهولا وأسباب القلق الحالى وعدم الارتياح بين ملايين من الناس . والغاية من مقالى هذه أن أقترح علاجا لمسألة بلدان الانتداب فى الشرق الأدنى والشرق الأوسط التى عاثت هول تلك المعاهدات وفى أى علاج يتناول مصالح عدة أمم لايمكن لأية أمة منها أن تكون راضيه كل الرضا ، ولا بد من مراعاة مبدأ الأخذ والعطاء من كل جانب

والبحث فى هذه المسألة لاأرى من الضرورة الدخول فى تفاصيل إدارة شئون بلدان الانتداب خلال الثمان سنوات الأخيرة لأن هذه الوجهة من المسألة كانت موضوع البحث فى عدة جرائد ومؤلفات ، فالغلطات التعيسة والأخطاء المحزنة التى ارتكبتها فرنسا وانكلترا قد اعترف بها ، وليست المصاعب التى جابهتها كلاهما مما يستحق العطف لأنها من المصاعب التى أوجدتها انكلترا وفرنسا ، وقد أصلحت انكلترا جانبا عظيما من اخطائها ولا سيما علاقاتها مع العراق ، وأخذت فرنسا بإرشاد المسيو بو سو تحاول إصلاح عواقب إدارتها الوضيعة فى سورية ، إن الغلطة الرئيسية التى ارتكبتها كل من انكلترا وفرنسا هى عدم العمل بمقتضى البند الثامن والعشرين من عهد جمعية الأمم ؛ وقد قالت المس (هوبت) فى كتابها عن الانتدابات مايلى :

أما إذا كانت هذه الرغائب قد نفذت فأمر مبهم غامض ، وأما إذا كان هناك لأولئك الناس رغائب جلية فأمر أغمض وأكثر إبهاما . وبالحقيقة وواقع الأمر أن أهل بلدان الانتداب لم يستشاروا والأسلوب الذى اتبع فى هذه البلدان فى تقسيمها إلى دويلات أوجد على سطح الكرة الأرضية بلقان أخرى وهو أسلوب

سقيم من الوجهة الإقتصادية نظرا التعريفات الجمركية بين تلك الدويلات وعرقلتها لحركة التجارة . وبلدان الانتداب المعرفة بحرف (ا) هي كما يلي :

(١) - « العراق » وضع انتدابه فى شهر ابريل سنة ١٩٢٠ ووافقت عليه جمعية الأمم فى شهر سبتمبر سنة ١٩٢٤ ويبلغ عدد سكانه ثلاثة ملايين

(٢) - « سورية » وضع انتدابها فى شهر ابريل سنة ١٩٢٠ ووافقت عليه جمعية الأمم فى يوليو سنة ١٩٢٢ ويبلغ عدد سكانها ٢٢٥٠٠٠٠ من المسلمين و ٤٠٠٠٠ من الدروز و ٤٠٠٠٠٠ من المسيحيين منهم ١٥٠٠٠٠ مارونى

(٣) - « فلسطين » وضع انتدابها فى شهر ابريل سنة ١٩٢٠ ووافقت عليه جمعية الأمم فى شهر يوليو سنة ١٩٢٢ ويبلغ عدد سكانها ٧٥٠٠٠٠ نفس ٨٧ فى المئة منهم عرب

(٤) شرق « الأردن » ويبلغ عدد سكانه ٢٠٠٠٠٠ نفس

وفى شبه جزيرة العرب بلدان تحت الحماية البريطانية وهى : عدن ، وعمان ، والكويت . وبلدان مستقلة وهى : نجد والحجاز والعسير واليمن وحضرموت ، ومجموع عدد سكان هذه البلدان كلها يتراوح بين خمسة عشر مليونا وعشرين مليون نسمه : أما إذا كان إصطلاح الانتداب قد وضع على قاعدة المثل الأعلى أو ابتكر كمرادف للضم والتملك فليس من موضوع البحث فى مقالى هذه ، ولكن الأرجح أن جانبا عظيما من عدد السكان المبين آنفا متحد فى مطالبه ورغبته فى التخلص من الوصاية الأجنبية وإن كان مختلف الأحزاب غير متفقة على شكل الحكومة التى يجب أن تحل محل حكومة الانتداب أو دولة الحماية

فهل مقتضيات الأمبراطورية البريطانية تتطلب أن تكون انجلترا فى فلسطين والعراق وشرق الأردن وهل من الضرورى أن تكون فرنسا فى سورية ؟ إن جواب البلدين هو (نعم) فإذا كانت إحدى الدولتين فى سورية لا بد أن تكون الأخرى فى فلسطين والعكس بالعكس ، وتقول انكلترا : نعم لأدافع عن قناة السويس ضد مهاجمها من الشرق ، ولأدافع عن مصالح بريطانيا فى بترول الموصل والبصرة . وتقول فرنسا نعم لأدافع عن خط أنابيب البترول وسكة الحديد المزمع مدها إلى الموصل وبغداد ومن كل منهما إلى حيفا ، وهذه الفكرة الثانية لحماية التجارة ومصالح الصناعات ، ويتبعها ويترتب عليها الحماية العسكرية ، وهكذا تظل الدول الأوروبية الإدارية تثير كتلة متجمعة من الرأى العدائى فى تلك البلاد الذى قد يصبح بقوة الاتحاد قوة خطرة خطيرة ، فالأفضل والحالة هذه الاعتماد على عقل سكان البلاد وعلى عهد صداقة يقوم على قاعدة التعاون التجارى والكسب المتبادل .

والسبب الأول يمكن عوه باتفاق متبادل يعقد بين انكلترا وفرنسا للانسحاب فى وقت واحد من سورية وفلسطين وشرق الأردن ، ولكن فرنسا تقول : «محال على أن لا أحمى الأقلية المسيحية » ولكنا نرى اليوم أن هذه الأقلية المسيحية هى أيضاً تطلب جلاء فرنسا عن البلاد ، وتقول انكلترا : « إن ذلك مستحيل لا يمكننا أن ننسحب وندع الاسرائيليين تحت رحمة العرب » ومع هذا فإن اليهود والعرب كانوا فى عهد تركيا عائشين معا فى وفاق تام ، إن تصريح بلفور هو سبب الاضطراب الحالى بين العرب واليهود ، إن تأسيس هذا الوطن القومى لليهود لم يلق تعضيداً حقيقيا من زعماء اليهود ، قد أيدوا الفكرة عن غير طية خاطر ماليا وأدبيا ولم يوافقوا قط على فكرة مغادرة محل إقامتهم للاقامة بذلك الوطن القومى ، وقد كان معظم المهاجرين من اليهود القاطنين فى شرق أوروبا الذين ذاقوا الذل والهوان ، وعانوا الشىء الكثير من الاضطهاد والظلم . وقد برهنت الأيام على أن الصهيونية صناعة خيالية عقيمة وجناية سياسية . فالصهيونيون المقيمون

الآن بفلسطين قد وجدوا هناك بمساعي انكلترا وجهودها ولا بد من الاعتراف بهم وحمايتهم ومساعدتهم

ثم يجب الوصول إلى اتفاق متبادل بين فرنسا وانكلترا تتفقان فيه على سحب كل شيء فيه شبهة العسكرية من سورية وفلسطين وشرق الأردن وأن يقدما للبلاد خبراء لتنمية فن الادارة الحكومية والفنون والصناعات عندما يطلب منهم العرب ذلك بأنفسهم . والحامية البريطانية التي تنسحب من مصر وفلسطين يمكن أن تعسكر لمدة ١٥ سنة في جوار بورت فؤاد بعد استئذان الحكومة المصرية فتكون منها قوة مركزية متأهبة في أية لحظة للدفاع عن مصالح بريطانيا العظمى في شرقي البحر الأبيض المتوسط والتعاون مع الحكومة المصرية على حماية القناة ودرء الاعتداء على حرية الشعب المصري . ولكن لكيما يتسنى نقل هذا الاقتراح إلى حيز العمل يجب على العرب أن يعدوا أيديهم للعمل ويقدموا برهانا حاسما على استطاعتهم إيجاد مشروع ابتكاري يقضي على احتمالات حدوث الفوضى عندما تنسحب القوات البريطانية والفرنساوية من البلاد. فعلى نواب العرب أن يقدموا مشروعا يبينون به ما يلي :

(١) أنهم أهل لادارة شئون بلادهم بأنفسهم وأن الانتداب صار غير لازم .

(٢) إن جميع المشروعات التجارية مثل سكك حديد بغداد وحيفا ومنابع البترول في الموصل والبصرة تقدم لها التسهيلات اللازمة لترقيتها وإنمائها ، وأن يسمح للمشروعات الأوروبية بالاشتراك مع المشروعات العربية أن ترقى مؤهلات البلاد التجارية والصناعية تحت شروط عادلة مرضية للجميع ؛

(٣) أن تستطيع الحكومات العربية تقديم الضمان الوافي لتأمين معاملة الأقليات المسيحية في سورية والأقلية اليهودية في فلسطين وتنفيذه ، وأن تمنح الوطن القومي اليهودي قسطا معينا من الحكم الذاتي ، وهذا الوطن القومي يجب أن يكون مثالا مصغرا لمركز روحي ثقافي فقط .

(٤) أن يستطيع زعماء نواب العرب أن يقدموا برهانا حاسما على موافقتهم على إنشاء إيجاد دول عربية تحت سيطرة ابن السعود إذ كان ذلك ممكنا . وبهذا تم الكلام على المقال الأول .

***

المقال الثاني

يعتقد معظم الناس أن العرب يعجزون عن إظهار مقدرتهم بتقديم خطة إنشائية ، أما أنا فأعتقد أنهم قادرون ليس بناء على تاريخ عنصرهم الماضي فقط بل لما يحرزه أبناء العرب المهاجرون من النجاح الباهر في المراكز الصناعية والتجارية العصرية في بونس أيرس ونيويورك وغيرها من أنحاء العالم المتمدن ، وليس من الضروري الرجوع بالقارئ إلى الحكومات العربية السديدة الخطوات في العهود الغابرة ، وحسبي أن أقول إنه في القرن الثامن بعد الميلاد في عهد الخلفاء الراشدين ببغداد كان في وسع التاجر المتجول أن يسافر من البصرة إلى دمشق مثقلا بالسلع بغير أن يتعدى عليه أحد . وفي عام ٩٨٠ ميلادية ، كان المسافر يقطع الشقة بين المهدية والقاهرة بلا خوف ولا وجل من قطاع الطرق ، فإذا كان العرب قد استطاعوا في تلك الأيام تأمين الطرق بهذه الكيفية ، فمن الأكيد المحقق أنهم قادرون على ذلك في هذه الأيام ، ولا بد لنا من التسليم أنهم يحرزون هذه القدرة بالارث ، ولكن هل يحرزون الإرادة والعزيمة على إظهار هذه المقدرة ؟ إن على العرب أن يبرهنوا على ذلك الآن ، ولا يكفي أنهم شديدو الرغبة في طرد الظلم من بلادهم ، فهذا لا يعدو سياسة الهدم ، ولكن يجب عليهم أن يظهروا مقدرتهم على التعمير والإنشاء . أما فيما يتعلق

بالخلوف الذي قد تتطرق إلى قلوب الانكليز بأن الأقليات المسيحية واليهودية لا تطيق الأغلبية الإسلامية فلابد من قول شيء في ذلك .

إن الأقليات المسيحية واليهودية كانت تعامل على الدوام خير معاملة في البلدان الإسلامية إلى أن تأتي دولة أوروبية وتستخدم تلك الأقليات لقلب الحالة كما حدث في مسألة الأرمن والأتراك ، ثم إنه في الأنحاء البعيدة المنعزلة عن العالم الإسلامي قد لا يخلو الأمر من تعصب ضد المذاهب الأخرى ، ولكن هذا كان كذلك بين مختلف الطوائف المسيحية . على أن زعماء العرب في هذا العصر وفي العصور السابقة كانوا دائما يعملون على تلافي هذا التنافر وإصلاح ذات البين ، فإذا كان التعصب الديني قد أخذ مجراه في زمن من الأزمنة فقد كان المسلمون من غير مذهب الحاكم ينالهم من الاضطهاد ما ينال المسيحيين ، ومن الواجب أن تتخذ مبادئ نجرن كالمثل الأعلى لزعيم المسلم ، وكلمة الإمام علي رضي الله عنه : « إن دم الذمي كدم المسلم » هي أيضا خير مثال .

واليوم نرى الموازنة في لبنان والمسيحيين العرب في فلسطين ومسلمي الشام وفلسطين والعراق قد أخذوا يترفعون عن الفوارق في المذاهب والعقائد ويجنحون إلى المثل الأعلى والمذهب السليم وهو أننا جميعا إخوان في الإنسانية ، وأول خطوة في هذا السبيل هي السعي إلى توحيد بلاد العرب ، وقد أخذ أبناء العرب المثقفون المتنورون في هذه الأيام يتطلعون إلى هذه الغاية ويبثون الدعوة إليها في عدة أنحاء ، وزعماء العرب أدرى مني بالمنهج الذي يجب أن ينتهجوه للحصول على الوحدة العربية والتخلص من وصاية الأجنبي والتقدم الحثيث في التعاون مع خير الطبقات الأوروبية ، وإني أقترح ما يلي على سبيل التجربة :

(أولا) المبادرة إلى عقد مؤتمر في القاهرة يدعى إليه مندوبون من جميع البلدان العربية .

(ثانيا) ينتخب هذا المؤتمر مجلسا دائما يكون مقره في القاهرة أو جدة أو الشام « ولما كانت القاهرة مركزا حسنا تتوفر فيها أسباب المواصلات مع جميع بقاع الأرض العربية قد تكون لائقة لأن تصبح بمثابة جنيف للعرب » .

(ثالثا) على هذا المجلس الدائم أن يظل على اتصال وثيق بالبلدان العربية وأن يعمل على عقد مؤتمر كل سنة أو سنتين .

(رابعا) على هذا المؤتمر السنوي أن يتخذ الإجراءات اللازمة لإيجاد اتحاد عربي وأن ينتخب زعماء ويتفق على زعيمه الأكبر .

(خامسا) تكون مهمته توحيد الأمة العربية ببث دعوة مبنية على العطفة والمصافاة .

(سادسا) يجب وضع خطة للتعليم يمكن كل دولة في خلال الخمس عشرة سنة المقبلة من الحصول على سيل مطرد من الشبان المتدربين على فن الادارة الحكومية والعلوم والفنون والشئون الصحية وما إلى ذلك .

فإذا استطاع العرب أن يصلوا إلى هذا التوحيد فيحتمل أن تتمكن انكلترا من رفع حمايتها عن جميع البلدان العربية عدا عدن ، وأن تعقد معاهدة صداقة ومحالفة بين سلطات الاتحاد العربي والأمبراطورية البريطانية ، وإني أعتقد أن حلا كهذا يكون ضمانا أفضل لسلامة المواصلات الأمبراطورية وبتوطيد أركان القوة في هذه البلدان من الشرق الأوسط وتوجيهها تتخلص الأمبراطورية البريطانية من إنفاق عدة ملايين من الجنيهات كل عام .

وبعد

ويغلب على ظنى أن العرب يجب أن لا يتصوروا وهم لا يتصورون أنه يتسنى لهم الوصول إلى هذه الغاية بغير مساعدة من الغرب ، ويجب أن لا يعزب عن بال انكلترا وفرنسا أن أمة تحت التدرب والتعليم لا يمكن أن تحرز المسئولية اللازمة إلا بالممارسة والاختبار ، ويهما يجون سواها تتعلم هذه الامة اجتناب الأخطار والوصول إلى مستوى مرض من الحكم الذاتى ، وزعامة الدعوة إلى الوحدة العربية يجب أن تخرج من دمشق ، وربما قبل مضى وقت طويل يعود العالم العربى إلى ازدهاره ونباهته ، ويدهش العالم بثقافته وعلمه كما كان فى سالف الأحقاب .

وماهو تأثير هذا كله فى انكلترا فيما يتعلق بالأمبراطورية البريطانية ؟ الجواب عن ذلك من الوجهة السلبية أنه يوجد القوة العسكرية فى مركز واحد ويقلل من تبعة التورط ويؤدى إلى اقتصاد المال ، ومن الوجهة الإيجابية الابتكارية يضم جميع العنصر العربى إلى دائرة الصداقة الخالصة ، ويوجد زبائن أقوياء أغنياء بالتقدم فى المعيشة العصرية وبالتعاون التجارى الوثيق مع الغرب ، وحيث كان زبون واحد فى الماضى يقوم اثنا عشر زبونا جديدا محله

إن مشروعا كهذا يتطلب وقتا للنضوج ، ولكن الوقت لا يجدى ولا يغنى فتيلا إذا كان زعماء العرب فى هذا العصر لا يعدون التربة ويتعهدونها بسماد العقل والفطنة ويبذرون فيها بذور الاتحاد والوئام ولإنعاش هذا المشروع وإبلاغه طور الازدهار والإيناع يجب أيضا أن تنق أرضه من الأعشاب البرية ، وأن يروى ويسق ليس بمساعى زعماء العرب الشجعان فحسب ، بل بمساعى الأوروبيين أيضا ولاسيما الرجال الانكليز ذوى البصيرة النيرة والنية الحسنة .

ولكى ينتج هذا المشروع خير النتائج من الضرورى الحصول على تعضيد انكلترا ومعاونتها ، فللعرب أن يقتبسوا العلوم عن الألمان والفنون عن الفرنسويين ، ولكن العلوم السياسية وفن معاملة المذاهب المختلفة ، وتحمل الفوارق الدينية ، وواجبات الشرف والنزاهة يجب أن يتعلموها من انكلترا ومن الرجال الإنكليز ، وقد يطول العمر على ثقافة انكلترا وتبقى مكرمة محترمة مرغوبا فيها خلال أجيال كثيرة مقبلة ويكون مثلها مثل ثقافة الرومان والعرب فى هذا العصر .

وأختم مقالى هذا بكلمات أوناموتو : « إنى أقصد الحث وإذكاء وطيس الحماسة والاقتراح لا الإرشاد والتعليم » وإلى هنا تم الكلام على المقالين للكاتب النزيه غوردون كانتج :

الفصل الرابع

فى تأكيد الفصل الثالث وذلك بمقالين

المقال الأول

التنافس الدولى ونصيب العرب منه

جاء فى إحدى جرائدنا المصرية فى يوم الأربعاء ١٤ جمادى الثانية سنة ١٣٤٩ هجرية ما يأتى :

إن القاعدة التى بنيت عليها مدنية القرن العشرين « الحق للقوة » وعلى هذا الأساس أصبح التنافس عظيما بين الدول العظمى فى بناء الأساطيل ، وتدريب الجيوش ، والتفنن فى ابتكار الآلات الجهنمية القاتلة

لحيازة السيادة والتفرد بالنفوذ في هذا العالم مما أدى إلى نشوب الحرب العظمى التي كان من نتائجها انهيار الامبراطورية الألمانية وسقوط أكبر دولة حربية على وجه الأرض .

إذا كانت الضغائن موجودة في الأفراد عند انتصار أحدهم على الآخر ومنعه من نيل ما يبتغيه والاستئثار به دون رفيقه ، فأحرِ بها أن تكون عند الدول الكبيرة وهكذا فإن ألمانيا التي كانت تطمع لفتح العالم أصبحت اليوم لا حول لها ولا طول ، لا ترى بعين الرضا ما يتمتع به دول الحلفاء من ثمرات الانتصار وتفردهم بالاستيلاء على بلاد العرب ، وإذا كانت عاجزة عن إثارة حرب ثانية تقضي بها على ما يتمتع به غرماؤها ، فلا تعدم غيرها من الوسائل خصوصا وهي تلك الدولة التي دفعت سفينة العالم في اليم وجعلتها تائهة بين أمواجه المتلاطمة مدة أربع سنوات حتى رست على الشاطىء وهي محطمة .

إن الشعب العربي يقطن أقطارا شاسعة ، وأغلبها واقع على شاطىء البحر الأبيض المتوسط من خليج الإسكندرونة إلى مضيق جبل طارق ، وهذا الشعب خاضع جميعه لنفوذ وسيطرة ثلاث دول كبيرة (الحلفاء) الأولى بريطانيا العظمى ولها الشطر الأهم كمصر والسودان وجزء من سوريا الجنوبية والعراق وأغلب سواحل الجزيرة العربية ، والثانية فرنسا وفي يدها سوريا وإقليم المغرب أو إفريقيا الشمالية كتونس والجزائر ومراكش والثالثة إيطاليا وهي مستولية على طرابلس الغرب .

فمن هذا نرى أن بلاد العرب محصورة في يد هذه الدول الثلاث التي لم تزل تسعى وتجهد لتفكيك عرى هذا الشعب وبث روح التنافر فيه بمختلف الوسائط ، فهذا مصري وذاك سوري ، وهؤلاء عراقيون ، وأولئك مغاربة ، وبث سموم فكرة اللغات العامية والسعي للتشويق إلى العدول عن اللغة الفصحى التي هي الرابط الوحيد الذي يربط سبعين مليونا من العرب .

ولما كان لهذه الدول من ينافسها في السيادة ولا يروق له أن تتحكم في هذه الشعوب جعل يناصبها العداء بمختلف الوسائط التي تقضي على نفوذها وسلطتها من حيث لا تشعر .

إن التنافس بين انكلترا وروسيا هو سبب بقاء الأستانة بيد الترك أو بقاء الدولة العثمانية إلى زمن الحرب العظمى وكذلك بقاء الدولة الإيرانية : وها نحن الآن للمرة الثانية نرى التنافس بين ألمانيا ودول الحلفاء سيكون سببا لإيجاد شيء من لا شيء وخلق كيان من العدم .

إن الشعب العربي الذي قرر المفكرون بأنه صائر إلى الانقراض بدأ يتحرك ويحس بوجوده في هذا العالم بعد تلك الغيبة الطويلة ، وما هذا إلا بفضل ذلك الطبيب النطاسي الحاذق الذي أخذ على عاتقه إحياء هذا المريض ليحرم أعداءه من تراثه .

إن الاجتماع العربي الكبير في (برلين) تحت إشراف لجنة الدفاع عن المغرب العربي وحضور مندوبين من جميع الأقطار العربية للاحتجاج على مرور مائة عام على احتلال فرنسا الجزائر أول قطر عربي احتله الأجنبي وإلقاء الخطب الثائرة التي ترمي جميعها إلى وحدة العرب الكبرى ما هو إلا أثر من آثار التنافس الدولي بين ألمانيا والحلفاء .

وهكذا سوف نرى أن هذه المنافسة الخطيرة ستفضي إلى خلق دولة (الاتحاد العربي العام) ومن يعش يره ، أو كما قال شاعر العرب القديم :

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزود
ويأتيك بالأخبار من لم تبع له بتاتا ولم تضرب له وقت موعد

(البصرة ـ العراق) أبو الوليد

المقال

المقال الثانى

جاء فى جريدة الأهرام يوم الجمعة ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٢٩ م ماياتى :

فى المجمع النسائي العربي

قرر المجمع النسائى العربي فى بيروت وكذلك فروعه فى البلدان العربية فى الجلسة القانونية المنعقدة فى أول نوفمبر سنة ١٩٢٩ م بعد الوقوف على آراء الأكثرية الساحقة من مفكرات وجمعيات الأقطار كافة المسائل التالية :

(أولا) المبادرة إلى عقد المؤتمر الشرقى العربى الأول فى مدينة دمشق قلب العرب النابض فى أواخر الربيع القادم لتعود المرأة العربية إلى ازدهارها ومناعتها ، وبدهش بثقافتها وعلمها كما كان فى سالف الأحقاب ، وتنضم جميع العناصر النسائية إلى دائرة الصداقة الخالصة .

(ثانيا) ينتخب لهذا المؤتمر مجلس أعلى من مفكرات هذه الأقطار ويكون له مركزان رئيسيان فى دمشق والقاهرة .

(ثالثا) على هذا المجلس الدائم أن يظل على اتصال وثيق بالبلدان العربية وأن يعمل على عقد مؤتمر فى كل سنة مناوبة فى أقطار الشرق العربى .

(رابعا) على هذا المؤتمر السنوي أن يتخذ الإجراءات اللازمة لإيجاد اتحاد نسائى شرقى عربى تكون مهمته توحيد الأمة العربية ببث دعوة مبنية على الفطنة والحصافة .

(خامسا) أن يكون هذا البيان كاعلان رسمى لجمعيات وأفراد المفكرات فى الأقطار الآتى ذكرها وهى : مصر ، تونس ، طرابلس ، الجزائر ، برقة ، مراكش ، السودان ، جنوبى أفريقيا ، فلسطين ، شرق الأردن ، العراق ، الحجاز ، اليمن ، نجد ، حوران ، بلاد العلويين ، سوريا ، لبنان . وبصورة خصوصية يطلب المجمع آراء أخواتنا فى المهجر ليشتركن معنا روحيا .

(سادسا) أن المسائل الخمس الرئيسية التى ذكرت فى برنامج المؤتمر وأضيفت إليها مسألة رعاية الطفل باقتراح النابغة (مى) سيتفرع منها مواد شتى .

(سابعا) أن هذا المؤتمر العام لايزاحم المؤتمرات المحلية بل يحترمها ويؤيد مقرراتها. انتهى المقال الثانى

الفصل الخامس

فى أن الوطن اليهودى فى فلسطين مما قرر ارتفاع ذكر الأمم العربية

جاء فى إحدى المجلات العلمية وهى « السياسة الأسبوعية » فى يوم السبت ٩ أغسطس سنة ١٩٣٠ تحت العنوان الآتى ما نصه :

حديث للأستاذ محمد على باشا

عن رحلته فى فلسطين ودفاعه عن البراق ورأيه فى الرابطة العربية

عاد الأستاذ الكبير محمد على باشا من الديار الفلسطينية بعد أن قضى فى بيت المقدس زهاء عشرين يوما أبلى فيها أحسن البلاء فى الدفاع عن حقوق المسلمين والعرب فى البراق الشريف أمام لجنة التحقيق الدولية وكان لدفاعه المجيد أثر خالد فى الأوساط السياسية العربية وضجة عنيفة فى الدوائر الصهيونية ، وقد رأى أحرار الجالية السورية بمصر أن يحتفوا لزيارته ويهنئوه بسلامة الأوبة ويشكروه على ما تحمله من المشاق ، وما قام به من جلائل الأعمال فى تأييد حقوق العرب وتشجيب مزاعم الصهيونية ، فتألف وفد من هيئة إدارة جمعية الدفاع عن فلسطين وأعضاء حزب الشعب السورى برئاسة الأستاذ الزعيم الدكتور شهبندر وزاروا الأستاذ محمد على باشا فى منزله للقيام بواجب التهنئة والشكر ، وقد رأى كاتب هذه السطور أن يغتنم هذه السانحة فطرح على الباشا أسئلة عدة حول البراق والمسألة الفلسطينية والرابطة العربية فتفضل معاليه وأجاب عليها بما يلى :

(س) لقد رفعتم رأس مصر والشرق عاليا بما ناضلتم به عن حقوق العرب وتفنيد المزاعم اليهودية الصهيونية فى قضية البراق الشريف (جدار البكى) فهل لكم أن تتفضلوا بتلخيص الأسس التى بنيتم عليها دفاعكم المجيد ؟

(ج) حينما اتصل بى نبأ إبحار اللجنة الدولية إلى فلسطين للتحقيق فى قضية البراق والنظر فى شكاوى الفريقين المتنازعين والحجج التى يتذرع كل منهما بها ، تحركت فى نفسى عاطفة الغيرة على هذا المكان المقدس الذى تتجه نحوه أنظار ثلاثمائة مليون مسلم ونيف فى جميع أقطار العالم ، ورأيت أن الواجب الدينى والقومى يقضى على بأن أقبل دعوة إخوانى الفلسطينيين ، وأقوم بقسطى فى الدفاع عن ذلك الجدار الشريف ، فبرغم الأزمة الوزارية التى قامت فى مصر ، وبرغم ما كنت أشعر به من الانحراف فى صحتى لبيت نداء الواجب ووليت وجهى شطر بيت المقدس ، وبعد أن تعرفت هناك إلى أحرار البلاد ودرست الموضوع من جميع أطرافه رأيت بالاتفاق مع سعادة الأستاذ أحمد زكى باشا ، وهيئة الدفاع أن نقسم أعمالنا إلى ثلاثة أقسام :

(١) القسم التاريخى : ويتولى القيام به الأستاذ أحمد زكى باشا .

(٢) قسم التحقيق ومناقشة الشهود : ويتولاه الأستاذ عونى بك عبد الهادى .

(٣) القسم القانونى والسياسى : وقد عهد إلى بالقيام به .

وسار التحقيق سيره المعلوم ، وأدلى كل من الفريقين بحججه وبراهينه ، وبسط الأستاذ أحمد زكى باشا موضع النزاع من الوجهة التاريخية الثابتة والوثائق القطعية التى لا ترد مؤيدا بها حقوق المسلمين ، ومن ثم جاء دورى فرأيت أن أستهل دفاعى بإبداء الاحتياطين الآتيين :

(الأول) إن الأمة الفلسطينية أعلنت رسميا وفى كل الظروف عدم اعترافها بالانتداب البريطانى وهى لذلك لا تريد أن تتقيد بأى نظام مستمد من هذا الانتداب ولا الإقرار بأية نتيجة ترجع إلى ما يسمى بوطن قومى لليهود ، فدفاعى فى هذا النزاع لا يغير شيئا مما احتفظت به فلسطين لنفسها لأنها هى وحدها صاحبة الحق فى تقريره .

(الثانى) يقرر المسلمون أن النزاع على ملكية أماكن العبادة أو على حقوق مدعى بها على هذه الأماكن يجب أن ترفع إلى الهيئة المختصة دون غيرها بالفصل فى أمر الوقف والأماكن المقدسة الإسلامية وما عداها فهو غير مختص أصلا لعدم وجود حق له فى ولاية الحكم على هذه الأماكن .

ثم دخلت بعد ذلك فى الموضوع من الوجهة السياسية وكشفت القناع عن حقيقة هذا النزاع وأسبابه الصحيحة ، وبسطت ما لقيه اليهود من العنت والإرهاق فى أكثر بقاع الأرض وأنهم لم يجدوا ملاذا يفزعون إليه إلا البلاد الإسلامية والعربية لما كان يظهر أهلها من التسامح والرعاية نحوهم وأمطت اللثام عن المطامع الصهيونية فى السعى للاستيلاء على المسجد الأقصى وعلى قبة الصخرة وجعل مكانهما هيكلا لليهود ، وسردت طائفة كبيرة من الأدلة تؤكد نياتهم وهى مستمدة من كتبهم وتصريحات مفكريهم وزعمائهم ، ثم ألمعت إلى الخطر المقبل فيما إذا أصر اليهود على التمسك بمزاعمهم فتكون النتيجة أن هذه الصهيونية ستحمل العرب والمسلمين كافة على أن يعتنقوا الانتيسمتسم (مطاردة اليهود) ولو تحت ستار (الانيسيونيسم) مطاردة الصهيونية فيتلطخ تاريخ الإنسانية مرة أخرى بمثل تلك المآسى التى وقعت فى أوروبا من قبل ، ولكن بطريقة أشد وأنكى ، ثم تكلمت عن الجدار والرصيف فى نظر المسلمين وأسباب تقديسهم إياهما وماورد بشأنهما من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية . ثم قارنت بين ذلك وبين أسباب قدسية الجدار عند اليهود . وختمت دفاعى بالبحث من الوجهة الشرعية ، وتطرقت إلى ذكر الوقائع والتطبيق القانونى .

(س) هل تعتقدون أن لجنة التحقيق تراعى فى وضع قرارها تلك الاعتبارات الخطيرة التى وردت فى دفاعكم ؟

(ج) لا تستطيع الجزم الآن فى كيفية القرار الذى ستصدره لجنة التحقيق الدولية فى هذا الموضوع ، ومهما كان شأن هذا القرار فنحن غير مقيدين به بوجه من الوجوه كما مهدت فى دفاعى أمام اللجنة لأن هذا الجدار لا يخص فلسطين وحدها بل هو ملك لثلاثمائة مليون مسلم منتشرين فى أنحاء المعمورة ، ولابد من القول أننا لم نشأ أن نكتفى بإبراز وثائقنا وأدلتنا أمام اللجنة ، بل قدمنا لها البراهين العملية المحسوسة التى لاتدفع والتى تنذر بشرويل فيما إذا فكر أحد بالاعتداء على الأماكن الإسلامية المقدسة ، وذلك بأن دعونا أعضاء اللجنة إلى زيارة بعض الكنائس المسيحية مثل كنيسة القيامة وبيت لحم وغيرهما ، وشاهدوا بأعينهم نتيجة الخلاف بين الطوائف المسيحية نفسها التى سالت من أجله الدماء ، فكيف يكون بالإمكان والحالة هذه التوفيق بين عنصرين متنافرين قد تأصلت بينهما الخصومة الدينية والسياسية وحملهما على الاجتماع للعبادة حول جدار واحد .

إن وضعية الستاتيسكو القائمة بين الطوائف المسيحية كانت من أقوى الحجج التى تدعم نظرية المسلمين وتدعو أعضاء اللجنة إلى التفكير العميق فى هذا الموضوع الدينى السياسى الخطير قبل أن يبرموا قرارا بصدده وقد علمت أن أحد أعضاء اللجنة صرح لأحد رجالات العرب قبل سفره : « إن القضية خطيرة جدا أكثر مما كنا نتصور » .

(س) ما هو الأثر الذى تركته فى نفس معاليكم زيارتكم إلى القطر الفلسطينى ؟

(ج) لقد لفت نظرى أثناء وجودى فى فلسطين نقطتان : الأولى ملأت نفسى غبطة وحبورا ، والأخرى ملأتها كآبة وأسى . لقد أبهجنى منظر تلك الوحدة الجلية التى تضم رجال العنصر الكريم مسلمين ومسيحيين وتلك الوجوه المتلألئة بعاطفة الإخلاص والنفوس الممتلئة بروح الهمة والنشاط وانصراف القوم جميعهم إلى

الدفاع عن حقوقهم المقدسة والوقوف كتلة واحدة في وجه العدو الغاصب والصهيوني الدخيل . والذي أحزنني أن أرى تلك التربة الطيبة والأرض الخصبة التي تعد من أخصب بقاع العالم قد أخذت تنساب من أيدي العرب شيئا فشيئا وتنتقل إلى يد الصهيونيين الذين تشد أزرهم الأموال الأجنبية الطائلة وتردهم المساعدات الكبرى من سائر أغنياء اليهود في العالم . أما العرب فمع خصب أراضيهم وجودة تربتهم لا يستطيعون أن يستثمروا تلك الكنوز الدفينة بسبب فقرهم وسوء أحوالهم الاقتصادية وشدة احتياجهم إلى المواد الأساسية للاستفادة من أراضيهم كما يجب .

وفي اعتقادي أن السبيل الوحيد لانقاذ فلسطين من براثن الصهيونية وتقوية عزائم العرب في هذا القطر الشقيق وإنهاض هذه البلاد من الوجهة الاقتصادية والاجتماعية هو أن يتضافر أغنياء الشرق عموما ، ومصر خصوصا على استملاك الأرض في تلك الأصقاع ، وقد علمت بعد البحث الوافي والاستقراء الدقيق أن ثمن دونم الأرض في فلسطين ، وهو يعادل ربع فدان مصري يتراوح بين جنيهين وعشرة جنيهات ، ويعطي موردا في العام تبلغ نسبته بسهولة إلى ٢٠ في المئة ، وهذه عملية ناجحة ، وصفقة رابحة كما ترون .

وأنا سأواصل جهودي في هذا الموضوع ، وأدعو من أتوسم فيهم الخير من متمولي مصر إلى الاشتراك في هذا العمل الاقتصادي المضمون وتعضيد هذه الفكرة الرشيدة .

(س) ماهي أقوى الوسائل التي تقترحونها معاليكم لتعزيز الروابط بين الأقطار العربية الشقيقة ؟ .

(ج) إن التعاون على تحقيق المشروع الآنف الذكر وإخراجه إلى حيز الوجود مما يقوي الأواصر بين هذه الأقطار الشقيقة ، لا جرم أن المشاريع الاقتصادية والعمرانية يجب أن تتقدم على كل مشروع سواها لأنها دعامة الاستقلال وأساسه .

وهناك مسألة أخرى يجب أن يكون لها الاعتبار الأول في هذا المضمار ، وهو أن نسعى سعيا حثيثا لانتزاع الفكرة الفرعونية من مصر لأنها فكرة عقيمة لا يمكن تحقيقها ؛ ومن المصلحة الأدبية والمادية لمصر (كما نوه الدكتور رشهبندر في إحدى خطبه) أن تهجر عبادة الأحجار الميتة وتستعطف القلوب الحية في الشرق العربي التي جعلت قبلتها مصر لتنال الزعامة الحقة التي هي جديرة بها ، وما دامت شروط الزعامة متوافرة فيها بالنظر لما لها من الموقع الطبيعي والمكانة التاريخية والمقام الاجتماعي والاقتصادي والسياسي فجدير بها أن تسير في طليعة الأمم العربية وتحمل لواء ثقافتها وتسعى إلى توثيق الروابط مع هذه الأمم الشقيقة .

ولا أكتم عنكم أننا الآن منحدرون في انحدار خطر مجهول العواقب بسبب اختلاف اللهجات بين الأمم الناطقة بالضاد ، وأخشى كثيرا إذا استمرت هذه الحالة أن يؤدي ذلك في النتيجة إلى إيجاد لغات جديدة كما وقع في اللغات اللاتينية ، وهذا من أقصى مطامع المستعمرين الذين يعملون جهدهم لإفساد لغتنا ، وتقطيع أوصالها والاستعاضة عنها بلغات دخيلة كما هو الحال في بلاد الجزائر حيث تشجع هناك اللغة البربرية وتعلم تعليما مدرسيا لإحلالها محل اللغة العربية .

وعبثا تحاول الأمم العربية أن تتبوأ مكانها بين الأمم المتمدينة وتنال ما تصبو إليه من حياة استقلالية هنيئة مالم تعمل بادئ ذي بدء على تكوين ثقافة خاصة لها وتحفظ بهذه الثقافة كبريات تاريخ خالد وأنا ما زلت أعلق أكبر الآمال على الأزهر الشريف ، فهو باعتباره أكبر معهد ديني عربي في العالم الإسلامي قوة لا يستهان بها ، فإذا أمكن إصلاحه وتنظيم شئونه عاد بالفوائد الجليلة على مصر والبلاد العربية جمعاء .

وأرى أن يتكاتف العرب جميعا لوضع معجم عام باللغة العربية على غرار كلة القواميس الإنكليزية والفرنسية الكبرى لتوحيد المصطلحات العلمية والفنية وغيرها .

(س) ما رأيكم فى عقد مؤتمر عربى للبحث فى هذه الشئون ؟

(ج) أنا لا أعتقد نجاح فكرة المؤتمر فى الوقت الحاضر ، وإنما أستصوب تأليف لجنة عامة من كبار مفكرى مصر والشرق تأخذ على عاتقها النظر فى إنهاض البلاد العربية وترقية شئونها الاجتماعى والاقتصادى واتخاذ الوسائل المؤدية إلى إيجاد روابط مالية وأدبية بين هذه الأقطار وتوطيد دعائم الألفة والاتصال بينها وإزالة جميع ما يقام بين هذه الأقطار من الحوائل والفوارق التى يمكن التغلب عليها .

فإذا وفقنا إلى تأليف مثل هذه اللجنة وسعينا لأن تكون متجردة من جميع النزعات الحزبية والصبغات السياسية ونالت عطف أرباب الثراء فى الشرق وتأييدهم المالى أمكننا حينئذ أن نخطو خطوات واسعة نحو الهدف الأسمى .

إن الأمم التى تظلم وتسلب حريتها لابد أن تستعيد هذه الحرية إن كانت جديرة بها ، فنحن كأمة عربية كبيرة يجب أن نسعى لاستكمال الخصائص والمزايا التى تؤهلنا لنيل الحرية والسعادة والاستقلال انتهى ما أردته من المجلة المذكورة .

وهذا الحديث يدل دلالة واضحة كيف اجتمعت أمم العرب بل أمم الإسلام لهذه القضية ، وهذا كاف لما قصدناه فى الفصل الخامس .

الفصل السادس

فى ذكر أمر عظيم إسلامى فى أيامنا هذه

وهو دفن فقيد الإسلام محمد على بفلسطين وهذا حادث يعز نظيره فى التاريخ

٢٠٠ ألف يشيعون الجنازة و ١٠٠ ألف يشهدون الصلاة

حفلة التأبين فى المسجد الأقصى

جاء فى جريدة الأهرام يوم السبت ٢٤ يناير سنة ١٩٣١ م ما نصه .

خرجت البلاد الفلسطينية الواقعة على خط السكة الحديدية من القنطرة إلى القدس لتحية رفات الفقيد الكبير مولانا محمد على وتعزية شقيقه مولانا شوكت على ونجله مولاى زايد على وحرم الفقيد الكريم فكانت كل بلدة تقابل القطار بالتهليل والتكبير قبيل انبثاق الفجر بساعات برغم شدة البرد وكان مولانا شوكت على يشكر لهم تكبدهم هذه المشاق وحى عواطفهم النبيلة ، وفى منتصف الساعة السابعة صباحا ، وصل القطار إلى البلد التى كانت محطتها غاصة بالجماهير من سائر الأنحاء ، واصطف طلبة وطالبات المدارس ورجال الجمعيات بأعلامهم وشاراتهم وكلهم مكبرون مهللون وكذلك فى الرملة وفى سائر المحطات حتى وصل القطار إلى القدس التى احتشد فى محطتها ألوف من المشيعة بينهم قناصل الدول الأوربية ورؤساء الدين المسيحى ، وبالرغم من شدة الزحام ابتدأ الموكب سيره فى الساعة العاشرة صباحا ووصل إلى المسجد الأقصى فى منتصف الساعة الأولى بعد الظهر حيث أدى هؤلاء جميعا فريضة الجمعة فى حرم المسجد الأقصى الذى غص بالمصلين وبرغم اتساع جوانبه الفسيحة ضاق بهم ولم يتمكن الكثيرون من أداء الفريضة داخل الساحة العظمى فأدوها فى الشوارع المجاورة للحرم ، وبعد انتهاء الصلاة وقفت الألوف لشهود حفلة التأبين التى لم يكن

بأكملها في الحرم وضاقت بها ساحته الرحبة، وصعد رجال الوفود الإسلامية والمؤبنون على المنبر الأثرى المصنوع في عهد المرحوم السلطان قايتباى سلطان مصر مدة حكمه في فلسطين وسوريا وابتدأ سماحة السيد محمد أمين الحسيني مفتى القدس بافتتاح حفلة التأبين بكلمة قيمة أسالت العبرات أعرب فيها عن مبلغ الخسارة التي أصابت الشرق وعلى الخصوص الهند وفلسطين ، هذه النكبة الصادعة التي انتزعت بطلا نادرا من أبطال الإسلام ، وقام بعده الأستاذ الكبير السيد عبد العزيز الثعالبي نائبا عن شمال أفريقيا ، وعلى الخصوص عن وطنه تونس ، وهو أقدم الحاضرين عهدا بصداقة الفقيد ، وأخذ يتدفق في بلاغته تدفق السيل ، وأخيرا بكى فأبكى ، وواصل رثاءه فكان ينقل الجمهور من الحسرة المطلقة وألم النكبة الصادعة إلى الأمل والرجاء بأن تكون هذه الفاجعة مبدأ عهد جديد للمسلمين يقتدون فيه بالراحل الكريم في حياته الحافلة بالجهود والتضحيات العظيمة .

وقام خطباء مصريون وغيرهم ، ثم ابتدأت حفلة الدفن ، فسارت الألوف تلو الألوف إلى القبر الذى أعد للفقيد في خلف آل الخطيب الكرام بالمسجد الأقصى ، وجيء بالنعش وقد غطى بغطاء من القطن المنسوج في الهند أعده جنود بور سعيد وفوقه غطاء من الحرير الأخضر الموشى بالقصب ، وقد نقشت عليه بعض آيات الكتاب الكريم صنعه سيدات القدس الشريف ، وفوقهما قطعة أثرية من الكسوة الشريفة النبوية أهداها سمو الأمير محمد على لتوضع فوق نعش الفقيد (انظر شكل ٨ وشكل ٩ في صفحة ٢١٥ ، ٢١٦) .

وقد صلى عليه داخل حجرة الدفن فضيلة شيخ الهنود في القدس ومولانا شوكت على ونجله زاهد على وحرم الفقيد الكريم وفضيلة الأستاذ التفتازانى ، ثم ووري التراب بين بكاء الباكين ودعاء الداعين.

وبالجملة فقد شهدت فلسطين مشهداً في جنازته لم يشهده من قبل المعاصرون كثرة وإجلالا وعناية ، وكان مولانا شوكت على يجيب على تعزيات الوفود الإسلامية العديدة بعبارات بليغة بالانجليزية تترجم إلى العربية ، وقد قال أخيراً لأهل فلسطين : ولقد استودعناكم أعز ما نملك ، وذلك دليل قيم على حبنا لكم وإخلاصنا في تضحيتكم ، واهتمامنا بأمركم ، نحن معاشر الهنود المسلمين المدينين للعرب كافة بإسلامهم ومدنيتهم ، وكانت كلماته تقابل بما هي أهل له من الأثر الصالح في النفوس :



شكل ٨



(شكل ٨ ـ مولانا شوكت علي واقفا على المنبر وحوله عظماء الإسلام)



(شكل ٩ نعش الزعيم الكبير مولانا محمد على محمولا على الأكتاف . وخارجا للدفن بعد الصلاة عليه فى المسجد الأقصى الذى ضاق على سعته بعشرات الألوف من المصلين فاضطروا إلى الصلاة فى الشوارع المجاورة له)

بعد يوم محمد على فى فلسطين

قال مراسل الأهرام فى يوم الأربعاء ٢٨ يناير سنة ١٩٣١ ما يأتى : « انقضى يوم مولانا محمد على ولكن أحاديث الناس عن هذا اليوم لاتنقضى قبل وقت طويل ، فلم تزل الألسنة تلهج بعظمة هذا اليوم وما لاقاه جثمان الفقيد من الإجلال فى الاستقبال والدفن . وقد هالنى ما رأيت من كثرة الناس المتوافدين لزيارة الضريح وقراءة الفاتحة والترحم على الضيف الثاوى فى هذا المكان ، ورأيت كثيراً من النساء البدويات فضلا عن السيدات والعقائل من أهل المدن يزرن محمد على راقدا فى ضريحه ؛ وبينما أنا خارج من هذا الجامع فاذا جماعة قادمون صوب الباب ، فبادرنى أحدهم سائلا : هل هذا قبر مولانا محمد على ؟ ثم دخلوا بكل لهفة ، وكذلك تتردد الوفود الفلسطينية على مولانا شوكت لتقدم عزاءها له ؛ فيجب بأنه لن ينسى هذه الحفاوة الكبرى ، وأن ما شاهده من مشاطرة أهل هذه البلاد له فى هذا الخطب العظيم يدل على أن الشعور بالوحدة الشرقية أشد مما كان يتصور ، وقد قال لأحد الوفود : « إن هذا اليوم يوم دفن أخى محمد على فى بيت المقدس هو بالحقيقة فاتحة عهد جديد بين فلسطين والهند .

ويتردد على مولانا شوكت على مكاتبو الصحف الأجنبية ويطلبون مقابلته ؛ ولكن الوقت إلى الآن لم يتسع له هذا ، وقد علمت أن المستر مارتن مكاتب الديلى تلغراف قابل مولانا شوكت وأخذ منه حديثا أعرب فيه مولانا شوكت عن الوقع الذى حصل فى نفسه من ليلة ٢٣ يناير الحالى إلى ساعة المقابلة .

وقد علمت أن مولانا شوكت على قد أبرق إلى جمعية الخلافة فى بمباى برقية مسهبة ضمنها صفوة الأخبار التى تصف نقل الفقيد من بور سعيد إلى القدس الشريف ودفنه بجوار المسجد الأقصى . وقد جاء فى هذه البرقية العبارات التالية : وضع النعش تجاه الصخرة إلى جهة الجنوب ؛ وفى الساعة الثانية حتى الرابعة بعد الظهر كان عظماء المؤبنين يتبارون فى تأبين محمد على ، وبعد أن فرغوا وقفت وطلبت منهم باسم الاسلام وبحرمة الفقيد أن يقطعوا العهد على نفوسهم أن يكونوا من هذا اليوم عاملين لتكميل العمل الذى بدأ فيه محمد على وثابر عليه بكل توفيق من تجديد الحياة الإسلامية الشرقية .

وقال فى هذه البرقية أيضاً ما نصه : إن جثمان أخى محمد على كناية عن منحة مقرونة بروح التواضع تمنح إلى معشر العرب الذين لم يزل العالم مدينا لهم بأعمالهم التى قاموا بها فيما مضى من نشر العرفان والعلوم والدين والحضارة فى جميع العالم » .

ومن أقوال الأستاذ شوكت على أيضاً ما يأتى : « إن موت أخى فى ميدان التضحية للحظة الأخيرة وقد كان مشتغلا بخدمة الوطن والإسلام أثر تأثيراً عظيما فى للإنكليز ، والموت على مثل هذه الحالة المقرونة بالجهاد يؤثر أكثر من الجهاد فى حالة الحياة ، ثم قال : إن موت شقيق سيؤدى إلى حل مشاكل الهند ويوصل إلى تحقيق رغبات البلاد . وسئل هل ستطرح قرارات مؤتمر لندن على هيئة عامة فى الهند؟ ثم سيعقد مؤتمر من مسلمي الهند بعد وصولى ليسمعوا من المندوبين المسلمين فى مؤتمر لندن كل ما حدث هناك لتقرير ما يرونه ملائما للوقوف على رأيهم فيما يشيرون به ، ثم يعقد بعد ذلك مؤتمر عام من المسلمين والهندوس . هل أنتم متفائلون ؟ نعم إنى متفائل ، ومما يدل على ذلك أن المسلمين بحمد الله يد واحدة وقوة متحدة » .

ثم قال : « إنى مسرور لأن مؤتمر لندن أعطانى فرصة للتحقق من أن الإنكليز يرغبون رغبة أكيدة فى انتهاج سياسة مبنية على حسن التفاهم وإصلاح ذات البين بينهم وبين الهند ومصر ، وإعطاء الشرقيين القسط الواجب من الاحترام » اه.

لما رسمت هذه الصور واطلع عليها صديق العالم . قال : إن لى اعتراضاً على رسم هذه الصور فى التفسير إن عادتك جرت فى هذا التفسير أن لاترسم إلا ما يفيد فائدة طبيعية من صنع الخالق عز وجل . أما هنا فأراك خالفت عادتك . فقلت : نعم ، ألا ترى رعاك الله أن هذه حادثة يعز نظيرها فى التاريخ ، ألم تر كيف أقدم الأستاذ شوكت على على دفن أخيه فى البلاد العربية المقدسة ، وهذا حادث لم أجد له نظيراً من قبل ، بل إنى لم أر رابطة بين المسلمين توطدت مثل هذه ، إن تاريخ المسيحيين شاهد أنهم كانوا أقوى اتحاداً من المسلمين كما تقدم ، ولكن اليوم جاء دفن المولى محمد على ببلاد العرب دليلا على ارتباط مسلمى الهند وهم ٧٠ مليونا بمسلمى الأمم العربية . فاذا قالت انكلترا هذا وطن يهودى قال الهنود نحن مع إخواننا وقد دفنا أحد عظمائنا فيه ، وهل فى زماننا معجزة قرآنية أعظم من هذه ، وهل أنا رسمت النعش فى التفسير إلا لأنه أبرز لنا معجزة نبوية ، ألا ترى إلى ما قاله الأستاذ المولى شوكت على : « إن جثمان أخى محمد على كناية عن منحة مقرونة بروح التواضع تمنح إلى معشر العرب الذين لم يزل العالم مدينا لهم بأعمالهم التى قاموا بها فيا مضى من نشر العرفان والعلوم والدين والحضارة فى جميع العالم » اهـ

إن هذا القول لم يصدر من أمة من أمم الترك أو الفرس فالترك هدموا ممالك العرب هدما وأذلوهم وقدماء الفرس من قبلهم فتكوا فتكا سياسيا بالأمم العربية وهم مسلمون ، ولكن أهل الهند بهذا العمل المجيد قد أفهمونا معنى قوله تعالى هنا « وإنه لذكر لك ولقومك ».

أصبحت الهند وأبناء العرب اليوم صفاواحدا فى مقابلة من يعتدى على بيت المقدس أو بلاد فلسطين ، فهذا مصداق لهذه الآية ونور من أنوار النبوة المحمدية والحمد لله رب العالمين . انتهى الفصل السادس .

الفصل السابع

فى اتحاد المسلمين اليوم على فرنسا إذ أشيع أنها تنصر البربر ، وتشجع النصرانية فى تونس ، وذلك فى مقالين : المقال الأول وهو ماجاء فى إحدى جرائدنا المصرية يوم ٢٨ أغسطس سنة ١٩٣٠ بعنوان « نداء إلى ملوك الإسلام وشعوبه جميعا » . المقال الثانى وهو ما جاء فى جريدة « كوكب الشرق » تحت عنوان « ظاهرة عجيبة » وهاك نصهما :

نداء إلى ملوك الإسلام وشعوبه جميعا

وإلى علماء الحرمين الشريفين ، ورجال المعاهد الإسلامية من أعلام الأزهر وملحقاته فى المملكة الإسلامية ، وجامع الزيتونة فى تونس ، وجامع القرويين فى فاس ، ومعهد ديوبند فى الهند ، ومعهد النجف فى العراق ، وإلى الجمعيات الإسلامية فى أنحاء الأرض ، ولا سيما جمعيات الهند : جمعية الخلافة فى بومباى ، وجمعية العلماء فى دلهى ، وجمعية أهل الحديث فى دلهى ، وجمعيات أندونسيا : اتحاد إسلام فى سومطره ، وشركة إسلام فى جاوه ، والجمعية المحمدية فى جكجا كرتا ، وإلى المجلس الإسلامى الأعلى فى القدس ، والمجلس الإسلامى الأعلى فى بيروت ، وإلى جمعية ترقى الإسلام فى الصين ، وإلى الصحف الشرقية على اختلاف لغاتها ولهجاتها

إن أمة البربر التى اهتدت بالإسلام منذ العصر الأول والتى طالما اعتمد عليها الإسلام فى فتوحه وانتشاره وطالما استند إليها مستنجدا أو مدافعا فى خطوه الدائمى ، هذه الأمة التى سارت مع طارق إلى أسبانيا ثم

مع عبد الرحمن الغافق ومع أسد بن الفرات إلى صقلية ، هذه الأمة التى كانت منها دولتا المرابطين والموحدين فكانت لها فى تاريخ الإسلام أيام غراء مجيدة ، هذه الأمة التى ظهر منها العلماء الأعلام ، والقادة العظام ، والتى لرجالها فى المكتبة الإسلامية المؤلفات الخالدة إلى يوم الدين ، هذه الأمة التى تبلغ فى المغرب الأقصى وحده أكثر من سبعة ملايين نسمة تريد دولة فرنسا الآن إخراجها برمتها من حظيرة الإسلام بنظام غريب تقوم به سلطة عسكرية قاهرة ممتهنة به حرية الوجدان ، ومتحدية على قدسية الإيمان ، بما لم يعهد له نظير فى التاريخ .

لقد وردت على مصر كتب من الثقات فى المغرب الأقصى تذكر أن فرنسا قديما استصدرت ظهيرا سلطانيا تاريخه ١٧ ذى الحجة سنة ١٣٤٨ هـ ١٦ مايو سنة ١٩٣٠ م ونشرته الجريدة الرسمية فى المغرب بعددها رقم ٩١٩ تنازل فيه سلطان المغرب لها عن الإشراف على الأمور الدينية لأمة البربر ، وأن فرنسا قد بدأت بالفعل فى تنفيذ ذلك الظهير ، فقامت السلطة العسكرية فى المغرب الأقصى تحول بين ثلاثة أرباع السكان وبين القرآن الذى كانت به حياتهم مدة ثلاثة عشر قرنا ، فأبطلوا المدارس القرآنية ووضعوا قلوب أطفال هذه الملايين وعقولهم فى أيدى أكثر من ألف مبشر كاثوليكى بين رهبان وراهبات يديرون مدارس تبشيرية للبنين والبنات ، وأقفلوا جميع المحاكم الشرعية التى كانت فى تلك الديار ، وأجبروا هذه الملايين من المسلمين على أن يتحاكموا فى أنكحتهم ومواريثهم وسائر أحوالهم الشخصية إلى قانون جديد سنوه لهم وأخذوه من عادات البربر التى كانت لهم فى جاهليتهم وهى عادات لا تتفق مع الحضارة ولا تلائم مستوى الإنسانية ، وحسبنا مثالا على انحطاطها وقبحها أنها تعتبر الزوجة متاعا يعار ويباع ، وتورث ولا ترث ، وأنها تجيز للرجل أن يتزوج ما شاء كيف شاء ولو أخته فمن عداها فى وقت واحد ، وإن قانونا كهذا القانون يسن للمسلمين مخالفا للإسلام ، يعد من رضى به مرتدا عن الإسلام بإجماع علماء المسلمين .

إن فرنسا التى تبث الدعاية فى أمم الأرض بأنها أمة الحرية قد أجبرت رجال حكومة المغرب المسلمين على أن يتركوا دينهم بتنازلهم عما للسلطان من الحق فى إقامة أحكام الشرع الإسلامى بين رعاياه من قبائل البربر وجماهيرهم والاعتراف لحكومة الحماية الفرنسية بأنها صارت صاحبة التصرف فى دينهم وأمورهم الشرعية والتهذيبية وهو مالا تملك تلك الحكومة الحق فى التنازل عنه ، ومنذ استصدر الفرنسيون ظهيرا (مرسوما) من سلطان المغرب بهذا التنازل اعتبروا جميع المدارس القرآنية ملغاة ، وجميع العبادات الإسلامية معطلة ، ووكلوا أمر تعليم أطفال المسلمين إلى الرهبان توطئة لتنصير هذه الأمة عقيدة وعبادة وعملا ، وحالوا بين جميع مناطق البربر وبين علماء المسلمين ورؤسائهم فلا يتصل بها أحد منهم .

أيها المسلمون : قد أجمع علماؤكم من جميع المذاهب على أن من رضى بارتداد مسلم عن دينه يكون مرتدا برضاه عن ذلك ، فيجب على جماعات المسلمين وطوائفهم وجمياتهم وأفرادهم أن يرفعوا أصواتهم بالاحتجاج على هذا العمل المنكر الفظيع بكل ما فى وسعهم كل بحسب ما يليق به ، فإذا لم ينفع الاحتجاج فكر المسلمون فى الوسائل الجدية ، وإن فى وسعكم أيها المسلمون أن تجبروا دولة فرنسا على احترام إسلام هذا الشعب الكبير وتركه يتمتع بحريته الدينية والوجدانية ، لأن حرية الدين والوجدان حق من حقوق الإنسان يجب على الإنسانية حمايته من عبث العابثين واعتداء المعتدين .

لقد سلكت دولة فرنسا مع إخواننا مسلمى المغرب سبيلا غير سبيل الرفق والنصح ، فجردتهم من وسائل النهوض وحالت بينهم وبين التعليم الصحيح ، وأنفقت أموال أوقافهم الإسلامية فى ضد ما وقفت له واختصتهم بشر التصيين فى كل ما تتصل به مصالح الوطنيين والأجانب ، وأن فى المسلمين من كان يعرف هذا ويتغاضى

حته إلى حين رجاء أن يجعل الله لأهل المغرب فرجا من عنده ، ولكن امتداد يد السلطة القاهرة فى المغرب إلى دين الإسلام واعتداؤها على حرية العقيدة والديانة قد أوصل هذا العدوان إلى الحد الذى ليس بعده حد حق على كل مسلم أن يبادر إلى إنكار هذا المنكر بكل وسيلة يستطيعها .

يجب أن تعلم فرنسا أن الإسلام لم يمت ، وأن المسلمين قد استيقظوا وصار بعضهم يشعر بما يصيب البعض الآخر من اضطهاد فى دينه ودنياه ، وأن بناء مسجد فى باريس تؤخذ باسمه ملايين الفرنكات من أوقاف الحرمين الشريفين وملايين أخرى من الإعانات الجبرية من جميع مسلمى أفريقية مع إعانات أخرى من سائر العالم الإسلامى لايمكن لفرنسا أن تجعله حجة على حرية الإسلام ومودة المسلمين فى مملكتها (التى تسميها أحيانا إسلامية) مع هذا الجرم الفظيع الذى شرعت فيه أخيرا وظنت أنها تنزع به بضعة ملايين من حظيرة الإسلام بنظام تنفذه قوة عسكرية قاهرة .

إن فرنسا إذا لم ترجع عن هذه الجريمة فإن العالم الإسلامى يعتبر ذلك مجاهرة منها بعداوته ، وسيعلن ذلك على منابر المساجد ، وعلى صفحات المجلات والجرائد ، وفى حلقات الدروس الدينية وفى نظم الجمعيات الإسلامية . لقد حان حين امتحان أحرار أوروبا فيما يدعونه من الانتصار لحرية العقيدة والوجدان ، حتى لقد رضوا بكثير من المنكرات التى يعترفون أنها منكرات ، وذلك حرصا منهم على بقاء الحرية طليقة من قيودها ، وإن أقدس الحريات حرية الوجدان والاعتقاد ، وأسوأ ما أصيبت به هذه الحرية فى هذا العصر محاولة فرنسا أن تحول المغرب الأقصى عن إسلامه إلى النصرانية أو ما شاءت أن تحوله إليه .

لقد سمعنا صوت أوروبا حكوماتها وشعوبها يرتفع عاليا باستنكار ما فعله روسيا البولشفية من إقفالها بعض المعابد مع أن يد البولشفيك الحديدية إنما امتدت إلى الحجارة والطوب ولم تمتد إلى النفوس والقلوب فالعالم الإسلامى ينتظر من أوروبا التى احتجت إلى عمل السوفيت فى الكنائس أن تقول لفرنسا كلمتها الصريحة فى عدوانها على دين الإسلام فى المغرب الأقصى ومنعها بضعة ملايين من البشر منعا رسميا مؤيدا بالسياسة والجيش من أن يسكنوا إلى دينهم وأن يتصلوا بإخوانهم المسلمين اتصالا روحيا يطمئنون إليه ويرتاحون له .

فيا أيها المسلمون : إن دينكم مهدد بالزوال من الأرض ، فإن فرنسا إذا أمكنها تنفيذ مشروعها هذا فى المغرب فستحذو حذوها جميع دول أوروبا فى الشرق ، وقد حتم عليكم فى هذه الحال بذل أنفسكم وأموالكم فى سبيل الدفاع عن دينكم ، فما الذى يمنعكم عن الدفاع عنه والله تعالى يقول : «فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين » ويقول : « ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ومن يرتد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » ويقول « يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » ويقول « وكان حقا علينا نصر المؤمنين » وبلى ذلك الإمضاءات .

ظاهرة منحية

من ظواهر التبشير الديني في تونس

حديث اليوم . الشعور العام نحو المؤتمر الإفخارستي . الإضراب عن العمل . مظاهرة الطلبة . عرائض من الشعب للباي والأعضاء المسلمين . نشاط البوليس واهتمام الحكومة اعتقال ٢٥ طالبا

جاء من مراسل كوكب الشرق في تونس يوم ٢٩ مايو سنة ١٩٣٠ ما يأتي :

لعل القراء يعلمون أن المؤتمر الإفخارستي الذي يعقد كل عامين لحج الرهبان والكاثوليك عامة ولأمور أخرى قد قرر اجتماعه في هذه الدورة بتونس ، وهذه أول بلاد إسلامية ينعقد فيها مؤتمر مسيحي ، وقد حاولت الحكومة التي أشرفت عليه إخفاء حقيقة صبغته والتمويه على الناس بأنه حج مسيحي لا دخل فيه لجرح العواطف ومس المعتقدات ، غير أن أسقف قرطاجنة (منسنيور لوميتر) أعرب عن الصبغة الحقيقية للمؤتمر وقال في إحدى خطبه : « إن هذا المؤتمر هو عبارة عن حملة صليبية جديدة نحو تحقيق فكرة سان لوي (لويس التاسع) والكردينال فيجرى » .

وقد زادت الحكومة الفرنسية أن قررت أخذ مليونين من الميزانية التونسية (برغم أنف المجلس الكبير) وخمسة ملايين من إدارة الأشغال العامة التونسية ونصف مليون من البلدية التونسية وعشرات ألوف من إدارة أوقاف المسلمين ، كل ذلك لتصرفها على المؤتمر الذي هو حملة صليبية ، وقد قدروا غضب الشعب واستياءه من هذا العمل المحرج ، ولكي يتخلصوا من ذلك الغضب وتكون الضربة متمكنة ، ولكي ينفذوا شيئا من برنامج سياستهم التي اتخذوها بهذه البلاد وهي إيجاد الشقاق بين الأمة والعرش أي بين الشعب وملكه قرروا أن يكون للمؤتمر تحت رئاسة الباي أحمد الثاني ، وبعضوية شيخ الإسلام ، والباش مفتي ، والوزراء المسلمين وشيخ المدينة الذي قدم لهم خدمات جمة في الموضوع ، وشقيق رئيس الحجرة التجارية الأهلية ، وعضو المجلس الكبير ، ومحمد بس رمضان عضو المجلس الكبير وغيرهم من الذوات .

واستاءت الأمة وقررت الإضراب عن العمل احتجاجا على وجود المؤتمر بجيفته هذه وعلى الملايين المقتحمة لقوم يريدون أن يقوموا بحملة ضد الدين الإسلامي الذي هو دين الأمة العزيز عليها ، وأصبح يوم السبت ٣ مايو يوم إضراب ، فاستعملت الحكومة القوة لمنعه ، واتخذ البوليس كل طرق الشدة والصرامة في ذلك . وقام جميع طلبة المعاهد بإضراب عام عن التعليم ، وفي الغد تظاهروا واستفظعوا الحكومة وتدخل البوليس فانهال على المتظاهرين بالضرب حتى وقعت جروح للبعض وشاهدت البوليس يضرب الناس بالسكاكين من غير رحمة ولا شفقة إلا أن الطلبة أعادوا المظاهرة في الغد (يوم الاثنين) وجابوا شوارع باب البحر والبوليس يعتقل ويفرق ولم يرحم ، وظل الطلبة متظاهرين من الساعة الثالثة ونصف إلى الساعة السادسة ينادون بحياة الاسلام وسقوط المؤتمر الإفخارستي ، وقدمت عرائض ممضاة من كافة الأمة إلى الباي والذوات المسلمين الذين قبلوا عضوية المؤتمر تطلب منهم الانسحاب من المؤتمر واعتقل البوليس خمسة من الوطنيين و٢٥ من الطلبة . والحكومة هاهنا متخوفة من العواقب الوخيمة التي يفضى إليها هذا العمل الجارح الذي أرادت أن تقوم به في القرن العشرين . هذا ، وإن الحزب الاشتراكي معاضد للأمة التونسية في احتجاجها.

وقد سعى لدى المراجع العليا لإطلاق سراح المعتقلين كما سعى الطلبة فى ذلك مع زعماء الحزب الدستورى ، وقد أطلق سراح الكثير منهم بفضل مساعى الحزب الدستورى ورجاله، والخواطر لا تزال مضطربة ولا تزال مرأى الألف راهب يثير الحماس والغضب . وإلى هنا تم الكلام على الفصل السابع من اللطيفة الأولى، والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثانية

فى قوله تعالى: «والذى نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتا كذلك تخرجون . والذى خلق الأزواج كلها» مع آيات أخرى فى سور كثيرة كقوله تعالى: «ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع فى الأرض» إلى آخر ما فى سورة الزمر من شرح الصدر للاسلام إذ يقول تعالى: «أفمن شرح الله صدره للاسلام» الخ

جاء فى هذه الآيات إنزال الماء ، وإخراج الزرع ، ثم شرح الصدر للاسلام ، وأن القرآن أحسن الحديث فى (سورة الزمر) وهنا مجال لفهم زرع مختلف الألوان نابت بسبب الماء ، وانشراح صدر للاسلام ، وكون القرآن أحسن الحديث ، فلعمرى أى مناسبة بين الزرع والماء الذى يجربه وبين انشراح الصدر للاسلام ، ثم كون القرآن أحسن الحديث ، ولما كتبت هذا حضر العالم صديقى الذى اعتاد الحديث معى فى مثل هذا المقام ، فقال بعد أن قرأ ما ذكرته الآن : حقيقة إن المناسبة تكاد تكون بعيدة الشقة بين الأول والثانى ، أما بين الثانى والثالث فالمناسبة ظاهرة لأن الثالث سبب فى الثانى فهو من ذكر السبب بعد المسبب لأن من قرأ أحسن الحديث ينشرح صدره لما فيه من المعانى . أما المناسبة بين الأول والثانى فهى التى تحتاج إلى بيان . قلت : لقد جاء الكلام على النبات فى مواضع كثيرة من هذا الكتاب ، ولقد ظهرت عجائب فى (سورة النمل) فى آية «فأنبتنا به حدائق ذات بهجة» وفى غيرها ، مثل إن الجذور وتدية وليفية ودرنية ، وهناك مباحث أخرى ، هكذا فى (سورة السجدة) عجائب من النبات فى صوره الظاهرة وعجائب تركيبه من الداخل ، وبيان أن النخل له فى تركيبه صورة أخرى تخالف جميع الأشجار وإذا رأينا الله عز وجل يكرر ذلك الشىء الواحد فى مواضع كثيرة فى القرآن فهذا معناه أن تذكر الحكمة مفرقة لا مجتمعة (وبعبارة أخرى) يستحسن أن تفرق عجائب النبات على الآيات فإن قراءة علم النبات بصفة علم لا يشعر فى النفس ببهجة كالتى يشعرها مايصنع فى أمثال هذا التفسير بحيث يصطفى من أصناف النبات مايثير فى النفس بهجة وترسم أشكاله ويشرح شرحا يشرح الصدر ويبهج النفس ؛ فالقرآن ليس كتابا علميا بالمعنى المتعارف . فالكتب العلمية قصد منها نفس العلوم ، والعلوم شىء والوعظ والاستدلال والتأثير فى النفوس شىء آخر . وفرق بين خزن الحب فى مخزن وبين إعداد الطعام للجائع . فالعلوم فى حد ذاتها كالمخازن واقتطاف شىء منها فى مواضع متفرقة من القرآن شىء آخر . فليس المقصود من آيات القرآن أن تدرس العلوم المتعلقة بها دفعة واحدة فى تفسيرها بل تختطف اختطافا . ولعمرى إن الناس يعرفون الفرق بين روضة ذات أزهار وبين باقة من الأزهار تهدى للزائرين . إن الروضة لا تهدى ولكن الباقة تهدى وتكرم وتأتى بالغرض المقصود من الاكرام: هكذا يجب أن يهدى لقارىء الآيات المختلفات زهرات العلوم . ويجب أن تنوع تلك الأزهار على مختلف الآيات كما ينوع المضيف لضيفه أنواع المأكول والمشروب والمشموم فى اختلاف

الحالات . إن النفس لتسأم من التمادى فى طعام واحد ، ومن التمادى فى حديث واحد ، فلذلك نجد القرآن نوع الحديث ، وجعل النبات الذى نحن عليه مفرقا على السور تعليما للمفسرين أن يفرقوا عجائب النبات على مختلف الآيات ويصوروا محاسن أشكاله لينشرح الصدر للاسلام بما يرى من الجمال البديع ، وذلك بما يؤثر فى نفسه من مختلف الأشكال فى الأحوال المختلفات، وهنا استبان أمران: انشراح الصدر للاسلام بمباهج الصور ، وكيف كان القرآن أحسن الحديث ، لأنه حديث ذو شجون لايسأم الإنسان منه للتفنن فى ترتيب الآيات .

فهاك ما يبهج من علم النبات ومن صوره البديعة الحسنة ، إذا قلنا فى (سورة النحل) إن الجذور ثلاثة أقسام ، ورأيت رسمها وشرحها هناك فلنذكر هنا الجذور التى لا تنشأ من الجذر الأصلى بل من الساق وتسمى الجذور العرضية(انظر شكل ١٠) ومثلها الجذور التى تشاهد على الساق الزاحفة للشليك ، والجذور العرضية شائعة على الأكثر فى ذوات الفلقة الواحدة كالذرة والقمح فإن الجذر الأصلى لهذه النباتات يموت بعد الإنبات بقليل ، وتنشأ بدلا منه جذور عرضية على قاعدة الساق ، وتكون الجذور



(شكل ١٠ الجذور العرضية)

العرضية فى بعض النباتات بمجرد ملامسة الساق للماء أو التربة الرطبة ، ويستفاد من هذه الخاصة عمليا فى تطبيقات عديدة كترقيد النباتات وتصيب القمح الخ ، ففى الترقيد يحنى فرع من ساق النبات (شكل ١١) ويدفن فى الأرض فلاتلبث الجذور العرضية أن تتكون على هذا الفرع فيصبح نباتا جديدا يمكن فصله من النبات الأصلى ، وتلك وسيلة لتكثير النبات كما سترى فيما بعد ، وتصيب القمح يكون بإمرار عجلة أسطوانية على القمح وهو حديث فتميل السوق على الأرض وتنبت عليها جذور عرضية تزيد فى تغذية النبات فيترتب على ذلك وفرة الغلة .


(شكل ١١)
ترقيد الكرمة

فلما قرأ صاحبى هذا القول واطلع على هذين الشكلين . قال : إن الجذور العرضية للشليك (شكل ١٠ المتقدم) وترقيد الكرمة (شكل ١١ المتقدم) لم يخرجا عن كونهما أمرين اعتياديين ، فكل من الجذور الوتدية فى القطن مثلا ، والجذور الليفية فى نحو القمح ، والجذور الدرنية فى نحو الجزر . والجذور العرضية فى نحو الشليك ، والجذور الترقيدية فى نحو العنب ، كل هذه لم تخرج عن كونها مدفونة فى الأرض وقد وافقتها الرطوبة والمواد الأرضية ، غاية الأمر أن الساق امتدت منها الجذور فى الشكلين السابقين على خلاف المعتاد فى الجذور الأصلية ولكن الدفن فى التربة هو السبب فى ذلك ، فليس أمرا غريبا . فقلت : حياك الله ، إن الأرض والدفن فيها ليسا شرطا فى امتداد الجذور . فقال : « هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » . قلت :

الجذور الهوائية

قد تنشأ الجذور على سوق بعض الأشجار كالفيكوس البنغالى (انظر شكل ١٢) فتنمو مدلات فى الهواء حتى تصل إلى الأرض فتنغرس فيها وتعرف هذه الجذور بالجذور الهوائية وتكون مغطاة بنسيج ضارب إلى السمرة يحفظها من أن تجف فى الهواء ، ومن أهم وظائفها أنها تكون بمثابة دعامة للغصون الأفقية .


(شكل ١٢ — الجذور الهوائية)

فقال : هذا حسن ولكن لا يزال فى النفس شىء ، إذا اتجهت الجذور من الأعلى إلى الأسفل فى الهواء واستغنت عن الطين وارتقت فى أشجار كالفيكوس البنغالى عن أمثال القطن والجزر والقمح ، فهى جميعها تتجه من أعلى إلى أسفل ، وهذا أمر طبيعى عام ، والتجربة الآتية شاهدة بذلك .

اتجاه الجذور

يتجه الجذر الأصلى على العموم اتجاها رأسيا من أعلى إلى أسفل لإظهار ذلك تأخذ بادرة فى طور النمو وتضع الجذر وضعا أفقيا (شكل ١٣) فترى طرفه ينحنى رأسيا إلى أسفل ، وإذا ثبتنا بادرة على قطعة من الفلين بحيث يكون الجذر إلى أعلى والساق إلى أسفل (شكل ١٤) نشاهد فى اليوم التالى أن الجذر ينثنى إلى أسفل والساق إلى أعلى .

(شكل ١٣)
جذر فى وضع أفقى

(شكل ١٤)
بادرة معكوسة

فقال صاحبى : هذا حسن فقد عرفنا أننا إذا وضعنا الجذر وضعا أفقيا كما فى (شكل ١٣) أو وضعا منكوساً معكوساً كما فى (شكل ١٤) فان الجذر يتجه إلى أسفل دائما ، ولكن ربما يخطر لبعض الناس أن هذا الجذر إنما يتجه إلى أسفل دائما فراراً من النور أو طلبا لرطوبة الأرض . فقلت :

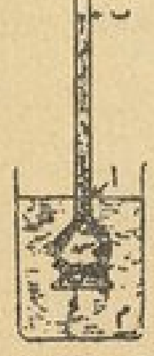
« إذا بذرنا بذوراً فى أصيص ثم ينكس الأصيص (انظر شكل ١٥) بعد أن توضع على حافته شبكة سلكية تمنع سقوط التربة منه فيرى أن الجذر ينمو رأسيا من من أعلى إلى أسفل وهو فى هذه الحالة لا يجتنب الضوء ، ولا يتجه نحو البيئة الرطبة .



(شكل ١٥)
تجربة الأصيص المنكس

فقال صاحبى : لقد استبان هذا الموضوع وظهر ظهورا واضحاً ولكن بماذا يسمى العلماء هذا الميل ، فقلت يسمونه (الانحناء الأرضى) وقالوا إن هذه ليست من الجاذبية العامة ، وما هذه التسمية إلا لمجرد الاصطلاح . فقال صاحبى : هذا حسن وبه نعرف قول الله تعالى « والذى قدر فهدى » وقوله « وإن من شىء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » .

فقال صاحبى : عرفنا أن النبات يتجه دائما جذره إلى الأرض وإن هذا أمر جديد لم يكن فى طبائع الأشياء ، ولكنى أرى أن امتصاص الجذور للمواد التى حولها يشبه كل المشابهة امتصاص المثانة (فى التجربة الآتية) للماء النقى حولها ، وذلك أننا نأتى بأنبوبة مسدودة فى أحد طرفيها بقطعة من مثانة ونصب فيها محلولا سكريا سميكا ثم نغمر الأنبوبة رأسية فى إناء يحتوى على ماء نقى (شكل ١٦) بحيث يكون المحلول السكرى على سمت الماء الخارجى وندعها كذلك زمنا ما فنلاحظ أن سمت المحلول السكرى قد ارتفع فى الأنبوبة من (ا) إلى (ب) كما نلاحظ أن ماء الإناء الخارجى يحتوى على قليل من السكر . ويدل ذلك على أن مقدارا من الماء النقى قد نفذ من المثانة إلى داخل الأنبوبة ، وأن بعضا من المحلول السكرى قد نفذ إلى الاناء الخارجى غير أن تسرب الماء إلى داخل الأنبوبة كان أسرع من تسرب المحلول إلى الخارج



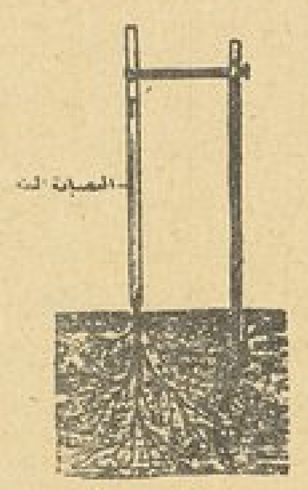
(شكل ١٦) الانتشار الغشائى (م ماء نقى : غ غشاء . ش شراب)

فانتشار السوائل والمحاليل خلال الأغشية على هذه الصورة يعرف بالأسموز أو الانتشار الغشائى ، والضغط الذى حدث فى الأنبوبة فرفع سمت المحلول يعرف بالضغط

الانتشارى ، إذن ينفذ الماء والمواد الذائبة فيه من جدران الشعيرات الجذرية بالانتشار الغشائى ثم يندفع إلى أعلى بالضغط الانتشارى .

إذن الجذور فى النبات كهذه المثانة سواء بسواء ، فهى تمتص من الخارج إلى الداخل وترسل من الداخل إلى الخارج . إذن هذا أمر طبيعى معروف ، فإذا وضعنا قطعة من السكر فى ماء رأيناها امتصت الماء ، فملأ فيها أمام أعيننا ورأينا الماء حولها قد وصله شىء من حلاوة السكر ، ولكن الماء الداخل فى قطعة السكر أكثر مما فقده السكر فى أول الأمر ، ثم تنعكس الحال بعد ذلك . فقلت : إن الجذور ليست كذلك إنها تأخذ ولا تعطى .

إن الانتشار الغشائى فى الأنسجة الحية يختلف عنه فى الأنسجة غير الحية ، فلذلك لا تسمح الشعيرات الجذرية بمرور السكر وغيره من المواد التى فى داخل الخلايا إلى الخارج ، ولإظهار أثر الضغط الانتشارى فى رفع العصارة النيئة إلى أعلى تعمل التجربة المعروفة بتجربة (هلز) :



(شكل ١٧)

« تقطع ساق شجرة بقربة من الأرض ويثبت على الجذع أنبوبة زجاجية تجمل رأسية (انظر شكل ١٧) فبعد مدة ما يندفع فى الأنبوبة سائل رائق ضارب إلى الصفرة إن هو إلا العصارة النيئة .

وليست قدرة الشعيرات الجذرية مقصورة على امتصاص السائل والمواد الغذائية الذائبة فيها بل إنها قادرة أيضا على امتصاص المواد الصلبة



(شكل ١٨)
امتصاص المواد الصلبة

فاذا وضعنا رملا رطبا على قطعة ملساء من الرخام وبذرنا فيه بعض البذور (انظر شكل ١٨) نشاهد بعد الانبات أن المواضع من الرخام الملاصقة للشعيرات متآكلة ، ذلك لأنها تفرز فى مثل هذه الأحوال سائلا يذيب هذه المواد الصلبة ، ثم بعدئذ يحدث الامتصاص .

ويقوم الجذر عدا وظيفة الامتصاص بوظائف أخرى ، فهو يثبت النبات فى الأرض ، وكلما كان الجذر أكثر تعمقا وتفرعا كان النبات أكثر ثباتا وأشد مقاومة لفعل الرياح والمنطقة الخاصة بالتثبيت هى الأقرب إلى الساق وهى خالية من الشعيرات وبشرتها غير ماصة .
والجذر يتبادل الغازات مع الأرض لأنه يتنفس ككل الأجزاء الحية من النبات ، وربما مات النبات إذا لم يجد الجذر مددا كافيا من الاكسيجين ، لهذا كان من الضرورى تسهيل دخول الهواء إلى الجذر ويتوصل إلى ذلك بحرث الأرض وعزقها ، ويستخدم الجذر لادخار المواد الغذائية التى يستهلكها النبات عند الزهير كما يشاهد فى جذور البنجر واللفت الخ .

فقال صاحبى : هذا عجب ! فان إفراز الشعيرات التى فى الجذر للسوائل وإذابتها المواد الصلبة من أعجب العجب ، وهى فى هذا أشبهت الإنسان والحيوان ، إذ لنا جميعاً غدد لعابية فى أفواهنا ، ولنا سوائل أخرى مثل (البنكرياس) فى المعدة ، وكل هذه لهضم الطعام ، ولنا غدد تفرز لبن المرأة لولدها ، ولنا المرّة الصفراء التى بجانب الكبد تفرز تلك المادة فتكون سببا فى منافع صحية ، وهكذا هنا الكليتان لتنحية الماء ، إلهنا فيتزل فى الحالين ، فإذن النبات عنده وظائف كالوظائف عند الحيوان ، وبإفرازه سوائل خاصة يحدث نحتا فى الصخور ، وعلى ذلك تهدم الجذور المبانى العظيمة بنفس الإفراز لا بالضغط الذى يفعله الثلج إذا جمد

بباطن الكهوف فإن الماء إذا برد فى باطن الجبال كسرها لأن الثلج أكبر حجما من الماء الذى صار ثلجا فيكسر ذلك الثلج مافوقه من الأحجار فتظهر العيون ، فظهور العيون فى الجبال إنما يكون بضغط الثلج على الأحجار أما ذوبان الحجارة والحصوات وحبات الرمل ودخولها فى جسم النبات فلن يكون بالضغط والتكسير وإنما يكون بأعمال كيمائية وهى التحليل والتركيب فتحلل الجذور تلك العناصر الصلبة فى الحال وتدخلها أجسامها وهناك تركب تركيبا جديدا ، وهذا هو الرقى الذى وضعه الله فى أرضنا وجعله درسا لنا ، فهو يقول : الضغط الجسمى شأن الجماد ، فتعليم الناس العلم بالضغط والأذى ، وإرغامهم على العمل لمصلحة الذين استعمروا بلادهم إنما هو شأن الأمم الذين لم يخرجوا عن أعمال الجماد ، فلا حياة لهم إلا الحياة الجامدة وهل الرجل الذى يسخر غيره لمنفعته هو إلا كالثلج ضغط على الحجر فكسره ، فأما الأمم التى هى أرقى فإنها تعلم الشعب تعليما نافعا وتنقله من حال الصلابة والهمجية إلى حال العلم والحكمة ، فترجع سهلة القبول للرقى وتكون الأمم إذ ذاك أشبه بتلك المواد المفتتة من الحصى وقد حصلت فى جسم النبات فصارت زهرا باهرا ، وورقا ناضرا ، وثمرا نافعا للسائر الناس ، هذا هو صراط الله المستقيم أن يعلم الناس قاطبة فيكونون أشبه بأمة واحدة لا أن يساموا الخسف كما يفعل الثلج فى الجبال فيكسرها ، الماء فى حاله المعتادة كالأمم فى حال هدوئها . ولكنه إذا برد وصار ثلجا فى الجبل صار كالأمم الوحشية إذا اجتمعت لغزو أمة أخرى فتؤثر فيها بالقوة وأما جذور الأشجار فلا تؤثر بقوة الجسم بل بقوة العلم وهو علم الكيمياء ، ولسنا نقول أن الجذور علماء بالكيمياء بل نقول أن السلطة العليا المحيطة بهذه العوالم علمت هذه الجذور وهدتها أن تفتت الحصوات حولها كما هدت لعاب الحيوان أن يهضم الطعام ، ولقد اجتمع هذان المثلان أى مثل الثلج ، ومثل الجذور فى مضغ الأسنان والحيوان لطعامهما ، فنحن نمضغ بقوة الأسنان ، ولكن هذا المضغ وحده لا يسعد الحيوان لأنه وإن فتت اللقمة فليس معنى هذا أن اللقمة بهذا التفتيت أصبحت صالحة للغذاء . كلا . بل هناك تلاقى اللقمة الغدد اللعابية فى الفم والبنكرياس فى المعدة ، وهناك يهضم الطعام ويتمثل بالجسم الإنسانى ويصبح هو جسم الإنسان ، فحال المضغ هى حال هذا الإنسان فى وحشيته الحاضرة والماضية ، وحال اللعاب ، وهضمه حال الأمم التى تأتى بعدنا التى تضع كل امرئ فيما استعد له من العمل ، وكل أمة فيما استعدت له من المنفعة العامة لجميع الناس ، وهذا هو الذى ألفت له كتاب (أين الإنسان) .

فقال صاحبى : هذا الموضوع كله قد بنيته أنت على الجذور وعملها ، وأنا أريد أن تختمه بالكلام على أجزاء بعض الشجرات الظاهرة . فقلت : لقد تقدم الكلام على ذلك فى مواطن كثيرة ، منها ما تقدم فى (سورة الحجر) عند آية « وأنبتنا فيها من كل شىء موزون » فإنك ترى هناك الدوائر البديعة المنتظمة بها أوراق النبات بنظام هندسى بديع فاقرأه هناك ، وعند آية « وأرسلنا الرياح لواقح » فى نفس السورة فإنك ترى هناك عجائب الأزهار ونومها ويقظتها وإلقاحها ، وترى فى (سورة الشعراء) نظيره وفى (سورة النحل) ترى الكلام على الأوراق ونظامها من جهة أخرى غير ما جاء فى (سورة الحجر) . فقال ولكنى أريد أن أشاهد نفس الزهرة عند نومها وعند يقظتها وما أشبه ذلك إيضاحا لما تقدم فى (سورة الحجر) فقلت : جاء فى كتاب (مبادئ التاريخ الطبيعى) مانصه :

« ويؤثر الضوء فى اتجاه الأوراق ، فإذا وضعنا نباتا فى غرفة أمام نافذة رأينا الأوراق تدير وجهها العلوى نحو النافذة حتى تلقى أكبر قدر ممكن من الضوء ، والأوراق بوجه عام تجعل نصلها عموديا على اتجاه الضوء »

حركات الأوراق

رأينا فيما تقدم أن أوراق البراعم تغير وضعها عند تفتحها وأن المحاليق تلتف حول الأشياء التي تصادفها وهذا التغير في الوضع أو في الاتجاه الذي يشاهد في الأوراق الآخذة في النمو يعتبر نوعا من الحركة، على أن الأوراق التامة النمو قد تتحرك بصورة واضحة عند بعض النباتات ، وقد تكون هذه الحركة مسببة عن الضوء أو عن اللامسة وقد تكون ذاتية ناشئة عن أسباب داخلية ، ونحن نسرد هنا بعض أمثلة من هذه الحركات .

نعاس الأوراق

(ب) نعاس (ا) يقظه

شكل ١٩ – أوراق الترمس

وريقات الورقة المركبة من الترمس تكون أفقية أثناء النهار ولكنها متى أقبل الليل تتدلى شيئا فشيئا حتى تضم أوجهها السفلى بعضها إلى بعض (انظر شكل ١٩) ثم تعود في الصباح سيرتها الأولى، وتسمى الحركات التي من هذا القبيل بالحركات النعاسية وهي شائعة في كثير من النباتات كالبرسيم والحميض الخ إنما يغلب أن تتجه الأوراق في نعاسها إلى أعلى ضامة أوجهها العليا بعضها إلى بعض ، وفي قاعدة الوريقة المتحركة نجد انتفاخا يعرف بالانتفاخ المحرك (انظر شكل ٢٠) وهو متى امتلأ بالماء تضخم ودفع الورقة إلى أعلى أو إلى أسفل وفقا لشكله الذي يختلف باختلاف النباتات، وبالضد إذا تسرب منه بعض الماء إلى الساق رأيناه يهبط ويصير خرعا فتأخذ الوريقات وضعها الأفقي من جديد ، وترجع كثرة الماء وقلته في الانتفاخ المحرك إلى أن مقدار الماء الذي يتجه النبات يتغير تبعا لشدة الضوء ، وكأنما الغرض من الحركات النعاسية إنقاص السطح الورقي المعرض لبرودة الليل .



شكل ٢٠ – الانتفاخ المحرك
رسم وهمي

الحركات المسببة عن الملامسة

أوراق بعض النباتات كالمستحية والنباتات الآكلة الحشرات تتحرك بمجرد اللمس فتغير وضعها ثم تعود إليه بعد زمن ما ، هذه النباتات هنا قابلة للتهيج بصورة تشبه من بعض الوجوه قابلية التهيج عند الحيوانات لاسيما أننا نستطيع في كلتا الحالتين إبطال هذه القابلية للتهيج وقتيا بتأثير بعض المواد المرقدة كالأثير والكلوروفرم والنباتات المستحية تقدمت مشروحة بصورة في سورة الرعد عند آية «يسقى بماء واحد» .

الحركات الذاتية

وهناك نباتات تتحرك أوراقها لغير سبب ظاهر ويطلق على مثل هـذه الحركات اسم الحركات الذاتية . وأحسن مثال لهذه النباتات نبات ينبت في الهندواسمه هدزاروم جيرانس (شكل ٢١) تتكون ورقه من وريقة كبيرة، وعند قاعدتها وريقتان صغيرتان (ب) و (ب) فمتى وضع النبات في بيئة لاتقل درجة حرارتها عن ٢٢° مئوية ترى الوريقتين الصغيرتين تتحركان ببطء فتدور كل منهما حول قاعدتها بحيث تتم الدورة الكاملة في زمن يتراوح بين دقيقتين وخمس دقائق ، وغالبا لا تكون هذه الحركات الدورية منتظمة بل تتركب من عدة رجات متتابعة ، وهنا أيضا يرى في قاعدة الوريقة المتحركة انتفاخ هو الذي يدفعها إلى الحركة بمايظهر على جوانبه من الارتفاع والهبوط المتبادلين ، على أن السبب الباعث لهذه الحركات لا يزال غير مدرك حتى الآن .



(شكل ٢١)
ورقة الهدزاروم جيرانس

سقوط الأوراق

في غالب الأشجار والشجيرات التي تنمو في المناطق الباردة والمعتدلة تكون الأوراق محدودة الأمد فإنها تتولد في الربيع وتنمو مدة الصيف، ولكن متى حل الخريف تراها تفقد خضرتها وتأخذ صبغة صفراء أو ضاربة إلى الحمرة ، ثم تنفصل قاعدتها عن الغصن الذي كان يحملها وتسقط على الأرض تاركة مكانها أثرا ظاهرا يعرف بندبة الورقة ، ويشاهد فوق سطح الندبة طبقة واقية من الفلين ، وهذه الطبقة تنشأ قبل سقوط الورقة بمدة ما فتمنع وصول العصارة إلى الورقة كما أنها تساعد على انفصالها من الغصن ، ويتكون في إبط الورقة قبل سقوطها برعم إبطي يظل ساكنا مدة الشتاء ، ثم ينمو في الربيع التالي ويكون غصنا جديدا ذا أوراق، وتعرف مثل هذه الأوراق بالأوراق المتجددة، ومثلها أوراق المشمش والتفاح والكرمة، على أن بعض الأشجار والشجيرات تكون مكسوة بأوراق خضراء في جميع أوقات السنة ، وتسمى هذه النباتات بدائمة الخضرة ، ومثلها الصنوبر واليوكالبتس (المعروف عند العامة بالكافور) والفيكوس الخ ، ففي هذه النباتات تبقى الأوراق على الأشجار أكثر من فصل ولا تسقط أوراقها في وقت واحد .

فلما سمع صاحبي ذلك . قال : هذا حسن جدا ، فهل ترى هنا فكرة حكمية ؟ فقلت : لقد عجبت هنا من (أمرين : أولهما) أن الورقة قبل سقوطها يحدث فوق سطح الندبة طبقة واقية فتمنع وصول العصارة إليها (ثانيهما) إنه يتكون في إبط الورقة قبل السقوط برعم إبطي يظل ساكنا مدة الشتاء ثم ينمو في الربيع وهذا عجبان ، فكأن هذه الطبقة أشبه بالسدود في البحر تمنع جري الماء لغرض خاص أو كما يصنع في سقية الأرض إذ يحول الماء من الحوض الذي يجري فيه الماء إلى حوض آخر وذلك بسده بالطين الذي يجرفه بالفأس ؛ إذا فعل الله في أبداننا مافعله في حقولنا سواء بسواء ، وبدون دراسة هذه العلوم لا يخطر لنا أن ذبول الأوراق تقدمه سد العصارة عنه كما أن الإنسان يموت ولا يعرف الناس عن الموت إلا أنه أمر طبيعي ويجهلون السبب ، لم يكن ليخطر لأحد من الناس قبل انتشار هذه العلوم أن الحمى والجدري والإسهال والحمى التيفوذية ، والحمى التيفوسية وأمثالها والكوليرا كلها لم تكن إلا لحيوانات ميكروسكوبية أحدثتها وأنتجت تلك الأمراض (انظره في سورة الروم) كما أن سقوط الأوراق لم يكن ليخطر للناس قبل ظهور هذه العلوم ، إن هناك سدا يوجب انحباس العصارة عنها ، إذن كل مافي أجسامنا وما في هذه العوالم لايكون

إلا بأعمال دبرتها نفوس عالية منتظمة مستمدة نظامها من مبدع العالم كما ترى الضوء المنتشر فى الأرض مستمدا من قرص الشمس ، فهاهنا قوى عاقلة تحيط بنا كامنة العقل مهندسة حكيمة لها أعمال ذات نظام تحيط بنا إحاطة الشمس بأجسامنا ، فهاهنا نور شمسي وكوكبي وهاهنا ضوء عقلي يتدخل فى كل شيء .

هذا هو الأمر الأول ، أما الأمر الثانى فهو أن البرعم الإبطى الذى ينمو فى الربيع أشبه بالأجنة فى بطون أمهاتها ليحلوا محل الآباء إذا ماتوا ، فبينما الهرم يحل بالآباء ترى الأجنة والأطفال ينمون ويكبرون ، هكذا البرعم الابطى ينمو أثناء منع العصارة عن تغذية الورقة ليحل بها الفناء ، وهذا هو قوله تعالى « ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت » فهذه العصارة حولت من الورقة إلى البرعم الصغير كما تتزايد الحياة فى الأطفال وتتناقص فى الكبار ، والله هو الولى الحميد وهو حسبنا ونعم الوكيل . كتب فى يوم الأربعاء ١٥ يناير سنة ١٩٣٠ م

بهجة العلم فى اللطيفة الثانية

فى قوله تعالى : « والذى نزل من السماء ماء بقدر »

يقول الله فى (سورة الواقعه) « أفرأيتم ماتحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون . لونشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون » فالله هو الذى أنزل الماء من السماء ، وهو الذى سلكه ينابيع فى الأرض ، وهو نفسه الزارع ، وهذه الآيات يفهمها الجاهل والعالم لأنهاواضحة ، ولكن التحقق منها وإدراك حقائقها لن يكون ولن يتسنى إلا للقليل من نوع الإنسان . إن الناس مغمورون فى النعم وهذه النعم تعمى وتصم لكثرتها عن إدراك الحقائق ، فالنعم لوفرتها من شمس تضيء وهواء يحيط ، وحبوب تزرع ، ونبات يظهر ، ولا عمل للانسان فيها ، كل هذه أنامت هذا النوع الإنسانى قديما وحديثا ، فهل لك أن أحدثك حديثا جميلا يكشف بعض النقاب عن هذا الجمال حتى يكون بابا تلج منه لإدراك الحقائق وإن كانت تلك الحقائق يعوزها صرف الحياة فى فهمها والبحث عنها ، ولن يحب الإنسان صانع هذا العالم حبا مفرطا لذاته غير ملاحظ خوفا من النار ولا طمعا فى الجنة ، ولا عقابا ولا ثوابا إلا إذا درس هذه الدنيا وجمالها درسا فكريا بعد الاطلاع على علوم الحيوان والنبات والكواكب الخ وهذا الدارس هو السعيد حقا فى هذه الدنيا وبعد الموت لأنه لايرى من الله إلا الرحمة العامة ولا يكدر صفوه ما يرى من حوادث الدول والحروب ولا الموت ولا الحياة فإن هذا الدارس الفكر وقفت نفسه على سر هذا كله وقنعت بالحقائق فانشرحت لها وتجلى لها الله فى الدنيا - جنته الحقيقية وهذا هو الذى لا يحزنه الفزع الأكبر لأنه عارف والعارف موقن بالرحمة ، والذى يخاف من الفزع الأكبر هم أكثر هذا النوع الإنسانى لأنهم يعيشون فى جلودهم ولا يفهمون نظام الرحمة فى الوجود ويتقلبون فى أنواع اللذات والآلام ولا يفهمون ما وراءها ، فهؤلاء قد جعل من بين أيديهم سد الشهوات ومن خلفهم سد الآلام فأغشي على عقولهم فهم لا يبصرون الحقائق ، فأما أنت أيها الذكى فهاك نبذة من ذلك الجمال تفتح بها ما أغلق على أكثر نوع الإنسان وإن كانوا علماء فى جميع هذه العلوم ، فانظر إلى الشمس إنها ترسل الألوان السبعة روقة وهو الأحمر والبرتقالى والأصفر والأخضر والأزرق والنيلى والبنفسجى وهذه تتحد - تصير لونا واحدا هو الذى يغطى الأرض وجبالها وأنهارها وبحارها وآجامها وحجرها ومدرها ونبتها وشجرها ، وهذا الضوء هو الذى به ينمو النبات ، ذلك أنه يساعد المادة الملونة المخزونة فى الأوراق على اجتذاب المواد الفحمية من الهواء وهو الذى يقيم هيكل النبات ، وهذا النبات هو الذى توقف بناء هيكله على الشمس ، ترى فيه أمرا عجيبا

تاله مقسما على بقاع الأرض وعلى الأزمنة وعلى حواس الأحياء وعلى ما ينفعهم من غذاء وفاكهة ودواء . فهاهنا أربعة فصول فى تقسيم النبات على بقاع الأرض والأزمان والحواس ومنافع الحيوان : وهاك بيانها :

الفصل الأول

فى أن أنواع النبات تكون فى جميع الأماكن

إن منها ما ينبت فى البرارى والقفار ، ومنها ما ينبت على رءوس الجبال . ومنها ما ينبت على شطوط الأنهار وسواحل البحار ، ومنها ما ينبت فى الآجام والغياض ، ومنها ما يزرعه الناس ويغرسونه فى القرى والسوادات والبساتين ، ومنها ما يكون على وجه الأرض ، ومنها ما ينبت تحت الماء ومن ذلك قصب السكر والأرز والنيلوفر ، وأنواع الكرش ، ومنها ما ينبت على وجه الماء كالطحلب ، وما ينسج على الشجر والنبات (كالكشوث) واللبلاب ومنها ما ينبت على وجه الصخور كخضراء الدمن ، ومنها مالا ينبت إلا فى البلاد الحارة كالنخل . وما لاينبت إلا فى البلاد الباردة . ومالا ينبت إلا فى التربة الطيبة . ومالا ينبت إلا فى الرمال وبين الحصا والحجارة والصخور والأرضين اليابسة . ومنها مالا ينبت إلا فى الأرضين السبخة المشورجة .

واعلم أن أرضكم هذه لما أتمت فى حضانة الشمس المدة الكافية لسن بلوغها قالت لها بلسان الحال أى بنيتى ها هو ذا جاء زمن بلوغك فانهضى من مرقدك فى مهدك الذى تربين فيه وها أنا ذا أرسلك إلى مدارك الذى تدورين فيه حولى كما أرسلت من قبلك أخواتك الكبريات مثل بناتى (أورانوس ونبتون والمشترى والمريخ وأمثالهن) فها هو ذا جاء الوقت الذى أرسلت لتكونى فى مدار خاص وهو منزل بعلك الذى تطيعيه وهو الضوء الذى يسير منى إليك حين تبتدئين فى الدوران ، وباجتماعه معك تلدين ذرية صالحة إن شاء الله وهى أنواع النبات والحيوان ، ولكن يا بنيتى واسوءتاه ، إن أبناءك من ذرية أحد أولادك المسمى آدم سيكونون خارجين عن سنن القوانين حين يطردون من الجنة التى كان أبوهم فيها ، فأنا يا بنيتى أنصحك أن تأخذى معك كل مايجب لحفظ صحتهم إذا ضعفت لتطول حياتهم أمدا ما ؛ فخذى فى هيكلك من العناصر ما ينفعهم ، فها هو ذا المغنسيوم والكبريت والفوسفور والحديد والكلور وأمثالها فإنها ستدخل فى مواد نباتية فيكون الأول نافعا فى العضلات ، والثانى فى الدم ، والثالث فى المخ ، الرابع فى احمرار الدم ، والخامس فى هضم طعامهم ، فهذا يا بنيتى هو وأمثاله من الجهاز الذى تأخذه بناتى معهن لأزواجهن حتى يلدن الذرية الصالحة النافعة . واعلمى يا بنيتى أن الله قد أعد لأبنائك من ذرية آدم كل مايحتاجون إليه قبل إخراجك من جسمى لأنه علم أنهم قوم لا يحافظون على صحتهم فأمرنى أن أبلغك أمره إذ يقول : إنه سينبت عليك مثلا الجزر ليكون نافعا للجلد كما تقدم ، وأمثال الخس ليكون نافعا للأعصاب ، وأمثال البرتقال ليكون نافعا للشجاعة ، والبقدونس ليكون نافعا للكليتين ، والطماطم لتكون نافعة للكبد .

وهذه الذرية ستخلق بعد مئات الملايين من السنين . فقالت الأرض : يا أماه . وكيف هذا ؟ فقالت لأن الله يعلم كل شئ قبل خلق السموات والأرض فهناك مناسبة عجيبة بين العناصر والنباتات وبين أعضاء الإنسان عضوا عضوا « ولكن أكثر الناس لايعلمون » .

الفصل الثانى

فى تقسيم النبات على الفصول

النبات	مبدأ زرعه	زمان حصده
أكثر النبات	فى زمن الربيع	
الحنطة والشعير والباقلا والعدس وغيرها	فى زمن الخريف	الربيع
القثاء . الخيار . الباذنجان	فى الشتاء	الربيع
الجزر . الشلغم . الكرنب . القنبيط	الخريف	الشتاء
السمسم . الذرة . الأرز	الصيف	الخريف
القطن . القنب	الربيع	الخريف

الفصل الثالث

فى تقسيم النبات على حواس الحيوان ومنه الإنسان

النبات	الحاسة
مناظر الأشجار والأزهار جميعها	لحاسة البصر
الأزهار وذوات الرائحة الطيبة كالورد	لحاسة الشم
حفيف الأشجار وغور الأعشاب وهكذا	لحاسة الأذن
الحلو كالتمر والتفاح والعنب وأمثال ذلك	لحاسة الذوق
نعومة الزهر والقطن مثلا	لحاسة اللمس

الفصل الرابع

فى تقسيم النبات على منافع الانسان

فمن النبات ماهو للغذاء كالحبوب والفواكه ، ومنها ما هو للدواء ، وهذا مقسم على الأعضاء أو عام ، فأما ماهو عام فمثاله الكافور والصفصاف ، أما الكافور فهو نافع فى الأمراض العصبية كالصرع واختناق الرحم المسمى (هيستريا) وذلك بأن تهجم على المريض نوبات عصبية فيفقد الشعور تماما فلا يحس ولو كوى بالنار ويقع ولو كان أمامه بئر ويعض على لسانه ، ويقول له العامة (معفرت) وهذا يستعمل له التفريج وترك الكدر ، ورش له مسحوق الكافور على فرشه فهو مضاد للتشنج وإن كان قد اعتاد الاستمناء باليد يمنعه

ذلك المسحوق على الفرش ، وأما الصفصاف فهو للحمى ، وذلك أن المصاب بالحمى يعالج بغلي أوراق الصفصاف بأن يوضع (أوقيتان في رطل ماء) ويغليان ويشربهما مع وجوب ترك المحل الذي أصيب فيه بالحمى حتى يغير الهواء ، ويقتصر على الحمية ولا يأكل إلا قليل المرق واللبن ولا يشرب إلا ماء الشعير ليطفئ الظمأ ويكون مقام ورق الصفصاف مثل قشر البلوط وورق الجوز أو الزيتون . فهذان مثلان هو عام لمداواة الجسم كله ، أما ما يختص ببعض الأعضاء دون بعض فثاله :

(١) إن الجلد ينفعه أكل الجزر .

(٢) والأعصاب ينفعها أكل الخس والسبانخ .

(٣) ولترك الخوف وظهور الشجاعة ينفع أكل البرتقال والليمون :

(٤) ولأجل شفاء الكليتين ينفع أكل البقدونس وكذلك اللاز والفجل .

(٥) ولأجل شفاء الكبد ينفع أكل الطماطم والهندبا (جعضيض) والبصل .

(٦) ولشفاء النزلة المعدية المعوية المزمنة وهي (القرقة) بأكل المريض السريس الأخضر ، وهو (الشكوريا البرية) مع الغذاء مدة أسبوع ، وهكذا حب الرشاد لأنه يحتوي على أصول مقوية جداً للهضم ومصلحة لتلك المعدة .

(٧) ولشفاء الرأس من ضرر (بطحة الشمس) وهي المسماة ضربة الشمس يصب على الرأس ماء بارد مضاف إليه قليل من الخل ؛ ويترك الرأس عاريا .

(٨) ولشفاء (داء الخناق) المسمى (دفتيريا) يؤتى للمريض بخرقة نظيفة تلف علي قطعة خشب رقيقة ثم تغمس في عصير الليمون المصفى ويمس بها حلق الطفل ، ويكرر ذلك كل ساعة مرة .

(٩) ولإسهال الطفل الذي يسميه الفلاحون بمصر (التاويحة) يجب أولا منع سببه وهو أكل الطعام والثمار قبل استعداد الطفل للأكل بل يجب أن يطعم لبن البقر إذا لم يكن لأمه لبن ويضاف إليه مقدار درهم من مسحوق الطباشير الناعم النقي كل يوم أو مثله من مسحوق الفحم النباتي (فحم الخشب النظيف) وقد يضاف إليه (بي كربونات الصودا) :

(١٠) ويعالج وجع الشقة وهو (أمراض النخاع والمغص المعوي والمغص الكلوي) باستعمال مغلى بزر الخلة يؤخذ قدر أوقية ويغلى في رطل ماء ويصفى ويشرب منه قدر فنجال كل صباح ، فليواظب على ذلك فإنه لا يشكو مرة أخرى من وجع الشقة ، وليلاحظ نقاء ماء الشرب ، فالأحسن أن يغلى في إناء ويؤخذ الصافي منه ويبرد في أوان ويستعمل ، أما الترويق بنوى المشمش أو بالفول ففيهما ضرر كبير ، فالأول قتال والثاني يعفن ويأتي بجراثيم مضرة ،والأحسن وضع نصف أوقية من الفحم النباتي النظيف المغسول مرارا في الزير ، ومتى فرغ الزير يؤخذ الفحم ويغسل ثانيا ويعمل به ما فعل أولا ، فهذا ربما يفيد في إزالة وسخ الماء ؛ وينفع في هذا المرض أيضا أكل الكبر وهو معروف في حقول البرسيم في مصر ؛ وينفع أيضا فنجان من مغلى بزر الحرمل عند تناول الإفطار مدة أسبوع .

تلك عشرة كاملة بعد المثالين الأولين العامين . فقلت : هذا كله من كتابين : أحدهما كتاب « طب الركة » تأليف الدكتور عبد الرحمن إسماعيل المتخرج من القصر العيني بمصر ، وثانيهما كتاب في الطب تأليف (السيزوبليم وبلكوكس)

وقد بذلت جهدي في أن أجعل هذه الأمثلة مستوفاة بحيث يمكن الانتفاع بها في المعالجة ولم أنقص من المعالجة المذكورة فيها شيئا مما ذكر في المصدر الذي نقلت منه .

هناك

هنالك اطلع على هذا أحد العلماء، فقال لى : هذه الفصول الأربعة طال الكلام فيها ، وهل هذا كتاب طب ؟ أم هو كتاب زراعة ؟ إن هـذا تفسير القرآن . وإنما ذكرتك بهذا لئلا يستهويك جمال العلم فتنسى أصل الموضوع ، فيرى القارىء أنك تجاوزت الحد المقرر التمثيل فى التفسير : فقلت : كلا . ماغفلت وإنما هذه الفصول جملتها قواعد أربعة أبنى عليها قصور الحكمة وقلاع العلم إن القمح والقطن وأنواع الخضر والريحان والفاكهة يزرعها الناس وتمر عليهم الفصول والسنون ويأكلون ويتفكهون ويمرضون ويتداوون ثم يموتون وأكثرهم لايذكرون . فهاهنا ذكرنا هذه الأمور ، وسأبين هنا كيف تمثل الروايات حول الناس صباحا ومساء وهم لايشعرون ولاهم يذكرون ، غاية الأمر أن يقال فلان غنى ، وفلان فقير ، وفلان جاهل ، وفلان عالم ، أما هذه الفصول التى تمثل فى مشاهد الطبيعة فهم عنها معرضون ، وقل من يخلق فى هذه الأرض ثم هو يفكر فى أن الشمس خرجت منها أمواج الأشعة فسافرت حتى وصلت إلى البحار ، فأثارتها وأثارت الهواء فكانت سحاب فمطر فرزق وثمر ودواء الخ .

إن أكثر الناس لايعلمون « قتل الإنسان ما أكفره » « إنه كان ظلوما جهولا » ضوء وهواء وحب يدفن فى الأرض وماء ينزل عليه ومواد خضراء بعضها فوق بعض ذات أوراق على ساق فأزهار فاتنة ، ثم إن كل ثمر أوجب له عضو من أعضاء جسم الإنسان يداويه . فأى مناسبة بين الشمس التى بعدت عنا مسافة (١٢) سنة بسفر قلة المدفع وبين بذور تلقى فى الأرض وماء يخالطها ثم ينتج دواء أو غذاء لخلائق بعيداعنهما لامناسبة بينهما البتة ، أى مناسبة بين بذور ومياه وأضواء وبين رجل فى الحقل حتى إن هذه الحبوب والأوراق المختلفات تقسم منافعها على أعضائه من قلب وكبد ومعدة وأمعاء إلى آخر ماتقدم . يحار فكر العاقل فيقول : نور يسوق غازا وسائلا وهذان يجريان فى الجو بلا نظام ، ثم هما يؤثران فى غيرهما وهكذا حتى ينتهى الامر إلى منفعة عامة لكل حى .

فقال صاحبى : لقد ذكرت أن هذه أشبه بالروايات والناس لايعقلونها . فقلت نعم أن فصول الروايات على قسمين : فصول يعقلها الحكماء ، وفصول يعقلها الجهلاء ، والعقلاء والجهلاء كل منهما فرح بمالديه ، فهذا بالخيال مغرور وهذا بالحقائق فى حبور فيا بعد ما بينهما . إن بينهما بعد المشرقين والمغربين فقال: حدثنى عن الخيال الذى للعوام وللحقائق التى للخواص على شريطة أن يتحدا فى معنى واحد حتى أدرك الفرق بينهما ؟ فقلت : أذكر لك أولا قصة خيالية من قصص (ألف ليلة وليلة) فدتقدمت ذكرها فى(سورة الكهف) وهى قصة مدينة النحاس ، ذكرتها هناك من أنواع الزينة التى أبدعها الله فى عقول العلماء فأبهجت القلوب ذلك أن الكتاب تصور أن موسى بن نصير المعروف بأنه مع طارق بن زياد اللذين فتحا الأندلس كان معه رجل اسمه عبد الصمد قد كشفا عمودا من النحاس ففتحاه فخرج جنى كان معذبا من أيام سليمان عليه السلام ، وحكى لهما تاريخ حبسه . ثم ذهبا إلى مدينة النحاس وهى كبيرة جدا طاف الرجال حولها على خيولهم يومين حتى رجعوا للمكان الذى خرجوا منه ، وأدهشهم سورها الذى لا يمكن اقتحامه لعظمة ارتفاعه ، ثم عثروا على مفاتيحها فوجدوا جواهر من ذهب وفضة وألماس وياقوت مما لايحصيه إلا الله والناس صرعى كل فى مكان فى السوق والقصور والمنازل ، ومن أعجب العجب أنهم رأوا فتاة جميلة وعيناها تنظران فسلما فلم ترد فعرفوا أنها ميتة ولكن عينها تتحرك بالحكمة فقرب واحدمنها ليأخذ ماعليها من الحلى والحلل التى لانظير لها فى الدنيا ، فانقض عليه سيافان واقفان حولها بتصور الحكمة فضرباه بالسيف فقتلاه فتركوها ، ثم وجدوا لوحا مكتوبا فيه قصة هـذه المدينة والجماعة التى حلت بها ، فاقرأ الملخص بتمامه فى (سورة الكهف) أو فارجع إلى نص ألف ليلة وليلة .

فهذه الخرافة تلذ السامعين من الصغار والنساء والعامة الجهلاء ، لأن فيها مفاجآت عجيبة وأمورا

غريبة والخيال يصبو إلى هذه الغرائب، فإنه إذا سمع أن هناك مدينة عظيمة جدا دهش لأنه لا نظير لها ، وإذا سمع أنها مملوءة جواهر وأن فتاة جميلة تتحرك عيناها دهش جدا ، وإذا سمع أن رجلا قتل بسيوف من تماثيل واقفة زاد دهشه ، فهذه الرواية جعلت لتعليم الناس الزهد فى الدنيا ولا سبيل لذلك إلا بهذه الخرافات فهى حسنة جدا لصغار الأحلام . وهكذا نجد رواية أخرى جاء فيها أن ابن ملك من ملوك مصر رأى فى خزائن أبيه خلعة بهجة فيها صورة فتاة جميلة وهو فى سن الرابعة عشرة فهام بحبها وأعطاه أبوه بعد اللتيا والتى ما طلبه من رجال الجند والذخائر والعدة وسافر إلى أقصى الشرق ومات جميع رجاله غرقا تارة وقتلا أخرى بعد أن وقع فى الأسر مرارا ، ورماه القدر فى بلاد الفرس بعد رجوعه من الشرق الأقصى فعثر على ابنة ملك الجن فى حديقة وهى نفس الصورة التى كان يطلبها فتزوجها ورجع بها إلى أبيه وكان يوما مشهودا .

فهذه القصة تقرؤها فى نفس كتاب « ألف ليلة وليلة » وربما مرت الإشارة إليها فى غضون هذا التفسير . ولعمرى ما هذه القصة وأمثالها إلا رمز لمعرفة الحقائق التى نحن بصددها ، فإننا نعيش فى الأرض ولا نعقه من هذا الوجود شيئا ، ولن تنال تلك الحقيقة الناصعة التى هى السعادة الحقة إلا بأن نجعل أجسامنا وأموالنا قربانا لأجلها ونلقى بمهجنا فى سبيل العلم والحكمة أو فى ساحات الحرب ، فنكون أدينا ما وجب علينا . فهذه المهالك التى وقع فيها ابن ملك مصر وما صادفه من ذل وجوع وعرى وفقد الرجال والمال ثم الأسر والضرب والغرق ثم النجاة . كل هذا ضرب مثلا لطلاب المجد والعلا ، فهم لا ينالونه إلا باستغنائهم عن هذه الحياة والوقوع فى المهالك والمهاوى والمشاق العظيمة فيكون الفوز .

ولقد أردت أن أؤلف رواية خيالية تستبين بها سبيل هذه الفصول الأربعة فى ضوء الشمس والهواء والماء والنبات وتقسيمه على الفصول الأربعة وعلى أعضاء الإنسان مع تباين ما بينها فأعيتنى القريحة بعد الكد والنصب حتى إذا كنت يوم أمس بعد الظهر وهو يوم الأحد ١٠ رمضان سنة ١٣٤٩ هجرية وأنا سائر فى منيل الروضة وهناك جلست تحت شجرة فأخذتنى وأنا جالس سنة من النوم فخيل لى كأن أمامى رجلين يتحادثان . فقال أحدهما : هل أحدثك حديثا عجيبا فى غرائب هذه الدنيا . فقال أحب ذلك . فقال كنت الليلة نائما فأتانى خمسة رجال فأيقظونى فرأيت جسمى مطروحا على الأرض كأنه ميت فقلت أنا ميت قالوا أنت حى وهذه روحك ولها اتصال بهذا الجسم وسترجع إليه ، وساروا بى حتى ارتفعنا إلى السماء ووصلنا إلى الشمس :

(١) فرأيت حمامتين : إحداهما ذات طوق أحمر ، والأخرى ذات طوق أبيض . فقلت ماهاتان يرحمكم الله ؟ فقالوا : اصبر قليلا .

(٢) ثم نظرت فوجدت هاتين الحمامتين أسرعتا فى الجرى حتى وصلتا إلى الهواء المحيط بالأرض ثم أخذتا ترفرفان كثيرا حتى رأيت عربات لا عدد لها تجرى فى الجو ولكن لاعجلات لها . فقلت : ما هذا ؟ فقالوا اصبر قليلا .

(٣) ثم عمدت الحمامتان إلى البحر فأخذتا تضربانه بأجنحتهما فخرجت قرب لطيفة الصنع مملوءة ماء وصارت تطير فى الجو هنا وهناك بغير نظام ، إذن هناك عربات وقرب ماء، كلها طائرات شرقا وغربا وشمالا وجنوبا لا نظام لها ولا ثبات .

(٤) وبينا أنا متعجب من هذه الحركة المختلطة إذ رأيت هذه القرب قد حملت على تلك العربات

واتحدت

واتحدت هذه مع هذه حتى صارت كأنها سفن تقترب من بعضها ، فعجبت كل العجب ؟ فقلت ما هذا يرحمكم الله؟ أدركونى وأسعدونى حتى أفهم، فقالوا: اصبر .

(٥) وبينا أنا كذلك إذ رأيت هاتين الحمامتين عمدتا إلى تماثيل مصنوعة من الطين مجوفة فأخذتا ترفرفان عليها ، فرأيت تلك الصور أخذت تتقلب من حالها الأولى إلى حال أتم وأرقى وأخذ الطين يصفو شيئا فشيئا حتى صار لحما وعظما وفيه عيون وأسماع وأبصار : ثم أخذت التماثيل تتحرك وتمشى وتتكلم ، فأخذ منى العجب كل مأخذ ، وهذه الصور مختلفة الأشكال والألوان والأعمال من كبير وصغير .

(٦) ثم رأيت صورة طينية أكبر من جبال هملايا بهيئة إنسان، وهذه الصورة أخذت الحمامتان ترفرفان عليها ، وانضم إليها ألوف مرفرفات حتى تحركت ونطقت ، وهناك أخذ منى الرعب كل مأخذ وقلت إن هذا الذى أمامى هو ما يقال له الغول ولو أنه خطا خطوتين نحوى لقتلنى . فقالوا لا تخف اصبر قليلا .

(٧) ثم سارعت الحمامتان إلى أرض قفر ، فأخذتا ترفرفان عليها وقد رأيت هناك نملا كثيرا تضع ما يشبه الحصوات أو الرمل والحمامتان تضربان دائما على وجه الأرض فوق تلك الرمال ، فما أسرع أن رأيت تلك الحصوات والرمل قد ارتفعت فوقها أعمدة شيدت عليها قصور خضر وفيها مخازن عجيبة .

(٨) وتلك المخازن فيها ما يشبه تلك الحصوات والرمل التى جلبها النمل . فقلت ما هذا يرحمكم الله : قد والله رأيت عجبا لم أسمع ولم أر مثله ؟ فقالوا اصبر .

(٩) ثم سمعت من ذلك الإنسان الكبير الجثة أصواتا من جميع جسمه ، وتلك الأصوات مختلفات من معدته ، ومن أمعائه ، ومن كبده ، ومن قلبه ، ومن رأسه ، ومن جنبه ، ومن نخاعه ، ومن رئته ، ومن طحاله ، ومن كليتيه .

(١٠) فعند ذلك رأيت جماعات من النمل قد أسرعت حثيثا إلى تلك المخازن فصارت تأخذ منها وتلقى على مواضع تلك الأصوات فلا تكاد النملة تضع بزرا من تلك البزور على الجنب أو الرأس أو المعدة حتى يسكن الصوت حالا ، وتارة يتأخر قليلا ، فهنالك اعترانى أشد الدهش ، فقلت ماهذا يرحمكم الله ، فإنى لاصبر لى على هذه العجائب ؟ فقالوا لى : أما الآن فنعم قد تم لك العلم .

قال : فقلت وأى علم ؟ أنا لا أعلم شيئا . فقولوا لى يرحمكم الله ما هما هاتان الحمامتان . فقال أحدهم وهو الرئيس : الآن أحدثك ، إن الناس فى الأرض نيام ، وهذا الذى رأيته هو الذى يرونه بأعينهم ولكنهم لايفقهون وعلماؤهم وجهلاؤهم على حد سواء . قال فقلت ولم لا يفقهون ؟ قال لأن هذه روايات خلقوا فيها وهم أنفسهم من الممثلين والمثل فى مرسح التخيل غير النظارة ، فأنت الآن من الشاهدين وأهل الأرض هم المشهودون . فلما كنت فى جسمك كنت مشهودا ولكنك الآن شاهد والشاهد غير المشهود . فما أهل الأرض إلا صور متحركات يشهدهم فيها المقربون . فأما أنت الآن فلست منهم بل صرت روحا فصرت أشبه بالشاهدين . قال فقلت ولم لا أكون من الشاهدين ؟ قال يابنى إن الشاهدين ليسوا هم الذين تضرب لهم الأمثال بحسب مثل هذه الأمثال التى سأبينها لك بل هم الذين يدركون نفس الحقائق ، وفرق بين الثريا والثرى ، ومدركو الحقائق هم المقربون الذين يقول الله فيهم « الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا » والمودة الحقيقية لا تكون إلا بمعرفة الحقائق فعلا لاتخيلا ، فها أنا ذا أقص عليك ماراًيته

الحية المبلغة لأهل الأرض . قلت : فما هاتان الحمامتان إذن ؟ قال . أما ذات الطوق الأحمر فهي الحرارة وأما ذات الطوق الأبيض فهو الضوء ، وأما العربات فهي الرياح ، وأما القرب المملوءة ماء فهي البخار الخارج من البحر بتسلط الحرارة عليه فيكون باجتماعهما سحاب . وأما ضرب الحمامتين بأجنحتهما على الأرض وعلى مايشبه الحصوات والرمل فذلك أن الحرارة والضوء لابد منهما في ظهور النبات من الأرض ، وأما تلك الصور الطينية فهي جميع الحيوانات فهي من الطين مصورات ولولا الحرارة والضوء ما كانت لها حياة ، وأما القصور للصورات فوق الأعمدة وفيها المخازن فهي النباتات ، وأما ذلك الإنسان العظيم الجثة كجبال هالايا فهو الأمم الأرضية صورت لك بهيئة إنسان كبير الجثة ، وأما الأصوات الخارجات من أعضاء جسمه فهي الأمراض الموزعات على الأعضاء الجسمية في أفراده ، وأما طوائف النمل الحاملات لتلك الحبوب من المخازن في تلك القصور فهم الأطباء يضعونها على مواضع الداء لتشفى . قال ثم قال هذا الطيف لي : فهذا هو تمثيل أحوال محيط بكم ، فإذا رجعت روحك إلى جسمك فقل لهم : ياأهل الأرض . إن حولكم عجائب وعجائب ولكنكم لاتعقلونها لأنكم أنتم صور تمثلون ولستم من النظار ، ولقد أقسم الله بالشاهد والمشهود وقدم الشاهد لأن الشاهد يعقل ويكون من المقربين وهو الذي عقل عن الله وأدرك رحمته فلا فلا يهوله الفزع الأكبر لأنه اطلع على الأسرار وعرف الحقائق فلم ير من الله إلا الرحمة فإن أماته أو أحياه أو أفقره أو أغناه فهو في السعادة الأبدية سعيد في الدنيا بالعلم ، وسعيد في الآخرة بالعلم ، فأما أمثال هذه الخيالات فهي لفتح باب العشق والحب ومتى كان الحب وصل العبد لخالقه : والعبيد على قسمين : عبيد عبدوا بالرغبة ، وعبيد عبدوا بالرهبة ، فأهل الخيال عبيد الرهبة ، وأهل الحقائق والحب والعشق عبيد بالحب ، وإلى الأول الإشارة بقوله تعالى « إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا » وإلى الثاني الإشارة بقوله « سبحان الذي أسرى بعبده ليلا الخ » فلك الناس تارة يكون بالرهبة ، وتارة يكون بالحب والعشق ، وأفضلهما الثاني . قال : ثم قال لي الطائف وهو رئيس الجماعة الذي معه :

• وما كل مصقول الحديد يماني •

قال ثم قلت لرئيس الجماعة المذكور : حياك الله عرفت أن القصور الخضر تمثل المزارع وأن المخازن فيها تمثل الحبوب فعلمني رعاك الله مما علمك الله بعض الحقائق بعد الخيال عسى أستيقظ فأخبر أهل الأرض فيصلوا إلى الحقائق فقال أما الآن فنعم لأنك اشتقت إلى العلم ولا علم إلا بعد الشوق ، والشوق أعظم أبواب السعادة . فقد رأيت النبات في الأرض ؟ قال نعم . قال وهو مقسم على الأزمنة والأمكنة والأعضاء والحواس . قال فقلت نعم وهذا أمر عجيب ! لا أعرف سره . فقال : قد علم الله أنه سيخلق الإنسان وأن أنسب الأوقات للزرع فصل الربيع الذي فيه تظهر أكثر النباتات . قال فقلت نعم . قال : لو أنه تعالى لم يجعل الزرع إلا في ذلك الوقت لتعطل الإنسان في بقية السنة ، فدبر الأمر وجعل لبقية الفصول أنواعا من الزرع ليعمل الناس لأنهم إذا لم يعملوا كان ذلك تعطيلا لهم ومرضا لأجسامهم ، ولو أن النبات اختص بمكان دون مكان لاجتمع الناس في مكان واحد هم والحيوان فهلكوا فلذلك وزعه على أمكنة كثيرة . قال فقلت هذا عجب ! والله إن أهل الأرض لايفكر أكثرهم في ذلك . قال : لهذا أعلمك . ثم قال : وهل الحرارة والضوء والهواء والماء كانوا علماء بكل شيء حتى عرفوا أن بذورا مرماة في الأرض فاجتمعوا عليها ثم حصل النمو فوزعت محصولاتها على الأعين والآذان والجلود والبطون والأكباد والقلوب الخ بحيث أصبحت تلك الأمور المبعثرة التي نرى ظاهرها لانظام لها وكأنها جاريات بغير حساب قد صارت مقصودة قصدا حقيقيا بحيث توزع ثمراتها على حاجات الحيوان والإنسان عضوا عضوا وحاسة حاسة أي أن النباتات الباقيات عندكم الآن (٢٥٠) ألف نوع كلها موزعات على

أعضائكم

أعضائكم وحواسكم مع أن من يرى الضوء والحرارة والهواء والماء والأرض وهي تتفاعل لا يخطر له أن النتائج تكون منظمة هذا التنظيم المدهش ، وأي نسبة بين الشمس التي تجري وبينها وبينكم آماد وهي ترسل ضوءاً لكم وبين الأعين والمعدات والجلود ؛ ثم أن أرضكم كما تعرفون أنتم في العلوم كانت قطعة من الشمس ، وهذه القطعة فيها الجير والمغنسيوم والكبريت والفسفور والحديد والكلورين ، فهذه المواد مما يدخل في النبات عندكم ، وكل هذا مرسل من الشمس في أجزاء الأرض ، فلم تقف الشمس عند هذا الحد ، فأمرها الله بإرسال ضوء وحرارة ينبعثان منها ليتمما ماقصده الله سبحانه كما خلق الله عقولكم يابني آدم فهي كهذه العناصر ساكنة لا عمل لها ؛ ولكنه يرسل لكم أنبياء ، ويلهم من بينكم حكماء فيحركون أجسامكم وعقولكم كما أنكم ترون الضوء والحرارة ينبعثان من الشمس فيساعدان :

(١) الجير المذكور المفيد للعظم الشاق المجروح على أن يدخل في نبات الكرنب وفي اللبن والجبنة التي لم يؤخذ زبدها وفي السبانخ والبصل والمشمش والتين والبرقوق والطماطم والكرفس والباميا والردة

(٢) ويساعدان أيضاً المغنسيوم الذي يكون قوة في العضلات ويمنع النتق فيدخل بسببها في السبانخ والخس والخيار والطماطم والبرتقال والشعير والذرة والقمح والليمون والتين والباميا .

(٣) ويساعدان أيضاً الكبريت الذي هو المنظف للدم المانع للروماتيزم على أن يدخل في السبانخ والقنبيط واللفت والفجل الأحمر والطماطم والقرفة وكذلك المائز والجزر والكرنب والبصل والباميا

(٤) ويساعد الحرارة والضوء أيضاً الفسفور الذي هو مغذ المخ على أن يدخل في الفجل والقنبيط والخيار والجوز والبسلة والعدس والقمح وفي الخس والسبانخ ، وهكذا في صفار البيض وكذلك المائز

(٥) ويساعدان أيضاً الحديد وهو الذي يعطي الدم لونه الأحمر على أن يدخل في تركيب الكرنب الأحمر والسبانخ والبصل والزبيب وصفار البيض النيء والبلح والبرقوق والبنجر وكذلك المائز والطماطم

(٦) ومما أيضاً يساعدان الكلورين وهو المساعد الهضم المنظف للمعدة على أن يدخل هيكل الكرنب وملح البحر والجزر والسبانخ واللبن وسمك البحر المالح والفجل والجبنة وجوز الهند والبنجر

ثم قال : هذه المواد الست مما يدخل في تركيب النباتات قد أرسلها الله مع الأرض يوم أن اقتطعها من الشمس ، ثم أرسل لها الضوء والحرارة فنزلت عليها فكانت سبباً في دخولها في هذه النباتات المفرقات على أعضاء بني آدم وعلى حواسهم بحيث لا يكون هناك داء إلا وله دواء ، ولا حاسة إلا ولها ماتطلبه ، ولا حاجة من حوائجكم إلا كانت حاصلة موجودة قد أثبتت بذورها وأصولها من عوالم فوق شمسكم « وفي السماء رزقكم وماتوعدون » .

ثم قال : فهذا هو ماسألت عنه ، فهل فهمت ؟ قال فهمت . يقول مؤلف هذا الكتاب : كل هذا وأنا مصغ إلى القائل وعندي أشد الدهش والبهجة ، وأقول في نفسي . يارب كيف أكون في حيرة وقد عجزت قبلاً عن تمثيل مايحيط بنا من العجائب بحيث يكون أشبه بالروايات ، وكيف يئست ؟ والله يأتينه حقيقياً من أن أمور ذلك صور خيالية ، ثم كيف أسمع ذلك في المحاورة بين هذين الرجلين ؟ فهل هذه الأرواح هي إخوان روحي أم أي شيء هذا ؟ ثم أردت أن أسأل هذا المتكلم ، لأسأله من أنت ؟ فاستيقظت وقد عجبت كل العجب وحمدت الله على أنه علمني مالم أكن أعلم ، وإني الآن يكاد قلبي يطير من بين جنبي إذ عرفت ماعجزت عنه والحمد لله رب العالمين . كتب ضحى يوم الاثنين ١١ رمضان سنة ١٣٤٨ هجرية .

اللطيفة الثالثة

كشف النقاب عن بعض أسراره قوله تعالى «ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين»

حضر صديق العالم الذى اعتاد أن يحادثنى فى هذا التفسير . فقال : لقد أومأت إلى تفسير آية « ومن يعش عن ذكر الرحمن الخ » عند الكلام على البسملة ، ولكن النفوس اليوم يعوزها الوقوف على الحقائق ، وكما أن علم الطبيعة لا يورث اليقين إذا اشتققناه اشتقاقا هكذا علم القرآن ، فإذا لم نصل إلى النهايات فلسنا علماء ولسنا سعداء ، فهل هذه الحياة الدنيا شقاء والسعادة محصورة فى ذكر الله تعالى ؟ نحن نريد التحقيق فى هذا المقام بالعقل . فقلت : أيها الحبيب : إذا أردت الوقوف على حقيقة هذا الموضوع فلا مندوحة لك من الصبر على البحث معى والتنقيب . فقال سأصبر . فقلت . جاء فى كتابى « بهجة العلوم » فى الفلسفة العربية وموازنتها بالعلوم العصرية الذى ألفته وهو الآن تحت الطبع مايأتى من علم الحساب :

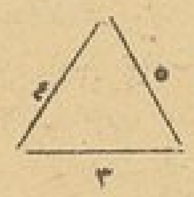
(أولا) إن كل عدد قسم بقسمين ثم زيد عليه أحد القسمين يكون المجموع من ضرب جميع ذلك فى نفسه مساويا لضرب ذلك العدد قبل الزيادة فى تلك الزيادة أربع مرات والقسم الآخر فى نفسه ومثاله أن نربع (٧ + ٣ + ٣) فهذا يساوى ١٠ × ٣ × ٤ زائد ٧٢ .

(ثانيا) كل عدد قسم بنصفين ثم زيد عليه زيادة مايكون الحاصل من ضرب ذلك العدد مع الزيادة فى نفسه وضرب الزيادة فى نفسها مجموعا مثلى مايكون من ضرب نصف العدد مع الزيادة فى نفسه وضرب نصف العدد فى نفسه ، مثال ذلك (١٠) قسمت نصفين ثم زيد عليها اثنان فأقول إن ضرب الإثنى عشر فى نفسه والاثنين فى نفسها مجموعا مثلا مايكون من ضرب ٧ فى نفسها و ٥ فى نفسها مجموعا .

(ثالثا) كل عددين مجذورين على الولاء إذا ضرب جذر أحدهما فى جذر الآخر وزيد عليه ربع تكون الجملة عددا مجذورا ، فإذا ضربنا جذر ٤ فى جذر ٩ وزدنا ربعا فجذر المجموع ٢٫٥ فهذه ثلاثة مسائل من علم خواص الأعداد ، وهناك ثلاثة أخرى فى الهندسة وهى :

(١) زوايا المثلث الثلاث تساوى قائمتين .

(٢) مربع وتر الزاوية القائمة فى المثلث يساوى مجموع مربعى الضلعين الآخرين ، فإذا كان أحد الضلعين ٣ والثانى ٤ فإن الضلع المقابل للزاوية القائمة يكون ٥ ومربع ٣ = ٩ ومربع ٤ يساوى ١٦ ومجموعهما ٢٥ ومربع ٥ يساوى ٢٥ وهو المطلوب وهذه صورته :



(٣) الزاويتان الحادثتان من وقوع خط مستقيم على آخر مستقيم على جانب واحد منه هما قائمتان أو تعدلان قائمتين . فهل فهمت أيها الصديق هذه المسائل ؟ فقال إنها فى غاية الوضوح ، إن مسألة الزوايا

الثلاث فى الثلث تقدمها ٣٢ شكلا حتى أمكن البرهنة عليها ، ومسألة مربع الوتر تقدمها ٤٦ شكلا كذلك ، ومسألة الزاويتين تقدمها البرهنة عليها ١٢ نظرية فى الهندسة . فقلت : حسن جدا . إذن هذه المسائل ليست من البديهيات بل هى نظريات ، ولا جرم أن النظريات ترجع إلى البديهيات فى آخر الأمر كقولهم « الكل أعظم من الجزء » وهذه النظريات والأشكال التى تقدمت المسائل المتقدمة قد جعلت لتوصل هذه المسائل إلى البديهيات ، قال: نعم : قلت فلنسر فى بحثنا على هذا النور العلمى لنصل لما نقصده فنقول : لنتخذ هذه المسائل الهندسية والحسابية الست مقدمات كما جعل الناس القضايا البديهية مقدمات وبنوا عليها علومهم الجزئية كالحساب والهندسة والفلك والجبر وغيرها ، فلنبن نحن علمنا الذى هو سيد العلوم وهو العلم الأعلى وهو أصل العلوم على تلك العلوم الجزئية (وبعبارة أخرى) إن علماء الرياضيات والطبيعيات يتخذون المحسوسات والبديهيات أساسا وبنوا عليها علومهم الجزئية التى بها نظمت أمور الحياة فى الأرض فلنتخذ نحن نفس علومهم التى برهنوا عليها ونجعلها أساسا للعلم الأعلى وهو العلم الذى به السعادة والحكمة والجمال المطلق ، ذلك لأن الناس مع شيوع علومهم وكثرتها تراهم دائما فى قلق ، وآراؤهم فى حيرة واضطراب والناس فى حرب وضرب واختلاق واختلاف ، لافرق بين عالمهم وجاهلهم وأرباب العلوم ورجال الصناعات سواء فى ذلك .

وكل يدعي وصلا لليلى وليلى لا تقر لهم بذاكا

فنحن هنا نريد أن نتوصل إلى العلم الذى يرع جميع الطوائف وهو فى اليقين كاليقين الذى يعرفونه فى العلوم الرياضية ، ومتى عرف الإنسان اليقين سعد السعادة التى لا نهاية لها . فقال صاحبى : إنك لتحدث عن أمر عظيم ذى بال وهو شريف ، وأود أن يمنحك الله قوة الفكر حتى تعرفنا هذا العلم البديع الذى لو تحقق لأعطى النوع الإنسانى اطمئنانا والاطمئنان هو النعيم الأكبر فى هذه الدنيا . قلت أيها الصديق ستسمع مايسرك ويكون عندك اليقين ، لننظر فى المسائل الحسابية الثلاث وأخواتها الهندسية التى قدمناها هل هى خاصة بالأعداد التى كتبناها وأشكال هندسية خاصة ؟ أم كل قاعدة منها تشمل أعدادا وأشكالا كثيرة . قال بل كل منها تشمل مسائل لا حصر لها هندسة وحسابا ، فالأرقام التى ذكرتها والزاويتان اللتان رسمتهما ماهما إلا مثالان لا غير ، فهناك من الزوايا ومن الأرقام مالا يحدوكله مطبق على هذه القواعد ، قلت : أصبت المرمى ، أترى هذه القواعد الكلية مشاهدة بأبصارنا . قال : كلا ، بل نحن نعقلها ببصائرنا والمشاهد بالأبصار :

(أولا) المعدودات الخارجية والمواد التى دخلتها الهندسة فى العالم المشاهد كالمنازل والقلاع .

(ثانيا) الألفاظ الدالة على تلك المعدودات والمواد الخارجة .

(ثالثا) أرقام الأعداد وأشكال الهندسة المرسومات فى الدفاتر والكتب ، فالألفاظ والأرقام تدل على مافى الخارج ، ومافى الخارج صورة لما فى الذهن ، أما الذى فى أذهاننا فهى القواعد الكلية التى لها صور كثيرة فى الخارج . فقلت الله أكبر ، وصلنا إلى المقصود وأشرفنا على عالم الجمال والكمال والدوام ، قل لى أيها الحبيب ماذا تقول فى هذه القواعد الكلية التى فى ذهنك أنت فى الحساب والهندسة والمنطق والفلك والطبيعة والكيمياء هل اعتراها يوما ماتغير أو تبدل من يوم أن عرفتها ، قال كلا هى دائمة فى عقلى وهى أشبه بالمخازن ومنها أتصرف فى أعمالى اليومية . قلت حسن ، أيهما أكثر دواما ، خزائن الذهب والفضة ومخازن الحب ونحوها أم هذه ؟ قال بل هذه هى الدائمة . قلت : ولكن الناس لغفلة أكثرهم لايفرحون بهذه المخازن التى فى أنفسهم وإنما يفرحون بالأمور الجزئية الوقتية ، فتعال معى إلى ماهو أرقى من هذا قل لى

أيها الحبيب : ١٠ الذى أدرك هذه الكليات العلمية . قال نفسى ، قلت : فهل لهذا نظير فى العالم المحسوس قال نعم ، العين والصورة الواصلة إليها بضوء الشمس من شجرة الورد مثلا ، فالعين نظير نفسى وقواعد الحساب والهندسة كصورة شجرة الورد الواصلة إلى عينى من ضوء الشمس . قلت حسن جدا ، فلنرق فى البحث إلى درجة أخرى . فقال : إنى إلى ذلك وامق . فقلت ماالذى كان السبب الظاهر باذن الخالق فى نمو الشجرة . قال الشمس . وماالذى كان السبب أيضا فى أنك رأيتها ، قال الشمس أيضا . فقلت : إذن الشمس سبب لظهور شجرة الورد وسبب لرؤيتك إياها . قال نعم . قلت حياك الله وبياك : فبين لى ذلك . فقال الشمس تضىء ولها حرارة . والحرارة سبب البخار . وجرى الهواء والبخار يحمله السحاب فالبخار والهواء معا سببهما الظاهرى الشمس ، والسحاب يكون مطرا ، والمطر (بإذن الله) كان النبات ، وأيضا تقدم فى (سورة يس) أن الورق المرسوم هناك فى داخله مواد ملونة عائمة فى سواحل هناك ، وهذه المواد الملونة تساعدها أضواء الشمس على تناول المواد الفحمية من الهواء فينمو النبات ، ومن النبات شجرة الورد المذكورة ، ثم ضوء الشمس كما أنه ساعد على التغذية هو نفسه الذى يرسم صورة شجرة الورد ويوصلها إلى حديقق فأنارها .

قلت : أحمد الله أنك تتذكر العلوم إجمالا وتفصيلا ، ولم تنس شيئا مما ذكرناه فى هذا التفسير . ثم قلت إذن عندنا :

(١) شمس .
(٢) وشجرة الورد .
(٣) وصورتها المرسومة بالضوء .
(٤) وعين الإنسان .
(٥) والقواعد العلمية .
(٦) ونفوسنا .

فنفوسنا كالعين والقواعد العلمية كصورة شجرة الورد التى وصلها الضوء إلى العين فيما تقدم فلم يبق إلا مثال الشمس ومثال نفس شجرة الورد ، فها نحن أولا لدينا ست مقدمات واضحة : أربعة محسوسة واثنتان معقولتان ، فلم يبق إلا الاثنتان الباقيتان ، فلنبحث عنهما كما يبحث علماء الجبر إذ يتوصلون بالمعلوم للمجهول فنقول : أيها الحبيب ، هل تظن أن ضوء الشمس يوصل لأعيننا صورة شجرة الورد وهى ليست موجودة قال . كلا . فالضوء لايوصل إلا صورة ما هو موجود فعلا . قلت حسن . أفلست ترى أن الصورة الكلية التى فى أذهاننا فى سائر العلوم لها أصل وهى صورته ، قال ، إن كليات العلوم أصلها هو الذى نشاهده فى الخارج من المعدودات ومن الباقى فى الهندسة وهكذا . فقلت : هذه جزئيات وتلك كليات وما أبعد الفرق بينهما ، فصورة الكلى فى عقولنا منقولة عن معنى كلى ، كما أن صورة شجرة الورد الواصلة لعيوننا منقولة عن مادة جزئية ، وليس من المعقول أن الكلى يكون عن جزئى ، وما الجزئى إلا مثال له ، فانظر لمثال شجرة الورد والشمس ، وقل لى ، ألست ترى أن القواعد التى نحس بها فى عقولنا صور لأمور كلية معنوية ثابتة فى أنفسها وصانع العالم هو الموجد لها وهو الذى أظهر صورها لعقولنا بلا واسطة كما أن شجرة الورد المذكورة صنعها بوساطة الشمس وأظهرها لعيوننا بوساطتها ، أو لست ترى أيها الحبيب أن مثال الشمس جميل به أمكننا أن نعرف هذه المسألة العظيمة فنقول :

إن الله الذى هو ثابت لايتغير قد خلق أمورا كلية معنوية وهى أمور روحانية ثابتة لاتتغير وهو نفسه

أعدادها لعقولنا فرقها وعشنا بها وضرب لها مثلا بالشمس وبالمخلوقات الأرضية ، فكما أن الشمس سبب في حياة النبات والشجر كانت هي أيضا سببا في رؤيتنا لهما والله تعالى سبب في خلق المعاني الدائمة بدوامه ، الجميلة المستمدة من جماله ، وحين تشاهد أعيننا صور العوالم الشاهدة يكون ذلك سببا في استيقاظ عقولنا واستعدادها إلى انكشاف تلك القضايا الكلية التي يفيضها الله على عقولنا ، وبهذا تنحل مشاكل لا حد لها في عالمنا الأرضي وتظهر حقائق كانت مخبوءة .

فها نحن أولاء قد وصلنا إلى المقصود ، واستنتجنا نتائج باهرة ، وفهمنا ما لم نشاهده على ما شاهدناه وأدركنا أن المعاني الكلية التي نحس بها في عقولنا والتي عليها مدار حياتنا هي أصل لكل ما نشاهد في هذه الأرض وهي صنع الله نفسه بلا واسطة وهي دائمة ، وإذا ثبت هذا في علومنا التي نرجع إليها في جميع أحوالنا فليثبت نظيره في كل أمر عام .

فاذا رأينا الوجوه الجميلة ، وإذا سمعنا بالعدل والكمال وما أشبه ذلك فلنقل أن كل جمال وكل عدل مشاهد لنا فهو في هذا العالم ناقص كما قلنا ، إن المعلومات التي نراها جزئية والكلي هو العالم المعقول ، فالجمال المعنوي والعدل المعنوي والكمال ؛ كل ذلك له مثل (بالضم) عليا في عوالم خارجة عن المادة كما أن للعالم مثلا (بالضم) عليا .

وبالجملة فلا علم ولا جمال ولا كمال ولا سعادة إلا فيما هو ثابت ، فأما ما لاثبات له فإنما هو مذكر بجماله كمال . أيها الحبيب : إن ما قلته الآن كله قد أذكرني به آية في (سورة النبأ) وأنا أصلي وقت السحر ليلة الخميس (١٩) نوفمبر سنة ١٩٣٠ وهي قوله تعالى « وبنينا فوقكم سبعا شدادا . وجعلنا سراجا وهاجا . وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا . لنخرج به حبا ونباتا . وجنات ألفافا » فإني حينما كنت أقرؤها ذكرت بالسراج الوهاج وبالسحب والمطر والنبات المذكورات في الآية مسألتنا بحذافيرها ، فالنبات أذكرني بالمعلومات الجزئية التي تشبه المسائل الست المتقدمة في الحساب والهندسة . والشمس ذكرتني بصانع تلك الصور الجميلة المعنوية وهو الله تعالى ، والصور المعنوية الروحية توصلنا لها المعلومات الجزئية المشار لها وهي مصنوعة لله الذي يرمز له بالشمس ، وهنالك تبدى لي معان كثيرة ، فالجمال والعلم وكل معنى شريف إنما يكون في العالم العقلي ، وما الحس إلا أثر من آثاره .

أليست هذه مسألتنا التي نبرهن عليها الآن ، وما مثل الحرارة المرسلة من الشمس إلى ماء البحر التي بها يكون البخار فالسحاب فالمطر إلا كما يفعل العقل الإنساني الذي يعرف الحقائق المخبوءة في العالم العقلي فتنزل إلى العوالم الأرضية فيدرسها كما نزلت الحرارة من الشمس فاستخرجت الماء الصافي فصار مطرا هكذا هذه العقول تستخرج بحرارة ذكائها المعارف وتنشرها بين أهل الأرض ، وهذه النظرية الآن بها نعرف أكثر آيات القرآن وأسرارها مثل « أفتمارونه على ما يرى . ولقد رآه نزلة أخرى » إلى قوله « لقد رأى من آيات ربه الكبرى . أفرأيتم اللات والعزى » ، فآيات الله الكبرى هي التي رآها في عوالم غير عالمنا هذا ، وذكر اللات والعزى ضرب مثل للعوالم المادية ، فإن الناس إذا اكتفوا بالعالم المادي صاروا أشبه من بعض الوجوه بالذين يكتفون بالأصنام في العبادة ، ومثل قوله تعالى هنا « ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين » . فذكر الرحمن إنما يكون بالعلوم الثابتة المعنوية ، فأما عكوف الناس على الأمور المادية فذلك هو البقاء في مربط البهائم وشهواتها ، وهنالك تكون الشياطين إذ لا شيطان ولا وسوسة إلا حيث تكون العوالم المادية والوقوف عندها ، وهكذا البيوت ذات السقف المزخرفة والسرر كلها عالم مادي ، ولكن الرحمة الحقيقية في العوالم الحكمية العقلية وهكذا قوله تعالى

« قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون » ، ففضل الله ورحمته هنا هى العلوم والمعارف ومنها الدين والوحى والذى يجمعونه هو المال . هذا هو القرآن ، واعجب كيف تكون هذه المعانى هى التى يحوم حولها سقراط ، ولقد أوضحت لك أيها الذكى الدلائل التى أجملها هو وفصلتها لك تفصيلا تاما ، ثم لنعجب ولنعجب ألف مرة من دين الإسلام كيف تكون الآيات التى تعد بالمئات فى هذه المعانى قد ذكرت فى جمهورية أفلاطون ، ألا فلأحدثك بعضها فى الدنيا وفى الجمال والعدالة وهكذا ، إذ ذكر فى الكتاب السادس منها أن الفلاسفة وحدهم هم الذين يقدرون أن يحكموا الأمم وأما الجهلاء فلا ، ومن هم الجهلاء إذن؟ هم التائهون فى تعدد الصور أى هم الذين لا يفكرون بعقولهم . وكل مقصودهم هذه المخلوقات المشاهدة لا المعقولة كما قدمنا .

«ولنشرع الآن فى إيراد ما جاء فى جمهورية أفلاطون » من صحيفة ١٥٦ إلى ١٥٨ وهاك نصها بالحرف الواحد .

قال سقراط : لما كان الفلاسفة هم القادرون على إدراك الأبدى غير المتغير ، ولما كان العاجزون عن إدراكه تائهين فى بيداء التغير وتعدد الصور ليسوا فلاسفة ، فأى الفريقين يجب أن يحكم ؟

غلوكون : بماذا أجيب إذا رمت أن أنصف القضية ؟

(س) سل نفسك ؟ أى الفريقين قادر على رعاية قوانين الدول وعاداتها . وليكن هؤلاء الحاكمين

(غ) أنت مصيب .

(س) أفيمكن أن نسأل : هل الأعمى أو البصير أهل للحكم . ولحفظ كل شىء ؟

(غ) لا محل لهذا التساؤل .

(س) أفتظن أن هنالك أقل فرق بين حال العميان . وحال الذين تجردوا كل التجرد من معرفة الأشياء على ما هى فى ذاتها . وليس لهم فى نفوسهم مثال واضح وليسوا بقادرين أن يتفرسوا فى الحقيقة الكاملة تفرس المصورين فيتخذونها نموذجا دائما يتأملونه ويدرسونه بأتم عناية فبلما يتقدمون للعمل فى النظم الأرضية فيما هو جميل وصالح وعادل ، واضعين هذه الأشياء فى محلها اللازم ، ساهرين على حفظها حيث وجدت

(غ) كلا ليس بينهم كبير فرق .

(س) أفهؤلاء نعين حكاما ونؤثرهم على العارفين كل شىء معرفة حقيقية وليسوا أقل من إخوانهم اختبارا ، ولاهم دونهم فى دوائر الفضل الأخرى .

(غ) من الجنون تولية غيرهم . إذ أنهم لا ينقصون جدارة ، ولأن النقطة التى يتفوقون فيها هى أهم كل شىء .

(س) أفنقدم الآن ابيان كيفية امتلاكهم نوعى الجدارة ؟

(غ) من كل بد .

(س) إذا كان الأمر كذلك وجب أول كل شىء أن ننظر نظرا ثاقبا فى سجيتهم الخاصة كما قلنا فى مستهل بحثنا ، وأظن أننا إذا اتفقنا فيها اتفاقا كافيا اتفقنا أيضا فى إمكان اقتران الجدارتين فى الأشخاص أنفسهم وأن أرباب هذه الصفات دون غيرهم هم الذين يحكمون الدول ؟

(غ) وكيف ذلك ؟

(س) دعنا نسلم أن أرباب الفطرة الفلسفية هائمون بكل أنواع المعارف لتتجلى لهم حقيقة هذا الوجود الخالد الذى لا يغيره الزمن ، ولا تسطو عليه عوادى المحن .

(غ) فلنسلم

(س) ولنفرض أيضا أنهم شغفون بحقيقة الوجود الخالد لايرضون عنه بديلا . ولا أن تحذف فرع من فروعه ، كبيرا كان ذلك الفرع أو صغيرا ، معتبرا أو مستصغرا ، كما أبنا ذلك سابقا فى كلامنا فى أرباب المطامع والحب ؟

(غ) أنت مصيب .

(س) والآن نتقدم لنرى هل فى الإمكان أن نجد صفة ثالثة فى خلق الذين تنطبق أوصافنا عليهم؟

(غ) وأية صفة تعنى ؟

(س) أعنى صفة الصدق أى العزم على تجنب الكذب فى كل صوره ما أمكن ، ومقته مقتا كليا . ومحبة الصدق محبة حقيقية .

(غ) نعم والأرجح أننا سنجد فيهم هذه الصفة .

(س) ليس الأرجح فقط يا صديقى ، بل إنها ضرورة لامندوحة عنها . فإن من كان فيه شغف فطرى بشىء سر بكل ما اقترن بذلك الشىء اقترانا وثيقا.

(غ) يقينا.

(س) أفتجد حليفا ألصق بالحكمة من الصدق؟

(غ) مؤكد لا .

(س) أفتستطيع فطرة واحدة أن تحب الحكمة وفى الوقت نفسه تحب الكذب ؟

(غ) لا يمكن ذلك قطعا.

(س) فالنتيجة هى أن عاشق المعرفة الحقيقية يصبو إلى الصدق منذ الطفولية صبوا شديدا .

(غ) نعم يصبو .

(س) ولا رتاب فى أن من تنصب رغباته على شىء انصبابا شديدا يضعف ميلها إلى سواه كالماء الذى يتحول عن مجراه .

(غ) نعم لاشك فى ذلك.

(س) فمتى تحول التيار نحو العلم بكل فروعه حامت رغبات المرء حول اللذات العقلية هاجرة اللذات التى محورها الجسد . هذا إذا كانت محبته الحكمة حقيقية لامصطنعة .

(غ) لايمكن أن يكون غير ذلك .

(س) ثم إن إنسانا كهذا يكون عفيفا لايسوده الطمع لأنه أبعد أهل الدنيا عن اعتبار الأشياء التى تحمل المرء على الاستماتة فى حب المال مهما يكلفه الأمر .

(غ) يقينا .

(س) وهنالك نقطة أخرى ينبغى لك اعتبارها فى تمييز السجية الفلسفية عما سواها .

(غ) وماهى ؟

(س) إنها تجد التغاضى عن أية وصمة سافلة ، لأن الصغارة أعظم ضد للنفس المتصفة بالميل التام لامتلاك الحقيقة الإلهية والبشرية فى حالى وحدتها وتعميمها فى كل أين وآن .

(غ) غاية فى التأكيد .

(س) أفتظن أن النفس المملوءة بالأفكار السامية الممتازة بالتفكر يمكنها أن تعلق شأنا كبيرا على الحياة الحاضرة .

(غ) كلا ذلك غير ممكن .

(س) فإنسان كهذا لا يحسب الموت حادثا مروعا.

(غ) مؤكد أنه لا يحسبه كذلك.

(س) فلاحظ للفطرة الجبانة فى الفلسفة الصحيحة .

(غ) لا أراها تتمكن منها .

(س) أفيمكن عقلا متزناخرا من الطمع والسفالةوالعجرفة والجبانة أن يكون صعب المراس أومتعديا؟

(غ) غير ممكن .

(س) فحين تراقب ظاهرات الخلق الفلسفي والخلق غير الفلسفي يجب أن تلاحظ أيضا منذ الصغر هل ذلك العقل لطيف عادل أو شرس ووحشى؟

(غ) تماما هكذا .

(س) وهناك نقطة أخرى لا إخالك تغفلها .

(غ) وماهي ؟

(س) أبسرعة يتعلم ذلك العقل أم يبطء ؟ لأنك لا تستطيع أن تتوقع أن يحب أحد عملا ما محبة كاملة وهو يتعاطاه بصعوبة وانزعاج فيكون تعبه كثيرا ، ونجاحه قليلا .

(غ) كلا ، ذلك مستحيل .

(س) وإذا كان حليف النسيان فلم يذكر شيئا مما حصله ، أفلا تفرغ جعبته من المعرفة ؟

(غ) تفرغ :

(س) أفلا تظن أن جهوده العقيمة تنتهى به إلى كرهه نفسه ووظيفته

(غ) دون شك .

(س) فلا تدرجن حليف النسيان فى عداد النفوس الفلسفية بل نطلب ذوى الذاكرة الحافظة. انتهى ما أردته من جمهورية أفلاطون » والحمد لله رب العالمين .

ولقد شرح قبل ذلك فى الكتاب الخامس أن الرجل ذا الفطرة السليمة يعلم أن من شغف بالحب فى شرخ الشباب يكون شديد الشغف بمحبوبه ، فيمدح فى الفتى قصر الأنف لأنه جذاب ، والأنف الأقنى أيضا أمره عجب ومظهره بديع ، والأنف المتوسط يجعل الوجه أكثر اتساقا وجمالا ، ويمدح الأحمر اللون بأنه ذو رجولة ، وشقر الألوان بأنهم أحلى الناس ، والعشاق يمدحون (الأصفر الزيتونى) .

وذلك لأنه انتحل عذرا لما رأى صفرة فى وجنة الحبيب ، وبالاختصار يختلق العاشق جميع أنواع الأعذار لمدح جميع صفات محبوبه ، وهكذا المولعون بالخمر فإنهم يختلقون جميع الأعذار لرشف أنواع الخمر كلها ، وهكذا عشاق المجد فإنهم إذا لم ينالوا إكرام عظماء الرجال اكتفوا بمدح الأقلين ممن لا وزن لهم ، وهذا مجد على أية صورة ، هكذا فلنقل : محب الفلسفة يجب أن يكون عاشقا لها جميعها عشقا كليا لا جزئيا مولعا بجميع العلوم. أما المغرمون بسماع القصص والحكايات والنوادر ، والذين يدخلون كل جوقة لسماع الطرب ، وكأنهم أجروا آذانهم للسماع ، فهؤلاء نسميهم فلاسفة زائفين ، والحقيقيون هم الذين ينظرون فيما هو ثابت لا ما هو متغير ، والثابت هى المعانى الكلية المتقدمة التى ترجع لها جميع العلوم .

وهنا أخذ يبين أن هناك جمالا وقبحا ، وعدالةوتعديا ، فكل منها واحد فى نفسه عقلا ولكنه متعدد المظاهر . ثم قال إن الذين أغرموا بالعلوم كلها ، وأدركوا الحقائق ، وتعلقت نفوسهم بالصور المعنوية التى

سبقت فهؤلاء قسم وهم الفلاسفة الحقيقيون ، أما عشاق النظر الظاهر والصناعة والفنون ورجال العمل فهؤلاء لا نسميهم فلاسفة ، فعشاق الأصوات الجميلة والأشكال والألوان والصور وكل ما أنتجه الفن ليسوا فلاسفة ، لأنهم لم يعرفوا الجمال المطلق الذى أوضحناه ، وحياة هؤلاء حلم ومنام ، فليسوا أحياء لأنهم خلطوا الحقائق بالصور ، وإذا أردنا أن نتلطف مع هؤلاء جميعا قلنا لهم : « أيها الأحباب إن عقولكم عقول متوسطة ، ذلك لأنها أدركت ما هو متردد بين الوجود والعدم وهى هذه الصور والأشكال لأن وجودها ليس دائما ، فهؤلاء لا نبخسهم حقهم ، ولا نقول لهم إنكم جهال كالذين يقولون إن المعدوم موجود كلا ، فالذين يحكمون بوجود المعدوم جهال ، والذين يعقلون الموجود الدائم هم الفلاسفة ، أما أنتم فلا أنتم فلاسفة ولا أنتم جهال ، بل أنتم ذوو عقول متوسطة بين الجهل والعلم ، لأنكم خلطتم فى حكمكم وفرحتم بالأشياء الأرضية من مال ومتاع وجمال وثروة ومنصب ، فلسنا نحكم على عقولكم بالجهل المطبق ولكنكم أشبه بالأطفال تفرحون بالألعاب » .

فلما سمع صاحبي ذلك . قال : الله أكبر ، إنى قرأت ذلك فى نفس الجمهورية ، ولكن القول هناك مطول ، وهنا ظهرت المعانى ظهورا واضحا ولم يخرج هذا عنها .

الله أكبر : إن هذه المعانى تنطبق على آى القرآن التى تزهد فى الدنيا وتحبب فى الآخرة ، ولكن وصفك لها على هذا النهج يجعل المسلمين بعد اليوم مغرمين بالعلوم مع شدة حرصهم على نفع الناس فيكون العالم فعلا زاهدا فى الدنيا لأنه عرف حقيقتها وهو نفسه ينبوع يفيض الخير على أمته فترتق بما تسمع من علمه ويكون أشبه بالشمس والناس أشبه بالمخلوقات على الأرض فهو كلي أنتج الجزئيات ، فأما أكثر كتب الصوفية ومن على شاكلتهم فى القرون المتأخرة فإنهم قصدوا إلى احتقار الدنيا ولكنهم فى الوقت نفسه لم يشوقوا الناس فى إدراك العلوم وتنظيم المدن . كلا . فانحطت الأمم الإسلامية ، وأن هذا الشرح الذى أبنته الآن من أعظم النعم ، ولطالما أشكل على ما كنت تقوله لى سابقا من أن القرآن يحوزه فى تفسيره علم جميع الحكماء ، فها أنا ذا الآن أرى أكبر العقول فى العالم الإنسانى بعد الأنبياء (وهو عقل سقراط وأفلاطون اللذين قال فيهما الفيلسوف سبنسر الإنجليزى وستلانه التليانى : « إن عقول فلاسفة أوروبا بالنسبة لهؤلاء كالبقة بالنسبة للفيل » هو الذى يقوم بشرح هذه الآيات وإيضاح بعض حقائقها) وأن القصور والمعارج المزخرفة والبرور البديعة وحطام الدنيا ، كل هذا لاحظ للإنسان فيه كامل ، والشياطين تلازم المادة ، ورحمة الرحمن تلازم العلوم والمعارف والمعانى التى لا تتغير بتغير الزمن والنفوس تعلقها بإشراق النور الإلهى عليها . ولقد زاد تعجبى ودهشتى إذ أرى سقراط يقول : « إن المعانى العقلية التى هى صور وأساس لكل ما على الأرض وغيرها من عالم المادة صنعها الله بنفسه ، والشمس جعلت رمزا لله فصنع الله للمثل العقلية بلا واسطة مثله لنا وقربه لعقولنا كون الشمس سببا ظاهريا لوجود الحوادث التى تقابل تلك المثل ، وهذا وإن كان جميلا فإنى مرتقب ما ستقولونه فى (سورة محمد) صلى الله عليه وسلم ولكن إذا أشرت إليه هنا فإنى أكون شاكرا أجل شكر

فقلت : إن حاسة اللمس تتصل بمحسوساتها وحاسة الشم كذلك ، وهكذا حاسة الذوق والسمع والبصر ، فكل واحد منها متصل بالعالم الذى يحس به ، فلا ريب أن يكون للعقل اتصال بعالم عقلى أوسع مما لا حصر له من العالم المشاهد ، وهذا البرهان الذى سأوضحه إن شاء الله هناك أقرب إلى اليقين من برهان سقراط .

فقال حسن والله لقد انشرح صدرى . فقلت: الحمد لله رب العالمين . كتب صباح يوم الخميس ٢٠ نوفمبر سنة ١٩٣٠

وبهذا تم الكلام على اللطيفة الثالثة .

اللطيفة الرابعة

(فى قوله تعالى : «ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون، إلى قوله: منها تأكلون مع قوله تعالى : وهو الذى فى السماء إله إلى قوله: وعنده علم الساعة وإليه ترجعون» مع ملاحظة نظائر هذه الآيات كقوله تعالى فى سورة الزمر : لكن الذين اتقوا ربهم إلى قوله تعالى يخرج به زرعا مختلفا ألوانه الخ)

ما أجمل العلم ، وأبهج الحكمة ، وحى نزل ، ودنيا منتظمة ، تسمو بهما العقول ، وترقى بهما النفوس الدنيا عروس زينت للناظرين ، وجنة بهجة للمفكرين ، نحن نعيش فى جو من النور . والكتاب المسطور والعلم المنشور ، فسبحان المسدى النعم ، مظهر الحكم ، بارئ النسم ، أليس من عجب أن نسمع فى القرآن وصف الجنة أنها غرف من فوقها غرف مبنية ، ثم نسمع عقبها الكلام على الماء النازل من السماء الذى جرى فى باطن الأرض فخرج ينابيع فوقها فكان النبات المختلف الألوان ، ثم أليس من أعجب العجب أن نرى فى (سورة الغاشية) مايشابه هذا إذ وصفت الجنة بأن فيها عينا جارية ، وسررا ، وأكوابا ، ونمارق ، وزرابى . ثم يعقب ذلك ذكر الإبل كيف خلقت ، والسماء كيف رفعت ، والجبال كيف نصبت ، فهنا أتبع ذكر الجنة بالماء والنبات ، وهناك أتبعت بالحيوان والسماء والجبال . فما هذا العجب ! جنة تذكر فى القرآن ويذكر عقبها هذه العوالم فيقال هناك : « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت الخ » ويقال فى آية الزمر : « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء» على سبيل الاستفهام التقريرى وهو أبلغ بما لاحد له من جمل الكلام خبرا

أليس هذا من الأسرار المكنونة والجواهر الحسنة النظام ، نعم هنا سر وأى سر ، فاعلم أن الإنسان يصبو للجمال والحب ، فالنوع الإنسانى كله يطلب الجمال والجمال مطلوب للحب ، والحب هو المقصد الأسنى لهذا الإنسان ، والأمانة التى قل فيها الحب يقل فيها الناهون المفكرون ، والحب لا يكون إلا لجمال ، والجميل ما يناسبنا ويوافقنا ، والقبيح ماينافرنا ، وكل ما يؤلمنا منافر لنا ، والموافق لنا هو الذى جملت صورته الظاهرة فى نظرنا أو صورته الباطنة بعلم أو بشجاعة أو إحسان ، وبالاختصار كل جمال يرجع لأمرين : العلم والقدرة ، فالعالم محبوب ، والشجاع محبوب ، والمحسن محبوب ، والإحسان والشجاعة يرجعان للقدرة ، والجمال الظاهرى فيه نوع من القدرة ، فأما العلم فهو معروف ، ولاجرم أن من يسمعون شجاعة عنترة العبسى أو علم الشافعى وأفلاطون وأبى حنيفة ويرون ذوى الجمال يكون حبهم على مقدار الآثار الواصلة لقلوبهم من أولئك المحبوبين

وترى الرجل فى حياته بين امرأتين : إحداهما ترضعه ، والأخرى يسكن إليها ، فالأولى أحبها من طريق الإحسان ، والثانية أحبها من طريق الشهوة والجمال ، فما أبدع القدرة ، وما أجمل الحكمة ، يعيش الناس ويموتون وهم موزعو القلوب بين عوامل لا يدرسونها ، وفى سبل لا يفهمونها ، فهم محمولون على أجنحة لم يروها ، يدارون بقوانين يجهلونها ، ويحكمون بسنن لم يسنوها .

ولا جرم أن الإحسان المذكور والجمال من نوع القوة والقدرة ، ثم إن الإنسان فيما بين المرأتين يعلمه الأستاذون ، ويؤدبه المؤدبون ، وذلك من طريق العلم ويكون حبه للاستاذ على مقدار ماعرف من حكمته وماأدرك من فطنته ، وما استفاد من خبرته ، إذن الحب موزع على إحسان الأم وجمال المرأة وعلم الأستاذ فهنا اجتمع عند أكثر الناس أصول الأسباب التى بها الجمال ، ولا جرم أن هذا تمرين على إدراك الجمال الأسنى.

واعلم أن الإنسان مع هذا كله محبوس فى هذه الأرض ، محكوم عليه بالسجن فيها ، مبعد عن

بدائع السموات وتخوم الأرضين ، بل لاقدرة له على معرفة نفس هذه الأرض التي يسكنها إذ يجهل بواطن جبالها وبحارها وأنهارها وجوها بل يجهل خواص جسمه وعجائب روحه ، ومع ذلك له نفس توافة إلى إدراك ذلك ، فهي تطوف به أعلى العلا ، وتسمو به فوق العرش وتحت الفرش ، نفس وثابة خطواتها تنتهب الفلوات وتقطع السموات مع أنها محبوسة الجسم مكبلة الروح .

نرى الرجل إذا أدخل السجن حن إلى وطنه وأهله ، وكان ألمه على مقدار ماعرف من الأهل والأصحاب وما كسب من المال الذي حرمه ، والملك الذي صرف هو عنه ، هكذا نرى نفوسنا تود لو تطير إلى أقاصي السموات أو تخترق تخوم الأرضين ، إذن هي كالمحبوس في سجنه . إذن هي كانت تتمتع عتما ما بتلك العوالم وحجزت عنها ، وإلا فلماذا هذا الحنين والغرام ، وما هذا التهافت على العوالم ، وما بالنا نراها مذ جاءت إلى هذه الأرض تقرأ علم الفلك ، وتخترع المجاهر (المناظر المعظمة) وتدرس أقدار النجوم ، وتعدها وتحسبها ، وتعد أبعادها وأدوارها وتفرح بذلك مع أنها لاطعام فيها ولاشراب ولاملك ولامال ، ونسمع أن نجمة من نجوم الجبار وهي الجوزاء قدر الشمس ٢٥ مليون مرة كما تقدم في هذا التفسير ، فنفرح بذلك فرحا شديدا ، ثم نقرأ في الكشف الحديث أن المجرة التي تشتمل على آلاف الملايين من الكواكب وشمسنا كوكب واحد منها تدور حول نفسها مرة واحدة (كما تدور أرضنا في اليوم والليلة) في مدة (٣٠٠) مليون سنة فتدهش قلوبنا وتفرح ويكون ذلك لنا سعادة وذكرى ومسرة وقد اشتركت جميع أمم الأرض في هذه العلوم وكل أمة تسابق أخرى في هذا الكشف ، ولا ريب أن ذلك كله حصل لما نظر العلماء كواكب السماء بمنظار قطره مائة بوصة ، وهاهم الآن في أمريكا يصنعون (تلسكوبا) قطره مائتا بوصة ، وهذا سيأتي بعالم يجهل به أهل الأرض من العلم قريبا .

ذلك هو طبع الإنسان ، فالعلماء يتسابقون إلى ازدياد العلم غراما وحبا أكثر من تسابق رجال الحرب في إعداد المعدات الحربية وتدمير المدن ، وهاتان الطائفتان مشتركتان في خلاص الناس من الجهل ، فالعالم بعلمه وصانع القنابل بالقتل يخرج الإنسان من هذا الجسم فيرجع إلى عالمه الروحي فيدرس على مقدار طاقته

إياك أيها الذكي أن تنكر على هذه الجملة ، فنحن الآن في مقام الجمال والحب والعجائب الإلهية ، فهذا القتل بالحرب وإن كان مذموما ومخربا للأمم ذكرناه من حيث إنا ندرس نفس الوجود ، وصانع العالم حكيم يداوي الداء بالداء ، فالناس أشبه بمن أصابه القولنج فأصيب بالحمى فكانت سببا في شفاء القولنج ، فهذا خراب للأمم ، ولكن نفس الأشخاص خرجوا من عالم الأجسام إلى عالم الأرواح ، نعم أكثرهم يخرجون ناقصين ولكن النظام نجهله « والله بكل شيء محيط » .

إذا عرفت هذا أدركت تفسير هذه الآيات وأمثالها . علم الله تعالى حبس الناس في الأرض وتشوقهم إلى الحرية التامة بانطلاق أرواحهم إلى باحاتها فأبرز لهم علمين : علما مسموعا ، وعلما معقولا . أما العلم المسموع فهو مايذكر في نحو الآيات من الغرف التي من فوقها غرف مبنية تجري من تحتها الأنهار ومن السرر المرفوعة ، والأكواب الموضوعة ، والنمارق المصفوفة ، والزرابي المبثوثة . ومثل البناء بلبنات الفضة ولبنات الذهب في الجنة ، وملاط ذلك البناء مسك ، والحصباء لؤلؤ وياقوت ، والتراب زعفران ، وأنهم لايموتون ومثل أن الخيمة من لؤلؤة مجوفة ، ومثل أن الجنة فيها مائة درجة ، والدرجة الواحدة تسع العالمين جميعا ، ومثل أن الشجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لايقطعه ، ومثل إن المرأة من أهل الجنة لوظهرت إلى أهل الأرض لأضاءت الدنيا ولملأتها ريحا ، وخمارها خير من الدنيا وما فيها . ومثل أن هناك سوق الصور يدخل فيه المؤمن فيرجع بالصورة التي يحبها ، فهذه العجائب المسموعة في الكتاب تارة والسنة أخرى ترجع إلى

الجمال وإلى القصيرة ، فالشجرة التي يسير في ظلها الراكب مائة عام ترجع للعظمة والعظمة محبوبة ، فهي ترجع القدرة كما رجعت شجاعة الشجاع إليها ، والغني محبوب لأنه يملك مالا ، وللملك قدرة ، هكذا هذه الشجرة العظيمة، والحوراء الجميلة ، والقصور البديعة ، فيها الجمال ، وفيها القدرة والعظمة مع الإحسان ، فهاهنا اجتمع الجمال والعظمة والإحسان ، وكل هذا محبوب ، فالمؤمن إما شهواني فيكون حبه لنفس الجنة ، وإما حكيم فينتقل هذا الحب لخالق الجمال ومحب الله نفسه ،وإليه الإشارة بحديث الترمذي عن ابن عمر « وأكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غدوة وعشيا » وأيضا حديث الترمذي ومسلم : « فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم تبارك وتعالى » اهـ .

لما وصلت إلى هذا المقام واطلع عليه صاحبي الذي اعتاد أن يسألني في هذا التفسير ، فقال حسن ماقلت وبديع ماوصفت، ولكني سائلك سؤالين : الأول أن هذه الأوصاف التي أسندتها للأحاديث فوق طور العقول لما هذه الشجرة التي لايقطعها الراكب في مائة سنة . إن العقل لايقبلها قبولا حسنا . والثاني أنت ذكرت أوصاف الجنة من الأحاديث فأحب أن أسمعها لأعرف رواتها حتى تطمئن النفوس للرواية ، ومن أي الكتب ولا جرم أن هذا المقام كله في الكلام على ماهو مسموع ، ومتى تم الكلام عليه نريد أن تشرح المعقول شرحا وافيا كما تشرح المسموع لأن هذا المقام جيل ، فإذا كان مستوفيا شرحه شرح الصدور . فقلت أما كون الشجرة المذكورة وأمثالها لايقبلها العقل فهذا ممنوع لأن الإمكان لاحصر له . فقال نعم هو لاحصر له ولكن الإمكان شيء وتصور الممكن وقبوله أمر آخر . فقلت : ألست تذكر الكوكب الذي ذكرت لك أنه قدر الشمس (٢٥) مليون مرة . فقال : بماذا يفيدني هذا . فقلت : هو شمس ، قال نعم . فقلت : إذا قسناها على شمسنا كان لها سيارات . قال نعم . قلت : وأرضنا حول شمسنا ليست أكبر كوكب . قال نعم . قلت : وشجرها تعرفه . ولا جرم أن السيار يكبر بنسبة شمسه ، فلو أن أرضنا كبرت بالنسبة لكبر الشمس (٢٥) مليون مرة لكانت أشجارها أكبر من حالها الآن (٢٥) مليون مرة ، وأكبر شجرة في أرضنا إذا كبرت (٢٥) مليون مرة احتجنا في قطعها إلى عشرات السنين ، فاذا تذكرنا كوكبا آخر حول الشمس كالمشترى زادت شجراته أضعافا مضاعفة ، ألا ترى أن المشترى الذي هو أكبر السيارات حول الشمس حجمه قدر حجم الأولى (١٣٠٠) مرة، فاذا جعلنا أكبر شجرة فيه أكبر من أكبر شجرة في أرضنا (١٣٠٠) مرة ، وجرى الفارس تحت أكبر شجرة أرضية في زمان ما ، وكبرت شجرة المشترى (١٣٠٠) مرة ثم ضربنا هذه في ٢٥ مليونا فيكون سير الفارس تحتها في سنين كثيرة .

وإذا وجدنا اليوم كوكبا أكبر من الشمس (٢٥) مليون مرة، فنحن قريبا سنسمع عن كواكب أعظم وعليه تصبح الشجرة المذكورة في الحديث من أصغر الأشجار ، بل إذا تذكرنا أن ذلك الكوكب الذي هو أكبر من الشمس (٢٥) مليون مرة فيه مواضع مسكونة ، كما أن أرضنا فيها مواضع مسكونة لا كلها كانت الشجرة التي فيها لايقطعها الفارس في ألف سنة لافي مائة فقط ، إذن العلم الحديث اليوم فتح بابا لتصور عقولنا عظمة الله وعظمة الملك ، وإذا كانت العوالم المحسوسة التي ليست بجنة هذه عظمتها وقد وجدنا فيها هذه العظمة فما بالك بعوالم الجنة .

هذا ماأقول لك أيها الذكي جوابا على سؤالك الأول وهو أنك تستبعد ماجاء في وصف الجنات ، أما السؤال الثاني وهو أنك تريد أن تسمع نفس الأحاديث بأسانيدها ، فهاك ماجاء في كتاب (تيسير الوصول لجامع الأصول) من المجلد الثالث في صحيفة ٢٣٥ ومابعدها وهذا نصه :

ذكر الجنة والنار

فيه فصلان

الفصل الأول : فى صفتهما

(ذكر صفة الجنة)

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قال الله تعالى : أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . قال أبو هريرة اقرءوا إن شئتم : فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين » أخرجه الشيخان والترمذى ، وزاد البخارى فى أخرى عن سهل بن سعد وذكر مثله ، ثم قال ، وقال محمد بن كعب : إنهم أخفوا لله عملا فأخفى لهم ثوابا فلو قدموا عليه أقر تلك الأعين ، وعنه رضى الله عنه ، قال : قلت يارسول الله مم خلق الخلق ؟ قال من الماء . قلت الجنة ما بناؤها ؟ قال لبنة فضة ولبنة ذهب وملاطها المسك الأذفر وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت وترابها الزعفران من يدخلها ينعم ولا يبأس ، ويخلد ولا يموت ، ولا تبلى ثيابهم ، ولا يفنى شبابهم . ثم قال وثلاثة لا ترد دعوتهم الإمام العادل والصائم حتى يفطر ، ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام ، وتفتح لها أبواب السماء ، ويقول الله تعالى وعزتى لأنصرنك ولو بعد حين » أخرجه الترمذى (الملاط) الطين الذى يجعل فوق ساق البناء يملط به الحائط أى يصلح ، وبئس يبأس : إذا افتقر واشتدت حاجته .

وعن أبى موسى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن » أخرجه الشيخان والترمذى ، وفى رواية لهم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « فى الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة ، وفى رواية عرضها ستون ميلا ، فى كل زاوية منها أهل لا يرون الآخرين يطوف عليهم المؤمن » . وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « فى الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين مائة عام » (أخرجه الترمذى) وعن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الجنة مائة درجة ما بين كل درجة ودرجة كما بين السماء والأرض ، والفردوس أعلاها درجة ومنها تفجر أنهار الجنة الأربعة ، ومن فوقها عرش الرحمن ، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس » (أخرجه الترمذى) وعن أبى سعيد رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن فى الجنة مائة درجة لو أن العالمين اجتمعوا فى إحداهن لوسعتهم » أخرجه الترمذى .

وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها ، اقرءوا إن شئتم وظل ممدود » أخرجه الترمذى . وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما فى الجنة شجرة إلا وساقها من ذهب » (أخرجه الترمذى) ،

وعنه رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لقاب قوس فى الجنة خير مما طلعت عليه الشمس أو تغرب » أخرجه الشيخان . وزاد الترمذى عن أنس فى أخرى « ولقاب قوس أحدكم أو موضع قده فى الجنة خير من الدنيا وما فيها ، ولو أن امرأة من أهل الجنة اطلعت إلى أهل الأرض لأضاءت الدنيا وما فيها ولملأت ما بينهما ريحا ولنصيفها يعنى الخمار خير من الدنيا وما فيها » (قاب القوس : قدره) قدرم .

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لو أن ما يقل ظفر مما في الجنة بدا لتزخرفت له خوافق السموات والأرض، ولو أن رجلا من أهل الجنة اطلع فبدا سواره لطمس ضوء الشمس كما تطمس الشمس ضوء النجوم» (أخرجه الترمذي) قوله (الزخرفة) الزينة والزخرف (الذهب) وخوافق السماء جوانبها الأربعة وهي جهات الرياح الأربع.

وعن أنس رضي الله عنه. قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «رفعت إلى سدرة المنتهى فإذا أربعة أنهار نهران ظاهران ونهران باطنان. فأما الظاهران فالنيل والفرات. وأما الباطنان فنهران في الجنة» أخرجه البخاري.

وعن بريدة رضي الله عنه قال: «سأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: هل في الجنة خيل؟ قال إن الله أدخلك الجنة فلا تشاء أن تحمل فيها على فرس من ياقوتة حمراء تطير بك في الجنة حيث شئت إلا كان. فقال آخر: هل في الجنة من إبل؟ قال إن يدخلك الله الجنة يكن لك فيها ما اشتهت نفسك ولذت عينك» (أخرجه الترمذي).

وعن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن في الجنة لمجتمعا للحور العين يغنين بأصوات لم يسمع الخلائق بمثلها، يقلن: نحن الخالدات فلا نبيد، ونحن الناعمات فلا نبأس، ونحن الراضيات فلا نسخط، طوبى لمن كان لنا وكنا له» (أخرجه الترمذي).

قوله (الحور) جمع حوراء، وهي الشديدة بياض العين الشديدة سوادها (والعيناء) واحدة العين وهي الواسعة العين، وقوله لا نبيد: أي لا نهلك ولا نتلف.

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن في الجنة لسوقا يأتونها كل جمعة فتهب ريح الشمال فتحثوا في ثيابهم ووجوههم فيزدادوا[1] حسنا وجمالا، فيرجعون إلى أهليهم وقد ازدادوا حسنا وجمالا فيقول أهلوهم: والله لقد ازددتم حسنا بعدنا وجمالا، فيقولون: وأنتم والله لقد ازددتم بعدنا حسنا وجمالا» (أخرجه مسلم).

وعن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن في الجنة لسوقا ما فيها شراء ولا بيع إلا الصور من الرجال والنساء، فإذا اشتهى الرجل صورة دخل فيها» (أخرجه الترمذي) انتهى الفصل الأول

الفصل الثاني

(في ذكر أهل الجنة)

عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف كما تتراءون الكوكب في السماء» (أخرجه الشيخان).

وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف كما تتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق إلى المغرب لتفاضل ما بينهم، قالوا يا رسول الله: تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم، قال: بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين» (أخرجه الشيخان). وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، ثم الذين يلونهم على أشد كوكب دري في السماء إضاءة. لا يبولون

(١) هكذا في النسخ ولعله «فيزدادون».

ولا يتغوطون ولا يتفلون ولا يمتخطون أمشاطهم الذهب ورشحهم المسك ، ومجامرهم الألوة[1] الألنجوج[2] عود الطيب ، أزواجهم الحور العين على خلق رجل واحد على صورة أبيهم آدم ستون ذراعا فى السماء » (أخرجه الشيخان والترمذى) قوله الألوة ، والألنجوج من أسماء العود الذى يتبخر به ، ومن أسمائه الكباء[3] .

وعن جابر رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ولا يتفلون ولا يبولون ولا يتغوطون ولا يمتخطون ، قيل فما بال الطعام . قال جشاء ورشح كرشح المسك يلهمون التسبيح والتحميد كما تلهمون النفس » (أخرجه مسلم وأبو داود)

وعن الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من مات من أهل الجنة من صغير أو كبير يدخلون الجنة بنى ثلاثين لا يزيدون عليها أبدا . وكذلك أهل النار » (أخرجه الترمذى) .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أهل الجنة جرد مرد كحل لا يفنى شبابهم ولا تبلى ثيابهم » أخرجه الترمذى .

وزاد فى رواية : « عليهم التيجان ، وإن لؤلؤة منها لتضىء ما بين المشرق والمغرب » . قوله الجرد جمع أجرد وهو الذى لاشعر عليه ، والكحيل هو الذى ترى أجفانه كأنها مكحولة من غير كحل .

وعن أبى رزين رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يكون لأهل الجنة ولد » (أخرجه الترمذى) .

وزاد فى رواية عن الخدرى : « إن اشتهى الولد كان حمله ووضعه وسنه فى ساعة واحدة » قال بعضهم ولكن لا يشتهى .

وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يعطى المؤمن فى الجنة قوة كذا وكذا من الجماع . قيل يارسول الله أو يطيق ذلك . قال يعطى قوة مائة » (أخرجه الترمذى) .

وعن الخدرى رضى الله عنه . قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة يتكفؤها الجبار بيده كما يتكفؤ أحدكم خبزته فى السفر نزلا لأهل الجنة . فأتى رجل من اليهود فقال بارك الرحمن عليك يا أبا القاسم ، ألا أخبرك بنزل أهل الجنة يوم القيامة ، قال بلى . قال تكون الأرض خبزة واحدة كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . فنظر النبى صلى الله عليه وسلم إلينا ثم ضحك حتى بدت نواجذه ثم قال ألا أخبرك بإدامهم . قال بلى قال بالام ونون . قال وما هذا ؟ قال ثور ونون يأكل من زائدة كبدهما سبعون ألفا » (أخرجه الشيخان) قوله يتكفؤها أى يقلبها ويميلها ، والجبار من أسماء الله تعالى ، والنزل ما يعد للضيف من طعام وشراب ، والنواجذ الأنياب ، وبالام الثور كما فسره فى متن الحديث ، ولعل اللفظة عبرانية ، والنون الحوت وهو عربى .

وعن الخدرى رضى الله عنه . قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أدنى أهل الجنة منزلة الذى له ثمانون ألف خادم ، واثنان وسبعون زوجة ، وتنصب له قبة من لؤلؤ وزبرجد وياقوت كما بين الجابية إلى صنعاء » (أخرجه الترمذى) . وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر إلى جنانه وأزواجه وخدمه ونعيمه وسرره مسيرة ألف عام ، وأكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غدوة وعشية . ثم قرأ صلى الله عليه وسلم : وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة » (أخرجه الترمذى) .

---

(١) بضم الهمزة . (٢) بفتح النون . (٣) ككتاب .

وعن المغيرة بن شعبة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « سأل موسى عليه السلام ربه تعالى : ما أدنى أهل الجنة منزلة ؟ قال هو رجل يجيء بعد ما أدخل أهل الجنة الجنة ، فيقال له : ادخل الجنة فيقول : أى رب وكيف ؟ وقد نزل الناس منازلهم ، وأخذوا أخذاتهم ، فيقال : أما ترضى أن يكون لك مثل ملك[1] ملك[2] من ملوك الدنيا ، فيقول: رب رضيت ، فيقول لك ذلك ومثله ومثله ومثله ومثله ، فيقول فى الخامسة : رضيت رب ، فيقول . هذا لك وعشرة أمثاله ، ولك ما اشتهت نفسك ، ولذت عينك ، فيقول : رب رضيت ، قال : فأعلاهم منزلة ، قال أولئك الذين أردت ، غرست كرامتهم بيدى وختمت عليها فلم تر عين ، ولم تسمع أذن ، ولم يخطر على قلب بشر » (أخرجه مسلم والترمذى).

. وقوله أخذوا أخذاتهم أى نزلوا منازلهم المختصة بهم .

وعن الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقول الله عز وجل لأهل الجنة : يا أهل الجنة ، فيقولون لبيك ربنا وسعديك ، والخير فى يديك ، فيقول : هل رضيتم ، فيقولون : ومالنا لا نرضى يا ربنا ، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك ، فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون : وأى شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبدا » (أخرجه الشيخان والترمذى) .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « عرض على أول ثلاثة يدخلون الجنة شهيد ، وعفيف متعفف ، وعبد أحسن عبادة الله ونصح لمواليه » (أخرجه الترمذى) .

وعن حارثة بن وهب رضى الله عنه . قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا أخبركم بأهل الجنة ، قالوا بلى يا رسول الله ، قال : كل ضعيف متضعف لو أقسم على الله لأبره ، ألا أخبركم بأهل النار كل عتل جواظ مستكبر » (أخرجه الشيخان) .

ولأبى داود من رواية حارثة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يدخل الجنة الجواظ ولا الجعظرى » . قال والجواظ الغليظ الفظ . قال الجواظ المنوع ، وقيل السمين المختال فى مشيته ، وقيل القصير البطين ، والجعظرى الفظ الغليظ والله أعلم اهـ .

رؤية الله تعالى

عن جرير بن عبد الله رضى الله عنه . قال : « نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى القمر ليلة البدر ، فقال إنكم سترون ربكم عيانا كما ترون هذا القمر لا تضامون فى رؤيته ، فان استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا ، ثم قرأ : وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب » أخرجه الخمسة إلا النسائى .

وعن صهيب رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تعالى تريدون شيئا أزيدكم ؟ فيقولون : ألم تبيض وجوهنا ، ألم تدخلنا الجنة ، ألم تنجنا من النار . قال فيكشف

(١) بضم فسكون . (٢) بفتح فكسر .

الحجاب فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم تبارك وتعالى ، ثم تلا هذه الآية : « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة » أخرجه مسلم والترمذى .

وعن أبى ذر رضى الله عنه قال : «سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم هل رأيت ربك تعالى قال نور أنى أراه» (أخرجه مسلم والترمذى) .

وعن مسروق قال « قلت لعائشة رضى الله عنها : يا أمتاه هل رأى محمد صلى الله عليه وسلم ربه ؟ فقالت : لقد قف شعرى مما قلت . أين أنت من ثلاث من حدثكهن فقد كذب : من حدثك أن محمدا رأى ربه فقد كذب ، ثم قرأت « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار » ومن حدثك أنه يعلم ما فى غد فقد كذب ، ثم قرأت « وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا » ، ومن حدثك أنه كتم شيئا من الوحى فقد كذب ثم قرأت « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك » الآية ولكنه رأى جبريل فى صورته مرتين » (أخرجه الشيخان والترمذى) انتهى الفصل الثانى ، وبهذا تم الكلام على العلم المسموع من الكتاب والسنة .

الكلام على العلم المعقول

لقد عرفت أيها الذكى العلوم المسموعة فى هذا المقام من الكتاب والسنة ، وأدركت أن العلوم التى ملأت الدنيا كلها إلا بلاد الإسلام قربت لنا تصور النبوة المحمدية وأصبحنا نشاهد نجوما أقدارها قربت لعقولنا تلك الصور الجمية فى الجنة ، فهاك أحدثك حديثا عجبا فى القرآن نفسه وفى الدنيا : تقدم فى هذا المقال أنى ذكرت لك أن آيات النبات والماء فى هذه السورة ذكرت عقب ذكر الجنة ، وآيات الإبل والسماء والجبال فى سورة الغاشية ذكرت بعد ذكر الجنة ، فما الحكمة فى ذلك يا ترى ؟ الحكمة فى ذلك أوضحتها العلوم التى فى هذا التفسير ، اللهم إنى أحمدك حمدا كثيرا ، أحمدك على نعم العلم ونعم الحكمة ، وهل كان يدور بخلدى أيام شبابى وأنا جاهل جد جاهل ، ألتمس العلم فى النهر وفى الحقل وفى النجم ، إننا سنصل الآن إلى أبدع الجمال فى هذا التفسير ، وإننا ندرك جنة تتمتع بها عقولنا ونحن أحياء فى الدنيا قبل أن نموت ونرى الجنة الموصوفة فى الأحاديث الشريفة ، بل هل كان يخطر لى أن السعادة الحقيقية فى جنات العلوم والمعارف التى ندركها فى هذه الحياة ، وأنه لولا نكبات الحياة ومصائبها لكان حبنا الآن آخذا بقوانا وعقولنا ولعلمنا أن حب الولد لأمه ، وحب الشاب لمن أغرم بجمالها فتزوجها ليس شيئا مذكورا بالنسبة للحب الذى يترتب على الجمال العلمى والحب العظيم هو الذى يذهب الحزن والغم ويجعل النفس فى السعادة التى لاسعادة فوقها ، ولكن هذا الحب الآن مخبوء عند العلماء ، ويحسون به فى أوقات قليلة ثم تغلب عليهم أحوال هذه الأرض وعوارضها رحمة بهم ليزدادوا علما .

أقول : فهل كان يخطر لى زمن الشباب أن عقولنا فيها حساب الجذر والتربيع ، وأن نفس الجذر والتربيع الجليلين عند عقولنا نراهما فى نفس المادة كما تراه فى (سورة الرعد) عند آية « وكل شىء عنده بمقدار » وفى مواضع أخرى هناك إذ تبين أن الضوء والجاذبية جرى حسابهما على الجذر والتربيع ، وترى الحجر إذا قذفناه فى البئر جرى بسرعة على تلك القاعدة فلا خطأ فيها ، وهذا أمر عجب أن تكون هذه الأحوال الطبيعية على هذا القانون العجيب ، أو كان عقلى يتصور أن النمل حجرات منظمات كحجرات فى أعظم قلعة ، وأن لكل حجرة سكانا ، فنهم الجند ، ومنهم الأعشار وهكذا (انظر ذلك كله فى سورة طه وسورة النمل مرسوما)

أم كان يخيل لي وأنا في الشباب أن يكون بعض الطيور خياطا، ومنها حائك ، وبعض الدود يغزل ، وبعض الزنابير يصنع الورق ، وأن الملك يعرف أحوال الطقس ، وأن النحل مهندس ، وأن اللقلق يحكم بالمشاورة ، وأن الكلب يعرف تعاطي المسهلات في الطب ، وأن الخنزير يحرث الأرض ، وأن العلق في بطن الأرض يبلغ في الفدان الواحد آلافا وهو ينفع لتسميدها وحرثها قبل أن يحرثها الإنسان ، وأن السرطان مرحا ، أقول . هل كانت هذه العجائب تدور بخلدي وأنا أطوف على شواطئ الأنهار وفي الحقول أتحسس الحقائق . أم كان يختلج بفكري أن فأر الجبل يبني بناء متقنا ، ويحفر أقنية ليجري الماء فيها حتى قلده الإنسان ، إن أكثر ماذكرته هنا ملخص مما تقدم في (سورة طه) وأزيد مسألة حفر الخنادق إيضاحا هنا مما جاء في إحدى المجلات العلمية ، فقد جاء فيها تحت العنوان الآتي مانصه :

عجائب المخلوقات

الحيوانات التي تحفر الخنادق

إن حفر الخنادق خاصة يشترك فيها كثير من الحيوانات على اختلاف درجاتها من أحط الأنواع إلى أرقاها ففي ذوات الثدي منها عدة أمثلة على ذلك ، وأشهر الأنواع من هذا القبيل (الخلد) وهذه صورته (انظر شكل ٢١) .



(شكل ٢١ — خلد في حفرته وعلى يمين الصورة هيكل يده التي يحفر بها خنادقه)

وقد منح الله هذا الحيوان يدين مسلحتين بأظافر قوية تمكنه من حفر الأرض بسرعة عظيمة جدا ، حتى أنك لو أخرجت خلدا من حفرته ووضعته على سطح الأرض وجدت أنه بعد هنيهة وجيزة جدا قد احتفر حفرة واختفى عن بصرك ، ولا يكتفي هذا الحيوان بحفر نفق بسيط تحت الأرض بل هو يتفنن في عمله هذا ويشعب من نفقه الأصلي أنفاقا في غاية البساطة ، ثم إن الخلد يحفر أخرى عديدة على شكل غريب تدمجانها صفوف الخنادق والأنفاق التي يحفرها الجنود في ساحات في غاية البساطة ثم فضلا عن هذه الأنفاق غرفة مستديرة يجعلها مركزا لحالته العادي ، ويبلغ قطر هذين ثماني وعشر سنتيمترات ، ويحفر حول هذه الغرفة المستديرة نفقين بشكل دائرتين الواحدة على مستوى الغرفة والثانية فوقه ، والغرفة متصلة بهذين النفقين بواسطة عدة ممار حتى يجد لنفسه منفذا من أي جهة يداهمه الخطر ، وفي داخل الغرفة شبه سرير من الأوراق والقش لينام عليه الخلد ، والثعلب أيضا يقضي جزءا من حياته داخل الأرض لاسيما في النهار ، وهو في الغالب يستولي على حفرة حيوان آخر بدلا من أن يحفر حفرة خاصة به ، وحفرته عبارة عن ردهات عميقة تنتهي جميعها في غرفة كبيرة لا يقل عمقها عن ثلاثة أمتار ، وهذه الردهات ، متصلة بعضها مع بعض بممار عديدة .

وأشد ذوات الثدي مهارة في حفر الخنادق وأكثرها توسعا فيها حيوان بين ابن عرس والدب فاتح اللون في الأعلى وقاتمه في الأسفل يسمى عناق الأرض الغفه وهو من الحيوانات الليلية ويصرف الشتاء نوما ،

له براثن قوية يحفر بها الأرض بسرعة غريبة ، وكيفية ذلك أنه ينبش الأرض بيديه القويتين ، فاذا تراكم التراب استعمل يديه الخلفيتين لدفعه إلى الوراء ، ثم يرجع إلى خلف بين آن وآخر ، ويجر بجسمه التراب المتراكم إلى خارج الحفرة . ولنفق هذا الحيوان أبواب عديدة يبعد الواحد عن الآخر نحو ٣٠ قدما وكل نفق من أنفاقه يبلغ طوله بين السبعة والعشرة أمتار وتنتهي في غرفة كبيرة على عمق متر أو مترين تحت الأرض يجعلها مقره العادى .

هذه بعض الأمثلة من الحيوانات الثديية التى تحتفر الأرض ، وهناك أمثلة أخرى كثيرة يضيق عن ذكرها المقام ، والأغرب من ذلك أن بعض الطيور (والطيور عشيقة الهواء الطلق عادة) تحفر مثل هذه الأنفاق والحفر ، ففى أنواع الطيور الخطاف نوع يحفر أنفاقا على شاطىء البحر يبلغ طولها مترا ونصف متر ويضع عشه فى داخلها ، ولاشك أن مثل هذا الأمر من الغرابة بمكان ، لاسيما إذا أمعنا النظر فى تركيب هذا الطير ونحافة جسمه ، وهناك طائر آخر يسميه الأسبان (البناء الصغير) يضع وكره فى حفرة عميقة طولها متران أو أكثر ، ومثله طير أزرق صغير يسمى عند الفرنسيين (الخطاف الصياد) يصطادونه من البحيرات حيث يعيش فى وكر له منفذان .

أما فى عالم الحشرات فان مهارة بعض العناكب فى حفر الأنفاق غريبة جدا يقف عندها المرء وقدأخذت منه الدهشة كل مأخذ ، وهى على أنواع تحفر أنفاقا ودهاليز مختلفة ، ومن أغرب أنواع العناكب نوع يبنى وكرا غريبا فى هندسته وهو عبارة عن حفرة عميقة مبطنة بنسيج حريرى خشية أن تهبط جدرانها ، وفوقها باب يقى من المطر ومن الضيوف الثقلاء ، وهذا النوع ينتخب عادة لحفرته مكانا محوطا بالحشائش حتى لايظهر بيته للعادى والرائح ، أما الباب فانه جميل الهندسة كامل الصورة يشبه الأبواب التى تقفل وحدها بزنبلك لمرونة مفاصله ، ولهذه العناكب مقدرة كبيرة للدفاع عن أوكارها ، فاذا سعى أحد فى فتح الباب تشبثت به العنكبوت من الداخل حتى إنه يلزم قوة كبيرة لفتحه .

وهناك حشرات أخرى كثيرة ، منها نوع من الجنادب نشرنا صورته هنا وهو يقطع جذور الشجر والنبات ويتغذى منها (انظر شكل ٢٢) ولا ينبغى أن يبرح من ذهننا مهارة النمل فى هذا الفن فانها أشهر من أن تحتاج إلى التذكير .



(شكل ٢٢ — نوع من الجنادب فى حفرته يقطع جذور الأشجار)

قوة الحشرات

إذا درسنا قوة الحيوانات بالنسبة إلى حجم جسمها وجدنا أن الإنسان من أضعفها وأخفها ، فان الجعل أو البطلينوس مثلا يحمل ثقل ٣٧ رطلا ، ومن السرطان أنواع يحمل الواحد منها ٤٩٢ مرة وزنه وعلى هذا المعدل كان يجب أن يحمل الإنسان المعتدل الجسم ٧٣٨٠٠ رطل .

وفي مقدمة الذين درسوا مقدرة الحشرات على حمل الأثقال (فليكس فلاتو) العالم البلجيكي ، ومما قاله إن حمل الذبابة لعود كبريت صغير بأرجلها يعادل رفع الإنسان برجله لعمود خشب طوله ١٤ قدما ومساحته عند قطعه عموديا قدمان و٠٫٦ بوصات مربعة .

ومن البق نوع يجر ست عيدان كبريت وهي تعادل للرجل (٣٣٠) عمودا من الخشب بحجمه ، وطريقة العالم المتقدم في درس قوة الحشرات أنه يربطها إلى ميزان دقيق ثم يخزها فحالما تمشي تتحرك عقرب متصلة بالميزان فتدل على قوة تلك الحشرة . انتهى ما أردته من مجلة الهلال والحمد لله رب العالمين .

هذه بعض العجائب التي عرفها عقل الإنسان وملىء بها هذا التفسير . وهناك عجائب وعجائب في سورة المؤمنين عند آية « وما كنا عن الخلق غافلين » من تلك الحشرات والحيوانات التي كان حفظها بسبب مشاكلتها لما حولها . وهي مرسومة هناك مصورة . وكذلك ترى في سورة الفرقان كيف كان للعنكبوت جهاز لغزله ظاهر واضح . وكيف كان لبعض الحشرات جهاز أشبه بجهاز الطبيب الذي به يضع الحقنة في جسم المريض ؛ وهذا الجهاز يملأ سما بهيئة عجيبة . وكيف كان للحشرات آلات للحرب وآلات لجلب النفعة تراها موضحة هناك مرسومة ، وهكذا في (سورة النمل) من عجائبه ومزارعه المنظمة المتقنة . وكذلك دابة الأرض المصورة المرسومة في (سورة سبأ) وهكذا ترى في أول الروم عجائب الحشرات وألوانها التي خلقت لحفظها وحفظ ماماثلها اقتصادا في الخلقة وإبداعا في النظام ، وهكذا ترى في سورة السجدة بعد سورة لقمان كيف كان نظام النخل من داخله غير نظام الأشجار وحكمة ذلك . ثم ترى في (سورة يس) عند آية « سبحان الذي خلق الأزواج كلها » تلك الأوراق المرسومة التي كونت من حجرات منظمات ذوات سوائل فيها المادة الخضراء . وكيف كان ذلك سببا في أن الأوراق تجتذب المادة الكربونية المغذية لها من الهواء . وكيف كانت الورقة قد تتسع لآلاف وآلاف في آلاف من هذه الحجرات الدقيقة الصنع . هذا من عجائب النبات وغيره من عجائب الحيوان يفهمنا لماذا يذكر الله في (سورة الغاشية) الإبل ونحوها بعد ذكر الجنة . ولماذا يذكر الماء والنبات في هذه السورة بعد ذكرها أيضا ليفتح لنا باب التفكر في العجائب لنفرح بمعانيها في هذه الحياة ونرى حقائق الجمال . وبهذا ندرك لماذا يقول الإمام الغزالي فيما قلناه في (سورة فاطر) : إن السعادة في معرفة العجائب وهؤلاء هم الذين يرون ربهم أكثر من غيرهم ، ونفهم قول (إخوان الصفاء) فيما قدمناه في أول سورة الصافات . «إن معرفة العجائب جزاء الحسنين» اهـ

فلما كتبت ذلك قال صاحبي : هذا جميل جد جميل . ولكني أريد أن تشرح لي جملة لم أفهمها؟ فقلت وماهي ؟ فقال : لقد ذكرت الجذر والتربيع المتقدم في (سورة الرعد) وأنا الآن أريد مثالا واحدا تراه فطرنا بعلم الحساب ونرى له نظيرا في علم النبات مثلا حتى يكون ذلك نبراسا نعرف به ملاءمة فطرنا لهذه العوالم من حيث الحساب وان تقدم من هذا كثير ولكنها ذكرى والذكرى تنفع المؤمنين .

قلت : انظر هذا العدد ٣٧ فهذا العدد إذا قسمنا عليه عدد ١١١ كان الخارج ٣ وإذا قسمنا عليه

٢٢٢ كان الخارج ٦ أو قسمنا عليه ٣٣٣ يكون الخارج ٩ أو قسمنا عليه ٤٤٤ كان الباقي ١٢ أو قسمنا عليه ٥٥٥ كان الخارج ١٥ أو قسمنا عليه ٦٦٦ كان الخارج ١٨ أو قسمنا عليه ٧٧٧ كان الخارج ٢١ .

فقال صاحبي : هذا عجب حقا ! لأن ضرب ٢١ في ٣٧ يساوي ٧٧٧ وهكذا البواقي . عجب إذن الخارج يكون مساويا لجمع المقسوم فهو ٣ في الأولى و ٦ في الثانية و ٩ في الثالثة وهكذا . فقلت له : لقد فهمت ، فهذه الأعداد من واحد إلى ٩ إذا قسمت على ٣٧ كانت بهذه المثابة فهذه المسألة في عقولنا عجيبة يدهش العقل لها وتطرب النفس ، فإذا رأينا أن العناصر مرتبة ترتيبا أبدع وأجمل من هذا فانظره في سورة العنكبوت ولها حساب مبني على المتوالية الهندسية والنسبة العددية بحيث يكون العنصر مع مافوقه وما تحته جاريا على النسبة الهندسية ٢ - ٤ - ٨ - ١٦ ويكون مع ماقبله ومابعده جاريا على المتوالية العددية ٢ - ٤ - ٦ وهكذا إذا رأينا ماتركب من العناصر له أمثال هذا ونظائره فإننا ندخل إذ ذاك في جنة العرفان التي لاحد لها ولعلك تتذكر ماتقدم في (سورة الحجر) عند قوله تعالى « وأنبتنا فيها من كل شيء موزون » وتتذكر صور أنواع من النبات ونسبة عدد الدوائر الحلزونية إلى عدد أوراق تلك الدوائر وملاحظة المناسبات المدهشة بين النبات الواحد وما قبله وما بعده في صفه الأفقي وفي صفه الرأسي ، وأن الأوراق في جميع الأشجار بينها نسب مدهشة يحار العقل فيها « فتبارك الله أحسن الخالقين » .

ها أنت ذا أيها الذكي قرأت الجمال المسموع ، وأدركت المعقول ، ووازنت بينهما : أفلا يكون ذلك حصنا لبصيرتك تلجأ إليه ، وملجأ يحفظك ، وملاذا وسعادة ؛ أولا تتذكر معي ماقلته في أول هذا المقال من أن الرجل بين امرأتين إحداهما ترضعه ، والأخرى يسكن إليها . ولا جرم أن الأم والزوجة كلاهما مخلوقتان مسخرتان لحياة تنقضي سريعا ؛ فالرحمة في الأولى ، والشهوة في الثانية وضعتا فيهما لغاية نافعة وهي المحافظة على حياة المولود وعلى نظام الأسرة ، ورباط الزوجية ، وحسن المعاشرة . فهما إذن محدودتان ، والمحدود لايصلح للدوام وإنما يصلح للدوام ما كان من العناية الدائمة رأسا ، وهل ذلك غير العلم بالعجائب ، إذن ظهر لنا السر في آية « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة » عبر بأننا نسكن إليها ، وقال في سورة أخرى « ألا بذكر الله تطمئن القلوب » فالإنسان قد يسكن في منزله وهو غير آمن ولا مطمئن ونهاية السعادة السلامة من المخاوف ، ولذلك نسمع الله تعالى يقول « تحيتهم يوم يلقونه سلام » وجاء في القرآن أيضا « الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن » إذن التعبير بالسكون إلى الزوجة غير التعبير بالاطمئنان بذكر الله ، فالإنسان يكدح ويجد في حقله أو عمارته أو صناعته أو سياسته ويحتمل ما يحتمل من النصب والتعب والألم . فلابد له من وقت فيه يتخلى عن هذه الأعمال والهموم لتستجم قواه . وهل هذا إلا الائتناس بالزوجة والراحة معها ؛ ولكن هذه الراحة غير تامة « إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم » .

وأيضا الإنسان وإن سكن إلى زوجته من هموم الأعمال النهارية . فليس ذلك السكون تاما من كل وجه فهل في قدرتها أن تحل له مشكلات هذا الوجود والمسائل المشكلة ، كأن تحدثه نفسه بأن الحياة شاقة ، والدنيا كلها هموم وأحزان . فلم خلق هذا العالم ؟ ولم كثر الظلم فيه ؟ ولم كثر المرض والحرب ؟ ولم تأكل الحيوانات بعضها بعضا ؟ ولم يعذبنا الله وهو قادر على كل شيء ، بل أعمالنا كلها هو الذي قدرها ؟ فهذه الشكوك والأوهام لاطاقة للمرأة بحلها . فهذا هو بعض السر في التعبير بالسكون إلى الزوجة دون الاطمئنان وفي التعبير بالاطمئنان بذكر الله وعدم الاقتصار على السكون « وبعبارة أخرى » إن قراءة العلوم والعجائب مثل التي في هذا التفسير تورث الاطمئنان وسكون النفس لامجرد سكونها إلى الزوجة بل تسكن إلى الحقائق وتطمئن

فلما سمع صاحبي هذا . قال الحمد لله رب العالمين ، أما الآن عرفت سر ذكر النبات والحيوان بعد ذكر الجنة ، وعرفت الجنة الحسية الجميلة ، والجنة العرفانية البديعة ، وأن هذه مقدمة للقاء الله ، وأن هذه الطائفة أعلى العالمين ، وهم المقربون ، فقلت الحمد لله رب العالمين ، انتهى صباح يوم الاثنين أول سبتمبر سنة ١٩٣٠ م .

الأمم الإسلامية وأسماء هذه السور من غافر إلى الحجرات

وحوادث الأيام

بسم الله الرحمن الرحيم

أكتب هذا قبيل الفجر ليلة عيد الأضحى فى عام ١٣٤٩ هجرية . وأحمد الله عز وجل أن أرانى بفضله بعض الأسباب وبعض النتائج لما أصاب أمم الإسلام من المحن والرزايا ، وما أحاط بهم من الذل ، وما حل بساحاتهم من تعذيب أمم الفرنجة لهم وظلمهم وعسفهم ، وتنكيلهم بأجسامهم وأعراضهم ، واغتصابهم ديارهم وأموالهم وأرضا لم يطئوها .

أكتب هذا وقد أصلى الطليان إخواننا الطرابلسيين منذ أيام نارا حامية ، وفتكوا بهم فتكا ذريعا وهم آمنون فى ديارهم ، وهتكوا أعراض (٧٠) أسرة وشتتوا شملهم وأخذوا (١٥) من قوادهم فى طياراتهم فألقوهم من أعلى الجو ليتسلوا بذلك وليفرحوا بما يرون من تهشيم وتكسير وموت عاجل ، وأجلوا ثمانين ألفا من الجبل الأخضر وأنزلوهم فى أرض قفراء لا أنيس بها ولا جليس ، وأخذوا منهم أناسا وضعوهم فى سلاسل من حديد ورموا بهم فى البحر فالتقطهم جنود المصريين ودفنوهم ، وأذلوا آخرين فهاموا على وجوههم فى الصحراء ، كل ذلك ذكر فى الجرائد أمس وتلى فى جلسة علنية كنت حاضرها وأرسل به احتجاج لجميع الأمم قاطبة .

دعانى ذلك أن أفكر الليلة فى أمر الأمة المحمدية الحاضرة ، وما ساقته الأقدار إليها ، وكيف نشطت المسيحية كرة أخرى لقتيل المسلمين وذبحهم وإهلاكهم وإشهارهم حروبا صليبية أخرى ، ولقد شرح الله صدرى الليلة وهدانى ووفقنى أن أكتب ماجاش بخاطرى ليكون مما ينظر فيه حكماء الإسلام بفكر ثاقب عسى أن يهتدوا لإسعاد هذه الأمم الإسلامية فى أيام حياتى وبعد موتى ، وبالله التوفيق .

كان العرب قبل الإسلام أمما متفرقة جاهلة خاطئة فأسلمت :

(١) (فغفرت) لها ذنوبها السابقة واستأنفوا حياة جديدة .

(٢) (فصلت) لهم آيات القرآن تفصيلا وعرفوا الحقائق فصار أمرهم .

(٣) (شورى) بينهم ، ثم انقلبت الشورى إلى استبداد والخلافة إلى ملك عضوض ومالوا إلى .

(٤) (زخرف) الحياة الدنيا . فهاجم أولاء أنذرهم الله البطشة الكبرى وأخذ ينتقم منهم وأرسل لهم

(٥) (الدخان) فى الجو لما جاءت الحرب الكبرى ، فإن أوروبا كلها اصطدمت فيها بالقتال ، وازدادت العداوة والبغضاء ، ولكن كانت النتيجة تقسيم بلاد الإسلام فأصبحت أمة :

(٦) (جاثية) لأمم الغرب . ولما كان من عادة الله عز وجل أن يجعل بعد الضعة رفعة ، وبعد الذل عزا ، وبعد العناء راحة ، وبعد العسر يسرا ، أخذت أمم الشرق جميعا تستعد للوثبة ، وتجد لإرجاع الوحدة ، فهاهم أولاء الأمراء الإسلاميون فى العراق وشرق الأردن ونجد والحجاز واليمن قد اصطلحت

بينهم العداوات القديمة وأحدوا يسترجعون لهم مجدا جديدا ويؤسسون هيكل لوحدة الإسلامية العربية ، ومثلهم أهل الهند والأفغان ومن نحا نحوهم ، فلا بد من جهاد هذه الأمم كلها لاسترجاع مجدها ووحدتها فقد ظهر فيهم منذرون وهداة ، ذاكرون « أخا عاد إذ أنذر قومه » .

(٧) (بالأحقاف) « وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه » ولا بد من النصر والغلبة في هذا .

(٨) (القتال) الأدبي والحربي . ثم :

(٩) (الفتح) والنصر ، ثم يكون أمم الإسلام ، بل أمم الشرق بعد ذلك أمما متضامنة إجابة لقول ربهم في سورة الحجرات « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » .

الخلافة الإسلامية

وسينظر أمراء الإسلام في هذه الحملات الصليبية التي تشنها أوروبا علينا ، ويفكرون في أمر الخلافة الإسلامية فيجدونها في العصور السالفة كانت على غير أساس ، فلذلك خر على المسلمين سقفها من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون . فياليت شعري أي خلافة كانت هذه الخلافة ، خلافة لفظية لا معنوية فأي خلافة صادقة بعد الخلفاء الراشدين ، إن هي بعدهم إلا ملك عضوض ، أخلافة الأمويين ، أم خلافة العباسيين بدمشق وبغداد ، أم خلافة الفاطميين بمصر ، أم خلافة الأمويين بالأندلس ؟ وكيف تتعدد الخلافة ، كيف يقوم مهدي وراء مهدي ، وكيف يرث الابن أباه فيها : إن إرث الخلافة إرث خاطئ فكرة جاهلية ، لقد فرق للمسلمين أحاديث موضوعة تفرقوا بها شيعا وذاق بعض بأس بعض ، واقتفوا تلك الموضوعات بالتقليد ، ونسي كثير منهم كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون .

لجنة الخلافة في الهند

ومن أمارات اقتراب أيام السعادة أن مسلمي الهند شكلوا جماعة خاصة بالخلافة لارجاع مجدها ، إن المسلمين لابد لهم من الخلافة ليرجعوا لعصر النبوة ، لنسكن على نهج أصحابه صلى الله عليه وسلم لنترك نعرة الجاهلية ، وهل يكون الخليفة إلا بالانتخاب ، ليجتمع أمراء الإسلام في زماننا أو بعده ، ولينتخبوا من بينهم أميرا هو الخليفة ، ولا يجوز أن تتعدى خلافته مدة حياته ثم بعد موته ينتخبون سواه ، بل أقول أكثر من ذلك لتكن خلافته إلى مدة معينة ، وبعد تمامها يعاد الانتخاب ، ولا مانع من إعادة انتخابه مرة أو أكثر ، فأما أن تبقى الخلافة في أمة واحدة من أمم الإسلام ، أو أسرة واحدة ، فهذا هو أس الشقاق والنزاع والخلاف والعداوة والحقد . ويجب على كل من اطلع على هذا من أهل العلم في بلاد الإسلام أن ينشره بين أمراء المسلمين ويبعثه إلى لجنة الخلافة في الهند متى كان قادرا على ذلك . وههنا يظهر معنى قوله تعالى « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ويظهر معنى « كنتم خير أمة أخرجت للناس » ويظهر معنى « إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم » ويظهر معنى « وأمرهم شورى بينهم » ويظهر معنى « وشاورهم في الأمر » . ويظهر معنى هذه الحكمة الإسلامية القديمة حكاية عن الله « اليوم أضع نسبكم وأرفع نسبي » وتظهر نتائج « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا » ونتائج « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » وتظهر آثار قوله تعالى « ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن واسألوا

الله من فضله » وآثار « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » وإذا كان المسلم محرما عليه أن يشهد زورا لأجل منفعة أبيه أو أخيه ، فأولى ثم أولى أنه يحرم عليه أن يرشح لأجل الخلافة رجلا مسلما وهناك غيره أحق منه بالخلافة ، هذا هو الحق الصراح .

أيتها الأمم الإسلامية : عار عليكم أن تشهدوا تلك المصارع والمخازي والمصائب والفضائح والجهالات المتراكمة بين العرب والعجم فى مدة ١٣ قرنا ، ثم لا تتوبون ولا أنتم تذكرون .

ألم تعلموا أيها المسلمون أن الفرنجة أيام الحروب الصليبية اتحدوا وأنتم متفرقون ، لماذا ذلك . لأنهم لهم (بابا) يجمعهم على الباطل ، فأما أنتم فقد كنتم متفرقين ، فعبد المؤمن بالبلاد الغربية كان يرى أنه خليفة (المهدى محمد بن تومرت) وهذا المهدى يجب اتباعه على جميع المسلمين ، فلما لم يعترف صلاح الدين الأيوبى فى خطابه لعبد المؤمن بأنه أمير المؤمنين رفض مساعدته وحارب صلاح الدين بمصر هو ومن معه من المسلمين الفرنجة ، وأيضا أليس من العار الذى يخزى ويخجل أن نرى الفاطميين ببلاد الغرب وبمصر هم كانوا أول من مزق الأمم الإسلامية شر ممزق ، وكان ذلك فتح باب لدخول الفرنجة فى بلاد الإسلام وهم لا يشعرون .

هذه المشاهد يجب أن يعرفها أمراء الإسلام . إن الله عز وجل جعل هذه دروسا لكم لتهتدوا بها ، ودعوا النعرات القديمة التى مزقت الجموع ، وشتت الشمل ، وأبانت الصدع ، وأعظمت الخطب ، وأذلت أمم الإسلام « أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون » .

يجب على جميع المسلمين أن يعتبروا بتاريخ الأمم الإسلامية ، دعوا أيها المسلمون تلك الشراهة والجهالة والبلاهة ، بأى كتاب ، أم بأية سنة أيها المسلمون تكون الخلافة متجرا ؟ بأى حق تكون الخلافة التى تخلف النبوة متاعا دنيويا ، الخليفة لا يجوز أن يقوم بها إلا من أحيا أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر وعثمان وعلى ، إن لم يكن على منهاج هؤلاء فلتنبذوه ، أتكون الخلافة فى حجاب كحجاب العذارى كما حصل لبعض العثمانيين والعباسيين ، لا لا ، أيها المسلمون : كفى كفى ؛ الخلافة زهد فى الدنيا وحفظها وغرام بالأمم الإسلامية ، وحب لله ، وجمع الكلمة « ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون . اعلموا أن الله يحى الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون » .

أليس مما يخجل له جبين الدهر ، وتخزى به الإنسانية كلها ، وتكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر له الجبال هدا أن يتبوأ البابا فى مكانته بروما ، وتزداد هيبته ، ويعظم نفوذه ، ويقوى جاهه ويشتد خطره ، وتقوم إيطاليا فتسبى الذرارى والنساء ، وتهتك الأعراض ، وتذل السنوسيين . كل ذلك يعلمه البابا وتحت سمعه وبصره ، والمسلمون على بكرة أبيهم لا خليفة لهم ولا زعيم : بل هم أشتات فى الأرض فو الله لم أجد أمة كهذه الأمة . كل ذلك لشرهنا وجشعنا وحبنا للمال حبا جما .

يقول كل جماعة من المسلمين : ليكن الخليفة فينا ، ولماذا هذا ؟ ليكون المال والسطوة لهم ويخضعون لهم سواهم كما فعل الأمويون والعباسيون والعثمانيون . الأدهى والأمر أن الأقباط فى ديارنا لهم (بطريرك) والمسلمون خلوا من رئيس لهم يضارعه على الأقل : وما ذلك إلا لأن القوم يجعلون رئيسهم سواء أكان بابا أو بطريرك منتخبا من بينهم . أما المسلمون فإنهم أبوا الشورى ، فلما أبوها أصبحت الخلافة تبع السيف فبنو أمية غلبوا فكانت فيهم . وبنو العباس غلبوا فكانت فيهم ، والعثمانيون غلبوا فكانت

فيهم

فهم . لا لا . كلا . أيها المسلمون: الخليفة ينتخب، والأمراء والمسلمون يكونون حوله ، والمواصلات اليوم متوفرة ، إن لم يجتمع المسلمون على خليفة ازداد ذلهم وخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لايشعرون .

أيها المسلمون : يكون ثلثمائة مليون أو أربعمائة أقل من أمة القبط بين ظهرانينا التي لاتبلغ مليونا واحدا ورئيسها الديني له السيادة على بلاد الحبشة ، أيحسن هذا بكم أيها المسلمون ؟

أيها المسلمون : أيليق بكم أن تكونوا أذل أمة في الأرض بتفرق كلمتكم وفيكم الجحاجيح الشجعان ، والصناديد والأقران ، والعلماء الأعلام ، والحكماء والبلغاء ، والخطباء الفصحاء .

هاتوا لي أيها المسلمون أمة من الأمم محرومة من رئيس ديني ، لقد أدبنا الله فأحسن تأديبنا وفعل فينا كما قال طرفة بن العبد :

لَعَمْرُكَ إِنَّ المَوْتَ مَا أَخْطَأَ الفَتَى ... لَكَالطِّوَلِ المُرْخَى وَثِنْيَاهُ بِاليَدِ

مَتَى مَا يَشَأْ يَوْمًا يَقُدْهُ لِحَتْفِهِ ... وَمَنْ يَكُ فِي أَسْرِ المَنِيَّةِ يَنْقَدِ

يقول : إن الإنسان أشبه بدابة ربطها الموت في حبل وتركها ترعى كما تشاء حتى إذا أراد انتزاع روحها قادها حالا لذلك ، فهكذا هنا العناية الإلهية شاءت أن يكون لأمم الإسلام ١٣ قرنا يتخبطون فيها في أمر الخلافة، وتبقى تبع السيف ، وليس للعقل ولا الرأي ولا للشورى نصيب، وقال في القرآن مايفيد أنه عزوجل مامنعه أن يرسل بخوارق العادات إلا أن الأولين كذبوا بها ، لم يقول الله ذلك ؟ يقول الله أنا وأنا علام الغيوب ، عاملت الأمم معاملة المختبرين الذين يقيسون الأمور بنظائرها ، وأنا لاتخفى على خافية ، فلما طغت الأمم الماضية ولم تؤمن لما رأت خوارق العادات أرسلت محمدا ﷺ وجعلت أهم معجزاته القرآن ، فإذا كان الله سبحانه وتعالى يخاطبنا بكلامه على قدر عقولنا ، وهو العليم بكل شيء ، ويقول لنا : أنا لما وجدت أن الأمم السابقة لم تبال بخوارق العادات جعلت النبوة اليوم راجعة للتفكر لا لخوارق العادات ؛ أفليس هذا معناه أننا ننظر في الأمور ونزنها ، فإذا وجدنا أسلافنا اتخذ أغلبهم الخلافة بالسيف فكان ذلك باعثا على الشقاق والافتراق ، أفليس يجدر بنا أن نقول الآن : إنك يا ربنا أدبتنا وفعلت معنا مايفعله الموت مع الناس فنحن طغينا في أمر الخلافة فأنت عاقبتنا ، وسلبت منا الملك ، وحكمت بتفريقنا جزاء تركنا الشورى ، وأريتنا أن أصغر أمم الأرض لها رئيس ديني ، ونحن (وإن كنا خير أمة أخرجت للناس) لم نقم بالحق في الخلافة ولم نعطها إلا للقاهرين ، فها نحن بالله رجعنا عن جهلنا السابق. وامتثلنا أمرك ، فليكن الخليفة هو من يصطفيه الرؤساء والأمراء في الإسلام ، هذا هو الذي يجب الآن .

اللهم إني أكتب للمسلمين ماشرحت له صدري ، اللهم إني قد حذرت وأعلنت ، وعلى كل من قرأ هذا من ذوي الرأي في أمم الإسلام أن ينشره ويفكر فيه المسلمون ؛ وما ذكرني به إلا مناسبات هذه السور لأني عجبت كيف تكون سورة الزخرف بعد سورة الشورى وتكون بعدها الدخان. وما المناسبة بين هذه السور من حيث ترتيبها . وإني أحمدك اللهم على التوفيق والتعلم وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وهو رب العرش العظيم . وإلى هنا تم الكلام على سورة الزخرف، والحمد لله رب العالمين .

تم بحمد الله وحسن توفيقه الجزء العشرون من كتاب «الجواهر» في تفسير القرآن الكريم

ويليـه : الجزء الحادي والعشرون، وأوله : تفسير سورة الدخان

فهرس

الجزء العشرين

من كتاب « الجواهر »

فى تفسير القرآن الكريم

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

—— ——

